

الدكتور فؤاد عبد العزيز

فلاجخ شهود منشئ
ولبنان وفلسطين

دكتور فؤاد عبد العزيز

للمطبوعات

لَا يَنْهَا
سُلْطَانٌ
وَلِبَّنَانَ وَفَلَسْطِينَ

ذايچ سیولیستا ولبنان و فلسطین

تأليف
الدكتور فيليب جي

الجزء الأول

ترجمة
عبدالكريم رافع
الدكتور جورج مهاد

أشرف على طبعه د. خوري
الدكتور جبرائيل جبور

دار الثقافة - بيروت



This is an authorized translation of
HISTORY OF SYRIA

BY

PHILIP K. HITTI

By permission of the author. Copyright in all countries
which are signatories to the Berne Convention

Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المسمون في اخراج هذا الكتاب

المؤلف: الدكتور فيليب حتى

ولد الدكتور فيليب حتى في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت، فنال شهادة بكالوريوس في العلم منها سنة ١٩٠٨. ثم سافر الى اميركا والتحق بجامعة كولومبيا وتال الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وأدابها سنة ١٩١٥. وعين بعد تخرجه استاذًا فيها.

وعندما انتهت الحرب العظيمى عاد الى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية، وعيّن استاذًا لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦. ثم التحق بجامعة برنسون استاذًا لتاريخ العرب اولاً، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها. وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤، حين أحيل على التقاعد. ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك، بل عين استاذًا زائراً في جامعة هارفرد. وهو الآن عضو في مجلس امناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس.

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب (المطول) وهو مترجم الى العربية ومثله تاريخ العرب الموجز، وتاريخ لبنان (المطول) وتاريخ لبنان (الموجز) وتاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، وتاريخ الشرق الادنى.

المترجم: الدكتور جورج حداد

درس في جامعة بيروت الاميركية وجامعة باريس والمهدى الشرقي في جامعة شيكاغو وشغل منصب رئيس قسم التاريخ في الجامعة السورية وهو الآن استاذ تاريخ في جامعة كاليفورنيا له عدة مؤلفات بالعربية والانجليزية عن تاريخ الحضارة في بلاد الشرق الادنى.

عبد الكريم رافق

تخرج من قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة السورية بدرجة ليسانس وكان معيناً في ذلك القسم يوم ساهم في ترجمة هذا الجزء سنة ١٩٥٨.

المراجع الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت سابقًا وهو الآن استاذ فخرى. له عدة مؤلفات في الادب العربي منها عمر ابن أبي ربيعة (في ٣ اجزاء) عصرو، وحياته، وحبه وشعره، وابن عبد ربه وعقله. وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب للمؤلف وترجمتها.

مقدمة الطبعة الأولى

ان تاريخ سوريا يفهموها الجغرافي هو من وجهة معينة تاريخ العالم المتعدد بصورة مصغرة. وهو عبارة عن مقطع بياني لتاريخ مهد حضارتنا ولجانب هام من تراثنا الروحي والفكري. واذا ما اراد الانسان ان ينصف هذا التاريخ ويعطيه ما يستحق من اهتمام فان عليه بالإضافة الى امتلاك ناحية اللغات السامية القديمة ومعرفة المدونات العربية في العصور الوسطى ان يكون مطلعاً على المراجع اليونانية الرومانية وملماً بمحقق الدراسات التركية والفارسية — وذلك عدا عن معرفة اللغات الاربية الغربية الحديثة والمأود التاريجية التي كتبت بها.

ولا يدعى المؤلف ادراك هذه الامور كلها. فقد اقتصرت دراساته على ميدان الساميات والمحضت ابحاثه ضمن نطاق الميدان العربي والاسلامي. غير انه تأثر بما رأه من وجود عدد كبير من الكتب والابحاث عن بعض مناطق سوريا او عن فترات معينة من تاريخها الطويل المتوع دون ان يكون هنالك كتاب واحد يعطي صورة شاملة متزنة لحياة البلاد كلها كوحلة منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر ولذلك وجد ما يشجعه على القيام بهذه المحاولة. ويجب ان نذكر ان فينيقي لبنان وعبراني فلسطين وعرب دمشق الذين كانوا جمعيهم مواضيع ابحاث تاريخية عميقه نسبياً لا يمكن فهمهم تماماً ما لم يعالجوا كاجزاء متكاملة من شعب سوريا الكبير وما لم يعرض تاريخهم كأساس مشترك لحضارة الشرق الادنى المعاصر.

ولقد كانت هذه المهمة بعيدة عن السهولة. وكان من مشاكلها الرئيسية الحافظة في هذا التاريخ المشعوب على ذلك الخطيب الذهبي الذي يراد بهربط الحوادث الحامة وذلك في حياة بلاد كانت عادة مرتبطة بدول اخرى او تابعة لها. وقد كان تحاوله تمجيص المعلومات المتيسرة واستخدام عناصرها الاساسية وتقسير اتصالاتها وجمع كل ذلك في قصة متسلسلة يستفيد منها الطالب والانسان المثقف كان لهذه الامور كلها نواحيها الصعبة. فإذا كانت النتيجة التي لا تدعى صفة الابتكار ولا تطمح الى ان تكون ذات صفة نهائية تكفي لسد حاجتنا اليوم الى كتاب مبسط وموطأً وصحيح يروي تاريخ شعب سوريا ولبنان وفلسطين وشرقى الاردن ويمكن استخدامه كأساس عام لنفهم المشاكل المعقّدة الكثيرة التي تحيط

بالقوميات الناشئة في تلك المناطق — فان جهودنا عند ذلك لم تذهب عبثاً. وقد قام المؤلف برحلتين كبيرتين في صيف ١٩٤٦ و ١٩٤٧ الى سوريا وما يجاورها فجدد عهده بالموقع القديمة والمشاهد التاريخية وحصل على اطلاع مباشر على الآراء والاتجاهات الحديثة. واذا كان حقاً ما قيل ان الحاضر لا يمكن فهمه الا بعد دراسة الماضي فان من الصواب ايضاً ان الماضي لا يمكن فهمه فيما تاماً بدون التعرف الكافي على الحاضر.

وقد فرّأ بعين النقد جماعة من الاخصائيين في مختلف المواقع والعصور فصوّل خطوط هذا الكتاب التي عرضت عليهم وابدوا ملاحظاتهم القيمة. فالمجموع هؤلاء العلماء في هذه البلاد وخارجها ارفع آيات شكري. واذا كانت هنالك من اخطاء او نواح يبلو فيها شيء من التقصير فان المسؤولية اثنا تقع علىي وحدى. واتقدم كذلك بالشكر الى طلابي الكثيرين الذين قرأوا المخطوط بكماله وافقوني بملاحظاتهم. وقد وضع معظم خرائط الكتاب الدكتور بالي وليندر كما ان مؤسسة رزق حداد في نيويورك ساهمت بكم في اعداد المخطوط للطبع ووضع الفهارس.

آذار ١٩٥٠

فيليب حبي

مقدمة الطبعة الثانية

لم يكن تاريخ المنطقة التي تشملها مادة هذا الكتاب في اي عصر مضى موضع دراسة عميقه وباحثه واسعة — مع كل ما يرافق هذا التاريخ من نواح اثريه وانثربولوجية ودينية وأدبية واقتصادية وسياسية — كما كان في السنوات القليلة الماضية. ولقد كان من نتائج دخول سوريا والشرق الادنى بكماله الذي تشكل قسماً منه في ميدان السياسة العالمية ان توجهت الانظار اليها. واهتم جيل جديد من العلماء المحليين الذين اتموا دراستهم في الغرب وكذلك جماعة من طلاب العلم والاساتذة الاميركيين والاوربيين بدراسة تاريخها.

وقد استخدم المؤلف في تقييع هذه الطبعة الثانية ما توصل اليه من نتائج هذه الاجماعات الجديدة. ومن الطبيعي انه اخذ بعين الاعتبار ايضاً نقد المراجعين وملاحظات الزملاء والطلاب والمراسلين في كل انحاء العالم. وفضلاً عن ذلك فانه قام في السنوات الست الاخيرة بعدد من الزيارات الى هذه المنطقة ليجدد اطلاعه على الواقع والمشاهد القديمة وليتعرف الى موقع جديدة. وفي هذه الائمه كان يكتب مجلداً يرافق هذا الكتاب وموضوعه «لبنان في التاريخ» حيث اتيحت له فرصة ضبط عدد كبير من الحقائق والمراجع.

وكانت النتيجة انه لا تكاد تخلو صفحة من الطبعة الاولى من تغير او تصحيح او اكتر. وقد عدلت التواريخ القديمة وخاصة ارقام تواريخ مصر وسومر وبلاط بابل وفقاً لما سيمر بالتاريخ الموجز. واستبدلت الطبعات القديمة للكتب التي استخدمت كمراجعة في الموسماش بطبعات جديدة. واضيفت الى الخرائط اسماء الاماكن التي ادخلت في المتن كما اضيفت بعض الاسماء الى الفهارس. وصححت الاخطاء الطبيعية التي امكن العثور عليها غير انه ليس ما يضمن ظهور اخطاء اخرى من هذا القبيل.

واننا نتوجه بشكرنا الى الكثيرين، الذين ساهموا في تقييع هذه الطبعة، كما انا نتوجه اليهم بشكر القراء الذين تعود عليهم هذه التقييعات بالفائدة.

آذار ١٩٥٧

فيليپ حبي

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد حاولت في هذه الطبعة الجديدة الاحاطة بما استجدد في تاريخ البلاد السورية واصلاح ما ورد من الانخطاء العلمية والمطبعية في الطبعة السابقة وتوحيد تهجئة الالفاظ التي وردت اسماء للاعلام والمدن والبلدان في متن الكتاب وحواشيه وفي الخرائط والفالرسن. كذلك اعدت النظر في الرسوم فاستعدي عن بعضها بما هو أكثر وضوحاً وقد ساهم معي في هذا العمل تلميذى سابقاً وزميلي الدكتور جيرائيل جبور وشرف على طبع الكتاب كما اشرف على طبع غيره من كتبه المترجمة فله مني خالص الثناء والشكر

فيليب حبي

الفهرس

القسم الاول

عصر ما قبل التاريخ

الصفحة

الفصل الاول مكانة سورية في التاريخ ٣

الفصل الثاني المقدمات الحضارية: الادوات الحجرية ٧

اقنم البقلايا : الادوات الحجرية - اقنم المياكل المثلية البشرية -
الصور الاخير لعمر الحجري القديم - النار : القعم - النة -
العمر الحجري الوسيط - الحضارة النطوفية - تدجين الحيوانات
- الزراعة - حياة الاستقرار - الحياة المقلية - الفن -
حضارة العصر الحجري الحديث - الخزف.

الفصل الثالث الادوات المعدنية ٢٤

العمر النحاسي الحجري - الحضارة الفسوالية - الزراعة المعتمدة
على الري - الترکيب المرقى - التطور النقي .

الفصل الرابع مسرح الحوادث ٣١

الهلل الساحلي - السلسة الفربية - لبنان - موطن الاجئين -
المجليل - الكهوف - حوض القصوع والرحوول - البقاع - الزلزال
والبراكين - السلسة الشرقية : لبنان الشرقي - حوران -
بادية الشام .

الفصل الخامس البيئة الطبيعية ٤٨

الإقليم - التأكل - الحياة البدائية - شجر الزيتون - الارز -
الحياة الحيوانية - المحسان - الابل .

القسم الثاني

الأَزْمَنَةُ السَّامِيَّةُ الْقَدِيمَةُ

الصلحة

- | | |
|-----|---|
| ٦٦ | الفصل السادس قدوم الساميين |
| | ام سوريه والسورين - العوامل التاريخية الفعلة - الطريق
البولى المظيم - التزاع بين البدو والحضر - من م الساميون ? -
شبه جزيرة العرب هد الساميين . |
| ٧٠ | الفصل السابع الاموريون : اول شعب سامي رئيسي في سوريا . . . |
| | دخول الاموريين - عخورفات ماري - المэр السوري - يقول
مركز الاموريين الى الجنوب - الناق البولي - الاموريون في
فلسطين - الديانة الامورية . |
| ٨٥ | الفصل الثامن الكلتانيون : ثانى شعب سامي رئيسي في سوريا . . . |
| | كمان - حمالات المدن - المدن الواقعة على جزر - اتخاذ المدن
- الاقتصاد : الزراعة - الصناعة - صناعة المادن - الماج -
الرجاج - صناعة الاقة - الارجوان . |
| ١٠٤ | الفصل التاسع النشاط البحري والتلوّح الاستعماري |
| | الطرق البحرية - الملاحة - الوران بمحراً حول افريقيا -
المستعمرات - في اسيا - في اليونان - قرطاجة . |
| ١١٧ | الفصل العاشر الآداب والديانة وسائر مظاهر الحياة |
| | الاجميدة - الكتبات الائية الفينيقية - اوغلورت - ديانة الخصب
- الآلهة - المياكل - الاصنام - «اماكن المرثفة» -
عادات الفتن . |

الصفحة

- | | |
|------------|---|
| <p>١٣٦</p> | <p>الفصل الحادي عشر العلاقات الدولية مع مصر وغربي آسيا . . .</p> <p>الملكة القديمة — الملكة المتوسطة — قصة منوخي —
سورية في الامبراطورية المصرية — معركة بجدو — قادش
— نهارين — المخطط السيادة المصرية — التأثير السوري في
مصر — العلاقات مع بلاد الرافدين : سومر — بابل —
أشور — السيادة الكلدانية — التأثير المخاري —
المكوس — المكوس في مصر — أفاريس — الحوريون —
ملكة ميتاني — الفقة الحورية — بقلا الحوريين — الحثيون
— الملكة الميثية القديمة — الملكة الميثية الحديثة —
معاهدة مع مصر — حلة الشرين بفلسطين — نظام الدولة
الميثية — الفقة الميثية — الديانة — من هم الحابرو؟</p> |
| <p>١٧٤</p> | <p>الفصل الثاني عشر الآراميون : الشعب السامي الثالث الرئيسي . .</p> <p>بلده ظهورهم في بلاد الرافدين — التشارم في شمال سوريا —
— الدول الآرامية في ما بين النهرين — آرام عشق —
معركة فرقر — حزائيل — التجار الآراميون — الفقة
الآرامية — الكتابات الآثرية — الحضارة المادية — حد
الراغد — آثار غاتس .</p> |
| <p>١٩٠</p> | <p>الفصل الثالث عشر الشعب العبراني</p> <p>أهل العبرانيين — دور النبي — الخروج من مصر —
السكن في فلسطين — القضاة — الفلسطينيون — منهم
الحسن — الحديد .</p> |
| <p>٢٠٢</p> | <p>الفصل الرابع عشر الملكة العبرانية</p> <p>الملكة المتحلة — داود — سليمان في كل مجده — انقسام
الملكة — مملكة اسرائيل — نهاية اسرائيل — السامريون
— مملكة يهودا — حزقيا — اصلاحات يوشا — أيام يهودا
الاخيرة — سقوط اورشليم .</p> |
| <p>٢٢١</p> | <p>الفصل الخامس عشر مظاهر الحضارة العبرانية</p> <p>الطقوس المستعارة — الفن — الشؤون المتزلية — التقويد
— الملائكة الدينيون — الانبياء — عاموس الوحد الاول</p> |

الصفحة

— اشعيا وقدسية الله — ارميا والمهد الجديد — أنبياء آخرون وفضلهم .

**الفصل السادس عشر سوريا تحت الحكم الفارسي : بين الفترة السامية
والفترة المندية الاوربية**

٢٣٨

سيطرة الدولة البابلية الحديثة — سقوط الدولة البابلية الحديثة — دولة عالية جديدة : الفرس — تنظم الامبراطورية — إعادة اليهود من السبي — الفرس في فينيقية — طرابلس — العاصمة الفينيقية — صيدا تحول إلى رماد — مظاهر المضاربة .

القسم الثالث

العصر اليوناني الروماني

الفصل السابع عشر الاسكندر وخلفاؤه السلاوقيون

٢٥٣

معركة ايسوس — مقاومة صور — اخضاع مصر — المعركة الحاسمة قرب ارييلا — امتداج الشرق والغرب — بغزو الامبراطورية — سلاوق مؤسس الدولة السورية — التوراة المكانية — جمهورية بيودية — آخر انتفاضات الملكة السلاوقية — الرومان يضمون سوريا .

الفصل الثامن عشر العصر الملائسي

٢٧٥

المدن اليونانية — المدن القديمة تصبح مدنًا ملائسية — تقواز انتشار الملائسة — بقاء الآرامية — النشاط الادبي — يوسيبونيوس المؤرخ — الشعراء السوريون اليونان — مليغر .

الفصل التاسع عشر النظم السلاوقية

٢٨٨

الملكية — البلاط — الجيش — الفئة لاجل الحرب — الامتطول — ادارة المقاطعات — المدن — القرائب .

الصفحة

- الفصل العشرون** التجارة والصناعة
٢٩٧
السياسة السلوقيّة — الهند — دوراً أوروبيّاً (الصلالة)
— جرها (المغير) — التجارة مع الترب — مستعمرات
فيتنقية جديدة — النجاحات الزراعيّة — الصناعة —
التقدّم — مطلع الترف — السكان .
- الفصل الحادي والعشرون** سوريا كولاية رومانية: فترة ما قبل الإمبراطورية
٢٠٨
نواب القنصل — في أيام هيرودوس الملاك — الاميلية
الرومانية .
- الفصل الثاني والعشرون** أوائل الإمبراطورية الرومانية
٣١٥
حكومة الولايات — الحكومة المحلية — فضل الرومان
— سوريا في ذروتها — قوة الاتصال الاقتصادي —
الزراعة — البستنة — الصناعة — التجارة .
- الفصل الثالث والعشرون** حياة المدينة والريف
٣٣١
القرى — الاغنياء — الاحوال الاجتماعية — انتفاضة
ونفة — لاوديسة وأفانيه — حمص — دمشق — بيروت
— هليوبولس — سوريا الجنوبيّة .
- الفصل الرابع والعشرون** النشاط الفكري
٣٥٢
التاريخ — الجغرافيا — البلشـاء — الفلسفة — مدرسة
المحقق في بيروت — بابينيان — أولبيان .
- الفصل الخامس والعشرون** ظهور المسيحية
٣٦٣
تقسيم المسيحية — الاضطهاد — ديانات الاسرار —
مراكز المسيحية في سوريا — آباء الكنيسة .
- الفصل السادس والعشرون** التأثير السوري والتأثير الروماني
٣٧٣
التأثير الروماني عن طريق الرعوية — التأثير الروماني
عن طريق الخدمة العسكرية — المقاومة اليهودية —
تدمير يطس لاورشليم — السلالة السورية في روما

الصفحة

الشمس السوري يهد في روما - فيليب المرني -
التوزع الاقتصادي .

٣٨٦

الفصل السابع والعشرون سوريا في المهد البيزنطي

الامبراطورية الرومانية في عهدها الاخير - القسطنطينية
الاصحنة الجديدة - المسيحية الديانة الجديدة - التقىين
الادارية - التجارة - الصناع المهاجرون - الادب
والتعلم - ليبيوس - أميانس مورسيوس - يوحنا
ثم الغب - يوسيوس - غزة - بيروت كركز
علي - حياة الطلاب .

٤٠٣

الفصل الثامن والعشرون المظاهر الدينية في المهد البيزنطي

الرهبة - البلاي الكتبية - الفن المسيحي - احياء
الآرامية - اديسا - الاشتقالات الدينية - ابوليناروس -
الكتيبة النسطورية - الكتبة المقوية - الخط
الفارسي .

٤١٦

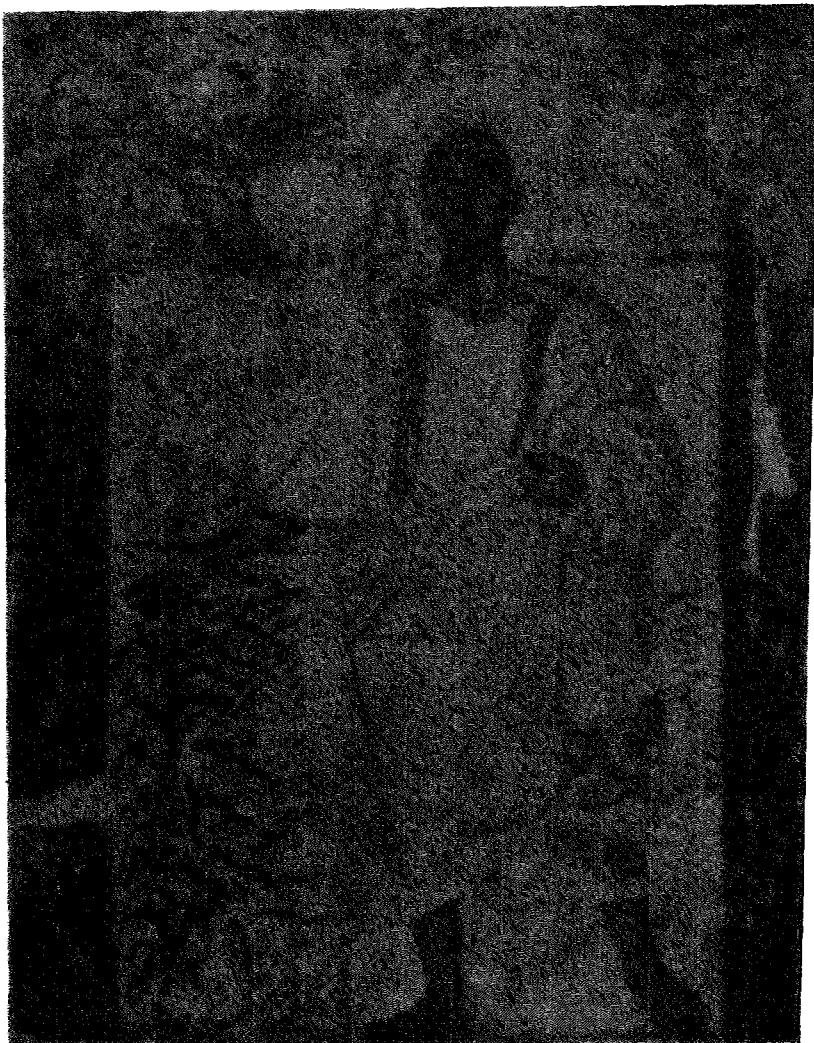
الفصل التاسع والعشرون الدول السورية العربية قبل الاسلام

١ . الانباط - من حياة الرعي الى الحياة الزراعية -
من الزراعة الى الحياة التجارية - الملكية النبطية -
المملكة في ذروتها - الملوك الاخرين - العلاقات
التجارية والصناعية - المظاهر الحضارية - الديانة -
الفن والبناء - ٢ . التدمريون - تدمر - مركز
التجارة عبر الصحراء - تدمر كتابة لرومة - اسرة
اذينة - زبوبا - تدمر في اياها الاخيرة - القباب
الاثرية - الفتنة - لوبيوس - الامامة التدميرية -
٣ . الفاسدة - الحارث بن جبة - المنبر - الفوضى
ابه بلاط الفاسدة .

فهرس المحتوى

الصفحة

سوريا — الواقع الأثري.....	٨
سوريا — خارطة طوبغرافية.....	٣٤
خارطة جيولوجية لسوريا وسيناء.....	٣٧
سوريا — انتشار الساميين والطرق الرئيسية	٦٨
سوريا — في حقبة تل العمارنة	٧٨
كتعان قبل إسرائيل	٨٦
التوسيع الفينيقي	١٠٩
الولايات الأشورية في سوريا.....	١٥٢
سوريا كبلاد آرامية	١٧٨
فلسطين في أيام القضاة	١٩٩
فلسطين في عهد الملوك.....	٢١٠
الإمبراطورية الفارسية في ذروتها	٢٤١
الإمبراطورية السلوقية — القسم الشرقي.....	٢٦١
الإمبراطورية السلوقية — القسم الغربي	٢٦٣
الإمبراطورية الرومانية في عهود الاستعمار.....	٣٢١
سوريا كولاية رومانية	٣٣٨
سوريا البيزنطية	٣٩٠



موسى والعليقه المحرقة

صورة جدارية في الكنيس الذي وجد في دورا اوروبس (الصالحية)
ان في هذا الكنيس الذي يرجع عده الى القرن الثالث اقدم تمثال غرذج لفن التوراتي
اليهودي والصور الجدارية التي وجدت فيه هي اليوم في المتحف الروماني بدمشق



فريق من النساء الساميّات



أبشه شيخ الامورين



سامي مع حماره

القسم الأول

عصر ما قبل التاريخ

الفصل الأول

مكانة سوريا في التاريخ

تحتل سوريا مكانة فريدة في تاريخ العالم . وقد كان فضلها على رقي البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية اجل شأناً من فضل اي بلد آخر خصوصاً وانها كانت تشمل فلسطين ولبنان ضمن حدودها القديمة . وربما كانت سوريا اكبر بلد صغير على الحريطة ، فهي صغيرة جداً في حجمها ولكنها عالمية في تأثيرها .

وسورية باعتبارها مهد اليهودية ومكان مولد المسيحية قد اعطت العالم المتقدم ديانتين توحيديتين وكانت لها صلة وثيقة بظهور الديانة التوحيدية الثالثة ونشوتها ونعني الديانة الاسلامية . فانتظار المسيحيين والمسلمين واليهود حيثما وجدوا تتجه الى احدى البقاع المقدسة في سوريا ليستوحا منها كما ان اقدامهم تسوقهم اليها ليهتدوا بهديها . وعلى ذلك فان اي انسان غربي متمدن يمكن ان يدعى الانتساب الى بلدين : بلده وسوريا .

وتتصل الرسالة الاخلاقية التي حلتها سوريا الجنوبية اتصالاً وثيقاً بفضل سوريا الدينى . فقد كان شعبها اول من نشر المبدأ القائل بان الانسان خلق على صورة الله وان كل انسان هو اخ لكل انسان آخر تحت ابو الله وبذلك وضع اساس الحياة الديمقراطي . كذلك كان الشعب السوري اول من اصر على تفوق القيم الروحية واعتقد بالفوز النهائي لنور العدالة وبذلك اصبح المعلم الاخلاقي للبشرية .

والسوريون القدماء لم يتحفوا العالم بابداع الافكار وارفعها فحسب واما اوجدوا وسيلة للتغيير عن هذه الافكار بتلك العلامات البسيطة المظهر ذات المفعول السحري التي تسمى الاجمدية والتي بواسطتها دونت اعظم ادب العالم وحفظت . وليس من اختراع يعادل بهمته اختراع الاجمدية التي انشأها اللبنانيون الاقدمون ونشروها . فاليونان في الغرب اثنا نقلوا حروفهم عن الفينيقيين او الكنعانيين كما كانوا يسمون انفسهم ، ثم اعطوها الى الرومان وبالتالي الى شعوب اوروبا الحديثة ،

كما ان الآراميين في الشرق استعاروا حروفهم من المصدر نفسه ونقلوها الى العرب والفرس والمنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا . ولو ان هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم اية خدمة اخرى لكان ذلك كافياً بان يتميزوا كاعظم الحضارات البشرية .

غير انت فضل السوريين لم يقف عند ذلك . فقد ازدحمت في ارضهم الضيقة احداث تاريخية وثقافية تتصف بزهوها وفعاليتها اكثر مما ازدحمت به اي ارض اخرى بنفس المساحة ، وكان من شأن هذه الاحاديث ان جعلت تاريخ سوريا وفلسطين تاريخاً معظم العالم المتعدد بصورة مصغرة . ففي الفترتين الملفستية والرومانية اتحف ابناء هذه البلاد العالم الكلاسيكي مجتمعة من ابرز مفكريه وعلميه ومؤرخيه . وكان بعض مؤسسي الفلسفة الرواقية والافلاطونية الاحيائية من السوريين . واذدهرت في بيروت مدرسة من اعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض اساتذتها في مجموعة قوانين يوسفيان التي اعتبرت بحق اعظم ما قدمته العبرية الرومانية للاجيال .

وبعد انتشار الاسلام بـدة وجيزة اصبحت العاصمة السورية دمشق قاعدة الامبراطورية الاموية الشهيرة التي توسع خلافاؤها بتوحثهم الى اسبانيا وفرنسا من جهة والمهد وحدود الصين من جهة اخرى فكانت امبراطوريتهم اعظم من الامبراطورية الرومانية في ذروتها . وكانت كلمة الخليفة القييم في دمشق هي القانون في طول هذا الملك الراسع وعرضه . ودخل العالم العربي في عهد الخليفة العباسية في بغداد فترة نشاط فكري من جملة مظاهره حركة الترجمة من اليونانية ، ويؤكد لا يوجد في التاريخ مثيل لهذا النشاط . وكانت الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني حينذاك اعظم تراث تركه العالم الكلاسيكي للعصور الوسطى . وقد كان السوريون المسيحيون ابرز من سام في عملية نقل العلوم والفلسفة اليونانية هذه ، وكانت لغتهم السريانية جسراً انتقلت بواسطتها العلوم اليونانية الى اللغة العربية .

وفي العصور الوسطى كانت سوريا مسرحاً لحدث من ابلغ الحوادث التي عرفها تاريخ الاحتكاك بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . فقد تدفقت من فرنسا وانكلترا وایطاليا والمانيا حشود من الصليبيين نحو سهل سوريا الساحلي ومرتفعات فلسطين تزيد الحصول على المسيح الميت الذي لم يكن في قلوب الباحثين عنه حقيقة حية . وهكذا بدأت حركة كانت نتائجها بعيدة الاثر في اوروبا وآسيا .

غير ان المروءات الصليبية لم تكن حادث في التاريخ العسكري الطويل المتعدد لهذه البلاد التي كانت، بسبب موقعها على ابواب آسيا وعلى مفترق طرق العالم، ساحة حرب دولية في زمن الحرب وطريقاً تجارية في زمن السلم . واي ارض غير ارض سورية يمكنها الادعاء بأنها شاهدت مثل هذه الجموعة من المغاربة والفارسية والالمان مبتدئة بتحوقين ونبوخذنصر والاسكيندر ويوليوس قيصر ومستمرة بعد ذلك بخالد بن الوليد وصلاح الدين وبيبرس حتى نابوليون؟

وقد قام شعب هذه البلاد في السنوات الاخيرة بعد احتجاج دام بضعة قرون في ظل الملوك والاتراك يرددون الشوق العربي بقيادة التكربة . وكان السوريون وبصورة اخص اللبنانيون اول من اسس الاتصالات الحيوية في القرن الماضي مع الغرب عن طريق التعليم والهجرة والسياحة وبذلك كانوا الواسطة التي بها تسربت التأثيرات الاوروبية والاميركية الى الشرق الادنى . وجالياتهم الحديثة المنتشرة في القاهرة وباريس ونيويورك وسان باولو وسدني هي آثار ناطقة بنشاطهم ومقامراتهم.

واهمية سورية التاريخية لا تأتي من فضلها المبكر على التواحي الرفيعة من حياة الانسان فحسب وإنما هي نتيجة موقعها الاستراتيجي بين القارات القديمة الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا وقيامها كجسر لنقل التأثيرات الثقافية من مراكز الحضارة المجاورة لها ولنقل البضائع التجارية ايضاً . وهذا الدور الذي لعبته تشرشه لنا اعمال الفينيقيين الذين كانوا اول التجار الدوليين . وبسبب موقع سورية في قلب الشرق الادنى ، الذي يقع هو ايضاً في وسط العالم القديم ، فانها أصبحت في عصر بعيد جدًا نافذة الحضارات في العصور القديمة . فقد امتد الى طرفاها الواحد وادي النهرين والى طرفاها الآخر وادي النهر الواحد . وليس من منطقة في العالم يمكنها ان تنافس في قدمها ونشاطها واستمرارها هذه المناطق الثلاث . فقد يزغ فيها فجر التاريخ المتواصل ، وفيها يمكن ان نشاهد الى حد ما الشعوب نفسها خلال خمسين او ستين قرناً من التاريخ غير المنقطع . وقد كانت حضارة هذه المنطقة قائمة منذ الالف الرابع ق . م . ونحن نعلم اليوم ان حضارة اوربا الاولى لم تتمكن لمدة طويلة سوى انعكاس ضئيل لحضارة بلاد شرق البحر المتوسط^١ . ويبدو أن بعض

١) انظر الفصل الاول من كتاب : V. Gordon Childe, *New Light on the Past* : Ancient East (London, 1952), pp. 1-2.

العناصر الأساسية في حضارة الصين القديمة قد ادت من الطرف الشرقي للهلال الخصيب كما أخذ يتضح لنا .

وقد اظهرت الايجاث الأثرية في السنوات الحديثة ان سوريا كانت حتى في عصور ما قبل التاريخ تحمل مكانة رقيقة لانها كانت على الاغلب مكان تدجين القمح لأول مرة ، ومكان اكتشاف النحاس ، واختراع الحزف المخلي بما ادى الى التحول من حياة الصيد والبداوة الى حياة الزراعة والاستقرار . وقد تكون هذه المنطقة اذًا قد عرفت المعيشة المستقرة في القرى والمدن قبل اي مكان آخر نعلمه . وربما كانت قبل ذلك ايضاً الموطن الذي ترعرع فيه سلف من اسلافنا المباشرين وهو الانسان الحديث^١ ، بما ستراء في الفصل القادم .

)١(*Homo sapiens* والمعنى الحرفي لهذه الكلمة اللاتينية «الانسان المارف» يعني الانسان المدرك وهو الانسان الحديث .

الفصل الثاني

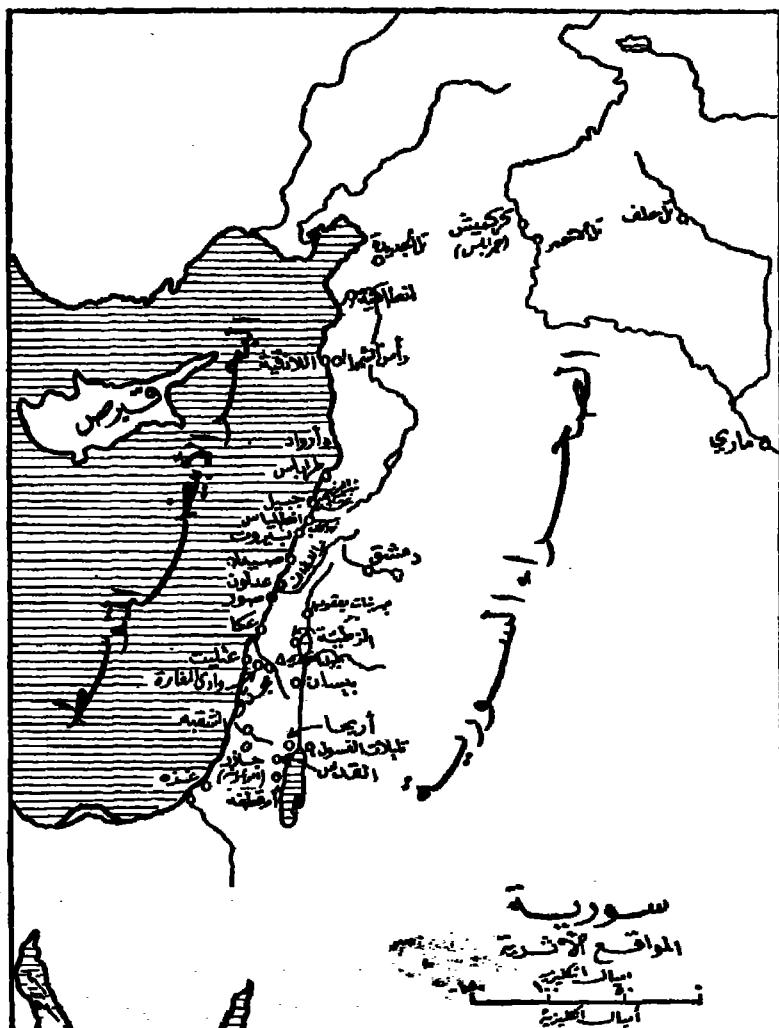
المعدّمات الحضاريّة ، الأدوات الحجريّة

كما ان القسم الذي يشاهده الانسان من قطعة الجليد فوق سطح الماء لا يشكل الا قسماً صغيراً منها كذلك فان العصر الذي تبع اختراع الكتابة والذي نسميه عصر ما بعد التاريخ لا يشكل الا جانباً صغيراً من تاريخ سوريا والسوريين بكامله . وقد يزغ فجر التاريخ في هذه البلاد في اوائل الالف الثالث ق. م. ، وذلك على اثر اختراع الكتابة في مهدّي الحضارة المجاورين في جنوب بلاد الرافدين ومصر وانتشاره من هذين المركزين . وتعود فترة ما قبل التاريخ التي نعتمد في معلوماتنا عنها على البقايا الأثرية بدلأ من الوثائق المكتوبة ، الى عشرات الآلاف من السنين خلال العصر الحجري الحديث (النيوليتي) والعصر الحجري القديم (الباليوليتي) الذي سبقه . وقد اخذت الحفريات الأثرية التي حصلت في الثلاثين سنة الأخيرة في البوادي المجهولة في شمال سوريا وشرقاًها وفي كهوف لبنان وتلال فلسطين وفي مدن شرق الأردن المدفونة تحت التراب تطلعنا على اسرار الحضارات القديمة المسيحية . وقد اثبتت هذه الحفريات دون شك ان هذه المنطقة التي اهلتها الآثاريون مدة طويلة بحيث كادت تصبح شبه مجهولة كانت اكثر تقدماً في اقدم العصور مما كنا نظن حتى الآن .

اقلم البقايا : الادوات الحجرية

عندما نحاول ان نلقي نظرة الاولى على الانسان في هذه المنطقة فانه يفلت منا كشخص ، ولكن آثاره يمكننا اكتشافها بشكل ادوات حجرية في بقايا الكهوف او على سطح الارض حيث تنتشر مثل « بطاقات الزيارة » على مساحات واسعة . وتألف هذه الادوات والأسلحة من قطع من الصوان نحتت بشكل خشن او رقت ب بصورة غير منتظمة وكان يستخلصها كفؤوس يدوية او مكاشط او سواطير وترجع الى نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم اي الى نحو ١٥٠،٠٠٠

سنة^١. وكانت الفأس اليدوية في هذه المنطقة أقدم الأدوات الأكيدة التي صنعتها الإنسان البدائي وتتألف من كتلة من لب الصوان أزيلت منها بعض الشظايا ورققت بحيث يسهل امساكها واستعمالها للقطع أو الدق. وهناك أدوات أكيدة أقدم من



هذه وأكثر خصوقة تسمى ايوليت (حجارة التاجر) ولكنها لم تكتشف في منطقتنا. وتوجد صعوبة في المقدرة على التمييز بين مثل هذه الادوات التي صنعتها الانسان.

١) ويتقابل ذلك حضارة العصر الآشوري في أوروبا وقد سميت كذلك باسم موضع غوتيجي في فرنسا.

وبين الحجارة المخطمة بصورة طبيعية . أما أغصان الاشجار او سائر الاختشاب التي قد يكون الانسان البدائي قد استخدمها الى جانب الادوات الحجرية او قبل ذلك فإنه لم يكن محتملاً ان تترك اي اثر يمكن اكتشافه بسهولة وذلك بسبب طبيعتها .

ومن الكهوف التي وجدت فيها ادوات من العصر الحجري القديم ودرسها العلماء في لبنان وفلسطين كهوف عدون^١ وجبل الكرمل^٢ وأم قطفة^٣ والزطية^٤ . ووُجِدَت بلطاطات يدوية من نفس الفترة عموماً في أماكن اخرى منها مجرى نهر الاردن (جنوبي جسر بنات يعقوب^٥) وفي رأس الشمرة او اوغاريت القديمة^٦ . والبلطة ذات شكل مثلث او بيضوي وهي منحوتة اكثر من التأثير اليدوية .

ويحتمل ان يكون البشر الذين تركوا لنا هذه الآثار الحجرية نوعاً بدائياً غير متميز من الانسان الابيض ولا تزال حضارته بجهولة . وقد كانوا يعيشون في بعض الاحيان على الاقل في الكهوف لوقاية انفسهم من المطر والحيوانات المفترسة ومن الاعداء وذلك لأن شدة الاقليم في عصر سابق كانت قد فرضت عليهم هذا الاسلوب من المعيشة . وبالرغم من ان الجليل لم يصل فقط الى الجنوب حتى سوريا فان اقليل

(١) وتقع في منتصف الطريق بين صيدا وصور . وقد استكشف هذا الكهف وكهوفاً اخرى في منطقة نهر ابراهيم ونهر الكلب والطلياس . G. Zumoffen زيونفون . انظر كتابه : « L'Age de la pierre en : avant les Phéniciens (Beirut, 1900) pp. 4 - 16 Anthropos, vol. iii (1908), pp. 431 - 55 Phénicie » .

(٢) وقد اجرت تحريرات اثرية في الآنسة دوروثي جارود د. بيت Dorothy A. E. Garrod and D. M. A. Bate . انظر كتابها : The Stone Age of Mount Carmel vol. i (Oxford, 1937) ch. 8.

(٣) تقع شمال غرب البحرين واستكشفها رينيه نوفييل René Neuville . انظر مقاله : L'Anthropologie, « L'Acheuléen supérieur de la grotte d'Oumm Qatafa ـ في مجلة : Le Préhistorique de Palestine ـ ومن ثم الآخر : Revue biblique, vol. xliv (1934), pp. 237 - 59 .

(٤) وتقع شمال غرب بحيرة طبرية . ولتب فيها : F. Turville-Petre انظر مؤلفه : Researches (London, 1927), §§ 5, 6; Garrod and Bate : in Prehistoric Galilee. pp. 113-15.

(٥) انظر مقال : « Jisr Banāt Ya'qūb », The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, vol. vi (1936), pp. 214-15.

(٦) Claude F. A. Schaeffer, The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit (London, 1939), p. I.

هذه البلاد لا بد انه تأثر به . وقد كانت الطور الاقليمي في نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم من النوع المطر الكبير الرطوبة والمداري وكانت حيواناته التي انقرضت ازواجاها اليوم انفراضاً تماماً تقريباً من الحيوانات التي تعيش في بيئته كثيفة النبات . والبقايا الحيوانية التي وجدت تضم عظام الكروكودين وفرس النهر ومخلوق يشبه الفيل . وفي هذه الفترة كانت اوروبا تعاني شدة البرد في العصر الجليدي وهذا ما يسمح للشرق الادنى بان يكون سباقاً في تاريخ الجنس البشري وما ذر .

اقلم المياكل العظمية البشرية

ترجع اقدم بقايا المياكل العظمية البشرية في الشرق الادنى الى اواسط العصر الحجري القديم . وقد عثرت على معظمها في كهف من كهوف جبل الكرمل الآنسة جارود^١ وكذلك في كهف يقع في جنوب الناصرة^٢ وآخر في شمال غربي بحيرة طبرية^٣ . ويشكل اكتشافها حادثاً بالغ الاهمية بالنسبة لعصر ما قبل التاريخ في الشرق الادنى . وجميع هذه البقايا ترجع الى التمودج المستيري الحضاري (وقد سمي كذلك باسم كهف في فرنسا) ويعود عهدها الى ما قبل مائة الف سنة على الاقل . وهي تظهر لنا سلسلة كاملة من بقايا المياكل العظمية تتراوح بين النوع النياندرتالي (باسم واد في منطقة الرين) وبين انواع ارق حتى تصل الى اشكال تكاد تكون من السواع البشرى الحديث . والانسان النياندرتالي كان قصير القامة كثيف البنية وكان يمكنه الوقوف تقريباً بدون ان يكون متتصباً تماماً . والذى يلفت النظر بشكل خاص في بعض هيماكل جبل الكرمل انه تظهر بعض الصفات التشريحية التي للانسان الحديث^٤ . وقد كانت سعة جعبتها اكبر مما كانت عليه عند الاوربيين من النوع

١) وهذه الكهفان هما مغارة الطابون ومغارة السخول؛ انظر : Garrod and Bate, chs. 4-7

٢) في جبل القفزة وقد استكشفه وينه توفيل René Neuville في ١٩٣٤ ولم تنشر ايمائه بعد.

انظر مقال : «Jabal Qafze» في مجلة : The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, vol. iv (1934), p. 202.

٣) مغارة الرطبة : Turville-Petre, § 9, «Report on the Galilee Skull» by Edward Keith.

٤) انظر : Theodore D. Cown and Arthur Keith, The Stone Age of Mount Carmel, vol. ii (Oxford, 1939), ch. 2; cf. Earnest A. Hooton, Up from the Ape (New York, 1946), pp. 336-9; Alfred S. Romer, Man and the Vertebrates (Chicago, 1941), pp. 219-22.

نفسه ؟ وكانت الذقن اكبر ولكنها كان ينقصها التركيب المتصل بالكلام المترابط . وعلى ذلك فانها تشكل على ما يظهر حلقة هامة في تطور الانسان وتجعل من هذه المنطقة في الشرق الادنى مسرحاً لتكوين نوع متوسط بين الانسان البدائي والانسان الحديث .



وكان انسان هذه البلاد لا يزال يعيش في الكهوف في اواسط العصر الباليوليتي (الحجري القديم) . وصناعته كانت تقوم كالسابق على اعداد شظايا غير منتظمة وقطع خشنة من الصوان استعملها كبلطات يدوية ومقاشط وسواطير وطارق^١ . وبما لا شك فيه ان النظام الاجتماعي كان بدائياً يدور حول وحدات من الجماعات التي تعيش على ما تنتجه الطبيعة من حيوانات او نباتات في مشكلة الطبيعي . وتشير العظام البشرية المكسرة بمحذق لاستخراج المادة التخاعية التي طبع فيها الانسان الى وجود عادات تتصل باكل اللحوم البشرية . وكانت الفحصاً من الاعداء الذين يقعون في الأسر او من الاقارب الذين اصبح وجودهم غير مرغوب فيه . وقد يكون بعضهم من الاشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية .

(١) راجع : Garrod and Bate, pp. 88-90, 109-12 ; Turville-Petre, §§ 3, 6 ; Neuville in *Revue Biblique* (1934), pp. 237 seq.

وكان الاحوال الاقليمية لهذه الحضارة تتجه اتجاهها واضحًا نحو الجفاف بين دورين مطرين . وتنبيء البقايا الحيوانية عن وجود الفزال والضبع المرقط والدب والابل وخفزير النهر والوعول بالإضافة إلى الكركدن وفرس النهر^١ . ومع ان الطقس أصبح دافئاً وجافاً فان الانهار الدائمة كانت لا تزال تروي البلاد وبقيت هنالك بعض المساحات المخرجة والمشجرة .

وفي الفترة الأخيرة من اواسط العصر الحجري القديم طرأ تغير شديد على الاحوال الاقليمية وهطلت الامطار بغزاره . وهكذا حصلت فترة أخرى مطرة دامت عشرات الآلاف من السنين ولا نعلم عنها الشيء الكثير بالنسبة لسوريا وفلسطين . وتمثل هذه الفترة الملاجيء الصخرية في منطقة نهر الجوز (قرب البترون) ونهر ابراهيم^٢ . واخذت الحياة الحيوانية تتخذ مظاهرها الحديثة في هذه الفترة العامة بينما اختفت النماذج الاولية .

الدور الأخير للعصر الحجري القديم

وفي خلال الدور الأخير للعصر الحجري القديم الذي دام مدة طويلة هنالك ما يبرهن عن تزايد في الجفاف باستثناء مرحلة من الرطوبة . وتشير البقايا الأثرية إلى تناوب الأقليم الحار والبارد من النوع الرومي (إقليم بلاد البحر المتوسط) ويمتد ذلك حتى اواخر العصر الحجري القديم^٣ . وتقابل حضارة هنالك الدور الفترة الاورغنسية (Aurignacian) في اوروبا (وسماها كذلك باسم مرکز نوذرجي في فرنسا) وتتمثل في مكتشفات كهوف انطلياس ونهر الكلب^٤ . وفي كهف اكتشف قرب بحيرة طبريا^٥ . واظهرت الحفريات الحديثة (١٩٣٨) في كسار عقيل قرب

(١) انظر : Garrod and Bate, p. 226; Turville-Petre §§ 4, 8.

(٢) راجع : Zumoffen, *La Phénicie*, pp. 29-48; *Anthropos*, pp. 443 seq.

(٣) راجع : Leo Picard, *Structure and Evolution of Palestine* (Jerusalem, 1943), pp. 119-120.

(٤) انظر مقال ألفرد إ. داي (Alfred E. Day) «آثار الانسان الاول الكثثة حديثاً في انطلياس» في مجلة الكلية ١٢ (بيروت ١٩٢٦) ص ٤٩٦ - ٤٩١؛ Zumoffen, *La Phénicie*, pp. 20-28, 49-87; *Anthropos*, pp. 443 seq.

(٥) مقارة الاميرة . انظر : Turville-Petre, § 2.

انطلياس بقايا هيكل عظيمة لحيوانات مثل الضبع والكركدن والتلub والماعز وكذلك بقايا بشرية^١. وتحف الجامدة الاميركية في بيروت غني بأدوات العصر الحجري بصورة خاصة.

وتحتل بقايا الغزلان مكانة رئيسية بين البقايا الحيوانية. وبينما لا تختلف صناعة هذا الدور اختلافاً أساسياً عما سبق فإن الأدوات الحجرية تظهر ميلًا إلى التضاؤل في الحجم وتتصبّع أدوات حجرية صغيرة (ميكروليتية). ويشير ذلك إلى أن الإنسان قد بدأ في تركيب أدواته أو أسلحته في مقابض خشبية أو عظمية حتى أصبحت قسماً من آلة مركبة. وبما أنّ الحشب سريع العطب فإنه لم يترك لنا أي أثر بينما اكتشف العظام التي يظن أنها كانت تستعمل لهذا الغرض.

النار: الفحم

إنّ أقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن في هذه البلاد قد اتت من أحدي الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل^٢ وترجع إلى نهاية الدور الأول للعصر الباليوليتي اي إلى نحو ١٥٠،٠٠٠ سنة. وهناك قطع آخر ترجع إلى الدور الأخير من العصر الحجري القديم (الدور الورغاني) وقد اكتشفت في كهف بجاور^٣ وتشير في تركيبها إلى غاذج السنديان والطرفة والزيتون والسكرمة^٤. ويبدو أنّ الإنسان البدائي في تدرجه الطبيعي الشاق من المستوى العقلي المنخفض قد عثر صدفة لا قصداً على اكتشافاته اعطته بعض التفوق وأثرت على قدراته الكامنة على الاختراع وزادتها قوة. ومن أقدم هذه الاكتشافات اكتشاف النار.

فإنسان العصر الحجري القديم لا بد أنه شاهد أو استعمل النار التي ولدتها الشهب الساقطة والبرق وسائر الأحداث الطبيعية. كذلك لا بد أن قطعاً من الحمم التي

(١) راجع : J. Franklin Ewing, « Aurignacian Man in Syria », *American Journal of Physical Anthropology*, n.s., vol. iv (1949) pp. 252-3;

ومقالة في مجلة الشرق م ٤١ (١٩٤٧) من ٢١٨ - ٢٤٨ . وتشير المكتشفات الأثرية في ١٩٤٨ إلى سكن الإنسان بصورة متواصلة لوادي انطلياس منذ ٣٠٠،٠٠٠ ق. م.

(٢) مغارة الطابون . انظر : Garrod and Bate, p. 129

(٣) مغارة الوادي قرب الطرف الشرقي للكرمل .

(٤) راجع : Garrod and Bate, p. 129

والنار الحضراء والجذور التي يمكن اكلها قد وقعت في النار بطريق الصدفة . وليس من شئ ان ما نتج عن ذلك من طراوة وتحسن في الراحة دعت الانسان المتقيظ الفكر او المحب للاستقصاء الى اعادة التجربة . ولا بد ايضاً انه لاحظ الشبرارات التي يولدتها الاختناك والقدح عندما كانت ينحت او يرقق الصوان وسائل الحجارة القاسية . غير انه اخطر الى ان يتضرر اجيالاً طويلة قبل ان يظهر رجال مجهمول من طراز اديسون او بالاخرى رجال من هذا الطراز يفكرون بهذا الحادث ويخاولون توليد النار والسيطرة عليها لاجل اغراضهم الخاصة . وبهذا الحادث بدأ انقلاب من اعظم الانقلابات في تاريخ سير البشرية في معارج التقدم . وقد عرفت بالتدرج فائدة الشرارة وذلك ليس في اعداد مأكل جديدة فحسب ، وإنما كتدبر لوقاية من البرد وكوسيلة لصد الحيوانات الجارحة وطرد حيوانات الصيد من الغابات .

اللغة

وهنالك عمل آخر فعال تم تحقيقه في اوائل العصر الحجري القديم وهو نشوء تلك الوسيلة الخاصة للاتصال بين انسان وآخر التي نسميها اللغة . ويعود اصل اللغة الى عمل عقل كان لا يزال في بدء التحول الى عقل بشري ولذلك فإنه ابعد من ان يتمكن البحث من تناوله . وقد ساعدت اللغة باعتبارها عملاً هدف الى تأسيس الاتصال الفكري بين انسان وآخر على اجمع بين افراد منعزلين لتشكل منهم جماعات . وأن عمليات تطورها واكتساباتها بعثوها كانت عمليات تقوي المؤلفة بصورة متزايدة . ولكن بما انه لم يكن يقدرها ان توكر آثاراً ملموسة حتى اختراع الكتابة بعدآلاف السنين فإنه ليس لدينا من ادلة اثيرة لاجل البحث عنها .

العصر الحجري الوسيط

يتطور العصر الحجري القديم بصورة لا يشعر بها نحو العصر الحجري الحديث الذي استخدم فيه الانسان الادوات الحجرية المصنوعة . وقد سميت الفترة الانتقالية بالعصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي عام ١٢٠٠٠ ق. م . وانسان العصر الحجري الوسيط لم يقتصر على صقل الصوان والبازلت وسائر المعدات والأسلحة الحجرية بحيث جعلها اكثر فعالية بالنسبة لاغراضه ولكنه زيادة على ذلك استغل للمرة الاولى موارد بيته لدرجة تستحق

الذكر . وتمثل هذه الحضارة في فلسطين بالدور النطوفي الذي سمي كذلك باسم وادي النطوف في شمال غرب القدس حيث نقبت الآنسة جارود في ١٩٢٨ في كهف الشقبية^١ . واكتشفت بعض عناصر الحضارة النطوفية فيما بعد في مغارة الوادي وغيرها من المواقع .

المخارة النطوفة

بدأت الحضارة النطوفية في أول العصر الحجري الوسيط ودامت حتى الالف السادس . وكان البشر الذين عاشوا في عهد تلك الحضارة من عرق أقصر قامة من العرق الذي عاش في عهد الحضارة السابقة كما انهم كانوا نحاف الجسم مستديربي الرؤوس يشبهون انسان العصر البرونزي المجري الذي وجدت آثاره في بيلوس (جيبل) والمصريين الذين عاشوا في عصر ما قبل السلالات . ويبدو انهم كانوا من افراد العرق نفسه الذي انتسب اليه الحاميون والساميون فيما بعد^٢ . وبالرغم من ان الحياة الحيوانية في العصر النطوفي كانت من النوع الحديث بصورة عامة فات هناك فروقاً هامة بينها وبين الحياة الحيوانية اليوم . فقد كانت بقايا الفرزلان لا تزال كثيرة ولكتها من نوع الايل وهو نادر اليوم ويدل على وجود احوال الجدب والجفاف . والطبع كان مرقطاً حينذاك من النوع الذي تجده فقط في جنوب الصحراء الكبرى اليوم . والتفنيد كان مختلف تماماً عن النوع القصير الاذنين الموجود حالياً^٣ . والاحوال الاقليمية قد تكون سبباً لاختلاف حيوانات مثل الحصان والوعول الامر فيما بعد . والصناعة تكثر فيها العظام المشغولة والمحفوره ورؤوس السهام التي لها فرحة . والادوات كانت من النوع الصغير (او الميكروليتي) وهذا من ميزات حضارة العصر الحجري الوسيط .

انظر :) Dorothy A. E. Garrod, « Excavation of a Palaeolithic Cave in Western Judaea », *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1928), pp. 182-5; Garrod and Bate, p. 114.

W. F. Albright, « The Present State of Syro-Palestinian Archaeology », *The Haverford Symposium on Archaeology and the Bible* ed Elihu Grant. (New Haven, 1938), p. 7.

.Garrod and Bate, p. 153 : راجم (۲

تدجين الحيوانات

ويقدم لنا اكتشاف ججمة كاملة تقربياً ل الكلب الكبير في طبقات أحد كهوف الكرمل^١ أول برهان عن تدجين الحيوانات، وهذا حادث له أهميته البالغة في سير الإنسان نحو الحياة المتقدمة. وقد دُجِن الكلب حين كان لا يزال الإنسان صياداً. وفيما سوى فائدة الكلب في الصيد والمراسة فإنه كان أول جامع للنفايات وقضلات الطعام. وترىنا أدلة أخرى أن تدجين الماشية الذي أدى إلى حياة الرعي وما صحب ذلك من توفر طعام يمكن الاعتماد عليه أكثر مما كانت الحالة عليه في حياة الصيد، قد آتى بعد حين. فقد كان على الإنسان أن يدجن نفسه قبل أن يتمكن من تدجين سائر الحيوانات. واكتشفت إشكال نذرية من الطين تقتل حيوانات داجنة كالبقر والماعز والغنم والخنازير في مزار في أريحا تعود إلى أواخر الألف السادس ق. م.^٢. ويحصل تدجين الحيوانات عادة بينما يكون الإنسان في حالة البداوة ولذلك فإنه يسبق ممارسة الزراعة. ولا بد أن انساناً من العصر الحجري الوسيط في الشرق الآدنى قد اتته فكرة تدجين الحيوانات بطريق الصدفة. فقد حركته عاطفة الشفقة أو الحبة واحتفظ في أحدي المناسبات بضوار الحيوانات بعد قتل كبارها وراح يربى الجرو أو النعجة مع أولاده ونجحت العملية ومن ثم أعيدت هذه التجربة ووسيط. فالإنسان مثل الحيوان بمحاباته وحصل منه مقابل ذلك على الحليب والخدمة إماً في أعمال الصيد أو في حمل الانتقال. وأخذ المجتمع البدائي لحضارة العصر الحجري القديم يتراجع أمام أحوال أكثر تقدماً.

الزراعة

وعندما كان الإنسان صياداً فإن حركاته كانت تليها حركات الحيوانات البرية التي كان يسعى وراءها لأجل الغذاء. وفي مرحلة حياة الراعي عندما حصل تدجين الحيوانات ظل الإنسان متنتقلاً ولكن مع هذا الاختلاف: وهو أن حركاته كان عليها عليه بعثه عن المراعي الخضراء لأجل قطعانه. غير أن الحضارة النطوفية شهدت في أواخر العصر الحجري الوسيط او ربما في أوائل العصر الحجري الحديث

(١) مقارة الوادي. انظر : Garrod and Bate, pp. 175-7.

(٢) راجع : John Garstang and J. B. E. Garstang, *The Story of Jericho* (London, 1940), pp. 49-51.

بده مرحلة اخرى اتجهت نحو حياة الاستقرار وكان لها تأثير أثبت على الانسان وهذه المرحلة هي ممارسة الزراعة .

وقد كانت سوريا مساعدة بانها موطن الحيوانات النيلية التي يمكن تأليفها كا انها موطن الحشائش التي يمكن تدميغها . فالقمح والشعير البري ينموان بصورة طبيعية في سوريا الشمالية وفلسطين^١ ولا بد ان قيمتها الفدائية قد اكتشفت في عصر بعيد جداً . والمنساجن الصوانية وسائل الادوات التي تركها النطوفيون^٢ بكثيات كبيرة تظهر انهم ومعاصريهم في سوريا الشمالية كانوا من اول من مارس شكلاً ما من اشكال الزراعة في الشرق الادنى . وكان الناس لا يزال اكثراً من سكان الكهوف الذين يشبهون سكان مصر^٣ ويعيشون على الصيد البري وصيد الاصناف وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي . ولا ريب ان الزراعة بدأت كعملية زرع بدائية بواسطة القفاس وكانت تستوجب التنقل من مكان الى آخر عندما تستنفذ التربة السطحية خيراتها . ويحتمل ان تكون الخطوات الاولى قد اتخذت قبل الالف السادس وذلك قبل ظهور الخزف او المعادن بقرعون . وهكذا اصبح جامع الفداء متيجاً له الان . وكانت اكياس الجلد والقطين لازال تستعمل لخزن الاطعمة والسوائل ونقلها . وليس لدينا دليل عن ممارسة اي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد . ويبدو ان المهاجرين الساميين الاولين الى مصر اتوا من سوريا وادخلوا معهم القمح وزراعة الكرمة^٤ . والكلمة التي تعني القمح (gmhw) وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة (ka(r)mu) في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقة من السامية وبالاخص من الكلعانية^٥ وتبدو صور الحاريث من بلاد بابل ومصر وسوريا الحديثة متشابهة بشكل يلفت النظر (انظر الشكل في الفصل الحادي عشر).

١) انظر : Childe, p. 45 ; René Neuville, « Les Débuts de l'agriculture et la fauille préhistorique en Palestine » *Journal of the Jewish Palestine Exploration Society* (1934-5), pp. xvii seq.

٢) راجع : D. A. E. Garrod, « A New Mesolithic Industry : The Natufian of Palestine », *Journal Royal Anthropological Institute of Great Britain*, vol. lxii (1932), pp. 261, 263, 265.

٣) انظر : Strabo, *Geography*, Bk. XVII, ch. I, § 2

٤) انظر : H. R. Hall, *The Ancient History of the Near East*, 8th ed. (New York, 1935), pp. 89-90.

٥) راجع : W. F. Albright, « Palestine in the Earliest Historical Period », *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. xv (1935), pp. 212-13.

اما كيف اكتشف انسان العصر الحجري الوسيط احتلال تدجين النباتات فذلك لا يمكن لأي امرئ ان يقوله بالضبط . وقد اعتاد الانسان حتى هذا الوقت ان يجعل بعض الحبوب البرية في جلة طعامه . ولا بد ان بعض هذه الحبوب سقطت بالصدفة على الارض في زمن ما وان انساناً او بالاحرى انساناً متفوقاً لاحظ غر الحبوب بكثافة حول نخيم السنة السابقة وعندئذ اشرقت الفكرة العظمى في عقله . ولم يكن باقل من انسان متفوق ذاكر الذي حمل قبيلته بالقوة او بالاقناع على عدم استهلاك جميع البذور التي جمعت في فصل معين وعلى ابقاء بعضها بل انتقاء اجودها لضمان غلة في المستقبل وتحسينها . وقد مهدت زراعة القمح والشعير الطريق لسائر الحبوب كالذرة مثلًا وفيما بعد للثمار مثل العنب والتين والزيتون وكذلك مختلف انواع الحضارة التي زرعت جميعها وتحسن قبل ان يبدأ التاريخ .

حياة الاستقرار

وقد كانت الزراعة عملاً انقلابياً بالنسبة لتقدير الانسان اكثر من تربية الماشي ويتطورها اخذ الانسان يعيش في اكواخ مبنية من الطين او في بيوت من اللبن . وقد وجدت بقايا المساكن البدائية في اقدم الطبقات التي سكنتها الانسان في اريحا وترجع الى نحو ٥٠٠٠ ق. م^١. وفي طبقات تل الجديدة^٢ ورأس الشمرة^٣ وكذلك بيلوبون^٤ التي اتت بعدها . ولم توجد مساكن بشرية اقدم من هذه في اي مكان آخر وقد يكون لاريجا اقدم تاريخ متواصل من اية مدينة في العالم . وانسان العصر الحجري الوسيط الذي كان حتى الان متنقلًا اصبح بعد ممارسة تربية الماشي والزراعة ممارسة تامة مستقرًا متيقناً يسيطر على موارد غذائه . واخذت الكهوف والملاجئ الصخرية في الاماكن المرتفعة تهجّر بالتدرج واستبدلها الانسان بالمساكن في السهول ، وظهرت ملكية الارض . وعندما كان الانسان متبعولاً لا يستقر في مكان

١) انظر : Garstang and Garstang, pp. 47-8

٢) في شمال سوريا ولا يزال اسماها القديم موجوداً . انظر من ٢٢ في ما يلي هامش رقم ١ .

٣) انظر : Claude F. Schaeffer, *Ugaritica* (Paris, 1939), pp. 3-4

٤) راجع : Maurice Dunand, *Fouilles de Byblos*, vol. i (Paris, 1939), text, pp. 295-6.

ويستبر دوناث مباني بيلوس من حوالي ٣٢٠٠ ق. م. اقدم مبان حجرية اثرية في الشرق وربما في العالم . وكان الذين بنوها غالباً من الشعوب التي سبقت قوم الساميين . وترجع القبرة الى النصف الاول من الالف الرابع .

واحد بمحى لتأثيره عليه بيتته تأثيراً كافياً لم يكن يقدر هذه البيئة ان تغير التغير المكلي او تعطيه لونها المحيي ومن هنا فقد كان اختباره موزعاً وغير متباهاً . اما الان فان استقرار مسكنه قد عمل على تجميع الاختبارات المتشابهة وانقلما بشكل تقاليد حضارية . وعلى ذلك فان الانسان المستقر قد كون لنفسه مخازن ليس للغذاء فحسب واما للأكلات التي جعلته قادرآ على نقل اختباره الى الاجيال المقبلة بصورة احسن .

الحياة العقلية

كانت احدى النتائج المأمة للحياة الجماعية انها عملت بصورة قوية على تطور اللغة . والذى يذهلنا اليوم هو درجة الانتقاف التي وصلتها اللغة بفعل العقل البشري في العصر الحجري الوسيط وترىنا مقارنة العربية الحديثة الدارجة مثلاً بما يمكن معرفته من اللغة السامية الام تطوراً مستمراً نحو التبسيط بالنسبة للمستوى العالى في عصور ما قبل التاريخ البعيدة .

واثر آخر للحياة العقلية عند انسان العصر الحجري الوسيط اعتقاده الديني بالآله او بجموعة من الآلهة وظهور فكرة بدائية عنده اولية عن نوع من حياة ثانية للراحل بعد الموت . ويدلنا على ذلك وجود اواني الطعام والتقديمات في أماكن الدفن . وتعود آثار مثل هذا المعتقد القائم بالحياة الثابتة الى الحضارة المستيرية . غير ان تربية الماشي ومارسه الزراعة جعلت الديانة اكثر تعقيداً وشاروا يفضلون الآلهة التي تهم بالحقول والماشى على الارواح التي يعتمد عليها الصيادون . في مرحلة حياة الرعي كان الناس على ما يظن يعبدون الله القمر الذي كان اكثراً نفعاً وتلطقاً من الشمس في بلاد حارة مثل سوريا وفلسطين . وكان القمر يهد رهبة الظلام ويأتي بالبرودة التي يمكن القطعان ان ترعى فيها براحة . ولذلك فانه كان صديق الراعي اكثر من الشمس . والعبد الذي وجد في اريحا ويرجع الى اواخر الالف السادس ق. م. ربما كُرس للله القمر^١ .

واثناء نشوء الحياة الزراعية اوجد الانسان في فكره ارتباطاً بين النمو وبين الشمس التي اخذت حينذاك تقسم على القمر . وبدأت في ذلك العهد عبادة الآلهة الشمس وكذلك عبادة الارض الام بشخص الاهة للخصب تتعهد شؤون الزراعة .

١) انظر ما سبق من ١٦ .

وانتخذت الديانة شكلًا مؤنثاً واضحًا لسب آخر وهو أن المرأة يمكنها ان تمارس الزراعة بسهولة أكثر من ممارسة الصيد . والرموز المتعلقة ببطقوس العبادة وكذلك الميتولوجيا المتصلة بالآلة الخصب التي بلقت ذروتها فيما بعد في قصص ادونيس - عشتار واوزيرس - ايزيس في فينيقية ومصر كانت اصولها في هذه الفترة . ولا بد ان مجموعة التأثيرات الثلاثة التي اتت من اريحا القديمة وتشمل الاب والام والابن^١ كان لها معنى طفقي كأنها تقيدنا بان نظام العائلة كان قد اتخذه في الالف الخامس الشكل الذي اتخذه بصورة دائمة فيما بعد .

الفن

ورافق نمو انسان العصر الحجري الوسيط من الوجهة الدينية تطوره الفني . والفن هو كاللغة صفة مميزة للبشر . وقد ولد عندما استيقظت امكانية التقليد التعميد في وعي احد ابناء العصر الحجري . ودخلت حينذاك نفس الانسان في عالم جديد هو عالم الخيال والجمال .

وكان الفن في مظهره الاول مرتبطة بالسحر ارتباطاً وثيقاً ، وكان يُظن ان جودة الحيوان تعطي الرسام سلطة على ما يرسمه او عليه . وقد وجد في احد كهوف الكرمل رسم رأس ثور حفره انسان العصر الميزيوليتي في العظم . ولما كان الانسان يشعر بالقوى المحيطة به ويعلم مقدار عجزه فانه وضع نظاماً سحرياً يعززه بعظام من العظام والحجر والتمس بواسطته الحياة من الاشياء التي كان يرهبها . فالثور كان عنصراً أساسياً في ديانة الاولى . وزواه فيما بعد يبحث عن بعض الفوائد بواسطة السحر ومن جهة هذه القراءة زيادة حصول قطبيده او غلته . فعبادة الارواح والسحر هما اساس الديانة البدائية على الغالب . فعبادة الارواح هي التي جعلت الانسان ينوب الى مختلف الاشياء التي تحيط به روحًا تسكنها وعليه ارضاؤها اذا كانت خيبة او تقديم التقدمات لها اذا كانت نافعة .

والقطع المحفورة في العظم او الحجر من العصر النطوفي كثيرة واحسنها تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم . ويبعد ان «اقليم الامم» المعروفة للفن

(١) انظر : Garstang and Garstang, p. 57

التشكيلي في فلسطين على كل حال^١ ، هي تلك التقدمات التدريجية على شكل صور الحيوانات الداجنة التي وجدت في اريحا^٢

حضارة العصر الحجري الحديث

وفي العصر الحجري الحديث (او النيليني) الذي دام نحو النبي سنة اعتباراً من عام ٦٠٠٠ ق . م . حصل تقدم محسوس في الزراعة وتربية الحيوانات واستعمال الادوات الحجرية المصنوعة والحياة المستقرة . وقد رأى هذا العصر ايضاً اختراع الحزف واستكشاف المعدن . وتحتفل حضارة العصر الحجري الوسيط في سوريا وفلسطين عن سائر الحضارات الميزوليتية بان صفتها البارزةتين وهما تربية الماشي والزراعة تسبقان الحزف والمعدن .

وعندما تعلم الانسان صنع الاواني من الطين وخازها فانه قام باكتشاف آخر بالأهمية في مجال تقدمه الحضاري . وسرعان ما حلت الاواني الحزفية محل الاواني من اليقطين او الجلد او قطع الحجارة والخشب الجوفة التي كانت تخدم حاجته الاقتصادية حتى ذلك الوقت ولو بصورة غير تامة . وكان مؤدي الاختراع الجديد ان الانسان حار بامكانه ان يعيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج اليها وان يطبخ طعامه طبعاً حقيقياً بدلاً من ان يأكله نيئة او مشوية ، وام من ذلك ايضاً انه حار يتمكن من تخزن ما لا يكفي استهلاكه في وقت معين لاستخدامه في المستقبل وهكذا اضاف الانسان الى سيطرته على مورد الطعام سيطرته على حفظه . وبعد ان حار جامع الطعام في مرحلة البداوة متبعاً للطعام في مرحلة الزراعة اصبح الان فوق هذا كله حافظاً للطعام . وقد اعطاه ذلك وقتاً للفراغ بدلاً من البحث المتواصل عن وسائل المعيشة ، وكانت اوقات الفراغ امراً ضرورياً في تربية شؤون الحياة الريفية .

الحزف

يظهر الحزف في فلسطين في احدى الطبقات الدنيا في اريحا ويعتقد غارستانغ انه اخترع هناك^٣ . وقد اخذ الحزف في اول الامر شكل احواض مجوفة في

(١) انظر : Garstang and Garstang, p. 54

(٢) راجع ما سبق من ١٦ .

(٣) انظر : Garstang and Garstang, pp. 53-4

لارض ومبطنّة بطبقة من **الكلس** ثم اشكال جرار ذات اطراف بسيطة وقعر مسطّح ومسكّات على شكل الكرة او المروة . ويظهر اقدم الخزف في سوريا في القسم الواقع بين النهرين . وقد يرجع خزف سوريا الشمالية ذو اللون الواحد الى حوالي ٥٠٠٠ ق.م . وقد تبع ذلك خزف مدهون من **تل الجديدة**^١ الواقعة في شمالي شرق انتاكية ويعود الى حوالي منتصف الالف الخامس وهو مزخرف برسوم بدائية جداً . وينتسب الى نفس الطبقة الحضارية الخزف المدهون الذي اكتشف في «**ساكجي جوزي**» في اقصى شمال سوريا واقدم انواعه هو الخزف الاسود المغفور ، وتتبعه انواع جديدة ذات زخارف ملونة^٢ . ووجدت قطع من خزف سوريا الشمالية في مناطق بعيدة الى الشرق مثل سامرا على نهر دجلة . ويغلب ان يكون حصل اختراع دولاب الخزف قبل عام ٤٠٠٠ ق.م . ولكنه لم يستخدم بصورة بارعة في جنوب فلسطين حتى حوالي ٢٠٠٠ ق.م . وكان الخزف قبل هذا الاختراع يصنع باليد .

وقد شهد القسم الاخير من الالف الخامس والقسم الاول من الالف الرابع ارفع مرحلة في تاريخ الفن الزخرفي القديم . وكانت منطقة سوريا الشمالية وببلاد الرافدين مركز هذه المرحلة . ويمكن تسمية هذه الحضارة بحضارة **تل حلف** بالنسبة لـ **تل حلف**^٣ (وهي غوزان القديمة) على نهر المايبور . وتمثل هذه الحضارة في العرب مدينة مرسين في كيليكية . وكان رجالها من مزخرفي الاولئى الذين حاولوا التفوق كما يبدو على ما يبلغه صناع السلال وحانقو السجاد من مهارة فنية . وكانت اواتهم التي تشمل الصعون والطاسات والزواقي والجرار والكتؤوس تعتبر من الوجهتين الصناعية والفنية من اجل الاولئى المصنوعة باليد في العصور القديمة . كانوا يستعملون الزخارف الهندسية والنباتية المتعددة الالوان « التي لم يجاوزها شيء في

(١) وقد تتب فيها روبرت ج. بريدود (Braidwood) . افلر كتابه : *Mounds in the Plain of Antioch* (Chicago, 1937), p. 7; *Prehistoric Men* (Chicago, 1948), pp. 92-3.

(٢) رابع : John Garstang, « Excavations at Sakje-Geuzi, in North Syria », *Annals of Archaeology*, University of Liverpool, vol. I (1908), pp. 114-17.

(٣) قلم باسم التنقيب فيها ماكس فون اوينهايم (Max F. Von Oppenheim) ; افلر كتابه : *Deir Tell Halaf* (Leipzig, 1931). و«**التل**» هو مرفق اصطلاحى مؤلف من أتفاقى علة مدن يلو بضمها بعضاً . وهذا المفهوم خالى باستثنية الفربية حيث يلو منذ ٢٠٠٠ ق.م . وكله «**تل**» عربية من اصل سومري .

بجالها في اي عصر آخر من عصور التاريخ وذلك من وجها نظرنا الحديثة على الاقل^١ . وليس هنالك ايضاً ما يحملنا على الاعتقاد بان مقدرة الانسان العقلية قد ازدادت كثيراً منذ ذلك الحين . وان اكبر عدد من اراكز السكن من عصر الحزف المدحون الذي نحن بصدده واكتف البقايا وارق الاثار الحضارية قد اتنا من شمال سوريا وببلاد النهرين ، وهذا لا يترك لنا اي شك بان تيار الحضارة الرئيسي في غرب آسيا كان يمر حينذاك في هذه المنطقة تاركاً المناطق المجاورة غير متأثرة نسبياً.

ان اضافة الحزف الى ادوات الانسان البدائية قد اسدت وان يمكن بطريق الصدقة خدمة عالمية مفيدة . ذلك ان الحزف غير قابل للتلف بالرغم من انه يمكن ان يتتحول الى قطع مكسرة لا حصر لها . واسلوب صنعه وزخرفته يظهر لنا ذوق العصر وازياءه كما تظهر ذلك ثياب النساء في ايامنا هذه . وتوزع الحزف يعطينا احسن دليل للعلاقات التجارية القديمة . ولذلك فان دراسته تفتح للعالم الحديث نافذة واسعة يمكنه ان يتطلع منها الى الماضي المظلم . وتنفتح الاواني المعدنية لنا نافذة اخرى . وبظهور الحزف والمعدن تنتقل من عصر ما قبل التاريخ الى بدء العصور التاريخية .

(١) انظر : William F. Albright, *From the Stone Age to Christianity* (Baltimore, 1940), p. 98.

الفصل الثالث

الأدوات - المعذبة

بدأت باكتشاف المعدن مرحلة جديدة هامة في تدرج الإنسان حل فيها المعدن محل الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات ، وتسى هذه المرحلة بعصر المعدن .

العصر النحاسي الحجري

وقد يكون هذا الاكتشاف قد حصل في غرب آسيا بعد اختراع الخزف بدة وجيزة ، غير ان استعمال النحاس ، وهو اول المعادن ، على صورة واسعة قد تأخر غالباً نحو الف سنة . وفي سوريا وفلسطين أخذ الناس يستعملون المعدن بشكل متسع الى حد قليل حوالي ٤٠٠٠ ق. م. ولكنه لم يأخذ مكان الحجارة كمادة رئيسية لصنع الأدوات والأسلحة حتى بعد ٣٠٠٠ ق. م. ويمكن تسمية هذا الالف الرابع بالعصر النحاسي الحجري حيث كان النحاس يستعمل في الاوساط الراقية بينما كان الصوان لا يزال يشكل دون منازع المادة الرئيسية . وتذكر آثار الحضارة النحاسية الحجرية في اوغاريت وسائر الواقع في شمالي سوريا وفي تلبيات الفسول^١ (التي انت منها أدوات تعد من اقليم الأدوات المعدنية التي اكتشفت في فلسطين حتى الآن) وسائر المراكز في فلسطين . وفي حوالي ٣٠٠٠ ق. م. يبدأ العصر النحاسي وكثيراً ما يدعى خطأ العصر البرونزي . وتم فوز النحاس باكتشاف فازات هذا المعدن في ادوم جنوبي البحر الميت وشرقيه حوالي ٢٠٠٠ ق. م.

وتظل سوريا الشمالية في العصر النحاسي الحجري كاً في العصر الحجري الحديث المركز الحضاري الرئيسي للشرق الادنى بأسره . ولا بد ان احد سكان هذه المنطقة قد اكتشف النحاس عندما كان يحرث ثار بخيته مدققة بقطع من المعدن الخام ثم

١) وقد نقبت فيها بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ بعثة المهد التوراتي البابوى . انظر : Alexis Mallon et al., *Teleilat Ghassul I* (Rome, 1934 ; Robert Koeppel et al., *Teleilat Ghassul II* (Rome, 1940).

لاحظ في اليوم التالي حبات المعدن المتلاة بينما كان يحرك الرماد . وربما لم يدرك ذلك الانسان المقيم في سوريا الشمالية في العصر الحجري الحديث انه بعمله هذا قد بدأ حركة انقلابية ادت الى رفع الحضارة بتكاملها من مستوى الحجر الى المعدن وقد اصبح الانسان ، بعد اكتشاف المعدن وادراكه خواصه ، على عتبة عصر جديد استمر حتى الازمة الحديثة . وان البرونز بعد النحاس ثم تبعه الحديد . وصادف بهذه عصر البرونز اختراع الاممёدة . وهكذا تنتهي حضارات سوريا السابقة لعصر الكتابة وتبدأ حضارة عصر التاريخ .

وانتشرت معرفة النحاس من سوريا الى جميع الجهات . ومن المهم جداً ان تكون مصر قد تلقتها في عصر ما قبل السلاطات من هذا المصدر عن طريق القروءة السامية^١ . كذلك يمكن ان تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب^٢ . وهكذا فان الجسر السوري الذي يتدفق فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنخفق الفرات يبرز في اهميته كمسرح لتجددن القمع واختراع المزيف واكتشاف المعدن .

وتدلل آثار الانسان في هذه المنطقة انه استخدم النحاس او لا ثم مزيجه القاسي وهو البرونز لاجل صنع الاسلحة الحربية قبل ان يستخدمه لادوات السلم . وقد تمنت القبائل او الجماعات التي جعلت سلاحها من هذا المعدن الصلب القابل للتطريز والالتواء بتفوق عظيم على تلك التي استعملت الحجارة . غير ان فنون السلم استفادت ايضاً . فقد تحسن فن المماراة بشكل ملحوظ . وظهرت ابنيه كبيرة الحجم وتقييد بقايا المنازل انما كانت مستطيلة في تحديدها بينما كانت المزارات مستديرة .

المجاهدة الفرسولية

وفي مدينة تليلات الفرسول شمالي البحر الميت التي ترجع الى العصر النحاسي الحجري كانت احد الجوانب الكبيرة للبيوت المستطيلة كثيراً ما يقابل باحة .

١) انظر : Hall, p. 90.

٢) اكتشف السومريون في الجنوب هذا المعدن على الغالب في زمن اقدم وبصورة متقدة تلقو ما يلزمهم من عمان ؛ انظر : Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (London, 1970), p. 36 ; « Sumerian Copper », *Report British Association for the advancement of Science*, 1928 (London, 1929), pp. 437-41.

وكان الجدران مبنية من اللبن والأساسات من الحجر العائم . والسقوف كانت مصنوعة من القصب المغطى بالطين . وتحت ارض المنزل وجد اولاد وقد دفنوا ضمن جرار . وبعض الموتى كانوا يحرقون وهذه عادة غير سامية قطعاً . وقد خصص سكان الكهوف في تل الجزر كهفاً لاحراق جثث رفاقهم المتوفين . وكان الطريق اسهل الطرق للتخلص من الجثة وبواسطته كانت روح الراحت تتبعد بمحى لا يصيب الاحياء اي اذى . وان هذه الجرار التي تحتوي الموتى بدلون ان يحرقوها واغاث بشكل منحنٍ وتتدفن تحت ارض منازل العصر النبوليتي قد وجد منها في مناطق بعيدة في الشمال مثل اوغاريت^١ وكذلك في كركميش (جرابلس) في عصر متاخر^٢ . واكتشفت حوادث الدفن في اوان خزفية في اماكن اخرى كما في جزر^٣ (تل الجزر) جنوب شرق الرملة التي تنسب الى نفس الحضارة القديمة . وفي جزر يمكن مشاهدة ساكن الكهف في طريقه لأن يصبح من ساكني البيوت . والقرية التي نشأت فيها بعد احيطت بسور خشن كما كانت الحال في قرى كثيرة اخرى من عصر البرونز للحماية ضد الاعداء . وتبدو تحصينات المدن في ذلك العصر . وقد وضع بجانب احدى الجثث المكتشفة في جزر خزف مليء بالطعام والشراب^٤ بما يظهر اهتماماً متزايداً بالموتى .

وتدل كومة العظام التي وجدت تحت معبد جزر ان الخنزير الذي دجنه الفلسطينيون منذ عهد بعيد كان الحيوان المفضل للذبيحة وهذا ما جعله موضع اشتياز بالنسبة لاعدائهم الساميين الذين اتوا بعدهم^٥ . وفي الجزر كانوا يزرعون العنبر والزيتون ويدوسونها في حفر ذات تجويف اسفل لاجل الحفالة^٦ . ومثل هذه الاشكال البسيطة لمعاصر الثار المتفورة في الصخر قد وجدت في اماكن اخرى

Claude F. A. Schaeffer, « Les Fouilles de Ras-Chamra », Syria, vol. XV (١) (1934), pp. 111-12, pl. xi, No. 2, facing p. 110.

C. Leonard Woolley, « Hittite Burial Customs », Annals of Archaeology and Anthropology, University of Liverpool, vol. vi (1914), p. 88 ; Carchemish, Vol. ii (London, 1921), pp. 38-9.

(٣) قام باعمال الحفريات فيها ١٩٠٢-١٩٠٨ ر. أ. مکالیستر Macalister ؛ انظر كتابه : The Excavation of Gezer, 3 vols. (London, 1912).

(٤) انظر : Macalister vol. i, pp. 74 seq., 285 seq.

(٥) Macalister vol. ii, pp. 379-80

(٦) Macalister vol. iii, p. 49

ايضاً . ويبدو ان الكرمة وشجرة الزيتون كانتا من نباتات حوض البحر المتوسط وقد زرعتا بصورة حثيثة ودجنتا في اول الامر في طرف الشرق ومن هناك انتشرتا فيما بعد باتجاه الغرب بطريق التجارة والتوصّع . ويصدق هذا ايضاً على شجرة التين . ولا يزال الزيتون وزيت الزيتون واللبن والتين والقمح والشعير حتى اليوم المواد الغذائية الاساسية في سوريا . وفي بلد مثل فلسطين حيث التربة فقيرة بوجه الاموال كان الحصول الشعير اكتو بكثير من محصول القمح . وفعلاً الصين هو عيناً مثل قمح الشرق الادنى ويبدو ان الاصول البرية التي تحدّرت منها ثيراها واغنامها المذكورة اتت من الاتواع البرية في الشرق الادنى^١ .

وقد جرت اعمال الحفر في مدن اخرى من العصر النحامي الحجري من التموج الفسولي في اريحا ويعدو^٢ (تل المتسلم) والغفولة وبيت شان (بيسان) ولاكيش (تل الدوير) واوغارت وبيبلوس . وتقابل الحضارة الفسولية في فلسطين حضارة تل حلف في سوريا الشمالية وببلاد الرافدين وان اتت بعدها بقليل .

الزراعة المعتمدة على الري

وفي هذه الائمه ازداد الاهتمام بالزراعة وتربية الماشي . واتسع استخدام التور والقنم والماعز التي بدأ تدجينها في العصر الحجري الحديث كايتضاع من ظهورها المتكرر على التلليل الصغيرة من الطين . وهناك اشكال حيوانية داجنة اخرى كانت شائعة وتمثل الخنازير والخنافس . وتفيدنا الدلائل التي اتت في فترة تالية ان الحمامات كانت مقرّونة باللاهة الام وهي الآلهة التي تمثل مبدأ الحياة والخصب . وكانت تقع جميع مراكز السكنى تقريباً في العصر النحامي الحجري في اودية الانهار او السهول الاصحاحية وكانت تعتمد على الري . وهكذا فان العمل البارز في هذه الفترة في ميدان الزراعة هو الزراعة المعتمدة على الري وتشمل زراعة انواع متعددة من الحضار كالحس والبصل والثوم والمحص والفول والتوابل . وينعكس هذا الازدياد في تنوع الفداء المتوفر وكيفية ارتفاع وسطي القناة البشرية ارتفاعاً ملحوظاً في اواخر العصر النحامي الحجري .

١) رابع : «The Beginnings of Civilization in Eastern Asia», *Journal of the American Oriental Society*, vol. lix, suppl. (Dec. 1939).

٢) انظر : Robert M. Engberg and Geoffrey M. Shipton, *Notes on the Chalcolithic and Early Bronze Age Pottery of Megiddo* (Chicago, 1934).

التركيب العرقي

اما التركيب العرقي لسكان ما راكم هذا الدور فانه ليس واضحا . والعنصر السادس حتى لم يكن سامياً ، والساميون كما سُنّى يأتون فيما بعد ويختلون شمالي سوريا وجنوبيها . ولا بد ان ظهورهم حصل حوالي نهاية العصر النحاسي الحجري . ويحتمل القول بان بعض سكان هذه الفترة كانوا ينتسبون الى نفس العنصر الاصلي الذي تفرع عنه الساميون والاخاميون فيما بعد . والبعض الآخر كانوا على ما يبدو من العنصر المعروف بالارمني كما تفيد دراسة بقايا المياكل العظمية في الجزر في جنوبى البلاد^١ . وتدل البقايا الاثرية الاخري المكتشفة في كركميش وساكنجي غوزي في الشمال على الانساب لهذا العنصر وتثبت شيوخ التموج الارمني في سوريا في العصر النحاسي الحجري . ويساعد على اثبات ذلك ان كثيراً من اسماء الاماكن القديمة في سوريا الوسطى والشمالية ومن جملتها دمشق وتلمر لا تترك مجالاً لاي استفاق سامي اكيد ، وربما كانت من بقايا الامم التي سبقت ظهور الساميين . والعنصر الارمني الذي هو الفرع الشرقي للعنصر الآلي يتميز بالانف التقليل البارز والجمعة العريضة القصيرة . ويعتله الحوريون والذين سبقو المندن الاوربيين بين الشعوب القديمة والارمن واليهود بين الشعوب الحديثة . وزادت في قوة هذا العنصر حركات تالية منها حركات الحثين ولا تزال صفاتة البارزة ظاهرة في البلاد السورية .

واذا لم يكن من شك بأن عروقاً مختلفة شاركت في تكوين سكان سوريا فان وجود عرق غريب من « الطغاة في الارض في تلك الايام »^٢ ليس هنالك ما يؤيده . ولا بد ان قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشاراً واسعاً والتي يبلغ طول بعضها مئات الالامان بالإضافة الى الاضرحة الاثرية المسماة دولمن (Dolmens) المبنية بمحاجرة كبيرة غير مهدبة على اسس مستديرة متينة قد كان تأثيرها عظيماً على القادمين الجدد بما ادى الى ظهور مثل هذه الاساطير . وقد انتقلت هذه الاساطير المتعلقة « ببني عنان من الجبارية »^٣ وبالعلاقة الى الادب العربي والاسلامي . واسم المدينة

(١) Macalister, vol. i, pp. 58-9

(٢) سفر التكوين ٦ : ٤

(٣) سفر الصد ١٣ : ٣

الفلسطينية الواقعة في المنطقة التي اقى منها جيليات وهي بيت جبرين (بالعبرية بيت جبرين) معناه « موطن الجبارية » .

وتكثّر الدولن حتى اليوم في شرق الأردن ومرتفعات فلسطين وسوريا وفي آسيا الصغرى . وتبرهن آثار الأدوات المعدنية على جدران بعض الكهوف الضخمة والحلقات النحاسية التي اكتشفت في أحدى الدولن في شرق الأردن^١ أنها تعود إلى العصر النحاسي الحجري . وأكثر هذه القبور (الدولن) بدائية توجده في أرض كنعان وترجع إلى العصر الحجري الحديث أي ٥٠٠٠ ق. م. وتنظّم المنشآت المصنوعة من الحجارة الضخمة في غربى أوروبا بعد ذلك بالف سنة او أكثر وقد اثار وجودها قصصاً خيالية هائلة عن الجبارية في عصور ما قبل التاريخ .

التطور الفني

وقد تقدم الفن وخاصة الفن التشكيلي تقدماً محسوماً بعد ظهور المعدن . ونذكر الاختام والخلي والأواني النحاسية الآتية من هذا العصر . وتحسنت الصفة الفنية لهذه المنتجات وأشباهها . وأخذ الناس يعنون بصورة جدية بفن التحت الذي كان أول ظهوره في العصر الحجري الوسيط كما وأينا . وقد اكتشفت رسوم بشرية وحيوانية على حجارة مرصوفة في طبقات العصر النحاسي الحجري الأخيرة في مجدو . وتتمثل الرسوم الجدارية المعاصرة من تليلات القسول الموجودة على الجدران الداخلية المبنية فن البن استكملاً بشرية أو إلهية بالوان متعددة^٢ . وكانت تلك أول محاولة معروفة لزخرفة القسم الداخلي من المنزل . غير ان الزخارف على الخزف هي التي ظلت تتبع للفنان احسن الفرص لممارسة فنه . وفي نهاية الالف الرابع كان فن الطلاء الزجاجي قد وصل كريت في بيته العصر المينوسى ومصر في اول عصر السلالات من شمالي سوريا . وتبدو الاواني المزخرفة بطلاء زجاجي حسب تقاليد سورية الشهالية كمواد مستوردة في قبور الفراعنة الاولى في ابيdos . وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سوريا مجموعة مختزنة من التأثير النحاسية الصغيرة المصووبة

(١) انظر : Gottlieb Schumacher, *Northern Ajlun* (London, 1890), p. 176.

(٢) راجع : Millar Burrows, *What Mean These Stones* (New Haven, 1941), p. 188 ; Chester C. McCown, *The Ladder of Progress in Palestine* (New York, 1943), pp. 61-63.

وينها إله وإلهة للخصب^١ يعتقد أنها أول تمثيل معروف للشكل البشري بواسطة المعدن.

وقد أدى ثور صنع المعادن والخزف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي الحجري وأوائل العصر النحامي إلى ظهور حرف مختلف وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل. وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت. وبدأت التجارة تتعدد شكلاً دولياً. وكان توسيع الاتصالات التجارية والثقافية بين سوريا وفلسطين ولبنان من جهة ومصر وببلاد بابل من جهة أخرى عاملاً أساسياً في حياة هذه البلاد في العصور التالية. وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها في الشرق الأدنى نشاطاً عظيماً كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقوة الكهربائية.

ولم يبقَ سوى اختراع عظيم واحد حتى يظهر ضوء عصر التاريخ: ذلك الاختراع هو الكتابة. وقد ادت أول الوثائق المكتوبة المكتشفة حتى الآن من سومر حوالي ٣٥٠٠ ق. م. وانتشرت الكتابة من جنوب بلاد الرافدين إلى شمال سوريا وأصبحت متقدمة تماماً في أوائل الألف الثالث. وبالكتابية يبدأ التاريخ. ولكن قبل أن ندخل في بحث عصر التاريخ في حياة سوريا علينا أن نلقي نظرة على البلاد نفسها التي كانت مسرح الحوادث التاريخية.

١) وهي الآن في متحف المهد الشرقي لجامعة شيكاغو. انظر دليله: *Handbook and Museum Guide (Chicago, 1941)*, pp. 6-7

الفصل الرابع

مسرح الحوادث

ان الصفة البارزة للطبوغرافية السورية هي تناوب الاراضي المنخفضة والاراضي المرتفعة بحيث تحدى بعضها بعضاً وتتجه من الشمال الى الجنوب . ويمكن تقدير سلسلة من خمس مناطق طولانية من هذا القبيل بين البحر والبادية .

السهل الساحلي

واول هذه المناطق من جهة البحر هو السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر المتوسط الشرقي من شبه جزيرة سيناء الى خليج اسكندرية (ايосوس القديمة) . وينحصر هذا السهل بين البحر والجبل فيتسع في الشمال والجنوب ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان . وفي القسم الذي يحاذي لبنان لايزيد عرض هذا السهل عن اربعة اميال في اي جزء من اجزائه بينما يصل اتساعه عشرين ميلاً عند عسقلان . وفي بعض الاحيان يكون الارتفاع من السهل الساحلي مفاجئاً بشكل يستلفت النظر . ففي جونيه شمالي بيروت تلي السهل الساحلي الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً تلال ترتفع مقدار ٢٥٠٠ قدم على بعد اربعة اميال من البحر . وعلى ثلاثة اميال الى الجنوب عند مصب نهر الكلب (نهر ليكوس Lycus الكلاسيكي) تصل المرتفعات الجبلية الى البحر وبذلك تعطي السكان موقعاً استراتيجياً لمنع مرور القوات المعادية . كذلك في الكرمل يحول الرأس الجبلي دون وجود اي سهل ويترك هرآ يكاد لا يبلغ عرضه ٢٠٠ يدة على الساحل وهذا يتحول الى الداخل ذلك الطريق الدولي العظيم الذي كان في العصور القديمة يبدأ بصر ويتبع الساحل نحو الشمال .

ويرجع اصل معظم السهل الساحلي الى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي بعيد المعروف بالدور الثالث . وقد ترسّب فوق الطبقة الطباشيرية في بعض الاماكن طمي اتى بها المياه الجارفة من المنحدرات الجبلية ونشرته .

والترسبات الرملية التي تحيط بيروت قد تركتها امواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من نهر النيل. وعلى ذلك فان الساحل المكون من شواطئ رملية واحواض بحرية والذي تزيد في ثروة تربته وترويجها المرتفعات الجاورة هو سهل خصب جداً في جميع اجزائه ويشمل في الجنوب تلك السهول المشهورة في الازمنة القديمة وهي سهل حارونه وسهل فلسطين ومنها اق اس فلسطين كما يشمل ساحل النصيرية في الشمال ومنطقة الساحل في لبنان.

والساحل بكامله من اكثـر السواحل استقامـة في العالم فلا يوجد فيه خليج نهري عميق او اي خليج آخر لهم الا في الشمال حيث خليج اسكندرـون . ومن هـذا المكان حتى حدود مصر يكاد لا يوجد على مسافة ٤٤٠ ميلـا اي ميناء يستحق الذكر .

السلسلة الفريـة

وتشـرف على الساحـل السـوري سـلسلـة من الجـبال والمـضـاب تـبدأ بالـاماـنوس في الشـمال وتـنتـدـهـتـ جـبلـ سـيـناـ المـرـتـقـعـ فيـ الجـنـوبـ وـامـ اـجزـائـاـ لـبـنـانـ الفـريـيـ وـهوـ لـبـنـانـ الحـقـيـقـيـ . ولـبـنـانـ هوـ المـيـكـلـ الـذـيـ تـرـتـبـطـ بـهـ السـهـولـ وـالـمـنـخـفـضـاتـ الجـاـورـةـ اـرـتـبـاطـ الـعـمـ بـالـظـلـمـ . هـذـهـ سـلـسـلـةـ الجـبـلـيـةـ هيـ تـأـفـيـ المـنـاطـقـ الطـلـوـانـيـةـ وـتـشـكـلـ اـوـلـ حاجـزـ لـلـمـوـاـصـلـاتـ بـيـنـ الـبـحـرـ وـماـ يـقـعـ وـرـاءـ فـيـ الشـرـقـ وـلـاـ يـكـنـ اـخـتـرـاقـ هـذـاـ حاجـزـ بـصـورـةـ حـقـيـقـيـةـ الاـ فـيـ الـطـرـفـيـنـ الشـمـالـيـ وـالـجـنـوـبـيـ وـذـلـكـ عـنـ خـلـيـجـ اـسـكـنـدـرـونـ حيثـ يـجـريـ الـاتـصالـ بـطـرـيـقـ الجـسـرـ السـوـرـيـ معـ سـهـولـ ماـ بـيـنـ النـهـرـيـنـ ، وـعـنـ بـرـزـخـ السـوـيـسـ الـذـيـ يـجـريـ الـاتـصالـ بـوـاسـطـتـهـ معـ الـبـحـرـ الـأـحـرـ اوـ معـ الصـحـراءـ الـعـرـبـيـةـ . وـبـيـنـ هـذـيـنـ الـطـرـفـيـنـ يـكـنـ اـخـتـرـاقـ الحاجـزـ الجـبـلـيـ فـقـطـ فـيـ وـادـيـ النـهـرـ الـكـبـيرـ (ـوـهـوـ Elapherus القـدـيمـ) شـمـالـيـ طـرـابـلسـ وـعـنـ تـصـدـعـ مـرـجـ ابنـ عـامـ شـرـقـيـ عـكـاـ وـحـيفـاـ.

والـاماـنـوسـ^١ هوـ التـوـاءـ فـرـعـيـ يـمـتدـ مـنـ جـبـالـ طـورـسـ (ـالـيـ تـفـصـلـ سـوـرـيـةـ عـنـ آـسـيـةـ الصـفـرـيـ) بـاتـجـاهـ الـجـنـوبـ لـيـتـصـلـ بـكـتـلـةـ الجـبـالـ السـوـرـيـةـ . وـيـحـيطـ اـمـاـنـوسـ بـخـلـيـجـ اـسـكـنـدـرـونـ فـيـشـكـلـ حاجـزاـ بـيـنـ سـوـرـيـةـ وـكـلـيـكـيـةـ وـيـرـتفـعـ إـلـىـ نـحـوـ ٥٠٠٠ـ قـدـمـ عـنـ سـطـحـ الـبـحـرـ . وـيـشـقـ نـهـرـ العـاصـيـ (ـاـوـرـنـتـسـ Orontesـ) طـرـيقـهـ إـلـىـ الـبـحـرـ فـيـ الـطـرـفـ

^١) جـبـلـ الـلـكـامـ بالـرـيـيـةـ (ـمـنـ السـرـيـانـيـةـ «ـاوـكـاماـ» akkāma ايـ اـسـودـ) وـبـالـرـكـيـةـ جـبـلـ كـاـورـ دـاغـ (ـDaghـ Giaourـ) ايـ جـبـلـ الـكـفارـ ايـ الـمـسـيـحـيـنـ) لـاـنـ كـانـ لـمـدةـ طـوـيـةـ حـصـنـ الـامـبـاطـورـيـةـ الـبـيزـنـطـيـةـ خـدـ الـاسـلامـ .

الجنوبي من امانوس . وتعبر هذا الجبل طرق تند الى انطاكية وحلب وقر بالمر الرئيسي وهو مضيق بيلان المعروف باسم «ابواب سوريا (Pylae Syriae) » . وينتشكل امانوس من صخور كلاسية كا في لبنان ومن صخور بركانية وتوجد صخور السربنتين قرب الاسكندرون وتحوي معدن الكروم الذي يكثر في الجبال التركية بشكل خاص^١ .

وتستمر السلسلة الغربية جنوب مصب العاصي في جبل الاقرع (وهو جبل كاشيوس Casius في العصر الكلاسيكي) الذي يرتفع الى ٤٥٠٠ قدم ومن هناك تند الى جوار اللاذقية Laodicea حيث تعرف بجبل النصيرية (Bargylus) ثم تتابع سيرها الى نهر الكبير الجنوبي^٢ . ويشكل هذا النهر الذي ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بين هذه الجبال وبين جبال لبنان كما انه يكون الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسوريا . وسلسلة النصيرية تتالف من صخور كلاسية جوراسية مع مواد بازلية دخلة^٣ . وشكلها العام بسيط نسبياً ولكنه يتضمن اودية عميقة متعددة وأخرى وعرة ومرتفعات شديدة الانحدار تحصن فيها جماعة المشائين الذين اقاموا في سوريا والتجأ اليها المسلمون غير السنين المعروفون بالنصيرية . وبعض تلك هذه السلسلة لا تزال تتوجها اخرائب المهيءة للقلاع الصليبية القديمة .

لبنان

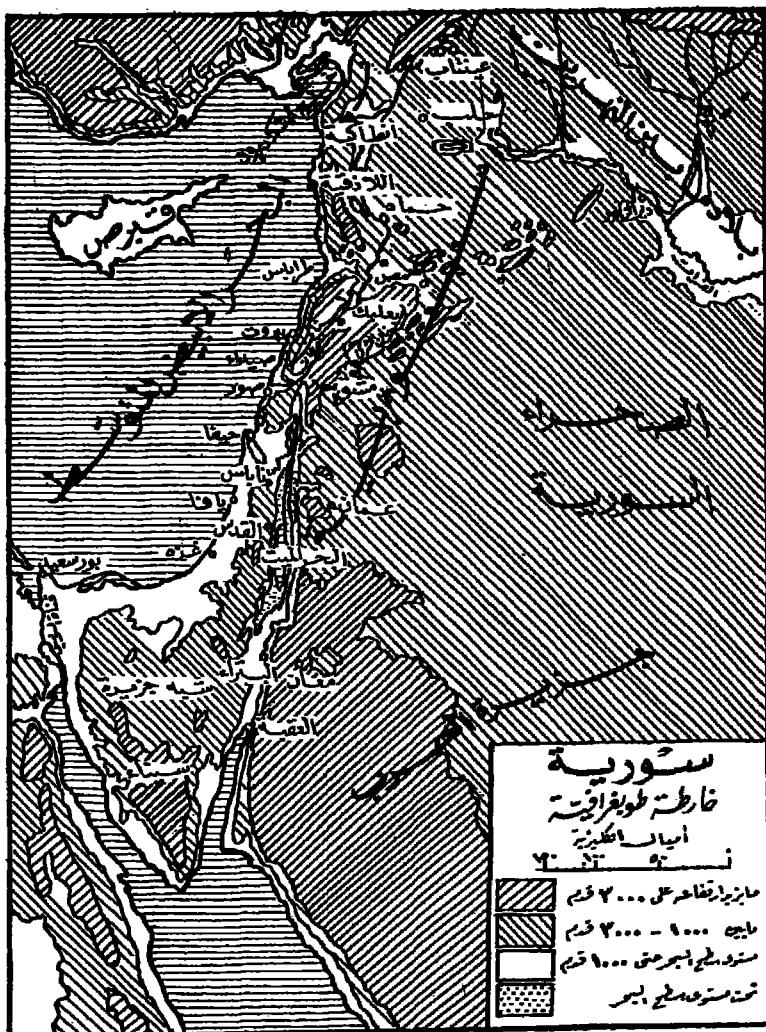
وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعاً شبيهاً بالارتفاعات الالية في جبال لبنان التي تند من النهر الكبير حتى تهـر القاسمية شمالي صور على مسافة ١٠٥ أميال . ويأتي اسم لبنان من الاصل السامي « لـَبَنْ » بمعنى البياض . وقد سميت الجبال كذلك بسبب التلاؤج التي تعطي قممها نحو ستة شهور في السنة ، ويبقى الجليد في الفجوات الكائنة في قمم

(١) انظر : Max Blanckenhorn, *Handbuch der regionalen Geologie*, Vol. v. pt. 4, *Syrien und Mesopotamien* (Heidelberg, 1914), pp. 5, 14, 29 ; Alfred E. Day, *Geology of Lebanon* (Beirut, 1930), p. 30.

(٢) Pliny, *Natural History*, Bk. V, ch. 17, § 20

(٣) يقول المبشر في المري، الاصطغري في القرن العاشر في كتابه مسالك الملوك طبعة م. ج. دي غوية M. J. de Goeje (ليدن ، ١٨٧٠) من هـ ان الكلمة يعتد حق اللانقية في الجنوب وسمى جبال النصيرية « براء ». انظر : René Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (Paris, 1927), p. 146.

(٤) انظر : Louis Dubertret et al., *Contributions à l'étude géologique de la Syrie septentrionale* (Paris, 1933), vol. i, pp. 23-4.



الجبال على مدار السنة . وترتفع أعلى قمة في لبنان وهي القرنة السوداء إلى ١١٥٢٤ قدماً عن سطح البحر . وتقع في جوارها قمة ضهر القصيبة التي تختضن غابة الارز القديمة الباقية حتى اليوم وهي دون القمة المجاورة ب نحو مئة قدم . وأما جبل صنين المهيء الذي يشرف على بيروت وخليج مار جرجس فان ارتفاعه أقل من ضهر القصيبة ب مئة قدم أيضاً .

تقع غابة الارز التي ذكرناها في بقعة كلدرج يعتقد علماء الطبقات انها كانت نهاية جودية في عصر ما قبل التاريخ^١. ووصل جليد العصر الجليدي حتى موقع نيويورك في اميركا وغطى شمالي اوروبا غير انه لم يصل اي مكان قرب سوريا. ومع هذا فان ترايد البرد قد اوجد جوديات محلية كالمذكورة. وبما هو اكثرا اهمية من توسيع الجليد كصفة لهذا العصر الجليدي ان الدلائل الاولى لوجود الانسان شوهدت في رسوبيات هذه الفترة. ويبدو ان الانسان الاول ظهر في اوروبا خلال آخر فترة ما بين العصور الجليدية حيث ساعد الدفء على انسحاب الجليد بصورة مؤقتة. وفي حوالي نفس الوقت ان لم يكن قبل ذلك ظهر البشر الاولون في سوريا وسائر بلاد الشرق الادنى.

ويخبرنا علماء الطبقات انه قبل ذلك بعصور كثيرة كانت مياه ما نسميه اليوم بالبحر المتوسط تغطي اراضي سوريا بأسراها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالي المند. وكان ذلك في العصور الجوراسية^٢ والكريتاسية البعيدة. وخلال هذه الاحداث الطويلة تراكمت الرسوبيات الآتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر هذا الامتداد السابق للبحر المتوسط (المعروف باسم تيثس Tethys) لكي تشكل الصخور الكلسية التي يتتألف منها معظم السلسلة الغربية في سوريا. وفي الدور الثالث الطبقي الذي اتي بعد العصر الكريتاسي (الطبشورى) حصلت حركات ارضية واسعة نتج عنها تضيق وقعة تيشس المائية وادى الامر الى ظهور جبال النصیرة ولبنان الغربي والشرسق ومرتفعات اليهودية وهضاب الصحراء العربية وذلك برفع الطبقات السفلية والتواهها. وتساعد: البقايا الحيوانية التي دفنت في الرسوبيات وتحجرت فيها بعد على تحديد العصر الذي حصلت فيه عملية الترب. ومن اشهر الاماكن التي وجدت فيها الامماك المتحجرة ساحل عما (قرب جونيه) وحاقول (فوق جبيل او بيبلوس القديمة^٣) واقدم اشارتين لا شك فيها الى الامماك المتحجرة في الادب تظهران احداهما في ترجمة لاحد الصليبيين في عام ١٢٤٨ في صيدا^٤ والآخر في كتابات بيروفي قبل ذلك بقرنين في منطقة جنوب شرق مصر المخزور^٥.

(١) G. Zumoffen, *Géologie du Liban* (Paris, 1926), pp. 152-3; Day, p. 21

(٢) وسميت كذلك باسم جبال الجورا بين فرنسا وسوريا التي ترجع الى هذا العصر.

(٣) انظر : Zumoffen, pp. 137-41

(٤) Joinville, *Histoire de Saint Louis*, ed. Natalis de Wailly (Paris, 1874), § 602.

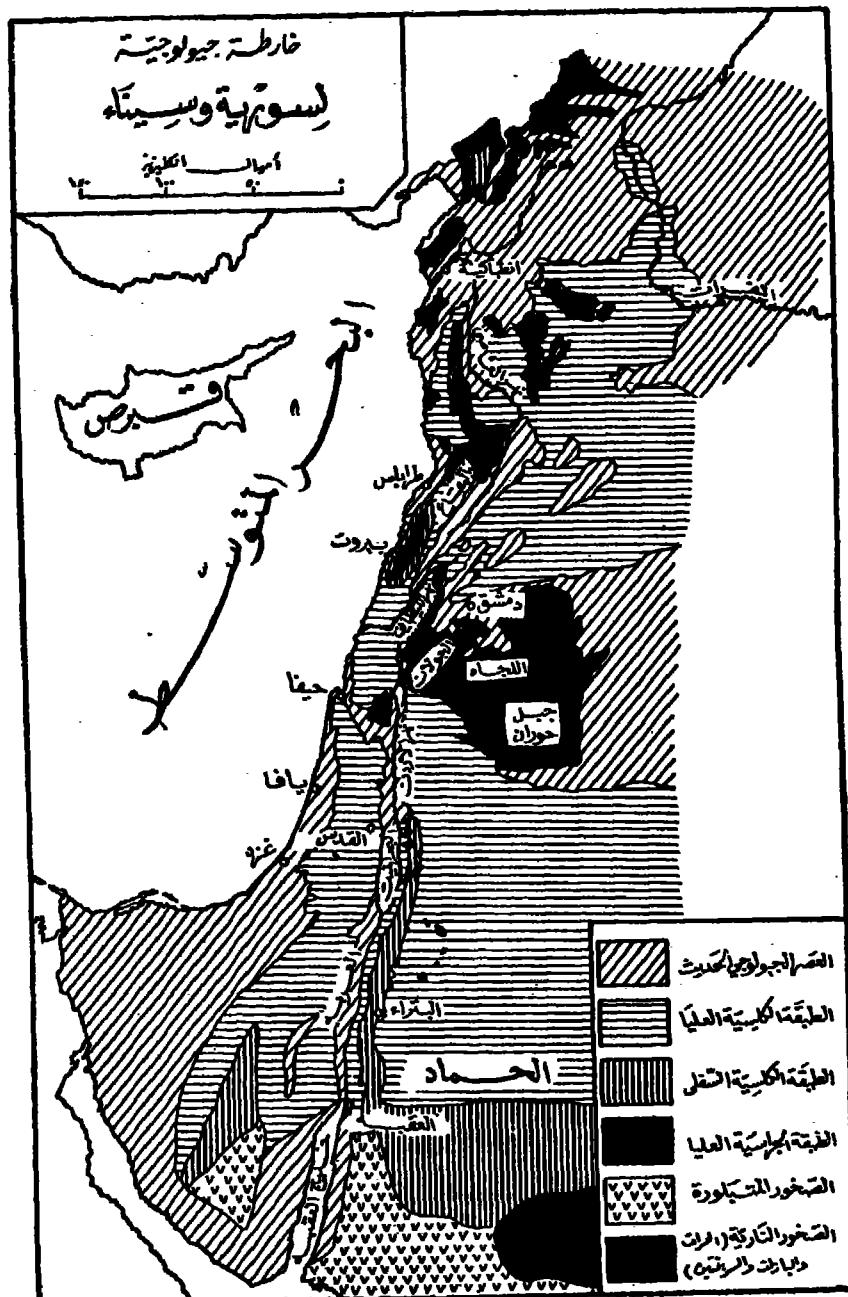
(٥) راجع: صفة المصور، ناشره أ. ذكي والدي طوكان (نيو دلهي ١٩٤١) من ٥٦

وتضم صخور لبنان سلسلتين علية وسفلى من الصخور الكلسية بينها طبقة متوسطة من الصخور الرملية . والسلسلة العليا من الطبقات الكلسية في لبنان تشكل قم الجبال وتتراوح في سمكها بين بعض مئات من الاقدام وخمسة آلاف قدم . اما قاعدة الطبقات السفلی فانها ليست معرضة في اي مكان حتى يمكن تقرير سمكها . وبينما تشكل هذه الطبقات السفلی القسم الاسفل في الوديان العميقة فانها ارتفعت بواسطه الالتواءات الى نحو ٤٠٠٠ قدم في كسروان و ٧٠٠٠ قدم قرب تومات نيعا (وهي القمتان التوأمان قرب جزين شرق صيدا) . والى نحو ٩٠٠٠ قدم في جبل حرمون . وتنشر بكثرة على سطح الطبقة الكلسية السفلی في لبنان الشرقي والغربي قطع من فازات الحديد تبرز للعيان وكانت عملية اذابتها تحصل حتى العصور الحديقة في افران بدائية وقد ساعد ذلك على تعرية لبنان من الاشجار بالشكل الذي نراه فيه الان^١ .

والصخور الكلسية في الطبقات العليا هي التي سبّطرت على مشاهد لبنان خلال العصور . ولونها المائل الرمادي هو الذي اعطى المناظر شكلها . واتكال هذه الصخور قد اعطى التربة للزراعة وجعل الطرق كثيرة العبار في الصيف ، ومن حجارتها انت مواد البناء . وقد نفذت مياه المطر بصورة مستمرة خلال طبقة الصخور الكلسية العليا حتى طبقة الرمال والطين التي تغطي الطبقة الكلسية الدنيا وتحفظ بالمياه فتوجد تلك الينابيع المتداة التي تمنح نعمة الحياة للأودية والمنحدرات .

ولسلسلة الطبقات المؤلفة من الصخور الرملية التي تتحضر بين الطبقة الكلسية العليا من العصر الكريتاسي الاخير وبين الطبقة الكلسية الدنيا من العصر الجوراسي الاخير هي من العصر الكريتاسي الاول في بعض اقسامها . وتشكل امتداداً شمالياً للصخور الرملية التوبية في مصر وسيناء والجزيرة العربية وشرق الاذدن . وكثافة الطبقات الرملية في لبنان تتراوح بين بعض مئات من الاقدام وبين ألف قدم . وتحلوا هذه الطبقات الرملية من المتحجرات ولكنها تحوي طبقات رقيقة من الليغنيت التي استخرجت محتوياتها في العصور الحديقة لتقديم الوقود لعامل الحرير ولاجل السكك الحديدية في الحرب العالمية الاولى . وفي بعض المناطق ومنها

(١) انظر : Day, pp. 29-30



كسران والمن شرق بيروت حيث أزال التأكل طبقة الصخور الكلسية العليا أصبحت طبقتا الصخور الرملية والصخور الكلسية الدنيا ظاهرتين للعيان . وطبقة الصخور الكلسية الدنيا وهي سرارة مائة الى الامتر تكون في بعض الاماكن ذات الوان غنية متنوعة وتبدو في احسن مظاهرها ليس في لبنان وانما في البراء . وتنتج عنها تربة صالحة بشكل خاص لنمو الصنوبر . وعندما تختلط بالطين وترويها المياه فانها تعطي التربة الحصبة لبساتين التوت والفواكه التي يقوم عليها جانب عظيم من ازدهار السهل الساحلي حول بيروت .

ويضع المشهد اللبناني امامنا الخطوط الصارمة للمرتفعات المتعددة الالوان المتحوّلة بشكل واضح من من جهة ، والبحر الذي يضيئه شعاع الشمس ويبدو فيه اللون النيلي الفني كما يتلون سطحه بختلف الالوان من جهة اخرى . وتستمد المشاهد وضوحاها من السماء الصافية والافق البعيد ومن ذلك الجلو الرائق حيث تظهر بوضوح خطوط المظاهر الطبيعية والوانها وحيث يمكن ادراك ذلك التباين الشامل بين البحر والبحر وبين الجبال والأودية . وقد اثر هذا المجال بسحره على الشعراء والمغنّين — ولا يزال — منذ ایام العبرانيين حتى المصوّر العربيّة .

موطن للأجيال

وبما ان طبقات جبال لبنان مائة على اليموم وملتوية وعامودية اكثرا منها افقية فقد نتج عن ذلك خليط من التلال والشواهد والأودية بما يجعل المواصلات صعبة بين مناطق البلاد واقسامها . ويزيد الامر تعقيداً ان الزحول او التصدعات تكثر في عوم المناطق وان مختلف الاراضي قد ضفت بعضها على بعض عند خطوط الانهادات فحطمت بعضها بعضاً وذلك عندما تعرضت القشرة الارضية في العصور بعيدة للضغط والالتواء . ومثل هذه الاراضي كانت خلال العصور ملاجئ للافراد والجماعات الذين اختلفت ميولهم السياسية وعقائدهم الدينية عن اهل بيتهن كما انه كثرت فيها بشكل غير معتمد الاودية المرتفعة والمساحات الحصبة فقصدها السكان المجاورون المتصرفون بكثرة النشاط ويتعرّضون للحرارة . وهكذا فان الموارنة والدروز والشيعة (الذين يعرفون بالمتواولة في سوريا) استقرروا في معاقد لبنان وحافظوا على كيانهم . وكان الارمن والاشوريون الذين هربوا من مساوى الحكم العثماني من آخر الشعوب التي وجدت لها مأوى هناك . وقد آثر النساء والزهاد

المسيحيون كهوف لبنان على مسرات هذه الحياة الدنيا ، وجلأت قبائل من النصوص إليها ولكن لأسباب مختلفة^١ . وهناك عدد كبير من المقاور اليوم مكرسة للعذراء وسائر القديسين كما ان وادي نهر قاديشا^٢ بكلمه ويعتبر من جوار غابة الارز الكبير حتى طرابلس قد احتفظ باسمه السرياني الذي يعني « مقدس » .

في جبال لبنان وهي جبال بكل معنى الكلمة قد كانت خلال العصور موطن اللاجئين وقضاياهم الفاسدلة كما أنها كانت آخر المناطق التي سقطت في أيدي الفرازة الاجانب .

الجليل

وفلسطين من الوجهة الطبيعية هي امتداد لبنان باتجاه الجنوب^٣ . وسهل لبنان الساحلي يستمر في سهل حارونة^٤ المتسموج الذي يمتد من السكرمل الى جنوب يافا ويتصعد بساحل المنطقة الفلسطينية (فلسطينا)^٥ . وتستمر سلسلة سورية الغربية جنوب اندام القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الاعلى وهو بالواقع قسم منعزل من جبال لبنان وفي سلسلة التلال المنخفضة المعروفة باسم الجليل الادنى . وتبلغ مرتفعات الجليل الاعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفد حيث تبلغ ٣٩٣٥ قدمًا وهي أعلى قمة في فلسطين . ويرتفع الجليل الادنى إلى ١٨٤٣ قدمًا عند جبل طابور قرب الناصرة . وتشهد السلسلة الغربية بعد ذلك اعظم انقطاع لها في مرج ابن عامر (Esdraelon) الذي يمتاز فلسطين بكلاملها فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية في الجنوب . وتمثل تلال السامرة التي تتخللها الاودية بجبيل عيبال (الجليل الشمالي وارتفاعه ٣٠٧٧ قدمًا) وبجبل جوزيم (٢٨٤٩ قدمًا) وهو جبل السامريين المقدس . وتنقل من هذه التلال بصورة تدرجية لا يشعر بها إلى هضبة اليهودية الكلسية المتراءة والوعرة التي تبلغ ذروتها جنوب حبرون حيث يرتفع /

(١) Strabo, *Geography*, Bk. XVI, ch. 2, §§ 18, 20

(٢) ويسمى نهر ابي علي قرب مصبه في البحر .

(٣) Day, p. 24; cf. Dubertret, pp. 70-73

(٤) من العبرية شارون shārōn ومعناها سهل . ولا يوجد اسم عربي له .

(٥) انظر ما جاء بشأن الفلسطينيين في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

جبل جنة^١ الى ٣٧٤٧ قدمًا عن سطح البحر . وتقع اورشليم على ارتفاع ٢٥٥٠ قدمًا . ثم تحلو هضبة اليهودية بتموجات عريضة نحو بئر السبع . وقد سميت هذه المنطقة الجنوبية القاحلة باسم مناسب من قبل الابرانيين وهو النقب (الارض الملعونة) .

الكهوف

ان التشكيلات الكلسية الواسعة التي تتجه في لبنان نحو البحر بشكل دؤوس وتحفر فيها الامواج بعض الكهوف يمثلها لنا جبل الكرمل الذي يرتفع ١٧٤٢ قدمًا عن البحر وقد وجدت في كهوفه هيكل اقدم البشر في الشرق الادنى^٢ . وقد تكون بعض الكهوف الان في مناطق بعيدة في الداخل حيث كان يصل البحر وما يرفله من انوار جوفية في سالف العصور . وربما وسع سكان الكهوف او اجرروا تعديلات في المغاور والكهوف التي اتخذوها مسكنًا لهم . واستخدمت هذه الكهوف ملاجيء للمقطهدين لأسباب دينية او سياسية كما في لبنان . وقد التجأ ايليا عند هربه من غضب زوجة آخاب الى الكهوف وكذلك فعل داود حين هرب خوفاً من انتقام شاول^٣ . ومن الكهوف ما استخدم كمكان للدفن^٤ . وربما كان المكان الذي دفن فيه جسد المسيح مقارة من هذا القبيل فاصبحت اقدس مكان في العالم المسيحي .

حوض التصدع او الزحول

والمنطقة الطولانية الثالثة في سوريا هي عبارة عن حوض طويل ضيق يحتمل مكاناً متوسطاً في البلاد . وبعد ان يبدأ هذا الحوض في الشمال عند المنعطف الفري ل العاصي في سهل متسع يسمى العمق^٥ فإنه يرتفع عند حماة الى نحو ١٠١٥ قدمًا عن سطح البحر

١) في الترجمة العربية للتوراة « يوطة » (سفر يشوع ١٥ : ٥٥) وهي يطأ الحالية . انظر : F. M. Abel, *Géographie de la Palestine*, vol II (Paris, 1938), p. 91.

٢) انظر ما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

٣) سفر الملوك الاول ١٩ : ٩ ; سفر موسى الاول ٢٢ : ١ .

٤) سفر التكوت ٢٣ : ٩ : ٤٩ : ٣١-٢٩ .

٥) وقد ورد اسمه اولتي « Unqi » في النصوص الاشورية . انظر : Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. I (Chicago, 1926), §§ 769, 772, 821.

ثم يسمى سهل البقاع بين مسلسلتي لبنان ويستمر جنوباً في وادي الاردن حتى البحر الميت ومن هناك بطريق وادي العربة حتى خليج العقبة وهو التفرع الشرقي للبحر الاحمر . وقد تشكل هذا الحوض بتتصدع منطقة وتحول جانب منها في قشرة الارض في عصور طبقة حديثة نسبياً^١ . ان التتصدع هذا الذي يشمل وادي البقاع والاردن والعربة هو من اغرب المظاهر في سطح الارض وخاصة في قسمها الجنوبي . ويترفع سطح هذا الحوض المتتصدع عند المحولة سبعة اقدام عن البحر ، وعند بحيرة طبرية ينخفض ٦٨٥ قدماً عن البحر واما عند البحر الميت فانه يبلغ ١٢٩٢ قدماً تحت سطح البحر وهذا الانحدار غاية في السرعة^٢ . هنا اذا يقع « قبو العالم الحقيقي » حيث لا يوجد مثل هذا الانخفاض الممكوس في اي مكان آخر .

النهاية

يتواوح عرض البقاع^٣ وهو الجزء الكائن بين سلسلتي لبنان بين ستة وعشرة أميال ويرتفع في جوار بعلبك الى ٣٧٧٠ قدمًا عن سطح البحر . وبقرب هذه المنطقة تقع نقطة توزع المياه حيث يتجه العاصي ببطء نحو الشمال بينما يتوجه الليطاني نحو الجنوب . وال العاصي هو اطول انهار سوريا لان الفرات ليس نهرًا سورياً من حيث منبئه او من حيث مسيرة الكاملا . والعاصي والليطاني هما التهران الكبيران الوحيدان في سوريا . ويحدو الليطاني حذو العاصي عندما ينبعض فجاءة في بحراه الاسفل نحو الغرب عند سفح قلعة الشيف^٤ الصليبية ويشق طريقه في صخور لبنان الكلسية في الطبقة الكريتاسية العليا ويسمى بالقاممية قبل مصبه بين صور وصدا .

Picard, pp. 4 seq. (v)

٢) انت تسمية الاردن من البرية «تيردين» اي التازل. وتنمى بحيرة طبرية Genessaret في المهد الجديد (لوقا ٥: ١؛ يوحنا ٦: ١). وفي المهد القديم تسمى Chinnereth (اي شيه بالعبرية) انظر سفر العدد ٣٤: ١١؛ قارن مع سفر الملوك الاول ١٥: ٢٠ . والحقيقة كانت تسمى في العصر الكلاسيكي بحيرة سمن Semechonitis .

٣) وعنه المرفي « حيث ترك الماء » وهو سورية المولدة في العصر الكلاسيكي وكانت تضم حوران وقسماً من الأردن . افطر : Strabo, XVI. 2. 21 ; Josephus, *Antiquities of the Jews*, I. 11. 5 ; XIII. 13. 2, 3.

و كانت تعرف بلدية بلفور .

وبما ان هذين النهرين يجريان في سهل البقاع فان الاراضي حولهما هي اوسع اراضي للرعى واحسنها في سوريا. وبما ان رواسب الطمي الحديبة والغربي تكسو هذه الاراضي فانها تشكل انساب تربة لزراقة. غير ان مجرى العاصي مثل كثير من الانهار الاخرى منخفض لدرجة يجعل استخدام مياهه بسهولة متعدراً. ولذلك استعملت التواعير^١ لرفع المياه لسطح الارض وقد نامت على صوتها المطرد النغم في حياة اجيال متعاقبة من الناس منذ العصر الروماني.

ويبلغ طول (وادي الاردن^٢) نحو خمسة وستين ميلاً ويتراوح عرضه بين ثلاثة واربعة عشر ميلاً. وتتلقى هذه الحفرة الفريدة عدداً كبيراً من السوائل من المنحدر الغربي مما يجعل فلسطين ارضاً تتصرف مياهها بكثرة وتتجه هذه المياه في النهاية الى اكثر البحيرات ملوحة في العالم. ودرجة ملوحة مياه البحر الميت غير المعتادة ناتجة عن عدم وجود مخرج من جهة وعن الاتصال بالاوقیانوس في عصور ما قبل التاريخ من جهة اخرى. وتحتوي هذه المياه نسبة مرتفعة من البرومين والبوتاسيوكلورات المغذّيّات. وهنالك صخور كاسية قبرية واسفلت من النوع الممتاز في البحر الميت وما حوله وكذلك في حاصبيا عند السفح الجنوبي الغربي لجبل حرمون.

الزلالز والبراكن

وتدل المنحدرات المتصدعة في لبنان والوادي المتتصدع الكبير الذي يستمر في منخفض الاردن والبحر الميت على وجود منطقة لزلزال هناك. غير ان منطقة المزارات الأرضية لا تقتصر على اماكن الزحول والتتصدع . فالمضبة الواقعة شرقاً جبل حرمون وجنوب دمشق تخترقها خطوط من البراكين الخامدة وتعلوها في اماكن متفرقة حقول المواد البركانية . وتوجد بناية مياه حارة موزعة في بعض المساحات كما في طبرية ومنطقة البحر الميت وتدرس .

وتبرز حوادث الزلالز في تاريخ سوريا اكثراً من بروز البراكين في جغرافيتها فقد اصبت انطاكية في طرف سوريا الشمالي بالزلزال خلال العصور وخبرتها في

١) وملحقها ناعورة ومنها انت كلة *noria* الافرغنية .

٢) ويسمى غور الاردن او النور . ويسمى الاردن ايضاً نهر الشريعة . انظر ابو الدا ، تقويم البلدان طبعة M. Reinaud and M. de Slane (باريس ١٨٤٠) ص ٤٨ .

القرون الستة الأولى الميلادية لا أقل من عشر مرات^١. وتشاهد في جدران معبد الشمس المشهور في بعلبك آثار الأضرابات التي سببها الزلزال وكذلك الامر في القلاع الصليبية الباقيه . ويشير تهدم اسوار اريحا المفاجي^٢ في عصر الفزو الاسرائيلي وكذلك خراب سدوم وعمورة الشهير في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الميت الى حصول زلازل بالإضافة الى التيران في الحالة الاخيرة التي كان سببها ما انتجه الزلازل من ترشحات نقطية وينابيع من الاسفلت . وعندما كان انباء العبرانيين وشراوهم ومؤرخون يكتبون في وصف سلطة يهوه وقدرته فأنهم كانوا يعتمدون على مشاهدتهم الشخصية للهزات الارضية التي ترافقتها الامواج المرتفعة كما انهم كانوا يستخدمون الصور المألوفة سابقاً^٣ والمتصفة بهذه الحوادث^٤ . ويخبرنا العهد الجديد في التوراة عن حدوث زلزال عند صلب المسيح وآخر عند قيامته .

وقد كانت مثل هذه الامواج التي يسببها المد عند حدوث الزلازل خربة بشكل خاص في الساحل الفينيقي . وثال صور وصيدا الكثير من اذاها ومن اذى المزارات^٥ . وبما جعل صور تأثير بصورة خاصة طراز مبانها من نوع «نطحات السحاب» حيث بلغ ارتفاع بعضها سبعين قدماً او اكثر^٦ . وحصلت آخر زلزلة عنيفة في شمالي سوريا عام ١٨٢٢ وحولت حلب وغيرها من المدن الى مجموعة من الحرائب واذقت عشراتآلاف الارواح . وآخر زلزال قوي في فلسطين كان في ١٨٣٧ وهدم صفد تهديعاً تاماً^٧ .

السلسلة الشرقية

تشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة في تضاريس سوريا . وتبدأ السلسلة في نقطة جنوبی حمص وتقابل لبنان الغربي بلبنان الشرقي^٨ على طول واحد وارتفاع

(١) انظر : Ellen G. Semple, *The Geography of the Mediterranean Region* (London, 1932) p. 42.

(٢) انظر سفر عاموس ٥ : ٩ : ٨ : ٦ : ٤ : ٢٩ ; اشعيَا ٦ : ٦ : ٤ : ١٠ : ٥ : ٢٨ ; ایوب ٩ : ٥ : ٩ : ٦٠ : ١١٤ : ٤ : ٤ ; الملوک الاول ١١ : ١١ : ١٦ : ٣٢-٣١ .

(٣) انظر : Seneca, *Questiones naturales*, VI. 1. 11, 13; 24. 5; Strabo I. 3. 16

(٤) Strabo V. 3. 7

(٥) Francis R. Chesney, *The Expedition for the Survey of the Euphrates and Tigris* (London, 1850), vol. I, pp. 436, 441; H. B. Tristram, *The Land of Israel*, 3rd. ed (London, 1876), p. 567.

(٦) ويسميه الجرفانيون العرب سنير واحياناً كانوا يطلقون الاسم على قسم من السلسلة فقط .

ياقوت ج ٣ من ١٧٠

واحد تقربياً ثم تنحدر من حرمون^١ بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الترب وهي الجولان^٢ ومن هناك تستمر في شرق الاردن في تلال جلعاد وهضبة مزار المترفعة وتنتهي في جبل سعير^٣ جنوب البحر الميت.

لبنان الشرقي

وتقسم هضبة بودي (نهر أبانا في التوراة) وواديه سلسلة لبنان الشرقي الى قسمين : شمالي لا يكاد يوجد في منحدره الغربي قرية واحدة ، وجنوبي حيث يقوم جبل حرمون وهو من أعلى قمم سوريا (٩٣٨م قدمًا) وأكثراها جلاً وتكثُر القرى في منحدره الغربي . وبسبب قلة الامطار والنباتات في لبنان الشرقي فضلاً عن الاسباب الأخرى فإن سكانه أقل كثافة ورقياً من لبنان الغربي . وقد اتاه سكانه عموماً من شرق سوريا^٤ . وتقى الحدود الشرقية للجمهورية اللبنانية اليوم بجبل حرمون وتعطف حول الزبداني وتنتهي ذرى القسم الشمالي من لبنان الشرقي . وتسير سكة حديد بيروت — دمشق في وادي الزبداني وبردي .

وينبع نهر بودي في مرتفعات وادي الزبداني الغربي ويتجه نحو الشرق ويحيي قسماً كبيراً من الاراضي السورية التي بدونه كانت تبقى قاحلة ويعمل على خلق مدينة دمشق وهي مركز الحضارة الامامي على ابواب البادية . وبعد ان يروي بساتين دمشق المشهورة التي تشكل الفوطة وقد سميت دمشق بالفيحان بسبب رائحتها الذكية ؟ فإنه يتفرع الى خمسة فروع او جداول تقييد منها شوارع العاصمة السورية ومنازلها . ويرجع نظام المياه في دمشق الى عهد الخلفاء الامويين الاولين^٥ .

١) وهو جبل سيريون المذكور في المزامير ٦: ٢٩؛ سفر التثنية ٣: ٩ ويسمي حدائق جبل الشيخ ، وجبيل النج في المنسى : احدث التقسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة م. ج. دي غوري (لندن ١٨٧٧) من ١٦٠؛ ابو الفداء من ٤٨، ٦٨ .

٢) من المبرية *Gola* بمعنى «دائرة» وفي المصور الكلاسيكي Gaulanitis . ويدرك الجولان في ياقوت : معجم البلدان ، طبعة مستقلة ٢ (ليبيك ١٨٦٧) من ١٥٩ .

٣) وفي المبرية سعير وهو مرادف تقربياً لأدون .

٤) ويشير اسم «أهل الجبل» او الجبلين الى سكان السلسة الغربية .

٥) انظر ما سبقه في الفصل السابق والتاليين من هذا الكتاب عن عشق الاموية .

حوران

ويمتاز سطح هضبة حوران^١ بأنه يرکاني في قسمه الأعظم وفيه صخور بازلية وترية غنية . وتبدأ الاراضي البركانية في التلول جنوب دمشق وتشمل مساحة طولها ستون ميلًا بما يعادلها عرضًا وهي أكبر مساحة من هذا النوع في سوريا^٢ . ويحد هذه الاراضي في الشمال الشرقي منطقة الابعا^٣ ذات الحجارة السوداء وهي ملجاً – كما يدل اسمها العربي – للقبائل المتمردة في مختلف العصور وفي الجنوب الشرقي المنطقة الجبلية المعروفة باسم جبل حوران او جبل الدروز . واحتلال الدروز لهذه المنطقة امر حديث نسبياً ويرجع الى اوائل القرن الثامن عشر على اثر الاضطرابات الخزبية في لبنان^٤ . وترتفع هذه الكتلة الجبلية في شرق حوران الى ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدم وتقوم بين حوران والبادية . وتقع المنطقة البركانية غرباً حتى تشمل الجولان . وينتشر حوران القمح بكثرة ومراعيه جيدة غير انه قليل اليابس ولا اشجار فيه . وتنتألف التربة من مواد بركانية سوداء منحلة ومن عرين احمر وهي غنية في المواد المغذية للنبات وتحتفظ بالرطوبة وتقطي الصخور الكلسية التي تشكل الصخور السطحية في سائر الاماكن . وتشمل البقايا الاثرية في حوران الاخرحة القديمة – وهي من صنع الانسان البدائي – ومعالم الطرق المندثرة والاقندة والصهاريج والمباني والمحصون الرومانية والبيزنطية التي تدل على ازدهارها السابق وعلى أنها كانت مخزن حبوب الامبراطورية . ولا تزال تون فلسطين ولبنان بالقمح كما كانت تفعل في عهد العبرانيين والفينيقيين .

(١) وهي منطقة Auranitis في العصر الكلاسيكي، وباشان في التوراة ، وجورانو عند الاشوريين (انظر Luckenbill , vol. I , §§ 672, 821) اي « الارض الجوفة » . وتقع حوران في المدى الجنوبي على السهل الواقع شرق الجولان وغربي الابعا وجبل الدروز ، وفي المدى الواسع وكثنصرية في المدى المئاني كانت تشمل هذه المناطق الثلاث بالإضافة الى عجلون .

(٢) انظر : D. G. Hogarth, *The Nearer East* (New York, 1915), p. 66.

(٣) ويشير العرب الى هذه المنطقة والى منطقة الصفا التي تجاورها في الشرق باسم الوعر مما يقابل اسمها الكلاسيكي Trachonitis . انظر كتاب : George A. Smith : *The Historical Geography of the Holy Land*, 11th ed. (New York, 1904) pp. 615 seq. ; do., *Syria and the Holy Land* (London, 1918) p. 29.

(٤) سليمان ابو عز الدين : « توطن الدروز في حوران » مجلة الكلية م ١٢ (١٩٢٦) من ٣١٣ - ٣٢٣ . انظر ما سذكره في الفصل ٤٩ من هذا الكتاب عن هذه الحوادث .

وتقع أراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقي في صحراء الحاد إلى تلك المحمول الحجرية في الحجاز المعروفة باسم «حرات^١». وتستمر الطبقات الكلينتاسية العليا في السلسلة الشرقية في شرق الأردن وتبلغ ذروتها في الشمال في جبل عباون (١٣٧ قدمًا) وجبل جلعاد^٢ (٣٣٩٧ قدم) الذي يجاوره. وترتفع في الجنوب قرب الكرك^٣ إلى ارتفاع ٣٧٧٥ قدمًا فوق سطح البحر بينما تبلغ طبقات الصخور الرملية قرب البتراء ارتفاع ٤٤٣٠ قدمًا.

بادية الشام

وتدرج هضاب شمال شرق حوران وشرق الأردن نحو منطقة السهوب والمرات والرماد وتلتقي أخيراً بالأراضي القاحلة التي تشكل بادية الشام. وهذه المنطقة هي الخامسة والأخيرة في تضاريس سوريا. والسهول الصحراوية صخرية وجيئية في غالبيها ويندر أن تكون حجرية وبادية هي تتمة صحراء بلاد العرب الكبرى وتعتبر القسم السوري من المستطيل العربي وتفصل سوريا عن العراق. وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي الهلال الخصيب. وتسمى الصحراء التي تمحيط بالطرف الشرقي أي العراق ببادية الجزيزة. (أو بادية ما بين النهرين) في قسمها الشمالي وتدعى بادية العراق أو السماوة في قسمها الجنوبي. وسطح القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام وهو الحاد حجري في بعض أجزائه ورمل في أجزاءه الأخرى ويكسوه العشب في الرياح. وتؤلف بادية سوريا - العراقية مثلثاً كبيراً ترتكز قاعدته على خليج العقبة في الغرب وخليج الكويت في الشرق بينما تصل قمة منطقة حلب في الشمال. ويبلغ عرض هذه الظاهرة في أعرض مناطقها ٨٠٠ ميل. وكان سكانها الرحل يتاجرون مع السكان الحضر على جانبيها ويعلمون كوسطاء وأدلة، ورؤساء قوافل كما انهم في الصور البعيدة كانوا يبنون مدنًا مثل نسرين الواقعة على الطريق عبر الظاهرة بين الشرق والغرب. وكانوا خلال العصور عثابة احتياطي دائم بالنسبة للسكان الحضر يرقدونهم بدم جديد أما بطريق

١) وهو الاسم العربي للأراضي البركانية.

٢) وتعني بالعبرية منطقة حجرية قاسية.

٣) وعرفت عند الصليبيين باسم Le Grec . انظر ما سيرد في الفصل ٥ من هذا الكتاب بشأن الكرك .

الفتح او بواسطة التغلغل السلي . غير ان البدو عادة يقاومون الاستقرار وفي مجتمع عن المداعي لقطعنائهم يجوبون السهول الصحراوية التي تكسوها الاشجار بعد قدوم المطر . وحسن استقبال البدو الضيوف والزائرين لا يقتصر بحسن استقبالهم للامور الجديدة . و اذا كان التقدم في المجتمع المستقر يقوم على حماولة تغيير شروط المعيشة وبيئتها وتكييفها فإن سربقاء في مجتمع بدوي يقوم على قبول هذه الشروط والتكيف بوجبها .

ان كثيراً من الجداول التي تناسب من المنحدرات الشرقية للسلسلة الشرقية في سورية تغلب على امها في تزاعها مع الصحراء وتنسب في ترتيبها الفاحلة . والنزاع القديم بين الارض المزروعة والبادية هو حقيقة اساسية في جغرافية هذه المنطقة الطبيعية . والبادية التي تشبه البحر في كثیر من مظاهرها كانت في حركاتها خلال عصور التاريخ مثل مجر عظيم تعيد بصورة مستمرة عملية المد والجزر . وهذا النزاع له ما يقابلہ في النزاع القديم ايضاً بين البدو الرجل الذين لا يملكون شيئاً في البادية وبين المزارعين المستقرين الذين يملكون اشياء في السهول الخصبة . وقبل محنة الاسرائيليين يقررون وبعد قدومهم يقررون كانت الانظار الطامنة تتوجه من البادية نحو البلاد المجاورة التي «تفيض ليناً وعسلاً» .

الفصل السادس

البيئة الطبيعية

اتينا في الفصل الاخير على وصف مسرح التاريخ السوري في وضعه الطبيعي والجغرافي . وستتابع وصفه في هذا الفصل من ناحية مظاهره الطبيعية ومن جملتها الاقليم والنبات والحيوان .

الإقليم

ان الصفة السائدة في اقليم سوريا هي تناوب فصل مطر يبدأ من منتصف تشرين الثاني حتى نهاية آذار مع فصل جاف يشمل بقية السنة . وينطبق هذا بوجه الاجمال على منطقة البحر المتوسط بكلاملها وصيغها موقعها بين منطقتين مختلفتين تماماً في درجة هطول امطارها وهما : منطقة الرياح التجارية الجافة او الارض الصحراوية الافريقية في الجنوب ومنطقة الرياح الغربية في الشمال . وهذه الرياح الغربية المحملة بالرطوبة هي التي تجلب المطر طوال السنة من المحيط الاطلنطي الى اوروبا الوسطى والشمالية . وهي تشكل في فصل الشتاء الرياح السائدة في سوريا . اما في الصيف فان منطقة الحر تنتقل شمالاً من خط الاستواء وتصبح البلاد خلال شهور عديدة قربة من الاحوال القاحلة التي تسود الصحراء الكبدي . ولا يحصل ذلك التقلب في المناخ الذي يقال انه يثير النشاط في اي مكان .

وعندما تهب الرياح الغربية السائدة على البحر المتوسط مصحوبة احياناً بالعواصف فانها تقتلع بالرطوبة ، ثم تصادف جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى في فلسطين فترتفع . وبارتفاع الماء فانه يتهدد وتسقط بعض محتوياته بشكل امطار . فالعوامل المؤثرة على المناخ اذا هي درجة القرب من البحر والتضاريس والارتفاع والبعد عن الصحراء وعمل التأثيرات التي مصدرها البحر المتوسط والصحراء الكبدي . ونتيجة ذلك هي انت المنطقة الساحلية على السفح الغربي لجبال سوريا تتلقى اسهاماً كثيرة من الامطار وتتناقص هذه وفقاً لدرجة الابعد من القرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب .

وتشهد الارقام بهذه النتائج . فمعدل الامطار السنوية في بيروت خلال الاحدى واربعين سنة الممتدة في توز ١٩٢٦ كان ٣٥،٩ قيراطاً (بوجة) . وفي الساحل الفلسطيني كان معدل الامطار السنوي ٢٣ بوجة . ومعدل كمية الامطار في الشوير على ارتفاع اربعة آلاف قدم فوق بيروت خلال الخمس وعشرين سنة الممتدة في توز ١٩٢٦ كان ٥٩،٧ بوجة ، وفي القدس على ارتفاع ٢٥٥٠ قدمًا فوق الساحل كان المعدل ٢٥،٦ بوجة وكان متوسط الامطار في كسارة في منطقة البقاع الحاطة بالجبال في التصدع المشار اليه سابقاً ٢٤،٨ بوجة وفي وادي الاردن كانت ٥،٥ . وتقل الامطار بعد مرتفعات فلسطين الوسطى الى ان تصل تلال شرق الاردن حيث يرتفع الماء فيتعلى عما فيه من رطوبة وهكذا يتخطى القسم الجنوبي من وادي الاردن تقريباً . ووراء الحاجز المزدوج الذي تشكله جبال لبنان للامطار فان دمشق لا يصيّبها سوى عشر بوجات . ومتوسط الامطار في ذروة مرتفعات شرق الاردن ٢٧،٥٥ بوجة غير ان القسم الشرقي من شرق الاردن لا يصيّبها سوى ٣،٩ بوجة.^١ ويوجه الاجمال فان ساحل سوريا وفلسطين يصيّب من الامطار اكثر من ضعف ما يصيّب ساحل كاليفورنيا الجنوبي والفلقى .

ومتوسط درجة الحرارة السنوية في بيروت ٦٨ درجة فرنهايت . وكانت اعلى درجة للحرارة سجلها مرصد الجامعة الاميركية في بيروت ١٠٧،٠٦ درجات (فرنهايت) في ١٨ ايلاز ١٩١٦ واوطنى درجة الحرارة كانت ٢٩،٨٢ (فرنهايت) في ٣٠ كانون الاول ١٨٩٧ و٢٥ كانون الثاني ١٩٠٧ . وتبلغ الرطوبة ذروتها في سواحل لبنان في توز ، مع ما في ذلك من غرابة ، ويكون متوسطها ٧٥ بالمائه بينما تبلغ ادنى درجاتها في كانون الاول بمعدل ٦٠ بالمائه^٢ . وفي الشتاء تنتشر التأثيرات الكثيفة الباردة والجافة من آسيا الوسطى فوق منطقة المضاب الشرقية في سوريا فتسبب الصقيع والثلوج ويکاد لا يحصل ذلك في منطقة الساحل .

١) منصور جرداق : «ماء جبل لبنان» مجلة الكلية ١٢ (١٩٢٦) ص ٤١٣ - ٤١٤ ، قارن مع : D. Ashbel, «Rainfall Map of Palestine, Transjordan, Southern Syria, Southern Lebanon » 3rd. ed. (Jerusalem, 1942).

٢) منصور جرداق في «الكلية» ١٢ (١٩٢٦) ص ٤١٢ .

٣) انظر : W. B. Fish, «The Lebanon», *The Geographical Review*, vol. xxxiv (1944), p. 243.

وتعتدل درجة الحرارة في الساحل بتأثير البحر وهو أكثر حرارة من البر في الشتاء وأكثر برودة في الصيف . ويعمل الحاجز الجلي المزدوج وحوض التصدع على منع وصول الرياح البحرية المبردة إلى الداخل . وتهب الرياح المحملة بالغبار من الباادية وتتصبّح حرارة الصيف شديدة في المدن مثل دمشق وحلب . وكثيراً ما يسجل ميزان الحرارة في فلسطين ١٠٠ درجة (ف) في الظل وقد تبلغ الحرارة في وادي الأردن ١٣٠ درجة . وأكثر ما ينثأه الإنسان من الرياح الحارة الآتية من الشرق والجنوب الشرقي ريح السوم او الشرقية^١ وهي ريح مزعجة بشكل خاص وجافة ورطوبتها أقل من عشرة بالمائة في بعض الأحيان مما يجعل التنفس صعباً . وتتردد هذه الريح أثناء الربيع والخريف حيث كثيراً ما تصل إلى الساحل وتبشر بقدوم المطر . وفي طرف الباادية تكون على القالب محلاً برملي ناعم سريع التغلل . وليس غريباً أن تكون قيادة العرب المسلمين قد اختارت يوماً كان يهب فيه ريح من هذا النوع لقتال الجيش البيزنطي المدافع عن سوريا في معركة اليرموك الخامسة عام ٦٣٦^٢ .

التآكل

تسرب كثير من مياه المطر في مساحات كبيرة من الصخور الكلسية وتفقد ، غير أن بعضها يتجمع في بحار تحت الأرض ويخرج بشكل ينابيع . وهكذا فإن انتشار الصخور الكلسية بكثرة في لبنان الشرقي والغربي وفلسطين يأتي بعامل آخر غير ملائم فضلاً عما يحدثه من منظر أغرب متألق . ذلك أنه يجد من كثافة المياه ويجعلها قليلة وينجم عن الخفاض عدد السكان وخاصة في لبنان الشرقي .

والمياه التي لا تسرب في الطبقات الكلسية تشكل جداول وانهاراً وتحول إلى سيل بعد هطول الأمطار بغزاره كما أنها تتقلص أثناء جفاف الصيف فتصبح شيئاً ضئيلاً من المياه إذا لم تجف تماماً . وقد نتج عن تدفق المياه من المرتفعات

١) أنت كلة *sirucco* الافرنجية من كلمة «الشرق» العربية بطريق الإيطالية . وتقابل الريح الشرقية ، التي يظن أنها تدوم ثلاثة أيام ، ريح الحسين في مصر .

٢) انظر كلامنا في الفصل الثالثين عن هذه المعركة . راجع بشأن المصورات الحديثة المتعلقة بالحرارة والمطر والرياح : Charles Combier, *Aperçu sur les climats de la Syrie et du Liban* (Beirut, 1945).

مع ما يرافقه من تأكل وتعرية ان بعض الاراضي التي كانت مزدهرة أصبحت فاحلة على مر العصور. وعمل هذا الامر على تضليل بعض العلماء الذين اعتقادوا بحدوث تغيرات اقليمية هامة تجاه نحو الجفاف في العصور التاريخية في سوريا والبلاد المجاورة^١. وسترى فيما بعد^٢ ان هذا الافتراض مبني على تعليل خاطئ تماماً.

والتغيرات المناخية او التبدلات في كثافة الامطار لا تكفي لشرح هذا الامر الغريب الذي كثيراً ما يلاحظ في شرق سوريا وهو ان مساحات واسعة من الاراضي التي كانت مزدهرة كثيرة السكان أصبحت اليوم فقيرة قليلة السكان. والاسباب التي تختلف اية نظرية عن حصول الجفاف بعوامل مناخية هي تشابه المحاصيل الزراعية منذ العصور القديمة (باستثناء النباتات التي ادخلها العرب من الشرق في العصور الوسطى وادخلها المواطنون من العالم الجديد في العصور الحديثة) وبقاء اساليب الحراة والاحتفاظ بنفس التواریخ الموسمية للحرث والمحصاد خلال العصور. والعوامل الحقيقة لانحطاط قدرة الارض على الانتاج كانت تعرية سفوح المرتفعات بعمل مياه الامطار الجارية والرياح وتضاؤل قوة بعض البنايات^٣، والرعى وزوال الغابات التي كانت جذورها تساعده على عاسك التربة الرخوة^٤، واهمال او تخريب اعمال الري بنتيجة الفزوات او هجمات البدو، وانهال التربة المحتمل في بعض الاماكن^٥.

المياه النباتية

وهنالك ثلاث مناطق متباعدة للنبات تقع جنباً الى جنب في الاراضي السورية. فالسهل الساحلي والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربية تضم النباتات المعتادة في سواحل البحر المتوسط. وتتصف هذه المنطقة بوجود الشجيرات الداعنة الخضار ونباتات الربيع التي تزهر بسرعة وتعطي ارثاً قوياً ولا تزال تزدهر انواع النبات التي زودت الانسان باهم مواده الغذائية، كالقمح والشعير والدخن (نوع من النزرة) وقد دجنت هناك لاول مرة^٦. وادخلت النزرة الصفراء فيها بعد. واضيفت في

(١) انظر : Ellsworth Huntington, *Palestine and its Transformation* (Boston, 1911), chs. 12-14.

(٢) راجع ما سألي في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب.

(٣) انظر : Semple p. 100

(٤) راجع ما جاء في اعلاه من ١٦ - ١٧ بثبات الزراعة .

الucusor الحديثة البندرية والبطاطا والتبغ من العالم الجديد الى البصل والنوم والخيار وسائر الخضار المعروفة منذ اقدم العصور^١. والحبوب الاميركية كلها تقريباً (ما عدا الذرة وبعض انواع الشوفان) ومعظم انواع الخضار وغافر المنطقة المعتدلة اتت من آسيا وخاصة من الشرق الاذتي بطريق اوروبا^٢. وتبع الادافية يتمتع بشهرة في العالم كله. ومحاصيل الفواكه القديمة التي منها التين والزبيب والتمر والعنب قد زادت فيها بعد بدخول انواع جديدة كالملوز والمنتجات الحفظية . واتى السكر من الشرق مع العرب الفاتحين . وانقطاع المطر في الصيف يستوجب الري لبعض هذه المحاصيل ، وشمس بلاد البحر المتوسط القوية التي لا تتفكر اشعتها تلفح الارض كل يوم تقريباً خلال موسم الجفاف تسبب نضوج الافمار نضوجاً تاماً . وام اشجار هذه المنطقة هي السنديان وصنوبر بلاد البحر المتوسط والتوت والزان . ولا شك بأن الاشجار المعتدلة كانت أكثر فيها مرضي . وقد كانت تقلص منطقة الغابات خارجاً باعتبار ان الحرارة كانت تؤخر تأكل التربة في المرتفعات .

وفي اعلى لبنان النوري والشريقي ترول اشجار التحيل وشجيرات المنطقة المعتدلة التي تجدها في الساحل وذلك بفعل برودة الشتاء ولا تبقى الا الاشجار القوية الصامدة مثل الشوح والارز وسائر النباتات ذات الافمار المخروطية . وهذا ما يشكل المنطقة النباتية الثانية . وتحتفل مرتقبات لبنان الشرقي الفاصلة في قسمها الشمالي اختلافاً يستلفت النظر عن لبنان الغربي .

واما في المنطقة النباتية الثالثة التي يمثلها حوض النبع وهضاب سوريا الشرقية فان الحرارة الشديدة وقلة الامطار تؤدي الى وجود مهوب تكاد تندفع فيهما الاشجار، وتظهر الاعشاب في مواسم معينة ولا تعيش فيها سوى الشجيرات الخشنة والعليق . وتتصف المضاب الواقعية على اطراف بادية الشام ايضاً بقلة الاشجار وكثرة العليق الجاف الشائك . ويجري العاصي والاردن في اودية عميقة ولذلك فان فائدتها الطبيعية في الري قليلة .

وموقع هضاب شرق الاردن وحوران مناسب بحيث يعرضها للرياح بسبب انخفاض تلال السمرة والجليل النسيبي . وتتجمع بسبب ارتفاعها رطوبة كافية لاجل

١) راجع كلامنا عن الري والزراعة في الفصل الثالث .

Walter T. Swingle, « Trees and Plants We Owe to Asia », Asia, vol xliii (1943), p. 634.

المراعي . وقد كانت حوران في العصور القديمة والحديثة مخزن قمح سورياً ومصدر تصدير الحبوب كما يغلب الظن من فلسطين إلى صور^١ وحتى إلى اليونان .

ان وجود هذه المناطق البابية الثلاث ناتج عن التقاء منطقتين نباتيتين في سوريا وها منطقة البحر المتوسط ومنطقة مهوب آسيا الغربية . وتتوسط جبال لبنان يأتي بعامل جديد ويفرض تغييراً ناشطاً بصورة مباشرة عن تأثيرات الارتفاع ، ويجعل الانتقال من تأثيرات البحر المتوسط الى التأثيرات القارية مفاجئاً جداً . ولذلك فاننا نجد مزارع الموز ومراعي الالعاب الشتوية وواحات البادية ضمن منطقة لا تبعد عن البحر اكثراً من ستين ميلاً . ولكننا نشاهد تباعيناً يستلتف النظر في كل مكان بين المناظر في الربيع حين تورق النباتات على احسن وجه وبين المناظر في الصيف حين تكون الحرارة قد قضت على النبات .

شهر الزيتون

وفي العصور القديمة كانت الاشجار المشتركة الوحيدة التي ترعرع على مقياس واسع هي الانواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف ونعني بها التين والكرمة والزيتون . وقد ادخل الفينيقيون الكرمة الى بلاد اليونان ومن هناك الى ايطاليا . ورافق الزيتون الكرمة او تبعها من الشرق الى الترب ^٣ . وشجرة الزيتون لا تتطلب الا القليل من العناية وتعطي الشيء الكثير . وغزيرها كان ولا يزال يشكل احد مصادر الغذاء الرئيسية للطبقات الدنيا . ويتدنى في جنوب بيروت بستان الزيتون على مسافة اميال ويعتبر من اكبر بساتين الزيتون في العالم . وكان يستخدم زيت الزيتون لاجل الغذاء، فيقوم مقام الزبدة التي يصعب حفظها ، ويستعمل في المصابيح لاجل التزيير . وفي المراهم وصنع الروائح الذكية . وكذلك يستخدم لاغراض طبية^٤ .

١) سفر الملك الاول ٥ : ١١ : انظر كلامنا في النصل ٢٢ من هذا الكتاب عن الزراعة في العصر الروماني .

قارن مع (٢) H. B. Tristram, *The Survey of Western Palestine: The Fauna and Flora of Palestine* (London, 1888), pp. xix - xxii.

^{٣)} انظر بثأن الاشجار السورية التي ادخلت الى ايطاليا ما سبأني في الفصل . ٢٢

٤) انظر سفر اخبار الایام الاول ١٢ : ٤٠ ; حزقيال ١٦ : ١٣ .

٠) سفر المخروج ٢٥ : ٦ : محق ٢٥ :

٦) سلسلة المتروج ٣٠ : ٢٥ ; سهيل الثاني ١٤ : ٢ ; المزامير ٢٣ : ٥

۲) سفر اشیما ۱ : ۶ ؛ انجیل مرقس ۶ : ۱۳ ؛ لوقا ۱۰ : ۳۶

وكان الزيت ملأ قارورة صهريج عندما مسح أول ملك على إسرائيل^١ وأكتسب درجة من القدسية بحيث لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا في مسح جبهة المشرف على الموت وكان يعطى لب الزيتون بعد عصره طعاماً للحيوانات كما أن تواته تستخدم للوقود بعد جرثها . ومنذ أن عادت الحمامات إلى نوح بغضون الزيتون فان ورق الزيتون أصبح عنوان السلام وعلامة السعادة . وفي مؤتمر الأشجار الذي يتحدث عنه سفر القضاة (٩ : ٨) اعترفت نباتات فلسطين بسيادة شجرة الزيتون فطلبت أن يملك عليها .

الارز

ان افخم اشجار لبنان واسهورها شجر الارز (Cedrus Libani) وقد تغنى الشعراء والأنبياء والمؤرخون الاقدمون بصفاته فوصفوه بالقوة (مزامير ٢٩ : ٥) والمقاومة (ارميا ٢٢ : ١٤) والجلال (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩ ؛ زكريا ١١ : ١ - ٢) والملاءمة للنهر (اشعيا ٤٤ : ١٤ - ١٥) . وقد زود الارز سكان لبنان الاقدمين باحسن الاخشاب لبناء سفنهم وكان يجتذب ملوك وادي الرافدين ووادي النيل حيث لا تنبت اشجار كبرى . واليوم لم يعد يشكل لسوء الحظ جانباً من بجد لبنان كما كان يفعل قديماً (اشعيا ٣٥ : ٢؛ ٦٠ : ١٣) . ولا يزال يوجد الارز في مجموعات صغيرة - كبقات زهر في صدر لبنان العاري - اشهرها تقع فوق بشرئي حيث تقوم اكثار من اربعين شجرة يبلغ عمر بعضها الف سنة^٢ . ويبلغ ارتفاع اعلاها نحو ثمانين قدماً . وتعرف هذه الاشجار عند الشعب « بأرز الرب » . وقد اتخذت احداها شعاراً للجمهورية اللبنانية الحديثة . وهناك غابة ارز اصفر واحداث موقعها فوق الباروك في الجنوب حيث تسمى « أهلل^٣ » . وقد استغلت احراج الصنوبر والارز خلال العصور وبلغ هذا الاستغلال ذروته في عهد الاتراك

(١) سفر صهريج الاول ١ : ١٠ .

(٢) رابع : George E. Post, *The Botanical Geography of Syria and Palestine* (London, 1885 ?), pp. 36-7. Albert E. Rüthy, *Die Pflanze und ihre Teile im biblisch-hebräischen Sprachgebrauch* (Bern, 1942), pp. 41-2.

(٣) وهو نوع من المرعر (Juniperus Sabina) وبالبرية ارز . غير ان هنالك التباس بين الكلتين . فخشب الارز الذي يستعمل في طقوس التطهير بعد الاحتكاك مع رجل يصاب بالبرص (سفر اللاويين ١٤ : ٤) او مع جثة ميت (سفر المدد ١٩ : ٦) هو المرعر كما يبدو وكان ينمو في البرية وبجانب المياه (عدد ٦ : ٢٤) .

المئتين حيث استخدمت كوقود لتسير قطارات السكة الحديدية . وعمل هذا الاستغلال على تحريد الجبال من احسن اشجارها كما انه عجل في عملية التأكل ونشأ عن ذلك ايضاً تأخير التشجير من جديد .

الحياة الحيوانية

وقد ساهمت الاغنام والماعز وخاصة الماعز في تسهيل عملية التأكل باكلها العشب والنباتات الصغيرة على سفوح التلال بما جعل التربة رخوة واكثر تعرضاً لتأثير المياه الجاربة . ونشأ عن حالة تصاريض جبال لبنان وعن كثرة تصريف المياه في مرتفعات فلسطين ان الكلأ الطبيعي للمواشي والخيل في سوريا كان قليلاً بصورة دائمة غير انه بامكان الاغنام والماعز ان تجده العشب الكافي .

الحصان

كان الحصان بالاصل حيواناً برياً اميركيّاً ولكنه دخل شرق آسيا في عصور ما قبل التاريخ البعيدة عندما كانت تشكل اميركا وآسيا قارة واحدة . ويظهر الحصان في شكله البري منذ الدور النطوفي في فلسطين^١ . وقد دجن في اوائل العصور القديمة في احد الاماكن شرق بحر الخزر من قبل المندو الأوروبيين الرحل . واستوردوا الكاشيون الى بلاد الواقفين على مقاييس واسع وبواسطتهم دخل آسيا الغربية قبل الميلاد بنحو الـ ستة . وقد اعطاه الحثيون الى اليديين ومنهم انتقل الى اليونان . وادخل المكسوس الحصان الى سوريا ومنها الى مصر قبل العصر الميلادي بنحو ١٨٠٠ سنة . ومن سوريا انتقل العصر الميلادي الى بلاد العرب حيث احتفظ الحصان العربي اكثر من اي مكان آخر ببنقاوة دمه^٢ .

الابل

وكان الجمل كالحصان من اصل اميركي وانتقل الى شمال شرق آسيا منذ ملايين السنين . ومن هناك وجد طريقه بواسطة كشمير والمند ، حيث اكتشف عظامه المتحجرة ، الى شمالي غربي بلاد العرب ومنها الى جنوبي سوريا . و الاول اشاره

Dorothea M. A. Bate, « A Note on the Fauna of the Athlit Caves », *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. xlvi (1932), pp. 277-78.

Hitti, *History of the Arabs*, pp. 20-21 (٢)

معروفة للجمل في الأدب واردة في سفر القضاة^٦ : ٥ حيث يوجد وصف غزو المديانيين لفلسطين في القرن الحادي عشر ق. م. واقدم رسوم معروفة لهذا الحيوان ترجع إلى العصور الحجرية وقد اكتشفت حديثاً في كثولة^١ في شرق الأردن حيث تظهر في رسوم محفورين يبدو في أحدهما وراءه وعلى من العصر الحجري الوسيط^٢. والرسم هو رسم جمل صغير له سنام واحد وهو الجمل العربي المعروف اليوم. واكتشفت صورة جحيم لمجينا وراكبها في تل حلف وتاريخها بين ٣٠٠٠ و٢٩٠٠ ق. م^٣. وجود الراسك لا يترك شكّاً في أن الحيوان كان مدجناً . وفي جبيل وجد تمثال صغير مصرى الأصل يعود إلى النصف الأول من الألف الثاني ق. م. وقتل جملًا مضطجعاً في الوضع المعروف^٤ . والتلليل المصرية الصغيرة الأخرى من عهد المملكة القديمة في مصر (نحو ٢٥٠٠ ق. م.) والتي وجدت في جبيل تؤكد وجود الجمل كحيوان للعمل في ذلك العهد.

وهنالك حيوان آخر أدخل إلى سوريا من آسيا القاحلة بطريق الجزيرة العربية وهو النوع القديم من الفنم ويتصف بذنبه العريض السمين وصوفه الطويل وهو النوع المعروف حتى اليوم . وقد ذكر في الآداب التوراتية والكلasicية^٥ . ويبعدو أن عادة تسمين الفنم الغربية التي بقيت في لبيات وتقوم على دس الطعام في الفنم وتحريك الحنك بواسطة اليدين كانت معروفة في مصر القديمة كما يتضح من إشكال حيوانية منحوتة حتى بارزاً تشبه الغزلان أو الماعز وقد وجدت على قبور تعود إلى السلالة السادسة .

وبالإضافة إلى الجمل والحمان فان في سوريا حيوانات أخرى للعمل والجر مثل الحمار والبغال وغيرها ، وفيها سوى الفنم والماعز فان حيواناتها الداجنة تضم البقر

١) في جبيل الطييق في الحiodون الجنوبي الشرقي لشرق الأردن .

٢) النظر : Hans Rhotert, *Transjordanien : vorgeschichtliche Forschungen* (Stuttgart, 1938), p. 176, pl. 15, No. 2 ; p. 224, pl. 26, No. 1 ; Angus Horfield « Journey to Kilwah », *The Geographical Journal*, vol. cii (1943), pp. 71-7.

٣) Von Oppenheim, *Tell Halaf*, p. 140, and pl. xxi a, facing p. 136 (٢

٤) Pierre Montet, *Biblos et l'Egypte*, (Paris, 1928), p. 91, No. 179 ; « Atlas » vol. (1929), pl. lii, No. 179.

٥) سفر الحروم ٢٩ : ٣ ؛ الألوين ٩ : ٣ . انظر أيضًا : Herodotus, *History*, Bk III, ch. 113

والكلاب والقطط التي دجنت منذ اقسام العصور^١ . وان البقر والغنم والماعز والخنازير والدجاج هي جميعها حيوانات اسيوية دجنت وادخلت الى اوروبا ومنها الى اميركا^٢ . والحيوانات البرية المعروفة في البلاد هي الضبع والذئب والثعلب وابن آوى والظبي والوعول . والفرزلات التي يمكنها البقاء بدون ماء مدة طويلة في طرق الزوال السريع . والملهاة العجيبة التي يمكنها العيش في مجاهل الباادية بذوق مياه آخذة بالانفاس . وقد قتلت آخر النعامات في نهاية العقد الثالث من هذا القرن في جبل الطبيق . وزالت من سوريا الاسود والنمور التي كانت معروفة في عصر الصليبيين^٣ . وتوجد الافاعي والسحليات والعقارب بكثرة وخاصة في جنوبى البلاد . والطيور المعروفة هي النسر والباشق والبوم والمحجل والقطا وغيرها مما هو مشهور لدى طلاب ادب التوراة .

١) راجع ما جاء بهذا الشأن في أعماله من ١٦ .

٢) انظر : Swingle in Asia, vol. xlivi (1943), p. 634 ; Childe, p. 46

٣) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار . نشره فيليب حتى (برلستون ١٩٣٠) من ١٠٤ وما يليها ، ١٤٤ .

القسم الثاني

الأزمنة السامية القدمة

الفصل السادس قدوم الساميين

يمكن تقسيم تاريخ شعوب سوريا في خطوطه الواسعة إلى خمسة أقسام رئيسية هي :

- (١) عصر ما قبل التاريخ وقد بحثناه في الفصول السابقة .
- (٢) الدور السامي الذي بدأ بالأموريين (حوالي ٢٥٠٠ ق. م.) وانتهى بسقوط الإمبراطورية البابلية الجديدة (أو الكلدانية) في ٥٣٨ ق. م. وتبنته سيادة الفرس .
- (٣) العصر اليوناني الروماني الذي بدأ بفتح الإسكندر الكبير في ٣٣٣ ق. م. وانتهى بالفتحات العربية في ٦٤٠ - ٦٣٣ .
- (٤) الدور العربي الإسلامي الذي استمر حتى الفتح العثماني في ١٥١٦ .
- (٥) الدور العثماني الذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الأولى .

وفي خلال هذا التاريخ الطويل المتعدد لم تكمل تشكيل سوريا فترة واحدة وكانت فيها كلها دولة مستقلة بغير دها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين . وقد كانت وحدتها تفرض عليها دائمًا بارادة سلطة خارجية وفيما سوى ذلك فانها كانت عادةً اما جزءاً من دولة اكبر او بجزءة بين دول وطنية او اجنبية . ولم تتمكن سوريا نفسها المركز السياسي الا في عهد المملكة السلوقية بعد ٣٠١ ق. م . وكانت العاصمة انطاكية وفي اثناء الخلافة الاموية (٦٦١ - ٧٥٠ م) التي جعلت دمشق عاصمتها . وكانت سوريا في عهد الماليك (١٢٥٠ - ١٥١٦)تابعة لمصر . وكانت النيل في مصر وكذلك الفرات في بلاد الرافدين عوامل ساعدت على الوحدة ، ولم يكن في سوريا عامل طبيعي من هذا النوع . والواقع ان وضع سوريا الطبيعي كان يميل إلى احداث التنوع أكثر من الوحدة .

اسم سورية والسوريين

ان اسم سوريّة يوناني في شكله^١. ويظهر بشكل شرين Shryn في آداب اوغاريت^٢ وسوريون Siryōn في العبرية^٣ حيث يطلق على لبنان الشرقي . واستخدم اسم الجزء فيما بعد ليشمل البلاد كلها . وكلمة لبنان هي سامية ايضاً ولكنها تظهر في الوثائق المسارية التي هي أقدم من الوثائق العبرية والأوغاريتية . وكانت احدى مناطق شمالى الفرات معروفة عند البابليين باسم سوري Su-Ri^٤ . ولا توجد في الفالب صلة في الاشتراق بين «سورية» و «آسirيا» (اشور^٥) . وفي الصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم واطلق على البلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الاولى . وقد شمل عموماً المساحة الواقعة بين طوروس وسيننا وبين البحر المتوسط والبادية . وكانت فلسطين عند هيرودتس^٦ قسماً من سوريا – وكذلك كانت عند الأتراك – وكان سكانها يعرفون بالسوريين الذين في فلسطين . واعتبر وليم الصوري^٧ وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سوريا ايضاً . واسم فلسطين ايضاً اتى من اليونانية وكانت بالاصل «فلسطينا» وهو متصل بذكرى الفلسطينيين المنود الاوليين الذين احتلوا المنطقة الساحلية في القرن الثالث عشر ق.م. في ذات الفترة تقريباً التي كان يحاول فيها الاسرائيليون احتلال الداخل^٨ . ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه التسمية وصارت تشمل المنطقة بكاملها حتى البادية .

(١) وقد ظهر لأول مرة في Herodotus, Bk II. ch. 12

(٢) في اوائل القرن الرابع عشر ق.م. انظر : Cyrus H. Gordon, *Ugaritic Handbook* (Rome, 1948), p. 142.

(٣) سفر التثنية ٣ : ٩ ; المزامير ٦ : ٢٩ .

(٤) راجع ما جاء في اعلام من ٣٣ عن اسم لبنان .

(٥) انظر ما سينينا في الفصل السابع عن هذه التسمية .

(٦) قارن مع كلام ارتست هرفتزلي في مجلة الجمع العلمي العربي ٢٢ (١٩٤٧) من ١٧٨-١٨١ حيث يوافق على هذا الاشتراق .

Herodotus I. 105; II. 104, 106; III. 5, 91. Cf. Josephus, *Antiquities* I. 6. 2 (٧)

(٨) راجع : A History of Deeds Done Beyond the Sea, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey (New York, 1943), vol. II, p. 5.

(٩) انظر ما سيد في الفصل الثالث عشر .

وتسمية سورية والسوريين غير واردة في النص العربي الأصلي للهند القديم ولكنها مستعملة في الترجمة السبعينية للدلالة على آرام والأراميين . وبعض كتاب العصر الكلاسيكي يخاطئون في الكلام عن السوريين حين يجعلون اسمهم مرادفاً للأشوريين . وقد اعطى العرب للبلاد اسم جديداً وهو الشام او المنطقة الواقعة الى اليسار (اي الشمال) بخلاف اليمين او المنطقة الواقعة الى اليمين (اي الجنوب) وذلك بالنسبة للجهاز^١ . واستعمل اسم « سوري » بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها غير انه يستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية السورية فقط وكمصطلح لغوي فات اسم « سوري » Syrian بالانكليزية يشير الى جميع الشعوب التي تتكلم السريانية (الآرامية) ومنهم الذين في العراق وايران ، كما انه يشير كمصطلح ديني الى اتباع الكنيسة السورية القديمة او السريانية ، وقد انتشر بعضهم حتى في جنوب الهند^٢ .

وكان اسم سيروس Syrus (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية ، غير ان ولاية سورية الرومانية كانت تتد من الفرات الى مصر . وكانت هذه حدود سورية كما وصفها الجنرالون العرب^٣ وظلت تعتبر كذلك حتى نهاية الدور العثماني^٤ . والوحدة الطبيعية لهذه المنطقة التي تعرف باسم سورية لها ما يقابلها في الوحدة الحضارية ولكن ليس في الوحدة الجنسية او السياسية . وهي تشكل منطقة متباينة في الحضارة على وجه التقريب و مختلفة اختلافاً بيناً عن المناطق المجاورة . غير ان الحدود الحضارية بينها وبين الطرف الشرقي فقط للهلال الخصيب كانت دائرةً حدوداً مائعة .

١) راجع المنسى من ١٥٢ ؛ ابو القداء من ٢٢٥ . راجع ما سيأتي في الفصل ٤١ . انظر بشأن حدود الشام ابن حوقل : *السالك والملاك* طبعة دي غوري (لبنان ١٨٧٢) من ١٠٨ ؛ باقوت ج ٣ ص ٢٤٠ . راجع : Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks* (Paris, 1923) pp. 6 seq.

٢) تيز اللغة العربية بين هذه التسميات فستعمل اسم « سوري » للفهوم العربي والجنوبي واسم « سرياني للفهوم الغربي والديني » .

٣) انظر : Smith, *Historical Geography*, pp. 3-4 ; Arnold J. Toynbee, *Survey of International Affairs*, vol. i, *The Islamic World* (London, 1927), pp. 347-8 ; المرأة الوضية في الكرة الارضية (بيروت ١٨٦٨) من ١١٩-١٢٠ . Cornelius Van Dyck,

قارن مع : Dussaud p. 1

٤) كما في الاصطخري من ٥٥ وأبو القداء من ٢٢٥ .

العوامل التاريخية الفعلة

ان العوامل الفعلة في تاريخ سوريا وسكنها ثلاثة وهي : اولاً وضعها الجغرافي كمجموع لمناطق مختلفة ينعكس في خليط من السكان والجماعات العرقية والمذاهب الدينية . وقد تقطع سطح الارض بحيث ان طبيعة هياكلها لم توجد في أي مكان يمتد تسع اتساعاً كافياً لنشوء دولة قوية شاملة . والعامل الثاني هو موقعها الاستراتيجي كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث وهو امر جعلها معرضة للاختبار والغزوات من جميع الجهات . فالبابليون والاشوريون ، والمصريون والشيوخ ، والفرس والمقدونيون والرومان ، والعرب والمغول والاتراك ، والصلبيون وغيرهم من الامم الاخرى هاجروا البلاد في عصور مختلفة واحتلوها كلها او جانباً منها . والعامل الثالث هو بجاورتها لاقليم مركزين للحضارة الفعلة وهما الحضارة السومرية البابلية في الشرق والحضارة المصرية في الجنوب العربي . وفي العصور التالية تعرضت البلاد من جهة البحر لتأثيرات هندية اوربية من كريت والميونان ورومة من جهة البر لتأثيرات هندية ايرانية من فارس والهند .

الطريق الدولي العظيم

وبسبب اتصال سوريا بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي بواسطة الطريق الدولي العظيم فانها تعرضت لتأثيرات عالمية ولتدفق بقايا الجماعات المتفككة . ففي قسمها الجنوبي وجدت البهائية الحديثة ملجأ يحميها من الملاك فعاشت جنباً الى جنب مع بقية مذهب قديم كالسامرية . ولا تزال تردد في اقسامها الوسطى طوائف الدروز والموارنة التي يعود اصولها الى العصور الوسطى . وفي الشمال نجد حتى الان مذاهب التصيرية والخشاشين .

ان هذا الطريق الدولي يمكن تتبعه من مبدأه في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز في شبه الجزيرة كما يتفرع الى اراضي البخور في جنوب الجزيرة العربية . ومن سيناء يتحوال الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر . وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور وصیدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ويسير الآخر الى الداخل فيعترض سهل بحده ويعبر الاوردن في واديه الشهابي ثم يتوجه رأساً الى دمشق

في الشمال الشرقي . ويترفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سوريا مع قلب بلاد الرافدين الذي تنهي بالمتلالي بابل والمدائن وبنفاد . أما الطريق الرئيسي فإنه يتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقي بواسطة بحر الزيبدافي ويصعد شمالاً عبر سوريا الجوفة متبعاً نهر العاصي وقادش إلى شمالي سوريا . ويترفرع في سيره عند قادش باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة وادي النهر الكبير ، وتتبع السكة الحديدية اليوم هذا الطريق نفسه . وبعد أن يتفرع في شمالي سوريا إلى البحر بطريق الأبواب السورية في جبل إمانوس ويترفرع أيضاً إلى الشمال الغربي بطريق الأبواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى فإنه يتحول إلى الشرق بطريق الجسر السوسي نحو الفرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوباً إلى الخليج الفارسي .

ولقد سلك بعض أجزاء هذا الطريق التجاري العظيم سرجون وسنحاريب ونبوخذنصر والاسكتدر وبومبي وعمرو بن العاص ونابوليون واللنسي وأبراهيم وموسى والعائنة المقدسة كما سلكه كثيرون غيرهم . وكانت تتنقل على هذا الطريق في العصور القديمة والوسطى أحمال العاج والذهب من أفريقيا ، والمر والبغور والتوابيل من الهند وجنوي بلاد العرب ، والكمثران والحرير من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والأخشاب من سهول سوريا وجبلها ، غير أن القوافل كانت تحمل أكثر من ذلك . فقد كانت تحمل معها أحمالاً غير منظورة من الأفكار . ولذلك استهلك القمح واستخدم الكهرمان لارضاء رغبة عابرة لأحدى الفتيات فات الافتخار لم تفقد كلها . فقد اغرت بعضها في عقول السوريين وساهمت في انتاج تلك الحضارة المركبة المعروفة بالحضارة السورية والتي كانت مزيجاً من عناصر وطنية وآخرى من حضارات البلاد المجاورة . وكان المنصر الوطني نفسه يمثل رواسب تركتها هجرات وغزوات لا عداد لها .

التزاوج بين البدو والحضر

والعامل الرابع بين العوامل التاريخية المؤثرة هو ان البلاد السورية كانت خالدة تارينها وخاصة في اطراها الشرقية والجنوبية مسرح تزاوج متواصل بين البدو والحضر المستقررين . وكان تاريخ الشرق الادنى بكامله مشهد حركة كبيرة تتطوى

على تلك الفزوارات والمبجعات المتكررة التي يقوم بها البدو الطامعون في حياة الرخاء التي تعم بها السكان الحضر في الاراضي المجاورة . وان جانبأً كيداً من تاريخ سوريا هو قصة تلك الموجات المتتالية التي يطغى بها سكان الباادية المقطريون الجائعون فيحاولون بطريق التغلغل السلمي او بالقوة احتلال الاراضي الزراعية . ولقد كان سكان الخيام الرحيل ميزة على سكان البيوت المستقرة لغة متكلّمهم وسرعة حركة ملتهم وشدة احتمالهم . وقصة بني اسرائيل القدماء كما ترويها لنا صفحات المهد التديم في التوراة تعطيانا أولى ايضاح عن هذا الانتقال المتواصل من البداوة الى الحياة الحضرية . غير ان بني اسرائيل لم يكونوا اول من عرف هذا الانتقال بين الساميين . وقد ساميون كثيرون قبلهم وبعدهم بالراحل نفسها بالنسبة لسوريا^١ .

من هم الساميون ؟

وقد اشتق اسم الساميين من سام بن نوح على اساس ان الساميين كانوا متسلسين من الابن الاكبر لنوح . غير ان هذه التسمية من وجهة علمية هي تسمية لغوية وتطلق على الذين يتكلّمون او تتكلّموا اللغة سامية . واللغات السامية كما هو معترف بها اليوم هي مجموعة لغوية خاصة تضم اللغة الاشورية البابلية (الاكادية^٢) والكمانية (الفينيقية) والآرامية والعبرية والعربيّة والحبشية . وتبدو في لغات هذه المجموعة نواح من التشابه تستلتف النظر وتختلف عن المجموعات اللغوية الاخرى واقربها اليها المجموعة الخامدة . وام نواحي التشابه ضمن هذه المجموعة اللغوية هي : وجود فعل ثلاثي ك مصدر اساسي ووجود زمين الفعل بما الماضي والمضارع ، وتصريف الفعل يتبع نفس الاسلوب . وفي جميع لغات المجموعة السامية نجد تشابهاً بين الكلمات الأساسية كالضمار الشخصية ، والاماءات التي تدل على القرابة ، والاعداد واعضاء الجسم الرئيسية .

هذه القرابة اللغوية بين الشعوب التي تتكلّم اللغات السامية هي اهم رابطة تبرر

١) راجع ما جاء في نهاية الفصل الرابع .

٢) كانت آقاد (و) وهي المقابل السامي لكلمة *Agade* السومرية بالأصل اسم عاصمة سرجون مؤسس اول امبراطورية سامية ثم اطلقت على البلاد . وتقع المدينة في مكان اقتراب النهرة والفرات واحدتها من الآخر وقد ذكرت في سفر التكريم ١٠ : ١٠ .

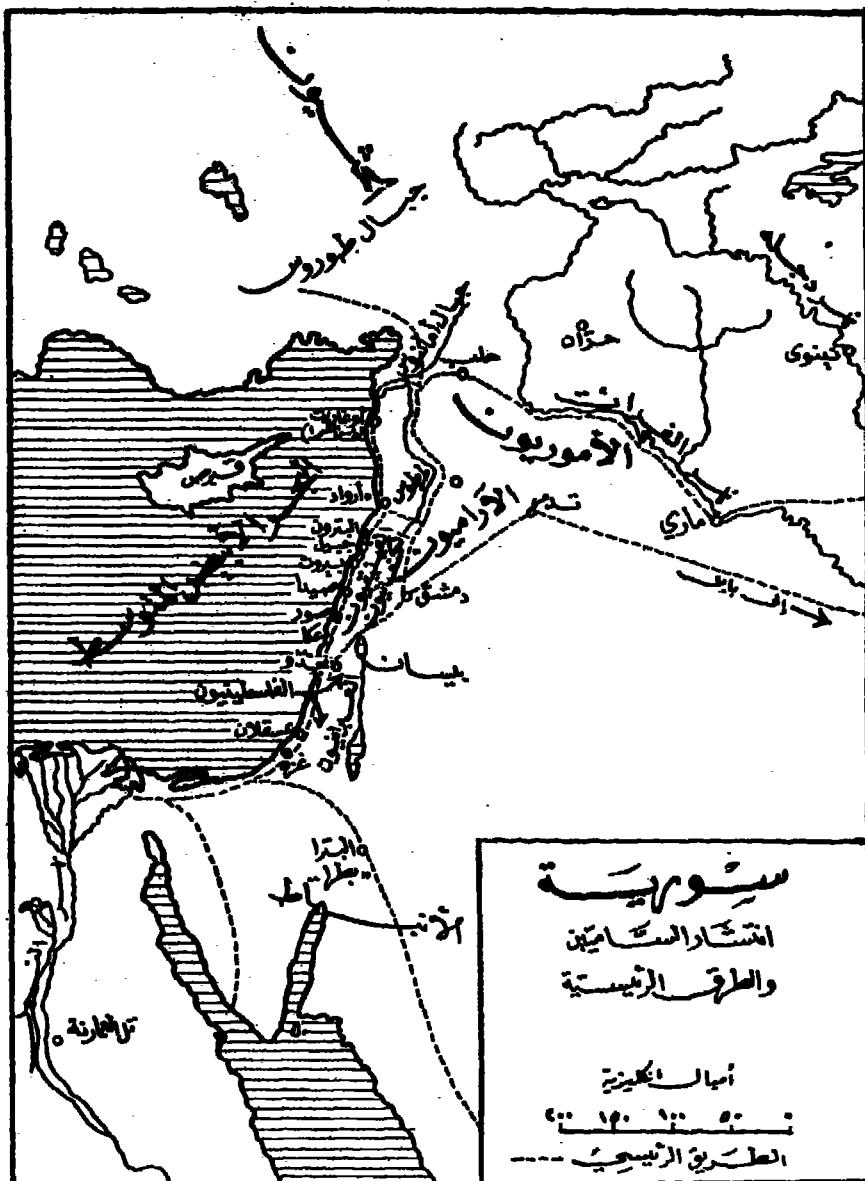
ضيئم تحت اسم واحد ولكنها ليست الرابطة الوحيدة . فإذا ما قارنا مؤسستهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية وصفاتهم النفسية وأوصافهم الطبيعية اتضحت لنا نواح هامة للتشابه . وعندئذ لا بد من الاستنتاج بأن بعض أسلاف الذين تكلموا البابلية والآشورية والأمورية والكتنائية والعبرية والأرامية والعربية والمحبيشية كانوا غالباً يشكلون جماعة واحدة قبل أن تحصل بينهم هذه الاختلافات وإن هذه الجماعة كانت تتكلم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه .

شبه جزيرة العرب مهد الساميين

وإذا ما تساءلنا عن الموطن الأصلي لهذه الجماعة فإن النظرية المختلة أكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية . والججعة المفترافية بالنسبة للجزيرة العربية تقوم على أن البلاد صحراوية يحيط بها البحر من ثلاث جهات ولذلك فإنه عندما يزيد السكان عن قدرة الأرض المأهولة الضيقة لاعاشتهم فانهم يمليون الى البحث عن مجال حيوي متيسر فقط في الاراضي الشهابية الخصبة التي يجاورهم . ويؤدي ذلك الى الجهة الاقتصادية التي تقول أن أهل الجزيرة^١ الرجل كانوا دوماً يعيشون على ما يقرب من الجوع وإن الملاك الحصيف كان أقرب مكان يزودهم بما يحتاجون اليه .

وقد اتجهت في حوالي ٣٥٠٠ ق. م. هجرة سامية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي ووزعت افرادها الرجل بين السكان السومريين في بلاد الرافدين الذين كانوا مستقرين وعلى جانب رفيع من الحضارة ، وبذلك شكلت الاشكادين الذين عرفهم التاريخ (وسموا فيما بعد بالبابليين) . وعندما تراوح الساميون مع غير الساميين الذين كانوا قبلهم واحتلّطوا بهم في منطقة الدجلة والفرات فانهم اكتسبوا منهم معرفة البناء والمعيشة في البيوت وزراعة الارض وربما بل اكتسبوا ما هو اهم من ذلك وهو القراءة والكتابة . وسادت اللغة السامية التي حملوها معهم وأصبحت الواسطة التي عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال اجيال عديدة .

١) ان التمييز بين الكلمة «Arabians» للدلالة على سكان شبه الجزيرة وكلمة «Arabs» للدلالة على جميع الشعوب التي تتكلم العربية – وان كانت احياناً قوميتها فاروسية او عراقية او سورية او مصرية الخ حيث اقتبست اللغة العربية بنتيجة التفتح الاسلامي واصبحت معظمها إسلامية – هذا التمييز اقترح لأول مرة في كتاب Hitti, *History of the Arabs*, p. 43, n. 3



وبعد المиграة الأولى بنحو ألف سنة حصلت هجرة أخرى من الباشية وأتت بالآموريين ووزعهم في سهول سوريا الشهابية . وشملت هذه المиграة الشعب الذي

احتل فيما بعد السهل الساحلي وسي نفسي بالكتمانين واطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم اسم فينيقية .

وبين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق. م. خربت جمادات اخرى من بلاد العرب فدخل الأراميون سوريا الجوفة ومنطقة دمشق وانتشر العبرانيون في القسم الجنوبي من البلاد . وحوالي ٥٠٠ ق. م. ادت هجرة جديدة من بلاد العرب الى استقرار الانباط شمالي شرقى شبه جزيرة سيناء حيث كانت عاصمتهم البتراء وبلغت درجة رفيعة مدهشة من الحضارة في ظل الرومان .

وكان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقاييس واسع ذلك الذي حصل في القرن السادس الميلادي تحت راية الاسلام وانتشر هذا السيل ليس في سوريا فحسب وإنما في سائر مناطق الملايين وكذلك في مصر وشمال افريقيا وفارس وحتى في اسبانيا وبعض اجزاء آسيا الوسطى . وهذه المиграة الاخيرة هي الموجة التاريخية التي يتقدم بها اصحاب النظرية التي تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الاصلي للساميين . ويضيفون الى ذلك حجة لغوية مؤداتها ان اللغة العربية قد احتفظت في نواح كثيرة باشد تشابه باللغة السامية الام التي كانت جميع اللغات السامية من لمعانها ، وكذلك حجة بسيكولوجية خلصتها ان سكان شبه جزيرة العرب وخاصة سكان البداية قد احتفظوا بأدقى الصفات السامية .

هذه المigrations التي حصلت في عصور يفصل الواحد منها عن الآخر نحو الف سنة - كما لو كان ذلك الوقت ضرورياً ملء المخزان البشري قبل ان يفيض - قد اطلق عليها احياناً اسم موجات . والحقيقة انها اكثر شيئاً بسائر الحركات البشرية في التاريخ حيث تبدأ بانتقال اشخاص قلائل يتبعهم آخرون وتزداد عدد الذين يلحقون بهم الى ان تصل الحركة ذروتها وتأخذ بالتراجع . وتاريخ المиграة هو تاريخ بلوغ الندوة حين تصبى الحركة بما يستلفت النظر وان كانت في الواقع شملت عشرات من السنين من قبل ومن بعد .

الفصل الثاني الأموريون أول شعب سامي يُحيى في سوريا

دخول الاموريين

ان اول شعب سامي هام بحث عن موطن له في البلاد السورية واقام فيها هو الشعب الذي سماه جيرانه السوريون في الشرق بالاموريين ولا تدري الاسم الذي كان يطلقه على نفسه . فكلمة «اموريين» اذاً غير سامية وتعني «الغربيين» . والغاية الامورية ماري الواقع جنوبي مصب النيل (وهذه ايضاً كلمة سوميرية) هي من جهة الاشتراق شبيهة باسم البلاد امورو ومارتو اي بلاد الغرب ، وكان هذا ايضاً اسم المهم القديم وهو الله الحرب والصيد . ووسع البابليون فيما بعد مدلول الاسم فصار يشمل سوريا كلها وسموا البحر المتوسط «بحر امورو و العظيم» .

وتظهر اول اشارة الى ارض الاموريين منذ عصر سرجون (حوالي ٢٢٥٠ ق. م.) وهو اول شخصية كبرى في تاريخ الساميين^١ . واخذ الاموريون يظهرون بالتدريج في سوريا الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين في الجنوب . ويقال ان «لبنان» و «صيدون» و «عسقلان» امورية في نهاية اسمائها . وفي اسم عمريت^٢ الحديثة الواقعة على الساحل الفينيقي الشمالي ما يخلد اسم الاموريين . وفي ذلك العهد اصبحت سوريا سامية لاول مرة — باستثناء بعض جيوب سكنها الاموريون وآخرون من غير الساميين — واحتضنت بصبغتها السامية خلال العصور حتى الوقت الحاضر . وقبل ان يجتاح سرجون بلاد امورو كانت عاصمتها ماري قاعدة احدى السلالات السوميرية القديمة . وقد عزل سرجون الفاتح السومري لوكال زاكيزي Lugal-Zaggisi صاحب إرث الذي ادعى في احدى كتاباته الاثرية انه

١) انظر : Arno Poehl, *Historical Texts* (Philadelphia, 1914), p 177

٢) بالمرة القديمة MRT، وهي مدينة مرتوس Marathus الكلاسيكية .

«فتح البلاد من مطلع الشمس حتى مغرب الشمس» وانه «تقديم من البحر الادنی»، من الفرات والدجلة، حتى البحر الاعلى^١. وفي خلال القرن العشرين أصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها امورية في سكناها وحضارتها وحكومتها. ولا بد ان الفزارة الساميين وطدوا انفسهم فوق مجتمع سابق متعدد من سكان بلاد الرافدين ويمكن الافتراض انهم كانوا قبل ذلك يتجلوون في المناطق الشمالية والبقاع كبدو وراء قطعائهم .

وهناك شاعر سوري عاش قبل عام ٢٠٠٠ ق.م. بقليل حين كان الاموريون يحتلون بلاد بابل – قد عبر عن هذا الانتقال من حياة الرعي الى حياة الاستقرار بصورة شعرية حيث قال :

بالنسبة للأموري السلاح هو رفيقه
فلا يعرف الخصوع .
وهو يأكل طماً غير مطبوخ
وفي حياته كلها لا يملك بيته
وهو لا يدفن رفيقه اذا مات .
[والآن] مارتو يملّك بيته^[١] . . .
[والآن] مارتو يملّك حبوبأ^[٢] .

وكانت حياته البدوية تعتمد على الحمار لأن الجمل كحيوان مدجن لم يكن استخدامه شائعاً في ذلك الوقت^٣. وكان لا يزال في القرن الثامن عشر يستخدم الحمار لأجل تقديم النبائح .

والاموريون لم يقتصروا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الاوسط واجتياح سوريا وانما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين ايضاً وحكموها. وقد اسسوا عدة

١) راجع : F. Thureau-Dangin, *Die sumerischen und akkadischen Königsinschriften* (Leipzig, 1907), p. 155.

Edward Chiera, *Sumerian Religious Texts* (Upland, 1924, pp. 20-21) (٢)

Albright, *The Stone Age*, pp. 120-21 (٣)

سلالات من اشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب بين ٢١٠٠ و ١٨٠٠ ق. م. وام هذه كانت سلالة بابل وهي اول سلالة ظهرت في هذه المدينة وانتسب اليها حمورابي (م نحو ١٧٠٠) ، اول مشروع عظيم في العصور القديمة^١. وحمورابي هو الذي قطع بلاد آموره واضافها الى امبراطوريته البابلية.

محفوظات ماري

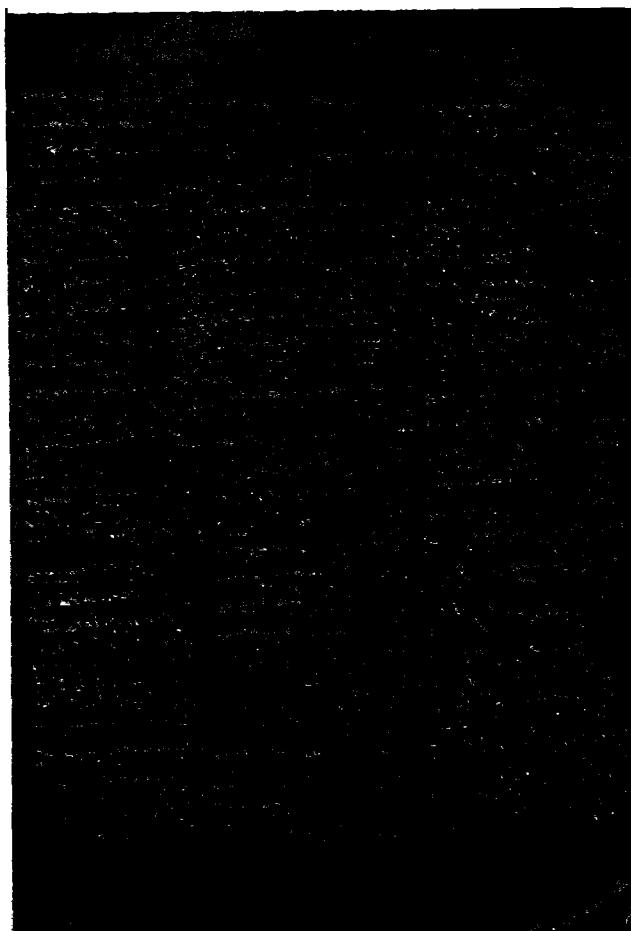
وقد ادى هذا الفتح الى القضاء على مدينة ماري وادخلها في عالم النسيان حتى بضع سنوات خلت حين جرى التنقيب في موقع تل الحريري^٢ واتضح انه ماري القديمة . وكانت الاكتشافات التي عثر عليها من اعظم ما كشفته اعمال التنقيب في العصور الحديثة . فقد تضمنت اكثر من ٢٠،٠٠٠ لوح مسجاري وهو عدد لم يخربجه اي موقع آخر باستثناء نينوى . واللغة في معظم الاحيان اكادية غير ان المفردات والمميزات الصرفية والتحوية لا تترك مجالاً للشك بان الذين كتبوا تلك الاواح تكلموا الامورية او اللغة السامية الغربية المختلفة عن الاكادية او السامية الشرقية . وقتل الاواح محفوظات ذرري ليم (حوالي ١٧٣٠ - ١٧٠٠) آخر ملوك ماري الذي قضى على دولته اعظم ملوك ذلك العصر وهو حمورابي . وبين الاواح تمارير كتبها الملوك والموظرون ووثائق اقتصادية وادارية وتقارير لها قيمتها^٣ . ويظهر لنا

^١) يقول Albert T. Clay في كتابه : *Amurru : The Land of the Northern Semites* (Philadelphia, 1909) ; *The Empire of the Amorites*, (New Haven, 1919) . بان حضارة البابليين الساميين إذا لم يكن اصلها في بلاد الاموريين فإن نشوئها خلال مدة طويلة على الأقل كان في تلك البلاد ، وانه كان للاموريين امبراطورية واسعة منذ الالاف الرابع والخامس ، وان النظرية التي تقول باصل الساميين من جزيرة العرب لا أساس لها . غير ان هذه الآقوال لم تؤيد بعد .

^٢) على يد André Parrot : انظر تقاريره التي عنوانها : « Les peintures du palais » , Syria, vol. xviii (1937) pp. 324-54 ; « Les fouilles de Mari », Syria, vol. xix (1938) pp. 1-29 ; vol. xx (1939) , pp. 1-22 . وتقع تل الحريري اليوم على بعد ميل . غرب نهر الفرات قرب بلدة أبو كمال ، وكانت ماري في العصور القديمة على ضفة النهر .

^٣) انظر مقال : W. F. Albright, « An Indirect Synchronism between Egypt and Mesopotamia, cir. 1730 B. C. », Bulletin, American Schools of Oriental Research, No. 99 (1945) , pp. 9-10.

^٤) راجع : Georges Dossin, « Les Archives épistolaires du palais de Mari », Syria, vol. xix (1938) , pp. 105-26 ; « Les Archives économiques du palais de Mari », vol. xx (1939) , pp. 97-113.



لوح عليه كتابة مسارية من عهد يهودا لم والد زمرى لم
ووجد في قصر ماري الملكي

احد التحذير ان المركبات التي تجرها الحيل كانت معروفة كما يربنا تحذير آخر ان
الاشارات النارية كانت تستعمل كتدبير دفاعي وطفي او كوسيلة سريعة للانباء .
والحضارة الامورية كما تعكسها لنا اللغة التي كتبوها كانت مزيجاً من عناصر امورية
وحورية وبابلية .

وفي هذه الالوح تبدو حَلَبُو Halabu (حلب) كعاصمة يعخاض^١، وجبلة Gubla (جبيل، بيبلوس) كمركز للسيج القماش والملابس، وقطنة Qatna (وهي اليوم المشرفة شمال شرقى حمص) كمركز هام، وحرانو Harranu (حرانت وفي التوراة Haron) — التي كانت احدى محطات ابراهيم في طريقه الى فلسطين— كamarah امورية. وتظهر الوثائق ان جميع هذه المدن كانت مراكز سلالات امورية او تحت حكم امراء اموريين وليس ذلك فقط بل ان تقريباً كل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وارتفاعات عيلام كان يسيطر عليها امراء اموريون حوالي ١٨٠٠ ق.م. ويشير اسم احد امراء جبيل وهو يَنْتَ عَمُّو Yantin-Ammu الى اصل اموري . وكلمة «عم» معناها قبيلة.

وكان يحيى قصر زمري لم الذي وُجدت فيه الالوح نحو ٣٠٠ غرفة فيها الوح جدارية بحيلة باطارات ورسوم متقدمة الصنع للرجال والأئمة فكان حسب تعبير احد الالوح من اماكن التفريج والملتعة في العالم . وكانت مساحة القصر اكبر من ستة فدادين وفيه تسهيلاً للاستعمال وتصريف المياه^٢. وفي القصر غرفتان مزودتان بالمقاعد وتشبهان غرف التدريس . وهنالك رسم ملون بالوان زاهية يمثل الملك يتسلم من عشتار رموز السلطة . وببناء القصر ووثائقه تظهر درجة من الحضارة لم يحلم بها من قبل وهي تنافس حضارة مصر وبلاد الرافدين .

المر السوري الجبلي

كان ازدهار بلاد الاموريين نتيجة الزراعة المعتمدة على الري من جهة والعلاقات التجارية مع جيرانها من جهة اخرى . فالاراضي الكائنة بين خليج اسكندردون حيث يمتد البحر اعظم فجوة في البر وبين منبع الفرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل ممراً طبيعياً بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين . والمرات لها اهميتها في الجغرافية التجارية وفي تاريخ الافكار وتساعده في توجيه عملية التمازج الحضاري . وفي

١) كان اسم ملكها يريم لم Yarim-Lim اسماً امورياً . انظر مقال : W. F. Albright, «Western Asia in the Twentieth century B. C. : The Archives of Mari», *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 67 (1937), p. 27.

٢) يربنا وسم في مجلة سيريان ١٧ (١٩٣٦) لوح ٣ رسم ٢ (مقابل من ١٦) مفصلين للاستعمال من النخار (احدهما للاء الساخن والآخر للاء البارد؟) في الجانب اليمين ومستراساً في الجانب اليسار .

هذه المنطقة يتحول الحاجز الجبلي في الشمال والقرب وال حاجز الصحراوي في الجنوب الى بحر واحد منخفض يؤدي الى واد من جهة والى بحر من جهة اخرى ولذلك فقد سمي بالبحر السوري^١. ويقع البحر في سفح جبال طورس ولذلك يسمى احياناً «بالسفوح». وهو المرحلة الاخيرة من خط المواصلات الذي يبدأ عند الخليج الفارسي ويصعد دجلاً حتى خواجي نينوى ثم يتوجه غرباً الى المروان^٢ السورية وهكذا يصل بين تل حلف وحران وماري وحلب وغيرها من المدن القديمة. وفي هذا السهل يبدأ التاريخ السوري المستمر واول ممثليه الساميين هم الاموريون. ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمكدونيون كل بدوره السيطرة عليه كمنطقة انتقال. وسهله الملاو بالكلا ينطلق بين ٢٠ و ١٠ بوصة من المطر سنوياً ويكفي ذلك لنمو العشب اللازم للحيوانات والقوافل. وتبدو بعض اقسام هذا السهل بعد المطر مرجة خضراء. وكانت الجداول المتعددة من طورس ومياه الفرات تروي مدنها.

تحول مركز الاموريين الى الجنوب

كان مسرح تاريخ سوريا الرئيسي في مطلع الالف الثاني ق.م. في الشمال حيث كان الاموريون يلعبون الدور الاكبر. وبعد منتصف الالف الثاني يقرن يتحول مركز التقل الى سوريا الوسطى وكان الاموريون لا يزالون يلعبون الدور الرئيسي. وفي هذه الانتفاضة كانت مصر قد بدأت توسيعها لاجل بناء امبراطورية لأول مرة وجعلت قسماً كبيراً من سوريا تحت سيطرتها^٣ بفضل قوة ثقوب (م ١٤٤٧) الذي يمكن اعتباره تابوليون السلالة الثامنة عشرة. وكانت هنالك دولة اخرى عظيمة ومنافسة لمصر تتألف في الافق الشمالي وهي دولة الحثين^٣. وبين هاتين الدولتين انحصرت الدولة او الدول الامورية في سوريا الوسطى وكانت تشمل في ذروتها حسب ما تخبرنا اياه رسائل تل الهارنة - وهي اهم حصادتنا - قسماً كبيراً من شمالي لبنان وساحله وسوريا المغوفة ولبنان الشرقي ومنطقة دمشق . ويظهر على

١) انظر : Semple, p. 184.

٢) انظر ما سيبقى في الفصل الحادي عشر .

٣) انظر الفصل الحادي عشر .

مسرح التاريخ احد ملوك هذه الدول وهو عبد عشرتا^١ التابع لمصر برسالة كتبت بلغة اكادية ركيكة — وهي اللغة الدولية في ذلك العصر — الى الفرعون امتحوت الثالث (م ١٣٧٥) وفي اولها عبارات اعتيادية معروفة تبدو لنا ذليلة حقيقة اليوم ولكنها كانت جانباً من مراسم تلك الايام وقد جاء فيها :

« الى الملك الشيس ، سيدى ، هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك . عند قدمي الملك سيدى سبع مرات وسبع مرات اخرى اجثو . انظر ، انتي خادم الملك وكلب بيته وجميع اموره واحرسها للملك سيدى^٢ » .

النفاق الدولي

كان عبد عشرتا عند كتابة هذه الرسالة في بلدة إرقة Irkak^٣ الفينيقية التي كان قد فتحها ولكن مركز مملكته كان كما يبدو في منطقة العاصي العليا . وكان قد ساعد الحثيين على فتح أمكى Amki^٤ ولكنـه كان الآن يخادع الطرفين لكي يتسع في المنطقة الوسطى ، فيما كان يدعى الولاء لمصر ويتظاهر بالتعاون مع الحثيين الفاتحين كان بالحقيقة يحاول اكتساب مناطق جديدة لحسابه . وقد سقطت المدن الواحدة بعد الاخرى على الساحل وفي الداخل في يدي عبد عشرتا وابنه أزيرو او نهيت من قبلهما ومن قبل الذين اشتراكوا معهما . وقد ارضى بعض التابعين لمصر وتخلص من البعض الآخر . فاحتل قطنة وحمة وهدد اويبي Ubi (منطقة دمشق^٥) ثم استولى على دمشق نفسها . واخذ ارواد وشیفاتا Shigata

١) عشرتا او عشرة . انظر الفصل العاشر بشأن هذه الامة .

٢) رابع : J. A. Knudtzon, *Die el-Amarna-Tafeln* (Leipzig, 1908), No. 60 ; cf. A. H. Sayce, *Records of the Past*, new series, vol. v. (London, 1891), pp. 97-8 ; S. A. B. Mercer, *The Tell-El-Amarna Tablets* (Toronto, 1939) No. 60.

٣) وهي بلدة RQT في التصويم المصرية واركا Arka في مصر الكلاسيكي وعمرها اليوم على بعد ١٢ ميل شرق طرابلس . وهي مذكورة في سفر التكويرن ١٠ : ١٧ و ١٧ : ١٠ وفي انبمار الاول ١ : ١٥ ، ومذكورة عند الجغرافيين العرب باسم عربة .

٤) وهو سهل المقد بين انتاكية وجبل الاملوس ، انظر كلامنا عنه في الفصل الرابع .

٥) وفي الالوح السارية DI-MASH-QA . انظر ما سيبelow في الفصل ١٢ .

وأمي Ambi والبيتون^١ وغيرها من مدن الساحل . ويبدو ان الاروادين كانوا بسبب المنافسة التجارية مع اهل جبيل ضد المصريين منذ عهد تحتمس . وكانت سيميرا Simyra^٢ وحلها وهي مقر المقيم المصري وكذلك جبعة^٣ وهي مركز حكم الامير الكنعاني الموالي لمصروب عدي الذي كان يحكم فسماً من الداخل ويدعي السلطة على الساحل حتى سيميرا ، لا تزال تقوا蔓ان . واخيراً خضعت سيميرا ، وفصلت جبيل عن مناطقها الداخلية ولم يعد باستطاعتها مواصلة تجارة الاختاب مع مصر فتغدر عليها البقاء . وارسل رب عدي الموالي لمصر التحرير بعد الآخر – وبمجموعها نحو خمسين تحريراً – ملأها بالشكوى من خيانة عبد عثينا « الكلب » وازيرو وتضرع الى سيده فرعون بحراة لكي يرسل له المساعدات ولكن دون جدوى .

وقد تحرك امنحوتب في احدى المرات وارسل فصيلة من الجنود – بدلاً من جيش كامل تحت قيادته كاكان فعل سلفه تحتمس – نجحت في استرجاع سيميرا وأخذاد الثورة مؤقتاً ولكنها لم تتمكن من الوقف تجاه الخطير الذي يهدد من الشهاب ونبعثه تقسم الحشين . — — —

وقد زال بعث عبد عثينا موتاً غير طبيعي احد اشخاص الرواية ولكن الرواية

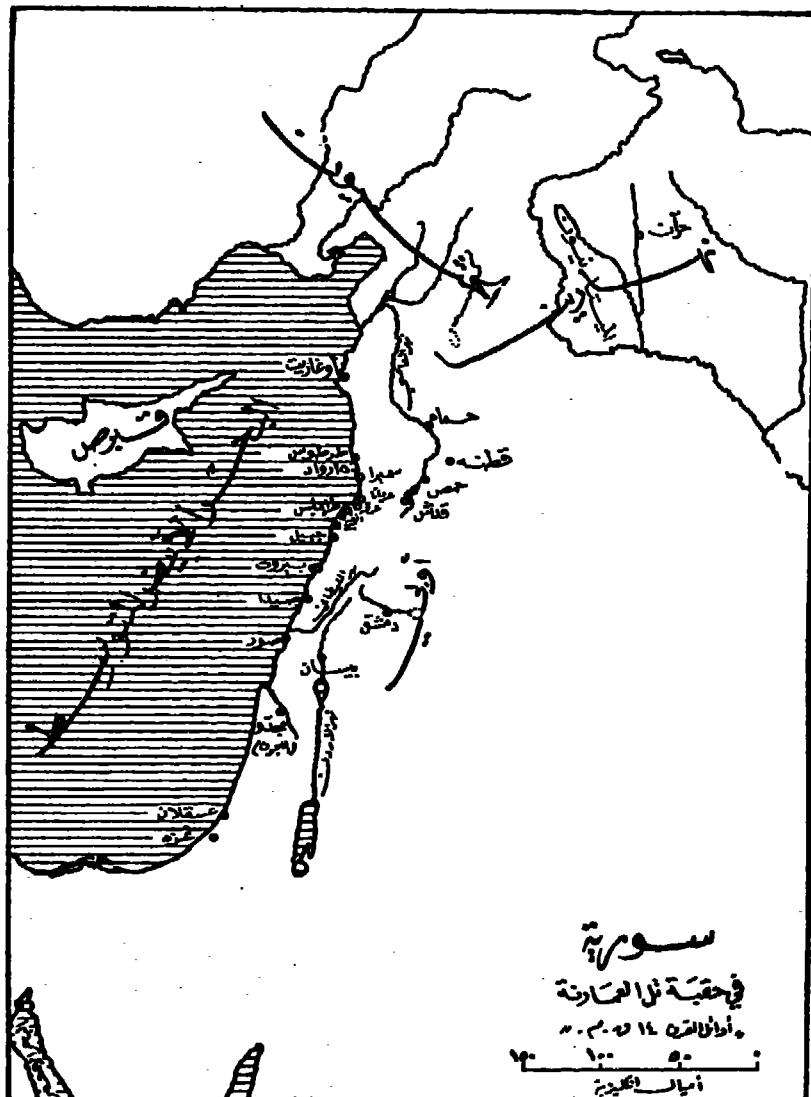
(١) وقد وردت اسماء هذه المدن في التصور الساري مكتناً : AR-WA-DA, SHI-GA-TA, AM-BI, BAT-RU-NA و Shigata ليس زفرا المدينة (المذكورة في مراسلات ماري بلس Sagaratim) واغا هي شاكا شالي البيتون . و Ambi كانت تسمى Ampa عند الاشوريين ، واللهة عند العرب و Nephin عند الصلبيين وهي اللهة المدينة بين شاكا وطرابلس . و Batruna هي Botrys عند اليونان واليوم البيتون . اظر : Abel, Géographie, vol. ii, p. 4; Dussaud, p. 117.

(٢) وهي في التصور المcriatic DMR وفي العصر الكلاسيكي Simyros وقد تكون سمرا Sumra المدينة شالي مصب النهر الكبير تماماً وجنوبي طرطوس وهناك ذلائل على اكتشاف موقعها في ١٩٥٦ . وتوجد اشارات إليها في سفر التكوين ١٨ : ١٠ .

(٣) وهي مدينة جبال Gebal في التوراة (واليوم تدعى جبيل وبالعبرية KBN, KPN, KPNI . وهي اليونانية بيبلوس Byblos وباللاتينية Byblus .

(٤) وبعثها عمدونة في لندن والآخر في برلين . اظر : C. Bezold, and E. A. Wablis Budge The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum (London, 1892), Nos. 12-25 ; C. Q. Conder, The Tell Amarna Tablets, 2nd ed. (London, 1894), pp. 48 seq.; Knudtzon, Nos. 68 seq.; Meroer, Nos. 68 seq.

(٥) اظر الرسائل رقم ٨٥، ٧٥ في Knudtzon .



نفسها استمرت . فقد تابع ابنه ووريثه أوزир و اعماله بنفس الاساليب المكياحية .
ولم يغير وصول امنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٧٧ - ١٣٥٨^{١)} الى العرش موقف

(١) وقد ان اخناتون باهور جديدة في الدين فلم يقبل عبادة آمون بقيادة آتون Aton فرس الشمس وقتل غير ابنه . و هنا لذلك فاسمح معيه (جمال قرمن الشمس آتون) وقتل عاصته من طيبة الى أخت آتون وموقعها اليوم يلقي تل الهرارة (والهرارة هي جمع هرaran وهو اسم قبيلة عربية سكنت هناك منذ مطلع القرن الثامن عشر).

مصر . وإذا كان من شيء فإن الوضع أصبح أسوأ . فالفرعون الجليد كان أكثر اهتماماً كما يبدو باصلاحه الديني منه في الدفاع عن أمبراطوريته .

وبينا كان أزيرو وأخواته وحلفاؤه يستولون على المدن المختلفة كان رب عدي يبعث بتحارير الشكوى بما كان يحصل إلى فرعون وعماله وقد كتبت بالمسارية على الواح خزفية . وما قاله في تلك التحارير «ان ملوككم كانوا كأنوا يرون مصر يا كانوا يهربون من امامه ولكن ابناء عبد عشرتا الآن يهزأون بشعب مصر ويهدوني باسلحة دموية»^١ ويشكوا في رسالة أخرى من ان ابناء عبد عشرتا قد اخذوا بعض الناس والضباط واعطوه لبسلاد سوري *Suri* كرهينة^٢ . وسقطت اولاً زا *Ullaza* وارداتاً^٣ ومدن أخرى في يد أزيرو بعد مدة وجيزة . واسترجعت سيميرا وهدمت «لمع وقوعها في ايدي الحثين» كما ادعى أزيرو وعندما طلب فرعون اعادة بنائها وعد أزيرو بأن يفعل ذلك خلال سنة لانه كان جد منشغل في الدفاع عن مدن الملك ضد الحثين . ولهذا السبب نفسه ، كما ادعى في مناسبات أخرى ، لم يتسكن من الاستجابة لأمر فرعون والذهاب إلى البلاط المصري ليشاهد «وجه سيدي الجليل»^٤ . ويعطي تقريراً عن اعماله .

ومهما يكن فإن أزيرو ذهب فيما بعد إلى مصر بعد أن انتزع من المنصب المصري اياناً بأنه سوف لا يصاب بأذى ، ولكنه عاد وجدد ولاده لافتتاح الحثين لشمال سوريا باسمه *شوبيلوليموا*^٥ . وفي هذه الاتساع ثجد ان رب عدي الذي شعر بأنه «اصبح كعصفور في شبكة» أخذ يفقد امله . وقد ارسل اخته وأولادها ليتابعوا إلى

١) الرسالة رقم ١٠٩ في Knudtzon .

٢) الرسالة رقم ١٠٨ في Knudtzon . وفي التحارير ورد اسم ZU-BA-RI و SU-BA-RI بدلًا من *Suri* . وتصل هذه البلاد اتصالاً وثيقاً مبيناً في شمال سوريا ويقول بعض العلماء ان هذا الاسم هو الذي اطلقنا اسم «سورية» . قارن مع : Ignace J. Gelb, *Hurrians and Subarians* (Chiago, 1944), p. 48 ; Alexander H. Krappe, «The Anatolian Lion God», *Journal of the American Oriental Society*, vol lxxv (1945), p. 153.

٣) UL-LA-ZA هي ارتوزيا *Orthozia* في العصر الكلاسيكي وهي ارض ارتوزي الحديثة عند مصب نهر البارد شمال طرابلس حالياً ; و AR-DA-TA هي أرادة قوب زهرتنا . انظر : *Geographie*, vol. ii, p. 4; Dussaud, p. 85.

٤) وسائل رقم ١٦٤ - ١٦٧ في Knudtzon .

٥) انظر ما سينافي بشأنه في نهاية الفصل الحادي عشر .

صور^١ التي كان ملكها اي ملكي غير منضم الى جماعة الامراء الناقدين بل كلف يسترسل في توجيه تخارير الشكوى الى مصر كما كان يفعل رب عدي . واما رب عدي نفسه فقد هرب فيها بعد من جبيل الى بيروت^٢ . ولكن نساء وابناءه سلّموا الى ازيرو . وعندما أصبحت بيروت في خطر تابع هربه الى صيدا^٣ التي بخلاف منافستها صور كانت قد تحالفت مع الاموريين . وهنا ادركه اخيراً ازيرو فوقع في قبضته .

وهكذا فقد اضطرت مصر للتخلّي ليس عن شمالي سوريا فحسب وانما عن فينيقية ايضاً التي كانت مصدراً هاماً لموادها الخام . وأخذت الشقة تتبعها بازدياد بين سوريا وفلسطين .

الاموريون في فلسطين

ويسدل الستار بعد ذلك على الاموريين في سوريا الوسطى وينتقل مركز الحوادث الى الجنوب . وقد كان الحثيون متتركزين في شمالي سوريا واواسطها ولم يتم خلافاً اختانون المباشرون بمحلات جديدة ضدّهم وتظهر رسائل تل العمارنة انه بينما كان الحثيون يحتلون المنطقة الشمالية كانت جماعات جديدة تسمى اخايريو^٤ تنجزو المنطقة الجنوبيّة ويرافقها كما يبدو الآراميون وهم قبائل سامية جديدة اتت من البابوية . ويرى بعض العلماء ان اخايريو هم الساغاز Se-Gaz انفسهم وكانتوا مرتبطة في الجيش الذي يتعاونون مع عبد عشّرتا . وفي احدى رسائل رب عدي الاخيرية الى اختانون يشير اليهم قائلاً : «منذ ان عاد والدك من صيدا ، منذ ذلك الحين سقطت الاراضي في يد الفائز Gaz^٥ » .

١) SUR-RI واسها مخطوط في التسمية الحديثة «صور» .

٢) BE-RU-TA و بالصريرة BI-RU-TA وهي اليوم أكثر ازدهاراً من سائر المدن المذكورة .

وكلمة b'eroth من هنا آبار . انظر: Zellig S. Harris, *A Grammar of the Phoenician Language* (New Haven, 1936), p. 85. ٢٥١٨ : ١٧٩ .

٣) SI-DU-NA وسيت كذلك باسم الله السيد البري والبحري .

٤) راجع ما سألي في نهاية النصل المحادي عشر .

٥) الرسالة رقم ٨٥ .

عندما دخل المهاجرين فلسطينيًّا وجدوا أن مسامين قدcame هم الاموريون يحتلوا قسماً منها على الأقل. وإن سلالات الاتصال التاريخي بين المالك والجماعات الامورية الكثيرة في سوريا التي كانت موزعة في الزمان والمكان مفقودة. ولا يمكننا التأكد أيضاً من ان الحركة الامورية نحو الجنوب كانت حركة اجتماعية . واسم الاموريين مثل الحسين تغير معناه مع الزمن كما يبدو وصار يستعمل مجرية أكثر . وربما كان الاموريون الطبقة الحاكمة في الجنوب^١. وأحد المصادر الرئيسية التي استخدمها مؤرخو العهد القديم وابنهاو يعطيهم مكانة هامة في فلسطين قبل الاسرائيليين ويحمل جميع سكان الاراضي الجبلية وشريقي الاردن اموريين^٢ قبل قيوم بني اسرائيل^٣. وهناك مصدر آخر رئيسي يجعل سكان البوادي خاصة من الكنعانيين . ويتبين ان الاموريين كانوا في القرن الثالث عشر يسيطرون على الواقع الاستراتيجي ورؤوس التلال في سوريا الجنوبية وانهم اسسوا بعض المراكز التي تطورت فيما بعد فاصبحت تلك المدن الكنعانية المائدة التي توقف عند اسوارها وابراجها القادمون الاسرائيليون .

وبعد مدة تم للاسرائيليين انتزاع السيادة من ايدي الاموريين والكنعانيين . فقد استولوا على المناطق السورية الواقعة شرق الاردن بعد اجتياح سيخون Sihon وجاراتها الامورية في الشمال وهي ارض باشان^٤ . وكان عوج ٥٨ ملك باشان الذي قيل عنه انه «من بقية الجبارية» هائلاً في قامته . وكان طول سريره الحديدي (ربما ثابوتة البازلت)^٥ تسعة اذرع وعرضه اربعة اذرع^٦ . وقد جاء في سفر النبي عاموس (٩:٢) ان قامة الاموريين كانت مثل قامة الارض وانهم اقواء كالسنديان . وتبدو قامات الاموريين في المباني الآثرية طويلة عسكرية . ولا بد من ان جسمهم وحضارتهم أثروا على سكان الكهوف الفخار القامة البدائية في جنوب سوريا حتى ان

١) راجع : Albrecht Alt, « Volker und Staaten Syriens im frühen Altertum », *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), pp. 22-24.

٢) راجع سفر المدد ١٣:٢٩؛ يشوع ٨:٢٤؛ عamos ٢:١٠؛ حزقيال ٤٥:٣:١٦

٣) واسرائيل هو يتقوب (سفر الخروج ٧:٩) حفيد ابراهيم .

٤) سفر التثنية ٢:٣ وما يليه؛ ٣:١ وما يليه .

٥) سفر التثنية ٣:١١ .

الاساطير قامت تحدث عن انه جيلاً من الجنابرة اقى وترواج مع بنات الانسان ، وانتقلت هذه الاساطير الى الاسرائيليين^١. ويبدو ان مثل هذه الاساطير الموجودة عند شعوب اخرى كثيرة بعض الاتصال بظهور قادمين جدد يستخدمون المعادن^٢. وكان البروتز هو المعدن في هذه الحالة . فقد جعل الاموريون الاولون رؤوس حرابهم النحاسية وخناجرهم وسکاكينهم اكثر صلابة بواسطة التطريق ثم بالمزج مع القصدير . واقlim خناجر البروتزية من فلسطين تشبه خناجر شمالى سوريا . وقد ادخل صهر البروتز من هناك الى فلسطين قبل ٢٥٠٠ ق. م.

وينتسب شكل الاموريين الى ما يسمى بال النوع الارمني الذي يتضمن بالرأس المستدير والانف الضخم . ويلاحظ نفس النوع بين عرب الجنوب^٣ . واقlim مماثل للناسى الاسيويين الذين اسرهم الفرعون ساحورا ع (نحو ٢٣٥٠ حسب التاريخ على اقرب تقدير) ينتسبون الى هذا النوع . ويصدق الامر نفسه على الذين يظهرون في الرسوم الجدارية في بني حسن وكانتوا يجلبون الكحل الى « مدير الصحراء الشرقية » (حوالي ١٨٩٠ ق. م.) . وهنا يظهر الشیخ الاموري أبشه وهو غالباً من جنوبي فلسطين مع ابناء قبيلته وبذاته باთواب قصيرة متعددة الالوان ومنسوجة بعنابة ودقة ويلبس الرجال نعالاً (او صنادل) والنساء احذية او جوارب . ويشاهد الرجال بلحية سوداء ووجه يشبه العصفور وقزحة عيونهم رمادية اللون وبئبؤها اسود . ويقود أبشه موكيتهم . ويتبع النساء في هذا الموكب رجال ومحاره وعلى ظهره قرية وفي يده مضرب ليلعب على قيثارته ذات الثانية او تار . وعلى ظهر المخار الصبور سرج يرتبط به رمح ومضرب عصي . ومن الاسلحة الاخرى التي يحملها الرجال اقواس مزدوجة وحراب . وهنالك قطعة عاج محفورة من او اخر السلالة الاولى (نحو ٢٣٠٠ ق. م.) تظهر ساميّاً بلباس كان يلبسه في القتال على ما يظن وهو مزركش بمجواش يصل الى الكتفين تقريباً .

لم تتع اهلة الامورية كتابات اثرية ذات شأن وانما تركت اسماء اماكن

١) انظر ما جاء في اعلاه من ٢٨-٢٩.

M. E. Kirk, « An Outline of the Cultural History of Palestine », *Palestine Exploration Quarterly*, vol. lxxv (1943), p. 22. (٢)

Hitti, *History of the Arabs*, p. 30. (٣)

وامراء فقط. ومع ذلك فإنه يمكننا التأكد بأنها اختلفت عن اللغة الكنعانية من حيث اللهجة فحسب . ويمكن اعتبارها بالواقع لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية او القينيقية .

الديانة الامورية

ان الديانة الامورية في مكانتها البدائي لم تختلف غالباً عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التي كانت شائعة بين الرجل في بادية الشام وبلاد العرب . وكان يوجد بجانب الله القبيلة امورو وهو الله الحرب عدد من الآلهة التي لا تعرف صفاتها بالضبط ويظهر كثير منها في عداد الآلهة الكنعانية فيما بعد . وكان اهمها حدد (بالا-كاوية آدد او آدو^١) المعروف ايضاً باسم رـماـتو (صانع الصواعق) وهو الله مطر وعواصف يمثل نوعاً شائعاً في غرب آسيا ويظهر عادة مع التور والصاعقة . ثم أصبح بعد ذلك البعل الاعظم . وبصفته الله رئيسي في الغرب عرف باسم مارتو . ويوجد الله آخر ذو شأن وهو رشف^٢ وربما كان له بعض الصلة بالنار . واقتبسه المصريون في عهد الملكية الحديثة من الكنعانيين . وكان دجن الذي اعبده الاموريون الذين فتحوا بابل الله غذاء بالأصل . وقد اجريت الحفريات في معبد مكرس له في مدينة اوغاريت . واقتبسه الفلسطينيون كإله السمك وكان يعبد خاصة في غزة . وجميع هذه الآلهة قد ذكرت في الواح ماري .

وكان لـالله امورو شريكة تسمى عاشرة Ashirat وتتصف بمحب المسرات والنشاط وتشبه غودج عشتار المعروفة . وقد كانت الالهة الرئيسية . وعبادة الافعى التي سبقت قدوم الاسرائيليين كانت متصلة على ما يبدو بالاهة اتنى وربما كان ادخلها الاموريون . وفي عداد آلهة جنوي بلاد العرب تجد ان هذه الالهة متصلة بالله القمر . واسمها يقابل Asherah بالعبرية وهي العمود المقدس او جذع الشجرة و تستعمل في الطقوس^٣ .

١) في الرسالة ٥٢ من رسائل تل العمارنة الموجهة من ملك قطنة لطلب المساعدة من امتحوب الثالث ضد الحشين غالباً نرى ان الملك يسمى فرعون « يا امي آدو ». وفي تخارير قطنة رقم ٥٤-٥٥ أدخلت تعبير حورية كثيرة . انظر نهاية الفصل الثاني عشر .

٢) انظر ما سيبقى في نهاية الفصل ١٢ .

٣) انظر الفصل العاشر في اول الفقرة عن الاصنام .

ومن الطقوس البارزة التي ادخلها الاموريون الى جنوبى سوريا العبرة المقدس وكان يمثل على ما يظهر القيمة وعادة يقام في مكان مطهر وعادة في مقابلة الى جانبها مدبع من الحجر الكلسي لا تنسه آية آلة^١. والساميون الذين حلوا في جزء محل السكان الاقدمين ومارسوا تضحية اول مولود وكذلك قاموا بالضحية عند تأسيس الاماكن وبنوا الاماكن المرتفعة للعبادة من الصخور الكبيرة — هؤلاء الساميون كانوا اموريين^٢. ومن اقدم الاشارات الى التضحية عند التأسيس إشارة واردة في شعر سومري ذكرناه آنفاً^٣ حيث يذكر ان الاموري كان يبني باحة معبده «على رجل ميت». وقد تابع الكنعانيون النظم والعادات الدينية التي كان يتبعها ابناء جنسهم الاموريين الذين اتوا قبلهم.

١) قارن مع ما جاء في سفر الخروج .٢٥ : ٢٠

٢) انظر ما جاء في ص ٣٦ وما سيأتي في الفصل العاشر ، في القراءة عن الاماكن المرتفعة .

٣) انظر ص ٧١

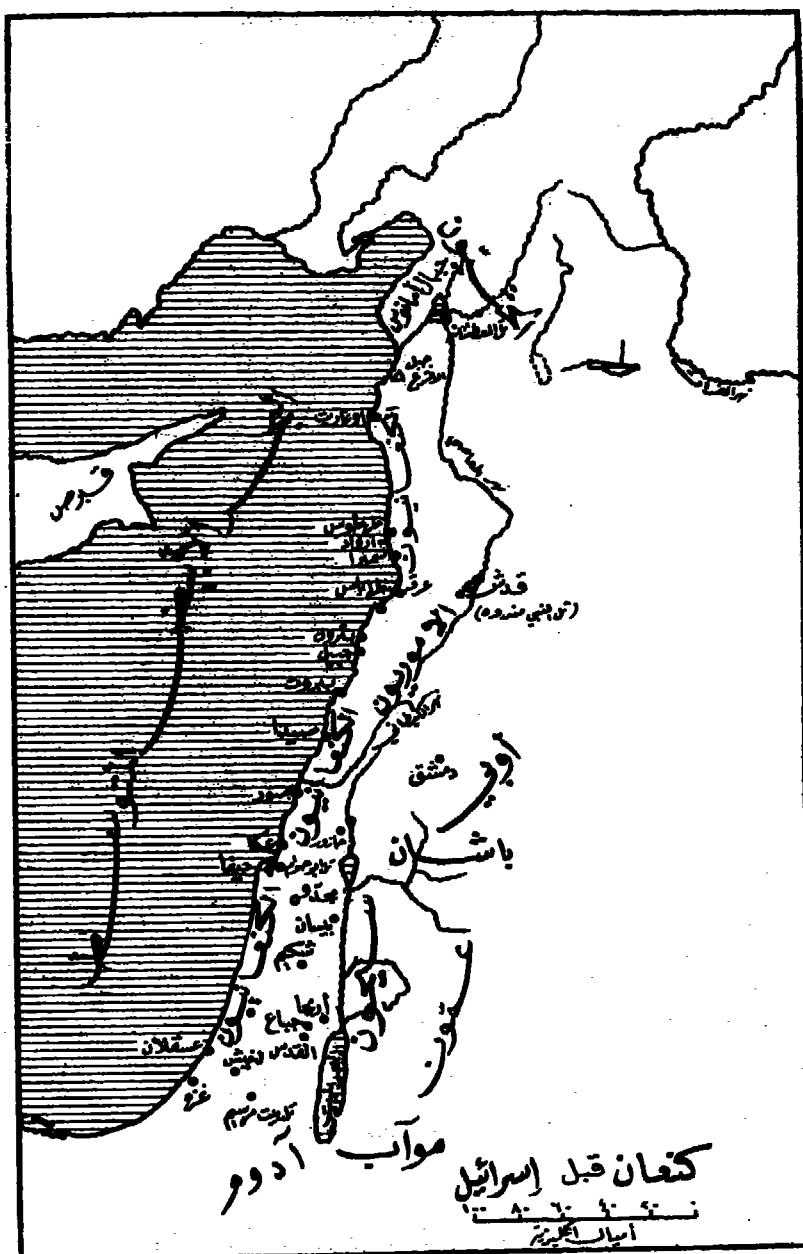
الفصل السادس الكتناعيون شعبي سامي في سوريا

كان الكتناعيون الذين سماهم اليونان بالفينيقيين فيما بعد ثانية جماعة سامية لعبت دوراً هاماً في تاريخ سوريا بعد الاموريين . والكتناعيون والاموريون ينتسبون إلى موجة الهجرة نفسها . ولذلك فإن الاختلاف العرقي بينهم معروف وإن كانت بعض المناصر السومرية والحويرية اندمجت بالتدرج مع الاموريين بينما اندمجت بعض المناصر المحلية الأخرى مع الفينيقيين . والاختلاف الحضاري ناشئ عن ان مركز الاموريين الأصلي كان في شمالي سوريا ولذلك تعرضوا لأنواع التأثيرات سومرية بابلية بينما كان مركز الكتناعيين الجنوبي في الساحل . ولذلك كانوا متبعين نحو مصر . والاختلاف الديني كان بالدرجة الأولى اختلافاً في التطور والتكييف حسب البيئة المحلية . وأما الاختلاف اللغوي فكان اختلافاً في اللهجة فقط باعتبار ان القتين كانتا من الفرع السامي الغربي الذي يضم العربية . وهذا الفرع نفسه يمكن تسميته بالشامي الغربي لتمييزه عن الجنوبي الغربي الذي يضم العربية .

كعنات

ان اسم بلاد كعنان الذي كان يعتبر حتى الآن سامياً يعني الأرض المنخفضة^١ لاختلافها عن مرتفعات لبنان أصبح الآت مشكوكاً في أصله السامي ويظن انه من أصل غير سامي . والاشتقاق الجيد يجعله حوري الأصل Knaggi يعني الصياغ الارجوازي وهذا اعطى الصيغة الأكادية في نوزي «كتاخني» Kinakhni (وفي مسماية رسائل تل العمارنة كيناخني Kinakhki) وبالفينيقية كنم Kena والعبرية

(١) من فعل كتنع kana اي انخفاض او تواضع . انظر : Smith, *Historical Geography*, pp. 4-5 ; Claude R. Conder, *Syrian Stone-Lore* (London, 1896), pp 2-3 ; C. Autran, *Phéniciens* (Paris, 1920), p. 4 ; cf. Lewis B. Paton, *The Early History of Syria and Palestine* (New York, 1901), pp. 68-69.



كعنان اي بلا الارجوان^١. وفي العصر الذي احتلّ فيه الحوريون احتكاراً وثيقاً بساحل البحر المتوسط في القرن الثامن عشر او السابع عشر كانت صناعة الارجوان على القالب الصناعة السائدة في البلاد. كذلك يشير اسم فينيقي المُشتَق من اليونانية *Phoinix*^٢ اي احر ارجواني الى الصناعة نفسها وبعد ان اطلق اليونانيون هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فان كلمة فينيقي اصبحت بعد حوالي ١٢٠٠ ق. م. مرادفة لـ كعناني. ولا بد ان هؤلاء الساميّين السوريين الذين لا يختلفون عن كثير من الشعوب القدية الأخرى كانوا يتألفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبلية والمحليّة أكثر مما تشعر بوحدتها القوميّة ، وكان عليها ان تنتظر اجنبياً ليعطيها اسمه عاماً.

وقد اطلق اسم كعنان في اول الامر على الساحل وغربي فلسطين ثم اصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سوريا . وكان هذا اول اسم لفلسطين وجميع الاسماء الأخرى اقل اهمية . وفي وثائق الهدى القديم الاولى اطلق اسم كعناني بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد بدون اي مدلول عرقي ، وتغيير «لغة كعنان»^٣ كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية .

تبدا الديانة واللغة الكنعانيتان بالظهور من غياهب العصور السامية القدية حوالي مطلع الالف الثاني ق.م. غير ان اسلاف الذين سموا كعنانيين كانوا غالباً يعيشون في البلاد قبل ذلك بالف سنة او اكثر . ويمكن استنتاج ذلك من اسماء الاماكن كما اظهره علم الآثار الحديث . وقد تأسست المدن مثل اريحا^٤ وبيت شان^٥ وجدو^٦ التي لها اسماء كعنانية واضحة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. وظهر في

١) راجع : W. F. Albright, « The Role of the Canaanites in the History of Civilization », *Studies in the History of Culture* (Menasha, 1942), p. 25 ; cf. Alt in *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), p. 25

٢) قارن مع G. Bonfante, « The Name of the Phoenicians », *Classical Philology* vol. xxxvi (1941), pp. 1 seq.

٣) سفر اشعياء ١٩ : ١٨ .

٤) اصلها من يرميوا *Yerēho* اي مدينة القرم .

٥) وهي Beth-shan اي بيت الله شان واليوم تسمى بيسان .

٦) او Megiddon المشتقة من جندَ *gadad* اي قلعه واليوم تل المثلث .

الكتابات الائتية في النصف الاول للالف الثاني مدن اخرى لها اسماء سامية معروفة يمكن اعتبارها كنعانية مثل عکو^١ وصور^٢ وصیدا^٣ وجبلة (جibil) واركـة وسييرا^٤.

مالك المدن

كانت نتيجة طبيعة اراضي كنعان وموقعها الاستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل ووادي الوجلة وآسية الصغرى ان الكنعانيين لم ينجحوا قط في تأسيس دولة قوية موحدة . وبخلاف ذلك فانهم كانوا ينتظرون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وصل الى الحكم غالباً بعد ان كان ينتسب الى طبقة الاشراف الملوك. وكانت كل جماعة تجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات ثرقات وابراج للدفاع^٥ يمكن لسكان الريف المجاورين ان يتوجهوا اليها في وقت الخطر وان يقصدوها في وقت السلم فتكون لهم سوقاً ومركزاً اجتماعياً . ومثل هذه المدن كانت تشكل مكان الدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الاقرب او غارات البدو الرحـل . غير ان انقسام البلاد الى مالك مدن صغرى في حالة حرب بعضها مع بعض في كثير من الاحيان وينقصها الاستقرار الداخلي بسبب تزاع التباه الطامعين بالسيطرة المحلية ، هذه العوامل جعلت البلاد كلها تحت رحمة الدول المجاورة المية الى الاعداء .

انتشرت المدن الكنعانية الاولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرمل^٦ في الجنوب ولكن تعرجات الشاطئ الفليلة جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدوداً . غير ان جبال امانوس وكاشيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب

(١) Acco (من akko اي رمل حار) وهي بتولمايس Ptolemais في البحر اليوناني واليوم عكا .

(٢) Sdr يعني صفر .

(٣) Sidon اي مصيادة سمك .

(٤) انظر ما جاء في الفصل السابق .

(٥) ومفرد هذه الابراج migdal وقد بقي هذا الاسم السامي في الصيغة العربية «مجدل» التي تظهر في اسماء الاماكن .

(٦) واصل الاسم من السامية karmel يعني ارض ذات بساتين .

لم تشكل ترساً كافياً ضد الموجات من الوراء كما فعلت جبال لبنان المرتفعة. ولذلك فإن المدن العظيمة وهي التي قدر لها البقاء تجتمع وازدهرت في سفح جبال لبنان وهي طرابلس^١. وبوروس (البترون) وبيلوس (جيجل) وبيريتوس (بيروت) وصيدا وصور. هذه المدن بالإضافة إلى عرقه وسيميرا وارادوس^٢ (ارداد) في الشمال وغيرها من المدن كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة التي تكفي نفسها نفسها. وفي سوريا الجنوبيّة تقع غزة^٣ وعسقلان^٤ على الساحل ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل مثل جزر ولاكش وبجدو وهazor وشكيم وأورشليم^٥ وقد ذكرت جميع هذه المدن وسكنيو غيرها في تقارير حلات تحوتين الثالث (في مطلع القرن الخامس عشر ق. م.) ووسائل تل العمارنة ويوجد وصف لها في سفرى يشوع والقضاة.

كانت هذه المدن صغيرة في مساحتها. فقد كانت مساحة جزر وهazor^٦ وها من أكبر المدن بين خمسة عشر وستة عشر فدانًا بينما كانت مساحة اريحا ستة فقط. وربما كان وجود مرتفع يسهل الدفاع عنه أو ينبعو منه، العامل الذي قرر اختيار الموقع. ولكن سور جزر كما اتضاع من الحفريات الحديثة كان ضعيفاً بحيث بلغ سنه ستة عشر قدماً، وارتفاعت أسوار اريحا حتى بلغ ارتفاعها واحداً وعشرين قدماً^٧. تلك كانت حصون الكنعانيين القوية التي ثفت الرعب في قلوب جواسيس موسى^٨. وكانت المركبات الحربية التي أدخلها الكنعانيون إلى البلاد وسبلتهم

١) من اليونانية *Tripolis* أي ثلاثة مدن. ولا يزال اسم المدينة الفينيقية القديمة التي كانت على الساحل ولم تظهر أهميتها حتى العصر الفارسي عمولاً. انظر ما سندكر بثأرها في الفصل ١٦ في العصر الفارسي.

٢) وهو اسم غير سامي.

٣) والاسم مشتق من «عزّة» أي قوة وثبات.

٤) من العبرية *Ashqelon*.

٥) انظر ما ستأتي بثأرها في نهاية الفصل الحادي عشر.

٦) ستأتي ذكرها أيضًا في الفصل الحادي عشر في الفقرة التي عن المكسوس.

٧) رابع : Garstang, *Heritage of Solomon*, pp. 109-110; A.-G. Barrois, *Manuel d'archéologie biblique*, vol. i (Paris, 1939), pp. 145 seq.

٨) ستر المند ١٣ : ٢٨.

الرئيسية في الدفاع. وقد ادخل الحصان في ایام المكسوس^١ تقریباً (حوالي ١٧٥٠ ق.م.). واما سائر اسلحة المجموع فكانت تضم القوس والسهام برأس برونزی او حشائی وخجراً قصیراً ومسکیناً معقوفاً – وقد وجدت آثار من جميع هذه الاسلحة – ونبوتاً ثقیلاً من الخشب القاسی .

وكان سكان الريف غالباً متفرقين قليلاً العدد ويحتمل ان لا يكون عدد سكان فلسطين كلها قبل قيام الاسرائيليين قد تجاوز دفع المليون^٢. وقد حصل غزو المدن بدون اتباع خطط موضعية سلفاً. وكانت المنازل الكنعانية في القرن الخامس عشر كاً كشفها علماء الآثار هزيلة في بنائها وغير منتظمة في تخطيطها بوجه العموم. وكانت منازل الفقراء صغيرة الحجم وزدحمة بعضها بقرب بعض كاً في القرى القديمة الطراز اليوم. اما منازل الاغنياء فقد كان لها باحة في وسطها وحولها الغرف. وكانت بعض البيوت مزودة بعنبر للقمع وصهريج خاص^٣.

المدن الواقعة على جزء

كانت تتمتع بعض المدن مثل ارادس (ارواد) وصیدا وصور بخط دفاع مزدوج. وكان مواطنوها يحتلون موقعين الواحد في البر حيث كانوا يتاجرون او يزورون بسايئهم والآخر في جزر صغيرة بمحاورة يلتجأون إليها كلما تدفق الفاتحون الاشوريون. مثلًا عبر المرات الجبلية. فالاروادين الذين كانت تسمى مدینتهم الكائنة على الساحل انتارادس *Antaradus*^٤ في العصر الملنستي كانوا يتجمعون في جزيرتهم الصخرية كما يفعل الناس في جزيرة منها تن بنیویورک في ناطحات سحاب مصغرة. وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لاجل جزيرتهم . وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف إليها مياه ينبع تحت

١) رابع ما سذكره عن المكسوس في الفصل الحادي عشر .

٢) *Garstang, Heritage of Solomon*, p. 107

٣) *Macalister, Excavation of Gezer*, vol. i, p. 169 : ولاجل وصف منازل راجع : *Barrois* من ٢٥١ وما بعدها .

٤) وكان الصليبيون يسمونها *Tortosa* واليوم طرطوس شمالي عبريت حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الدينية الهامة وهي معبد وقبور .

البحر يحصلون عليها بوضع قم ضخم مقلوب على اليابس بحيث يتصل القم بانبوب جلدي^١ وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذبة تحت البحر.

كانت صور الواقعة على جزيرة صغيرة «مبنيّة بنفس الشكل الذي بنيت فيه ارادة»^٢. وكانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل بناء الاسكندر اثناء حصاره لها^٣. وقد اظهرت الحفريات الحديثة تحت البحر والصور الفوتوغرافية من الجوان المرقاً الرئيسي كان في الجهة الجنوبية للجزيرة وان الرصيف الذي كانت يحميه وهو الآن على عمق خمسين قدماً كان طوله ٧٥٠ متراً وسماكة ثانية امتار وان اسوار المدينة كانت تشرف على هذه الجموعة كلها مع ابراج في كل طرف^٤. ويعتقد ان هذه الاعمال الضخمة بناها الملك حيرام معاشر سليمان الذي بلقت المدينة ذروتها في أيامه . وهذا جعل صور من اقوى الموانئ في شرق البحر المتوسط . غير ان امبراطورية صور في ذلك العصر وفي جميع العصور كانت قائمة على التجارة والفن وليس على الاراضي والفتح.

وكانت تقع صيدا وهي شقيقة صور الشهالية على رأس جبلي اختاروه عسل الاكثر بسبب المرقاً الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها بعض بارصفة اصطناعية . وكان هذا المرقاً يقع الى جهة الشمال ، وفي الجنوب كان يوجد مرفأ آخر يسمى المرقاً المصري وهو اكبر من الشهالي ولكنه ليس اميناً مثله . وكان يحمي المدينة من جهة البر سود . وقلعة صيدا الحالية وتسمى قلعة البحر يعود اصلها الى زمن الحروب الصليبية وتقع على اكبر هذه الجزر . وفي اوائل القرن السابع عشر امر الامير اللبناني فخر الدين المعنى على المرقاً القديم ليمتنع اقتراب الاسطول العثماني^٥.

(١) انظر : Strabo XVI. 2. 13

(٢) Strabo XVI. 2. 23

(٣) انظر ما سيبقى عن حصار صور في الفصل السابع عشر .

(٤) راجع : A. Poidebard, *Un Grand Port disparu : Tyr* (Paris, 1939), pp. 25-26.

(٥) انظر ما سيبقى بشأن الامير فخر الدين في الفصل التاسع والأربعين .

اتحاد المدن

والتغلب الموقت على عزلة مالك المدن السياسية، هذه العزلة التي تعكس تجزؤ البلاد الجغرافي كانت احسن وسيلة ان تحصل احدى المدن على الزعامة ويصبح لها سيادة سياسية على سائر المدن. وكانت المصالح المشتركة تتطلب الاتحاد الاختياري في بعض الاحيان. وقد حصلت على مثل هذه الزعامة او غاريت في اواخر القرن السادس عشر وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر وصور بعد هذا القرن وطرابلس في القرن الخامس. وتحت ضغط اخطر المدams خاصة كانت هذه المدن تتعاون وتشكل عصابات واحلافاً. ومن الاحلاف القليلة المأمة المعروفة ذلك الحلف الذي كسره تحوتس الثالث في بجدو في ١٤٧٩ ق. م. غير ان السلطة الموجهة في ذلك الحلف كانت قادرش الواقع على العاصي. وتظهر مراسلات تل العمارنة بعد ذلك بقرن ليس فقدان العمل المشترك فحسب وامامحاواة الملوك الفينيقيين ايضاً الحصول على الفوائد من سيدهم المصري بعضهم على حساب بعض . وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم الى فرعون بصورة شخصية وافرادية . وقد برهن الكنعانيون خلال تاريخهم الطويل انهم كانوا يحبون السلم ولا يميلون الى الاعمال الحربية . وكانت يوجهون اهتمامهم الى نواحي التجارة والفن والديانة وليس الى الحرب . وكانت مدنهم عادة تخفي رأسها امام حوادث القتال الموجهة من مصر وبابل وبلاد الحرين وفارس ومكドونيا . وكانت يدفعون الجزية ليضمنوا عدم التدخل في شؤونهم ويأملون ان يكافأوا ولو جزئياً بتوسيع اسواقهم في البلاد الداخلية .

الاقتصاد : الزراعة

وقد سعى سكان كنعان الى افاء انواع الاقتصاد التي تسمح بوجودها اراضيهم ومواردها الطبيعية . واقدم اعمالهم الرئيسية المحصرة في ميادين الزراعة وصيد الاممـاك والتجارة . فالاهتمام بالزراعة كان من نواحي نشاطهم الرئيسية وقد اثر على دياناتهم تأثيراً عميقاً . وكان البذار يتم باليد في اول الامر ثم توسع اكثر عندما ادخل المحراث من بلاد بابل ، وربما دخل المحراث الى جنوب البلاد من مصر . ووجدت بقايا اعمال الزراعة الكنعانية بين ١٥٠٠ و ١٣٠٠ ق. م. في تل بيت مرسم (قرية سفر القديمة) . واكتشف فأس من البرونزي في رأس الشمرة .

وكانوا يحصدون بنجل أسنانه من الصوان وتتصل بقبضة من العظم او الخشب بواسطة الملاط . واستعملت هذه الآلة حتى حوالي عام ١٠٠٠ ق. م. حين حل المنجل الحديدي محلها . ومن التاريخ نفسه تقريراً انت اقدم آلة حديدية يمكن تعين تاريخها وهي طرف حراة اكتشف في فلسطين الوسطى في جبعة موطن شاول وتسمى اليوم تل الفول . وانت من تل بيت مرسيماخاريث ومناجل حديدية يجانب المزف التلستطياني ساعدت على تاريخ هذه المكتشفات . وعملية الدراس كانت تم بزلجة خشبية في اسفلها حجارة صغيرة . وكانت تذرى الحبوب بذراة خشبية كبيرة . والطحين كان يطحن في مطاحن يدوية من الحجر ، والخبز كانت يخبز في افران اسطوانية من الطوب . ولم تختلف الصورة العامة اختلافاً كبيراً عن العادات الريفية في سوريا اليوم كما يتضح من دراسة سريعة لما اكتشف في السنوات الاخيرة من مناجل ومطاحن ومدققات واجران وغيرها من الادوات .

والمحاصيل نفسها لم تختلف كثيراً عن محاصيل هذه الايام . فالمحاصيل النعوذجية كانت القمح والشوفان والشعير والفاصوليا والجلبانه والعنبر والزيتون والتين والرمان والجوز^١ . وقد سببت الحبوب والكرمة والزيتون بحق ثالوث بلاد البحر المتوسط في الانتاج الزراعي . وعدد الفلاح في تكيف زراعته يقتضي خطراً علم كافية الامطار الى اساليب الزراعة الجافة وتنضم التناوب السنوي في زرع الارض وتركها بدون زراعة . وكان المجتمع الكتاعي يضم طبقة من الفلاحين او المستأجرين المولودين احراراً تسمى خابشي Khapshi تقابل طبقة المشكينو Mushkénu في المجتمع البابلي^٢ . وفي الريف اللبناني عند السكان عندما استنقذوا الوسائل المحلية للعيش الى تحويل منحدرات الجبال الى سطوح متفاوتة الارتفاع (جلول) ببناء جدران يبعد الواحد بعض يرددات عن الآخر لتوسيع رقعة الارض المزروعة وحماية التربة ضد التأكل ومن ثم هذه الجلو (جمع جل) كانت اكثر ملاءمة للعدائق والكرم والبساتين منها للزراعة الحقلية الواسعة . واقدم الاشارات

(١) انظر ما جاء في الفصل الخامس . داجع : Barrois, pp. 309 seq.

(٢) راجع مجموعة قوانين حوراني ، الوراء ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ الخ . وقد بيّنت الكلمة مشكينو في كلمة مسكنين الترية وفي كلمة mesquin التي اتبعتها الانكليزية بطريق الفرنسية والاسبانية . وكلمة خابشي انت من اصل لا يزال باقى في الترية في الكلمة خبث .

إلى هذه الجلول المدرجة التي تتصف بها مشاهد لبنان حتى اليوم ترد في كتابة اثورية من عهد تحوين الثالث.

وام الحيوانات المدجنة كانت الابقار والاغنام والغنم والماعز والخنازير والكلاب، والثلاثة الاخيرة كانت تعيش على فضلات الطعام. وكان اللحم يؤكل في مناسبات خاصة وفي الاعياد فقط ويطبخ في قدور ذات فوهة واسعة. والطعام كانت يؤكل باليد او يلاعى ذات مسكات عظيمة. ومية الشرب كانت ترفع من الصهاريج او تؤخذ من الينابيع وتحمل على الرأس في قرب من الجلد او في جرات كبيرة. والمصايبع كانت عبارة عن صهون خزفية بسيطة ذات فتحة صغيرة في طرفها لوضع الفتيل. ويرجع اقدمها الى النصف الاول للالف الثاني. وقد وُجد عدّ كبير من ادوات المطبخ في الواقع القديمة منها الجرار والآنية والصحون الخميرية التي تظهر ان الحياة المترتبة قد بقيت في مظاهرها الاساسية حتى العصر الحاضر.

الصناعة

كان اصحاب الحرف والتجار يحتلوا مكانة متقدمة في المجتمع الكتيري بين الارستوقراطية الاقطاعية المؤلفة من النبلاء، الملوك والمحاربين في سلاح المركبات وبين الطبقة الدنيا المؤلفة من عبيد الارمن والارقاء.

وكان البناء عادة يتخدون هيئة آبارهم وظلّ هذا الاسلوب متبعاً حتى العصور الاخيرة. وهناك ما يحمل على الاعتقاد ان اصحاب الحرف كانوا ينتظرون في نقابات. والنقابات كانت تتألف من جماعات ترتبط بعضها ببعض بروابط المهن والقرى وتعيش في احياء خاصة. وقد وجدت مثل هذه المنظمات في فلسطين قدماً منذ القرن الثامن عشر ق.م.

وقد بلغت صناعة الخزف وهي من اقتصاد الصناعات السورية ومن اكثرها نجاحاً ذروتها قبل عام ١٥٠٠ ق.م. وكانت التأثير البabلي ظاهراً فيها منذ ٢٠٠٠ ق.م. واستعمال دولاب الخزاف الذي بدأ في اوائل الالف الثاني اعطى المصنوعات الخزفية صفات جديدة وشكلاً متناسقاً. والطين الذي استعمل حينئذ اصبح اكثر نقاوة. واخذت الصفات الامرية القديمة بالزووال واصبح تقليد النماذج الاجنبية وخاصة المصرية والكريتية والميكانيكية امراً شائعاً. واستوردت الاواني

الخزفية البراقة ببريق معدني وأئية الرخام المعرق (الالباستر) من مصر بكثيميات كبيرة. واستخدمت كذلك الاواني الفبروصية كنادج كأندل مكتشفات اوغاريت^١ وغيرها من الاماكن. وتقع اوغاريت على الساحل السوري تجاه قبرص غالباً. وبعد عام ١٥٠٠ ق.م. اصبحت التأثيرات الفبروصية والميكانية قوية بشكل خاص. وصنعت نادج خاصة لاجل الاشياء المتعلقة بالطقوس الدينية والخدمات التذرية. واستخدم القصدير في طلي الخزف واعطائه بريقاً خاصاً. والآثار المكتشفة في القبور تظهر ذوقاً عظيماً ومهارة فنية. وبلغ فن النحت ذروته في القرن السادس عشر.

صناعة المعادن

وكان الكنعانيون على القابل لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والأخير (نحو ٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م.). فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة. وقد اظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من اوائل القرن الرابع عشر اكتشاف في رأس الشمرة ليس معرفة اذابة الحديد فحسب وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ^٢. وكان هذا الامر مجهولاً حتى ذلك الوقت. واهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً وعن القصدير لاجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز وعن الذهب والفضة ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم. ووجدت صورن الفضة بين غنائم الفراعنة من سوريا. وبلغ فن الصياغة ذروته في القرن السادس عشر. واكتشف ميزان احد الصاغة واوزانه في رأس الشمرة. واستخدمت وزنات الفضة غير المسكوكه كمتعدد في بلاد آسيا الغربية بالرغم من ان التجارة كانت عموماً بشكل مقاييس. ويشير سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) أحد فاتحي سوريا الاشوريين الى هذه الاوزان التي صنعتها بقوله: «لقد عملت قاليباً من الطين وصبت البرونز فيه كما في صنع قطع نصف الشاقل^٣». وقد وجدت السلاكين ورؤوس الحراب والقوس الخريبة والخازر والملاقط في اريحا من العصر الذي سبق قدموم بني اسرائيل. وبعد ١٥٠٠ ق.م.

١) انظر ما سيأتي في المفصل الثاني في الفقرة التي عن اوغاريت.

٢) راجع : Schaeffer, *Ugaritica*, p. 110, No. 2.

Daniel D. Luckenbill, *The Annals of Sennacherib* (Chicago, 1924), p. 123 (٣)

تظهر في فلسطين اشكال حية وقبرصية وميكانية من الاسلحة . واكتشفت اساور وخلالن واقراط وخزائيم ومشابك للصدر من البرونز والذهب والفضة في مختلف الواقع . واستخرجت صنوج صغيرة من القرن الرابع عشر من تل «ابو هوم» قرب حيفا . وتظهر الآثار وجود آلات موسيقية كالقيثارة والناي والمزمار والعود والدف ولكن هذه لم تبق لسرعة تلفها . وعندما بدأ التجار الكنعانيون باستيراد النائم والجلدان والاختم والخرز والأواني والاسلحة وغيرها من مصر فان صانعي المعادن الكنعانيين اخذوا يقلدونها . وتشيد اشعار هوميروس بصناعة المعدن وبالفنون الفينيقية وقد ذكرت ان صحنًا من الفضة «عمله بدءاء الصيدونيون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله احسن شيء من نوعه في العالم كله»^١ .

العااج

كانت زينة عامة الناس تضم العقود والخواتم من الحجر الكلسي والبلور الصخري والمعيق وقد وجدت نماذج منها . ولم تكتشف الا خرزات وعائمات قليلة من العاج . وكان العظم يستخدم مكان العاج بالرغم من ان الفيل كان على القالب موجوداً في سوريا الوسطى كما تدل اخبار رحلات الصيد التي كان يقوم بها الفراعنة الى تلك المنطقة . وتعود اقدم قطع العاج الفينيقية الى القرن الرابع عشر . ووجدت تحف بحسب العاجية في قصر من اوائل القرن الثاني عشر وقد تكون من عصر اكثر قدماً . والامساط التي اكتشفت في قبور في اسبانيا تتبع اسلوب بحدو ولكنها ترجع الى القرن الثامن . واقليم تقليد يوناني معروف للالسغال الفينيقية يرجع الى هذا القرن . وهناك قطعة عاج من القرن الثاني عشر او الثالث عشر في بجدو ترينا مغنايا يعزف على القيثارة . وبعض قطع العاج الفينيقية رائعة في صنعها وجمالها حتى أنها اعتبرت من اعن آثار الفن في الشرق التقديم .

الزجاج

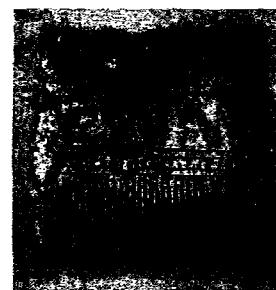
كانت صناعة الزجاج من الصناعات الأخرى التي تفوق فيها الكنعانيون .

١) اليادة هوميروس الكتاب ٢٣ ، ٧٤٠ - ٧٤٥ . وقد استعمل اسم الصيدونيين كنادر الفينيقيين .



اللامة الام على قطعة عاج من العصر الميكاني وجدت في
ميناء اليونا مرنا رأس الشارة

تظهر اللامة بلباس ميكاني جالسة على منبع وعلى كل من جانبيها اسد وتملك كوزاً من الترة .
وكان هذا النموذج الرخري شرق الاصل سوريأ الا الله شاع في العالم الاجي



مشطان من العاج



قطع من الملائكة العاجية وقد جعلت ايديها باشكال نسائية



دبابيس عاجية

وكان المرويات الكلاسيكية تنسب اليهم فضل اكتشاف الزجاج غير اننا نعلم اليوم ان المصريين صنعوا الزجاج قبل الكتنانيين بكثير . والاخبار المتعلقة بالكتنانيين يمثلها ما دواه پليني^١ من ان بعض التجار كانوا يعدون طعامهم على الشاطئ قرب عكا وقد استخدموه بعض قطع نترات البوتاسي التي كان يحملها مركبهم لتركيز قدورهم على النار . ولكنهم اكتشفوا على اثر ذلك سائلاً شفافاً عندما تعرضت النترات للنار واختلطت بالرمل . ومما يكن فان الواقع هو ان الفينيقيين هم الذين تاجروا بالزجاج المصري واتقووا من انتاج الزجاج القديم .

صناعة الأقمشة

كانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتبادية ومكانتها المنزل . وقد وجدت آثار مغاظل من الحجر والعظم واثقال من الحجر والطين تستعمل لاجل الانوال وترجع الى اوائل الالف الثالث . ولا شك ان الصرف كان اقدم المنسوجات . وتذكر وثائق نوزي من حوالي ١٥٠٠ ق. م. الصوف الكتناني^٢ . والقطن الذي كان بالأصل من نبات الهند قد ادخله سنجاريب الى بلاد اشور حيث يشير في احدى الكتابات الاثرية الى «الأشجار التي تحمل صوفاً» والتي كان رجاله «يقطعنونها ويسرحونها لعمل الملابس^٣». ولم يكن القطن شيئاً معتاداً في تلك الايام . وادخل الفينيقيون هذه المادة الى العالم اليوناني في اوائل العصر المهنستي ومعها اسمها السامي^٤ . وكانوا يتبعون الكتان كما يبدو في سوريا الجنوبية في القرن العاشر لان روزنامة الجزر التي ترجع الى ذلك التاريخ تذكر «شهر اقتلاع نبات الكتان^٥». ويعتقد ان الحرير كان معروفاً في صور في القرن السادس اذا صحت ترجمة احدى الكلمات في سفر حزقيا ١٦، ١٣، ١٠ . واكتشفت الابر والدبابيس في فلسطين

(١) Pliny Bk. XXVI. ch. 65

(٢) Annual, American Schools of Oriental Research, vol. xvi (1936), No. 77

(٣) انظر : James H. Breasted, Ancient Times, 2nd. ed. (New York, 1935), p. 203

(٤) والكلمة اليونانية هي *Kiton* او *chiton* بمعنى رداء . وكلمة cotton الانكليزية اقتات من «قطن» العربية وهي شبيهة بالكلمة السامية القديمة التي بقيت في كلمة كتان العربية .

(٥) انظر : Gustaf Dalman, Arbeit und Sitte in Palästina (Gütersloh, 1928), vol. i, p. 7.

(٦) انظر ما سيرد عن الحرير في الفصل العشرين في القراءة التي عن المحاصلات الزراعية .



حملوا الجزية السوريون ، على قبر من طيبة ، في عهد تحتمس الرابع (١٤٢٠ - ١٤١١ ق.م.)

يقدم حاملو الجزية أنفس ما لهم من أوانى الذهب والفضة . والذين في القسم الامامي يسبحون أو يرقصون اذرعمهم كثنوان هبادة فرعون . والوجوه متنمية وهناك رأسان بلا شعر . وظاهر رجل في القسم الملوى من الرسم يقود فتاة عارية حلقة الرأس فيها عددا خصل الشعر المتلوي . وهناك رجل آخر واقف يمسك قرنا يحيوي دعوتنا . وفي القسم الاسفل يبنوا أول رجل واقف وعلى ذراعيه بمحظة ضئتها اقواس ، ويحمل مع الرجل الذي وراءه جراراً زورقاً قد تكون من الحجرة اللازوردية الكريمة . أما آخر رجل فيعمل على صحن آنية لشرب بشكل رأس طائر .

قبل قドوم بنی اسرائیل في صناديق برونزية وبدون صناديق . والابر لها ثقوب بينما الديابيس طويلة برووس مقلعة او ذات شقوق . وووجدت ازرار مستديرة بشقين . وكانت تصنع ازرار القراء من الحرف المكسور اما الاغنياء فكانت ازرارهم من العظم او العاج .

وتريننا الاشكال في الرسوم الجدارية الموجزدة في قبور مصر من اوائل عصر

المكسوس (نحو ١٧٠٠ ق.م.) جماعة من الكتعانيين يلبسون الأثواب الطويلة التي تصل من الكتف حتى الركبة . وهذه الأثواب مصنوعة من القماش المصبوغ ومزданة بالشريط وأحياناً مزخرفة بعنایة . وبعد أن كان ذلك اللباس مستعملاً لدى الملك والكافن فان سائر الناس صاروا يلبسونه . ويظهر حاملو الجزرة السوريون على قبور طيبة التابعة للسلالة الثامنة عشرة يلتقطون بشال أبيض له اطراف حراء او زرقاء حول جسم الواحد من الخمر فمادونه . ويشاهد الاسمي الكتعانيون في المباني الآثرية المصرية يلبسون القميص او الرداء القصير والتوراة وثياباً فوقها تتالف من قطعة قماش طويلة ضيقة ملفوفة بشكل حلزوني حول الجسم . والجموعة بكاملها بما فيها لباس الرأس تشبه ملابس البدوي . ورجال الفن المصريون يمثلون ليس الكتعانيين وخدم واغا الآراميين ايضاً وغيرهم من الساميين باجسام اثقل من اجسام المصريين وفي الغالب بشعر طويل ولحى كثيفة سوداء مروسة . ويتدلى الشعر من الوراء بكتل كثيفة حتى الرقبة ويتجزء فوق الجبهة ما يشبه الشبكة . والكهنة كانوا يحملون رؤوسهم كما في مصر . وفي الصور التالية كانت النساء يجتذبن شعورهن تحت برائحة وبعد الزواج كن يلبسن قبعات تفطى رؤوسهن تماماً «بعصائب مثل الأهلة» .

الارجوان

وهناك صناعة أخرى كانت مزدهرة على الساحل وهي صيد الأسماك . ومدينة صيدا مدينة باسها إلى هذه الصناعة . وكانت المراعي البرية في بعض الأحيان محيبة للأomal او غير اكيدة بسبب فقر التربة او تقلب الامطار ولكن البحر كان يزود السكان بالأسماك وخاصة من نوع التونة وبالملح والصياغ الارجوانى .

وأقدم ذكر للارجوان قد ورد في نص من دأس الشمرة يقول ان كمية من الصوف قد وزعت بين الحائطين المكلفين بصنع الارجوان^٢ . وكانت

١) سفر اشيا ٣ : ١٨ .

٢) انظر مقال Viroleaud في *Journal asiatique*, م ٢٢٠ (١٩٣٨) من ١٤٦ . وتنفذ هذه الكلمة في الآشورية شكل *argamānu* وفي البرية ارجوان (انظر سفر اخبار الأيام الثاني ٢ : ٧) وفي البرية ارجوان من اصل غير سامي .

سواحل البحر المتوسط كلها وليس السواحل الشرقية وحدها تحوي بكميات مختلفة صد الموركس *Murex* الذي يستخرج منه السائل الارجوانى ، وكانت شعوب اخرى من غير الفينيقيين كالفينوسين واليونان مثلاً تستخدم هذه الاصداف . وتؤكد الاسطورة اليونانية انه بينما كانت الملكة هيلين تتزه فى طروادة على الساحل لتفقد عن نفسها ألم الاسر لاحظت ان السمكة الصدفية التي كان كلها قد مضتها صبغت فمه بلون ارجوانى غامق فاعجبت باللون واسترطرت على من يريده ان ينال حظوة لديها ان يقدم لها ثوباً مصبوغاً بالارجوان . غير ان ارجوان صور كان اشهر الاصبغة واثنها في العصور القديمة . ووُجد في جوار صور وصبراً نوعاً متاز من هذا الصدف ، وبما ان الفينيقيين كانوا حريصين على الاحتفاظ بالليمون منه فقد اكتشروا هذا الصباغ واستوردوه من اماكن بعيدة مثل ميناء سبارطة وجوار قرطاجة واوتيكا *Utica* . ولم يتاجروا بالصباغ نفسه وإنما بالاقمشة المصبوبة التي منها الصوف والشعر والكتان والنفب . ولا ندري ماذا كانت وظيفة السائل بالنسبة للحيوان الصدفي ولكن من المؤكد ان ما زعمه البعض من انه يفرز بصورة طبيعية لتلوين المياه ليحمي نفسه ضد مهاجميه ليس ب صحيح .

كان استخراج نقط السائل القليلة من الحيوان الصدفي وقطير الصباغ يتطلبان اعمالاً واسعة وصعبة . ولذلك كان ثمنها مرتفعاً بالرغم من أنها لم تكن مادة محكمة . وبما ان الاغنياء فقط كان بإمكانهم دفع ثمنها فقد أصبحت الثياب الارجوانية اللون عنوان التفوق^١ وادت فيما بعد الى التعبير المتعلق بالملوك : « مولود في الارجوان ». وفي العصور الهوميرية^٢ والمحلنسية^٣ اقررت الثياب الارجوانية بالملكية والملوك . وكليوبطراً ملكة مصر كانت مولعة بها كما كانت هيلين في طروادة . والدلالة على المكانة الدينية السامية فقد لبس الكاهن الاعلى اليهودي لباساً ارجوانياً وكذلك فعل رئيس كهان هيرابولس (منبع) في شمالي سوريا^٤ وكاهن جوبير في مغنيزاً في آسية الصغرى^٥ .

١) سفر استير ٨ : ١٥ ؛ الامثال ٣١ : ٢٢ ؛ الجبل لوقا ١٦ : ١٩ .

٢) الایاذة ٤ ، ١٤١-١٤٥ .

٣) كتاب الملائكة الاول ٨ : ١٤ .

٤) Lucian, *De Dea Syria*, § 42.

Strabo XIV. ch. 1. § 41 (٥)

و عملية اعداد الصباغ بالضيغط ليست معروفة من المصادر الفينيقية . ويصفها بليني^١ يقول ان السمك الصدفي يؤخذ حياً - لانه عندما يوت يفرز هذا العصير - وينتزع السائل من احد عروقه ويلح ويترك ثلاثة أيام منقوعاً ثم يغلى بحرارة معتدلة واثناء غليانه تنزع الرغوة من وقت الى آخر . وفي حوالي اليوم العاشر عندما تصبح محتويات القدر مائة نقطس المادة النسيجية فيه وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ساعات ثم تسرّح وتوضع ثانية حتى تتشرب اللون تماماً . ويعتبر الصباغ على احسناته عندما يتخذ لون الدم المتجمد .

ان كثرة توارد الثروة الى روما في القرن الاول ق. م. وسُعَ استخدام الارجون وحمل فيها بعد على تقليد هذا الصباغ في ايطاليا وغيرها من البلاد . واستمر انتاجه في الشرق بعد الفتح الاسلامي . وقد ذكر «الارجون الصوري» بين مواد الترف التي استوردها تجار البندقية في اواخر القرن الثامن . وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية حيث اقتصر امتناع صنع هذا الصباغ على فئة قليلة فقدت معرفته تماماً في الشرق . وبقيت في انكلترا حيث نقلت من الشرق في مناطق منعزلة حتى القرن السابع عشر .

وفيما سوى الارجون فان اللبنانيين القدمين ادخلوا القرمز^٢ في التجارة القديمة . وقد ذكر القرمز في العهد القديم^٣ وكان يصنع من حشرات كانت توجد على نوع من السنديان^٤ الذي ينمو حول السواحل الشرقية للبحر المتوسط . وعندما كانت تجفف الحشرات وتخل في بعض الحوامض كانت تعطي اللون القرمزي . وكانت هذه الحشرات بريئة في اول الامر ثم صارت تربى من قبل الفرس ثم من قبل الارمن فيما بعد .

Pliny Bk IX. ch. 62) ١

) ٢) وكلمة crimson الالكليزية اتت من قرمز العربة وأصلها فارسي او ارمني .

) ٣) سفر الاذويين ١٤ : ٤ ؛ سفر العدد ١٩ : ٦ .

) ٤) انظر : Theophrastus, *De historica plantarum* Bk III. ch. 16. § 1 .

الفصل الرابع

النشاط البحري والتوجه الاستعماري

كان الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ . وبما ان جبال لبنان كانت تعيق التجارة مع الداخل وتردد السكان بالخشب الممتاز لصناعة السفن فان البحر المتوسط اجتذب هؤلاء الساميين المقيمين على سواحله الشرقية فاستجابوا اليه وتحولوا حياة تنقلهم في ارجاء البداية الى حياة تنقل في البحر . وكان البحر لا ينحنيهم والعالم المجهول يقتضي بدلاً من ان يلقي الرعب في قلوبهم . وبعد ان بدأوا في الملاحة قرب السواحل ليبيعوا اسماً كثيم وزجاجهم وآنتهم الخزفية وغيرها من المنتجات المحلية اخذوا فيما بعد يجوبون عرض البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وقد ظلوا يحتكرونها مدة طويلة . وتحول الباعة المتجلولون الى امراء تجار . وكانت مستعمرات غرذجين فتشروا عناصر حضارتهم وحضارادة جبارتهم وجعلوها مقبولة لدى الاجانب . وركز الكتـاعـانـيون نشاطـهمـ بالـجـاهـ الـبـحـرـ خـاصـةـ بعدـ القرـنـينـ الثالثـ عشرـ والـثـانـيـ عـشـرـ حينـ اخـرـجـهمـ الآـرـامـيونـ منـ سـورـيـةـ الوـسـطـىـ واـخـطـرـهـمـ الاسـرـائـيلـيونـ وـالـفـلـسـطـيـنـيونـ لـعـادـرـةـ سـوـرـيـةـ الجنـوـبـيـةـ فـاصـبـحـوـاـ نـسـيـاـ اـعـظـمـ المـلاـحـينـ وـالـتـجـارـ فيـ التـارـيخـ .

الطرق البحرية

لم يكن الفينيقيون اوئلَّا الجوالين في البحار الذين تصوّرهم لنا بعض المرويات . فقد كانوا يتبعون طرقاً مرسومة بدأوا اولاً في استكشافها ثم استخدموها واحتكرواها تقريباً . وكانت اقدم طرقهم الدولية تصل بيبلوس وسائر الموانئ بصر . ثم أصبحت الطرق الرئيسية تبدأ في صيدا وصور فتصل مصر او تتجه شمالاً الى قبرص وغرباً الى ليكيا تحت جبال طورس ثم الى جنوي رودس فكريت

وجزيرة كورسيكا حتى صقلية ومنها بطريق جزيرة كورسيكا إلى مستعراهم في شمالي أفريقيا وأخيراً غرباً على الساحل حتى مستعراهم في إسبانيا. وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت طرق عرضية تعبر البحر من الشمال إلى الجنوب وبالعكس. وكان الفينيقيون أول من قدم أربع مواد هامة مفقودة في كثير من بلاد البحر المتوسط وهي الأخشاب والقمح والزيت والخمر. وبالنسبة إلى اليونان كان أرز لبنان أرزآ فينيقياً. وحمل الفينيقيون بعد ذلك منتجات صناعتها الرئيسية وما صنع الأقمشة والصناعة المعدنية. وكانت مصر وببلاد الرافدين ذات التربة العصبية بماجة ماسة إلى الأخشاب الصلبة لبناء المعابد والقصور ولصنع زوارق الصيد والسفن التجارية والبحرية. وكانت غابات لبنان ذات البمار المخروطية الشكل والفنيدة بالمواد الصيفية بما فيها من أشجار الصنوبر والشوح والأرز والتربيتين لا تقدم الأخشاب فحسب وإنما تقدم أيضاً الزفت والصوغ التي كانت ترافق تجارة الأخشاب. وكانت تستخدم هذه المواد لطلاء السفن والمحافظة عليها^١. وكان الزيت يستعمل كمطرور كما يستهلك للغذاء. وكان الفينيقيون عندما وسعوا أسواق البضائع المستهلكة يوسعون أسواق المنتجات حتى أصبحوا العمالء في توزيع بضائع الشرق في الغرب والبضائع القليلة الآتية من الغرب ومعظمها من المعادن والأئنة الخزفية في الشرق. وأصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل أن يكون بحيرة يونانية أو رومانية بوقت كثير.

الملاحة

وعندما سعى الفينيقيون لترقية المبادرات التجارية بطريق البحر على مقياس دولي أخذوا يدرسون الملاحة درساً أصولياً. وقد كان لهم الفضل في اكتشاف فائدة النجمة القطبية وأصبحوا بعد ذلك أول من انتقد فن الملاحة ليلاً والمسير حسب التجويم^٢. وأطلق اليونان على هذه النجمة اسم الفينيقيين. وكانت تعوّم

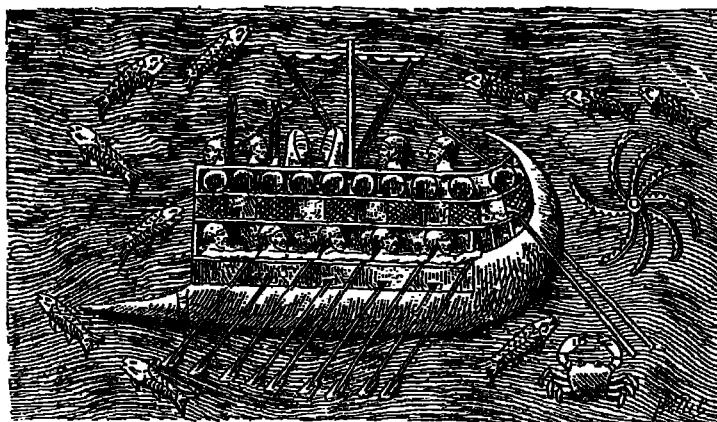
(١) وهي جزيرة ببتلاريا الحديقة والمعروفة عند الجغرافيين العرب باسم قوسرة.

(٢) Theophrastus III. ch. 12. § 3; IX. ch. 2. § 3

(٣) Theophrastus IV. ch. 2. §§ 2, 3 قارن مع سفر الخروج ٢:٣

(٤) Strabo XVI. ch. 2. § 24 قارن مع

اخشاب الارز التي لا مثيل لها في الملاحة في الجداول المنحدرة ايلام الفيضان الى اقرب مرفاً لاجل بناء السفن او للتصدير . وكانت صيدا وصود تلقى اخشابها من حرمون . وظهرت السفن الفينيقية من حوالي ١٤٠٠ ق. م. مرسومة على المباني الآثرية المصرية وهي بشكل هلال ولها مؤخرة ومقدمة مرتفعتان وبجذافان يستعملان كدفة للسفينة وفي أعلى الصاري شراع واحد مربع على امتداد يردين . وكانت تسير اقلم السفن التي لدينارسوم عنها بواسطة الشراع والمجاذيف . والسفن كانت عريضة في وسطها بحيث كانت حولتها كبيرة بدون ان تكون طويلة . وتظهر السفن الفينيقية التجارية والبحرية من العصور الاخيرة على الآثار الاشورية بمؤخرة مرتفعة ومدكّ مرسوس في المقدمة يمكن استخدامه في القتال وطابقين . وبناء السفن الفينيقيون هم الذين بدأوا عادة وضع بجذفين او اكثر الواحد فوق



سفينة فينيقية ذات صفين من المجاذيف

سفينة تجارية او حربية كما تشاهد في زخرف نادر في جدار قصر سنحاريب حوالي ٧٠٠ ق.م. ويجلس الجنون كل خمسة منهم في صف واحد على ارتفاعين مختلفين في القسم الاسفل من السفينة مما يجعل عدد الجنونين عشرين . ويجلس الركاب في القسم الاعلى . وترتفع مقدمة السفينة بصورة عامودية بشكل كبس مرسوس لاغراق سفن العدو .

الآخر . وكان الطابق الاسفل من السفينة عادة يضم صفين كل منها باربعة او خمسة مجاذيف بحيث كان عدد الجنونين كلام بين ستة عشر وعشرين . وفي العصور

المتأخرة بلغ عدد المعدن خمسين مجذفاً . وكان الركاب يقيمون في الطابق الأعلى . وكلوا يستعملون عوداً واحداً للشراع وكان الشراع ينشر عندما ترسو السفن او حين يكون الطقس رديئاً . وهذا النوع من السفن هو الذي اقتبسه اليونان الاقدمون كما يتضح من الرسوم على الاواني . ويعتقد ان نفس النموذج بناء للملك سليمان او لملك « التوافي العارفون بالبحر » الذين ارسلهم صديقه حيام ملك صور . وكانت سفن سليمان ترسو في عصيون جابر^١ وهي ميناء مملكة اسرائيل على خليج العقبة^٢ . وكانت السفن تصدر بواسطة هذه الطريق التصيرة الاختشاب والتحاسن وتأتي بدلاً عنها بالذهب من اوقيانوس والمطرور والتوابن من سائر جهات شبه الجزيرة العربية وبذلك تتجنب المرور في بروزخ السويس على اطراف مصر . وكانت ترسو محاصيل ربة اخرى كالرقيق والخيول الى مصر بدلاً من المنتجات المحلية . وكان التجار الفينيقيون في مدن الدلتا^٣ في عهد السلالة العشرين (١٢٠٠ - ١٠٩٠) بارزین بشكل خاص . ويبدو انهم كانوا يتمتعون في بحافيس في القرن الثالث عشر بم الحقوق خاصة تتصل بوضعهم كأجانب وهذا من سوابق الامتيازات الاجنبية^٤ .

لم يكن الفينيقيون اول امة بحرية فحسب بل كانوا اول امة في التاريخ تأجرت في البر والبحر . وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم اديسا وربعاً نصبيين بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط براكيزم على الخليج الفارسي . والفينيقيون حسب مروياتهم المتأخرة اتوا الى ساحل سوريا بالاصل من منطقة الخليج الفارسي حيث كانت لهم مدن تحمل الاسماء نفسها مثل ارواد وصور وصيدا^٥ . ويعطينا حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين وصفاً مفصلاً لتجارة الفينيقيين السامية

١) انظر سفر الملك الاول ٩ : ٢٧ .

٢) راجع ما سيبقى بشأن هنا الميناء في الفصل الرابع عشر في المقدمة التي عن داود .

٣) ان القول بأن الفينيقيين كانت لهم مراكز في النقب لا يقله المسناد عموماً . انظر : Garstang, *Heritage of Solomon* p. 371 : W. F. Albright, *Archaeology and the Religion of Israel* (Baltimore, 1942), pp. 59-60.

٤) يرى البعض ان « النيل » من اصل فينيقي وان الكلمة مشتقة من السامية نهَل بمعنى جرى .

٥) راجع ما سيبقى في الفصل ٤٨ بشأن هذه الامتيازات .

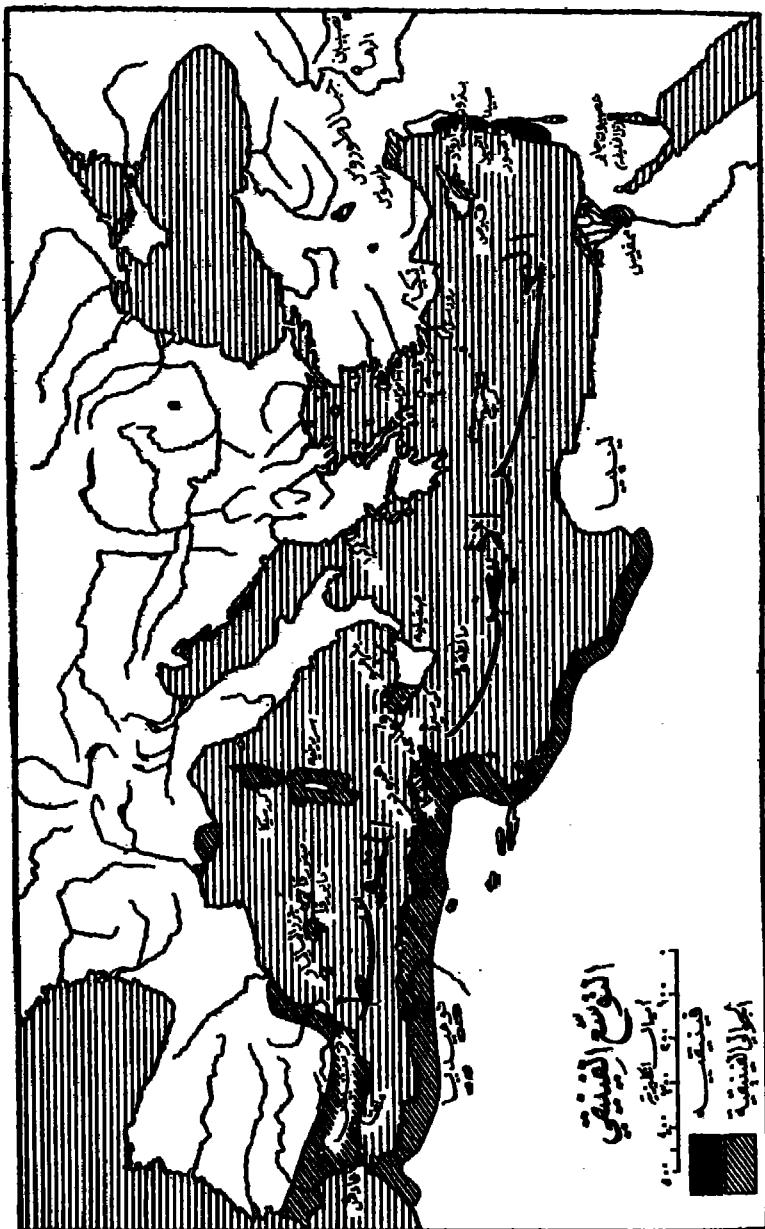
والبعريّة في مظاهرها المختلفة. وهو يذكر بين وارداً لهم الفضة والخديد والقصدير والرصاص من إسبانيا والرقيق وأواني التحاس الأصفر من إيونيا والكتان من مصر والخزفان والماعز من شبه جزيرة العرب.

الدوران بحراً حول إفريقيا

وأعظم عمل بحري حققه الفينيقيون هو الدوران حول إفريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألف سنة وينسب إلى الملائكة البرتغاليين عادة أنهم أول من فعل ذلك. وقد قام الفينيقيون بهذا العمل باشارة من الفرعون نخاو (٦٠٩ - ٥٩٣ ق. م.) من السلالة السادسة والعشرين الذي أعاد حفر الترعة القديمة التي كانت تربط الفرع الشرقي للنيل بطرف البحر الأحمر الشمالي. بدأ الفينيقيون رحلتهم من هذا البحر واتجهوا جنوباً نحو المحيط الجنوبي وعند اقتراب فصل الخريف كان ينزل الملائكة إلينا وجدوا ويزرعون القبم وينتظرون نهاية الموسم ثم يرحلون من جديد. وبعد أن قضوا مرتين على هذه الحال عبروا في السنة الثالثة أعمدة هيركوليس (مضيق جبل طارق) وعادوا إلى مصر. قال هيرودتس «وهناك قالوا (ما يصدقه البعض ولكنني لا أصدقه) أنهم بدورائهم حول إفريقيا [إفريقيا] كانت الشمس على يمينهم». وهذه العبارة الأخيرة التي لم يصدقها «أبو التاريخ» (اليوناني) تثبت صحة القصة. ذلك أنه عندما تتجه السفن إلى الغرب حول رأس الرجاء الصالح فإن شمس نصف الكورة الجنوبيّة تكون عن يمينها.

المستعمرات

كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون إلينا ذهبوا. وبما أنهم يثأرون أمّة صغيرة فإنهم كانوا يتسلّبون إلى المناطق الجديدة بدون أن يثيروا الشكوك حولهم كما كان يمكنهم أن يتکيفوا بدون صعوبة حسب أي وضع جديد طالما أنه لم تكن لهم حياة سياسية مشتركة — ويشبه ذلك إلى حد كبير ما يفعله أحفادهم المهاجرون اللبنانيون في العصر الحديث. وقد سيطروا بالتدرّج كمستعمرين ومنظرين وادخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجدد وسعوا آفاقه. وتطورت المراكز التجارية



الواحد بعد الآخر الى مراكز السكن وتطورت هذه الى مستعمرات. واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض وبالبلدان الاقصية الام بطرق الملاحة وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية الى سواحل كيليكية والميونان وغيرها من بلاد البحر المتوسط فجعلته بحراً متوسلاً حقيقةً. ويمكن الاعتقاد بأن مستعمراتهم في شرق البحر المتوسط ومنها قبرص ^١ است قبل مستعمرات صقلية وسردينيا في وسط البحر المتوسط وان هذه الاخيرة اسماها الفينيقيون قبل مستعمراتهم في افريقيا الشالية الفربية واسبانيا. ويرجع تزولهم في جزر اواسط البحر المتوسط الى منتصف القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك. واستقى قادس (اليوم Gades) في اسبانيا واوتيكا ^٢ في المنطقة المسماة اليوم تونس حوالي عام ١٠٠٠ ق.م. وتعتبران من اقدم المؤسسات في تلك المناطق. وقد اشتقت اسم قادس Gades من الكلمة فينيقية ^٣ معناها «جدار» او مكان مسورة. ولم تكتشف حتى الان كتابات فينيقية اثرية في سردينيا وقبرص اقليم من القرن التاسع. والكتابات المشهورة المكررة لبعض لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقاً تعتبر اقدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع الى منتصف القرن الثامن ^٤. واما قرطاجة ^٥ سليلة صور الشهيرة واعظم المستعمرات الفينيقية فانها تعود الى نحو ٨١٤ ق.م. وهي احدث من ذميالتها في الغرب هيبيتو Hippo التي كانت مقرآ ملكياً (ولذلك اعطيت لقب Regius) وفيها بعد اصبحت اسقفيه القدس اوغسطين. وكلمة هيبيتو كلمة ليبية. وتتفيد الاساطير اليونانية ان Libya ^٦ وهي الاسم اليوناني لشمال افريقيا ثم للقاراء الافريقية كلها كانت بالاصل اسم زوجة الاله بوسيدون (الله البحر) والدة آجينور Agenor ملك فينيقية.

وبلغ هذا النشاط التأسيسي في غرب البحر المتوسط ذروته كما يبذلو بين منتصف القرنين العاشر والثامن. ويشير نجاحه العظيم الى وجود طبقة اقليم من المستوطنين

١) شبيه بكلمة «جدار» الفربية. وكلمة اغادر agadir تعني بالبربرية «جدار» ايضاً.

٢) انظر : G. A. Cooke, *A Text-Book of North-Semitic Inscriptions* (Oxford, 1903), p. 52.

٣) بالفينيقية قارط حدشت qart hadasht اي المدينة الجديدة بخلاف Utica ومنها المدينة اللدية ومشتقة من عَنْقَ .

الساميين في شمالي أفريقيا وربما في جنوي شبه جزيرة ايبيريا. وقد تكون المجرة التي حلت الساميين في الالف الرابع الى مصر قد استمرت الى ابعد من ذلك. وهناك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القديماء في مناطق غرب البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والغربية^١.

أدى تأسيس قادس وراء احمد هيركوليس (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) الى دخول الفينيقيين الى المحيط الاطلسي واسفر ذلك عن اكتشاف الاوقيانوس^٢ بالنسبة للعالم القديم. ويعتبر هذا الاكتشاف من اعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم العالمي^٣. وقد عرف هوميروس وهيسيد عن وجود الاطلسي لأول مرة من الفينيقيين. ومن الصعب معرفة مدى توغل الفينيقيين في هذا الاوقيانوس الذي سماه العرب فيما بعد «بحر الظلمات». واما وصولهم الى كورنوال في انكلترا في بحثهم عن القصدير فقد أكد بعض النقاد ولكن لا توجد اشارة قديمة الى ذلك. ويقول هيرودتس^٤ انه ليست لديه معرفة خاصة بجزر كاسيتريdes Cassiterides^٥ (جزر القصدير) والتي يجلب منها قصديرنا. وهذه الجزر هي جزر سيلي Scilly الواقعه قرب طرف كورنوال. ويؤكد ستراوب^٦ الذي كتب نحو عام ٧ ق. م. بأن الكاسيتريdes تحوي القصدير والرصاص وان السكان يبادلونها

١) انظر : 13-29 §§ Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, IV. ch. 10. من المقرب ، طبعة دوتري ودي غوريه (لبنان ١٨٦٤) من ٥٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة ١٢٨٤) م ٦ من ٩٣-٩٤.

٢) من اليونانية *oceanos* واشتقتها من الكلمة عوج *ug* (بني حلقة) السامية امن مشكوك فيه . انظر : R. Henning, « Die Anfänge des kulturellen und Handelsverkehrs in der Mittelmeer-Welt », *Historische Zeitschrift*, vol. cxxxix, No. 1, p. 12; H. Lewy, *Die semitischen Fremdwörter im Griechischen*, (Berlin, 1895), p. 208.

Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, vol. ii (Oxford, 1934), pp. 50, (٣ ٥٢, ٣٨٦).

Bk. III, ch. 115 (٤)

٥) من اليونانية *kassiteros* (قصدير) ومنها ات الكلمة العربية ولتكن الكلمة اليونانية من أصل شرقى وان يكن غير فينيقي .

Strabo III. ch. 5. § 11 (٦)

بالحلف والملح والأواني النحاسية وكان الفينيقيون وحدتهم في العصور الأولى يقومون بهذه التجارة من قادس ويكتمون الطريق عن الناس . ويضيف ستراوب بأن السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكي تجد هي أيضا تلك الأسواق ولكن قائد السفينة قذف بسفينته عمداً على اليابسة وبقى من دولته ثمن الحمول الذي فقده ، وهذا يشير إلى احتكار حقيقي لتجارة التصدير والى نوع من الضباب من قبل الدولة . ويتكلّم ديدورس الصلي^١ الذي كتب بعد ستراوب بنحو ثلاثة أربع القرن عن القصدير الذي كان يحمل من بريطانيا إلى ساحل الفال المقابل ثم عن طريق الداخل إلى ماسيليا (مرسيليا اليوم) وهي مستعمرة يونانية ربما قامت على موقع مستعمرة فينيقية أقدم منها . والكتابة الفينيقية الوحيدة المكتشفة في بريطانيا حتى الآن تركها على النايل أحد عمال أحدى الفرق الرومانية من أصل قرطاجي على ما يبدو وترجع إلى أول قرن من الاحتلال الروماني^٢ . واكتشف العالم بيترى Petrie في غزة القديمة أقراطاً ملتوية من ذهب اعتقد أنها من أصل ايرلاندي وتاريخها ١٤٥٠ ق. م.^٣

في إسبانيا

كانت معظم المستعمرات الفينيقية في إسبانيا تقع في ترشيش (Tartessus) وخاصة في المنطقة بين قرطاجنة وقادس . وهذه الأسماء السامية للاماكن شائعة جداً وزرها على نقود بقى حتى الآن . واسم ترشيش الذي نصادفه في كتابات التوراة وأشور هو اسم فينيقي على النايل بمعنى المنجم أو مكان الصرير^٤ . وكانت مدينة طرسوس في كيليكية التي ولد فيها القديس بولس تحمل نفس الاسم كما أنها كانت مستعمرة فينيقية . وطقوس عبادة بعلها كانت تشبه تقريباً الطقوس المتبع في صور وقرطاجة . وضمت قرطاجنة Carthagena باسم المدينة الام قرطاجة في

(١) History Bk V. ch. 38. § 4.

Alfred Guillaume, « The Phoenician Graffito in the Holt Collection of the National Museum of Wales », Iraq, vol. vii (1940), pp. 67-69.

(٢) Flinders Petrie, Ancient Gaza, vol. ii (London, 1932), p. 7.

(٣) وقد بني الفسل الذي اشتقت منه في العربية « رَشَّ ». راجع : Albright in Studies in History of Civilization, p. 42; cf. Albert Dietrich, Phönizische Ortsnamen in Spanien (Leipzig, 1936), p. 32.

شمالي افريقيا . ومدينة ملقة *Malaga*^١ معنى اسمها دكان او معمل صفيرو . ويدرك سترابو^٢ مكاناً لتسلیح الاسماك في هذه المدينة وهو امر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك . ومدينة قادس كانت ايضاً معروفة بانتاج الملح . وكانت قرطبة (*Cordoba*) بالاصل مدينة ايبيرية اشتولى عليها الفينيقيون : واقدم نقوشها تحمل حروفًا فينيقية استبدلت فيما بعد بالبوبونية . وقد جمع منها هيلقار برقه والد هانيبال كما جمع من سائر المدن الاسبانية جيوشاً لاجل حملته ضد روما . وربما كان اسم برسلونة الواقعة في الشمال متصلًا بكلمة «براق» الفينيقية (برق) التي نراها كلقب بجانب اسم والد هانيبال . وهكذا تأسس بواسطة هذه المستعمرات موطن ثان للحضارة السورية في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

في اليونان

وعاصمة جزيرة مينورقة الحالية واسمها ماهون *Mahon* تبدو في اول الامر بانها ماجو ^٣ وهو بالاصل اسم قائد قرطاجي . وكان للفينيقيين مراكز في جزر البالياز ولكن سلطتهم على الجزء الذي سكنته من عرق ايبيري لم تكن قوية . وكانت لهم ايضاً مراكز في كورسيكا وسردينيا . ومدينة باليرمو في صقلية مبنية على موقع فينيقي قديم . وفي بلاد اليونان يشهد وجود اسماء سامية للمواقع والألة الى جانب وجود الاساطير والخرافات الكثيرة بنشاط فينيقي . وتتصل كورنثوس وهي مؤسسة فينيقية على القالب بالله من اصل فينيقي اسمه مليكرون^٤ (ملقات) كما تذكر الاساطير . ومن الجزر اليونانية التي لها صلة بالاستعمار الفينيقي ساموس وكريت . وكانت لها مكانة بارزة في هذه الناحية .

١) من الفينيقية «ملاكاه» (*melâkah*) .

٢) Strabo Bk III. ch. 4. § 2

٣) من الفينيقية مَجِين *magēn* (ترس او عجن) . وكلمة *mayonnaise* الانكليزية أنت غالباً من نفس الكلمة بطريق الفرنسية .

٤) من الفينيقية ملك قارط اي ملك المدينة التي اعتبر معادلاً في ما بعد البطل اليوناني هرکوليس وبمارواهه مع خصوصه المليونات الاثني عشر التي أصبحت ووز البروج تفسر لنا الاختزال الاثني عشر التي قلم بها البطل اليوناني .

٥) ان اشتقاق اسم ساموس *Samos* من السامية شَمَشْ (الشمس) واشتقاق كريت من السامية «كلَّرات» بمعنى قطع مشحوبوك فيها . انظر : Hall, *Ancient History*, p. 523; Astran, *Phéniciens*, p. 5.

وتروي الاساطير ان الاه زفس بعد ان تحول الى ثور اخترط اووبا Europa الجليلة ابنة الملك الفينيقي آجينور¹ Agenor من مرج على الساحل السوري بعد ان وقع في حبها وهرب الى كريت التي كانت مرکزاً للحضارة قبل ان تكون هنالك حضارة في البر الاوربي . وفي كريت توجهها بعد ان استعاد شكله الاصلی . وقد ولد من هذا الزواج الملك والشرع الكريتي مينوس Minos بينما اتخذت القارة (اوربا) اسم زوجة زفس ووالدة مينوس .

وقد ذُعِمَ دِيودُورُسُ^٢ أَن سُكَانَ مَالْطَةِ - وَاسْمُهَا سَامِيٌّ^٣ بَلُونْ شَكْ - كَانُوا فِينِيقِيُّونَ . وَكَانَ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مَرْفَأًا مِنْ أَحْسَنِ مَرَافِقِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ وَلَا عَجَبٌ إِذَا سَمِيتَ «مَلْجَأً» وَكَانَ يُوجَدُ فِي تَرَاقِيَّةِ مَنَاجِمِ الْنَّحْبِ وَتَرْوِيَّةِ الْأَسْطُورَةِ أَنَّ اُولَئِنَاءِ مِنْ أَسْتَشْهِرَاتِهَا هُوَ قَدْمُوسُ Cadmus الْصُّورِيُّ^٤ شَقِيقٌ أُورْبَا الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِلْبَحْثِ عَنْ شَقِيقَتِهِ . وَقَدْ اشْتَغلَ عَمَالُ الْمَنَاجِمِ الْفِينِيقِيُّونَ فِي هَذِهِ الْمَنْطَقَةِ بِمَهْنَأً عَنِ الْذَّهَبِ حَتَّىِ الْقَرْنِ السَّابِعِ ق. م. وَمِنَ الْأَمْوَارِ الَّتِي تَنْسَبُ إِلَيْهِ قَدْمُوسُ^٥ بِنَاءُ مَدِينَةِ ثِيَّةِ - وَتَلِ الْأَكْرِيُولِ فِيهَا وَاسِهٌ قَدْمِيَّا قَدْ سُمِيَّ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ - كَذَلِكَ يَنْسَبُ إِلَيْهِ أَنَّهُ الْمَنْجِبُ وَلَدًا أَسْمَهُ الْلَّيْرِيُوسُ تَسْمِتَ بِاسْمِهِ الْلَّيْرِيَا (وَهِيَ بِلَادُ الْبَانِيَا الْيَوْمِ تَقْرِيبًا) . وَالْوَاقِعُ هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْعَاصِمَةِ الْأَيُولِيَّةِ الْقَدِيمَةِ كَانَتْ مِنْ أَصْلِ سُورِيِّ كَمَا أَنَّ فِنَّ الْعَارِدَةِ الْيُونَانِيِّ الْقَدِيمِ الَّذِي مِنْهُ اتَّسَكَالُ كَلاسِيَّكِيَّةُ مَدِينَ مُسُورِيَّةِ باسْتِخْدَامِ الْأَعْمَدَةِ وَتَعْجَلَانِها .

وفي العصر المورموري كان حمول السفن الفينيقية يضم نباتات ومحاصيل مثل الورود والتغليل والتين والرمان والملح والخوخ واللوز تنشروها في بلاد البحر المتوسط كلها^٦. وقد تكون السفن نفسها هي التي ادخلت من اليونان الى سوريا نبات

.Phoenix ورد اسم فينيكس في الالغازة ١٤ : ٣٢١ .

Diodorus, Bk V. ch.12. §§ 2-4 (v)

٣) من فعل مالـَطْ يمْعِنْ هرب.

٤) انظر: Strabo Bk VII, ch. 7. § 1; IX. 2. 3. ويبدو أن اسم قدموس مشتق من قادم معناها الآتي، أي، من الشق، أو الشقق.

^{٥٧}) انظر ما سندكره عن قاموس ايضاً في جن ١١٧ .

^٦Albert G. Keller, *Homeric Society* (New York, 1902), pp. 20, 43-44 ، والمر
كلمة سامة قدّمة استعانتها الموئنة .

الغار والدفل والسوسن والنعنع والترجس وقد بقيت الآسماء اليونانية لبعضها في اللغات السامية . وتجارة التوابل كانت يكملها ييد الفينيقيين الذين حرصاً على الاحتفاظ لأنفسهم بالطرق التجارية كانوا ينشرون الأخبار عن اخطار بلاد التوابل وطرقها . وكان يعتقد لمدة طويلة في العصر الكلاسيكي القديم أن سوريا تنتهي البلس والمر . ولم يصبح الاصل العربي للمر مؤكداً الا في زمن فتوحات الاسكندر وكانت تجارة في ايدي السبئيين قبل الفينيقيين . وكان الغار بشكل تيجان يكلل الشعرا و قد تحولت المورية دفنة Daphne مرة الى شجرة غار عندما احقدا عشيقها ابولون وذلك في مكان قرب انطاكية لا يزال يحتفظ باسمها^١ . وقد جذب بلسم اريحا الملكة كليوبطرا واستأجرت جناح في ذلك المكان .

قرطاجة

كانت قرطاجة اكثـر المستعمرات نجاحاً لا يقاس في افريقيا وان تكون احدـها عهـداً . وفي القرن الثامن كانت في ذروة منافستها للوطن الام الذي كان قد اخذ بالانحطاط . وقد عجل في هذا الانحطاط موجـة الاستعمار اليوناني في او اخر القرن الثامن او اواخر السابع والفتح الاشوري للمدن الفينيقية الذي حصل في الوقت نفسه . ويـتـدلـ على مـدىـ التـعـارـةـ القرـطـاجـيـةـ وـاسـالـيـبـ المـقـاـيـضـةـ الفـرـيـقـيـةـ التي ولـدتـهاـ منـ قـصـةـ رـوـاهـاـ هـيرـودـوـتسـ^٢ حيث يقول ان الملـاحـينـ القرـطـاجـيـنـ على سـاحـلـ اـفـرـيـقـياـ الفـريـقـيـيـنـ كانواـ يـنـزـلـونـ بـصـائـعـهـمـ الىـ الشـاطـئـ وـيـقـدوـنـ النـارـ كـاشـارـةـ لـالـسـكـانـ ثمـ يـنـسـجـيـونـ الىـ سـفـنـهـمـ . وـكـانـ السـكـانـ الـخـلـيـونـ الـبـدـائـيـونـ يـأـتـونـ حينـ يـنـتـظـرـونـ الدـخـانـ وـيـضـعـونـ ماـ يـقـابـلـ تلكـ البـضـائـعـ منـ الذـهـبـ وـيـنـسـجـيـونـ . وـيـعودـ القرـطـاجـيـوـنـ فيـنـزـلـونـ فيـ البرـ فـاـذاـ رـأـواـ انـ الذـهـبـ يـعـادـلـ ثـنـ الـبـضـائـعـ يـأـخـذـونـهـ وـيـنـصـرـفـونـ وـالـآـخـرـ فـأـنـهـمـ يـنـتـظـرـونـ منـ جـدـيدـ فيـ سـفـنـهـمـ لـكـيـ يـقـومـ السـكـانـ بـعـاـوـلـةـ جـدـيدـةـ فيـ هـذـهـ المسـاوـيـةـ الـخـرـسـاءـ . وـيـقـولـ الـرـاوـيـ انهـ «ـلـمـ يـعـدـ ايـ منـ الـفـرـيـقـيـنـ الـأـنـ يـفـشـ الآـخـرـ»ـ .

١) انظر ما يتعلق بذلك في الفصل الثامن عشر .

Herodotus Bk IV. ch. 196 (٢)

وقد بلغ من سيادة قرطاجة التجارية والسياسية ان امبراطوريتها القوية امتدت في القرن السادس من حدود Libya الى اعدة هيركوليس وضمت جزر الباليدار ومالطة وسردينيا وبعض مواقع على ساحل اسبانيا والقال . ولم تتع الفرصة لصيدا وصور تحت الفوضى المصري والاشوري ان تكون امبراطورية ولكن قرطاجة فعلت ذلك وادى هذا الى تزاعها مع روما الاختنة بالظهور التي نازعتها سيادة البحر وبلغ من تسلط الاسطول القرطاجي على هذا البحر انه قيل للروماني انه لا يمكنهم غسل ايديهم في مياه بدون اذن قرطاجة . ويقال ان سفينة قرطاجية جائحة ذات خمسة صنوف من المجاذيف استخدمت كنموج قلده بناؤ السفن الرومان وصنعوا منها وثلاثين سفينة منه في مدة ستين يوماً .

وفي عام ٢١٨ ق . م . قام هانيبال^١ الذي كان قد اقسم وهو لا يزال يافعاً بان يكون عدو روما الدائم بمشروعه الذي كرس له حياته وخلف ضد ايطاليا من اسبانيا بطريق جبال الالب . وبعد قتال ناجح دام خمسة عشر عاماً في الارض الايطالية هوجمت روما اثناء استدعى هانيبال الى افريقيا وهناك كسر في معركة زاما (٢٠٢) الخامسة في جنوب غربي قرطاجة . وفي ١٩٦ هرب الى صور ومن هناك اتصل بانطليوس ملك سوريا واشترك معه في الحرب ضد اعداء قرطاجة الالداء^٢ . غير انه كسر نهائياً ولما لم يعد له امل بالمرور انتحر في آسية الصغرى في ١٨٣ وهو يقول : «ان هنا سيفر على الرومان قلتهم في انتظار موت رجل من مكرور» .

اما قرطاجة فان ما اثارته من حسد بسبب انتعاشها ودوان ازدهارها قد فرض على عقل كل من الصيق وعلى غيره من اصحاب الفوضى من الرومان قرارهم بان قرطاجة يجب ان تهدم . وقد تركت المدينة طعنة للتيران لمدة سبعة عشر يوماً في سنة ١٤٦ حتى اختفت موقعاً كومة من الرماد . ثم اعملوا المحراث فيها ولعنوا ارضها الى الابد . ان هذا العيل وان حكمتنا عليه بمقاييس تلك الايام لعمل اخرق وانه لا يزيد الرومان شرفاً .

١) من القينيقية حانى بعل اي نعمة بعل .

٢) انظر ما سألي عن انطليوس في النصل ١٧ .

الفصل العاشر

الأدوات والذين وسّعوا مطامع الحياة

ان السفن كالقوافل تحمل فوق ما تحمل من شحنات البضائع اموراً غير ملموسة تساويها في اهميتها انت لم تفقها بالنسبة للتقدم البشري . وهذه الامور غير المادية هي المؤثرات الحضارية المتنوعة التي اتى بها التجار والمستعمرون الفينيقيون وتشروها بين الشعوب التي احتكوا بها وخاصة اليونان الذين اصيروا تلامذتهم في شؤون الملاحة والاستعمار واخذوا عنهم اشياء مختلفة في ميادين الادب والدين والفن الزخرفي . وقد اصبح البحر المتوسط بفضل النشاط الفينيقي قاعدة الدوافع الحضارية المتعددة الاشكال التي انت ليس من فينيقية فحسب بل من بلاد بابل ومصر ايضاً . وكان الفينيقيون يلعبون دور الوسطاء من الناحيتين التفكيرية والروحية كما كانوا من الناحية التجارية .

الابجدية

واول نعمة اعطيت للبشرية في درجة اهميتها كانت الابجدية التي نقلها اليونان غالباً بين ٨٥٠ و ٧٥٠ ق.م . والحقيقة ان اختراع النظام الابجدي ونشره يعتبر من جهة البعض اعظم منحة انعمت بها الحضارة السورية على البشرية . والباحثان الاخريان هما ديانة التوحيد واكتشاف المحيط الاطلنطي .

وقد حافظ اليونان على الاسماء السامية المعروفة وعلى شكلها العام وترتيبها . وكانت تكتب المزوف في اقدم الكتابات الارثية اليونانية من اليمن الى الشمال كما في الكتابة الفينيقية . واعترف اليونان بما نقلوه في قصة قدموس الذي ينسب اليه ادخال ستة عشر حرفاً . و اذا جردننا قصة قدموس من زخارفها الشعرية المتعددة

Herodotus Bk. V. ch. 58; Pliny Bk. VIII. ch. 57 (56); Diodorus; Bk. III. ch. 67. § 1; Bk. V. ch. 57. § 5.

فانها تشير الى ان المهاجرين من سوريا ادخلوا الى بلاد اليونان الاجنبية وفن التعدين وعبادة ديونيسيوس الله المخدر^١. ونقل اليونان في القرن السادس الاجنبية ادخلوا عليها بعض التحسينات الى الرومان ومنها تولدت معظم الاجنبيات الاوربية . ومن جهة اخرى فان الآراميين الذين استعاروا ايضاً ابجديتهم من الفينيقيين نقلوها الى العرب والهنود والارمن وسائر الشعوب الشرقية التي تكتب بالاجنبية^٢. وكان من صفات الاجنبية الفينيقية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً بساطتها مما جعل فن الكتابة القراءة في متناول الانسان العادي . وقد تكون كتابة عرب الجنوب مشتقة مباشرة من الكتابة السينائية التي كان لها على الفينيقيين فضل تحقيق المرحلة الابتدائية .

ويبدو ان الفينيقيين الذين كانوا اول من استعمل نظاماً ابجدياً راقياً في الكتابة ونشروه في العالم قد اخذوا اساس اسلوبهم من مصادر مصرية هيروغليفية بطريق سيناء ، والرموز الهيروغليفية كانت في الاصل صوراً للأشياء التي ارادت اللالة عنها ولكنها انشأت من وجهة صوتية اربعين اشارة كانت حروفاً ساكنة . غير ان المصريين المخاطبين لم يذهبوا الى حد استخدام هذه العلامات الساكنة لوحدها . ولذلك فان العلامات ظلت بدون اهمية حتى حوالي نهاية القرن السابع عشر حين اتفق لاصد الاسرى الكهنة او لاصد العمال في مناجم التیروز في سيناء كا يظن ان يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من اتقان ما فيها من تعقيد وان يستعمل العلامات الساكنة . وكان المكان الذي ربما حصل فيه ذلك هو سراييط الخادم . وقد اعطيت للعلامات الساكنة اسماء سامية وقيم سامية . فقد اخذ الساميون مثلأ علامه رأس الثور وبدون ان يهتموا بماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية سموا العلامه «الف» باسمها السامي . ثم طبقوا المبدأ الذي بوجبه يعطى الحرف الصوت الاول في اسم الشيء الذي يمثله وفي هذه الحالة استعملوا علامه الالف لاجل صوت آ . وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على «بيت» فسموها «بيت» واستعملوها لاجل صوت ب . وعلامة اليد سموها «بود» واستعملوها لصوت ي ، وعلامة الماء سموها «مير» واستعملوها لاجل صوت م ، وعلامة الرأس سموها «وريش» واستعملوها

Herodotus Bk. II. ch. 49)١

٢) انظر ما سيأتي بشأن الكتابة الآرامية في الفصل ١٢ .

لصوت ر^١. وعلى ذلك فان العامل في سيناء استخدم فقط الفكرة الابجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية وشكل لنفسه مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن ان تنهجى بها الكلمات.

السينائية	الشكل الذي تمله	العربى المبسوطة	العربى	السينانية	رأس الشورة	اليونانية القديمة	اللاتинية	العربى
ـ	رأس ثور	ـ	ـ	ـ	ـ	A	A	ـ
□ □ □	يت	ـ	ـ	ـ	ـ	B	B	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	C G	CG	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	D	D	ـ
ـ	رجل يصلي	ـ	ـ	ـ	ـ	E	E	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	F V	FV	ـ
ـ	عنة	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ	مزدوجة	ـ	ـ	ـ	ـ	H ..	H ..	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	I ..	I ..	ـ
ـ	يد	ـ	ـ	ـ	ـ	K ..	K ..	ـ
ـ	منخاس	ـ	ـ	ـ	ـ	L ..	L ..	ـ
ـ	ماه	ـ	ـ	ـ	ـ	M ..	M ..	ـ
ـ	افع	ـ	ـ	ـ	ـ	N ..	N ..	ـ
ـ	مسكدة	ـ	ـ	ـ	ـ	X ..	X ..	ـ
ـ	عين	ـ	ـ	ـ	ـ	O ..	O ..	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	P ..	P ..	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ		ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ	رأس انسان	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ	قوس	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ	صلب	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ

جدول يحتوى ابجديات مختلفة من جملتها ابجدية رأس الشورة المساربة

١) قارن ذلك مع الجدول الموجود في : *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 110 (1948), p. 14; David Diringer, *The Alphabet* (New York, 1948), p. 200.

الكتابات الائية الفينيقية

والفينيقيون الذين كانت لهم علاقات تجارية مع سيناء اقتبسوا على الفالب هذه الاشارات واضافوا اليها وجعلوا منها نظاماً ايجيدياً تماماً مولقاً من اثنين وعشرين علامة بدون حروف صوتية بسبب تأثير المiro-وغليفية المصرية. وهكذا حصل ما سموه بحق اعظم اختراع اق به الانسان.

وقد اكتشفت كتابات ائية كنعانية قصيرة بالاجمدة الخطية في لاكيش وبيت شمش وترجع الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر^١. وكتابة لاكيش وجدت على صحن . واقدم نص مفهوم تماماً بالاجمدة الكنعانية وجده الائري الانفرنسي دونان Dunand في بيلوس وهو مؤلف من خمسة اسطر ويدرك بناء جدار من قبل شفط بعل ابن ايلي بعل ابن يحيم ملك – والثلاثة كانوا ملوكاً على بيلوس^٢. والحرروف في جميع هذه الكتابات من غواچ اقدم من تلك التي وجدت في كتابة اسحراام الطويلة المكتشفة في ١٩٢٣ من قبل الائري الفرنسي موتنيه Montet في بيلوس وترجع غالباً الى نحو ١٠٠٠ ق.م. واطول كتابة اكتشفت حتى الآن وطولاً واحد وتسعون سطراً اتنا من قره تبه Kara-Tepe شمال شرق ادنة وقد كتبها ملك فينيقي من القرن التاسع^٣.

ونظام الكتابة الاجمدة الخطية معروفةا الائين والعشرين والمكتوبة من اليمين الى اليسار^٤ كانت غالباً من عمل الفينيقيين في بيلوس . وقد اخترع فينيقيون آخرون منهم الذين عاشوا في اوغاريت نظاماً ايجيدياً آخر على اساس مختلف . فقد كتبوا الاجمدة بقلم على الواح الطين ولذلك اخذت شكل علامات مسارية او

١) لاكيش هي اليوم تل الوير في جنوب فلسطين ، وبيت شمش هي تل الرمية قرب عين شمس غرب القدس .

٢) راجع : W. F. Albright, « Near Eastern Archaeology », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, N. 95 (1944), pp. 37-8.

٣) راجع : Julian Obermann, *New Discoveries at Karatepe* (New Haven, 1949)

٤) ان الكتابة من اليمين الى اليسار بدأت كما يظن كتابات منحوطة وقد وضعت بهذا الشكل لتلبيس الذي ينقش على الحجر . وأما الكتابات من اليسار الى اليمين فأنها قتلت بهذه الكتابة بالقلم والخط .

السينية^١. والواح راس الشمرة التي اكتشفت عام ١٩٢٩ كتب بهذه الكتابة غير المروفة حتى ذلك الوقت. ويوجع معظمها الى اوائل القرن الرابع عشر وبعضها اقدم من ذلك. ووُجدت كتابة بهذا الخط ايضاً في بيت شمش. وهنالك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الكتابة كانت شائعة في القرنين السادس عشر والخامس عشر.

၁၇၈၂၊ ၁၇၉၀ ခုနှစ်တွင် မြန်မာနိုင်ငံ၏ အကျဉ်းချုပ်မှု အမြတ်ဆင့် ဖြစ်ပါသည်။

كتابه احتمال الاشارة في بيلوس حوالي ١٠٠٠ ق.م.

وهذا ما جاء في الكتابة «التابوت الذي صنعه ايتوبيل ابن احيرام ملك بيلاوس لایه كشكه الابدي». وإذا هاجم بيلاوس ملك او حاكم او قائد وعرّض هذا التابوت فليكسر صولجان حكمه وليسقط عرشه الملكي ولنهر السلام بيلاوس؛ واما هو قلبيع انسان متوفى (؟) كتابته»!
 (عن مجلة الجمعية الشرقية الاميركية م ٥٧ ١٩٤٧) ص ١٠٥)

وبالاضافة الى هذين التوقيعين من الكتابة الذين اخترعهما الكهنة اليون فانهم استخدموها انواعاً اخرى من الكتابة اكثر تعقيداً وعملوا منها كتابة واحدة وهي مجموعة الاشارات التي وضعوها نحو نهاية الالف الثالث وفقاً للكتابة المصرية الى حد ما وتضم نحو مائة رمز . ان هذه الكتابة المبسوطة المزعومة بقىت منها كتابات كلها على الحجر او التحاس واكتشفها دونان في بيبلوس عام ١٩٣٠ وفيها يظهر اقدم اثر لغة الفينيقية . وقد حللت محلها فيما بعد في المراسلات الرسمية الكتابة المساردية الاكادية وهي المساردية التي كتب بها مراسلات تل العمارنة . وتنظر الاخطاء التي عملها الكتاب الكهنة اليون في هذه التحاير على عدم معرفتهم التامة للغة

جohannes Friedrich, « Ras Schamra », *Der alte Orient*, vol. xxxiii : اظلر (1933), Nos. 1-2 pp. 18-34 ; Harris, *Grammar*, pp. 11-17.

الاكاديمية التي تعلموها غالباً في المدرسة . والاسلوب الذي كتبوا فيه لا يترك مجالاً للشك بانهم كانوا يتربجون افكارهم من الكنوعانية . واكتشفت بقايا مدرسة للكتبة من هذا النوع حيث امكن للطلاب ان يتلعلموا اللغة الدولية لذلك العصر وهي الاكاديمية بمساعدة المعاجم او قوام المفردات والهارين – وكانت ملحقة ببعض اوغاريت .

وفيا سوى الواح العمارنة فقد اكتشف الاذري البريطاني وولي Woolley في ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ثلاثة لوحات مسارية (بالاکاديمية) في تل العطشانة (الأنج Alalakh القديمة) . على العاصي الاسفل وتتراوح بين ١٩٠٠ و ١٢٠٠ ق. م. وبعضها تحوي نصوصاً تتصل بالتنبیح وعلم الفیب .

ومثل هذه الكثرة في الكتابات بين اواخر الالف الثالث واواخر الالف الثاني لا تترك مجالاً للشك بان العصر كان عصر تنوع وتلقيع حضاريين تمازجت فيه بمحرية الاکثار العلمية والدينية من بلاد الرافدين ومصر وسوریة وجري التبادل فيما بينها . غير ان هذه الكتابات لم يبق منها الا القليل . فالمدونات الفینيقية كان معظمها على مواد قابلة للتلف وهي اوراق البردي وتعلق بالعمليات التجارية . وكان ورق البردي في هذه الفترة يأتي من مصر واستوردت كميات منه نحو ١١٠٠ ق. م. والقسم الاعظم من النصوص متأخر يتجاوز تاريخه بين القرنين الخامس والثاني ق. م. وليس ما يدل على وجود كتابات اثرية فینيقية في فینيقية بعد الميلاد . غير ان اللغة الفینيقية في شكلها الغربي المعروف باللوني ظلت تستعمل حتى العصر الاسلامي . والكتابات المكتوبة باللغتين اليونانية والفينيقية والمكتشفة في مالطة وقبرص هي التي سمحت للعلماء الفرنسيين وغيرهم في بذلك الجهد منذ اواسط القرن الثامن عشر لتفصیر اللغة الفینيقية وبلغت هذه الجهد ذروتها في تشریف وترجمة النصوص الباقية من قبل المستشرق الالماني كيزينیوس Gesenius في ١٨٣٧ .

وحصلت حركة بعث ادبی فینيقی بلقت ذروتها في القرن السادس وانتجه شخصية سانخونیاثن Sanchuniathon الیروقى الشامضة . وكانت الناحية التي ساهم فيها مجموعة اشعار خرافية عن شعبه ترجمها الى اليونانية كما يظن مواطنه فيلوف

الجibilي في اوائل القرن الثاني م^١. والمرويات اليونانية تنسب الى طاليس Thales من ميلتوس (المتوفى حول ٥٤٦) رئيس «الحكمة السبعة » في بلاد اليونان انه تعلم في فينيقية ما يمكن تعلمه من بلاد بابل ومصر .

ولحسن الحظ ان الكثير من خير ما تركه التراث الادبي الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة . وينطبق هذا خاصة على القطع الفنائية والحكم التي استعارها سفر الامثال والمزامير وتشيد الانشاد وعلى الاخبار الخرافية التي دخلت في سفر التكوير وفي قصص الانبياء . ولم يكن هذا الامر معروفاً الى ان اكتشفت مدينة اوغاريت وكانت في عالم النسيان .

اوغاريت

في ١٩٢٩ بدأتبعثة افرنجية اعمال التنقيب في راس الشمرة بنتيجة ما اكتشفه احد القلاхين بطريق الصدفة ، وانضج ان المرتفع يضم عددة مدنه يعلو بعضها بعضاً ويرجع اقدمها الى الالف الخامس . وكان اسم المدينة في عصر ازدهارها في ١٤٠٠ ق.م. اوغاريت^٢. وتقع على مسافة ميل واحد الى الداخل بالنسبة لميناها المسماة «المينا البيضاء» الذي يقابل جزيرة قبرص . وكان يقوم ازدهار المدينة على حركة التجارة التي كانت تمر فيها وفي مينائها . وكان ملكها يسمى نقهاد (نقاهدا ومعناه نقمة حدد) الذي كانت قواعد اعمدة قصره الملكي مطلية بالفضة . وكان يدافع عن القصر برج مربع ضخم عرضه اربعة عشر متراً وجدران كثيفة .

واثنن المكتشفات المتنوعة التي وجدت في هذا الموقع الالواح الفخارية وعليها كتابة الجيدة من النوع السهاري في منطقة المعبد . ومع أنها كتبت في القرن الرابع عشر فان نصوصها الاصلية ترجع الى ابعد من ذلك بكثير . والكتابات تضم ثلاثين حرفاً واما اللغة فانها لمحة كنعانية . والمواد المكتوبة معظمها دينية وتتصل ببطقوس

١) حفظ لنا المؤرخ يوسيبيوس قسماً كبيراً من ترجمة فيلون ولكن العلماء المعاصرین يعتبرون هذه الترجمة تزويراً من فيلون . وقد ترجم الى الالمانية ما يظن انه ترجمة فيلون بکاملها تحت عنوان : Sanchuniathon's phonizische Geschichte (Lübeck, 1837) واسم ساخونيات من الفينيقية وممناه « الاله Sakkon قد اعطي » .

٢) واسم اوغاريت ممناه حقل والاغلب انه كلمة مستعارة من السومرية .

العبادة. وهذا الاكتشاف يعيد لنا جانبياً هاماً من الادب الكنعاني الذي فقد لمدة طويلة. وتدور احدى القصائد المأمة حول الزراع السنوي بين الله النبات علیات بعل وخصمه موت. وينتصر موت على بعل في اول الامر وهذا طبيعي في بلاد يضع فيها جفاف الصيف حداً لحياة النبات، ولكن عندما تتجدد الامطار في الخريف فان بعل يعود فینتصر على موت. ومن المختل ان هذه القصيدة كانت تتمثل كمسرحية على الساحل السوري قبل ان يفكرون اليونان بالمسرحية بعدة قرون، واذا صح هذا فيكون السوريون قد سبقو اليونان الذين يعتبرون عادة منشئي التمثيل المسرحي.

وهنالك مقارنات ومشابهات من حيث اللغة والافكار بين ادب اوغاريت وسفر ايوب. وتوجد موازنات في شعر اوغاريت كما في الشعر العربي. وما يستلفت النظر التشابه في المفردات والافكار والأوزان الشعرية والتركيب الادبي بين الادب الاوغارطي والمزامير العبرانية^١. ونجده في الاوغاريتية ان بعل يوصف «براكب القيوم» وكذلك يصفون الله في المعتبرية (المزمور ٦٨:٤). وفي احد نصوص اوغاريت نجد ان الرعد هو صوت بعل، وفي سفر ايوب ٣٧:٥-٥ والمزمور ٣:٢٩-٥ نجد انه صوت يهوه. وهذا المزمور بكلمه من اصل كنعاني ظاهر. وفي كل الادبين تسمى لويانان Leviathan «الحياة المتحوية» (سفر اشعيا ٢٧:١)^٢. وبعل يقتل لويانان وكذلك يفعل يهوه. وهذا الحيوان البحري الخفيف ذو سبعة رؤوس ويظهر بعد قرون في حيوان خرافي متصل به كولييس. ودان وبال (ومعناه ايل قد حكم) البطل الاوغارطي الذي يقابل دانبال في قصة سوزانا «يجكم في قضية الارملة ويقضى في مسائل الایتمان»^٣ كما يفعل الله في المزمور ٦٨:٥ وكما يفعل الصالحون في سفر اشعيا ١:١٧.

ان هذا المركز الدولي القديم - اوغاريت - الذي تظهر في فنه الزخارف

(١) راجع : John H. Patton, *Canaanite Parallels in the Book of Psalms* (Baltimore, 1944).

(٢) انظر : Cyrus H. Gordon, *The Loves and Wars of Baal and Anat* (Princeton, 1943), p. xii.

(٣) Gordon, p. 35; Charles Virolleaud, *La Légende phénicienne de Danel* (Paris, 1936), p. 203

المصرية والحنية واستخدمت في منازله اواني الخزف الامورية ثم القبرصية والميكانية وفي اسواقه بيعت السيف الحورية وسيوف المكوسس قد هدمته الزلازل والنيران في عام ١٣٦٥ ثم اتته شعوب البحر وخربته نحو عام ١٣٠٠ وهكذا زالت هذه المدينة من التاريخ .

ديانة الخصب

كانت مراجينا الادبية عن الديانة الكنعانية زهيدة قبل اكتشاف اوغاريت . وكانت تضم كتاباً في اليونانية بعضهم سوريون مثل فيلون الجيلي ولوسيانوس السيساطي ولكنهم كانوا متأخرين وغامضين نوعاً . وكان لدينا مواد العهد القديم في التوراة ولكن تتصف بروح العداء التي كتب بها المؤلفون العبرانيون ، كما كان لدينا آباء الكنيسة المسيحية الاوائل ولكن معلوماتهم لم تكن اولية . والامر الاساسي في الديانة الكنعانية كما تظهره لنا هذه المصادر والمكتشفات الاثرية الحديثة هو عبادة قوى النمو والتولد التي يعتمد عليها كيان مجتمع زراعي يتم بتربية الماشية في ارض امطارها قليلة وغير موثكدة . ويصدق هذا الى حد كبير على جميع الديانات السامية القديمة . ويبدو ان الكنعانيين استعاروا من عبادات جيرانهم وطقوسهم في بابل ومصر كما استعاروا في سائر الميادين الثقافية واعاروا لهم ايضاً فكانت العملية متباينة .

والصفات البارزة في ديانة الخصب السامية هذه هي الحزن على موت الله النبات واجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه (الله الموت والعالم الاسفل) حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لانتاج موسم العام الجديد ، والفرح عند عودة الله الى الحياة . وان زواج الله او بعل بعد بعثه بالاهة الخصب عشتار تنتفع عنه تلك الحضرة التي تكسو الارض في الربيع . وهذا الزواج المقدس الذي يتخذ صفة روحية رفيعة يصبح فيها بعد انفاساً بين بيته وشعبه . وفكرة الله الذي يموت ثم يبعث تصبح جزءاً هاماً من الاعراف المسيحية .

ويتصل بفكرة جفاف النبات الدوري بسبب حرارة الصيف وعودته الى الحياة في الربيع عنصر القوة المتجلدة للشمس المتصررة عندما تظهر بعد اخذهاما الظاهر

في الشتاء . وقد كانت اسطورة توز^١ القديمة تتضمن ذلك . وسي الكثعانيون هذا الاله ادون بمعنى سيد ثم اقبسه اليونان وجعلوا منه ادونيس . وجعل فيما بعد معادلاً للله المصري او زيريس . واصبح ادونيس اشهر الآلهة السورية واقيمت عبادته في اليونان في القرن الخامس . وجعل الفينيقيون حادته مع عشتار او سيدة بيبلوس^٢ عند منبع النهر الذي يسمى اليوم نهر ابراهيم في لبنان^٣ . ففي هذا المكان جُرِح توز بينما كان يصطاد الحذير البري وحملوه وهو يشرف على الموت الى حبيته المتألمة . ومنذ ذلك العهد والنهر يصطبغ باللون الاحمر في احد الفصول وهو لوت . دمه كما يعتقدون (وقد شوه علماء الآثار الحديثون هذه القصة عندما اشاروا الى التربة الحمراء التي تعرفها س يول الرابع^٤) . وبينما كان توز في العالم الاسفل ذيل النبات على الارض وظل ميتاً الى ان دخلت عشتار العالم الاسفل واستعادته . ونشأت الطقوس التي تحفل بذلك موته في بيبلوس على خمسة اميال شمالي مصب النهر وتضمنت هذه الطقوس بحث النساء عنه . وكان العيد السنوي يدوم سبعة ايام . وكان الفرج يتم الجميع عند بعثة حتى ان الواتي يبعدنه من النساء كن يضعين بشرفهن بينما الرجال يضخون برجولتهم ويخدمون في المعبد كعصيان . وقد تعدل هذا البغاء وتحول فيها بعد الى قص الشعر الرمزي بالنسبة للنساء . واما اختنان الذي كان عادة سامية قديمة فانه بدأ كما يبدو كتقديمة للاهة الحصب وكان ايضاً بثابة علامة قبلية فارقة . وقد ترك السوريون هذه العادة بعد نشوء المسيحية حين اعتنقوا الديانة الجديدة .

١) وهو في البابلية دوموزي *dumu-zi* ، الان الأمين ، ومن اصل سومري . وقد بقى اسم توز في تسمية الشهر الرابع السنة السامية والشهر السابع في التقويم العربي الحديث لأن الشهر كان مكرساً لعبادته .

٢) زار هذا الميد لوبيكتوس حوالي ١٤٨ م ووصف طقوسه في كتابه : *De Dea Syria*, § 6

٣) يحي نهر ابراهيم باسم امير ماروني قديم . والنبع الان يسمى نبع افنا حيث لا تزال مراسم الاحتراز تقام لسمينة المكان العذراء مررم باناءه الصالحة في خلوة صغيرة تحت شجرة تين مشوهة ، ويعلق مكان النطافه من مسيعين وشيعة قطعاً من ثيابهم على اغصان الشجرة كتنور لإعادة المائية الى المرمى .

٤) وهناك رواية اخرى للاسطورة تقول ان ادونيس الذي كان تقبه الفينيقي نهان تحول الى شقائق النهان وهي الزهرة التي تلقطت بدم ادونيس . وكلمة *anemone* الانكليزية اتت من نهان بطريق اليونانية ، بينما كلمة نهان العربية اتت بطريق السريانية .

وتتابع الحياة والموت لم يقتصر على النبات وإنما شمل الإنسان ونتج عنه التأكيد على الناحية الجنسية من الحياة. وقد تجلى ذلك في البلاء المقدس الذي كانوا يمارسونه بمناسبة طقوس عشتار ليس في بيبلوس وحدها بل ايضاً في بابل وقبرص واليونان وقليلية وقرطاجة وغيرها من الاماكن^١. وبعض مظاهر هذه الطقوس استعارها العبرانيون كما يظهر وكان لديهم ما يسمى «عومسات المعبد» . والاباحية الجنسية كانت مظهراً بارزاً في الاحتفالات الزراعية عند كثير من الشعوب القديمة في العالمين القديم والجديد. وربما كانت عادة تقبيل الذين يحضرؤن حفلة العرس للعروس من بناتها. وقص الشعر لا يزال من الواجبات المتبعة عند الراهبات المسيحيات حين يكرسن أنفسهن للعرس الالهي .

الألمة

ان ديانة كنعان القديمة وبقية العالم السامي باعتبار أنها بالدرجة الأولى تقوم على عبادة الطبيعة كانت تضم آلهتين رئيسيتين تعرفان باسماء مختلفة ولكنها في جوهرها: أبو الآب والأرض الأم . وفي اوغاريت كان الله أبو يعرف باسم ايل بينما الآلة الأم كانت تسمى عشرة . وكان ايل الآلة الاعلى للعالم الكثافي العبراني^٢ . وبعدة يأتي علیان^٣ الذي أصبح كبعض له مكان معن واعتبر حاسماً لاحدى المدن . وكانت الامطار والفــلال تحت مراقبته . والاعياد كانت تقام لارضاه والتقدمات تعطى لا بستعطافه . والذبيحة او التقدمة كانت بمحورها احتفالاً يشترك فيه العابد والمعبود او حفلة استراك . ولعدم وجود آية صورة محفورة كانوا يرمزون الى الآلة بعمود او حجرة . والآلة ملئخ Moloch (او Molech^٤) الذي تقدم له الاولاد كضحايا كان

١) راجع : Herodotus Bk. I. ch. 199; Strabo, Bk. XVI. ch. 1. § 20 ; VI. 2. 6 ; Baruch 6 : 43; Lucian, §§ 22, 43.

٢) سفر حزقيال ٨ : ١٤ ؛ ميخا ١ : ٧ ؛ التثنية ٢٣ : ١٨ .

٣) كان حدد Hadad إله العاصفة والخصب ام الالمة واكثرها جاذبية بين الالمة السورية . انظر ما سيرد في الفصل ١٢ .

٤) وهذه الكلة لا علاقة لها بالكلمة العبرية «عليون» اي الاعلى في سفر التكوان ١٤ : ١٨ .

٥) سفر اللاويين ١٨ : ٢١ ؛ سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٠ .

يعتبر أنه نفس ملقارت أي سيد المدينة – مدينة صور. وحوادث دفن الأولاد الصغار في الجرار كما اكتشفت في المعابد تثبت مرويات التوراة عن عادة تضحية الأولاد.

كانت رفيقة ايل تسمى عاشرة Athirat (عاشرة Asherah) في اوغاريت. وكانت توجد الاهة اخرى اسمها عشتارت Ashtart (عشتارت Ashtar) في اوغاريت وتل العازنة وهي عشتار عند الاشوريين البابليين. وقد كانت عشتارت الالهة الام. وسماتها العبرانيون عشتوريت Ashtoreth (وجمعها عشتارات Ashtaroth^١) واليونان آستارت Astarte . واقتبسها اليونان وادمجت بافروديث فاصبحت أشهر الالهات الحصب . وصارت باعتبارها بعلة (او سيدة) متصلة بمكان معين واصبحت حامية لمدينة . ومن هذه الحامييات بعلة جبيل . وكان اسم عشتار هو الذي تسمى به الالهات المحلية المقرونة بالعلم في الاماكن المرتفعة الكتناعية التي كان لها تأثيرها وجازبيتها الخاصة بالنسبة لعقل العبرانيين كا يظهر حتى ان الانبياء اضطروا لمحاجتها مراراً^٢. وقد كرس ايلول وهو الشهر السادس الذي يقع في نهاية الصيف للالهة عشتار لانه في هذا الشهر وبفضل قوتها كانت تتضح الحياة النباتية التي يمثلها الاله توز . وبالاضافة الى لقب «بعلة» فقد كانت عشتار تلقب «ملكة» ايضاً وهذا يذكرنا «ملكة السماء»^٣ . وهنالك كتابة اثرية عصرية اكتشفت في بيت شان من القرن الثالث عشر تسمى عنات «سيدة السماء»^٤ . وتظهر عنات في لوح من اوغاريت كشقيقة عليان بعل وتعطي لقب العذراء . وقد بقي اسمها في بيت

١) انظر سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ، ٣٣ : الملك الثاني ٣٣ : ١٣ . ويرد هذا الاسم في العربية الجنوبيّة بشكل عشتار من فعل «روى وافتقد» ويطلق على إله مذكور . وهذا الاسم الالمي علم عند جميع الشعوب السامية .

٢) سفر القضاة ٢ : ١٣ : إرميا ٣٢ : ٣٥ : الملك الثاني ٢٣ : ١٣ : صموئيل الاول ٧ : ٤-٣ .

٣) سفر إرميا ٧ : ١٨ : ٤٤ : ٤٤-١٧ : ٢٥ ، ١٩-١٧ .

٤) Burrows p. 230

عنات^١ وبيت عنوت^٢ وعناتوت^٣. وكانت الالاهة عنات - عشتار تهب الحياة وتبيدها. ومن اوصافها البارزة ايضاً الحب والحرب. وكان رشف^٤ (اللهيب) في نفس الوقت الله الموت والخصب.

المياكل

كانت الفكرة الاساسية في بناء الميكل تزويد الآلهة بسكن لها. فهنا كانت الآلهة يسكنن كاييسكن اي كان بشري في بيته الخاص. وبواسطة الميكل كان يتاح مجال للاتصال بين الآله والبشر بحيث يتمكن الكائن البشري من تأسيس علاقات شخصية مع الكائن الالهي. واقدم المياكل الكنعانية المكتشفة ترجع الى مطلع الالف الثالث وكانت في اريحا ومجدو. وكان هذا التمودج القديم يتكون من غرفة واحدة لها باب على الجانب الطويل من البناء. ويصبح البناء متکاملاً أكثر بعد منتصف الألف الثاني. وام صفات مثل هذا الميكل^٥ كما ظهرت في جزر وبيت شان^٦ اوغاريت وغيرها من الاماكن كانت المذبح الصخري والنصب المقدس والعمود المقدس والغرف تحت الارض. وكان المذبح الذي تقدم عليه الذبيحة اهم هؤلاء بدون شك. والنصب او الحجر المقدس^٧ كان يمثل الله المذكور ربما كانت

١) سفر يشوع ١٩ : ٣٥ وهي اليوم البقعة شرق عكا. ٢) يشوع ١٥ : ٥٩ وتسمى اليو بيت عينون شالي الخليل. ٣) اخبار الایم الاول ٦ : ٦٠ وهي اليوم عتلانا شمال شرق القدس.

٤) ويرد هذا الاسم كلام علم في اخبار الایم الاول ٧ : ٢٥ .

٥) الكلمة المستعملة لذلك هي *hekalla* (هيكل اي بيت او قصر) وهي مستعارة من السومرية ويفيت في الكلمة «هيكل» العربية .

٦) لقب في يسان C. S. Fisher . انظر : Rowe : *The Topography and History of Beth-shan* (Philadelphia, 1930); do. *The Four Canaanite Temples of Beth-shan*, pt. I (Philadelphia, 1940).

٧) معصبة *mazzebah* وجهاً مصبوط (من تصَّبَ) وتترجم بكلمة «مقْتَل» او عمود في هوشع ٣ : ٤؛ الملوك الثاني ١٠ : ٢٧؛ التكوان ٣٥ : ١٤؛ صموئيل الثاني ١٨ : ١٨ .

لاصلة علاقة ببعض التناصل . ويجانبه كان العمود المقدس او الشجرة المقدسة^١ وكانت تمثيل النبات الدائم الحضرة التي تسكنه آلة الحصب . وفي بيت شان كان هذا العمود يقوم في مدخل الحرم الداخلي . والقرف الكائنة تحت الارض كانت غالباً تستخدم لتلقي النبوءات . وكانت الاواني المستخدمة في ادارة السوانش والمزخرفة بالحييات ، وطاسات البخور والمبادر التي وجدت تشير الى الاعمال التي استخدمت لاجلها هذه الاشياء^٢ وتزيد بقايا المعابد التي كانت لها مصاطب يغسل عليها العابدون اقدامهم قبل الصلاة ان الوضوء الذي يشكل جانبياً لا بد منه في الصلاة عند اليهود والمسلمين لم يكن مجهولاً عند الكنعانيين . والمبادر الكنعانية اقتبسها اليونان والاتروسكيون . وفي بيت شان كان يقوم مكان مرتفع في مؤخرة المعبد حيث كان يوضع غالباً تمثال الاله ويبدل على بدء المكان المعروف «بقدس القدس» .

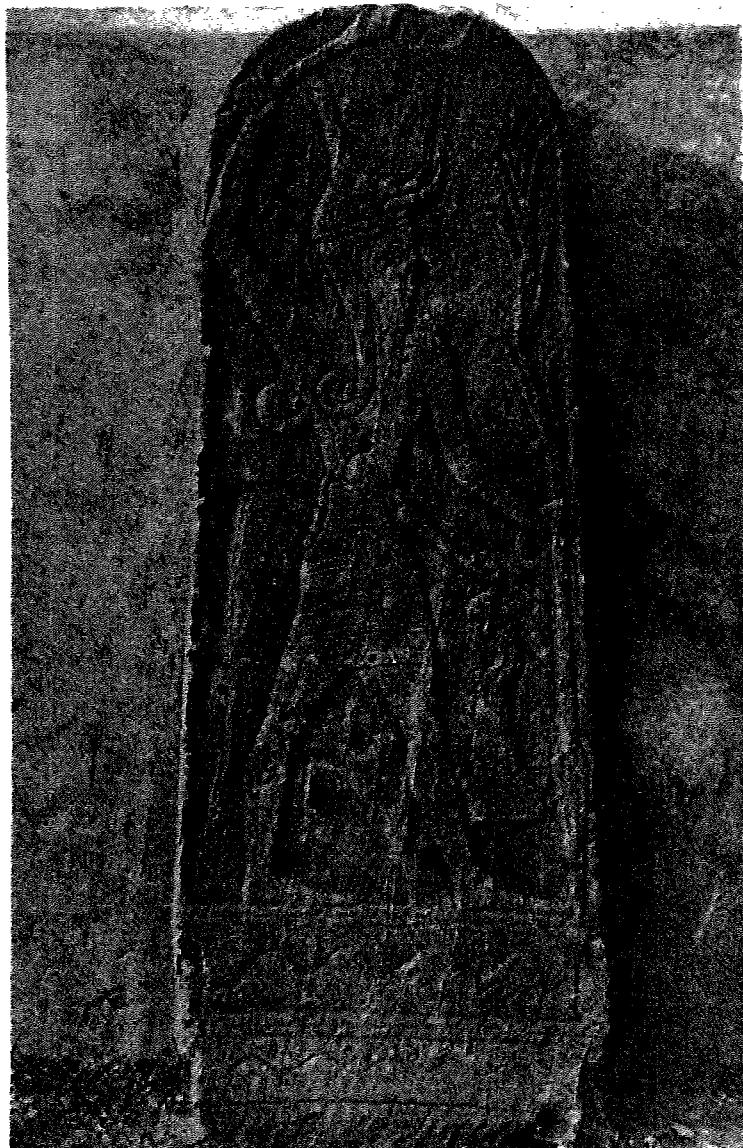
ولا يزال المسلمون والسيحيون والدروز في سوريا وفلسطين اليوم يؤدون واجب الاحترام للأشجار وهي عادة من البلوط او الصنوبر التي تنمو قرب ينبوع او قرب قبر احد الاولياء او القديسين . وتشاهد اليوم قطع الثياب مريوطة بشجرة مقدسة عند افقا حيث ينبع نهر ابراهيم .

الاصنام

اكتفى الكنعانيون عاماً بالنصب والعمود المقدسين واستغنوا بهما عن ضرورة صنع الاصنام . والصور والتاثيل الصغيرة البرونزية التي تمثل بعل واقفاً يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المروقة كانت شائعة . والالاهة كانت عادة تمثل عارية ويداها على جانبها او غسكلان بشتيها كما لو كانت تعطي الغذاء . وقد وجدت قائل صغيرة متعددة من هذا النوع مصنوعة من المعدن او الطين . ولكنها كلها تبدو انها كانت

١) أشيراء *asherah* وجمها أشيريم ؛ وترجمت بكلمة «سواري» في سفر الملوك الاول : ١٦ : ٣٣ ؛ الملوك الثاني : ٢٣ : ٧-٦ ؛ اشيميا : ٢٧ : ٩ . وقد حرم في سفر التثنية : ١٢ : ١٦ : ٣ : ٢١ .

٢) لأجل رسوم هذه الاشياء انظر : Rowe, *Four Canaanite Temples* الالواح : ٤٢ : ٢٠ . آ٥٧ : ٣٤١ آ٧٠ : ٤٤ . آ٣٧ : ٣٤١ .



عليان بعل اوغاريت (رأس الشمرة)

يُسَكِّنُ الْأَلَهُ يَدِهِ الْيَمِنِيَّ نَبُوَّاً وَيَدِهِ الْبَشَرِيَّ رَمْزُ الصَّاعِقَةِ وَيَقْفَ أَمْلَمَهُ
مَلَكُ اوغاريت فَتَحَ حَيَّتَهُ .

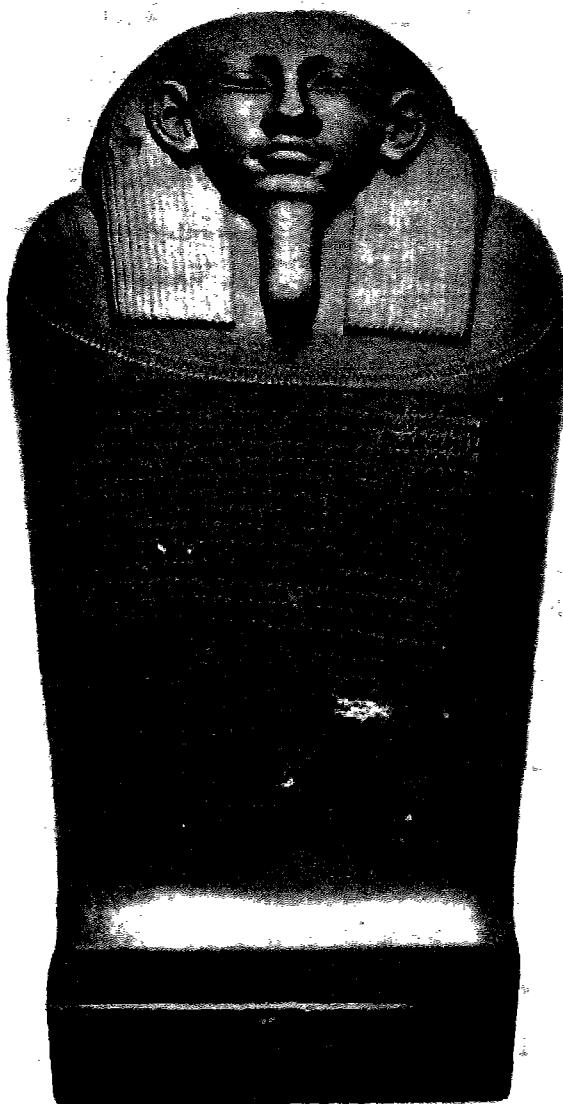
تستخدم في المنازل وليس في المياكل . وكانت تحترم بسبب قدرتها السحرية . وكان المتبع المتعلم يعتبر التمثال مسكن الآلهة اما العامي فربما اعتبر ان التمثال نفسه هو الآلهة . وكانوا يعنون الالامنة السورية أثارات عاتس عادة في او اخر الالف الثاني بشكل امرأة عارية ايضاً وترفع احدى يديها سكّة بساق نبات الزنبق او بالحيات . وهنالك إلهة سورية اخرى هي قادش وتتخذ ايضاً شكل امرأة عارية واقفة على اسد . وكان الاسد او الثور رمزاً للحيوية والقوّة . اما لماذا اخذت الحية رمزاً للخصب فان ذلك غير واضح . وقد يكون ذلك لأنها كانت تعيش في احشاء الارض . ولا شك ان الاقدمين كانوا يعجبون بقدرتها الفائقة على طرح جلدها وتجديده جسمها كل سنة وعلى اصابة من تعشه بالموت المباشر . وقد يتعدد الفلاح السوري حتى اليوم في قتل حية سوداء اذا وجدتها في منزله على اساس انها قد تكون حاميته .

كانت عبادة الحية شائعة في مصر القديمة وكريت وغيرها من بلاد الشرق . وبيت شان التي كان التأثير المصري ظاهراً في هيكلها الاربعة المكتشفة كانت من اكبر عبادة الحية . وقد كرس اقدم هذه المياكل الى « ميكال سيد بيت شان » من عهد تمومس الثالث (١٥٠١ - ١٤٤٧) . وميكال الذي قد يكون اسمه متصلًا بـ *Molech* كان احد اشكال رشف الله الكنعانيين والاموريين . وقد اكتشفت طاسة مزخرفة بحية في قسمها الخارجي في هذا المعبد .

« الاماكن المرتفعة »

وفيها سوى المياكل في المراكز الحضرية فانه كان لكتعانيين اماكن مقدسة محلية معظمها مزارات في الماء، الطلاق على رؤوس التلال . تلك كانت « الاماكن المرتفعة » التي كان يهاجها كتاب المهد القديم^١ بصورة متكررة . وفي كثير من الاحيان لم يكن المكان المقدس غالباً سوى مذبح مع ما يلازمته من حجر مقدس .

^١) سفر الملوك الاول ١٣ : ٢ : ارميا ٣٦ : ٣٥ : هوش ١٠ : ٨



تابوت بشكل بشري لملك صيدا اشمون عزر
من اوائل القرن الثالث ق. م. والآن في متحف الوفر

وفي «المكان المرتفع» المشهور في جزر وجدت بقايا اولاد قدموها كضحايا ودفنتوا في جرار^١.

عادات الدفن

وكانت العادة ان يدفن الاولاد بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها بحيث تدخل رؤوسهم اولاً. وفي اريحا وغيرها من المواقع كانت توضع الجرار تحت ارض المنزل. وحتى في ایام العبرانيین كانوا يتبعون عادة دفن الاولاد في تلك المدينة عند تأسيس المباني الجديدة^٢. ومارسة اسلاف العبرانيين كسائر الساميین لهذه العادة يمكن استنتاجها من قصة ابراهيم الذي شعر بدافع لتضحية ابنه اسحق وقصة ميشا ملك مواب الذي ضحى بالفعل ابنه الاكبر^٣.

كان الوضع الانسب لجثة الميت عند دفنتها في منتصف الالف الثاني ان تكون ممددة على ظهرها وان يكون اتجاه الرأس نحو الشمال. وكانت اكثيراً ما يدفون مع الجثة مصباحاً وجرة وصحناً كبيراً وغير ذلك من اواني الطعام والشراب مما يشهد بوجود اعتقاد غامض ان الميت يمكن ان يروقه نوع من المعيشة على الطراز المألوف في هذه الحياة الدنيا. وكانت يدفون النساء ومعهن حبات الحرز وسائر نواحي زينتهن كما ان الرجال كانوا يدفون بسلامهم. وتابوت الملك احمرام الحجري الضخم المزخرف بموكب جنائزي حيث تظهر النساء الباكيات والخدم الذين يحملون المدايا يشير الى رغبة في حفظ الجسم. والتحنيط لم يمارس الا بالنسبة لبعض ملوك كنעניين تحت النفوذ المصري.

وهنالك تأثير مصرى آخر يظهر في الدفن عند الفينيقيين وهو وجود توابيت ذات الشكل البشري. وقد اكتشفت توابيت كثيرة من هذا النوع يظهر فيها رأس بشري واحياناً شكل متكم بكامله على الغطاء وترجع الى ما بين القرن

١) راجع ما ذكرناه في ص ٢٦ و ص ٨٤ .

٢) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٤ .

٣) سفر التكوين ٢٢ : ٣-١ ; الملوك الثاني ٣ : ٢٧ .

السادس والثالث ق. م. ومن اجلها تابوت اثنون عَزَرَ و ابن تبنت١ ملك «مدینتی صیدا» كما يسمى نفسه وكان يحكم بعد فتح الاسكندر بنحو نصف قرن . وعلى غطاء التابوت كتابة من اطول الكتابات الاثرية المعروفة . وال فكرة الاساسية الواردة هي الفكرة المعتادة بمنع اذعاج الميت وذلك بطريق اللعنات من جهة وبالتأكيد من جهة اخرى انه لا توجد كنوز ثمينة مدفونة مع الجنة^٢ وقد كان المصريون اول شعب اجنبى تسلط على فنيقية ، وآخر من فعل ذلك قبل فتوح الاسكندر هم الفرس .

١) اثنون عَزَرَ يعني اثنون يساعد . وكان اثنون أم إله منحمر لمدينة صيدا وبالاصل كان إله الربات . ولا يزال اسمه باقياً في خراب قبر اثنون جنوب جنوب شرق بيروت . واسم «تبنت» لا يزال في اسم قرية تسمى كفر تبنت جنوب شرق صيدا وهي تقابل تبني Tibni العبرانية (سفر الملوك الاول ٢١ : ١٦) .

Cooke, pp. 30-40 (٢)

الفصل الثاني عشر

العلاقات الدولية من مصر وغير سري آسيا

كانت الدول الكبرى في غرب آسيا في الألف الثالث والثاني ق. م . ثلاث دول هي مصر وبابل والشيوخن . وتبعتها دول ثلاث أخرى وظلت على مسرح التاريخ حتى نهاية القرن الرابع تقريباً وهي دولة الآشوريين والدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانين ودولة الفرس . وال العلاقات المتباينة من عسكرية وتجارية وثقافية بين الدول السورية وهذه الدول الكبرى المجاورة تشكل الموضوع الرئيسي للحوادث التاريخية خلال فترة نحو ثلاثة آلاف سنة .

المملكة القديمة

ان علاقة مصر ببلاد شرق البحر المتوسط ترجع الى ما قبل قدوم الفينيقيين في اوائل الالف الثالث . وكانت هذه الصلة تجارية في بادئ الامر ثم توالت وعززت واستمرت حتى غزو شعوب البحر في اواخر القرن الثالث عشر . واذا استثنينا فترات قصيرة مثل ظهور المكسوس في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ومجيء الخابiro في القرن الرابع عشر فان النفوذ المصري في الساحل الفينيقي دام من حوالي ٢٤٠٠ ق. م . حتى حوالي ١٢٠٠ ق. م . وقد استمر التأثير الحضاري والاقتصادي الى ما بعد انتهاء النفوذ السياسي وقام الشيوخن في القرن الرابع عشر فتحدوا السيطرة الفرعونية على شمالي سوريا وداخلها ووضعوا نهاية لها .

كانت اول مدينة احتلت مكانة رئيسية في العلاقات المصرية السورية مدينة جبلة Gubla¹ (جبل) . وكان المصريون يعرفون هذه المدينة باسم Kupna وهو

1) يجب الالتباء إلى التفريق بينها وبين جبّة Gabala في نصوص اوغاريت وهي جبّة الحديثة الواقعة إلى الشمال ومن المدن الكنعانية أيضاً .

اسم غير سامي حوله الفينيقيون بعد احتلالها إلى «جبلة». وبقي اسمها السامي في «جبيل» الحديثة. واسمها اليوناني بيبلوس Byblus الذي صار يعني «بابلوروس» أو «كتاب» قد يبقى في لفظة «Bible» (الكتاب المقدس أو التوراة). وقبل أن تصبح جبيل الميناء التي يصدر منها البابلوروس فانها كانت مركزاً تصدير الرز ل لبنان المرغوب كثيراً إلى وادي النيل. وهناك استخدم الأرز في بناء المعابد والقصور والسفن وفي صنع التوابيت والأثاث الفاخر. وقد استورد الفرعون سفنرو (حوالي ٢٧٥٠ ق.م.) تحمل أربعين سفينتاً من الأرض لآلهاته العملاقة. واقدم اتصال بين مصر وسوريا لدينا دلائل مكتوبة عنه هو من عهد هذا الملك. وكانت تصدر المخمر والزيوت أيضاً لأجل التعبير من جبيل. والمدن الفينيقية كانت تستورد لقاء ذلك الذهب والمعادن العذبة ومادة الكتابة (البابلوروس أو ورق البردي). وقد نقش خوفو Cheops (حوالي ٢٦٠٠ ق.م.) على هرم الأكبر المشهور اسمه على آنية من الألباستر وارسلها كهدية إلى سيدة جبيل. واعتبرت هذه الآلهة من قبل المصريين متساوية لآلهتهم هاتور التي بذلك أصبحت بالنسبة لهم سيدة البلاد السورية. وفي هيكل الدفن الذي يختص ساخوراً من ملوك السلالة الخامسة في أبو صير (خارج بيفيس القديمة) يوجد رسم حملة للبلاد الأجنبية وتظهر فيه غنائم الحرب وبينها زيت الزيتون في جرار كنعانية. وعُنْكُن اوئيس Unis (توفي حوالي ٢٣٥٠) وهو آخر ملوك هذه السلالة ان يحافظ على جبيل بواسطة اسطوله وربما كانت المدينة حينذاك من مستعمرات الناج.

وفي كتابات السلالة السادسة الأثرية نبدأ بالقراءة عن «مراكب جبلة» في ملاحة البحر المتوسط. ولدينا من عهد هذه السلالة أول وصف مفصل للحملات البرية في فلسطين وسوريا. وقد قاد هذه الحملات في أوائل القرن الثالث والعشرين او في Uni قائد الفرعون بيبي الأول Pepi الذي «عاد جيشه سالماً» بعد ان حارب «سكان الرمال» الآسيويين وتوغل في الشمال حيث هدم الحصون وقطع اشجار التين والكرمة^١.

١) رابع : James H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, vol. i (Chicago, 1906), § 313.

المملكة المتوسطة

وادعى فراعنة السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨) وهي اعظم السلالات في تاريخ مصر السيادة ورعا مارسوها بشكل ضعيف ليس على الساحل الفينيقي فحسب بل على فلسطين وقسم كبير من سوريا ومنها قطنة Qatna . وقبل احد امراء اوغاريت المدعا من سنوسرت الاول (١٩٢٨ - ١٩٧١) وكان ابو المول الذي يمثل امنمحات الثالث (١٦٤٢ - ١٦٣٣) يقوم عند مدخل هيكل بعل في هذه المدينة . وتدل اسماء الاماكن على اللوائح المصرية انه في حوالى نهاية حكم امنمحات كانت فلسطين حتى جلعاد في الشرق وفينيقية حتى وادي النهر الكبير في الشمال وحوران ودمشق ومعظم البقاع . جزءا من الامبراطورية المصرية . وقد اثنا من زمن حكم سنوسرت اقدم وصف للحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي في سوريا وفلسطين^١ .

قصة سنوحى

كان كاتب هذا الوصف من رجال البلاط المصريين واسمه سنوحى (Sinuhe) وقد رأى من الضروري عند اعتلاء سنوسرت العرش ان يهرب الى سوريا حيث عاش بين البدو سنوات عديدة . وبعد ان اصبح طاغيا في السن دعي للعودة الى بلاط فرعون حيث دون مذكراته بشكل شعري .

وفي اول الامر انقض زعيم بدوي على حدود مصر حياة هذا الرجل المارب وزوجده باللاء والخليل المغلي وسمح له بالسكنى مع عشيرته . وبعد ان اقام سنوحى في الجنوب ذهب الى جبيل ومن هناك اجتاز لبنان الى سهل البقاع حيث اصبح من جملة السكان وانتسب الى قبيلة كان اسم شيخها امورياً . وقد شجع الزائر شيخ القبيلة على الخضوع لفرعون ولكن الشيخ لم يظهر رغبة في التنازل عن استقلاله .

١) كان المصريون يسمون سوريا الشالية وتبينo (Rzannu) او خورو Khuru Retenu (Khartu) وقد تكون رتبينo تحرير كلة سامية . أما خورو فقد تكون تحرير كلة حوريّ وهم الموريون Horites المذكورون في التوراة . وكانت النطعة بين لبنان الغربي والشرقي تسمى امورو Amor والسهل الفينيقي وفلسطين كانوا يسميان زاهي Zahi (Djahi) بينما الفينيقيون كانوا يسمون فنخو Fenku اي بناء السفن .

وتوجه سوحي من ابنة حاميه الكبرى وخصصت له ارض طيبة فيها تين وكروم وخر اكثرا من الماء . « وكان عملها كثيراً وذاتها غزيراً وبجمع النثار كانت في اشجارها . وكان فيها شعير وقمح وماميشة لا عد لها من جميع الانواع^١ ». وورث سوحي المشيخة على القبيلة عن والد زوجته واصطاد بمساعدة كلابه واستقبل الضيوف على عادة البدو واعطى الماء للمطشان وارشد الضال واستدرك في اعمال الفزو . واصبح محبوباً حتى انه اثناء القتال مع احد كبار القبيلة حيث استخدمت السهام والحراب والقوس صرخت النساء لمساعدته وشجعوه الرجال . وبعد ان اشترق هذا المنفي الى بلاده وارتعش لمجرد التفكير بأنه سيدفن في ارض غريبة وسيلف بجلد ماعز فقط استجواب لقرار اصلده ستموت وكف ابنته الاكبر بادارة املاكه وترك « الرمل لسكانه وزيت الشجر لا ولذلك الذين لا يعرفون دهناً احسن منه^٢ » وعاد الى بلاده حيث يمكنه التمتع بترف الاستحمام وبفراش حقيقي .

سورية في الامبراطورية المصرية

ادخلت سورية في الامبراطورية المصرية عند ظهورها في عهد احمدوس من السلالة الثامنة عشرة (توفي حوالي ١٥٤٦) وهو مؤسس الملكة الحديثة . وكان احمدوس هو الذي طرد المكسوس من مصر وطلق بهم الى سورية التي منها اتوا وحمل بلاده على اتباع سياسة الفتوح والتوسيع . وتتابع خلفاؤه من بعده خطوة التوغل في سورية وفلسطين . واجتاز تحوتيس الاول البلاد كلها حوالي ١٥٢٠ بدون مقاومة كبيرة ووصل الفرات الاعلى «بلاد الرافدين» (نهاين) حيث ترك كتابة اثرية تشعر بفوزه وباعماله العظيمة . وقد استلقت الفرات الذي يجري بالتجاه معakens لمجرى النيل انظار المصريين كأسم غريب . وسرعان ما انتشرت اخبار متعددة عن «هذا النهر المقلوب الذي تجري مياهه الى الجنوب بينما هي في الحقيقة تجري الى الشمال» . واصبح اسم هذا النهر «المياه المقلوبة^٣» .

(١) راجع : Adolf Erman, *The Literature of the Ancient Egyptians* (London, 1927), p. 19.

(٢) Cf. David Paton, *Early Egyptian Records of Travel*, vol. i (Princeton, 1915), text v.

(٣) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii §§ 73, 478.

معركة بجدو

ولم تتوطد سيادة مصر نهائياً في سوريا التي أصبحت جزءاً من الامبراطورية المصرية الناشئة الا بعد ان قام الحارب الشهور في مصر القديمة وهو تحوتيس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦) بست عشرة حملة حربية . وتنصف الحملة الاولى وهي اهم الحملات بسقوط بجدو^١ في ١٤٦٨ حيث اصطدم الجيش المصري بحلف مؤلف من ٣٥٠ اميراً . وكان المكسوس الذين طردوها حديثاً من مصر العود الفقري لهذا الحلف وكان امير قادش على العاصي رئيسه . وقد دارت رحى الحرب تحت اسوار المدينة الحصنة تحصيناً قويأً . وعندما انسحبت القوات السورية امام هجوم العدو العنيف وجدوا ابواب المدينة مغلقة من قبل السكان . وكان على امير قادش نفسه ان يرفع الى فوق الاسوار وان تستخدم الثياب كعيبال لرفعه . وبعد حصار دام سبعة شهور اخضطرت المدينة التي كان « الاستيلاء عليها كالاستيلاء على الف مدينة » الى التسلیم بعد ان فتك فيها الجوع . ووقع الامراء على قدمي فرعون « يطلبون النفَسَ لِنَغْرِمْ » . واستولى المصريون بطمع على كمية من الفنائيم تكاد لا تصدق وتتألف من : ٢٠٤١ حصاناً و ٩٢٤ مركبة (منها ٣٢ لها تراكيب مصنوعة من الذهب والفضة) و ١٩٢٩ ثوراً و ٢٠٠٠ من الماشية الصغيرة و ٥٠٠ من الحيوانات الاخرى و ٢٠٠ درع وعدد كبير من الاسلحة الثقيلة . وصادروا من القصر الملكي ٨٧ ولداً و ١٧٩٦ من العبيد الذكور والإناث وباريق ذهبية وكمية من الآلات والتأثيل . وقدم الامراء المفلوبون على امرهم رهائن^٢ .

قرر سقوط بجدو ومصير فلسطين . وتقدم تحوتيس المعروف بنشاطه نحو الشمال مسافة ٧٥ ميلاً حتى وصل منطقة لبنان حيث استولى على ثلاثة مدن وبنى حصنآ . وفي خلال حملته الخامسة استولى على ارواد وبذلك أحكم قبضته على السهل الفينيقي.

١) ان السحر الذي يحيط بهذا الاسم مصدره آية غامضة في سفر الرؤيا ١٦ : ١٦ حيث يرد باسم Armageddon . وقد وضع الرومان جيوشاً بقربها حيث توجد اليوم قرية تسمى الجون (من اللاتينية legio) . قارن مع سفر الملوك الاول ٩ : ١٥ .

Breasted, *Ancient Records*, vol. ii. §§ 412-443 ; George Steindorff and Keith C. Seele, *When Egypt Ruled the East* (Chicago, 1942), pp. 53-56.

وقد استخدم فرعون في بيانه الحربي الرسمي الذي اعلن فيه سقوط هذه المدينة التجارية المظيرة الواقعة في جزيرة ارواد المبارات التالية :

انظر! ان جلالته قبر مدينة ارواد وما فيها من قبح وقطع جميع اشجارها الجميلة . انظر! لقد كان فيها عحاصل كل بلاد زاهي . لقد كانت جنائزهم ملائكة بثارها ، وغوروم كانت في مساميرهم كالبلاء الجاريه ، وحبوبهم على الجلول كانت أكثر من رمال السهل . وقد دُفِّعَ الجيش بالحصنه التي تلما (١)

ويذكر تحوتيس بعد ذلك الجزءة التي احتوت على العبيد والخيل والمواشي وصحون الفضة والبخور والزيت والعسل والتمر والنحاس والرصاص والمعاجنة اللازوردية ، والصوان الباولي الأخضر (فلسيار) والحبوب وارغفة الخبز والثار وينتهي بهذه الكلمات : «انظر! ان جيش جلالته كان يسكن ويensus بالزيت كل يوم كما لو كان في عيد في مصر» .

قادش

وقد اصاب سيرا Simyra جارة ارواد المصير نفسه في حلة ثالثة . اما قادش^٣ التي كانت مصدر الاضطراب الرئيسي فقد استولى عليها تحوتيس اخيراً ولكنه اضطر بعد انتي عشرة سنة ان يتوجه ضدها من جديد . وعندما لاحظ امير قادش ان المركبات الحربية المصرية يجبرها خيول فرعول بما الى حيلة واطلق فرساً اتجهت رأساً الى وسط الخيول فسببت تشويشاً هدد نظام المعركة . ولكن امنمحب القائد ورفيق تحوتيس انقذ الوضع حين قفز من مركبته وسيفه في يده «وشق بطنها وقطع ذنبها ووضعها امام الملك» .

نهارين

كانت الحلة الثامنة التي اسفرت عن انفهام منطقة الفرات من اعظم حروب تحوتيس في آسيا . وقد توج هذه الحلة باقامة لوحه للحدود شرق الفرات الذي عبره

Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 461. (١)

Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 462. (٢)

(٣) وهي رسوم كل التي من دوني بحيرة حسن . انظر : Dussaud, pp. 108-108.

Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 589. (٤)

غالباً عند كركميش ولوحة أخرى في جوارها قرب تلك التي أقامها والده تحتمس الأول. ونهب بلاد ميتافي في طريقة . وعندما كان يتقدم باتجاه بحر النهر كانت ينهب المدن وينهبتها ، ويقطع أشجار البساتين ، ويقتلع النورة ويترك الأرض فقراً . وربما قام بأكثر من حملة على نهارين وفي أحدي هذه الحملات بنى زوارق من خشب الأرض في الجبال شرق جبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش إلى نهارين . وفي طريق عودته بينما كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطبيعاً من الفيلة وكان أحدهما على وشك قتله بضربة من ثابه لولا يقظة امنمحب الذي أسرع لقطع خرطومه بضربة من سيفه^١ .

تشبه مغامرات امنمحب عدداً من المغامرات الأخرى التي جرت للجنود المصريين في سوريا . وقد وصلتنا أحدها في قصة استيلاء قائد آخر من قواد تحتمس اسمه جهوي Djehuti على مدينة يافا^٢ وانتقلت إلى القصص الشعبية . فقد دعا هذا القائد أمير يافا إلى مأدبة وسقاوه الخمر حتى سكر ثم قتلوه . وقيل لأميرة يافا إن زوجها قتل جهوي وسيعود ومعه ٥٠٠ كيس من الفنائم . وعلى ذلك فقد فتحت أبواب المدينة وخرج من الأكياس ٥٠٠ جندي مصرى كانوا ضئلها فهاجموا الحامية وتغلبوا عليها . وانجبر جهوي الملك عن سقوط يافا بما يلي :

أرجح أ أن إيك الصالح آمون قد سلك العدو في يافا وكل شبهة ومدينته . ارسل من يأخذنكم كلسرى حق قللاً بيت إيك آمون راع ملك الآلهة بالعبد الذكور والإناث الذين سيركمون تحت قدميك إلى أبد الأبدin (٣) .

سجل تحتمس انتصاراته على جدران معبده في طيبة وذكر اسماء المدن التي فتحها . وتشهد لائحة الفنان التي حملها معه من عاج وابنوس وحلبي وفضة وحجارة كوكية وخشب الجنوب المطلية بالذهب بمعنى البلاد وحضارة سكانها الرفيعة . ولا بد

Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 588. (١)

(٢) بالصربي iapu , yapn ، من الينيقية يافي yāfi يعنى جبيل ، ومنها أنت الفظة السبرية Joppa وهي يافا المدينة .

(٣) راجع : C. W. Goodwin in *Transactions of the Society of Biblical Literature*, vol. iii (1874), pp. 340-48 ; G. Maspero, *Etudes égyptiennes* (Paris, 1879), vol. i, pp. 53-72 ; Steindorff and Seele, p. 58.

ان المنطقة الساحلية كانت كثيفة السكان . وقد وضع الكهان هذه الكلمات التالية على لسان الاله آمون حامي تحوتس بشكل أغنية للنصر :

لقد عبرت مياه النهر العظيم لنهرارين
في النصر والقوة الذين منعوها لك
انهم يسمعون صرختك للعرب ويزحفون الى اوكارم
التي اترع من منخرم نسمة الحياة واجعل
رهبة جلالتك تخنق قلوبهم
لقد اتيت لا جعلك تلوس زمامه جاهي [زاهاي]
انني اطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها (١).

وقد بدأ تحوتس في علاقاته مع سوريا المقهورة سياسة أخذة ابناء الامراء المحليين لينشأوا على روح الصدقة مع مصر واعادتهم بالتدريج ليعلاوا محل الجيل القديم المعادي لمصر^٢. غير ان ذلك لم يبدل الامور كثيراً . وبما ان السوريين لم يكونوا قادرين على مقاومة الجيوش المصرية مقاومة متواضعة فانهم جاؤوا الى عملية الارساع في تأدية الجزية والخضوع عند اقتراب العدو والتوقف عن ارسال هداياهم حالما يدبر العدو ظهره . ولمدة حوالي نصف قرن بعد معركة مجدو اتت القوى المصرية المسلحة الى سوريا وعادت منها عدة مرات . والحملات المتكررة كانت ضرورية ليس لاخضاع الجماعات المتمردة فحسب بل ايضاً لاجل استمرار وصول الضرائب لخزينة مصر . وكان ارتقاء فرعون جديد الى العرش وخاصة اذا اعتبر اضعف من سلفه مناسبة ل القيام بثورة جديدة . وهكذا فان البلاد أصبحت فقيرة من الوجهة الاقتصادية وعجزة عن الدفاع عن نفسها عسكرياً ضد الدول الجديدة الناشئة في شمالها .

الخطاط السيادة المصرية

كان الوضع كذلك عندما وصل امنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٧١ - ١٣٥٨)

Steindorff and Seele, p. 62. (١)

Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 467. (٢)

إلى العرش وكان من أكثر شخصيات التاريخ القديم جاذبية . ولم يكن اهتمام افخوتب موجهاً نحو قضايا الدولة وانما نحو القضايا اللاهوتية . وكان في ذلك متأثراً على ما يظن بزوجته الجميلة والمهوبية نفرتيتي التي يعتقد البعض أنها كانت من أصل سوري^١ . وتشير مراسلات تل العارنة إلى انه قبل موته كانت فلسطين قد خرجت عن طاعة مصر بصورة تامة . وظلت حرة حتى السنة الأولى من حكم سي الأول (١٣١٧ - ١٣٠١) من السلالة التاسعة عشرة . واظهر رعميس الثاني (١٢٣٤ - ١٢٣١) من السلالة نفسها جانباً من الروح الحربية التي اتصف بها السلالة السابقة . ووصلت حملاته الأولى حتى بيروت . وعلى بعد بضعة أيام إلى شمالي هذه المدينة عند مصب نهر الكلب^٢ حيث تصل الجبال إلى البحر خالد رعميس ذكرى حملته بنوش ثلاث كتابات في الصغر الكلسي وقد زالت معالمها الآن حتى ان الكتابة أصبحت غير مقرؤة . وكأنما دشن بذلك بهذه سلسلة من الكتابات في ذلك الموقع استمرت حتى عصرنا هذا منها كتابة تركها الحلفاء في عام ١٩٤٢ وكتابه لبنانية في ١٩٤٦^٣ مما جعل من هذه الواجهة الصخرية متحفًا في الموارد الطلق . وبين الكتابات الأشورية الست فإن كتابة اسمحدون (٦٧١ ق. م.) وحدها هي المقرؤة . ثم تأتي بعدها كتابة بابلية حديثة من عهد نبوخذنصر وكتابه يونانية انتهت وكتابات لاتينية متعددة تركها كركلا (وليس الفيلسوف ماركوس اوريليوس) وكتابه عربية . وقد أزال الفرنسيون أحدي اللوحات المصرية المكتوبة ونقشوا عليها ذكرى احتلالهم لبنان في ١٨٦٠ - ٤٦١^٤ . وهناك كتابة افرنسية أخرى تركها الجنرال غورو إلى جانب كتابة في الانكليزية من عهد الجنرال اللنبي .

١) ويتلمذا النصفي الذي كان في متحف برلين حتى عصر جديث يمتنع في الواقع الطبلة بصورة جبلة للملكة . وقد وجده الجنود الاميركي في عبا في ١٩٤٥ .

٢) سي كذلك بسبب كاب عذور في الصغر ظل قائماً لمدة عدة قرون كعارض للمفتق . وتقول الاسطورة ان صرامة حين اقترب العدو كان من المهم حق انه كان يسمع في كل المنطقة . وقد ذُفَفَ السلوون الذين يكرهون التأليل هذه الصورة المنسوقة في النهر . وقد اخرج الاوستاليون في ١٩٤٢ ما يمكن ان يكون الكلب الاصلي وهو ذئب موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت .

٣) تخلذ ذكرى جلاء الجنود الاجنبية وأكثرها افرنسية عن لبنان .

Franz H. Weissbach, *Die Denkmäler und Inschriften an der Mündung des Nahr-el-Kelb.* (Berlin, 1922).

واستمر الخطاط السيطرة المصرية خلال السلالة العشرين . ولدينا من نهاية هذه الفترة قصة حية تأخذ شكل تقرير سلمه الى فرعون حوالي ١١٠٠ ق. م. موفده ون آمون Wenamun الذي ارسل الى سوريا ليأتي بالاخشاب لاجل زورق آمون المقدس . وتبين المعاملة المزدوجة التي نالها على يد امير جبيل ، اذا كانت تاريخية صحيحة ، ان مثل مصر لم يعد بإمكانه فرض احترامه على حاكم سوري . ويقول ون آمون في معرض روايته ما حصل : « لقد صرفت تسعة عشر يوماً في مرفاء وكانت يرسل الي كل يوم وبدون انقطاع من يقول : اذهب من مرفاي^١ ». واصبح ون آمون عاجزاً امام ذكر بعل الحاكم الوطني بعد ان ينس من بعنته وخاف على حياته . وكان يجلس هناك على الساحل ويتسرى بسبب مصايبه . وكان معه ذهب وفضة ولكن اوراق الاعناد الازمة لم تكن معه . وفي وقت ما ارسل له الامير مفتبنة مصرية لتروح عنه . وآخرأ يرق قلب ذكر بعل وعند عودته من الطقوس الصباحية في الميكل يمنع المتذوب التعب القلق مقابلة وهو « جالس في غرفته العليا مستنداً ظهره الى نافذة بينما امواج البحر السوري العظيم تتلاطم على الصخور تحته ». ويعلن الحاكم اثناء المقابلة : « اما انا فاني لست بخادمك ولا بخادم الذي ارسلك . واذا ناديت جبال لبنان فان السهوات تفتح وتأنى الاخشاب هنا على ساحل البحر^٢ ». ويعترف ذكر بعل بتتفوق مصر الحضاري ولكنه يكره فكرة السيادة على منطقته . وآخرأ يسمح ذكر بعل بالتخلي عن الاخشاب بعد تسلم مبلغ اكبر من المال .

وعلى ذلك فان سوريا التي كانت تتحكم كمقاطعة مصرية على الحدود منذ نهاية عصر المكوسس في اوائل القرن السادس عشر قد أصبحت خارجة عن الامبراطورية في خلال القرن الثاني عشر . وفي هذه المدة كان الحثيون قد وطدوا اقدامهم في القسم الشمالي للبلاد بينما الآراميون اصبحوا في سوريا الداخلية والعبرانيون في سوريا الجنوبية والفلسطينيون على الساحل الجنوبي .

Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 569. (١)

Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 577. (٢)

وحتى عندما كانت سوريا ضمن الامبراطورية المصرية فإن الادارة الامبراطورية كانت تهدف بوجه الاجمال الى المحافظة على النظام والسيطرة على الطرق الرئيسية وطلب الجزية . وكانت تبلغ المدفین الاولین بواسطة الحامیات بينما المدفی الثالث كانت تتحقق على يد عدد من الموظفين المقيمين . وكان المقيمين المصريون في المدن المأمة يعينون مفتشين متوجلين ليقوموا بجولات التفتيش . وكان الممثل الرئيسي لفرعون في جنوب سوريا يقيم في غزة . وكان يتبعه المفتشون المختصون بجمع الضرائب والحكام المحليون المكلفوون بشؤون الحامیات في بعض المدن . واما تفاصيل الادارة الداخلية فانها كانت بيد زعماء وطنين يسيطرون على قواتهم المسلحة .

التأثير السوري في مصر

وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سوريا بازراً فإن هناك دلائل تستلتفت النظر بصورة اوسع عن التأثير السوري في مصر . ويتبخر التأثير السوري في اقدس قصة مصرية وهي قصة آلام او زيريس الذي قطع جسده ارباً ووضع تحت شجرة الأثيل في جبيل^١ . ويظن البعض انت الجنة المشورة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة او زيريس يومتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً^٢ . وقد ادخل الله حورون Hawron وهو الله الرئيسي في بيته^٣ الى معابد مصر في ایام امنحوتب الثاني (حوالی ١٤٥٠ - ١٤٢٠) ويظهر في اسم حورمحب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق.م.) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم احد ابناء رعمسيس الثاني كان ميري استروت (Meri-Astrot) اي محبوب عشتاروت . وكان يوجد في نوكراتس التي ربها كانت مستعمرة فينيقية معبد لافروديت - عشتاروت في عام ٦٨٨ ق.م.

١) انظر : Plutarch, *De Iside et Osiride*, § 15. ونبات التamarisk هو بالعبرية اشل وبال العربية اشل وفي المcriبة أسر asr وكانت هذه الشجرة تصل بالا الاموات . وكانت الشجرة التي دقق خنتها شاول وابناؤه (موئل الاول ٢١ : ٣٣) هي شجرة الاشل .

(٢) Garstang, *Heritage*, p. 61.

٣) سفر اخبار الایام الثاني ٦ : ٢٦ وتقع بيته على بعد تسعة أميال شالي أسود . وكان حورون يعتبر مسؤولاً للله ايل على ما يظن .

وهي أكلس الذي كرس له هيكل في كانوبس *Kanopus*^١ – وهي أيضًا مستعمرة فينيقية على ما يعتقد – كان بدون شك الأله الفينيقي ملقارت.

وكان الاقبال على الفتيات السوريات في مصر أكبر من الاقبال على الفتيات المصريات في سوريا. وقد دخل منها عدد كبير إلى مصر بشكل رهان وآباء أو زوجات عندما كانت الإمبراطورية في ذروتها حتى أن تغييرًا ملحوظاً حصل في سنته افراط الطبقة العليا. وكان بين حريم الملوك والارستوقراطيين أميرات ميتانيات وفينيقيات في كثير من الأحيان. وهناك تباين واضح بين ملامح تحتمس الرابع الدقيقة وانقه الأقفي وبين التموج الذي تمثله سخنة تحتمس الأول بفكه الكثيف وانقه القصير. وانت مع الزوجات الأجنبية أفكار أجنبية بين دينية وغير دينية. وقطع اخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الأولى تدل على الاستيراد من سوريا منذ ذلك العهد البعيد. وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها. وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة وثياباً مزركشة وأواني انية وأثاثاً ومركمات من صورة بالذهب والفضة. واستعاد المزيونيون من مصر نبات اللوتين (عرائس النيل) والبابيروس (البردي) وشوكة اليهود (*acanthus*) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الأراولة (الكريستيم) والسومن والختمي نباتات زخرفية. وهم الذين كانوا أيضاً أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية^٢. ولأجل نقل صحن الصنوبر والصنف العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في أسفلها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبل. ووجدت أوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب أسلوب سوريا الشامية كمستورادات في قبور الفراعنة الأولين في أبيدوس. ووصل فن الدهان ذي البريق المعدني إلى كريت اليونانية من سوريا الشامية^٣. وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذه المنتجات الفنية التي اتت بها حوادث الحرب أو عمليات التجارة والسياحة وأخذوا يقلدونها. وفي

(١) راجع : Herodotus Bk. II, ch. 113.

Pierre Moutet : *Les reliques de l'art syrien dans l'Egypte du nouvel empire* (٢) (Paris, 1937) p. 179.

Childe, *New Light.* pp. 258-9. (٣)

حركة البعث في فترة سايتي في القرن السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد احاته في القرن التالي وكشفه الفن اليوناني.

ظهر العود لأول مرة في مصر بعد قتوحات تحوت بن الثالث . والاهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها . وتعظز القيثاراة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة . وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي أصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة .

ولم تكن القرون الاربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما ان اربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية تركية . ولم يتأثر السكان الوطنيون الا قليلاً بالفكرة واللغة المصريين . وبقيت بعض الكلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية او القبطية^١ . وفي المصور الفينيقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلاً جداً من المصريين هاجروا الى سورية . وكان معظم العلاقات التجارية يهدى الفينيقيين . ويبدو ان اقليم مصر كان لا يسع لسكانها بالعيش في بلاد اخرى خاصة حيث الامطار ومويات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة . وقد قال المثل الشائع ان من اعتاد على شرب ماء النيل يجب ان يشرب منه دافئاً .

العلاقات مع بلاد الرافدين : سومو

دامت فترة السيطرة المصرية السياسية على سورية مدة اطول من فترة سيطرة بلاد الرافدين^٢ غير ان تأثير بلاد الرافدين الحضاري كان اعظم بكثير من تأثير

١) منها كلمة «ابنوس» انت بطريق اليونانية ومنها كلمة ebony الانكليزية . وكلمة «واحة» بطريق القبطية ، وكلمة «تحس» بطريق القبطية واصنافها كلة تبني نوى او اسود ومنها انت الكلمة العربية فتحاس ؛ وكلمة «طوب» بطريق القبطية وهذه الكلمة تشكلت منها كلمة adobe الانكليزية بطريق الاسمية . وقد اخترع المصريون اسلوبهم الخاص في صنع الاجر ولم يختلف هذا الاسلوب منذ ذلك الحين .

٢) ان تسمير ميزوبوتانيا او ما بين النهرين يجب ان يطلق على المنطقة الشالية بين الفرات والنجف ويتقابل الولاية الرومانية المعروفة بهذا الاسم والمعروفة في العربية باسم المجزرة . وقد سمى العرب التسم الجنوبي او بلاد بابل «العراق» . غير ان تسمير ميزوبوتانيا يطلق بصورة عامة على البلاد كلها .

مصر . وكان السوريون أقرب إلى الأشوريين البابليين منهم إلى المصريين من وجهاً عرقية ولتوية وجغرافية .

كان السوريون وم الشعب غير السامي الذي ابدع حضارة وادي الفرات يمثلون طيلة الالف الثالث ق. م. ام جماعة حضارية في غربى آسيا كلها . واصبحت الكتابة المسماوية التي اخترعواها والافكار الدينية والروحية التي طوروها والأداب التي انشاؤها جزءاً من تراث سوريا بما فيها اسرائيل وذلك بواسطة خلفائهم البابليين والاشوريين . وصارت اللغة البابلية برموزها المسماوية الوسيلة الدولية للمراسلات الدبلوماسية والتجارية في كل غربى آسيا ودخلت قصص بلاد الرافدين المتعلقة بألمتهم ومنها قصة الخليقة والطوفان في الادب اليهودي المسيحي في سوريا . وتحولت هذه القصص على يد كتاب المهد القديم إلى قطع ادبية تعتبر من اجل الروائع الادبية التي عرفها الانسان . واستعارت سوريا عدداً كبيراً من الكلمات الاكادية^١ بالإضافة إلى الكلمات السومرية اثناء هذه الفترة^٢ .

كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضي الداخلية التي تقع فيها وراء سوريا . ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجاري تمر فيه معادن كيليسكية الخام إلى امبراطورية بلاد النهرین . وكانت كميات الفضة والذهب التي وجدت في قبور اور الملكية (حوالي ٢٧٠٠ ق. م.) تمر غالباً بهذه الطريق . وكان غوديا Gudea (حوالي ٢٣٥٠) امير لاغاش Lagash السومري يحصل على الارز من الامانوس بالإضافة إلى الذهب من كيليسكية . وتجار بلاد ما بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا

١) وهي لغة بابل و Ashton السامية الشرقية و سميت كذلك باسم اكاد Agade شاهي مدينة بابل ووردت في سفر التكوير ١٠ : ١٠ .

٢) ومن هذه الكلمات *hēkallu* (هيكل) التي اتت مباشرة من السومرية (*ag-ū* بمعنى البيت الكبير) إلى الكتمنائية ؛ و *kissa'u* اي كرسى ات من السومرية بطريق الاكادية . وتوجد أسماء متعددة للبنات والمعادن من اصل اشورى بابل ادخلت بطريق الفينيقية واليونانية إلى اللغات الأجنبية مثل *carob* (الخروب) *cassia* (الثقاء المهدى)، *chicory* (الشنيداء)، *crocus* (الكركم)، *gypsum* (الجسن)، *hyssop* (عشبة الروفاء)، *jasper* (البشب)، *mandrake* (تفاح الجن)، *naphtha* (النفط)، *nard* (التاردين)، *saffron* (الزعفران)، *sesame* (السمسم). وكلمة «تجار» *naggāru* السومرية اتت من *nāgāru* الاكادية .

الخشب المرغوب قد اكتشفوا المرتفعات المكسوة بالغابات في جبال سوريا الشمالية حتى قبل ذلك العهد.

بابل

ويشك علماء كثيرون اليوم في ان تكون سوريا الشمالية قد خضعت للحكم البابلي في آية فترة من النصف الثاني للالف الثالث. وسرجون الاول (حوالي ٢٢٥٠ ق. م.) وهو اول شخصية عظيمة في التاريخ السامي قد «غسل سلطته في البحر» كما جاء في احد النصوص وادعى السيطرة على جبال الارز ولكن تلك الجبال في هذه الحالة كانت الامانوس وليس جبال لبنان. واوصلته غزوته الى شمالي سوريا. وربما كان خلفه الرابع نارام سين (حوالي ٢١٧٠) يعني جبال الامانوس او الجبال الواقعه شرق بلاد اشور^١ عندما ادعى الحكم على البلاد «حتى غابة الارز». ولم يسفر الضغط السياسي وال العسكري الآتي من المناطق الشرقيه عن نتيجة حاسمه الا عندما انهارت الدولة الحثية وظهرت قوه الدولة الاشوريه حينئذ اصبح من مبادئ سياسة حكام بلاد الرافدين ان يتسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية.

اشور

قامت اشور بمحاولتها الاولى السابقة لاوانها لاجل الظهور كدولة عظمى في عهد تغلات فلاسر الاول الذي غزا سوريا في ١٠٩٤ واعلن نفسه فاتح آمورو بكاملها. وبعد ان احتاز جبال طورس الى بلاد الحثيين ادعى الحصول على ولاه جبيل وارواد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كوريث الحثيين في سيطرتهم على سوريا. وربما كانت جبيل لا تزال تحت حكم ذكر بعل. وقطع الفاتح اخشاب الارز وارسلها الى بلاده لاجل هيكل آلمته. وفي سميرا ركب «بحر آمورو العظيم» الى البر وقتل بطريقه «حصان البحر» او درفيلا^٢. وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور البري في جبال لبنان.

Poebel, *Historical Texts*, pp. 175, 181. (١)

Gelb, *Hurrians and Subarians*, pp. 35-37. (٢)

Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 302. (٣)

واستولى الفراة الآراميون على ممتلكات تغلات فلاسر عبر الفرات بعد مدة وجيزة وكان على أحد خلفائه أشور ناصري بال (٨٨٤ - ٨٥٩) أن يسترجعها. واتبع أشور ناصري بال الطريق نفسها التي اتبعها أسلافه وزحف نحو سوريا الشمالية ولكنه اتجه بعد ذلك إلى الجنوب وعبر العاصي ودخل لبنان وتزل إلى البحر بدون مقاومة. وهنا تلقى خضوع المدن الفينيقية وتبين فيما بعد أن ذلك الخضوع كان مؤقتاً. وكان ذلك أول غزو كامل لسوريا من جهة بلاد الرافدين. ويقابل هذا الغزو ما تم على يد تحتمس الثالث المصري قبل ستة قرون. ويعود إلى أشور ناصري بال وأبنته ووريثته شلمناصر الثالث (٨٢٤ - ٨٥٩) ذلك التنظيم العسكري الذي جعل من بلاد أشور سيدة آسيا الغربية.

اصطدم شلمناصر في معركة قرقر في وادي العاصي عام ٨٥٣ بتحالف دول سورية وعلى رأسها ملك دمشق الآرامي ومن أفرادها آخاب ملك أسرائيل وبئثون عن صور وسائر دول المدن الفينيقية. وقد تم له تحطيم قوتها. ولكن يستدل على أن النصر لم يكن حاسماً كما أدعى في كتاباته الاثيرية من أنه أعاد الكورة عدة مرات بقصد اخضاع سورية وفلسطين. ولم يحصل على خضوع المدن الفينيقية إلا في عام ٨٤٢. وينذكر في حولياته أبناء انتصاره في هذه الكلمات:

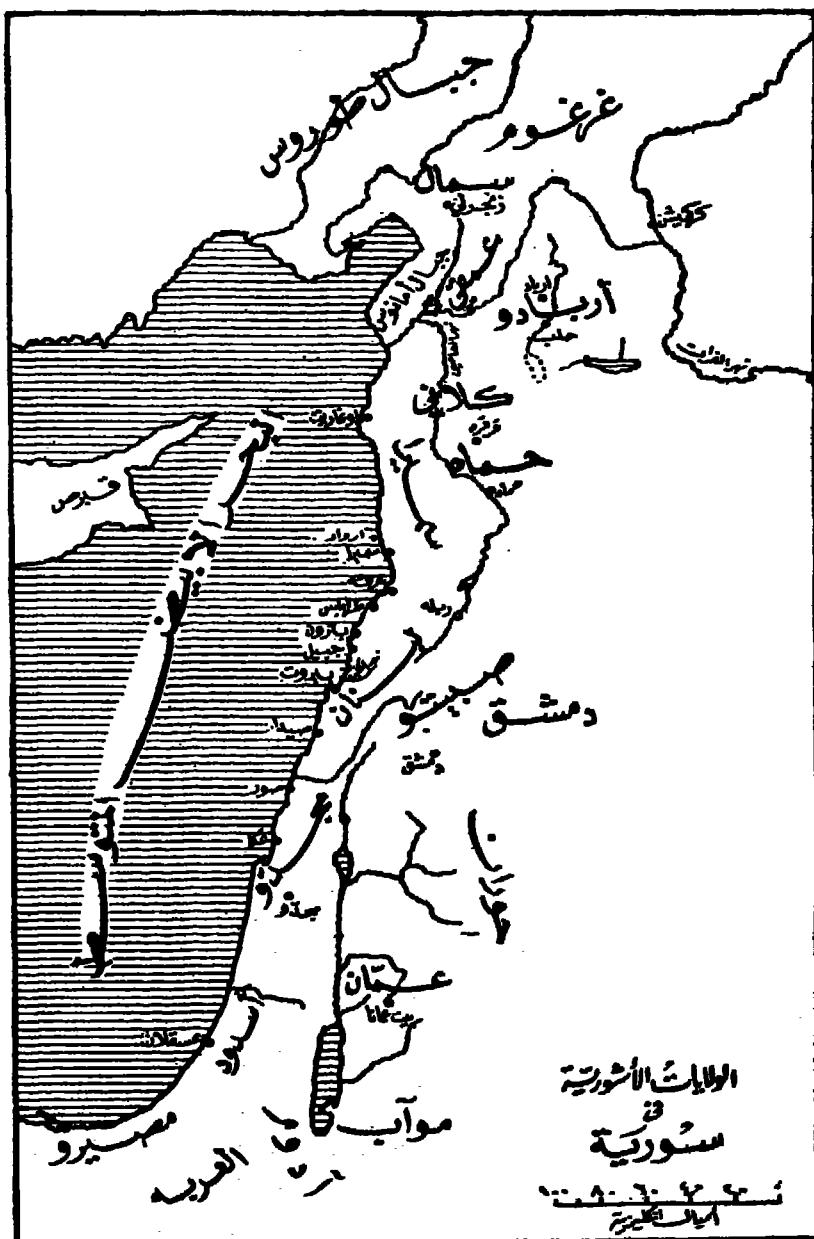
في السنة الثامنة عشرة للملك عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة . وكان حزائيل ملك آرام يتق بجيوشه... ولكنني حققت سقوطه... وزحفت إلى بعل رأسي وهو رأس في البحر واقتصرت صوري هناك. وفي ذلك الحين تلقيت الجزية من رجال صور وصبا ومن يا هو ابن عمري (١).

تلانت الامبراطورية التي اقامها شلمناصر وأباه على حساب الدول السورية وغيرها ثم أعاد تأسيسها بعد قرن تغلات فلاسر الثالث^٢ ووريثه. وقد اقام تغلات فلاسر مسكنه الرئيسي بين ٧٤٣ و ٧٤١ في أرباد Arpad^٣ ومن هناك ارسل حملات لاعادة فتح سورية أو قام بقيادتها بنفسه. واجتاز ابنه شلمناصر الخامس

(١) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 672. ويرجح أن يكون الرأس المشار إليه رئيس الكرمل ولكن هذا الملك ترك دليلاً عن زيارته أيضاً عند تهر الكلب.

(٢) وهو المذكور باسم Pul في سفر الملوك الثاني ١٥ : ١٩ ؛ قارن ذلك مع ٧ : ١٦.

(٣) وقد ذكرت في التلوش الاشورية باسم Arpaddu . وورد ذكرها في اشعياء ١٠ : ٩ ؛ ارميا ٤٩ : ٢٣ . وهي تل ارقد الحديثة على بعد ١٣ ميلاً شمالاً حلب .



فينيقية ومدتها حسب الحواليات السورية التي ذكرها يوسيفوس^١. وكانت صيدا وعكا وصور التي في البر ترحب في تحرير نفسها من السيطرة الملاية لصور التي في الجزيرة وزعامتها فاعترفت بالقاطع وسيادته واعطته اسطولاً مؤلفاً من ستين سفينة يعمل فيها نحو ثمانمائة مجذف فينيقي . وقد تفرق اسطول شملناصر في معركة مع سكان الجزيرة ولكن عدداً كافياً من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل . وكانت الآبار الموجودة داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية للجاجات السكان وأخيراً انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في ٧٢٢ بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها . وسنروي قصة حصار السامرة الذي بدأ في ٧٢٤ وتسليمها لخلفه سرجون الثاني في ٧٢٢ عند الكلام عن مملكة إسرائيل^٢.

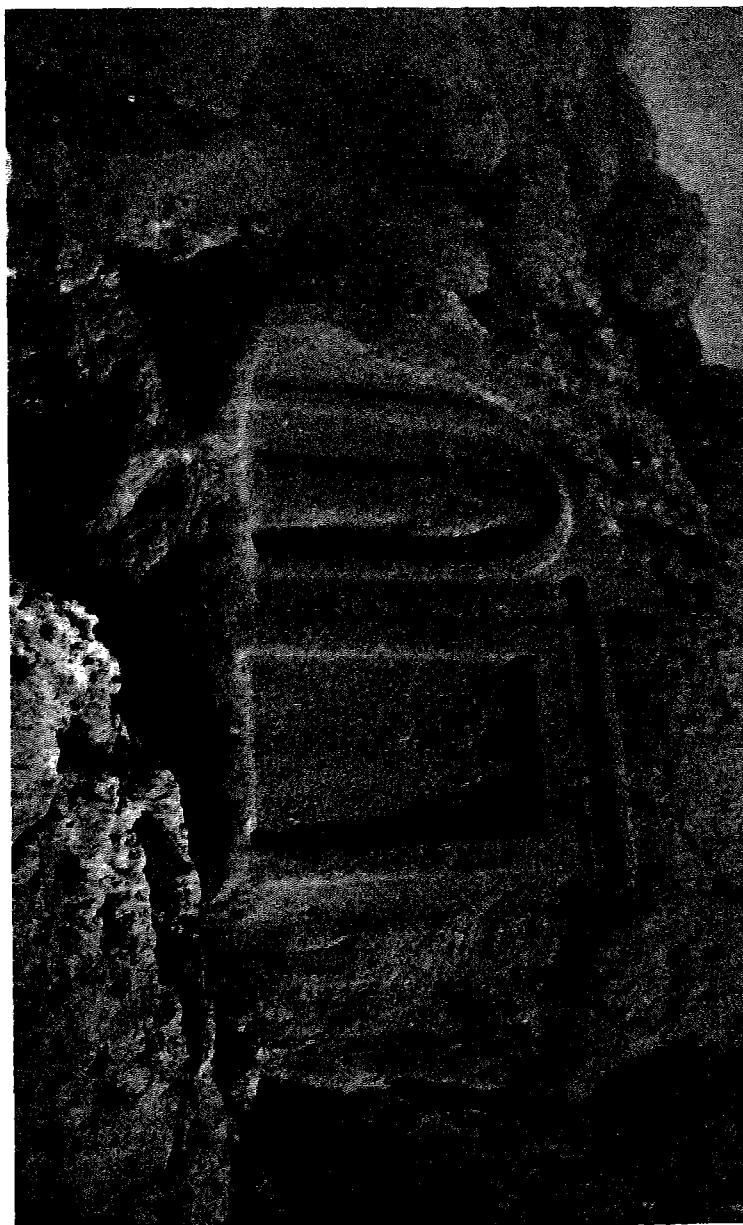
جاء الملك أيلو أيلي (لوبي Nabiha بمعنى «المي هو الاله») وهو ملك صور الميال إلى مصر الذي دافع عن مدينته ضد الأشوريين وظهر كأمم شخصية في منطقة الساحل في عهد سرجون الثاني . ويبدو أنه فرض سلطته على قسم كبير من فينيقية حتى أنه حاول اخضاع قبرص . ولكن سنحاريب (٦٨١ - ٢٠٥) ابن سرجون ووريثه طرد أيلو أيلي أخيراً عبر البحر إلى قبرص ووضع مكانه الملك أينبعل^٣ ملك صيدا الميال لأشور . وأحرق القاطع الأشوري في أول الأمر بيت أيلو أيلي الصيفي في لبنان وداس كرمه . وتسقط جيوشه المتعدرات المرتفعة واستعنوا بالرماح والنبابيت وبالاستراحة تحت الأرض حتى وصلوا إلى قلعة على قمة المكللة بالثلج واقتيد حراستها مكبلاً إلى سنحاريب . ولا تزال ذكريات سنحاريب الذي «نزل كما يستنزل الذئب إلى الحظيرة»، مائة حتى اليوم عند نهر الكلب حيث نقش على الصخور نقشاً يمكن مشاهدته . ومتى سنحاريب من القيام بعاصرته في الخليج الفارسي بفضل بنائي السفن والملاحين الذين أخذهم من فينيقية .

وقامت صيدا التي خضعت لسنحاريب في ٧٠١ ضد ابنه أسرحدون في ٦٧٧ ولكنه هدمها وطرح سورها في الماء . وهرب ملكها عبد ملقارت إلى عرض البحر

(١) *Antiquities Bk ix. ch. 14, § 2.*

(٢) انظر ما سيرد في الفصل الرابع عشر .

(٣) اينبعل بالفينيقية ايتو-بعل itto-ba'lu بمعنى «بعل معه» . انظر Luckenbill, vol. ii § 309 .



متحف بارز لامرسون (الإيلار) ينابيع غوت يليل رعيسان العدد سبع الكتب

ولكتهم اصطادوه وقطعوا رأسه. وبين حصن اشور يسمى كار اسرحدون بجانب موقع صيدا بقصد القاء الربع فيها . وسلم ياكين ايل ملك ارواد مدنته ومعها ابنته . وخضعت مدن فينيقية أخرى تحت زعامة بعل ملك صور لاسرحدون . ووقعت معاهدة بين بعل واسرحدون ولكن ملك صور مزقها حانيا شعر بان الوقت أصبح مناسباً لنزع التير الاجنبي . وهنالك نصب يقوم قرب نصب رعميسين عند نهر الكلب يمثل اسرحدون واقفاً بجبل قرب كتابة اثرية تروي خبر الاستيلاء على هيفيس (في مصر) وعسقلان وصور^١. وفي نصب آخر في زنجريلي (شمال القديمة) غربي عينتاب في شمالي سوريا يقف اسرحدون بمسكناً بجبل ربط به بعل ملك صور وترحافاً ملك مصر من الانف^٢. والواقع هو ان ترحاها لم يقع فقط في الاسر وهذا النصب كان يقصد منه الدعاية على الاغلب . وفي عهد اسرحدون وخلفه اشور بنبيال (٦٦٨ - ٦٢٦) فتحت مصر ووصلت الامبراطورية الاشورية وعاصمتها نينوى الى اقصى حدودها .

السيادة الكلدانية

ادعى الكلدانيون اصحاب دولة بابل الجديدة السيطرة على سوريا كورة الامبراطورية الاشورية . غير ان المدن الفينيقية لم تكن اقل ترداً في عهد اسيادها الجدد منها في عهد الاصياد القدماء . وكانت مصر في هذه الائتمان قد تخلصت من الحكم الاشوري وبدأت تتنازع من جديد مع بلاد الرافدين على السيادة على سوريا . وكانت المدن الفينيقية بوجه الاجمال أكثر ميلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية .

في عام ٥٨٧ ظهر نبوخذنصر بنفسه في شمالي سوريا وقام بمعسكره في ربلة^٣ في وادي العاصي ومن هناك ارسل قسماً من جيشه الى الجنوب للتغلب على المدن

١) ان هذا النصب هو الوحيد بين النصب الستة الاشورية عند نهر الكلب الذي يمكن قراءة كتابته . انظر : Luckenbill, vol. ii, § 582-585 ; Weissbach, pp. 27-30, pls. xi, xii, René Mouterde, *Le Nahr el-Kelb* (Beirut. 1932), p. 18, pl. vi.

A. T. Olmstead, *History of Assyria* (New York), 1923), p. 384; cf. Hall, (2 *Ancient History*, p. 499.

٣) وتقلها قرية بنفس الاسم تقع على ٢١ ميلاً جنوبي حصن .

القينيقية وفتح بلاد اليهودية نهائياً. وبعد حصار دام ثلاث عشرة سنة انتهى في ٥٧٢ خضعت صور^١. وحارب اثناء ذلك ضد سوريا الجوفة وموزاب وعمون وسائر مناطق البلاد^٢. وانتهت بالاستيلاء على صور آخر محاولات الحياة القومية في قينيقية. وكانت المستعمرات اليونانية في هذه الفترة قد حلّت محل المستعمرات القينيقية وورثت نشاطها البحري ونشاط المدن القينيقية الاحصالية. وبذلك انتهى العالم القينيقي الذي اشتهر بنشاطه وعلمه وحيويته، ولكن الشعب القينيقي حافظ على شخصيته حتى فتوحات الاسكندر ولم يكن الاراميون الذين اتوا حديثاً ولا الاسرائيليون والفلسطينيون ليحدثوا تأثيراً كبيراً على هذه الشخصية.

التأثير الحضاري

اكتسب السوريون من الحضارة الاشورية البابلية عناصر كثيرة جداً من مادية ودينية ولغوية ونقلوها اخيراً بطريق اليونان الى سكان غرب اوروبا. وقد اشارنا سابقاً الى المحراث الذي اخترعه سكان بلاد الرافدين وانتشر في بلاد الشرق الادنى^٣. وادى استخدام المحراث الى انتاج نبي اكبر في قطع الاراضي المزروعة وذلك يجعل استعمال التوڑة الحيوانية في الزراعة ممكناً. وكان الدواب من الحسنات الاخرى التي منحها سكان بلاد الرافدين للشرق الادنى. وكانت ظهور الدواب مساعدةً على انشاء نظام متقن للسفر والنقل. ولا يزال تقسيم اوئلث السكان للزمن الى سنة مؤلفة من اثني عشر شهراً والى اسبوع مؤلف من سبعة ايام باقياً حتى اليوم. واؤل يوم في الاسبوع يسمى Sunday بالانكليزية لأنهم كانوا يسكونونه لعبادة الله الشمس. واليوم الثاني (Monday) سمى كذلك بسبب تكريره للالله القمر. ويوم السبت (Saturday) اكتسب اسمه من Saturday (زحل). وتاريخ الاحتفال بعيد الفصح لا يزال متصلاً بالتقديم القمري لمولاء الاقدميين. ونقل السوريون الى اليونان مع تقسيم الزمن قضايان الظل وال ساعات الشمسية لقياس مرور

(١) انظر : سفر حزقيال ٢٩ : ١٨ : ١ : ١٨
do., Apion Bk. I, ch. 19.

(٢) راجع : § 7. Josephus, Antiquities Bk. x, ch. 9. وهنالك نصيّان عند شهر الكلب Weissbach, p. 33.

(٣) ان الكلمة المصرية التي تقابل «میراث» هي epi وهي الكلمة السومرية - الاكادية hebi.

الساعات ، ونظاماً للتنبؤ عن الحسوف والكسوف . وعلامات الابراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً نفس العلامات الاشورية . وكثير من انظمة الموازن والمقاييس قد اتى من البابليين بواسطة السوريين ، وهناك شاهد لفوي لا يزال باقياً في الكلمة « mina » .

المكسوس

كان التغلغل المصري القديم في سوريا قد توقف في مطلع القرن الثامن عشر بظهور مجموعة من الشعوب الغامضة المارة الى الحرب والمعروفة باسم المكسوس الذين سيطروا على سوريا او لا ثم على مصر نفسها . ويرجع هذا الاسم الى المصرية heku shoswet ^١ ومعناها « حكام البلاد الاجنبية » ولكن المؤرخ المصري في العصر المتأخر مانيثو Manetho وهو اول من استعمل هذا الاسم اعتبار ان معناه « الملوك الرعاة » . وبعد ان كان هذا اللقب يطلق على الملوك المكسوس انتقل فيما بعد الى الشعب بكلامله . كان المكسوس بالاصل حشداً او مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفتها منطقة شرق البحر المتوسط الى مصر ثم اصبعوا يمثلون حركة نجم عدا عن الساميين ، الحوريين والختين والميتانيين وهم من غير الساميين . كذلك كان جماعة الحميريين بينهم . وربما كان لهذه الحركة صلات بحركة المندو – الايرانيين او المندو الاوربيين في الشمال ومن ضمنهم الكاسيون في بلاد الرافدين . ويمكن الاستدلال على ان المنصر الرئيسي كان كعناني او امورياً من ابناء حكامهم الاولين كما تظهر على الابنية او مقابر الجعلان . هذه الحركة هي التي كانت سبباً في قدوم عدد كبير من الحثين والحوريين وربما من اليوسيين Jebusites والفرزيين Perizzites وغيرهم من غير الساميين جنوباً حتى فلسطين . والادلة القليلة المتعلقة بهياكلهم العظيمة تشير الى ان غزو البحر المتوسط القديم قد حل محله جزئياً في هذه الفترة غوج شيه بالالي ^٣ .

ويشهد على اتصال المكسوس بالحضارة الهندية الاوربية في الشمال استخدامهم

Steindorff and Seale, p. 24; cf. Robert M. Engberg, *The Hyksos Reconsidered* (Chicago, 1939) pp. 6-7. (١)

Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 14. (٢)

Engberg, p. 41. (٣)

الحصان وهو شيء وبا شارك فيه الكلاشيون . والى جانب الحصان الذي ادخلوه الى سوريا ومنها الى مصر فقد اتى المكسوس بالمركبة الى كل البلدين^١ ولم يستخلص الحصان الى الكوب . وكانت المركبة التي تجرها الحيل من ادوات الحرب ، ولا بد ان ظهورها ترك نفس التأثير الذي تركته الدبابة او الفازات السامة او اي « سلاح سري » آخر في الحرب العالمية الاولى . وال猢ان نفسه القى الرعب في قلوب السكان لانهم لم يشاهدوه من قبل . فلا عجب اذا اهتم المكسوس بدقنه في قبر خاص او مع صاحبه كما تدل البقايا في تل العجول او غزة القديمة . وفي بعض الحالات كان يقدم الحصان كذبيحة ويؤكل لحمه^٢ .

وبين الاسلحة الجديدة الاخرى التي ظهرت اتى المكسوس بالسيف الحديدي المنحني والقوس المركب الذي كان قد ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في عهد سلالة اكادية في القرن الثاني والعشرين . وكان تفوق المكسوس في السلاح يرتكز فوق ذلك على استعمالهم البرونز الذي كانت تمر تجاراته في شمال سوريا . وببلغت صناعة المعادن في عهدهم ذروي جديدة في سوريا ومصر . وتقدمت صناعة الحلي والخزف والجاج والتقطش تقدماً بازدأ . وكان الخفر في العظم معروفاً في سوريا منذ العصر الحجري ولكن صناعة التزييل ادخلت غالباً في هذا العصر^٣ وكانت الاشياء المترفة في اول الامر ذات رسم بسيطة من خطوط ودوائر . ولا تزال صناعة التزييل التي تقوم على ادخال قطع من العظام او العاج بقصد الزخرفة في الصناديق الخشبية او قطع الاناث صناعة فنية مزدهرة في دمشق . وتظهر افكار جديدة في صنع الخزف في عهد المكسوس . وبلغت صناعة الخزف وهي من اكبر الصناعات نجاحاً في فلسطين ذروتها قبل نهاية هذه الفترة .

وانما المكسوس غوذجاً خاصاً من المدينة الحصنة لاجل ايجاد تسهيلات حماية مركباتهم واياها لأن الحصن الكنعاني الاعتيادي لم يكن بامكانه تأمين ذلك . وكان هذا التموذج الجديد عبارة عن سياج مستطيل طوله نحو نصف ميل تحيط به

(١) والكلة المصرية المستخدمة لاجل مركبة هي كلمة « مركبة » السامية .

Petrie, *Ancient Gaza*, vol. i, p. 4, pls. viii, ix, lvii; vol. ii, pp. 5, 14; (٢)
vol. iv, p. 16.

Burrows, p. 190. (٣)

اسوار مرتفعة وكثيفة ومنحدرة من الطين المرصوص القاسي . ولزيادة الحرص كانوا كثيراً ما يحفرون خندقاً حوله . وفي سوريا تقل قطنة Qatna وهي على الغالب عاصمتهم فن العماره عند المكسوس . وفي قادش أثر لهذا النوع . وفي كركميش يظهر الموقع اعمال التحصين ولكن المخطط ليس مستطيلاً . وفي فلسطين تظهر مواقع هازور^١ وحصن شكيم^٢ مخطط المكسوس المستطيل . وكانت لاكيش وشارون أيضاً من مدن المكسوس . واربعاً كانت من حصون المكسوس من حوالي ١٧٥٠ حتى ١٦٠٠^٣ . وكانت بيت شمش تحت ادارة المكسوس في هذه الفترة^٤ .

وفرض المكسوس في سوريا وفلسطين طبقة اقطاعية حاكمة على السكان المحليين . وكان مجتمعهم منظماً تنظيماً ضعيفاً في دولة اقطاعية نوعاً تتركز فيها السيروة في ارستوغراتية مؤلفة من محاربي المركبات بصورة خاصة . وكان النظام تسيطر عليه الصفة العسكرية . وحضارتهم في سوريا تشمل القرنين الثامن عشر والسابع عشر .

المكسوس في مصر

وتسلل المكسوس بصورة تدريجية الى مصر حيث ظهر اثرهم منذ ١٩٠٠ ق.م. في اواسط السلالة الثانية عشرة ولكنهم لم يستولوا على السلطة الا في ١٧٣٠ . ويقول المؤرخ ماتيتو في روايته لهذا الحادث :

لقد تزلت علينا لفحة من غضب الله . فقد تجرأ شعب وضيع الابل من الشرق لم يتباً أحد عن قدميه على غزو بلادنا فسيطروا علينا بالقوة ويدلون صوبه حتى ولا مفركة . وبعد ان تغلبوا على حكامنا فانهم احرقوا المدن بوحشية وخرابوا هيكل الآلهة وعاملوا السكان كلام ينتهي القسوة^٥ .

١) ومنها «جدار او سياج» وهي اليوم تل الفتح شامل بمحير طبرية .

٢) وهي اليوم «البلطة» خارج نابلس الحديثة .

Garstang and Garstang, *Story of Jericho*, p. 1. (٣)

Elihu Grant, *Rumeileh : Being Ain Shems Excavations*, pt. 3 (Haverford 1934), p. 11. وتقل قطنة قرية عين شمس المثيرة الكائنة على بعد عشرين ميلاً غربي القدس على طريق يافا - الخليل . وقرب عين شمس يقوم تل الرملة وهو موقع بيت شمش القديمة .

Josephus, *Apion* Bk. i, ch. 14. (٤)

ويتضح ان دخول المكسوس الى مصر لم يكن شرآ مطلقاً فقد ادخلوا الحصان وأشياء أخرى تظهر لأول مرة على الآثار المصرية. وأقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع إلى عصر المكسوس في مصر في القرن السابع عشر^١. واعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية وضعت في ١٥٨٠ تحت حكم المكسوس^٢. وبجعل المكسوس المهم بعل معادلاً للله المصري سبت ونقلوا عبادته الى فراعنة السلالات التالية وخاصة العاشرة الذين قد يرجع اصولهم الى المكسوس^٣ كذلك ادخلوا بين سائر الآلهة اخت بعل ورفيقته عنات وجعلوا عشتاروت معادلة لايزيس . ويعتقد ان سكنى اسرائيل في مصر وتدرج يوسف الى السلطة من الحوادث التي تمت في فترة المكسوس .

اقاريس

كانت عاصمة المكسوس في مصر مدينة اقاريس Avaris^٤ في الدلتا ومنها بسطوا حكمهم في مصر الوسطى. وقد حكمت اول سلسلة من الملوك السوريين هناك قبل السلالة الخامسة عشرة وكانت اسماؤهم كنعانية او امورية واضحة مثل عنات هار ويعقوب هار (يعني : ليحمي هار الله الجبل). ويعقوب هذا هو حتماً يعقوب المعروف في التوراة . وكان ملكه السلالة الخامسة عشرة والسادسة عشرة من المكسوس واعظيمهم سلطة في السلالة الخامسة عشرة هو خيان الذي ينبع كابيلدو في توحيد سورية ومصر في امبراطورية واسعة لمدة قصيرة على الاقل . وأثاره مبعثرة بين بلاد بابل حيث وجد اسد يحمل اسمه وكويت حيث يظهر اسمه على عظامه من الالبستر . وتشبه ذلك في كثثرتها آثار ملك آخر من هذه السلالة وهو آبوفيس^٥

James H. Breasted, *The Edwin Smith Surgical Papyrus*, 2 vols. (Chicago, 1930).

T. Eric Peet, *The Rhind Mathematical Papyrus* (London 1923). (٢)

Albright, *From Stone Age*, p. 169 (٣)

(٤) ان مدينة اقاريس وهي مدينة النيل التي بناها الاسرائيليون لمسين الثاني وقسمت باسمه (سفر الخروج ١١ : ١١) ، وقائيس Tanes في الصعر الكلاسيكي ، وتيس التي ذكرها العرب في المصور الوسطى ، وصوعن Zorn المذكورة في التوراة (عدد ١٣ : ٢٢) كلها اشكال مختلفة لنفس المدينة . وموقع المدينة اليوم هو «مان الحجر» الذي يذكرنا باسمها البري (صومون) .

الاول . ويبدو ان المكسوس كانوا في هذا المهد قد اقتبسوا الفضة
المصرية واستعملوا معها الاموال المصرية .

وبعد قرن ونصف من حكم المكوسن البيض (حوالي ١٧٣٠ - ١٥٨٠)
بدأت حرب التحرير بصورة جدية عن يد أمير من طيبة اسمه أحمس Ahmose الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة الذي بعد مهاجمات متكررة كسب معركة
أفاريس الخامسة وطرد الاجانب من البلاد . وانسحبت قواتهم المسلحة الى سوريا
حيث كانوا على رأس تحالف من الاراء السامية . ولم يدخل أحمس وقائفي
ملاحقتهم . واول مكان وقفوا فيه وقفه صامدة كان في معقلهم الجنوبي في شارونحن Sharuhene . وكانت مقاومتهم عنيفة حتى ان الحصار دام ثلاث سنوات . وقد
بدأ بحملات أحمس وخليفته في سوريا اتجاه جديد في سياسة مصر الخارجية استمر
في السنين التالية . وكان تحوتيس الثالث (م ١٤٤٧) هو الذي سدد الضريبيات الفاضحة
لسلطة المكوسن في سوريا . وعمل المصريون ما في وسعهم للقضاء على آثار اعدائهم
ولمذا السبب بقيت معلوماتنا عن المكوسن ناقصة لهذا الحد .

الموارد

وكانت من الجماعات التي تألف منها خليط المكسوس جماعة الحورين وهم شعب لا سامي ولا هندي اوري ولا يزال اصله مجهولاً. وكانت حضارتهم من اكثربالعناصر حيوية في اواخر عصر المكسوس والفترات التالية مباشرة. وقد اتى الحوريون من المرتفعات الواقعة شمال شرق الملال الحصيبي بين بحيرة اوريème وجبل زاغروس، وفي اواخر القرن الثامن عشر غزوا شمالاً بلاد الارافدين وسكنوها ومنها اتجهوا الى سوريا الشمالية حيث اسسوا احدى الممالك الفرعية في الشرق الادنى . وكانت الاموريون قبل ذلك قد سكروا ذلك القسم من سوريا. وقد يكون ظهور الحوريين في بلاد الملال الحصيبي متصلاً بالحركة العامة التي اتت بالمنود الايرانيين الى فارس والمند والتي فرضت نزول الكاشين من زاغروس الى بلاد بابل .

١) وقد اقترح ان يكون موقعها تل الفرعة في وادي غزة شمال غربى بئر السبع .

Breasted, *Records*, vol. ii, § 13; and *A History of Egypt* (New York, 1905) ٢٢٧ p. وتقول هذه المراجع إن مدة الحصار كانت ست سنوات مما يجعله أطول من أي حصار قبله في التاريخ.

ملكة ميتافي

وقد نجح الحوريون حوالي ١٥٠٠ ق. م. في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتافي التي بلغ من قوتها ان امتد حكمها من البحر المتوسط الى مرتفعات ميديا وتضم بلاد اشور . وكانت عاصمتها اشوكلافي ويظن ان موقعها هو الفخارية على البابور شرق تل حلف وخزان . وكان مركزها الرئيسي في بلاد الرافدين أرَبَخَا Arrapkha (كركوك الحديثة) وقد جرت الحفريات حديثاً في ضاحيتها نوزي^١. وكان يعرف المصريون ميتافي باسم نهارين . ويبدو ان نفس البلاد التي تشير اليها الواح تل العارنة باسم سوبارت أو «بلاد السواباريين» . والسوباريون هم شعب آخر غير سامي كانوا غالباً بين سكان البلاد قبل وصول الحوريين^٢ . وكان الحوريون في ميتافي يشكلون اكثريّة السكان ولكن الاستوغراتية والملوكي كانوا هنوداً او ربيين . وكان ملوكي ميتافي في معاهداتهم مع جيرانهم يتوجون الى ميثرا وفارونا Varuna وإندرا وغيرها من الآلهة التي تبعد في الهند . واسماء الملوك مثل توشراتا هي اسماء هندية اوربية واضحة .

وكان توشراتا هذا اشهر الحكماء الميتانيين . وقد وجدت تحارير كثيرة في تل العارنة موجهة منه الى امنحوتب الثالث (توفي ١٣٧٥) والى امنحوتب الرابع (توفي ١٣٥٨) . والتحارير مكتوبة بالاكادية وهي اللغة الدولية في ذلك العصر ، غير ان نثريأ واحداً كتب بالحورية لغة الدولة الرئيسية . وكانت احدى شقيقات توشراتا بين نساء امنحوتب الثالث كما ان احدى بناته تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعده امنحوتب الرابع .

ويخاطب توشراتا امنحوتب الثالث في احدى رسائله بهذه الكلمات :

إلى ميموري الملك العظيم ، ملك مصر ، أخي ،

صهري الذي يحبني والذي أحبه ،

١) وبصورة اصح نوزو وهي اليوم يورغان به Tepe Yorgan على عشرة أميال شرق كركوك حيث يبدأ خط الأنابيب الى حيدا وطرابلس .

٢) Gelb, pp. 1-2, 48.

هكذا يقول توشراتا الملك العظيم ، حموك ،

الذي يحبك ، ملك ميتاني ، اخرك :

انني في حالة حسنة . عسى ان تكون في حالة حسنة ! وبيتك ،

وشقيقتي وسائر نسائك وأولادك ،

ومركيانك وخيوبك وجيشك ،

وبلاسك وجميع ممتلكاتك . ليڪثر السلام عليك ۱)

كانت مملكة ميتاني خلال القرن الرابع عشر في وضع قلق حيث كانت محصورة بين الدولة الحثية الناشئة في الشمال والامبراطورية المصرية الآخذة في التوسيع في الجنوب . وتقيدنا الوثائق المصرية السابقة لهذا العهد ان تحوتيس الاول وتحوتيس الثالث وامنحوتب الثاني قاما بمحرب موقعة ضد نهارين^{۲)} . وقد هرجم توشراتا الصديق المولى لمصر قبل انتهاء حكمه من قبل الفاتح الحثي العظيم شوبيلوليموا الذي تابع فتوحاته اثناء حكم ماتيوازا ابن توشراتا . وقد نصت معااهدة بين شوبيلوليموا وماتيوازا على احتفاظ الفاتح الحثي بشمال سوريا على ان تكون حدودها الفرات في الشرق ولبنان في الجنوب . اما القسم الباقي من المملكة فقد اصبح تابعاً فيما بعد للملك الاشوري أدد نيراري (١٣٠٤ - ١٢٧٣) ثم اصبح قسماً من الامبراطورية الاشورية المتعددة في عهد وريثه شلمناشر الاول^{۳)} . وهكذا زالت دولة كانت في احد المصور تشارك مصر والدولة الحثية السلطة العالمية .

اللغة الحورية

لم يتمكن العلماء بعد من تفسير رموز اللغة الحورية ولكنها كما يبدو ليست بلغة سامية ولا هندية اوربية . واقدم وثائقها هي ست الواح دينية من ماري والواح قليلة اخرى من الآلنج Alalakh (تل العطشانة) في سهل انتاكية . وقد بنيت

Bezold, No. 8 ; Mercer, No. 19. (۱)

(۲) انظر ما جاء في من ١٤١ .

Gelb, pp. 76, 80-81. (۳)

المؤسسة الحورية في الألغى على مؤسسة امورية سبقتها . وترجع هذه الا لواح الى نحو اربعين سنة قبل الموارد الحورية التي وجدت في بونغاز كوي ورأس الشمرة . واكتشفت في رأس الشمرة بعض الا لواح الحورية وقاموس سوري - حوري . واستخرجت من مدينة قطنة Qatna لائحة باسماء الاعلام الحورية . والعدد الكبير من الا لواح المكتشف في نوزي من القرن الخامس عشر قد كتبه باللغة الاكادية كتبة حوريون استعملوا بعض الكلمات حورية هنا وهناك . وقد عرفت معانٍ هذه الكلمات من النص الاكادي الذي وجدت فيه . وتلقي حفظات نوزي ضوءاً جديداً على طرق المعيشة في عهد اسلاف الشعب العبراني وان كان هذا الامر يبدو مستغرباً . من ذلك ان عقود الزواج في نوزي كانت تتطلب من الزوجة العاقر ان ترود زوجها بمحاربة تلد له اولاداً .

بقايا الحوريين

وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سوريا في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ان المصريين اخذوا يطلقون اسم خورو Khuru على بلاد كنعان . وترك



تمثال نصفي لاحد المكسوس وجد في غزة ويوضح شكل الوجه الحوري

حضارتهم المادية بقايا من الحرف المدهون بناءً على بيضاء على أرضية قاعة وأثار نوع خاص من البناء وفن النقش على الاختام . والحوريون *Horites* المذكورون في المهد القديم الذين كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الهممية لم يكونوا سوى هؤلاء الحوريين (*Hurrians*). وقد انتفع ان ترجمة هذا الاسم «ساكني الكهوف» هي ترجمة خاطئة . وكان الحويون *Hivites* غالباً هم أنفسهم الحوريون .

ويعتقد ان الحوريين هم الذين اعطوا الاشوريين تلك الملامح التي غيّرها عن ابناء عهم الساميين في الجنوب اي البابليين واللامامح السامية المزعومة التي يتصرف بها اليهود هي بالحقيقة حشية حورية . وبعد الفتح الذي ميلتاني اصبح الحوريون مشمولين باسم «حتي» اليهود . وفي شرق سوريا امتص الأراميون بقايا الحوريين . وتوجد قرب زحلة في لبنان قرية تسمى الفرزل وتحتفظ بالكلمة التي معناها الحديد (*brzl*) وترد في نص من رأس الشتر . ولا يزال النوع السادس حتى اليوم بين اللبنانيين من موارنة ودروز هو النوع ذو الرأس القصير العريض حسب نتائج الاجماعات الانثروبولوجية^١ . وينطبق الامر نفسه على التصيرية في شمال غرب سوريا . ويختلف ذلك اختلافاً واضحاً عن الموجة الطويلة الرأس الذي يسود بين البدو في بادية الشام وبين سكان شمالي الجزيرة العربية^٢ .

Carl C. Seltzer, *The Racial Characteristics of Syrians and Armenians* (Cambridge, Mass., 1936), pp. 10 seq.; do., *Contributions to the Racial Anthropology of the Near East* (Cambridge, 1940), pp. 20-21, 37-50; William M. Shanklin and Nejla Izzeddin, «The Anthropology of the Near East Female», *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxii (1937), pp. 379; seq.; C. U. Ariens Kappers, «The Anthropology of the Near East», *Actes du XVIIIe congrès international des orientalistes* (Leyden, 1931), pp. 178-9.

(١) راجع : Carleton S. Coon, *The Races of Europe* (New-York, 1939), pp. 623-4; William M. Shanklin, «The Anthropology of the Ruwala Bedouins », *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. Lxv (1935), p. 379; do. « Anthropology of the Akeydat and the Mauly Bedouin », *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxi (1936), p. 248. وقد اظهرت الاعمال الحديثة ان طريقة وضع الأطفال في السرير تسبب نفطسة الرأس احياناً .

المحيون

وكان المحيون الذين تبدو ملامحهم على الآثار شبيهة بلامع الحوريين شعباً أناضولياً في الأصل يسكن منطقة نهر المايس Halys. كانوا يسمون بلادهم خاطي^١ وعاصمتهم (مدينة خاطي) خطوش وهي اليوم بوغاز كوي على بعد تسعميلات شرقى انقره. وبأني الاسم الانكليزى من كلمة حطي Hilli العبرية. ولا يزال موقع عاصمتهم القديمة كوششار Kushshar بمحولاً. وفي حوالي ٢٠٠٠ ق. م. تقلب الفراة المنود الاوربيون على القبائل الخاطية وتنج عن غازج السلاط الأصلين الاناضوليين بالفاتحين المنود الاوروبيين الخاطيون في آسيا الصغرى. وشكل السجناء الذى يتمثل في الانف الكبير والجبهة والذقن المتراجعتان كان شكل السكان الأصلين ولا يزال سائداً في شرق الاناضول وبين الارمن.

الملكة الحثية القديمة

وكان أول ظهور لخاطيين في عملية حربية كبيرة كبرى نحو ١٥٩٥ حين نهب ملوكهم مرسلش الأول مدينة بابل بنتيجة غزوه لها وانتهت بذلك سلالة بابل الأولى التي كان حمورابي من ملوكها. وكان مرسلش نفسه قد فتح حلبا Halpa (حلب) وهلها وسي سكانها وارسل حدد وسائل آتمتها ككتنائم حرب الى خطوش التي نقل اليها مركز الحكم من العاصمة القديمة. وكانت حلب مركزاً ليس لمبادرة حدد فحسب وإنما لملكة اسمها يميخاض كان يحكمها قبل هذه الفترة بقليل يرم لم الذي كانت يسيطر على عشرين من صغار الملوك. وتغلق أحد خلفاء مرسلش في اراضي الامكسوس جنوباً حتى دَمشونس Damashunas التي تشبه لنقطة دمشق^٢. وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه يكون أول ذكر لدمشق في التاريخ المدون. ومهما يكن فإن ملوك خاطي لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بسلطنة دائمة على المنطقة الواقعة جنوبى جبال طورس. وظلت هذه الجبال حدود الملكة القديمة من جهة الجنوب.

١) وقد وردت في التقوش الآثرية المصرية باسم خيطا Kheta، وربما كان معن هذه الكلمة «النفس».

John Garstang, *The Hittite Empire* (London, 1929), p. 3; *Heritage of Solomon*, p. 30. (٢)

المملكة الحثية الحديثة

دامـتـ المـملـكـةـ الحـثـيـةـ الـحـدـيـثـةـ اوـ الـامـبـاطـورـيـةـ الثـانـيـةـ منـ حـوـالـيـ ١٤٥٠ـ حـتـىـ ١٢٠٠ـ قـ.ـ مـ.ـ وـبـلـفـتـ ذـرـوـتـهـاـ فـيـ عـهـدـ الـمـلـكـ الـفـوـيـ شـوـبـيلـوـلـيـومـاـ (ـحـوـالـيـ ١٣٨٠ـ - ١٣٥٥ـ)ـ .ـ وـقـدـ حـصـلـ بـنـتـيـجـةـ تـقـدـمـهـ فـيـ مـيـتـانـيـ عـلـىـ مـرـكـزـ ثـابـتـ فـيـ شـمـالـيـ سـوـرـيـةـ وـعـكـسـنـ مـنـ اـنـزـاعـ مـنـطـقـةـ تـمـتدـ حـتـىـ جـنـوـبـيـ جـبـيلـ مـنـ الـمـصـرـيـنـ .ـ وـفـيـ نـهاـيـةـ حـكـمـهـ كـانـتـ اـمـبـاطـورـيـتـهـ قـدـ اـصـبـحـ اـقـوىـ دـوـلـةـ فـيـ غـرـبـيـ آـسـيـاـ .ـ وـدـخـلـ الـمـكـسـوـسـ وـالـمـيـتـانـيـوـنـ وـالـحـورـيـوـنـ فـيـ دـوـلـةـ يـكـنـ اـنـ نـسـيـهـاـ الـآنـ حـشـيـةـ .ـ وـاـصـبـحـ كـرـكـيـشـ الـمـعـقـلـ الرـئـيـسيـ جـنـوـبـيـ جـبـالـ طـوـرـسـ .ـ

لـمـ يـعـتـمـدـ شـوـبـيلـوـلـيـومـاـ فـقـطـ عـلـىـ اـسـتـخـدـامـ السـلاحـ .ـ فـقـدـ جـلـاـ إـلـىـ اـثـارـةـ الـاضـطـرـابـ ضـدـ مـصـرـ فـيـ مـقـاطـعـتـهـ الـأـسـيـوـيـةـ وـاقـتـنـاعـ اـمـيرـ اوـغـارـيـتـ اـنـ يـتـخلـيـ عـنـ جـلـيقـهـ فـرـعـونـ^١ـ وـنـجـحـ فـيـ ذـلـكـ كـلـهـ .ـ وـاسـتـخـدـمـ الزـعـيمـ الـأـمـوـريـ عـبـدـ عـشـرـتـاـ وـابـنـهـ اـزـيـروـ «ـكـظـابـورـ خـامـسـ»ـ .ـ وـاـخـذـ اـزـيـروـ يـكـتـبـ إـلـىـ اـخـنـاتـونـ عـنـ اـسـفـ الـبـالـغـ بـاـنـ مـهـمـتـهـ فـيـ مـقـاـوـمـةـ الـفـزوـيـيـ .ـ وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ كـانـ اـزـيـروـ يـكـتـبـ إـلـىـ اـخـنـاتـونـ عـنـ اـسـفـ الـبـالـغـ بـاـنـ مـهـمـتـهـ فـيـ مـقـاـوـمـةـ الـفـزوـيـيـ .ـ الـحـيـ لـمـ تـسـمـحـ لـهـ بـالـحـصـولـ عـلـىـ شـرـفـ الـاجـتـاعـ بـالـمـوـفـدـ مـنـ فـرـعـونـ .ـ وـاـصـبـحـ الـأـمـوـرـ مـضـطـرـيـةـ حـتـىـ اـنـ الـقـيـمـ الـمـصـرـيـ نـفـسـهـ كـانـ غـيـرـ قـادـرـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ الصـدـيقـ مـنـ الـعـدـوـ .ـ

معاهدة مع مصر

وـاستـأنـفـ النـزـاعـ لـأـجـلـ السـيـادـةـ عـلـىـ سـوـرـيـةـ بـيـنـ الـأـمـبـاطـورـيـتـيـنـ الـمـتـافـسـتـيـنـ عـلـىـ زـعـامـةـ الـعـالـمـ حـيـنـ حـاـوـلـ فـرـاعـنـةـ السـلـالـةـ التـاسـعـةـ عـشـرـ الـأـوـائـلـ اـسـتـرـجـاعـ مـاـ عـجزـ آخـرـ مـلـوكـ السـلـالـةـ التـامـنـةـ عـشـرـ عـنـ الـاحـتـفـاظـ بـهـ .ـ وـفـيـ مـعرـكـةـ قـادـشـ الـمـشـهـورـةـ الـتـيـ تـلـتـ ذـلـكـ (ـنـحـوـ ١٢٩٦ـ قـ.ـ مـ.)ـ لـمـ يـكـنـ النـصـرـ الـذـيـ اـدـعـاهـ رـعـمـيـسـ التـانـيـ عـلـىـ عـدـوـهـ الـحـثـيـ موـتـلـشـ Muwatallisـ نـصـراـ مـيـنـاـ كـاـ اـذـاعـ رـعـمـيـسـ ،ـ وـذـلـكـ بـالـإـسـتـنـادـ إـلـىـ نـتـائـجـ الـمـرـكـةـ .ـ قـدـ اـدـعـىـ رـعـمـيـسـ اـنـ قـهـرـ زـعـيمـ خـيـطاـ وـذـيـعـ جـيـسـ رـؤـسـاءـ حـلـفـائـهـ وـهـزـمـ الـعـدـوـ حـتـىـ الـعـاصـيـ (ـوـطـرـحـمـ فـيـ الـمـاءـ كـالـمـاـسـيـحـ ؟ـ وـقـدـ سـقطـواـ عـلـىـ

١) انظر : Kundzon, No. 45, II. 22, 30; Mercer No. 45, II. 22, 30.

وجوههم الواحد فوق الآخر وتقنون من قتل من شاء قتله^١. والحقيقة هي انتقاميس تتمكن بصعوبة من اتخاذ حياته عندما تعرض لکمين بطريق الحياة، وعمل هجوم المركبات الحية على تفريق عماريه. وقد اضطر بالنتيجة الى الانسحاب من سوريا الشمالية والوسطى والى توقيع ميثاق عدم اعتداء نهر عام ١٢٨٠ مع حتوشش أخي موتاش والملك الثاني بعده. وهذا هو الميثاق الوحيد الذي وصلنا من العصور القديمة. وكان هدفه كما قالت الوثيقة «ان يكون سلام وآخاء بيننا الى الابد». واعترف الميثاق بأن سوريا الشمالية ومن ضمنها اموره أصبحت حية بينما بقيت سوريا الجنوبية بما فيها فلسطين تحت الحكم المصري^٢. واحتفظ بنسخة من الميثاق الاصلية منقوشة على لوح فضي باللغتين المصرية الميروغлиفيّة والبابلية المسماوية.

وبعد فترة من الانحطاط سقطت الامبراطورية الحية حوالي ١٢٠٠ ق. م. بتأثير هجمات من جهة اخرى وهي منطقة بحر ايجيّة. ولعب الفرمييون الدور الرئيسي بين الفرقة كما يبدو. وقامت في شمال سوريا على انقاض الامبراطورية الحية بمالك وطنية صغيرة مراكزها كركميش وحلب وحمّة. وكان الاشوريون يسمونها بمالك حية. وكان قيامها في عصر توسيع الامبراطورية الاشورية التاسعة نحو الغرب التي كانت دوماً تهدد كيانها. وسقطت الواحدة بعد الاخرى فريسة للدولة المتّوسيّة من الشرق. وكان فتح كركميش في عام ٧١٧ عن يد سرجون الثاني عنوان انتهاء آخر دولة حية مستقلة.

صلة الحشين بفلسطين

وقدت كلمة «حي» معناها السياسي بعد ادخال الامبراطورية وحارثها مدولاً جديداً حضاري وعرقي. واستمر الاشوريون في تسمية سكان المناطق التي كان يسكنها الحشين سابقاً بالخشين بالرغم من ان اكثيرتهم لم تكون لهم صلة عرقية بالخشين الانطاوليّن القدماء او بالخشين المنود الارديين. ولم تكن فلسطين في اي وقت قسماً من الامبراطورية الحية ولكن عناصر حية كبيرة وجدت فيها.

Stiendorff and Seidl, p. 251; cf. Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, § 336. (١)

Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, §§ 307-91. (٢) انظر تفاصيل هذه الشروط في:

ويطلق مؤلف احدى وثائق الهدى القديم اسم الحثين بوجه عام على جميع سكان البلاد من غير الساميين قبل بجي، البرانين . ويبدعى هذا المؤلف وجود عنصر حثي بين سكان فلسطين منذ أيام ابراهيم ويعتبر حبرون (الخليل) مدينة حثية.^١ ويروى ان عيسو تزوج نساء حثيات وتزوج بنو اسرائيل مع الحثين^٢. وتشهد الآثار عن وجود تأثير حثي مادي هناك في القرن الرابع عشر بشكل تقدمات نذرية واحتضان واسلحة ذات اشكال خاصة . وليس من شك في ان سليمان كان لديه نساء حثيات بين حرميه^٣. وعندما خاطب النبي حزقيال^٤ مدينة اورشليم الحائنة قال لها : «ابوك امورى وامك حثية».

نظام الدولة الحثية

كانت المملكة الحثية فوق كل شيء ارستوقراتية اقطاعية تمارس سلطتها على مجموعة متنوعة من العناصر العرقية . ويوجع نجاحها العسكري كما كانت الحال بالنسبة للمكسوس الى استخدام المchan والمركبة كسلاح رئيسي . وكان سلاح المركبة يتتألف من سائق ومحارب وحامل ترس وكان الترس مربعاً . وفي ساحة القتال كانت الحثيون يستخدمون ايضاً فرقاً منظمة من الشاة يقودها امراء من الاسرة المالكة او زعماء مخليون . وكانت اسلحة المجموع الفوس والفالس والرمي والسيف المعنى .

اللغة الحثية

كانت اللغة الحثية مزيجاً كما كان الشعب الذي نفسه غير انه يمكن تعريفها عموماً كلغة هندية او أوروبية او متعلقة بلغات هذه المجموعة . والارستوقراتية العسكرية كانت كافية مبنية من اصل هندي اوربي . وربما كانت الارستوقراتيين من اصل واحد وتتكلمان نوعاً من اللغة ذاتها .

١) سفر التكوير ٢٠-٢١٢٣ .

٢) التكوير ٢٦:٣٤؛ الفتنة ٣:٥-٦ .

٣) سفر المؤك الاول ١١:١١؛ موسى الثاني ١١:٣ .

٤) سفر حزقيال ١٦:٣ .

ووجدت اكبر مجموعة من الوثائق الحثية في ١٩٠٦ - ١٩١٢ في بوغاز كوي واتضح ان هذه الوثائق هي محفوظات الدولة وتتألف من اكثر من ١٥٠٠٠ لوح خزفي جمعها ملوكهم نحو ١٣٠٠ ق.م. وهذه الاوواح الخزفية المكتوبة بالمساربة التي فسرها عالم تشيكي^١ تشكل اهم مصادر معلوماتنا عن الحثيين. وقد استعمل الحثيون الكتابة المساربة لاجل حاجاتهم اليومية بينما استخدموها الكتابة الهيروغليفية في الآثار. والكتابات الاحترافية الهيروغليفية على الصخر تتناوب سطورها من الشمال الى اليمن ومن اليمن الى الشمال وقد فسرت رموزها في السنوات الاخيرة. وامم مواقع الآثار الحثية في سوريا التي تحمل كتابات هيروغليفية هي كركميش (جرابلس) وحلب وحماء^٢. وتوجد اربع وعشرون كتابة على الحجر من كركميش في المتحف البريطاني وفي متحف استانبول اربع كتابات من حماة. ووجدت في رأس الشمرة اربعة اختام حثية.

وتتألف بقايا الادب الحثي من تراث وصلوات واساطير وعقود ورسائل . وقد اكتشف جزء من مجموعة قوانينهم التي ترجع الى منتصف القرن الرابع عشر^٣. والعقوبات التي تفرض اخف بكثير مما عند الساميين . فليس هنالك تشريع على اساس مبدأ « العين بالعين » ويتبين من كثرة القوانين المتصلة بالزراعة انها كانت تشكل اساس الحياة الاقتصادية.

الديانة

ولا نعلم حتى الان سوى الشيء القليل عن الديانة الحثية . وتظهر الافكار المتعلقة بعبادة الارواح بصورة بارزة في الشكل البدائي لهذه الديانة . فالينابيع والانهار والاشجار والجبال كانت تعتبر مقدسة . وكان أشهر الآلهة تি�شوب الله العاصفة وهو الاله الوطني . وكان الميتانيون يعبدونه . وألمة المدن كانت مظاهر محلية لهذا الاله . وكان اسمه الحثي تلبنش *Telepinush* . وهو يقابل الاله السوري حدد ورفيقته تسمى

١) واسم هذا العالم فريدرخ هروزنzy Friedrich Hrozny انظر كتابه : *Die Sprache der Hethiter* (Leipzig, 1917); *Hethitische Keilschrifttexte aus Boghazk6i* (Leipzig, 1919).

٢) Ignace J. Gelb. *Hittite Hieroglyphic Monuments* (Chicago, 1939), p. 8. (٢)

٣) F. Hrozny, *Code hittite provenant de l'Asie Mineure* (Paris, 1922). (٣)



الله المثي يি�شوب الله العاصنة

وُجِدَ فِي تل الاحمر (تل برب سب القديمة) جنوبى كركييش على الفرات
واليوم في متحف حلب

وقد تدل لحية الاله الاشورية الشكل ان تاريخ النصب يعود الى القرن الثاني عشر.
وقرس الشمس المخاط بقمر عنخ يظهر تأثيراً مصرياً . ويملك الاله بساعقة ذات ثلاثة
فروع بيده السرى ويرفع فأس حرب بيده اليسرى . والثور الذى يقف عليه هو رمز
الثورة والثصب . والاحذية المتوجة الى الاعلى لا يزال يلبسها بعض سكان جبال لبنان .

عشتاروت في المعاهدة مع مصر ولكن اسمها الحثي لم يعرف حتى الآن وربما كانت «ما Ma» وهي الأرض الام واقدم آلة لدى الشعب المغلوب . وعبادة تيشوب — عشتاروت تقابل عبادة نوز — عشتاروت عند السوريين وأصبحت في الغرب عبادة ادونيس والزهرة (فينوس) ، وفي آسيا الصغرى لدى الفريجيين أصبحت عبادة آتيس Attis وسيبيل Cybele . وكان يمثل تيشوب عادة بشكل رجل يقف على ثور وبعساك الصاعقة . واقوى الآلهة اتنى كانت الآلهة الشمس التي أصبحت الآلهة الحرب واتخذت بعض صفات الأرض الام . ولباس الآلهة كما يتضح من الآثار كانت رداء قصيراً وقبعة مخروطية الشكل ، أما لباس الآلهة فكان ثوباً طويلاً وقبعة اسطوانية مرتفعة . والاحذية المرrose والمفتوحة الى الاعلى في قسمها الامامي كانت من الصفات المشتركة في لباس الآلهة الاتنى والذكر . والاسκαλ البشرية كانت تمثل بنفس اللباس ولكن بمجمـع أصغر . واللبـسة الثقـيلة والاحذـية المفـتوحة الى اعلى تـقيـد ان اصل هذا الشعب كان في اقليم بارد تهطل فيه التـلـوج .

وعندما احتلـ الحـثـيون بالـسـورـيـن وـالـمـصـرـيـن وـالـاـشـوـرـيـن اـقـبـلـوا الـآـلـمـةـ الـاجـنـيـةـ . وقد استشهدوا في المعاهدة مع مصر «بالـتـ من الـآـلـمـةـ الذـكـورـ وـالـانـاثـ» . وربما يمكن ان نستنتج من اهمية الآلهة الاتنى في مجموعة الآلهة الحثية ومن الشرط الذي وضعه شوبيلوليموا لمساعدة ماتيوازا لاجل وراثة عرش ميتافي وهو زواج هذا الامير من اميرة من خاطبي على ان تكون زوجته الوحيدة — يستنتج من ذلك ان وضع المرأة بين الحثيين كان رفيعاً نسبياً مع وجود ميل نحو اتخاذ زوجة واحدة .

من هم اخـابـيـروـ ؟

بينـا كانـ الجـيـشـ الحـثـيـ فيـ قـتـلةـ الـهـارـنةـ يـقـومـ باـعـمالـ الـحـربـيةـ فيـ الشـمـالـ كانـ جـمـاعـةـ منـ المـرـتـقةـ الـاجـانـبـ الـذـيـنـ يـسـمـونـ فـيـ الـكـتـابـاتـ الـمـسـاـرـيـةـ اـخـابـيـروـ Khabiru يـجـتـاحـونـ الـبـلـادـ فـيـ الـجـنـوـبـيـةـ . وقدـ اـعـتـبـرـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ الـاـكـادـيـةـ مـعـادـلـةـ الـكـلـمـةـ الـعـبـرـيـةـ «ـعـبـرـيـ»ـ (ـوـعـبـرـانـيـ الـتـيـ تـرـجـمـ عـادـةـ «ـبـالـذـيـ يـأـقـيـ مـنـ الـجـانـبـ الـأـخـرـ»ـ اوـ بـعـنـيـ «ـالـعـابـرـ»ـ)ـ . وـيـوـصـفـ اـخـابـيـروـ فـيـ وـثـائـقـ نـوزـيـ مـنـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ بـاـنـهـمـ عـيـدـ اـصـبـحـواـ كـذـلـكـ بـاـخـتـيـارـهـ . وـتـظـهـرـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ فـيـ الـمـدـوـنـاتـ الـمـصـرـيـةـ مـنـ حـوـاليـ

١٣٠٠ - ١١٥٠ ق. م. بشكل غيري (Epiru، بحرف p) مما يثير الشك في صحة المعادلة بين الحابiro والعبرانيين.

ويظهر الحابiro لأول مرة في الجوليات الحثية في عهد مرسلش الاول (حوالي ١٦٠٠ ق. م.) الذي استأجرهم. وفي رسائل تل العارنة^١ نرى الحابiro يتظاهرون مع المتمردين ضد الفراعنة وفي ١٣٦٧ يستولون على شکم. وقد وجئت ستة من هذه التحاير (رقم ٢٨٥ - ٢٩٠) من عبد خبا^٢ تابع فرعون في اوروسالم (اورشليم)^٣ الى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضد الحابiro الذين يهددونه. وفي جميع هذه الوثائق يبدو الحابiro كجماعة متعددة الناصر وبدون اوصاف مشتركة ومعباء بلا شك في بلاد الرافين. وقد اطلق هذا الاسم هناك لأول مرة على الحاربين في عهد نارام من (نحو ٢١٧٠) من ملوك السلالة الاكادية القديمة. ويدرك الاسم ثانية في رسالة من ماري من القرن الثامن عشر وفي الواح نوزي من القرن الخامس عشر. وكما يبدو فانه ليس اسمًا عرقياً وإنما تسمية اطلقت على جماعات من الرجل والاجانب والاسقبياء المستعدين للانضمام الى صفوف اي جيش لقاء اجرة او بدافع الحصول على الثناء.

١) الرسالة رقم ٢٨٩.

٢) القسم الثاني من هذا الاسم هو اسم الامة حثية حورية.

٣) اصل الاسم من الكلامية ياروشلم بمن «دع شالم يؤسس». وكان شالم الله السلام عند الكلمانين ويظهر في اسم «ابشالوم» وسلام، وفي اسماء فينيقية وهو مذكور في لوح من اوغاريت.
انظر : Burrows, p. 229.

الفصل الثاني عشر

الآراميون الشعب الثاني الثالث الرئيسي

قبل ان يسمى الآراميون بهذا الاسم كانوا قبائل من الرحيل في بادية شمالي الجزيرة العربية . وكانت اكساً لـ البدو من قبلهم ومن بعدم يضططون من وقت الى آخر على اراضي جيرانهم الثانية في بلاد بابل وسوريا وهدفهم امتلاكها . وقبل ان ينتصف الالف الثاني ق. م. كانت هذه القبائل قد سكنت في ضفاف وادي الفرات الاوسط حيث نشأت قوميتها ولغتها . ويمكن الاعتقاد بأن الآرامية اتت من لجنة سامية غربية كانت مستعملة في شمال غرب بلاد الرافين في النصف الاول للالف الثاني . ولم يكتسبوا اسمهم « الآراميين » حتى ایام تغلات فلاسر الاول (نحو 1100 ق. م.) حين اقاموا في منطقة الفرات الاوسط حتى سورية في الغرب^١ . وكانت المجرات الخاطية في اوائل القرن السادس عشر على بابل وشمالي سورية هي التي فتحت الابواب كما يبدو في وجه الحركة الآرامية واعطت القادمين الجدد من الصحراء خططاً ثابتةً في تلك المنطقة . وسهل القضا على ميتاني عن يد الحثين بعد قرن ونصف حركة الآراميين من جديد . وتبين ان هذه المиграة الآرامية كانت بعد المجرتين الامورية والكنعانية ثالث حركة سامية كبرى اتت من الصحراء .

بلده ظهورهم في بلاد الرافين

كانت جماعات متعددة تشكل اقساماً من الحركة الآرامية ولكنها لم تكن تعرف بهذا الاسم . فبالاخصة الى الحابرو الذين ذكرناهم سابقاً كان يوجد الاخلامو Akhlamu . وهذه التسمية التي تعني « الرفاق » لم تكن تسمية عرقية وقد اطلقها

1) قارن مع : Emil G. H. Kraeling, *Aram and Israel* (New York, 1918), pp. 22, 20 وامل اشتغال كلمة آرام (قلون مع كلمة ارم الترآية) غير مؤكدة.

لأول مرة كما يبدو الاموريون المقيمون في منطقة الفرات على اتحاد من القبائل . ويخبرنا الملك الاشوري آدد نيراري الاول (نحو ١٣٠٠ ق.م.) ان اباء قهار جماعات الاخلامو^١ في شمالي بلاد الرافدين . وفي تحرير ارسله حتوشش حوالي ١٢٧٥ الى احد ملوك بابل اشاره الى الاخلامو المعادين الذين يقيمون على طول نهر الفرات . ونقرأ قبل ذلك في احدى رسائل^٢ تل العارنة عن الاخلامو في عهد اخناتون وانهم كانوا يستولون على المدن والاراضي السورية برضى حكام وطنين غير مخلصين ان لم يكن تحت قيادتهم . وفي الوثائق التي انت فيها بعد نجد الآراميين والاخلامو مقتربين بصورة وثيقة . فالمملك تغلات فلاسر الاول يقول «لقد زحفت الى وسط الاحلامي الآراميين اعداء الاله اشور سيدى»^٣ . وكانت هذه القبائل الآرامية تعيش بجوار كركيши ولتكننا نشاهد الآراميين بعد ذلك في بلاد بابل في الشرق يدعون الكلدو (الكلدانين او البابليين الحديدين) الذين كانت لهم صلة وثيقة بهم . ويصف تغلات فلاسر وخلفاؤه حملاتهم في مات آريمي Mat Arimi او بلاد الآراميين^٤ وذلك في كتابات اثرية اخرى .

انتشارهم في شمالي سوريا

يستدل من هذه المدونات الاشورية البابلية وغيرها ان قسماً كبيراً من بلاد الرافين وسوريا الشمالية والوسطى قد اجتاحته في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر جماعات سامية وان هذه المناطق بدأت تتخذ صفة آرامية باستثناء جيوب خفية منها كركيши . وقد ادى ضغط الآراميين المتواصل الى طغيانهم التدريجي على الاموريين والحوريين والحيثين في وادي العاصي والمنطقة التي تلتها في الشمال والى امتصاص هؤلاء او طردتهم . وكان جبل لبنان عائقاً في طريق هذا التوسيع نحو الغرب واستمر فيه ازدهار الجماعات الحثية والامورية بينما

(١) Luckenbill, vol. i, § 73.

(٢) الرسالة رقم ٤٠٠.

(٣) Luckenbill, vol. i, § 239.

(٤) E. A. Wallis Budge and L. W. King, *Annals of the Kings of Assyria*, vol. i, (London, 1902) pp. 134 seq.; Luckenbill, vol. i, § 366; vol. ii, § 36.

بقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بدون ان تغرس . واصبحت دمشق وهي مركز دولة آرامية فيها بعد يسكنها الآراميون في ١٢٠٠ ق.م. وتعطي حوليات رسميس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) التمجدة الآرامية لاسم دمشق^١. وقد احتل الآراميون مدينة حران غالباً وهي احدى سواكروم في ما بين النهرين قبل احتلالهم دمشق. واقتبس القادمون الجدد بالتدويع حضارة الاموريين والكنعانيين الذين اقاموا بينهم غير انهم احتفظوا بعذور واحد من حضارتهم وهو اللغة . وبخلاف الاسرائيليين والفلسطينيين الذين اقاموا في اواخر القرن الثالث عشر في جنوب مناطقهم فان الآراميين احتفظوا بهم بعثتهم الاصلية التي قدر لها ان تلعب دوراً بالغ الاهمية في حياة غرب آسيا فيما بعد .

الدول الآرامية في ما بين النهرين

وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت الحركات الآرامية والاسرائيلية قد انتهت واصبح الشعبان يجاور واحداً منها الآخر في موطنها الجديد . وظهرت الدول الآرامية الاولى في منطقة الفرات الاوسط وهي المرى بين بلاد الرافدين وسوريا . وقد سميت احدها آرام النهرين^٢ Aram Naharain والمطردان هما الفرات ورافنه الخابور وليس الفرات والدجلة . وكلمة «نهرين» المصرية هي تحرير لهذا الاسم نفسه . ويظهر هذا الاسم مراراً في الكتابات المسماوية من اواخر القرن الثالث عشر ويعيل الى الزوال بعد القرن التاسع عندما كان الاشوريون قد قضوا على الآراميين في هذه المنطقة^٣ . ومن الدول الاخرى في ما بين النهرين دولة فدان آرام^٤ Padam Aram ولم تكن باتساع آرام النهرين وكان مركزها مدينة حران .

^١) وبنابل تيرمسكي Tiramaski اسم آرام . وهناك اسم دُمشق اي حصن دمشق . انظر : W. Max Müller, *Asien und Europa nach altägyptischen Denkmälern* (Leipzig, 1893), p. 234; Dussaud, p. 292; cf. Sina Schiffer, *Die Aramaer* (Leipzig, 1911), p. 136. والشكل الذي يتخده اسم دمشق في رسائل المارنة هو دِمشقا Dumashqa (رسالة رقم ١٠٧ سطر ٢٨) ، دِمشقا Dimashqa (رسالة رقم ١٩٧ سطر ٢) تشكى Timashgi (رسالة رقم ٥٣ سطر ٦٣) .

^٢) انظر هذا الاسم في سفر التكوتين ١٠:٢٤؛ ٤٣:٤؛ ٤٤:٨ .

^٣) قارن مع : Roger T. O'Callaghan, *Aram Naharaim* (Rome, 1948), p. 143.

^٤) قارن مع : Abel, *Geographie*, vol. i, p. 245. انظر سفر التكوتين ٤٠:٢٠؛ ٤١:١٨ .

والواقع ان الكلمتين تستعملان بالترادف في العهد القديم . وكانت تقع حران على طريق تجاري عظيم – ومعنى اسمها «طريق» – واصبحت من اعظم مراكز الحضارة الآرامية . والروايات العبرانية التي لم تنس الصلة العبرانية الآرامية القديمة جعلت اسلاف الشعب العبراني يأتون من هذه المنطقة قبل استقرارهم في فلسطين . وتقول هذه الروايات ان ابراهيم او فدر سوله الى حران ليبحث عن زوجة لابنه اسحق وهي رفقة كما تقول ان يعقوب ذهب بنفسه ليتزوج ليثة وراحيل^١ . وهكذا فان اسلاف ابناء يعقوب هم آراميون من جهة الام . وهذا لث عبارة تسمى ابا الامة العبرانية آرامياً^٢ . وسفر التكوين الذي يدون بهذه التاريخ العبراني يملؤه بالتعابير ذات الصبغة الآرامية وبالفردات الآرامية^٣ . وكان اسلاف الشعب العبراني يتكلمون الآرامية كما يظن قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية .

آرام دمشق

غير ان ام الدول العديدة التي اسسها الآراميون كانت تلك التي كان مركزها اولاً في صوبه ثم في دمشق . وقد تأسست مملكة دمشق في اواخر القرن الحادي عشر فكانت معاصرة تقريباً لتأسيس المملكة العبرانية وتطورت فأصبحت مملكة كبيرة تتد الى الفرات من جهة والى اليرموك من جهة أخرى . وكانت متاخمة للاراضي الاشورية في الشمال والعبرانية في الجنوب . وكانت سوريا الداخلية شرقاً جبل لبنان وسوريا الشمالية وباسان تحت سلطتها الاكيدة في حوالي ١٠٠٠ ق.م . ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير الى آرام او سوريا . وقد كان هؤلاء الآراميون في سوريا خلال قرنين آلا اعداء العبرانيين .

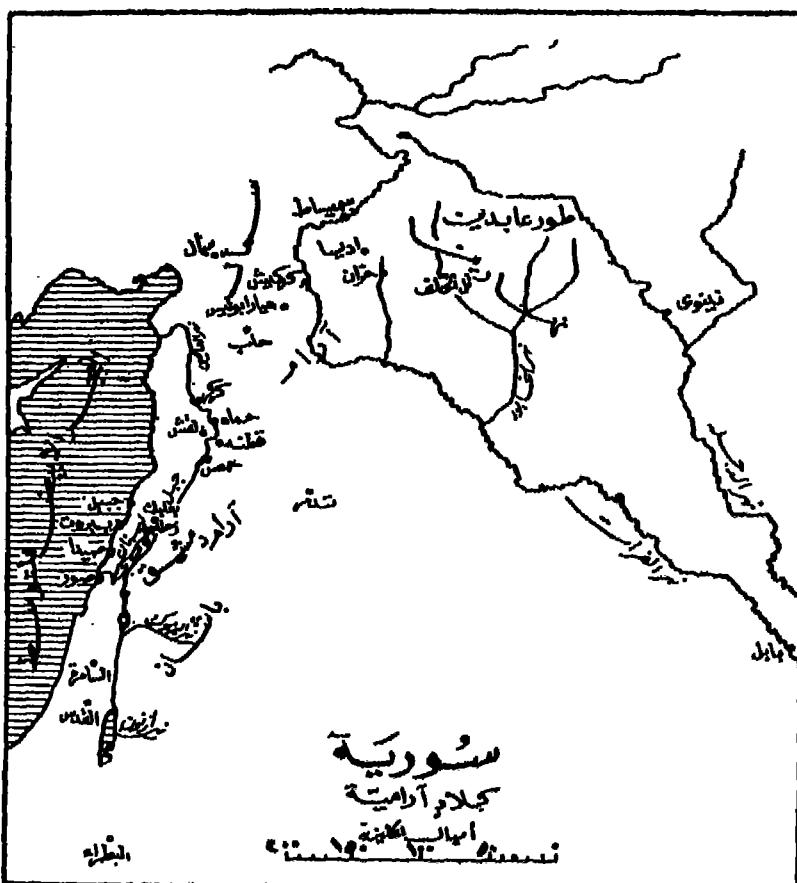
كانت صوبه عاصمة مملكة بنفس الاسم والكلمة مشتقة من صهوبه Sehabah

١) سفر التكوين ٢٤:٤٤؛ ٢٩:٤٤ وما يليها .

٢) سفر التثنية ٢٦:٥ حيث يقول «آرامياً نائماً كان اي». وقد جاء في احدى الترجمات «سوريا». قارن مع : Josephus, *Antiquities*, Bk. I, ch. 7, §2.

٣) سفر التكوين ١١:٢٨ وما بعدها؛ ١٢:١؛ ٢١:٣١؛ ١:٢٩؛ ٤:١؛ ٢١:٣١؛ واول ذكر لمباراة آرامية في التوراة هي غير شهودنا اي دجم الشهادة (سفر التكوين ٤٧:٣١).

يعنى احمر او نحاس . ويظن ان موقعها هو في كالسيس Chalcis او عنجر الحديثة جنوبى زحلة في البقاع¹ وقد بدأت الاصطدامات بين ملوكها ومنافسيهم العبرانيين



في الجنوب في عهد شاول مؤسس المملكة العبرانية^٢. وكان من أقسى ملوك صوبه حدد عزر (أي حدد عون) الذي انتصار داود عليه إلى اعطاء ذلك الملك

^١) النظر : Krueger p. 40; Abel, vol. i, p. 248; وكانت كالسنس (والكلمة يونانية معناها لخساس) فلياً بعد عاصمة ايطلوريا Ituræa (المذكورة في التحليل لوغا ٣:١٠) وهي مملكة عربية.

٤٤١٤ - الاول مهوييل سفر

العبراني السلطة على مصادر ذلك المعدن المام العجاص^١. ولم ينتصر داود على حدد عزر وحلفائه فحسب وإنما نجح في احتلال دمشق مؤقتاً. وبعد فترة قصيرة نجد رضين ملك هذه المدينة يعمل كتابع لصوبية ويقوم بمحاربة إسرائيل «طيبة أيام سليمان»^٢. وتنقل السيادة بعد ذلك من صوبة إلى دمشق. وعندما انقسمت المملكة العبرانية إلى قسمين في عام ٩٢٢ كان ذلك من مصلحة ملوك دمشق الذين كانوا يقيمون المملكة الواحدة ضد الأخرى.

وأخذ بنحدد الأول^٣ ملك دمشق (حوالي ٨٧٩ - ٨٤٣) من ملك يهودا كنوزاً ثمينة من المعبد ومن القصر الملكي في، اورشليم ثم هاجم ملك إسرائيل وجعل جعلهاد في شرق الأردن تحت السيطرة الآرامية^٤. الواقع أن مملكة إسرائيل كانت كإيديو تابعة أسيمة لآرام منذ أواخر أيام ملوكها عمري (حوالي ٨٧٥) وعندما رفض آخاب ابن عمري ووريثه دفع الجزية أو الانصمام إلى التحالف ضد المجموع الآشوري الذي كان وسيط الوقوع ظهر بنحدد بفتحة أيام عاصيته السامة ليجبره على الطاعة^٥.

معركة قرق

وبلغت هذه الفزوة الآشورية ذروتها في المعركة التي حارب فيها ملوكناصر الثالث في عام ٨٥٣ ق.م. وكان تحالف الملوك السوريين يضم اثني عشر ملكاً برأسهم بنحدد^٦ الذي كان جيشه يضم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠٠ من المشاة. وقد

١) أخبار الأيام الأول ١٨:٨؛ صهوصيل الثاني ٨:٨. ومدينة بيروتاي المذكورة في سفر صهوصيل هي اليوم بريطانيا جنوب بعلبك.

٢) سفر الملوك الأول ١١:٢٥.

٣) كلة بنحدد او بن حدد في العبرية تقابلها بار حد (أي ابن حدد) في الآرامية. وكان بنحدد الأول وبنحدد الثاني نفس الشخص. انظر : Albright, «A Votive Stele Erected by Ben-Hadad I of Damascus», *Bulletin, American Schools Oriental Research*, No. 87 (1942), pp. 26-27.

٤) سفر الملوك الأول ١٥-١٨:٢٠؛ أخبار الأيام الثاني ٢:١٦ وما بعده.

٥) سفر الملوك الأول ٢:٢٠ وما بعده.

٦) وهو حدد عزر في كتاب : Luckenbill, vol. i, § 611.

اق الملك آخاب بالجيش الثاني في قوته وبعده اق جيش ملك حماة . وقدمت ممالك مدن فينيقية كثيرة قراتها للمساهمة في المعركة . وكان عدد الجيوش التي وقفت بوجه شملناصر في موقعه قرقر على العاصي ٦٠٠٠٠ جندي وانتهت بدون نتيجة حاسمة . وكان على الاشوريين ان ينتظروا سنتين كثيرة اخرى قبل ان يتمكنوا من اخضاع دمشق .

حزائيل

ويظهر وريث بنحدد واسمه حزائيل (يعنى « ايل قد رأى » حوالي ٨٠٥) كاعظم محارب في التاريخ الآرامي . وبعد ان صمد لمجموعين قام بهما شملناصر في ٨٤٢ و ٨٣٨ قاد حملة ضد اسرائيل ووسع ممتلكاته في شرق الاردن الى الجنوب حتى نهر آرنون (الموجب) الذي يصب في البحر الميت^١ . وكانت اسرائيل (٨١٤) الذي كان يدفع الجزية لشمناصر هو ملك اسرائيل حينذاك . وكانت اسرائيل تحت رحمة آدام في عهد يهواجاز وريث ياهو حتى ان حزائيل لم يترك له اي قوة فيما سوى خمسين فارساً وعشرين مركبات^٢ . وتوسيع حزائيل في قتوحاته حتى سهل فلسطين الساحلي بقصد الاستيلاء على طرق التجارة مع مصر والجزيرة العربية . ثم « حوال حزائيل وجهه ليصعد الى اورشليم » ولكنهم منعوه من ذلك بعد ان قدموا له الذهب والكنوز التي كانت في المعبد^٣ . وعندما تضعضعت قوة الذين خلقوا حزائيل بسبب المجهات الاشورية عجزوا عن المحافظة على حدود مملكتهم في المناطق الجنوبيّة . وعادت الحدود القديمة الى سابق عهدها في زمن الملك يربعام الثاني الذي اصبح ملكاً في السامرة في عام ٧٨٥ ، وزاد هذا الملك على ذلك بانه بدأ بعبادة دمشق وحماة .

غير ان الخطر الحقيقي كان مصدره من جانب آخر . فقد كانت القوة العسكرية الاشورية جاهزة للزحف من جديد . واتت الفرصة المناسبة في ٧٣٤ حين هدد

١) سفر الملوك الثاني ٣٢:١٠ - ٣٣:١٠ .

٢) الملوك الثاني ١٣:٧ .

٣) الملوك الثاني ١٢:١٧ - ١٨ .

آهاز ملك يهودا بصورة جدية من قبل فتح Pekah ملك اسرائيل ورجل Rezin ملك دمشق فطلب تدخل الاشوريين^١. واستجابة لفلاس الثالث لطلبه واجتاحت المقاطعات السبعة عشرة التابعة لدمشق مع المدن التي عددها ٥٩١ مدينة «وهدتها حتى أصبحت مثل الكثبان التي يتركها السيل»^٢. وكان بين الملوك التابعين لاسور والذين حاربوا وسقطوا امام اسوار دمشق بنامو الثاني ملك شمال (زبوري) في اقصى الشمال . ورجل نفسه هرب «و كفاره [او وعل^٣؟] دخل باب مدینته». وهناك أصبح محاصراً «مثل عصفور في قفص». ولكن المحصار استمر . واخيراً فتحت المدينة في عام ٧٣٢ . وقتل ملكها وقطعت اشعار بساتينها – موضع فخارها في جميع العصور – «ولم تتع [واحدة منها ، وثني اهلها]». وهكذا انتهت امر آرام دمشق وانتهت معها السيادة الآرامية الى الابد.

التجار الآراميون

فاق توسيع التجارة والحضارة الآرامية توسيع الآراميين السياسي والعسكري ودام الى ما بعد انتهاء هذا الاخير . هذه الحضارة التي بلغت ذروتها في القرنين التاسع والتاسن لا تقدر اليوم حق قدرها حتى في الاوساط المتعلم . والسوريون الحديثون لا يشعرون بالصلح وتراثهم الآرامي بالرغم من ان كثيرين من اللبنانيين يصررون على اصلهم الفينيقي . وكان التجار الآراميون يعيشون قوافلهم الى جميع مناطق الملال الخصيب وحتى الى منابع الدجلة في الشمال . واكتشفت في خراب نينوى بعض الموزعين البرونزية التي تركوها . وكانت يحتكرن تجارة سوريا الداخلية كما كان يحتكر ابناء عمهم ومنافسوم الكتانيون التجارة البحرية . وكانت عاصمتهم دمشق ميناء الباادية كما كانت جبيل ثم صور من مواني البحر . وقد تاجر الآراميون بالارجوان من فينيقيا وبالطرزات والكتان واليشب^٤ (Jasper) والتحاس

١) سفر الملوك الثاني ١٦:٥ وما يليه .

٢) Luckenbill, vol. i, § 777. (٢

Luckenbill, vol. i, § 776; Hugo Winckler, *Keilschriftliches Textbuch zum (٣ Alten Testament*, 3rd ed. (Leipzig, 1909), pp. 31-2; cf. Is. 17: 1 seq.

والابنوس والماج من افريقيا «وبحصول البحار» الذي رعا كان المؤلو الذي اشتهر به الخليج الفارسي خلال العصور^١.

اللغة الآرامية

كان التجار الآراميون هم الذين نشروا لغتهم منذ اول عهدهم في مختلف البلدان وهي فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية. وقد وصلنا من عام ٧٣١ ق.م. في عهد تغلات فلاسر الثالث اول رسم يمثل كتاباً يدون بالآرامية الفنائمة المأخوذة من احدى المدن المفتوحة. وهو يمسك بيده ليس قلماً ولوحاً من طين لأجل الكتابة المسماوية واما ملف بودي وريشة . ويبدو انه كان يكتب بكتابة الجدية . وفي نحو عام ٥٠٠ ق.م. أصبحت الآرامية التي كانت اللغة التجارية لاحدى الجماعات السورية ليس فقط اللغة العامة للتجارة والحضارة والحكومة في بلاد الملالي الحصيبي كلها بل اللغة التي يستعملها سكان تلك البلاد في كلامهم . وكانت فوزها على شقيقاتها اللغات السامية الأخرى بما فيها العبرية تماماً . واصبحت لغة المسيح وشعبه^٢ . والإشارة الثانية ، ان لم تكن الاولى ، للمسيحيين وجدت مكتوبة بالآرامية بمحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن رعا كان كنيسة في يومي مما يجعل تاريخها قبل عام ٧٩^٣ . وهذا ذلك صلاة آرامية تسمى «قدّيش» (المقدس) تشبه الصلاة المسيحية المعروفة بالصلاحة الربانية في بعض عباراتها وهي اقدم منها وتبدأ بعبارة «ليتمجد ويتقىس اسمه العظيم^٤». واسطورة احريقار^٥ الواسعة الانتشار تحوي بعض حكم اشورية او بابلية ولكنها بالآرامية وقد كتبت في القرن السابع او ما بعده.

(١) Olmstead, *History of Palestine*, p. 534.

(٢) انظر بشأن موضوع الآرامية كلثمة التي كتب بها مادة الانجيل : Charles C. Torrey, *Our Translated Gospels* (New York, 1936).

(٣) راجع : W. R. Newbold, «Five Transliterated Aramaic Inscriptions», *American Journal of Archaeology*, vol. xxx (1926), pp. 288 seq. والإشارة الأخرى هي في أعمال الرسل ١١: ٢٦.

(٤) انظر ما يشبه ذلك في العبرية في حزقيال ٣٢:٣٨.

(٥) ان هذا البطل الذي يظن انه وضع الامثال قد ذكر لأول مرة في طوبيا ١: ٢١ وما يليه ويظهر في عدد من القصص العربية والسريانية والآرامية والعربية وغيرها . ويبدو تأثيره في قصص ايسوب . Aesop

ولم يقتصر انتشار الآرامية على المناطق السامية . ففي عهد داريوس الكبير (٥٢١ - ٤٨٦) جعلت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الامبراطورية الفارسية وهكذا أصبحت حتى فتوحات الاسكندر اللغة المتداولة في امبراطورية تند « من الهند حتى الجبالة ». ان مثل هذا الفوز الذي حققته لغة لا تدعها سلطة امبراطورية من اهلها ليس له مثيل في التاريخ .

ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الابجدية الفينيقية التي كان الآراميون اول من اقبسها واستعملت في لغات اخرى في القارة الآسيوية . وحصل العبرانيون على ابجديتهم من الآراميين بين القرنين السادس والرابع وكانت قبل استعمالون الابجدية الفينيقية القديمة مدة من الزمن . والمحروف المربع الذي تطبع بها اليوم كتب التوراة العبرانية نشأت من الكتابة الآرامية . وأخذ عرب الشمال ابجديتهم التي كتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الانباط . كذلك حصل الارمن والغرس والمنود على ابجديتهم من مصادر آرامية ، وحرروف البهلوية والسسكريتية هي من اصل آرامي . وحمل الكهنة البوذيون من الهند الابجدية السنسكريتية الى قلب الصين وكوريا . وهكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريق الآرامية الى الشرق الاقصى وغرباً بطريق اليونانية الى الامير كتين مطوفة العالم كلها .

الكتابات الاثرية

وتحت اقدم الكتابات الاثرية الآرامية المعروفة اليوم في شمالي سوريا وتعود الى بدء القرن التاسع . وتوجد بينها كتابة قصيرة من تل حلف (غوزانه^١) . ثم تأتي كتابة اكتشفت حديثاً على نصب نثري على بعد اربعة اميال ونصف شمالي حلب التي كانت تحت حكم دمشق وترجع الى نحو عام ٨٥٠ ق.م. وقد كتب عليها اسم بنحدد الاول والكتابة التالية :

النصب الذي اقامه بار حد ابن طاب رمان ابن حاديان ملك آرام لسيده
ملقارب وقد نثروه له لانه اضفى الى صوته^٢.

Raymond A. Bowman, «The Old Aramaic Alphabet of Tell Halaf»,^١ انظر : American Journal of Semitic Languages, vol. Iviii (1941), pp. 359-62; cf. Bowman in Journal of Near Eastern Studies, vol. vii (1948), p. 71.

Maurice Dunand, «Stèle araméenne dédiée à Melqart», Bulletin du Musée de Beyrouth, vol. iii (1939), pp. 65-76; cf. Albright, p. 26.^٢

وعلى ذلك فان كتابة زاكر ملك حما وعش^١ المشهورة (نحو ٧٧٥) التي كانت تعتبر اقلم كتابة آرامية أصبحت في الدرجة الثالثة في قدمها. وقد اقيم نصب زاكر من قبل هذا الملك الآرامي لتخليد ذكرى انقاذه من هجوم شنه عليه سبعة عشر ملكاً بينهم ملوك دمشق وشمال وعدد من المدن الفينيقية.^٢

وانت كنایات اثرية اخرى تركها الآراميون من زنجري (شمال) وهي مدینتهم الرئيسية في الشمال. وفيما سوا هذه الكتابات على النصب والمباني فان هناك او زانا ومستندات كثيرة عليها كتابات آرامية تتراوح بين القرن الثامن والقرن الخامس ق. م. واوراق البردي الآرامية التي كتبتها جالية يهودية في مصر العليا واكتشفت في الاقتنين (جزيرة اسوان الحديثة) ترجع الى ما بين ٥٠٠ و ٤٠٠ ق. م.

وقد تفرعت اللغة الآرامية مع الزمن الى مجموعتين هما المجموعة الشرقية في وادي الفرات وقلما المندعية والسرفانية، والمجموعة الفربية وقلما الآرامية التورائية^٣ والترجموم لمجات شمال وحماة والتصرية والنبطية. وكانت تتكلم المندعية طائفة غنوسطية تسكن قرب القرات بين القرنين السابع والتاسع م. واصبحت السرفانية وهي لغة اديسا لغة الكهنة في سوريا ولبنان وببلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحلية، واستعملت بين القرنين الثالث والثالث عشر للبلاد ثم حللت العربية محلها. وعندما اتخذ المسيحيون الآراميون لغة اديسا وجعلوها لغة الكنيسة والادب والتعامل الثقافي صاروا يعرفون باسم سوريين. واصبح لاسمهم القديم اي الآرامية مدلول وتني غير مستحب في عقولهم ولذلك تخبوه بوجهه

١) او لعش وكانت عامتها حزرك وفي التوراة حدواخ (سفر زكريا ١:٩) وتع على المني جنوب حما وغربي قطنة. انظر : Dusaad, pp. 407 ; Olmstead, *History of Palestine*, p. 144, 236-37,

٢) رابع : H. Pognon, *Inscriptions sémitiques de la Syrie, de la Mésopotamie et de la région de Mossoul* (Paris, 1907), pp. 156 seq.

٣) وهذه الآرامية موجودة في التوراة في سفر عزرا ٨:٤ حق ٦ : ١٨ : ٧ : ١٢ : ٧ - ٢٦ دايل ٢ : ٤ حق ٧ . والعبارات الآرامية التي استعملها المسيح مذكورة في انجيل مرقس ٤:١٥ حق ٧ . وبما ان الآرامية وضت في سفر دايل ٢ : ٤ على لسان الكلدانيين فانها صارت تسمى خلا كلدانية اذ اتفقا على الكلدانيون او البابليون الحديثون كتابة لغة من الاكلادية .

العلوم وحلت محله التعبير اليونانية وهي سوري Syrian بالنسبة الشعب وسرياني Syriac بالنسبة اللغة . ولنذكر ان اليونان كانوا يسمون بلاد آرام « سوريا »^١ . وكثيراً ما يسمى سكان البلاد سوريين ولغتهم سوريا في الترجمة السبعينية للتوراة (Septuagint) وكذلك في الترجمة اللاتينية الشائعة (Vulgate)^٢ . وفي التعبير الحديث تقتصر كلمة « سريانية » على لمعات اديسا والمناطق المجاورة .

الحضارة المادية

اقتبس الآراميون الحضارة المادية للشعب الذي سكناه بين ظهرانيه . ففي شمالي سوريا اصبعوا ورثاء ومتابعين لعمل الحضارة الخشبية الاشورية وفي سوريا الوسطى ورثوا الحضارة الكنعانية وتابعوها . وانخذلت عاصمتهم شمال^٣ في الشمال الفربني مظهر مدينة حشية ولكن ملوكها كانوا يسمون باسماء آرامية على الغالب وتركوا كتابات اثرية معروفة فينبئية . وكانت هذه المدينة من المدن الآرامية النادرة التي جرت فيها حفريات اثرية .

وقد اقام احد ملوك شمال واسمه بنامو الاول الذي عاش في النصف الاول للقرن الثامن متمثلاً ضحاماً للاله حدد ارتفاعه تسعة اقدام ونصف ظهر فيه الاله بقعة ذات قرنين ولحية مستديرة مجده وعينين متربيتين بالحجارة الكربية وذراعين ممتدينين لاعطاه البركة^٤ . وتقول الكتابة التي تحت زنار التمثال ان م الملك الاكبر كان سعادة شعبه . ويدرك ان الارض التي منحته اياها الالهة المحسنة كانت « ارض شعير وقع وثوم ويعلم الرجال في حرث تربتها وزرع كروها » . وهناك تمثال تذكاري لبنامو الثاني (٧٣٢ م.) اقيم غالباً فوق ضريحه من قبل ابنه ويقول:

١) انظر ما جاء في من ٦٦ من اشتغال اسم سوريا .

٢) قارن مع سفر هزرا ٤:٧؛ داليل ٤:٤ .

٣) شمال وسنامها « الشلال ». وتثم قرية زميرلي المدينة في منتصف الطريق تجرياً بين اطاكيم ومرعش وكانت المدينة الرئيسية في شمال او شمال .

٤) اكتشف هذا التمثال في ١٨٩٠ في كارجيون Garjoun على بعد ميل ونصف شمال عرقى زميرلي .

٥) انظر : Arno Poehl, *Das appositionnelle Pronomen (Chi-* Cooke, p. 161 ; *Das appositionnelle Pronomen (Chi-* cago, 1932), p. 43. ويسمي بنامو نامه «ملك يهودي Ya'udi » ويتقابل بهذا .

«وفي أيام أبي بنamu عيّن حاملين للكنزوس وسائقي مركباتٍ» وبذلك زاد في فخامة البلاط الملكي.

ويظهر شكل ابن بنامو الثاني وامهه بار ركاب منحوناً بشكل بارز على عرش محفور حفراً فخماً في الابنوس والجاج والذهب ولا يقل ابهة عن عرش سيده ملك اشور. ويتركز العرش على مخروطيات الارز وفي زوايا المقد الماربعة رؤوس ثيران. وتحت قدميه يوجد كرسي بمثيل هذه الزخارف الفنية. وثوبه الطويل ذو الحواشي وقبعته المرюسة من النوع الحني. أما لحيته ومجاعيد شعره فانها تتبع الاسلوب الاشوري.

حدود الْأَعْدَاد

والله الذي كان يوجه الآراميون اهتمام لعبادته كان حدد الله الزوابع والرعد ويسمى ايضاً أدد او أددو Addu . وكالة للبرق والرعد كان حدد مفيداً حين يوصل المطر الذي يخصب الارض وكان مضراً حين يوصل السيول . ومن تابيه ريمون (الرّاعد)^٢ . وكان نعان السوري يسمى الله سيده ملك دمشق بهذا اللقب^٣ . وكان الاسمان يستعملان معًا احياناً فيقال حدد ريمون . ويظهر في نحت بارز من زجمرلي حاملًا الشوكة ذات القصبان الثلاثة والمطرقة رمز البرق والرعد . وفي ملاطية يبدو في شكل منحوت واقفاً على ظهر ثور وهذا رمز القوى المولدة . وكان ام معبد للله حدد في هيرابولس (منبع)^٤ ولكن له معابد في مدن سورية أخرى كثيرة وفي لبنان . وكان محسوباً بصورة

(١) قارن مع Cooke, p. 174; Mark Lidzbarski, *Handbuch der nordsemitischen Epigraphik*, vol. i (Weimar, 1898), p. 443.

٢) يبدو ان الاكاديين استعاروا هذه الكلمة (التي لا تصل بطرق الاشتاق بكلمة رامون rammanu اي الرُّمان) من الماطق الفريية. وكان الاشوريون يلفظونها رَمَانَ . وقد يكون اسم حدد اشتقت من فعل لا يزال في اللغة العربية وهو هَذَا يعنِي كسر او هدم.

٣) سفر الملوك الثاني هـ: ١٨ :

٤) بالأشورية Nampigi وبالaramية Nappigu (وفيا بمسد اصبح ماتيج Mabug او Mabbog بمعنى نبع من قل bag اي نبع) وباليونانية Bambyce وفي اليونانية الرومانية هيرابولس اي المدينة المنسنة، والعلوم مشتمل.

خاصة بين المزارعين في سوريا وامتزجت عبادته فيها بعد بعبادة الشمس وزخرف رأسه عند ذلك بالأشعة كاً في بعلبك. وفي الغالب يجب اعتبار جوبيرت هليوبوليتانس الذي عبد في بعلبك معادلاً للإله حدد. وفي العصر الروماني تبدل اسمه فاصبح جوبيرت الدمشقي (Jupiter Damascus) .

وقد أمر بنامو الأول ابنه في الكتابة التي تركها على قتال حدد أن يتلو العبارة الآتية عندما يقدم الذبائح : «لتأكل روح بنامو مع حدد ولشرب روحه مع حدد ولتفرج بالتقديمة لحدد»^١. ويعطينا ذلك فكرة طريفة عن فكرة الآراميين القدماء في الحياة الآخرة. وعرف الآراميون بعادة تسمية ابنائهم «بار حدد» اي ابن حدد او ابن آلة أخرى حبيبة لهم. وبقيت هذه العادة شائعة في سوريا حتى العصر المسيحي وتلقي ضوءاً مفيدةً على العلاقة المفترضة بين الآلهة والذى يعبده .

اتارغاتس

وعبدت رفيقة حدد او زوجته وهي الاهة توالد في هيرابولس وفي مرافق سامية اخرى باسم اتارغاتس Atargatis^٢. وكان اليونان والرومان يتسلطون الامر فيسمونها «الاوهة السورية». وقد اثنا وصف لعبادتها من العصر الكلاسيكي كتبه لوكيانس^٣ وهو سوري من سيساط ولد حوالي ١٢٥ م. وكان يكتب باليونانية. وصفات عبادتها كما كتب عنها لوكيانس هي صفات عبادة الاوهة الام السامية وفي النقوش التي اتت من هيرابولس نراها تلبس تاجاً ويصubها اسد احياناً . ويتناقض

(١) انظر : Cooke, p. 162; Poebel, p. 48.

(٢) وهذا الشكل اليونياني للاسم مأخوذ من الآرامية عتار Atar، اي عثرة بالانانة الى الآرامية عتاه Atāh، (ولا علاقة لها بالآلة الرئيسية آتيس Attis). وكانت عبادة عتار وعتاه بالاصل عبادتين ساميتين مختلفتين ثم الدمجتا. انظر : S. Ronzevalle, « Les Monnaies de la dynastie de 'Abd-Hadad », *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, vol. xxiii (1940), No. 1, p. 26.

(٣) في كتابه De Dea Syria . انظر نس الكتاب وترجماته في : The Syrian Goddess, tr. Herbert A. Strong, ed. John Garstang, (London, 1913); ed. and tr. A. M. Harmon, « The Goddesse of Surrye, in Lucian, vol. iv (London, 1925), pp. 337-411.

رمزاً من الملال مع قرص الشمس . وكان بها معبد في كارنيون Carnion^١ في جلعاد . وكانت عسقلان في فلسطين مركزاً لعبادتها حيث اعتبرت غالباً معاذلة لافروديت .

وانتشرت عبادة اثارغاتس بين اليونان في العصر السلوقي وبواسطتهم وصلت إلى روما حيث اقيم معبد باسمها . وتشاهد في الآثار الرومانية جالسة على عرش بين اسدين . وكان كهنتها عموماً من الحصيان الذين اعتادوا القيام برحلات إلى اليونان وإيطاليا لنشر عبادتها بواسطة التنبّيات والرقص الروحاني وبلع تبرعات الاقياء لاجل معبدتها في هيرابولس .

وهنالك تزوج غريب لاثارغاتس على التقدّم من هيرابولس حيث تظهر محجبة . ووجدت صور أخرى كثيرة لاثارغاتس المحجبة^٢ . وتظهر رسوم نساء محجبات بمحباب ثقيل يشبه حجاب أي مسلمة محافظة اليوم على نقش من معبد بعل في تدمر وفي لوحة منحوت من دورا او رببس . وترى هنا بعض الآثار الأخرى الرأس محجاً . ويبدو أن الحجاب كان في الشرق القديم رمز المرأة المتزوجة ولباسها المفروض . وكان التشريع الآشوري من منتصف الالف الثاني ق. م. يتطلب من النساء الرجال الأحرار وبناتهم أن يقطعن رؤوسهن حين يخرجن إلى الشارع^٣ .

وكانت مجموعة الألة الآرامية تضم فيما سوي الزوج الالمي حد واثارغاتس عدداً من الألة الأخرى ذات المكانة الثانوية بعضها محلي والبعض الآخر مستعار من الأمم المجاورة . وكانت الألة حد وابل وركاب ايل وشميش ورسوف هي التي اعطت الملك بنامو الاول الصوبجان في الكتابة الاثرية التي تركها ومنحته الاشياء

(١) وهي Karnion أو Carnion التي هي على الغالب Ashteroth Karname (اي عشتاروت ذات القرنيين) المذكورة في سفر التكوير ٥:١٤ . والموقع الحال هو إما قل عشترا على أحد عشر ميلًا شمال غرب دوعا أو قل الأشعري على أربعة أميل جنوب قل عشترا وهذا أكثر احتمالاً .

(٢) انظر : Ronzevalle, pp. 25-26.

(٣) راجع : V. Scheil, *Recueil des lois assyriennes* (Paris, 1921), §§ 41, 42; Morris Jastrow, Jr., «An Assyrian Law Code», *Journal American Oriental Society*, vol. xli (1921), pp. 34-38. Morris Jastrow, «Veiling in the East», *in Ancient Assyria*, *Revue archéologique*, vol. xiv (1921), pp. 209-38; R. de Vaux, «Sur le voile des femmes dans l'orient ancien», *Revue Biblique*, vol. xliv (1935), pp. 397-412.

التي على لاجلها . وركاب او سائق المركبات هو الله مستورد الى سوريا مع الله الشمس الاشوري . وشيش الاشوري هو اسم الله الشمس الذي كان يعبد في العالم السامي كله . وروشوف هو الاله الفينيقي رشف الذي كان كثيراً ما يمثل يشكل جندي مسلح . وفي كتابة زاكر ملك حما يرفع هذا الملك يديه لجعل شين (سيد السموات) ويقول : «كل من يحيو ام زاكر ملك حما ولعش من هذا النصب او يخربه من امام اييل وير El Wer او يزيله من مكانه او يعديده ضده ... فان بعل شين وايل وير وشيش وسهر وآلة السماء وآلة الارض ... ستهلكه»¹ . ويتضح ان بعل شين هو حدد ولكن هوية اييل وير لم تعرف بعد . وسهر² هو الاله القمر . وكانت حران مركز الاله القمر الذي يسمى حين عند الاشوريين . ويرد ذكر هذا الاله على حجر تياء³ التي ترجع كتابتها الى القرن الخامس ق.م. باسم شنفالا Shingalla وهو اسم اشوري مستورد معناه بين العظيم . والامان الآخراف المذكوران على هذا الحجر هما سلم (بعني صورة او مثال) ويشير غالباً الى بعل المحلي ، وعاشرة⁴ .

Pognon, p. 176; Mark Lidzbarski, *Ephemeris für semitische Epigraphik*, vol. iii (Geisen, 1915), pp. 4, 11.

٢) وتأكي كلة شهر العريبة من هذا الاصل .

٣) تباء هي واحة في شالي المجاز.

(٤) Cooke, pp. 196-197. انظر ما جاء بشأن عشرة في ص ١٣٠.

النَّصْلُ التَّالِيُّ الشَّعْبُ الْعِرَابِيُّ

كان العبرانيون الشعب السامي الرابع الرئيسي الذي سكن سوريا بعد الاموريين والكتمانيين والأراميين. وكان اهم مركز للاحداث السورية في عهد الاموريين في الشمال في منطقة الجسر السوري. وانتقل مركز هذه الاحداث في زمن الكتمانيين الى الساحل، وكان في زمن الأراميين في الداخل، اما الآن فقد تحول مع العبرانيين الى الجنوب اي فلسطين.

أصل العبرانيين

كان دخول العبرانيين الى كنعان - كما كانت تسمى سوريا الجنوبيّة حينذاك - نتيجة ثلاثة هجرات كما يظن ولكن هذه المجرات غير محددة بالضبط. فقد بدأت موجة المиграة الاولى في بلاد الرافدين وكانت معاصرة تقدّيماً للحركة التي حصلت في القرن الثامن عشر وكان من شأنها انتشار المكسوبين والخورين في ساحل البحر المتوسط الشرقي^١. وانطلقت المиграة الثانية بالأراميين في القرن الرابع عشر في عصر العارنة. وأما المиграة الثالثة التي نعرف عنها اكثر بكثير فقد اتت من مصر والجنوب الشرقي بقيادة موسى ويسوع في او اخر القرن الثالث عشر^٢. وكان الكتمانيون يشكلون معظم السكان عندما اتى الرواد اسلاف الشعب العبراني من بلاد الرافدين. وكان الاموريون يسكنون المرتفعات التي لم يحتلها جماعة مستقرة وبصورة كثيفة وهذا ما اعطى القادمين الجدد مجالاً للسكنى. وكانت توجد اقوام اقل شأناً في اماكن متفرقة وبعيدة.

(١) انظر ص ١٦١ و ١٦٢ .

(٢) قارن مع : Theophile J. Meek, *Hebrew Origins* (New York, 1936), pp. 3 seq.

وتراوح السكان الجدد مع جميع هؤلاء وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف باصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وبهورية وحشية وغير ذلك من العناصر غير السامية.

وقد يرهن سوريه مرة اخرى بعد بعثي العبرانيين على مقدرتها في انتصاص الدخاله الرحل او نصف الرحل بتشجيعهم على ان يصبحوا مستقرين وان يتركوا ذلك المصدر الغريب لقوتهم وهو التنقل . فقد اتى الشعب الذي عرف فيما بعد بالعبرانيين بشكل متبعولين ومقامرین ومرترقة وجندوا لا ارتباط لهم ثم استقروا بالتدريج بين السكان الذين سبقوهم وفاقوهم في مدنیتهم وتعلموا منهم حرث الارض وبناء المنازل ومارسة فنون السلم وام من ذلك القراءة والكتابة .. ويضاف الى هذا كله ان العبرانيين تركوا مجتمعهم السامية القديمة واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم . واللغة الفينيقية واللغة العبرانية القديمة كا هي مدونة في المعهد القديم لا تختلفان الا من ناحية المهمة . واصبح العبرانيون القدماء بوجه الاجال ورثة المظاهر الاساسية للحضارة الكنعانية المادية واتباع كثيرو من العبادات والعادات والصفات الدينية الكنعانية .

الدور القبلي

يحيط القموض بهذه وجود العبرانيين في سوريا الذي سجل بشكل اسطوري تقليدي . والروايات العبرانية المذكورة بشكل مختصر جداً تقول ان ابراهيم^١ – جدم الاكبر او قبيلتهم الاصلية – اتى من اور في بلاد الارافدين بطريق حران واقام موقتاً قرب حبرون (الخليل) . وترك وريثه اسحق^٢ ابنه ايه يعقوب^٣ . وبعد ان اقام يعقوب في فدان آرام عدة سنوات وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الثأن تفضيلاً له على أخيه عيسو^٤ وتغير اسمه فاصبح اسرائيل^٥ . وحصل

١) بالعبرية ابرام abh-rām اي الآب رفيع او عالي .

٢) من العبرية Yishāq اي ليتسم [ابل] .

٣) من العبرية Ya'qōbh, اي ليحفظ [ابل] .

٤) انظر سفر التكوير ٢٣:٢٥، ٢٧، ٣٤ .

٥) بالعبرية El' Yisrē- el او ليحكم ابل او ابل يحكم .

عيسو على اسم آخر وهو ادوم (اي احبر) وحل ورثته فيما بعد محل سكان منطقة جبل سعير وعرفوا باسم الاذومين^١. وهكذا ازيل عيسو من حياة العبرانيين وتفسيرهم كما ازيل قبلًا اسماعيل^٢ ابن ابراهيم من جاريته المصرية هاجر وفضل عليه اسحق . وبين اولاد يعقوب الاثني عشر كان يوسف^٣ الحادي عشر وهو الابن الاكبر لراحيل وقد باعه اخوه بجماعة في مصر وارتفع شأنه في الدولة المصرية . وبعد ان اقام ورثة يوسف واخوه اجيالاً عديدة في مصر عادوا الى فلسطين تحت قيادة موسى .

ذلك هو مختصر التاريخ العبراني القديم كما وضعه كتاب عاشوا بعد وقوع الحوادث بثلاث السنين واستندوا على ما سمعوه وعلى سلسلة طويلة من المرويات الشفهية .

لم يكتف هؤلاء المؤرخون بابتداء مروياتهم بالجد الأكبر للشعب العبراني فتوسعوا في قصة الانسان ولتصورها مبتدئين بالخلية . وأخذوا في ذلك موادهم من مصادر بابلية ولم يصبح هذا الامر محققًا الا بعد منتصف القرن الماضي حين كشف تسيير الكتابات السهارية عن وجود ما يقابل قصص الخلية والطوفان وغيرها . غير ان هذه القصص هذبت وبسطت وصار لها مغزى اخلاقي على يد الكتاب العبرانيين ثم كتبت بشكل جيل حتى اتتها اصبحت قسمًا من تراث البشرية الادي . وهي لا تزال بشكلها هذا تسلي وتعلم اجيالاً من القراء في جميع البلاد وفي مختلف اللغات.

انه يتضح ان التاريخ الذي كتبه العبرانيون بما سبق الدور القبلي ليس بتاريخ . وليس من السهل استخلاص لم الحقائق التاريخية من المرويات التي تتعلق بالدور القبلي نفسه . وقد تعكس لنا قصة ابراهيم اخبار المиграة الاولى كما ان قصة اسرائيل قد تكون انعکاس المиграة الثانية . وأما قصة موسى فهي تاريخية بالتأكيد .

(١) سفر التثنية ٤:٢ ١٢،٤٠ .

(٢) من العربية يسمع ايل *Ayl*-*Yahmā* اي يسمع ايل .

(٣) بالعبرية ياسف *Tāsəph* اي ليغrieve [ايل] .

الخروج من مصر

يبدأ تاريخ بني إسرائيل الحقيقي كشعب اذاً بالخروج من مصر. ان هذا الحادث المام حصل في الثلث الأخير للقرن الثالث عشر. فقد وجدت احدى القبائل العبرانية - وهي قبيلة راحيل - في مصر في زمن المكسوس مأوى لها واذهرت. وكان مكان سكناها هناك ارض غوشن Goshen قرب افاريس Avaris عاصمة المكسوس. واحيراً اتنى فرعون « ولم يكن يعرف يوسف^١ » وفرعون هذا هو رعمسين الثاني كما يعتقد (حوالي ١٣٠١ -- ١٢٣٤). وقد حصل الخروج غالباً في عهد رفناخ ابن رعمسين (١٢٢٤ -- ١٢١٥). ويحوي نصب في طيبة بتاريخ ١٢٣٠ ق. م. اقدم ذكر لاسرائيل كامم شعب في فلسطين . وربما كانت الاشارة بلجاعة من الاسرائيليين الذين لم يهاجروا الى مصر .

بعد ان غادر افراد قبيلة راحيل ارض مصر في اوائل القرن الثالث عشر قضاوا عدة سنوات في سينا وجوار قادش - بُؤْنِيَا^٢. حيث تعرضوا لمناوب كثيرة. ان تلك « البرية العظيمة المغيبة » التي ظلت مخاطرها تراود العبرانيين لمدة اجيال يمكن اجتيازها اليوم بعدة خمس ساعات على طريق من الاسفلت طولها ١٤٠ ميلًا تصل مصر بفلسطين . وفي مدين وهو القسم الجنوبي من شبه جزيرة سينا وضع المهد الاهلي . وتزوج زعيم الاسرائيليين موسى الذي يسودو اسمه ككلمة مصرية معناها « ابن » من ابنة كاهن مدين الذي يعبد يهوه^٣ والذي علم موسى هذه العبادة الجديدة . وكان هذا الله العربي الشمالي الله صهراء وبالاصل الله القمر ومقره كان خيمة وطقوسه تشمل بعض الاعياد والتضحيات من بين القطبيع^٤ . وتزوج آخرون غالباً مع المدينيين والقينيين^٥ وسائل سكان بادية شمالي الجزيرة العربية .

١) سفر الخروج ٨:١ .

٢) يظن أنها عين ثعديس اليوم على بعد ٥٠ ميلًا جنوب بئر السبع .

٣) سفر الخروج ٣:١؛ ١٨:١٠-١٢ . وكلمة يهوه (بالإنكليزية Jehovah) من العبرية التي قد تكون صيغة المضارع من فعل هوَهْ يعني أحدث .

٤) سفر الخروج ٣:١٨؛ ١:٥؛ سفر المدد ١٠:٣٦-٣٥ .

٥) اي الحدادين (بالعربي قين بالفرد)؛ سفر القضاة ١٦:١؛ ١١:٤؛ سفر المدد ٠٢٩:١٠ . وكان المصريون وعرب الجزيرة العربية يملؤن عن وجود المادن في سينا ووادي المرية قبل هذا المصر بكثير .

السكنى في فلسطين

وفي حوالي ١٢٥٠ ق. م. ظهر هؤلاء البداء المتعدرون من اخلاط العشائر في الجهة الجنوبية الشرقية من سوريا - اي من بادية شرق الأردن - وهدفهم احتلال الأرضي الخصبة . وكان عددهم لا يمكن ان يتخطى ستة آلاف او سبعة آلاف^١ اذا اعتبرنا شروط حياة الصحراء وقلة المياه والكمية المحدودة من الطعام والأراضي الصالحة لرعاية القطعان . وتجنب العبرانيون ممالك ادوم ومؤاب وعمون الصغيرة التي تقع الى جنوب البحر الميت وشرقه وشماله الشرقي ولم يحاولوا اخضاعها حتى عهد الملكية .

وكان اول فوز عברי في شرق الأردن على سيعون ملك الاموريين وتبعه فوز آخر على عوج (0g)^٢ الملك الجبار ملك باشان . وفي فلسطين نفسها كانت من بين المدن الاولى الكنعانية المحسنة التي سقطت خيش (تل الدوير) ، وعایي (Ai)^٣ واريمحا . وكان سقوط اريحا من اروع هذه الحوادث^٤ . فقد احرق يشوع اريحا بالنار بأمر يهوه وكل ما فيها^٥ . ولم تسقط مجده في الشمال حتى بعد حوالي مائة سنة . وأدى التغلغل العبري في الجليل الى فتح حاصور^٦ موقتاً وهي عاصمة مملكة كنعانية في الشمال . وكان على العبرانيين ان يبعدوا فتحها في عهد القضاة^٧ . ولم تسقط المدن الأخرى المهمة مثل بيت شان واورشليم وجزر حتى حوالي ١٠٠٠ ق. م او بعد ذلك بقليل .

١) قارن مع سفر الخروج ٣٧:١٢؛ العدد ٢١:١ وما بعده؛ ٤:٢ وما بعده .

٢) سفر العدد ٢١:٢١ وما يليه؛ ٣٣:٢١ وما يليه .

٣) قرب دير ديوان الحالية . يشوع ١٠:٣١-٣٠؛ ٨:٣ وما يليه .

٤) يشوع ١٥:٦ وما يليه .

٥) يشوع ٢٤:٢:٦ .

٦) تل وقامش او تل الفرج وهو على نحو ٣/٤ الميل غربي جسر بنيت يعقوب . سفر يشوع ١٠:١١ - ١٣ .

٧) سفر القضاة ٤:٤-٤؛ مصوّل الأول ٩:١٢ .

ومع ذلك فان ما يسمى بالفتح العبراني كان من جهة فتحاً عسكرياً ومن جهة اخرى تغللاً سلبياً بطيئاً الى ارض «اللبن والعل». وبعد ان حصل القادمون الجدد على موط دجل في الارض الزروعة فان قوتهم ازدادت بالتزامن مع عناصر اقسى وبانضمام اقاربهم اليهم وكانتوا قد بقوا في البلاد ولم يهاجروا الى مصر. وهكذا أصبحوا يسودون البلاد. وكان من الطبيعي ان تكون المعارك عظيمة الشأن بالنسبة لمؤرخيهم. ولم تكن تلك المعارك نقطة الارتكاز في المرويات فحسب وإنما كثيرة ما حصلت مبالغة في كثير من الحوادث. ويمكن القول بالاجمال ان العملية حصلت باخضاع سكان البلاد العبرانيين بطريق المعاهدة او الفتح او الامتصاص التدريجي.

وعندما سيطر العبرانيون على البلاد كانوا يقسمونها بين القبائل الاحدي عشرة وتركوا قبيلة لاوي الكهنوتية موزعة بين سائر القبائل لهم بشؤونها الدينية. وهكذا سكنت قبيلتنا يهودا وبنiamين في الاراضي المرتفعة لحول اورشليم بينما استقرت القبائل الاخرى في السهول الاكثر خصباً في الشمال.

القضاء

شملت فترة الاستيطان تقرباً الرابع الاخير للقرن الثاني عشر والرابع الثلاثة الاولى للقرن الحادي عشر وهي تقابل ما يسمى بعصر القضاة. وكان هؤلاء القضاة بالحقيقة ابطالاً وحكاماً وطنين ظهروا بصورة عفوية في ايام الشدة وقد ادوا شعبهم ضد الاعداء المجاورين او الحكماء الاجانب. وكانت دبوره وهي أم ملهمة في اسرائيل من اولئك القضاة وقد قادت مع باراق ست قبائل للنصر على الكنعانيين في الشمال^١. وكذلك كان جدعون الذي رد هجوم الميديانين ومعه ٣٠٠ رجل^٢. وكان شمشون اشهر اولئك القضاة وقد ازدانت قصة زواجه مع الفلسطينيين باضافات كثيرة على يد القصاصين العبرانيين^٣. وان الميديانيون كفراة من البدو واستخدموا

١) سفر القضاة ٤ : ٤ - ١٤ .

٢) القضاة ١٥:٧ وما يليه .

٣) سفر القضاة الاصحاح ١٥ و ١٦ .

لأول مرة أجمل المجن. وهكذا دخلوا سلاحاً جديداً في الحرب وكان له مفعول عظيم خاصة في التزو على مسافات بعيدة.

الفلسطينيون

وكان الفلسطينيون أقوى المتأسين الذين كان على البرانيين أن يقاتلوهم لامتلاك البلاد. والفلسطينيون من الجموعات الحس لشعوب البحر الذين اتوا من منطقة بحر ايجه. وبعد ان فتح البرانيون المرتفعات الوسطى بقليل سيطر الفلسطينيون على البلاد الساحلية. وقد ادت حركات غامضة للشعوب في آسية الصغرى والبلاد الایجية في اواخر القرن الثالث عشر الى تفرق قبائل بكمالها فيبحثت عن موطن لها في مناطق اقل اضطراباً. وتواجدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريق البر والبحر نحو سوريا وبعد تقويضها بعض الدول ومنها اوغاريت^١ وصلت الساحل المصري. وقد هزمت هناك حوالي ١١٩١ ق.م. في معركة بحيرة وبرية عن يد رعيس الثالث ولكن سمع لها ان تنزل بصورة دائمة في ساحل سوريا الجنوبي الذي صار يسمى فلسطين Philistia^٢. واستقرت مجموعة اخرى تسمى التجكر Tjeker في دور Dor جنوبي جبل الكرمل حيث حادفهم المبعوث المصري ون آمون بعد قرن تقريباً^٣. وكان نشاط لصوص البحر في شرق البحر المتوسط في زمن ون آمون مصدره جوالة البخار هؤلاء. وكان قد اتى قبل الفزوقة الفلسطينية جماعة آخر من شعوب البحر من اليونان وآسية الصغرى وبعضهم اتى بطريق قبرص وتزولا في الساحل المصري حيث حدم مرتفعات حوالى عام ١٢٢٥ ق.م.

ملهم الحس

امتد الساحل الذي استولى عليه الفلسطينيون بصورة دائمة من غزة حتى جنوبي

^١) انظر من ١٢٧ - ١٢٩ . وقد هدمت صور بعد ذلك بمنة قصيرة.

^٢) انظر Breast, Records, vol. iv, § 403 حيث يوجد اول ذكر لاسم «بيلست Pelest » . وكان اسم مكان في منطقة الایجية وهي اميروس. انظر : G. Bonfante, «Who were the Philistines?» American Journal of Archaeology, vol. L (1946), p. 251.

^٣) انظر ما جاء في من ١٤٤ - ١٤٥ .

يافا . وام المدن التي استوطنها كانت غزة وعسقلان واسدود وعقرورون Ekron وجرت "Galba" ^١ واحتفظت باسمها السامية تحت حكمهم . وكانت جت "جت" ^٢ بعد ملتهم في الداخل وسياستهم كانت ان يظلو قربين من البحر حيث يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التي تغطيها الكروم فيها وراءه . وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الساحلية وبين بلاد الكنعانيين في الشمال . ولم يؤمن الفلسطينيون مستعمرات ما عدا مدینتي اللد وحفلق Ziklag ^٣ اللتين يمكن استئناؤهما . وقد توسعوا من المنطقة الساحلية في الداخل واستولوا على عدد من المدن الكنعانية وتزعوا السلاح من السكان . وكانت حالات القراءنة المتتابعة لمعاقبة سورية وفرض مختلف المطالب عليها قد افقرتها واضعفت مقاومتها امام هجوم قبائل البدية وقرصان البحار . وما كان باستطاعة الفلسطينيين ولا العبرانيين ان يصيروا ذلك النجاح في تثبيت اقدامهم في البلاد لو ان مصر الامبراطورية كانت لا تزال قادرة على السيطرة التامة عليها .

واما يساعد في الدلالة على ان الفلسطينيين كانوا اوربيين الرسوم التي وجدت على البناء التذكاري الذي اقامه رعميس الثالث . كما يدل على قدوتهم من جزر اليونان وخاصة كريت ^٤ نموذج الخزف الذي ادخلوه . وبما انهم اتوا معهم بنسائهم فانهم ظلوا متربعين في اول الامر يشكلون طبقة عسكرية اجنبية تقيم في الخاميات وتحتل حضارة اجنبية . وقد نظمت مدنهم الخس بشكل ممالك مدن كل منها تحت حكم سيد ^٥ ولكنها جميعها كانت تشكل اتحاداً . ويبعدوا ان السيادة كانت لمدينة اشدود . وتظهر صورة احد اسيادهم بلعيبة على الشقة السفلی وشعر مجده على الجانب على خطاء ثابت من الخزف وجد في بيت بيل Beth-pelet (خربة المشاش) قرب بئر السبع في اقصى جنوب اليهودية .

١) وقد تكون تل عرق المنشية على ستة اميال ونصف غربي بيت جبرين (Eleutheropolis) .

٢) وهي في اقصى جنوب منطقة يهودا وربما كانت تل الخويالة على عشرة اميال شرق تل الشريعة .

٣) وقد ذكرت باسم كلتور في سفر عamos ٩:٧؛ سفر ارميا ٤:٤٧ .

٤) وردت في التوراة العبرانية باسم سيرن seren في سفر يشوع ١٣:٣؛ التثنية ٤:٣؛ ٣:٦؛ ٥:١٦؛ ٦:٦ وهي من الكلمات الفلسطينية القليلة الباقية . وكلمة اخرى هي «كوتيع» يعني خوذة وات ال العربية (قبّع) بطريق العربية ورجحها البعض الى المثنية . وكلمة caput اللاتينية تعود الى نفس الامر .

وكان ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادى عشر. فقد
كسروا العبرانيين حوالي ١٠٥٠ ق. م. وأخذوا منهم ثابوت المهد وحلوه الى
اشدود^١. وفي نحو عام ١٠٢٠ كانوا يقيمون في حاميات في البلاد المرتفعة نفسها.
وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (توفي نحو ١٠٠٤) على مدن بعيدة في الداخل
مثل بيت شان^٢. ولا يمكن ان يعني ذلك الا ان الفلسطينيين كانت لهم اليد العليا
بالنسبة لباقي اسرائيل.

والذي جعل الفلسطينيين متوفين بصورة خاصة على اعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الاصهر واستخدام الحديد لاجل اسلحة الدفاع والهجوم . وهنالك صورة خطأ طلاقه لحارب فلسطيني مزود بالاسلحة المعدنية في قصة جيليات الذي كانت قناة رسمية «كتول النساجين» وستان وسنه كان يزن «ست مئة شاقل حديد» والذي كان ترسه تقليلاً جداً حتى انه احتاج الى حامل ترس خاص «يشي قدامه» . وقد عرضت بعض حوادث البطولة الحربية الشهيرة عند العبرانيين كما في قصتي شحشون ودارود لتعارض مع مظاهر هذه القوة لدى الفلسطينيين .

١٢

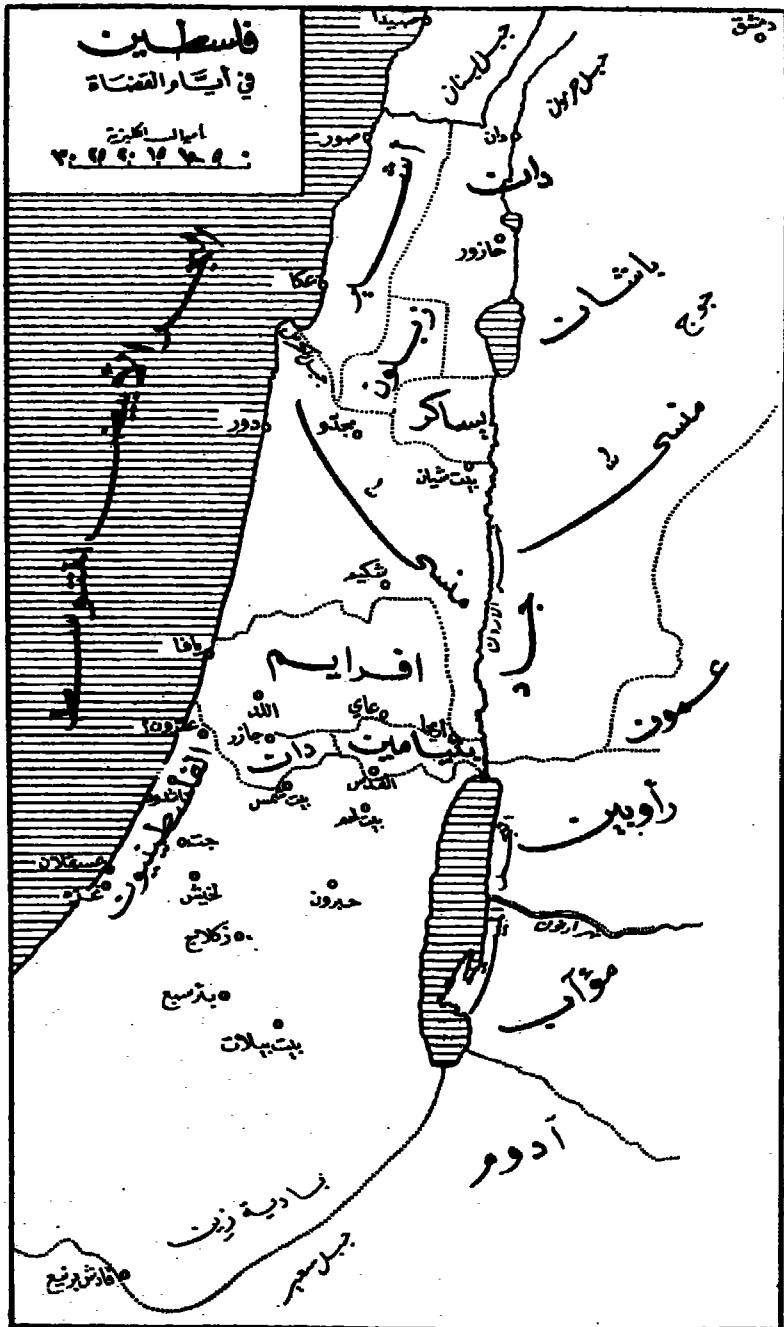
واستشر الفلسطينيون معرفتهم في صهر الحديد واستخدامه حتى انهم احتكروها. وكانوا يضطرون الاسرائيليين الذين يريدون تحديد آلاتهم الزراعية وادواتهم القاطعة ان يذهبوا الى حدادين فلسطينيين^٤. وكان هذا العائق الكبير في ايام الحرب كما اتفق بما جرى في عهد شاول.

١) سفر موسى الأول ١:٥. انظر بشأن صلة قاتوت المهد بما يشهده وبما جاء قبله عند المسلمين اي القبة قبل الاسلام عند العرب والمسلمين في الحج عن المسلمين والسلطنة عند البو Julian Morgenstern, *The Ark, the Ephod and the « Tent of Meeting »* (Cincinnati, 1945), pp. 1 seq.

٢) سفر صموئيل الاول ٤٣: ٣ و ما يليه؛ ٣١: ٣١ .

٣) سفر صموئيل الاول ١٧: ٧ .

٤) سفر صهوييل الاول ١٣: ١٩ - ٢٢



وكان الحثيون قبل قيام الفلسطينيين قد استخدمو الحديد بصورة محدودة في أوائل القرن الثالث عشر كاً يستدل من مراسلات حتوشش وكان مصدر الحديد المناطق الواقعة على البحر الأسود. غير انه لم يصبح استعمال هذا المعدن شائعاً في سوريا حتى قيام الفلسطينيين. وحافظ الحثيون على اسرار صناعته بحرص شديد كما فعل الفلسطينيون من بعدم. وقد تفوق الكتزيانيون الذين تعلموا من الفلسطينيين استخدام المركبات الحديدية تفوقاً حاماها على الغزارة الاسرائيليين^١.

ولم يحصل غير الفلسطينيين على معرفة صهر الحديد المعقدة الا في أيام حكم داود (توفي نحو ٩٦٣) حين ضعفت سلطة الفلسطينيين في البلاد^٢. فانه عدا عن تغلبه على الفلسطينيين قد فتح ايضاً بلاد ادوم التي كانت مصدرأً غنياً للحديد الخام. وكان هذا المعدن موجوداً في لبنان ايضاً وتعلم الكنزانيون استخدامه في بناء سفنهم. وهكذا فان الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة اهم وهي عصر الحديد. وكان ذلك اهم فضل لهم.

وفوق ذلك فانه يمكن الاعتقاد بأنهم اعطوا جيراهنم وورثتهم الكنزانيين ميلاً للاسفار البحريّة البعيدة كان من نتائجه استكشاف البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الاطلنطي الشرقي. وفيما سوى هذا وبقايا قليلة للحضارة المادية بشكل خزف وألات زراعية ومتارق وازاميل حديديّة فان الفلسطينيين كادوا ان لا يتذكروا اثراً يمكن ان يذكرنا بهم. وكجهازة اجنبية فانه لم يكن لهم ما يضمن بقائهم سوى تجديد عدهم بواسطة المجرة وذلك امر مستحيل في تلك الظروف، وفي نهاية حكم داود اخذوا يتجهون نحو الزوال كشعب . ومع الزمن تأثروا بالساميين واندمجوا بهم ولم يتذكروا الا اليسر جداً لمعرفة لغتهم وديانتهم وعاداتهم وسائر مظاهر حضارتهم . وعندما كتب نحرياً^٣ في منتصف القرن الخامس لم يذكر الفلسطينيين بل

١) يشع ٢:١٧؛ الفضة ١:١٩.

٢) اخبار الایم الاول ٣:٢٢.

٣) سفر نحرياً ٤:٧؛ ١٣:٢٤.

ذكر «الأشوديين» الذين كانوا يتكلمون بلسان أشودي . ومن اسماء الاشخاص النادرة التي وصلتنا اسم «أخيش»^١ . ومن آنفهم داجون^٢ الله الحبوب كما يعني هذا الاسم وقد اقتبس من آلة الكنعانيين . وكان مركز عبادته أشود ومقر رفيقته عشتاروت كان في عسقلان . امامارة معبد داجون وقصر الحاكم او السيد في غزة^٣ وساير معابد الفلسطينيين المذكورة في العهد القديم فاننا لا نعرف عنها شيئاً .

١) سفر صموئيل الاول ٢:٢٧ .

٢) سفر التهانة ١٦:٢٣ ; صموئيل الاول ٥:٧-٢؛ اخبار الايام الاول ١٠:١٠ ؛ سفر المكابيين الاول ١٠:٨٤ .

٣) سفر التهانة ١٦:٢٣ وما يتبع .

الفصل الرابع عشر المملكة العبرانية

المملكة المتحدة

كانت مقاومة العبرانيين للفلسطينيين بصورة خاصة فرصة سانحة لتأسيس المملكة العبرانية . وبالحكومة الملكية يبدأ تاريخ الامة العبرانية . ففي ظلها أصبح للبرانيين صفات قومية بارزة وان كانوا قدروا النظرة السياسية . وكان البرانيون الشعب الوحيد بين الشعوب السامية القديمة الذي انشأ شعوراً قومياً متطرفاً كما ان البرانيين وحدهم من بين الساميين القدماء احتفظوا بصفاتهم القومية وبفرديتهم . وقد ساعدت الديانة مساعدة كبرى في توحيدهم وتعاونهم .

وكان بغير ان البرانيين من ادومنين ومؤابيين وعمونيين ملوك . والفلسطينيون كان لهم اسياد او اقطاب حافظوا على اتحاد ضعيف . وكان للفينيقيين مالك مدنه وكانت بعضها مثل بيبلوس وصΐدا وصور قد تطورت وصارت تشكل اماماً . غير ان البرانيين كان لهم حتى هذا الحين قضاة او زعماء يظهرون عندما تدعوا الحاجة . ولذلك ذهب شيخوخ اسرائيل الى زعيمهم الدینی صموئيل وطلبوا منه ان يجعل لهم «ملكأً يقضى لنا كسائر الشعوب»^١ . ومسح رجل اسمه شاؤول اول ملك عليهم نحو عام ١٠٢٠ ق.م. رجل «من كتفه ما فوق كان اطول من كل الشعب»^٢ . ففكرة الملكية لم تأت من مصادر خارجية فحسب وانما الملكية نفسها في نظرها تشكلت بالتدريج على اسس مقتبسة من الدول المجاورة . غير انها اختلفت نوعاً في تاحيتين : فالتنظيم القبلي بقي لا غرابة ادارية من جهة والملك كان عليه ان يحكم حسب اوامر جمهو . كما اعلنت بواسطة الرجال الصالحين .

١) سفر صموئيل الاول ٨:٥ .

٢) سفر صموئيل الاول ٢:٩ .

كان الملك العبراني الاول مخيماً للأعمال بل كان فاشلاً بالواقع . وكانت اخلاقه ضعيفة وطباعه سوداوية . وكان يعيش كشيخ بدوي في خيمة في بلادته جبعة^١ . ولم تند حدود مملكته الصغيرة الى ابعد من منطقة قبيلته بنيامين في اول الامر . ومع ذلك فقد كان انتخابه يعني الثورة ضد الاسياد الفلسطينيين . وبعد قتال طويل قتل الفلسطينيون في معركة جلبوغ^٢ ثلاثة من اولاده وجرح شاول بصورة خطيرة ولذلك انتصر . وبعد ان قطع العدو المتصر رأسه سر جسده واجساد ابناءه على سور بيت شان وارسل سلاحه كفتيمه حرب الى معبد عشتاروت^٣ .

داود

كان المؤسس الحقيقي للملكة داود (نحو ١٠٠٤ - ٩٦٣ ق.م.) حامل سلاح شاول وقد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ولكن نجح في النهاية ليس في تحقيق الاستقلال التام فحسب بل ايضاً في توسيع حدود المملكة الى ابعد مما بلغته في اي وقت آخر . قام داود بسلسة من العمليات الحربية ادت الى التخلص من نير الفلسطينيين وجعل ادوم ومؤاب وعمون تحت حكمه وحققت له ما هو اغرب من ذلك وهو حكم سوريا الجوفة الآرامية حتى حدود مملكة حماة كما يظن^٤ . ووصل جنوده الى دمشق ، وكانت المملكة التي اسسها اقوى دولة محلية ظهرت في فلسطين في اي عصر . وقدرت له بنتيجة فتح ادوم السيطرة على طريق التجارة العظيم بين سوريا والجزيرة العربية . ولا نعلم عن وجود اية بمالك في بلاد ادوم الصغيرة او في بحارتها الشاليتين مؤاب وعمون قبل القرن الثالث عشر ق.م . وكانت فروع من الآراميين وبعض الحميري قد تزلت كما يبدو في هذه المنطقة في القرن السابق وكان البدو الرحيل يحيون هذه المناطق منذ القرن العشرين . ولا بد ان المكسوس والآراميين قضوا على جميع بقايا الحضارة التي سبقت القرن العشرين . ولم تكشف

١) وهي تل الفول على اربعة اميال شمال اورشليم . انظر مسوئيل الاول . ٤: ١١؛ ٢٦: ١٠ .

٢) وهو اليوم جبل القوقة في المرتفع الشمالي الشرقي لجليل الارام ويشكل مكان النصال المياه بين حوض قيشون ووادي الاردن . واسم القرية الحديثة جلبون يذكرنا باسم القديم .

٣) مسوئيل الاول ١: ٣١ - ١٠: ١٠؛ اخبار الایام الاول ١: ١٠ - ١٠: ١٠؛ قانون مع مسوئيل الثاني ١: ٦ - ١٠ .

٤) مسوئيل الثاني الاصحاح ٨، ١٠: ١٢ - ٢٦: ٣١؛ قانون مع سفر المدد ٧: ٣٤ .

اعمال التنقيب الحديثة عن آية مدينة كبيرة في منطقة شرق الاردن خلال هذه الفترة الطويلة بكلاملها .

بعد ان وطد داود وضع مملكته ووسع حدودها واخضع جيرانها تم له تحقيق الوحدة الموقتة بين شعبه . ويقلب ان عدد التفوس بوجب الاحصاء الرسمي الذي عمله وهو من اقدم عمليات الاحصاء في التاريخ كان نحو ستة او سبعين ألف نفس^١ . وانتهى داود حصن اورشليم اليهوي ليكون عاصمة له وكان قد انتزعه من ايدي سكانه اليهوسين . وكان هذا الاختيار موافقاً . فالمدينة تقع خارج المراكز القبلية الاصلية على الحدود بين القسم الشمالي والجنوبي للملكة تقريباً وتسيطر على طريق من اهم الطرق الداخلية وهو الذي يتجه شمالاً وجنوباً في القسم المرتفع الواقع غربي وادي الاردن . ومع ذلك فان الدافع عنها كان سهلاً . في هذه المدينة اقام داود مقره الملكي وهو قصر بني بالحجارة وخشب الارز من لبنان وقد بناء معهاريون وبخارون صوروه ارسلهم صديقه الفينيقي الملك حيرام (٩٤٧ - ٩٨١ ق. م.)^٢ . وكانت الصداقة بين صور واسرائيل مبنية على المتفعة المتبدلة : فصور كانت فقيرة بالمحاصيل الزراعية بينما كانت اسرائيل بحاجة الى المواد التي تتقلما التجارية البحرية . وقد شيد داود بالإضافة الى قصره معبدأ وطنيناً ليهوه في العاصمة الجديدة وهكذا جعل اليهوية الديانة الرسمية في الدولة الموحدة . واصبح داود الملك الثاني بالنسبة للعبرانيين .

وفي زمن حكم داود « رجل الحرب » يبدأ ظهور الادب العربي وهو من اغنى وارفع ما تركه الشرق القديم من مظاهر حضارية . وظهر المذكور *mazkir* الذي كانت مهمته الرسمية تدوين الحوادث المهمة وحفظ المؤليات الملكية^٣ . وقد استعاروا الكتابة من الفينيقيين^٤ . ويظن ان الكهان بدأوا فيما بعد باعداد كتب مشابهة للوثائق الرسمية . ومن مثل هذه المدونات استخلص تاريخ الملكية الاولى

١) قارن مع صموئيل الثاني : ٢٤ : ٩؛ اخبار الایام الاول ٥ : ٢١ .

٢) سفر صموئيل الثاني : ٥ : ١١ .

٣) صموئيل الثاني : ٢ : ١٦؛ سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٨ ، ٣٧ .

٤) انظر من ١١٩ .

وادخل جانب منه في العهد القديم . ومؤرخ هذه الفترة كائناً من كان يكتب مواده بأسلوب حيوي موضوعي . وهو يصف داود ليس كملك فقط وإنما كإنسان ويكتب كما يكن للمعاصر أن يكتب . وأول فصلين من سفر الملوك الأول هما أول قطع من النسخة العبرية . وكتابته عن ترجمة حياة داود في الفصول ٩ إلى ٢٠ من سفر صموئيل الثاني هي قطعة رائعة من الانشاء التاريخي . ولم يكتب تاريخ مثل هذا من قبل . وهذا المؤرخ المجهول وهو أقدم المؤرخين يبدو عصرياً بشكل مستغرب . كذلك بدأت بجموعات من المؤلفات الشعرية في عصر داود وكان هو نفسه شاعراً له مكانته . وفي الواقع فإن الأثر الذي تركته مواهبه الشعرية والموسيقية كانت عظيماً حتى أن الأجيال نسبت له وضع عدد من المزامير التي بلغ من قيمتها الإنسانية العامة وأهميتها الدائمة أنها لا تزال تستخدم كمصدر وهي وكوسيلة لرفع القوى الروحية .

سلیمان في كل مجده

ورث داود ابنه سليمان (حوالي ٩٦٣ - ٩٢٣ ق. م.) ووصلت المملكة العبرانية في عهده ذروة فائقة من الجد والإبهة . فأخبار الملوك العبرانيين ليس فيها ما يشبهه . مشاريع سليمان التجارية والصناعية ونشاطه الواسع في استخراج المعادن وأعماله العمرانية ومستوى الترف المائل في معيشته . وكان يعيش بين مظاهر النشاط هذه حياة ملك مستبد شهوان في بلاط شبيه ببلاط مصر أو اشور . وملكه جعل العبرانيين ينساقون بصورة آتم في تيار الحياة والمدنية الشرقيتين .

وقد بني قصر سليمان معماريون فينيقيون واستخدموا في بنائه أرضاً من لبنان . ومقاصرات والده مع الفينيقيين أمر مشكوك فيه . واستغرق بناء القصر ثلاث عشرة سنة . وكان الجناح الملكي غنياً بأعمدة الارض حتى سمي «بيت غابة لبنان»^١ .

وكان الميكل الذي بناه أكثر أهمية من الناحية القومية . ويعتقد أن موقعه هو الموقع الذي فيه قبة الصخرة اليوم . وقد بني هيكل سليمان في الأصل ليكون معبداً ملكياً ملحقاً بالقصر واستغرق بناؤه سبع سنوات فقط ولكنه أصبح فيما

١) سفر الملوك الأول ٧:٢ .

بعد مرکزاً عاماً لعبادة العبرانيين. وكان المغاربون والبناؤون ايضاً من الصوريين واستخدمو ارز لبنان. ولأجل اقام البناء كان ثلاثة الفاً من رعايا سليمان مسخرين ليشغلو بالتنوية فيعمل عشرة آلاف منهم شهراً في لبنان مع رجال حيورام وشهورن في بيوتهم يتبعون اعمالهم المعتادة^١. وكانت الاخشاب المقطوعة تنزل الى البحر وتنقل ارماناً الى يافا ثم ترسل الى اورشليم. وكانت زخرفة الميكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة. وطقوس الميكل وذبائحه تظهر الاساليب المتبعه عند الكنعانيين. وكان عبيد الميكل من الكنعانيين. وحتى كلمة «ميكل» نفسها كانت مستعاره من المفردات الكنعانية^٢.

وكانت اعمال سليمان العبرانية تضم التحصينات والثكنات والunnas. وترى اسطبلاته التي كشفت حديتها حيث كان يضع مرکباته مرابط بصفوف مزدوجة يمكن ان تتسع لاربعمائة وخمسين حصاناً حصل على بعضها من مصر وكيليكية³. وقد بنى بمساعدة صديقه الفينيقي الملك حيرام اسطولاً من السفن لتجارة البحر الاحمر. وكانت قاعدة الاسطول عصيون غابر⁴ التي سميت ايلاط *Alath* فيما بعد وايلة *Alia* في العصر الروماني. وكان اسطول سليمان يقوم من هذه المبناة تحت ادارة ضباط من صور بحملات بحرية حول ساحل الجزيرة العربية وافريقيا الشرقية⁵. وكان المدف الرئيسي استيراد البخور والعاج والذهب والجمارة الكريمة. وكانت النحاس والخديد المقتبسان في عصيون غابر يشكلان مادة التصدیر الرئيسية في شحنان بحراً او ينقلان بطريق القوافل الى الجزيرة العربية بدلأ من السلع المستوردة من هناك ومن الهند. وكانت ادوم وكل المنطقة الواقعة في مملكة سليمان بين البحر الميت وخليج العقبة (وتسمى اليوم العربة) غنية بالنحاس والخديد. ولذلك

١) الملك الأول ٦٣٠ :

^{٢٤}) انظر بثأن استلاق الكلمة هيكل في س ١٤٩ . هامش رقم ٢ :

٣) قانون مم سلسی الملوك الاول ١٠: ٢٦، ٢٨ = ٢٩.

٤) وهي تل الخليفة في رأس خليج المدورة واجبرت فيها تنتيقات عام ١٩٣٨؛ راجع : Glueck, « The First campaign at Tell el-Kheleifeh », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 72 (1938), pp. 3-18.

١٠٣٩) سفر الملك الاول ٩: ٢٧ - ٤: ٢٨ - ١١: ١٠؛ اخبار الابلم الثاني ١: ١٠

اصبحت ميناء سليمان مركزاً للتعدين وشهر المعادن. وكان القينيون^١ الخليون على القالب هم الذين علموا الاودميين اتباع سليمان فنون استغраж المعادن وصنعتها. وكانت التوافل الآتية من الجزيرة العربية والمحمة بالتوابل من تلك البلاد خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر براضي مملكة سليمان.

وقد تضارفت الاساطير والقصص الخيالية على جعل اسم سليمان مرادفاً خلال العصور للقوة والفخامة والحكمة. وحتى الجن^٢ كان يأثر بأمره في البر والجو. واجتذب بلاطه الفخم ملكة من جنوبي بلاد العرب وهي الملكة بلقيس المعروفة في المرويات الاسلامية. وتدعى السلالة الحاكمة في الحبشة التسلسل من هذا الاتحاد. ومن الالقاب الرسمية لملوك الحبشة الحالين «اسد حوضا». ونسبت امثال كثيرة «سليمان الحكيم» واصبح بعضها قسماً من الكتاب المقدس.

غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هذه الافتكار. فالمملكة التي ورثها سليمان كانت اكبر بكثير من المملكة التي اعطتها ابن ابي بعده. وكانت فلسطين تعرف بالسيادة المصرية. وحصن جزر الكينعاني استولى عليه فرعون الذي تووج سليمان ابنته واعطاه ايه فرعون مهرآً لابنته. وكانت هذه الاميرة المصرية احدى افراد حريم سليمان المؤلف من ٧٠٠ من الزوجات و ٣٠٠ من السراري^٣. وقد بني بتأثير نسانه «اماكن مرتفعة» قرب اورشليم لعبادة آلهة صيدا ومزارب وهمون^٤. وفي اواخر حكمه حرر الملك الآرامي رصين نفسه وملكته. وقبل ذلك فان الامير الاودمي حدد الذي كان داود قد طرده من منطقته حيث قضى على كل انسان من الذكور - عاد ليزعج سليمان^٥. وكان يستخدم سليمان العمال لاجل اشغاله العامة حسب نظام السخرة. وكان هذا التدبير بعيد عن الحكمة بالإضافة الى نفقاته وتبذيله من الاسباب الاساسية للنقاء التي ادت في عهد خلفه الى انقسام المملكة.

١) ييلو ان القينيين كانوا قد اصروا في عمر موسى مندجين بالليزيان الى حد كبير.

٢) ترجع هذه الكلمة الى الكلمة آرامية معناها «عنبا».

٣) سفر الملوك الاول ١١:٣٠.

٤) الملوك الاول ١١:٥-٨.

٥) الملوك الاول ١١:١٤-٢٢.

انقسام المملكة

كان داود وسليمان قد وحدا ب بصورة مؤقتة شعب اسرائيل ويهودا المنفصلين . وكان اقتصاد كل من الشعوب مختلف عن الآخر . فالشعب الذي يسكن الشمال كان مزارعاً يعيش على القمح والزيتون والكرم وسائر محاصيل اراضيه الخصبة .اما الشعب الجنوبي فكان يعيش خاصة على الرعي في المرتفعات الصالحة للاغنام وسائر القطعان . وكانت قبيلة افرايم وغيرها من القبائل الشمالية اكثر تعرضاً للتأثير الكتيعاني . وكانت تفضل في مسائل العبادة الالوهيم (جمع ايل) وتبعدها بطقوس شمسية مأخوذة من الطقوس الكتيعانية القديمة . وكانت قبيلتا يهودا وبنiamين في الجنوب تفضلان يهوه الذي مستكنته هيكل اورشليم والذي كانت عبادته اكثر بساطة . غير ان السبب المباشر لانقسام كان اقتصادياً .

بعد موت سليمان في نحو ٩٣٣ ق. م. اجتمع مئتو القبائل الاثنتي عشرة في شكيم ليسجعوا ابنه رحبيعام ملكاً واثيرت حينذاك قضية هل هو مستعد ان يخلف عبض الضرائب المفروضة عليهم ام لا ؟ غير ان جواب الفتى رحبيعام وهو في السادسة عشرة من عمره كان قاسياً متهدراً حيث قال : ابي ادبركم بالبساط وانا اؤدبكم بالعقارب^١ . ولذلك رفضت القبائل العشر الاعتراف برحبیعام وانتخبت رحبيعام من قبيلة افرايم ملكاً عليها وكان الناطق بلسانها . وشكلت هذه القبائل مملكة اسرائيل التي كانت عاصمتها شكيم اولاً ثم ترزة ثم السامرية . اما قبيلتا يهودا وبنiamين فقد ظلتا ثابتتين في ولائهما لرحبيعام وشكلتا مملكة يهودا وعاصمتها اورشليم .

واصبحت الملكتان متنافستين واحياناً عدوتين احدهما للآخر . وبكان لكل منها ايام ازدهار وانحطاط . وكان توازن القوى يميل تارة لمصلحة اسرائيل وطوراً الى جانب يهودا . وتشرح لنا الاتجاه في طريق الانحلال الداخلي تلك التغيرات الكثيرة في ملوك اسرائيل حيث شهدت تسعة عشر ملكاً في مدة قرنين ، وتلك التورات والمكائد في كلتا الدولتين . تلك كانت العوامل الداخلية التي ادت اخيراً

إلى خرابها. فالعبرانيون كثيرون من سكان سوريا لم يعملاً قط بقول مغبهم «ما أحسن وما أجمل أن يسكن الآخرة معاً».^١

مملكة اسرائيل

كان أشهر ملوك اسرائيل الأول عمرى (حوالي ٨٨٥ - ٨٧٤) ويدل اسمه على أصل عربي أو بالآخرى تبسطى. وكان الآثر المهم الذى تركه مدينة الساررة^٢ التي أسسها وحصنها ونقل إليها مركز الحكم من ترزة^٣. وبنى في عاصمة الجديدة قصراً واسعاً وزخرفه ابنه ووريثه آخاب. هذا القصر هو «بيت العاج»^٤ الذي اظهرت فيه الحفريات الحديثة اثناً مائلاً بالعاج ويبعد ان جانباً كبيراً منه كان مكسواً بالذهب. وكانت ام جماعة من نحاتي العاج في تلك الفترة ترددت في الشلال في سوريا حيث كانت توجد منازل غنية ذات غرف مخططة بخشب الأرض المنزلي بالواح من العاج. وكان في قصور داود وسلیمان في اورشليم على القالب مثل هذه الغرف المخططة بخشب الأرض. والقصر الملكي في الساررة هو المثل الوحيد لقصر تأكيد العلماء من وجوده من أيام العهد القديم. وقد بلغ من الآثر الذي تركه عمرى في معاصره انه لمدة قرن بعد انتهاء سلطاته استمرت الحوليات الاشورية على الاشارة إلى الساررة باسم «بيت عمرى».

كانت علاقات الملك آخاب (حوالي ٨٧٤ - ٨٥٢) ودية مع جيرانه ولكنه كان يصطدم بصعوبات في بلاده. وقد اشتراك كحليف لملكة دمشق في معركة قرقون^٥ التي لم تكن حاسمة. وتزوج ايزابل ابنة انبعل ملك سور وصيدا التي

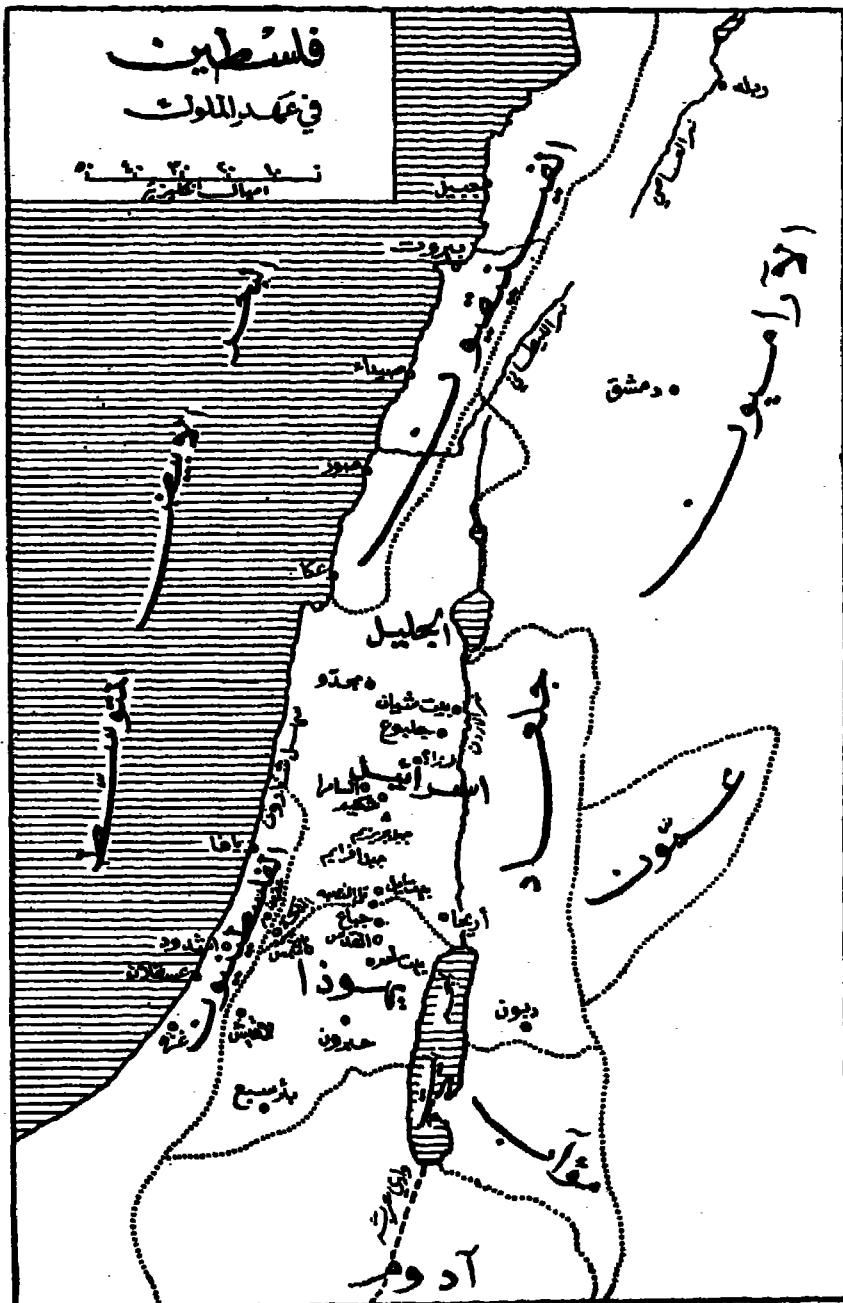
١) سفر الزامير ١ : ١٧٣.

٢) وهي حالياً سبسطية من اليوناني *Sebastos* (بمن الموقر) وهو الاسم الجديد الذي أعطي للددينة على شرف أوغسطس عندما بنانا من جديد هيرودس الكبير عام ٢٧ ق.م.

٣) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ . تقع الساررة على سلسلة ايمال شمال غرب شكرم . وموقع ترزة لم يعرف بعد . انظر «ترزة» في معجم : John D. Davis, *The Westminster Dictionary of the Bible*, rev. Henry S. Gehman (Philadelphia, 1944); Abel, vol. ii, p. 485.

٤) سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩ ; عالموس ٣ : ٤٤ : ٦ ; ١٥ : ٣ . M. Crowfoot, *Early Ivories from Samaria* (London, 1938), pp. 1-6.

٥) انظر من ١٩٧ .



كانت ذات شخصية قوية وسيطرت على زوجها وحاولت فرض عبادة بعل صور على إسرائيل^١. وادى ذلك الى تزاع مير وطويل للسيطرة على حياة إسرائيل الدينية بين عبادة البعل وعبادة يهوه.

وبلغت ردات الفعل التي بدأها أيليا واليشع ضد أسرة هبوري ذرورتها في ثورة ترعمها ضابط في الجيش اسمه ياهو وقضى فيها على السلالة. وُطرحت الملكة الام آيزابل المسنة من نافذة بامرها وأكلت جثتها الكلاب^٢. واستولى ياهو على العرش في ٨٤٢ ق.م. واعاد عبادة يهوه كعبادة وحيدة في إسرائيل. ولم يكن ياهو موفقاً في حربه الخارجية. ويعتذر هذا الملك او رسوله على «المسلة السوداء» التي اقامها شلمناشر الثالث^٣ يقبل الأرض عند قدمي الملك الآشوري ويقدم الجزية. بشكل اوان من الفضة والذهب والرصاص. وقبل ظهور ياهو بقليل قام ميشا ملك مؤاب بثورة ضد إسرائيل وخلد انتصاره على نصب اقامه في ديبون^٤. وقد كتب على هذا النصب اطول نقش في العبرية ويعتبر من اقيم التقوش الاثرية في هذه اللغة. وتحتختلف عن العبرية التي كتبت بها التوراة من حيث اللهجة فقط. وفي حوالي نفس الوقت كانت ثورة اخرى فاجحة تحدث ضد مملكة يهودا، ويرينا ذلك ضعف تينيك الملوكتين.

وقد بدت مظاهر غيرمنتظر لقوة في عهد يوشع الثاني (حوالي ٧٨٥ - ٧٤٥) وهو الملك الثالث من سلالة ياهو. ففي عهده توسيع الحدود الشمالية على حساب الآراميين^٥. وكشفت الحفريات عن بقايا السور المزدوج الذي اعاد به تحصين الساررة. وتظهر هذه البقايا ان سبك السور يصلح ثلاثة وثلاثين قدماً في

١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣١ ; ٦ : ٣١ .

٢) الملوك الثاني ٩ : ٣٣ - ٣٥ .

٣) المسلة الآن في المتحف البريطاني. انظر : Eberhard Schrader, *The Cuneiform Inscriptions and the Old Testament*, tr. O. W. Whitehouse, vol. i (Edinburgh, 1885), p. 199

٤) وهي ذييان في شرق الأردن والنصب الآن في متحف الورف. راجع : Cooke, *North Semitic Inscriptions*, pp. 1 seq.

٥) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٢٥ .



سبعين ميل ٨٤٢ ق.م. يغلي وهو الآن بالوقت
لهم لكري انتصار بعثتك موافى على المراين

بعض الاماكن . ويتنازع حكمه زيادة على ذلك بان النبي عاموس كان يتربأ في بيت ايل^١ في اواخر ملوكه .

وكان بإمكان اسرائيل ان تتمتع بالمنوه خاصة لان اشور لم تكن حينذاك في وضع يسمح لها بخاتمة سياسة الاعتداء . كذلك كانت مصر متوازية عن الانظار . غير ان الوضع تغير عندما ظهرت تغلقات فلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧) الذي جدد سلطة امبراطورية اشور . وقد نجح بسلسلة حملات في اخضاع دمشق وجلمعاد والجليل وسهل حارونه وتحويتها الى مقاطعات اشورية^٢ . ولم يكتف بالأسلوب التقديم وهو ابقاء الحكم الوطني كتابع بل بدأ سياسة جديدة تقوم على ارسال نائب الملك من بلاد اشور ليحكموا المقاطعات المفتتحة^٣ . وقد حاول رصين آخر ملوك دمشق وفتح ملك اسرائيل حمل آخاز ملك اورشليم على الاتحاد معها في حلف ضد العدو المشترك . وقد أصبحت اسرائيل جزءاً صغيراً بما كانت عليه سابقاً . ودفعت السامرة جزية ثقيلة كما فعلت يهودا وجيروانها فلسطين وعمون ومؤاب وادوم .

نهاية اسرائيل

عندما رفض هوشع ملك اسرائيل بعد بعض سنوات متابعة دفع الجزية هاجه شليناصر الخامس وريث تغلقات فلاسر وحاصر المدينة ثلاثة سنوات بسبب قوة حصونها^٤ . وسقطت بين ٧٢٢ و ٧٢١ في يد خلفه سرجون الثاني الذي سي احسن رجال اسرائيل وعددهم ٢٧،٢٨٠ شخصاً الى ميديا^٥ . وتلاشت مملكة اسرائيل الى الابد . ولم يشكل المليون سوى قسم صغير من سكان المملكة الشمالية غربي الاردن ويقدر عددهم باربعمائة ألف نفس . وهكذا قاتل «الاسباط العشرة المفقودة» لم تفقد قط . والذين منهم اصبحوا مسيئين اندفعوا بغيرهم . والبحث عن هذه

١) «بيت الله» وتقع خرائب المدينة وهي اليوم يتبين على ١١ ميلاً شمالي القدس .

٢) الملك الثاني ١٥ : ٢٩ .

٣) Luckenbill, *Records*, vol. i, § 803, 805, 806, 809.

٤) سفر الملك الثاني ١٧ : ٤ .

٥) الملك الثاني ١٧ : ٦ ; Julius Oppert in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 28.

الاسياط العشرة وادعاء بعض الجماعات في انكلترا والولايات المتحدة أنها متسللة منها هي امور تدعو الى السخرية. وقد اظهر الرحالة بنيماء من بلدة توديلا في القرن الثاني عشر مقداراً أكبر من الفهم التاريخي حين كتب ان الطائفة اليهودية في جبال نيسابور في شرق ايران ينحدر افرادها من المسميين الاصليين^١.

السامريون

وأضاف سرجون وخلفاؤه الى سياسة النبي او نقل الذين كانوا شوكة في جانب دولة اشور شيئاً آخر هو سياسة الاستعمار والاستيطان. فقد اتوا بقبائل من بلاد بابل ويعلام وسوريا وببلاد العرب لتحل محل الاسرائيليين المسيئين واستكثروا في السامرة ومنطقتها^٢. وقد امتصج المستوطنون الجدد ببني اسرائيل ليشكلوا السامريين. واتخذت معتقداتهم الدينية ايضاً مع عبادة يهوه^٣. وحصل الاشتغال النهائي بين الفريقين حوالي ٤٣٢ ق. م. بعد عودة عزرا ونحريا من النبي حيث دافعوا عن فكرة النقاوة النصرية وطردوا من اورشليم حفييد الكاهن الاعلى زواجه من ابنة الحاكم السامي^٤. ويبدو ان الشاب المطرود اصبح كاهن السامريين وبينه يشكل له على جبل جريزيم لمنافس هيكل اورشليم. وكان كتاب اليهود المقدس حينذاك يتألف من الكتب الخمسة فقط. ولذا فان هذا القسم من العهد القديم ظل منذ ذلك الحين الكتاب المقدس الوحيد للسامريين. وقد نقلوه في نوع قدديم من الحروف العبرية. وجريزيم وليس صهيون هو المكان المقدس الحقيقي بالنسبة لهم.

وازداد العداء بين اليهود والسامريين مع الزمن. ولم يكن التزاوج بينهم مسموحاً في اي وقت. ومن اطرف احاديث المسيح حدثه مع امرأة سامرية تعجبت كيف يطلب منها ان تعطيه ليشرب مع انه يهودي^٥. واختار المسيح في مثل من

The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, ed. A. Asher (London, 1840), (١) p. 83; tr., p. 129.

(٢) Luckenbill, vol. ii, §§ 17, 118. وقد ان اسم السامرة على الفالب من شعر Shemer يعني حارس، انظر سفر الملوك الاول ١٦: ٢٤. ٠

(٣) سفر الملوك الثاني ١٧: ٢٥ - ٣٣.

(٤) سفر نحريا ١٣: ٢٨؛ قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IX. ch. 7. § 2; ch. 8. §§ 2, 4.

(٥) انجل يوحنا ٩: ٤.

ابدع امثاله وجلأ سامرياً محقرًا ليكون بطل قصة ويُلعب فيها دوراً نيلًا^١. وفي انتهاء اضطهاد انطيوخس ايفانس (١٧٥ - ١٦٤ ق. م.) تألم السامريون كما تألم اليهود^٢ بالرغم من موافقتهم بالظاهر على التسهيل وتكريس هيكليهم على جبل جریزم للله زفس^٣.

وقد بقيت هذه الطائفة خلال العصور حتى الوقت الحاضر كـ تبقى المتحجرات ويعتلها اليوم نحو مائتي شخص يعيشون في نابلس وهي شكل القديمة. وفي المصور الوسطى كانت تزدهر جماعات من السامريين في غزة والقاهرة ودمشق وغيرها من المدن. ولغتهم هي العربية اليوم. ولا يزال بامكان السواح الذين يزورون نابلس في عيد الفطير ان يشاهدو السامريين يضعون حمل القصص.

مملكة يهودا

شهد عرش يهودا عدداً من الملوك يشبه عدد ملوك اسرائيل وهو تسعه عشر ملوكاً غير ان هذه المملكة الجنوبيّة دامت نحو قرن وثلث أكثر من مملكة اسرائيل في الشمال. ومن الحوادث المشهورة في اول عهد المملكة غزو احد فراعنة مصر لها. فان شيشنق Shishonk (وفي التوراة يدعى شيشق) وهو لسيبي اسس السلالة الثانية والعشرين – قد اغتنم فرصة تقسيم المملكة اليهودية ودخل البلاد (حوالي عام ٩٢٠) وخرّب المدن ونهب اورشليم وحمل معه كنوز الميكل والقصر كفناه^٤. ولم يكن باستطاعة ربعم عاصي ان يصد الفزوة. وتروجت احدى بنات هذا الفرعون من رباعم بينما كانت احدى بنات سلفه قد تزوجت سليمان.

واستفادت يهودا كما فعلت اسرائيل في القرن الثامن من توقف حركات المجموع الاشوري والمصري. وكان عهد الملك عزيا (ويدعى احياناً عزريا، حوالي ٧٨٢ - ٧٥١) الذي كان ملكه طويلاً عهد تقدم في شؤون الدولة. وقد اعاد تنظيم الجيش

١) انجل لوقا ١٠ : ٣٠ - ٣٧.

٢) سفر المكابيين الثاني ٥ : ٣٣.

٣) Josephus, *Antiquities* Bk. XII. ch. 5§5.

٤) سفر الملوك الاول ١٤ : ٢٦ - ٢٥ : ٧٠٩ seq.

واصلح حصون اورشليم وكسّب انتصارات على الفلسطينيين والعربان واخذ الجزية من العموئيين وغيرهم من اعداء الملكة^١. وقد تجاوز اهتمامه الشؤون العسكرية فنشرت الزراعة بمحفر الحزائن وهي قطعاته في البرية بينما ابراج لاتزال حتى اليوم وب يكن معرفتها بواسطة قطع الحرف المترخة^٢

حزقيا

وأصبحت مملكة يهودا أكثر تعرضاً للهجمات المباشرة من اشور بعد زوال مملكة اسرائيل في عام ٧٢١. وصارت يهودا بعد ذلك ببعض سنوات في اوائل حكم حزقيا (٧٢١ - ٦٩٣) تدفع الجزية لاسور. فقد اتبع حزقيا سياسة تحدّض اشور بعد ان شجعته مصر ولم يكتفى بتحذير النبي اشعيا ولذلك تناقض مع المدن الفلسطينية وغيرها من الدول المجاورة. ولكن يحتاط ضد وقوع حصار حفر قناة طولها ١٧٠٠ قدم في الصخر ليضمن المياه الازمة ل العاصمه^٣. وهذه القناة هي المعروفة بتفنق سلوام Siloam وقد اكتشفت بالصدفة على جدارها كتابة اثيرية بالعبرية مؤلفة من ستة اسطر تفيد ان الحفر بدأ من الجانبين وبเดقة فائقة : «فيينا كان لا يزال [الخارون يرفعون] المعلول الواحد باتجاه الآخر وعندهما كان لا يزال يوجد سوى ثلاثة اذرع يحيب [حفرها سمع] حوت الواحد ينادي الآخر لان الصغر كان متقدعاً»^٤.

وبنتيجة ذلك قام سرجون وخلفه سنحاريب (٦٨١ - ٧٠٥) التيشيطان بسلسة من الحملات والعbellies المركبة الانتقامية ضد فنيقية والمدن الفلسطينية ويهودا وبلغت ذروتها في عام ٧٠١ في حصار اورشليم. وبعد الاستيلاء على صيدا وعكا وخضوع موادي اشدود وعمون ومؤاب وادوم تقسم سنحاريب على الساحل الفلسطيني فأخذ يافا والمدن الأخرى حتى عسقلان وحدود مصر في الجنوب . ثم

١) اخبار الایام الثاني ٦:٢٦ - ٨:٠

٢) اخبار الایام الثاني ٩:٢٦ - ١٠:٠

٣) سفر الملك الثاني ٢٠:٢٠؛ اخبار الایام الثاني ٣٢:٢.

٤) Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, p. 15 وحروف هذه الكتابة لا تختلف كثيراً عن حروف الكتابة على نسب مؤاب .

تَحْوِلُ إِلَى الشَّرْقِ وَفَتْحُ لَاخِيشَ . وَقَلَوْمَتْ صُورَ وَعَقْرُونَ^١ . وَعِنْدَمَا سَمِعَ أَنَّ الْجَيْشَ الْمَصْرِيَّ كَانَ يَتَقدِّمُ إِلَى الشَّمَالِ وَبَعْدَ أَنْهُ لَا يَمْكُزْ تَرْكَ حَصْنَ عَظِيمٍ مُنْشَأَ اُورْشَلِيمَ فِي مُؤْخَرِتِهِ فَإِنَّهُ أَرْسَلَ فَرْقَةً إِلَى اُورْشَلِيمَ وَزَحْفَ مَعَ بَقِيَّةِ جَيْشِهِ نَحْوَ الْجَنُوبِ . وَالتَّعْمَ عِنْدَ التَّقِيَّةِ Eltakkeh^٢ فِي مَعرِكَةِ ضَدِّ الْفَوَاتِ الْمَصْرِيَّةِ وَالْجَبَشِيَّةِ الْجَمِيعَةِ يَقُولُهَا تَرْهَافَةُ (طَهْرَقَا) وَحَالَ دُونَ تَقْدِسَهَا . وَلَكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَتَمْكِنَ مِنْ تَحْوِيلِ قَوَافِهِ كُلُّهَا ضَدِّ اُورْشَلِيمَ «خَرَجَ مَلَكُ الرَّبِّ وَخَرَبَ فِي تَلْكَ الْمَيْلَةِ مِنْهُ وَخَسْنَةَ وَعَانِينَ الْفَالَّ مِنْ جَيْشِ اشْوَرَ»^٣ . وَبَعْدَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الطَّاعُونُ الَّذِي أَصَابَ جَيْشَ نَابُولِيُونَ فِي تَلْكَ الْمَنْطَقَةِ فِي ١٧٩٩ وَالَّذِي كَثِيرًا مَا كَانَ يَصِيبُ الْمُجَاجِ الْمُسْلِمِينَ .

لَمْ تَسْقُطْ اُورْشَلِيمَ غَيْرَ أَنْ مَنَاطِقَ الْرِيفِ خُرِبَتْ . وَاعْتَدَ الْمَلِكُ وَاسْتِعْبَا كَمَا يَبْدُوا أَنْ يَهُودَ سِيْحَمِيَّ مَدِينَتَهُ مِنْهَا كَانَتِ الظَّرُوفَ^٤ . وَسَمِعَ حَزَقِيَا أَنْ يَحْفَظُ بِعِرْسَهِ وَلَكِنَّهُ اضْطَرَّ أَنْ يَدْفَعَ الْجَزِيرَةَ الْمَتَّاخِرَةَ وَانْ يَوْسِلَ بَنَاهُ وَغَيْرَهُنَّ مِنْ نَسَاءِ الْقَصْرِ وَالْكَنْزُوكَ الْثَّيْنَةَ بَعْدَ عُودَةِ سَنَحَارِيبَ إِلَى نَبُوَيْ وَيَفَاخِرُ سَنَحَارِيبُ بِاعْمَالِهِ بِالْكَلِمَاتِ التَّالِيَّةِ :

أَمَا حَزَقِيَا الْيَهُودِيُّ الَّذِي لَمْ يَنْفُضْ لِسُلْطَقِي فَانْتَ حَاصِرَتْ سَنَأً وَارْبِينَ مِنْ مَدِينَةِ الْقُرْيَا الْمُسَوَّرَةِ وَالْمَدِينَةِ الَّتِي بِبُوارِهَا وَالَّتِي لَا يَكُنْ تَعْدَادُهَا وَتَقْتَلُهَا وَنَبْتَهَا وَاعْتَبِرْتَهَا كَتَائِمَ . وَأَمَا هُوَ فَانْتَ حَسِبَتَهُ كَمَسْفُورٍ فِي قَنْسٍ فِي اُورْشَلِيمَ مَدِينَتِهِ الْمَلَكِيَّةِ... أَنْ حَزَقِيَا هَذَا تَهْرُتَهُ أَبْهَةً مَلْكِيَّ الْخِيَّةِ .

وَيَبْدُوا أَنَّ مَا يَدْعِيهِ مِنْ «اَخْذَ» وَبَالَ عَدْمِ «٢٠٠، ١٥٠» رَجَلًا^٥ يُشَيرُ إِلَى عَدْدِ سَكَانِ يَهُوذَا كَمَا كَانُوا يَقْدِرُونَهُ حِينَذَاكَ وَقَدْ اعْتَبِرَمُ الْمَلِكُ الْأَشْوَرِيُّ غَنَامَ حَرْبٍ .

١) وَهِيَ الْيَوْمُ الْمُقِيرُ عَلَى بَعْدِ سَتَةِ أَمْيَالٍ غَرْبِيِّ جَزِيرَةِ .

٢) وَهِيَ غَالِبًا خَرْبَةُ الْمَقْنَعِ عَلَى سَتَةِ أَمْيَالٍ تَقْرِيَّبًا جَنُوبَ شَرْقِ التَّقِيرِ .

٣) سِنْنُ الْمَلُوكِ الثَّانِي ١٩ : ٣٥ : ٤ Herodotus Bk. II, ch. 141.

٤) الْمَلُوكُ الثَّانِي ١٩ : ٦ - ٧ .

٥) رَاجِعٌ : Luckenbill, vol. ii, § 312; cf. Schrader, vol. i, pp. 286, 297; J. M. Rodwell in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 62.

سقوط اورشليم

بقي صديقاً (٥٩٧ - ٥٨٦) الذي كان في الخامسة والعشرين من عمره متظاهراً بالولاء لنبوخذنصر عدة سنين ثم استسلم لميوله وحاول الاستقلال كا انه استجواب في ذلك لرغبة الزعماء الوطنيين في بلاده واعتمد كالمعتاد على مساعدة مصر. فتقى نبوخذنصر وارسل جيشاً حدفع خراب اورشليم وحاصرها. ورفع الحصار مؤقتاً عندما اقتربت قوة مصرية بقيادة هوفرع Hophra^١ ولكنه سرعان ما عاد وبشكل أشد من السابق. وانهكت قوى الخامسة بعد عام ونصف واحداثت تفرات في الاسوار في ٥٨٦. وهرب الملك ورجال حربه تحت جنح الظلام ولكنهم تابعوه وادركون في سهل اريحا. وعندما أتي به الى معسكر نبوخذنصر في ربلة قتل ابناءه امامه ثم سملت عيناه لكي يكون ذلك آخر مشهد يواه. ثم قيد الملك بالسلاسل وحمل الى بابل^٢. أما اورشليم فانها هدمت مع هيكلها. وسي العظام من سكان المدينة والبلاد ويقدر عدم بخسين الفا. ولم يبق الا جماعة من البائسين. ودُمرت^٣ كل مدينة مهمة في يهودا تقرباً وظلت كذلك عدة قرون. وفي عام ٥٨٢ كان نبوخذنصر قد اتم اعادة السيطرة على جيران يهودا باستثناء صور التي قاومت تحت الحصار حتى ٥٧٢^٤. وكان ملكها والذائد عنها اتبعل الثاني الذي حل محله بعل الثاني في ٥٧٤. وحصلت ثورة ضعيفة في صور عام ٥٦٤ ولكنها اخذت بسهولة. وهكذا أصبحت سوريا كلها مستقرة في ايدي الكلدانين.

١) وذكر باسم Apries في Herodotus, Bk. II, ch. 161 ; Diodorus, Bk. I, ch. 68.

٢) سفر الملوك الثاني ١ : ٢٥ - ٧ ; اخبار الایام الثاني ٣٦ : ٣٦ - ١١ - ٢٠ - ٤ : ٥٢ . ٢٧ - ١١ - ٤ : ٥٢

٣) ارميا ٣٩ : ٨ - ١٠ : ٤ - ١٢ : ٥٢ - ٣٠ ; اخبار الایام الثاني ٣٦ : ١٧ - ٢١ Josephus, Antiquities Bk. X, ch. 11 ; Apion Bk. I, ch. 21.

٤) انظر من ١٥٦ .

الفصل السادس عشر

مظاهر احضارة العبرانية

اتبع العبرانيون في مراحل حياتهم الاولى في فلسطين التراث الحضاري للشرق الادنى الذي كان يمثل الكتيعانيون . وقد اعطت كتعان لاسرائيل لقنتها وابعدتها كما رأينا . وعندما استقر بنو اسرائيل في الوطن الجديد تركوا مجتمعهم السامي القديمة واتخذوا لهجة الشعب الذي عاشوا بينه . وبما ان مجتمعهم كانت لهجة كلام فقط فانهم اضطروا ان يتذمروا الحصول على فن الكتابة من غيرائهم قبل ان يكون لهم ادب .

وكتعان علمت اسرائيل الزراعة . فالعبرانيون دخلوا البلاد كبدو ورحل وتم انتقالهم من مرحلة الرعي الى الزراعة بعد استقرارهم . وظل كثيرون من احفادهم في اراضي يهودا المرتفعة يتبعون حياة الرعي غير ان الزراعة اصبحت مورد المعيشة الرئيسي في سهول الشمال الحصبية .

الطقوس المستعارة

ومع الزراعة اكتسب العبرانيون من الكتيعانيين بطريق التزاوج تلك الافكار والاعمال التي اعتبرت ضرورية لاجل الحصب ولضمان المخاضيل الجيدة . ويعني ذلك انهم اقتبسا دفعة واحدة تقريباً مجموعة من الطقوس والمشاهد والمراسيم القديمة التي تضم الاعادة الحشبية^١ «والاماكن المرتفعة» وعبادة الحية^٢ والمجل النهي^٣ . وكان الاعتقاد بأن الطريقة المناسبة في العبادة هي تضحية حيوان وتقديمه هدايا في

١) «العاشرة». انظر من ١٢٨ وما يليها .

٢) سفر الملوك الثاني ١٨: ٤ .

٣) سفر الملوك الاول ١٢: ٢٨ - ٢٩ ; اخبار الایام الثاني ٨: ١٣ .

الميكل من محاصيل الحقل والقطيع - كان هذا الاعتقاد عاماً بين شعوب سوريا وبلاد الرافدين . وكان رقص داود امام ثابوت المهد^١ من مظاهر رقصة كنعانية تتصل بالخشب . ولا تزال آثارها باقية في الحركات الطقسية الایقاعية التي يجربها الدراوיש في هذا العصر .

والتعريفات المتصلة بالطقوس والمذكورة في الاسفار الخمسة تفيد ضمناً ان هذه العادات كانت قبل تحريرها قد اقتبسها العبرانيون من جيرانهم ثم اعتبرها الرؤساء غير متفقة مع اتجاهات الديانة العبرانية . وكان تحرير طبع الجدي^٢ في لين امه يبدو غريباً واعطى له تفاصيل خاصة الى ان اظهرت كتابات اوغاريت ان هذه العادة كانوا يمارسونها هناك .

والاعتراف بيدهه كالله الرئيسي وذلك بحق الفتح لم يمنع اعتبار الآلة المحلية مسيطرة على خصب البلاد . وكانت سلطة يهوه على الدولة بينما شؤون الحياة العادمة من زراعة وتجارة لم تكن من صلاحياته الرئيسية . وفي بعض الاحيان وخاصة في القسم الشمالي من المملكة كان يهوه يكتسب كثيراً من صفات بعل مما جعله سيد السماء وباعت المطر والسيطر على العواصف . وكان الاهل كثيراً ما يسمون ابنهم البكر بالنسبة ليهوه بينما يسمون صغارهم بالنسبة لبعل . وتزداد نسبة الاسماء العبرانية المؤلفة من اسم بعل باطراد في الفترة الاولى . وشاول يسمى ابنه ايش بعل Esh-Baal (رجل بعل) ويوناثان يسمى ابنه مریب بعل (بعل ينمازع)^٣ ، وداود يسمى ابنه بعل يداع Beeliada (بعل يعرف)^٤ . وقد بلغ من منافسة هذا الاله الكنعاني ليهوه انه في ایام ایزابل وآخاب^٥ لم يكن هنالك اكثر من ٧٠٠٠ شخص لم ينحدروا امام بعل وقد سر ایليا على ما يظهر بهذا العدد .

الفن

وليس من شك في الامل الكنعاني للفن والبناء الديني عند العبرانيين . وهيكل

١) سفر سموئيل الثاني ٦:١٤ .

٢) سفر الخروج ١٩:٢٣ - ٣٤ .

٣) اخبار الایام الاول ٨:٣٣ - ٣٤ : ٩ - ٣٩:٤٠ - ٧:١٤ .

٤) انظر في اعلاه من ٢٠٩ و ٢١١ ؛ واجع سفر الملوك الاول ١٩:١٨ .

سلیمان وهو البناء الاتری الدینی الوحید عند العبرانین القدماء لم یشیده معهاریوف صوریون فحسب بل "خطط وفقاً لخطيط معبد کنعانی" ، وابعدت زخرفته غاذج کنعنائیة . وكان القصر الملكی في اورشليم ايضاً من عمل الصناع الفینیقین^١ . والملائکان (الشیرویم) بشكل حیوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة تمثل غودجباً فنیاً عند السامیین القدماء . وفكرتنا عن الملائک کولد صفير له جناحان ترجع عن طريق فن عصر النهضة ليس الى الشور الجنح الاشوري كما يظن البعض بل الى اي المول الجنح او الاسد الجنح الذي له رأس بشري عند السوريين . وكانت جدران هيكل سلیمان وستار خیبة الرب ترددان بالشیرویم (الملائكة) . وكان بنو اسرائیل یفکرون بالله واقفاً او جالساً في عرشه على ملاک^٢ .

كانت طقوس المیکل تُستدعي العزف على الآلات الموسيقية^٣ . وكان الموسيقيون والمغنوون الاول في المیکل کنعنائين في اشغالهم وتدريبهم . وعندما بدأ داود بالموسيقى العبرانية المقدسة ورقاها سلیمان لم يكن هنالك من غودج يمكن اتباعه سوى التمودج الکنعنائي . والتقابات الموسيقية نفسها في عهود اسرائیل الاخيرة كانت تُسر بارجاع اصلها الى عائلات باسماء کنعنائية^٤ . وپیرهن رسم امرأة من بجدو تلعب على العود ان تلك الآلة كانت معروفة في فلسطين قبل ایام داود بنحو الفي سنة . ومؤلف سفر التکوین^٥ یعترف بقدم الآلات الموسيقية التي یستعملها شعبه حين ینسب لأحد احفاد قایین انه كان «أباً لكل خارب بالعود والم Zimmerman» . وبعد اقتباس هذه الآلات استخدمت لاجل الموسيقى الدينية والزمينة . وكانت ام آلات الدق عند الاسرائیلين الدف الذي تشير اليه التوراة في اماكن كثيرة^٦ .اما آلات النفخ فيتمثلها الناي والبوق . وكان الناي قصبة بسيطة مفردة او

١) راجع اعلاه من ٢٠٥

٢) صموئيل الثاني ٢٢: ١١؛ الزامير ١٨: ١٠.

٣) اخبار الایام الاول: الاصلاح ٢٥.

٤) راجع: Albright, *Archaeology and the Religion of Israel*, pp. 14, 126-7.

٥) سفر التکوین ٤: ٤؛ ٢١: ٤.

٦) سفر الخروج ١٥: ٢٠؛ القضاة ١١: ٣٤؛ صموئيل الاول ١٨: ٤٦؛ الزامير ٦٨: ٥٥.

مزدوجة من النوع الذي لا يزال يستعمله الرعاء في سوريا. وكان يصنع البرق (Shofar) من قرن كبش أو ماعز ولا يزال يستعمل في الكائنات العبرانية^١. ومن الآلات ذات الأوتار أصبحت القيثارة مفضلة على غيرها. وليس لدينا فكرة عن الآلات التي كانت تلعب على هذه الآلات.



١ - ملائكة من العهد القديمي يرتكزون عليه عرش أحiram ملك بيلاوس

٢ - ملائكة من صنع رفائيل في مجموعة السكستين بالنالبakan

وكان الأغاني ترافق الموسيقى ومن أقدم الأغاني المحفوظة أغنية دبورة التي تذكر انتصاراً كسبه الاسرائيليون على الكنعانيين^٢. وهناك أغان تحمل بالزيارة وتستخدم في الصعود إلى الميكل وقد ادرجت في عدد من المزامير^٣. وكانت الأغاني بطيئة الحال مؤلفات شعرية. ويتصنف الشعر العربي بالتوازي والمطابقة كأبيات

١) انظر : *Curt Sachs, The History of Musical Instruments* (New York, 1940), pp. 110-112.

٢) من الفضة الاصحاح الخامس .

٣) المزامير ٦٢٠ - ١٣٤ .

شعر اوغاريت. وهذه المطابقة المستعارة من الكنعانيين هي التي اعطت المزامير وغيرها من المؤلفات الشعرية في المهد القديم كثيراً من جلالها وعظمتها وتوقيعها الموزون. ونصف المهد القديم تقريباً شعري في تركيبه.

الشُّوَّون المُنْزَلِيَّة

اقتبس العبرانيون كذلك في الشُّوَّون الزمنية عادات اولئك الذين عاشوا بينهم وتراءجوا معهم. وكانت فكرتهم العامة عن الحياة والآخرة تقريباً كما كانت في كنعان. وعادات الدفن كانت متشابهة. فقد كان يوضع الجسم في قبر مع ادوات كانت تستخدم في الحياة اليومية كالصخون والجرار. وكانت ثيابهم وحليلهم وخزفهم وحرفهم تتبع الاماليد والازيه الكنعانية. وكان الملك والأنبياء يلبسون رداء طويلاً من نوع خاص فوق ملابسهم واقتبسه النساء فيما بعد. وكانت الطبعة العليا ايضاً تلتقي بقهاش من الكتان يتألف من قطع مستطيلة من الكتان الرقيق.

كان الغزل والنسيج من الصناعات المُنْزَلِيَّة للاستهلاك الشخصي. ومن جلة اوصاف حكيم العبرانيين للمرأة الفاضلة انها «تطلب صوفاً وكتاناً وتشغل يدين راضيتين^١». وتدل حجارة الانتقال للأنوال التي وجدت بكثرة في قرية سفر^٢ وقطع الأنوال الشيشية وبراميل الصباغة التي اكتشفت في لاخيش - تدل على وجود صناع مهمتين كانوا ينتجهن لأجل الاستهلاك العام^٣. وكانت هاتان المدينتان من المراكز الكنعانية القديمة. ولم يبرع الصناع العبرانيون في فن سوي فن قطع الحجارة الكريمة. وتنظر لنا الاختام من عصر الملكية درجة رفيعة من المقدرة في هذا الفن. وأشارات التوراة الى عشرات الكتبة والخائفين والى ابناء الصياغين^٤ توحى بوجود منظمات ضعيفة تقابل النقابات كانت تضم افراد نفس الحرفة لأجل المصلحة الاقتصادية او الاجتماعية او الدينية المتبادلة^٥.

١) سفر الاثال ٣١ : ١٣ .

٢) ومن اتها «مدينة الكتب» وهي اليوم تل بيت موسم على ١٣ ميلاً جنوب غرب الخليل .

٣) راجع: Barrois, *Manuel*, vol. i, pp. 482-487.

٤) انظر اخبار الایام الاول ٢ : ٤٥٥ : ٤ : ٢١ : ٤ : ٨ ، ٨ : ٣١ ، ٣ : ٦ : ١٤ : ٧

٥) انظر ما جاء من ٩٤ و ٩٥ .

كانت منسوجات الكتان تصنع من الكتان الوطني. وكان يزدهر هذا النبات القديم في الساحل الشرقي للبحر المتوسط وفي مصر. وقد زرع في سهل اريحا قبل الاحتلال العبراني^١. وزال نبات الكتان الاعتيادي تقربياً من فلسطين ولكن الازهار البرية التي تنتمي إلى فصيلة الكتان لا تزال تعطي مسودة ولبنان منظراً جميلاً في الربيع^٢. وادخل القطن بعد الكتان بينما استعمل الصوف قبل ذلك بدة طوبية. وكان المنتوج المنزلي للصوف الذي يحراك في المنزل أيضاً يشكل اللباس الاعتيادي للطبقة المتوسطة الفنية.

ويذكر تقويم الجزر في منتصف القرن العاشر القمح والزيتون والعتب عدا الكتان. وكانت أرض الميعاد «أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمات»؛ أرض زيتون وزيت وعسل^٣. وكانت مكانة القمح عظيمة بين الحبوب. وغزوas الاعداء كانت توجه غالباً ضد البيادر^٤ ولا تزال. وأكتشفت حجارة رحم صغيرة لطعن القمح في أماكن عديدة. وتدل الأفران التي وجدت في بيت شمش أن بعض عادات صنع الجوز قد استمرت حتى العصر الحاضر حيث تستعمل التنانير (جمع تدور)^٥. وبقايا معاصر الزيت والخمر كثيرة^٦. وقد وجدت نفايات الزيتون بكثيبات كثيرة في لاخيش مما يدل على أن هذه الصناعة كانت ذات شأن في عصر الملكية. واقتبس العبرانيون المصباح الكنعاني الذي يستعمل فيه زيت الزيتون للاحراق واستخدامه وحلوه لمدة سبعة قرون تقربياً. واقدم مصباح اجنبي مستورد من بلاد الرافدين حوالي ٥٠٠ ق. م. اكتشف في بيت شمش ويظهر فيه التحسن لوجود مسكة في جانبه وغطاء في اعلاه مع ثقب لاجل القليل. وتدل جرة بشكل خلية مخروطية

١) سفر يشوع ٦: ٢.

٢) George E. Post, *Flora of Syria, Palestine and Sinai* (Beirut, 1896) pp. 181-184.

٣) سفر التثنية ٨: ٨.

٤) صموئيل الأول ١: ٢٣.

٥) انظر : Elihu Grant, *Rameileh*, p. 49; do., *The People of Palestine* (Philadelphia, 1921) pp. 78 seq.

٦) لاجل الرسم المصطل بذلـك انظر : Elihu Grant, *Ain Shems Excavation*, pt. 1 (Haverford, 1931), pp. 27, 78; *Rameileh*, pl. vii.

ووجدت في تل النصبة على بمارسة تربية التعلّم^١. وأشارات التوراة الى البصل والثوم والفول والعدس والخيار والكزبيرة وغير ذلك من الخضار والحبوب تدل على ان عادات العبرانيين الغذائية لم تختلف كثيراً عن عادات جيرانهم^٢. وكانت للحمض والعدس أهمية في الطبيخ^٣.

وتظهر الكروم ومنتوجاتها بصورة بارزة في الطقوس العبرانية وفي الحياة الاقتصادية. ونبات الكرمة نفسه كان يدل على الحصب^٤. والآخر كان يستخدم لاجل التقدمة في الميكل^٥. وفي الفن كانت الكروم والعنبر تظهر على الفسيفساء واعمال النحت في المعابد والمدافن القديمة. والرمان ايضاً كان يستعمل في الزخرفة وعصيره كان مرغوباً فيه كشراب منعش^٦.

وبين الازهار كان الزنبق او السوسن^٧ يعتبر افضلها. وقد ظهر السوسن في زخارف الميكل وعلى النقود فيما بعد. وتكثر الاشارة اليه والى غيره من النباتات في نشيد سليمان. وربما استعمل هذا الاسم بصورة عامة ليشمل شقائق النعمان والاقحوان التي تشكل في الربيع منظراً بهيجاً غنياً بالالوان في حقول سوريا. ولا بد ان المسيح كان يفكر في احدى هذه الازهار حين قال انه «ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها»^٨.

١) انظر : Burrows, p. 172. تقع تل النصبة على نحو ٨ أميال شمال القدس ومبين جنوب البرية واعتبرها عدد من العلماء أنها مدينة المفتقة Mizpah. انظر سفر الملوك الاول ١٥: ٢٢؛ مصوّل الاول ٧: ٥ - ٦؛ راجع كلمة Mizpah في Westminster Dictionary.

٢) انظر سفر المدد ٥: ١١؛ مصوّل الثاني ١٧: ٢٨؛ حزقيال ٤: ٩؛ اشعيا ٨: ١؛ المتروج ٣١: ١٦.

٣) سفر التكوتون ٢٥: ٣٠.

٤) سفر المدد ١٥: ٥.

٥) سفر اللاويون ٢٣: ١٣؛ السدد ١٥: ٥.

٦) نشيد الانشاد ٨: ٢.

٧) بالعبرية shoshannāh ومنها اق اسم Susanna؛ نشيد الانشاد ١: ٢ - ٤؛ ١٦: ٢ - ٤؛ ٥: ٣ - ٦.

٨) الجليل مق ٦: ٢٨ - ٢٩.

النقوش

لم تدخل النقوش المسكوكة او المختومة الى فلسطين حتى القرن الخامس ق. م. وكانت قبل دخول النقوش يتبعون النظام البابلي المبني على الشاقل كوحدة الوزن. وعندما كانوا لا يلتجأون الى المقاييس في مبادلاتهم التجارية كانوا يستخدمون الميزان. وقد اكتشفت موازين متعددة مصنوعة بوجوب نظام الشاقل في مواقع مختلفة.

وفي اوائل القرن الخامس دخلت الدراما الائينية الفضية التي كانت قد اصبحت تقريباً نقداً دولياً الى الشرق الادنى وقدت في فلسطين وببلاد العرب^۱. واقدم نقد عرباني وجده حتى الان يرجع الى اواسط القرن الخامس وربما كان من ضرب تجبياً.

المعلمون الدينيون

اذا كانت مساهمة العبرانيين في التقدم العالمي لا تدخل في نواحي الفن والسياسة والاقتصاد ففي اية ناحية تقع هذه المساهمة اذا؟ اذ انها تقع في ناحية الديانة. فالمساهمة الدينية هي التي جعلت العبرانيين معلمي البشرية من الناحية الاخلاقية. وعبقريتهم بكاملها تظهر في الهدى القديم.

ولم يصلنا مؤلف يشبه العهد القديم في اهميته من العصور التي سبقت المسيحية. والهدى القديم هو اكثراً من مؤلف ادبي، انه صرح حضارة بكاملها. وقد اتننا بعض آثار اخرى ادبية للحضارات القديمة بطريق الاكتشافات الاترية الحديثة بعد ان ظلت مدفونة في باطن الارض اجيالاً طويلة، غير ان هذا الاثر الادبي قد وصلنا بطريق المرويات والتقاليد المتواصلة. وقد كان العهد القديم خلال العصور قوة فعالة في حياة الرجال والنساء. ومررت مادته نفسها باطوار كثيرة من الانتقاء والحدف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي. وهناك نوع من الوحدة تتخلل العهد القديم. ولم يمض زمن لم تكن فيه مادته موضوع دراسة عميقة. ولم ينفك الفنانون والشعراء والكتاب في العصور القديمة والوسطى والحديثة يستمدون

الوحى من مواضع التوراة. ومعظم اللغات المتقدمة تحمل طابع اشارات التوراة والافكار المتصلة بالتوراة.

وهنالك عدد من المعلين فضلاً عن المؤرخين ساهموا في تأليف العهد القديم. فقد كان هنالك أولاً المشرع الذي يظهر بشخص موسى وقد تكلم بلسان جوه. والشريعة الموسوية التي ازدهر الله على موسى^١ كان لها ما يقابلها في قوانين حمورابي التي بالرغم من أنها أقدم بأكثر من خمسة عشر سنة تتمثل طوراً ارفع من الحضارة وهو الطور الصناعي والتجاري بينما كان العبرانيون في مرحلة الزراعة والرعي. وفي مجموعة قوانين حمورابي كان العبد يحرر في السنة الرابعة^٢ بينما في شريعة موسى كان يحصل ذلك في السنة السابعة^٣. وكان عقاب السارق في قانون حمورابي أن يبعد الأشياء المسروقة ضعفين أو ثلاثة اضعاف^٤ بينما عليه أن يعيدها في شريعة موسى بين أربعة أو خمسة اضعاف^٥. وكان ضرب الاب أو الام يعاقب في قانون حمورابي بالتشريح^٦ بينما في شريعة موسى يعاقب بالموت^٧. وحمورابي ينزل العقاب بالقضاء الذين يقللون الرشوة^٨ بينما موسى يكتفي بمنع الرشوة^٩. والشريعتان تضعان العادات والأعراف الموجودة بشكل قوانين وتحميان عادة التأثر البدوية القائمة على مبدأ «العين بالعين»^{١٠}. وهو ارفع مرحلة من عادة التأثر بدون قيد التي كانت معروفة قبلًا. وحمورابي وموسى تسلماً قوانينهما من سلطة عليا فأخذتها حمورابي من شيش

١) سفر الخروج ١٩:٢٠ - ٢٢:٤؛ انجليل متى ٤:١٥ .

Robert W. Rogers, «The Code of Hammurabi», in *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York, 1912), § 117. (٢)

٣) الخروج ٢١:٢؛ التثنية ١٥:١٢ .

٤) Rogers, §§ 120, 124.

٥) الخروج ١:٢٢ .

٦) المادة ١٩٥ .

٧) سفر الخروج ١٥:٢١ .

٨) المادة ٥ من قانون حمورابي .

٩) سفر الخروج ٨:٢٣؛ التثنية ١٦:١٨ - ١٩ .

١٠) الخروج ٢٤:٢١؛ التثنية ١٩:٢٤؛ سفر السلاويين ٢٤:٢٠؛ قانون حمورابي مادة

٢٠٠، ١٩٧، ١٩٦ .

وموسى من يهوده. غير ان العنصر الاخلاقي في مجموعة موسى كما تختوئها الوصايا المشر لا يوجد ما يساويه في اية مجموعة اخرى . ولم يأت بما هو احسن من هذه الوصايا العشير سوى المسيح . والمنع او التحريم في هذه الوصايا لا يشمل الاعمال فحسب وانما يتتجاوزها الى مجرد التفكير والرغبة .

وكان هناك معلم عبراني من نوع آخر هو الكاهن *kohen* الذي كان يعلم الشريعة ولكنه كان يعمل اكثر مما يعلم . فقد كان يقوم بالمراسم عند المذبح ويجرى سائر الطقوس ويعمل ك وسيط بين الانسان والله . وكان الكهنة يشكلون طبقة خاصة بين الامم القديمة والكهنة عند العبرانيين كانت تحصر في اسرة هارون بصورة وراثية !

ومن المعلمين ايضاً الرجل الحكيم . وكان الحكيم العبراني يخاطب الفرد وليس المجموع ورسالته كانت ادراك التجاوز اكثر منها الحصول على رضى الله . والحكمة بخلاف الشريعة كان مصدرها الانسان وكانت نتيجة ملاحظته واختباره . وكتب الحكمة العبرانية الكبرى هي اسفاد ايوب والامثال والجامعة واعظمها بل بالاحرى اعظم كتب الحكمة في اية آداب هو بدون شك سفر ايوب .

ومؤلف سفر ايوب لم يكن وجلأ حكيمياً لا مثيل له فحسب بل كان شاعراً لا يجاري ايضاً . والشعر العبراني كسائر انواع الشعر هو نطق صادر عن شعور قوي مفرغ في شكل خاص . والشاعر الفنان كان اكثر انواع الشعراء شيوعاً في اسرائيل . وكمفن كان يهدف في اغانيات النصر التي ينشدتها الى الاشادة بالخلاص الذي تم على يد يهوده . وكان يعبر كواضع للمزامير عن عواطف رجال قائب يطلب الرحمة او يظهر الفرح بسبب القرآن^١ او كان يعبر عن عواطف رجال ضعيف يصرخ في وقت الضيق او يجد الله لعونه^٢ . والشاعر كان معلماً ايضاً في اسرائيل .

١) الخروج ١١:٢٨؛ المدد ١٦:٤٠ .

٢) المزامير ٥١:٣٢ .

٣) المزامير ٣:٣٨:٣٣ .

الأنبياء

وكان النبي يتمتع باهمية خاصة بين سائر المعلمين . وكلمة «نبي» هنا لا تقييد النبي عن حوادث المستقبل وإنما الذي يتكلم بالنيابة عن الله وهذا معنى الكلمة من حيث الاستقاق^١ . والديانة العبرانية إنما تبدأ بالأنبياء .

وقد ظهرت النبوة كاحتجاج ضد عبادة البعل وسائر العبادات الأجنبية . وكان غرضها من وجاهة ايجابية تأييد ديانة يهوه . فالأنبياء كانوا المدافعين عن يهوه . وبعد أن بدأ الأنبياء اسرائيل من هذا الأساس فانهم توصلوا إلى ناحية رفيعة من التفكير الديني ، وفي الواقع اوجدوا ديانة جديدة توحيدية متطرفة حول الله أعلى يعم الكون وهو الله واحد فقط . وقد علم الأنبياء أن هذا الله الواحد هو كائن أخلاقي عادل . وأكثر من ذلك فإنه يتوقع أن يكون تابعوه أخلاقيين وعادلين . ومثل هذا الله يسر لیس بالذبائح بل بالعيش الذي يتبع قواعد الأخلاق . والذي يهبه هو السلوك أكثر من الطقوس . فالتوحيد الأخلاقي الشديد كان المبدأ الأساسي في تعاليم الأنبياء .

وقد قام هؤلاء المعلمون الجدد في عالم تتألف دياناته من سلسلة من الأعمال والاصول التي يعتبر الاتباع الصحيح لها جوهرياً للحصول على رضى الله او لتجنب غضبه واتوا بتفسير جديد للله والانسان وعلاقتها . وكان هدفهم ليس خلاص الروح^٢ بل تنمية الفرد والمحافظة على المجتمع . وأصبحوا المدافعين عن العدالة الاجتماعية . ولم يقم أي معلم ديني في بابل وخططي او اليونان مثل هذه المحاولة لربط الأخلاق بالديانة او اعتبار قواعد السلوك الاجتماعي كأوامر الملة . والعنصر الأخلاقي في كتاب الاموات وغير ذلك من قطع الادب المصري ضعيف جداً اذا ما قورن بما

١) ان كلمة نبي العبرانية هي عربية في شكلها ومعناها الذي يعني «وصل الكلمة سامي قديم موجود في الاكادية *nabu* بمعنى يدعوا» .

٢) كان للصريين وخدم بين الأمم القديمة تعاليم مفصلة بشأن الحياة بعد الموت . وكان الشيوخ Sheol وهو مقبر الاموات عند العبرانيين غالباً غير محمد بالضبط ويكون خطبة رئيسية . وكان الصالحون والاشرار ينتهيون إليه وخاصة الاشرار حيث يكون وجودهم جائداً بدون نشاط . انظر سفر التكوان ٣٧ : ٣٥ ; صموئيل الاول ٦ : ٢ ; المزامير ٩ : ٦ : ١٧ : ٥ : ٣١ : ١٧ : ٣١ ; سفر الجامدة ٩ : ١٠ ; اشعيا ١٤ : ٩ ; قارن مع اشعيا ١٩ : ٢٦ ; دايل ١٢ : ٠ .

اتى به انبياء العبرانيين . وقد بنى المسيح على اساس التعاليم العبرانية النبوية وليس على الاسس القانونية او الكهنوتية واكمل محمد البناء على هذا الاساس المشترك . ولذلك فانه ليس من المبالغة ان يقال ان حركة النبوة عند العبرانيين « قد احدثت اعظم حركة في تاريخ البشرية الروحي »^١ .

والفكر النبوى لم يقتصر على ايجاد فكرة جديدة عن طبيعة الله وصفاته وعلاقة الانسان بالله وبالانسان وانما انتجت نوعاً جديداً من الادب الموزون الفعال . وجانب كبير من تأثيره الشفوي يفقد عن طريق الترجمة . وقد ظهرت اكثريه الادب النبوى بين عامي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق. م.

وكان اقصى ما توصل اليه البابليون والاشوريون والمصريون واليونان نوع من التوحيد المشوب بالشرك (henotheism) يعتقد بوجود الله واحد اعلى بدون ان يعني الاعتقاد بألمة اخرى . وفي العبادة توصلوا الى عبادة الله واحد مع الاعتقاد بوجود اكثر من الله واحد في الوقت نفسه (monolatry) . واذا كان البعض قد توجه بالصلة الى مردودن او اتون او ابولون كما لو كان في ذلك الوقت لا يوجد الله آخر فان ذلك لا يجعلهم موحدين . فالتوحيد هو نظام عقائدي ناشط مكافح لا يقتصر على انكار سيطرة سائر الآلهة في نواحٍ محدودة وانما ينكر وجود الآلة الاخرى ذاتها . والله التوحيد لا يمكن ان يكون قبلياً او قومياً بل يجب ان يكون اهياً عاماً . والاعتقاد بوجود الله اعلى دون ان يعني الاعتقاد بألمة اخرى (اي henotheism) هو مرحلة متوسطة بين الاعتقاد بتعدد الآلهة وبين التوحيد .

ومن الواضح ان موسى وكذلك داود كانوا من اتباع هذه المرحلة المتوسطة من التوحيد . فقد كان يهوه بالنسبة لها الله العبراني واحد وحدهم وسيطرته كانت على ارض اسرائيل^٢ . وهذا الاتصال الوثيق بين الله والبلاد لم يكن عند العبرانيين وحدهم فقد كان يعترف به معاصرهم . ويهوه الله العبراني الذي بدأ كإله قبلي يسرره ازال العقوبات القاسية بالمصريين الذين اضطهدوا شعبه ، ثم اصبح الماً قومياً

(١) Julius A. Bewer, *The Literature of The Old Testament in its Historical Development* (New York, 1926), p. 87.

(٢) سفر الشفنة : ٦٤ :

يسمح باستئصال الاموريين والكتمانين^١ ويأمر بقتل المثات من كهنة منافسه^٢ ان هذا الاله (يهوه) لم يرفع الى تلك المكانة الفريدة كله وحيد في العالم وكإله يتصرف بالمحبة والعدالة والرحمة والغفران الا في مستهل الفترة النبوية . أما كيف حصل هذا التطور فانه ليس من السهل شرح ذلك . وبعوجب التفكير القديم كانت القبيلة او الشعب عندما تقلب على قبيلة أخرى او شعب آخر فان ذلك يعتبر برهاناً قاطعاً على ان الله الشعب المنتصر هو الاقوى . وبصورة آلية يقبل الشعب المغلوب هذا الاله . غير ان انباء العبرانيين لم يتبعوا بذلك التفكير . فبينما كانت جيوش الاشوريين تخضع شعب يهوه كان انباء يهوه يعلمون بان يهوه كان يستخدم اشور كاداة لمعاقبة شعبه لانهم اخطأوا . وهكذا تحول الانكسار الى انتصار ، ومكانة يهوه لم يحافظ عليها فحسب بل ارتفعت الى ذروة فريدة من العالمية .

قاموس الموحد الاول

قد لا يصدق الانسان ان راعياً وجاني جيزي من قرية قليلة الشأن في يهودا والبرية المجاورة كان اول رجل في تاريخ الفكر ادرك وحدة الله وصفته العالمية . ذلك كان عاموس من قرية تقوع^٣ الذي اعلن رسالته حوالي ٧٥٠ ق. م. وقد كان عاموس نبياً يتكلم ولا يكتب وكذلك كان محمد . وربما كان عاموس أمياً . وقد نشر رسالته في مملكة اشيهال في عهد يوشع بن اسنان الثاني الذي ادت فتوحاته الى تدفق ثروات ومواد ترف جديدة على المجتمع الاسرائيلي . وكان عاموس اول من نظر الى يهوه كإله شعوب اخرى غيربني اسرائيل^٤ وكمائه عدالة اجتماعية . وبالرث الكلمات التي وضعها على لسان يهوه (الاصحاح الخامس) :

٢١ بغضت كرهت اعيادكم ولست التذبذب اعناقكم .

١) سفر يشوع ٨:١٠ - ٤٢

٢) سفر الملوك الاول ١٨:٣٦ - ٤٠ : قارن مع سفر الشفاعة ١٣:١٣ - ١٧:١٧ - ٥:٥

٣) ولا تزال آثار هذا الاسم في خربة تقوع او تقوعة وهي قرية خربة تبعد ستة أميال جنوب بيت لحم .

٤) عاموس ٩:٥ - ٧

٢٢ اني اذا قدمت لي محقاتكم وتقديماتكم لا ارتضي وذبائح السلامة من مسمياتكم لا التفت اليها.

٢٣ ابعد عني ضجة اغانيك ونغمة ربابك لا اسمع.

٢٤ وليرجع الحق كالمياه والبر كنهر دائم.

أشعيا وقدسية الله

وقد فكر النبي اشعيا الذي بدأ نبوته نحو ٧٣٨ كافعل عاموس على اساس التوحيد النظري . وكان يعتبر الامة المتنافسة لا قيمة لها ومن صنع الانسات^١. وقد احدث تقدماً في تفكير عصره بالاصرار على قدسيّة الله وبباراز كله المختلف عن نقص الانسان حيث يقول : «قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الارض»^٢. عاش اشعيا في عهد مضطرب حصل فيه خراب السامرة عن يد سرجون (٧٢٢ ق.م.) وهجوم سنجارب على اورشليم (٧٠١ ق.م.) ولكنه كان يقف فوق معاصريه ويقدم مثلاً رائعاً عن الوطنية التي لا تتراجع امام ايّة تضييعه نظراً لوحى ايمانه الذي لا يتزعزع بالله قدوس . وقد ظلّ لمدة ثلاث سنوات معرّى وحافياً ليظهر نوع المعاملة التي سينالها الاسرى المصريون والکوشيون على يد الاشوريين^٣ . وكان اشعيا بالإضافة الى ذلك نبياً تكلم عن قドوم المسيح ورأى بعين ايمانه حلم السلام العام تحت رئاسة «امير السلام» فتعم سلطته العالم ويطبع الناس سيفهم سكناً ورماحهم مناجل ويسكن الذئاب مع الخراف^٤ . لقد بشر اشعيا بنظام جديد لم تستطع ان تتحققه ٢٦٠٠ سنة من التقدم . وكان اشعيا الثاني وهو مؤلف الاصحاح ٤٠ الى ٥٥ موحداً ايضاً .

ارميا والنهد الجديد

اختلف ارميا عن عاموس واسعيا بأنه كان نبياً كاتباً . وانتصف نبوته بالألام

١) اشعيا ٢:١٨، ٨:١٠، ١٠:١٠، ١٠:١٠ .

٢) اشعيا ٦:٣ .

٣) اشعيا ٢٠:٣ .

٤) اشعيا ٩:٦ - ١١:٤ - ٢:٧ - ٩ - ١:١١ .

التي رافقتها مدة طويلة (٦٢٦ - ٥٨٦ ق. م.) . وربما كان أبيل شخصية في العهد القديم كله . وقد شهد مهاجنة نبوخذنصر لاورشليم في ٥٩٧ وتخريمه لها في ٥٨٦ . وكان كعاصم واسعيا الثاني موحداً ولكن توحيده كان أثمن وعملياً أكثر . وقد اعلن بشكل لا يقبل الشك ان جميع الآلهة الأخرى هي اباطيل من صنع الانسان ومن منتجات الخيال^١ . وقد حلم كافعل اشعيا بعهد طوبائي يسود فيه الحق والعدالة^٢ .

غير ان ما يتوج سفر ارميا هو في الفصول ٣٠ حتى ٣٣ ويعتبر البعض انها تضم ابيل تقدير في العهد القديم . ففيها يقطع يهوه عهدآ جديداً مع شعبه حيث يجعل شريعته في داخلهم ويكتبه على قلوبهم وليس على الواح حجرية كما حصل في عهد آباءهم^٣ . وقد اخذ يسوع في العشاء الاخير فكرة العهد الجديد هذه كما ان مؤلف الرسالة الى العبرانيين ذكر الاشارة الاصلية لهذه الفكرة^٤ . وفي المناسبة نفسها يعلن ارميا مبدأ المسؤولية الفردية التي تختلف ما قبل سابقأ بان «الآباء اكلوا الحصر واسنان الابناء ضرست» وهكذا بلغ مرحلة من الشعور الاخلاقي لم تبلغه بعض الامم الاوربية في عصرنا اذا حكمتنا من تصرفها في الحرب العالمية الثانية .

أنبياء آخرون وفضولهم

وقد كان بعض الانبياء العبرانيين الآخرين فضلهم ومساهمتهم . فقد توصل هوشع الذي كان من المملكة الشمالية ونشر تعاليمه بين ٧٤٥ و ٧٣٥ الى المفكرة السامية التي مؤداها ان الله محبته وذلك بعد اختبار حزن في حياته العائلية^٥ . فقد كانت زوجته التي ولدت له ثلاثة اولاد غير امنية ولكنه ظل يحبها؛ وكذلك احب الله اسرائيل غير الخلصة له . وكان النبي ميخا (نشر تعاليمه بين ٧٣٠ و ٧٢٢)

١) ارميا ٥:٤٧؛ ١٤:٢٢؛ ١٠:٤٢؛ ١٠:١٢؛ ١٦:١٢ - ١٧:١٢ - ٢١ - ٢٠

٢) ارميا ٢٣:٥ .

٣) ارميا ٣١:٣١ - ٣٤؛ ٣٢:٤٠ .

٤) اغيل مت ٢٦:٢٨؛ لوقا ٢٢:٢٠؛ الرسالة الى العبرانيين ١٦:١٠ - ١٧ - ٠

٥) ارميا ٣١:٢٩ - ٣٠؛ قارن مع حزقيال ١٨:٤ - ٢ - ٠

٦) هوشع ١٤:٤ .

معاصراً لأشعبها ومدافعاً عن الفقير الذي كان يراه يتأنم من الظلم وفقر العدل . وقد رأى أن الأمور تتبع في وضع أحسن^١ . وكلمات المتصلة بالعدالة الاجتماعية كلمات خالدة حيث يقول (الاصحاح السادس) :

٦ بِمَ اتَّقَدَمْ إِلَى الرَّبِّ وَانْخَنَى لِلَّاهِ الْعَلِيِّ؟
هَلْ اتَّقَدَمْ بِعِرْقَاتِ بَعْجُولِ ابْنَاءِ سَنَةٍ؟

٧ هَلْ يَسِّرَ الرَّبُّ بِالْوَفِّ الْكَبَاشَ بِرِبُوبَاتِ اهْنَارِ زَيْتِ؟

هَلْ أَعْطَيْتِ بَكْرِيَ عَنْ مَعْصِيَتِي نُثْرَةَ جَسْدِيَ عَنْ خَطْيَةِ نَفْسِي؟

٨ قَدْ أَخْبَرْتَ إِيَّاهَا إِنَّ اهْنَارَ مَا هُوَ حَالِحٌ؟ وَمَاذَا يَطْلَبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ إِلَّا
تَصْنَعُ الْحَقَّ وَتَحْبُّ الرَّحْمَةَ وَتَسْلُكَ مَتَوَاضِعًا مَعَ الْمَلَكِ؟

وقد أظهر النبي حزقيال معاصراً ارميا في الاصحاح ١٨ شعوراً بالمثل العليا الأخلاقية لم تظهره الأمم المسيحية في حروبها في القرن العشرين . وعلى ذلك فان البشرية توصلت في اقوال الانبياء العبرانيين الى مستوى لم تتجاوزه قط إلا في اقوال المسيح وربما في اقوال بولس . وتبني الاسلام وهو الدينية التوحيدية الثالثة الكبرى في العالم الوحدانية الأخلاقية لليهودية والمسيحية . وشاركت الزردشتية الديانتين القديمتين في بعض الصفات البارزة . وبظهور التوحيد في مظهره اليهودي والمسيحي تم ثالث عمل مجيد حقته الحضارة السورية القديمة^٢ .

وقد أصبحت الآرامية بعد العربية اللغة التي وجد فيها الفكر الديني عند اليهود وسيلة للتعبير . ومن اهم المؤلفات الكبرى بعد التوراة يأتي التلمود (بمعنى دراسة او عقيدة) ويضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب المسمة المكتوب . واما النص (وهو المشنة بمعنى اعادة او تعلم) فانه ورد بالعبرانية الجديدة بينما شرح النص (المخاره Gemara بمعنى تتمة) وضع بالأramaic . والتلمود

(١) ميغ. ٤ : ١ - ٠.

(٢) انظر من ١٧ - ١٨ وما سأ يأتي في الفصل ٢٥ . راجع : Toynbee, *Study of His tory*, vol. ii, pp. 75-77. وتويني يحمل المغاربة العرب والآرمانية منقبتين للمغاربة السورية التي كانت كأصل لها . وهو يعتبر العلاقة الأساسية كشكل جديد ظهرت فيه الدولة السورية العامة (ج ١ ص ٦٧ - ٦٨) بعد توغلها بسبب الهلنية الداخلية .

الاورشليمي الذي جمع في القرن الرابع م. لم يبلغ في شهرته واهيته كمرجع درجة التلمود البابلي. ومن اقدم الحاخامين الذين اعترف بهم كمرجع هام في تفسير التوراة وفي وضع مبادئ تفسيرية هليل Hillel الذي ولد في بابل وعاش في اورشليم ومات فيها عام ٩ م. وقد اوجز الدين بكلمات قليلة حيث قال : لا تفعل لسائر الناس ما تجده قبيحاً بالنسبة لك^١ . وقد علم المسيح^٢ نفس هذا المبدأ وكذلك فعل بولس^٣ الذي درس على غالاتيل Gamaliel حفييد هليل . وشهر من ذلك بين اقوال هليل قوله : « لا تفعل لآخرين ما لا ت يريد أن يفعلوه لك^٤ ».

١) قارن مع سفر اللاويين ١٨:١٩ .

٢) انجل متى ٢٢:٣٩ ؛ مرقس ١٢:٣١ .

٣) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ٥:١٤ ؛ قارن مع رسالة بولس الى اهل رومية ٨:١٣ .

٤) انظر ما ي يأتي في اوائل الفصل ٢٥ .

الفصل السادس عشر

سُورِيَّةٌ تَحْتَ حُكْمِ الْفَارَسِيِّ

بين الفترة السامية وال فترة المندية - الاورية

سيادة الدولة البابلية الحديثة

إن تدمير نابو بولاصر، مؤسس الدولة البابلية الحديثة، بالاشتراك مع كي اخسار Cyaxares الميدي لمدينة نينوى العظيمة في سنة ٦١٢ ق. م. وما تلا ذلك من ابادة قوات الدولة البابلية الحديثة لغلوال الجيش الاشوري الذي ارتد الى حراث في ٦٠٩ ، اثار التساؤل فيما اذا كانت بابل الحديثة ام مصر القديمة هي التي سرت منطقة شرق البحر المتوسط . ولم يطل تقرير ذلك اذ ان المزية الساحقة التي حققها القائد نبوخذنصر ، ابن نابو بولاصر ، بالفرعون نيجو^١ في كركميش سنة ٦٠٥ لم تدع مجالاً للشك فيمن سيحظى بالسيادة على تلك المنطقة . وحين تجرأ هوفرع غير متعظ بعبرة سلفه نجاو على تحدي تلك السيادة لاق المصير نفسه على ارض المعركة في فلسطين . وكان سادة سوريا الجدد ويسمون ايضاً بالكلدانين من الساميين وابناء عم الاشوريين - البابليين ويوجح انهم افراد موجة متاخرة كان لها بعض العلاقة بالأراميين^٢ .

وفي هذه الانتهاء تتساءل الشعوب التي رزحت لعدة قرون تحت وطأة اعظم قوة عسكرية عرفها العالم فيما اذا كان الوقت قد حان لان تمتتع بجريتها من جديد . وجاءها الجواب الحاسم بتدمير نبوخذنصر (٥٦٢ - ٦٠٥) لاورشليم في عام ٥٨٦ واخضاع صور في عام ٥٧٢ بعد حصار دام ثلاثة عشر عاماً . وكان على سوريا الكبرى ان تحكمها بلاد الرافدين من جديد في الثان والأربعين سنة التالية .

١) انظر من ٣١٩

٢) انظر من ١٧٥ و ١٨٤

سقوط الدولة البابلية الحديثة

انقضى الحكم الكلداني عام ٥٣٨ ق. م. حين هاجم الفرس^١، وهم شعب جديد ظهر في منطقة ابعد الى الشرق، جازتهم بابل بقيادة كورش. وكان هذا قد وحد الميديين والفرس، وهم ابناء عم في الاصل، تحت حكم واحد ثم قهر قارون وملكته ليديا في اقصى آسيا الصغرى^٢. وكان يحكم بابل آنذاك نابو نيدس (٥٣٨ - ٥٥٦) الملك المولع بالآثار الذي بلغ من اهتمامه بمخلفات الماضي حداً جعله يكثُر من صور آلهة المدن الاخرى القديمة في عاصته مما اكسبه كره كهانه ونقمة رعيته. والغريب ايضاً انه اخذ من تياء، وهي واحة بعيدة في شمال الحجاز، مقرأ له مدة من الزمن تاركًا شؤون الدولة بين يدي ابنه العاجز بشاشور^٣. وكان وفي العهد هذا يتم بجية البذخ في القصر الملكي المترف الذي بناه نبوخذنصر أكثر من الاهتمام بالتخاذل التدابير لصلاح حصون عاصته. واتضاع معنى الكتابة التي كتبت على جدار القصر والتي تقول «قسمت ملكتك واعطيت للميديين والفرس».

دولة عالمية جديدة : الفرس

حلت الكارثة ببابل سنة ٥٣٩ ق. م. وبقيت القلعة والقصر الملكي يقاومان حتى آذار سنة ٥٣٨. وعلى ذلك اعترفت مناطق الامبراطورية البابلية بما فيها سوريا وفلسطين بالحكم الفارسي الجديد. ويعتبر سقوط بابل اكثر من مجرد انهيار امبراطورية اذ انه في ذلك الوقت وفي ذلك المكان انتهى عصر وهو العصر السامي وبدأ عصر جديد وهو العصر الفندي - الاوري. وانتقضت أيام الامبراطوريات السامية ولم تعد الا بعد أكثر من ألف عام وكانت في هذه المرة بوعاهة مئلين جدد

^١) وقارون هذا هو المقصود في النثبيه «غنى مثل قارون» وكان قد استشار التكهنين من بين قبل اثارة الحرب فأكملوا له «رباً أنه سيدمّر امبراطورية عظيمة» وكانت تلك الامبراطورية امبراطوريته.

انظر Herodotus Bk. I, ch. 53.

^٢) انظر Sidney Smith, *Babylonian Historical Texts* (London, 1924) pp. 76 seq.; Raymond P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (New Haven, 1929) pp. 106 seq. وكلة بشامر مشتقة من الكلمة الakkadية بل شار او صور Bēl-shar-nūṣur ومنها «با بعل احر الملك».

^٣) سفر دایمال ٥ : ٢٨.

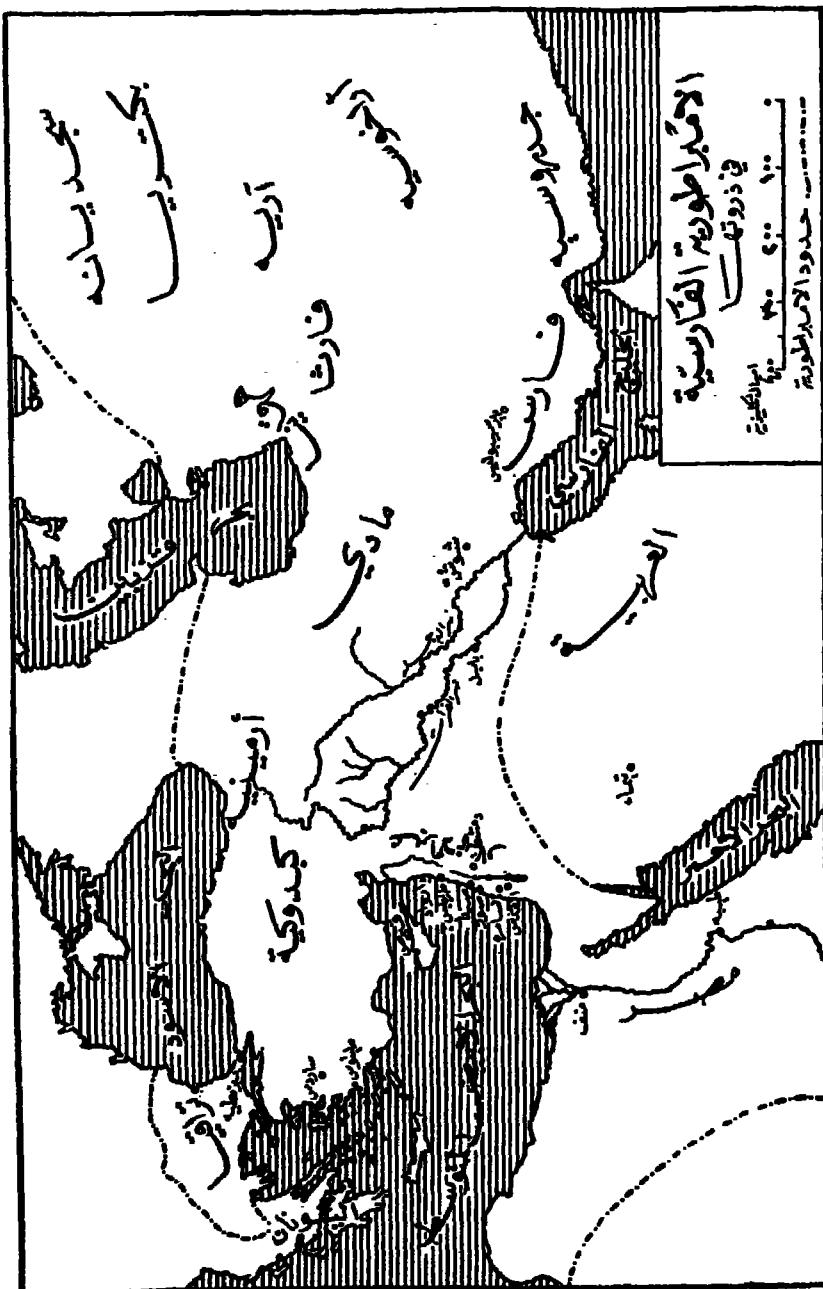
هم عرب الجزيرة الذين لم يكن لهم شأن يذكر في العلاقات الدولية القديمة . أما الفرس الذين بدأت بهم الفترة الهندية — الاوربية فينتسبون الى الفرع المندى — الایرانى من المجموعة الهندية الاوربية . وقد خلّفهم فى سيادتهم على العالم السامى المكدونيون فالرومانيون فالبيزنطيون وكلهم من المندى الاوربيين .

اصبحت دويلات سورية وفلسطين الآن جزءاً من امبراطورية عظيمة تعتبر من اكبر الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم . وقد قدر لها ان تضم بعد ربع قرن من ولادتها العالم المتقدم بأسره الممتد من مصر والمدن الایونية في آسيا الصغرى الى البنجاب في الهند . ومن ثم اخذت تتطلع بعين الطمع عبر الهمبونت الى الجزء المتقدم الوحيد في اوروبا . وساعد في جمع اطراف هذه الامبراطورية المترامية شبكة من احسن الطرق التي عرفت حتى ذلك الحين ، يضاف اليها نقد موحد ولغة رسمية هي الارامية . واصبحت هذه اللغة التي شاع استعمالها طويلاً في الشؤون التجارية اللغة الرسمية للمقاطعات الفريدة جنباً الى جنب مع الفارسية . وكانت جميع المراسيم والسجلات المتعلقة بهذه المقاطعات تترجم الى اللغة الارامية الرسمية . وعادت المدن الفينيقية الى الازدهار في ظل هذا السلم الفارسي كمراًكز للتجارة العالمية .

تنظيم الامبراطورية

آلت مهمة تنظيم هذه الامبراطورية الضخمة الى داريوس الاول (٤٨٦—٥٢٦) وهو من اقدر ملوك العالم القديم واكثرهم اطلاعاً وتوراً . فهو الذي بين الطرق وحسنها وانشأ نظاماً للبريد واصلح الضرائب وأعدَ اسطولاً لاجتياز طريق بحرية بين مصر وفارس . وكان الفينيقيون هماد هذا الاسطول . وقد قسم البلاد الى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى مربionate يحكم كل منها حاكم يدعى مربيان . وكانت المربيان حاكماً مدنياً وليس عسكرياً . ويقوم الى جانبه قائد وامين من مستقل كل منها عن الآخر ويتصالح بالعاصمة مباشرة . واضيفت الى سوزا وبابل ، المقربين الملکيين ، عاصمة ثالثة هي برسپوليس^١ حيث شيد داريوس عدداً من الابنية هدمها

^١) سوزا هي المدينة المذكورة في التوراة باسم شوشن والآن تسمى شوش . وخرائب برسپوليس وهي التي قامت بعد فسرجادي عاصمة كورش تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال شرق شيراز .



الاسكندر فيها بعد . وقد تمعن القوميات الخاضعة في المرزبانات بوضع مستقل لحد ما ولا ريب ان هذا كان من عوامل الاستقرار فيها . وفرض على كل مرزبانة حصة معينة من الجزية تدفعها الى الخزينة الملكية . وكان بعض الموظفين المتعولين بالنسبة للسلطة الامبراطورية عثابة «عيونها وأذانها» .

يتتفوق نظام داريوس على جميع الانظمة التي سبقته بأنه كان نظاماً امبراطورياً يجمع بين الحكم الذافي المحلي ومسؤولية الحكم المركزي والمراقبة العليا . وفي الحقيقة لم ينافسه نظام آخر حتى عهد الرومان . فهو يجمع احسن خصائص النظمتين المصري والاشوري ويتجنب مساوئهما .

كانت سوريا وفلسطين بالإضافة الى قبرص في الولاية الخامسة التي سميت مرزبانة «عبر نهرا»^١ . وتدفع جزية مقدارها ٣٥٠ وزنة^٢ وهي جزية خفيفة نسبياً . وكانت لا تزال في قبض جاليات فينية عديدة .

اعادة اليهود من السبي

وجد كورش حين دخل بابل في ٥٣٩ - ٥٣٨ جالية يهودية يعود اصلها الى سبي نبوخذنصر الذي حصل في عامي ٥٩٧ و ٥٨٦ . وليس من الصعب الافتراض بأن افراد هذه الجالية قد ساعدوا كورش على احتلال المدينة . وسارع الفاتح الفارسي الى اصدار مرسوم يخول الذين يودون الرجوع الى ارض آبائهم واعادة بناء معبدهم حق العودة^٣ . وقد تصور ، على ما يظهر ، ان وجود طائفة يهودية في فلسطين تدين بوجودها لاحسانه يشكل توازنآ فعالاً تجاه الحزب الموالي للمصريين الذي طالما بروز في شؤون فلسطين . وتماكسن سياسة كورش هذه سياسة نفي الشعوب الخاضعة التي اتباعها الاشوريون والكلدانيون . واعتبر اليهود كورش كمحلاً ارسله الله^٤ .

١) ومنها «عبر النهر» (الدرات) – رابع سفر عزرا ٦:٦ ، ٨ ، ١٣ .

٢) انظر : Herodotus, Bk. III, ch. 91 .

٣) عزرا ٦:٣ - ٥ .

٤) اعيا ٤٤:٢٨ ؛ ٤٥:١ .

لا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين استفادوا من هذه الفرصة ويدو الرقم ٤٢،٣٦٠ الذي يعطيه عزرا ونحنيا مبالغًا فيه اذا ما قورن بجموع المسيحيين وهو ٥٨،٠٠٠ نسمة كما انه لا ينطبق مع ما جاء في القوائم المفصلة التي تسبق المجمع النهائي^١. ولا بد ان الذين استجابتوا لهذه الدعوة هم بصورة رئيسية من العناصر الناقلة ومن الذين لم تكن لهم جذور في الارض الجديدة. وقد عبر شاعر عن الحنين الذي راود اكثريهم بكلمات مؤثرة حيث قال (المزمور ١٣٧) حيث قال :

- ١ - على انها بابل هناك جلتنا - بكينا ايضاً عندما تذكرنا صهيون .
- ٢ - على الصفاصاف في وسطها عالنا اعواانا .
- ٣ - لاه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنية ، ومذبنا سألونا فرحميت قاتلين رغوا لنا من ترنية صهيون .
- ٤ - كيف نرمي ترنية الرب في ارض غريبة ؟
- ٥ - ان نسيتك يا اورشليم تنفي يميني .
- ٦ - ليتحقق لسان عنكبي ان لم اذكرك ، ان لم افضل اورشليم على اعظم فرجي .

وما لا شك فيه ان كثيرو من المسيحيين الآخرين عملوا بنصيحة النبي ارميا (الواردة في الاصحاح ٢٩ من سفر ارميا) :

- ٦ - ابنا بيوتنا واستكروا واغرسوا جنات وكلوا ثمارها .
- ٦ - خلتو نساء ولدوا بينن وبينات وخلتو لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلان بينن وبينات واكثروا هناك ولا تتلو .
- ٧ - واطلبوا سلام المدينة التي سيفتكم اليها وصلوا لاجلها الى الرب لانه بسلامها يكون لكم سلام .

وقد فضل اقلياء المسيحيين البقاء حيث هم بدليل ورود اسماء عبرانية بصورة متكررة في الوثائق التجارية لذلك المعهد وكانت بعض هذه الاسماء مرتبطة من اسماء آلهة بابلية . وكانت اهم مراكز اقامتهم على خابور^٢ وهو كبارو (العظيم) لدى البابليين . وتقع هذه القراءة العظيمة المتفرعة عن الفرات الى الجنوب الشرقي من بابل . وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان اول افراد ما عرف

١) عزرا ٢ : ٦٤ ؛ نحنيا ٧ : ٦٦ .

٢) حزقيال ١ : ٣٠٣ : ٣٤٣ .

بالدياسبورا Diaspora اي اليهود المقيمين خارج فلسطين. وكانت الديانة اليهودية **عامل رئيسيًّا** لنمسك اليهود في ديار هجرتهم .

كان زعيم اليهود العائدين^١ "زروبايل"^٢ وهو من سلالة الملك يهوذا، وقد أرجع معه كنوز الميكل التي نهبها نبوخذنصر واعترفت به الجماعة العائدة حاكماً عليها لبعض الوقت. وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الميكل ثانية في سنة ٥١٥ ق. م. في عهد داريوس وقد تمّ هذا المشروع على نفقة الدولة.

هذا ارتختستا الاول (٤٦٥ - ٤٢٤) حذو كورش فسمح بعودة فريقين متاليين من المسيين الواحد برئاسة نخيميا والآخر برئاسة عزرا . وكان نخيميا هذا في الحادية والعشرين من العبر يعمل حاملاً للكنوز في البلاط الملكي وينظر انه من الحصان . وقد وصل اورشليم حوالي ٤٤٤ ق. م. وهدفه الصربيج اعادة بناء اسوار المدينة . واتم عمله هذا بالرغم من معارضة جيرانه مثل صنبلاط^٣ حاكم السارة وجشيو^٤ الزعيم العربي وحتى بعض وجهاء اليهود المحليين . وحكم نخيميا شعبه في ظل السيادة الفارسية وذلك بين عامي ٤٤٤ - ٤٣٢ ق. م. وكانت الدولة حكومة دينية كما في عهد زرubi وبالله .

وقد ذكرت مرويات التوراة^٥ التي قيلها عدد متزايد من العلماء ان عزرا ،

١) ان كلمة يهودي وتعني بالاصل احد افراد قبيلة او مملكة يهودا (التي منها تشتت) اطلقت بعد ذلك على اي فرد من الشعب اليهودي الذي رجع من السبي وشلت اخيراً كل افراد هذا الشعب في العالم.اما كلمة «اسرائيل» تشير الى فرد من نسل اسرائيل اي يعقوب . ولا تزال كلمة «عرابي» اشتمل تستراً ونفي كل الاسرائيلين .

٢) مشتق من الاكادية ززو—بازيل Zēru-babili اي «ذرية بابل»؛ ويسعى ايضاً «شن بازار Shesh-bazzar»؛ عزرا ٨:١ و ١١:٥ و ١٤:٥ ورد «زروبايل Zero babel» في متن ١٢:١ اظفر غاما ١٢:١-٩.

٣) وهي بالاشورية من اوايال ليت **Siin-ubal-lit** اي «من يحب الحياة». ويرجح انه من نسل شخص اذ به الملوك الاشوريون ليحل مكان الذين نفوا من السامرة. وهو الذي تروجت ابنته حميد الكلافن الاعظم.

٤) وقد يكون من نسل قبيلة عربية كقبيلة تهود (يذكرها القرآن باسم ثمود) التي نفاهما سه حون الى فلسطين .

٥) عزرا ١:٧ وما بعده.

الكاهن والكاتب ، قد رجع الى اورشليم قبل خميا ليصلح ديانة الشعب بروخصة من الملك . وكما كان يهدف الى ايجاد عقيدة دينية نقية صافية فانه كان يهدف ايضاً لاججاد نقاوة الغنصر وبلغ من برنامجه الغنوري انه كان يحتم طلاق النساء غير اليهوديات واعلان ابنتهن غير شرعين^١ . وفي ذلك فاق خميا الذي اكتفى بلعن هؤلاء الزوجات وجدهم وتزع شعورهم وانتزاع اليدين منهم بعدم عمل ذلك ثانية^٢ . ولم يطرد خميا الزوج المذنب من البلاد الا في حالة واحدة .

تعم اليهود في عهد زرubaيل وخميا بامتياز الحكم الذاتي . ولكن اللغة العبرية في عهدهم لم تعد تستعمل كلفة دارجة وذلك ليس في بلاد سينهم فحسب وإنما في بلاد يهودا ايضاً^٣ . وقد حللت محلها اللغة الآرامية وظلت العبرية تستخدم كلفة دينية . واستعمل اليهود الآرامية في مرسالاتهم الرسمية^٤ . وقد تركت اللغة العبرية عند اندثارها تراثاً غنياً من المفردات في اكثر اللغات المتحضرة . ويرجع اصل اكثير اسماء الاعلام شيئاً في الانكليزية كبيوننا ويوفن وبولس ومريم الى اصل عربي .

الدرس في فيتنيقية

وفي الوقت الذي كان فيه القدس يشعرون اليهود على إعادة بناء موطنهم القديم كانوا يعتمدون على الموارد الفينيقية لتوسيع امبراطوريتهم . وقد تم هجوم قبياز (٥٢٩ - ٥٢١) ابن كورش على مصر بمساعدة سفن فيتنيقية وفتح عنده خم مصر حتى النوبة الى الامبراطورية الفارسية . ولتوزيعه فرق المشاة التي تحيط الصحراء بين فلسطين ومصر باللياه استوخرت اجمال من سكان الجزيرة العربية . وتوفي قبياز في مكان غير معروف في سوريا في طريق عودته الى مصر^٥ .

(١) عزرا ١٠:٣ - ٥:١٠ وما بعده .

(٢) خميا ١٣:٢٥ .

(٣) خميا ١٣:٢٤ .

(٤) عزرا ٤:٧ .

(٥) يحيى المؤرخ يوسفوس نشقق مكان وفاته . انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, § 2, ch. 2, و يقول هيرودوتس انه مات في « اقبطانا Agbatana » . انظر : Herodotus, Bk. III, ch. 64. اما يليني فيقول ان المكان هو « اكتبانا Ecbatana » على رأس جبل الكرمل . انظر :

Pliny, Bk. V, ch. 19.

كان الاسطول الفينيقي ايضاً عmad البحرية الفارسية في هجومها على اليونان بقيادة اخشويش (xerxes) ٤٨٥ - ٤٦٥^١. ويظهر ان الفينيقيين رحبوا بفرصة ضرب منافسيهم البحريين القدماء ولذلك قدموا ٢٠٧ سفن. كما اظهرت براعة الفينيقيين المندسية تفوقها^٢ في حفر قناة عبر البرزخ لتعجّب المواصف حول جبل آثوس. وقد حطم الاسطول كله تقريباً في معركة سلاميس البحرية سنة ٤٨٠^٣.

كان داريوس ، والد اخشويش ، اول من بدأ التزاع مع بلاد اليونان وهزم جيشه في معركة مراتون سنة ٤٩٠. وكان اليونان في نظره امة من البرابرة وقرصان البحر وهم مصدر ازعاج دائم لشواطئ آسيا الصغرى في منطقة نفوذه . ومن المؤكد ان مستوى الحضارة الذي كان يمتلك داريوس لم يكن باقل من مستوى معاصريه اليونان . فقد كان وخلفاؤه من اتباع زردهشت الذي رأى الحياة ضراغاً مستمراً بين قوى الخير والتور المتمثلة بااهورامزا وبين قوى الشر والظلم المتمثلة بأهريان . ولم يتفوّق على مبادئ الزردشتية الاخلاقية آنذاك سوى وصايا الديانة اليهودية . وكانت الحرب بالنسبة لليونان ، كما عبر عنها شعراً ومؤرخون حينذاك ، حرباً بين الحرية والاستبداد الشرقي . وسرعان ما لبست ساحات المعارك في مراتون وثرموبيلي حلل الشرف والمجد ورفع الذين ضعوا بمحياهم فيها الى مصاف الابطال القوميين والخلالدين . وكان التزاع الفارسي - اليوناني بالنسبة للعالم اجمع المرحلة الاولى في الصراع بين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذي تابعه الاسكندر وبومبي ومعاوية وصلاح الدين ومن بعدهم نابليون والنبي .

طرابلس العاصمة الفينيقية

كانت دمشق المدينة الرئيسية في سوريا في المهد الفارسي^٤.اما في فينيقية فسمح لاربع مدن هي ارواد وجبيل وصيدا وصور بمارسة الحكم الذاتي المحلي واعطيت

(١) انظر : Herodotus, Bk. VII, ch. 96.

(٢) انظر : Herodotus, Bk. VII, ch. 23.

(٣) انظر : Herodotus, Bk. VIII, chs. 86-89, 96.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

كل منها حق الحكم على دولة صغيرة . وفي القرن الرابع اتحدت دولات المدن الفينيقية هذه بعضها مع بعض وجعلت طرابلس ، وهي مدينة حديثة الهدء ، مقر المؤسسات الاتحادية . وبعد ان كانت طرابلس تتألف في الاصل من ثلاثة مراكز متفرقة تحمل اسماء مماثلة صور وصيدا وارواباد توحدت في السنة الاولى من حكم ارتحستا الثالث (او كوس Ochus ٣٥٩ - ٣٣٨) وسميت « اثار » او ما يشبه ذلك كما ورد على قطعة نقود محلية تعود الى سنة ١٨٩ - ١٨٨ ق. م. وقد دعاها اليونان تريپوليس Tripolis (بالعربية طرابلس)^١. وبما ان هذه المدينة الثلاثية كانت مكان اجتماع المجلس العام الفينيقي فانها قامت بوظيفة عاصمة لفينيقية^٢. وكان يعقد المجلس اجتماعات سنوية يشترك فيها نحو ثلاثة مندوب . وبلغ من تكبر الموظفين الفرس على الوطنيين في احدى هذه الاجتماعات ان نقم هؤلاء وقرروا التمرد . ولا بد ان الفينيقيين قد شعروا في اواسط القرن الرابع ان شمس الفرس قد آذنت بالغروب .

صيدا تحول الى رماد

بدأت الثورة ضد ارتحستا هذا في القسم الصيداوي من طرابلس في عام ٣٥١ وانتشرت منه حتى عمت الساحل الفينيقي كله . وكانت مصر مصدر التشجيع للعتاد . وسرعان ما انتقل مركز الثورة الى صيدا نفسها في عهد الملك تينس Tennes . وقطع الصيداويون اشجار الحديقة الملكية في المدينة او يحوارها واسعلوا النار في البن الخزون لحياة الفرس ثم حصلوا على جنود مررتة وسفن ذات ثلاثة صوف من المجاذيف وعلى الاسلحة والمؤن واستعدوا للصراع المقبل . وسار ارتحستا من بابل على رأس جيش يقدر عدده بـ ٣٠٠,٠٠٠ من المشاة و ٣٠,٠٠٠ من الفرسان^٣ . واثناء مسيره كان مرازبه في سوريا وكيليكيا يطردون من فينيقية بعد محاولتهم قمع الثورة . وطردت تسع من المدن الفينيقية الرئيسية الفرس

(١) انظر : George F. Hill, *Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia* (London, 1910), § 48.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 15.; Diodorus, Bk. XVI, ch. 41.

(٣) انظر : Diodorus, Bk. XVI, ch. 40, § 6.

واعلنت استقلالها. وعندما سمع تنبیس بتقدم ارتحشتا بنفسه على رأس جيش كبير خاف وهرب وسلم مدینته . ومع ذلك قرر سكانها الموت احراراً . وفي ساعة يأسهم احرقوا جميع السفن في الميناء لثلا يحاول بعض المواطنين المرء واعتصموا في بيوتهم بينما كانت النار تلتهمهم وتلتهم ممتلكاتهم^١ . ويقال ان اكثر من ٤٠٠٠٠ شخص قد هلكوا بذلك . اما القلائل الذين اسرروا فنقلوا الى بابل^٢ . وهكذا اصبحت المدينة التي كانت فيها مضى سيدة المتوسط رماداً وحرمت العالم المثقف من وثائقها . وهذه هي المرة الثانية التي تمحى فيها حيدا من الوجود وكانت الاولى على يد اسرحدون في ٦٧٧ . واستسلمت بقية المدن الفينيقية متقطعة عصيراً صيدا المجمع .

مظاهر الحضارة

لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة السورية وتبدلها تحت تأثير الحكم الفارسي . والواقع هو ان تاريخ سوريا كله في هذه الفترة هو من اکثر العصور غموضاً في تاريخ البلاد كله . وتقصر مصادر معلوماتنا على بعض التقويد والكتابات الآثرية المبعثرة والمؤلفات العربية والكلاسيكية . وتتوقف المصادر العربية فجأة حوالي العام ٤٠٠ ق. م. وليس لدى علم الآثار سوى قليل من المعلومات . ومع ذلك فمن المؤكد ان الحضارة السورية ظلت بجموعة تامة من عناصر سامية وتشكل المصادر الآرامية الفينيقية عنصرها السائد كما كانت الحال في مصر البably الحديث .

وإذا افترضنا ان قصة احبيقار Abiqar ألفت لأول مرة في الفترة الفارسية فيمكننا ان نتخيلها دليلاً على نوع الادب الذي كان يعني به آنذاك . وهو من نوع ادب الحكم . وهناك ايضاً التأثير الفارسي على الديانة اليهودية الذي يستغرب عدم ظهوره حتى وقت متأخر وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد . والشكل الذي يتخدنه هو اتجاه نحو الثنائية التي تتضمن ظهور منافق شخصي للله الواحد . وقد انتقل هذا المفهوم الثنائي الى العهد الجديد في التوراة حيث يتخذ شكل

(١) انظر : Diodorus, Bk. XVI, ch. 43-45.; Frederick C. Eiselen, *Sidon* (New York, 1907), pp. 75-77.

(٢) انظر : Sidney Smith, p. 149; A. T. Olmstead, *History of the Persian Empire* (Chicago, 1948), pp. 436-7.

معاكسة مبدأ الخطأ لمبدأ الصواب ومبدأ الظلمة لمبدأ النور . ويعكّرنا أن نرجع تنظيم اليهود المتدرج لطبقات الملائكة وغلو الاعتقاد في يوم الحساب الأخير بما فيه من ثواب وعقاب بعد الموت إلى تأثيرات ايرانية . وتكشف فكرة الحساب الأخير كما يعرضها كتاب أخنوج (٤١: ١) بما فيها من وزن اعمال الانسان في ميزان عن تأثير فارسي وإن كانت فكرة الميزان نفسه تعود إلى مصادر بابلية ومصرية سابقة . ولكن مفهوم دانيال عن اليوم الأخير (٧: ٩-١٢) ليس ايرانياً . ولم تدخل اللغة العبرية والأرامية سوى كلمات قليلة مستعارة من الفارسية القديمة . وكلمة *الفردوس* Paradise اتت من الفارسية بطريق العبرية واليونانية.^١

اما في مجال البناء فالبقايا الوحيدة المهمة هي قصر ومكان العبادة وجداً في تل الدوير (لاخيش) . ويمكن تحديد تاريخ القصر بالضبط في منتصف القرن الخامس وذلك بواسطة قطعة من الحزف الآتيكي الاحمر . ويرجح انه كان مقرّاً فارسياً يحوي مصارف للمياه مستديرة من الاجر وبعض الملاحق الاخرى لتأمين الراحة . وتتبع بعض التأثيل التي اكتشفت حديثاً في انقاض قصر احد الموظفين الفرس في صيدا (قبل ٣٥٠ ق.م.) نزوج التأثيل في العاصمة برسپوليس . الا ان التأثيرات الرخامية على شكل بشري التي اكتشفت في صيدا بأعداد كثيرة تشير الى ان اصول التحت الآتيكي قد رسخت في البلاد في القرن الرابع . واصبحت الدراخنة الآتيكية في هذا القرن الوحدة التقنية المعترف بها بعد ان عمَّ تداولها في القرن السابق . ووجد الحزف اليونياني في هذين القرنين سوقاً واسعة في بلاد المتوسط الشرقية . ويساب الفخار المحيى بالحطاط حاسماً خلال الفترة الفارسية ومن اسباب ذلك طفيان المنتجات اليونانية . ويمكن القول بوجه عام ان اليونان التي كانت في القرن السابع تتلقى التأثيرات الحضارية من فننٍ عنيفة انعكست وضعتها في القرن الخامس واصبحت تعطي بدلاً من ان تأخذ . وكان هناك نوع من التوازن بين عمليات العطاء والأخذ في القرن السادس . وفي هذا القرن تظهر المراكز التجارية اليونانية في الاراضي السورية ويتزايد عددها بصورة مستمرة بعد ذلك . وكان التجارة والصناعة اليونان منتشرة في مدن الساحل قبل فتح الاسكندر بقرن على الاقل .

^١) تبني بالاصل «حدائق» (انظر سفر الجامدة ٢: ٥؛ نشيد الانشداد ٤: ١٣) . وتطور التعبير فاصبح معناه «المقر السلوكي للباركين» . (انجيل لوقا ٢٣: ٤٣) . والكلمة العربية «فردوس» اتت بطريق الأرامية .

القسم الثالث
العصر البيزنطي الروماني

الفصل السابعة عشر الاسكندر وخلفاؤه استلائقون

وضع فيليب المقدوني الخطط «لتحرير» المدن اليونانية في آسية الصغرى من سيطرة فارس ولبرد في الوقت ذاته الزيارة التي قام بها داريوس وأحشويش لليونان ولكن أمر تفتيتها ترك لابنه الاسكندر الذي فاق آباء بشهرته ونشاطه. وكانت فيليب قد أوصل مقدونيا إلى زعامة الدول اليونانية عندما قتل اعتيالاً.

معركة ايسوس

بدأ الاسكندر في سن العشرين هجومه في ربيع عام ٣٣٤ ق. م. على دأس جيش يتراوح عدده بين ثلاثين واربعين ألف رجل. فعبر الملسبونت وانساح في آسية الصغرى، وهي جزء من الامبراطورية الفارسية آتشند، وماكاد يخرج من مضائق كيليكيا ويعبّر مناطق السهول حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٠-٣٣٦) ومعه حشد منع يقرب من مئة ألف جندي. وكانت كل شعوب آسية، حسب رواية أحد المؤرخين الشرقيين المتأخرین^١، «مقتنعة ان المقدونيين لن يجرأوا على الدخول في معركة مع الفرس بسبب كثرة عددهم»... وفي المعركة التي نلت في ايسوس^٢ (عام ٣٣٣)، وهي معركة ضيق استطاع اليونان بجهودهم العسكرية ان يقابلوا فيه تفوق الفرس في عدد جيشهما واضطرب داريوس الذي كان يقب المعركة من عربته الفاخرة التي تجرها اربعة خيول جنباً الى جنب الى الاصراع في المرب مع قلول جيشه شرقاً تاركاً مسكنه واهل بيته. وقد عمّلت نساء الملك معاملة

١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 8, § 3.

٢) انظر : Arrian, *Anabasis Alexandri*, Bk. II, chs. 9-13; Polybius, *Historia ram libri*, Bk. XII, chs. 17-22.; Diodorus, Bk. XVII, ch. 33. لمعركة ايسوس ما يلي : W. W. Tarn, « Alexander », *Cambridge Ancient History*, vol. vi, (Cambridge, 1927) pp. 366-9.

مهذبة نبيلة . وتخليداً لذكرى الانتصار استت مدينة الاسكندرية ، التي لا يزال تحمل اسمه ، مكان الحادث . واعطت اصداها هذا النصر الحاسم مجدًا جديداً للاسم اليوناني وملاة قلوب الفرس بالشكوك ان لم يكن بالخوف .

مقاومة صور

لم يتبع الاسكندر عدوه المارب الى الشرق بل اندفع باتجاه الجنوب ليؤمن السيطرة على البحر وعلى كل خطوط المواصلات وراءه . وانفذ قائده بارمينيو مع مفرزة من الفرسان على طول وادي العاصي لاحتلال دمشق – مقر قيادة الفرس في سوريا . وكان النصر في ايسوس قد جعل البلاد كلها خاضعة له . اما هو نفسه فاتبع الطريق الساحلي فاستسلمت ماراثوس وارود وجبيل وصدا . ولم يتجرأ على اغلاق الابواب في وجه المهاجم سوى صور ، ملكة الساحل الفينيقي ، التي سبق ان تحدثت سلطناصر وسرجون ونيو خذندر . فبني الاسكندر رصيفاً طوله نصف ميل وعرضه ٢٠٠ قدم من الشاطئ حتى الجزيرة التي يبلغ طولها ميلين . وكانت المدينة البعيدة الحظ تتوقع المساعدة من شقيقاتها في الشمال ولكن هذه عوضاً عن ذلك وضعت سفنها تحت تصرف الفاتح . كما أنها توقعت المساعدة من ابنتها البعيدة قرطاجة حيث بعثت شيوخها ونساءها واطفالها . ولكن املها خاب هنا ايضاً . وبعد حصار دام سبعة اشهر من البحر والبر خضعت صور للاسكندر في ٣٣٢ فشنق حوالي ٢٠٠٠ من اهلها وباع ما يقدر بثلاثين ألفاً في سوق النخاسة . وكان يتبع في ذلك العادة الثانية في الحرب . واحتفل بنصره باقامة الالماط والشعائر الدينية ويتقدم الزبائج في معبد الله المدينة ملقارب الذي اعتبره معادلاً لمرکوليس^١ .

يسجل التاريخ بقاومة صور لزحف الاسكندر آخر انتفاضة للروح القومية الفينيقية . فقد تحطمـت التقاليد القديمة الى الابد ولم تعد الروح القديمة تثبت نفسها ابداً .

حين كان الاسكندر لا يزال يحاصر صور ورددته رسالة من داريوس يقترح فيها

(١) انظر : Arrian, Bk. II, cha. 18-24; Diodorus, Bk. XVII, chs. 41-46; Quintus Curtius, *De rebus gestis Alexandri Magni*, Bk. IV, ch. 2.

اقسام الامبراطورية بحيث يكون نصيب الاسكندر جميع البلاد الواقعة غربي الفرات مع مال كثير وزواجه من ابنة داريوس . وأشار بارمينيو عليه بقبول الصفة مضيقاً بأنه لو كان مكانه لما كان تردد . فاجابه الاسكندر « وهكذا كنت افعل انا لو كنت بارمينيو » .

لم تكتفى غزة بصور فقاومت ببطولة لا تقل عن بطولتها ولكنها لم تثبت طويلاً كأنبتت . وكانت غزة فيما مضى زعيمة المدن الفلسطينية الحمس . وبعد حصار شهرين قهرت حاميتها التي كانت تضم كثيراً من العرب وايمنت وجر قائدتها الحصي حول اسوار المدينة وهو موثق بعربات الاسكندر . وببيع سكان المدينة عبيداً . وقد أصيب الاسكندر بجراح طفيفة هنا كما أصيب في ايسوس^١ . واستولى الفاتح على مخازن ضخمة من التوابيل لأن المدينة كانت المستودع الرئيسي على البحر المتوسط لمنتجات الجزيرة العربية والبلاد التي تجاورها . وباحتلال غزة دق مسار آخر في نعش السيادة الفارسية في البحر المتوسط .

اخضاع مصر

اصبحت الطريق مفتوحة الآن الى مصر التي يفتحها يصبح الاسطول الفارسي عديم القائدة . ولم يجد المصريون آية مقاومة لاستبدال سيد بآخر . وقام الاسكندر اثناء وجوده في مصر بزيارة آمون (الذي اعتبر معادلاً للله جوبيرت بعد ذلك) في الواحة التي تدعى اليوم واحة سيوه في الصحراء الليبية على بعد نحو مائة ميل من الحدود المصرية ، وحياته الكاهن الاعلى كابن الله . كما انه وضع اسس المدينة التي لا تزال تحمل اسمه . وكان هذان العملان ينطويان على اهمية بالنسبة للمستقبل ابعد مما كان باستطاعة صانعها التنبؤ به . وكانت عملية الجماع بين فكرة الالوهية وفكرة الملكية قد ادخلت الى العالم اليوناني – الروماني وتوطدت اخيراً فيه . ولم يكن يوجد لفكرة الملكية ذات الصفة الالهية ، وهي مؤسسة طبيعية في الشرق القديم ، اي اثر تقربياً في اوروبا قبل عصر الاسكندر وخلفائه . وقد بزرت الاسكندرية

(١) انظر : Plutarch, « Alexander », in *Vitae*.

(٢) انظر : Arrian, Bk. II, ch. 27.; Curtius, Bk. IV, ch. 6.

بالتالي تصبح مقر الثقافة المهنستية والوراثة الشرقية لائيناً. وكانت الثانية في المرتبة بعد روما في العصر الروماني. ويعتبر إنشاء هذا الميناء في أقصى الشمال العربي للدلالة، من الوجهة التاريخية ، أكثر أهمية من مجرد فتح مصر .

المعركة الخامسة قرب ارييلا

عاد الفاتح المكتسح في ربيع سنة ٣٣١ إلى سوريا حيث بقي مدة كافية للضرب على أيدي السامريين الذين اعتادوا نأييه وللاحتفال أيضاً باهله وعظمه باقامة الالعاب والشعائر في معبد صور^١. أما امر زيارة لاورشليم في طريق ذهابه إلى مصر وتقبل خصوصها شخصياً فأمر مشكوك فيه^٢. وكانت الطريق التي سلكها الآن تمر عبر سوريا الجوفة ووادي العاصي وتبلغ القرارات عند ثاباساكس Thapsacus . وامر ان تشييد بجوارها مدينة يرجع ان قائد سلوقيس نيكلاتور قد اتقاها واطلق عليها اسم نيقفوريوم Nicephorium^٣. وبعد ان اجتاز بلاد الرافدين بالتجاه شمالي شرق خاض نهر دجلة شمالي موقع نينوى . وهزم على السهل بين ذلك الموقع واربيلا في الشرق آخر جيش حشده ملك من سلالة الاخمينيين التي انبثت كورش الكبير وداريوس الكبير . وهرب داريوس الثالث بنفسه^٤. وكان هدف الاسكندر التالي مدينة بابل مقر الحكومة المركزية التي بلغ ارتفاع أسوارها ثلاثة قدم . ورحب بكتفتها الوطنيون وموظفوها الفرس بالقادم الجديد بأكاليل الزهور والمداديا . واستولى الفاتح على كنوز كثيرة ولكنها لا تعتبر شيئاً اذا قورنت بتلك الثروات الخيالية التي اختزناها الاباطرة الفرس في مقرهم الصيفي سوزا والتي سقطت بيد الفاتح فيما بعد . ومن سوزا استؤنف السير شتاً عبر جبال عالية وعبرة الى برسبوليس . فنهبت كنوزها وامضلت النار بالنصر الملكي الذي شيده داريوس . وهكذا انتقم لتدمير المعابد اليونانية في اثينا من قبل اخشويوش^٥.

(١) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 1-4.

(٢) قارن ذلك مع : Josephus, Bk. XI, ch. 8, §§ 3-5 ; Olmstead, *History of the Persian Empire*, p. 507, n. 11.

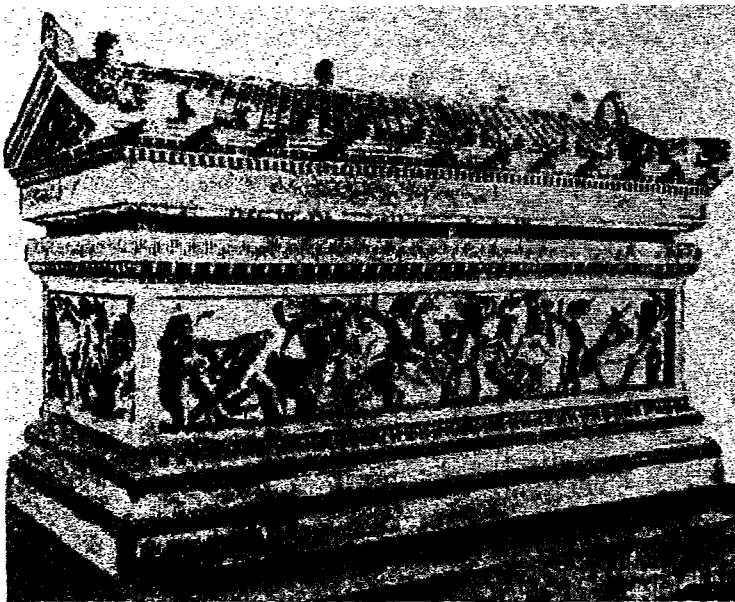
(٣) وهي اليوم الرقة . انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21, Bk. VI, ch. 30. ؛ قارن ذلك مع : A. H. M. Jones, *Cities of the Eastern Roman Provinces*, (Oxford, 1937), p. 216.

(٤) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 14-15.

(٥) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 16-18 ; Diodorus, Bk. XVII, ch. 7.

توجهت من وادي برسوبوليس في ربيع عام ٣٣٠ كتيبة سريعة على رأسها الاسكندر باتجاه الشمال وكان هدفها اكباتانا (عاصمة ميديا القديمة وهي هذان اليوم) حيث فر داريوس . وبينما كانت الكتيبة تتقدم اغتال ماتمران داريوس في معسكره . وسمح للاسكندر ان يحصل على الجنة فارسلها الى برسوبوليس لتدفن باحتفال ملكي . واعتبر الاسكندر نفسه الآن الوارث الشرعي لآخر ملك فارسي .

توجه الاسكندر شرقاً كأنه لم يكتف بما قد حصل عليه فقام بغزوة عبر نهر سرداريا^١ ثم توغل جنوباً بطريق كابل الى البنجاب في شمالي غرب



«تابوت الاسكندر»

وُجد في صيدا والآن في استانبول ويرجع الى اواخر القرن الرابع ق.م. ومن المُتَّسِّل جداً انه يمثل معارك الفرس والاسكندر . غير ان جميع الروايات القديمة تقول بان الاسكندر دُفن في مصر . وربما كان هذا التابوت قد صنع لحاكم صيدا الديني .

^١) هو نهر سرداريا اليوم ويعرف باسم سينون بالعربية وهي مقتبسة من بسيرون في سفر التكوين ٢ : ١١ .

المهد. وبدأ التئمر بين ضباطه وجنوده المتهوّكين إبان حلته إلى المهد وتقدّم البعض وكان ذلك في عام ٣٢٦. فعاد الاسكندر إلى بابل حيث انصرف إلى الملذات ووضع خطط فتوحات جديدة. وتوفي بالحمى في قصر نبوخذنصر في حزيران ٣٢٣ قبل أن يتم الثالثة والثلاثين من العمر تاركاً وراءه سجلاً فريداً من الأقدام والجلد والحيوية المتقدمة والخيال الحصبة. وأصبح اسمه متصلًا باسماء أبطال قصص خيالية متعددة مزخرفة بتنوع المبالغات الفائقة التصور. ويشير دانيال إليه بوضوح (٢١٤٥:٨). ويبدو الاسكندر ذو القرنين في القرآن (٨٢:١٨ وما بعدها) كأنه مكلف برسالة المية.

امتزاج الشرق والغرب

لعلّ أعظم مأثرة قدمها الاسكندر للتاريخ هي في اناهته الفرصة لامتزاج الافكار والمؤسسات اليونانية والشرقية. وكانت عملية التداخل الثقافية تدبّر بدأته قبل عهده الا ان فتوحاته زادت في سرعتها وسهّلتها. وقد اعطى بنفسه مثالاً على مزج الدم اليوناني والاسيوي بزواجه من الاميرة روكسانا من بكتربيا (بلغه) واثنتين غيرها من الاسرة الملكية الفارسية في سوزا. وشجع ضباطه وجنوده ليجدوا حذوه. وكان يلبس في المناسبات الرسمية الاباس الشرقي. «واخذ ينقم في عادات الفرس الناعمة المتختنة ويقلد بذخ الملوّك الآسيويين»^١. وقد حاول على عكس احتشاده وشأن يصل أوربا وأسيا ليس بالجسمor الخشبية والروابط الجلامية بل بروابط الحب الشريف والزواج الطاهر والنسل المشترك^٢. وانه حدث عظيم في التاريخ عندما صلّى الاسكندر في مأدبة حضرها تسعة الآف مكドوني وفارسي على ضفاف دجلة لأجل وحدة القلوب ودولة مشتركة^٣ وكان الانبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية وتصوروا معاً كان تصورهم ناقصاً، آخره الإنسان. ولكننا الآن امام اول رجل على عظيم حلم يجتمع لا اثر للحواجز فيه بين اليونان والبربرة وعمل على

(١) انظر : Diodorus, Bk. VII, ch. 8.

(٢) انظر : Plutarch, Complete works, *Essays and Miscellanies*, (New York, 1909), vol. i, p. 164.

(٣) انظر : Arrian, Bk. VII, ch. 11, § 9.

تحقيقه . ولم ينقطع قاماً ذلك الامر البراق الذي ضمته الفيلسوف الصيني زينون فيما بعد في «جمهوريته» عن افكار الناس منذ ذلك الحين .

كان انشاء المدن التي يروى انها زادت عن السبعين وسيلة اخرى في تحقيق سياسة المدروسة حول تقارب او ترقى بين الشرق والغرب . وهدفت هذه المدن الى ثلاثة اغراض وهي ان تكون مراكز سكنى للمحاربين المسرحين ، وتشكيل سلسلة من النقاط العسكرية على خطوط المواصلات وخلق مراكز لنشر التأثير الثقافي المليفي . ولا بد ان الاسكندر كان تلميذاً جديراً باستاذة ارسطو اذ كان يحفظ كل يروى بنسخة من اليادة هوميروس التي نفعها ارسطو بجانب خبرره تحت وسادته .. ويقال انه ذكر في رسالة بعث بها من آسية الى استاذة : «اوْكَد بالنسبة لي اني افضل ان اتفوق على الآخرين في معرفة الاحسن من ان اتفوق عليهم في مدى سلطتي ومتلكائي^١». وسرعان ما أصبحت اللغة اليونانية لغة العلم . وعندما آتى المسيح برسالته بعد ثلاثة قرون وترجمت الى اللغة اليونانية أصبحت في متناول العالم المتدين كله .

نبذة الامبراطورية

تعززت الامبراطورية المقدونية المترامية الاطراف التي تم ضمها بسرعة بعد موت مؤسسها . وتسباق قواه للفوز باحسن اقسامها . وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية . ويبرز من هذه الفوضى اربعة قواد على رأس اربع دول : بطليموس في مصر وسلوقس في مرزبانة بابل وانطيغونس في آسية الصغرى وانطبياتر في مقدونيا . وهكذا «انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه اربعة قرون عظيمة تتجه نحو رياح السماء الاربع^٢». وكان بطليموس اكثراً هؤلاء الاربعة ذكاء الا ان سلوقيس كان بالتأكيد اقدرهم .

سلوقس مؤسس الدولة السوية

بوز اسم سلوقيس الاول (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م.) الملقب بـ *Nicator*

١) انظر : Plutarch, « Alexander », in *Vitae*.

٢) انظر : دانيال ٨ : ٨ .

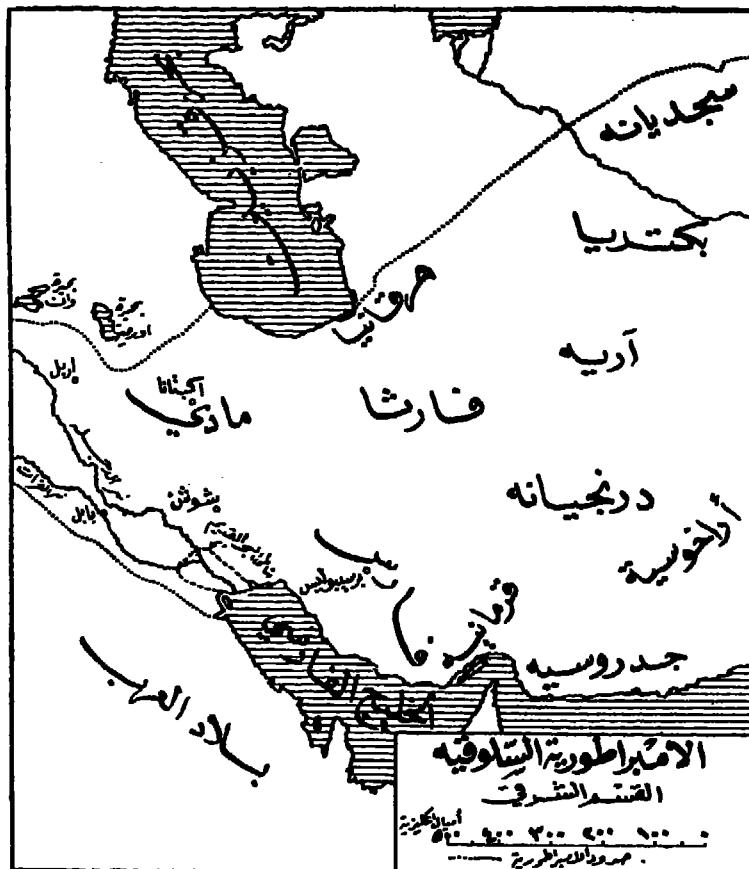
(المتصر) لأول مرة في الحلة المندية التي قادها الاسكندر. ولم تكن منطقة سوريا— فلسطين في حوزته لدى اقتسام الامبراطورية لأنها الحلت بأسية الصغرى . ولكن بطليموس تغلب في عام ٣١٢ ق. م. بمساعدة سلوقي على انتيغونوس في غزة وضم فلسطين إلى مقاطعته المصرية . وبقيت كذلك لاكثر من قرن باستثناء فرات متقطعة . واسترجع سلوقي في السنة ذاتها بابل التي كان قد خسرها . وبعد ان ساهم في احراز نصر آخر على انتيغونوس في ايبيروس *Ipsus* (في فريجيا الكبرى سنة ٣٠١ ق. م.) حصل على القسم الشرقي كله من آسية الصغرى بالإضافة إلى سوريا من الفرات حتى المتوسط^١ . وأصبحت اقطاعية التي بناها على العاصي وسماها باسم والده مقر حكومة سوريا ومع ذلك تعتبر السنة ٣١٢ ميلاد الدولة السورية وبدأ التاريخ السلاوي^٢ . ويظهر ايم «ملوك سوريا» لأول مرة . وكان ايجاد تقويم رسمي اعظم مأثره للسلوقيين بعد تأسيس المدن . وكان بطليموس في هذه الاثناء قد وسع حدود مملكته إلى خط يقع شمالي ارواد وجنوبي حصن . وقد تراجع هذا الخط لدرجة كبيرة حتى جنوبي بيروت ودمشق حوالي ٢٥٠ ق. م. ليتقدم مرة ثانية حتى شمالي ارواد بعد خمس وعشرين سنة .

اما في الشرق فقد وسع سلوقي حدود مملكته السورية فشلت فارس حتى نهر جيوجون *Oxus* في الشمال والسدن في الجنوب . وهكذا أصبحت المملكة السورية تضم تقريباً القسم الآسيوي من امبراطورية الاسكندر . وكانت مملكة سلوقي اعظم الملك التي قامت على انقاض ممتلكات الاسكندر في قوتها واتساعها . ولم يكتمل بذلك بل اجتاز الملسيونت في اواخر ٢٨١ متصماً ان يضم مقدونيا الى ممتلكاته الواسعة وكان عرشهما شاغراً بعث قائد آخر من قواد الاسكندر وهو ليسياخوس *Lysimachus* غير انه قتل هناك .

اتبع سلوقي سياسة نشر الميلينية التي وضعها الاسكندر فشيد ما لا يقل عن ست عشرة مدينة تحمل اسم والده انطيوخس وتسع مدن تحمل اسمه وخسأ تحمل

١) انظر : Appian, *Romaika*, § 55.

٢) دعاء السوريون واليهود التاريخ اليوناني؛ انظر: سفر المكانين الاول ١٠٤١ . الكتاب ١١ . بدأت السنة في ١ تشرين الاول واستهلوا حتى اليوم محدود في سوريا؛ فلن ذلك مع: Richard A. Parker and Waldo H. Dubberstein *Babylonian Chronology* (Chicago, 1942) p. 18.



اسم امه لاوديسا وثلاثاً باسم زوجه الباكتيرية آباما^۱. أما سلوقيه^۲ التي بنيت لتحمي
مصب العاصي وت تكون ميناء لانطاكية فهي اما من بناء سلوقي او احد خلفائه

۱) انظر : Appian, § 57.

۲) تذكر غالباً وخاصة على النقود باسم سلوقيه بيرية Pieria لتميزها عن المدن الأخرى التي
تحمل نفس الاسم . وبيرية التي هي في الاصل اسم منطقة في مقدونيا اطلقت على مقاطعة تقع على
الساحل الشمالي من سوريا وعلى ضفة العاصي اليمنى . وقد شيدت على بعد خمسة أميال شمالي العاصي
لتستفيد من مكان سهل التحصين ولتبعد المياه الرقيقة الطينية . وبلغ سكانها في ۲۱۹ ق. م. ثلاثة
الف نسمة .

المباشرين . وقد نقل جثاته ودفن فيها . وكان يبعد هناك كله^١ . وأصبحت من ثم مدفن السلالة . ومن المدن التي سميت لاوديسا فان تلك التي تقع على الساحل السوري وتسمى بالعربية اللاذقية لا تزال مزدهرة وفيها احسن مبناء على الساحل . وأباما على العاصي (أفاميا لدى الجغرافيين العرب) هي قرية صغيرة اليوم تعرف بقلعة المضيق . وقد أصبحت مركزاً عظيماً في المملكة السورية وكان فيها الجيش والخزينة الحربية وأصلبلي تابع للدولة يضم ٣٠،٠٠٠ فرس و ٣٠٠ حصان^٢ . وكان بمثابة مستودع حيث تربى فيه فيلة الحرب وتدرُّب . اما المدن التي تسمى انطاكية فكانت العاصمة بطبيعة الحال أكثرها أهمية .

كادت الامبراطورية التي بناها سلوقيس الاول ان تنهار في عهد الملك الذين اتوا بعده . ففي عهد احد احفاده ، سلوقيس الثاني كالينيكوس (٢٤٦ - ٢٢٦) هاجم بطليموس اورجيتيس *Euergetes* سوريا واحتل انطاكية وسار بجيوشه دون ان يلقى مقاومة حتى الفرات . ولكن الاخطر ابات الداخليه اوجبت عودته الى بلاده فاتتحت الفرصة لسلوقيس في ان يسترجع مقاطعاته المساوية . واعتم الفرتين في هذه الائمه الوضع المضطرب في المملكة السورية للتخلص من نيزها . فهزم ارشاق *Arsaces* ، ملك فرتيا^٣ ، سلوقيس في معركة بعد سنة ٢٤٠ ق. م. بلدة وجازة وجيزة ويعتبر هذا التاريخ بهذه التأسيس الحقيقي للسلالة الفرتية^٤ . وكان ملك برغام منهمكاً ايضاً في مد سلطانه على الجزء الاكبر من آسية الصغرى .

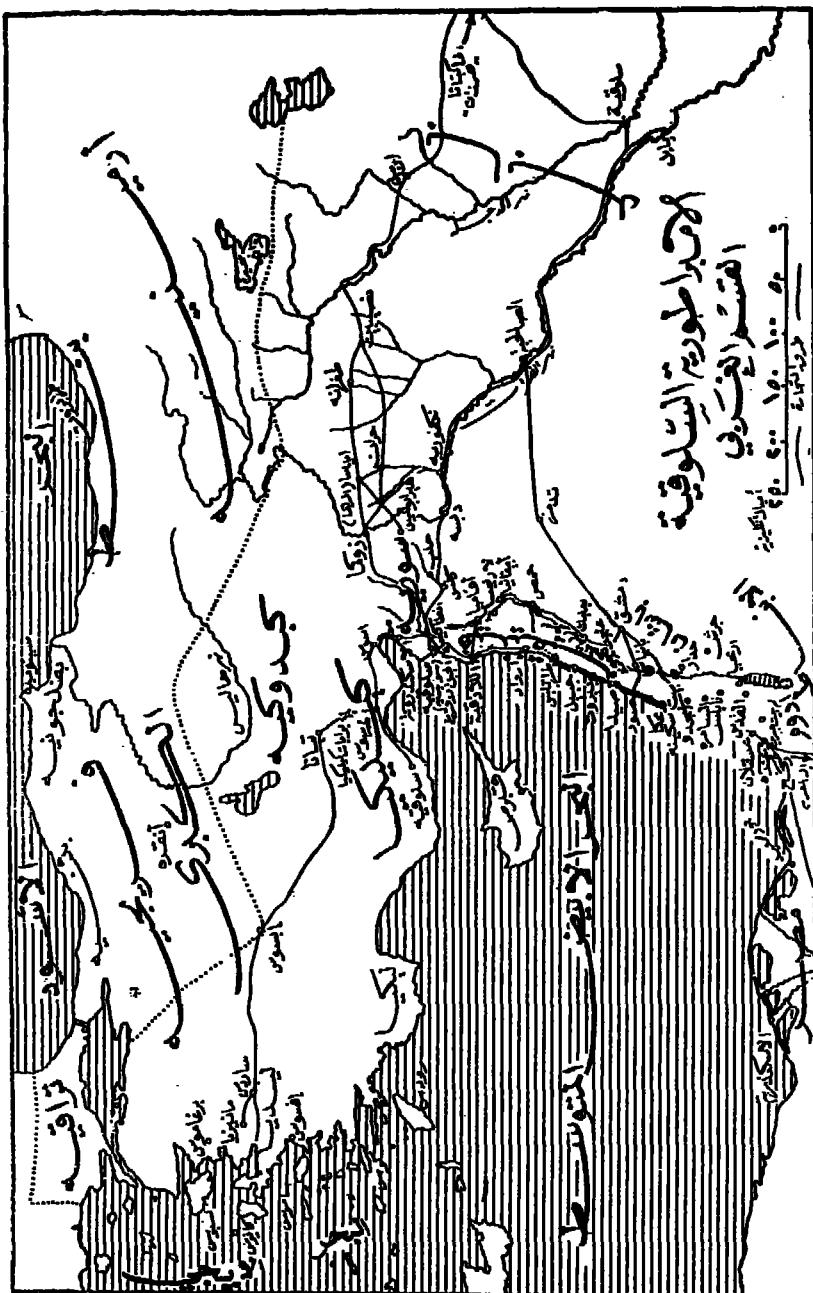
كانت المملكة السلوقيه قد فقدت الكثير من مقاطعاتها وعظمتها عند اعتلاء

(١) انظر : Appian, § 63.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

(٣) جزء من مرزبانة في الجنوبي الشرقي من بحر الخزر . وكان الفرتين من اهل سكيني .

(٤) احتفل فيها بعد بعمر كة اقمن منها حصلت سنة ٢٥٠ كبداية للاستقلال الفرتى ؛ قارن ذلك مع : Edwyn R. Bevan, *The House of Seleucus* (London, 1902), vol. i, P. 285.



انطيوخس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) ^١ العرش. وقد عزم انطيوخس على إنقاذ الموقف فسار على رأس جيشه بالاتجاه الشرقي اولاً ليسترد المقاطعات الإيرانية وكان الباجاخ حليفه. وعبر جيشه جبال هندوكوش ونزل وادي كابل وتغلب جنوباً حتى أصبح على أبواب الهند. وتعتبر هذه الشعوب البعيدة بروبة الجيش المكドوني للمرة الثانية. وقد اهتم لدى عودته إلى بابل بالجزيرة العربية كما فعل الاسكندر قبله، إذ أن الحاجة إلى تواجدها وسائر منتجات بلادها الحارة وأهمية وضعها المتوسط بين شطري الامبراطورية الشرقية والغربي من وجهة طرق الملاحة كانت كلها اعتبارات ذات شأن. غير أن قيامه برحمة مع اسطوله من الدجلة إلى شواطئها الصعبة كان كافياً لاقناع انطيوخس بعدم جدوى آلة خطأ لاحتلال دائم مثل هذه الجزيرة الصحراوية. ولذلك عاد في ٢٠٤ ق. م. إلى سلوقيا على الدجلة، عاصمة مرسى بانه الشرفية.

١) قتل الشجرة التالية صلات النسب بين افراد الاسرة السلوقي:

١ - سلوقي الاول يكتور (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م.)

٢ - انطيوخس الاول سوت (٢٦١ - ٢٨٠)

٣ - انطيوخس الثاني تيروس (٢٦١ - ٢٤٦)

٤ - سلوقي الثاني كالينيكوس (٢٤٦ - ٢٢٦)

٥ - سلوقي الثالث كرونوس (٢٢٦ - ٢٢٣) ٦ - انطيوخس الثالث الكبير (١٨٧ - ٢٢٣)

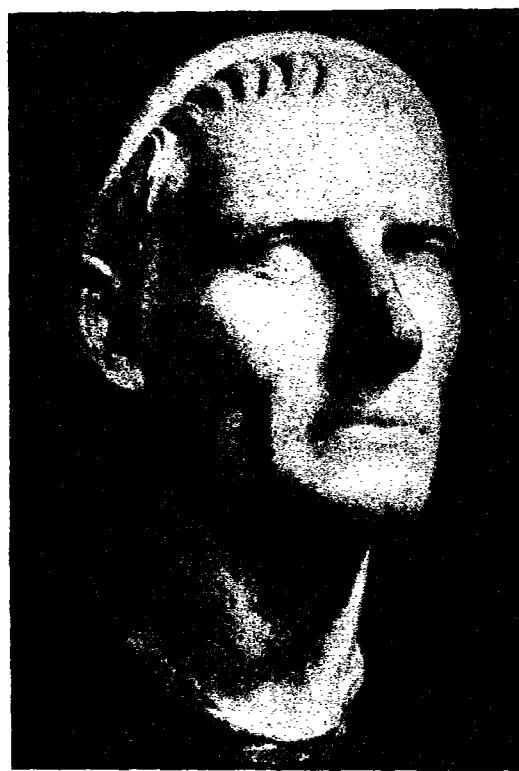
٧ - سلوقي الرابع فليوباتر (١٨٧ - ١٧٥) ٨ - انطيوخس الرابع ايفانس (١٧٥ - ١٦٤)

* ٩ - انطيوخس الخامس بوباتر (١٦٤ - ١٦٢) *

١١ - اسكندر الاول بالاس (١٤٦ - ١٥٠)

ملاحظة: تشير الخطوط ذات النجم الى بتوة مزعومة. انظر بشأن الملك الباقين ما سيأتي في الصفحات التالية؟ Cf. Parker and Dubberstein, pp. 19 seq; Neilson C. Debevoise, *A Political History of Parthia* (Chicago, 1938), pp. 70-71.

وجه انطيوخس اهتمه بعد ذلك الى بطليموس عدوه في الجنوب . وكان قد قام قبلًا في عام ٢١٧ بمحاولة استرجاع الاقسام المترفة من سورية ولكنه فشل في معركة جرت على الحدود عند رفح (رافيا Raphia قديماً). الا ان جهوده الآن في ١٩٨ نجحت . وفي بانياس^١ حيث هزم انطيوخس القوات المصرية استعمل



انطيوخس الثالث الكبير
من تمثال نصفي في متحف الاولى

١) كانت منابع الاردن عاصمة مقدسة مكرسة لاله عرف فيه اليونان المهم بان Pan . وبين شيدت مدينة هناك بعد ذلك اطلق عليها اسم بانياس التي تردد في الاعيال باسم قيمورية فيلي . وقد اعاد الوالي فيليب بناتها او ربها وسمها قيمورية على شرف طبيريوس . انظر : Bevan , vol. ii, p. 37 ; Dussaud , *Topographie*, pp. 390-91.

الجيش السوري، كما في رافيا، الفيلة التي كان الملك قد جلب كمية جديدة منها من الهند^١. وقد استرجع انطيوخس بعد قتال مستمر دام شرين سنة كل ما فقده والده وجده تقربياً وكسب بذلك لقب الكبير.

وفي هذه الفترة اتى الى بلاده وفد من روما ليحذره من التعرض لمصر. وهذا هو اول اتصال نسمع به بين روما وانطاكيه ويعتبر فاتحة عهد جديد في العلاقات الدولية القديمة. وفي هذا الوقت بالذات يتبعى هانيبال الى سوريا ويحرض انطيوخس على مهاجمة ايطاليا^٢. ولم يكن هذا على معرفة تامة بقدرة السلطة الجديدة التي ظهرت في الغرب. وتجرأ بدخول الحرب لمصلحة اليونان حيث كان الرومان يتسعون، ولكنه اصيب بهزيمة على ايديهم في ترموبيلي سنة ١٩١ ق.م.^٣ وهزم الرومان في العام التالي للمرة الثانية قرب مينيزيا في غرب آسية الصغرى واضطرب في عام ١٨٨ ان يتغلب عن كل ممتلكاته وراء جبال طوروس وان يدفع غرامة حربية ضخمة^٤. وهكذا فقد الى الابد آسية الصغرى بما فيها من طرق تجارية بحرية وبما تقدمه من اتصال مباشر مع الحضارة اليونانية. واصيب البيت السلوقي بضررية فاحصة وهو في اوج النجاح الذي بلغه منذ تأسيسه.

ترك الصلح التجلل والجزية التقليدية سورية في وضع ضعيف ولكنها لم تبلغ من الضعف درجة تمنها من اتباع خطة المجمع من جديد، اذ ما كاد يعلم انطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤) ان مصر تعد حملة لاسترجاع سورية المغوفة – موضع التزاع – حتى بدأ المجمع اولاً في البر والبحر وهزم الجيش المصري في ١٦٩ ق.م. هزيمة ساحقة في قلعة بيلوزيوم الواقعة على الحدود^٥ واسر الملك بطليموس فيلوميتور نفسه. وسرعان ما وقعت مصر السفلية كلها في يدي انطيوخس ولم ترفض الاستسلام سوى الاسكندرية التي تعرضت للحصار لأول مرة في تاريخها. ومع ذلك اسرع

١) انظر : Polybius, *Histories* Bk. XVI, ch. 18 seq.

٢) انظر : Livy, *Historiorum*, Bk. XXIV, chs. 43, 60.

٣) انظر : Appian, §§ 18-20.

٤) انظر : Polybius, Bk. XXI, chs. 16-17; Livy, Bk. XXVII, ch. 45.

٥) الفرما بالمرية. انظر : Polybius, Bk. XXVIII, ch. 18.

يُرفع الحصار عنها بضغط من روما التي كان انطيوخس لا يزال يدفع لها اقساط القرامة الخربية^١. وجلا الفاتح السوري عن البلاد وعاد إلى وطنه.

الثورة المكابية

وإذا كان بإمكانه روما أن تحد من نشاط انطيوخس العسكري فإنه لم يكن بإمكانها تقييد نشاطه كمبشر بالملينية. وقد حقق الملك بفتحه مصر ناحية رئيسية من طموحه، وكانت الناحية الثانية صهر ممتلكاته في وحدة ثقافية. وكان يتبع في ذلك السياسة التقليدية للاسرة السلوقية التي اعتبرت الملينة القاسم المشترك الذي سيلتقي به جميع رعاياهم. ولكن انطيوخس ذهب أبعد مما يجب. وبلغ منه أن أعلن نفسه الماء أو الله الظاهر (تيوس ايقانس) وقرن نفسه في هذه المناسبة بزفس اوليمبيوس. وبما أن آلهة السوريين لم تكن غيرة فقد منحت اتباعها امتياز عبادة الملك. ولكن الأسر مختلف بالنسبة لله اليهود.

كانت الاستقرارية والاغنياء والطبقية المطرورة بين اليهود في اورشليم قد تجاوبت حتى الآن مع العوامل الخارجية بتبنّيها اللغة والمعادلات اليونانية وكانت على استعداد الآن للتعاون. ولم يكن لديهم أي اعتراض لتنسيتهم انتاكين^٢. واصبح اللباس اليونياني شائعاً بين الشبان وبدأ الجنائز اليوناني بالظهور. واعتمد انطيوخس على تعاونهم فشجع اعتبار يهود مساوياً لزفس واقام مذبحاً في المعبد للله اليونياني. وكان ذلك كما جاء في دانيال (٣١:١١) «وتحجعل الرجس الحرب». وكان قد جرد هذا المعبد في طريق عودته من مصر من كل كنزه. ووضع بعد ذلك يده على ثروات كل المعابد في سوريا تقريباً. وقد احتاج للمال ليتحقق نزواته ورغباته الخيالية^٣.

بالرغم من أن زفس اوليمبيوس الذي اوجده انطيوخس كان يحمل اسماً يونانياً فقد كان يحمل شخصية بعل الشرقي كما يحمل شخصية زفس الغربي. وكانت

(١) انظر : Livy, Bk. XLVII, ch. 11 ; Polybius, Bk. XXIX, ch. 2 ; Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, § 2.

(٢) انظر سفر المكابين الثاني ٤ : ٩ .

(٣) Polybius, Bk. XXVI, ch. 1; Livy, Bk. XL, ch. 20.

يعد بصفاته نصف السامية في معابد شبه سامية ويمثل بلباس نصف سامي^١. ومع ذلك كان المتسكعون باصول الديانة والقوميون بين اليهود متعددين في معارضتهم الاكيدة. ونشبت الثورة اليهودية^٢ سنة ١٦٨ ق. م. بزعامة يهودا وهو ابن كاهن بسيط يدعى ماتانياس من الاسرة الحاسمونية. وانخذ بعد ذلك لقب الملكي^٣. ووجهت الثورة في اول الامر ضد الطبقة العليا التي تستغل المجاهير اكثر منها ضد الحكومة المركزية. وقد نظم يهودا واخوهه عصبات غير نظامية تعمل في التلال وتجنب المعارك النظامية مع القوات الملكية. وكان هناك اتقاء (حا سيديم) بين الذين ثاروا على انطيوخس ولم يقبلوا بتنيس يوم السبت بقائهم باعمال حربية لذلك ايدوا بسهولة^٤. وتعتبر هذه الحادثة من اقدم حوادث الاستشهاد الديني في التاريخ المدون. وقد احتلت اورشليم بجهود الاخوة المكابيين فظهر الميكل واعيدت الذبائح اليومية. ولتخليد هذه الذكرى اقيم عيد هنوكه (التكريس) ولا يزال يحتفل به سنوياً منذ ذلك الحين.

جمهورية يهودية

وبالرغم من ان الحركة كانت ذات طابع ديني في بدايتها فانها قد تطورت الى ثورة قومية تهدف الى تحرير البلاد. ولم يكن التزاع ضد القوات السورية فقط بل كان تزاعاً بين المتصفين والقوميين اليهود الذين لم يتزدوا في اخلاصهم للتزعنة العبرانية من جهة .. وبين انصار الثقافة الجديدة الذين يؤلفون الحزب الملستي او حزب الاصلاح من جهة اخرى . وكان النصر في كل التزاعين حليف المكابيين . وانتخب معان شقيق يهودا سنة ١٤١ ق. م. كاهناً اعظم وحاكمًا . ومنع الملك

١) انظر : M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* (Oxford, 1941), p. 704.

٢) تعبير جغرافي اول من استعمله عزرا في ٥:٨ ليشير الى ولاية في الامبراطورية الفارسية .

٣) سفر المكابيين الاول ٢:٤؛ انظر ايضاً ٦، § ١ Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 6. ان التعبير ومنه غير واضحين ولعله مشتق من البرية (مقبة) اي الطرة بالاشارة الى الفربات الساحقة التي انزلت بالمدتو .

٤) سفر المكابيين الاول ١:٦٢-٦٣ . ٣٨:٢

السلوقي ديغريوس الثاني نيكاتور اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان^١. واحد سمعان يضرب النقود. وبذلت اورشليم عصراً جديداً فارخت الوثائق منذ ذلك الحين فصادقاً كما يلي : « في السنة الاولى من حكم سمعان الكاهن الاعظم والحاكم^٢ ». وهكذا ولدت جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد مئتين سنة .

بعد ان انتصر اليهود المكابيون أصبحت نظرتهم القومية اضيق مما كانت عليه عند اليهود القدماء . فحاربوا اخوانهم اصحاب التزعة الملينية كما حاربوا غير اليهود . وهاجم يوحنا هيركانيوس الاول (١٣٥ - ١٠٥) الذي خلف والده سمعان ، السامريين الذين استلموا المشروع انطيوخس وهدم مدینتهم مع معبدها^٣ . وكان قبل ذلك قد اجبر الاડوميين الذين كانوا في هذه الاتنان قد توغلوا في جنوبي اليهودية على الاختناق والتهدود (حوالي العام ١٢٦ ق.م.)^٤ . وكانت الجمهورية اليهودية في عهد المكابيين الاولى ذات شكل ديني . وقد نقش يوحنا على نقوده « يوحنا الكاهن الاعظم » ولكن ابنه اريسطوبولس (١٠٥ - ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك او على حد تعبير يوسيفوس « وضع تاجاً على رأسه » . وانخذ مع سائر ملوك السلالة المتأخرة اسماء يونانية بجانب العبرانية . وبعد عهد خلفه اسكندر جناديوس (٧٦ - ١٠٣) الذي وصلت رقعة البلاد ذروتها في أيامه أصبحت الكلمات اليونانية مستعملة على النقود بجانب العبرية . وكانت منطقة الجليل بعضها الذي نعرفه من الانجيل من عمل اريسطوبولس . وكانت تسكنها لمدة طويلة شعوب غير يهودية^٥ واصبح يسكنها الآن الaitorion وهم من اصل عربي ولغتهم آرامية . وقد خير

١) انظر : § 7. Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 6, ١٣ وما بعده .

٢) سفر المكابيين الاول ٤٢:١٣ .

٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4, §§ 2-3.

٤) سفر المكابيين الاول ٤:٢٩، ٥:٦٥ . انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 9, § ١ . كانت كلة « Idumaea » الشكل اليوناني لا يدوم .

٥) انظر : Josephus, Bk. XIII, ch. 11, § 1.

٦) اشيا ٩:١ : سفر المكابيين الاول ١٥:٥ : الجليل مقى ٤:١٥ .

سكان الجليل بين الطرد او الاحتياط. ففضلت الاكثريات الحنان^١. ولذلك كان كثيرون من السكان الذين عمل بينهم المسيح وانخذل منهم اكثرا تلاميذه من اصل غير يهودي ويتكلمون اللغة العبرية ببرطانة . وكان ينظر اليهم باهتمام ادنى من اليهود القدماء . وغير اهل لظهور نبي فيهم^٢ . واعتبر التصرف الذي اجراه هيركلاتوس وابنه سابقة اتبعها آخرون من البيت المسموني في معاملتهم للمدن او الشعوب التي يقهرونها وهو الاختيار بين اليهودية او الابادة^٣.

آخر انتفاضات المملكة السلوقيّة

لم يكن اليهود وحدهم الذين كانوا يضططون على المراكز التي تهار فيها السلطة السلوقيّة بل كانت القبائل العربية المجاورة ايضاً وخاصة الانباط على حدود الامبراطورية الجنوبيّة . اخذت فرتيا وبكتريا والبلاد المجاورة بعيداً في الشرق تستعيد استقلالها . وبدت تبوز حوالي العام ١٣٠ ق. م. سلالة عربية في الرها تعتمد اسبياً على فرتيا ويسمى اكثرا ملوكها باسم امير . ونبعث قبيلة عربية اخرى في جعل شيوخها حكام دولة جديدة تتمرّكز حول حمص (Emesa) وتتبع السلوقيين بالاسم فقط . كذلك توطرت دولة وطنية اخرى تتألف من الایتوريين في سوريا الجوفة وانخذلت عنجر (Chalcis) عاصمة لها . وكان خلفاء انطيوخس الرابع بوجه العموم عاجزين . وتحت حكمهم اخذت الاسرة السلوقيّة ، التي وقفت امام العالم لمدة اجيال كالاسرة الامبراطورية في الشرق ، تفقد بالتدریج مكانتها وسلطتها وكرامتها . ويرينا القرن الذي تلا ابيفانس صورة مضطربة من الثورات الوطنية والانشقاق الداخلي والنزاع العائلي وقدان المقاطعات بالتدریج . وتقلصت الامبراطورية التي امتدت في الماضي من البحر المتوسط الاسفل والبحر الابيض الى التركستان والمند وأصبحت الآن دولة محلية في شمالي سوريا .

واصبح الانباط العرب الآن قوة هامة وكانت قد طردوا بقايا الادوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق. م. ثم انتزعوا سوريا الجوفة من ايدي السلوقيين حوالي

١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 3.

٢) انجل مرفق ٤١:٧٠؛ لوغا ٢٢:٥٩؛ اعمال الرسل ٢:٧؛ يوحنا ١:٤٦ و ٤١:٧؛ Bevan, vol. ii, p. 256.

٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 4.

٨٥ ق. م. ووضعت دمشق نفسها تحت حمايتهم لتجنّب مصرًا أسوأً فها لو وقعت في أيدي الامير الایتوري^١. وكان الایتوريون آنذاك يكتسحون الشاطئ بين جيذا وتيوبروسوبون^٢ (*Theouprosopon*) ويغزبون حقول جبيل وبيروت. وكانت مدن فينيقية اخرى تستعيد آنذا حريتها المحلية. ولم يبق من المدن الساحلية بين فينيقية ومصر سوى عدد قليل مثل عقلان لتعهد بسنور الحياة الملينية. أما البقية مثل غزة حيث ازدهرت الحضارة الملينية فقد امتدت خراباً مقفراً شواهد مائة تتحدث عن انتقام اليهود^٣.

ضاعت جميع المقاطعات الشرقية في الامبراطورية خلال هذه الفترة من الاخطاط السلوقي. وكان الفرتينون في ١٣٠ ق. م. قد وسعوا امبراطوريتهم حتى اصبتت نجد من الفرات الى السندي ومن جيرون حتى الحيط المندلي. اما في الغرب فقد وقف في وجه الجيوش الفرتية الملك تيفرانس الارمني (ديكران) وحده متواتس *Mithrodates* الكبير^٤ ملك البوانت. وفي عهد تيفرانس وصلت المملكة الارمنية ذروة قوتها.

كان هذا الملك الطموح قد اكتسح بلاد الرافدين الى حكمها الفرتينون وفي عام ٨٣ ق. م. كان يكتسح سوريا الشمالية وكيليكية^٥ التي كانت لا تزال تحت حكم السلوقيين والتي كان سكانها يسمون الآراميين. ولم يعد يسمع عن الاميرين السوريين اللذين تلقب كل منها بالملك آنذاك وهما: فيليب الاول فيلادلفوس

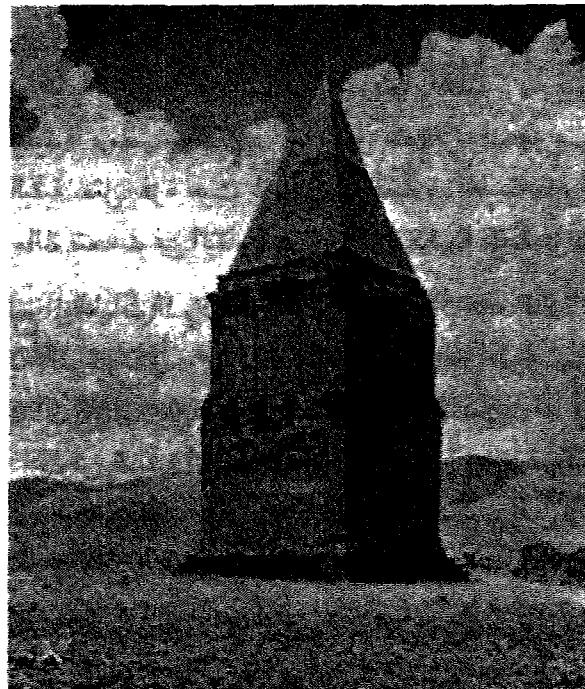
(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 2 ; War, Bk. I, ch. 4, § 8. الایتوريون هم يطورون (Jetur) في التكوين ١٥:٢٥ ؛ سفر اخبار الایام الاول ٣١:١.

(٢) وهي بالفينيقية El-P'ne-e-P'nel (بنوبل Penuel اي وجه الله) وهي الرأس المحدر الذي يسمى الآن رأس الشقة. ويرد خطأ باسم شقة في Abel, vol. ii, pp. 4, 117 ; Baedeker, *Palestine and Syria* (Leipzig, 1912), P. 338 ; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, §§ 15, 18.

(٣) انظر : Bevan, vol. ii, p. 264.

(٤) وهي اكثر صواباً من Mithridates . وهي مشتقة من الفارسية (میتراس Mithras) اي الشمس ويرجح أنها تعني « عطية الشمس ». وكانت مملكة البوانت الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الاسود شمالي ارمينية بالاصل مرتزقة في الامبراطورية الفارسية ثم ثالت استقلالها عند انبارها . ويدعى ملوكها باسم ينحدرون من ملك فارسي قديم .

(٥) انظر : Appian, 48.



بناء جنائزي أو تذكاري على جبل المرومل قرب بعلبك رعا اقامه احمد حكم حصن الوطبيتين في اواخر العصر الهلنستي. ويظهر البناء مزيجاً من المناسر اليونانية والشرقية في المارة والزخارف النحوة. وتظهر في مشهد الصيد الحيوانات والاسلحة بسدون ان يظهر الصابدون وقد دمر هذا البناء ترمياً جزئياً في مصر الحديث.

وانطيوخس الخامس يوسيبيوس . وبنى تيغرايس مدينة ملوكية جديدة هي تيغراينوسينا في منطقة الديبة العليا . وأخذ لقب «ملك الملوك» . ولم يكن السوريون مبالين إلى المقاومة لأن المنازعات الأهلية والخصومات بين أفراد السلالة الحاكمة أنهكتهم . ورحبت المدن اليونانية نفسها بفرصة التسليم بالحياة الاعتيادية من جديدة . وتقبل الجميع الحكم الجديد بارتياح . وقد وصلت جيوش تيغرايس في اندفاعها نحو الجنوب مدينة عكا التي دعى آنذاك *Ptolemais* واحتلها حوالي ٦٩ ق. م. وبذلك تعرضت الملكة اليهودية للخطر . وكان يمكن استخدام فلسطين كمرحلة لاحتلال مصر التي رأت إليها روما باصاراتها وخاصة في هذه الفترة حين كانت أسرة البطالمة تداعى .

الرومان يضمون سورية

بينما كان تيغرايس يوسع ممتلكاته على حساب الفرتين والسوريين كان جمهور حليفه متزداتس ينشئ إمبراطورية لنفسه على حساب آسية الصغرى والرومان^١ . وأخيراً أوقفته الجيوش الرومانية عند حده وطردته من البلاد فالتوجه إلى تيغرايس الذي رفض تسليمه . واعلن روما الحرب فاضطرب تيغرايس إلى سعب حاميته من سورية في ٦٩ ق. م. واسترجع الأمير السلوقي ، انطيوخس الثالث عشر الآسيوي ، منطقة انطاكية واعترفت روما بذلك^٢ . ولكن فيليب الثاني لم يعترف بحكمه . وكان هذان آخر من لبس تاج السلوقيين الملكي^٣ . ولم تمض مدة طويلة

(١) انظر : ١٥. ١٤. Strabo, Bk. XI, ch. 12, § 4; 14. ولم يحدد الواقع بالضبط ولم يذكر ما فارقين .

(٢) Strabo, Bk. XII, ch. 3, § 1.

(٣) انظر : Appian, § 49.

(٤) جدول بين تسمة الملوك السلوقيين وبضمهم كانوا متألفين يدعون الملك . وقد ذكرنا الملك الاولين سابقاً ؛ قارن مع : A. Bouché-Leclercq, *Histoire des Séleucides*, (Paris, 1914), pp. 640-641.

١٢ - ديمتريوس الثاني ليكانور (ابن ديمتريوس الاول) ١٤٦-١٢٨ و ١٢٥-١٢٨ ق. م.

١٣ - انطيوخس السادس تيوس Theos (ابن اسكندر الاول) ١٤٢-١٤٤ .

١٤ - تريphon Tryphon (منصب) ١٤٢ - ١٣٧ .

١٥ - انطيوخس السابع سيدنيس Sidetes (ابن ديمتريوس الاول) ١٢٨-١٢٧ .

بعد ذلك حتى تكنن متراجعت من استرجاع العرش الذي فقده . فصار يومي هذه المرة خده وهزمها واحتل البونت . وهكذا أبعد أكبر عدو لرومة في آسية الصغرى وكان ذلك في عام ٦٤ ق. م. وهو نقطة حاسمة في تاريخ سوريا . وقد احتلت فلسطين في السنة التالية^١ . وأصدر يومي قراراً بان تحكم سوريا مباشرة من قبل نائب قنصل روماني . وهكذا انتهت عهد ليبيداً عهد جديد وهو العهد الروماني .

١٦ - اسكندر الثاني زابيناس Zabinas (ابن ناجير) ١٢٢-١٢٨

١٧ - سلوقي الخامس (ابن دغيريوس الثاني) ١٢٥

١٨ - اطليوخس الثلن غريبوس Grypus (ابن دغيريوس الثاني) ٩٦-١٢٥

١٩ - اطليوخس التاسع سيزيكينوس Cyzicenus (ابن سيديقس) ٩٦ - ١١٢

وتقسم سوريا في السنوات الالاتين والثلاثين الأخيرة من حصر الانطراط حكام متعددون : سلوقي السادس أبيطاقس (ابن غريبوس) ٩٣-٩٦ ; اطليوخس الماشر يوسيوس Eusebes (ابن سيزيكينوس) ٩٢-٩٤ في الطاكية ; اطليوخس الحادي عشر أبيطاقس (ابن غريبوس) ٩٤-٩٥ ; فيليب الأول فيلادلفوس (ابن غريبوس) ٨٣-٩٢ ; دغيريوس الثالث تيروس (ابن غريبوس) ٨٤-٨٨ ; اطليوخس الثاني عشر ديونيسوس (ابن غريبوس) ٦٥-٦١ ; فيليب الثاني (ابن فيليب الأول) Asiacus ٦٤-٦٨ ; من ٦٩-٨٣ لا يوجد ملك .

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4.

الفصل الثاني عشر

العصر الملني

دخلت الملنية الى غرب آسيا قبل سوحت الاسكندر كـ رأينا قبلًا وقد سهلت هذه انتشارها ثم زادت السياسة السلوقة في سرعة هذا الانتشار وقوته . وكانت نتيجة هذا التداخل بين الثقافتين اليونانية والسامية تلك الحضارة المركبة التي عرفت بالملنستية لتميزها عن الحضارة الملنية او اليونانية أصرفه . وسادت الملنية وهي ابرز مظاهر العصر السلوقي ليس في سوريا فحسب بل في غرب آسيا ومصر . وقد انحصرت الملنية من وجهة زمنية بين عصرين ساميين اولهما الآرامي وثانيهما العربي ودامت في سوريا مدة الف عام حتى الفتوحات الاسلامية .

المدن اليونانية

كان عدد من المدن التي أسسها الاسكندر وخلفاؤه منتبأً لهذه الثقافة اليونانية الانتقائية التي انتشرت خاصة بين غير اليونانيين وقد اختار أولئك المؤسوسون الواقع بمعناية في نقاط استراتيجية وعند مراکز المواصلات المأمة وعلى طول مجاري الأنهار . وكانت المستعمرات مدنًا يونانية في لقائها . وحكومتها . وكان باسكان السكان اليونان ان يعيشوا ويبيقوا كما اتضاع بينما كان ذلك متعدداً فيما لو ترقوا بين جماعات وطنية مختلفة . وكان سكان هذه المدن بالدرجة الأولى من الجنود والمرتزقة اليونان والمقدونيين الذين اسكنوا بوجب اوامر ملكية . وقد حصل بعضهم على زوجاتهم من بين السكان الوطنيين . وسرعان ما تهاافت المدنيون تدريجياً الى هذه المستعمرات متأملين بعض الفوائد او لأنهم طردوا من وطنهم لعوامل سياسية او اقتصادية . وانضم الى سكان هذه المدن مع الزمن سكان مولدون وأهليون اقتبسوا المظاهر الخارجية الملنية . وهكذا أصبحوا يضمنون جماعة من التجار والفنانين والعلماء والعلميد .

كانت العاصمة انطاكية الاولى من بين مراكز نشر الثقافة اليونانية. وقد بنيت حوالي ٣٠٠ ق. م. على الضفة اليسرى لنهر العاصي وعلى بعد نحو عشرين ميلاً من البحر في وادٍ جميل. وأصبحت في عهد السلاوقيين اعظم مدينة سياسية في آسيا كلها. وقد فاقتها كمر كفر لثقافة اليونانية مدینة الاسكندرية والقسطنطينية وربما مدینة او مدیناتان يونانيتان جديدان غيرها. ثم تليها كل من سلوقيه ولاوديسة واغامية. واذدهر في هذه المدن عدد من الادباء الفصحاء وال فلاسفة في القرنين الاخرين قبل الميلاد ولم يكونوا من النزوة الاولى باستثناء بوسيدونيوس.

وفي الوقت الذي كان فيه السلاوقيون متهمكين في تأسيس المدن اليونانية شمال لبنان كان البيطلة يفعلونه مثل ذلك في جنوبه. ومع ذلك فحكم مصر المقدونيون كانوا أقل حساسة لنشر رسالة الحلمية من حكام سوريا. ومن المدن التي أسسوها فيليوتيريا^١ على بحيرة الجليل التي سميت بالنسبة لفيليوتيريا شقيقة بطليموس الثاني فيلا دونوس. أما بيللا^٢ الواقع فيها سبي بعد ذلك بالديكابوليس (المدن العشر) Decapolis^٣ فربما كانت من بناء الاسكندر نفسه. وسميت كذلك بالنسبة لعاصمة مقدونيا. وهناك مدينة جيرازا Geraza^٤ وهي ايضاً من مدن الديكابوليس التي يرجع انها استمدت كمدينة هلنستية من قبل انطيمو خس الرابع وسميت انطاكية على اخترizarus ورواس Chrysorhoas^٥. ونستدل من اسماء عدة مدن أخرى مثل اريثوسا Arethusa (الرست على العاصي جنوبي حماة) وسيروس Cyrrhus (كورس شمالي حلب) على اصلها المقدوني^٦. وتحولت الدساكر او الحصون الخلية في احوال كثيرة الى مدن يونانية — مقدونية.

(١) يرجح أنها خربة كرك في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية. انظر : Abel, vol. ii, p. 131; cf. Dussaud, *Topographie*, p. 22; Polybius, Bk. V, ch. 70.

(٢) قارن مع : Appian, 57, و هي بالعربية فعل او فعل.

(٣) انظر المجلد مرقن ٤٠٠: انظر ما سيأتي في الفصل ٢١ بشأن الديكابوليس.

(٤) وهي جرش اليوم من الفئة الخامسة القديمة ولكن اشتقتها غير معروفة بالتأكيد. انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٣.

(٥) وهو جدول ينبع من عيون في النعلة المبلورة. انظر Carl H. Kraeling, *Geraza, City of the Decapolis* (New Haven, 1938) pp. 27 seq.

(٦) اريثوسا كانت حورية بئر مشهورة في احدى الجزر اليونانية؛ أما كورس فهي مدینة في مقدونية بجوار بيللا.

بنيت المدن اليونانية حسب مخطط مرسوم وزودت بالمسارح والحمامات وملعب الرياضة والساحات العامة وغيرها من المنشآت التي يعبر فيها الفرد عن نفسه كعضو في المجتمع . واحتفظ فيها بالشكل السياسي لدوليات المدن اليونانية مع الاهتمام الكبير بشخصية المواطن كجزء اساسي في المجتمع . وفي هذا كله تختلف المراكز الجديدة عن المراكز السامية القديمة التي كانت تبني عادة حول حصن او نبع او معبد كثواة لها . ولكنها تنمو دون اية خطة وليس فيها اية وسائل للتغيير عن الحياة الديقراطية . واصبحت سوريا في ذلك العهد تضم من المدن اكثر مما عرفته في اي عصر سبق .

المدن القديمة تصير مدن هنستية

لم يقتصر السلوقيون والبطاللة على إنشاء مدن جديدة وإنما حولوا بعض المدن ذات الأسماء السامية القديمة إلى مدن هنستية وغيروا اسماءها . فمدينة عكا يصبح اسمها بتوطليس *Ptolemais* في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٢ ق. م.). وتكررهاً له أيضاً أصبحت مدينة ربه عمون تسمى فيلادلفيا^١. وسميت بيت شان (بيسان اليوم) سكينوبوليس *Scythopolis*^٢. وفي الشمال أصبحت بيروت (بيروت) تسمى لاوديسة في القرن الثاني وسميت حة ايفانية على شرف انطيوخس الرابع . وتبدل اسم شيزر الجاورة وأصبحت لاريسا بالنسبة لمدينة في تساليا . وسميت اديسا بالنسبة لمدينة مكدونية تحمل نفس الاسم . وينسب تحويلها إلى مستعمرة مكدونية تسمى انطيوكيه كاليلوهي *Antiochia Callirhoe* . أما الاسكتندر نفسه . وقد أعاد بناءها انطيوخس الرابع ودعاعها انطاكية^٣ . أما نصبيس *Nisibis* (نصيبين اليوم) التي تمر بها الطريق الرئيسية للواصلات بين

١) هي عمان اليوم عاصمة الأردن وظاهر فيها أن الاسم القديم .

٢) دعيت كذلك بالنسبة السكريتين الذين عانت جوعهم حوالي ٦٢٧ ق. م. في سوريا حتى حلوذ مصر . انظر : Herodotus, Bk. I, ch. 105; وارميا ٦:٣٣ . واعتبرت هذه القرية فيما بعد الأثر الوحيد لمجموعهم .

٣) انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21; Polybius, Bk. V, ch. 51. ان اقلم شكل لاسها هو اورهاي *Ushai* في الآرامية وقد بقى في المرينة باسم الرها وتحول في التركية إلى اورفا .

سورية وبلاط ما وراء البحيرة فقد بناها نيكتاورد كما يتضح من احدى الكتابات الائتية. وسجع المنصر الوطني في هذه المدن القديمة ان يحتفظ بعكانته الى درجة اكبر مما كان معتاداً في المدن المؤسسة حديثاً. وغالباً ما كانت تعود المدينة اليونانية او المقدونية المفروضة حديثاً الى وضعها الوطني القديم.

ومما يستلفت النظر ان اكثراً هذه المدن القديمة التي استعمروا وبدلت اسماؤها قد طرحت بالتالي اسماءها اليونانية وكذلك المظاهر السطحية من الملينية واستعادت صفتها السامية واسماءها القديمة التي تعرف بها اليوم. فمدينة بيرويا *Beroea* هي اليوم حلب وحالكيس *Chalcis* في سوريا الم gioفة هي عنجر اليوم (اختصار عن جر) واليونثيروبوليس *Eleutheropolis* هي بيت جبرين^١. والاستثناء الوحيد هو طرابلس. اما شكلم التي اعاد بناءها الامبراطور تيتوس وسميت ينابوليس (المدينة الجديدة) فهي اليوم نابلس. وكذلك فان اكثراً المقاطعات والجبال والانهار التي اخذت اسماء يونانية تعرف اليوم باسمائها السامية.

ومع ذلك فقد يقى كثيراً من العناصر الفنية والمعمارية والتلقائية الاخرى التي ادخلتها المجاليات اليونانية والمقدونية. وتظهر واضحة في الفترة الرومانية. وانهيار المملكة الملنسية لم يتبعها شكل من الاشكال انهيار الثقافة الملنسية. ومع وجود القوس والقنطرة فيها سبق فان الناج الكوروني للاعدة انتشر باطراد. وكانت المسارح والملاعب التي بناها افراد الاسرة الميرودية في عهد الرومات تتبع التصوّف الملنسى^٢. وفي الحقيقة فان اكثراً البقايا الملنسية في سوريا تعود الى الفترة الرومانية.

تفاوت انتشار الملينية

اختلفت مناطق سوريا في استيعابها للمؤثرات اليونانية. ففي الشمال لم يقتصر اطلاق اسماء الوطن الام على المدن بل شمل سائر الاماكن. وبالاضافة الى ذلك فقد اوجدوا تعاذاً بين الآلة الملينية والآلة اليونانية واعادوا تسميتها. فاصبح بعل

١) او جبريل الواقعة على طريق غزة - اورشليم.

٢) انظر ما سيبelow في المصلين ٢١ و ٢٣ .

يسى زفف واقتبست الاساطير والخرافات الهندية الاوربية في البلاد الجديدة . وكانت تقع على بعد اربعة اميال من انطاكية ضاحيتها ومركز افراهم دفنة حيث انقلبت الحورية التي تحمل نفس الاسم والتي تبعها ابولون وقد اسره جمالا الى شجرة غار . وقد حدث المشهد الاصل في تساليا . وتدفق الانطاكيون والمجاج من كل اطراف سوريا الى معبد ابولون في دفنة الواقع في وسط غابة من شجر الغار حيث تكثر المياه^١ . وقد اعطي هذا المعبد حق التجاء الناس اليه واصبح المكان مركزاً للغلاعة . وبوجه الاجمال فان شمال سوريا اصبح « مقدونيا جديدة » حيث شعر العنصر اليوناني المختل وكأنه في وطنه .

وتأتي بعد ذلك المدن الفينيقية التي يجب ان نذكر ان علاقتها مع العالم اليوناني تعود الى القرن الحادى عشر ان لم يكن قبل ذلك . ولما كانت قد فقدت في هذه الائتمان روحها الوطنية فقد ساعد ذلك على تسهيل عملية الالتحام بين الفناصر اليونانية والسورية . ولم تتردد صور وصيدا وارواح ولاوديسة - بيروتوس (كما كانت بيروت تدعى احياناً) ومراثوس في سك نقود تحمل كتابات يونانية بجانب الفينيقية . واصبحت الملبينة التي توطدت في سوريا الفينيقية اكثر قوة وانتاجاً من تلك التي ظهرت في سوريا الازامية . وفي هذا العصر لا بد ان الفينيقي المتفق كان يشعر وهو في مدينة يونانية كأنه في وطنه تقريباً وكذلك كان يشعر اليوناني في ميناء فينيقي . ولم تقل الفناية بالفلسفة والادب اليوناني في صيدا وصور عما كانت عليه في انطاكية ولاوديسة . وكان بعض مشاهير الكتاب في اللغة اليونانية من القرنين الاخرين قبل الميلاد من مواطنين هاتين المدينتين الفينيقيتين . وكان احدهم وهو زينون الصيداوي استاذ سيمه زينون من بلدة كيتيوم في قبرص (٣٣٣ - ٢٦١ ق. م.) مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة وهي اعظم ما اتبعه العصر . وكيتيوم نفسها مستعمرة فينيقية وكان ابنها الشهور في نظر معاصريه فينيقياً . وذهب زينون « انبيل رجال عصره »^٢ الى اثينا وبدأ يعلم في رواقها Stoa poikile في سنة ٣٠٢ . وكان صديق انتيغونس ملك مقدونيا وحفيد قائد الاسكندر . ولكنه ابتعد عن السياسة . واتبعه المرسوم الذي رافق ما منحته اياه اثينا من

١) وهذا سميت بالعربية « بيت الماء ». انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 6.

٢) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Civilization*, 3rd ed. (London, 1952), p.330.

الشّكرىم بعد موته بالكلمات التالية : « لقد جعل حياته غوفجا اتبعه الجميع لأنّه كان يعلم بوجب تعاليمه ». وكتب أحدهم عن زينون في شعر على قبره ما يلي :

وإذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقية .

فهل يجب أن يضيرك شيء؟ لم يأت قدموس من هناك
الذي أعطى ليونان كتبها وفن كتابتها؟

وتؤس فينيقي آخر مدرسة فلسفية في آثينا وهو ديدوروس المشاء الصوري الأصل وكان لا يزال ناشطاً في سنة ١١٠ ق. م. وقد ذكره شيشرون^٢. وكان أحد مبادئه الأخلاقية أنّ الخير الأعظم يتتألف من امتزاج الفضيلة مع انعدام الألم وهذه صيغة تشير إلى محاولة التوفيق بين وجهي نظر الفلسفتين الرواقية والبيقرورية. وهناك سوري أكثر شهرة ينبع الفلسفة الانتقامية واسمه انطيوخس المسقلاني وقد حاول أن يوحّد آراء الأفلاطونيين والرواقيين . واسن بالإضافة إلى أكاديميته السورية وأمتدّة في الإسكندرية وأخرى في آثينا، وحضر شيشرون^٣ دروس أكاديميته الائتمانية مدة ستة شهور ويتكلّم عنه بتعبيره الود والاحترام . ويصفه بلوطريخ^٤ بأنه «رجل مفعم وخطيب قوي». ويدرك ستراوب^٥ اثناء وصفه لمسقلان بأن مولد انطيوخس فيها عنوان شهرة للمدينة .

بقاء الآرامية

من الطبيعي أن اللغة والثقافة اليونانيتين حصلتا على مكانة خاصة لاقترانهما بالشعب القاطع . وقد اعترف الغريقان أن تقوّي الأدب والحضارة. اليونانية المطلقة

١) انظر : *Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers*, tr. R. D. Hicks (London, 1925), Bk. VII, § 30; cf. *The Greek Anthology*, ed. and tr. W. R. Paton (New York, 1927), Bk. VII, § 117.

٢) انظر : *De Oratore*, Bk. I, ch. 11.

٣) انظر : *Brutus*, Bk. XCI, ch. 315.

٤) انظر : « Lucullus », in *Vitae*, ch. 42.

٥) انظر : *Strabo*, Bk. XVI, ch. 2, § 29.

امر لا يقبل الجدل . ولكن الواقع هو ان الشرق الملني كان شيئاً مصطنعاً . فديانة البعلم واليهودية احتفظتا ببقاليدهما القديمة في وسط هذا الشرق الملني . وبالاضافة الى ذلك فان السلوقيين تبنوا العبادات الملنية باشكال هلينية واظهر اكثرا احتراماً للكافمة الملنية . وحين كان سلوقيس الاول يبحث عن موقع لاقامة مرفأه الذي كان ينوي بناء قدم ذبيحة الى زفس المقيم في جبل كاشيوس وهو الله العاصفة والرعد المللي الذي ارسل نسراً ليりه مكان تأسيسها^١ . واعادت زوجة سلوقيس بناء معبد آثارغاتيس في بامبيس - هيرابوليس Bambyses-Hierapolis (منبع) حيث بقىت عبادة الالهة السامية تزدهر^٢ . وبدأت اسرار جبيل تقترب باقروديت وادونيس ولكن هذا لا يعني جعل المشرق هلينياً بقدر ما يعني جعل العالم الملني شرقياً . وبقيت اللغة الآرامية خلال هذه الفترة لغة الشعب الدارجة الذي يبقى في صهيون سامياً في طرق معيشته . وحتى القرن الثالث الميلادي كانت تدمر تستعمل اللغة الآرامية الى جانب اللغة اليونانية كلغة رسمية . وكذلك استعملت دوراً - اوروبس الآرامية واليونانية في كتابتها الاثرية . واصبح افراد الجاليات اليونانية بالتدريج اكثر تأثيراً بالحياة السامية من تأثير الوطنين بالحياة اليونانية . واعطي بعض الملوك السلوقيين التأخرين القاباً آرامية . فعرف اسكندر الاول (١٤٦-١٥٠) بلقب بالاس Balas واسكندر الثاني (١٢٢-١٢٨) الذي لم يكن من الامرة السلوقية بلقب زابيناس Zabinas^٣ . ونجحت الحضارة الوطنية في سوريا الآرامية وفلسطين اليهودية بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام فاعطت اكثراً ما اخذت.

وما لا شك فيه ان السوريين المثقفين قد درسوا اليونانية وكتبوا بها . ولكن ليس هناك ما يدعونا الى الاعتقاد انهم استعملوها في حياتهم اليومية باستثناء اولئك الذين نشأوا في المستعمرات اليونانية . ويوجع ان سكان المدن القديمة التي اعيد تأسيسها كانوا يتكلمون لغتين . وقد احتفظ الريف بلغته القديمة وعاداته وطريقه

(١) انظر : Malalas, *Chronographia*, ed, L. Dindorf (Bonn, 1931), p. 199

(٢) انظر : Lucian, 17.

(٣) من الواضح ان « *Balas* » هي *ba'la* وهي اختصار اسم مركب يظهر فيه اسم الله بعنل . وزابيناس هو زينا *Zebina* « المشترى ». ويرد الاسم في عزرا ١٠ : ٤٣ . وكان غالباً يعني بالاصل المشترى من الله .

حياته. ولم تتأثر اكثريه السكان بالحضارة اليونانية بأكثر مما تأثر به السوريون المعاصرون بالحضارة الفرنسية. والذي حصل بنتيجة ادخال الملينية هو غزير البنيان السياسي والفكري الذي كان ساماً صرفاً والسياح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيها بعد. واحتاج الامر الى مرور الف عام قبل ان يمكن اعادة ذلك البنيان.

النشاط الادبي

لم يترك الادب الآرامي في سوريا السلوقي آثاراً آثاراً كما انه لم تكتشف آثار كتابات آرامية اثرية من هذه الفترة. وقد تضاءل النشاط الادبي المحلي امام الشعر اليوناني لشعوره بالنقص حتى كاد ان ينعدم. ولكن ليس من شيك بأن كثيرين من كتاب ذلك العصر الذين تسموا باسماء يونانية وكتبوا في تلك اللغة هم من اصل سوري. ففي الحقب الاولى من القرن العشرين ظهرت عدة رسائل ومؤلفات اخرى بالفرنسية تحمل اسماء افرنجية المظہر لكناب لبنانيين ويکاد يستعمل معرفتها بأنها عربية. ويصبح الافتراض ان بعض القطع الآرامية الادبية قد كتبت ولكنها لم تصلنا. وكان من الممكن ان تلاقي بعض المؤلفات العبرية مصدرآ مائلاً ل ولم يُتع لها حظ ايجاد مترجم يوناني ودخولها في عداد الكتب الدينية غير الرسمية (ابوكريفا). ومن المصادر الرئيسية لمعلوماتنا عن هذه الفترة سفر المكلابين الاول الذي كتب كما يبدو بين عامي ١٠٥ و٦٣ ق.م. وترجم الى اليونانية من اصل عبوي. ونرى في كتاب اخنوخ المزعوم والذي كتب في الاصل بالعبرية او الآرامية في حوالي نفس الفترة ووصلنا بكماله في اللغة الجبشتية فقط - نرى ان الخلود الذي كان حتى ذلك الحين من نصيب الاقياء فقط قد اصبح يشمل الناس جيماً وترافقه افكار التواب والعقاب. وقد يكون في هذا تعبير عن اعظم افكار ذلك العصر. وشغلت احدى المشاكل التي يعالجها اخنوخ، وهي ازدهار الاشرار، العقول اليهودية والقول اليونانية. وانضم كتابان عبريان من العصر السلوقي الى مجموعة الكتب الدينية الرسمية وهما: سفر الجامدة الذي كتب حوالي العام ٢٠٠ ق.م. من قبل يهودي استقراطي تأثر بالملينية. وسفر دانيل الذي كتب في القرن الثاني ق.م. ويحصل سفر الجامدة بالفكرة اليوناني اكثراً من الكتاب الآخر.

لم يصبح اي قسم من الامبراطورية السلوقيه مركزاً حقيقياً للابداع الفسي والأدبي والعلمي ولم يكن الملوك فقط مشجعين اصحاب العلم شأنهم شأن ملوك البطالمة باستثناء بطليموس الاول مؤسس مكتبة الاسكندرية ومتبعها المشهورين في العالم . وقد استمكثت المكتبات في الموارض وكانت احدها في انطاكية . وإذا اخذنا بعين الاعتبار تحسن المواصلات وانتشار حضارة واحدة وسيادة لغة واحدة فانه كان بامكان العلم ان يزدهر اكثر لوحظي بتشجيع الملوك . والعالم الوحيد الذي يستحق الذكر في المقاطعات الشرقية هو سلوقي من مدينة سلوقي على الساحل وهو من اصل كلداني عاش خلال القرن الثاني ق. م . وقال ان الشمس هي مركز الكون . واتبع في ذلك فرضية اوريسطرس^١ وحاول ان يجد البراهين لها . وان سلوقي بارأه صحيحة علمياً عن علاقة المد والجزر بالقمر التي ذكرها بوسيدونيوس السوري^٢ .

بوسيدونيوس المؤرخ

الجبيت سوريه الملطيتين اثنين من الجغرافيين المؤرخين وبعض الفلكيين وعدداً محدوداً من الشعراء الذين لم يكن احدهم من المرتبة الاولى وعددآ كبيراً من الفلاسفه وخاصة من المدرسة الرواقية . وأكثربن من القرن الثاني واوائل القرن الاول ق. م . وقد اقامت الرواقية منذ البدء علاقات وثيقة مع المنهوم السامي للحياة وبقيت خلال وجودها ملائكة لليونان الذين تأثروا بالحضارة السامية والساميين الذين تأثروا بالملطية . والرواقية في تأكيدتها على الاخوة والدولة العالمية ، وعلى الفضيلة والحياة الأخلاقية ، وبنظرها الى كل ما له علاقة بالجسد من قوة وضعف وصحة ومرض وغنى وفقر يروح الامايلات فانها كانت الى حد ما طليعة للمسيحية . كان بوسيدونيوس الآرامي ابرز الكتاب السوريين وهو فيلسوف روحي ومؤرخ وعالم طبيعي ، ومن اعظم مؤلفاته اثراً اقامه لناريخ بطليموس الذي اصبح مرجحاً للمؤرخ ليفي وسترابو وبليوطرخ وغيرهم وهكذا سام في مهمة تعليم الرومان الاوائل ومهذ الطريق لمجد العصر الاوغسطي . وقد ولد بوسيدونيوس حوالي العام ١٣٥ ق. م . ودرس في اثينا وبعد ان تجول في ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا

١) من بلدة ساموس وعاش في الاسكندرية بين ٢٦٤ - ٢٨٠ ق. م.

٢) انظر : Strabo, Bk. III, ch. 5, § 9.

وصقلية استقر كرئيس المدرسة الرواقية في رودس حيث توفي سنة ٥١ ق.م. وبلغ من شهرته أن يومي توقف في رودس في طريق عودته من سوريا ليستمع إلى محاضراته. وعندما وصل القائد الروماني الكبير إلى بيت الفيلسوف منع مرافقه من قرع الباب كإهانة العادة وأظهر احتراماً أكثر بالغفاف حزمه الصعي^١. ويقول شيشرون^٢ أنه هو أيضاً استمع إلى محاضرات بوسيليونيوس. ويعتبر عقله آخر عقل عظيم أحبته الحضارة المليقية قبل أن تتأثر برومة. وتصور المقطفات التالية من كتاباته الحياة الراقية للمدن السورية وتصف بعض المنتجعات الطبيعية :

كانت هناك عدة اندية حيث يرjosون عن انفسهم بصورة دائمة فيستمدون اماكن الرياضة والحمامات ويسخون انفسهم بالطيبتين والنار ويتذمرون «المداوos» لأنهم هكذا كانوا يسمون قاعات طلم الاعضاء كما لو كانت منازلاً الخاصة ، ويملأون انفسهم في معظم اوقات النهار بالتمور والططم ويحملون معهم كنایات كبيرة ، وسط اصوات القيثارات الصاخبة التي جعلت مدنًا يكاملها زرن بالضجيج^٣ .

وتتجه الجزيرة العربية وسوريا أيضًا البرية *Persea* وما يسمى بشجر الفستق . و يجعل هذا ثراً اشبه بالذهب له قشرة يضاها وشكل مستطيل مما يشبه المدوم وتترجم بعضها على بعض كعنقائد الذهب . وداخلها انفر شاحب وطعمها أقل لذة من ثرة العنبر ولكنها اطيب رائحة منها .

الشعراء السوريون اليونانيون

ومن أن الشعر اليوناني السوري ليس مبتكرًا بشكل يلفت النظر فانه يتميز بتنوعه واهتمامه بجمال الطبيعة وخصب خياله ولونه وقوه شعوره بالفزل . وكان كثير من الشعراء بارعين في الارتجال وشعر المناسبات . وقد استخدم انتيمان الصيداوي واحداً من صور وعاش في اوائل القرن الاول ق.م. اشعار المناسبات خاصة للحوادث التذكارية والكتابية على القبور . وينذكر سامييه في المقطع التالي باقامته في ميناء فينيقي :

(١) انظر : Cicero, *Tusculanarum Disputationum*, Bk. II, ch. 25; Pliny, Bk. VII, ch. 31.

(٢) انظر : Cicero, *De Natura Deorum*, Bk. I, ch. 3.

(٣) انظر : E. S. Bouchier, *Syria as a Roman Province* (Oxford, 1916), p.202; cf. Athenaeus, *The Deipnosophists*, ed. and tr. Charles B. Gulick (London, 1933), Bk. XII, § 527.

(٤) انظر : Bouchier, p. 202; Athenaeus, Bk. XIV, § 649.

حان الوقت لترى السينية فليست هناك زوابع قاتمة

ذات تواريج مائلة تمزق صدر الخيط

والستلو تبني عشها تحت السلف

وعلى المروج تفشك الاوراق الفضة

اسحبوا من اسياك المبللة ايهما البحارة

وادرجو المراسي المدنفة من الرمال

وارفعوا الاشرعة المتينة الصنع عندما أمركم

مكذا يأمر ابن باخوس وسيد المينا!

كان انتيبيات ايكوريماً في فلسنته وهذه بعض اقواله :

يقول العاللون بالتعجم الذي قصير العمر . الذي كذلك يا سلوقي^١ ولكن ذلك لا يهمني . ليس هناك سوى طريق واحدة الى العالم الاصل² Hades التي يسلكها الجميع . واذا كانت طرفي اسرع فساري مينوس^٣ بسرعة . دعنا نترب لاه صحيح جداً ان اخر حسان الطريق بينما يتبع الشاة طريقة جالية الى العالم الاصل^٤.

وهناك فيلسوف ايكوري وشاعر مناسبات آخر اسمه فيلوديس Philodemus . وقد ولد في اوائل القرن الاول ق. م. في جَدَرَة^٥ وهي مستعمرة مكدونية است بين سكان شرق الاردن شبه الرحل على مرتفع شاهق يشرف على مضيق الميروماكس Hieromax (اليوموك) والطرف الجنوبي لبحر الجليل (طبرية) . وقد اقام فيلوديس في رومة في عهد شيشرون الذي مدحه بمحاسة . و اكثر اشعاره الباقيه هي من النوع الحنفي والنزيبي وتؤيد قول شيشرون فيما يختص بموعدة مواضيعه ورشاشة طرفيته^٦ . وهذا نموذج منها :

١) انظر : Bouchier, pp. 193-4 ; cf. *Greek Anthology*, Bk. X, § 2.

٢) يبدو ان الاشارة هي لسلوك الكلدان الذي كان متجمعاً ايضاً .

٣) هو ملك كرت ومشعرها الذي أصبح بعد موته احد التفأة في العالم الاصل .

٤) انظر : Greek Anthology, Bk. XI, § 23.

٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 11, § 4. الموقع هو قرب ام قيس اليوم . ويذكر سكان جدرة في اغيل مرقس ٥: ١؛ لوقا ٨: ٣٧ ، ٣٦ .

٦) انظر : In Pisonem, chs. 28, 29.

لقد وقعت في حب ديو من باليوس - وليس ما يدعى في ذلك : ثم أحببت ديو من ساموس - ولم يكن ذلك أمراً كثيراً الأهمية : ولمرة الثالثة أحببت ديو من ناكسوس - ولم تعد القضية مجرد تكشّة : وفي المرّة الرابعة أحببت ديو من أرغوس . ويبدو أن الاقدار ذاتها قد اهتمني فيلوديني [«حب الناس»] لأنني أشعر دائمًا برغبة ملحة لشخص باسم ديو .

مليغر

لعل أكثر الشعراء طرافة في عصر غرسيو شوري هو مليغر من جدّرة (أم قيس) وكان سوري الأصل ومن المرجح أنه تكلم الآرامية في بيته وعرف الفينيقية بالإضافة إلى اليونانية . وكما كثُر الكتاب السوريون في عصره فقد بحث عن رزقه خارج مدينة أصله . وفي سن العشرين (حوالي ١١٠ ق. م.) هاجر إلى صور التي نعرف لحة عن حياتها الداخلية من مقاطعه الشعرية . ولا بد أن حياة المدينة كانت طائشة فالمفنون وعازفو القيثار كانوا محبوبيـن والشراب كان شائعاً . وكانت نساء الطبقة العليا يعيشن في عزلة ولمن من يراهنـن حين يسرن في الشوارع . وانتقل مليغر بعد ذلك إلى جزيرة كوس Cos حيث جمع ديواناً شعرياً سمـاه الاـكـليل . ويضم حـيـرة اشعار الكتاب الاولـانـ وقد شـبـهـ كلـاـ منـهـمـ فيـ شـعـرـ منـ عـنـدـ بـزـهـرـةـ جـيـلـةـ اوـ شـجـرـةـ آـيـةـ^١ . ويصف في شـعـرـ تصـيـرـ آخرـ يـلـفـ النـظـرـ باـقـةـ منـ سـبـعـةـ اوـلـادـ عـرـفـهـمـ بـنـسـهـ فيـ صـورـ وـشـبـهـمـ بـالـزـنـبـقـةـ الـجـلـيـةـ وـالـبـنـسـجـةـ الـبـيـضـاءـ الـعـطـرـةـ وـالـوـرـدةـ وـالـكـرـمـةـ وـالـبـرـاعـمـ وـالـزـعـفـرـانـ ذـيـ الـفـقـاثـ الـذـهـيـةـ وـغـصـنـ الـزـعـترـ وـغـصـنـ الـزـيـتونـ الدـائـمـ الـأـخـضـرـارـ . وقد قـدـمـ اللهـ الحـبـ هـذـهـ الـبـاقـةـ إـلـىـ اـفـرـوـدـيـتـ^٢ . وفيما يلي مقطـعـانـ شـعـرـيـانـ مـاـ يـكـتـبـ عـلـىـ الـقـبـوـرـ منـ نـظـمـ مليـغـ :

جزيرة سور كانت مريبيـةـ وجـلـدـةـ التيـ هيـ آـيـكـيـةـ ولـكـنـهاـ تـقـعـ فيـ سـوـرـيـةـ ولـدـنـيـ . لـهـ اـبـيـتـ منـ يـوـكـاـنـسـ Eucratesـ مليـغـ ، الذيـ سـرـتـ بـجـابـ عـرـائـسـ مـيـنـبـوسـ Menippusـ بـسـاعـةـ

(١) انظر : Greek Anthology, Bk. V, § 115.

(٢) انظر : Greek Anthology, Bk. IV, § 1.

(٣) انظر : Greek Anthology, Bk. XII, § 256.

(٤) شاعـرـ هـبـاهـ مـنـ جـدـرـةـ أـبـضاـ لـمـ اـمـهـ حـوـالـيـ الـلـامـ ٢٨٠ قـ.ـ مـ . وـكـانـ بـالـأـصـلـ عـدـاـمـ اـصـبـجـ بعدـ ذـالـكـ مـنـ مـمـتـنـيـ المـدـرـسـةـ الـكـلـيـةـ (Cynic)ـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ وـعـالـجـ حـلـاتـ الـبـشـرـ وـخـاتـمـ الـفـلـاسـفـةـ مـنـهـ بـلـهـجـةـ تـهـكـمـيـةـ . وـقـدـ اـسـتـمـلـ لـوـكـيـانـ هـبـاهـ بـكـثـرـ . وـدـعـيـ مـيـنـبـوسـ أـبـاـ الـأـدـبـ الـرـخـيـعـ وـيـذـكـرـناـ نـثـرـ الـفـنـ الـذـيـ يـتـجـزـجـزـ إـلـىـ عـقـامـاتـ الـحـرـرـيـ .

آلة الشعر . فإذا كت سوريًا فما هي الفرارة ؟ أهيا الفرير أنا نعلن بلدًا واحدًا هو العالم ؛ وهي « واحد أنت كل البشر » ^١ .

سر يهدوء أهيا الفرير فالرجل المسن يعلم بين المروق الاتفقاء بالله التوم الذي هو نصيبي الجميع .
هذا هو مليغر ابن يوكراتيس الذي قرن آلة الحب الداسمة العذبة وآلة الشعر مع العرائس . لله
ريته صور التي ولتها السماء وتراب جدرة الملائكة حتى بلغ أشده ورعت كوس المفروبة من الميلوبس
شيغوفخته . فإذا كت سوريًا فلتقول لك سلام ! وإذا كت فينيقيا فلتقول لك نايديوس Naidius ^٢ !
وإذا كت يونانيًا فلتقول لك Chaire ! (أي السلام) وقل أنت نفس التول ^٣ .

١) انظر : *Greek Anthology*, Bk. VII, § 417.

٢) تبدو هذه الكلمة اليونيكية لمعنى «السلام» بأنها صيغة المضارع الشخص الأول في حالة الجمع من
yādbāh ومعناها تقديم الشكر وملئ نهاية يونانية .

٣) انظر : *Greek Anthology*, Bk. VII, § 419.

الفصل التاسع عشر النظم السلوقية

الملوكية

كانت النظم السياسية للدولة السلوقية مزيجاً غريباً من عناصر يونانية - مكدونية وعناصر سورية - فارسية وقد سادت هذه الأخيرة فيها. فعلى رأس الدولة كان يقوم الملك بسلطة مطلقة وكان في الحقيقة هو الدولة واليه ترجع السلطات كلها. وكان يعين الموظفين ويسرحهم حسب مشيئته. وكان حكمه فردياً ملكياً ينكر على حق الفتح والوراثة. وكانت تحيط به هالة مقدسة ورثها عن الاسكندر والملوك الشرقيين. وقد اعلن الاصل الاهلي لمؤسس السلالة في مطلع حكمه بواسطة نبوة قبلت بوجه عام. ثم اصبح جزءاً من اللقب الملكي في عهد خلفائه. وانخذ السكان الاصليون من غير اليونان موقعاً يحسن وصفه بالاذعان السليبي.

كان شكل القصر بما يعرض فيه من مرمر وذهب وبما يظهر فيه من حجاب وخصيان شرقياً اكثراً منه غريباً. وكان الملك يضع على رأسه في المناسبات الرسمية تاجاً كرمز للملوكية. وikan التاج كا يظهر على النقود عبارة عن شريط ذهبي ضيق. وانخذ الخاتم ايضاً شعاراً للملوكية^١. واستعمل سلوقيون مرساة منقوشة كخاتم له لأسباب لا تعالى غامضه^٢. وتظهر هذه المرساة ايضاً على النقود والاواني السلوقية. اما اللباس الملكي فقد ظل الرداء الوطني القديم المستعمل في مكدونيا ولكنه زيد في بهاته وصنع من الارجوان. وكان الثوب القرمي يقترب بالملوكية ومنصب الكاهن الاعظم^٣.

١) انظر سفر البكريين الاول ٦:١٥.

٢) انظر : Appian, §. 56.

٣) انظر سفر البكريين الاول ١١:٢٠؛ ١١:٥٨.

غابت الولائم الملكية باليهودة وبرزت فيها الصنون الذهبية والفضية والخمور المعتقة والآلات ذات الأوتار وروائح المر وغيرها من العطور الشرقية. وقد ترك لنا بوسيدونيوس^١ صوراً خاطفة عن الحفلات الزاهية التي أقيمت عبنة الألعاب في دفنة من قبل أنطيوخس السابع سيدنيس^٢ (١٣٧ - ١٢٨ ق.م.). ويقال إن المضييف الملكي سمح لكل مترىء في الحفل أن يحمل إلى بيته من لحم الحيوانات البرية والبحرية ما يكفي لاملاه عربة بالإضافة إلى كميات الحلوى المعرولة بالعسل وأكاليل المر والبخور ومشبكات الذهب «التي يبلغ طولها طول الرجل». وكانت من عادة أنطيوخس الثامن غريبوس (المعروف الأنف ١٢٥ - ٩٦ ق.م.) أن يوزع في مثل هذه المناسبات على المدعون أوزاناً حياً وارانب وغزلاناً بالإضافة إلى الأكاليل الذهبية والأواني الفضية والسيد والخيول والجمال. وبعد أن يركب كل رجل جمله يشرب تخماً ويقبل الجمل بما عليه واحاديم الملحق به. وكانت التسلية الرئيسية بالإضافة إلى الولائم تتضمن الصيد والقوروبة.

الباط

كانت الحاشية تجتمع حول الملك، وبما لا شك فيه ان لغة الباط كانت اليونانية. ويستبعد ان يكون الملك السلوق قد عرف لغة اي من مواطنيه الأصليين. وكان يذهب عدد كبير من الامراء الملكيين وهم صغار الى اثنين او رومة لتنبي العلم. وكانت أعلى وظيفة في الباط هي وظيفة «وزير التضاييف» وهي استمرار لمنصب الوزير عند الفرس. وكانت سلسلة الوظائف تضم رئيس الديوان الملكي ووزير المالية والكاتب المالي وقائد الحرس والطبيب الرئيسي. وكان الموظفون في المقاطعات هم الولاة او المراذبة وحكام المقاطعات الصغرى والكتاب ومراقبو الفرائض. وكانت وزارة المالية وزارة مرغوباً فيها بشكل خاص.^٣

ان طبقة النبلاء المقدونيين التي هاجرت من ارض اجدادها وطاعت بطبقة النبلاء الجديدة المتألفة من موظفين توّروا بعطف الملك - لم تكن في وضع يمكنها

(١) انظر : Athenaeus, Bk. XII, ch. 540.

(٢) لقب بهذا نسبة الى بلده Side في بامفليا حيث ثنا.

(٣) راجع : Appian, 5 45.

من تقيد السلطة الامبراطورية . وكانت نساء القصر يتذمرون ويدبرن المكائد للوصول الى السلطة . وكان السلوقيون والبطالمة لها سوى الجيل الاول من خلفاء الاسكندر يتزوجون بامرأة واحدة ولكن كان لديهم محظيات . وقد منح انطيوخس الرابع محظيته سلطة ملكية على طرسوس ومدينة اخرى في كيليكيا مما ادى الى نفقة مسكنها^١ . ومارس افراد الامرتين عادة الزواج بالشقيقات كما فعل الفراعنة وملوك الفرس . وكان لدى افراد الاسرة المالكة وجماعة الموظفين وفرة من العبيد وكان المجتمع الملlestي في كل مكان فقيراً في الآلات غنياً في العبيد^٢ .

الجيش

كان الجيش والاسطول تابعين للملك . وتعتبر السلوقي بنفوذه في شؤون الدولة . واعتبر سلوقي الاول انه من المناسب اخذ موافقة الجيش حين هيأ ذلك الزواج الغريب بين ابنه ووريثه انطيوخس الاول وزوجة ابيه وحين اراد تعينه على بعض المقاطعات^٣ . وقد تألف الجيش في مرحلة الاولى من جميع المكلدونيين واليونان في الملكة وكان وسيلة اساسية يصل بها الرجال الى السلطة . وكان مقر قيادته في اقامية ولكن مسكنكرآ اقيم في انطاكية للعرس الملكي . وكان يتتألف جيش انطيوخس الثالث في معركة رافينا (رفع) سنة ٢١٧ من ٢٠٤٠٠٠ مستوطن اوربي يدعى لهم ١٠٤٠٠٠ من الرجال . اختار بين من قوميات كثيرة و ١٠٤٠٠٠ من العرب وسائر رجال القبائل الاخرى وعدد من المرتزقة بما يرفع العدد الى ٦٢٤٠٠٠ من الم马上 و ٦٠٠٠ من الفرسان^٤ . وكان الفرسان اعلى في المرتبة ويتناقضون اجراؤا أكثر من الم马上 .

كانت الكتيبة نواة الجيش وقد جند افرادها بصورة رئيسية من بين المستوطنين اليونان والمكلدونيين وعددهما لم يكن ثابتاً . وقد بلغ في معركة مغنيزا ١٩٠ ق.م.

١) انظر سفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٠ .

٢) للحصول على تفاصيل اكثراً عن البلاط وجاته ارجو ان : E. Bikerman, *Institutions selenoides* (Paris, 1938), pp. 31-50.

٣) انظر : Appian, § 61.

٤) Polybius, Bk. V, ch. 79.

ستة عشر ألفاً. وكانت الكتيبة مسلحة بالسيوف والرماح الضخمة التي بلغ طولها واحداً وعشرين قدماً تحيطها الحوذ والتross . وكان السلاح الوطني لليونان والمقدونيين الرمح وليس السيف وبقي كذلك . وكان يتألف رماة الفدائن من النبلاء وأصحاب المقاليع وقادفي الرماح وكلهم من غير الملينيين . ومدفعية الملك الملاستين التي كانت تضم المجنحبيق فتحت فصلاً جديداً في تاريخ قتون الحصار وادت الى تحسن مقابل في فن تجمين المدن . وفي معركة رافينا عام الفان من النبلاء وأصحاب المقاليع من الفرس والاكراد . اما في معركة مغنيزيا فاشتركت فرقه تتتألف من حوالي الف فارس ميدي وفرقه ملكية من الف خيال اغلبهم من السوريين . وسار الرماة العرب لهم يركبون الجمال إمام الفرسان وحلوا سيفاً رشيقه طولها اربعة اذرع لكنه يتمسكوا من الوصول الى العدو من على كبير كهذا^٢ .

الفيلة لأجل الحرب

عرف استخدام الجمل والخيتان في الحروب في آسيا الغربية لعدة قرون ولكن الفيل كان ظاهرة جديدة في الجيش السلوقي وأصبح هذا الحيوان شعاراً سلوقياً كما تبينا قطع النقود . ويبعدو ان المنود كانوا يقومون بالتدريب في مركز الفيلة في أقامية . واستعمل الملك البطالة فيلة من افريقيا . وفي عام ٢٧٣ ق.م. ارسل حاكم بسكرية عشرين فيسلاً الى انطليوخس الثالث الذي استغدلاه ضد مصر^٣ . وتقابلت الفيلة الهندية والافريقية في ساحة المعركة في مغنيزيا ورافينا وانتصرت الهندية التي كانت تتفوق بعدها على الافريقية في المعركتين بما لا يكمننا تبرير الاستنتاج بأنها كانت اقوى^٤ . واستخدم انطليوخس في رافينا ١٠٢ من الفيلة^٥ . كما ان سلوقيون الاول استخدموا في معركة ايسوس Ipsus (٣٠١ ق.م.) ٤٨٠ منها

١) انظر : Appian, § 32.

٢) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 40; cf. Appian, § 32.

٣) انظر : Sidney Smith, p. 156.

٤) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 39, § 13; Polybius, Bk. V, ch. 84.

٥) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 79.

وكان إلى حد كبير سبب نصره الذي أكسبه مقاطعة آسيا. وبلغ مجموع الفيلة التي كانت في المركز السلوقي حوالي ٥٠٠ فيل.^١

وفي ترتيب المعركة كان يركب سائق هندي على رقبة الفيل الذي يحمل برجا خشبياً يجلس فيه اربعة مقاتلين.^٢ ولا بد أن منظر هذه الحيوانات المخربة كان يوحى بالرهبة إلى حد جعل اليهودي الذي روى أعمالها في أحدي معارك المكابين ان يرى ظهورها مقطعاً بالأبراج وفي كل منها اثنان وتلاثون من الرجال الأشداء.^٣ ويقول نفس الرواية ان الحيوانات كانت تستثار للقتال بعرض «دم الغب والتوت» عليها.^٤

كان يقود فصيلة الفيلة في ساحة المعركة ضابط خاص.^٥ ولم تستعمل الحيوانات لتعارب حيوانات الاعداء كما في رافيا بل تكون أيضاً بثابة حاجز ضد الحياة كما في اييسوس. ويبدو ان هذا هو الفرض الرئيسي الذي كان يستخدم السلوقيون تلك الحيوانات لاجله. وقد استعملوها ايضاً لاقتحام موقع حصن. ويعتبر الفيل من هذه الوجهة دبابة العصر القديم.^٦ وكانت تعتبر الفيلة في هجومها على المشاة اعداء بحالة المفزع التي تواجهها لأول مرة ويزول تأثيرها أمام المشاة المجريين.

وعندما علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربية في سوريا أرسلوا في عام ١٦٣ ق. م. بعثة للقضاء عليها. وأثار القضاء على هذه الحيوانات الداجنة والنادرة احد مواطنى اللاذقة بحيث طعن رئيس البعثة طعنة بحية حين كان يتنيب في الجنائز بم تلك المدينة.^٧ وبعد ذلك بوقت قصير استحوذ شخص سلوقي على فيلة احد البطالمة ولكن احد منافسيه جرده منها. وهذا آخر ما نسمع عنها.

١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

٢) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 40.

٣) انظر سفر المكابين الأول ٦:٣٧.

٤) انظر سفر المكابين الأول ٦:٣٤.

٥) انظر : Appian, § 33.

٦) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Military and Naval Developments* (Cambridge, 1930), p. 95.

٧) انظر : Appian, § 46.

وتعتبر السُّنُون التي انقضت بين وفاة الاسكندر وذلك الحادث الفترة الوحيدة في التاريخ التي لعب فيها هذا الحيوان دوراً هاماً في الحروب الفربية.

الاسطول

كلفت نفس البعثة الرومانية التي قضت على فيلة الحرب بهمة احرق الاسطول السلوقى الذي كان قد زاد عن العدد الذي يسمح به لانطيوخس الثالث بوجوب معايدة الصلح. ومع ان الاسطول لم يتم بأي دور حاسم في اية معركة ذكرتها المدونات التاريخية فإنه كانت له غالباً قيمة كافية في الحرب لأن تستدعي ادخال مادة في المعايدة تجيد عدد وحداته وتعين مجال نشاطه في المياه الآسيوية فقط. ويبدو ان قسماً صغيراً منه كان يرابط في الخليج الفارسي^١. وكانت مهمة الاسطول بوجه عام ان يتعاون مع الجيش المارد وان يحمي التقلبات العسكرية. وبما لا شك فيه ان اكثراً بمحارته كانوا من الفينيقيين.

كانت وحدة الاسطول هي السفينة ذات الصنوف الخمسة التي حلّت في هذا الزمن محل السفن ذات الصنوف الثلاثة الاقل قوة ويرجع انها اخترعت في فينيقية او قبرص قبل زمن الاسكندر بقليل^٢. وكانت السفن ذات الصنوف الخمسة تجذب بصف واحد من المحاديف ويعمل خمسة رجال في كل مجذاف. ويتدفق ظهر السفينة فوق رؤوس الجنود. وتتحمل السفينة فرق الجنود الذين كانوا يبحرون في القرن الثاني ق. م. بابراج خشبية خفيفة متصلة فوق ظهر السفينة. ويمكن استعمال السفينة نفسها للانتهاض على السفن الاخرى وهو اسلوب مجرّي يرعى فيه الفينيقيون.

ادارة المقاطعات

ظهرت وحدة الامبراطورية السلوقية في تجانس تنظيمها العسكري وفي نظام ادارة المقاطعات الذي ورثت قسمه الاكبر من الفرس. ولا نعلم الشيء الكثير عن ادارة المقاطعات المحلية ولكن يبدو ان الجهاز الحكومي القديم كان باقياً.

١) انظر : Polybius, Bk. XIII, ch. 9 § 5.

٢) انظر : Tarn, P. 132.

واحتفظت الوحدة الادارية باسمها الفارسي وهو المربازانة . وقد ادعى ابيان^١ انه كان يوجد اثنان وسبعون مربازانة في الامبراطورية في عهد سلوقيس الاول ولا بد انه مزج بين تقسيمات المربازانات الداخلية والمربازانات ذاتها . ويروي بوسيدونيوس^٢ انه كان في سوريا ثانية مربازانات - اربع في الشمال الكثيف السكان الذي يسمى « Selencis » وأربع في الجنوب الذي يسمى « سوريا الجوفة » . وقد تجمعت الولايات الشمالية حول المدن التالية : انطاكية ، سلوقيا ، اقامية ، اللاذقية . ويظهر ان دمشق ولبنان بالإضافة الى فينيقية شكلت اول مربازانة في سوريا الجنوبية . وشكلت السامرية والجليل مع الساحل المربازانة الثانية . وتتألفت الانتنات الباقيات من شرق الاردن وايدومية . وكانت اليهودية في اكثر عهدها كما رأينا سابقاً دولة كهنوتية تدفع الجزية في ظل السيادة السلوقية .

قسمت المربازانة لاغراض ادارية الى مقاطعات صغيرة أو كلت لشمام ثانوين . ويصعب تحديد ترتيب هذه الاجزاء وربما كانت تتبدل من وقت لآخر . وكانت دار سك النقود الملكية في انطاكية ولكن وجدت دور في المقاطعات في صور وصيدا وارواد وغيرها من المدن المأمة .

المدن

كانت المستعمرات المقدونية - اليونانية منظمة بوجه عام حسب الفكرة المليقية القديمة بشأن الحكم الذائي لدولة المدينة . وقد شكلت المدن المتأثرة بالهيلينية كذلك دول من هذا النوع . وقد وجّب عليها ان تدفع الضرائب وتطيع الاوامر الملكية من وقت لآخر ، ولكن سمح لها بادارة شؤونها الداخلية . وقد سمح للمدّن المرموقة بنوع خاص ان تسيطر حتى على مقاطعات بجاورة . وكان يصوت سكان انطاكية كأعضاء جماعة هيلينية وربما صوتوا ايضاً في مجلس الجيش الامبراطوري . والميزة المعاشرة للمدينة المثلثية هي شوارعها المستقيمة التي تتقاطع في زوايا قائمة فتقسّها الى سี่ بقعات تبدو من نقطة مرتفعة كأنها لوح الشطرنج . اما النموذج العام فهو غورج مدينة يونانية لها ساحة جامدة (آئغورا) في احد الاماكن

١) انظر : Appian, XI, § 62.

٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 4.

المتوسطة وتطلّ عليها المعابد. وبلقت مساحة الآغورا في دورا - اوروبيس ٢٨٠٧٩ يرداً مربعاً. وترواح عرض شوارعها بين ١٨ - ٢٤ قدمًا وبلغ عرض الشارع الرئيسي ٣٦ قدمًا^١. ومن سوء الحظ انه لم تكتمل الحفريات في آية مدينة سلوقيّة حتى الآن كما في دورا - اوروبيس^٢. ومن جهة أخرى كانت المدن الجديدة تختلف في مظهرها كما في سياستها. وبقي العنصر الوطني من السكان فيها يعيش حسب الطريقة التقليدية.

الضرائب

عاش الفلاحون الوطنيون في قرى حافظت على وضعهم وطريقة حياتهم دون اهتمام بغيرات الملوك، وكانت الأرض التي يزرعونها ملكاً للملك او لبعض المالكين على الغالب وكانوا يشرون ويباعون معها. وكان وضعهم وضع رفيق الأرض. وليس هناك من شك في انهم دفعوا ضرائبهم عيناً.

وتتابع السلوقيون عادة جمع العشور التي عرفت منذ اقدم العصور في آسية القرينة وهي عشر محصول الموسم. ويبدو من المصادر المتفرقة ان الضريبة لم تفرض على الفرد بل على الجماعة^٣. وكان يدفع قسم كبير منها عيناً باسم المدينة او السكان او القبيلة من قبل الزعيم او الكاهن الاعظم. وليس لدينا معرفة تامة حول الضرائب المختلفة وكمياتها وطريقة تحصيلها ولكن ليس هناك من شك بان كثيراً من هذه الامور كان يقرره التقليد القديم ويتكيف مع الاحوال الاقتصادية المباشرة.

كان هناك بالإضافة الى الجزية وعائدات الأرض التي كانت مرتفعة جداً في اليهودية ضرائب ملكية تشمل ضريبة الرأس وضريبة الناج^٤ وضريبة الملح. وقد

١) انظر : M. T. Rostovtzeff et al., *The Excavations at Dura-Europos*, vol. ix, (New Haven, 1944), pp. 23,25.

٢) انظر بشأن خطط لنورا : Rostovtzeff, *Caravan Cities*, tr. D. and T. Talbot Rice (Oxford, 1932), p. 154.

٣) انظر سفر المكابين الاول Bk. XIII, ch. 4§9.: ٣٠-٢٩: ١٠

٤) يدل التسجيل على ان اليهود اعتادوا ان يتلقوا للسلوك السوريين تيجاناً من الذهب ثم قلعوا قيمتها بعد ذلك.

اعفى انطيوخس الثالث مدينة اورشليم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك اعفها بقدر الثلث وذلك في الوثيقة التي منحها اليها حوالي عام ٢٠٠ ق.م.^١ وبعد نصف قرن حين كان يوجد مكان سلوقيات متنافسان وهو أمر معتمد في ذلك العصر اظهر كل منها استعداده لتقديم أي ثمن للدعم اليهود له . وقد عرض احدهما وهو ديجتريوس الاول سوتور في عام ١٥٢ ق.م. في رسالة الى يوناثان الكاهن الاعظم — على اليهود اعفاءهم من الجزء الاكبر من الجزية والضرائب التي كانت تدفع حتى ذلك الحين ومثلها ضريبة الرأس والضريبة على الملح وثمن التبغان بالإضافة الى ثلث محصول الحقول ونصف اثار الاشجار التي كانت تذهب عادة الى الملك . كما انه عرض اعفاء اورشليم من ضريبة العشر الاعتيادية^٢ . ويفهم من ضريبة الملح التي يذكرها كل من انطيوخس وديجتريوس بان مقاييس الملح كانت تعتبر من املاك العرش . ومن المرجح ايضاً ان المناجم والمقاييس الحجرية والغابات ومصائد السمك يملكونها ويدبرها الملك . وينقول انطيوخس اليهود في وثيقته حتى استيراد الاخشاب من لبنان معفاة من الضرائب لاعادة بناء معبدهم وسائر الابنية^٣ .

١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 3, § 3.

٢) انظر سفر المكابيين الاول Bk. XIII, ch. 2, § 3 : ٤٣٠—٤٩٥:١٠

٣) الحصول على معلومات اولى عن هذا الموضوع راجع : Bikerman, pp. 106-132, Ros- tovitzoff, *Social and Economic History*, pp. 440 seq.

الفصل العشرون

التجارة والصناعة

كانت سوريا العمود الفقري للأمبراطورية السلوقية وانطاكية رأسها السياسي وسلوقي عاصمتها التجارية وأقامية مقرها الحري وسلوقيات على الدجلة عاصمة جناحها الشرقي وساردس عاصمة جناحها الغربي . وكانربط هذه الاقسام المختلفة من الامبراطورية والراكن التجاريه والسياسية المختلفة بطرق مناسبة وآمنة يشكل الاهتمام الرئيسي للملوك السلوقيين الاولين . وكانوا حين يبنون مستعمرة جديدة يهتمون بربطها بالطرق الرئيسية الموجودة والطرق المحلية التي اضاف اليها ملوك سوريا ومصر الملسيون طرقاً جديدة . وكان من شأن التسهيلات الجديدة في المواصلات وتفتح العالم الملسي حتى في عهد تجذبته بشيء من الوحدة والتناسق في الثقافة العامة ، بما في ذلك اللغة المشتركة والتعدد الموحدة ، ان اعطت التجارة حافزاً خاصاً . وقد رافق حركة بناء المدن ذاتها ظهور نشاط تجاري اقتصادي يومناً ينبع عنه توافق التجار ورجال الاعمال والصناع .

السياسة السلوقي

كانت تجارة سوريا في المستوى الداخلي والخارجي ذات أهمية كبيرة بالنسبة للملكة وسلكتها . ويبعد أن السياسة السلوقي كانت تهدف أولاً إلى ان تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والمندن واواسط آسيا للاستهلاك المحلي والمرور وثانياً الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع العرب وخاصة العالم اليوناني - الروماني . وكانت مصر منافة لسوريا في تطلعها الى تجارة الترانزيت . وهكذا كان للصراع الحري المستمر بين السلوقيين والبطاللة اسس اقتصادية وسياسية .

المندن

وي يكن لمنتجات المندن ان تأتي عن طريق البحر الى مستودعات في اليمن

(العربية السعيدة) تصبح هناك جزءاً من تجارة الجزيرة العربية^١ ومن ثم تنتقل بواسطة القوافل إلى البتراء وبلاد البطالم أو يمكنها الاتجاه عن طريق البحر على طول الساحل الفري لخليج الفارسي فتمر بالعيير Gerrha وتصعد المراجلة إلى سلوقيه. وهذه البثائج المتجمعه بعد أن تنضم إليها في سلوقيه المواد التي تحملها القوافل البرية كانت تتجه غرباً فتصعد القرات مارة بدوراً - أوروبس (الصالحية) إلى انطاكية أو تتبع الطريق القديمة شرقى دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمرو وتسير غرباً إلى نصين ومنها إلى ادیس اثى إلى انطاكية أو دمشق . وقد جعل هذا من سلوقيه على الدجلة مركزاً لتوزيع البثائج بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلافاً لبغداد في العصور الوسطى . وقد بقىت هذه الطريق التجارية الشرقية التي تمر بسلوقيه على الدجلة مطروقة خلال القرن الثالث ق. م. ولكن في الفترة المضطربة في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول أصبحت الطريق الصحراوية المارة بتندس أكثر ملاءمة وخاصة لأن القبائل التدميرية كانت آثذن في وضع يمكنها من خيانة الأمان والمياه الازمة . وقد بقى هذا الاختصار في الطريق الذي يمر بعدينة الواحة التدمرية مستعملاً بكثرة لمدة نحو أربعة قرون^٢ .

كان بأمكان القوافل المنطلقة من مصر أو البتراء أو الساحل الفلسطيني انت تبيع الطريق الساحلية حتى تصل إلى الاد Zinc و من هناك تصل بسلوقيه وانطاكية او يمكنها ان تتعطف من بجدو او صور الى دمشق متبعه الطريق الاولى القديمة الكبرى . أما القوافل المنطلقة من اروداد او ماراتوس فيمكنها هي ايضاً ان تتبع الطريق الساحلية شمالاً او تستدير شرقاً باتجاه حمص وافاميا . وكانت سلوقيه او جارتها انطاكية الواقعة على نهر العاصي الصالح للملاحة آنذاك نقطة الالتقاء في سوريا لجميع هذه القوافل .

وكان السلوقيون ابان ذرعة حكمهم اسياداً غير منازعين ايضاً لطريق الحرير التي تفترق المضبة الإيرانية وآسية الوسطى حتى منغوليا البعيدة بقدر ما كانت

١) التوسع في تجارة الجزيرة العربية الجنوبيّة راجع : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 44-48.

٢) راجع ما سندكره في الفصل ٢٩ بشأن تصره .

تستخدم في تلك الأيام. وكان قسم كبير من تلك الطريق يمر في الممتلكات السلوقية. والتقت منتجات الشرق الأقصى بمنتجات الهند وغربي الجزيرة العربية في بلاد الرافدين وانتقلت غرباً أما بطريق نصيبين والرها او بطريق دورا - اوروبس.

دورا - اوروبس (الصالحية)

كانت تجمي الطرق الرئيسية في عهد السلوقيين سلسلة من المستعمرات القوية المزدهرة التي كانت تستخدم في الوقت ذاته كاماً كمناسبة للراحلة لرجال القوافل ويراحل بهم. وكانت دورا - اوروبس احدى هذه المستعمرات^١. وقد استحوالي العام ٣٠٠ ق. م. من قبل سلوقي الأول على الطريق الصحراوي في موضع متوسط بين عاصتي سوريا وبلاد الرافدين وسرعان ما تطورت من حصن قوي إلى سوق تجارية هامة. وكانت تقع في مكان يتصرف بمنعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويحيط بها واديان سحيقان. وبلقت المدينة ذروتها كمركز للقوافل في عهد الفرتين. واستخدماها الرومان كمعقل على حدود الإمبراطورية من جهة الفرات. وقد احتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦ م. بوقت قصير ودموها وأصبحت بعد ذلك جزءاً من الصحراء. ولم يعرف العلماء خرائطها التي تدعى اليوم الصالحة إلى أن غير ضابط انكليزي في ١٩٢٠ على بعض الألواح المزخرفة المهمة حين كانت مشغلاً في حفر الخنادق^٢. وقد اتضحت أهمية خرائب دورا حتى أنها دعيت «يومي الشرق».

جرها (المغير)

كانت جرها Gerrha اهم مركز تجاري على الخليج الفارسي^٣. وكانت تسيطر هذه المدينة العزيزة تقريباً على الساحل الغربي للخليج الفارسي وعلى طرق القوافل

١) تبني كلمة دورو Dūru الاكادية دائرة او جداراً (قارن مع دائيا ١:٣) وقد انيت «اوروبس Europos» تخيلاً لذكرى مكان ولادة سلوقي الأول في مكلدونيا.

٢) انظر : Rostovtzeff, *Caravan Cities*, p. 153.

٣) يرجح أنها المغير اليوم ويلقطها البدو فيجير.

الكبرى في ذلك الجزء من الجزيرة العربية. وكان يتجه أحد هذه الطرق جنوباً ويصل العقير باليمن بينما توجه الطرق الأخرى في قلب الصحراء إلى تهاء ومنها إلى البتراء. وكان الاتصال البحري الرئيسي بين المند والمأبراطورية السلوقية يتم أيضاً بواسطة العقير. ومعلوماتنا القليلة عن هذا المركز التجاري وبخاره تأتينا كلها من المصادر الكلاسيكية^١. ولكنه يصعب تفسير ملاحظة بليني^٢ بأن ابراج المدينة كانت مبنية من موبيات من الملح. وليس من دليل في هذه المصادر بأن أهل العقير قد خضعوا للسلوقيين في أي زمن. وقد توقف انتطيوخس الثالث في العقير وهو في طريق عودته من حملته في الشرق وأكرمه أهلها بتقديم هدية تتالف من ٥٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠٠ وزنة من اللبان و ٢٠٠ وزنة من زيت المر أو القرفة^٣.

يبدو أن السلوقيين كانوا يتزودون بمحاجاتهم الرئيسية من بضائع الجزيرة العربية بواسطة أهل العقير وخاصة حين كانت سوريا الجنوبية جزءاً من دولة البطالمة. وكانت تتألف هذه البضائع من المر واللبان وغيرهما من المواد العطرية. وكانت طلب اللبان كبيراً في الامبراطورية السلوقية لأن آية عبادة يونانية كانت أو يهودية أو غيرها من العبادات السامية لا تكتمل إلا به. وكان يحرق على كل مذبح في العالم الملنستي كما كان شأنه في العالم المسيحي بعد ذلك. وكانت القرفة أيضاً من محاصيل البلاد الحارة التي لها تقدير كبير وهي في الحقيقة من منتجات المند ولكن اليونان ظنواها من الجزيرة العربية. وكانت كمية لا يأس بها من البضائع المندية التي تنتقل إلى الأراضي السلوقية ثم بأيدي أهل العقير.

التجارة مع الغرب

كانت بضائع الجزيرة العربية والمند وأواسط آسيا المشحونة إلى سوريا يستهلك جزء منها محلياً ويعاد تصدير الجزء الآخر إلى الغرب. وكانت تتبع التجارة السلوقية مع الغرب الطرق البرية والبحرية. وقد ساهمت مساهمة غير قليلة في ازدهار سوريا. وكانت هذه التجارة تتألف من منتجات سورية الزراعية

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 3; Diodorus, Bk. III, ch. 42.

(٢) انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 32.

(٣) انظر : Polybius, Bk. XIII, ch. 9.

والصناعية بالإضافة إلى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة في شرقها. وكانت تجارة الرقيق من المناصر المأمة في التجارة السورية. وقد نشطت هذه التجارة كثيراً في هذه الفترة بين الدول الملاطية ودمشق والبلاد المجاورة وكان السلوقيون أكثر اهتماماً بها من البطالة. وقد زودت العرب سوق الرقيق بالأسرى كما زودته القرصنة بضحايا الاختطاف. وقد حصل تفاقم الرقيق بصورة مستمرة نحو المدن اليونانية في الغرب آتياً إليها من سوريا والبلاد المجاورة وذلك خلال القرنين الثالث والثاني. وكان الأقبال على الرقيق عظيماً يشهي على الأقل الأقبال على الخدم في عصرنا الحديث. وبالإضافة إلى ذلك فإن عمال المناجم وعمليات البناء والاسفلات العامة كانوا تقريباً كلام من العبيد. وكانت المعابد أيضاً غلوك وتتجذر في هذه البضاعة البشرية.

مستعمرات فينية جديدة

كانت رودس الدولة التجارية الرئيسية على الطريق البحري لفترة من الزمن. أما ديلوس وهي جزيرة أخرى ومقر معبد كيريو أقيم على شرف أبولون وكان من أكثر المنشآت الدينية شهرة في العالم القديم فقد بُرِزَت بعد سقوط كورنثوس في سنة ١٤٦ ق. م. كمركز لتجارة الترانزيت الواسعة. وكان لبيروت علاقات تجارية خاصة مع هذه الجزيرة الائمية. وبعد أن هدم تريفون Tryphon — وهو مطالب بالعرش السلوقي — مدينة بيروت في سنة ١٤٠ ق. م. استرجعت هذه قوتها كما ترينا القودا^١. وقعت بمحبوبية كافية لتأسيس مستعمرة في هذه الجزيرة الائمية. وقد كرست المستعمرة لبوسيدون وهو الإله الحامي لبيروت. وكان لها معبد ذو ملاحق وأروقة معمدة لعرض الحرف الفينيقي. وأحتل البيروتيون في النشاط التجاري والاجتماعي والديني في ديلوس مركزاً لا ينفوقهم فيه سوى الإيطاليين.

ونتسب عن تشجيع النشاط التجاري والاستعماري للمدن الفينيقية في عهد السلوقيين والبطاللة تأسيس غير مستعمرة واحدة. وقد اتفق التجار الفينيقيون طريق الاسكندر المحفوف بالمخاطر عبر جندروزيا Gedrozia البعيدة، والصياداوين

(١) انظر : Catalogue of Greek Coins of Phoenicia, p. liii ; cf. Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 19.

في شكلين الذين استأذنوا أثناء الثورة المكابية لتحويل المعبد السامری على جبل جوزيم الى معبد لجوبیتر يوجع انهم من الفینیقین المتأثرين بالملنینة^١. وكان لصیدا مستعمرة اخري هي ماریسا Marisa^٢ في اقصى الجنوب في ایدومیة . وكانت ماریسا بلاداً تجاريّاً مزدهراً في عصر البطالة وهي من تلك المدن الایدومیة التي فضل ذكرها الحثّان على النفي في عهد يوحنا هيرکانوس .

يبدو ان دور اليهود في هذه النهضة التجاریة في سوريا في عهد السلوقيين لم يكن ایورز من الدور الذي لعبوه في اية فترة سابقة . ويبدو مؤرخهم والناطق باسمهم يوسيفوس (حوالي ٣٧ - ١٠٠ م.م) عن ذلك بقوله : «خُنَّ لَا نَسْكُن بِلَادًا سَاحِلِيَّةً وَلَا نَسَرَ بِالْتَّجَارَةِ وَلَا فِي التَّعَامِلِ مَعَ الْآخَرِينَ الَّذِي يَنْتَجُ عَنْهَا»^٣ .

المتغيرات الزراعية

اصبحت سوريا في العصر الملنستي الاخير بلداً هاماً في الزراعة والبستانة . وقد بدأ التقدم في هذه الامر في عهد البطالة في سوريا الجوفة وفينيقية وفلسطين . وقد ازداد الانتاج القديم من الحبوب (الشعير والقمح) والتبغ وغيره من النثار والثمر والخضروات بواسطة تحسين الاساليب وبدافع الطلبات المتزايدة . وظهرت الآن سوق واسعة للدهون التي كانت تصنّع من الازهار المحلية . وادى التعامل الناشط مع البلاد الاجنبية المجاورة الى تبادل المتغيرات الزراعية وادخال نباتات جديدة .

ويعتقد ان الفاصوليا والعدس والخردل والقرع وغيرها من النباتات المصرية التمودجية قد ادخلت الى سوريا الجنوبيّة في عهد البطالة^٤ . ويبدو ايضاً ان شجرة

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, § 5.

(٢) لم مناما «مكان مرتفع» وهي مريسة الواردة في سفر يشوع ١٥:٤٤؛ قارن مع اخبار الایام الثاني ١١:٨، ١٤:٩، ١٥:١٠. تعرف بمكان تل سندحنه Tell Sandahannah، على بعد ميل جنوبي بيت جبرين .

(٣) انظر : *Antiquities*, Bk. I, ch. 12.

(٤) انظر : F. M. Heichelheim, « Roman Syria », *An Economic Survey of Ancient Rome*, ed. Tenney Frank vol. iv, (Baltimore, 1938), p. 130; Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 1165.

القصق وهي فاوسيّة الاصل كما يشير اسمها^١ قد ادخلت الى سوريا في هذه الفترة. ثم انتقل هذا النبات ومعه اسمه من هذه البلاد الى اللغات اليونانية واللاتينية والابيطالية. وما يدعى الى الاستغراب ان الطريق التي اتبعتها الاشجار الفارسية الاصحى مثل الشيش والخوخ والكرز كانت عكس الطريق السابقة اذ انها تظهر في ايطاليا قبل الشرق الملنستي. ولا تذكر المصادر شيئاً في المصور الملنستي عن البرتقال والليمون وهم من اصل فارسي ايضاً، ولا عن الموز (والكلمة مأخوذة من الفارسية) وهو من اصل هندي ماليزي. ومع ان القطن قد عرف منذ اقسام الازمان في مصر والمند وادخل الى بلاد آشور حوالي ٧٠٠ ق.م. فإنه لم يزدع في سوريا السلوقيّة على مقاييس كبير بل كان بالاحرى من الاشياء الطريفة. وكانوا يستجعون الحرير المحلي من دود الحرير البري في غرب آسيا ولكن الحرير الصيني الحقيقي استورد بعد سنة ١١٥ ق.م. واستورد السكر والارز من الهند. ويشير بليني^٢ اشارة عابرة الى محاولة فاشلة قام بها سلوقيون (الاول؟) لنوطين حب المال الهندي *amomum*^٣ والناردين «تلك العطور الناعمة». ويتكلّم بليني في نفس المناسبة عن شجيرة القرفة بانها ليست لها قوّة كافية لأن تستوطن بيجوار سوريا.

الصناعة

اصبحت صناعة الخمر والزيت في عهد البطالمة أكثر نشاطاً. وكان هذان المخصوصان بالإضافة الى الزيتون والحبز والسبك يشكلان جزءاً أساسياً من غذاء السكان. ولم تكن صناعة الاخشاب في الزمن الملنستي اقل ازدهاراً منها في اليم الفرعونية. وكانت مصر الحالية من الاشجار تعتمد على ارز لبنان الذي كان تابعاً للملك وعلى بلوط باشان. وكان استهثار غابات سوريا ولبنان من امتيازات الملك

(١) هي *pistah* بالفارسية وتعني الجوزة.

(٢) انظر : Pliny, Bk. XVI, ch. 59.

(٣) ان اسم هذه الشجيرة ذات الرائحة الذكية التي استحضر منها اليونان والرومان بلساناً ثيناً حسن الرائحة هو من اصل هندي وقد اتى بطريق اللغة العربية الجنوبية. ويطلق الاسم اليوم على حب المال والزنجبيل.

في عهد السلوقيين كما كان الأمر في عهد الفرس والأشوريين والفينيقيين^١. وكان بحر الجليل يقدم الشجيرات الذكية الراة^٢ وكانت اریحا تختكر تجارة البلسم^٣.

حافظت صناعة المنسوجات التي ترجع إلى أيام الفينيقيين وما قبل ذلك على تفوقها واستمر أصحاب المصانع السوريون يستخدمون نفس البراعة والأساليب الفنية ولكنهم نوعوا النماذج الفنية لتفق مع اذواق مختلف الزبائن . وكانت صناعة الصوف السورية واسعة بشكل خاص . وبقي الطلب كبيراً على الأقمشة الارجوانية اللون وكانت الأقمشة الصوفية المستوردة إلى منغوليا في أوائل العصر المسيحي تشير إلى تقاليد سورية هلنستية^٤ .

حافظت سورية على شهرتها القديمة في صناعة الخزف والزجاج وما من اختصاص الشرق الادنى منذ ابعد العصور . وسرعان ما قلد السوريون الخزف اليوناني الذي غير سوق الشرق الادنى اثر فتوحات الاسكندر وصنعواه في بلادهم . وكان الخزف الشائع بصورة خاصة في البدء هو الخزف الاسود ذو البريق المعدني ثم حل مكانه بعد ذلك نوع من الخزف الاحمر ذو بريق معدني جميل وقد ادخل في القرن الثاني . وتناثر قطع من الجرار الممهورة من صنع اتيكا وروادس في طول البلاد وعرضها . وكان زجاج صيدا وصور غالى الثمن ومرغوباً فيه جداً . واستمرت هاتان المدينتان تزودان العالم باحسن الزجاج حتى الفترة الرومانية^٥ . وكان يوجد دمل بممتاز لصناعة الزجاج بالقرب من صيدا . وقد صنعت هاتان المدينتان وغيرها من المدن الفينيقية أوافي من الزجاج المصوب وصدرتها قبل ان تختبر الزجاج بطريق التفخ . ولا بد ان هذا الاختراع الذي يعتبر فاتحة عهد جديد قد حصل في آواخر القرن الاول ق. م.^٦ .

(١) كان الملوك في عهد الرومان ومن المحتل في عهد الفينيقيين يختكرون شبر السرو والصنوبر والشوح والسرعم .

(٢) اظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 16 ; Polybius, Bk. V, ch. 45, § 10.

(٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 4, § 2; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 41.

(٤) انظر : Rostovtzeff, p. 1223.

(٥) راجع : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 25 ; Pliny, Bk. V, ch. 17.

(٦) انظر : Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 689.

يحل الرق *Parchment* وملفات البابيروس (ورق البردي) محل الالواح الطينية كإداة الكتابة في العصر الملطي. واحتكرت برغامن الرق منذ القرن الثاني وكلمة الرق نفسها معناها بالافريقيا ما يخص برغامن. وقد زودت الاسكندرية العالم بالبابيروس . وادخلت هذه المادة من مصر الى سوريا وفلسطين وهناك اشارات متفرقة الى غو البابيروس فيها^١. ويرجح ان طريقة صنع البابيروس تتضمن تزع قشرة النبات ثم قطع الساق طولاً الى قطع مستطيلة وقيقة وتوضع بماء ماء مودية على لوح خشبي ثم توضع فرقها بشكل متقطع بمجموعة اخرى من القطع المستطيلة وتترقب كلها بعد ذلك بالماء وربما تضاف اليها مادة غروية وتحف في الشبس. ويمكن استعمال الصفحات مفردة او تلصق لتشكل ملفات^٢. ومن فنيقية ادخلت هذه المادة الى اليونان حيث شاع استعمالها في القرن السادس .

خطا فن صناعة المعدن خطوات كبيرة الى الامام في هذا العصر . وكانت انطليوخس ايفانس غالباً ما يتبرأ من حاشيته ليزور اماكن مائني الفضة والذهب ولি�تحدث في الامور الفنية مع السباقين وغيرهم من الصناع^٣. وكانت تأتي الفضة وكذلك الذهب من بلاد العرب النبطية كما ان الفضة كانت تأتي من جبال طوروس . وكان يأتي الحديد من جبال طوروس ومن جنوب فلسطين وخاصة ايدومية ومن لبنان في المنطقة المجاورة لبيروت^٤. وبما لا شك فيه ان هذا المعدن كان لاغراض اقتصادية اغلى المعادن قيمة . ويمكن ان يكون البطالة قد استثروا ايضاً التحاس والاحذيد ومناجم اخرى في سلسلة لبنان . واستمر الاستئثار حتى زمن الرومان^٥. واصبح المؤلّف الذي كان يجهولاً في الغرب قبل عهد الاسكندر ذات قيمة كبرى لاجل الزيمة .

(١) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 22.

(٢) ان الكلمة السامية القديمة لرق قد بقيت في كلمة «جعة» الربية التي تستعمل اليوم للجلات . وترجم كلمة «Papyrus» ومنها اشتقت كلمة «Paper» الى كلمة مصرية تتعلق بفرعون «Pharaoh» ويسعى ان الفراعنة احتكروا هذه البضاعة .

(٣) انظر : Polybius, Bk. XXVI, ch. 1.

(٤) قارن بذلك مع ما سبق في س ٣٦ .

(٥) راجع : Heichelheim, pp. 156-157.

النقد

شجع ضرب النقود في جميع الملك الملتوية كعامل في تطور التجارة . وحل النقد بالتدريج كواسطة للتعامل مكان المقاييس التي كانت الاسلوب المتعارف عليه طويلاً . واتت مع النقود الاوزان الملكية الصادرة في انتهاكية وسلوقيه . وسمح ب المختلف الاوزان والمقاييس في المقاطعات المختلفة وحتى في المدن ضمن نفس الملكة .

مظاهر الترف

عمقت سوريه السلوقية بفترة ازدهار نسيبي بعد ان ازدادت التجارة واستخدمت فيها النقود والاوزان الرسمية وتحسن الزراعة وتطورت . وقد حفظ التاريخ اخباراً تعطي فكرة عن مقدار الثروات التي جمعها وجها مصر ، من ذلك ان هرميس رئيس وزراء انطليوخس الكبير استطاع حوالي العام ٢٠٠ ق.م. ان يدفع مرتبات الجيش الملكي كله من امواله الخاصة^١ . وهناك مثال آخر عن ديونيسيوس « صديق او مساعد » انطليوخس ابيفانس اذ يروى لنا انه كان لديه في الاحتفال بالألعاب في دفنة الف عبد يسيرون في الموكب ويحملون اواني فضية لا يقل وزن كل منها عن ألف دراخمة . ثم تلام ٦٠٠ وصيف ملكي يحملون اواني ذهبية و ٢٠٠ امرأة ترش الزيوت الطيرية من اباريق ذهبية . وتعقب هؤلاء في الموكب ٨٠ امرأة جالسات في محفات ذات مساند ذهبية و ٥٠٠ امرأة في محفات ذات مساند فضية^٢ . وقد رغب ابيفانس نفسه ان يتغوق على الانتصارات الرومانية فاحتفل بالألعاب دفنة وعرض فيها اواني ذهبية وفضية بشكل يتفوق الوصف . وسار في العرض ٣٠٠٠ كيليك يلبسون تيجاناً ذهبياً و ١٠٤٠٠٠ مكدوبي يحملون تروساً ذهبياً و ٥٠٠٠ يحملون تروساً برونزية و ٥٠٠٥ يحملون تروساً فضية . وكانت اكثريتهم الجنود المواطنين البالغين ٣٠٠٠ يضعون اغطية ذهبية على خدوthem ويلبسون تيجاناً ذهبياً وكان للباقين اغطية فضية على خدوthem^٣ .

١) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 50, § 2.

٢) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 195.

٣) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 194.

السكان

لابد ان مستوى المعيشة كان عالياً جداً في كل البلاد في اوائل القرن الاول اعتناداً على شهادة بوسيدونيوس حيث يقول : «كان جميع سكان سوريا آمنين من اي ضيق يتعلق بضرورات الحياة بسبب الوفرة الكبيرة التي تقدمها بلادهم»^١. وبسبب ارتفاع مستوى المعيشة يحسن بنا ان نفترض زيادة في السكان يعود جزء منها الى اسكان الجاليات في عهد مؤسس السلالة وخلفائه الاولين. واستمر الاتجاه نحو التزايد حتى الفترة الرومانية . ويقول ستراوب^٢ (حوالي ٦٣ ق. م. - حوالي ٢٤ م.) ان انطاكية «لا تقل كثيراً في الفخ والعظمة عن سلوقية على الدجلة والاسكندرية في مصر». ويروى ان سكان سلوقية قد بلغوا ٣٦٠٠،٠٠٠ في زمن بليني اي بعد زمن ستراوب بقليل . وكان سكان الاسكندرية يبلغون نفس المقدار تقرباً في عهد اوغسطس قيصر . وفي العهد الروماني الذي سبق الامبراطورية قدر عدد سكان سوريا بين خمسة وستة ملايين يعيش مليونان منهم في فلسطين^٣.

(١) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch: 210.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 5.

(٣) انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 30.

(٤) انظر : Julius Beloch, *Die Bevolkerung der griechisch-romischen Welt* (Leipzig, 1886), pp. 242 seq.

الفصل العاشر والعشرون

سورية كولاية رومانية، فترة ما قبل الامبراطورية

١٢

ان تقدم الجيوش الرومانية في غرب آسيا الذي بدأ في معركة مغنيزا سنة ١٩٠ ق. م. اخذ يتزايد حتى فتح يومي سوريا سنة ٦٤ ق. م. وكانت سوريا لدى ضمها في حالة من الفوضى اوجدها فيها الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر. وكان زعماء العرب يسيطرؤن على المدن في الشمال. وقد اعتدى الانباط واليهود على الممتلكات الملوكية في الجنوب. واحتل زعماء الصوص كثيراً من المدن الساحلية القينيقية وجعلوا منها قواعد للقرصنة. وساعد لبنان الجليل على تهيئة الاحوال المغرافية الازمة لخاليتهم كما فعلت كيليكية قلعة القرصنة في شرق المتوسط. وبني القرصنة في المتساعات البعيدة الوعرة في كيليكية حصنانا صخرية لاخفاء عائلاتهم وكتوزهم خناناً لسلامتهم ولتكون ملاجئ لهم في اوقات الخطر^١. وما دامت التجارة مع بلاد الرافدين والبلدان الابعد في الشرق اكثراً ربماً فان الاغراء على اهتمام القرصنة والصوصية لم يكن قوياً جداً ولكن الوضع تغير الآن بعد ان سادت الفوضى السلوقي واحتل نظام التجارة في البلاد الواقعه وراء الساحل بسبب فتوحات الارمن والفرترين المتالية. وفي الحقيقة فان احد ملوك السلوقيين ويدعى تريغون (١٤٢ - ١٣٧ ق. م.) وهو عبد في الاصل شبع القرصنة فعلاً في كيليكية واستخدمها كرسيلة لتدعم قبضته على العرش^٢.

كان القرصنة لصوص الطرق البحرية العامة وكانت هذه الطرق في شرق المتوسط واضحة الحدود وكثيرة الاستعمال. وقبل قدوم يومي نظم القرصنة انفسهم في

(١) انظر : Theodor Mommsen, *History of Rome*, tr. William P. Dickson (New York, 1894), vol. iv, pp. 58, 143.

(٢) انظر : Mommsen, vol. iii, p. 87; vol. iv, p. 59.

قوة بحرية دولية ضمت في عملاتها حوض المتوسط الشرقي كله فسببت بذلك نقصاً في المؤن الغذائية الى روما التي كانت تعتمد على التجارة البحرية لتزويد بالحبوب . ومع ان يومي كاييان قد أباد الفراشة من تلك المنطقة كلها قبل خمسة عشر سنة^١ فان بعضهم ظلوا ناشطين هناك حتى في أيام خلفه^٢ .

دخل يومي سنة ٦٤ ق. م. سورية الجغرافية والتقلدية كلها تحت اسم واحد وهو ولاية سورية Provincia Syria . وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية واصبحت عاصمتها انطاكية بينما جعلت كيليكية ولاية قائمة بذاتها . وسمح للملوك العرب بالبقاء على ان تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الأصلية وان يدفعوا جزية سنوية . ومع ذلك احتفظ ملك الاتباع بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال . وابقيت اليهودية دولة خاصة ضمن اطار ولاية سورية^٣ ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية والتي ضمها اليهود الى ممتلكاتهم اعيدت الى وضعها السابق ومنحت حرية داخلية في ظل حكام الولايات . وشكلت عشر من هذه المدن عصبة عرفت بالديكابوليس وقد انضمت اليها مدن اخرى فيما بعد . وجميعها تقع شرق الأردن باستثناء سكينوبوليس Scythopolis (بيسان) . ومنحت انطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات اخرى الحكم الذاتي ايضاً وجعلت تحت حكم الولايات .

نواب القناصل

اعتبرت ولاية سورية ذات أهمية مركبة هامة في الممالك الآسيوية حتى أنها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاسترالك في الحرب^٤ . وعهد بها الى بعض الموظفين الرومان البارزين جداً . وكان اولهم اولوس غابينيوس Aulus Gabinius (٥٧-٥٥ ق. م.) مبعوث يومي الكفو الذي زاد في انacas سلطة المملكة اليهودية بتجريد الكاهن الاعظم هيركانوس الثاني حفيده اريسطوبولس من رتبته الملكية وبفرض خرائب ثقيلة على السكان

(١) انظر : Mommsen, vol. iv, pp. 142-146.

(٢) انظر : Dio (Cassius), *Historia Romana*, Bk. XXXIX, ch. 56.

(٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4, § 4.

(٤) انظر : Appian, § 51.

وتقسيم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كل منها مجلس او سنهدرن *Sanhedrin*. وأعاد غابينيوس بناء عدد من المدن اليونانية - السورية التي كان المكابيون قد هدموها مثل الساصرة وبيسان ودورا وغزة^١.

حل كراسوس مكان غابينيوس وكان عضواً في حكومة الثلاثة التي ضمت ايضاً يومي ويوليوس قيصر. وكانت كراسوس طاغياً شرهاً فجعل من سوريا بعد وصوله مباشرة في ٥٤ ق. م. قاعدة لعملياته الحربية ضد فرتيا التي كانت عاصمتها طسيفون *Ctesiphon* (المدائن) والتي اعتبر غناها بأنه لا ينفي. وبعد اخضاع البوتان وارمينيا على التوالي والحصول على سوريا اتصلت روما مباشرة بفتريا. وفي المرة الثانية التي جردها كراسوس في ربيع عام ٥٣ خانه حليفه العربي امير^٢ ملك اديسا وتفرق جيشه في الصحراء السورية على بعد ثلاثين ميلاً من (حران) *Garrhae* وقتل. وقطع رأسه ويديه اليمنى وارسلها ملك الى الفرتين في سلوكية على الدجلة الذي يقال انه صب ذهباً مصهوراً في حلق الرجل الميت وقال «اشبع نفسك بما كنت تطعم فيه كثيراً في حياتك^٣».

خلف كراسوس خازنه القدير كاشيوس وهو احد قتلة قيصر فيما بعد. وقد ادرك كاشيوس ان المزية الساحقة جنوبي حران قد عرضت سوريا كلها للخطر لذلك اسرع بالاستعداد للمجوم القادم الذي لم يحصل حتى سنة ٥١ . وقد غر كثر نائب القنصل في انطاكية على رأس فرتين وكان على استعداد لابداء مقاومة عنيدة. وشعر الفرتين بان الخطر سيطول فتراجعوا على طول نهر العاصي وانسحبوا اخيراً من سوريا كلها^٤. ومهما يكن فإنه كان من اثر هذا المجوم ان انعش عدداً من الملوك المحليين الذين كان يميل كثير منهم الى الفرتين.

ادت الحرب الاهلية في روما والحالة المضطربة في الدولة الرومانية كلها الى

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3.

(٢) تذكره المصادر اللاحينية باسم «أبغاروس Abgarus». وينذكره باوترخس باسم «اريامنس Ariamnes» في الفصل ٢١ من ترجمة «كراسوس Crassus» في مجموعة الترجم.

(٣) قارن مع : Plutarch, «Crassus», ch. 33; Dio, Bk. XL, ch. 27.

(٤) انظر : Dio, Bk. XL, ch. 29.

اضطراب الحالة من جديد في سوريا . وحدث اثناء زحف قيصر ضد ابن مثراوس الكبير الذي استغل الحرب بين يومي ويصر فنصب نفسه من جديد على البونت ان توقف في زحفه في سوريا (٤٧ ق.م.) ومنح الامتيازات لعدد من مدنها . واثناء تقسيم العالم الروماني من قبل «الحكومة الثلاثية» الثانية التي كان اوكتافياناً (أوغسطس فيما بعد) عضواً فيها اعطي مارك انطونيو الشرق بما فيه سوريا ومصر . ولم يأت حكمه الذي دام اربع سنوات (٤٠ - ٣٦ ق.م.) بالمدروء ولا بالسلم . وعاش حياة ماجنة مع كلبياتة واهمل شؤون الدولة . وقد ادت الغزو الفربية الكبرى من ٣٨-٤٠ ق.م. الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صوراً . ولم يستتب النظام الا بصعوبة وبعد مدة . وعادى انطونيو حتى انه منع جزءاً كبيراً من فينيقية وسوريا المحبوبة الى عشيقته المصرية وباعي ابنه منها ويدعى بطليموس بلقب ملك سوريا . وكان يسرى في الطفل دم سلوقي بسبب التزاح بين سلالتي مصر وسوريا . وبعد معركة اكتيوم البحرية المشهورة في ٣١ ق.م. التي قهر اوكتافيان فيها انطونيو وكلبياتة من اوكتافيان الامبراطور الروماني المتقلب بفلسطين وسوريا وربح به اهلها الذين تأثروا الى حكومة مستقرة . وجعل هذا النصر من اوكتافيان الحاكم الوحيد في العالم الروماني . وبعد اربع سنوات تلقى من مجلس الشيوخ لقب اوغسطس (المعبد، الموقر) وببدأ حكمه كامبراطور . وافتتح فصل جديد في تاريخ العالم .

في أيام هيرودس الملك

عندما عهد الى انطونيو بشؤون الشرق اهل الاسرة المكابية وضع مكانها الامرة الميرودية . وكان مؤسس هذه الاسرة سياسياً ايديومياً ماهراً وهو يهودي بالاسم وقد منع الرعوية الرومانية وعينه بطليموس قيصر ثائباً (وكيله مالياً عندما زار سوريا)^١ . واصبح انتيپاتر Antipater السلطة الحقيقة وراء هيركانيوس الضعيف . وانحدر هيرودس ابن انتيپاتر زوجة ثانية له وهي حفيدة هيركانيوس الثاني وهكذا وحد

(١) انظر : Bouchier, p. 29.

(٢) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 8, §§ 3, 5.

العائلتين^١. وفي عام ٣٧ ق. م. اخذ هيرودوس هذا، الذي عرف فيما بعد بالكبير، او رشيم ووطد سلطته كملك وبقي يدير الامور لمدة ثلات وثلاثين سنة بفضل روما.

شجع هيرودوس المصالح الرومانية على حساب المصالح القرمية. وقد نجح حيث أخفق أنطبيوخس أبيقانس في جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلنستية. وبدأ في مشروع إنشاء إبنية عامة بدل وجه البلاد تبديلاً تاماً. وقد بني في او رشيم ميداناً لسباق الخيول ومسرحاً ومدرجاً وأقام العاباً عامة وكانت كلها لا تتفق مع اليهودية. وزيادة على ذلك أعاد بناء المعبد. وكانت الساسة مقره الحبيب فزinya بالابنية واعاد تسميتها باسم س巴斯طية^٢ Sebaste تكريياً لأوغسطس قيصر. وقد نقض العلماء في بقايا ابنيته^٣. ولزيزيد في سرور الامبراطور سيده أعاد بناء برج ستراتون Turris Stratonis على الساحل وسماه قيسارية^٤ التي قدر لها ان تصبح عاصمة فلسطين الرومانية. وعاش في بلاطه نيقولاوس الدمشقي الذي فاق بوسيدونيوس كفيلسوف مؤرخ. وقد ألف نيقولاوس، الذي عرف اوغسطس شخصياً، تاريخاً عاماً ونقل يوسيفوس عنه مادة القسم المتعلق بهيرودوس^٥.

توج هيرودوس عشر نساء وذبح بعضهن مع بعض افراد اسرته وسحق بقصوة المعارضة لحكمه المطلق. وتوفي عام ٤ ق. م. بعد نحو سنتين من ميلاد المسيح. الذي اقترح العلماء انه وقع حوالي (٦ - ٢ ق. م.). وقد وهب مملكته في وصيته المعدلة الى ابنه ارخيلاوس Archelaus الذي تنافس مع أخيه هيرودوس انتيباس Ethnarch على العرش واستلم جزءاً كبيراً من المملكة ولكن اعطي لقب حاكم

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 6, § 4.

(٢) كلمة «سياستوس» Sebastos اليونانية تعنى «ارضطس» Augustus في اللاتينية.

(٣) اكتشفت خرابات قصره في اريحا في ١٩٠١-١٩٠١ وهي اعظم خرابات من نوعها في فلسطين.

(٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 9, § 6; Pliny Bk. V, ch. 14; يمكن ان يكون ستراتون الذي سمى البرج باسمه ملكاً صدماً حين تتها الاسكندر.

(٥) نشرت اجزاء من مؤلفات نيقولاوس من قبل: Ludwig Dindorf, *Historici Graeci minores*, vol. i, (Leipzig, 1870), pp. 1-153.

(٦) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 8, § 1.

فقط^١. واصبح هيرودوس انتيبياس حاكم منطقة الجليل^٢. وهو الذي بني طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر^٣. وكان هيرودوس انتيبياس كأبيه وغيره من افراد سلالته ذا وجهيـنـ : فهو يهودي في وطنه وهلنسـي خارجهـ . وحين خلع ارخيلاوس (٦ مـ) وضـعـتـ اليهودـيـةـ تحتـ الحـكـمـ المـباـشـرـ لـلـحـكـمـ اوـ التـوـابـ الرـوـمـانـ الذينـ كانـ خـامـسـهمـ بـيـلاـطـسـ الـبـنـطـيـ .

الملينية الرومانية

دامت الملينية ذات الصبغة الرومانية التي ظهرت في ٦٤ ق. مـ حتى سنة ٣٣ مـ حين نقل قسطنطين الكبير عاصمه من رومـةـ إلى بيـزـنـطـةـ مـفـتـحـاـ بذلكـ فـقـرـةـ جـدـيدـةـ فيـ تـارـيـخـ بلدـانـ الـمـتوـسـطـ . وـيـجـبـ انـ نـذـكـرـ انـ الـحـضـارـةـ الـرـوـمـانـيـةـ ذـاتـهاـ كـانـتـ وـارـتـةـ لـلـحـضـارـةـ الـيـونـانـيـةـ الـقـدـيـعـةـ وـمـنـتـغـعـهـ بـهـ بـالـاـضـافـةـ إـلـىـ كـوـنـهـ اـسـتـمـارـاـهـ . وـفـيـ الـحـقـيقـةـ فـانـ الـرـوـمـانـ بـصـفـتـهـمـ مـنـ الـمـنـوـدـ الـأـوـرـبـيـنـ كـانـواـ الـوـحـيدـيـنـ مـنـ بـيـنـ شـعـوبـ الـمـتوـسـطـ الـذـيـنـ بـرـهـنـواـ عـنـ مـقـدـرـةـ فـيـ قـبـولـ أـكـثـرـ مـنـ الـمـظـهـرـ الـخـارـجـيـ لـحـضـارـةـ اـقـرـيـاـئـمـ الـيـونـانـ^٤ـ . اـمـاـ بـالـنـسـبـةـ لـاـكـثـرـ السـكـانـ السـامـيـنـ وـالـحـامـيـنـ فـيـ آـسـيـةـ الـفـرـيـةـ وـشـمالـ اـفـرـيـقـيـةـ فـقـدـ بـقـيـتـ تـلـكـ الـحـضـارـةـ كـانـهـ مـفـروـضـةـ عـلـيـهـمـ مـنـ الـاجـانـبـ .

عندما اـتـىـ الـقـرـنـ الـأـوـلـ قـ.ـ مـ . كـانـ قـدـ حـصـلـ اـنـسـجـامـ بـيـنـ الـحـضـارـتـينـ الـلـاتـينـيـةـ وـالـيـونـانـيـةـ . وـقـتـ تـسوـيـةـ لـصـالـحـ الـلـفـةـ الـيـونـانـيـةـ الـتـيـ بـقـيـتـ لـهـ التـعـالـمـ فـيـ الشـرـقـ كـاـنـتـ قـبـلـاـ وـلـكـنـ الـلـاتـينـيـةـ اـصـبـحـتـ الـلـفـةـ الرـسـمـيـةـ فـيـ الـادـارـةـ . وـكـانـ الـيـونـانـ ضـعـفـاءـ فـيـ الـجـانـبـ السـيـاسـيـ وـالـتـنـظـيمـيـ عـلـىـ عـكـسـ الـرـوـمـانـ الـذـيـنـ كـانـواـ اـقـرـيـاءـ فـيـهـ . اـمـاـ فـيـ الـمـحـالـاتـ الـفـنـيـةـ وـالـفـلـسـفـيـةـ حـيـثـ كـانـ الـيـونـانـ اـقـرـيـاءـ ، فـكـانـ الـرـوـمـانـ ضـعـفـاءـ . وـهـكـذاـ تـابـعـتـ الـمـلـينـيـةـ تـقـدـسـهاـ فـيـ سـورـيـةـ بـعـدـ أـنـ تـقوـتـ وـزـادـتـ غـنـيـةـ فـيـ ظـلـ الـرـوـمـانـ . وـبـقـضـلـ الـحـيـاةـ الـرـوـمـانـيـةـ بـقـيـتـ فـيـ مـأـمـنـ مـنـ الـحـطـرـ (ـالـبـرـيـيـ)ـ . وـتـابـعـتـ الـحـيـاةـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ الـيـونـانـيـةـ

١) مـنـاهـ «ـحـاـكـمـ شـبـ»ـ ؛ اـنـظـرـ : Josephus, Bk. XVII, ch. 11, § 4.

٢) اـنـظـرـ اـفـيـلـ لـوقـاـ ٣ : ١ .

٣) اـنـظـرـ : Josephus, Bk. XVIII, ch. 2, § 3.

٤) اـنـظـرـ : M. Cary and T. J. Haarhoff, *Life and Thought in the Greek and Roman World* (London, 1940), p. vi.

السورية باشكالها السياسية المميزة وتعاقب احتفالاتها وهوها ونشاطها الفكري سيرها كما كانت قبلًا. وكانت تلك السلالات المحلية التي سمح لها الرومان الأقوية بالبقاء وهي سلالة هيرودس في اليهودية والحارث Aretas في البراء وأذينة Odenathus في تلمسان قد اصطبغت جميعها بصبغة يونانية.

لم تتحمل الجماعات المحلية في ظل نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة في ممارسة استقلالها الذاتي. فقد احتفظت بديانتها ولغتها وعاداتها الخاصة. وانحسر الرومان على عاتقهم مسؤولية حمايتها. وكان هذا يتم بواسطة الجيوش الإيطالية. وكانت تؤخذ الجزرة من السكان الوطنيين بدلاً عن الخدمة العسكرية. وكان الحكم الرومان الذين يمارسون اشرافاً عاماً على الشؤون الداخلية يعيّنون عادة لفترة قصيرة ولا يتلقاضون من الدولة راتباً، هذا إذا استثنينا ما كانوا يستطيعون جبايته بأساليب مريبة وبتوازيم الضرائب.

الفصل الثاني في المئتين اوائل الامبراطورية الرومانية

حكومة الولايات

عندما أصبحت روماً دولة عالمية انتقل مركز التاريخ السياسي لأول مرة من آسيا إلى أوروبا حيث يقع فيها منذ ذلك الحين باستثناء فترة الخلاة. ولم يكن لدى روماً إمبراطورية سوى غرذج واحد تستطيع أن تتبعه في إدارتها الولايات الآسيوية الغربية وهو التموج السلوقي. ولذلك كان من الطبيعي أن يتبع الإمبراطرة الرومان نفس المبادئ العامة وإن يحتفظوا بنفس نوع الحكم الذي كان سائداً في عهد الملوك الملوك الذين كانوا قبلهم.

وبسبب موقع سوريا كولاية على الحدود تتأخّم الدولة الغربية وهي الدولة المنافسة الخطيرة الوحيدة لروما وعدوتها الخيفي فقد جعلت ولاية إمبراطورية وكان الإمبراطور نفسه نائب قنصل لها. ولهذا عهد بها إلى نائب^١ (Legate) له رتبة قنصلية دائمة وتتراوح مدة وظيفته بين ثلاث وخمس سنوات. وكان منصب الحكم فيها إلى جانب منصب حكم بلاد الفال اشرف المناصب التي يمكن أن تتعهّد بها الإمبراطورية وأكثراً قيمة^٢. وكانت سوريا في الشرق كبلاد الفال في الغرب مقرًا مركزيًا للسلطة العسكرية. وكان يساعد الحاكم هيئة كافية من أفرادها الموظفون الذين كانوا يهتمون بجمع واردات الدولة. وكانت الجباية تمّ إما مباشرة أو بواسطة تلزم الضرائب. وكان يوجد تحت أمرة النائب أو الحاكم قوة عسكرية كبيرة تتّألف من أربع فرق وكانت كلها تقريباً في أوائل الإمبراطورية من الجيوش

١) قارن مع الميل لوقا ٢:٢ Victor Chappot, *La Frontière de l'Euphrate* (Paris, 1908) pp. 20 seq.

٢) راجع بشأن لائحة الحكم: Gustave A. Harrer, *Studies in the History of the Roman Province of Syria* (Princeton, 1915), pp. 11-65.

الإيطالية. وكان حاكم سوريا مسؤولاً عن سلامة الممتلكات الرومانية في آسية القريبة كلها. ومن أقدم الولاية كيرينيوس^١ Quirinius الذي عينه أوغسطس وقام باحصاء اليهود. وكان بيلاطس البنطي في الحقيقة موظفاً مالياً في اليهودية بين (٢٤-٣٧ م). ولكن طيриوس^٢ كلنه بادارة جميع شؤونها تحت اشراف حكام سوريا وقد طرده أحدهم ويسمى فيتيليوس Vitellius لسوء معاملته للسامريين.^٣

المملوكة المحلية

عاشت الجماعات المحلية تحت حكومات مختلفة فاحتضنت المستعمرات المقدونية اليونانية بحكامها الذين كان يتبعهم مجلس الشيوخ ومجلس شعبى. وبقيت دولة المدينة اليونانية القديمة غوفرا تنظم الأداري. وكذلك احتضنت دول المدن الفينيقية بحكوماتها التقليدية التي تسودها أقليات غنية وقد اصطبفت الان بالصيغة

١) يذكر في لوقة ٢: ٢ باسم كيرينيوس. وعلم من Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, أن كيرينيوس عين حاكماً على سوريا حوالي عام ٦ م. أما الرجل الذي ولد المسيح أثناء حكمه فهو كونتيليوس فاروس Varus الذي عين في ٦ ق. م. وكان ملله هو سنتيوس ساتورينيوس Sentius Saturninus (٩ - ٦ ق. م.). راجع Tacitus, *Annales*, Bk. III, ch. 22; Suetonius, *Vitae Duodecim Caesarum*, Bk. III, ch. 49.

٢) نسب السلالة اليوليانية - الكلورية:

١ - أوغسطس (ابن النبي ليوبوس قيصر)
(٥٠ ق. م. - ٢٧)

٢ - طيриوس (٣٧ - ٤١)

جيمانستكوس

٣ - غاليوس (كالينولا، من احفاد اوغسطس
بواسطة ابنته جوليا) (٣٧ - ٤١)

٤ - نيرون (٤١ - ٦٨)

ملاحظة: يشير الخط المنقط الى علاقة تبني.

٣) انظر لوقة ٣: ٤؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 4, §§. 1, 2; ch. 6, § 5; War, Bk. II, ch. 9, § 2; Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

اليونانية . أما الجماعات الآرامية في الداخل فاستمرت تسيطر على شؤونها الداخلية كالسابق . وعاش العرب في ظل غير نظام واحد . ففي حصن Emesa كان الحكم بيد الملوك الكهنة وفي عنبر Chalcis إلى الجنوب في سوريا المعرفة كان يحكم أيضاً حاكماً وطنياً . واستمرت هاتان الأمتان من النساء في الحكم حتى أواخر القرن الأول الميلادي . وعلى حدود الصحراء حيث كان طراز المعيشة البدوي أو شبه البدوي لا يزال سائداً كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية واتبع النظام القبلي في الإدارة . وفي اليهودية حيث لم يقدر الكاهن الأعظم ملكاً أصبح رئيس طائفة وكانت الاستقرارية اليهودية هي التي تعينه . وأظهرت روما طيلة حكمها شيئاً كثيراً من التسامح تجاه مثل هذا النوع .

كان وراء هذا النوع في التنظيم والسيطرة شيء من الشابه العرقى والحضارى يفوق كل ما كان في السابق . فجميع السوريين قد أصبحوا الآن ساميين تماماً يتكلمون لغة واحدة هي الآرامية ويكتب متنقفهم بلغة واحدة هي اليونانية . فالفينيقيون الذين تأثروا بالفينيقية أكثر من جيرائهم وانسبائهم الآراميين في الداخل فقدوا سيطرتهم في القرن الأول الميلادي على لغتهم الأصلية التي بقيت ماثلة حتى زمن متاخر في مستعمراتهم في إفريقيا . أما اليهود الذين لم تقتصر اقامتهم في هذه الفترة على اليهودية بل كانت لهم جاليات في جميع المدن السورية الكبرى فقد احتفظوا بالعبرية كلغة مقدسة . ومن بين العرب كان الإيتوريون الأقواء في شمالي فلسطين والإيدوميون الذين تهودوا أسيماً واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين يتبعون نحو تبني الآرامية . أما العرب الذين ظلوا بدأة فأنهم تسکعوا دون شك بلغتهم العربية . واستمر الانبط في الجنوب الذين كانت لهم من بين جميع العرب أولئك اللذين في استعمال العربية في كلامهم ولكنهم استخدموها الآرامية في كتابتهم الاترية^١ . وعلى وجه العموم فإن هذه الصورة كانت تظهر تبايناً كبيراً بالنسبة للغوى العرقية والحضارية أثناء عصر العمارنة مثلاً .

وانتشر العنصر المكدوني اليوناني في جميع المدن السورية وكان اكتفى ما يكون في المستعمرات السلوقية مثل أنطاكية وسلموقية وأقامية ولاديس وفي

١) انظر ما يأتي في الفصل ٢٩ .

مراكم التجارية كالمدن الفينيقية والفلسطينية الساحلية ودمشق وتتسرب في الداخل. وكان هؤلاء المقيمين ينحدرون من المغاربة القدماء والتجار والصناع والمغامرين من المكدونيين واليونان الذين آتوا ليعيشوا في الشرق لاسباب سياسية او غيرها. ولم يُؤسس الرومان سوى مستعمرات قليلة. فكانت لم جالية من المغاربة القدماء في بيروت في عهد اوغسطس وآخر في بعلبك واصبحت كلتاهم مركزين نشطين للحضارة الرومانية^١. وكان عدد الذين يتكلمون اليونانية بين هذه الجاليات اكبر من عدد الذين يتكلمون اللاتينية، وكان كثيرون من هؤلاء يعرفون اليونانية من قبل ويكتنفهم الاتصال بالسكان الوطنيين وبجاليليات الاخرى بواسطة هذه اللغة. وفوق ذلك فان الرومان كانوا يعكس اليونان متوفين ولم يتموا بمحضارة السكان الذين يحكمونهم. وكان هدف الرومان الرئيسي في سوريا ان يجعلوها قاعدة ضد العدو وان يستثمروا مواردها. ولم يظهر السوريون سوى اهتمام قليل في الحالات الرومانية العسكرية الا حين كانت سلامتهم تهدد.

فضل الرومان

لم يكن عمل الادارة الرومانية في ولاية كسورية ذات حضارة راقية كالحضارة الرومانية، وان اختفت عنها في صفاتها، ناجحاً او مزدهراً النجاح والازدهار الذين يلغها في الولايات الاخرى شبه المتحضر مثل اسبانيا او بلاد الغال. فجاليليات اليونانية والمدن الفينيقية واليهودية في سوريا لما لها من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية ولا فيها من مدارس في الفن والفلسفة والادب - لم تجد ما تستعيره من روما الا القليل. وقد بقي الادب اللاتيني بالنسبة لها كتاباً مغلقاً^٢. ولكن الامر مختلف بالنسبة للعرب والعرب الآراميين اذ اقيمت بينهم في شرق لبنان الشرقي وفي القسم المأهول من شرق الاردن مستعمرات رومانية بدأ كل واحدة منها بتوأمة من المقيمين الايطاليين ثم تجمع حولهم آخرون واصبحوا جماعات خاصة. وامكن القيام بذلك بعد ان ضم تراجان سنة ١٠٦ م. شرق الاردن وحوران التي كانت قبلها تحت حكم الانباط ثم جعلها اوغسطس تحت حكم هيرودوس.

١) انظر ما سند ذكره في الفصل ٢٣.

٢) انظر : Bouchier, p. 5.

وفي سنة ١٠٥ اخضم تراجان البتراe فالحقت البتراe العربية Arabia Petraea بالامبراطورية الرومانية تحت اسم الولاية العربية Provincia Arabia. ولما كانت سوريا مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى فان الادارة الرومانية انشأت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء طلبة الاماكن التي كانت راقية الحضارة وكثيرة السكان بصورة خاصة . وكان جنود هذه الحصون على الغالب من قوات مساعدة اتت من القبائل الموالية . وكان الطريق العرضاني بين الشرق والغرب الذي يصل مدن الدجلة والفرات بعدهن البحر المتوسط ماراً بتسري يحيط بهذه المنطقة . وكان يعبرها طريق طولاني كبير دعاه الرومان طريق ماريس Via Maris وورد في التوراة باسم طريق الملك King's Highway^١ . ويببدأ هذا الطريق من دمشق فيمر في حوران الى جلعاد ومنها الى مؤاب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق قوافل الجزيرة العربية . وهذا الطريق الرئيسي في شرق الاردن الذي يعود الى آواخر الالف الثاني ق. م. قد رصفه تراجان واستعمل كطريق عسكرية لفرق الجيش ثم استعمله الحجاج المسلمين بعد ذلك^٢ . وقد شجعت التسهيلات الجديدة ميلان حركة الاستقرار لدى الجماعات البدوية او نصف التحضر . وكانت التحضر نقطة اساسية في السياسة الرومانية . ويمكن القول بايجاز ان الخدمة الرئيسية التي ادتتها الادارة الرومانية للولاية السورية هي انقاذها من الاضطرابات الاهلية وحمايتها ضد الاعداء الخارجيين . كذلك فتحت امامها بهذه المناسبة سوقاً عالمية .

سوريا في ذروتها

ان استعادة سوريا لقوتها في القرن الاول من الحكم الامبراطوري (حوالي ٣٠ ق. م - ٧٠ م) بعد الانقطاع الذي هوت اليه نتيجة للغزو الاحميقي والاهلي كان سرياً ومؤكداً . ووجدت الولاية نفسها جزءاً أساسياً من امبراطورية

١) انظر سفر التكوين ١:١٤ - ٥؛ عدد ٢٠:١٧؛ ٢١:٢٢ . راجع للاستزاد عن الطريق

الرومانية : Peter Thomsen, «Die romischen Meilensteine der Provinzen Syria, Arabia und Palestina», Zeitschrefit des deutshen Palastina-Vereins, vol. xl. (1917), pp. 1 seq. ; Christina P. Grant, *The Syrian Desert* (London, 1937), pp. 62-65.

٢) اصبح الطريق منذ ان اصلحته حكومة الاردن في السنوات الحديثة يدعى طريق الملك عبد الله .

كانت تمتد من الأطلسي وبخور الشمال إلى الفرات ومن الرين والدانوب إلى الصحراء الكبرى وساد النظام والسلم الروماني في ظل الجيوش الإمبراطورية. وتوطد الأمان من خطر الصوصية والقرصنة كاصلت المجهات الفرنسية والغربية. وشددت الحراسة على الممرات الستراتيجية مثل بحر كيليكية. وربطت شبكة من الطرق التي تعتبر من المظاهر البارزة للهارة الإدارية والمنسدية بين أجزاء الإمبراطورية كلها في وحدة متراصة نسبياً. ولا تزال توجد حتى اليوم أحجار المسافات التي كانت تقوم على الطرق السورية. وكان الرومان يهتمون بالمحافظة على هذه الطرق وعلى تصريف المياه من حولها. وأسس أوغسطس مصلحة للبريد جعلت صلة الإدارة المركزية بمثلها في الولايات أكثر ارتباطاً. ونشطة التجارة وعاد الازدهار. وارتاحت الدولة الرومانية كلها بعد سنة ٢٠ م. لفترة طويلة من الأضطرابات الأهلية الخطيرة. ومن حسن حظها أنها تعمت بين ٩٦ م. - ١٨٠ بسلسلة من الإباطرة الأكفاء الذين بدأوا بتفا Nerva وانتهوا بماركوس أوريليوس ويوصف عصرهم بأنه «عصر الإباطرة الصالحين»^١. ولم تُحكم دولةً كبرى كما حكمت الدولة الرومانية في القرن

(١) جدول الإباطرة الخمسة الصالحين :

١٢ - ترفا (٩٦ - ٩٨)

١٣ - تراجان (٩٨ - ١١٧)

١٤ - هادريان (١١٧ - ١٣٨)

١٥ - أنطونينوس يوس (١٣٨ - ١٦١)

١٦ - ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠)

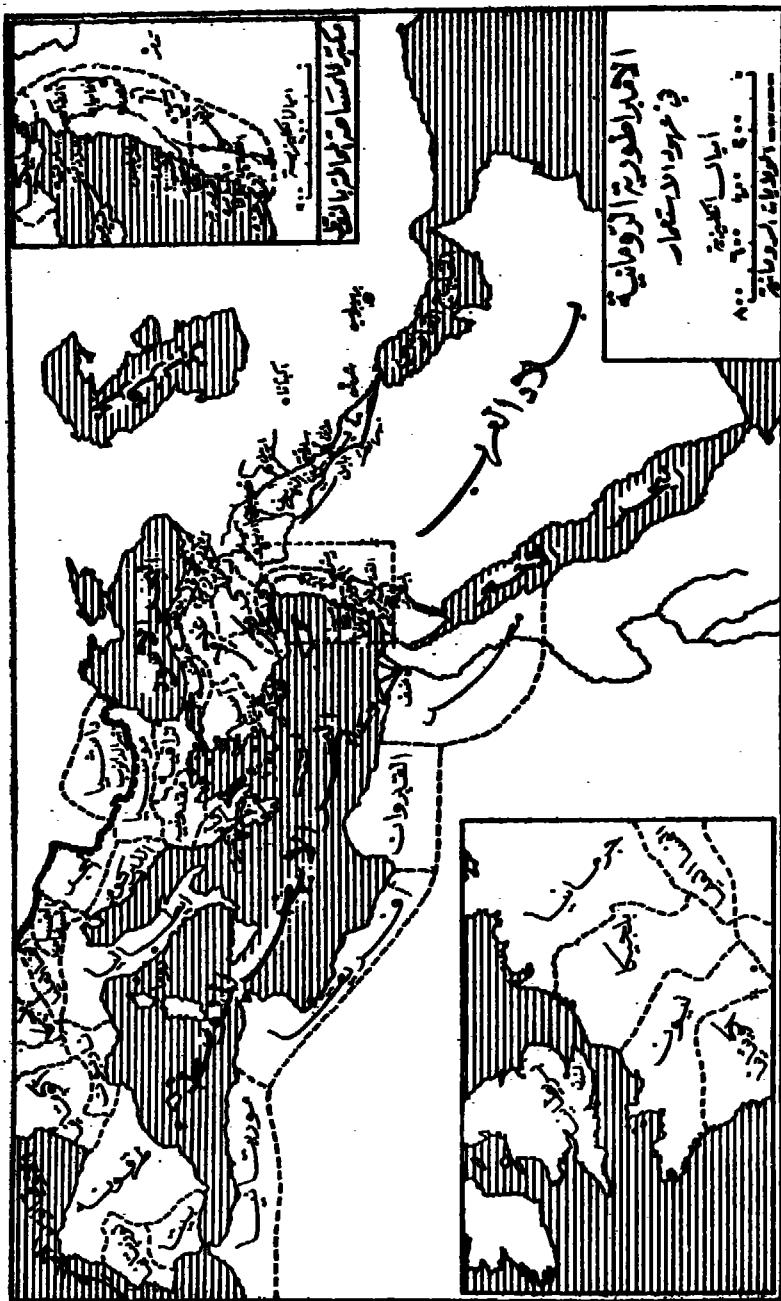
ملاحظة : تشير النقاط إلى علاقة تبني.

جدول لأسرة الانطونيين :

١٥ - أنطونينوس يوس (١٣٨ - ١٦١)

١٦ - ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) ١٧ - لوشيوس فيروس (١٨٠ - ١٨١)

١٨ - كومودوس (١٨٠ - ١٩٢)



الثاني الميلادي^١. ووصلت الامبراطورية الى ذروتها في عهد هادريان (١١٧-١٣٨) وكان غالباً سابقاً في سوريا . وكانت سوريا الرومانية قد حصلت في عهد سلفه تراجان (٩٨-١١٧) على اوسع امتداد لها واصغر ازدهار^٢.

وفي ذلك القرن توحد العالم المتعدد كله تقريباً^٣ او لامتنا^٤ من الاطلس الى اواسط آسيا تحت حكم واحد . ولم تقم قبلها مثل هذه الامبراطورية . وفي تلك المملكة الواسعة ارتفعت شعلة الحضارة عالياً واضاءت باشعاعاً اكثراً مما عرف في اي عصر مضى في التاريخ . وفي قلب تلك المملكة تماماً كان يقوم البحر المتوسط كمركز للالشاعر والاحياء . وسوريا تقع على شاطئه الشرقي . وبلغ من التسهيلات وانتشار الامن انه كان باستطاعة الانسان ان يسافر بامان من يوروك في انكلترا الى ضفاف الفرات في اي وقت تقريباً . وكان بامكان المسافر ان يستعين بلغة واحدة وهي شكل معين من اللغة اليونانية للانتقال من شرق اسبانيا الى وادي السندي.

وزاد في وضع سوريا كأول ولاية في الامبراطورية نجاح الفرق الرومانية المرابطة فيها في رفع قائدتها فسباسيان Vespasian الى العرش الامبراطوري في عام ٦٩ م . والفوز على منافسه الذي اختارته الفرق المرابطة فيmania . وبعد اكثر من قرن من ذلك (١٢٥) حين تلقت الفرق في سوريا اشاعة كاذبة بان ماركوس اوريليوس قد توفي سارعه الى اعلان قائدتها افيديوس كاشيوس^٥ امبراطوراً وهو من مواطني كورس^٦ في شمالي سوريا وحاكم المقاطعات الشرقية .

قوة الانتاج الاقتصادي

ان الشعور بالامن وتوسيع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة كل هذه عملت على تشجيع الانتاج الاقتصادي الى حد لم يعرف قبلها . وانعكست الازدهار في ارتفاع مستوى المعيشة وظهور المدن الجديدة . ولا بد ان سكان

(١) انظر : Gary and Haerhoff, p. 82.

(٢) انظر : Bouchier, p. 40.

(٣) انظر : Harrer, pp. 35-36.

(٤) تقع على منحدرات جبل طوروس شمالي شرق ايطالكية ؛ راجع ما سألي في الفصل . ٣٩

سورية الكبرى المتزايدين قد بلغوا في القرن الثاني سبعة ملايين^١ وهو رقم لم يتوصل إليه في أي عهد. ولا يحتمل أن يكون عدد السكان السوريين قد تجاوز هذا الرقم في أي زمن. وفي سوريا الجوفة كان سبب الحصب العظيم يعود جزئياً لعامل آخر وهو تنظيم المياه التي يأتي بها العاصي تنظيماً فعالاً. وشملت الاختراعات الآلية في العصر الروماني المحراث المنظور وما يعرف باللوب الارخيدي وطاحونة الماء. كما طرأ تحسن أيضاً على التواعير ولا بد أن ذلك الوادي كله، وقسم منه الآن شبه صحراوي، كان مركز زراعة ناسطة^٢. وتوجد بقايا معاصر الزيت شرقياً حصن حيث لا توجد آية أشجار اليوم. وأفاميا التي بلغ عدد سكانها الاحرار بوجوب احصاء كيرينيوس في عهد اوغسطس ١٠٧،٠٠٠ نسمة^٣ هي اليوم ارض مقفرة. وشرقي الأردن نفسها التي اغلبها صحراء اليوم كانت بالنسبة ليوسيفوس^٤ ارضاً تكثر فيها المحاصيل والسهول التي تنتفع مختلف انواع النبات كالبلح والعنبر والزيتون. وان خصب التمة الشهالية لشريقي الأردن وهي حوران (Auranitis Trachonitis) كان يضرب به المثل. وقد تحولت هذه المنطقة في ظل الرومان من بلاد رعاعة ونصف متحضررين إلى بلاد مدن وقرى. وكانت المنطقة كلها تعتمد على استعمال الصهاريج التي تجمع فيها مياه الامطار غير المنتظمة والغزيرة احياناً. ولا كانت حوران تقع على طرف الصحراء هي وعاصمتها بصرى^٥ Bostra فانها كانت اول منطقة سكنتها وزرعها رجال القبائل من الصحراء. وقد وسعت المدينة في عهد تراجان وحصلت واطلق عليها اسم نوفا تراجانا بصرى Nova Trajana Bostra وكانت ملتقياً هاماً لطرق القراوفل الذاهبة إلى دمشق والبحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج الفارسي. واصبحت بعد دIOCLETIAN (٢٨٤ - ٣٠٥)

(١) قارن مع Heichelheim, pp. 158-159; Henry Lammens, *La Syrie, précis historique*, (Beirut, 1921), vol. i, p. 11; Beloch, pp. 245 seq.

(٢) انظر : Theodor Mommsen, *The Provinces of the Roman Empire*, tr. William P. Dickson (London, 1909), vol. ii, p. 136.

(٣) انظر : *Ephemeris epigraphica*, vol. iv (Berlin, 1881), p. 538.

(٤) War, Bk. III, ch. 3, § 3.

(٥) ترد في سفر المكابين الاول ٥: ٢٦، ٢٨ باسم Bosora ويعرفها الاتراك باسم اسكندر شام (الشام القديمة) وهي بصرى اليوم.

عاصمة ولادة بلاد العرب . ودرجة الازدهار التي بلقتها هذه المنطقة في عهد الرومان لم تبلغها حتى في عهد الامويين الذين كانت عاصمتهم دمشق^١ .

الزراعة

تعطينا بعض العبارات المتفرقة في كتابات ستراابو (توفي حوالي ٢٤ م. م.) وبليني (توفي عام ٧٩) واثينناوس (زها في ٢٢٨) وغيرهم من الكتاب اللاتين فكرة عن الازدهار العام في زراعة سوريا . وتظهر قم جبال لبنان الشاهقة المتوجة بالغابات بنفس المظهر السابق . وكثير من الكتاب يتعلمون هذا الجبل من المناطق المشهورة بالاخشاب . ويع يكن الافتراض بأن نظام حماية الاشجار البرية والقطع المنظم كان يطبق على شجر الارز على الاقل . ويع عدد بليني^٢ بين اشجار سوريا شجرة التخليل والنستق والتين والارز والعرعر والبطم والسماق . وادخل في القرن الاول الميلادي عدد من الاشجار السورية الى ايطاليا . ويعتبر فيتيليوس Vitellius الحاكم في عهد طيريوس صاحب الفضل في ادخال انواع متعددة من شجر التين والنستق الى مقره الريفي في Alba Longa^٣ . وانته زيارة نيكولاوس الدمشقي لرومة بصحبة هيرودس الكبير قدم لاوغسطس هدية من احسن ثمار التخليل وهو ما عرف بالبلع النيكولاوي بالنسبة له وكان حلاوة كالصل و كان حجمه كبيراً حتى انه « اذا وضعنا اربعة منه جنباً الى جنب يبلغ طولها ذراعاً ». وكانت تستخدم في زراعة الكرمة وغيرها من النباتات المثمرة الآلات المائية والمعاصر وطرق التسخين الراقية^٤ . وادخل شجر الخوخ الدمشقي الى ايطاليا قبل عهد بليني بزمن طويل . اما شجرة التناب فادخلت قبيل عهده بقليل^٥ . ويشير بليني^٦ الى الاشجار التي تحمل ثمار

(١) قارن مع ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، من ٣٥٨ .

(٢) انظر : Pliny, Bk. XIII, chs. 10-13.

(٣) انظر : Pliny, Bk. XV, chs. 21, 24 ; Athenaeus, Bk. XI, § 500.

(٤) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 9 ; Athenaeus, Bk. XIV, ch. 22.

(٥) قارن مع اغيل متن ٢١ : ٣٣ .

(٦) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 10 ; Bk. XV, chs. 12-14.

(٧) انظر : Pliny, Bk. XV, ch. 8 ; XXIII, ch. 50.

الزيت وتنمو غواصه في الأقسام الساحلية من سوريا وغيرها حاوياً الطعم ويستخدم في أغراض الطبية وهي كما يبدو شجرة التربتين.

شكلت الحبوب غذاء السكان الرئيسي . وزيادة على الحبوب التي تعتبر من لوازم المعيشة كان الأرض الذي يتطلب ربياً اصطناعياً يزرع بشكل متقطع على طول الساحل^١ . وكانت الحضراوات ذات الأوراق من أكثر الأطعمة شيوعاً بالإضافة إلى الحبوب . ولم يكن هناك طلب نظامي للحوم إلا بين الأغنياء . ونذكر من بين الحضرا التي كانت تزرع بصورة واسعة العدس واللوبيا والفاوصوليا والمحص والمحص الجبلي والترمس . وكان الترمس يستعمل بكثرة للمواشي . وكان القراء يستسغون بصورة خاصة النباتات البصلية كالبصل والكراث والثوم . ومن التوابيل التي ازدهرت في سوريا الكزبرة والخردل واليانسون والكمون والزنجبيل والعنخ^٢ . وتذكر المصادر فطر أورشليم وثوم هليوبولس وبصل عقلان^٣ . وكانت عقلان تنتج الخناه أيضاً التي كانت لها قيمة كبيرة . وكان ملفوف سوريا مرغوباً . وحين يعدد بليني^٤ أنواع الفجل وهو نبات خاص بسوريا يعتبر الفجل السوري الذي كان قد ادخل حديثاً إلى إيطاليا أحسنها . وفي رأي هذا المرجع الروماني حول التاريخ الطبيعي كانت زنبق أنطاكية ولاوديسة أكثرها قيمة^٥ . وقد زرع نبات البابريوس واستخدم كمادة للكتابة . واستمرت زراعة الكتان والقطن والقطن في آسية الغربية كلها . ولا يزال عرق السوس ينمو كنبات بري قرب المستنقعات وعلى ضفاف الانهار حول أنطاكية .

البستنة

كانت البستنة السورية مظهراً جيلاً في الحضارة الرومانية القديمة . ونعود إلى

(١) انظر : Strabo, Bk. XV, ch. 1, § 18.

(٢) انظر سفر المروج ٦٦:٣١؛ سفر العدد ١١:٧؛ اغبيل متى ١٣:٣١؛ اغبيل مرقس ٤:٣١؛ اغبيل متى ٢٣:٢٣ وسفر اشيا ٢٨:٢٥، ٢٧:٢٧.

(٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29; Pliny Bk. XIX, ch. 32.

(٤) انظر : Pliny, Bk. XIX, ch. 26.

(٥) انظر : Pliny, Bk. XXI, ch. 11.

أصول سامية قديمة تطورت عن زراعة الألغار والازهار والاعشاب الواسعة التي كانت تعتمد فقط على الري الصيفي. ولم يكن الفردوس السامي سوى حديقة غرسها السيد الله شرقاً في عدن^١. وكان هذا الفردوس يتبع نموذج البساتين الارضية في البلاد المروية بصورة اصطناعية بين فلسطين وفارس. وقد شجع فن البستنة السامي في زمن الحكم الفارسي وازداد اتقاناً في عهد الرومان. وكانت يطبق ليس على مقياس خاص فحسب بل على مقياس عام ايضاً كما نرى في الفيلات المقدسة والاراضي التابعة للمعابد. وكانت دفنة التي كرس معبدها وغابتها للله ابولون احدى المناطق المشهورة بجمالها في العالم الروماني. فاجتذبت الحجاج والزوار من بلاد الامبراطورية^٢. وأصبحت الحدائق التي يتعذر الانسان فيها للراحة والتي رافقت حضارة المتوسط وظهرت في انطاكية ودمشق واورشليم نموذجاً اولياً لحدائق المتعة التي اوجدت في روما ومن بعدها في غربانطة^٣. ولا يزال الماء يستعمل حتى اليوم كعنصر فني في النوافير التي تنشر المياه بما يشبه السبرقع في باحات الدور في دمشق.

الصناعة

يبدو ان صناعة الاصباغ في مناطق صناعة النسيج في صيدا وصور قد استمرت في عهد الرومان. وكان الارجوا ان الفينيقي عظيم القدر في كل مكان. وبلغ في عهد سترايو^٤ من كثرة عدد معامل الاصباغ في صور ان اصبحت المدينة «غير مرغوبة كمكان للسكنى». وينذكر بليني^٥ ان اوراق السماق كانت تستعمل في دبغة الجلد ولا تزال تستعمل حتى اليوم. وكانت سوريا ومصر المصادر الرئيسية للبضائع الكتانية لكل الامبراطورية كما كانت من احسن مصادر الجلد. وكانت الصناعة

١) سفر التكوين ٨:٢ وراجع بشأن اشتقاق كلمة «الفردوس» ما سبق في ص ٢٤٩.

٢) انظر ما سياق في الفصل ٢٣.

٣) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 528-529.

٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 23.

٥) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 13.

٦) يشير كتاب العهد الجديد الى دياغ في يانا - اعمال الرسل ٤٣:٩؛ ٤٣:١٠؛ ٦٨:١٠.

معناها الحرفي «صناعة يدوية». ولما كانت تقصصها التجارب والآلات فقد بقيت جامدة. واستخدمت عدة نباتات سورية لانتاج الادوية والروائح العطرية للسوق المحلية والخارجية. وراجت الثور السورية عن جداره في العالم القديم كله^١. وكانت انطاكيّة وجبيل^٢ وطرابلس وبيروت وصور ولبنان وحوران وعسقلان وغزة تنتج الثور. ويقال ان خمر أقامية كان يصلح للزج مع العسل^٣. ووردت اشارة الى خمر الجليل في العهد الجديد^٤.

يأتي الاسفلت او الرفت في المرتبة الاولى بين الموارد المعدنية وكانا يوجدان بكثيّرات كبيرة في منطقة البحر الميت (Lake Asphaltites) وبقدار اقل في جوار صيدا^٥. وكانت كبريتات الزئبق والزرنيخ السورية تستخدم في الدهان ولكبريتات الزرنيخ لون ذهبي^٦. ومن جملة نوادي استخدام النساء للكوربا صنع اطارات المغازل^٧. وكان الالباسـتر في دمشق اكثـر بـيانـاً من سائر الانواع^٨. ويبـدو اـنـ الجـنسـ كانـ يـحضرـ فيـ سـورـيـةـ بـنفسـ الطـرـيقـ الـيـ يـحضرـ بـهـ الـيـومـ الجـبسـ الجـافـ^٩. ووجـدتـ مقـالـعـ لـلاـجـعـارـ بـالـقـرـبـ مـنـ انـطاـكـيـةـ^{١٠} الـيـ كـانـ فـيـهاـ ايـضاـ مقـالـعـ حـجـرـيةـ كـاـيـ هـلـيـوـبـولـسـ . وـكـانـ يـسـتـخـرـجـ التـحـابـيـ فـيـ جـبـلـ لـبـانـ وـجـنـوـيـ فـلـسـطـيـنـ بـجـوارـ اـرـيـحاـ وـفـيـ بـيـرـوـتـ وـمـنـابـعـ نـهـرـ الـأـرـدـنـ . وـكـانـ اـكـثـرـ مـنـاجـمـ الشـرقـ الـادـنـ تـسيـطـرـ عـلـيـهاـ الـحـكـومـةـ وـيـسـتـخـدـمـ فـيـهاـ السـيـدـ . وـكـانـ تـصـنـعـ التـائـيلـ ايـضاـ . وـعـنـدـمـاـ اـسـ

(١) انظر : Strabo, Bk. XV, ch. 3, § 22.

(٢) انظر : Athenaeus, Bk. I, ch. 29, § a.

(٣) انظر : Pliny, Bk. XIV, ch. 9.

(٤) انجليل يوحنا ٣:٢ ؛ قارن مع : Josephus, War, Bk. III, ch. 10, § 8.

(٥) انظر : Pliny, Bk. XXV, ch. 51 ; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 42. حيث يسمى البحر الميت خطأ «بحيرة سيربونيس» Sirbonis.

(٦) انظر : Pliny, Bk. XXX, ch. 22.

(٧) انظر : Pliny, Bk. XXXVII, ch. 2.

(٨) انظر : Pliny, Bk. XXXVI, ch. 12.

(٩) انظر : Pliny, Bk. XXXVI, ch. 59.

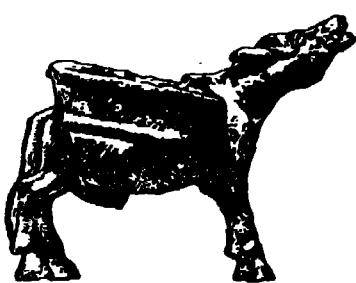
(١٠) انظر : Libanius, *Orationes*, No. 11, § 25.

الامبراطور كاليفولا (41-37) بصنع تمثال ضخم له ليقام في معبد اورشليم طلب ناثبه في سوريا الى صانع من صيدا القيام بذلك^١. وشكل اصحاب مختلف المهن كالتجار واصحاب السفن والباعة والصناع جمعيات للحماية المشتركة وتبادل المنفعة . وكان في تدمر نقابة لصانعي الذهب والفضة كما كان يوجد في جرش نقابة لصانعي الفخار . ولا بد ان معامل الاسلحة الامبراطورية التي انشأها الامبراطور ديو كليتيان (توفي عام 313) في انطاكية ودمشق واديساهي امتداد لشركات اقدم^٢.

التجارة

كانت التجارة وخاصة بظهورها الخارجي والداخلي المورد الرئيسي للثروة . واغنى مدن الشرق الادنى الروماني كانت المدن التجارية كالبتراء وتدمر وجرش ومدن الساحل الفينيقي . وكان الصناعيون والملاكون يأتون في المرتبة الثانية في الفن بعد التجار .

كان التجار على وجه العموم من اهل البلاد . ويظهر التاجر الروماني (Negotiator, mercator) وهو ظاهرة جديدة في تاريخ الشرق على اثر ضربة



تمثال برونزى صغير لخار وخرجه
ويبدو المار برأسه المرفوع ووجليه
النصيلتين وهو ينهق

لسورية . وهذا التاجر كان ايطاليا او ايطاليّاً يونانيّاً ويستقر اول الامر في انطاكية . وفي عصر اوغسطس يصل البتراء . ومع ذلك فإنه يتراجع خلال القرن الاول الميلادي امام منافسه السوري المعروف بهمارته وخبرته وامام اغراء الاسواق الجديدة في الغرب حتى يختفي فعلاً من السوق^٣ . وبقيت التجارة فردية كالصناعية . وكانت الشركات

(١) انظر : Philo (Judaeus), *Opera*, ed. Leopold Cohn and Paul Wendland (Berlin, 1915), vol. vi, ch. 31, §§ 220-222.

(٢) انظر : Malalas, p. 307, ll. 20 seq.

(٣) انظر : M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Roman Empire* (Oxford, 1926), pp. 158-159.

او عمليات المشاركة نادرة. واستمرت تجارة العبيد في الازدهار. وكان المدينون المفلسون يسلمون انفسهم لدائنيهم. وكان تجار العبيد المخترفون يقبضون على اليافعين الطائشين ويختطفون الاطفال ويشترون الاطفال غير المرغوب فيهم.

بلغت المبادرات التجارية السورية ذروتها في أيام الحكم الروماني الذهبي حين كانت مدن القوافل كالبترا وجرش وبصرى وتسلس ودورا اوروبس براكنز تجارية مزدهرة. ثم نشطت الطرق البحرية حين اعاد تراجان تجديد القناة التي تصل التيل بالطرف الشمالي الغربي الاقصى للبحر الاحمر والتي كان الفراعنة القدماء اول من بدأ بمحفرها. وصدرت المدن الفينيقية البلج «واحسن طحين من القمع»^١. وكان البيان المصدر من سوريا^٢ يعود اصله بالحقيقة الى جنوبي الجزيرة العربية^٣. وصدرت محاصيل نباتات غربى آسيا المستخدمة في الطب والمعطر الى العالم الروماني كله. وتنتمت العطور والعقاقير المنتجة في تلك المنطقة بشهرة عالمية. وغالباً ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة الميعه والسلفيوم *silphium* والمجيداريس *magidaris* والناردين الآتية من سوريا. وكانت المخور والزيوت المختلفة والثمار المحففة والدهون تصدر بالكميات. وقد وجدت في مصر وقبرص وابطاليا وجنوبي روسيا آنية تحمل توقيع شخص باسم انيون *Ennion* من صيدا وهو من أشهر صناع الزجاج السوريين في القرن الاول الميلادي^٤. ولا بد انه كان لعماله مكتب في روما. وكان لصانع زجاج آخر من صيدا مكتب فرعي في بلد بعيدة مثل كولونيا. وكذلك عاش احسن عمال البروتز في منتصف القرن الاول الميلادي في صيدا. وقد وجدت في امكانة متعددة خارج سوريا بقايا منتجات

(١) انظر : *Athenaeus*, Bk. I, ch. 28, § n.

(٢) انظر : *Athenaeus*, Bk. I, ch. 27, § f.

(٣) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 47-48.

(٤) انظر : Heichelheim, p. 189; Rostovtzeff, p. 540, n. 43.

الماهاتكين السوريين كالأقشة الكتانية والصوفية الرخيصة والحرائر ذات اللون الارجوانى.

اشتملت واردات سوريا على الحزف من اليونان وایطاليا والسمك المحفف من مصر واسبانيا وورق البردي من مصر والمر والبخور من جنوب الجزيرة العربية والتوابيل والجلواهر من الهند والحرير من الصين. وكانت عكا مركزاً هاماً لتجارة السمك. وكانت الحيوانات البحرية تشكل جزءاً كبيراً من الغذاء الشعبي لسكان السواحل. واستعمل ورق البردي في صناعة جبال السفن كما استعمل لاجل الكتابة.

الفصل الثالث والعشرون حياة المدينتين والريف

القرى

لم يختلف المظهر العام لحياة الريف في سوريا الرومانية بصورة جذرية عن النموذج القديم. وكانت البلاد مرصعة بالألف القرى التي يسكنها على الغالب الفلاحون الذين يعيشون على انتاج الكروم او المزارع، ولا توجد آثار لعبودية الارض في هذه القرى وليس هناك وثائق تقييد عن وجود عبيد تابعين للدولة للقيام بالاعمال الوضيعة. ويرجح ان اعمال الشرطة في القرى كانت تقع على عاتق المدينة التي توجد القرية في منطقتها. وليس هناك ما يدل بوضوح عن قيام القرية باتفاق المال لاجل التربية والصحة العامة او اعمال الخير^١. ولا بد ان بعض الاراضي المحيطة بالقرية كانت مشاعراً وتؤلف مصدر ايراد القرية. وكان الافراد احياناً يملكون القرى.

كان غرذيج الرجل العادي هو الفلاح او زميله القروي الذي يعمل كنجار او حداد او صانع احذية او باشع. وكان تأثر هذه القرى بالحضارة الرومانية ضئيلاً كتأثيرها بالحضارة الميلينية، وقد غسلت القرويون وخاصة اولئك الذين يعيشون بعيداً عن مراكز المدن بطرق حياتهم التقليدية بصورة مديدة. وانت الكتابة وتحتويات النقش الآثري التي تعود الى الفرون الميلادية الثلاثة الاولى وقد وجدت في الصفا وهي منطقة بركانية تبعد حوالي مائة ميل جنوب شرق دمشق لظهور دوام الشعاع والعادات التندبة^٢.

George M. Harper, Jr., *Village Administration in the Roman Province of Syria* (Princeton, 1928), p. 57.) انظر :

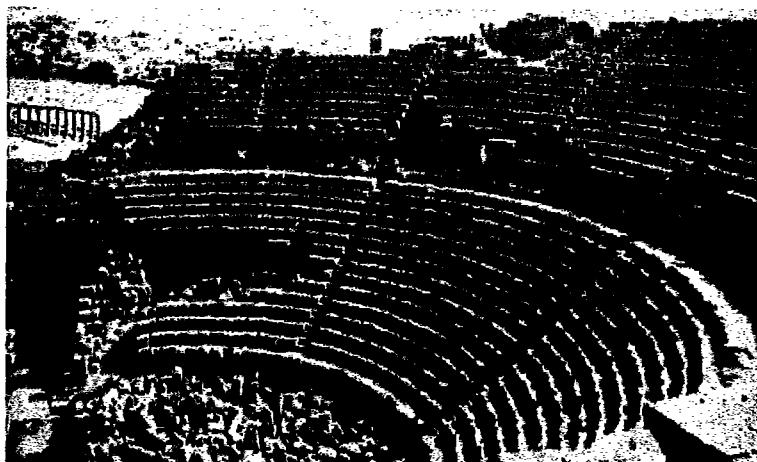
René Dussaud and Frédéric Macler, *Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne* (Paris, 1903), pp. 54 seq.) انظر :

الأغنياء

وتأتي الطبقة الاستقراطية الوطنية فوق طبقة الفلاحين وتتألف من كبار الملاكين وأصحاب قطعان الأغنام والماعز الساكنين في المدن المجاورة. وكانت أفراد هذه الطبقة زماء أيضاً في القضايا الدينية. وكانت مدن القواقل والمدن الساحلية والمستعمرات اليونانية الرومانية تُؤوي التجار الأغنياء والصناعيين وموظفي الحكومة. وأوجد الرق في المدن طبقة الذين يعتبرون أنفسهم أرفع من أن يعملوا. واستخدم بعض السادة أوقات فراغهم بصورة حسنة في خدمة المدينة أو الدولة وأخرون في خدمة الأدب والفن. ولكن أكثرهم شكلوا طبقة متقدة تنهك في الرياضة واللهو والنشاط الاجتماعي. ومع ذلك فإن عوامل الأقليم والمفاهيم التقليدية للحياة عملت على الاعتدال في العادات. وإن شعور الولاء نحو العائلة – وهو أثمن عنصر في تراث العصر القبلي – لم يفقد سيطرته على السكان ولا يزال حتى اليوم قوة حية.

الاحوال الاجتماعية

كانت نساء الريف يخرجن سافرات كما هي الحال اليوم. أما نساء المدن فكن



المسرح الجنوبي الكبير في جرش
بني في عهد دوميتيان في نهاية القرن الأول

يلبسن براقع تقتصر على الرأس فقط او تحيط بالرأس وتتدلى على الاكتاف بما يشبه طريقة الحجاب الحديثة. ويظهر الوشم احياناً على ثالث النساء غالباً ما يكون على الصدر وهي عادة لا تزال موجودة.

وعما ان القانون الروماني لم يعترف بغير زوجة واحدة فلا بد ان نظام تعدد الزوجات لم يكن سائداً في الاقسام المأهولة في سوريا الرومانية. ويدو انت المثنان وهي عادة سامية قديمة قد اهل نتيجة للاحتكاك مع المندن الاوربيين^١ وترك نهائياً بتأثير المسيحية.

كانت انواع الاله في المدن المتأثرة بالحضارة الهلينية او الرومانية وفي المدن الساحلية هي من النوع اليوناني الروماني العادي كالمصارعة وسباق المربات والمباريات الموسيقية والتمثيليات المسرحية. وكان ركوب المجن شائعاً في المناطق المجاورة للصحراء. وكان الصيد محبياً لدى الاغنياء. وترى هنا البقايا الارثية من اثار صيد الدببة والبقر الوحشي والغزلان والخفافيز البرية من قبل رماة السهام او حاملي الرماح الراكبين. واستعملت كلاب الصيد احياناً. اما الحمامات العامة وهي مزدحمة من الجنازير والحمام الساخن وكانت قد ظهرت في سوريا الساوية فقد ظلت موجودة في الفترة الرومانية.

منذ اوائل عصر الامبراطورية بدأ السوري يقترب في تفكير الرومان بالموسيقى والرقص والعبال السرک وغيرها من انواع التسلية. ويظهر في الادب اللاتيني ذكر راكبي خيل السباق من لاوديسة وبملين من بيروت ولاعبي السرک من صور ورافقين الباليه من قيصرية والعازفين على الناي من مدينة هليوبولس والموسيقيين من غزة والمصارعين من عسقلان. وانشأ المئلدون السوريون المخترقون فرقاً منظمة تذهب من مكان الى مكان ويع肯 استئجارها في الولائم ومناسبات الاعياد. ولا بد ان روما قد درعت عدة فرق بهذه وكان بعضها من انطاكية. ويصرح الشاعر المهجاء الروماني جوف قال^٢ (حوالي ٦٠ - ١٤٠ م) بلهجته غاضبة : « لقد اخذ نهر العاصي السوري منذ مدة طويلة يصب مياهه في نهر التiber حاملاً معه وطانته

(١) انظر : Herodotus, Bk. II, ch. 104.

(٢) انظر : Satura, No. 3, ll. 62-65

وعاداته وقيثاراته وأوتار اعواده». وتحدث الرومان عن لاعبات الناي السوريات ambubaias^١ كما يتحدث الناس اليوم عن المرأة الباريسية المتألقة. وجاء في خبر لاثيناؤس^٢ أن فينيقية «ترن باللاغاني البذيئة من اقصاها إلى اقصاها». وتفرغ الامبراطور الخليل فيروس Verus بعد حملته إلى البلاد الفرتيسية في سنة ١٦٦ م للهو والمتعة في اللاذقية ودفنته ثم عاد إلى عاصمه بقاقة من الموسيقيين والممثلين والمرجفين السوريين وغيرهم من المسلمين الذين أثروا في ذوق العصر بصورة محسنة.^٣

انطاكية ودفنة

وكان لانطاكية وضاحيتها دفنة قصب السبق في حياة الترف والخلاعة. وليس هناك مكان آخر في سوريا الرومانية حيث يبدو التمتع بالحياة كهدف رئيسي للسكان وواجباتها كأمر ثانوي كما في هذه البقعة من شمال سوريا. وسمح بومي لانطاكية^٤ بان تختفظ بامتياز الحكم الذي حازته في عهد السلوقيين. وقد جردها سبتيموس سفيروس بعد ظفره في إيسوس (١٩٤) من رتبة متربولس (مدينة رئيسية) وجعلها «قرية» تابعة للاذقية بسبب تأييدها لمنافسه. وجعلها خلفة كراكلا مستعمرة^٥. وانعم بوليوس قيصر عليها بعدة منشآت من بينها مسرح ومدرج. وسام هيرودس الكبير ببناء طريق ورواق معبد^٦. واضاف اليهسا كاليفولا وتراجان وهادريان عدداً من الحمامات. ورصف انطونينوس بيوس طريقها الرئيسي بالغرانيت الذي أتى به من مصر. واعاد كومودوس (١٨٠-١٩٢) تنظيم العابها الاولمبية الدورية. وكانت في زمن يوسيفوس^٧ ثالث مدينة في

(١) مشتقة من الكلمة السريانية ambūbo وتنبي الناي.

(٢) انظر : Athenaeus, Bk. XV, § 697c.

(٣) انظر : Mommsen, vol. ii, p. 132; Bouchier, p. 17.

(٤) انظر : Glanville Downey, «The Political status of Roman Antioch», *Bericht*, vol. vi (1939-1940), pp. 1 seq.

راجع بشأن امتيازات المدن والمستعمرات : A. H. M. Jones, *The Greek city* [(Oxford, 1940), pp. 132 seq.]

(٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3; *War*, Bk. I, ch. 21, § 11.

(٦) انظر : War, Bk. III, ch. 2, § 4; George Haddad, *Aspects of Social Life in Antioch in the Roman-Hellenistic Period* (Chicago, 1949), pp. 70-73.

الامبراطورية (بعد روما والاسكتندرية). وكانت المصايب تفي « شوارعها المبلطة وساحتها العامة بعد حلول الليل ». وكانت هذه المدينة بمختلف المدن الأخرى « يوازي فيها توهج الانوار في الليل بصورة عامة تألق النهار^١ ». ويشير ليبيانيوس أحد فصحاء انطاكية المتأخرة^٢ (حوالي ٣٩٣ - ٣١٤) في خطبة متداخ فيها مدینته الى هذه الصفة فيقول: « تحلى انوار اخرى مكان نور الشمس وهي مصايب تفوق بكثير احتفال المصريين بالنور »، وعندنا يتميز الليل عن النهار باختلاف وسائل التنوير فقط ». ولا يوجد وصف كهذا بالنسبة لآية مدينة أخرى. ويفخر ليبيانيوس^٣ بعد ان يصف منابع دفنة والقناة التي تتجه منها الى انطاكية فيقول:

لكل ساقية في الحمامات العامة غزاره تشبه النهر ، والوضع مشابه بالنسبة لمعد من الحمامات الخاصة . وبقدر ما هناك بيوت السكن هناك أيضاً بحارات للياه لا بل تجد في بعض البيوت عدداً من هذه البحارات . كما ان اغلب المصانع تتمتع بهذه الفوائد نفسها . ولهذا فاتنا لا نعرف القتال عند الآبار العامة حول من يخرج منه اولاً – وهو شر يقلي منه عدد كبير من المدن حين يكون الازدحام شديداً حول الآبار وتعال الاصوات بسبب الجرار المخطمة . اما لدينا فان المراكز العامة للمياه تجري مياهها لأجل الرينة طللا ان كل انسان لديه مياهه داخل بيته . ويبلغ من صفاء هذا الماء ان الدلو يبدو فارغاً ويبلغ من بهجهة انه يجذبنا للنهل منه .

كان الطريق بين انطاكية ودفنة وطوله خمسة أميال تحيط به الحدائق العامة والتواشير والمنازل الخاصة والابنية الفخمة التي تتناسب مع موكب الافراح الذي كان يجتذب بين بوابة المدينة ومركز المسرات المألوفة . وكانت دفنة ذاتها التي يبلغ محياطها عشرة أميال حديقة للمرات ، وهي على حد تعبير ليبيانيوس « انتى هبة اعطتها ملكة العرائش ». وكان المكان ذا شهرة عالمية بسبب مياهه السائلة المتداقة ومبراته الظلليلة واسجاره الجميلة من الغار (الذي سميت باسمه) وسروره الطويل وجميع ذلك كان مكرساً لأبولون . وقد ابقى الاباطرة المسيحيون انفسهم فيما بعد على هذه الاشجار . وكان القانون الذي يمنع قطعها لا يزال ساري المفعول في القرن السادس^٤ . وكانت توجد ساقية في الغابة المقدسة تضطرب مياهها لاسباب

١) انظر : Ammianus Marcellinus, *Rerum gestarum*, Bk. XIV, ch. 1, § 9.

٢) انظر : *Orationes*, No. 11, § 267.

٣) انظر : *Orationes*, No. 11, §§ 244-245.

٤) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 14, § 5.

محملة في فترات معينة. وكان الكهنة الملزمون لما يصابون أيضاً بغيروبة ويجيبون على الأسئلة المطروحة عليهم. وكان الاباطرة أنفسهم يستشرون نبوءة دفنة هذه. وكان يتمتع معبد أبولون وديانا الذي بناء سلوقي في الأصل بحق آيواء اللاجئين.^١ وكان فيه صنوف من الأعمدة على الجانبين وجدران تشع برخامها. وينتصب فيه قتال ضخم لأبولون يكاد يمس السقف. وكان الاباطرة القدماء الذين يزورون دفنة يقيمون في الخيام. وقد بنى ديو كليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) قصرأً فيها واضاف تيدوسبيوس (٣٧٨ - ٣٩٥) إلى جهله. وبني هادريان الذي كان نائباً للإمبراطور



القناة الرومانية التي تحبس المياه من دفنة الـ اطلاكية

على سوريه وتلقى في انطاكيه انهاء اعتلائه العرش عدة ابنية في انطاكيه ومسرحأً في دفنة . كما انه اصلاح او وسع الاقيمة التي ترود البلدان بالمياه . وقد ازدانت دفنة بعدة ابنية اخرى . ولم تتفوق عليها اية مدينة في الامبراطورية في بهاء ابنيتها العامة

(١) انظر : § 6. Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 6. وسفر الماكبيين الثاني ٤ : ٣٣.

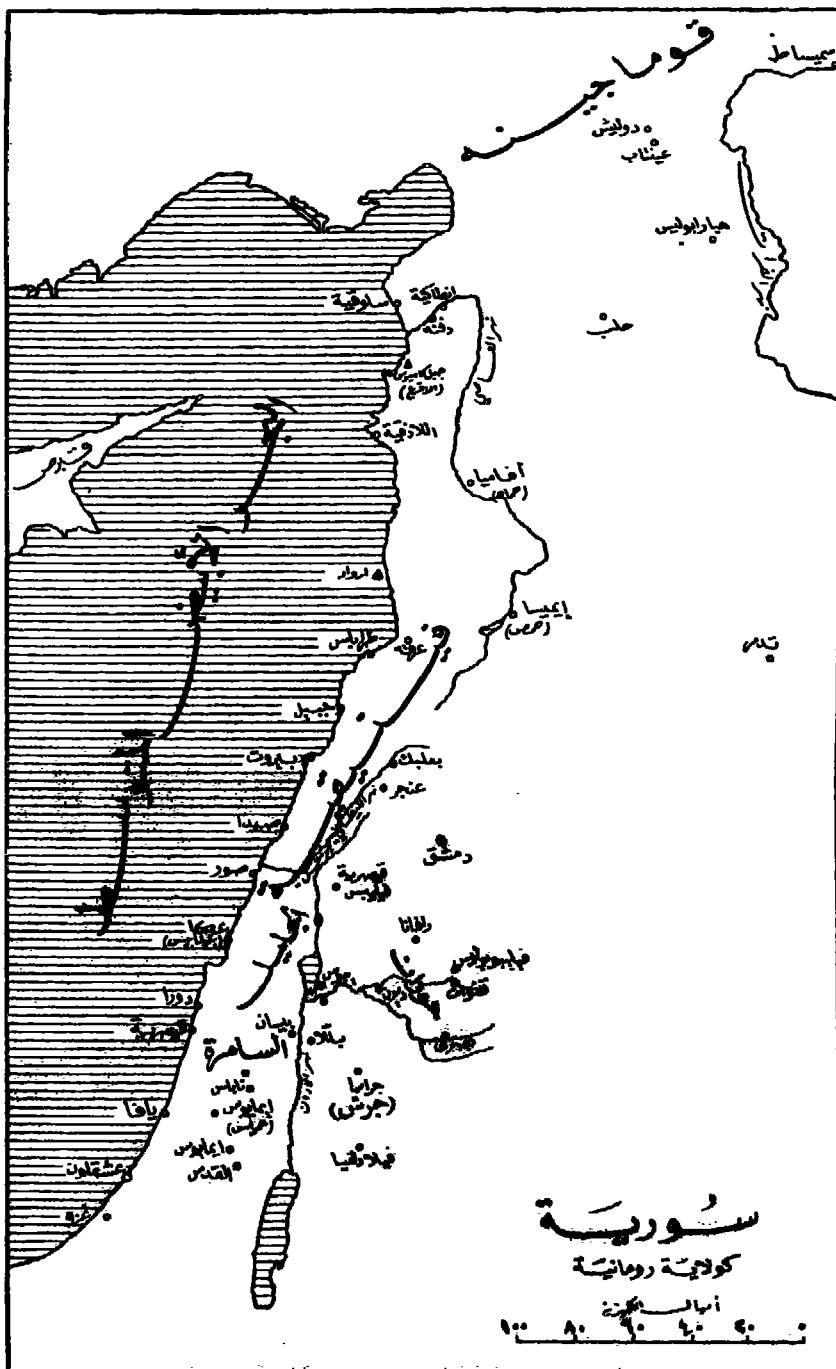
وْفِخَامْتَهَا^١. وَكَانَ الشَّارِعُ الرَّئِيْسِيُّ فِيهَا الَّذِي يَبْلُغُ طُولُهُ مِيلَيْنَ وَالَّذِي تَوْجَدُ عَلَى جَانِبِيهِ صَفَوفٌ مِنَ الْأَعْدَةِ الْمُقْطَاطَةِ وَيَتَوَسَّطُهُ طَرِيقٌ عَرِيشٌ لِلْعَرِبَاتِ يَجْتَازُ وَسْطَ الْمَدِينَةِ بِحَادَّةِ نَهْرِ الْعَاصِي^٢.

كَانَتْ دَفْنَةً مِنْذِ اِيَامِ السَّلُوقِيِّينَ مِنْ كَزْ اَعْظَمِ الاحْتِفالَاتِ بِاللَّاعِبِينَ فِي سُورِيَّةِ. وَقَدْ اُوصِيَ اَحَدُ اَعْصَاءِ مَجْلِسِ الشِّيُوخِ الْأَغْنِيَاءِ مِنَ اِنْطاَكِيَّةِ – وَكَانَ قَدْ رَافَقَ اُوْغُسْطَسَ فِي عُودَتِهِ إِلَى رُومَّا – بِكُلِّ ثُروَتِهِ لِاقْتَامَةِ اِحْتِفالَاتِ فِي دَفْنَةِ تَدُومُ ثَلَاثَيْنِ يَوْمًا لِلِّاعِبِيَّةِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى الرَّقْصِ وَالرَّوَايَاتِ التَّمَثِيلِيَّةِ وَسَبَاقِ الْعَرِبَاتِ وَمَبَارِيَاتِ الرِّيَاضَةِ وَالْمُصَارِعَةِ . وَفِي اَوَّلِيَّنَتَرِنِ الْتَّالِيَّ مَدَدَتْ فَسْتَرَةُ الاحْتِفالَاتِ إِلَى خَمْسَةِ وَارْبَعِينِ يَوْمًا . وَسَاهَمَتِ النِّسَاءُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الِّاعِبَاتِ . وَكَانَتِ الاحْتِفالَاتِ كَمَا يُعْكِنُ اَنْ يَتَوَقَّعُ مُشَهِّدًا لِبعْضِ الْحَوَادِثِ الْاخْلَاقِيَّةِ الشَّادَّةِ . وَاصْبَحَ يَضْرِبُ المِثْلَ بِدَفْنَةِ حَلَاعَتِهَا .

كَانَ الْانْطاَكِيُّونَ الْمُعْرُوفُونَ بِكَبْرِيَّاتِهِمْ وَشَفَّبِهِمْ وَرَوْحِمِ النَّفَادِ مُشَهُورِينَ بِبَرَاعَتِهِمْ فِي فَنِ السُّخْرِيَّةِ وَلَا بَدَ اَنْهُمْ لَمْ يَنْسَا بَأْنَ مَدِينَتِهِمْ كَانَتْ فِي مَضِيِّ مَدِينَةِ مُكْكِيَّةِ وَلَذِلِكَ كَانُوا عَلَى اِسْتَعْدَادِ لِتَأْيِيدِ اِيَّ مَطَالِبِ بِالْعَرْشِ يَرْشَحُهُمُ الْجَيْشُ السُّورِيُّ . وَكَانُوا يَتَخَاصِمُونَ دَائِمًا مَعَ الْاِبَاطِرَةِ الَّذِينَ يَقِيمُونَ فِي مَدِينَتِهِمْ . وَقَدْ جَرَّدَ هَادِرِيَّانُ مَدِينَةَ مِنْ حَقِّ اِصْدَارِ الْقَدْرِ كَمَا جَرَّدَهَا مَارِكُوسُ اُورِيلِيوُسُ مِنْ حَقِّ اِنتِخَابِ مَجْلِسِهِمْ . وَنَقْلَ سَبْتِيَّوسُ سَفِيرُوسُ الزَّعَامَةِ بَيْنَ الْمَدَنِ السُّورِيَّةِ إِلَى الْلَّادَقِيَّةِ حِيثُ بَقِيتَ مُوقِّعًا وَجَعَلَتْ اِنْطاَكِيَّةَ مَلْحَقَةً بِالْلَّادَقِيَّةِ لِمَدَدَةِ مِنَ الزَّمِنِ كَمَا ذَكَرْنَا . وَكَانَ الْاِبَاطِرَةُ يَنْحُونَ الْاِلْقَابَ وَالْاِمْتِيَازَاتَ لِبَعْضِ الْمَدَنِ مَكْلَافَةً لَهَا عَلَى حَسْنِ سَلُوكِهَا وَبِمِيرَدَوْنِهَا مِنْهَا كَعْقَابٌ لِعَدْمِ وَلَائِهَا . وَقَدْ اَمَرَ سَفِيرُوسَ بِتَقْسِيمِ سُورِيَّةِ إِلَى وَلَائِيَّةِ شَمَالِيَّةٍ تُسَمَّى سُورِيَّةِ الْمُجْوَفَةِ وَسَمِعَ بِاِقْتَامَةِ فَرَقَتِينِ فِيهَا وَالِّيَّةِ جَنُوبِيَّةٍ وَتُسَمَّى فَيْنِيَقِيَّةِ السُّورِيَّةِ وَسَمِعَ بِفَرْقَةِ وَاحِدَةٍ . وَقَدْ بَدَأَ زَرَاعَ اِنْطاَكِيَّةَ فِيهَا بَعْدَ مَعْ بُولِيَّانِسِ الَّذِي اَمْضَى فِيهَا شَيَّاءَ سَنَةَ ٣٦٢ يَسْتَعِدُ لِمَلْتَهِ الْفَارِسِيَّةِ حِينَ حَاوَلَ تَحْدِيدَ اسْعَارِ الْمَشْرُوبَاتِ وَالرَّقْصِ . وَكَانَ اَعْصَاءِ مَجْلِسِ الشِّيُوخِ يَسْيُطُونَ عَلَى «الْمَوْقِعِ السُّورِيِّ» . وَكَانَتْ اَكْثَرِيَّةُ السُّكَّانِ

(١) انظر : Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 129.

(٢) انظر : G. Downey, « Imperial Building Records in Malatas », *Byzantini-sche Zeitschrift*, vol. xxxviii (1938), p. 308.



آنذاك من المسيحيين ولكن الامبراطور لم يكن مسيحياً وقد حاول اعادة الوثنية. فسخروا منه بأنه قزم يتباهى باعية تيس^١. وكانت اهاناتهم حليقين دائماً حتى في شيخوختهم. وكان تراجان قبله عددة طولية قد جعل انطاكية مقر الملائكة الفرتية التي انتهت فيها حياته. وحين كان الامبراطور يشتو فيها سنة ١١٥ م. تعرضت المدينة لاعنة زلزال تذكره المصادر وكاد ان يهلك هو فيه. (وقد بلغ من اهتزاز جبل كاشيوس نفسه ان بدت قيمتها تعجى وتتفصل عنه وتقع على المدينة ذاتها^٢). اما الكارثة الثانية التي حللت بالمدينة فكانت حين احتلها شابور الاول (Sapor) الفارسي في سنة ٢٦٠ م. وكان المواطنون في تلك الاتناء من همكين في التمتع برواية مسرحية حين صاحت زوجة الممثل فجأة، «هل نحن في حلم ام ان الفرس هنا؟» فالتفت جميع الناس حولهم واذا بالسهام تطير عليهم^٣. واسغلت النار في المدينة وذبح كثيرون من سكانها دون ان يفقد احد من الفرس.

لاوديسة وأفامية

كانت لاوديسة (اللاذقية)، منافسة انطاكية التي تقع الى جنوبها، مركزاً مسراً محباً ايضاً يتزدّد عليه الوجهاء. وفي اوائل القرن الاول الميلادي كانت التلال القليلة الانحدار التي تشرف على المدينة مغطاة كلها حتى قممها تقريباً بالكرمة. وكانت الكروم تتد شرقاً حتى افامية تقريباً وتتصدر المئور من مبناء لاوديسة الممتاز الى الاسكندرية^٤. وقد قام هيرودس الكبير (توفي ٤ ق. م.) الذي دشن السياسة اليهودية الملكية في اعداد النعم على المستعمرات الرومانية كرسيلة للحصول على رضى الاباطرة – فزود لاوديسة وغيرها من المدن بقناة للمياه^٥ لا يزال يشاهد قسم كبير منها حتى اليوم.

فاخترت افامية وهي مستعمرة شقيقة لاوديسة في الداخل منذ ایام السلوقيين

١) انظر : Ammianus Marcellinus, Bk. XXII, ch. 14, § 3.

٢) انظر : Dio, Bk. LXVIII, ch. 25, § 6.

٣) انظر : Ammianus, Bk. XXIII, ch. 5, § 3.

٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 9.

٥) انظر : Josephus, War, Bk. I, ch. 21, § 11.

بالحدائق الملكية الممتلئة بمحيا نات الصيد وبالاراضي المجاورة الفنية بالمراعي . وقد وجد في معبدها نصب لالاهة مشهورة ويرجح انها هي التي تنبأت بالعظمة المقبلة جوليا دومنة مؤسسة السلالة السورية الامبراطورية^١ وشجعت خطط زوجها سنتيموس سفيروس لوصول العرش . وقد زار سفيروس المدينة ثانية بعد ان اصبح امبراطوراً . وقد وجدت تقدمات للاله بعل الافامي في اماكن بعيدة في الغرب مثل فيزون Vaison في جنوب فرنسا حيث اقيم معبد «بعل سيد الحظ»^٢ . ويز بعضاً ابناء افامية في العصور البيزنطي واليسوعي^٣ .

حص

تقع حص على العاصي جنوبي افامية وقد احتفظت بمحكمها الوطنيين من الملوك الكهنة خلال فترة الحكم الروماني . وكانت دمشق وتدمر واديسا من المدن التي تحكمها طبقة ارستقراطية وطنية . وكانت كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة . الا ان الدولة التدمرية تطورت الى دولة كبرى^٤ . وانضمت طبقة النبلاء في حص وكذلك في تدمر ودمشق الى طبقة النبلاء الامبراطورية لفترة من الزمن وساهمت وبالتالي في ادارة الامبراطورية حتى قبل ان يتوصل اثنان من اعضائها الى العرش الامبراطوري^٥ . وكان مؤسس الاسرة الحصية رجلاً حرف اسمه باللاتينية فاصبح سامبسيجراموس Sampsigeramus^٦ . وقد جرد الامبراطور دوميتيان (٩٦-٨١) افراد ذريته من العرش . ومع ذلك عاد احد ابناء الاسرة للظهور في زمن فالريان

١) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ بشأن هذه السلالة .

٢) انظر : Philologus, vol. xxxi (1872), p. 362.

٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤ .

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

٦) يرد خطأ باسم «سامبسيكراموس Sampsigeramus» في § 10 Strabo, Bk. XVI. ch. 2, § 10قارن مع : Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 248. وبالآرامية «ليقوي الله الشمن». انظر مقال : «Sampsigeramus», Pauly-Wissowa, *Real-Encyclopädie der classischen Altertumswissenschaft*.

وقاد في عام ٢٥٨ م . حامية مدینته ضد الفربتين^١ كما فعل ملوك ادیسا الذين اسمهم (ابجر) وملوك تدمر في مناسبات مختلفة . وتال معبد بعل في حصن شهر جن رفع احد صغار كهنته واسمه بسيانوس Bassianus الى عرش القباضرة حيث تسمى الاكابالس Elagabalus (٢١٨ - ٢٢٢) بالنسبة الى الله مدينة حصن^٢ . وتسمى المدينة على نقود هذا الامبراطور باسم متروبولس وكانت تسمى على نقود سلفه كراكلا مستعمرة . واصبحت هذه المدينة فيما بعد عاصمة فينيقية البنانية^٣ .

دمشق

كانت دمشق وهي عاصمة سورية سابقاً ولاحقاً قد تفوقت عليها انطاكية وبعض المدن الساحلية طيلة العصر السلوقي والروماني . ولم يعرها الكتاب الكلاسيكيون الا اهتماماً ضئيلاً . وكانت منطقة دمشق في زمن ستراوب^٤ لا تزال تتعرض لغارات الاصوص الذين كان يتسع احد كهوفهم في تلال منطقة البجاه المعروفة باسم (أي الوعرة) في الجنوب لابواء ٤٠٠٠ منهم . وكان من المحتمل ان يغير قطاع الطرق هؤلاء على القوافل الآتية من العربية السعيدة (اليمن) . وبلغ من اتساع منطقة دمشق ان دخلت في عهد طيبريوس في تزاع على الحدود مع صيدا^٥ . وكانت تعتمد لاجل ازدهارها على تجارتها وبساطتها المرورية بالإضافة الى واردات منطقتها . ويبدو ان وضعها قد تحسن في القرن الثاني . فقد رفع هادريان المدينة الى رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) ومنحها اسكندر سفيروس (٢٢٢ - ٢٣٥) حقوق المستعمرة . وأسس فيها في عهد ديوكلينيان مصنع للأسلحة وهذه دلالة مبكرة على براعة اهلها في صنع السلاح . وحمل ابناءها التجار منها السامي حدد رمان تحت اسم جوبير الدمشقي الى الغرب حتى ايطاليا . واصبح احد كهنة

(١) انظر : Malalas, p. 296.

(٢) تشبه كلمة « الاكابال » التعبير العربي إله الجبل . انظر مقالة : « Elagabal », Pauly-Wissowa . انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

(٣) قارن مع : Malalas, p. 296.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

(٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 6, § 3.

الله جوبيرت اوبيتوموس مكسيموس دامسكينوس Jupiter Optimus Maximus عضواً في مجلس الشيوخ المحلي في ميناء بتيولي Puteoli الذي يسمى اليوم بوزيولي Pozzuoli^١.

بيروت

كانت بيروت Berytus الوحيدة بين المدن الساحلية التي لعبت دوراً هاماً في نشاط غير النشاط التجاري والاقتصادي. وقد منح الأكابالس مدينة صيدا حقوق المستعمرة. ونالت صور حقوق متروبولس في عهد هادريان ورفعها سبتيموس سفيروس إلى مرتبة مستعمرة مكافأة لها لأنها دعمته في تزاعه لاجل السلطة الامبراطورية أثناء النزاع مع نيجير الذي ايدته بيروت. ولكن بيروت كانت من اقدم المستعمرات الرومانية في سوريا وقد منحها اوغسطس اللقب الفخرى كولونيا جوليا اوغستا فيلكس Colonia Julia Augusta Felix بالنسبة لابنته^٢. وقد تحسن ميناؤها في عهد هذا الامبراطور بالإضافة رصيفين على شكل هلال لها ابراج في كل طرف ويعکن ان تتد منها سلسلة لمنع دخول السفن غير المرغوبة. ولما كانت بيروت مركزاً مفرزة من الفرقة الثالثة العالية منذ ایام اوغسطس فقد أصبحت مدينة ذات حامية وكان سكانها يقدمون جنود الاحتياط حين يحتاج نائب الامبراطور إلى ذلك^٣. وأصبحت في وقت باكر جداً جزيرة رومانية في بحر هليني. وبما ان ملوك اليهود كانوا يرغبون باستعطاف الاباطرة الرومان عن طريق منع الهبات للمستعمرات فقد خصوا مدينة بيروت بكثير من عطفهم المادي. فشيد اغريبا الاول (٤١-٤٤) حفيدهيرودس الكبير في بيروت. مسرحاً فائضاً في فخامته وجماله كما بني مدرجات وحمامات واروقة معددة اتفق عليها بلا حساب^٤. وجرت في تدشينهما حفلات موسيقية كما حصل عرض لألعاب المصارعة. ولاجل الزيادة في روعة البرنامج ادخل نحو سبعين زوج من المجرمين إلى الملعب وتصارعوا حتى قصوا

(١) انظر : *Corps Inscriptionum Latinarum*, vol. x (Berlin, 1883), No. 1576.

(٢) راجع : Pliny, Bk. V, ch. 17, § 20.

(٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 10, § 9.

(٤) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIX, ch. 7, § 5.

الواحد على الآخر . وبعد سنوات قليلة احتفل تيطس بعيد ميلاد والده فسباسيان بعرض مشاهد بمائة ولكن الضجيجا في هذه المناسبة كانوا من اسرى اليهود . وقد جعل اغريبا الثاني (توفي سنة ١٠٠) من بيروت مقره المحب وموئل احتفالاتها السنوية واقام فيها عدة تماثيل . وكانت حفلاتها المسرحية والألعاب السرك فيها لا تزال شائعة في القرن الرابع .

اشتهرت المدينة في مجال آخر من النشاط . فقد كانت مركزاً أشهر مدرسة للقانون الروماني في الولايات ولذلك أصبحت كعبة رجال القانون في الشرق كله وبقيت كذلك لآخر عصر الامبراطورية^١ . وكان يظهر بوسيدون (بتون) الاله الحامي للمدينة على التقدود ممسكاً بيده رحماً بثلاث شوكات او تجره خيول البحر .

هليوبولس

كان بيروت مستعمرة شقيقة في سوريا الجوفة هي هليوبولس . وقد احتفظ الرومان بهذا الاسم اليونياني (مدينة الشمس) وكان قد فرضه السلوقيون حين جعلوا المها بعل معادلاً للإله الشمس . واستعاد الاسم السامي القديم ، الذي يمكن ان يكون معناه بعل البقاع وليس مدينة بعل ، مركزه وبقى في اسم بعلبك . وجعل أوغسطس المدينة مستعمرة ووضع فيها حامية من نفس الفرق التي استخدمت في جعل بيروت مستعمرة . وسميت على التقدود التي صدرت في عهده باسم كولونيا جوليا او أغسطسا هليوبولس *Colonia Julia Augusta Heliopolis* . ولكن صفة المدينة الرومانية بقيت أقل من صفة بيروت وصفتها اليونانية أقل من انتاكية بينما كانت صفتها السامية أكثر من الاثنين .

كان العازفون على القيثار من هليوبولس معروفين في كل الامبراطورية مثل موسيقي انتاكية . وكانوا يدعون للاشتراك ليس في مناسبات الاعياد فحسب بل في طقوس المعابد ايضاً . وكانت نساء المدينة مشهورات بجماليهن وهي نعمة منتحنن ايها الالهة السورية التي تلازم منحدرات لبنان المجاورة^٢ كما اشتهر الرجال

(١) انظر : § 1. Josephus, *War*, Bk. VII. ch. 3, § 1; ch. 5, § 1.

(٢) انظر ما سبأني في الفصل ٢٤ .

(٣) انظر : « *Descriptio* », in Karl Müller, *Geographie Graeci minores*, vol. ii (Paris, 1861), p. 518.

بفضاحتهم وذلك من ايماء عرائس الشعر في منطقتهم الجبلية . ولكن الشهرة العالمية لمدينة كان مصدرها معبدها المظيم .

ويرجع هذا المعبد الذي كرتس في الاصل لعبادة الاله السوري حدد الى ما قبل العصر السلوقي على الفالب . وتحت شعائره بشهرة كبيرة حتى قبل ان يعاد بناؤه ويوسع من قبل الاباطرة الرومان . وقبل ان يبدأ تراجان حلته الثانية ضد الفرتين (١١٦ م) بدأ باختبار قدراته على التنبؤ بتقديم ورقة بيضاء من ورق الكتابة في ملفت مختوم وجواباً على ذلك تلقى ورقة فارغة مما اعطاه فكرة رفيعة عن قوة بصيرة المقام وقدرته على التنبؤ^١ . ثم تابع استشاراته بصورة جدية فجاءه الجواب بصورة رمزية وكانت عبارة عن حزمة من الاخشاب ملفوفة بقطعة من القماش . وكان موت تراجان في سنة ١١٧ في كيليكية ونقل رفاته منها الى روما تفسيراً كاملاً وان يكن متاخرأً لما ظهر من المعبد .

بدأ التوسيع المتقن لمعبد هليوبولس في عهد انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١)^٢ واستمر ببطء حتى زمن كراكلا (٢١٦ - ٢١١) وغيره من اباطرة السلالة السورية الذين اقروا البناء وجعلوه من عجائب الدنيا . ويظهر المعبد لأول مرة على احد وجهي نقود سبتيموس سفيروس . وحفر كراكلا وامه السورية جوليانا دومنة كلمة «هليوبولس» على نقودها . ولا تزال التذكرة على شرف هذين الاثنين مقرورة جزئياً في اللغة اللاتينية على قاعدة رواق المعبد العظيم حيث تقول الكتابة الاثرية ان الاعدة النحاسية قد كرست وان التيجان طلبت بالذهب على شرفهم من قبل احد افراد الفرقة العسكرية^٣ . ويرد اسم المعبد ايضاً على نقود فيليب العربي (٢٤٩ - ٢٤٤ م)^٤ .

كان المعبد يضم عملاً ذهبياً للاله وقد ظهر بشكل شاب حليق اللحية يلبس ثوب سائق عربة فيمسك في يده اليمنى سوطاً وفي اليسرى رمح الصاعقة وسبيل

١) انظر : *Macrobius, Saturnaliorum, Bk. I, ch. 23, §§ 14-16.*

٢) انظر : *Malala, p. 280.* حيث يذكر ان انطونينوس بن المعبد كله .

٣) انظر : *Corpus Inscriptionum Latinarum, vol. iii, No. 138.*

٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

الطبع). وكان يحمل هذا التمثال في بعض الاحتفالات السنوية على اكتاف اعيان

هليوبولس الذين أعدوا أنفسهم لهذه الاحتفالات المهيّة بخلق شعور رؤوسهم ونذر التقشف والطهارة. وكانت تقدس في هذا المعبد أيضاً حجارة سوداء مخروطية وقد نقل الأكالبس أحداها إلى أحد معابد روما. وكان يقام معرض تجاري في المدينة بهذه المناسبة. وقد جعل المعبد من هليوبولس أشهر مدينة في منطقة لبنان وثاني مدينة بعد انطاكية في ولاية سوريا لمدة قرون. وحمل التجار والمحاربون القدماء إلى بلاد كثيرة في الغرب هذا الإله السامي القديم باسم جوبيتر هليوبوليتانس Jupiter Heliopolitanus وكان لقبه الكامل هو جوبيتر أوبيتوموس مكسيموس هليوبوليتانس Jupiter Heliopolitanus Optimus Maximus Heliopolitanus.



شكل يمثل جوبيتر اوبيتوموس مكسيموس هليوبوليتانس في بعلبك

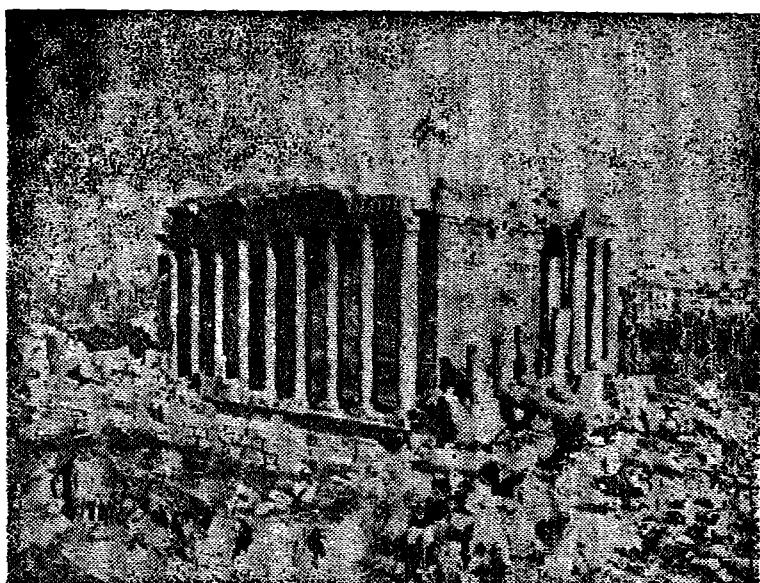
تفوق خرائب معبد هليوبولس^٢ آية خرائب أخرى وصلتنا من عهد الرومان بما فيها خرائب روما نفسها. وقد نسب المسلمون، الذين حولوا منطقة المعبد إلى

٦) انظر: Macrobius, Bk. I, ch. 23, §§ 11-13.

٢) درست هذا الواقع وتثبت فيه بعثة المائة بين ١٩٠٢ - ١٩٠٤. انظر: O. Puchstein, *Erster und zweiter Jahresbericht über die Ausgrabungen in Baalbek* (Berlin, 1902-1903); do., *Führer durch die Ruinen von Ba'albek* (Berlin, 1905);

راجع أيضاً: Theodore Wiegand, *Baalbek*, 3 vols. of text, 1 of illustrations (Berlin, 1921-5).

قلعة ، بناء الى سليمان لانه من يستطيع غير سليمان الذي كان يسيطر على الجن ان يقوم بناء كهذا^١ . وبالرغم مما سببته الفرات الارضية وهجمات المغول فان ما بقي من المعبد كاف لاحداث اثر في كل من يشاهده . ففي داخل منطقة القلعة توجد بقايا معبدتين مع ملحقاتها وها : معبد جوبيتور - حدد و معبد رفيقته اثار غاتس (عشتاروت) الذي ينسب بصورة عامة الى باخوس^١ . ومن بين هذين المعبدتين فان

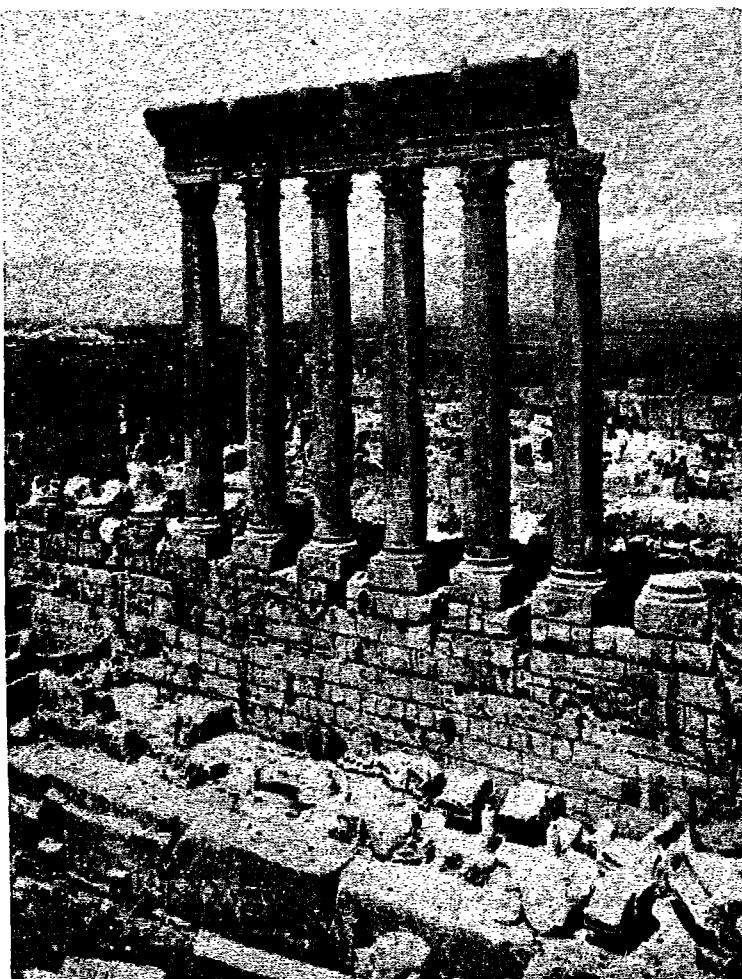


هيكل (باخوس) عشتاروت من التمثال الفري

معبد اثار غاتس هو احديها واصغرها ولا يزال سالماً اكثراً من الآخر . وفي الحقيقة فانه احسن الابنية القديمة حفظاً واكثرها غنى في الزخارف في سوريا كلها . وتحيط بهيكل جوبيتور - حدد مجموعة من اعمدة كبيرة من الحجر الاصفر ذات

Hermann Thiersch, «Zu den Tempeln und Zur Basilika von Baalbek»,^{١)} *Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen*, Philologisch-historische Klasse (Berlin, 1926), pp. 1 seq. ; do., «Le Temple de la déesse Syrienne à Ba'albek », *Revue biblique*, vol. xxxv (1926), p. 461.

تيعان كورنثية تعلوها الافاريز . ولا تزال ستة من هذه الاعمدة تقف شامخة حتى هذا اليوم تواجه جبال لبنان بعظمة مهيبة . والواقع ان هذه هي البقايا



الاعمدة الستة القائمة في معبد جوبيتار في بعلبك

الرئيسية من معبد جوبيتار - حدد كله . ويتتألف كل عمود من ثلاثة قطع من الصغر ويترفع الى علو ٦٢ قدماً ويبلغ قطره سبعة اقدام ونصف . وقد اخذ

بوستثنى من بعلبك الاعدة من البورفير التي جلبت بالاصل من مصر واستعملها في بناء كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا). وظهر في احد هذه الاعدة بعد ان كسر على الطريق المعدن الذي كان يصل بين اقسامه.

ويبلغ طول كل جانب من الباحة التي اقيم فيها المذبح نحو ٣٤٠ قدمًا. وكان يحيط بها رواق يضم ثانية واربعين عموداً. وبنيت في طرفيها الغربي كنيسة من نوع الباسيليكا ذات ثلاث حنيات في القرن السادس ولكنها تنسب عموماً الى قسطنطين او تيودوسيوس وكلاهما من القرن الرابع^١. وينتصب المعبد بكامله على مصطبة اصطناعية تقوم على مجموعة هائلة من الاقيمة. ولا يزال يشاهد المعبد حتى اليوم من مسافة بعيدة. ويتتألف الطرف الشمالي الغربي من السور من حجارة ضخمة قد يكون العرض منها تأمين متانة البناء في حال حدوث الزلازل. ويبلغ قياس الجوانب في ثلاثة من هذه الحجارة التي تعلو ٢٠ قدمًا عن الارض ما يقارب $14 \times 11 \times 62$ قدمًا للكل حجر منها. وقد قدر ان كل واحدة من هذه تكفي لبناء بيت ضريح يبلغ سميك جدرانه قدمًا واحداً وطول واجهته ٦٠ قدمًا وعلوه ٤ قدمًا. ولا تزال صخرة تشبه هذه الصخور موجودة في المقلع السكائني في ضواحي المدينة.

وبالاضافة الى ضخامة الحجارة في الجدران والحجم المائل للاعدة فان ما تتصف به بشكل خاص بمجموعة الابنية الباقية هو الفن في تفاصيل الزخارف والاسكال المنحوتة في الافاريز. وتتألف الزخارف من القبع والخشخاش (التي ترمز الى الحياة والموت) وصور الجن المجنحين وهم يرفعون الحجاب وصور كيوبيد يحمل الاقواس والسيام او يركب على التنين والدلفين. وترى درجات المدخل اشجار الكرمة وضفائر الزهور. وتفصلي السقف اشكال هندسية تنتشر فيها اوراق النباتات بالإضافة الى تماثيل نصفية للباطرة او الالهة. ومتناز بوابات معبد اثار غاتس بفنها باوراق الاشجار والاسكال المنحوتة.

ويقع على بعد حوالي ٣٠٠ يردة من القلعة معبد مستدير يعود الى العصر الامبراطوري المتأخر وينسب الى فينيوس او فورتنا (الاهة الحظ). وتحول هذا

(١) انظر : Thiersch in Nachrichten pp. 20 seq.

المعبد في العصور الوسطى الى كنيسة مكرسة للقديسة بربارة فضمن بذلك بناءه . ويقوم في وسط المدينة الحاضرة .

سورية الجنوبيّة

قامت مدن ذات خواص مختلفة جنباً الى جنب في سوريا الجنوبيّة . فهناك المدن الفلسطينية القديمة على الساحل — غزة وضاحيتها انتيدون^١ وعسقلان ويفا وعكا وكانت كلها قد أصبحت مصطبقة بالصيحة الملبيّة في هذا الزمن . ويقول ستراوب^٢ بأن يافا كانت مركزاً سيّئاً السمعة لزعماء الصوص . ثم تأتي المدن اليهودية التي بنتها الاسرة الهيروودية وهي : قيسارية على البحر وسبطية وطبرية وقيصرية فيلي . وتنت هذه بعض المستعمرات الرومانية القليلة وكانت احدها نابلس (المدينة الجديدة) وتذكر في العهد القديم باسم شکيم . وحدث اثناء الحرب اليهودية ان يهود هذه المدينة التي كانت تدعى سكينيوبولس انقلبوا على شعبهم وناصروا الرومان الذين قضت فرقان من جيوشهم فصل الشقاء فيها^٣ . وقد هدمت المدينة فيها بعد من قبل اليهود الثائرين^٤ . وبعد الحرب اعاد فسباسيان الذي كان اسمه الاول فلاقيوس بناء المدينة التي دعيت آنئذ تكريماً له باسم فلافيانا نابلس Flavia Neapolis مكان ولادة يوستين الشهيد^٥ . وهو من آباء الكنيسة الاوائل ويعود اليه الفضل بافتتاح اول مدرسة مسيحية في روما حيث يقال انه جلد حتى مات حوالى العام ١٦٥ م .

بني فسباسيان مدينة اخرى هي عمواس Emmaus وقد وضع فيها ثانفة من

(١) جمل هيرودس اسمها غريبياس . انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 13, § 3 . وينظر إلى Pliny, Bk. V, ch. 14 . حين يجمل موقعها في الداخل ولا يزال الاسم القديم ظاهراً في خربة تيدا Kbirbat-Tida . انظر : Abel, vol. ii, p. 200.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 28.

(٣) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, §§ 3-4.

(٤) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, § 1.

(٥) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل .

الحاربين القدماء^١. وهذه المدينة هي عمواس المذكورة في انجليل لوفا (٢٤:١٣) وتقع على بعد سبعة أميال الى الشمال الغربي من اورسليم على الطريق الرومانية^٢ وتحبّ تعييزها عن مدينة اخرى باسم عمواس تقع على بعد عشرين ميلاً الى الشمال الغربي من اورسليم^٣. وتعطينا فيلوبولس Philippopolis في منطقة حوران مثلاً عن بلوغ احدى القرى رتبة مدينة. فقد كانت بالاصل قرية قليلة الامانة بمحوار بصرى ثم دفعها فيليب العربي الذي ولد فيها الى رتبة مدينة في ٢٤٤ م. وكانت تلك السنة تاريخ ارتقاءه الى عرش القياصرة. وقد ازداد سكان المدينة بدخول عصر جديد اليها وهو المستعمرون الاطاليون واصبحت نفسها مستعمرة رومانية. وهي مدينة شهبا كما يذكرها الجغرافيون العرب^٤.

اما في الداخل فقد يقع حلف «المدن العشر» او الديكابولس موجوداً. ويعدّ بليني^٥ المدن ويشير الى «منطقة الديكابولس» التي بدأت كأبيات حيث يتصل مرج ابن عامر (Esdraelon) بوادي الاردن وتنتهي الى الشرق. وكانت تسيطر هذه المدن على المنطقة وقد اختلف عددها بين حين وآخر. وينذكر بطليموس بيت - شان وبيلا وديون Dion وجرش Gerasa وفيلاطفيا^٦ وجدرة ورافانا Raphana^٧ وكناها Kanatha^٨ وهيبوس^٩ ودمشق. واضيفت لها مدن اخرى فيما بعد

(١) انظر : Josephus, *War*, Bk. VII, ch. 66.

(٢) وهي اما ان تكون كيبه Kubaybah الحاضرة او جاراتها قلوبه Qaluniyah (colonia).

(٣) انظر سفر الكابيin الاول ٣ : ٤٠ : ٩ : ٥٥ : ٤ Josephus, *War*, Bk. II, ch. 20, § ٤.

(٤) راجع باتونج ٣، ص ٣٣٩ Dussaud, *Topographie*, p. 368; Abel, vol. ii, p. 184.

(٥) انظر : Pliny, Bk. V, ch. 16.

(٦) بالنسبة لمدينة مكدونية وهي تل الاشعري اليوم بين هيروس وكناثا (القوات) شرق بحيرة طبرية. انظر : Abel, vol. ii, p. 306.

(٧) ربة عمون وهي عمان اليوم.

(٨) هي الراقة في حوران.

(٩) هي القنوات جنوب شرق رافانا.

(١٠) هي قلعة الحصن في الجانب الشرقي من بحيرة طبرية.

فاصبح العدد ثانية عشر . وفي عهد الرومان تفوقت بيت شان وتقع على الطرف الغربي من نهر الأردن على شقيقاتها التي تقع كلها شرق النهر^١ . ولد باسيليوس الأصغر Basilides the Younger وهو فيلسوف ومعلم ماركوس اوريليوس في بيت شان . وهناك مدينة مشهورة أخرى في الديكلابولس وهي جرازه — جرش اليوم — وتقع على بعد سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرق بحيرة طبرية وأثنين وثلاثين ميلاً جنوب شرق جدرة . وقد كشفت حفرياتها الحدية عن الخطط اليوناني للمدينة التي كان فيها مسارح ومعابد وملعب وساحة عامة (فوروم) وشوارع معمرة وأكثرها يعود الى آواخر القرن الاول او الى القرن الثاني الميلادي . وتعتبر هذه الآثار الرائعة ، كالبيراء وتدمير وهليوبولس ، من اعظم الآثار شهرة في سوريا الرومانية . وقد تبع المسيح في عهد رسالته الاولى جموع من مدن الديكلابولس^٢ .

١) انظر : Rowe, *Topography and History of Beth-Shan*, p. 46.

٢) انظر انجليل متى ٤: ٢٥ .

النصل الرابع والعشرون
النشاط الفكري

إن سورية الرومانية التي بربت في مجال الهُرُو وانتجت أبطال السرك والمسرح ظلت من حيث النشاط الفكري وراء جارتها مصر - التي كان فيها مكتبة الاسكندرية ومدرستها . وكما كان ينتظر فإن عدداً من المؤلفات الأدبية القديمة كانت عبارة عن قصص العاشق واللصوص والمشعوذين والرحالة التي اتضحت انه ليس لها قيمة دائمة . وإذا استثنينا كتابات بروبوس Probus ، القوي اللاتيني والنقاراء اليعروفي الأصل ، فإن مساهمة السوريين في الأدب اللاتيني لا يكاد يكون لها أي أهمية خاصة . ولم تنجُ انطاكية وهي أغنى وأكبر مدينة في آسية الرومانية وثالث مدينة في الامبراطورية اي مؤلف بارز .

عاش ماركوس فاليريوس بروبوس في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي . وببدأ حياته كجندي إلا أنه كرس اهتمامه بعد ذلك للدراسة ادب روما الكلاسيكي . فاستقر في روما ونشر كتابات فرجيل وهوراس وغيرهما من الشعراء الكبار نشراً علمياً وبذلك وضع اساس الحركة الكلاسيكية في العصر الامبراطوري المتأخر واعتبر من اعظم القويين اللاتين .

التاريخ

كانت مساهمة السوريين في الأدب اليوناني أكثر أهمية بكثير . ومرجعنا الرئيسي عن تاريخ سورية في العهد الامبراطوري الأول هو مؤلف يوناني لأحد المؤرخين اليهود . وكان هذا المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في اورشليم حوالي 37 م . وكتب « آثار اليهود Antiquities of the Jews » وكتاب « الحروب اليهودية The Jewish War »

(١) قارن مع : « Probus », *Harper's Dictionary of Classical Literature and Antiquities*, ed. Harry T. Peck (New York, 1897).

ذهب الى روما ليدافع امام نيرون عن قضية بعض الكهنة من ابناء دينه ولدى عودته اصبح قائداً في الجيش اليهودي في ثورته ضد السيادة الرومانية. وقد اسر الا ان فسباسيان انقذه. ومنذ ذلك الحين التحق يوسيفوس بعائلة فسباسيان وعاد مع تيطس الى روما. واتخذ هناك اسم فلافيوس كتابع للامبراطرة الفلافيية وال妃 كتبه المعروفة. ويعتمد كتابه «آثار اليهود» على كتاب العهد القديم كثيراً في اختصار تاريخ اليهود كله ويكتب بالتفصيل عن الحكم المكابي المتأخر والحكم الميروادي. أما كتاب «حروب اليهود» الذي كتب بالأصل في اللغة الآرامية فيعطينا اخباراً مفصلة عن الصراع العنفي مع روما الذي شهدته بنفسه. وتصطحب هذه الاخبار برغبة المؤلف في ارضاء حماته الاباطرة.

وقدما يوجد اسم آخر غير يوسيفوس يستحق الذكر في علم تدوين التاريخ في سوريا. ولا نعرف سوى القليل عن فيلاو Philo الجليلي (حوالي ٦١ - ١٤١ م) النحوي وواضع كتاب عن الديانة الفينيقية حفظت بعض نتف منه في كتاب يوسيفوس . وكذلك نجده في كتاب ميناندر Menander اللاذقي . وهو بليني عاش في وقت متأخر (القرن الثالث) ودون بعض الاخبار الفينيقية . وعاش في النصف الثاني من القرن الثاني كاتب آخر محاط ببعض القموض وهو جمبليخوس Jamblichus الذي كتب تاريخ بابل . وعندما كانت شاباً أخذته ملك ارمني الى بلاده فتعرف الى اللغة البابلية والمعمر الفارسي ^٢ . ويقول جمبليخوس عن نفسه بأنه كان سورياً من ناحية الاب والام . ولم يلتم باللغة اليونانية حتى وقت متأخر في حياته . والغفال بالإضافة الى تاريخه قصة غرامية باليونانية اذا لم تكن الاولى من هذا النوع في الادب اليوناني فانها على الاقل من المؤلفات الاولى فيه .

النحو افلا

ان اعظم مساعدة تستحق الذكر في ميدان الجغرافيا قام بها مارينوس Marinus

١) ترجمت مؤلفات يوسيفوس من قبل : William Whiston, new ed., 2 vols. (London, 1897) and revised by A. R. Shilleto, 5 vols. (London, 1890-1900); H. St. J. Thackeray *et al.*, Loeb classical Library, 7 vols. (London, 1928-43). اضاً :

Mommsen, vol. ii, p. 124. : انظر (۲)

من صور الذي زهـا في منتصف القرن الثاني . وكان مارينوس اول من وضع المصورات المرسومة على اسس رياضية حسب خطوط العرض والطول بدلاً من تلك التي كانت مبنية على رحلات المسافرين فقط . وفي تعين خطوط العرض والطول بالنسبة لكل موقع جغرافي ساعد مارينوس في ازالة الشك الذي ساد حتى ذلك الحين فيما يتعلق بواقعها النسبية . وبذلك اصبح مؤسس الجغرافيا العلمية . ويشهد بطليموس^١ بأقواله حتى انه يعترف بأنه بنى كل مؤلفه على كتيبات مارينوس .

ولا يستوقف انتباهنا في ميدان العلوم سوى مؤلف آخر هو Archigenes الطبيب الاقافي. وقد مارس عمله في روما في عهد تراجان في أوائل القرن الثاني. وينذكره جوفنال^٢ عدة مرات ويتبين مما كتبه انه كان طبيباً محبوياً بين الطبقة الراقية في العاصمة وخاصة للإمبراطور القاتلية. وقد كتب Archigenes رسالة عن النبض كانت موضوع تعليق Galen وخلف عدداً من التلاميذ الذين تعموا عمرته محترمة في المهنة لعدة سنين.

النحو

وكان مارينوس مواطن يدعى ادريانس Adrianus الذي اشتهر كبلير وفيلسوف. وكانت البلاغة آئنـذ احب الفروع الادبية الى الناس. والبلـغ من ناحية نظرية كان الشخص الذي يتراـفع امام المحـاكم ويعلم الناس فن المـراـفة . ومن ناحية عملية كان مـخـاضـراً يذهب من مكان الى آخر ليظهر مـقدـرـته كـمـخطـيب امام المـاهـير المـتعلـمة . وكان البلـغـاء يـخطـبون في عـدـدـكـبـيرـ من المـواـضـع دون ان يـقـتـعوا بـصـحـتها . وقد هـاجـرـ ادـريـانـسـ من صـورـ الى اـثـيـنـيـنـ حيث تـبـوـاـ كـرسـيـ الـبـلـاغـةـ . وفيـ الخطـابـ الـافتـاحـيـ الذـيـ وجـهـهـ الىـ اـثـيـنـيـنـ «اـسـهـبـ فيـ الـكـلامـ لـيـسـ عنـ حـكـمـتـهمـ بلـ عنـ حـكـمـتـهـ لـانـهـ بدـأـ كـلامـهـ بـقولـهـ : (لـلـمـرـةـ التـائـيـةـ تـأـقـيـ الـآـدـابـ منـ فـيـنـيـقـيـةـ)ـ . وـكـانـ يـقـومـ بـواـحـ الـاسـتـاذـةـ عـمـاهـةـ عـظـمـةـ وـبـلـسـ الشـابـ التـمنـةـ وـبـزـنـ نـفـسـهـ

انظر : (۱) Geography, Bk. I, ch. 6.

Satura, No. 6, l. 236; No. 13, l. 98; No. 14, l. 252. (۲) انظر:

^٣ **الظرف** Philostratus and Eunapius, *The Lives of the Sophists*, ed. and tr. : Wilmer C. Wright (London, 1922), p. 227.

بالجواهر ويركب في طريقه لالقاء محاضراته في عربة كانت جم خيولها مطلية بالفضة. وكان يسميه التلاميذ «الفينيقي»، وحاول البعض تقليد مجتهه. وعندما كان ادريانس في اثنية قابل ماركوس اوريليوس الذي دعاه في طريق عودته الى العاصمة لزيارة بلاطه. وكان ادريانس مسروراً بغادرته اثنية حيث حكم وبرئ من همة قتله سفسطائي اهانه. وشرف الامبراطور هذا الرجل البليغ بصفاته له حتى انه تنازل وعين له موضع احدى خطبه. وعيته كومودس، خلف اوريليوس، سكرتيره الخاص.

وكان من تلاميذه ادريانس بلغ يدعى انتيباتر من مدينة هيرابولس وقد حظي منه بالعطاف الامبراطوري. ولم يظهر انتيباتر اي تفوق على معاصريه في خطبه المرتجلة والمكتوبة ولكن امتاز عليهم في فن كتابة الرسائل. وهذا ما دعا سفيروس لاختياره سكرتيراً خاصاً له^١ كما عينه معلماً لولديه : كاراكلا وغينا Geta . وعندما اغتال كاراكلا فيما بعد (٢١٢ م.) اخاه كتب اليه انتيباتر رسالة لوم يأسف فيها بأنه لم يبق لكاراكلا الا ان «سوى عين واحدة ويد واحدة» وان الذين عملوا مؤديها «بان يستخدما السلاح ليؤيدوا واحدهما الآخر قد استخدما الواحد ضد الآخر»^٢. وكان سفيروس قد رفع انتيباتر الى مقام القنصلية وجعله والياً على بيثانيا Bithynia . وظهر هناك انه متسرع في استعمال القوة فأقيل وانسحب الى مدینته الاصلية حيث يقال انه توفي جوعاً بارادته.

وهناك شخصية ادبية من شمال سوريا تسترعي الاعجاب في العصر الانطونيتي وهي شخصية لوكيانس من مدينة سيميساط Samosata ، عاصمة كوماجين Commagene . وقد ولد حوالي ١٢٥ م. وبعد ان مارس الحقوق في انطاكيه وعمل في كتابة الخطب المأجورة للخطباء اتخذ منها محاضر متبعول ، فساح في آسية الصغرى ومقدونيا واليونان وایطاليا وببلاد الغال . وتبوأ في بلاد الغال لفترة موقته كرسى الفلسفة في مدينة يونانية التقافة وذلك قبل عودته الى بلاده الاصلية.

كان لوكيانس سورياً وقد افهم الناس ذلك بصعوبة بالنظر لجهل المعاصرين

١) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 269.

٢) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 271.

النروق العرقية . وكانت الآرامية لغته الأصلية إلا أنه ككل المتقين السوريين في عصره كانت نفقةه يونانية . وفي عصر كانت فيه تسهيلات السفر أعظم منها في أي وقت آخر حتى حدود المئة سنة الأخيرة فانه تعرف إلى أكثر مناطق الامبراطورية رقياً . وأضاف إلى ما اعرف عن السوريين من حب التجول القدرة على طرق مختلف المواضيع وخصوص الحال الذي اشتهر به السوريون . ومن المؤلفات الائتين والثانية التي وصلتنا منسوبة إليه ، وببعضها مزييف دون شك ، كتاب « المخاورات Dialogues وهو اهمها » . وأما كتابه « قصة صحيحة A True Story »^١ فقد تسللت منه قصص السندياد البحري ورحلات كوليفر وغيرها من القصص . ويعتبر مؤلفه « الآلهة السورية » The Syrian Goddess ، أكثر مصادرنا أهمية حول ديانة سورية الرومانية في عصره .

تقوم شهرة لوكيانس في تاريخ الأدب على أنه أول من استخدم المخاورة بين الاموات كوسيلة للروايات المزارية والمحاجة . وقلده في ذلك دي فونتينيل de Fontenelle^٢ واللورد ليتلتون Lyttelton^٣ وغيرهما من المحدثين . ولا يستعمل لوكيانس السخرية بشكل موكز محدود فحسب بل بشكل عام واسع أيضاً . وكانت الآلة الأولمبية وال فلاسفة اليونان والارستقراطيون الرومان والمعاصبون في الدين والرحلة المتعمسون الذين فقدوا توازنهم – جميع هؤلاء كانوا من ضحايا سخريته . ولم يلق حتى ولا هو ميروس أو هسيود أو هيرودونس اي احترام في كتاباته . ومما يمكن فان تهديه لا يتلوه عمل بناء . ويقرر بطل مؤلفه ايكارو منيبوس Icaro - Menippus بعد استيائه من منازعات الفلاسفة وزاعمه ان يقوم بزيارة إلى النجوم ليقرر مقدار الصواب في النظريات الفلسفية . وبمساعدة زوج من الاجنحة يحيط منيبوس أولاً في القمر حيث يستعرض مخاصمات الناس ومشاعرهم . ومن هناك يتبع سيره إلى جبل الأولب ويمثل أمام نفس نفسه . ويشهد هنا كيف تتلقى السراء صلوات الناس فهي تصعد بواسطة ثوب كبيرة ويتمكن نفس من سماعها

(١) ترجم هذا الكتاب ونشره : A. M. Harmon in *Lucian*, vol. i (London, 1913), pp. 248-357.

(٢) هو Nouveaux Dialogues ؛ انظر كتابه : Bernard le Bovier de Fontenelle des Morts (Paris, 1638).

(٣) هو Dialogues of the Dead (London, 1780). انظر كتابه : George Lyttelton

بازة الأغطية الضخمة . ويتبين أن زفاف قاض متخيّل يتأثّر بمحاجم المكافأة التي يوعد بها . ومع ذلك فإنه يصدر الأحكام ضدّ الفلسفه ويهدى بتدميرهم كلّهم خلال أربعة أيام .

وقد عين لوكيانوس بعد أن تقدّم في السن حاكماً على مصر . وربما كان كومودوس هو الذي عيّنه ويظنّ أنه توفّي فيها حوالي نهاية القرن الثاني .

الفلسفة

لم تكن مساحة المفكرين السوريين ضئيلة في مجال الفلسفه وخاصة في ما يتعلق بالفلاطونية الحديثة . وكان هذا يتّفق مع التقاليد السورية السلوقيّة . وقد اعجب ستراابو^١ بالفلسفه الشهورين في عصره الذين كانوا من أهل صيدا ويدرك اثنين منهم كزملاء له . ويقال ان النظرية الجوهريّة قد وضعت في تلك المدينة في وقت سابق . وحافظت صوراً أيضاً على شهرتها في الفلسفه . ويدرك ستراابو^٢ فيلسوفاً رواقاً من صور اهلها يسمى انتيبيات . ويبدو انه نفس انتيبيات الذي وصفه بليني^٣ بأنه كان شاعراً وقيل عنه ان المي كانت تهاجمه كل سنة في عيد ميلاده . وهناك فيلسوف من صور أكثر شهرة يدعى مكسيموس وقد سافر كثيراً وزار روماً غير مرّة واستقر فيها في زمن كومودوس . ولم يثبت انه كان استاذَ ماركوس او ريليوس . وكان مكسيموس سقسطانياً وبليغاً أكثر منه مفكراً أصيلاً . وكبقية الفلاطونيين ميّز بين الله والمادة وجعل الشياطين تلعب دور الوسيط بين الله والانسان . وفي رسائله الاحدي والأربعين التي وصلتنا^٤ يستخدم التشبيه والمقتضفات الشعرية بكثرة .

فاقت افامية مدينة صور بصورة اوسع كمرکز للفلسفه . وفي العصر الانطونياني ويوجّح انه في عهد ماركوس او ريليوس أصبح أحد ابنائنا المسي نومينيوس Numenius المؤسس الحقيقي للفلاطونية الحديثة . وقد اتهم بحق فيلسوف مصر

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 24.

(٢) انظر : Strabo, Loc. cit.

(٣) انظر : Pliny, Bk. VII, ch. 52.

(٤) انظر : Ed. (Gr. and L.) Fred. Dübner, *Theophrasti Characteres* (Paris, 1877), pp. 1-176 ; Karl Meiser, *Studien zu Maximos Tyrios* (Munich, 1909).

اليوناني، بلوتينوس Plotinus — الذي نسب إليه هذا الشرف — بأنه بنى تعاليمه على تعاليم نومينيوس الأفاسي وبأنه «كان يزهو في ريشه»^١. وقد يكون نومينيوس حصل على ثقافته اليونانية في الاسكندرية. وقد أقام في اثينا ويرجح أنه عاد إلى أفارقة لقضاء بقية حياته. وقد استشهد باقوله بورفيروس وبيبلوخوس وغيرهما من فلاسفة الوثنيين من جهة كما استشهد به كليمينت Clement الاسكندري وأوريجين Origen وغيرهما من الآباء المسيحيين من جهة أخرى. وكان يعلم الاسرار اليونانية والمصرية ولكن معرفته بالعهد القديم هي التي تيز كتاباته عن كتابات غيره من فلاسفة. وكان موسى بالنسبة إليه «النبي» كما كان هوميروس «الشاعر». وكان أفلاطون «موسي اليوناني». واعتبر بأن الله هو ثالوث كوفي يضم المرة ثلاثة : الآب والخالق والخلق (العالم)^٢.

اصبحت أفارقة في القرن الثالث مركزاً مدرسة للافلاطونية الحديثة تستمع بعض الأهمية وقد اسمها اميليوس Aemilius تحت رعاية زنوبيا، ملكة تدمر^٣. وكان اميليوس من المعجبين بنومينيوس ويقاربه في تفكيره. وكان من تلامذة بلوتينوس Plotinus الذي يعتبر أول من نظم المذهب الافلاطوني الحديث كما كان معلم بورفيروس، أحد كبار شخصيات الافلاطونية الحديثة في سوريا.

ولد بورفيروس عام ٢٣٣ في صور أو بنتية Balanaea^٤ ودرس في صور وبعد ذلك في اثينا حيث بدل معلمه لونجينوس^٥ اسمه السامي «ملك» إلى اسم يوناني هو بورفيروس Porphyrios (المكسو بالارجون الملكي^٦). وقد جذبته شهرة

(١) انظر : Kenneth S. Guthrie, *Numenius of Apamea: The Father of Neo-Platonism* (London, 1917), p. 96.

(٢) انظر : Guthrie p. 38.

(٣) انظر ما سيرد في الفصل ٢٩.

(٤) هي المنطقة الجنوبية من حوران والاسم هو الصيغة اليونانية لكلمة باشان Bashan القديمة ، انظر : Smith, *Historical Geography*, p. 542. ولا تزال آثار الاسم موجودة في كلية البنتية Dussaud, *Topographie*, pp. 323 seq.

(٥) انظر ما سيرد في الفصل ٢٩.

(٦) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

بلوتينوس الى روما حيث تخصص بالافلاطونية الحديثة لمدة ست سنوات . وقد سكن وعلم في روما الى ان توفي حوالي ٣٠٥ . وحين كان فيها نشر كتاب استاذه واسمه التاسوعات *Enneads* . ولو لا بورفيريوس لما كان بلوتينوس سوى مجرد اسم . وكان بورفيريوس مؤلفاً خصب الانتاج في الفلسفة وال نحو والبلاغة والرياضيات ، وعلم النفس والموسيقى ومبادئ النباتين . وكان يعتبر الرجل العالم بين الافلاطونيين الحديثين . وكان في تعاليمه يقول بوجود العقل لدى الحيوانات ولكنه لم يعتقد بانتقال الارواح البشرية الى اجسامهم . وكان يذهب في تنمية الروح الى ابعد من بلوتينوس فيطالب بعض اعمال التقشف مثل الفزوجية والامتناع عن اكل اللحم وعلم حضور الحفلات واماكن التسلية^١ . وفي عام ٤٤٨ في عهد تيودوسيوس الثاني احرقت اكتر مؤلفاته بصورة علنية ومنها رسالة ضد المسيحيين .

وكان من تلاميذ بورفيريوس وابناء بلوتينوس شخص يسمى ييليخوس^٢ من مدينة كالسيس Chalcis (عنجر) في سوريا المحوفة . وقد حاد ييليخوس عن عادة العلماء من ابناء وطنه فاقام في سوريا طيلة حياته وكانت يقوم كل سنة برحالة الى منابع جَدَرَةِ الْحَارَة^٣ . وكانت وفاته حوالي العام ٣٢٥ م . ولا يشاطر العلماء المحدثون معاصر ييليخوس^٤ في اعجابهم به اذ انهم يعتقدون بأنه اقام شهرته على اعمال السحر والمعجزات . وقد امه تلاميذه ومن بعدهم الافلاطونيون الحديثون وأصبحت كلمة *Theios* (الله) لقبه المعتمد . واضاف الى نظراته في الالاهوت نظريات في الارقام التي نسب اليها كما كان يفعل الفيثاغوريون الجدد قيمة اعظم مما للرياضيات العلمية^٥ . ويشارك في فلسفة الكونية مدرسته في الاعتقاد بخلود العالم . ويحاول في ابحاثه في علم النفس ان يحتفظ للروح بوضعها المتوسط بين الكائنات

(١) راجع : Ednard Zeller, *Die philosophie der Griechen*, 3 rd. ed. (Leipzig, 1881), vol. iii, pt. 2, pp. 636-77.

(٢) ربما كان من نسل المؤرخ المذكور سابقاً في هذا الفصل .

(٣) لقد ذكرت هذه المطبع المعدنية (المحنة) في الكتابات الكلاسيكية وفي التلود وهي اليوم

مستمرة تماماً انظر : Abel, vol. i, pp. 154, 458 ; vol. ii, p. 19.

(٤) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 363.

(٥) انظر : Zeller, p. 700.

البشرية المنحطة والمتقوقة وذلك أكثر مما حاوله بورفيروس ويختلف عنه في انه لا يجعل للحيوانات عقلاً.

مدرسة الحقوق في بيروت

اذا كانت افامية قد برزت في ميدان الفلسفة فان بيروت برزت في القانون بفضل مدرسة الحقوق الرومانية المدنية التي ازدهرت فيها منذ اوائل القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس. وربما اسس هذه المدرسة سبتموس سفيروس (١٩٣ - ٢١١)^{١)} وخلد ذكره في بيروت بمقبرة وقفال وشيعها خلفه من السلالة السورية. ولم تكن اقدم اكاديمية مشهورة من نوعها فحسب بل كانت اطوالها عمراً. انها من صنع روما وقد اصبحت مركزاً فكرياً مبدعاً في الامبراطورية الرومانية وبقيت كذلك. وقد قامت مدارس اخرى في الولايات فيما بعد كمدرسة الاسكتدرية واثينة وغيرها، ولكن مدرسة بيروت تعمت بالمكانة الاولى طيلة عهدها. وكانت الاسكتدرية واثينة يونانية اكثر منها رومانية. اما بيروت فكانت رومانية اكثر منها يونانية. وبالاضافة الى ذلك فان بيروت كانت اكثر حظاً في اجتذاب مجموعة من الطلاب والاساتذة الالاعن الذين جعلوا من الاكاديمية جامعة ونشروا شهرتها في كل مكان. وكانت دراسة القانون آنذاك من متطلبات اشغال الوظائف الحكومية.

بابينيان

ان الشخصيتين اللتين منحتا الاكاديمية شهرة واسعة وخدلتا في مجموعة قوانين بوسطيانيان هما: بابينيان واولييان. وقد سمى بوسطيانيان مدينة بيروت «ام القوانين ومرضعتها». ويبعدو ان بابينيان (اميليوس بابينيانس) كان من مواطنى حمص. وهناك ما يدعو الى الظن بأنه بدأ يعمل في ميدان القانون كمعلم في بيروت قبل ان يدعوه سبتموس سفيروس، زوج جوليا دومنة التي كان من اقربائها ، ليكون مستشاره في روما. وبعد ان طرد كراسلا بابينيان من وظيفته اغتال اخاه غيتا (٢١٢م.) وامر بقطع رأس بابينيان. ولم يفعل اكثر من انتهاج الجلاد لاستعماله

١) قارن مع : Paul Collinet, *Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth* (Paris, 1929), pp. 16-25 ; Henri Lammens, *La Vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas Empire* (Cairo, 1921), p. 4.

فأسأً بدلاً من السيف^١. أما سبب الاعدام فليس واضحًا لكن ليس من الصعب ان نرى ان طاغية كهذا لا يمكنه قبول مرشد شديد ورجل شريف مثل بابينيان. ومع انه كان في السابعة والثلاثين من عمره حين اعدم فان الترات العظيم الذي تركه لم يتذكر اي روماني قفيه آخر. وقد ادخل لا اقل من ٥٩٥ فقرة من كتاباته في موجز *Digest* بوبستينيان. وكان احد جامعيه ويسمى انطاوليوس *Anatolius* ايضاً من اساتذة القانون في بيروت. وشكل كتاب بابينيان «الاجوبة *Responsa*» جزءاً من برنامج السنة الثالثة في مدارس الحقوق. وان احد كبار شارحي القانون^٢ في القرن السادس عشر يعتبر ان بابينيان هو ايل الماخمين الذين وجدوا والذين سيوجدون ويقول بأنه لم يتتجاوزه احد فقط في المعرفة القانونية ولن يوازيه احد. وعلم بابينيان الذي تسيطر عليه الحصافة الفكرية والتزاهة الاخلاقية قد جعل منه غواص الماخمي الحقيقي.

أولييان

كان من منافسي بابينيان مواطنه وخلفه أولبيان. وكان أولبيان (دوميتنيوس أولبيانس *Domitius Ulpianus*) من ابناء صور وقد علم في جارتها الشالية بيروت. واستدعي من كرسيه في بيروت الى عاصمة العالم المتبدن ليساعد بابينيان في ادارة الامبراطورية باسم القياصرة السوريين. وما ظهر خليفة كراسلا - وهو الاسم البابلي الذي اصبح امبراطوراً في ٢١٨ - جرّد أولبيان من مهماته ولكن استكدر سفيروس اعاده مستشاراً امبراطوريّاً حين اعتلى العرش في ٢٢٢. وادخل اثناء وجوده في هذا المنصب اصلاحات قضائية وغيرها لم تكن مرغوبة لدى بعض النبلاء. وقد قتل عام ٢٢٨ بأيدي الجنود بعد ان شقوا طريقهم ليلاً الى القصر الامبراطوري الذي كان قد التجأ اليه وقتلوه بحضور الامبراطور ووالدته.^٣.

عاش أولبيان مدة اطول من بابينيان وساهم اكثر منه في مختلف الشؤون. وقد اقتبس جامعو «الموجز» من مؤلفاته حوالي ٢٥٠٠ فقرة شكلت بمجملها

(١) انظر : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 1, § 1; ch. 4, § 1.

(٢) انظر : Cujacius, *Opera*, vol. iv (Naples, 1722), cols. 3 B, 4 A-B.

(٣) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 1, §§ 1-3.

ثلث الكتاب كله. وفي مجموعة قوانين ثيودوسيوس التي وضعت في ٤٣٨ للإمبراطورية الرومانية الشرقية اعتبرت كل كتابات أولبيان وبابينيان مرجعًا موثوقاً لدى القضاة. وأسلوب أولبيان في الكتابة أسهل من أسلوب بابينيان وأكثر وضوحاً منه. وقد كان لهذين الفقيهين تأثير مستمر على أنظمة أوروبا بواسطة الاقتباسات الكثيرة من مؤلفاتها.

بقيت اللاتينية لغة التعليم في بيروت^١ حتى أوائل القرن الخامس ثم حل محلها اليونانية. وفي تلك الائتمان كانت بيروت قد تحولت سياسياً وفكرياً من محور روما إلى محور القسطنطينية. ومعها يمكن فان بعض قطع الأدب السوري التي كتبت باللغة اليونانية الركيكة في أوائل العصر الإمبراطوري الروماني كان تأثيرها أكثر دواماً وفائدة من جميع التطبع الكلاسيكية اليونانية واللاتينية مجتمعة. وكانت هذه القطع هي الانجيل وبعض الكتابات المسيحية القديمة الأخرى.

١) راجع بشأن حياة الطلاب في بيروت ما سينأتي في الفصل ٢٧.

الفصل السادس والعشرون

ظهور المسيحية

في عام ٦ ق.م. أو حوالي هذا التاريخ ولد ذاك الذي قسم التاريخ إلى عصور. وكانت الأضواء مسلطة آنذاك على روما سيدة العالم وعلى العرش المتألق الذي كان قد أقامه أوغسطس فيصر قبل حين. ولم يكن المؤرخ ليحفل بوجود ابن مخار في ولاية نائية من الإمبراطورية جمع بعض الاتباع حوله وعلم وبشر وشفى ثم صلب بسبب معتقداته. وقد ظهر مؤرخ شاب معاصر كان في الوقت ذاته من ابناء دينه ومن مواطنه - فخصص له اي لهذا «الرجل الحكيم» و«صانع الأعمال الخارقة» كما قال عنه، قطعة صغيرة تنتهي بهذه الملاحظة: «وعشيرة المسيحيين التي سميت بالنسبة إليه ليست منقرضة اليوم^١». والمورخ اللاتيني الوحيد الذي يذكر «المسيح Christus^٢» يشير بصورة عرضية بأنه «تعرض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطي^٣». وحصل هذا على الفالب في عام ٢٧^٤. ومع ذلك فإن الذين كانوا أقرب إلى المسيح في الجليل واليهودية وعرفوه جيداً أصبحوا مقتولين بأنه لم يكن شخصاً عادياً بل ابن الله. وقد بدأوا طريقة حياتهم حالاً وكما فعل المسيح لم يتزدروا في بنلما في سبيل معتقداتهم. واعتبر بعضهم

١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 3, § 3. ويشير بعض النقاد هذه الفقرة ملسوسة .

٢) هي ترجمة الكلمة العبرانية مشيا māshiah (المسيح) التي كانت تستعمل كلقب للملك اليهود وبالتالي للملك الموعود. أما «يسوع Jesus» فهو الصيغة الملينة ليشوع Joshua التي اتت من Jehoshua وهي بالعبرانية (يهوه هو الخلاص) .

٣) انظر : Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

٤) قارن مع : Lactantius, *De Mortibus persecutorum*, Bk. II. يقابل ٢٣ آذار عام ٢٩ .

في تسجيل تعاليم سيدم واعماله . وهكذا وصلتنا الانجيل وهي مصدرنا الرئيسي عن حياة المسيح . وقدر لذلك الدين الجديد القليل الامامية في الظاهر — والذى اعتنقه عدد قليل من الفلاحين اليهود في منطقة صفيحة تابعة للامبراطورية الرومانية العظيمة الراقية — ان يبقى طويلاً بعد ان سقطت الامبراطورية التي كانت تبدو راسخة ومستقرة وبعد ان أصبحت في بطون التاريخ . وقد دام اكثراً من اية فلسفة وعقيدة اخرى في بلاد اليونان والرومان .

وإذا كانت لبعض حوادث حياة المسيح او تعاليمه ما يشبهها في التراث الديني لبلاد الشرق القديم فان الانسان لا يستطيع ان يجد في اي مكان آخر مثل هذه الخلاصة الحكمة من الافكار النبيلة وهذا التأكيد على المثل السامية ، كما انه ليس باستطاعة احد ان يكتشف في اي زمن شفيراً طبق ما عالمه بمثل هذه الصورة التامة .

كان اساس هذه الرسالة الجديدة الحبة ، محبة الله ومحبة الانسان . والمحبة الواحدة تفترض الاخرى . والله نفسه محبة . وبالمحبة جعل المسيحيون الانسانية عائلة واحدة تحت ابوة واحدة . وهكذا وضعت المسيحية الاولى مثلاً عالياً اعلى بخلاف المثل الاعلى الاقليمي الذي كان يسود في كل مكان . وكان اليونان والرومان ينفكرون بالانسانية على اساس القومية ؛ بينما المسيحيون السوريون كانوا اول من اعطى العالم نظرة عالمية فعالة . ولم تكن نظرتهم الى العالم بانه كسب يجب الحرص عليه واما نظروا اليه كعب . ومجتمعهم لم يكن له طموح ديني . وكانت الديانة في جميع تعاليمها تؤكّد على واجب تكريس الانسان نفسه الله بصورة لا تعرف الانانية وعلى خدمة الانسان وعلى الروحانية الداخلية عوضاً عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية .

لم تتخذ اي من القائد الملنستية الحبة كفلسفتها الاساسية . والرواقة وتحدها حاولت السير في ذلك الاتجاه . ولم تعلم اية عقيدة سابقة بان هناك الما فاديما يتم حتى باحاط افراد الجنس البشري . كما انه لم تكن لايّة منها رسالة حيوية تتوجه للقدير والمبود ، وللعيش والخطاطي . وقلما اثرت اية ديانة وثنية على الدوافع الداخلية للسلوك والحياة . فقد كانت كلها تهم بصورة رئيسية بالطقوس . ولم توجد اية منها

مثل ذلك الارتباط الفعال بين الدين والأخلاق او شخص مثل ذلك الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحية.

قررت المسيحية الحياة الأخلاقية بالدين بصورة وثيقة . فاصبح الاحسان عندئذ من اعمال الاعان بدلاً من ان يكون من اعمال العدل . واعطى الدين الجديد للضطهدن وعددي الحظ الامل في حياة ثانية تقدم للابرار المسرات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا . وكان اليونان والرومان يعنون الخلود من كان محسناً لشعبه فقط او من ادخل في احدى ديانات الاسرار .

وكان الدين الجديد في مجموعة افكاره وتعاليمه الاخلاقية وفلسفته في الخلود وعقيدته الراسخة قادرآ كم يبدو على تلبية المطالب الروحية والفكريه والاجتماعية التي كان المتنورون غالباً يتطلبونها من دياناتهم التقليدية في كل مكان بدون ان ينبعوا في الحصول عليها . ثم ان الكنيسة في تطبيقها كمؤسسة وضعت اساليب فاقت كثيراً كل ما وضعته الديانات الأخرى . وشق هذا الدين السوري طريقه ببطء ولكن بصورة اكيدة الى مرتبة التفوق الروحي . وبهذا الدين انت الحضارة السورية بأثرتها الثالثة وهي اعظم مأثرها في سبيل تقدم العالم . والعالم المتmodern لا يقدر دائماً بان التعبير الاساسي عن اعلى منه كان في الادب المسيحي.

تقدير المسيحية

كان مقدار تقدم المسيحية بطبيعته اول الامر . ولا بد ان المسيحية قد بدلت المواطن الروماني المتوسط حتى او اخر القرن الاول كذهب يهودي غامض وانها من الفلسفات الكثيرة الاخرى التي كانت تنتشر من الشرق الادنى . وكانت نواة المجتمعات المسيحية الاولى مؤلفة من اليهود . وقد حكم الامبراطور دوميتيان على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية^{١)} ويقصد بدون شك المسيحية . ولم تستنقض اشكاليات الدين الجديد انتظار الناس بوجه عام حتى زمن تراجات . وعندما اعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة قام الكتاب اليونان واللاتين بمحاربون الدين الجديد . وكانت الاديان القديمة بالنسبة لمؤلف الكتاب تفتقر بالاجماد الماضية للتاريخ القومي . وكانت بالنسبة للرومان بصورة عامة رموزاً للسلطة الامبراطورية .

1) انظر : Dio, Bk. LXVII, ch. 14.

وبالاضافة الى ذلك فقد بدت بعض مظاهر الدين الجديد غريبة على الفكر الروماني اليونياني . ولكن المفهوم ازيلت نهائياً بجهود بولس والآباء المسيحيين الاوائل ، ذلك بان هؤلاء الكتاب باعطاء المسجية شكلها المليفي جعلوها ملائمة للانتشار في العالم . وكان بولس يعرف اللغة والفلسفة اليونانية واستعمل التعبير والمصطلحات الفلسفية وتبني بعض آراء من ديانات الاسرار . وبفضل الطريقة التي انتهجها تم التفاهم بين الديانة المسيحية والحضارة اليونانية . وقد اخذت المسيحية طابعاً هلنياً قبل ان تصبح مقبولة لدى الرومان واليونان . ويجب الاعتراف بان عبادتهم الوطنية كانت تتجه نحو التوحيد . وساعد ازدياد حركة السفر والتبادل على توسيع الولاء لعدد من الآلهة المحلية واحلال عدد محدود من الآلهة تتمتع بفعول اوسع . وقد ساعد استبدال اليمهورية بالنظام الملكي على ذلك الاتجاه . فحين يدين الانسان بالولاء الى حاكم رئيسي واحد على الارض يسهل عليه الولاء لحاكم رئيسي واحد في السماء . وقد عملت كل هذه الظروف لصالح المسيحية ولكن قبل ان يتتأكد لها النصر كان على اتباعها الممسكين بها ان يتعرضوا لنار الاضطهاد .

الاضطهاد

ولما كان اليونان والرومان يعتقدون بألمة متعددة فانهم كانوا يوجه العموم متساغين في موقفهم تجاه معتقدي الديانات الاخرى . والواقع انهم ذهبوا الى حد اضافة آلهة جديدة الى مجموع المفهوم . وقد سمحوا حتى في عاصمة امبراطوريتهم بالعبادة المصرية الفرعية والشعائر اليهودية واباحوا تأثير المسرحيات ليس باللغات اللاتينية واليونانية فحسب بل باللغات العبرية والفينيقية والآرامية . وكانت سياستهم في شرور الدين «عش ودع الآخرين يعيشون» . وبما ان المسيحيين كانوا موحدين فانهم لم يتمكنوا من التساهل وكثروا نشطين متخصصين في بعثتهم عن اتباع جدد لدياناتهم . وامتنعت جماعاتهم الاولى عن الاستراك في الاحتفالات الدينية والرسمية في مدنهم . ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العادات الوثنية بالإضافة الى جدهم المستمر في كسب الاتباع كان لا بد ان يؤدى الى الاصطدام .

حصل اول اضطهاد عنيف في عهد نيرون بمناسبة حدوث حريق عارض دمر قلب مدينة روما في ٦٤ م. وفسر اليمهور النائم هذا الحريق بأنه حادث آخر من

حوادث هو امبراطورهم الجنوبي . وعندما ارتكب نيرون من ذلك حاول ان يلقي التهمة على المسيحيين في العاصمة وامر بابادتهم جميعاً . ومع ان هذا الاضطهاد كان محلياً فقد تلت هذه حوادث متفرقة ضد المسيحيين في الولايات^١ . وفي عام ٦٧ م يعتقد انه حكم على بولس بالموت في روما لكونه مسيحياً وذلك وفق القانون الذي اصدره نيرون^٢ . ويبدو ان بطرس استشهد بالصلب في روما^٣ حراكي نفس الوقت الذي استشهد فيه بولس بالسيف . وقتل كثيرون بنفس الوقت . وقد اثارت عزلة المسيحيين عن بقية الجماعات الشكوك والاقاويل حوالهم . وكانت بثابة ك بش مناسب للنداء بالنسبة للرعامع كلما حل بالمدينة او بالسكان حادث شؤم . وكثيراً ما كانت الحکام المحليون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيين لعضويتهم فيها اعتبروه جماعات سرية .

وحدث الاضطهاد العنيف التالي سنة ٩٥ م . في عهد دوميتيان . وكان ايضاً محلياً ومحاجاً بصورة خاصة ضد اليهود الذين كان الرومان لا يزالون يخالطون بينهم وبين المسيحيين في كثير من الاحياء . وكان بين الذين حوكوا في هذه الاضطهادات احفاد يهودا ، اخي المسيح ، الذين اطلق سراحهم باعتبارهم «جماعة بسطاء» . وفي عام ١١٢ اصدر تراجان مرسوماً ينص على ان المسيحيين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللامبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة فانهم سيعاقبون كخونة . وكانت عبادة الامبراطور اكثر عبادات الدولة قوة وانتشاراً وقد اثارها اوغسطس واصبحت تعبيراً مادياً للولاء نحو العرش . وجعل مرسوم تراجان المسيحيين خارجين حقيقة عن القانون في مئتي السنة التالية . وكانت يلاحقون ويعاقبون بشكل منتظم في مناسبات متعددة . وعندما بدأت الامبراطورية تسير نحو الانحطاط في القرن الثالث واخذت الكنيسة المسيحية تصبح

١) انظر : Tacitus, *Annales*, Bk. XV, ch. 44.

٢) قارن مع رسالة بطرس الرسول الاول ٤: ١٣ - ١٩ .

٣) قارن مع رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس ٤: ٨ - ٩ .

٤) انظر انجيل يوحنا ٢١: ١٨ - ١٩ .

٥) انظر : Lactantius, Bk. II.

٦) انظر : Eusebius, *Historia ecclesiastica*, Bk. III, ch. 20, §§ ١-٤ .

آمنة في طريق تقدمها حاول أصحاب الشأن القضاء على المسيحية كوسيلة لاغادة نفوذ الدولة . وفي عام ٢٥١-٢٥٠ اوجب ديقيوس Decius من جديد معاقبة كل من رفض القيام بالعبادة الرسمية لأنفة الدولة . وفي عام ٢٥٧ - ٢٥٨ لم يوجب فالريان على المسيحيين ان يقدموا الذبائح علناً فحسب بل منهم من عقد اجتماعهم معاً . وهكذا فقد ترك بعضهم بصورة علنية ، على الأقل ، دينهم .

كان ديوكلتيان هو الذي امر بالاضطهاد الكبير الذي وقع على المسيحيين في القرن الرابع . وقد نص مرسومه الذي صدر في شباط ٣٠٣ على حرق كنائسهم وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه، وامر بفرض جميع ا نوع العقوبات باستثناء الاعدام ولكن حتى الاعدام نفسه طبق وعلى مقاييس واسع . وكان هذا المرسوم متار دهشة لانه صدر عن شخص كان ييل الى المسيحيين علناً . ويظن ان زوجة ديوكلتيان وابنته كانتا مسيحيتين^١ . ويبدو ان الامن والازدهار اللذين كان يتمتع بها المسيحيون في البلاد كلها قد انارا حسد كبار الموظفين والكهنة الوثنين الذين ملأوا رأس الامبراطور بتقارير عن موآمرات واعمال شقب مزعومة . وكانت هنالك اسباب اخرى لهذا الاضطهاد . واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات بشدة لا يعلها شيء . واستخدمت عقريات السوء لابتکار وسائل جديدة للتعذيب . ويتحدث يوسيبيوس^٢ عن مسيحيين في الجزيرة العربية ذبحوا بالفأس وعن آخرين في ايطاكية شويت اجسامهم على المشوا . ويذكر ايضاً اخبار نساء كن يرمبن انفسهن في نهر العاصي للخلاص من الاغتصاب ويبلغ من كثرة الذين افتروا في الامبراطورية بهذه الطريقة ان اقام الجلادون الامبراطوريون اخيراً عمود نصر يحمل كتابة اثرية تفتخر بأنهم ابادوا اسم المسيحيين وخرافتهم واعادوا عبادة الالهة الى سابق صفاتها وزهوها . وبعد سنوات قليلة أصبحت المسيحية في عهد قسطنطين الديانة الرسمية للدولة . وكان اضطهاد ديوكلتيان آخر اضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية .

ديانات الاسرار

حين كانت المسيحية تتجه الى السيطرة على العالم كانت تنافسها ديانات اخرى

(١) انظر : Lactantius, Bk. XV.

(٢) انظر : Eusebius, Bk. VIII, ch. 12, §§ 1, 2.

من اصل شرقى ومن ابرزها ديانات الاسرار. وكانت آلهة الاسرار بالاصل آلهة نبات ثم اصطبغت في هذا العصر بالملينية تماماً وتبناها اليونان والرومان. وكان ديونيسيوس^١ من اقدم هذه الآلهة وهو الله المهر وروح حياة النبات بوجه عام. وكانت ايزيس المصرية ارفع الآلهة المؤمنة شأنها. وقد اعترف كاليفولا (حوالى ٤٠ م.) بها بين العبادات الرومانية الرسمية. وبلغ من شيوع عبادة ايزيس انها انتشرت في جميع الامبراطورية في القرنين الاول والثاني الميلاديين.

كانت ديانة ميثرا Mithras وهو بالاصل الله الشمس عند الفرس احدث ديانات الاسرار الجديدة واكتنافها شعبية. وقد بدأت كعبادة زرديشتية ثم لقيت في القرن الثالث الميلادي ترحيباً عظيماً وخاصة بين الجنود الرومان. وقد استهولهم بصورة خاصة قوة هذا الدين الذي صور الحياة كصراع مستمر بين الله الخير وبين قوة شريرة. وبذا الامر لستة من الزمن بان المصير هو اما فوز المسيحية او ديانة ميثرا.

ومن صفات ديانات الاسرار كونها سرية. وكان الانتساب اليها مقتصراً على اولئك الذين اتيح لهم الاطلاع على اسرارها. وكانت آخر مرحلة في الاطلاع هي ابلاغ الشخص بان الذي يتمتع بثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص. وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة الاتحاد الشخصي مع مخلص المي اختبر الحياة والموت بنفسه.

ومن المظاهر الاخرى لديانات الاسرار التعبير عن المشاعر الشخصية مجرية اكثراً ما تسمع به طقوس الدولة والعائلة^٢. وبما ان ديانات الاسرار كانت تتقصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسمية فانها التجأت الى وسائل جديدة لكي تكسب اتباعاً جديداً - وكثيراً ما كانت تحوي احتفالاتها عنصرأً «تجديداً» قد يبلغ حد الخلاعة. وبالاخصة الى ذلك فقد وعدت هذه الديانات اولئك الذين اجتازوا مرحلة الاختبار الضرورية بحياة سعيدة. وبعد الموت يرتفع المطلع على الاسرار الى العالم الالهي ويسكن مع الآلهة. وفي هذه الامور وكذلك في نظرية الخلاص تتشابه هذه الديانات مع المسيحية وتلقي ترحيباً لم يكن في وسع العبادات الرومانية اليونانية ان تقدم ما يكفي لمقامته.

١) انظر في ص ١١٨.

٢) انظر : Franz Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain*, 4th ed. (Paris, 1929), pp. 24 seq.

تنسب المذاهب الفتوسطية (التي تعتقد بالمعرفة دون الاعان) وديانات الاسرار الى نفس التموج الديني. فالفكرة الرئيسية في كلتيهما هي الفتوسيس Gnossis اي المعرفة السامية والاستنارة الروحية التي تناح للمختارين بحيث يمكن انقاد الروح من حال عبوديتها. والروايات المسيحية تجعل سيمون الساحر (اعمال الرسل ٩ : ٨ وما بعدها) مؤسس الحركة الفتوسطية.

كان للمسيح في سوريا ذاتها عدة منافسين في القرنين الاولين. وكان اقوى هؤلاء حدد— رمانو الذي تحول في العصر الملنسى الى زفس (او جوبيرت) الذي كان من دمشق او من هليوبولس (بعلبك) او من هيرابولس (منبع). وانتشرت عبادته في جميع الامبراطورية. وكانت رفيقته اثارغاتس منافسة لايزيز والعناء. وهناك زفس او جوبيرت آخر في بلدة دوليكه Doliche^١ وقد عاش «حيث يوجد الحديد». ونجح جوبيرت دوليكينوس وهو بالاصل تيشوب Teshub^٢ الله الحثين في نشر عبادته في الامبراطورية كلها بصحبة الجيوش الرومانية. وكانت الحال بالنسبة لسائر الديانات الشرقية فقد نقل الجنود والعييد والتجار طقوس عبادته الى اكثر البلاد الاوربية. وكان اخلاص اتباعه في بادئ الامر الحدادون وهم احسن من يتقن الحرف في آسيا، غرب الصين. فحيثما تجد جماعة هذا الاله المتفرقة الحديد فهناك تقام اكواها وغارات الفنون التي ورثتها. وكان المها يسافر معها. «وقد يمكن للرومان ان يغلبوا السوريين ولكن آلة الرومان قد تخلت عن مكانتها لآلة سوريا»^٣.

مراكز المسيحية في سوريا

كان اول مركز للمسيحية السورية المنظمة في مدينة انطاكية . واصبحت كنيسة انطاكية بصورة خاصة ام الكائنات التي انشئت في البلاد الوثنية . وكانت بولس وغيره من الدعاة الاوائل للدين المسيحي ينطلقون من انطاكية البدء في اعلام التبشيرية ثم يعودون اليها لرفع التقارير عن اعلامهم . واصبحت انطاكية

^١ هي عيتاب، اظر: Dussaud, *Topographie*, p. 472; Franz Cumont, *Etudes syriennes* (Paris, 1917), pp. 173 seq.

^٢ انظر في ص ١٧٠ - ١٧٢.

^٣ اظر: Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 123.

بعد ان دمر الرومان في ٧٠ م. منافستها او رسليم العاصمة الوحيدة للعالم المسيحي وقعتت لبعض الوقت بقدر معين من السلطة على الابישيات المجاورة على الاقل . وكان يدعى اسقفها في القرن الرابع رئيس اساقفة (متروبوليت Metropolite) . وعقد في المدينة اكثر من ثلاثة بجمعه للاساقفة (سينودس) وكان انعقاد اولها في عام ٢٦٥ . واطلق اسم انطاكية على احدى مدارس اللاهوت التي كان المتع افرادها يوحنا فم الذهب Chrysostome (توفي ٤٠٧)^٣ . وعلى عكس الاتجاه العاطفي والصوفي في الدين اكدت المدرسة على المنصر الانساني وركزت الاهتمام على المسيح التاريخي . وكانت لغة المدرسة ، كما تأكد ، اللغة اليونانية .

كانت اليونانية والأرامية تستعملان في العبادة منذ عهد الرسل . وبعد انت ارثت انطاكية الى مكانة الزعامة في الجزء الذي يتكلم اليونانية في سوريا بدأت اديسا بالارتفاع الى مكانة مشابهة في البلاد التي تتكلم الأرامية (السريانية) . وكانت اديسا اقليم مركز للمسيحية في ما بين النهرين^٤ ، كما كانت مهد الادب السرياني . ويرجح ان الترجمات الرئيسية للتوراة السريانية قد وضعت هناك في اواخر القرن الثاني . وادت المحادلات حول طبيعة المسيح في القرنين الرابع والخامس الى تجزئة المسيحية السورية الى عدد من الفرق^٥ .

آباء الكنيسة

تدين المسيحية بقسم كبير من نجاح انتشارها الى سلسلة من المؤلفين المعروفين بآباء الكنيسة الذين فسروا عقائد الكنيسة ووسعوها . ويسمى اول ستة منهم الآباء الرسوليين لأنهم عاصروا الرسل في بعض ادوار حياتهم . وكان احد هؤلاء سورياً يدعى اغناطيوس Ignatius « الذي خلف بطرس في اسقفيته انطاكية ».

١) انظر ما سيبقى في الفصل التالي .

٢) انظر : Eusebius, Bk. VII, ch. 29.

٣) انظر ما سيبقى في الفصل ٢٧ .

٤) انظر ما سيبقى في الفصل ٢٨ .

٥) انظر ما سيبقى في الفصل ٢٨ .

٦) انظر : Eusebius, Bk. III, ch. 36.

وتذكر المرويات انه حين زار تراجان انطاكية في عام 107 تصرف هذا الاسقف في حضرة الامبراطور بحراة كانت نتيجتها انه أرسل الى روما حيث اعدم في المدرج وذلك باقتراض الحيوانات الكاسرة له . وقد وصلتنا من بين مؤلفاته المختلفة سبع رسائل اصلية .

وبين الآباء الذين عاشوا قبل مجمع نيقية (١٥-٣٢٥ م.) شخصان بارزان كانت لها صلة بسوريا وهما يوستين الشهيد Justin (the Martyr) واوريغين Origen . وقد ولد يوستين في نابلس حوالي العام ١٠٠ م. ولكنه لم يكن من ابiven سامريين . وكان طالباً متخصصاً للفلسفة الافلاطونية ثم اعتنق المسيحية نتيجة محاورة جرت له مع شيخ متواضع وقرر لقيه على الشاطئ . واوصاه الشيخ بدراسة الانبياء العبرانيين والمسيح . وكثيراً ما كان يشار الى يوستين باسم الفيلسوف . وقد ادخل عناصر من الفلسفات الافلاطونية والرواقة في اللاهوت المسيحي وحارب تعاليم الفتوسطيين . وكان هناك معاصر له من المسيحيين الفتوسطيين اسمه ماركينون Marcion قد فرق بين الله المهد القديم والله العهد الجديد وقال ان المسيح قاسي الآلام بالظاهر فقط . وانتقلت المدرسة المركوبية من روما الى انطاكية وبقيت سورية .

وتجدوا يوستين حين خطاب الامبراطور انطونينوس بيوس قائلاً : «اما نحن فاننا مقتعمون باننا لن نسمع لاي كان ان يلحق بنا الاذى ما لم يثبت علينا فعل الاذى او يقوم البرهان على اتنا وحال ساقلون ، اما بالنسبة لك فاقتلتانا لانك تستطيع ذلك ولكن لا تستطيع ان تؤذينا» وينسب الى يوستين انه افتح اول مدرسة مسيحية في روما . وقد جلد فيها وقطع رأسه لانه رفض ان يقدم النهاج للآلهة ويظن ان ذلك كان في عهد ماركوس اوريليوس . وقد جعلته الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية قديساً . وكان اوريغين يرأس مدرسة لتعليم الدين المسيحي في الاسكندرية كما اسس مدرسة اخرى في قيصرية . وتوفي نحو عام ٢٥٣ في صور حيث يشيرون حتى اليوم الى قبره المزعوم بأنه قبر الساحر الكبير اوريانوس .

(١) انظر . Justin. *Apologia*, I, § 2.

الفصل السادس وعشرون التأثير السوري والتأثير الروماني

لم يكن توغل المسيحية حتى اقى اطراف الامبراطورية الرومانية وانتصارها النهائي على جميع الديانات اليونانية والرومانية وعلى منافسيها في الشرق - الا ناحية من نواحي انتشار تأثير الحضارة السورية وهي التارخية الدينية . اما النواحي الاخرى فكانت الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وفي هذه الاتجاه كانت عمليات تشریف الحضارة الرومانية تعمل في اتجاه معاكس .

التأثير الروماني عن طريق الرعوية

كان انتشار الحضارة الرومانية يتضاءل كلما بعده المسافة عن روما . ولم يكن في سوريا سوى عدد قليل من المقيمين الايطاليين ليكونوا بثابة مركز لنشر الثقافة اللاتينية . وكان اغلب هؤلاء من الموظفين الحكوميين الذين يعيشون الضرائب ويحصلون في القضايا العامة ويخضرن الالعاب والاحتفالات ولكنهم يبقوا يعاملون كأجانب . ولكن الاباطرة منذ البدء كانوا يتحدون السكان الوطنيين في مستعمرات مثل بيروت وهليوبولس حق الرعوية الرومانية فيحوزون مكانة هناءة بين سكان الولايات . كما ان بعض المدن الأخرى التي لم تكون من المستعمرات اعطيت حق الرعوية او بعض الامتيازات الخاصة اما عن طريق المنحة او المعاهدة . وقد تمعن صور مثلاً حتى يحق الاعفاء من الضرائب العادلة . وكانت سياسة «فرق تسد» اسلوباً سياسياً رومانياً قد عيناً طبق لينبع المدن او الجماعات المختلفة من التكتل معآ ضد روما .

ان سياسة منع الامتيازات الرومانية لغير الايطاليين قد ازدادت بشكل ملحوظ عندما اعتلى تراجان الاسپاني الاصل عرش القياصرة . وبلفت هذه السياسة ذروتها في ٢١٢ م حين اصدر كراكلام مرسومه المشهور بمنع حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات تقريباً . واصبح منذ ذلك الحين فصاعداً اي سوري

مواطناً رومانياً بحكم الواقع وبحق له استلام اعظم وظيفة في الدولة اذا كان اهلاً لذلك. غير ان الفوائد كانت مقتصرة في الواقع على النفوذ الاجتماعي وبعض الفوائد الاقتصادية. ولا بد ان صيحة بولس «انني مواطن روماني»^١ «وانني ارفع ارمي الى قيسر»^٢ قد رددتها كثير من السوريين في تلك الايام. ومع هذا فان ذلك لا يعني ان السوريين لم يعودوا يشعرون بأنهم سوريون. وكانت الحضارة الميلينية في ظل الحياة الرومانية تسلك الطريق الصحيح نحو حل المشكلة المقدمة وهي مشكلة صهر مجموعة من القوميات المختلفة في شبه وحدة في مجال الفكر والسياسة. وصار يبدو ان حكم الاسكندر المنشي وهو مشاركة المتضررين والمغلوبين قد تحقق جزئياً.

التأثير الروماني عن طريق الخدمة العسكرية

كان الرومان منذ البداية يستخدمون غير الابطاليين كفرق احتياطية. وبالتدريج أصبحت الفرق الرومانية نفسها تتألف من عدد كبير من السكان الاصليين. وكان افراد الجيش يصبحون بصورة آلية مواطنين رومان. وكان الجنود السوريون في الوحدات الرومانية يرثبون في مختلف اقسام الامبراطورية. وعندما ذهبـت الفرقة الثالثة الى ايطاليا لتساعد في توسيع مركز فسباسيان حيا جنودها الشمس المشرقة «حسب العادة السورية»^٣. وكانت تضم الفرقة المرابطة في نوميديا نسبة كبيرة من المغاربة السوريين القدماء من افامية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا وصور. وكانت اللاتينية لغة الجيش. ونستنتج من الكتابات الازية التي خلفها الجنود السوريون الذين خدموا في الولايات الغربية عند عودتهم انه يمكنهم استعمال اللاتينية. وانخذ بعضهم اسماء رومانية او على الاقل كانت اسماؤهم الاولى رومانية.

كانت اللاتينية ايضاً اللغة الرسمية للحكم. فالمراسيم الامبراطورية كانت تصدر باللاتينية ومعها ترجمة يونانية^٤. وحلّ التقويم الروماني محلّ كثير من التقاويم المحلية كما اقتبس نظام الاوزان والمقاييس الروماني بشكل عام.

١) قارن مع اعمال الرسل ٢٢:٢٧.

٢) انظر اعمال الرسل ٢٥:١١.

٣) انظر : Tacitus, *Historiae*, Bk. III, ch. 24.

٤) انظر . Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 12, § 5.

المقاومة اليهودية

كانت الجماعة اليهودية أقل الجماعات السورية المتعددة استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية. وكانت الاستقرارية قد أصبحت مصطبنة بالصيغة الهمينية. وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الحزب الاستقرارطي ويحتكرن الوظائف على تأييد روما. أما الفريسيون الذين مثلوا عامة الشعب فقد تسکوا بمقاييس ديناتهم وهدفوا إلى التحرر. ويتصل الفريسيون من حيث مثالיהם بالماسيديم Hasidim من المصر المكابي^١.

عمل اليهود منذ عهد يومي كجماعة متميزة بسبب الوحدانية الشديدة لدينهم. فكانوا في عهد الإباطرة معينين من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الإمبراطور. فلم يطلب منهم المساعدة في عبادة الحاكم الروماني المخون المقرون بتقديم القرابين له. وكانوا يمارسون سياسة الانطواء والفرار يغذون شعورهم القومي. وأدى هذا إلى اصطدامات أتسعت فأصبحت ثورة قومية بين ٦٦ - ٧٠ م. في عهد نيرون وبين ١٣٢ - ١٣٤ تحت حكم هادريان. ونتج عن هاتين الثورتين الانقسام النهائي بين اليهود والمسيحيين وحلت بالمجتمع اليهودي كارثة دائمة.

تدمير تيطس لأورشليم

عهد نيرون بهمة قمع الثورة الأولى إلى قائد فسباسيان^٢ الذي أخضع بين ٦٨ - ٦٧ منطقة الريف والمحصون المنعزلة^٣. وكانت يافا بين المدن التي دمرت. وقد بلغ عدد الجيش الروماني ٥٠،٠٠٠ ولم يلاق سوى مقاومة ضئيلة. وحين كانت فسباسيان على وشك محاصرة أورشليم توقيت نيرون ورفع هو إلى العرش. وعهد بأسر إنهاء المهمة الحربية إلى ابنه تيطس الذي شدد الحصار على أورشليم مدة خمسة أشهر انتهت في أيلول سنة ٧٠. ويمكننا الحصول على فكرة عن مصير المحاصرين المجمع من وصف ميثاق متداول بين اليهود تعهدوا فيه ببابادة أنفسهم حين كان

١) انظر في من ٢٦٧ - ٢٦٨.

٢) انظر : Dio, Bk. LXIII, ch. 22, § 1.

٣) انظر : Josephus, War, Bk. II, ch. 18, §§ 1, 3-4.

الجنود الرومان يفتحون المدينة. وبعد أن أبادوا ساهم وأولادهم توقف كل منهم عن القتال ورمي سلاحه حول أفراد عائلته المذبحين وقدم رقبته لضربة من الذي جعلته القرعة يقوم بهذه المهمة الكئيبة. وقد كتب الوصف التالي مؤرخ ساهم بنفسه في هذه الحرب^١ :

كان الأزواج يضمنون زوجاتهم بجهاز ويعملون أطفالهم بين أذرعهم ويشانعون عنق الوداع والمسموع تفرق في مأقيهم . ولكنهم نفروا في الوقت ذاته ما اعتزموا عليه لأنهم يعملون ذلك بأيدي غريبة . وقد جلوا عزاءم لفروة ما قاموا به تفكيرهم بالصلائح التي سيقاسمونها فيما لو سقطوا بأيدي أعدائهم . وكانت رجلاً تتساء بالحقيقة بسبب الفروة التي وجدوا فيها وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم وأطفالهم بأيديهم أهون الشرور التي تتقدّم^٢ ...

لقد هدمت المدينة وأحرق المعبد وهو المعبد المزخرف الذي بناه هيرودس فوق أبنية متعاقبة في نفس الموقع . وكان التهدم الذي قام به تيطس تماماً حتى ان الناس نسوا اذا كان المعبد قد بني على التلة الشرقية او الغربية في اورشليم . وقد فشلت جميع محاولات اعادة بنائه بالاستناد الى وصف التوراة وحدها . وقدر بان مليون يهودي قد هلكوا في هذه الحرب . واجبر كثير من الاسرى بانت يقاتل الواحد الآخر او يقاتلا ضد الحيوانات المفترسة في المدرجات . ومنعت البقية الباقيه من اليهود من الاقتراب من عاصمتهم . والواقع انها لم تعد عاصمتهم . وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود . واصبح اليهود منذ ذلك الحين شيئاً بدون وطن . وهكذا اضيف فصل رومني في تاريخ تفرق اليهود (الدياسپورا) الى التصوّل الاشوري والكلدانية .

وقد اختطف احد الجنود الرومان الشمعدان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق وحمله في موكب النصر الذي كرموا به عودة تيطس الى العاصمة الامبراطورية . وحتى هذا اليوم لا يزال يحمله احد الجنود عالياً على القوس المشيد قرب القوروم برومة الذكرى الانتصار العظيم .اما بخصوص الديانة اليهودية فقد اخضطت بانحطاط اتباعها . ولم يكن اساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها

١) انظر في ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

٢) انظر : Josephus, War, Bk. VII, ch. 9, § 1. هذه الفقرة هي من الترجمة المنقحة التي قلم بها : A. R. Shilleto (London, 1890). Cf. Dio, Bk. LXV, ch. 6, § 3.

وفشلت جميع محاولات العلبه اليهود ابتداء من فيلون الاسكندرى (زها عام ٤٠ م) لتقريرها الى العقلية اليونانية الرومانية.

تعرض اليهود لفترة موت آخر حين رفع راية الثورة اليهودية من ١٣٥-١٣٢ م. قائد عامض يسمى سيمون بار كوكبا^١ Simon Bar Kokba. وقد سحق هادريان الثورة وحوّل اورشليم الى مستعمرة رومانية باسم ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina^٢. وكان اسمه الاول ايليوس Aelius. وابدل المعبد القديم بعبد كرس جوبيرت كابيتوليتس Jupiter Capitolinus. وبقدر ديو^٣ عدد القرى التي دررت بتسعمئة وخمس وثمانين قرية وعدد القتلى من السكان بخمسين وثمانين الفاً.

السلالة السورية في روما

فتحت ابواب النفوذ السوري في روما على مصاريعها عند ما نجح زوج سيدة من حمص باحتلال عرش القياصرة حوالي اواخر القرن الثاني. وكانت تلك السيدة جوليا دومنة ابنة كاهن الاكلاب في حمص. اما الزوج فكان سبتيموس سفيروس قائد احدى الفرق في سوريا. وتم الزواج حوالي ١٨٧ م.

ولد سبتيموس في لبيتس Leptis (هي لبدة اليوم في طرابلس الغرب) وكانت مستعمرة فينيقية في افريقيا. وكان الامبراطور الروماني الوحيد في التاريخ الذي قدم من تلك القارة. وكانت اللاتينية بالنسبة اليه لغة اجنبية وظل يتكلما برطانة طيلة حياته. اما لغته فكانت البوئية التي لا تختلف كثيراً عن الارامية ، لغة زوجته. وقد اعلن سبتيموس العرش في سنة ١٩٣ م.^٤ وادعى الانتساب الى

١) هو تعبير آرامي يعني « ابن الكوكب » وقد تكون فيه اشارة الى سفر العدد ١٧:٢٤ . ودعا اليهود بعد هزيمته بار كوزبيا Bar Koziba اي « ابن الكتاب ».

٢) انظر : Dio, Bk. LXIX, ch. 12. Eusebius, Bk. IV, ch. 5. قارن مع : يحمل تأسيس المستعمرة الرومانية سبب الحرب وليس نتيجتها.

٣) انظر : Dio, Bk. LXIX, ch. 14, § 1.

٤) راجع بشأن تزاعمه مع تيبر وغيره من المؤلفين : Herodian, *Historiarum*, Bk. III, chs. 1 seq.

ماركوس اوريليوس على اساس انه بناته ولكن هذا التبني حصل بعد وفاة ماركوس وكان مزوراً، وبذلك اتصل بالأسرة الانطونية.

وقد وصفت جوليا دومنة بأنها كانت على جانب عظيم من الجمال والقوة الفكرية والمقدرة السياسية والأدبية. وقد منحت لقب اوغسطا وساعدت زوجها في تصريف شؤون الدولة. وكان كثيرون المستشارين احد اقربائها وهو القبيه بابينيان^١. وعندما توفي زوجها في ساحة المركّة في بريطانيا (٢١١ م) بقيت مسيطرة على ولديها كراكلا وغيتا وقد خلفا والدهما كأمبراطورين.



كان اسم كراكلا الحقيقي باسيانس Bassianus بالنسبة لاسم جده لامه. أما لقبه هذا فقد حصل عليه بسبب نوع من الجبهة الغالية التي ادخل استعمالها^٢. وقد ولد هو نفسه في ليون Lyons في بلاد الغال. وكان الاخوان يكتنان واحدهما للاحمر منذ الطفولة اشد انواع البغض. ولذلك حاول كراكلا الآن وهو اكبر الاثنين ان يجعل نفسه الحاكم الوحيد وفي سبيل ذلك دبر اغتيال أخيه غيتا وهو في ذراعي والدته في جناحها الخاص. وكان غيتا قد دعي الى ذلك الجنانج مجدة المحاولة للتوفيق والصلاح. واصيبت جوليا نفسها بجرح في يدها اثناء محاولتها حماية ابنها^٣. وقد حدث ذلك في سنة ١١٢ وهي السنة التي منح فيها كراكلا حق الرعوية الرومانية لمجمع سكان الولايات الاحرار. وكان آنذاك في الثالثة والعشرين ويكون اخاه بستة واحدة.

١) انظر في من ٣٦٠ .

٢) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 3, § 3.

٣) انظر : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 2, §§ 3-4.

ومنذ ذلك الحين حكم على الامبراطورة او والدة التعبية «ان تبكي على موت الولد الواحد وعلى حياة ابنها الآخر».

بعد ان بدأ كراكلا سياسة سفك الدماء لم يعرف ابن يتوقف. وقد قتل جميع الذين اعتبرهم مواليين لاخيه بالإضافة الى غيرهم وبلغ مجموع ضحاياه ما يقرب عشرين ألفاً. وكان بين الضحايا بابينيان الذي ازدانت به بلاط ابيه، وقد حكم كراكلا بقوة السيف واعجب بهانبيال فاقام له التائيل في امكانه متعددة^١. وطلب من مجلس الشيوخ ان يدرج اسمه بين الآلهة. وقد كتب احد المؤرخين المعاصرین له هذا المقطع في وصف كراكلا :

انتسب انطونينوس الى ثلاثة عروق لم يتحلّ بأية فضيلة من فضائلها ، ولكنه جمع في نفسه كل عيوبها . فأخذ من بلاد الفالن التقلب والجبن والطيش ومن افريقيا الحشونة والقسوة ومن سوريا التي منها اصله عن طريق امه اخذ الدهاء^٢.

وقفت والدة كراكلا مكتوفة الايدي تجاه هذا الفجور . ولم تجرؤ على ذرف دمعة واحدة على ابنها الذي اغتيل . وقد عهد اليها كراكلا برسالاته وبالاوراق الرسمية . وكان حالونها يضم بالإضافة الى بابينيان وخلفه اولبيان كلاً من ديوجينس لازرتينوس Diogenes Laertius^٣ ، كاتب تراجم المؤرخين اليونان ، وديو كاشيوس Dio Cassius المؤرخ والموظف في الدولة ، وفيلوستراتس Philostratus السفسطائي ، وقد اشرنا الى مؤلفاتهم في هذا الكتاب . وكان جالينوس الطبيب اليوناني المشهور عضواً في هذه الحلقة التي جمعتها فتنة هذه السيدة السورية ذات الاصل الرضيع نسبياً وتتنوع معارفها . وكان اسم ابیها باسيانوس Bassianus يعني الوضع بينما اسمها دومنة يعني سيدة . ومثل هذه الصفات النسائية التي اظهرتها دومنة كانت نادرة

١) انظر : Edward Gibbon, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, vol. i (London, 1898), p. 141.

٢) راجع بشأن مساهمته في العبد المظيم في هليوبولس من ٣٤ من هذا الكتاب .

٣) انظر : Ernest Cary Dio, Bk. LXXVIII, ch. 6, § 1. هذا المقطع مأخوذ من ترجمة Ernest Cary Dio, Bk. LXXVIII, ch. 6, § 1. (London, 1927), vol. ix, p. 291. ويقول الماء العادون اليوم ان المؤرخ ديو اعطى صورة بشعة لكرراكلا خاصة لعم مباراته مجلس الشيوخ الذي كان آنذاك عاجزاً تماماً .

٤) دعي كذلك بالنسبة الى لازرتين Laertes في كيليكية التي يذكرها Strabo, Bk. XIV, § 3. ولم يبين موقعها بالضبط حتى الآن .

الوجود عند السيدات الرومانيات الحقيقيات. وذكر عدد من المؤرخين بأن اخلاقها كان يرتقي بها ولكن المؤرخ ديو لا يذكر لها اية فضائحة.

كانت جوليا صدقة في أنطاكية حين وصلتها أنباء اغتيال ابنها بتحريض من مكرينوس Macrinus في مدينة اديسا (٢١٧ م.) وكان مكرينوس قائد الحرس الامبراطوري وخلف ابنها في منصبه. وقد حاولت الانتحار جوعاً ليس بسبب حزنها على ابنها المكروه بل لأنها لم تستطع التفكير بالعودة الى الحياة العادلة بعد «ان كانت تأمل ان تصبح الحاكم الوحيد وان تجعل نفسها معادلة لسميراميdes ونيتو كريس¹ خاصة وانها كانت نوعاً ما من نفس البلاد التي تحدّرت منها». ونجحت اخيراً بمحاولتها المتكررة في الانتحار ونقل جثتها الى روما لدفنها.

تابعت عمل جوليا دومنة شقيقها الصغرى المقتندة جوليا ميزا Julia Musea وقد ولدت ميزا في حمص ثم انتقلت إلى روما بعد زواج شقيقها. وبقيت تعيش هناك في البلاط حتى مقتل ابن اختها كراكلاء. وتكلمت بالنظر لما تمنت به من قوة عظيمة وحكمة سياسية وثروة ضخمة من التأثير بنجاح على قلب مكرينوس وتسويجه خديعه إلاكابالس؛ وكان زوجها رومانيا غنىً شغل منصب القادة العليا

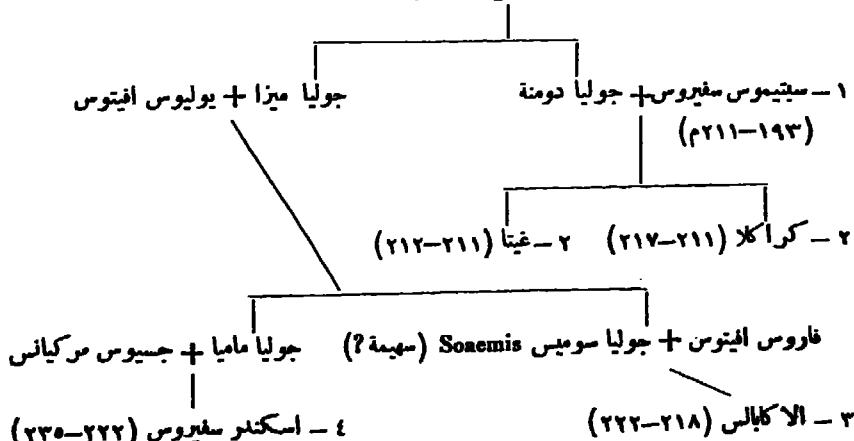
١) راجع بشأن الاعمال التي يعزّوها الأقدمون إلى هاتين السيدتين : Herodotus, Bk. I chs. 184-6.

Dio, Bk. LXXIX, ch. 23, § 3. (۲) انظر :

^{٣)} هي مؤنث كلمة ميزيوس *Maesius* وهو اسم روماني قديم.

٤) كان امه الصلب يasicians بالنسبة لجده الاكبر . وفيما يلي شجرة النسب للسلالة السورية :

یولیوس پامپانس من حص



في عدة ولايات ووصل إلى رتبة القنصلية في سنة ٢٠٩ م. وكان والد إلاكابالس رجلاً سورياً من أقانيمه ولكن الصبي فيما ذكر قد ولد في حمص حيث ورث الكهانة. وقد دعم الجيش السوري هذا الشاب قريب جوليا دومنة البالغ من العمر الرابعة عشرة فهُزم مكرينيوس وقتل في أنطاكية سنة ٢١٨ م.

الله الشمس السوري يعبد في روما

دخل الامبراطور الكاهن مدينة روما منتصراً وهو يحمل الحجر الأسود المقدس في عربته. وكان هذا شعار الله بعل المحمي وهو الله الشمس الذي تسمى باسمه. وكان يحتفظ به في الأصل في معبد حصن التخم الذي كان يزدان بالذهب والفضة والجوائز^١ والذي كان يتمتع بحق العجاء الناس إليه. وأصبحت عبادة الإله السوري متقدمة في العالم الروماني. وكانت الطقوس التي أدخلت معها فخمة جداً ترافقها ذبائح غنية كانت تقدم على مذابع تنوء بالعطور وتصب عليها خمور معنقة لتخالط مع دم الضحايا. وأضاف الامبراطور إلى القابه العديدة لقباً جديداً وهو «الكاهن الأعلى للإله الشمس إلاكابالس الذي لا يُقهَر». أما بالنسبة لحكمه فكان تتمة الحكم نسيبه وهو عبارة عن سلسلة من أعمال التحبور والوعنة المتطرفة. وكانت جدته تدير أمور الحكم وعندما شعرت بقرب سقوطه اقنعته بأن يتبني حفيدها الآخر اسكندر سفيروس^٢ ويعينه خلفاً له. وفي سنة ٢٢٢ اعتُقال الحرس إلاكابالس وخليه الاسكندر المذكور.

كان اسكندر آنذاك في يبلغ الثالثة عشرة من عمره وكان والده سورياً رفيع المرتبة من مواطني عرقه^٣. أما والدته وهي أرملا كشقيقتها فقد تودي بها أوغسطا ومارست الوصاية. وكان اسكندر آخر أفراد هذه السلالة السورية واحسنهم. وقد أعاد التحف الدينية والمجاراة المقدسة إلى أماكنها الأصلية وكان سلفه قد وضعها في روما كما أنه منع عبادة شخصه وهو على قيد الحياة واقام في محرابه

١) انظر : Herodian, Bk. V ch. 5.

٢) الاسم الأصلي هو الكسيان باسيان؛ انظر : Herodian, Bk. V, ch. 5.

٣) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 30, § 3.

الخاص غائيل نصفية لزردشت وابراهيم والمسيح. واستمعت والدته لمحاضرات الفقيه اوريجين. وقد انقض الترف في البلاط وخفف الضرائب ورفع مستوى النقد وشجع الادب والعلم ولكنه لم تكن لديه ثقة في نفسه كافية لأن يتحرر من وصاية امه. ولم يستطع الحمد من تعسف الطبقة العسكرية. وقد قتل مستشاره ورئيس حرسه اولييان في فتنة عسكرية. وفقد ديوکاشیوس قيادته في فتنة اخرى.

احتفل اسكندر في عام ٢٢٣ في روما بانتصاره على الفرس بعد ان استرد منهم بلاد ما بين النهرين. وكان تجدد الروح القومية يحرك الان هذا الشعب في ظل قائد جديد هو ارخثستا مؤسس السلالة الساسانية (٢٢٧ م.) على انقاض السلالة الفرتية^١. وكان على الاسكندر ان يواجه هجوماً في بلاد الفال من القبائل الجرمانية حين قتل في ٢٣٥ في فتنة ذهبت ضحيتها والدته ايضاً.

فيليب العربي

بعد عشر سنوات من ذلك شاهدت روما توبيع سوري آخر هو فيليب



خطمة للورد من عهد فيليب العربي

جانياً نقد برونزوي من بعلبك ضرب باسم فيليب العربي ٢٤٩ - ٢٤٤
ويظهر احد الجانحين منظراً جانياً وأمامياً لمعب جوبيتر في بعلبك

العربي . وقد ولد في قرية صغيرة في حوران^٢ وكان قائداً للحرس حين اغتيل سلفه وهو يقابل الفرس فنادي به الجنود خلفا له. وقد صادق مجلس الشيوخ على هذا

1) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 3, §§ 1-4.; Herodian, Bk. VI, ch. 2.

2) انظر في ص ٣٥٠ .

الاختيار في سنة ٢٤٤. ولم يجعل هذا الامبراطور السوري اسمه مكررهاً باي استغلال استبدادي للسلطة، الا ان ذكرى الاساليب الدينية التي استخدمها لاتمام القضاء على سلفه المحبوب لم تنس ابداً. وقد اكسبته حملاته ضد القبائل على الدانوب الاسفل لقب جرمانيكس مكسيموس *Germanicus Maximus*. وكانت من نصيب هذا السوري العربي ان يرث في سنة ٢٤٨ احتفالات ذكرى مرور الف سنة على تأسيس روما. وقد جرت الالعاب وغيرها من امور التسلية بروعة عظيمة. وكان الامبراطور يعتبر مؤيداً للمسيحية اذا لم نقل مسيحيّاً تماماً ويقال ان بعض الرسائل قد وجدها اوريجين اليه والى الامبراطورة^١. ومع ذلك فلم يترك اي تأثير على الكنيسة. ويجمع المؤرخون على اعتبار قسطنطين اول امبراطور مسيحي. وفي عام ٢٤٩ لقي نفس المصير الذي حل بباطراة كثيرون آخرين في هذه الفترة وهو الموت العنيف على يد الفرق المتمردة. ويقال ان خلفه قد استورد اسوداً من افريقيا واطلقها في الصحراء السورية بما ازعج سكانها الشديدي المراس.

التوسيع الاقتصادي

لقد تجلّى التوسيع الاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بعدد الجاليات التي يمكن تتبع تاريخها منذ بداية الامبراطورية حتى نهايتها. وحصل استعمار حقيقي لبلاد البحر المتوسط وخاصة في القرنين الثاني والثالث من قبل «السوري» Syri وهو لفظ اطلق على السكان الذين اصلهم من شرق المتوسط. وملأوا السفن السورية البحر كما في الايام السالفة. وقد انتعشت الحصائص الفينيقية القديمة وهي النشاط والتكييف وحب التجارة المرجحة والمقدرة على عقد الصفقات واقامة العمليات التجارية الكبيرة والصغرى «وكان السوريون من بين جميع شعوب الامبراطورية اكثراها نشاطاً في هذه المغامرات التجارية»^٢.

انتشرت الحواضر السورية بظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والدينية على طول شاطئ المتوسط واتبعت في الداخل الطرق التجارية الرئيسية ومجاري الانهار

(١) انظر : Eusebius, Bk. VI, chs. 34, 36, 39.

(٢) انظر : Arthur E. R. Boak, *A History of Rome to 565 A. D.*, rev. ed. (New York, 1930), p. 319.

الكبيرى . ومن جملة الجزر كانت ديلوس^١ وصقلية مراكز جاليات سوريه قوية . ومن الموانئ الایطالية كانت نابولي واوستيا مرغوبتين بصورة خاصة . وقد وصل التجار السوريون عن طريق الدانوب الى باتونيا Pannonia كما وصلوا عن طريق الرون الى ليون . وكان لرجال الاعمال السوريين مراكز في اسبانيا ولكنهم في بلاد الفال كانوا ناشطين بصورة خاصة . وقد اكتشفت في لبنان رسالة تعود الى اواخر القرن الثاني موجهة الى البحارة في مدينة آرل Arles المكلفين بشحن الحبوب^٢ . وتذكر كتابة كتبت بلغتين وجدت على قبر من القرن الثالث في بلاد الفال تاجرًا سوريًا من القرنوات Kanatha كان يملك معملين في حوض الرون حيث كان يستورد البيضان من اكيتنانيا^٣ . وكانت اسمه ثيسم Thayyim (او بوليان) ابن سعد .

احتكر التجار السوريون بصفتهم مستوردين مقداراً كبيراً من تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، وكصيارة لم يكن لهم منافس . وكانت سلعهم الرئيسية تتالف من التمور والتراابل والحبوب والاواني الزجاجية والمنسوجات والمجوهرات . وكانت بعض هذه السلع تستخدم كنماذج تعلم اصحاب المصنع الوطنيون والصناع تقليدها بالتدريج . وحيثما كان التجار السوريون يقيسون فهناك كانوا يشيدون معابدهم . وكان بعل غزه يعبد في اوستيا وبعل بيروت يعبد في اماكن بعيدة حتى اسبانيا . وعرف الله بيروت باسم بعل مرقد Marqod^٤ (بالمر코드س Balmarcodes اي الله الرقصات) ووُجد معبده في دير القلعة (على رأس تلة تشرف على المدينة) . وقد استعملت بعض اعمدته حديثاً في بناء الكاتدرائية المارونية في بيروت . ووُجدت في بيتولي Puteoli بآيطاليا مذابح قدم عليها احد المصانع جملين من

(١) انظر في من ٣٠١ .

(٢) انظر : J. P. Waltzing, *Étude historique sur les corporations professionnelles chez les Romains*, vol. iii, (Louvain, 1899), pp. 526-27.

(٣) انظر : Camont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain* 4 th. ed., p. 100.

(٤) من كلة رقة اي رقص . راجع : Georgius Kaibel, *Epigrammata Graeca* (Berlin, 1878), No. 835 ; Louis Jalabert, « Inscriptions grecques et latines », *Mélanges de la faculté orientale* (Beirut, 1906), vol. i, pp. 181-188.

النعب الى الالهة النبطية دوسارس Dusares (ذو الشرى)^١. وترك متعبدون آخرون في هذه المدينة كتابات مكرسة لجوبيرت الله هليوبولس . وبينما كانت هذه النصب التذكارية في الغرب تكتب باللاتينية بصورة رئيسية فإن أحدها من المقيمين التدمريين في روما كانت مكتوبة بالآرامية ووجهة الى آلهة تدمر^٢.

لم يكن التجار والمستعمرون والجنود والعييد السوريون أقل حماسة في نشر الديانة المسيحية مما كانوا في نشر العبادات الوثنية . وظهر اثرهم في تطور المسيحية في الغرب في ناحية التقشف والرهبنة والعبادة المتصفة بشدة العاطفة . وكان تقدير الصليب واتخاذه رمزاً دينياً من العناصر المسيحية الأخرى التي ادخلها السوريون الى اوروبا . وكانت جاليتهم في روما قوية حتى أنها قدمت الكنيسة عدداً من البابوات^٣.

١) راجع بشأن خرائب معبده في سبع St. بحوران : II, Sec. A. (Leyden, 1919), pp. 385-90.

٢) انظر : *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. vi (Berlin, 1876), No. 710.

٣) انظر : Louis Bréhier, *Les Origines du crucifix dans l'art religieux* (Paris, 1908), pp. 39-43, 54-55, 59.

الفصل التاسع والعشرون سورية في العهد البيزنطي

الامبراطورية الرومانية في عهدها الاخير

ان القرن الثالث الذي حصل فيه التقلل الديني والاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بصورة سريعة قد شهد نهاية مرحلة من الحضارة اليونانية اللاتينية وبدء مرحلة اخرى. وكان خوض الحضارة الموحدة تقريراً الذي كان يميز الامبراطورية حتى ذلك الحين قد اخذ بالتفكك. وبدأت اسسه المادية تنهار بفعل الحروب الاهلية الطويلة والمجاهدات الخارجية المتكررة. وتعرضت دعائمه الفكرية والروحية المتداعية لغزو موجات جديدة من الافكار المسيحية. فكان التغير منذ ذلك الحين سريعاً وناماً. واخذت مرحلة حضارية جديدة وهي البيزنطية التي نتجت عن اتحاد المسيحية مع اليونانية الوثنية تحمل مكان المرحلة الحضارية القديمة. وكان لها لون مسيحي يوناني شرقي ومركزها القسطنطينية.

القسطنطينية العاصمة الجديدة

وقد سميت هذه المدينة باسم قسطنطين الذي كان يحكم مع امبراطور آخر سنة ٣٠٦ ثم اصبح امبراطوراً وحيداً بين ٣٢٤ و ٣٣٧. وكان تأسيسها في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي اوروبا بآسيا. ودشنت في ١١ آب/أغسطس ٣٣٠ كعاصمة جديدة. وقد منتها موقعها الاستراتيجي الجغرافي فوائد عسكرية واقتصادية وانعدمت كل هذه العوامل لجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعي الذي يستطيع العالم الشرقي ان يتجمع حوله بسهولة. وسرعان ما فاقت «رومة الجديدة» على البوسفور رومه القديمة على نهر التiber.

ويدل هذا التعمّل ذاته على الاعتراف بالأهمية الفائقة للقسم الشرقي من الامبراطورية. وكانت هذه الولايات الآن اغناها في التراث والموارد الطبيعية.

وأتجهت كل الامبراطورية في ذلك الاتجاه. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضره الرئيسية وهي فارس التي كانت روما في نزاع مستمر معها. وكان مركز التقل في شؤون العالم يتحول الى الشرق من جديد.

المسيحية : الديانة الجديدة

قبل ان يؤسس قسطنطين عاصمة جديدة للدولة اعترف بديانة رسمية جديدة. ففي رئاسته الرسمية من عام ٢١٢ و ٢١٣ لم يظهر التسامح للمسيحيين في مملكته فحسب بل منحهم عطفه ايضاً^١. وفي سنة ٣٢٥ عقد مجتمعاً كنسياً من كل اساقفة الامبراطورية في مدينة نيقية في بيثنيا^٢ في آسيا الصغرى وكان هذا اول مجمع من نوعه . وقد حكم فيه على الاريوسية^٣ . ونظمت مجموعة تعاليم الدين المسيحي بصورة نهائية في ما اعرف بالعقيدة النيقية Nicene Creed .

ويرجح ان تكون قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية من باب الاساطير. وتروي هذه القصة انه شاهد في السماء اثناء زحفه على روما عام ٣١٢ صليباً متألقاً عليه كتابة يونانية تقول : «بهذا ستفلب»^٤. والذي نعلميه بالتأكد هو ان قسطنطين استخدم اللواء الكبير وعليه اشارة الصليب (labarum) كعلم امبراطوري وبواسطته تقدم نحو النصر على منافسه ماكستينوس Maxentius . وسواء كان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد تم بدافع المصلحة او بدافع الاعيان فليس بذلك اهمية تاريخية . والامر الثابت هو ان المسيحية بعد ان كانت فيها ماضي عبادة غريبة غامضة أصبحت في عهده الآن الديانة الرسمية للامبراطورية . واذا كانت بلاد اليونان قد سيطرت على فكر الرومان من قبل فان سوريا الآن قد سيطرت على نفوسهم .

(١) انظر : Eusebius, Bk. X, ch. 5.

(٢) الاريوسية هي عادة لتحديد علاقة اقانيم الثالوث على اساس تمييزها وتبعيتها الواحدة للآخرى. وتقول بان الابن هو من طبيعة مثالية وليس ماوية للاب . وكان اخاهما يميل الى اسكنار الوهية المسيح . اما مؤسساها فكان آريوس الذي عاش في الاسكندرية في هذه الفترة . وقد حل المشرعون الاريوسيون القوط والومباردين وغيرهم من القبائل الجرمانية على اعتناق مذهبهم ؛ راجع : Sozomenus, *Historia ecclesiastica*, Bk. I, chs. 20, 21.

(٣) قارن مع : Sozomenus, Bk. I, ch. 4.

(٤) قارن مع : Lactantius, ch. 44; Eusebius, Bk. IX, ch. 9. § 2.

وفي هذه الفترة كان اكثرا الرجال نفوذاً في الامبراطورية قد أصبحوا من اتباع المسيح مع ان غالبية السكان بما فيهم اعداء قسطنطين كانوا لا يزالون وثنيين. وكان النظام والتنظيم والتزوه والقوة الموجهة في جانب الاقليمة . وكانت هيلانة والدة قسطنطين مسيحية تقية . وقد قامت بزيارة الى اورشليم حيث يروى انها وجدت الصليب الحقيقي في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة . وفي ذلك المكان شيد قسطنطين كنيسة القيامة الاولى . وعملت الطقوس المتعلقة بالاماكن المقدسة التي ادخلها الامبراطور والدته على الارساع في جعل سوريا مسيحية .

وقد عمل هذان الحادثان في عهد قسطنطين وما نقل العاصمه من رومه الى القسطنطينية والاعتراف الرسمي بالمسيحية على جعل عهده من ابرز المراحل في تاريخ اوربا . كما انها يبران تقبيله بالعظيم . وقد قدر لهذه الامبراطورية الجديدة التي دشنها قسطنطين والتي كانت مسيحية في عقيدتها ويونانية في لغتها وشرقية في اتجاهها ان تدوم مع ما تحملها من احداث خطيرة حوالي احد عشر قرناً وربع القرن . وقد اصبحت اعتباراً من القرن السابع بثابة حصن ضد الاسلام وسقطت اخيراً في عام ١٤٥٣ تحت وطأة هجوم المدافعين الجدد عن الاسلام نعني الاتراك العثمانيين .

بقي استمرار الامبراطورية من ناحية خارجية ونظرية قائماً لعدة سنوات بعد تأسيس القسطنطينية . ومع ذلك فان شطري الامبراطورية قد انفصل في الواقع اكثراً من مرة وحكمها اباطرة مختلفون . وحصل الانقسام النهائي في سنة ٣٩٥ حين توفي تيودوسيوس الكبير وخلفه ابناء هونوريوس واركاديوس . الواحد على الغرب والآخر على الشرق . وكان تيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥) آخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة . ومنذ ذلك الحين وجدت امبراطورية رومانية شرقية كان التجاوز حليقها بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب . وانهياراً سقطت رومه في ٤٧٦ بنتيجة هجمات التبائل الגרמנية . وقد كسب تيودوسيوس لقب الكبير بتصوده الباسل امام القوط ولدمه المسيحية الحالية من البدع . واعتنق جميع خلفاء قسطنطين باستثناء بوليان بريده (٤٦١-٣٩٣) الدين المسيحي .

التقسيمات الادارية

كانت سوريا تقسم في نهاية القرن الرابع الى خمس مقاطعات . احتفظ قسمها

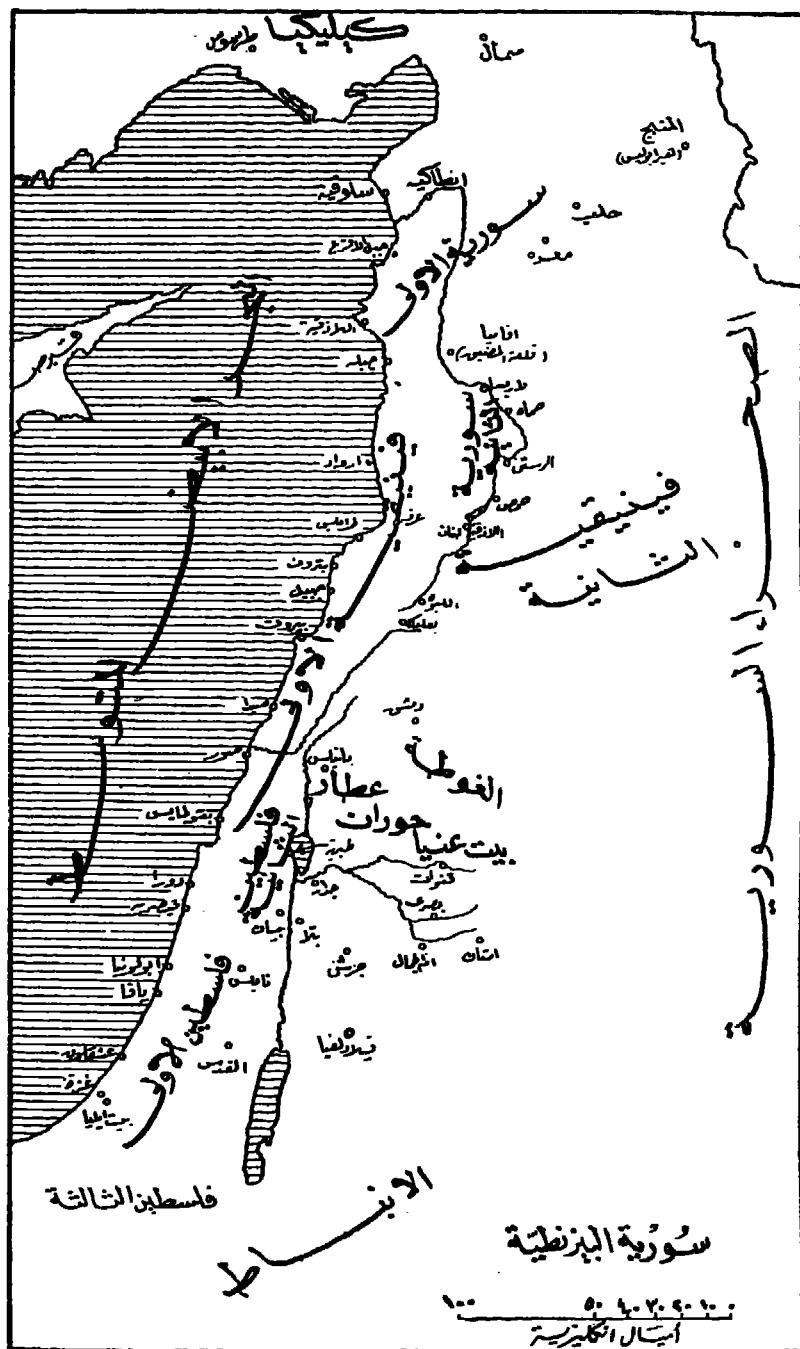
الشمالي باسم سوريا وقسم الى جزئين: سوريا الاولى Syria Prima ومركزها انطاكية ومن مدنها الرئيسية سلوقيه ولاوديسه وجبلة وبيروبا (حلب) وحالكيس اد بيلوم Syria Secunda ؟ ثم سوريا الثانية Chalcis ad Belum ومركزها مدينة اقامية ومن المدن التابعة لها ابيفانيا (حماة) واريتوزة (الرستن) ولاريسة (شيزر) . وقسمت فينيقية ايضاً الى قسمين : فينيقية الاولى Phoenicia Prima ومركزها صور ومدنها الرئيسية هي بتولمايس (عكا) وصدا وبيروت وجبيل او البترون Botrys وطرابلس وعرقة وارواد ؟ ثم فينيقية الثانية او فينيقية التي تقابل لبنان Phoenicia ad Libanum ومركزها حمص وتضم مدن دمشق وهليوبولس وتدمير . وكانت فينيقية الاولى هي فينيقية البحرية المعروفة في التاريخ . اما الثانية فكانت مقاطعة داخلية تضم مدننا لم يسبق ان كانت تابعة لفينيقية او لبنان . وقد قسمت فلسطين الى ثلاثة اجزاء : فلسطين الاولى Palaestina Prima وكانت قصبة مدینتها الرئيسية وضمت اورشليم ونيابولس (نابلس) وجوبا Joppa (يافا) وغزة وعسقلان وغيرها من المدن ؟ وفلسطين الثانية Palaestina Secunda ومركزها سكينيوبولس (بيسان) ومدینتها الرئيسية جدره وطبرية ؟ ثم فلسطين الثالثة Palaestina Tertia وكانت البتراء مدینتها الرئيسية وقد تشكلت من الولاية العربية السابقة .

التجارة

ويبدو ان تقسيم الامبراطورية وتجزوء لايتها السورية لم يلحق الضرر بعلاقات سوريا التجارية الداخلية والخارجية . ففي العصر البيزنطي كما في العصر الذي سبقه كانت جميع تجارة المتوسط تقريباً بايدي السوريين واليونان^١ . ويصف القديس جيرروم التجار السوريين بأنهم كانوا يجتازون العالم الروماني كله في القرن الرابع يدفعهم حبهم للتجارة المرجحة ويتحددون جميع المخاطر^٢ . ولم يتوقف ازدهار مراكزهم في بلدان البحر المتوسط كلها . وكان يمكن العثور عليهم في روما ونابولي وقرطاجة ومرسيليا وبوردو وغيرها من المراكز التجارية . وكانوا يستوردون الحبوب من

١) انظر : J. B. Bury, *History of the Later Roman Empire* (London, 1923) vol. ii, p. 316.

٢) انظر : Cumont, *Religions orientales*, p. 100.



عقلان وغزة والارجوان من قصريه والاقمشة المنسوجة من صور وبسيروت والفسق ونصال السيف من دمشق والاقمشة المطرزة من مدن متعددة. وكان التهاش المطرز مطلوباً بصورة خاصة لاستعماله لحاجات الكهنوت.

كان الحرير من السلع القديمة التي اتخذت الآن أهمية جديدة وسيطر السوريون على تجارتها باجمعها. وتؤكد الروايات ان بيوض دود الحرير من الصين قد ادخلت لأول مرة باتفاق من الخيزران الى الفلسطينية في منتصف القرن السادس (في عهد يوستينيان) على يد رهبان يظهر انهم كانوا من النساطرة^١. ولكن هناك ما يدعونا الى الاعتقاد بأنه كان للسوريين بعض المعرفة بتربية دود الحرير منذ زمن بعيد وذلك بواسطة دود الحرير البري^٢. وكانت المواد الحريرية الصينية تنقل بطريق البراء الى احد الموانئ الفينيقية حيث وجب صبغها وتسجها او ربما اعادة تسجها قبل ان تصبح مقبولة في الاسواق الرومانية. وهكذا ارتبطت صناعة الحرير في سوريا بصناعة الارجوان. وسرعان ما احتكرت الدولة البيزنطية هاتين الصناعتين.

وظلت سورية تستورد التوابل وغيرها من منتجات البلاد الحارة من الجزيرة العربية والمند. وكانت سورية تصدر بالمقابل الى هذه البلاد والى الصين ايضاً الزجاج والادوات المطلية بالميناء والاقمشة الناعمة. ونسمع بوجود تاجر سوري في الصين منذ القرن الثالث الميلادي^٣.

وكما هي الحال اليوم بالنسبة للهاجرين السوريين فان المهاجرين في العصر البيزنطي كانوا يستوطنون عموماً في بلاد هجرتهم الى امد غير محدود. وكان بعضهم يعود الى وطنه بصحبة زوجات اجنبيات. وتوجد فوق باب احد الجوانع في قرية تدعى امتان^٤ اليوم على حدود الصحراء السورية كتابة اثرية يونانية وهي بالاصل

(١) انظر : Procopius, Bk. VIII, ch. 17, §§ 1-8; Bouchier, p. 162.

(٢) انظر : F. Hirth, *China and the Roman Empire* (Leipzig, 1885. reprinted in China, 1939), pp. 255-6; Consult Robert S. Lopez, « Silk Industry in the Byzantine Empire », *Speculum*, vol. xx (1945), pp. 1-42.

(٣) انظر : Hirth, p. 306.

(٤) جنوب شرق صلخد في حوران . انظر: Dussaud, *Topographie*, p. 355.

كتابة تذكارية على أحد القبور من منتصف القرن الرابع لزوجة من روان في بلاد الفال ماتت « بعيدة عن وطنها »^١. وشعرت الجالية السورية في اورليان كأنها في وطنها حتى انه حين دخل الملك غونتراند Gontran المدينة في سنة ٥٨٥ كانت افرادها بين الذين استقبلواه وكانتا يتغرون بفضائله « بلغة السوريين واللاتين واليهود »^٢. وبلغ من نفوذ جالية باريس في عهد الميروقنجيين حوالي ٥٩١ ان انتخب احد اعضائها وهو تاجر سوري يدعى يوسيبيوس Eusebius استقراً للمدينة وسيطرت على الوظائف الكنسية^٣.

الصناع المهاجرون

كانت اكثريه المهاجرين السوريين من رجال الاعمال ولكن بعضهم كانوا عبداً وجنوداً ورهباناً وصاغاءً. وعمل المهاجرين والناحونون السوريون في بلادهم على تطور الاساليب الملائستية المتأخرة التي تدعى عادة بالبيزنطية. ومنذ اوائل القرن الثاني استخدم المهاجرين من الولايات الشرقية في روما^٤. وكان المهندس الذي بني لتراجان جسراً فوق الدانوب اثناء الحملة الداسية الثانية دمشقياً يدعى ابولودورس Apollodorus . وهو نفسه الذي وضع بعد ذلك مخطط فوروم تراجان مع المعبد والمكتبة والاعمدة التي لا تزال قائمة وذلك تخليداً لذكرى انتصارات سيده . وكان اسلوب وضع التأليل على الاعمدة الضخمة من ميزات فنون سورية الشمالية بالاصل .

ومن المرجح ان يكون الصناع الفنانون من سورية قد استدعوا التجميل العاصمة الجديدة رافنا Ravenna التي نقل اليها هونوريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) بلاطه ليتجنب مخاطر المجرمات الجرمانية . وبقوا هناك يعلموا حرفتهم للصناع المحليين . وقد ادخلوا صناعة الفسيفساء وغيرها من اساليب التزيين . وفي القرن الخامس أصبحت رافنا العاصمة الفنية لشمال ايطاليا . وقد وصفت مدرستها في الفن والهندسة

(١) انظر : *Revue archéologique*, vol. xxxix (1901), pp. 375-6.

(٢) انظر : *Gregory of Tours, Historiae Francorum*, Bk. VIII, ch. 1.

(٣) انظر : *Gregory, Bk. X, ch. 26.*

(٤) انظر : *Pliny, Epistulas ad Traianum*, No. 40

المعاربة بأنها «نصف سوريا»^١. وأصبحت البندقية بعد رافتنا ممثلة الحضارة الشرقية في البلاد الإيطالية. ووصفت مدينة رافنا نفسها أيضًا بأنها نصف سوريا وقد نصب فيها أساقفة سوريون. وهناك زائر من بلاد الفال كان من أى السوريين امرأً مأولًا لديه في جنوب فرنسا وقد لاحظ وجود سوري كان «يرتل المزامير»^٢. ولا بد أنه كان يوجد عدد من هؤلاء الشمامسة والرهبان.

الادب والتعليم

اتصفت الحياة الفكرية في سوريا في أول العهد البيزنطي بالاظطراب، وقد استمرت المجادلات بين الكتاب اليونان واللاتين من المسيحيين وغير المسيحيين لعدة سنوات بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية. ولم تكن قد اندثرت بعد الأفلاطونية الحديثة التي بلغت ذروتها في القرن الثالث والقسم الأول من القرن الرابع والتي كان من أبرز دعاتها بورفيريوس وبيبلیخوس السوريان^٣. وكان آباء الكنيسة يشقون طريقهم إلى الامام كقادة للفكر. وكان السفسطائيون والبلغاء يتراجعون ولكنهم لم يزولوا تماماً.

ليبانيوس

كان ليبانيوس (٣١٤ - حوالي ٣٩٣) أعظم البلغاء السوريين في القرن الرابع وهو من مواطني انطاكية ويظهر اسمه بعض العلاقة مع لبنان. وبعد أن درس في انطاكية وأثنية أنشأ مدرسة للبلاغة في العاصمة الامبراطورية الجديدة. وعلم أيضًا في نيقية ونيكوميديا وعاد في سن الأربعين إلى مدينته الأصلية حيث بقي يعمل لمدة أربعين سنة كخطيب ومعلم وسياسي وقد حظي بشرف صدقة كبار الموظفين والباطرة.

لم يتم ليبانيوس أبدًا بتعلم اللاتينية^٤ واحتقر المسيحية وعدّها عدوة للحضارة

(١) انظر : O. M. Dalton, *Byzantine Art and Architecture* (Oxford, 1911), pp. 8, 77.

(٢) انظر : Sidonius Apollinaris, *Epistulae*, Bk. I, No. 8.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٩.

(٤) انظر : *Epistulae*, No. 923; cf. No. 956.

الصحيحة ولم يرَ خيراً إلا في الميلينية. وقد خاب ظنه وتألم عندما تخلى أئبج تلاميذه في انطاكية وهو المعروف فيها بعد باسم يوحنا فم الذهب عن آفة اليونان وفضل اتباع المسيح^١. ومن تلاميذه أيضاً باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) الذي درس على ليبيانيوس إما في القسطنطينية أو في انطاكية . واصبح بعد ذلك اسف قيصرية في كيدوكيه واحد المدافعين عن الارثوذكسيه ضد الاريوسيه . ولا تزال الطقوس التي وضعها القديس باسيليوس ونفعها يوحنا فم الذهب تستعمل في كنائس الروم الارثوذكس . وقد تعكرت شيخوخة ليبيانيوس بألام جسدية سببها صاعقة اصابته وانحطاط العلوم الوثنية بعد موت الامبراطور يوليان في ٣٦٣ وقد اسف لموته ليبيانيوس لانه كان يعجب به ويرعاه .

تعطينا كتابات ليبيانيوس التي وصلتنا واغلبها من الرسائل والخطب صورة حية للازمنة والامكنة التي عاش فيها^٢ كما أنها تفتح امامنا نافذة صغيرة يمكن ان تعطينا لمحة عن الاساليب التربوية في ذلك العهد . وكانت الدروس في انطاكية تستمر في أشهر الشتاء والربيع اما الصيف فيخصص للنشاط المتصل بالاحتفالات والاعياد . وكانت الحصص الدراسية تبدأ في الصباح الباكر وتتدوم حتى الظهر . وكان بعض التلاميذ صغار السن في السادسة عشرة فقط . اما التعليم العالي فكان في ايدي البلفاء . وكان هؤلاء ينتخبون كأساتذة من قبل مجلس الشيوخ المحلي في المدن ومن قبل الجماعات عموماً في المدن الصغيرة . وكان البلفاء يعلمون وينظرون لكي يكونوا مثلاً للطلاب كانوا مسئولين عن النظام . وانتظموا في انطاكية في ثلاث نقابات لكل منها رئيسها الخاص . وكان البلفاء يتضاعفون اجرور خدمتهم من المدن والطلاب . وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهاج المدرسي . ولم يدرس اللاتينية سوى الذين يفكرون بالحصول على وظيفة حكومية . وكانوا يؤكدون على اهمية النطق . ودرس ارسطو من جديد بعد ان انتبه بورفيريوس الى اهميته .

(١) قارن مع : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

(٢) ذكرت فقرات منها في من ٣٣٥ من هذا الكتاب .

اميانس مرسلينوس

كان اميانتس مرسلينوس (حوالي ٣٣٠ - ٤٠١) احد الذين يرسلون ليبانيوس وهو انطاكى مثله . وقد ولد من اسرة يونانية نبيلة ثم التحق بالجيش في سن مبكرة وحصل على مرتب عليا اثناء خدمة طويلة مشرفة قضتها في بلاد ما بين النهرين وببلاد الفال . وفي سن متأخرة كتب باللاتينية تتمة لكتاب تاسيتوس لم يصلنا منها سوى جزء فقط . ويهم فيها اكثر من المعناد بالأخلاق العرقية والشخصية وبالمؤسسات الاجتماعية . ويمكن اعتبار اميانتس آخر كاتب قديم باللاتينية يستحق عن جدارة لقب المؤرخ . وكان في موقفه من المسيحية اكثر تسامحاً من ليبانيوس . وكانت يشبهه في اعزازه الامتناهى بدينته وببلاده الاصلية . فقد كانت انطاكية غنية في البضائع المستوردة والمحلية حتى انه ليس لها منافس^١ . وكانت فينيقية «التي تقع في سفح جبل لبنان منطقة ملوأة بالسحر والجمال»^٢ . وكانت فلسطين بلاداً «تكثر فيها الاراضي المزروعة والمعتنى بها كثيراً»^٣ . وكانت بلاد العرب الرومانية «بلاداً تنتج انواعاً كثيرة من البضائع وتنتشر فيها الحصون والقلاع القوية» وتحضى بين مدنها الكبرى «بصري وجرش وفيلاطفيا (عمان) وجميعها منيعة جداً بسبب اسوارها القوية»^٤ .

يوحنا في الذهب

اصبحت انطاكية بفضل كثرة ما انتجه المؤلفون مثل ليبانيوس واميانتس العاصمة الفكرية لسوريا الشمالية . وقد تعلم فيها آريوس ونسطوريوس كلها^٥ . وازدادت

(١) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 8.

(٢) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 9.

(٣) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 11.

(٤) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 13. وقد نشر مؤلفات اميانتس وترجمها : John C. Rolfe, *Ammianus Marcellinus*, 3 vols. (London and Cambridge, Mass. 1935-8).

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل . ٢٨

تألقاً باللأثر القيمة للخطباء والمؤلفين المسيحيين وكان ابرزهم يوحنا فم الذهب . (٤٠٧ - ٣٤٧)

تعلم يوحنا ليعمل في القضاء ولكن سرعان ما تخلى عن ذلك ليتبع حياة الزهد في جبل قرب انطاكية . ويبدو ان هذا الجبل هو جبل سيلبيوس Silpius الوعر الذي يقع جنوبي انطاكية حيث خلد ذكره باسم مار يوحنا الى جانب ولي مسلم^١ . واحتفظ الناس هناك خلال العصور بنور ضئيل يشع في احدى المقاور . وقد اتصف وعظه التصريح في مدینته بالدعوة الى نبذ الميوعة في الاخلاق والسترق في الحياة . وكان الاغنياء ياجمون لحصولهم على ثروتهم بالعنف والخداع والاحتكار والربا الفاحش ولوقف الاملاة الذي وقوه ازاء قضية المحرمين من الامتيازات والمساكين^٢ . وكانت رسالته اجتماعية في عصر كهنوتي لا هوسي . وبلغ من شهرته كواحد انتخب في عام ٣٩٨ بطريركاً للقدسية^٣ . وهناك باع الكثوز التي جمعها سلفه وانفقها على المحتاجين واتبع نفس الطريقة في الوعظ . وكان يؤكّد بأن خيانة الزوج لا تقل شرّاً عن خيانة الزوجة . وانخذ يطهر الادارة الكنسية مبتدئاً من الاعلى .

ان مثل هذا الاصرار الشديد على الاصلاح الاخلاقي والاجتماعي كانت نتيجته المؤكدة وقوع يوحنا فم الذهب في نزاع مع الباطل . وكان بين اقوى اعدائه الذين نعموا عليه يودوكسيا Eudoxia المتكبرة زوجة الامبراطور اركاديوس التي قارنها يوحنا في احدى مواجهاته بهيرودية كما احتاج على اقامة مثال لها قرب الكنيسة العظيمة^٤ . وقد نفي مررتين من العاصمة وتحمل متابعيه كلها بثبات وصبر الى ان توفي وهو في طريقه الى المنفى في اقصى حدود الامبراطورية قرب القفقاس . وقد اجبر على المسير مسافات طويلة متعرضاً لأشعة الشمس والامطار فانهارت قواه وتوفي

(١) هو حبيب التجار .

(٢) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

(٣) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, chs. 3, 5.

(٤) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, chs. 16,20 ; Palladius, *Dialogus de vita S. Joannis Chrysostomi*, Bk. VIII.

في الطريق^١. ونقل جثمانه فيما بعد الى القدس ودفن في احتفال مهيب . وقد اكسته شهرته كأعظم واعظ في الكنيسة الاولى لقباً عرف به بعد وفاته وهو «الذهبي الفم». وكانت مواعظه الممتلئة بالفصاحة اكثر منها بالعلم تلقى بعض الضوء على الحياة الاجتماعية في عصره^٢. ويدوم اعتبار يوحنا على مدى العصور كعلم من أشهر علمي الاخلاق المسيحية الاولى الذين اخْبَثُوكِنْسِيَةَ الْكَنِيسَةَ^٣.

يوسيبيوس

وكان من آباء الكنيسة البارزين في ذلك العصر يوسيبيوس (٢٦٤ - حوالي ٣٤٩) اسقف قيصرية في فلسطين واول مؤرخ كنسي عظيم . وقد ولد في فلسطين وربا في قيصرية ذاتها وتنقذ في انتاكية . وقد اشتراك مع عدد من الاساقفة المعاصرين دفاع في اول الامر عن قضية آريوس . ولكنه في مجمع نيقية حيث عمد قسطنطين اليه بهمة رفيعة وهي افتتاح جلسات الجميع ادان زعيم المراقبة . وقد القى خطبة مدح فيها الامبراطور كما جلس على عينيه . وبقي يوسيبيوس طيبة حياته صديقاً حيناً لقسطنطين ومعجبًا به ومحبساً له . وكان من اعظم الرجال المثقفين في عصره . وقد وضع عدة مؤلفات تاريخية وسبقت الاشارة الى احدها وهو التاريخ الكنسي *Ecclesiastical History* . ويصف فيه بالتفصيل ظهور المسيحية وعلاقتها بالامبراطورية .

وهناك مؤرخ آخر ولد في قيصرية وهو بروكوبيوس^٤ (توفي حوالي ٥٦٣) المؤرخ الكنسي لعصر بостояنian (٥٢٧ - ٥٦٥) المليء بالاحاديث . وقد عين في

١) انظر : *Sezomenus, Bk. VIII, ch. 28; Palladius, Bk. XI.*

٢) راجع بشأن المجموعة الكاملة لمؤلفاته : *Patrologia Graeca, ed. J.-P. Migne, vols. xlvii-lxiv (Paris, 1862-3).*

وبيان ترجمة مواعذه ورسائله راجع : *The Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church, ed. Philip Schaff, ser. 1, vols. ix-xiv (New York, 1889-90).*

٣) وجدت على جدار كنيسة آيا صوفيا عام ١٩٤٦ صورة^٤ من السيفونية عبارة تحت الملاط التي خططاما به الارواح مع غيرها من الصور من عدة قرون .

٤) نشرت مؤلفاته وترجمت من قبل : *H. B. Dewing, Procopius, 7 vols. (London and Cambridge, Mass., 1914-40).*

٥٢٧ حين كان شاباً سكرتيراً خاصاً ومستشاراً قانونياً للقائد الروماني بليساريوس Belisarius^١ ولذلك صحبه في جميع حملاته في آسيا وأفريقيا وإيطاليا. ثم جعله يوسفيان عضواً في مجلس الشيوخ. وكان بروكوبيوس يكتب أحياناً كمسيحي وأحياناً أخرى كمتحمس لآلة اليونان. وما يجعل مادته التاريخية موثوقة هو أن بعضها مستقى من المرويات الشفهية وأغلبها نتيجة معلوماته الشخصية.

ويتصل عدد كبير من مشاهير المسيحيين بسورية الجنوبية مع أن أصلهم ليس سورياً. ومن أبرز هؤلاء القديس جيروم (٣٤٥ - ٤٢٠). وقد اوصله مزاجه في التlesh إلى دير في بيت لحم سنة ٣٨٦ منه انتقل إلى الصحراء السورية حيث أمضى خمس سنوات في حياة العزلة بين النساك. وساعد فيما بعد في إدخال حياة الرهبنة إلى الغرب. ولعل من أعظم آثاره ترجمة التوراة إلى اللغة اللاتينية وسيمت الترجمة بالفلكلور Vulgate واستخدمت منذ ذلك الحين كترجمة أساسية لأجل الصلوات الدينية في الكنيسة الكاثوليكية.

غزة

كانت غزة بالإضافة إلى قيصرية المدينة الوحيدة في الجنوب التي احتفظت بشعاعها الفكرية في هذا العصر. وكانت أورشليم لا تزال تقاضي من الخراب الذي الحق بها الرومان. وكان أصل سوزومين (سوزومينوس) المؤرخ الكنسي اليوناني في القرن الخامس من قرية تسمى بتيليا Bethelia أو بيت ايلBethel بجوار غزة وكان والداته مسيحيين. وتظهر كتاباته معرفة وثيقة بتلك المدينة وضواحيها. وقد أهدي تاريخه إلى تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠). ولكن شهرة المدينة تعود بصورة رئيسية إلى مدرسة للبلاغة ازدهرت فيها حوالي عام ٥٠٠ م. وقد تأثرت المدرسة بجو الإسكندرية العلمي وكانت بين حين وآخر تتبادل المعلمين والطلاب مع قيصرية وغيرها من مراكز العلم. وكان بعض أسانذتها من الأفلاطونيين الحديثيين ولكن الأكثرية دعوا أنفسهم بالسفطائين المسيحيين. وكانت مؤلفاتهم تشمل على شروح للتوراة ورسائل ضد الميلنيين أو غير المسيحيين. وعلى وجه

١) انظر ما سألي في الفصل ٢٨.

العوم كانت مدن الساحل الجنوبي أقل منها كأفي المشاھنات الكنسية من انطاكية وغیرها من مدن الشھل.

بیروت کفرکز علی

كانت بیروت المدینة الوحيدة من بين مدن سوريه البيزنطية كلها التي نافست انطاكية في الرعامة الفکرية. ومرد هذا الى أنها كانت تضم مدرسة المقوی^۱. وهو علم اعني به بصورة خاصة في العصر البيزنطی.

وصلت هذه المؤسسة الحقوقية غایة تطورها في القرن الخامس عندما اجتذبت جماعة من خيرة المفكرين الشبان في الامبراطورية البيزنطية. ولم تكن مدرسة القسطنطینیة التي استنست في ٤٢٥ تعتبر منافسة لها. وكان منهاجاً يشتمل على العلوم والفنون والبلاغة واللغة اليونانية واللاتينية. ومدة الدراسة فيها كانت اربع سنوات ولكن بостояن اضاف إليها سنة خاصة حين رقی العرش في عام ٥٢٧. وكان الطالب معفيين من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين. وبدأ كثير من الاساقفة والقديسين والشهداء المسيحيين حياتهم العلمية في مدینة بیروت.

وردت اول اشاره في الكتبات الكنسية الى مدرسة المقوی في بیروت في خطبة لغريغوريوس تومارجس *Thaumaturgus*^۲ (صانع العجائب) القاها حوالي ٢٤٠ م. وكان غريغوريوس قد اتى من كبدوكية ليدرس في بیروت اولا ثم في قیصیرية بفلاطین حيث اعتنق الديانة المسيحية بتأثير معلمه اوريجن. وهناك تلميذ مشهور آخر هو بفیلوس *Pamphilus* الیروني الاصل والذي اصبح بعد ذلك كاهن مدینة قیصیرية نفسها حيث استشهد في ٣٠٩ في عهد غالیلیوس *Galerius*. ويدرك بفیلوس بين تلاميذه المؤرخ المشهور یوسفیوس. وبلغ من شدة احترام هذا التلميذ لمعله ان اضاف الى اسمه الخاص اسم بفیلوس. وهناك غريغوريوس النازینزی *Nazianzus* (في كبدوكية) الذي اصبح اسقف القسطنطینیة وقدیساً فيها

۱) انظر ما سبق في ص ٣٦٠

۲) انظر : *The Works of Gregor Thaumaturgus, Dionysius of Alexandria, and Archelaus*, tr. S. D. F. Salmond (Edinburgh, 1871), pp. 49-50.

بعد. فقد غادر أثينا حوالي ٣٥٦ مفضلًا الاقامة في بيروت لمتابعة دراسته القانونية. وهناك من كان أكثر شهرة من هؤلاء وهو سفيروس ، بطريرك انطاكية اليعقوبي (٥١٨ - ٥١٢) الذي كتب ترجمته زميله ذكرييا الفزلي^١.

حياة الطلاب

حفظت لنا ترجمة سفيروس تفاصيل ممتعة عن حياة الجامعة في مدينة عالمية كبرى تقع على حدود الشرق والغرب . ويبدو ان التلاميذ القدماء كانوا يستقبلون التلاميذ الجدد بالسخرية ولكن دون ان يسيئوا معاملتهم في الواقع^٢ وذلك لاختبار مقدرتهم في ضبط النفس — وهو يشبه التعامل المعتاد على طلاب السنة الاولى (الفرشمن) في الجامعات الاميركية . وقد وصل ذكرييا الى بيروت في خريف عام ٤٨٧ او ٤٨٨ بعد سنة من وصول سفيروس . . وكانت قلة مثل سائر الطلاب الجدد عندما حضر لأول مرة درس الاستاذ المشهور ليونتيوس ولكن سفيروس والطلاب القدماء احسنوا استقباله . وعند انتهاء المناظرات ذهب ذكرييا وكان شديد التدين ليصلّي في كنيسة القيامة . والتقي بذلك بسفiroس عند المرفا ورجاه ان يحضر الى الكنيسة يومياً بعد المحاضرات وان يتتجنب سباق الخيل والمسارح وان يمتنع عن الشرب والمقماره التي كان ينفسم فيها سائر التلاميذ . فاجاب بطريرك الم قبل اي سفيروس وكانت العيد ترافقه عندما يأتي الى المعهد لانه من عائلة غنية مؤكداً لصديقه الشاب ذكرييا بأنه طالب حقوق وليس براهب ولكنه وعده بان يعمل ما في استطاعته .

كانت تعطل جميع الدروس بعد ظهر كل سبت وطيلة نهار الاحد^٣. وكانت ساعات المساء خالية من الدروس ليتمكن التلاميذ من المذاكرة في الاعمال التي قاما بها اثناء النهار . وقد شكل ذكرييا جمعية مسيحية كانت تجتمع كل مساء في كنيسة القيامة للدراسة مؤلفات باسيليوس ويوحنا فم الذهب وغيرهما من الآباء .

١) نشرت بالسريانية (وقد قد الامر اليوناني) وترجمها : M. A. Kugener تحت عنوان : *Vie de Sévère*, in *Patrologia Orientalis*, vol. ii (Paris, 1907), pp. 1-115.

٢) انظر : Zacharias, p. 47.

٣) انظر : Zacharias, P. 52.

وتشير الصفة العالمية لعضوية الجماعة الى كثرة عدد الطلاب الاجانب . وكانت رئيسها شخصاً يسمى افاغريوس Evagrius من مدينة سيباساط وكان سابقاً تلميذاً في انطاكيه حيث جرح في اضطراب جرئ فيها . وكان افاغريوس يصوم يومياً ولا يغسل الا مرة واحدة في السنة ليلة عيد الفصح^١ . وقد تأثر سفيروس بهذه الامثلة من الزهد فأخذ يتعنت عن اكل اللحم .

وتظهر في هذه الثناء جمعية اخرى بين الطلاب للاهتمام بعلم الغيب . وكانت الاعضاء البارزون يتالفون من ارماني وتسالونيكي وسورى من هليوبولس ومصرى من طيبة . وقد استهوت المصري امرأة لم تبادله عراطفه ولذلك اتفقوا على انه اذا ضحى العبد الاسود الذي يملكه هذا المصري تتأثر الشياطين وتحصل الغايات المرجوة^٢ . وعندما كانت هذه الطقوس تم في السرك في منتصف الليل قوخطت فجأة من المارة . وقد هرب العبد الخائف واخبر عن سيده . فبدأ البحث عن كتب السحر واخيراً وجدت مخبأة في القسم السفلى من كرسى الطالب واحرقـت . ووـجد انها ملـوأـة باسمـاء الشـياـطـين وصـورـهم الفـريـبة وـكان بـعـضـها يـنـسـبـ الى زـرـدـشـتـ . وـكـشـفـتـ التـحـريـاتـ الـاخـرىـ انـ الاـسـتـاذـ ليـونـيتـوسـ نـفـسـهـ كانـ يـشـرـكـ فيـ مـلـهـ هـذـهـ الـاعـمالـ . وـتـشـكـلتـ مـحـكـمةـ لـلـتـحـقـيقـ مـنـ موـظـفـينـ يـتـلـوـنـ الـكـهـنـةـ وـحـكـومـةـ الـمـدـيـنـةـ فـوـجـدـتـ ليـونـيتـوسـ وـجـمـاعـةـ آخـرـينـ مـذـنـبـينـ . فـاحـرـقتـ كـتـبـهـ وـهـرـبـ بـعـضـ الـمـهـمـيـنـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ .

لم تنته مشاكل بيروت المتعلقة بالسحر عند هذا الحدا وصلت جماعة من المحرّة التجولين الى المدينة وقامت بمساعدة طالب من آسية الصفرى وبعاونة كاهنين بالتنقيب في قبور احدى الكنائس حيث وعدوا بالكشف عن كنز كان داريوس قد خبأها . وللاستعانة بالشياطين كانت المبغرة وغيرها من ادوات الكنيسة الفضية ضرورية لهم . ولكن العملية لم تتم بسبب حصول زلزال وعقوبة الكاهنان وحكم على احدهما بالعزلة في احد الاديرة^٣ .

وقد حصلت بين عامي ٥٥١ - ٥٥٥ سلسلة من المزارات الارضية كادت ان

١) انظر : Zacharias, p. 56.

٢) انظر : Zacharias, p. 58.

٣) انظر : Zacharias, pp. 70-73.

تفضي على مدن الساحل الفينيقي. وكانت بيروت قد تعرضت الى هزة في عام ٣٤٩ هدمت بعض اجزائها ولكن يبدو انها لم توقف تقدم جامعتها. ولكن الامر يختلف هذه المرة ، اذ ان المدينة « التي كانت اجل المدن وزينة فينيقية حتى ذلك الحين قد سلبت جمالها . فهدمت اهم ابنيتها ولم يبق منها بناء واحد تقريباً . ولم تسلم غير الاساسات . وهلك عدد كبير من سكانها من وطنين واجانب تحت الانقاض »^١ . فانتقل اساتذة الجامعة الى صيدا حيث قاموا بتدريس موادهم ريثما يتم بناء المدينة والجامعة من جديد . ولكن قبل تدشين ابنيّة الجامعة الجديدة في عام ٥٦٠ بقليل حصلت كارثة اخرى حيث نشبّت النيران والتهمّتها كلها . وبعدها لم نعد نسمع شيئاً عن الجامعة .

(١) انظر : Agathias, *Historiarum*, Bk. II, § 15.

الفصل السادس والعشرون

المظاهر الدينية في العهد البيزنطي

تبعد سوريا في العصر البيزنطي بظاهر مختلف عن مظهرها في العصر الروماني. وقد أصبحت الآثار بلاداً مسيحية بوجه عام. والواقع أن هذه الفترة هي الفترة الوحيدة التي كانت فيها سوريا بلاداً مسيحية تماماً. ونظراً لوقوع العصر البيزنطي بين العصر الروماني الوثني والعصر الإسلامي العربي فإنه كان فريداً في تاريخ سوريا.

ولم تكن البلاد مسيحية فحسب بل كانت العصر تسيطر عليه الصفة الدينية. فقد كانت الكنيسة أعظم مؤسسه وكان القديسون ينالون أكبر جانب من الاحترام. وقد وجد بين القرنين الرابع والسادس عدد من الرهبان والكهنة والأساقفة والراهبات والنساك بشكل لم يعرف من قبل ولا من بعد. وكانت أبنية الكنائس وأماكن الصلاة والباسيلikات والأديرة تنتشر في البلاد وجميعها تتبع أسلوباً جديداً في الهندسة المعمارية يظهر فيه الباب وأبراج الأجراس والصلبان البارزة. وقد وسعت كهوف النساك أو صنعت من جديد. واقمت الأعمدة التي كان - وبألف لفربة - يعيش العموديون عليها ويغتون. وقد نشطت حركة زيارة الأماكن المقدسة. واعتبرت التذور والصلوات عند قبور القديسين أكثر تأثيراً من زيارة الأطباء. وتعتبر البقايا المعمارية والآثار الدينية البيزنطية الموجودة اليوم أكثر عدداً من آثار جميع العصور مجتمعة.

١) يذكر مخطوط سرياني بأنه حفر بمح نيقية تسع عشرة من قطعات وعشرون من فنيقية واثنان وعشرون من سوريا المقوفة وستة من الولاية العربية (بوري وفيلادلبيا . . . الخ). انظر: B. H. Cowper, *Syriac Miscellanies* (Edinburgh, 1861), pp. 9-10. ويبدو أن الآشورية كانوا لم يصلوا بعد على الميزة التي فصلتهم نهائياً عن الفرس.

الرهبنة

كانت الرهبنة طريقة محببة في الحياة وكان لمبادئها الأساسية وهي العزوبة والفقر والطاعة جاذبية كبيرة . وبناقص السكان وتضاؤل الازدهار وحدوث الاضطرابات الأهلية التي تميز بها العصر الروماني في القرنين الثالث والرابع فقد الناس ثقفهم وأياعهم بالمؤسسات العلمانية . فقد اتت المسيحية بشيء خارق للطبيعة وسماوي يضم اعتقاداً بالقيم الروحية التي تستحق ان يعتزل الانسان العالم لاجلها وان يموت في سبيلها .

انبثقت الرهبنة كنظام من عادة الزهد المسيحية . وكان مؤسسها مصر يا يدعى القديس انطون الذي اعتزل في الصحراء ومات بين ٣٥٦ و ٣٦٢ م . وسرعان ما انتقل هذا الاسلوب الجديدي في الحياة المسيحية من مصر الى سوريا الجنوبيّة حيث بدأ حركة الرهبة هيلاريون *Hilarion* من غزة وهو احد تلاميذ انطون . وفي اواخر القرن الرابع ظهرت جماعات من النساك حول انطاكيّة . وكان افراام (توفي حوالي ٣٧٣) احد مؤسسي الرهبنة السورية . وفي القرن التالي ظهر اول العموديين وهو القديس سمعان (توفي ٤٥٩) في شمالي البلاد . ولا يزال السواح ^١ يشاهدون العمود الذي اقام عليه سمعان وسط آثار كنيسة فخمة (قلعة سمعان) . وقد دام هذا الشكل الغريب من حياة الرهبنة حتى القرن الخامس عشر . واصبحت حياة الرهبان الاولى في مصر وجنوبي سوريا النموذج الحبيب لدى العالم المسيحي . وتأتي كلمة « Hermit » الافرنجية (اي ناسك) من الكلمة يونانية تعنى الصحراء .

المباني الكنسية

نشأت الكنيسة المسيحية عن حلقات صغيرة من التلاميذ الذين اعلنوا ان قائمهم كان مخلقاً ومسيحاً . وكانت اول حلقة سميت مسيحية هي حلقة انطاكيّة . وبدأ الرسل وعظمتهم في المعابد اليهودية وكان الذين يعتقدون المسيحية على ايديهم اما من اليهود او من غير اليهود الذين يرتادون هذه المعابد . ولماذا كانت نواة

(١) رابع : Jean Lassus, *Sanctuaires Chrétiens de Syrie* (Paris, 1917), pp. 133 seq.

الجمعيات المسيحية الاولى من اليهود على الاكثر . ولا بد انه كان يصعب آنذاك التفريق بين الطائفة المسيحية الناشئة والطائفة اليهودية القائمة .

ويظن ان اقدم اماكن العبادة المسيحية كانت إما البيوت الخاصة حتى تعمقت اجتماعات غير رسمية او معابد اليهود . وعندما تحولت اماكن العبادة هذه الى كنائس بصورة رسمية لم تجد نموذجاً تتباه سوى الكنيس . وكان الكنيس اليهودي بديلاً محلياً للمعبد القديم بعد خرايه . وكان يمثل طريقة جديدة وثرية في العبادة اذ انه اطروح عادة تعلم الدين بواسطة الاسرار وعادة التكفير بتقديم الفحايا . وهو بهذا قد اصبح النموذج الاصلي لكل من الكنيسة والجامع .

تعود اقدم بقايا كنيس وجد في فلسطين الى القرن الاول الميلادي^١ . اما اقدم كنيس في دورا اوروبس فكان بينما خاصاً تحول الى كنيس حوالي عام ٢٠٠ م . وقد زود كنيس في دورا اوروبس يعود الى منتصف القرن الثالث بباب للنساء ومقاعد خاصة لهن . وتعتبر زخارف جدرانه فريدة في الفنون الكنيسية اذ تصور مناظر عن حياة الاسلاف والملائكة اليهود^٢ . وتوجد في نفس المدينة بقايا كنيسة تعود الى حوالي ٢٣٢ م . وهي اقدم من اية كنيسة عرفت في فلسطين^٣ . وفي الحقيقة فانها تعتبر اقدم كنيسة مسيحية عمر عليها . وقد بقيت بعض آثار من عهد قسطنطين في كنيسة القيامة وكنيسة المهد حتى اليوم . وكنيسة المهد كما زارها اليوم يعود بناؤها الى يوستينيان . واكثر كنائس جوش ترجع الى القرن السادس مع انه توجد في بعضها اقسام تعود الى القرنين الرابع والخامس . وكانت احدهما بالاصل كنيساً تحول الى كنيسة بعد اعادة بنائه . وفي القرون التالية تحولت ابنيتها الكنائس الى مساجد .

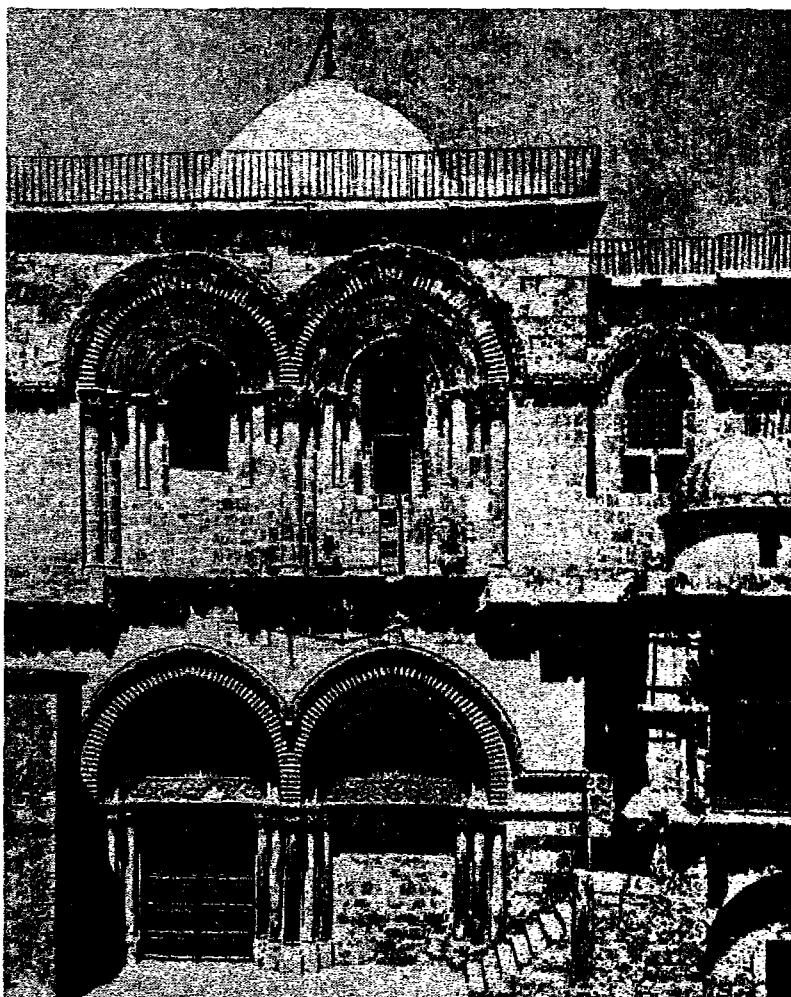
يمكنا الاستنتاج من هذه البقايا وغيرها بأن الكنيسة والكنيسة ينصلان واحدهما بالآخر من ناحية العمارة . وكان كلها يمثل في العصر البيزنطي نموذج

١) انظر : E. L. Sukenik, *Ancient Synagogues in Palestine and Greece* (London, 1934), pp. 8, 69.

٢) انظر : Rostovtzeff et al., *Excavations at Dura-Europus*, vol. vi, pp. 309-96; Sukenik, pp. 82-5.

٣) انظر : Rostovtzeff et al, *Ibid* pp. 238-88; J. W. Crowfoot, *Early Churches in Palestine* (London, 1941), pp. 1 seq.

الكنيسة المستطيلة (البازيليكا). وكان الكنيس يتجه نحو اورشليم بينما تتجه الكنيسة نحو الشرق . وقد كان الفن فيها متصلاً اتصالاً وثيقاً .



كنيسة القبر المقدس (القيامة) في القدس

كان النموذج القديم للكنيسة المسيحية عبارة عن غرفة مستطيلة وكان هذا الشكل مستحباً لسلطاته وحلته بنموذج البناء السائد . وتعطينا كنيسة أم الجمال

ذات الصحن الواحد (٣٤٤ م) الموجودة جنوبي بصرى في حوران مثلاً عن هذا النوع^١. وكانت الباسيليكا السورية في القرنين الرابع والخامس تتالف من صحن معترض تتصل به من جهة الشرق ثلاث حنيات أو حنية مركبة بالآخر تحيط بها غرفتان جانبيتان. وتعود جذور هذا المخطط إلى نموذج البناء الذي كان سائداً قبل الميلاد. وفي بقايا الكنيسة القائمة في دير يعود إلى القرن السادس عشر عليه في حفريات سكيبتوبروس (بيسان) لازرى أروقة جانبية. وكانت هناك حنية على شكل حذوة الفرس في الطرف الشرقي. ولا شك أن المذبح كان يقوم في مدخل الحنية^٢. وقد وجد في قاعة الدير تقويم بالفسيفساء والوانها السائدة هي الأزرق الداكن الذي يتصف به البازلت المصقول وأنواع متعددة من اللون الأحمر والبني الفاتح على أرضية بيضاء.

الفن المسيحي

تظهر بقايا الفن المسيحي الأول تأثيره بالفن اليهودي. وقد اقتبست الكنيسة من الكنيس في التواхи الرمزية. فكان شكل المسيح في أقدم صورة يمثل ومعه عصاً وربما كانت العصا التي ضرب بها موسى الصخرة. وشكل المسيح في المدافن تحت الأرض اقتبسه المسيحيون عن صور موسى. وكانت سورية في رأي بعض العلماء من مراكز الفن المسيحي^٣. واقتبس فن الآيقونات المسيحي في تطوره التدريجي من التعبير الملائكتية المتصلة بالآلهة والشعراء والخطباء. وبقي هذا الفن مختلف حسب الزمان والمكان حتى بلغ فردية معينة ونموذجاً من مستوى معين في القرنين الرابع والخامس.

ومن المواضيع الشائعة جداً لدى الفنانين المسيحيين الأوائل موضوع الراعي الصالح. ويظهر بجانب إشكال أخرى من التوراة على جدار كنيسة دوراً أوروبس.

(١) انظر : Howard C. Butler, *Early Churches in Syria*, pt. 1 (Princeton, 1929), p. 19.

(٢) انظر : G. M. Fitzgerald, *A Sixth Century Monastery at Beth-Shan* (Philadelphia, 1939), p. 3.

(٣) قارن مع : Joseph Strzygowski, *Orient oder Rom* (Leipzig, 1901); do., *Origin of Christian Church Art* (Oxford, 1923), pp. I-16; do., *L'Ancien Art chrétien de Syrie* (Paris, 1936), pp. xlvi-lii.

ويصور الراعي غالباً حاملاً على كتفه حلاً. وفكرة الراعي قدية جداً في التفكير السامي. ومحوراً يسمى نفسه في مقدمة مجموعة قوانينه «راعي» شعبه^١. وكانت أشكال الراعي تثلج فتـ حليق اللحية يلبـ قيسراً بـ دون أكمـ وهو التمـож المـلـوف في الفنـ اليـونـانـيـ الروـمـانـيـ. وـ معـ ذـلـكـ فـانـ التـمـожـ اليـونـانـيـ نفسه يـعودـ فيـ اـصـولـهـ إـلـىـ الشـرـقـ الـادـنـيـ. وـ فيـ غـاذـجـ منـ التـحـتـ الـبـارـزـ منـ الـقـرنـ التـاسـعـ قـ.ـ مـ. وـ جـدـتـ فيـ شـمـالـ فيـ سـوـرـيـةـ التـهـالـيـةـ وـ أـخـرـىـ منـ الـقـرنـ الثـامـنـ قـ.ـ مـ. وـ جـدـتـ فيـ دـورـ شـارـوكـينـ قـرـبـ نـيـنـوـيـ،ـ تـظـهـرـ أـشـكـالـ بـشـرـيـةـ عـلـىـ اـكـتـافـهـ غـلـانـ وـ كانـ رـأـسـ الـحـيـانـ فـيـ كـلـ مـنـهـ يـتـجـهـ فـيـ نـفـسـ اـتجـاهـ رـأـسـ الرـجـلـ. وـ يـوـجـعـ اـنـ الـمـقصـودـ هوـ تـقـدـيمـ الـفـرـالـ كـضـحـيـةـ.

وـ كانـ السـوـريـ فيـ العـصـرـ الـبـيزـنـطـيـ يـبـحـثـ فـيـ الـمـنـدـسـةـ الـعـمـارـيـ وـ الـرـسـمـ وـ الـتـحـتـ وـ غـيرـهـ مـنـ مـيـادـينـ فـنـ الـزـخـرـفـةـ عنـ طـرـقـ جـدـيـدـ فـيـ الـتـبـيـيرـ مـسـتـقـلـةـ عـنـ الـهـاجـجـ الـيـونـانـيـ الـرـومـانـيـ الـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ مـنـذـ فـتوـحـ الـاسـكـنـدرـ توـزـعـ فـيـ الـاتـاجـ الـفـيـ. وـ كـانـ الـفـنـ الـوـطـنـيـ يـهـدـ بـصـورـةـ مـؤـكـدةـ إـلـىـ الـوـاقـعـيـةـ. وـ قـدـ حـرـرـ نـفـسـهـ بـالـتـدـرـيجـ مـنـ استـهـالـ الـهـاجـجـ الـعـارـيـ وـ الـأـشـكـالـ الـقـلـيـدـيـةـ وـ هـمـهـ الـطـرـيـقـ لـفـنـ الـمـسـيـحـيـ فـيـ الـعـصـرـ الـوـسـطـيـ وـ لـفـنـ الـاسـلـامـيـ.

احياء الآرامية

تطورت الكنيسة المسيحية في سوريا من ناحية لغوية في اتجاهين: الاتجاه اليوناني على الساحل وفي المدن التي تأثرت بالملينية والاتجاه السرياني في الداخل^٢. وقد ظهرت الكنيسة التي تستعمل اللغة السريانية منذ القرن الثاني. وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية. وقد أشار التحول عن اليونانية والعودة إلى الآرامية في العصر البيزنطي إلى اليقظة الجديدة بين السوريين. وكان تجدد الاهتمام باللغة السامية القدية دليلاً على احياء لوعي القومي كما كان رد فعل ضد الوثنية.

(١) انظر: Robert W. Rogers, *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York 1912), p. 399.

(٢) التمييز بين الآرامية والسريانية راجع ما سبق في من ١٨٣ و ١٨٤

ولما كان السوريون يعرفون عدة لغات دأبوا فان الذين اهتموا منهم بالخامة درسوا اللغة اللاتينية اما الذين عكفوا على دراسة الفلسفة فتعلموا اليونانية ولكن بقيتهم وخاصة اولئك الذين وجدوا خارج المراكز ذات الصفة العالمية فانهم تسکعوا باللغة الوطنية . وكان على الموظفين البيزنطيين في الداخل ان يستخدموا الترجمة . ويشكوا يوحنا فم الذهب^١ في انطاكية ذاتها بان الذين كانوا يستمعون اليه لا يستطيعون فهم موعظه اليونانية وان الكهنة كانوا لا يسمعون سوى السريانية الدارجة .

اديسا

والادب السرياني الذي وصلنا ادب مسيحي بكلامله تقريباً الا انه يشتمل ايضا على كتب في العلوم والفلسفة مترجمة عن اليونانية . وكان اول مركز كبير له بعيد عن المدن التي تتكلم اليونانية هو اديسا التي اعتبرت اثينيَّة العالم الارامي حيث استخدمت السريانية في اول الامر لاغراض ادبية . وقد ازدهرت مدرسة اديسا حتى عام ٤٨٨—٤٨٩ عندما هدمت تماماً بأمر الامبراطور زينون . فانتقل الاساتذة الى نصبيين التي اصبحت وريثة اديسا كمركز علمي سرياني يوناني . ووُجِدَت كنيسة اديسا التي انشئت حوالي او اخر القرن الثاني نفسها في القرون التالية غير منسجمة مع التقاليد اليونانية في انطاكية والقرب . وكانت تستعمل ترجمات التوراة الخاصة بها اولاً بشكل الدياتسرون *Diatessaron* وبعد ذلك بشكل البشيتا *Peshitta* (وهي الترجمة البسيطة)^٢ . وبقيت البشيتا منذ ذلك الحين الترجمة السريانية المعروفة .

كان افرام سيروس (السوري) ، من حوالي ٣٠٦—حوالي ٣٧٣) اول اللاهوتين العظام في الكنيسة المسيحية كما كان ايضاً شاعراً دينياً وساعد في ادخال الرهبنة^٣ . وقد ولد افرام في نصبيين وان الى اديسا حيث اسس او اعاد تنظيم مدرسة للاهوت اصبحت جامعة عظيمة للسوريين . وقد عاش قبله بارديسانس

(١) انظر : Joannes Chrysostomus, *Opera Omnia*, vol. ii (Paris, 1837), p. 222.

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٧١ .

(٣) انظر ماصبَق في ص ٤٠٣ . راجع بشأن مختارات من تراثيه وموعظه : Nicene and Post-Nicene Fathers, ser. 2, vol. xiii (New York, 1898), pp. 119-341.

^١ (ابن ديسان ١٥٥ - ٢٢٣ م.) وكان من اديسا ايضاً. وقد وضع اساس علم التراث وادخل الموسيقى الى تلك الكنيسة ولكن البعض يعتبره غنوسيطاً.

الانشقاقات الدينية

تتجزأ عن المعارضة للفكر المسيحي بالشكل الذي مثلته بيزنطية وانطاكية انشقاقات او «هراتق» من وجهة نظر الكنيسة الرسمية. وكانت هذه الانشقاقات الى حد ما كما هو الامر في ناحية اللغة تعبيراً عن البقعة القورية. وبعد ان غمرت الروح السورية لمدة قرون موجة من الحضارة اليونانية عادت اخيراً الى تأكيد ذاتها من جديد. ولم يكن السوريون كشعب قد اصطبغوا بالصفة اليونانية الا ان بأكثر مما اصطبغوا به قبلًا بالصفة الرومانية. وكان انصاراً لهم عن حكامهم البيزنطيين يعود ليس لاسباب تتعلق بالمبادئ، فحسب بل لاسباب سياسية واقتصادية ايضاً. وكان البيزنطيون اكثر استبداداً في حكمهم واكثر جوراً في نظام ضرائبهم. فقد جردوا السكان الاصليين من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلاً. واظهروا حتى في المسائل الدينية تساحجاً اقل من تسامح اسلافهم الوثنين.

كانت المناقشات اللاهوتية عصب الحياة بين المتقفين في القرنين الرابع والخامس. وقد تركزت على طبيعة المسيح والمواضيع المتعلقة بها التي لم تعد تثير اهتمام المسيحيين منذ ذلك الحين. فتتجزأ عن ذلك هرارات ومدارس فكرية لا تختص وكان بعضها يعكس استخدام متنطق اسطو وتطبيق مبادئ الافلاطونية الحديثة. وفي هذه الاتجاه اخذت تظهر عبادات قريبة من الزردوشية والبوذية بين الجماعات المسيحية. ويشير يوحنا فم الذهب^٢ الى فئة في انطاكية اعتقادت بتناسخ الارواح وكانت تلبس ارادية صفراء. وكانت الماتورية *Manichaeism* من اخطر العبادات الجديدة التي كانت تنتشر من الشرق وقد اسسها ماني *Mani* حوالي عام ٢٤٦ م. وقد مات ماني

١) تفي «بار Bar» بالسريانية (ابن) و «ديسان Daisān» (اسم جدول في اديسا)؛ وقد ذكره Eusebius, Bk. IV, ch. 30. والكتاب المرجع ابتداءً من ابن النديم في كتاب الفهرست؛ نشره : Gustave Flugel (Leipzig, 1872) pp. 338-9.

٢) انظر : Opera Omnia, vol. iv, p. 53

في السجن بسبب معتقداته^١. أما ديانته التي جمعت عناصر مسيحية ويهودية وزرادشتية في مجموعة واحدة فقد انتشرت في العصر البيزنطي من فارس إلى إسبانيا. وقد أثارت «أخطاؤها» الآباء السوريين بشكل لم تفعله آية أخطاء أخرى من قبل.

ابولينارس

كان أصحاب ما يسمى بالمرفات من أهل سوري أو يحملون ثقافة سورية. وقد بدأت السلسلة بآريوس في القرن الرابع الذي أدان مجمع نيقية^٢ آراءه ومع ذلك بقيت لها أهمية عظيمة من الناحية اللاهوتية والسياسية. وكرد فعل ضد الآريوسية وتأكيدها على الطبيعة البشرية للمسيح أكد أبولينارس Appollinaris أسقف لاوديسة (توفي حوالي 390) أنه بينما كان للمسيح جسد بشري حقيقي وروح بشرية حقيقية فإن الكلمة (Logos) تختلي في شخصه المقدس مكان النفس التي هي أسمى جزء في الإنسان. واتضح أن أبولينارس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الأفلاطوني الحديث بأن الطبيعة البشرية مركبة من ثلاثة عناصر وهي جسد وروح (تبعد النشاط) ونفس (تجعل الإنسان عاقلاً ومتخلفاً عن الحيوانات). وترتبط تعاليم أبولينارس بين الآريوسية والنسطورية بأنها تعارض الواحدة وتهدى الطريق للأخرى.

الكنيسة النسطورية

ولد نسطوريوس في كيليكية الشرقية وعاش في دير قرب انطاكية. وفي عام 427 دُرِّي إلى أسقفيَّةِ القسطنطينيَّةِ بناءً على اقتراح الإمبراطور تيودوسيوس الثاني الذي أمل بذلك أن ي يأتي من انطاكية باسقف شيء يوحنا في الذهب. ولكنه حُكم عليه في عام 431 من قبل مجمع أفسس. وكانت وجهة نظره التي اعتُرض عليها أنه يوجد في المسيح شخص المي (الكلمة Logos) وشخص بشري يتصلان واحدانها بالآخر بانسجام تام في العمل ولكن ليس بتلك الوحدة التي تظهر في شخص واحد. وكان لنسطوريوس اتباع عديدون شكلوا النساطرة الحقيقيين.

١) حفظ لنا الهرست من ٣٢٧ - ٣٣٨ أخباراً تعتبر من أكثر الأخبار القديمة تفصيلاً عن ماضي ونظامه .

٢) انظر في من ٣٨٦ - ٣٨٧ .

وظهر النساطرة المعروفة بنساطرة بلاد فارس فيما بعد. وبتعبير اصح شكلوا الكنيسة الشرقية او كما تسمى نفسها مفاخرة «كنيسة الشرق». وكانت قد وجدت هذه الكنيسة منذ عصر الرسل ولا يزال يوجد لها اتباع حتى اليوم. وعندما انقطعت صلتها بالامبراطورية الرومانية نشر اتباعها معتقداتهم وطقوسهم المحلية . وميعتبرون نسطوريوس بين الآباء اليونان وليس السوريين . ومع ان بعض كتاب هذه الكنيسة قد استخدمو اللغة النسطورية بصورة اكيدة فان المفردات التي كانت تستخدم في الطقوس والجامع الخصبة بها كانت بوجه عام خالية تماماً من تلك اللغة . وهذه هي الكنيسة التي كانت لها فيما بعد حيوية كافية جعلتها ترسل المبشرين حتى الى الهند والصين .

الكنيسة اليعقوية

كان المنصب المونوفيزطي Monophysitism (القائل بالطبيعة الواحدة) اعظم انشقاق تعرضت له الكنيسة الشرقية بعد النسطورية . وبتعبير دقيق كان اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا مبدأ الطبيعتين (الاهمية والبشرية) في الشخص الواحد للمسيح الذي وصفه جمع خلقونية في عام ٤٥١ م . واحتذوا شعار م « الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة ». وبتعبير آخر اعتقد اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأن المظاهر البشري والالمي في المسيح لا يشكل سوى طبيعة مركبة واحدة ومن هذا اتى اسمهم^١ .

وفي اواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس كسبت المونوفيزية القسم الاكبر من سوريا الشمالية كما ورثت اتباع ابولينارس في الجنوب . ويعود نجاحها بدرجة كبيرة الى اسرى اولها الدعاية النشطة التي قام بها راهب سوري يدعى برسوما Barsauma (ويجب التفريق بينه وبين برسوما النسطوري اسقف نصيبين حوالي ٤٨٤ - ٤٩٦) وتأتيها شخصية مفهروس بطريق انطاكيه (١٢ - ٥١٨)^٢ . ويزعم اصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة ان سمعان العمودي كان يؤمن بفكرتهم

١) من الكلمة اليونانية مونوس monos وتعني واحد معنافة الى الكلمة فيزيس Physis وتعني طبيعة .

٢) انظر في ص ٤٠١ - ٤٠٠ .

اللاهوتية . كذلك ايد الفاسنة^١ . وغيرهم من العرب السوريين هذا المذهب . وقد نظمت الكنيسة المونوفيزية في سوريا من قبل يعقوب البرادعي (Bardeana) الذي رسم اسقفاً لاديسا حوالي عام ٥٤٣ وتوفي في عام ٥٧٨ . وبنتيجة ذلك سمي اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة السوريون باليعاقبة . وهكذا اصبح القسم الغربي من الكنيسة السورية منفصلاً تماماً عن القسم الشرقي .

انتشر مذهب الطبيعة الواحدة من سوريا الى ارمينية في الشمال ومصر في الجنوب . ولا يزال الارمن والاقباط حتى هذا اليوم يتمسكون بلاهوت الطبيعة الواحدة . وقد اخذ عدد اتباع هذا المذهب في سوريا وبلاد ما بين النهرين بالتناقص منذ ان اصبح الاسلام القوة المسيطرة في هذه البلاد .

انظر الفارسي

لم تتبه سوريا وحدها في العصر البيزنطي الى تقاليدها القديمة من جديد بل ان مصر وبلاد الرافدين تنبهتا ايضاً الى ذلك . وفي عهد السلالة الساسانية الطامحة اخذت الدولة الفارسية المجاورة تنازع بيزنطة السيادة على الشرق . وقد صدَّ قائد يوسفيان القدير بليسايوس المجموع الاول (٥٢٧ - ٥٣٢) . وكان برووكوبيوس من مدينة قيصرية ومؤرخ هذه الحرب يراقب بليسايوس كمستشار له^٢ . غير ان هذا المجموع لم يكن سوى مقدمة للخطر المحدق .

وعاد الفرس في عام ٥٤٠ الى الظهور من جديد في عهد كسرى الاول اتو شروان (٥٣١ - ٥٧٩) . وقد ذُجَّ هذا الملك التشيط على رأس ٣٠،٠٠٠ رجل على سوريا بطريق هيرابولس (منبع) واعسل النار في مدينة حلب التي لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضت عليها^٣ . وكان مقدارها ٤٠٠٠ ليرة (رطل انكلزي) من القضة وهو ضعف المقدار الذي استترت به هيرابولس سلامتها . ثم تابع كسرى سيره من حلب الى انطاكية التي كانت فيها حامية ضعيفة . ولم تستطع نجدة مؤلفة

١) انظر ما سئل ذكره عن الفاسنة في الفصل ٢٩.

٢) انظر : Procopius, Bk. I, ch. 12, § 24.

٣) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 7, §§ 1-13.

من ٦٠٠ جندي اتت من فينيقية الـبـانـيـة^١ من منطقة حصن ان تقف في وجه المهاجم الفارسي . وكانت قوة الجيش الروماني في هذا الزمان مركزـة في الترب حيث كان يوستينيان يحاول اعادة جمع اطراف الامبراطورية الرومانية القديمة . فنهبت مدينة انطاكـية وجـرـدتـ كـانـدـرـاـيـتهاـ منـ كـنـوـزـهاـ الـذـهـبـيـةـ وـالـفـضـيـةـ وـمـنـ رـخـامـهاـ الفـاخـرـ،ـ وـهـدـمـتـ المـدـيـنـةـ بـكـلـمـاـهـاـ وـأـخـذـسـكـلـانـهاـ اـسـرـىـ^٢ـ .ـ وـبـنـىـ لـمـمـ الفـاتـحـ قـرـبـ عـاصـمـهـ طـسـيقـونـ (ـالـمـادـانـ)ـ مـدـيـنـةـ جـدـيـدـةـ اـفـتـخـرـ بـتـسـمـيـتـهاـ انـطـاكـيـةـ كـسـرـىـ .ـ

وهـكـذـاـ اـنـتـهـيـ كـيـانـ المـدـيـنـةـ كـمـرـكـزـ فـكـرـيـ بـعـدـ انـ دـامـ ثـانـيـةـ قـرـونـ .ـ وـكـانـ انـطـاكـيـةـ فـيـ آـخـرـ اـيـامـهاـ مـدـيـنـةـ مـسـيـحـيـةـ مـشـهـورـةـ تـأـقـيـ فـيـ مـرـتـبـةـ القـسـطـنـطـنـيـيـةـ وـالـاسـكـنـدـرـيـةـ كـمـقـرـ بـطـرـيرـكـيـ .ـ وـقـدـ عـقـدـتـ فـيـهاـ عـشـرـ بـجـامـعـ كـنـسـيـةـ بـيـنـ ٢٥٢ـ وـ ٣٨٠ـ مـ .ـ وـبـيـدـوـ اـنـ تـقـدـيرـ يـوـحـنـاـ فـيـ الـذـهـبـ^٣ـ لـعـدـ اـفـرـادـ الطـائـفـةـ المـسـيـحـيـةـ فـيـهاـ عـاـئـةـ الـفـ قـدـ تـجـاهـلـ عـدـ الـعـيـدـ وـالـأـطـفـالـ .ـ وـبـرـويـ مـلاـسـ^٤ـ الـمـؤـرـخـ الـانـطـاكـيـ الـمـعاـصـرـ بـاـنـ زـلـزالـ عـاـمـ ٥٢٦ـ الـذـيـ نـكـبـتـ بـهـ المـدـيـنـةـ اـدـىـ لـهـ لـهـلـاـكـ ٢٥٠،٠٠٠ـ اـنـطـاكـيـ .ـ وـكـانـ النـتـائـجـ الـاـقـصـادـيـةـ لـهـبـ الـفـرـسـ هـاـ وـلـهـذـاـ زـلـزالـ عـاـمـ ٥٢٨ـ .ـ نـتـائـجـ وـخـيـمةـ .ـ

تابعـ كـسـرـىـ مـسـيـرـهـ مـنـ انـطـاكـيـةـ إـلـىـ اـفـامـيـةـ وـهـيـ مـرـكـزـ مـسـيـحـيـ آـخـرـ مـزـدـهـرـ .ـ وـقـدـ اـدـعـتـ كـنـيـسـتـهـ بـاـنـهاـ تـلـكـ قـطـعـةـ مـنـ الصـلـبـ الـحـقـيـقـيـ طـولـهـاـ ذـرـاعـ وـاحـدـ وـهـيـ مـحـفـوظـةـ بـكـلـ وـقـارـ فـيـ تـابـوتـ مـرـصـعـ بـالـجـواـهـرـ^٥ـ .ـ وـكـانـ هـذـاـ الـأـثـرـ الشـيـنـ يـحـرـسـهـ كـهـنةـ خـاصـونـ وـيـعـرـضـ مـرـةـ فـيـ كـلـ سـنـةـ حـيـثـ يـقـومـ جـمـيعـ السـكـانـ بـرـاسـ الـعـبـادـةـ اـمـامـهـ .ـ وـقـدـ اـخـذـ التـابـوتـ وـجـمـعـ كـلـ الـذـهـبـ وـالـفـضـيـةـ فـيـ المـدـيـنـةـ .ـ وـقـدـمـتـ جـمـيعـ هـذـهـ لـلـمـهاـجـمـ لـأـرـوـاءـ نـهـيـهـ إـلـىـ أـنـ الـأـثـرـ نـفـسـهـ قـدـ سـلـمـ إـذـ كـانـ لـأـ قـيـمـةـ لـهـ بـالـنـسـيـةـ لـكـسـرـىـ .ـ وـعـنـدـمـاـ

(١) انظر في ص ٣٨٩.

(٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 9, §§ 14-18.

(٣) انظر : Opera omnia, vol. vii, p. 914.

(٤) معنى الكلمة السريانية «ملالا Malala» خطيب او واعظ .

(٥) راجع لاجل التوسع في عدد السكان : Bury, *History of the Later Roman Empire* : vol. i, p. 88.

(٦) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11.

اتهم احد المواطنين جندياً فارسياً بأنه دخل بيته وهتك عرض ابنته امر كسرى باعدام الزاني في المعسكر^١ . وقد نسب المواطنون سلامة المدينة من الدمار الى فعالية الاثر المقدس .

كانت مخالكيس قرب حلب الضحية الثانية وقد اشتهرت سلامتها بكمية من الذهب . ثم استمرت حملة كسرى في السلب وتناولت المقاطعات الواقعة شرق الفرات .

وفي عام ٥٤٢ عقدت هدنة تجددت بعد ذلك عدة مرات حتى عام ٥٦٢ حيث وقعت معاهدة مدتها خمسون سنة تلزم يوسفيان بدفع جزية الى «الملك العظيم» وبالامتناع عن القيام بأية دعاية دينية في المقاطعات الفارسية . وقد تجددت المنازعات في اوائل القرن السابع الا ان الحديث عنها يتصل بفصل يأتي فيما بعد ويتعلق بقيام الدولة العربية الاسلامية^٢ .

(١) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11, §§ 36-8.

(٢) انظر ما سألي في الفصل . ٣٠

الفصل العاشر واليمانيون

الدول السورية العربية قبل الإسلام

شهدت سوريا قبل ظهور الإسلام وانتشاره في الشمال قيام ثلات دول عربية وسقوطها على حدودها وهي : دولة الانباط في الجنوب ودولة تدمر في الشمال ودولة الفساسنة بينها . وقد اشتراك هذه الدول الثلاث ببعض اوصاف عامة في تاريخها المتعاقب . ويرجع اصولها الى تحضير القبائل البدوية او المتنقلة كما يرجع ازدهارها الى تجارة المرور . وتحالفت كل منها لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة مع احدى الدولتين العالميتين . وهما روما وفارس وتلتقت المساعديات منها . وقد قضت روما اخيراً على الدولتين النبطية والتدرية وقضت بيزنطة وفارس على دولة الفساسنة .

١ - الانباط

يظهر الانباط لأول مرة في القرن السادس ق. م. كقبائل بدوية في الصحراء الواقعة في شرق ما يسمى اليوم بشرق الأردن . وكانت هذه البلاد منذ بداية القرن الثالث عشر مقر ممالك صغيرة هي مملكتنا آدوم وموآب في الجنوب ومملكتنا عمون وجلعاد في الشمال وجميعها كانعانية وأرامية . ويظهر من البقايا الأثرية ان مملكتي آدوم وموآب لم تختلا قبل القرن الثالث عشر ق. م. وكان تاريخها خالياً من الحوادث بين ذلك والقرن التاسع عشر . وكانتا بين القرن الثالث والعشرين والقرن التاسع عشر حين خضعتا كلياً لهيمنة الآشورية من الصحراء مزدحتين بالسكان . وقد تمكنت قوة العبرانيين العسكرية و diplomatique ان توغل في هذه البلاد احياناً كما حدث في عهد الفحاة وداود ولسكن ديانة التوحيد العبرانية لم تتمكن ابداً من عبور نهر الأردن بقوّة قاتمة او من اقامة خط قدم جنوبيّة . وقد

اندمج هؤلاء السكان فيما بعد بالاتحاد البطيقي ومعهم قبائل ثمود^١ ولحيان^٢ في شمالي الحجاز.

من حياة الرعي الى الحياة الزراعية

كان الانباط لا يزالون رحلاً في القرن الرابع ق. م. يعيشون في خيام ويتكلمون العربية ويكرهون المخز ولا يهتمون بالزراعة. وفي القرن التالي توّكوا حياة الرعي واتبعوا حياة الاستقرار وعملوا في الزراعة والتجارة. وفي اواخر القرن الثاني كانوا قد تحولوا الى مجتمع منظم جداً متقدم في الحضارة ومتصرف بالتطور والترقى^٣. وكان مثالم هدا مثلاً آخر يوضح الحادث الذي كان يتكرر في تاريخ الشرق الادنى القديم وهو تحول الرعاعة الى مزارعين ثم الى تجار في بلاد قليلة الموارد ولكنها حسنة الموضع بالنسبة لتجارة القوافل التي عوضت قلة عن مواردها الطبيعية.

ان اول تاريخ ثابت في عهد الانباط هو عام ٣١٢ ق. م. حين نجحوا في صد هجمات حلتين من سوريا بقيادة انتيقونس^٤، احدها خلفاء الاسكتدر، خذ «صغرتهم» (أم البيارة). وكانت عاصمتهم التي بدأوا كمحصن جبلي ثم اصبحت محطة للقوافل عند ملتقى طرق التجارة التي كانت تنقل اللبان وتجارة التوابيل قد أصبحت محصنة بقوة في ذلك المدين. وكان هذا الملجم الصخري، بتراء، قبل عهد الانباط مدينة يلتجئ اليها الادوميون الذين انزعوها من ايدي الحوريين Hurrians (Horites) ابناء سير Seir. وكانت عاصمة الانباط محفورة في قلب صغر دملي يظهر جميع اوان قوس الفرج ولذلك كانت تشكل مزيجاً فريداً من الفن والطبيعة.

من الزراعة الى الحياة التجارية

ان كلمة بتراء Petra وهي اللفظ اليوناني لكلمة «صغر» وفي العربية الفصحى

١) ذكرت في القرآن ٧ : ٧١ : ١١ : ٦٤ : ٧١ .

٢) قرية المسة بمنود. انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 32, § 186 ; ch. 38, 165.

٣) راجع : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, §§ 22, 28 ; Diodorus, Bk. III, ch. 48, § 4.

٤) انظر : Diodorus, Bk. II, ch. 48, §§ 6-7 ; Bk. XIX (ch. 6), § 94.

الرقيم^١ هي ترجمة الكلمة سلع 'Sela'^٢ العبرية . ووادي موسى هو الاسم الحديث للموقع بكماله . وقد وسع الانباط سلطتهم وراسكزهم من عاصتهم الى المنطقة الشمالية المجاورة حيث اعادوا بناء المدن الادوية والموأية القديمة واقاموا مراكز جديدة نهاية القوافل ومحطات مستحدثة لاستئثار الموارد المعدنية . وكانت مدinetهم المدينة الوحيدة بين الاردن والنجاز التي توجد فيها مياه غزيرة ونقية . وزيادة على ذلك كانت المدينة حصينة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب . واصبحت البراء منذ آواخر القرن الرابع المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوب الجزيرة العربية الذي ينبع التوابيل وبين مراكز الاستهلاك والبيع في الشمال . وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفاً غرة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى اية Aila على البحر الاحمر والى الخليج الفارسي عبر الصحراء^٣ . وكانت تستبدل فيها جمال القوافل بجمال أخرى نشيطة .

لم يكتف مهندسو المياه الانباط ب المياه بناها لهم ولذلك أصبحوا بارعين في استخراج المياه الباطنية وفي استخدام مياه الامطار القليلة وحفظها . وبيدو انهم قد ورثوا تلك العصا السحرية التي مكنت متوجولاً سائياً قديماً في تلك المنطقة وهو موسى من استخراج المياه من الصخرة الجافة^٤ . وهكذا تكونوا من انتزاع اجزاء من الصحراء وتحويلها الى اراض مزروعة اكثر مما فعله اي شعب عربي من قبل او من بعد .

ولانسمع سوى القليل عن بلاد الانباط في القرن الثالث حين كانت سكلتها يُتمون امكانياتهم . وفي اوائل القرن الثاني اصبحت قوة يحسب لها حساب في

١) انظر القرآن ١٨ : ٨ ؛ ياقوت ، جزء ١ ، ص ٩١ و ٧٢٨ ؛ جزء ٢ ، ص ١٢٥ و ٨٠٤
قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IV, ch. 4, § 7; ch. 7, § 1.

٢) ذكرت في سفر اشعياء ١٦ : ٤٢ ؛ ١ : ١١ ؛ الملوك الثاني ١٤ : ٧ ؛ قارن مع اخبار الایام الثاني ٢٥ : ١٢ ؛ ارميا ٤٩ : ١٦ ؛ عوبديا ٣ : ٤ . انظر : G. and A. Horsfield, *Quarterly Department of Antiquities of Palestine*, vol. vii (1938), pp. 1 seq.

٣) قارن مع : Pliny, *Natural History*, Bk. VI, ch. 32, § 145.

٤) انظر سفر الخروج ١٧ : ٦ .

سياسة الشرق الادنى . وقد وقعت في فترة ظهورها تحت تأثير البطالة . وتعتبر سنة ١٦٩ ق.م. فاتحة عهد سلسلة من الملوك الانباط الذين عرفت اخبارهم بالتأكيد.

المملكة النبطية

كان احارت (حوالي ١٦٩ ق.م.) على رأس قائمة هؤلاء الملوك ويدعى « اريتاس Aretas ملك العرب »^١ . وقد تسمى بهذا الاسم كثير من ملوك الانباط كما تسمى به ملوك القساسنة فيما بعد . وكان احارت معاصرًا لمؤسس الاسرة المكابية . وبدأت الاسرتان عهدهما كحليقتين طبيعيتين ضد ملوك سوريا السلوقيين^٢ . ولكنها اضجعتا فيما بعد متنافستين . وقد سارع احارت الثاني (ايروتيموس Erotimus^٣) (حوالي ١١٠ - ٩٦ ق.م.) مؤسس السلالة لمساعدة غزة في عام ٩٦ ق.م. وكان اسكندر جنائيus المكابي يحاصرها . وحوالي عام ٩٠ ق.م. حاز خلف احارت الثاني وهو عبيدة (او بوداس الاول Obodas) نصراً هاماً على جنائيus^٤ . وقد نشبت المعركة على الشاطئ الشرقي لبحر الجليل ومهدت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقي من سوريا اي منطقة حوران وجبل الدروز اليوم . واستغل عبيدة وخلفه احارت الثالث (حوالي ٨٧ - ٦٢) انحطاط جيرانها السلوقيين والبطالية فوسعوا الحدود العربية الى الشمال . ولم تكن زومة قد ظهرت بعد على مسرح الشرق .

كان احارت هذا المؤسس الحقيقي لسلطة الانباط . فقد هزم مراراً جيش اليهودية وحاصر اورشليم . كما انه استجاب لدعوة تلقاها من دمشق واقام نفسه عليها سنة ٨٥ ق.م. كحاكم لتلك المدينة السلوقيّة والسهل الفي الملحق بها وهو سوريا الجوفة . وكان الدافع لهذه الدعوة كره سكان دمشق حاكم خالكيس (عنجر) الایتوري الذي طمع بعرش سوريا^٥ . وبعد اثني عشر عاماً صد احارت هجوماً

١) انظر سفر المكابيin الثاني هـ : ٨ .

٢) انظر سفر المكابيin الاول هـ : ٢٤ - ٢٧ : ٩ : ٣٥ .

٣) انظر : Dussaud and Macler, *Mission*, p. 70.

٤) انظر ما سبق في من ٢٩٦ .

٥) انظر ايضاً ما سبق في من ٢٧٠ .

قام به يومي^١ الذي كان يحلم بتوسيع الحدود الرومانية حتى البحر الاحمر . وبذا كأنه اقوى سيد في سوريا . وكان هذا اول احتكاك مباشر مع روما .

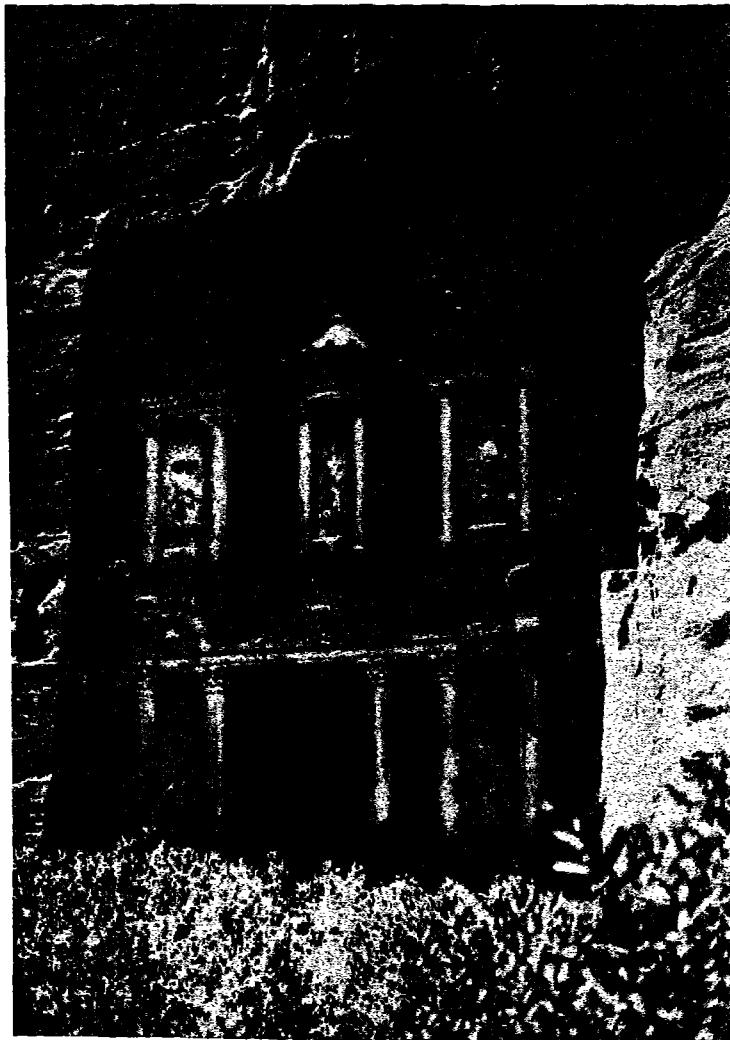
بينما كان الهازن يصد الرومان باليد الواحدة كان يفتح بالاخرى الباب على مصراعيه للتأثيرات اليونانية الرومانية . ودخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الملنسية وكسب لقب محب الملنسية *Philhellene* . وكان اول من سُك نقداً نبطية اقتبس لها النموذج المعروف عند البطالة . كما انه اتى بالصناع السوريين الى عاصمه وادخلوا معهم نماذج هلنستية وربما نحتوا الواجهة الجميلة التي تسمى اليوم الحزنة وكانت بالاصل قد وضعت لتكون له . ويرجح ان المسرح قد بني ايضاً في زمن الرومان^٢ . وب بدأت البناء منذ ذلك الحين تتعدد مظاهر مدينة هلنستية نوذجية فكان فيها شارع رئيسي جيل وعدة ابنية دينية وعامة . ومنذ هذا الهد أخذت دولة الانباط تقوم بدور «موالٍ» حليفٍ لرومة . وطلب يوليوس قيصر في عام ٤٧ من مالكتو (مالكتوس الاول *Malchus I* حوالي ٥٠ - ٢٨ ق.م.) ان يقدم الفرسان لتسامم في حربه في الاسكندرية . وشجع عيادة الثالث^٣ (حوالي ٢٨ - ٩ ق.م.) وهو خلف مالكتو المذكور ايليوس غالوس *Aelius Gallus* حاكم مصر في عهد اوغسطس قيصر على القيام عام ٢٤ بالحملة السينية المصير ضد بلاد العرب السعيدة *Arabia Felix* ووعده بالمساعدة التامة . ويعزو سترابو حدائق غالوس مسؤولية فشل الحملة لخيانة الدليل *سيلايوس Syllaeus* وزير الانباط^٤ . وعندهما اعتلى الهازن الرابع الذي خلف عيادة العرش دون ان يستأذن اوغسطس بالأمر كاد ان يفقد عرشه بنتيجة ذلك .

(١) انظر : *Josephus, Antiquities, Bk. XIV, ch. 5. § 1; War, Bk. I, ch. 8 § 1.*

(٢) قارن مع Rudolf E. Brünnow and Alfred v. Domaszewski, *Die Provincia Arabia*, vol. i (Strasbourg, 1904), pp. 190-250-61; Gustaf Dalman, *Petra und seine Felsheiligtümer* (Leipzig, 1908), pp. 183-8.

(٣) يرجح اسم عيادة (ابوده *Oboda*) المدينة الالمدة التي تقع شمال غرب البناء الى عيادة هذا او شخص آخر بهذا الاسم . انظر Abel, vol. ii, p. 400.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 23 ; Hitti, *History of the Arabs*, p. 46 ; cf. A. Kammerer, *Pétra et la Nabatène* (Paris, 1929), p. 199.



المزنة وهي اجل واجهة مهاربة في البناء
وقد اقيم هذا البناء في الاصل ليكون معبداً او قبراً لاحد
ملوك الانباط الاخرين

الملكة في ذروتها

بلغت المملكة ذروتها في عهد الحارث الرابع (٩ ق. م. - ٤٠ م.) الذي كان حكمه طويلاً ومتدهراً. وقد تابع عملية نشر الحضارة الرومانية. وكان من ولاته ذلك الذي حاول التبض على بولس في دمشق^١. وقد تزوج الحاكم هيرودس ابن هيرودس الكبير ابنة الحارث هذا وتجرأ على طلاقها ليتزوج راقصة كانت السبب الرئيسي في مقتل يوحنا المعمدان^٢. فشن الأب الناقم حرباً مظفرة على هذا الملك اليهودي^٣. ويمكن ان يرجع تاريخ «الاماكن المرتفعة» التي لا تزال قائمة في البتراء والقبور الجبلية التي تتلها قبور الحجر (مدائن صالح) في المحجاز الى زمن حكمه. وكانت الحجر مركزاً لقبيلة ثواد^٤.

كانت المملكة تضم في أقصى اتساعها جنوب فلسطين وشرق الاردن وسوريا الجنوبية الشرقية وشمال الجزيرة العربية. ومهما يكن فان القسم السوري كانت تفصله عن قسم شرق الاردن منطقة اتحاد الديكابولس^٥. وكان يربط ما بين القسمين وادي السرحان. وكانت تستخدم هذه المنطقة الصحراوية الواقعة على الحدود الشرقية لشريقي الاردن كطريق رئيسية كبرى تبدأ من قلب الجزيرة العربية الى سوريا وتتجنب الممر بالديكابولس^٦. ويمكن الافتراض انهم كانوا في هذه المدن يستفيدون من مياه الينابيع الباطنية وينشئون الخانات وابراج المراقبة والمحصون ومراكز الشرطة على طول هذه الطريق وكذلك على طول وادي العربة وهو وادي

١) رسالة بولس الرسول الثانية الى اهل كورنوس ١١ : ٣٢ .

٢) انجيل متى ١٤ : ٦ - ١١ .

٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 5, §§ 1-2.

٤) انظر : Alexander B. W. Kennedy, *Petra: Its History and Monuments* (London, 1925), figs. 42, 53, 57, 156.

٥) انظر القرآن ١٥ : ٨٠ .

٦) انظر ما سبق عن الديكابولس في ص ٣٥٠ .

٧) انظر : Nelson Glueck, *Explorations in Eastern Palestine*, III (New Haven, 1939), pp. 144-5.

التصدع والزحول الذي يمر بالبتاء ويربط وادي الاردن بخليج العقبة . ومثل هذه التدابير كانت تعتبر ضرورية للوقاية من غارات البدو . وكان طريق وادي العربة يتفرع عند البحر الميت باتجاه الغرب الى فلسطين وباتجاه الشرق الى شرق الاردن حيث يتصل بالطريق الملكي^١ الذي يمتاز القسم الحصب من المضبة . وكانت تمر في هذين الواديين البصائع النبطية في زمن السلم والاسلحمة في زمن الحرب .

الملوك الآخرون

لا نعرف عن حكام الانباط الاخرين غير بعض المخلفات المستخرجة من الكتابات الاثرية المحلية والتقويد والكتابات الكلاسيكية . ومنذ حكم عبيدة الثالث^٢ (حوالي ٢٨ - ٩ ق.م.) اخذت تظهر في التقويد صورة الملكة مع الملك . واستمرت التائيل الصحفية المزدوجة للزوجين الملکيين تظهر منذ ذلك الحين حتى نهاية الملكية . وهناك كتابة اثرية على تمثال لعييدة الثالث هذا تدعوه «الاهي»^٣ مما يدل على ان الانباط كانوا يؤلهون ملوكهم بعد الموت . وقد وصفت الملكة على تقويد مالكون الثاني (٤٠ - ٧٠ م.) ابن الحارث الرابع «بشقيقة الملك»^٤ مما يشير الى ان بعض الملکات كن زوجات شقيقات الملوك الاحمکين متبعين في ذلك عادة الفراعنة والبطالة . وتشير الكتابة الاثرية على تمثال عبيدة بأن احدى زوجات الحارث الرابع كانت اخته ايضاً . وقد ارسل مالكون الثاني في عام ٦٧ الف فارس و٥٠٠٠ من المشاة لمساعدة تيطس في هجومه على اورشليم^٥ . وفي اثناء حكمه اصبحت دمشق في ايدي الرومان . ويرجح ان ذلك كان في عهد نيرون . وبعثت مالكون ينتهي عصر الانباط الذهبي الذي بدأ في عام ٥٠ ق.م.

(١) انظر ما سبق في ص ٣١٩ .

(٢) يذكر باسم ابو داس الثاني Obodas II Cooke, p. 216 في ترجمة الملك Kammerer, pp. 176-7 ; Cooke, p. 216 ; René Dussaud and Frédéric Macler, *Voyage archéologique au Safâ et dans le Djebel ed-Drz* (Paris, 1901), p. 172 ; Dussaud and Macler, *Mission*, pp. 69-90.

(٣) Cooke, p. 244.

(٤) انظر : Kammerer, p. 254.

(٥) انظر : Josephus, *War*, Bk. III, ch. 4, § 2.

وتذكر الكتابات الأثرية التي وجدت في حوران رايبيل الثاني Rabil II (رايبيل Rabel حوالي ٧١ - ١٠٥) آخر ملوك الأنباط وهو ابن مالكو ووريثه - وتشير إليه بصورة تهمكية كما يبدو بأنه الشخص «الذى جلب الحياة والخلاص لشعبه»^١. وتدلنا بعض نقوشه بأنه حكم لمدة من الزمن مع آمه . ولم يعرف بالضبط ما حدث في تلك السنة الخامسة التي ادت إلى انهيار هذه الدولة السورية العربية الواقعة على الحدود وضيقها إلى إمبراطورية روما . وكانت روما قد ابتلت كل الملك الصغيرة في سوريا وفلسطين وأخذت تتأهب للقتال مع تلك الدولة الآسية الكبيرة وهي دولة الفربين . ولم يكن أذاك التقاضي عن وجود آية دولة نصف مستقلة تقع بينها . فكان يجب على جميع الدول المتوسطة بينها أن تصبح في قبضة إمبراطورية التامة . ولعل الرومان في نهاية حكم رايبيل رفضوا الاعتراف بمنفه له . ثم كان تحرك كورنيليوس بالما Cornelius Palma نائب تراجان في سوريا ضد البتراء كافياً لسحق آية مقاومة^٢ . وأصبحت بلاد الأنباط في السنة التالية جزءاً من الولاية العربية الرومانية وكانت بصرى فيها المدينة الرئيسية التي أصبحت عاصمة فيما بعد^٣ . وزالت البتراء العربية Arabia Petraea من الوجود .

اما عاصمتها الجميلة والفنية (مدينة البتراء) التي كانت «حمراء وردية اللون وقدية يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ» - فقد أصبحت في ذمة التاريخ الذي منه أنت . وتحول طريق التجارة الذي كان يتجه من الشرق إلى الغرب شمالاً إلى تدمير كما تحول الطريق الجنوبي - الشمالي باتجاه الشرق حيث يقع طريق الحج والعط الحديدي الحجازي الحديث . ثم تحولت البتراء التي اعتنق المسيحيّة في القرن الثالث فصارت إسلامية في القرن السابع والقرون التالية . وقد انتزع بلدوين الأول Baldwin I المدينة الخصبة من المسلمين مباشرة بعد تنصيبه ملكاً في ١١٠٠ واحتفظ بها

(١) انظر : Cooke, p. 255 ; Dussaud and Macler. *Voyage*, pp. 166-7; Kammerer, pp. 255-56.

(٢) انظر : Dio, Bk. LXVIII, ch. 14, § 5.

(٣) راجع ما ورد عن بصرى في ص ٣٢٣ .

الصلبيون حتى انتصار صلاح الدين الحasm في عام ١١٨٩. وبقيت مهمة حتى كشفت آثارها العالم في ١٨١٢ من قبل المكتشف السويسري بوركهارت^١.

العلاقات التجارية والصناعية

وصلت علاقات البناء التجاريه الى مناطق تعتبر من ابعد المناطق في العالم المتقدم آنذاك . وقد تركت آثاراً كتابية مبعثرة بين بيتهولى Puteoli التي كانت مرفاً لرومة لمدة من الزمن وجرها (العقير)^٢ على الخليج الفارسي . كما وجدت وثائق نبطية اخرى في مليتوس وروودس ودلتا النيل الشرقية ومصر العليا عند مصب الفرات . ويعود تاريخ الكتابة الاذرية المشوهة التي وجدت في بيتهولى ثم اصبحت اليوم في متحف تابولي الى عام ٥ م . وُيُذكرُ هذا النقش شيئاً من اجل حياة الملك اخراط الرابع في هيكل يرمي وكان قد بني قبل ذلك العهد بخمسين سنة^٣ . وتشهد كذلك الوثائق الصينية بشاريع الانباط التجارية .

وكانت السلع الرئيسية تتألف من المر والتوابيل والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والمنسوجات الحريرية الفاخرة من دمشق وغزة والأناء من عسقلان والواوفاني الزجاجية والارجون من صيدا وصور واللؤلؤ من الخليج الفارسي . وكان الانتاج الخلي لبلاد الانباط يضم الذهب والفضة وزيت السمسم الذي كانوا يستخدمونه مكان زيت الزيتون^٤ . ويرجح ان الاسفلت وغيره من المعادن المرتبطة كان يستخرج من الساحل الشرقي للبحر الميت . وكان الحرير الخام يستورد من الصين مقابل ما يصدر اليها . وقد عرف الحرير الصيني كادة في سوريا منذ ایام السلوقيين . وكان الحرير الخام ينسج في صيدا في القرن الاول الميلادي . وكانت الاشياء المستوردة من اليونان ورومة تجلب في جرار اتيكية ولا تزال توجد بعض قطع منها حول

١) انظر : John L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London, 1822), pp. 418-34.

٢) انظر ما سبق في ص ٢٩٩ و ٣٠٠ .

٣) انظر : *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, Pars II, tom. i (Paris, 1899), No. 158.

٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

البراء وابلة^١. وكانت ابلة ولوبيكي كومه Leuke Kome (المدينة البيضاء المفقودة على البحر الاحمر قرب الوجه) حلقتين في سلسلة محطات القوافل وكانت بصرى وصلخد حلقتين داخليتين. واستخدمت هذه المدن مع غيرها كمستودعات للأسلحة والبضائع. وقد عزّزت الجيوش المحلية بمجاليات من الانباط. و بما يسترعى زيادة الاهتمام ان احد الواقع المحكشة حديثاً وهو جبل رام Ramm الذي يبعد خمسة وعشرين ميلًا شرق ابلة قد قيل عنه انه إدم Iram الواردۃ في القرآن^٢. وكان الانباط يحولون طرق القوافل ويفرضون الضرائب على البضائع ويعارسون نوعاً من الاحتكار لمدة من الزمن . ووُجِدَ سترابو «انه بلغ من سُنَّةِ ميلهم الحصول على الممتلكات انهم كانوا يفرضون الفرماطات علناً على كل من ينقص ممتلكاته كما كانوا يعنون مرائب الشرف لكل من يزيد فيها»^٣ .

المظاهر المضاربة

كانت حضارة الانباط عربية في لغتها ، آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية وهي لذلك حضارة مركبة ، سطحية في مظهرها المليفي ولكنها عربية في اساسها وبقيت كذلك .

وقد اصحاب سترابو ويوسيفوس وديودورس باطلاق اسم العرب على الانباط ، اذ ان اسماءهم الشخصية واسماء المائهم واثر التحرير العربي في كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالاً للشك بأن لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية . وفي الكتابة الآثرية في بيروت التي سبق ذكرها يرد اسم علي ، الذي شاع لدى المسلمين فيما بعد ، لأول مرة في المدونات . وفي كتابات اخرى تظهر اسماء حبيب وسعيد وهي اسماء عربية شائعة ايضاً^٤ . وترد بعض الكلمات العربية مثل «قبر» و «غير» في عدة كتابات

^١) هي ابلا Elath القديمة وتدعى اليوم العقبة لأن أحد بن طولون بن حصناً في ذلك الموقع.

^٢) انظر : M.-R. Savignac and G. Horsfield, « Le Temple de Ramm » *Revue biblique*, vol. xliv (1935), pp. 245-78 ; Harold W. Glidden, « Koranic Iram. Legendary and Historical », *Bulletin, American Schools of Oriental Research* ; No. 73 (1939) pp. 13-15.

^٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

^٤) انظر : *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, pp. 260, 242.

اثرية . وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة في احدى الكتابات الاثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربياً .

كانت اللغة الآرامية وهي اللغة الشائعة في ذلك العصر يستعملها الانباط كما كان يستعملها جيرانهم في الشمال^١ . ويجب ان نذكر انه لم تكن هناك حروف عربية بعد . والرسالة التي كتبها الانباط في ٣١٢ ق. م. الى انتيغونوس كانت « بالحروف السريانية »^٢ . وكانت الآرامية اللغة الوحيدة التي باستطاعتهم استعمالها على ابنيتهم الاثرية ونقوذهم . وبالتدريج انفصلت الكتابة النبطية عن الآرامية . وحوالي منتصف القرن الاول ق. م. اخذت طابعها المميز واصبحت ذات صفة ثابتة .

ويمكن الافتراض ان التجار الانباط كانوا الى حد ما يتكلمون لغتين ات لم يكن اكثراً ، كتجار القاهرة وبيروت اليهود . ولا بد ان بعضهم كانوا يعرفون ليس القتين العربية والآرامية فحسب بل اليونانية وبقدار اقل اللاتينية ايضاً .

ومما يزيد في اهمية الحروف النبطية ان الایمادية العربية قد اخذت منها مباشرة كما يستدل من دراسة الكتابات الاثرية العربية القديمة . واقدم نص عربي وصلنا هو نص التهارَه al-Namarah في شرق حوران من عام ٣٢٨ م . وهو مكتوب بحروف نبطية^٣ . ويعتبر خط النسخ الذي كتبته به اللغة العربية في قدمه كالخط الكوفي الذي ينسب الى الكوفة في بلاد ما بين النهرين . ومخالف الروايات الاسلامية الاذلة التي مصدرها الكتابات الاثرية فتشير خطأ الى بلاد ما بين النهرين بانها اول مكان ظهرت فيه الكتابة العربية الصحيحة .

الديانة

كانت ديانة الانباط من النوع السامي الشائع واساسها طقوس الحصب المتصلا

١) انظر : Jaussen and Savignac, *Mission archéologique en Arabie* (Paris, 1909) pp. 172-6.

٢) راجع لاجل التوسع في ديانة الانباط : J. Cantineau, *Le Nabatéen*, 2 vols. (Paris, 1930-32).

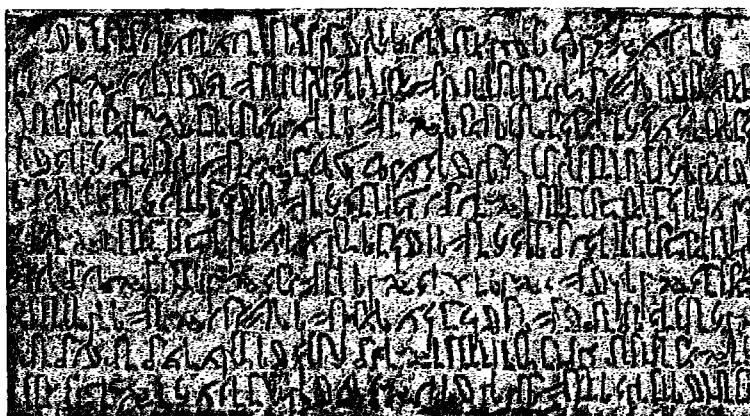
٣) انظر : Diodorus, Bk. XIX (ch. 6), § 96.

٤) انظر : Cantineau, vol. i, p. 22.

بالزراعة . وقد احتفظت بعناصر من العبادة القديمة المترفة « بالاماكن المرتفعة » والحجارة القائمة .

وكانت على رأس مجموعة آلهة الانباط الاله دوشارا (ذو الشرى او دوسارس Dusares)^١ . وهو الاله الشيس الذي كانت يعبد بشكل مسلة او حجر اسود غير منحوت له اربع زوايا . وقد يقى في انقاض معبد نبطي في خربة التلور جنوب شرق البحر الميت مزار على شكل صندوق شبيه بالكعبة وربما بني في القرن الاول ق. م.^٢ .

كانت الالات الالهة الرئيسية في الجزيرة العربية وتتصل بالاله ذو الشرى ،



كتابه اثرية نبطية على احد الاضرحة من عام ٢٦ م
ووجدت في الحجر (مدائن صالح)

١) والثرا هو اسم مكان . راجع : W. H. Waddington, *Inscriptions grecques et latines de la Syrie* (Paris, 1870), pp. 478-9.

ولا يزال الجبل المواري الذي يشرف على شمال شرق البتراء يدعى حتى اليوم شرى shara ترد شرى في The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, vol. vii (1938), pl. i.).

ويرجح ان الكلمة تعنى حمى او منطقة مقدسة . انظر : Dalman p. 49.

٢) انظر : M. E. Kirk, « An outline of the Ancient Cultural History of Trans-jordan », *Palestine Exploration Fund Quarterly* (1944), p. 196.

وكانَت الْأَلَهَةُ الْقَمَرُ . وَمِن الْأَلَهَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْكِتَابَاتِ الْأَثَرِيَّةِ مِنَاهُ وَالْعَزَّةُ الْمَذَكُورَتَانِ فِي الْقُرْآنِ . كَمَا يُظَهِرُ فِي الْكِتَابَاتِ هُبَيلٌ أَيْضًا . وَكَانَتِ الْأَلَهَةُ الْأَرَامِيَّةُ اتَّارَغَاتِسُ تَمَثِّلُ فِي خَرْبَةِ التَّنُورِ كَالْأَلَهَةِ الْحَبوبِ وَأَوْرَاقِ النَّبَاتَاتِ وَالثَّمَارِ وَالسَّمَكِ . وَهَنَالِكَ أَلَهَةً عَدِيدَةٍ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ تَقَابِلُ أَلَهَةً تَدْسُ وَدُورًا - أُورُوبِسْ وَهِيرَابُولُسْ وَهِيلِيُوبُولُسْ . وَكَانَتْ عِبَادَةُ الْأَفْعَى تَشَكَّلُ جُزْءًا مِنَ الدِّيَانَةِ .

لَا نَعْرِفُ سُوَى الْقَلِيلِ عَنِ الْاحْتِفَالَاتِ الْمُتَصَلَّةِ بِعِبَادَةِ الْأَبْنَاطِ . وَيَبْدُ وَصْفُ سَترَابُو لِأَحَدِ الْوَالَّمِ الْمَلْكَيَّةِ الَّتِي « لَا يَشْرُبُ الْإِنْسَانُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ أَحَدِ عَشَرَ كَأسًا مُسْتَعْمِلًا فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَأْسًا ذَهِبًا مُخْتَلِفًا »^١ ، بَاهِهَ اشْبَهَ بِمَجْهَلَةٍ تَتَصلُّ بِالْطَّقْوَسِ الْدِينِيَّةِ . وَيَبْدُو أَنْ تَقْشُفَ الْأَزْمَنَةُ الْقَدِيمَةُ قَدْ زَالَ بِتَأْثِيرِ « الْحَضَارَةِ الْحَدِيثَةِ » . وَتَتَضَعُ الطَّقْوَسُ الْدِينِيَّةُ مِنْ رِوَايَةِ سَترَابُو نَفْسَهُ يَذَكُرُ فِيهَا « أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ عَلَى مَوَائِدِ مُشَتَّرَكَةٍ بِشَكْلِ جَمَاعَاتٍ تَتَأْلِفُ مِنْ ثَلَاثَةِ شَرِيكَاتٍ شَخْصًا وَيَقْوِمُ عَلَى خَدْمَةِ كُلِّ جَمَاعَةٍ مُغْنِيَّاتٍ » . وَبِاقْتِبَاسِ مَظَاهِرِ التَّرْفِ وَالْإِسَالِيبِ الْمَلَكِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ فَانَّ الْأَلَهَةَ بَدَلَتْ أَسْمَاءَهَا السَّامِيَّةَ الْقَدِيمَةَ وَاتَّخَذَتْ مَظَهُورًا رُومَانِيًّا فَاصْبَحَ ذُو الشَّرِيْعَةِ دِيُونِيسُوسُ .

وَمَا لَا شَكَ فِيهِ أَنْ تَصْوِيرَ الصَّفَاتِ الْقَوْمِيَّةِ لِلْأَبْنَاطِ فِي كِتَابَاتِ سَترَابُو^٢ وَدِيُورُوسُ^٣ وَهُمَا مِنْ أَحْسَنِ مَصَادِرِنَا إِنْ مِنْ بَالِغٍ فِيهِ وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَنْصَرٌ مِنَ الْحَقِيقَةِ . وَالصُّورَةُ الْعَامَّةُ هِي صُورَةُ شَعْبٍ مُقْتَهَمٍ لِلأَمْرِ حَبَّ الْكَسْبِ مُنْظَمٌ وَدِيقَرَاطِيٌّ ، مِنْهُمْ كَمَنْهُمْ فِي التَّجَارَةِ وَالْوِزَارَةِ . وَلَمْ يَكُنْ يَوْجِدُ فِي الْجَمَعِ سُوَى عَدْدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْبَيْدِ مَعَ عَدْدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْمَعْدِمِينَ . وَحَفَاظَ الْأَفْرَادُ عَلَى عَلَاقَاتِ سَلِيمَةٍ بَعْضُهُمُ مَعَ بَعْضٍ حَتَّى أَنَّهُمْ لَمْ يَمْتَاجُوا إِلَى رَفْعِ الدَّاعَوَى . وَبِلْغَةِ دِيقَرَاطِيَّةِ الْمَلَكِ أَنَّهُ غَالِبًا مَا كَانَ يَقْدِمُ تَقْرِيرًا عَنِ اعْمَالِ مَلْكِهِ إِلَى الجَمِيعِ الْعَامَّةِ . وَاشْتَغلَ

(١) انظر : Nelson Glueck, *The Other Side of the Jordan* (New Haven, 1940), pp. 180-86 ; Kirk, p. 196.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

(٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 21, 26-27.

(٤) انظر : Diodorus, Bk. XIX, (ch. 6), §§ 94-7.

الناس بالامور المتعلقة بهذه الحيساة حتى انهم نظروا الى الاموات كما ينظر الى البقايا البالية .

بلغ تأثير الانباط في الشمال الى بلاد العبرانيين من جهة وفي الجنوب الى الجزيرة العربية من جهة اخرى . ويظن ان عمر Omri ملك اسرائيل ومؤسس السامرة حيث دفن حوالي ٨٧٤ ق : م . كان من الانباط^١ . وبعد حوالي قرن اعتبر اماصيا Amaziah ملك يهودا بأن آلهة الايديوميين في البتراء قوية جداً بما يستدعي وضعها في معبد اورشليم لتعبد جنباً الى جنب مع يهوه^٢ ونستنتج من اسم جشمو Gashmu الذي عارض في مشروع بناء سور لاورشليم بأنه كانت من انباط غود^٣ . ويمكن انت يكون «المجوس الذين اتوا من المشرق»^٤ عرباً من الصحراء النبطية وليسوا مجوساً من بلاد فارس^٥ . وقد توصل يوسف الشهيد^٦ وغيره من آباء الكنيسة الى هذا الاستنتاج من طبيعة المدحيا التي قدمت . ويرجح انت العرب الذين يذكرون بمناسبة عبد العنصرة^٧ كانوا من الانباط . وبالبلاد العربية التي وجد فيها بولس مكاناً يعتزل فيه^٨ كانت بدون شك احدى البقاع الصحراوية في تلك المنطقة .

وقد تكشف الابحاث العلمية فيما بعد مقداراً كبيراً من تأثير الانباط على الديانتين المسيحية والاسلامية الناشتين اكبر مما عرف حتى الآن . وكلمة حنيف^٩ الواردة في القرآن والتي اطلقت على معاصرى النبي محمد الذين كانت لهم بعض الافكار التوحيدية الغامضة من اصل نبطي آرامي .

(١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ .

(٢) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٧ ; اخبار الايام الثاني ٢٥ : ١٤ .

(٣) انظر ما سبق في من ٢٤٤ .

(٤) الجبل متى ١ : ٢ .

(٥) قارن مع : Ernest E. Herzfeld, *Archeological History of Iran* (London, 1935) pp. 64-6.

(٦) انظر : «Dialogue with Trypho», *Ante-Nicene Christian Library*, vol. ii (Edinburgh, 1867), pp. 195-6.

(٧) اعمال الرسل ٢ : ١١ .

(٨) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ١ : ١٧ .

(٩) القرآن سورة ٢ : ١٢٩ ; ٤ : ٦٢ ; ٣ : ٦٤ ; ١٢٤ : ٤ . Hitti, *History of the Arabs*, p. 108

الفن والبناء

لقد اوجد الانباط نموزجاً جديداً في الممارسة يشتمل على معابد وقبور وغيرها من الابنية تحفورة في الصخر . ومن صفات بنائهم الغرفة ذات المقوس . ولعلهم في اساليب الزخرفة اوجدوا اصناف الا لواح النافرة التي انتقلت منهم الى بلاد ما بين النهرين وببلاد فارس^١ .

وأظهر سكان البتراء في ختمهم كما في دياتهم علاقة وثيقة بفتح المدن الواقعة على اطراف الصحراء مثل تدمر ودورا – اوروبوس وديانتها .

وتأثير الصناع الانباط بالنماذج اليونانية فادخلوا نوعاً جديداً من الحرف يأتي في المرتبة بين احسن الانواع التي انتجهتها تلك المنطقة^٢ . وبقايا الكؤوس والقتالين والصحون والباريق والطاسات تظهر رقة فائقة كرفة قشر البيض تدعى الى الاعجاب وتشهد بصناعة متفوقة . وترى هنا مختلف انواع من البسيط الحالي من الزخارف الى المدهون الى المزخرف بواسطة التولاب . وللون الطين المستعمل هو لون الطين الطبيعي المائل الى الحمرة . اما الرسوم فغالباً ما تكون نماذج ازهار او اوراق بشكل هندسي . ويعتبر انتشار اشكال العنبر واوراق الكرمة على الفخار والزخارف المعمارية دليلاً آخر على ان الامتناع عن شرب الماء المعروف قد يبدأ لم يعد قائماً . وقد استطاع علماء الآثار التابعون للمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية في القدس التعرف عن طريق قطع الفخار الى ما يقرب من خمسة وسبعين نبطي بين العقبة والطرف الشمالي من البحر الميت^٣ . وقد ذكروا ان الانباط في الفن والبناء والمنسدة وربما في الادب وفي الفخار بالتأكيد – كانوا موهوبين ومن اكثر الشعوب براعة في التاريخ^٤ . والانباط الذين قاموا بقيادة القروافل التي كانت تشبه الشرابين في تجارة الشرق القديم وبيناء مدينة فريدة في تاريخ عمل الانسان وبيناء

١) انظر : Neilson C. Debevoise, « Origin of Decorative Stucco », *American Journal of Archeology*, vol. xlv (1941), p. 60.

٢) انظر : Kirk, P. 195; Glueck, pp. 173-4.

٣) انظر : Glueck, p. 173.

٤) انظر : Glueck, pp. 159-60.

السود والصهاريج حيث لا توجد مياه الآن – هؤلاء الانبات يمثلهم اليوم بدو الحويطات الوضيعون الذين لا يزالون يعيشون في الاماكن التي ازدهر فيها اسلوفهم في الماضي وينصبون خيامهم خارج «المدينة الوردية اللون والتي يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ».

٢ – التدمريون

وبينا كانت شمس البتاراء آخذة بالغرروب كانت شرق شمس تدمر وهي مدينة اخرى للقوافل . ويفضل وجود نبع غزير يقوم في قلب الصحراء، وتصلح مياهه للشرب رغم أنها كبريتية نشأت واحة تقوم في وسطها قرية صغيرة . وكان الذين استقروا فيها بعض قبائل عربية . وادي الاتجاه الجديد في الامبراطوريات العالمية والتحول في طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من الفتى والسلطة بين مدن العالم القديم .

تدمر

دعا السكان المحليون بلتهم هذه تدمر . وتنظر بهذا الاسم لأول مرة حوالي عام ١٨٠٠ ق. م. وتعود الى الظهور في وثيقة اشورية لاحقة تقول ان تيغلات فيلاسر الاول I (حوالي ١١٠٠ ق. م.) طارد اعداءه البدو حتى هذا الملجأ الصحراوي^١. ويقول يوسيفوس ان السوريين يلفظون الاسم تادامورا Thadamora^٢ . ولا يزال الاسم السامي القديم يظهر في كلمة تدمر العربية . والمؤرخ العربي (اخبار الايام الثاني ٤:٨) الذي يروي ان سليمان بنى « تدمر » قد هدف إما الى تعظيم سليمان وملكته او مزج بين تدمر وتمار Tamar في ايدومية التي اسسها هذا الملك العربي^٣ . فالاسم اليوناني Palmyra يعني مدينة التخييل ويطابق

(١) انظر : Julius Lewy, « Les Textes paléo-assyriens », *Revue de l'histoire des religions*, vol. cx (1934), pp. 40-41 ; P. Dhorme, « Palmyre dans les textes assyriens », *Revue biblique*, vol. xxxiii (1924), pp. 106-8; cf. Luckenbill, vol. i, §§ 287, 308.

(٢) انظر : *Antiquities*, Bk. VIII, ch. 6, § 1.

(٣) سفر حزقيال ٤٧:١٩ ، ٤٨:٢٨ ؛ قارن مع الملك الاول ٩:١٨ .

الاسم العبراني تamar . واستفاق كلمة تدرس Tadmor غير مؤكداً . وقد انتقلت الرواية اليهودية الى المسلمين وهالم ضخامة الآثار الباقة في المدينة وعظمتها فنسبوا يناعها الى ابن بامر من سليمان .

مركز للتجارة عبر الصحراء

أوجد توسيع الامبراطورية الفرطية في منطقة الفرات في منتصف القرن الثاني ق. م. وضعماً جديداً في الشرق الادنى كالوضع الذي حدث بعد ثلاثة اربع القرن حين ضمت روما اليها سوريا . وكانت تدرس تقوم بين هاتين الامبراطوريتين العالميتين . وساعد موقعها المنعزل في قلب الصحراء على علم عكّن الفرق الرومانية والفرسان الفرتين من سهولة الاستيلاء عليها . واستفاد تجارة من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقائه الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . واستغل رجال السياسة فيها بذلك موقعها الستراتيجي بين دولتين كبيرتين متنافستين وكانتا يقفون مرة الى جانب روما ومرة الى جانب فرتيا مما جعلهم يحافظون على ميزان القوى ويستفيدون من الحياد . وقد ابقوا على استقلال مدينتهم كدولة حاجزة وذلك بالاتفاق بين الدولتين المتخاصمتين .

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على اذن عبور قوافلهم بسلام . وكان الادلاء يقودون هذه القوافل عبر المنطقة الجرداء كما كان يحتميها ركب الرماة من غارات البدو . وقد وضعت المدينة ضرائب ثقيلة على مختلف انواع التجارة لدى مرورها فيها . وكانت البضائع تتألف من بعض الحاجيات الضرورية وكثير من كاليات العالم المعاصر . ولم تختلف كثيراً عن البضائع التي كانت تمر بالبتراء وهي : الصوف والارجون والحرير والواقي الزجاجية والعطور والروائح وزيت الزيتون والتين الجفف والجوز والبن والجوز . وقد وجدت قطع من الحرير

١) لها مصلة بكلمة تدمورتا tedmortā السريانية ومنها « يعجب من » انظر : W. F. Allbright, « The North-Canaanite Poems of Al'ēyān Ba'al and the Gracious Gods. Journal, Palestine Oriental Society, vol. xiv, » (1934), p. 130, n. 149.

٢) قارن مع : J.-B. Chabot, *Choix d'inscriptions de Palmyre* (Paris, 1922), pp. 26-30.

الصيني في قبر يعود إلى عام ٨٣ م.^١ وكان التدمريون آنذاك يقومون بالقسط الأكبر من تجارة البحر المتوسط مع بلاد فارس والمند والصين.^٢ وما يدل على القبعة الكبيرة التي كان ينظر بها إلى التجار المواطنين ما أعلن في الكتابات الاثرية التي تعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادي عن إقامة « مجلس الشعب » غائبل « رئيس القافلة » و « رئيس السوق ». وقد ازدهرت الصناعة الوطنية إلى جانب التجارة. وتبههن كتابة أثرية من عام ٢٥٨ م. عن وجود « نقابة لصاغة الذين يصنعون الذهب والفضة » وكانت تتمتع بنفوذ كبير^٣. وما يدلنا على أن الزراعة لم تكن سهلة كلياً اكتشاف سدٍ في العصور الحديثة طوله ربعميل وقد بني بين تلتين لأجل جمع المياه واستخدامها في الري. وكانت النتيجة أن أصبحت تدمر من أكثر المدن ثروة في الشرق القدم.

واستعراض بالتدريج عن أ��اخيها الطينية ببيوت من الحجر الكلسي وانشتئت شوارع عريضة. وكان الشارع الرئيسي يؤدي إلى معبد بعل Bel . وقد اقيمت الأعمدة على طول الشوارع واحتضنت المدينة مظهر مدينة رومانية يونانية مزدهرة. وكان فيها ساحة عامة (آغورا) ومسرح. وكان غناها كافياً لاستئارة جشع أنطونيو الذي أمر الفرسان عام ٤١ ق. م. ببغوها . وكل ما فعله التدمريون حينذاك انهم أخلوا مدینتهم وهرروا حاملين معهم الثمينة عبر الفرات^٤. وكان هذا أول احتلال دون حراودته بين روما وتدمر .

تلدرم كتابة لروم

لم يكن سهلاً لمدينة الصحراء ان تحافظ على سيادتها التامة في وجه النفوذ المتزايد للأمبراطورية الواقعة في غربها . ولا بد أنها في أوائل العصور المسيحية

(١) انظر : R. Pfister, *Textiles de Palmyre* (Paris, 1934), pp. 39 seq., 62.

(٢) انظر : Harold Ingholt, « Tomb in the Syrian Desert », *Asia*, vol. xli (1941), p. 506 ; Grant, *Syrian Desert*, pp. 55, 61, 64.

(٣) انظر : Cooke, pp. 274, 279.

(٤) انظر : Cooke, p. 286.

(٥) انظر : Appian, *De bellis civilibus*, Bk. V, § 9.

كانت قد اعترفت بسيادة روما ودللت على ذلك المراسيم الامبراطورية بين عامي ١٧ - ١٩ م. في عهد طيبيريوس التي كانت تتصل بالرسوم الجركية الخاصة بها ولكن المدينة لم تخل عن استقلالها أبداً. وبيدو انه وصلها في نفس هذه الفترة مقيم روماني يمثل روما وقد سمح لها أحد رعاياها واسم الكسندروروس بان يقوم بهمة من طرف روما لدى سامبسيجراوس امير حصن^١. وقد الحق تراجان مدينة تدمر بالولاية التي اوجدها عام ١٠٦ ومنحها هادريان لدى زيارته في عام ١٣٠ اسم هادريانا بالميلا Hadriana Palmyra^٢ وجعلها تابعة لروما. وقد أصبحت المدن التابعة لتدمر تابعة لروما. وتلقت تدمر في اوائل القرن الثالث حقوق المستمرة من سبتيروس سفيروس او من امبراطور آخر من السلالة السورية الحاكمة في روما. وكانت المدينة تدعى على نقود كراكلا باسم مستمرة Colonia. وبهذه الصفة اعفخت من الرسوم الجركية. وكان امراً طبيعياً ان تعطف اسرة سفيروس على مدينة تدمر. وقد وجدت دعائماً زخرفية كانت مزданة فيما سبق بصورة جوليا ميزا وسائر افراد الاسرة في الساحة العامة (الآغورا) التي حصلت فيها الحفريات في عام ١٩٣٩^٣. وببدأت تدمر والدول التي تدور في فلكها عهداً جديداً من الازدهار الذي دام أكثر من قرن ونصف بعد ان أصبحت تابعة لروما. وكانت الطرق الرومانية تربط روما بدمشق عاصمة سوريا الداخلية وبعدن الفرات^٤ وبالحصون الامامية التي تحمي خطوط الدفاع. وقد كشفت اعمال المسح الجوي الحديثة بقايا مثل هذه الحصون التي تبدأ في منطقة الدجلة وتستمر في كل سوريا وشرق الاردن حتى البحر الاحمر^٥. واخذ المواطنون البارزون في تدمر يضيفون اسماء رومانية الى اسمائهم. واختارت المدينة نفسها تسمية جديدة. واضافت احدى الاسر اسم «سبتيروس»

١) ذكر في ص ٣٦٠.

٢) انظر : Cooke, p. 322.

٣) انظر : Jean Starkey, *Palmyre, guide archéologique* (Beirut, 1941), p. 48.

٤) انظر : Alois Musil, *Arabia Deserta* (New York, 1927), pp. 514-16; do., *Palmyrena*, (New York, 1928), pp. 237-46.

٥) انظر : Antoine Poidebard, *La Trace de Rome dans le désert de Syrie* (Paris, 1934); Aurel Stein, «Surveys on the Roman Frontier in 'Iraq and Trans-Jordan», *Geographical Journal*, vol. xciv (1940), pp. 428-38.

اما اسمها السامي مما يدل على نوامها حق الرعوية في عهد سفيروس ويوجح ان ذلك كان اعترافاً بالخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الدولة الفرتية.

تأتي دور لاوروبس في طليعة المدن التي كانت تابعة لتدمر. وقد استخدمت هذه المدينة كعقل ثانية تجارة تلمس الناشئة. ووُجِدَت فيها بقايا ابنية ذات زخارف نافرة تُمثل جنوداً تدمريين. وكانت الرصافة من المدن المأمة الأخرى الملحة بتدمر وقد دعيت باسم سرجيوبولس *Sergiopolis* فيما بعد بالنسبة لقديسها المحلي سرجيوس. وكان سرجيوس جندياً استشهد حوالي ٣٠٥ في عهد ديوكلينيان وبقي لمدة طويلة القديس المفضل لدى الكنيسة السورية واصبحت مدينته مركزاً هاماً يقصده الزوار وواجدت فيها اسقفيّة^١. وتذكر هذه المدينة باسم رصابة *Rasappa* في كتابة ائرية اشورية تعود الى اواخر القرن التاسع ق. م.^٢. وهي نفس مدينة رزف *Reseph* (يعنى الجبل المتوج) التي هدمها سنحاريب^٣. وقد قدر لهذه المدينة التي اصبح اسمها بالعربية الرصافة ان تلعب دوراً اكثراً اهمية كصيف محبي لدى الخلفاء الامويين.

أسرة اذينة

ارتقىت الأسرة التي كان يتصدر اسمها كلمة سبتموس الى مركز الزعامة في تدمر في منتصف القرن الثالث. والمثال الذي شيد في عام ٢٥١ على شرف عبد الاسرة سبتموس حيران ابن اذينة يدعوه ذعيم «راس» تلمس وعضو مجلس شيوخها الممتاز^٤. ويبعد انه كان اول تسلسي اضاف لقب «راس» الى رتبته الرومانية كعضو في مجلس الشيوخ. ويظهر والده في الكتابات الاثرية بلقب عضو في مجلس الشيوخ فقط وهي رتبة يظن انها منحت له حين زار اسكندر سفيروس مدينة

(١) انظر : Ptolemy, Bk. V, ch. 15, § 24; Procopius, Bk. II, ch. 5, § 29. Musil, *Palmgrena*, pp. 260-68, 299-326.

(٢) انظر : Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch*, p. 77; cf. Dussaud, *Topographie*, pp. 253 seq.

(٣) سفر الملك الثاني ١٩ : ١٢ : اشيا ٣٧ : ١٢ .

(٤) انظر : Chabot, p. 55; de Vogüé, *Inscriptions sémitiques* (Paris, 1868-77), p. 24; Cooke, p. 285; cf. Daniel Schlumberger in *Bulletin d'études Orientales*, *l'Institut français de Damas*, vol. ix (1934), pp. 41-2, 53 seq.

تدرس في عام ٢٣٠ او ٢٣١ عناسبة المزروب الفارسية . ويرجح ان حيران هذا كان والد اذينة المشهور (باليونانية او ديناتوس Odenathus)^١ قارن مع العربية اذينة تصفير اذن)^٢ . ويستدل من اسماء الاعلام بان الاسرة كانت من اصل عربي . ويدعو أحد المؤرخين اليونان اذينة هذا « حاكم العرب » Saracens^٣ . وكان افراد الاسرة يشكلون الجهاز التنفيذي للحكومة التي كانت بيد مجلس الشعب . وكان الاشخاص الذين يستحقون التقدير يكرمون من قبل هذا المجلس .

لم تبدأ تدرس القيام بدور هام في القضايا الدولية حتى زمن حيران . اذ انه في تلك الانتاء كانت قد حل سلالة جديدة نشيطة في ايران مكان السلالة الفرتية القديمة . وكانت هذه السلالة هي الساسانية التي دامت سلطتها من عام ٢٢٧ م . حتى ظهور الاسلام . وفي عام ٢٦٠ اوقع الجيش الساساني في عهد شابور الاول هزيمة سخيلة بالبيوش الرومانية قرب اديسا حتى انت امبراطورها فالريان سقط اسيراً ب ايدي اعدائه وكسب الساسانيون من وراء ذلك شهرة كبيرة . وكان فالريان قد انعم قبل ستين برتقة القنصلية على اذينة^٤ . وامتدت غارات الفرس التالية الى شمالي سوريا ونتائج عنها نهب انتاكية وغيرها من المدن^٥ . وقد هرع اذينة في هذه المعركة على رأس جيش كبير من السوريين وقبائل البدو لانقاذ فالريان . فهزم الفرس على ضفاف الفرات وتبعهم حتى اسوار عاصمتهم برسبوليس واسر بعض افراد الحرم الملكي الا انه لم يتمكن من استعادة الامبراطور السجين^٦ . وقد توفي فالريان في الاسر وحشي جلده وعلق في احد المعابد .

كوفه اذينة في عام ٢٦٢ على ولاته للامبراطور الجديد غالينوس Gallienus ففتح لقب زعيم الشرق Dux Orientis الذي جعل منه ما يشبه نائب الامبراطور على القسم الشرقي من الامبراطورية . وكانت الامبراطورية اذناك في حالة ضعف

(١) انظر : Zosimus, *Historia nova*, Bk. I, § 39; cf. G. Ryckmans, *Les Noms propres sud-sémitiques*, vol. i (Louvain, 1934), p. 41.

(٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 5, § 6.

(٣) انظر : Cooke, p. 286.

(٤) انظر ما ميأني في الفصل ٤٠ و ٤١ .

(٥) انظر : Pollio in *Scriptores historiae Augustae*, Bk. XXIV, ch. 15.

واضطراب لانقضاض العالم البربرى باسره عليها في اوربا وآسيا. وفي ذروة نجاح اذينة اغتيل مع وريثه في احوال غامضة في (٢٦٦ او ٢٦٧) بينما كان يحتفل باحدي المناسبات في حمص. وكان لابن أخيه صلة بالملوأمرة التي يمكن ان تكون روما قد دبرتها. وكان اذينة يتمتع ببنية رياضية قوية مكنته من تحمل المسؤوليات كما امتاز بالمواعيد والفضائل التي يقدرها العرب كثيراً. وظهر كرمه في المآدب الفضفخمة الرائعة وفي رعاية الاحتفالات الدينية وفي هدايا العطورو التي كان يقدمها للجهات العامة.

زنيبيا

ومما يكن فانه يتضاءل كشخصية تاريخية امام ارملته الطموحة الجميلة التي حكمت بعده باسم ولدها الفاصل وهب الالات (وتترجم باليونانية Αιθηνοδόρος Athenodorus^١). وكانت زنيبيا التي تذكرها الكتابات الاثرية التسلرية باسم بنت زبابي Bath-Zabbay (ابنة العطية)- وهي الزباء شبه الحرفافية الواردة في المصادر العربية - مثل زوجها قوية البنية ولكنها نشيطة مولعة بالصيد وركوب الخيل. وكانت خططية اللون ذات اسنان اشبه باللؤلؤ وعيين واسعتين براتين وتعيش حياة الابهة والوقار في بلاط فخم يتبع نظام بلاط الاكسرة. وكانت حاشيتها تحبها بالسبح حسب الاسلوب الفارسي . وفي المناسبات الرسمية كانت تلبس ثوباً من الارجوان موشى بالجلواهر مشدوداً عند الخصر وتترك احد ذراعيها عارياً حتى الكتف. وكانت تركب والحوذة على رأسها في عربة تمش بالاجمار الشفينة. وقد ادعت القرني بزميتها السابقة كلوباترا في مصر ورعت الثقافة اليونانية وكانت هي نفسها تتكلم الآرامية واليونانية وبعض اللاتينية^٢. وبلغ منها انها جمعت تاريخاً للشرق. وكان زينة المفكرين بين رجال بلاطها الفيلسوف لونجينوس . ولكن زنيبيا كانت اكثر طموحاً وتأثراً كحاكمة من كلوباترا . فقد اتسعت الدولة التسلرية في عهدها حتى صارت اشبه بامبراطورية حقيقة اذ شملت سوريا وجزءاً من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة العربية . وفي عام ٢٧٠ سار قائدها زبدة

(١) انظر : Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXIII, ch. 13 ; Bk. XXVI, ch. 38.

(٢) انظر : Bouchier, pp. 144-5.

Zabda الى مصر على رأس جيش قيل ان عدده بلغ ٧٠،٠٠٠ رجل . فخلع حاكماً مقتبساً فيها واقام حامية في الاسكندرية . وسكت التقدّد لأول مرة في هذه المدينة وعلى رأس وهب الالات بجانب رأس اورليان . وفي العام التالي (٢٧١) صدرت تقدّد في الاسكندرية وقد حذف منها رأس اورليان . وكانت زنوبيا قد استنجدت حينذاك بان قوتها كافية لاعلان استقلال ابنها التام . فاختذ لقب «ملك الملوك» . وكان يلقب ايضاً على التقدّد الاسكندرية والانطاكية باوغسطس وتلقب والدته باوغسطا . وقد كتب على احجار المسافات في سوريا اسماء الامبراطور وزنوبيا اوغسطا . واقيم على عمود عال في شارع الاعددة الكبير في تدمر تمثال للملكة في آب من عام ٢٧١ نقشت عليه كتابات اثرية باللغتين اليونانية والتدمرية ولا تزال واضحة حتى اليوم وهذا نصها :

الى سيدتهم سبتيميا زنوبيا اكثـر الملـكات شهرة وتقـوى والـى القـائـدين المـتـازـين بلـقب سـبتـيمـوس وـهـما زـبـدة^١ ، القـائـدـ العامـ ، وزـبـأـي^٢ ، قـائـدـ المـوقـعـ ، في شهر آب من عام ٥٨٢^٣ .

وكان ينتصب بالقرب منه تمثال آخر يحمل كتابة اثرية باللغة التدميرية فقط جاء فيها :

تمثال سبتيموس اذينة ملك الملوك وبحدد الشرق كله وقد شيده القائدان المتازان ، زبدة القائد العام وزبأي قائد جيش تدمر ، لسيدهما في شهر آب من عام ٥٨٢^٤ .

توقع القائدان التدمريان زبدة وزبأي قيام روما باموال عسكرية . فتوغلا في

١) قارن مع زَبَدَ في سفر اخبار الایام الاول ٧ : ٢١ : وهي كلمة من اللغة العربية الجنوبية تعني « هو (الله) اعطي » . اظر : Ryckmans, vol. I, p. 83 . وكلمة وَهَبَ في اللغة العربية الشامية لها نفس المعنى .

٢) لها صيغة من الكلمة زَبَدَ Zabday وهي شبيهة بكلمة زَبَدَ . انظر عزرا ١٠ : ٢٨ . خميسا ٣ : ٢٠ .

٣) هذا التاريخ هو بالنسبة للعمر السلوقي الذي يبدأ في ١ تشرين الاول عام ٣٦٢ ق.م؛ اظر : J. Cantineau, *Inventaire des inscriptions de Palmyre*, fasc. i (1930), p. 27.

٤) اظر : Starcky, p. 49 ; cf. Chabot, p. 56 ; de Vogüé, pp. 28-9 ; Cooke, pp. 290-93 ; Cantineau, fasc. i, p. 25.

داخل آسية الصغرى واقاما الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى انكيرا Ancyra (انقرة)؛ وقد شعرت حتى خلقدنية التي تقابل بيزنطة بوجود جيوشهم^١. وهكذا استطاعت مملكة البايدية ان تشكل لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من الرومان. وكانت امبراطورية قصيرة الاجل الا انها سبقت امبراطورية الامويين باربعة قرون.

تدمر في ايامها الاخيرة

واخيراً تحرك الامبراطور الروماني اورليان (٢٧٥ - ٢٧٠) الذي اعاد بقعة بأسه النظام الى الامبراطورية بعد فترة من الاضطراب تمييزت بجهات الفرجنة والالمان والقوط وكذلك الفرس. وفي اوائل عام ٢٧٢ اخضع اورليان الحاميات التدميرية في آسية الصغرى ثم تابع مسيره لاحتلال سوريا. ولم تظهر انطاكية التي كانت مع سلوقية موالية للرومان سوى مقاومة ضئيلة؛ اما حمص التي كان يضرر سكانها الحسد تدمر بسبب الاسمية التي تدعىها فقد احتللت بعد بعض المقاومة. وانسحبت زنوبيا وزبادة الى تدمر^٢ بعد ان تفوقت فرق الفرسان والمشاة الخفيفة التابعة لاورليان بتحرر كلها على فرق فرسانها التقيلة. واصبحت طريق البايدية المؤدية الى العاصمة مفتوحة الان امام العدو المهاجم. وتمهل اورليان في حمص لاقامة مذابح جديدة لله الشمس الاكبابليس^٣ وبني في طريق عودته الى روما معبداً خاصاً له كانت عارس فيه الطقوس السورية.

حاصر اورليان مدينة تدمر وعززت قواه بجيوش مصرية الا ان زنوبيا لم تلق اي مساعدة حتى ولا من بلاد فارس. وكان التدمريون يقذفون المهاجمين بالحجارة والنبل وكرات النار. وقد رفضت الملكة في البدء الشروط المعبدة للامتناع التي قدمها اورليان ولكنها ادركت انها تحارب معروفة خاسرة وحاوت انقاذ نفسها بالمرقب ليلاً على هجين سريع. وقد ادركها الحيلة الذين كانوا يلاحقونها بينما كانت تحاول عبور الفرات^٤. وكان ابنها قد سقط قتيلاً في الدفاع عن مدinetه.

(١) انظر : Mommsen, *Provinces of the Roman Empire*, vol. ii, p. 107.

(٢) انظر : Zosimus, Bk. I, § 52.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٨١.

(٤) انظر : Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXVI, ch. 28.

ولم يكن امام تدرس سوى الاسلام. فجردها الفاتح من مصنوعاتها الفنية وزخارفها الثمينة التي اخذ بعضها لتزين معبد الشمس الجديد في روما. واقتصر عقاب السكان على فرض غرامة عليهم وتعيين حاكم روماني مع عدد من الرماة.

واعدم لوبيجينوس مع غيره من مستشاري زنوبيا في حمق لتشجيعه الملكة على التخلص من الوصاية الرومانية . وما كاد اورليان يصل الى الملسوبونت في طريق عودته (او اخر ٢٧٢) حتى سمع بثورة جديدة في تدمر ادت الى اغتيال حاكمه والتغلب على حامية المدينة^١ . فهرع راجعاً وفاجأ المدينة فهدىها واعمل السيف في سكانها . وقد سلم معبد بعل . اما زنوبيا فاخذت الى روما مع احد ابنائها^٢ . وسارت محظة بالجواهر ومقيدة بسلام ذهبية فازدان بها موكب اورليان عند دخوله المظفر الى عاصمه في ٢٧٤ . وقدمن لها دار خاصة قرب تيبور (تيفولي) حيث امضت بقية سني حياتها . وتزوجت هناك من روماني على ما يرجح وانجذبت اولاداً^٣ .

زالت اهمية تدمر باستثناء فترات قصيرة في عهد ديو كليتيان (٣٠٥ - ٢٨٤) ويوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ثم دخلت بالتدريج في عالم النسيان . وبالرغم من الاشارة اليها بصورة عرضية كمركز اسقفي فان الصحراء تغلبت على سكانها حين فدوا سيطرتهم على تلك الصحراء . وكان هذا من الامور المعتادة . وسكن جميع اهلها في المصور الحديثة داخل بقايا المعبد القديم الذي كان طيناً لمجدها القديم ويشرف هذا المعبد على الآثار الرائعة لمدينة اجدادهم . وفي عام ١٩٢٩ اجلى الفرنسيون السكان من المعبد وابتداوا لهم قرية عصرية بجانبه . وقد بني ايضاً مطار حربي ونكتنات لغوفة المجانة في ذلك الموقع .

البقايا الاثرية

تعتبر اليوم آثار تدمر من اكثرا المناظر جللاً في الصحراء . وهي تمذب هواة الآثار من جميع انحاء العالم وتقتنهم . وقد تحول معبد بعل الذي يقوم على سطح مرتفع الى ما يشبه المتحف . ووُجِدَت فيه اشكال نساء محجبات وهن يساهمن في

١) انظر : Zosimus, Bk. I, § 6.

٢) انظر : Zosimus, Bk. I, § 59.

٣) انظر : Pollio in Scriptores, Bk. XXIV, ch. 27.

احتفال ديني . وامام المعبد ينتصب قوس اثري يبدأ عنده شارع الاعمدة الكبير . وكان هذا الشارع المعمد الذي يبلغ طوله ١٤٠ يودة يشكل المحور الرئيسي للمدينة وتتفرع منه شوارع ثانية . ولم يسلم من اعمدته البالغة ٣٧٥ عموداً او اكثر ، ارتفاع كل منها ٥٥ قدماً ، سوى حوالي ١٥٠ عموداً بعضها سليم وبعضها مهش . وغالبية هذه الاعمدة من الحجر الكلسي الايضn الوردي اللون ولها تيجان كورنثية . وببعضها من الفرائين المنقط بالازرق بما يدل على اصل مصرى (من اسوان) . وقد تضمنت الاعمدة دعائم زخرفية مزданة بتأليل شيدت على شرف المواطنين الجديرين بالتقدير ويعتبر ذلك من خصائص البناء التدمرى . والتأليل النصفية التدمرية هي عادة تأليل امامية وليس جانبيه وتظهر عيوناً مفتوحة واسعة وتحمل كتابات اثرية فوق الكتف . ويظهر افراد الاسرة المالكة والطبقة الارستقراطية مرتدین للداء اليوناني بينما يظهر عامة الشعب بلباس الفرتين^١ . وقد وجد عثال ساقٍ يرتدي لباساً فرتياً كما وجد شكل آخر يضع شملة رومانية .

ومن خصائص الآثار التدمرية ايضاً القبور او «بيوت الابدية» على حد تعبير التدمرىين^٢ . وتنتصب خارج المدينة كأبراج عالية وتتألف من غرف موزعة على عدة طوابق ومزخرفة من الداخل بالالوان والصور المنحوتة للموتى . وفي دورا اوروبس عدد قليل من القبور على شكل ابراج .

تعتبر الزخارف المنحوتة في تدمر^٣ ودورا اوروبس ذات اهمية خاصة بالنسبة بتاريخ الفن . اذ انها تقيد في سدّ التغرة بين الفن السامي القديم في بابل واشور وفيتنيقية وبين الفن المسيحي . ويمكن ان نتتبع من خلالها بدايات التأثيرات الشرقية على الرسوم الرومانية اليونانية بما مهد الطريق لظهور الفن البيزنطي .

اللغة

كانت الحضارة التدمرية حضارة غريبة فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية

(١) راجع لأجل الامنة على ذلك : Henri Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 2 (Paris, 1938), pp. 51 seq.

(٢) انظر : Harold Ingholt, « Five Dated Tombs from Palmyra », *Berytus*, vol. ii (1935), pp. 60, 109.

(٣) راجع : Harold Ingholt, « Quelques Fresques récemment découvertes à Palmyre », *Acta Archaeologica*, vol. iii (1932), pp. 1-20.

وفارسية . ولا شك ان السكان الاصليين كانوا قبائل عربية وقد تبنوا في كلامهم وكتابتهم اللغة الآرامية السائدة . وبقيت اكثريه السكان عربية رغم املاجها بالأراميين . ولا تعود الكتابات الآثرية الى اقدم من ٩ ق. م. حين كانت المدينة في



والد تدمري وأولاده الثلاثة حوالي ١٧٠ م.

يلو والد بدون لحية ويرأس مكشوف يملأ آنية في يده اليسرى وبعض البلح او الموز في يده اليمنى . ويمسك ابنه الواقف بين الابنتين عصقاً بيده اليسرى وعنقود عنق باليد اليمنى وتضيق الابتنان تقليلاً لا ينطلي الوجه . والكتابية قرب يد الرجل اليسرى تذكر انه : زيديبول بن مقيمون بن نوريبل بن زيدون بن عبدادي (بن زيدي) بول . واسمه الاولاد من اليمن الى اليسار هي : تدمر ابنته ، مقيمون ابنه ، علية ابنته .

طريقها لان تصبح مركزاً تجاريًّا مشهوراً . والكتابة التدميرية الدارجة التي كانت بالاصل كتابة سكان سورية السلوقيه الذين يكتبون بالأرامية في القرن الاول ق. م. لم تنشأ عنها اي اختلافات جذرية . وكانت الترارات العامة توضع باللغتين اليونانية والأرامية . وقد سهل وجود الكتابة اليونانية قراءة الكتابة الآرامية .

ووُجِدَتْ أَحَدُ الْكُتُبَاتِ الْأَثِيرِيَّةِ التَّدْسِيرِيَّةِ فِي هَنْفَارِيَا وَكِتَابَةً أُخْرَى فِي بَرِيطَانِيَا الْعَظِيمِ . وَالْكِتَابَةُ الْأَثِيرِيَّةُ الْأَنْكَلِيزِيَّةُ تَرَكَهَا أَحَدُ التَّدْسِيرِيِّينَ وَكَانَ قَدْ تَرَوَجَ اِمْرَأَةُ انْكَلِيزِيَّةٍ وَصَنَعَ لَهَا مَتَالًا . وَكَانَ الرُّومَانُ يَسْتَعْدِمُونَ الرَّمَاءَ التَّدْسِيرِيَّةَ فِي اِمَاكِنٍ بَعِيدَةٍ مُثْلِ مَرَاكِشَ وَبَرِيطَانِيَا .

كَانَتِ الْهَجَةُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا التَّدْسِيرِيُّونَ تَقْصُلُ بِالْلُّغَةِ الْأَرَامِيَّةِ الْقُرْبِيَّةِ وَلَيْسَ بِالْلُّغَةِ الْأَرَامِيَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ (لُغَةُ اِدِيسَا) . وَكَانَتِ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسُ الْهَجَةِ الْمُسْتَعْدِمَةِ فِي سُورِيَا وَبِلَادِ الْأَنْبَاطِ وَتَدُسِّرِ وَلَا تَخْتَلِفُ عَنِ الْهَجَةِ الَّتِي تَكَلَّمُ بِهَا الْمُسِيحُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّبِيقَةَ الْمُتَقْفَةَ كَانَتْ تَتَكَلَّمُ بِالْيُونَانِيَّةِ زِيَادَةً عَلَى الْأَرَامِيَّةِ وَيُظَنُّ أَنَّ رِجَالَ الْأَعْمَالِ كَانُوا يَفْهَمُونَ الْلُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ كَمَا كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ بَعْضَ التَّدْسِيرِيَّينَ كَلْفَةَ دَارِجَةٍ .

لونجينوس

لَمْ يَنْبُغِي فِي تَسْعَرٍ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ الْفَكْرِ التَّسْبِيزِيِّينَ سَوْيَ دِيُونِيسِيوسَ كَاشِيوسَ لَوْنِجِينُوسَ . وَيَوْجِحُ أَنَّهُ مِنْ مَوَاطِنِي حَمْصَ وَقَدْ دَرَسَ أَوْلَى فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِنْ ثُمَّ فِي اِثِينَةَ حِيثُ كَانَ مِنْ تَلَامِيذِهِ بُورِفِيرِيوسُ الْمُشْهُورُ^١ . وَكَانَتْ اِمَهُ سُورِيَّةُ وَعَرَفَتِ الْلُّغَةَ السِّرِيَّةَ^٢ . وَكَانَ مِنْ مَعَاصِرِيِّهِ اِيلِيُّوسُ الْأَفَامِيُّ^٣ . وَيُعَتَّبُ هَذَا الْفِيلُوْسُوفُ التَّدْسِيرِيُّ فَرِيدَأً فِي عَصْرِ كَثُرٍ فِيهِ مُنْتَقِّوِ الْكَلَامِ وَالْمَرَاوِغُونَ التَّرَاثَارُونَ الْحِيَالِيُّونَ . وَبِلِفَنْ منْ سَعَةِ مَعْلَوْمَاتِهِ أَنَّ وَصْفَهُ أَحَدُ مَعَاصِرِيِّهِ بِأَنَّهُ «مَكْتَبَةُ حَيَّةٍ وَمَتْحَفٌ مُمْتَنَقُلٌ»^٤ . وَلَوْنِجِينُوسُ هُوَ الَّذِي عَلَمَ زَنْبِيلَيَا الْأَدْبُ الْيُونَانِيَّ وَاصْبَعَ مَسْتَشَارَهَا بَعْدَ ذَلِكَ . وَلَسَوْءِ الْحَظِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ مَؤْلِفَاتِهِ سَوْيَ بَعْضِ الْفَقَرَاتِ وَالْمُقْطَفَاتِ^٥ . وَتَرَيْنَا هَذِهِ بِأَنَّهُ قَدْ بَقِيَ وَثَنَيَا رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَنَاوِئًا لِلْيَهُودِيَّةِ أَوِ الْمُسِيَّحِيَّةِ . وَتَحْمَلَ القَتْلَ عَلَى يَدِي الرُّومَانِ بِرَبَاطَةِ جَائِشٍ وَبِشَاشَةِ حَرِيتَنِ بِرَجْلِ مِنْ مَسْتَوِيِّ سَقْرَاطَ^٦ .

١) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

٢) انظر : Vopiscus in Scriptores, Bk. XXVI, ch. 30.

٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

٤) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

٥) لَمْ يَتَأْكُدْ بَعْدَ فِيَا إِذَا كَانَ لَوْنِجِينُوسُ هَذَا هُوَ لَوْنِجِينُوسُ كَالْبُ قَطْمَةُ «حَوْلَ السُّوْلَ On the Sublime» الَّتِي لَا تَرَالُ فِي الْمَاهِيَّةِ الْجَامِسِيَّةِ الْأَنْكَلِيزِيَّةِ .

٦) انظر : Zosimus, Bk. I, § 56.

الألهة التلمسانية

تألفت مجموعة الألهة التلمسانية من عدد متتنوع من الألهة من سوريا وبلاد العرب وفارس وبابل . وكان بعضها يحمل اسماء لاتينية اضافية . ولم تختلف الديانة في جوهرها عن ديانة سوريا الشمالية وصحرائها . وكان بعل صاحب السيطرة العظمى . ولم يكن الماً شمسيّاً عاماً بل الماً كونيّاً من أصل بابلي يعادل مردوخ . وكان يهمن على مصير الإنسان كما كان مسؤولاً عن الألهة السماوية . وقد كرس المعبد الكبير له . واعتبر معادلاً لزفس فيما بعد . وقد كرس معبد آخر في تلمر للله بعل شمين (سيد السموات)^١ . وتحلّد ذكرى هذا الأله قرية في لبنان تدعى بعلشيمه . وكانت له كما كان بعل معبد في دورا حيث يذكر اسمه في كتابة أثرية من عام ٣٢ م تتعلق بندر^٢ . وقد وجدت في تلمر عدة مذابح مكرسة لشمس (سمس ، الشمس) . ونظهر هذه الألهة الشمسيّة أحياناً إلى جانب بعل مع الأله القربي في الجانب الآخر . وكان اسم إله القمر عجيلى بول Agli-bol ، (عجل بعل)^٣ . وينظر في بعض الاشكال بهلال على كتفيه^٤ . ولا بد أن يرخي بول Yarkhi-Bol كان الماً قريباً أيضاً بدلالة القسم الاول من اسمه ولكنـه كان الأله الذي يقدم النبوات بما يجعله مساوياً لأبولون . وكان ملاك بعل Malak-bel الأله الرسول ويعادل هرمس . وقد وجد مذبح يستحق الاهتمام مكرس « للله المجهول الصالح والرحيم »^٥ .

وبين الكتابات الأثرية عدة تكرييات دينية إلى أرسو^٦ Arsus وعزیزو^٧ Azizu

(١) راجع : Chabot, p. 43 ; Henri Seyrig, « Antiquités syriennes », *Syria*, vol. xiv (1933), pp. 246 seq.

(٢) انظر : Du Mesnil du Buisson, *Inventaire des inscriptions palmyréniennes de Doura-Europos* (Paris, 1939), pp. 13-14 ; Chabot, pp. 43, 73-5 ; Rostovtzeff et al., *Excavations at Dura-Europos*, vols. vii-viii, pp. 299 seq., pl. xxxvii.

(٣) انظر : Chabot, pp. 71-3 ; Cooke, pp. 269, 301-2 ; de Vogüé, p. 93.

(٤) انظر : Chabot, p. 65.

(٥) انظر : Harold Ingholt, « Inscriptions and Sculptures from Palmyra » *Berigtus*, vol. iii (1936), P. 92 ;

قارن مع أعمال الرسل ١٧ : ٢٣ .

(٦) تذكره كتابات الصفا باسم رادو Radu يعني رضي ، رحمة . انظر في من ٣٣١ .

(٧) انظر : Bergius, vol. iii (1936), pp. xxiv, 2.

ويدل اسمها على أصل عربي . ويوصف الاتسان « بالآلهين الصالحين المكافئين »^١ . وكان عزيزو يعبد أيضاً في اديسا وفي حوران بلاد الفساسنة . وكانت الآلات التي يؤلف اسمها القسم الأخير من اسم آخر ملوك تدرس الآلهة الرئيسية في الجبيرة العربية^٢ . وكانت تعبد أيضاً في بلاد الفساسنة . وهناك آلهة أخرى في مجموعة الأمة التدميرية تسمى عثر عنده Athar-atheth^٣ ، (اثار غاتس) الآلهة الآرامية التي كانت مركز عبادتها الرئيسي في هيرابولس^٤ . وقد كرس مذبح بناء أحد الانباط في تدمر (١٣٢ م) إلى الآله النبطي شيشع القوم Shay-al-Qaum (الذي يرافق او يحمي الناس) . ويبعدوا انه كان الحامي الخاص للقوافل . ويوصف الآله بأنه « الذي لا يشرب الماء »^٥ .

٣ - الفساسنة

تؤكد المرويات انه حوالي نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة التدميرية آخذة بالزوال كانت احدى القبائل العربية الجنوبية تشق طريقها الى حوران . وهؤلاء هم بنو غسان الذين ينسب سبب دخيلهم عن اليمن الى تدمر قديم في سد مأرب^٦ . وفي حوران صادفوا سكاناً من العرب اتوا قبلهم ومم الضجاع من قبيلة سليم وقد حلووا مكانهم كحكام على المنطقة في ظل السيادة الرومانية . وتنصر الفساسنة خلال القرن الرابع^٧ . وكان مؤسس سلالتهم شخص يسمى جفنة ابن عمرو وزميقاه الذي لا يعرف تاريخه بوجه التأكيد . وفي الحقيقة ان تاريخ السلالة الجفنية بكلمه غامض . وفي التواريخ العربية مختلف عدد الملوك بين احد عشر واثنين وثلاثين^٨ . وتهم

(١) انظر : Chabot, p. 69.

(٢) القرآن سورة ٥٣ : ١٩.

(٣) انظر : Cooke, p. 268.

(٤) راجع : Chabot, pp. 67-8 ; Cooke, pp. 304-5.

(٥) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 64-5.

(٦) وترجع بعض الاسر المسيحية التي تعيش اليوم في سوريا وبنان مثل آل الملوف وأآل عطية باصلها الى الفساسنة .

(٧) انظر : ابن قيسة ، المعرف ، نشره : F. W. Wüstenfeld (Gottingen, 1850), pp. 314-16;

التاريخ البيزنطي بصورة رئيسية بعلاقتهم مع القسطنطينية . ولا يعرف بشكل كافٍ سوى تاريخ الملوك المائة الآخرين الذين شمل حكمهم القرن الذي سبق الإسلام .

الحارث بن جبلة

كان أول هؤلاء الملوك وأعظمهم الحارث بن جبلة^١ (حوالي ٥٢٩ - ٥٦٩) الذي يظهر لأول مرة عام ٥٢٨ وهو يحارب المنذر الثالث^٢ اللخمي ملك الحيرة . والخمسون وأصلهم أيضاً من جنوب الجزيرة العربية كانوا يسكنون على طول الحدود الغربية لامبراطورية الفارسية واستخدمو كدولة حاجزة بنفس الطريقة التي استخدم البيزنطيون بها الفساسنة . واعتراضًا بخدمات الحارث فقد عينه الامبراطور يوستينيان في العالم التالي سيداً على كل القبائل العربية في سوريا ومنحه لقب فيلارك (رئيس قبيلة) Phylarck وبطريق Patricius . وترجم العرب هذه اللقب بمعنى «ملك» . وربما اعتبر ملوك الفساسنة أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط .

ولما كانت الحارث موالياً للعرش البيزنطي فقد استمر في صراعه ضد الخمين وساهم في إخماد الفتنة السامرية كما حارب في الجيش البيزنطي تحت أمرة بليساريوس في بلاد ما بين النهرتين^٣ . وفي عام ٥٤٤ أسر المنذر أحد ابناء الحارث وقدمه ضحية

C. B. de Meynard and P. de Courteille, *مروج الذهب* ، نشره وترجمه :
vol. iii (Paris, 1864) pp. 217-21 ;

Gottwaldt (Leipzig, 1844), *جزء الأصفهاني* ، تاريخ سبي ملوك الأرض والآباء ، نشره :
pp. 115-22 ;

تاریخ ای الفداء (القسطنطینیة ۱۲۸۶) جزء ۱، ص ۷۶ - ۷۷ .

قارن مع : Th. Noldeke, *Die Ghassanischen Fürsten ans dem Hause Gafna's* (Berlin, 1887), pp. 52-60 ; tr. Pendali José and Costi K. Zurayk, *The Princes of Ghassan from the House of Gafna* (Beirut, 1933), pp. 57-67.

١) يشار اليه أحياناً باسم الحارث الثاني لتمييزه عن جده الحارث بن ثعلبة وهو من أحفاد جندة ويعيه المؤرخون العرب «الأعرج» .

٢) يذكره المؤرخون اليونان باسم Alamoundaros ويدعوه Procopius, Bk. I, ch. 17 .
. Gabalas §, 47. باسم Alamoundaras حيث يحمل اسم الحارث ابن Aretas .

Procopius, Bk. II. 16§5; Malalas, ed. Dindorf, p. 435.) ٣) انظر :

للاملاحة العزى التي تقابل افروديت^١. وانتقم الحارث لنفسه بعد عشر سنوات في معركة حاسمة جرت قرب قنسرين (خالكليس) حين قتل عرينه الخمي . ويرجع ان هذه المعركة هي المشهورة في التواريخ العربية باسم معركة حليمة بالنسبة لابنة الحارث التي يقال انها بيدتها دهنت جنود ابيها بالطيب قبل دخولهم المعركة^٢. وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة لبلاط يوستينيان حيث ترك تأثيراً عيناً على افراد الحاشية كشيخ بدوي سهيب^٣ . وكان موظفو البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون ان يهدئوا الامير المعتوه يوستين وهو ابن اخ يوستينيان ووريشه يكتفون بالقول : «اسكت ! والا استدعينا الحارث»^٤.

حصل الحارث اثناء وجوده في القسطنطينية على تعين يعقوب البرادعي استقراً على الكنيسة المونوفيزية السورية . وقد انتشرت العقيدة الجديدة في سوريا كلها اثناء حكمه وحكم ابنته . ويقال ان يعقوب رسم مائة الف كاهن ونصب تسعة وعشرين استقراً في تلك البلاد . ووصلت المملكة حينذاك ذرورة ا ساعتها اذ كانت تتد من قرب البتراء الى الرحافة شمالي تلمس وتشتمل على البلقاء والصفاء وحران . واصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ العاصمة الدينية في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجاري . وتقول الروايات الاسلامية ان النبي محمد^ص بها هو وقائلته وهناك اطلع على الكثير مما عرفه عن المسيحية . اما بشأن العاصمة السياسية

(١) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 28, § 13.

(٢) انظر : ابن الاتير ، الكامل في التاريخ ، نشره : C. J. Tornberg, vol. i (Leyden, 1871), p. 400.

ابن قتيبة ، ص ٣١٤ - ٣١٥ ؛ قارن مع تاريخ أبي الفداء ، جزء ١ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر : Theophanes, *Chronographia*, ed. C. de Boor (Leipzig, 1883), p. 240.

(٤) انظر : John of Ephesus, *Ecclesiastical History*, ed. William Cureton (Oxford, 1853), p. 151; tr. R. Payne Smith (Oxford, 1860), p. 174.

(٥) احتل هذه المنطقة البركانية قبل هذا المعر جادة من العرب الذين تركوا حوالي ستة آلاف كتابة اثيرة وبناء اثري عليها اشكال خيالية يحملون الرماح ويصطادون الفزان . وبنـة تر الكتابات الاثرية يـعن Yth' (وهو لـبن سـوى يـشـوع في البرـائية 'Yeshūa' ، ويشـوع في الـآرامـية 'Yeshū' ، ويسـوع فيـالـبرـيرـية) والـلاتـواـشـة . وقتلـ، حـسبـ وجهـةـ النـظرـ المـقـبـولةـ ، معـ الكـتابـاتـ الـجيـانـيةـ وـالـنمـوذـجـةـ اـمـتدـادـاـ الـشـهـالـ ، اللـغـةـ الـمـرـيـةـ الـجـنـوـيـةـ . انـظرـ : F. V. Winnett, *A study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto, 1937), pp. 53-4 ; René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907), pp. 66-7, 151.

لآل جفنة فيبدو أنها كانت في البدء مخيمًا منتقلًا ثم استقرت بعد ذلك في الجاية^١ في منطقة الجولان كما كانت أيضًا بعض الزمن في جلق^٢ في جنوب حوران.

المذدر

خلف الحارث ابنه المذدر (حوالي ٥٦٩ - ٥٨١) في نحو نفس الوقت الذي ولد فيه النبي محمد. وسار الابن على خطى أبيه فدعم قضية المونوفيزية وحارب اللخميين أتباع فارس. ولكن حماسه للمذهب الذي يعتبره يزينة غير متفق مع الديانة الرسمية باعدت بينه وبين يوسفين الذي بلغ منه ابن ارتا بـ بولاته السياسي. ولذلك كتب الامبراطور رسالة إلى حاكمه في سوريا يأمره فيها بالخلص من المذدر ولكن الكاتب اخطأ فوجهها إلى المذدر نفسه عوضًا عن الرسالة التي يجب أن توجه إليه والتي يطلب فيها الامبراطور منه أن يتفضل بزيارة الحاكم للتشاور معه. وبعد فترة من الجفاء تمت تسوية الأمور وقام الزعيم الفسافي مع ولديه بزيارة القسطنطينية (٥٨٠) واستقبل بحفاوة من قبل الامبراطور الجديد طيبريوس الثاني. وبلغ من الامبراطور ان استبدل الرمز الذي يضعه المذدر على رأسه بالناج. وأحرق المذدر في السنة ذاتها الحيرة عاصمة اللخميين^٣. وبعد سنتين حين كان يحضر حفلة تدشين كنيسة في حوارين استجابة لدعوة تلقاها من حاكم سوريا قبض عليه وأرسل مع زوجته وتلاته من أولاده إلى القسطنطينية ومنها إلى صقلية. وقطعت المساعدة السنوية عن آل جفنة منذ ذلك الحين وانتهت جميع العلاقات الودية.

الفوضى

ووجهت عدة غزوات بقيادة العمان، الابن الأكبر للمذدر، من البادية على سوريا الرومانية. وخدع العمان نفسه أخيراً (حوالي ٥٨٤) كما خدع أبوه من قبله

١) انظر : 332-3 Dussaud, *Topographie*, pp. لا يزال الباب الفري لمعشق يعرف بهذا الاسم حتى اليوم.

٢) لها الكسوة على بعد ١٠ أميال جنوبي دمشق. انظر : Dussaud, *Topographie*, pp. 317-18; Leone Caetani, *Annali dell'Islām*, vol. iii (Milan, 1910), p. 928.

٣) قارن مع الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، نشره ١٨٧٩- ١٨٩٠ M.J. de Goeje vol. i (Leyden, 1879- 1890), p. 1021 . ابو الفرج الاصفهانى ، الاغانى ، جزء ٢ (بولاق ١٢٨٥) ص ٢٧

ونقل الى القسطنطينية . وبهذا غزت رابطة الفسasseة القومية . وتجزأت المملكة الى اقسام متعددة يرأس كل منها امير كبير او صغير من سكنها . وقد تختلف بعض الامراء مع دولة الفرس وحافظ البعض الآخر على استقلاله بينما يقى البعض الآخر بجانب بيزنطة . وعند هذا الحد يفقد الاخباريون اليونان كل اهتمام في الموضوع وتبقى التواريخ العربية مشوشه . وبقيت الفوضى سائدة حتى فتحت الدولة الفارسية سورية في ٦١١ - ٦١٤ .

ويحتمل ان يكون هرقل قد اعاد السلالة القديمة حين طرد الفرس من البلاد بعد اربع عشرة سنة . وقد جاء انه في حروب الفتح الاسلامي كانت قبائل دوله الفسasseة السابقة تحارب بجانب بيزنطة . وحارب آخر امراء الفسasseة ، جبلة ابن الاهيم ، في عام ٦٣٦ ضد الفاتحين المسلمين في معركة اليرموك^١ الخامسة ولكنه اعتنق الاسلام فيما بعد . ويروى انه اثناء حجه الاول وطأ بدوي عباءته فصفعه على ازاره فحله جبلة ، فشكاه الى الخليفة فحكم الخليفة بان على الامير اما ان يقييد البدوي او يرضيه ، فما كان من جبلة الا ان ترك الدين الجديد وانسحب الى بيزنطة^٢ .

ابهة بلاط الفسasseة

لقد خلدت فخامة بلاط آل جفنة في دواوين عدد من شعراء الجاهليّة الذين وجدوا في امرائهم حماة اصحابه . وكان احد هؤلاء الشعراء النابغة النباني المشهور . وبعد ان تخاصم مع اللخميين نال عطف الفسasseة وثقهم واغدقوا عليه الكثير من نعمهم . وكان يرد على ذلك بالتفني بذاتهم . ويجد في احد ابيات الشعر التي يستشهد بها كثيراً اقادتهم في المحراب حيث يقول :

ولا عيب فيهم غير ان سيفهم بهن قلول من قراع الكتائب^٣

(١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، نشره : M. J. de Goeje, (Leyden, 1866), p. 136; نشره : tr. Philip K. Hitti, *Origins of the Islamic State* (New York, 1915), pp. 208-9.

(٢) انظر : ابن عبد ربه ، المقد الفريد (القاهرة ١٣٠٢)، جزء ١، ص ١٤٠ - ١٤١ .
قارن مع ابن قتيبة من ٣٦٦ .

(٣) انظر ديوان النابغة النباني ، نشره : M. Hartwig Derembourg (Paris, 1869), p. 78; cf. Charles J. Lyall, *Translations of Ancient Arabian Poetry* (New York, 1930), p. 96.

وقد امضى شاعر المدينة حسان بن ثابت قبل ان يصبح شاعر النبي اياماً سعيدةً في بلاط الفسasseنة وكان يدعى صلة القرفي معهم . ونأخذ لمحه عن حياة الترف التي كان يعيشها جبلة ابن الاهم من وصف ينسب لحسان بن ثابت في كتاب الأغاني^١ وقد جاء فيه :

لقد رأيت عشر قياد خس روميات يقين بالبروباط وخس يقين غلاء اهل الحيرة... وكان يهد اليه من يقنه من العرب من مكة وغيرها وكان اذا جلس للشرب فرش تخته الاوس والياسين واصناف الرياحين وضرب له العبر والمسلك في صحاف القضية والنذهب واتي بالسلط الصحيح في صحاف القضية واوقد له العود الندى ان كان شاتياً وان كان صائفاً بطن بالثلج وأتي هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراء الفنك وما اشبهه ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلم على "ثيابه التي عليه في ذلك اليوم".

ويقال عندما اعتنق جبلة الإسلام ودخل مع حاشيته بوكب حافل الى المدينة كان يضع على رأسه تاج اجداده ترينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قرطباً لام الحارث ابن جبلة^٢. وقد اصبح يضرب المثل في الأدب العربي بهاتين اللؤلؤتين اللتين يبلغ حجم الواحدة منها بيضة الحامة^٣.

ان مثل هذه الاخبار بالرغم مما فيها من مبالغة تدل على حالة اقتصادية مزدهرة . ولا بد ان الفسasseنة اتقنوا الفنون الضرورية للاستفادة التامة من مياه الامطار واستئثار اليابس الجوفية وهي فنون اكتسبها السوريون في العصر الروماني واضاعوها بعد ذلك . وتشهد على هذا بقايا ما يقرب من ثلاثة مدينة وقرية على المتحدرات الشرقية والجنوبية لخواران^٤ . وبها يمكن قراءة ما يفوق ذلك اهمية هو

(١) انظر الأغاني ، جزء ١٦ ، ص ١٥ . مع ان الوصف مشكوك بصحته الا انه بدون شك مبني على تفاصيل الشاعر . قارن مع ديوانه الذي نشره : Hartwig Hirschfeld (Leyden, 1910), pp. 16-17, 45, 55 ;
القدر الفريد ، جزء ١ ، ص ١٤٢ .

(٢) قارن مع : Reynold A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, 2nd ed. (Cambridge, 1930), p. 53.

(٣) وتدعى في الأغاني ، جزء ١٤ ، ص ٤ «ماربة» التي يمكن ان تكون بتأثير الأكرامية لقباً يقابل سيدة اكثر منها اسم علم وربما يكون اسم هذه السيدة ماوية كما في الأغاني جزء ١٦ ، ص ١٠٣ .

(٤) انظر الميداني ، مجمع الامثال (القاهرة ١٣١٠) جزء ١ ، ص ١٥٦ .

(٥) انظر ما سبق في اواخر ص ٤٥ .

ان الفاسنة قد نقلوا كأسلافهم الانباط بعض عناصر اساسية في الحضارة السورية الى اقربائهم الاصليين في الجزيرة العربية وخاصة الحجاز مهد الاسلام في المستقبل. وقد اعطى الانباط تلك الظروف التي جعلت كتابة لغة القرآن ممكنة^١. وقبل ان يزول الفاسنة نقلوا بعض الافكار المسيحية التي كان لها تأثيرها مع بعض افكار اخرى على الاسلام. وهكذا زودت الحضارة السورية الاسلام ببعض العناصر المبدعة كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل. وبالاضافة الى ذلك فان هذه الدول السورية الواقعة على الحدود ذات الاصل العربي وآخرها دولة الفاسنة قد مهدت الطريق نوعاً ما لفتح العرب لسوريا في المستقبل تحت راية الاسلام. وكانت هذه الدول بثابة مقدمة للاحاديث الضخمة التي حصلت بعد قليل.

١) راجع ما جاء بشأن الانباط في ص ٤٢٧ .

فَلَرْسِمْ رُوسِلْرِسِيَّة
ولبْلَنَانْ وَفَلَسْطِين

نَاسِخُ سِرِّيْلَتْرَا

ولبنان وفلسطين

تأليف

الدكتور فيليب جتي

أبخرذ الثاني

أشرف على مراجعته وتحقيقه
الدكتور جبرائيل جبور

ترجمة

الدكتور كمال الميازجي

دار الثقافة - بيروت



This is an authorized translation of
HISTORY OF SYRIA

BY

PHILIP K. HITTI

By permission of the author. Copyright in all countries
which are signatories to the Berne Convention

Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المسهمون في إخراج هذا الكتاب

المؤلف : الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شلان (لبنان) سنة ١٨٨٦ ، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت ، قنال نهاية بكليوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨ . ثم سافر إلى أميركا والتحق بجامعة كولومبيا وتلّى الدكتوراه منها في اللاتinas الشرقيه آذابها سنة ١٩١٥ . وعيّن بعد تخرجه أستاذًا فيها .

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى عاد إلى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية ، وعيّن أستاذًا لتاريخ العرب واستمر في هذا النصب حتى سنة ١٩٢٦ ، ثم التحق بجامعة برنسون أستاذًا لتاريخ العرب أولاً ، ثم رئيسًا لقسم الدراسات الشرقية فيها . وظل في هذا النصب حتى سنة ١٩٥٤ ، حين أحيل على التقاعد .

ولم يقطع عن العمل بعد ذلك ، بل عين أستاذًا زائرًا في جامعة هارفرد . وهو الآن عضو في مجلس أمناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة ، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس .

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب (الطرول) وهو مترجم إلى العربية ومثله تاريخ العرب الوجز ، و تاريخ لبنان (المطول) و تاريخ لبنان (الوجز) و تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، و تاريخ الشرق الادنى .

المترجم : الدكتور كمال اليازجي

كان أستاذًا مشاركاً للأدب العربي في الجامعة الاميركية حين ترجم هذا الجزء ، وهو الآن أستاذ فخرى ، له عدة كتب منها معلم الفكر العربي ، ورواق الأدب العربي ، والشيخ ابراهيم الموراني .

المراجع : الدكتور جبارائيل جبود

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت سابقًا وهو الآن أستاذ فخرى . له عدة مؤلفات في الأدب العربي منها ابن أبي ربيعة (في ٣ أجزاء) عصره ، وحياته ، وحبه وشعره ، وابن عبد ربه وعده . وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب للمؤلف وترجمتها .

الفهرس

القسم الرابع

العصر العربي

المقدمة

- الفصل الثالثون : سوريا في المهد الاسلامي
عثية ظهور الاسلام - الغارات الاولى - طلائع الفتح -
مناصرة خالد عبر الادية - سقوط دمشق - سقوط القدس
وقيارية - فتح يمير - الرجل الاداري محل القائد الحربي -
خطورة الفتح الاسلامي - تعليل الفتح الاسلامي .
- الفصل الحادي والثلاثون : الادارة العربية
عهد عمر - المناطق العسكرية - طاعون عمواس - معاوية
في عهد ولاته - بناء اول اسطول - الاسطول البيزنطي
يشرف على الناف .
- الفصل الثاني والثلاثون : خلافة الراشدين
الخلفاء الرشدون - عهد الرشدين عهد المشيخة - قضية علي -
خلافة علي - معاوية في الميدان - الحرب الاهلية الثانية -
التعكير .
- الفصل الثالث والثلاثون : معاوية مؤسس الخلافة الاموية
ازاحة المطالبين بالخلافة من الطريق - هدوء موقف في
العراق - موجة الفتوحات الثانية - مآثر اخرى لمعاوية
تبين ولی المهد - معاوية الملك المنوذجي .
- الفصل الرابع والثلاثون : الصلات العدائبة بين العرب والروم
المحدود السورية - بلوغ القسطنطينية - الحصار الثاني لمدينة
القسطنطينية - الهجوم الاموي الاخير على القسطنطينية -
المقدمة في لبنان .

- الفصل الخامس والثلاثون : الفتن الاهلية : الشيعة ، اهل المدينة ، الفرس** ٥٥
 مأساة الحسين - طامع آخر بالخلافة - حزم الحجاج في عهد ولادته .
- الفصل السادس والثلاثون : دمشق في أوج عزها** ٦٤
 دمشق في أوج عزها - اخضاع ما وراء النهر - استلحاق ما وراء النهر - فتح العرب في الهند - الحالات الحرية على البيزنطيين - حلة شالي افريقيا - فتح الاندلس - طارق يعبر المضيق - نصر حسم - موسى في اثر طارق - موكب النصر - تعليل سهولة الفتح - عبور جبال البرنيه - معركة تور - دمشق العاصمة - تعزيز الدولة - مصلحة البريد - اصلاحات في المالية وفي سواها .
- الفصل السابع والثلاثون : الاحوال السياسية والاجتماعية في عهد الامويين** ٨٧
 الحكومة الاقليمية - ديوان الخاتم - تنظيم الجيش - الحياة في البلاط - الاهو البريء - نساء الخلقاء - العاصمه - طبقات المجتمع - طبقة الوالي - اهل النمة - قيود عمر - طبقة الرقيق - الواقع الاقتصادي العام .
- الفصل الثامن والثلاثون : مناحي الحياة الفكرية في العهد الاموي .** ١٠٤
 النحو والماجم - الحديث والشرع - تدوين التاريخ - الخطابة - كتابة الرسائل - الشمر - التربية والتعليم - العلوم : علم الطب - علم الكيمياء القديم - المخارق الفكرية - القديس يوسفنا المعمشي - المرجنة - المخواج - التصوير - قصور الباشية - قصر الحير - المساجد : المسجد الاقصى - المسجد الاموي .
- الفصل التاسع والثلاثون : الكنيسة المسيحية السريانية** ١٣٥
 الكنيسة السريانية الشرقية - الموارنة - الملكانيون - التفاعل مع الاسلام - الالفاظ المستارة - ضبط الكتابة .
- الفصل الأربعون : سقوط الدولة الاموية** ١٤٨
 خليفة متبد - آخر اموي مقتدر - اربعة خلفاء عابزين - العلويون والباسيون - اندلاع الثورة - الفرقية الحاسمة - فرار مدهش .

-
- الفصل الحادي والأربعون : سوريا تندو اقليمًا عابسًا**
- ١٥٧ المهد الجديد - القلاقل في سوريا ولبنان وفلسطين - التأثر
المتشع - دمشق عاصمة مؤقتة - التشريع ضد النصارى -
الدخول في الاسلام - فتح اللغة العربية .
- الفصل الثاني والأربعون : فضل السريان في نهضة العرب الفكرية . . .**
- ١٧٤ الترجمة عن اليونانية - حنين بن اسحاق - الصابئة - المآثر
السريانية اليسية - المآثر الاسلامية : ابو قلم - ابو عبيدة
البعنوي - ديك الجن الحمي - الامام الاوزاعي .
- الفصل الثالث والأربعون : سوريا اقليم تابع لبعض الدوليات . . .**
- ١٨٥ الطولانيون - خارويه - القرامطة - الاخشيديون - الحاكمة
الزنجي - نهاية الاخشيديين - الحمدانيون : سيف الدولة -
الحلقة الزاجية في بلاط سيف الدولة - ابو الطيب المتنبي -
ابو فراس الحمداني - من علماء بلاط الاصبهاني - الفيلسوف
الموسيقي الفاراوي - العالم الجغرافي: المقفعي - طلائع الصور
المظلمة .
- الفصل الرابع والأربعون : ما بين السلاجقة والفاطميين**
- ٢٠٤ طفل بك في بغداد - سلاجقة سوريا - الاتابكية - قيم
الفاطميين - اتساع ممتلكاتهم - وضع سوريا القلق - الامراء
المرداسيون - المربي : الشاعر الفيلسوف الفريبر - الروز -
النصيرية - انتهاك النصارى .
- الفصل الخامس والأربعون : تلاقي الشرق والغرب - الصليبيون . .**
- ٢٢٣ تمدد البواعث وتشابكها - الحملة الصليبية الاولى - الولاية
اللاتينية الاول : الراها - الولاية اللاتينية الثانية : انطاكية -
الرمح على الساحل - احتلال القدس - بذوقن اول ملوك
الصليبيين - التوسع في النهايا - الردة الاسلامية عملت يد
زنكي - نور الدين زنكي - ظهور صلاح الدين - معركة
حطين الفامة - عكا مركز النشاط الحربي - بعد وفاة صلاح
الدين - القديس لويس - بيرس قائد المقاومة ضد الصليبيين -
الخائرون - آخر المستعمرات الصليبية .

الفصل السادس والأربعون : التفاعل الخناري

٢٥٠ تأثيرم في الغرب : العلم والادب - الفنون الحربية - هندسة
البناء - الزراعة والصناعة - التجارة العالمية - الصلات
الاجتماعية - شهادة اسامه - عواقب المغارات الصليبية على
سوريا - النظام الاصطاعي - نشاط الارساليات .

الفصل السابع والأربعون : الايوبيون والماليك

٢٦٤ الماليك يختلفون الايوبين - الماليك البحري - الفزو المنولي -
الماليك البرجية - الادارة في سوريا - الجروح والطاعون -
التجارة والصناعة - في لبنان - النشاط الثقافي : المعاية الطبية -
الطبابة - المدارس - الهندسة المعمارية وفن الرخوة في عهد
الماليك - الجبود الفكري - الصوف الاشرافي - ابن عربى -
كتابة السير - التاريخ والجغرافيا - تيمورلنك - المئانيون
يناضلون الماليك والصفوية - النصر الحاسم في مرج دابق -
خاتمة حكم الماليك .

القسم الثامن

تحت الحكم العثماني

الفصل الثامن والأربعون : سوريا اقليل تركي

٣٠٣ الدولة المئانية - الوتاير الادارية في سوريا - وضع لبنان
الخاص - الفزالي - الجهاز الاداري - سوء الادارة وعماولات
الاصلاح - تدابير دستورية عقيبة - الفتواهر الاجتماعية
والاقتصادية - الفتواهر الثقافية - الآلة الطابعة .

الفصل التاسع والأربعون : امراء لبنان المعينون والشهابيون

٣٢٥ عهد من القوضى - الشهابيون يختلفون المعينين - الشيخ ظاهر
العمر - احد باشا المizar - الامير بشير الثاني - استلال
لبنان بفهامة دولية .

الفصل المنسون : المشهد في العصر الحاضر

٣٤٧ التقليد السياسي - المهد الحميدى - جمعية الاتحاد والترقي -
التسلل الثقافي - القومية والتنازل من أجل الاستقلال .

فهرس المخارات

الصفحة

فتح سورية - الاجناد وقصور الاموين	٨
الفتوح الاسلامية لبلاد ما وراء النهر والهند	٦٧
شبه جزيرة الاندلس في القرن التاسع - الاحتلال الاسلامي . .	٧٥
دولة الخلفاء حوالي ٧٥٠	٨٢
الخلافة العباسية «القرن التاسع»	١٦٣
الدول الصليبية في سورية حوالي ١١٤٠	٢٣٣
دولة المايلك - منتصف القرن الرابع عشر	٢٧٥
الامبراطورية العثمانية في اوجها حوالي ١٥٥٠	٣٠٨
سوريا ولبنان قبيل الحرب العالمية الثانية مع الدول المتاخمة . .	٣٥٦

الفَسْمُ الرَّابعُ
الْعَصْرُ الْعَرَبِيُّ

الفصل السادس

سُورِيَّةٌ فِي الْعَهْدِ الْإِسْلَامِيِّ

عشية ظهور الاسلام

يبوز في الحقبة الاخيرة من العصور القديمة حدثان هامان: الاول هجرة القبائل الجرمانية التي انتهت بسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب ، والثاني انطلاق القبائل العربية الاسلامية الذي ازال الامبراطورية الفارسية ، وسلخ عن الامبراطورية البيزنطية افضل اقاليمها . وكان الحدث الثاني اروع الحدثين مظهراً . فقد كانت ، لدى وقوعه ، فارس وبizenطة ، الدولتين الوحدين اللتين تتمتعان بقوة عالمية ، في حين لم يكن العرب شيئاً مذكورة . فمن من معاصر ي تلك الفترة كان باستطاعته ان يتذكر ان مثل هذا الحدث لم ان الامور المختلة الواقع؟

وبعد ست سنوات من حرب تحالفها عدة انتكاسات ، ظفر هرقل سنة ٦٢٨ هـ باسترجاع سوريا - ومدينة الراه في شمالها موطن اباه - بعد ان كانت قد وقعت في ايدي الفرس ، وبعد ان كان خسرو الثاني قد اجتاحها (٦١١ - ٦١٤) واعمل فيها النهب والدمار اينما توجه . فقد غزا دمشق ، وردع اهلها بالقتل والاسر ، وترك كنيسة القيامة خراباً يباباً ، وذلك بعد ان انهب ما فيها من كنوز ومحفظاتها الصليب الحقيقي . وفي ١٤ ايلول سنة ٦٣٩ اعاد امبراطور بيزنطة الظافر هذا الصليب الى القدس^١ . فنادوا به محراً للمسيحية وعيدها لوحنة الامبراطورية الشرقية .

١) لا يزال المواطنون من الصارى حتى اليوم يحيون ذكرى هذا العيد بيقاد الشاعل . وقد ذهروا في منتصف هذا التقليد الى ان هيلانة والدة قسطنطين الثاني عندما اكتشفت عود الصليب دفيناً في الارض سنة ٣٢٦ ، اعلنت النبأ لابها وهو في القسطنطينية ، عن طريق ايتاد الشاعل من قبة الى اخرى حق القسطنطينية .

الغارات الأولى

في هذه الاتناء كانت فرقة من ٣٠٠٠ رجل عربي تشن غارة على بلدة تدعى «مؤنة»^١ واقعة الى الشرق من ساحل البحر الميت الجنوبي، يقودها زيد بن حارث ربيب محمد. وكان الغرض من هذه الغارة، على ما يبدو، الانتقام لرسول، قتل أحد النساينة، وكان النبي قد بعث به الى بصرى من اجل ان يعود منها، الى الذين اعتنقوا الاسلام بجداً، بغنائم ذات بال بينها السيف المشرفة المفضلة التي كانت تضع في تلك التواحي^٢. وقد اعتبرت هذه الحطة التي اخطتها محمد بمحاجة البلدان المتاخمة لما يزيد في قدر الدين الجديد وشهرته بين المؤمنين. أما زيد فقد سقط في ساحة القتال، واما بقية جيشه فعاد بهم الى المدينة القائمة الفتى خالد بن الوليد^٣، الذي لم يلبث ان غدا بطل الاسلام الحربي. ولم تكن هذه الفزوة، في نظر سكان مؤنة، سوى واحدة من غزوات البدو التكرونة التي اعتادوها من امد بعيد، لكنها كانت، بواقع الامر، السهم الاول في نزاع لم يهدأ حتى استسلم بيزنطة، وحل اسم النبي العربي في معايدها محل اسم المسيح.

وفي السنة التالية (٦٣٠) قاد محمد بنفسه حلة على واحة تبوك^٤ في شمالي الحجاز. ومنها شرع في مفاوضات مع المواطن المجاورة انتهت بخضوع سكانها. فقد أمنَّ الاقوام على ارواحهم، ومنحوا حق الاحتفاظ بمتلكاتهم والبقاء على عقائهم.

١) هي في شرق الاردن، على مسيرة ساعتين من الكرك جنوباً؛ وقد زارها Alois Musil انظر كتابه : *Arabia Petraea, vol. i* (Vienna, 1907), p. 152.

٢) راجع ياتوت المجلد الرابع ص ٥٣٦؛ فابل : M. J. de Goeje, *Mémoire sur la conquête de la Syrie* (Leyden, 1900), p. 5.

٣) الطبرى الجلد الاول ص ١٦١٠؛ فابل : Theophanes, p. 336 ; J. Wellhausen, *Skizzen und Vorarbeiten*, vol. vi (Berlin, 1899), p. 52.

٤) على طريق الحج، وهي الان على طريق القطار الحديدي بين دمشق والمدينة. الواقدي : المغازى، نشر ا. فون كريير، (كلكتورا ١٨٥٥ - ٥٦) من ٤٢٥ - ٢٦؛ ياتوت، المجلد الاول، من ٨٢٤ - ٢٥ : البلاذري، ص ٥٩؛ Caetani ii pp. 238, seq. انظر وصف القرية الحديثة في Jaussen and Savignac pp. 57-64; Alois Musil, *The Northern Hegaz* (New York, 1926) pp. 234-5, 318-19.

شريطة ان يدفعوا جزية سنوية . وكان اول هذه المواطن قاعدة أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة^١ . وسكنها من النصارى . تليها مقنا^٢ الواقعة الى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج ، وسكنها من اليهود الذين كانوا يمارسون في الفالب صناعة الحياكة وصيد الأسماك . ثم اذرح الواقعة بين البتراء ومعان ، وعدد سكانها نحو مئة اسرة . ثم الجرباء على مسيرة ساعة من اذرح شمالاً ، على الطريق الروماني القديم بين بصرى والبحر الاحمر ، وسكنها نصارى ايضاً . وقد قدر هذا الموقع ان يلعب فيها بعد دوراً ذا بال في الحملات الصليبية . ان هذه الاماكن كانت المواطن الوحيدة في سوريا التي اتصل بها الاسلام في غضون حياة النبي . ولقد كانت الشروط التي استسلمت بوجبهما^٣ موعزة بما سيجيئ . فان حملات محمد على هذه المواطن في سوريا الجنوبيّة لم تكن الا بثابة حماولات مجربيّة لما قدر ان يتم فيها بعد على يد خلفائه .

وفي السنة التي تلت وفاة محمد ، أُعدت العدة لفتح البلدان المجاورة . وكانت الجزيرة العربية قد خرجت من حروب الردة^٤ . واخذت توثق روابطها وتتحدد تحت قيادة رجل واحد وهو الخليفة الاول ابو بكر (٦٣٢ - ٣٤) . فالازخم الذي تجمع في تلك الحروب الداخلية كان لا بد من ان يتلمس مخارج جديدة ، لا سيما وافتراض ان العقيدة الجديدة قد اقامت بين اتباعها اخوة جامدة . وهذه الروح الحربية في القبائل التي كانت ، من اقدم المهدود ، تعتبر الفزو^٥ ضرباً من الرياضية القومية ، لم يكن لها بد من ان تحقق ذاتها بصورة من الصور بعد الاسلام . وكان من المتوقع ، فوق هذا ، حصول مساندة من القبائل العربية المقيمة في جنوبی

١) انظر الجزء الاول من ٢٠٦؛ ٥-٢٥٣ Caetani, vol. ii, pp.

٢) اليقوي المجلد الرابع من ٦١٠؛ انظر وصف حديث هذه الواحة في -
Musil, *Northern He-gaz*, pp. 114-16, 312.

٣) البلاذري ص ٥٩ - ٦٠

٤) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 140-42; C. H. Becker in *The Cambridge Medieval History* (New York, 1913) vol. ii, pp. 334-6.

٥) ومنها في الانكليزية كلة «razzia»

سورية . ذلك ان هذه القبائل ، نظير جذام وقضاءة^١ ، كانت في هذه الائتاء قد تنصرت ، لكنها لم تكن في حالة من الرضي . لأن المساعدة المالية السنوية التي كانت تتناولها لسنوات خلت في مقابل حراسة الحدود كان هرقل قد اوقفها كتبير اقتصادي^٢ وقد اهل ، فوق ذلك ، امر الحصون التي قامت على الحدود الجنوبية ، وانتزعت منها حامياتها لتعزيز الحشد في الشمال في وجه الخطر الفارسي . وهكذا فقد كانت سورية ، أقرب للمجاهدين .

طلائع الفتح

وفي سنة ٦٣٣ وبجهت الى سورية ثلاث سرايا ، قاد الاولى عمرو بن العاص ، وتولى الثانية يزيد ابن أبي سفيان ، وترأس الثالثة شرجيل بن حسنة^٣ . وذلك على ان يكون عمرو ، قائد حملة مصر العتيق ، هو القائد الاعلى اذا اقتضت الخطة توحيد العمليات الجنوبية . وكان حامل اللواء في سورية يزيد اخوه معاوية ، المؤسس العتيق للدولة الاموية في دمشق . ولقد سلك كل من يزيد وشرجيل الطريق الذي طالما سلك بين تبوك ومعان . اما عمرو فقد سلك طريق ايلة الساحلي . ثم انضمت الى هذه السرايا ، فيما بعد ، امدادات رفعت العدد في كل منها من نحو ٣٠٠٠ الى زهاء ٧٥٠٠ مقاتل . والراجح ان ابا عبيدة بن الجراح ، الذي غدا فيما بعد امير الجيش ، اما جاء على رأس احد هذه الامدادات .

وقع الصدام الاول في وادي العربة^٤ ، وهو غور عظيم جنوي البحر الميت ، وكان النصر فيه ليزيد على سرجيوس بطريق فلسطين . وكان مقر قيادة سرجيوس في قيسارية ، فلتحق العرب بخيشه المرتد ، وادر كوه عند دائن قرب غزة وقادوا

(١) بنو سليم (الجزء الاول من ٤٤٦) قوم من قباعة . وكان بنو عامة في هذه الائتاء يقيرون الى الشمال القريب ، ومن هنا تسرّبوا فيما بعد الى جنوب لبنان ، حيث لا يزال المكان يُعرف بـ جبل عامل . انظر عامة في اي الداء ؛ التقويم من ٢٢٨ .

(٢) انظر : Theophanes, p. 335.

(٣) البلاذري من ١٠٧ - ٨ - ٩ De Goeje, pp. 24-4

(٤) راجع الخريطة الجزء الاول من ٣٤ .

يجهزون عليه (٤ شباط ٦٣٤^١). ولقد قُتل سرجيوس في هذه المعركة وخلت السبيل، ولو الى حين، امام الفاتحين. فاجتاح يزيد وعمرو القسم الجنوبي من فلسطين برمته، واصبحت قيسارية نفسها مهدّدة، وعزلت القدس عاماً عن البحر^٢.

مقامرة خالد عبر البادية

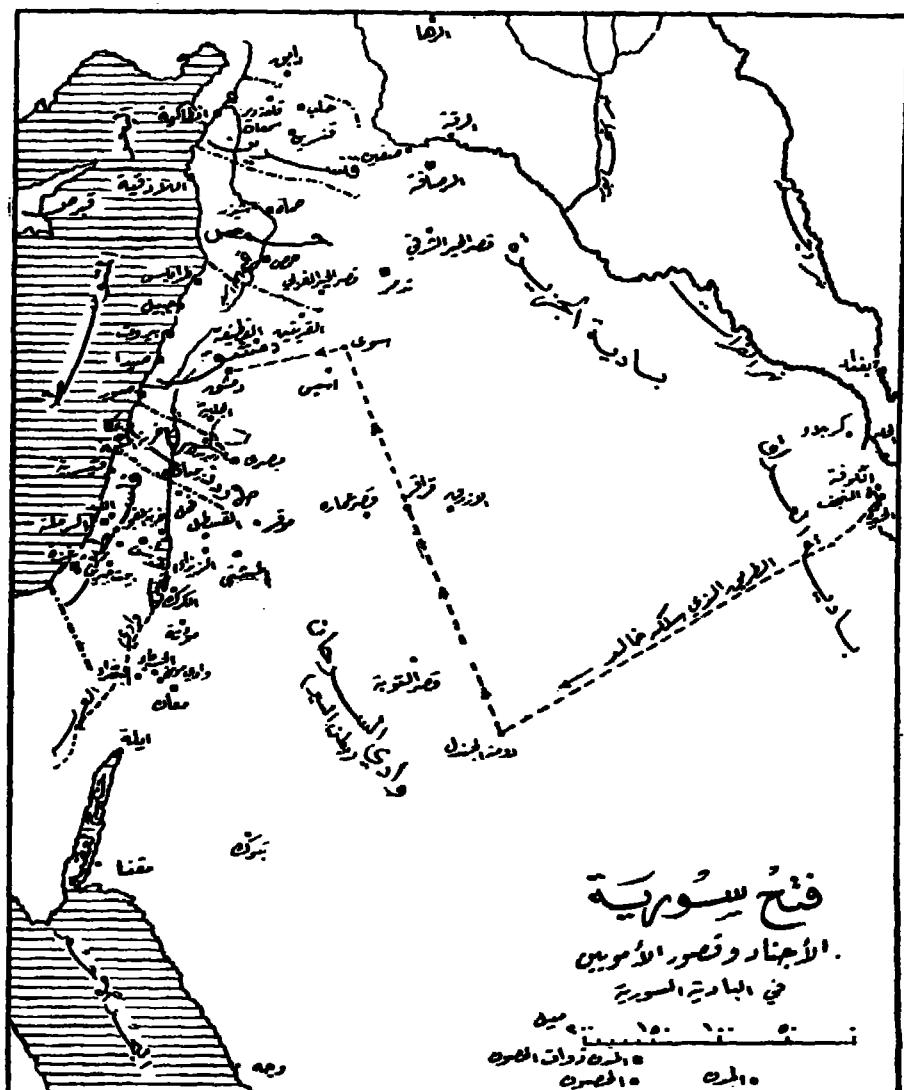
وعندما انتهى هذا الخبر الى هرقل، وكان لا يزال في حصن، حيث قيل انه كان تلقى كتاباً من النبي يدعوه فيه الى الاسلام، سارع الى تنظيم حملة جديدة بقيادة اخيه ثيودوروس. وتلقى خالد بن الوليد، في الوقت نفسه من اي بيكر، امراً بالسير فوراً من العراق لتعزيز الجيش المرابط على الجبهة الشامية. وكانت المجموع على العراق قد بدأ قبل الحملة على الشام بقليل، لكن لما كانت سورية اقرب الى الحجاز كان جل اهتمام العرب موجهاً اليها.

ويغلب على الظن ان خالداً بدأ سيره المحفوف بالمخاطر عبر الباادية من الحيرة، التي كانت هي وبعض الواقع الاخر قد ألت السلاح واستسلمت له.اما الطريق الذي سلكه فالظنو انه الطريق الجنوبي الغربي المؤدي الى دومة^٣ الجندي (الجوف حديثاً) في منتصف الطريق بين البلدين. واذ بلغ دومة كان باستطاعته ان يواصل منها السير بحثراً بطن السر (وادي سرحان حديثاً) الى بصرى، وهي مدخل سورية الجنوبي، لكن كانت هناك حصون تعارض سيره. لذلك سلك الطريق الشمالي الغربي الى قرارق (قلبان قرارق حديثاً) على تخوم البطن الشرقية. ومن هنا

(١) ياقوت : المجلد الثاني ص ١٤ - ١٥ ; البلاذري ص ١٠٩ : ٤ ; Gae- tani, vdl. ii, pp. 1141-54.

(٢) ان الحوادث المتتبعة في المدونات العربية التي جرت في خضنون قرنين او ثلاثة قرون بعد وقوعها مفظطرة في سياقها التاريخي ومحورة من حيث النفي والتقدير. والتحري المتمدد هنا مبني على تمجيع كابياثاني ودي غوبه وولهوزن وبكتر، وسوام من اعلام النقد الحديث.

(٣) ورد ذكرها في سفر التكونين ٢٥: ١٤ وفي سفر اشيا ٢١: ١١.



توجه شمالاً إلى سوي^١ ، مسيرة خمسة أيام في قفر يكاد لا يكون للماء أثر فيه. ولقد نقلت حاجة الجنود من الماء – وعدهم يتراوح بين الحس مئة والثان مئة – في الترب، أما الخيول فقد اتخذ لها من أكرانش الرواحل أحواضاً . على أن مياه أكرانش الجمال هذه كانت بما يجوز الانتفاع به في الطوارئ . وكانت الخيل تقاد جنوبية وقد استجليت لتمتنع لدى الاستئثار فقط . وكان دليлем من طي اسمه رافع ابن عمير، ولقد بره شعاع الشمس في بعض مراحل السفر، فاختلط المعلم التي يعرف بها وجود الماء في باطن الأرض ، فالتمس من الجيش أن يرقبوا. عوسةجة ما ، واذ وجدوها حفروا قوتها فاصابوا تراباً رطباً وماء . وهكذا نجا الجيش من الملاك ، وتحقق حدث فريد من البطولة في اختراق الفقار^٢ .

وكان ظهور خالد ، بعد مير ثانية عشر يوماً فقط شمالي شرق دمشق ، في مؤخرة الجيش البيزنطي «المريج» ، مباغة مسرحية (٢٤ نيسان ٦٣٤) . وكانت جولته الأولى – وقد تم له فيها النصر – مع الجيش الفساني المسيحي يوم عيد الفصح في مكان قرب عذراء في مرج رامط^٣ . واقتضى دهاؤه الحربي أن يوجه هجومه جنوباً بمحاذأة شرق الأردن ، وذلك من أجل أن يقيم اتصالاً فعالاً بجيوش زملائه القواد ، إذ كانت تقاسي ضنكًا شديداً . ولم تكن الرغبة في احرار المجد لنفسه . او المرض على الظفر بالغنائم ، ليتبينه عن هذا المدف .

سقوط دمشق

هذه الجيوش التي اجتمعت تحت قيادة موحدة ، لعلها قيادة خالد كسبت

(١) هي بالقرب من سبع بيار المدينة، إلى الشمال الشرقي من دمشق.

(٢) ان روایات المصادر العربية عن الطريق التي سلكها خالد في جولته هذه قد ادت الى مشاكل تاريخية وجيغرافية عديدة؛ قابل البلاذري ص ١١٠ - ١١٢ - ١١٣؛ الطبرى ج ١ ص ٢١١ - ٢١٢ - ٤؛ ابن الأثير ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٣؛ البيقى - تاريخ - نشر م. ت. هوتسا (لیون ١٨٨٣) ج ٢، ص ١٥٠ - ٥١؛ ابن عساكر - التاريخ الكبير - (دمشق) ج ١، ص ١٣٠؛ البصري ، فتوح الشام ، نشر و. ن. ليس (كالكونا ، ١٨٥٤) ص ٦٣ - ٦٥. ان الخطة الموضوعة اعلاه قد اعتمدنا فيها على : Musil, Arabia Deserta, pp. 553-73; Caetani, vol. ii, pp. 1220-36.

(٣) هو سهل على ١٥ ميلاً إلى الجنوب من دمشق . انظر البلاذري ص ١١٢ ، ويأتى تج ٤

معركة دامية في اجنادين^١ (٣٠ نووز ٦٣٤) فقدت ابواب فلسطين مفتوحة على مصاريعها في وجه الفاتحين. وشنت من ثم غزوات شتى في كل اتجاه لمدة ستة اشهر. وقد مقطت بصرى بعد مقاومة ضعيفة ، وتلتها فتح^٢ التي كانت تسيطر على معابر الاردن الشرقي ، ثم بيسان على عدوة النهر . ولم يكن القائد البيزنطي الجديد بانس Baanes ، باوفر حظاً من زميله السابق ؟ اذ لم ينقض شهر من الزمان حتى انهزم جيش الروم على اثر معركة مع الفاتحين في مرج الصقر^٣، وطلب التجاة بالاعتصام خلف اسوار دمشق . فجذ خالد في اثره ، والقى الحصار حول العاصمة العتيدة للامبراطورية الاسلامية . على ان الحصار لم يكن اكثرا من محاولة لعزل المدينة لأن العرب لم يكونوا قد حذقو اساليب الحصار ولا عرفوا ادواته. وبعد ستة اشهر سلمت المدينة (ايلول ٦٣٥) على اثر خيانة ، وكان المفاوضون اسقف المدينة ، ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي ، واحد كبار الموظفين في دائرة المال في الدولة . اما الرواية التقليدية التي تذهب الى ان المدينة سقطت نصفها عنوة ونصفها صلحًا ، فالقرائن متوفرة على أنها رواية متأخرة ، قصد منها تبرير اقدام الامويين على قسمة الكاتدرائية ، والاستيلاء على شطريها^٤. وقد استعملت شروط الصلح على المبادئ نفسها التي فرضها النبي^٥ ، فعدت نموذجاً لما عممت بوجبه سائر المدن السورية .

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَذَا مَا أَعْطَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ أَهْلَ دَمْشَقَ ، إِذَا دَخَلُوهُ اعْطَاهُمْ أَمَانًا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ ، وَسُورَ مَدِينَتِهِمْ لَا يَهْدُمُ .

١) لا يزال موقفها مجهولاً ؛ اما القول بانها هي جناتين الواقعه بين الرملة وبيت جبرين - على الطريق بين غزة والقدس - فامر مشكوك في صحته . Caetani, vol. iii, pp. 176-87 ; Wellhausen, *Skizzen*, vol. vi, pp. 57-8 Dussaud, *Topographie*, p. 318.

٢) او هي فتح بالفتح. انظر : Gr. Pella, Bi-hi-lim عن لوحات تل المغارنة (الجزء الاول من ٧٥) وهي المعروفة اليوم بخربة فعل . انظر أيضاً : Caetani, vol iii, pp. 187-211 Abel, vol. ii, pp. 34, 405.

٣) هو سهل على ٢٠ ميلاً الى الجنوب من دمشق .

٤) Caetani, vol. iii, pp. 359-92 انظر ايضاً ادناء الفصل ٣٨ الفقرة عن الجامع الاموي.

٥) انظر اعلاه من ه من هذا الجزء .

ولا يسكن شيئاً من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء المؤمنين. لا يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية^١.

وبسقوط القاعدة السورية غدا النصر التام حقيقةً. وقبل انصرام العام تمّ لابي عبيدة احتلال مدينة حمص. فقد سارعت جميع المدن المجاورة - بعلبك وحمص وحماء - الى فتح ابوابها، وخروج الرعايا في حالات عدّة «لاستقباله»، بصحبهم. الناقرون على الدفوف والمنشدون، وانحناوا امامه احتراماً. وذلك على نحو ما جرى في شيزر^٢. ولم تصمد سوى القدس وقيسارية وبعض مدن الساحل، في انتظار وصول نجدة من هرقل.

ولم يرد هرقل ان يخنتم، ولذلك حشد من منطقة انطاكيه وحلب جيشاً من نحو خمسين ألفاً، جله من الارمن والعرب المرتقة، ضمهم الى قيادة أخيه ثيودوروس ومساعده بانس^٣. واذ تيقنت القيادة العربية من تفوق جيش العدو بالعدد، عمدت الى الجلاء سريعاً عن حمص بل وعن دمشق وسواها من المدن ذات الموقع المتردي الخطير، وحدثت زهاء ٢٥٠٠ مقاتل في وادي اليرموك^٤. اذ يستطيع من هنا الانسحاب الى الصحراء اذا اقتضى الامر. وقد سلك جيش هرقل الطريق من البقاع (سوريا المنخفضة) الى شرق الاردن وبعد فترة من المناوشات، نادى الجيش خلافاً بياناً امبراطوراً، نشبت المعركة. وكان ذلك عند ملتقى اليرموك برافد الرقاد، قرب الواقعه (الياقوحة حديثاً). وبلغ القتال اشدّه في يوم شديد الحر (٢٠ آب ٦٣٦) انعقدت فيه العبار سجناً، فكانت ولا شك عنواناً للعرب على اعدائهم. وانساق الجيش البيزنطي منكثاً الى موضع ضيق بين الجدولين. فكان

١) البلاذري ص ١٢١ .

٢) هي لا رِسْتا، سَيْجَر حديثاً على نهر العاصي، وتبعد ١٥ ميلاً الى الشمال الغربي من مدينة حماه. انظر ادناه الفصل ٤ الفقرة عن شهادة أسماء.

٣) الطبرى ج ١، ص ٢١٢٥؛ Theophanes, p. 337

٤) هِيُوْمَاكْس، شَرِيعَةُ الْمَاذْرَة حديثاً (تبنة الاسم قبيلة بدوية (Abel, vol. i, p. 171) وهو احد روافد نهر الاردن؛ وينبعي علم الخلط بينه وبين يرمومث المذكور في سفر يوشع ٣: ١٠) وهو خربة يرموموك الحديثة، في جوار اجنادين.

جسر الرؤاد الى الغرب بيد العرب ، وكان خط المواصلات من الشرق قد قطع ايضاً ، فخاب كل أمل بالانسحاب ، ولم تجد هم شيئاً تراييل القدس وصلواتهم ، ولا استعانتهم بالصلبان^١ . ولم تتمكن فرق الارمن ولا المرتزقة من العرب السوريين ان يصدوا في وجه المجموع الكاسح الذي قام به ابناء الصحراء ، فسقط بعضهم قتيلاً هنا وهناك ، ودفع بعضهم الى النهر بعنف ، واهزم البعض الآخر ، لكنه لاقى حتفه على الضفة الاخرى . وقد كان ثيودوروس احد الضحايا ، فتقرر بذلك مصير سوريا . وقد اقر هرقل نفسه بذلك ، فكانت كلماته الاخيرة : «عليك يا سوريا السلام ونعم البلد هذا للعدو^٢ !» .

وفي فصل الخريف من العام نفسه قامت فرقة ، يقودها فيها نرجح ابو عيدة ، باحتلال دمشق مجدداً . وعمدت على الاتر جمع المدن التي سبق للعرب ان احتلوها الى استقبال الفاتحين بصدر ورحبة . وخطبهم سكان حمص قائلين «لولا يحكم وعدلكم احب اليانا مما كنا فيه من الظلم والقشم^٣ » . ثم ان حلب وانطاكية الى الشمال لم تلبثا ان القت السلاح ، لكن قنرين وحدهما قاومت بعض المقاومة . واستطاعت اخيراً جبال طوروس ، وهي الحد الطبيعي للبلاد السورية ، ان توقف هذا الزحف المتواصل الذي حققه السلاح العربي .

سقوط القدس وقيسارية

وكانت قوّاد آخرهن يديرون عمليات حربية بنجاح مماثل في الداخل وعلى امتداد الساحل . فقد احتل شرحبيل عكا ومحور^٤ ، وظفر بيزيد واخوه معاوية بصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس^٥ . لكن القدس وقيسارية في الجنوب ، وقد

١) ابن عساكر ج ١ ، ص ٢٦٣ ؛ البكري ، ص ١٩٧ .

٢) البلاذري ص ١٣٧ ؛ قابل الطيري ج ١ ، ص ٢٣٩٥ - ٩٦ .

٣) البلاذري ص ١٣٧ . وقد نسب الى سكان قيل ما هو شيء جداً بهذه العواطف ؛
البكري ص ٩٧ .

٤) البلاذري ص ١١٦ ؛ De Goeje, p. 133

٥) البلاذري ص ١٢٦ ؛ Caetani, vol. iii, p. 801

اصطبغتا بالصبغة الملبية ، استمرتا في المقاومة . فصمدت القدس في وجه عمر و حتى سنة ٦٣٨، عندما اشترط سكانها ان يكون تسلیم المدينة لعمر بن الخطاب بالذات ، وهو آنذاك يقوم بزيارة الى الجایة^١ . اما قیسارية فقد كان وضعها اشد تعقيداً ، اذ كانت على اتصال بالامداد البحري . لكنها انتهت اخيراً سنة ٦٤٠ بعد هجمات متواصلة دامت سبع سنوات ، وبلغت ذروة حلتها بالحصار الذي ضربه معاوية عليها^٢ . وكان مما ساعد على سقوطها نهائياً خيانة يهودي من المقيمين داخل أسوارها . ففي خلال هذه السنوات السبع (٦٣٣ - ٦٤٠) تم اخضاع سوريا كلها من الجنوب الى الشمال .

فتح يسبر

وليس من العسير انت تعلم «الفتح اليسير»^٣ الذي تم للعرب باكتساح هذا الاقليم ، من الامبراطورية البيزنطية ، ذي الموقع الحربي الخطير . فالغارات التي شنها الفرس ، في اوائل القرن السابع ، كانت قد فعلت في تقويض دعائم الجيش فعل الاشتاق المونوفيزى في منتصف القرن الخامس في تصدير وحدة المجتمع الروحية . اما المساعي التي بذلها هرقل في الآونة الاخيرة (٦٣٨) لرتوح الحرق الدينى ، باقتراحه بعض التسوية فكانت نظير ما سبقها من المحاولات عقلاً . ولقد عمد سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، وهو سوري يتحول من اسرة يعقوبية المذهب ، الى استنباط تسوية جديدة ، فجده في تحويل الانظار عن الخلاف الاصلي في طبيعة المسيح الى فكرة «المشيئة الواحدة» . لكن هذه البدعة لم تكن لترضي الارثوذكس البيزنطيين ولا السوريين المنشقين ، بل ادت الى نشوء شعبية جديدة هي المونوثيلية ، يقول اتباعها بأنه كان للسيّد مشيئة واحدة هي المشيئة الالهية . اما جمهور السوريين

١) الطبری ج ١ ص ٢٤٠٢ وما يليها؛ البلاذري ص ١٣٨-٣٩؛ المقوی ج ١ ص ١٦٧-٦٨.
De Goeje, pp. 152 seq.

٢) البلاذري ص ١٤٠ - ٤٢؛ Caetani, vol. iv, pp. 156-63

٣) البلاذري ص ١٦؛ L. 18, p. 126, II. 13. 19

فقد تسبّبوا بكنسِهم ، لأن الكنيسة لم تكن في نظرهم مؤسسة دينية فحسب ، بل كانت ، إلى ذلك ، تعبيراً مكبوتاً عن عاطفة قومية دفينة .

وكما عرفنا سابقاً^١ ، لم يُعرف من السوريين منذ فتح الاسكندر انهم فقدوا طابعهم القومي او اضاعوا لقائهم الاهلي او اهملوا دينهم السامي ، او سلکوا مخلصين المنهج اليوناني الروماني في الحياة . فالحضارة الهلبانية لم تكن يوماً اكثراً من طلاء خارجي ، ولم تؤثر في غير النخبة من اهل المدن . اما سواد السكان فقد كانوا ولا بد يعتبرون الحكام غرباء عنهم ، وهذه الجفاقة ما بين الحاكمين والمحكومين قد استفحلت ولا شك بداعي سوء الحكم وفداحة الفرائب . وغالب الظن ان السوريين من ابناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين اقرب اليهم عنصراً ، ولغة ، وربما دينا ايضاً ، من اسيادهم البيزنطيين المقوتين .

الرجل الاداري محل القائد العربي

اما وقد تم فتح سوريا ، فلم يهد بده من ان يحمل رجل الادارة حمل رجل القيادة . وعلى ذلك عزل خالد ذلك البطل الذي اهله تاريخه الحربي الباهر في جزيرة العرب ، وفي العراق وسوريا ، الى ان يلقب بـ « سيف الاسلام » – باسر من الخليفة عمر ، وولي مكانه ابو عبيدة . وابو عبيدة هذا صحابي بارز ، وهو احد اعضاء المثلث الذي استأثر بالسلطة الاسلامية^٢ وكان العضوان الاولان ابا بكر وعمر . ولقد تلا عمر ابا بكر في الخلافة ، بعيد معركة اجنادين سنة ٦٣٤ . وكان على ما يبدو يضم خالد السوء ، لكنه لم يعهد الى صديقه اي عبيدة بالقيادة العليا الا بعد معركة اليرموك . وعندها انكفا خالد من الحياة العامة وانزوى في حصن ، وفيها مات سهلاً (٦٤٢) ليعيش في الاخبار حياة مجهري المعجزات . ولقد بني مدفنه ومسجدده على الطراز التركي سنة ١٩٠٨ وكانت زوجته فضاء قد دفنت هناك الى جانبه .

(١) انظر الجزء الاول من ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٨٢ – ٣٠٩ ، ٣١٠ – ٣١٦ ، ٣١٨ – ٣١٨

(٢) H. Lammens, « Le Triumvirat Abu Bakr , 'Omar et Aboû 'Obaidah » *Mélanges de la faculté orientale*, vol. iv, (Beirut, 1910), pp. 113 seq.

ولما زاد عمر المعسكر الإسلامي في الجاية سنة ٦٣٨ للاحتلال بالفتح وتقرير حالة المغلوبين، لم يكتف بان ثبت ابا عبيدة في قيادة الجيش بل عينه حاكماً عسكرياً، ونائباً لل الخليفة . على ان دخول الخليفة المسن الى القدس راكباً جللاً، لا باساً رث الثياب ، لم يترك في الناس اثرآ محموداً . وكان في استقباله البطريرك صفرونيوس « حامي الكنيسة المسول اللسان ». قيل انه التفت الى احد مرافقيه، وكلمه باليونانية قائلاً^٢ « حقاً هذا رجس الحراب الذي تكلم عنه النبي دانيال ، ورأاه قاعداً في المكان المقدس^٣ ».

خطورة الفتح الإسلامي

ولقد تخطى فتح سورية الاعتبارات الزمنية والمحليّة ، وجاء دولة الإسلام الناشئة بالهيبة والجد في نظر العالم ، واكسبها الثقة بالنفس .

والآن وقد غدت سورية قاعدة عسكرية، فإن جيشاً عربياً توجه منها بقيادة عياض بن عمسم نحو الشمال الشرقي ، وقام باموال حربية تم له بها، بين ٦٤٦ و ٦٣٩، اخضاع بلاد ما بين النهرين جملةً . ففتح من ثم الطريق الى شمالي غربى فارس وما وراءها من بلاد ، واستغل هذا الكسب استغلاً ناماً . ثم زحف جيش آخر بقيادة عمرو ابن العاص وسواء من استرکوا في فتح سورية ، في اتجاه جنوبي غربى ، تم له به ، بين ٦٤٠ و ٦٤٦ ، اخضاع مصر^٤ . ومن مصر استؤنست بسهولة الاموال الحربية في

(١) الطبرى ج ١ ، ص ٢٤٠٧ : cf. De Goeje, p. 157 ;

(٢) Theophanes, p. 339 ; Constantine Porphyrogenitus, « De administrando imperio » in J.-P. Migne, *Patrologia Graeca*, vol. cxiii (Paris, 1864), col. 109. يرجح ان صفرونيوس كان ماروني الاصل .

(٣) سفر دانيال ، ٩:٢٧ : ١١:٣١ : ١٢:١ : ١؛ ومقتبس في انجيل متى ٢٤:١٥ ؛ وفي انجيل مرقس ١٣:١٤ . والإشارة في سفر دانيال الى افطريونس ايقانتس ، انظر اعلام الجزء الاول من ٢٦٧ .

(٤) البلاذري من ١٧٢ وما بعد ؛ الطبرى ج ١ ، ص ٢٥٩٥ - ٠٨

(٥) ان لفظة « غزو » كانت تطلق على الفارات الصغيرة ما بين القبائل ، فاصبحت تطلق بعد الفتح على الحروب القومية الإسلامية ، انظر : Hitti, *History of the Arabs*, p. 160 seq.

شمالي أفريقيا، وأخيراً في الاندلس، وذلك بالتعاون الوثيق مع المغاربة المسلمين. أما في شمالي سوريا فقد غدت آسيا الصغرى معرضاً للغارات التي استمرت بلا انقطاع ما يقرب من قرن.

تعليق الفتح الإسلامي

هذا، وقد كانت هذه الفتوح أشبه بالحروب المنظمة منها بالغارات الطارئة التي جرت على نطها الفتوحات الأولى^١. فالملاحمات الأولى على العراق وسوريا لم تكن نتيجة لحظة مرسومة وتدبير سابق، إذ لم يكن أبو بكر ولا عمر، وقد أحرزت في عهد ولادتها جل هذه الانتصارات، ليعدوا المجالس الحربية، ويضعوا خطط القتال. بل لم يحتما أصلاً – في الأدوار البدائية على الأقل – باقامة قاعدة دائمة في المناطق المحتلة. لكن الذي قادهم إلى هذه النتيجة إنما هو مجرى الحوادث وسير الأمور. وبناء على ذلك لم يسمح للجيوش، في أول الارس، بالاقامة في المدن، بل أقيم لها معسكر يحيط بالجبلية ليكون بثابة قاعدة بدائية. وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن بعض الملاحمات الأولى، ظنوا حملة خالد على العراق، جرت دون امر من الخليفة، بل لعلها جرت خلافاً لأمره.

وليس ينبغي أن ينظر إلى الفتح الإسلامي من ناحية أنه كان، بالدرجة الأولى، جهاداً دينياً. فإن التعلييل التقليدي الذي اعتمدته المؤرخون المسلمون، يجري على التعلييل اللاهوتي الذي اعتمدته اليهود في تاريخهم القومي، ونصاري القرون الوسطى في توسيع الكنيسة. فهو يغلب على هذه الحركة الطابع الديني^٢، ويعتبر أنها جاءت تبعاً لارادة الملة مقررة. والواقع أن التوسيع العربي الإسلامي إنما دعت إليه عوامل اقتصادية بعيدة التور^٣، لم يخفّ أمرها على المحققين من مؤرخي العرب نظير البلاذري^٤. فقد ذكر أن أبو بكر، إذ أخذ في إعداد الجملة على سوريا،

(١) Hitti, *History of the Arabs*, 160, 167-8.

(٢) استخرجها كيتاني: Caetani, vol. ii, pp. 831-61 ولا من وغیرها من النقاد المحققين في العصر الحديث.

(٣) فتوح البلدان، ص ١٠٧.

«كتب الى اهل مكة والطائف واليمن، وجميع العرب بنجد والججاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم» :

فإذا نحن تحرينا التوسع الإسلامي، محظوظين بلا بساطة الراهنة، بان لنا انه كان حلقة من سلسلة من المجرات، او من «موجات التزوح»، حملت الفاقض من سكان البداية الفاحلة الى ما ينامح الملال الحصيب، من مناطق هي احفل بباباً للحياة. وقد كان، بواقع الامر، الشوط الاخير من اشواط التزوح المتواصلة ابداً، والتي بدأت بالمجرة البابلية، قبل ذلك بنحو اربعة الاف سنة^١. على ان هذه الموجة الإسلامية كانت ذات طابع بيزنطي هو الدافع الديني. وقد كان من اجتماع العامل الديني بالدافع الاقتصادي ما جعل الحركة امراً لا يدفع. تختفي بها حدود المجرات السابقة الى مدى بعيد. على انه لا بد من الاعتراف بان الاسلام كانت عنابة «صيحة الحرب»، او نداء هو من قبيل صيحة «الديمقراطية» في الحرب العالمية الاولى والثانية. بل لقد كان فوق ذلك، ان عمل على توثيق الصلة بين القبائل وجمع الاشتات المتنافرة التي لم يسبق لها ان اتحدت من قبل. ولذلك كانت الرغبة في نشر العقيدة الجديدة وفي الفوز بجهة العيم هي العامل المحرك في حياة البعض من المغاربين البداء، فان الحرص على الظفر بباباً الراحة والراغد، التي كانت تحفل بها الحياة المدنية في الملال الحصيب، كان المحرك الدافع في ما يتعلق بالكثيرين منهم.

ومن هذا القبيل افتراض آخر مشابه لهذا في الشطط، هو صورة رسماً بعض كتاب النصارى للمسلمين العرب، يمتحنون البلدان وهم يعرضون القرآن باليد الواحدة والسيف بالاخرى. انا كان هنالك مجال ثالث للاختيار في ما يتعلق باهل الكتاب^٢ هو دفع الجزية. «قاتلوا... من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»^٣. ومن الحبر ان تذكر ان دفع الجزية كان في نظر الفاتحين اولى وأشهى. فإنه اذا اعتنق الذمي الاسلام سقطت عنه الجزية.

١) راجع الجزء الاول من ٦٧ ، ٦٩ .

٢) انظر ما ميافي في اول الفصل ٣١ الماش .

٣) سورة البراءة : ٢٩ .

ان الفتوحات الاسلامية التي نمت في القرن الاول تعتبر ، من حيث الخطورة التاريخية ، في منزلة فتوحات الاسكندر. وهذا هما الحدثان البارزان في تاريخ الشرق الادنى السياسي والحضاري قديماً. في غضون الالف سنة التي تلت فتوحات الاسكندر ، كانت الحياة الحضرية في سوريا والبلدان المجاورة تحول نحو الغرب عبر البحر ، وتنسم بطابعه . اما الان ، فقد اتجه هذا التحول شرقاً عبر الصحراء ، ولم تلبث آخر الصلات بروما وبيزنطية ان انفصمت ، وانشئت مكانها صلات جديدة عبكة والمدينة . وكان هذا التحول بالمعنى الضيق ردة الى القديم ، ذلك لأن الحضارة العربية الاسلامية لم تبدع الكثير من العناصر الاصيلة ، بل كانت بالاولى انعماشاً للحضارة السامية القديمة^١ فالحضارة الهلينية من هذه الناحية ، اتفا هي ظاهرة دخيلة بين حضارتين متجلستين .

وفي مدى عقد من الزمان بدل الفتح الاسلامي وجه الشرق الادنى ، وفي مدى قرن بدل وجه العالم المتدين . وذلك فوق ما يستطيع فتح الاسكندر ان يدعوه . والفتحات الاسلامية بعيدة عن ان تعتبر من قبل الاحداث العارضة ، فقد قام الدليل على انها كانت عاملاً حاسماً في تطوير مجتمع العصور الوسطى ، وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية ، قاطعة بذلك الصلة البحرية بين الشرق والغرب . هذا فضلاً عن ان احتلال شواطئ المتوسط ، الشرقية والغربية والجنوبية ، كوت عالمًا جديداً هو العالم الذي عاش فيه شارلماן (٧٦٨ - ٨١٤) ومعاصروه . وبذلك انتهى العصر القديم وبدأت العصور الوسطى^٢ .

Hitti, *History of the Arabs*, p. 174-75 (١)

(٢) هذا ما ذهب اليه هنري بيرن في بحثه : *Mahomet et Charlemagne*, 7th. ed. (Brus- sels, 1935) ; do., *Histoire de l'Europe* (Paris, 1936), pp. 18-24.

الفصل الثاني والثلاثون الأدارة العَسْبَرِيَّة

كانت المعضلة التالية التي واجهها العرب : كيف يتيسر لهم ان يديروا هذه الملوكات الجديدة؟ فقد افاق العرب من نشوة النصر العظيم ليجدوا انفسهم تجاه معضلة، لم يكونوا مهيئين لمعالجتها كاينبغي ، اذ لم يتهيأ لهم في ماضיהם من الخبرة ما يمكن ان يغولوا في ذلك عليه . وبين ان سنت المجتمع البدائي في المدينة لم تكن تفي بالغرض ، وكذلك شرائع المجتمع الاسلامي الجديد ، فانها لم تكن قابلة التطبيق ، ذلك لأن الامم المغلوبة لم تكن بعد قد اعتنقت الاسلام .

عهد عمر

وكان عمر اول من واجه هذا المشكل . في اليوم المعروف بـ « يوم الجابية » عقد مؤتمراً دام ثلاثة اسابيع ، بحث فيه مع قواده المشكل الراهن . الا انه لم يعرف بالضبط ما الذي اسفر عنه هذا المؤتمر ، ولا وقف احد تماماً على بنود الاتفاق الذي اشتهر بـ « عهد عمر »^١ . ولئن كان هذا العهد قد تحدى علينا برويات متعددة^٢ ، فان هذه الروايات ، على اختلافها ، قد استندت على احكام تابعة لعصور متأخرة . وبديهي ان عمر لم يكن ليضع احكاماً حالات لم تكن بعد قد بورزت الى حيز الوجود .

A. S. Tritton, *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects* (Oxford, 1930), p. 12.

(١) راجع ابن عساكر ، ج ١ ، ص ١٧٨ - ٨٠ ، ٥١ - ١٥٠ ؛ الابشيبي ، المستطرف ، (القاهرة ١٣١٤ هـ) ج ١ ، ص ٩٩ .

لكن من المتحمل ان تكون بعض المبادئ، الواردة في العهد المذكور بما تجلت فيه سياسة عمر. وفي طبيعة ذلك ان يكون المسلمين العرب في البلاد المحتلة بثابة طبقة ارستقراطية دينية عسكرية، فيحافظون على نقاوة دمهم، ويعتنون عن مخالطة المواطنين، فلا يقتلون المزارع، ولا يعملون في الارض. اما الشعوب المغلوبة فقد جعلوا في وضع خاصٍ عرفاً فيها بـ «أهل الذمة»^١. وقد ترتب عليهم، بحكم هذا الوضع، ان يؤدوا اتاوة تشمل على ضريبة الارض (الخروج في ما بعد) وعلى ضريبة الدخل (الجزية في ما بعد)، لكنهم دخلوا في حياة الاسلام واعفوا من التجنيد، اذ كان من حق المسلم وحده ان يتلقى الحسام مدافعاً عن حياض الاسلام. هكذا نشأ مبدأ المبaitة بين الغالب والمغولب، وغدا اصلاً ثابتاً من اصول السياسة.

ومبدأ آخر يناسب فضل سنّه الى عمر، هو ان ما سقط في ايدي المغاربين من اموال منقولة واموال حرب اما هو داخل في القنبلة، وهو من نصيب المقاتلين، كما كان الى حينه. وليست الارض كذلك، اذ هي من حق جهود المسلمين، يتالف منها ومن سائر الاموال التي تحبى من الرعایا ما يعرف بـ «القي». على ان الذين تعهدوا اراضي القي، يقوى بذلك ضريبة الخراج مع اعتناقه الاسلام.

ومن الجلي ان نظام الضرائب الذي جعلته الاخبار المنقولة من محدثات عمر اغا جاء في اعتاب سينين كثيرة من التجربة والاختبار. فالخلفاء الاولون وولاة الامصار لا يتحملون قد استبطوا وفرضوا نظاماً من الضرائب وgearاً من الادارة المالية. فقد كان ايسراً عليهم ان يواصلوا باسم الله، نظام الحكم البيزنطي القائم في الاقاليم، والذي كان مرعاً في سوريا ومصر. فكان نظام الضرائب في الامبراطورية الاسلامية لذلك مختلفاً بين مكان وآخر بحسب طبيعة التربية وتبعاً للنظام المحلي السابق (بيزنطياً كان او فارسياً) لا يقتضي الحالة التي تم فيها فتح

١) قصد به اصلاً «أهل الكتاب» اي اليهود والنصارى وصائبة العراق. ووسع في ما بعد حتى تمل الزرديتين وسوان.

البلاد : صلحاً او عنوةً . اما التعليل الذي جرت عليه المصادر العربية^١ لاختلاف الضرائب باختلاف نوع الفتح فواضح انه رواية شرعية متأخرة . بل حتى التفريق ما بين الجزية كضريبة على الشخص ، والخراج (من خوريها اليونانية ؟ او من الارامية) كضريبة على الارض ، لا يمكن ان يكون قد نأى في عهد باكر كعهد عمر . ولا شبهة في ان التعبيرين قد تعاقبا على معنى واحد وهو الضريبة بالدلول العام . فقد وردت لفظة «جزية» في القرآن مرة واحدة (التوبية : ٢٩) وفي غير قرينة شرعية . وكذلك لفظة «خراج» فإنها وردت مرة واحدة كذلك (المؤمنون ٧٤) وبمعنى مختلف دلالة عن ضريبة الارض . فالتفرق بين الجزية والخراج ، والحالة هذه ، لم تتضح حتى العهد الاموي المتأخر .

وضريبة الجزية دلالة على احتطاط المنزلة ، وكانت تؤدي دفعه واحدة . اما مقدارها فكان في الغالب اربعة دنانير^٢ لن عدّ من طبقة الاغنياء ، ودينارين لمن اعتبر من متوسطي الحال ، وديناراً واحداً لمن كان من الفقراء . وقد اعني منها النساء والاطفال والمستعطفون والمسنون والمرضى ، الا من كان منهم ذا دخل شخصي مستقل . لكن الخراج كان يدفع مقططاً وبالنوع . يؤخذ من الماشية ومحصول الارض ، ولا يقبل من الخنازير ولا نسمية من الدواب ولا المحر ، بما نص القرآن على تحريمه . وربما ترب على الشعوب الملاوية ان تدفع ، فضلاً عما تقدم ، ضرائب اخرى لاعالة جند المسلمين .

المناطق العسكرية

ولقد تم في مؤتمر الجابية تقسيم سوريا الى اربعة اجناد ، تبعاً للإقليم البيزنطي الاربعة التي كانت زمن الفتح ، هي : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الاردن ،

١) الماوردي : الاحكام السلطانية ، نشر م. اثغر (بون ، ١٨٥٣) ص ٢٥٣ - ٥٦ ؛ ابو يوسف كتاب الخراج (القاهرة ، ١٣٤٦) ص ٤٦ ؛ البلاذري : ص ١٢٠ - ٢١ .

٢) لفظة دينار العربية من اليونانية : ديناريوس ؛ وقد كان الوحدة النقود الذهبية في الخلافة وكان يزن نحو اربعة غرامات . وكان الدينار في عهد عمر يساوي عشرة دراهم ، وغداً معادلاً لاثنتي عشر درهماً بعد ذلك .

و Gund فلسطين ؟ فاشتمل جند الاردن على الجليل وامتد شرقاً حتى الصحراء، وشمل جند فلسطين المنطقة الواقعه الى الجنوب من سهل مرج ابن عامر . وقد اضاف الخليفة يزيد بن معاوية، في ما بعد، جنداً خامساً هو جند قنسرين ، سلخه عن حمص، وضم اليه انطاكية ومنبع الجزيره^١. ثم ان الخليفة عبد الملك بن مروان فصل منطقة الجزيره وجعلها جنداً مستقلاً اما معسکر الجابيـة فقد بقى ، الى حين ، بثابة العاصمه . ثم نشأت معسکرات اخرى في جوار حمص وعمواس^٢ وطبرية^٣ (جند الاردن) والد (جند فلسطين). وقد حل ، في ما بعد ، معسکر الرملة محل معسکر الد.

وما ان استوطن الجنود العرب هذه المناطق المحتله ، حتى استحضروا اسرم الى هذه المعسکرات . وكانت الكثيرات من زوجاتهم او جوارتهم ، ولا دين ، من سبايا البلاد المحتله . ولما كان هؤلاء الجنود من المغاربين والمقاتلين ، فقد كانت لهم من الحقوق والفضليـات ما لم يكن للوافدين المتأخرـين من الجزيرـة العربية . وكان على رأس الجنـد القـائد الـاعـلـى وـالـحاـكم الـعام ، الذي جـمع في شخصـه جـمـيع السـلـطـات التـنـفيـذـية وـالـقضـائـية وـالـعـسـكـرـية . الا انه ابقى على هيكل الجهاز الحكومي البيزنطي ، واحتفظ بالموظـفين الـاهـلـيين ، الذين لم يـغـادـروا الـبلـاد اـبـان الفـتـح ، في مناصـبـهم . ذلك لـانـه لم يـكـنـ لـدـيـ العـربـ رجالـ مدـربـون يـحملـونـ هـؤـلـاءـ الموـظـفـين . وـفـضـلـاًـ عـنـ ذـلـكـ ، فـقـدـ كـانـتـ عـنـاـيـتـهـمـ مـوـجـهـةـ بـالـدـرـجـةـ الـأـوـلـىـ نحوـ توـثـيقـ سـيـطـرـتـهـمـ عـلـىـ الـبـلـادـ الـمـحـتـلـةـ ، وـجـيـاـيـةـ الـضـرـائبـ الـمـرـتـبـةـ عـلـىـ أـهـلـهـاـ ! وـعـلـىـهـ فـقـدـ كـانـتـ الـحـكـوـمـةـ الـعـرـبـيـةـ الـاقـلـيمـيـةـ ، فيـ دورـهاـ الـبـدـائـيـ ، سـوـاءـ فيـ سـوـرـيـةـ اوـ مـصـرـ اوـ الـمـرـاقـ ، حـكـوـمـةـ عـسـكـرـيـةـ مـحـضـةـ ، ذاتـ هـدـفـ مـاـلـيـ وـاضـعـ .

(١) ياقوت، ج ١، ص ١٣٦؛ البلاذرـيـ من ١٣١ - ١٣٢؛ قـابـيلـ الـيمـقـوريـ ج ٢، ص ١٧٦ :

راجع المـارـطةـ من ٩ـ منـ هـذـاـ المـزـهـ .

(٢) اوـ هيـ عـمـواسـ : اـنجـيلـ لـوقـاـ ٢٤: ١٣ .

(٣) هيـ طـبـرـيـةـ الـمـدـيـنـةـ .

(٤) J. Wellhausen, *Das arabische Reich und sein Sturz* (Berlin, 1902), pp. 18, 20-21 ; tr. Margaret G. Weir, *the Arab Kingdom and its Fall*, (Calcutta, 1927), pp. 28, 32.

طاعون عمواس

و قبل انصرام العام الذي عقد فيه مؤتمر الحادية (٦٣٩) ، ظهر في عمواس وبأ^١
خفيف ، فتاك في الجنود فتكاً ذريعاً وقضى ، في ما روي ، على زهاء ٢٠،٠٠٠ منهم ،
بينهم القائد الأعلى أبو عبيدة^٢ وخلفه يزيد^٣ وعلى الأثر عن عمر معاوية في مكان
أخيه الأكبر يزيد ، وكان ذلك سنة ٦٤٠ . وبقي معاوية لمدة عشرين سنة حاكماً
على سوريا وسيد الموقف فيها ، واستمر لمدة عشرين سنة أخرى خليفة المسلمين ،
نافذ السلطان في العالم الإسلامي . وحينما غدت سوريا ، في أيام حكمه قاعدة لخلافة ،
استهلت عهداً من القيادة والسيادة استمر ما يقرب من قرن .

معاوية في عهد ولايته

ان السياسة التي استنها معاوية الوالي هي السياسة التي اتبعها معاوية الخليفة ،
فتحقق له بذلك المقام البارز الثابت في عالم الشهرة بين العرب . فقد جعل نقطة
الانطلاق في سياسته تعهد رعيته السورية الجديدة الذين كانوا الى حينه على النصرانية ،
وكذلك القبائل العربية التي سبق ان استوطنت البلاد منذ المهد الجاهلي واعتنت
النصرانية ، نظير الفسasseنة . ولقد كان الكثير من هذه القبائل ترتفق بنسابها الى
عرب الجنوب ، خلافاً للنازحين المتأخرین الذين كانوا من عرب الشمال . وقد اختار
معاوية ، زوجة له ، امرأة مسيحية يعقوبية هي ميسون ابنة بحدل ، من بنى كلب
من عرب الجنوب ، احتفظت بديتها وغدت ام يزيد . وكان طبيب معاوية الخاص ،
وشاعر بلاطه مسيحيين ايضاً^٤ . واحتفظ معاوية بنصوص بن سرجون^٥ مديرًا مالية

١) لا تزال ذكراء ، نظير ذكرى سواه من عاربي المسلمين الاولين ، تحيياً كذلك ذكرى الاولاء .

٢) البيهقي ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ؛ الطبرى ، ج ١ ، من ٢٥١٦ - ٢٥٢٠ ؛ ابن عساكرة ، ج ١ ،
ص ١٧٥ - ٧٧ .

٣) انظر ما سأقى في الفصل ٣٣ تحت مأثر أخرى والفصل ٣٨ تحت مواضيع الشعر والتربية والعلوم .

٤) ورد ذكره في ص ٨ من هذا الجزء .

الدولة. هذا وان المدونات العربية لتشهد على الاخلاص الذي كان السوريون يكتونه حاكمهم الجديد، بداعي سياسة المستنيرة السمححة^١.

وشرع معاوية بعد ذلك في تنظيم الولاية على اسس ثابتة، فعمد إلى الفناصر الخام التي تألف منها الجيش وصهرها، ثم سبّك منها جيشاً مدرباً من الطبقة الأولى، هو الاول من نوعه في الاسلام. وبذلك ابطل النظام القبلي القديم الذي كان من بقايا عهد الزعامات السلالية. ولم يعترضه اي تدخل من قبل المدينة، لأن الخليفة الجديد عثمان (٦٤٤ - ٥٦)، الذي تولى بعد عمر، كان نسيباً له، اذ كان كلاهما من امية، وهي فرع ارستقراطي من فروع قريش. اما محمد فكان ينتمي إلى عشيرة أخرى من تلك القبيلة. وقد ابقى معاوية الجيش على قدم الاستعداد، بمواصلة الغارات الفعلية على بلاد الروم.

بناء اول اسطول

ولقد ثبتت معاوية ان جيشاً مخلصاً جيد التدريب لا يفي وحده بمحاجة منطقة ساحلية. وكان قد ظفر في عكا باحواض بيزنطية لبناء السفن وافية التجهيز^٢، فعمد إلى تشغيلها بحيث غدت الاولى من نوعها، بعد دار الصناعة في الاسكندرية. وكانت اسحراج لبناء آنثذ غصة، فكانت تخدم هذه الصناعة بالخشب اللازم. وقد نقل الامويون هذه الاحواض، في ما بعد، إلى مدينة صور^٣. وكان الاسطول الاسلامي مجهزاً، ولا شك، بلاحين من الروم السوريين ذوي الخبرة الطويلة في رياضة البحار.

قامت الجملة البحرية الاولى من عكا سنة ٦٤٩ مستهدفة جزيرة قبرس وقد

١) الطبرى، ج ١، ص ٣٤٠٩ - ١٠؛ المسعودى، ج ٥، ص ٨٠، ١٠٤؛ قابل العقد، ج ١، ص ٢٠٧.

٢) البلاذرى، ص ١١٧.

٣) البلاذرى ص ١١٧ - ١٨؛ Guy le Strange, *Palestine under the Moslems* (Boston, 1890), p. 342.

أشهت مدينة مسدة نحو قلب سوريا. وكتب معاوية الى الخليفة عثمان يصف قرب الجزيرة من سوريا فذكر «ان قرية من قرى حمص لسمع اهلها نباح كلابهم [اي كلاب الروم] وصياح دجاجهم حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر» على ان عثمان لم يوافق على مشروع الحلة موافقة تامة بل اشترط على معاوية ان يصطحب زوجته ، للتدليل على قرب الجزيرة ، وعلى صحة تقديره لسهولة اخضاعها^١. وقد جعلت هذه الحلة البحرية من معاوية الامiral الاول في تاريخ العرب^٢. اما عمر ، الخليفة الذي سبق عثمان ، فقد رفض قطعاً ان يسمح بهذه الحلة البحرية ، كما سبق له ان فعل في ما اتصل بافريقيا . والتوصيات التي ارسل بها الى عمرو بن العاص تشهد على الرعب الذي يخالج ابن الصحراء من البحر : «لا تجعل بيتي وبينك ما واتلوا موضعآ متى اردت ان اركب راحتي واصير اليك فلت^٣ .

الاسطول البيزنطي يشرف على التلف

وقد اسفرت الحلة البحرية الاولى في تاريخ الاسلام عن كسب جزيرة قبرس ، واوصلتهم الثانية (٦٥٤) الى جزيرة رودس . وبعد ذلك بعامين بيعت بقاليان نفسها العظيم – وهو تمثال ابيولو الذي بلغ ارتفاعه مئة وعشرين قدماً ، واعتبر احدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم – الى تاجر حطام معدنية ، روى انه استخدم لنقلها تسع مئة جل . وفي سنة ٦٥٥ وقع اشتباك بحري بين الاسطول السوري يقوده بسر بن ابي ارطاة ، والاسطول المصري من جهة ، وبين الاسطول الروسي وهو بقيادة الامiral قسطنطين الثاني حفييد هرقل من جهة ثانية ، وذلك عند فونكس (فينيكي حديثاً) على ساحل ليكيا . واسفر الصدام عن اول انتصار

١) الطبرى ج ١، ص ٢٨٢٠ - ٢١ .

٢) البلاذري ، ص ١٥٢ - ٥٣ .

٣) «امiral» لنظرة من اصل عزي «امير البحر» لم تتسرب الى اللغات الاوروبية الا بعد المهد العربي الاسلامي .

٤) اليسقوفي ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ؛ قابل ابن الطقطلي - الفخرى نشر ديرنبرغ (باريس ١٨٩٤-

٩٥) ص ١١٤ .

بحري عظيم احرزه المسلمون . ولقد دعيت هذه المعركة في الاخبار العربية بذى (او ذات) الصواري^١ ، وذلك اما لان المكان كان مكتظاً باشجار السرو . او تبعاً للعدد العظيم من الصواري التي ارتفعت من السفن الكثيرة التي اشتبت في القتال . ولقد عمد العرب فيها الى ربط كل سفينة عربية بسفينة رومية ، محولين بذلك المعركة البحرية الى قتالٍ بالسلاح الابيض ، وهو القتال الذي الفوه . فأنزلت هذه الواقعه في القوات البحريه البيزنطيه ما انزلته في قواتهم البريه واقعة اليروموك^٢ ، اي انها ابادتهم . وقد ذكر الطبرى^٣ ان مياه البحر غدت مشبعة بالدماء .

على ان معاوية لم يستطع ان يستغل هذه الانتصارات التي احرزها القواد وامراء البحر ، استغلالاً تاماً . اذ كان العالم الاسلامي يتمخض باضطرابات داخلية تتذر بنشوب حرب اهلية . لذلك بدأ له من المناسب ، في سنة ٦٥٨ او ٦٥٩ ، ان يعقد هدنة مع قسطنطين الثاني في مقابل دية ، يدفعها اليه سنويًا ، اى على ذكرها ثيوفانس^٤ وأشار اليها البلاذري اشارة عابرة^٥ . لكن دفع الديه لم يلبث ان توقف ، واستؤنفت من ثم الاعمال العدائية ، ضد العدو الرايبن ابداً في الشمال ، برياً وبحراً .

١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، نشر شارل تورى (ليدن ، ١٩٢٠) من ١٨٩ - ٩٠ ؛ الطبرى ، ج ١ ، ص ٢٨٦٥ ، ٢٩٢٧ .

٢) Theophanes, pp. 332, 345-6.

٣) الطبرى ، ج ١ ، ص ٨٦٨ .

٤) Theophanes, p. 347.

٥) البلاذري من ١٥٩ .

الفصل الثاني والثلاثون

خلافة الراشدين

شهد الاسلام في ١٦ حزيران ٦٥٦ اول حادثة اغتيال فيها خليفة بيد مسلم . وال الخليفة هو عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاء الراشدين . وانا عرف الخلفاء الاربعة الاول بالراشدين لأنهم كانوا جيئاً من اقرباء النبي المقربين وصحبه الملازمين ، ولأنهم حاولوا ان يسيروا في تدبير امور الدولة سيرته ويأتوا بتوجيهاته وارشاداته . ذلك ان ما فرضته عليهم شخصية محمد وسيرته من الميبة كان لا يزال عاملاً فعالاً في حياتهم . وقد كانوا جميعهم إلا عثمان من المؤمنين الاولين ، وكانت المدينة عاصمتهم .

الخلفاء الراشدون

١	أبو بكر	...	٦٣٤ - ٦٣٢
٢	عمر	...	٦٣٤ - ٦٤٤
٣	عثمان	...	٦٤٤ - ٦٥٦
٤	علي	...	٦٥٦ - ٦٦١

ولم يوصي احد من هؤلاء الخلفاء بالخلافة لابنه من بعده ، ولا اسس مسلاة

١) المراد بال الخليفة : خليفة محمد بكل اعتبار ما عدا النبوة ؛ كان محمد خاتم الانبياء فلا يمكن ان يكون له خليفة . وعليه فالخلافة منصب مدني محض . واذ لم يكن في الاسلام نظم كهنوتى ولا سلطة كهنوتية امتنع ان يكون على رأسه رجل يقابل البلا . اما الرأى الخالقى فلم يلق انتشاراً واسعاً حتى او اخر القرن الثامن عشر . انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp.185-6

مالكة. بل قد ولـي كل منهم بالبيعة ؟ وهي ان يتقدم زعماء الناس وشيخ القبائل، ويأخذوا بيد المرشح ، فعلاً او رمزاً ، دلالة على الـاـلـاـهـةـ .

عهد الرـاـشـدـين عـهـدـ المـشـيخـةـ

عاش الخلفاء الراشدون في نظام مشيخي بسيط ، لكنهم انجزوا الكثير من جليل الاعمال . فأبوبكر ، وهو حـوـالـيـ واـكـبـرـ منه بـثـلـاثـ سـنـوـاتـ ، اـخـضـعـ الجـزـيرـةـ العـرـبـيـةـ ، وـرـدـ إـلـيـهاـ الـحـيـاةـ الـمـادـةـ ؟ وـقـدـ اـطـلـقـ عـلـيـهـ ، بـفـضـلـ سـلـامـةـ طـوـيـتـهـ ، لـقـبـ الصـدـيقـ . وـكـانـ عـمـرـ السـابـقـ إـلـىـ جـعـلـ سـنـةـ المـجـرـةـ (٦٢٢)ـ السـنـةـ الـتـيـ بـدـأـ منهاـ العـصـرـ الـاسـلـامـيـ ؟ وـهـوـ الـذـيـ رـعـىـ سـيـرـ الـفـتوـحـاتـ فيـ اـقـسـامـ كـبـرـيـ منـ الـعـالـمـ المـرـوـفـ حـيـنـذـاكـ ؟ وـكـانـ الـبـادـيـ فيـ اـنـشـاءـ دـيـوـانـ (١)ـ الـدـوـلـةـ ، وـتـنظـيمـ حـكـومـاتـ الـلـوـلـاـيـاتـ فيـ الـمـاـنـاطـقـ الـمـخـتـلـفـةـ . وـقـدـ سـقـطـ عـمـرـ بـطـعـنـةـ مـسـوـمـ سـدـدـهـ إـلـيـهـ موـلـيـ نـصـارـاـيـ فـارـسـيـ (٢)ـ ، وـلـكـنـ عـمـرـ تـرـكـ فيـ التـارـيـخـ ذـكـرـاـ حـيـاـ رـفـعـهـ إـلـىـ مـرـتـبـةـ اـعـظـمـ رـجـلـ فيـ الـعـهـدـ الـاسـلـامـيـ الـأـوـلـ بـعـدـ النـبـيـ .

كان عثمان عنـصـراـ غـرـيـباـ فيـ سـلـسلـةـ مـتـنـاسـقـةـ منـ الشـخـصـيـاتـ . فـقـدـ كـانـ منـ بـيـتـ اـمـيـةـ وـهـوـ فـرعـ اـرـسـتـقـراـطـيـ منـ قـرـيـشـ قـاـوـمـ الدـعـوـةـ إـلـىـ أـنـ سـقطـتـ مـكـةـ فيـ يـدـ مـحـمـدـ (٦٢٩ـ - ٦٣٠ـ)ـ . وـذـلـكـ قـبـلـ وـفـاءـ النـبـيـ بـعـامـينـ . وـكـانـ بـنـوـ اـمـيـةـ حـمـةـ الـكـعـبـةـ فـكـانـواـ يـجـنـونـ مـنـ حـجـ النـاسـ إـلـيـهـ مـوـارـدـ ذاتـ باـلـ . لـذـلـكـ كـانـ قـبـولـ الدـعـوـةـ يـلـحـقـ بـهـمـ مـنـ الـاـضـرـارـ مـاـ لـاـ يـصـبـ سـوـاهـ مـنـ قـبـلـهـاـ وـقـدـ تـمـ فيـ خـلـافـةـ عـثـمـانـ جـمـعـ الـقـرـآنـ وـضـبـطـ نـصـهـ مـاـ اـعـطـيـ كـلـامـ اللهـ شـكـلـاـ تـابـتـاـ لـاـ يـقـبـلـ التـغـيـيرـ ، حـافـظـ عـلـيـهـ حـتـىـ الـوقـتـ الـحـاضـرـ . وـتـحـقـقـ فـيـ عـهـدـ فـتـحـ فـارـسـ وـإـذـريـجـانـ وـقـسـمـ اـرـمـينـيـاـ . عـلـىـ اـنـ سـيـرـتـهـ لـمـ تـكـنـ خـالـيـةـ مـنـ اـسـبـابـ الـلـوـمـ ، اـذـ وـتـلـىـ أـخـاهـ بـالـرـضـاعـةـ عـلـىـ مـصـرـ وـكـانـ وـاحـدـاـ مـنـ عـشـرـةـ اـشـخـاصـ اـقـصـامـ مـحـمـدـيـوـمـ دـخـلـ مـكـةـ ؟ وـعـيـنـ اـخـاهـ مـنـ أـمـهـ وـالـيـاـ

(١) هذا الـديـوـانـ الـذـيـ نـظمـ دـخـلـ الـلـوـلـةـ وـخـرـجـهاـ تـقـلـ بـعـدـئـيـ عنـ النـظـامـ الـفـارـسـيـ كـاـ تـدلـ لـفـلـةـ دـيـوـانـ الـفـارـسـيـ بـالـذـاتـ ؛ الفـغـرـيـ مـنـ ١١٦ـ ؛ الـمـاـورـدـيـ ، مـنـ ٣٤٣ـ - ٣٤٤ـ . Hitti, *History of the Arabs*, p. 172.

(٢) الطـبـرـيـ ، جـ ١ـ ، صـ ٧٣ـ - ٢٧٢ـ ؛ الـيـعـقـوـيـ ، جـ ٢ـ ، صـ ١٨٣ـ .

على الكوفة وكان قد اساء الى محمدٍ واقام ابن عم له^١ اميناً على ديوان الدولة. اما الخليفة نفسه فقد قبل المدايا من عمّاله ومن اعوانهم ، وكان منها جارية جميلة ارسلت اليه من البصرة . لذلك وجهت اليهم التحiz لاقربائه ، والمحاباة في الحكم ، وعمد ثلاثة من الطامعين بالخلافة الى اشاعة السخط بين الناس . وكان هؤلاء الالاته من قريش ، وكان في طليعتهم عليٌّ^٢.

قضية علي

وقد كان عليٌّ ، من اول الامر ، مشاريعون مخلصون ، يعتقدون دينياً انه هو صاحب الحق بالخلافة ، وانه كان ينبغي له هو ان يتولّها ، دون سواه ، بعد محمد سنة ٦٣٣ . فقد ذهب هؤلاء الى ان علياً كان اولى الناس بها لانه ابن عم النبي^٣ ، وكان الثاني او الثالث بين من آمنوا بالرسالة ، وزوجاً لابنة النبي الوحيدة (فاطمة) التي قدر لها ان تبقى بعده في قيد الحياة ، ووالداً للحسن والحسين وهم كل من ترك النبي من ذرية . بل قد ذهبوا الى ما هو ابعد من ذلك ، فاعتقدوا ان تولي هذا المنصب ، وهو ارفع منصب في الاسلام ، لا يمكن ان يكون قد ترك وهنّا عيول الناخبيين وزواجهم . وانه لا بد من ان يكون الله و محمد قد اعدا له ما يلزم ، وان علياً هو الشخص الذي اعداه له . وهذا من شأنه ان يجعل علياً الخليفة الشرعي الوحيد للنبي ، وينزل خلفاءه الاخرين عنزة المقصيين . وقد تقرر عند هؤلاء المشاريع ان الولاية بعد عليٍّ هي لنوريته وذلك بحكم الحق الموروث .

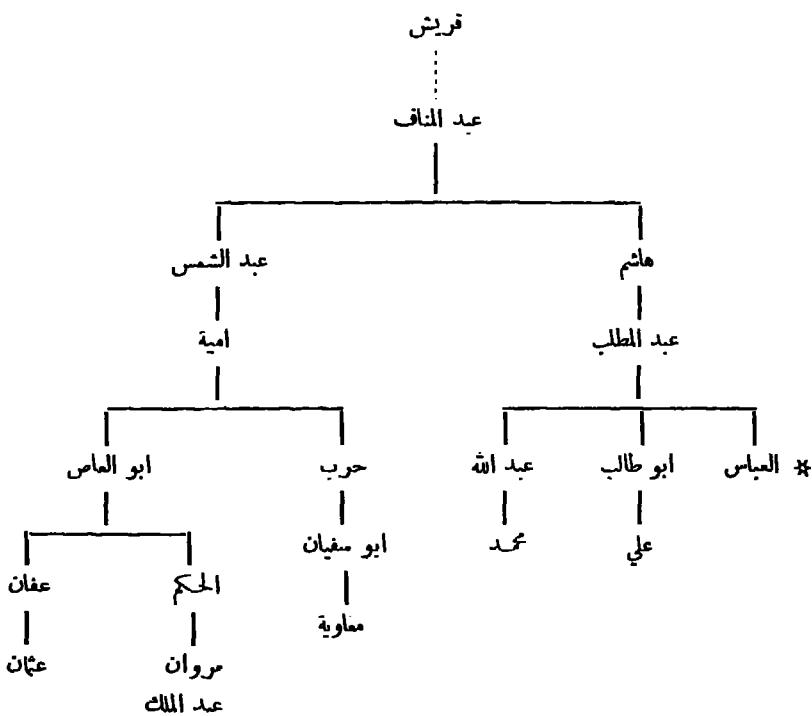
ثم ان العلوين نظموا حزباً قوياً في الكوفة . ومن الكوفة ابعت شرارة

١) هو مروان بن الحكم ، الذي غدا في ما بعد احد خلفاء الامويين ؛ انظر الجلول الذي سيأتي في الفصل ٣٤ في المامش .

٢) اما الآخرين فهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام ، وهما من المؤمنين الاولين وقدماء الصحابة ، ومن المشرة البشرة الذين وعدم النبي بالذلة .

٣) الشكل النابع يوضح صلة القرابة التي تجمع بين عليٍّ وعثمان وعاوية و محمد : (في ذيل الصفحة التالية) .

الفتنة ضد عثمان ، ومتها امتدت الى مصر ، فسار منها خمس مئة ثائر نحو المدينة في نيسان ٦٥٥ . وقد حاصروا الخليفة الشيخ في بيته ، وكانت اليد السابقة الى اعتياله يد ابن ايي بكر صديقه وقد هوت عليه فيما كان يقرأ المصحف الذي سبق له ان جعله المصحف الام^١ . وبعد مداوله قصيرة بويع على بالخلافة .



١) هنالك مدن عديدة تدعى شرف الاحتفاظ بهذا المصحف ، ودم عثمان يلطخ منه الصفحة التي ورد فيها قوله تعالى : « اذ قال له رب اسلم . قال أسلت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنه ويعقوب : يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا ترثون الا واثق مسلون . ام كتم شهادة اذ حضر يعقوب الموت ؟ اذ قال لبنيه ما تبليدون بعدي . قالوا تعبد إلهك إله آياتك ابراهيم واستأعمالك واسحاق اهلاً واحداً وغبن لهم مسلون » وقد قيل لابن بطيولة اذ زار احد مساجد البصرة سنة ١٣٦٦ ان فيه مصحف عثمان . اقتصر : فحة الغلار في غرائب الاصمار وعجبات الامفار ، نشر وترجمة C. Defrémery و B. R. Sanguinet . ج ٢ (باريس ١٨٩٤) من ١٠ - ١١ .

خلافة علي

كانت خلافة علي حافلة بالقلق من اولها الى منهاها، وكانت مشكلته الاولى: كيف يتخلص من منافسيه الباقيين طلحه والزبير، وقد رفضا واتبعهما في الجزار والعراق ان يعترفوا بولايته. وقد زاد موقف المعارضين قرة انفاسه عائشة، زوجة النبي الاية، الى صفوهم. وكانت عائشة تضرر لعلي بغضًّا دفينًا: ذلك ان علياً اثار حولها ريبة في صباحتها اذ تختلف يوماً عن ركب النبي في بعض اسفاره. فجاء على الاثر الوحي من الله مؤيداً لها ناطقاً ببراءتها^١. وقد التحتمت المعركة في ظاهر البصرة في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ ودعى «يوم الجمل» نسبة للجمل الذي كانت عائشة راكبة عليه. وقد صرخ في هذه المعركة منافساً على كلها^٢، واسرت عائشة، وعملت بما يليق بـ«ام المؤمنين». وهكذا انتهت الحرب الاهلية الاولى في الاسلام. واقام على في الكوفة عاصمه الجديدة وكأنه الخليفة غير المنازع. لكن العهد لم يطل حتى أتت الحرب الاهلية الثانية.

معاوية في الميدان

ولم يحجم عن مبايعة على الا واحد من الولاة هو معاوية. ومعاوية، وهو والي ورية ونائب عثمان، برب الآن مطالبًا بثأر الخليفة القتيل. وقد طبع الحادث بالطابع الروائي فأخذ يعرض، في مسجد دمشق، قميص عثمان الملطخ بالدم والانامل التي قطعت من يد زوجته نائلة فيما كانت تدافع عنه^٣. وهي عربية سورية من بني كلب نظير زوجة معاوية. ولقد كان معاوية حريصاً على اخفاء اغراضه الخاصة، لكنه صارح علياً باسر اوجهه في ورطة وبيلة اذ جعله بين امرتين: فإما ان يعاقب القاتلين، او ان يقر ضئلاً بالتوأط عليهم. والاقصاص من القاتلين كان بما لا

١) سورة النور، ١٢، ١١.

٢) الطبرى، ج ١، ص ٣٢١٨ وما بعد.

٣) الفخرى، ص ١٢٥، ١٣٧.

يقدم على عليه، بل ولا يقوى عليه. لكن المسألة في اساسها كانت تتجاوز الاعتبارات الشخصية الى مركز الرعامة في العالم الاسلامي: هل يكون في العراق ام في سوريا، وفي مدينة الكوفة ام في مدينة دمشق؟ اما المدينة المنورة فلم تكن في الحسبان. ذلك لأن الفتوحات الواسعة كانت قد فرّجت قلب الدولة الى الشهاب ، واحالت العاصمة السابقة الى مقام فرعي .

الحرب الاهلية الثانية

واخيراً التقى الجيشان في سهل صفين^١ : الجيش العراقي بامرة علي ، والسوسي بامرة معاوية. وبعد مناورات استمرت بضعة اسابيع نشبت المعركة في ٢٦ تموز سنة ٦٥٧ . وبعد ثلاثة ايام من القتال الشديد بات النصر في جانب علي واوشك ان يتم له ، واذا بالمحاشف ترفع على أستة الرماح ! وقد اعتبرت هذه البداية – كائناً ما كان المفهوم منها – عبئاً دعوة للجانبين الى تحكيم القرآن في موضوع التزاع مكان السلاح . ولما كانت حيلة بلا اليها عمرو بن العاص ، قائد رجال معاوية ، وهو من عرف بالذكر الشديد والدهاء البالغ . وعلى الائز توقف القتال ، ووافق على بوحي تقاه وسلامة طويته. على اقتراح معاوية بتحكيم كلام الله حقن الدماء المسلمين^٢.

التحكيم

عن علي بمثابة عنه في التحكيم ابا موسى الاشعري ، وهو رجل لا يشوب تقاه ريب ، الا ان ولاده لعلي كان موضعآ للشك . وقد تحدّاه معاوية بعمرو بن العاص ، وهو بين دهاء العرب الاربعة في الاسلام^٣ ، ومنهم معاوية نفسه^٤. فقد الحكمان ،

١) هو سهل الى الجنوب من الرقة على ضفة الفرات التربية . الطبرى ، ج ١ ص ٣٢٥٦ وما بعد ؛ البيقونى ، ج ٢ ، من ٢١٨ وما بعد ؛ الديتوري ، الاخبار الطوال ، نشر Vladimir Guirass (لبنان ، ١٨٨٨) من ١٧٨ وما بعد .

٢) للاطلاع على نص قرار التحكيم راجع الديتوري ، من ٢٠٦ – ٢٠٨ .

٣) المسو迪 ، ج ٤ ، من ٣٩١ ؛ ابن حجر ، الاصادبة في تبييز الصحابة ، ج ٥ (القاهرة ، ١٩٠٧) ، من ٣ .

٤) لمعرفة الاثنين الآخرين انظر ما سيأتي في الفصل ٣ الفقرة عن اختصار العراق .

وفي صحبة كل منهم أربع مئة من الشهود، اجتمعوا عاماً في كانون الثاني سنة ٦٥٩ في اذرح، على طريق القوافل بين دمشق والمدينة.

والخبر الشائع هو ان الحكمين اتفقا ضمّناً على خلع الزعيمين، وجعل الامر بحداً شورى بين المسلمين. ولكن بعد ان وقف ابو موسى، وهو اكبر الاثنين سنّاً، واعلن انه قد خلع صاحبه، عذر عمرو الى الخدعة وايد زميله في خلع علي^١. على ان الناقدين للحقين في العصر الحاضر يميلون الى الاعتقاد بأن الذي جرى فعلاً هو ان كلا الحكمين خلعا كلا الزعيمين. وهذا مؤداته انت علياً وحده هو الذي خلع اذ لم يكن معاوية خليفة بعد^٢. وواقع الامر ان التحكيم بالذات قد رفع منزلة معاوية الى مقام علي، او حط مقام علي الى مستوى منزلة معاوية، اذ ان قرار الحكمين ازال علياً عن منصب فعلي في حين انه اقصى معاوية عن ادعاء وهي لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به. والحق ان معاوية لم يجاهر بطلب الخلافة الا بعد مضي ستين على التحكيم، وكان علي آنذاك قد قضى نحبه.

وفي صباح ٢٤ كانون الثاني سنة ٦٦١، بينما كان علي في طريقه الى المسجد في مدينة الكوفة سدد اليه احد الحوارج طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته. والزوارج جماعة من اتباع علي اشقوا عنه واتخذوا شعاراً لهم «لا حكم الا لله»^٣، وانقلبوا عليه وغدوا الى اعدائه فقدوا بذلك الفرقة الاولى في الاسلام. على ان حادث الاغيال هذا قد وقع بداع شخصي محض^٤. وبقي المكان المنعزل الذي دفن فيه علي بظاهر الكوفة سراً خافياً طيلة المهد الاموي وصدر العصر العباسي،

١) قابل الفخرى، ص ١٣٠ - ١٢٧؛ المقوى، ج ٢، ص ٢٢٢ - ٢٢٠؛ الطبرى، ج ١، ص ٣٤٠ - ٣٣٦٠؛ المسودى، ج ٤، ص ٣٩٢ - ٤٠٢.

H. Lammens, « Etudes sur le règne du Calife Omairade Mo'awia 1er », (٢) *Mélanges de la faculté orientale*, vol. ii (1907), pp. 17-32; Wellhausen, pp. 57-9; Caetani, vol. x, pp. 6-76.

٣) الفخرى، ص ١٣٠؛ قابل القرآن الكريم : سورة يوسف : ١٧٠ .

٤) المبرد ، الكامل ، نشر William Wright (لندن ، ١٨٦٤) من ٥٤٨ - ٥٥١ .

حتى وقع عليه هارون الرشيد اتفاقاً سنة ١٣٩١. وهذا هو مزار على أو «المشهد» في النجف وهو من اهم مناسك الحج في الاسلام واهماها على الاطلاق لدى الشيعة.

ولقد تبين ان تأثير علي ميتاً كان اشد منه وهو في قيد الحياة. اذ لم يلبث ان غدا في نظر مشاعيه امامهم الاكبر وولي الله عليهم . ولئن كان يعوزه الكثيرون من مقومات الخلق السياسي ، فقد كان غنياً بالموهاب التي تكون ، في نظر العربي ، الانسان الكامل . فقد كان فصيح اللسان ، صائب الرأي ، باسلأ في القتال ، مخلصاً لاصدقائه ، جباراً في نظر خصومه . وقد رفعته الاخبار المروية الى مثال الفتورة الاعلى ، وحفل باسمه من الامثال والخطب والحكم . والاشعار والتوادر ما يجعل منه «سليناً حكيناً» آخر . فسيقه ذو الفقار ، الذي قيل انه كان بيد النبي في معركة بدر المؤورة^٣ قد خلده هذا البيت السائر من الشعر :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتن إلا على

ثم ان عحركة «الفتیان» في الاسلام التي نجت فيها بعد خروأ شيئاً عن نظمات الفروسية في العصور الوسطى اخذت من علي غوذجاً لها ، وكذلك اعتبرته جماعات عديدة من الدراویش عماداً ومنالاً اعلى . وبقي في نظر الكثير من اتباعه ، على مر العصور ، الامام المعصوم ، وغدا في نظر الغلاة منهم تجسيداً للعزّة الالهية^٤.

١) للاطلاع على اقدم التفاصيل عن هذا المدفن راجع ابن حوقل ، ص ١٦٣ .

٢) «المشهد» مكان الشاهد ، والشاهد من شهد ان لا اله الا الله ، لا من سقط شهيداً من اجل حكمة الشهادة . اما لفظة «مقام» فعندها حرفيآ مكان القبر ، لكنها تعنى اصطلاحاً ، موضعآ حل فيه احد الاوليات . وكثيراً ما تستعمل احدى النقطتين مكان الاخرى .

٣) للاطلاع على اخبار هذه العركة راجع : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 116-17

٤) انظر ما سألي في الفصل ٣٢ .

الفصل الثالث والستون

معاوية مؤسس خلافة الاموية

تودي بع او اية خليفة في ايلياه (القدس) في اوائل سنة ١٦٠ ؟ لكنه اختار ان يجعل مدينة دمشق عاصمة خلافته . فقد كانت القدس اقرب الى البدو والعرب من عاصمة الارameans القديمة والقاعدة الحديثة للحكومة البيزنطية الاقليمية ، وكانت المدن الساحلية معرضة للهجوم البحري ؛ وكان يحيي المدينة والكونفه الصحراه من الوراء .

ازاحة المطالبين بالخلافة من الطريق

وقد كان هم معاوية الاول ان يتخلص من المطالبين بالخلافة ، وان يهدى الاحوال ، ويعمل على تحقيق الاستقرار . فوتفت الى ان يعمل مع جماعة من القراد ندر وجود امثالهم بعد ذلك في الاسلام . وكان عمرو بن العاص ، ساعده الاعن قد انتزع مصر (٦٥٨) من سلطة المشائعين لعلي ، فكان كأنما فتح مصر للمرة الثانية . ثم تولاها معاوية^٢ ، واستمر عليها حتى وفاته الاجل سنة ٦٦٣^٣ . اما الحجاز فكان بطبيعة الحال فاتراً في ولائه للخليفة الجديد ؛ ذلك ان مكة والمدينة لم تنسيا ان الامويين تلكلوا في اعتناق الاسلام ، وان اعتقادهم له كان على سبيل المصلحة ، اكثر منه بداعي الاقتناع والاعيان . لكن مهد الاسلام في هذه الائمه

١) في شوال سنة ٤١ هـ على ما ذكره المسعودي ، ج ٥ ، ص ١٤ ؛ وسنة ٤٠ هـ على ما في الطبرى ، ج ٢ ، ص ٤ ، واليقوئى ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

٢) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ وما بعد .

٣) اليقوئى ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٢٦٢ ؛ الطبرى ، ج ١ ، ص ٣٤٠١ - ١١ .

لم يكن مبعثاً لقلائل ذات بال . واما العراق فقد عمد فوراً وعلانية الى الوقوف بجانب الحسن الابن الاكبر لعلي من فاطمة . اذ كان الحسن في رأي العراقيين الحلف الشرعي الوحيد لوالده الذي ذهب ضحية للاغتيال . لكن معاوية استطاع ، على اثر حملة صاعقة (٦٦١) ، أن يحصل من منافسه على تخلٍّ صريح عن جميع مطالبه (مدعياته) . وكان الحسن على كل حال اميل الى الانقطاع الى الشؤون العائلية منه الى الاضطلاع باعباء الحكم ، فعمد الى التنازل لمعاوية في مقابل عطاء سنوي وافر عين هو مقداره ، ثم تحول الى المدينة ، وعاش فيها حياة رغد ورفاهية . وكان هذا العطاء على مدى الحياة ، وقد استهل على خمسة ملايين درهم^١ من بيت مال الكوفة ، وعلى الوارد من احد اقاليم فارس^٢ وتضمن جعلاً سنوياً لأخيه الاصغر الحسين مقداره مليوناً درهم لمدى حياته^٣ . وبعد نحو من ثالثي سنوات توقي الحسن في المدينة وله من العمر خمسة واربعون عاماً . وكان الحسن كثير الزواج والطلاق حتى لقب بالطلاق ، فقد تزوج وطلق نحواً من مئة امرأة . وكان في ما يبدو مصدراً ، لكن من المحتل ان يكون قد مات مسموماً^٤ ، بفعل مكيدة نسائية . الا ان اتباعه القوا التبعة على معاوية ، واعتبروا الحسن شهيداً ، بل سيد الشهداء .

هدوء موفق في العراق

وجعل معاوية على الكوفة (٦٦١) – وهي يوم ذلك على جانب من المذلة والهبايج والضفينة – المغيرة ابن شعبة ، من اهل الطائف في الحجاز^٥ وكان والياً على البصرة في خلافة عمر ، فعزله عنها لسوء سيرته^٦ . وقد وصف المغيرة بأنه لو كان

١) درم في الفارسية ، دراجة في اليونانية ؛ وهو الوحلة الفضية في نظام النقد العربي . وكان عادة ١٠/١ او ١٢/١ من الدينار (انظر من ٢١ من هذا الجزء حاشية ١) لكن قيمته الحقيقة كانت كبيرة الاختلاف .

٢) الطبرى ، ج ١ ، من ٣ ؛ الديتوري ، ص ٢٣١ ؛ ابن حجر ، ج ٢ ، من ١٢ - ١٣ .

٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، من ٢٦٦ .

٤) البلاذري ، من ٢٥٦ ، ٣٤٤ - ٥ ؛ ابن الأثير في «اسد الغابة» ، ج ٤ ، (القاهرة ، ١٢٨٦) ، من ٤٠٧ .

داخل سبعة ابواب ، موحدة دونه ، لاستطاع بدهائه ان يحيط اقفالها . وفي اثناء الفوضى التي عقبت اغتيال علي ، زور المغيرة شهادة عن لسان معاوية ، حين فيها نفسه قائداً لموكب الحجاج الى الحجاز . وقد تكون بوصفه حاكماً ان يضرب الحوارج بالشيعة ، والشيعة بالحوارج ، وان يلاشى مقاومة العلوين ، ويوطد هيبة بنى امية في ولايته . فاحرز بذلك مكانة جعلته احد دهاء السياسة الاربعية في الاسلام^١ .

وقد تولى العراق بعد المغيرة رببه زياد ابن ابيه ، الداهية السياسي الرابع . ومن ان زياداً كان قد عمل على تأييد العلوين في فارس . فان معاوية استلتحقه بصورة سافرة ، رغبة في استغلال مؤهلاته النادرة ، وهو ابن لايه – ابي سفيان من بني كنفني في الطائف^٢ . ولما كان الناس على شيء من الارتباط في امر ابيه فقد كنفني به «ابن ابيه» . ثم ان ولایة زياد على الكوفة اتسعت حتى ضمت ، فضلاً عن العراق ، بلاد فارس والاقطار العربية التابعة ، فقدا بذلك حاكماً على النصف الشرقي من الامبراطورية الاسلامية . واستطاع زياد – وهو المستلتحق بنسب ابي سفيان – بعينه الساهرة على الاحداث في ولايته ، وبسمه المرهف ، وبسيفه الماضي ، ان يحمل القطر التأثير على البقاء في الفلك السفياني . اما ما اثاره البدو ، وسائل العرب ، من مشاكل في البصرة والكوفة ، فقد عالجها بنقل خسين الفاتح منهم الى شرق فارس^٣ .

موجة التوحّات الثانية

بعد ان استقرت الاحوال نوعاً في بلاد المسلمين ، سرت معاوية همه العجيبة نحو

١) انظر ما سبق في ص ٤٣٢ .

٢) ورد ذكر هذا الاستلتحق في المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٠ - ٢٢ ; والطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٠ ; وابن عساكرة ، ج ٥ ، ص ٤٠٩ - ١٠٤ .

٣) البلاذري ، من ٤١٠ ; الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨١ ، ١٥٥ - ٥٦ . وكان قد سبق ذلك عمليات نقل اخرى في الشرق الادنى ، راجع الجزء الاول من ٢١٣ - ١٤ - ٢٢٠ .

البلدان المجاورة، فوجه إليها الحملات برأً وبجرأً. وكان هدف الحملة البحرية الامبراطورية البيزنطية^١. وكان ما تم على يد معاوية من فتوحات يؤلف الموجة الثانية من حركة التوسيع الإسلامي، وقد جاءت بعد فترة حفلت بالفن الداخليه^٢. وكان رائد الموجة الأولى أبو بكر الصديق، وقد بلغت ذروتها في عهد عمر.

وقد جرت حركة التوسيع برأساً في عهد معاوية في مجريين: أحدهما شرقي والآخر غربي. وكانت البصرة، وهي في عهدة زياد، القاعدة الأساسية للحملات الشرقية التي استكملت اخضاع خراسان (٦٦٣ - ٧١)، واحتلت نهر جيحون^٣، واحتلت بخارى في أقصى تركستان (٦٧٤)^٤ وفتحت من المدن مرو وبلغ وهراء، وسواها من المدن التي قدر لها أن تصبح في ما بعد من أبرز مراكز العلم في الإسلام. وقد عادت الجيوش إلى البصرة بكثير من الأسلاب التي غنمها من قبل الترك الجائحة في ما وراء جيحون. هكذا حصل أول اتصال بين العرب والترك – ذلك الاتصال الذي كتب له أن يلعب دوراً هاماً في تاريخ الإسلام بعد حين.

اما حركة التوسيع غرباً، فكان قائدها عقبة بن نافع، وهو ابن حالة عمرو بن العاص، فاتح مصر وحاكمها^٥. ففي سنة ٦٦٣ عين عمرو ابن خالته على إفريقياً (إفريقياً حديثاً)^٦، فأنشأ نافع هنالك مدينة القيروان (٦٧٠)^٧، وجعلها قاعدة

١) سياق هذا الموضوع في الفصل التالي.

٢) انظر ما سبق في ص ٣٠ - ٣١ من هذا الجزء.

٣) انظر ما سبأني في الفصل ٣٦ في الفقرة عن اخضاع ما وراء النهر.

٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٨؛ البلاذري، ص ٤٠٩ - ١٠؛ الطبرى، ج ٢، ص ١٦٦ وما يتبع.

٥) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٣، من ١٠ - ١١.

٦) إفريقيا الصغرى هي تونس الحالية والاسم معروف عن الأصل اللاتيني «إفريقا»، اخذه العرب عن الرومان، وأطلقوه على القسم الشرقي من بلاد البربر، وأطلقوا لنقطة «المغرب» على القسم الغربي فقط.

٧) «القيروان»: من لفظة فارسية الأصل هي «كادوان». راجع بشأن حلة عقبة: ابن عبد الحكم، ص ١٧١، ١٩٤ - ٩٥.

حربية في وجه البربر . وقد بني جانباً من هذا المعسكر بمحارة من خرائب قرطاجة في الجوار القريب ، فقدت القبرونان الوريثة الاسلامية لقرطاجة الفدية . وباعتناق البربر للإسلام دفعوا إلى الجيش العربي ، واستخدموه في الحملات التي واصلت الزحف في شمال إفريقيا ، وعملت في ما بعد على فتح إسبانيا ؟ وبمساعدتهم استطاع نافع أن يخرج البيزنطيين من مناطق كثيرة من ساحل إفريقيا الشمالي ولا يزال المكان الذي استشهد فيه نافع (٦٨٣) معروفاً بـ « سيدني عقبة » ، وهو يبعد بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي من بسكرة في الجزائر^١ . وقد غدا مدنه مزاراً قومياً ومع ان زحف عقبة على شمال إفريقيا كان عملاً عسكرياً باهراً ، فإنه كان – مثل نظيره في وسط آسيا – قليل الفناء ، اذ لم يعقبه احتلال . لذلك كان لا بد من ان تعاد كرة الفتح ثانية هنا وفي ما وراء النهر^٢ .

ما أثر أخرى لمعاوية

ثم ان هذه الحملات التي قام بها القواد ، على ضخامتها ، لم تشغله عن الشؤون المدنية . فقد تركت الادارة المالية في الدولة بيد الخبراء الاكفاء من آل سرجون ، أسلاف القديس يوحنا^٣ . وغدا دخل بيت المال بحيث استطاع معاوية ان يضاعف اعطيات الجنود ويعزز الحصون القائمة على الحدود ، في وجه اعدائه الشماليين ، وان يحقق الكثير من مشاريع الزراعة والري في الحجاز ، وهو اجدب الاقالم تربة ، وان يحمل العلوين والماشيين على السكون عن طريق التخصيصات المالية . وكان من الماشيين العباسيون ، وهم اقرب الى النبي من بني امية ؟ وكانت النبي نفسه اول من شرع مبدأ « تأليف القلوب »^٤ . وكان من مآثر معاوية ايضاً ان انشأ في الدولة الدوادين ، ووضع الاسس لمصلحة البريد^٥ .

١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٩١ .

٢) انظر ما يأتي في الفصل السادس والثلاثين عن اخضاع ما وراء النهر .

٣) راجع من ٢٣ و ٢٤ من هذا الجزء .

٤) راجع القرآن ٦٠:٩ .

٥) الفخرى ، ص ١٤٨ ، قابل بما سيجيء في الفصل السادس والثلاثين .

ولقد كان معاوية ، في شؤون الحرب والسلم ، من رعاياه السوريين ، مناصرون شديدو الأخلاص ، من المواطنين الأصليين ومن العرب الوفدين على السواء . وكان سواد العرب السوريين من أهل عني لا حجازي ، وكانت — كما مر معنا — قد سبق لهم أن تتصروا . وكانت منهم ميسون زوجة معاوية ؟ قيل انه طلقها اذ رويت لها أبيات عبرت فيها عن شدید حنينها الى الصحراء ، وابثارها لزوج من طرائز آخر ، منها قوله :

ليت تتحقق الارياح فيه احب الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني احب الى من لبس الشغوف
واكل كسيرة في كسربيتي احب الى من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل واد احب الى من نقر الدفوف^١

عن معاوية طبیبه المسيحي ، ابن أثال ، عاملاً على ولایة حمص . وهو تعین منقطع النظير لسيحي في التاريخ الإسلامي^٢ . وكان شاعر البلاط في عهده الاخطل^٣ من بي تغلب ، وتغلب قيمة مسيحية . وكان المؤارنة واليعاقبة يوفرون اليه خصوماتهم الدينية ليقضى فيها بينهم^٤ وفي الراهن عمل مراراً على ترميم كنيسة مسيحية هدمها الززال^٥ . بمثل هذه السياسة السمححة والشهامة الفائقة ، استطاع معاوية ان يمتلك قلوب السوريين ، وان يوطد مركز سوريا في الامبراطورية الإسلامية

ولعل ابرز مزايا معاوية ما وصفه به مؤرخوه من الحلم^٦ — تلك الابلاقة السياسية

(١) أبو الفداء ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ؛ يعتبر ولهوزن هذا الخبر ملقاً ، انظر : Wellhausen , p. 85.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٨ في الفقرة عن الشمر .

(٤) هذا اول ذكر ورد للوارنة في تاريخ العرب ؛ انظر : Wellhausen , p. 84 ; Th. Nöl-deke , Z. D. M. G. , vol. xxix (1877) , pp. 82-92.

Theophanes , p. 356. (٥)

(٦) الفخرى ، ص ١٤٥ ؛ المقد ، ج ٢ ص ٣٠٤ ؛ المسعودي ، ج ٥ ، ص ٤٠ ؛ Lammens in Mélanges , vol. i , pp. 66-108.

التي مكنته من ان يقوم دائماً بالعمل المناسب في الوقت المناسب . وقد عرف هو هذه السياسة الفائقة بقوله : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطى ، ولا اضع سوطى حيث يكفيني لساني ؛ ولو كان بيني وبين الناس شرة ما انقطعت ؛ اذا مدوها خلبتها ، واذا خلواها مدتها » . وقد تجلت لباقيه كذلك في الكتاب الذي ارسله الى الحسن يسأل فيه ان يتنازل له عن الخلافة ، قال : « اما بعد » ، فانت اولى بهذا الامر مني لقرباتك ، ولو علمت انك اضطط له واحوط على حريم هذه الامة واكيد لبايتك ، فسل ماشت ». وجعل مع الرسالة ورقة بيضاء مهورة بتوقيعه . وبفضل مزية الحكم كانت صلاته الشخصية بمعاصره صريحة وودية ، فكان من شأن خصومه ان يدعوه اخا التغيل ، ويعلنووا لاهم لعلي حتى في حضوره . وربما اعد احد قاذه الى التعريض بعظام رديه ، والى مكاييده باسمه الذي معناه « كلبة عاوية » ويلقب اسرته « امية » وهو تصفير امة ، والامة : الجارية .

تعيين ولی العهد

وفي سنة ٦٧٩^٣ عين معاوية ابنه زيد خلفاً له ، وذلك قبل وفاته بستة اشهر (نisan ٦٨٠) . وهو عمل لم يسبق له نظير في الاسلام . وكان زيد قد نشأ في كنف امه في الباذنة ، لاسيا باذنة تدمر ، حيث كانت قبيلتها المسيحية تتنقل^٤ . وكان وهو في العاصمه ، يخالط المسيحيين ايضاً ، وكان بين رفقاء المفضليين القديسين يوحنا ، وهو بعد علامي ؟ وكان منهم الاختلط شاعر البلاط . وقد مارس وهو فتى في الباذنة الصيد وركوب الخيول ، وترس بالحياة الحسنة ؟ اما في المدينة فقد انكفا الى معاشرة المخرة ونظم الشعر . وقد غدت الباذنة منذ ذلك العهد فما بعد « مدرسة

١) اليقونی ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ المقد ، ج ، ص ١٠ .

٢) الطبری ، ج ٢ ، ص ٥ .

٣) المسعودی ، ج ٥ ، ص ٦٩ - ٧٣ ؛ قابل بالطبری ، ج ٢ ، ص ١٧٤ - ٧٧ ؛ وابن الاتیر ، ج ٣ ، ص ٤١٦ - ١٧ ، حيث قلم هذا التاريخ ثلاث سنوات :

Lammens in *Mélanges*, vol. iii pp. 189-229. (٤)

في الخلاء» لأنجال الامراء المنتسبين الى الاسرة الحاكمة، يتلمسون فيها الاستجمام، ويستقيم لسانيهم باللهجة العربية الحالصة^١، الحالية من رطانة الاراميين، وينجذبون الى ذلك، من الاوبئة التي كانت تجتاز المدن بين الحين والحين. ولعل تعين معاوية لابنه يزيد وليناً للهدى، كان قد تردد في خاطره زمناً ما. يستنتج هذا من ارساله له سنة ٦٦٩ في الملة البحريّة على القسطنطينيّة^٢، وغرضه من ذلك ان يزيل من اذهان رجال الدين ما قد يكون خالرها من عدم جدارته ونقص مؤهلاته. اما الان، وقد تيقن من تأييد العاصمة له، فقد استقدم الوفود من الامصار، واخذ منهم البيعة لابنه الاثير. واما وفود العراق غير المواليين، فقد اخذهم بالتملّق او الاكراه او الرشوة^٣.

وكان هذا الحدث البارز فاتحة مرحلة جديدة في التاريخ الاسلامي. اذ ادخل على نظام ولاية الهدى مبدأ الوراثة^٤، فقد امن بعد النظام الذي جرت عليه اهم السلالات الاسلامية الحاكمة. وصار سابقة مكنت الخليفة الحاكم من ان يعيّن، من ابنائه او انسبياته، من يتولى الجداراة، فيتحقق له البيعة مقدماً. وكان من شأن هذا التعيين ان يعمل على تعزيز الاستمرار والاستقرار في الاحوال، وان ينبعط اطاع المطالبين بالسيادة، والمنافسين في الحكم.

معاوية الملك، النموذجي

ومع ان الذي اداه معاوية لقضية العرب والاسلام كان منقطع النظر، فانه لم يلق، ولا قواه «الطفاة»، عطفاً من مؤرخي العرب المسلمين. وليس تعليل ذلك بالامر العسير؟ فان معظم هؤلاء المؤرخين كانوا من الشيعة، او من علماء

١) العقد، ج ١، ص ٢٩٣، س ٣٠.

٢) انظر ما سألي في الفصل ٣٤ الفقرة «بلوغ القسطنطينية».

٣) العقد، ج ٢، ص ٣٠٦ - ٩؛ ابن عساكر، ج ٤، ص ٣٢٧ - ٢٨.

٤) بشأن ولاية الهدى في خلافة الراشدين واجع ما سبق، من ٢٧ من هذا الجزء.

العراق وفارس ، او من اعلام المدينة^١ . وكانتا ، من حيث هم مؤرخون ، يثنوون وجهة نظر الفقهاء المحافظين الذين انكروا على معاوية تحويل الخلافة (الحكم الديني) الى ملك (حكم مدني)^٢ . واعتبروه اول ملك في الاسلام . وقد كان العرب يكرهون هذا اللقب ، ويكردون لا يطلقونه الا على سلاطين الاعاجم . وقد اخنووا عليه ايضاً انه احدث الكثير من البدع المنكرة ، منها المقصورة^٣ . وهي خلوة في داخل المسجد الخليفة لا يصلى فيها سواه . ومنها القاء خطبة الجمعة وهو جالس^٤ . واتخاذ سرير الملك^٥ . على ان الحق الذي لا مرية فيه هو ان معاوية كانت المثال المحتذى لمن تبعه من الخلفاء في علو اهمة ، ومدى السامع ، وفرط الكبائسة والدهاء . ومع ان الكثيرين منهم حاولوا ان يتأنثروا خطاه^٦ فانَّ القليلين منهم قاربوا النجاح في ذلك .

(١) ان واحداً فقط من همتي علماء الشام بقي ذكره حياً هو ابن عاشر المষتني (١١٠٥ - ١١٧٦) .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة) ، ص ١٦٩ وما بعد ؛ اليقوي ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٣) اليقوي ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ؛ الدينوري ، ص ٢٢٩ ؛ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، س ٤٠ . البردة ، ص ٥٥٢ ؛ ولقد انشئت المقصورة من اجل المحافظة على حياة الخليفة وذلك بعد المحولة الفاشلة التي استهدفت الخليفة وهو يؤدي فريضة الصلاة .

(٤) كان عنده معاوية في ذلك انه اصبح في سنته الاخيرة بديناً جداً كثیر البطن .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٧ ؛ القاشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، (القاهرة ، ١٩١٤) ، ص ٦ .

(٦) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٧٨ ؛ ولا يزال مسdfن معاوية في مقبرة الباب الصغير في دمشق يزار الى الان .

الفصل الرابع والستون

الصلات العُدائية بين العرب والروم

المحدودة السودية

ان الحدود الفاصلة بين العرب والروم كانت في غضون العهد الاموي ، وفي العهد العباسي حتى منتصف القرن الثاني عشر ، السلاطين المتقابلين بجبل طورس. ولما كانت الدولتان العدوتان وجهاً لوجه ، على جانبي هذا الحد ، فقد سعت كل منها في اول الامر ان تقصي الاخر عنها بتحويل البقعة الفاصلة بينهما الى ارض مهجورة ؟ وكان لمعاوية فضل كبير في خلق هذه المنطقة الحرام^١. الا ان بعض اخلفاء الامويين المتأخرین اتبعوا سياسة معايرة ، كانت تهدف الى احراز موطن قدم هنالك ، عن طريق ترميم بعض المدن ، وتحويلها الى حصون ، وبناء حصون جديدة . وهكذا ضرب الامويون نطاقاً من التحصينات امتدت من طرسوس في كيليكيا حتى ملطية ، في اتجاه الفرات الاعلى ، مشتملاً على اذنه والمصيصة ومرعش . وكانت هذه المراکز مواقع استراتيجية اذ قامت عند تقاطع الطرق العسكرية ، او على مداخل المرات الجبلية . وقد دعيت بحق « العواصم » ، واطلقـت هذه التسمية بنوع اخـن على المعاقل الداخلية الجنوبية ، في مقابلـ الحصون الخارجية الشهـالية التي عرفـت بـ « التغور »^٢. وقد امتدت منطقة التغور

١) البلاذري ، ص ٦٤ - ٦٥ ؛ ورد اسمها « الضواحي » في الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٣١٧ ، وفي ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

٢) التغور ، وفي الاصل : الثلة والشق ، قابل Guy Le Strange ، *The Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge , 1930) , p. 128.

عبر التخوم السورية والعراقية^١، فعرف ما يجمي منها الارض السورية بالشغور الشامية^٢، وما يجمي العراق بالشغور الجزيرية^٣.

ولقد تقلصت منطقة الشغور في عهد العباسين، فقد امتدادها من اولاً على البحر المتوسط عبر جبال طورس حتى سهيلاط على الفرات^٤. ولما كانت طورس قائمة على المدخل الذي يحيط جبال طورس، وهو المعروف بباب كيليكيا، فقد غدت قاعدة هامة للحملات الحربية الكبرى على بلاد الروم، وحشد فيها جيش وافر العدد من الفرسان والمشاة. وكان هنالك بمراحل آخر عبر جبال طرسوس، ليس مطروقاً كالاول، يمتد من مرعش الى ابلىستين^٥، ويعرف بدرب الحدث. وبجميع هذه الحصون قد انتقلت مراراً وتكراراً من العرب الى الروم، ومن الروم الى العرب، لذا كانت الحرب بين الجانين سجالاً، والنصر مداً وجزراً. ولقد قاتل العرب في العهدين الاموي والعباسي، عن كل شبر من هذه الارض، قتالاً ضارياً، فكانت هذه الارض بحق «اوضاً حرماً». ولعلها قد ارتوت من دماء القتلى اكثر من اي بقعة اخرى في آسيا.

جرت عادة العرب في خلافة معاوية وعبد الملك، وسواهما من الخلفاء، في كل عام، على القيام بحملتين على بلاد الروم: حملة كبيرة في الصيف (الصائفة). وحملة ثانية، على نطاق اصغر، في غضون الشتاء (الشتاء)^٦. وكان الغرض منها احراز الفنائم، كما كان غرض البدو من غزوتهم. لكن الاماني ربما امتدت بعيداً بحيث راودها الاستيلاء على بيزنطية جملة. على ان القسطنطينية كانت من طرسوس على نحو ٤٥٠ ميلاً خطأً مستقيماً، ولم يستطع العرب في وقت من الاوقات ان يحرزوا

١) البلاذري، من ١٨٣ وما يتبع، ومن ١٦٣ وما يتبع.

٢) الاصطخري، من ٦٧ - ٦٨.

٣) البيهقي، ج ١، من ٩٤ - ٩٣؛ قابل: Le Strange, p. 133 وقد كان اسمها البيزنطي واليوناني *Arabissus*، والمرى المتأخر «الستان».

٤) البلاذري، من ١٦٣، س ١.

مركزآ ثابتاً لهم في آسية الصغرى . فقد وجها جل جهودهم العسكرية نحو الطريق الاسهل ، وسيراوا حملاتهم شرقاً وغرباً ، حتى لسكن الطبيعة قد اقامت جبال طورس لتكون على الدوام حدّاً فاصلاً بين البلدين . ثم ان المناخ في اناطوليَا كان بالغ القساوة بالنسبة الى ابناء الصحراء . لقد تمجدت اللغة العربية على منحدرات طورس الجنوبية ، ولم يقدر لها ان تندو لسان بلد من بلدان آسية الصغرى ؟ ذلك ان سكان آسية الصغرى قد كانوا منذ اقدم العصور - عصور الحثيين - من غير العرق السامي .

بلغ القسطنطينية

ولقد بلقت هذه النزوات المتتابعة في آسية الصغرى آخر الامر الى العاصمة وكان ذلك في سنة ١٦٦٨^١ ، بعد ست وثلاثين سنة فقط من وفاة الرسول . وكانت تلك المرة الاولى التي وقعت فيها انتظار المقاتلين العرب على المدينة العاتية ، القاعدة على خليج البوسفور . وكان قائد هذه الملة فضالة بن عبيد الانصاري^٢ ، وقد مضى فصل الشتاء في خلقيدون(ضاحية القسطنطينية الآسوية) . فقاسى جنوده كثيراً من قلة المؤمنين ، ومن داء الجدري وسواء من الاراضي^٣ . وفي ربيع سنة ٦٩٩ ارسل معاوية ابنه المسندل يزيد الى هذه الملة بجدد ، على غير رغبة صادقة منه^٤ فعمل يزيد وفضالة على تحاصرة القسطنطينية . وضررا نطاقاً حول سورها المرتفع

١) ابن الأثير، ج ٣، ٣٨١؛ الطبرى، ج ٢، ص ٨٦، قابل من ٢٧، حيث ورد ذكر هجوم سابق على القسطنطينية قاده يسر بن أبي ارطاة .

٢) من الانصار ومـ في الاصل مؤمنو المدينة الذين استقبلوا النبي واعانوه عقب هجرته من مكة سنة ٦٢٢ .

٣) الاغانى، ج ١٦، ص ٣٣؛ التورى، نهاية الارب في قرون العرب (القاهرة ١٩٢٥) ج ٤، ص ٩١ .

Lammens in *Mélanges*, vol. iii, pp. 306-12; J. Wellhausen, « Die Kämpfe (4) der Araber mit den Römern in der zeit der Umayyiden Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, philologisch-historische classe (Göttingen, 1902) pp. 423 seq.

المثلث . ومع ان الاسطول قد ساعد ولا شك في تضييق الحصار ، فانهم اخطروا الى رفع الحصار في ذلك الصيف ، اذ تسنى لبيزنطية ان تظفر بامبراطور جديد ذي حزم وعزم هو قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥) .

وفي الروايات الاسطورية لهذا الحصار ان يزيد ابدي من الشجاعة وشدة الاباس ما استحق به ان يلقب بـ «فتى العرب» . وقد ورد في الاغاني^١ ان هذه الجولات كان بعضها الروم على العرب وببعضها العرب على الروم ، وانه كان كلما لاح النصر في جانب علت اصوات التهليل والابتهاج من خيمة فيه ، اذ كانت احدى الخيمتين لابنة ملك الروم ، والاخري لابنة جبلة بن الايهم^٢ الملك الفسافي السابق ، وان الخيمة ثارت في صدر يزيد فاندفع آمالاً ان يطفر بالاميرة الفسانية . والحق ان بطل هذه الاساطير انا هو ابو ايوب الانصاري ، لا يزيد بن معاوية ، وابو ايوب هذا كان في ما سبق يحمل راية النبي في المعارك . وهو الذي استقبل النبي في بيته على اثر هجرته الى المدينة^٣ . والاخبار المنشورة توکد انه اصيب في اثناء الحصار بزحاف ذهب بخياته ، وان قبره المزعوم خارج اسوار المدينة لم يثبت ان غداً مزاراً لنصارى الروم ، يقصدونه متى اصحابهم جفاف ، لاعتقادهم بان الابتهاج فيه الى الله يستنزل المطر ويحيي بالری^٤ . وقيل ان الاتراك العثمانيين عندما حاصروا القسطنطينية ، بعد ذلك بزمن ، عثروا على هذا القبر ، اذ هدمتهم اليه أشعه عجيبة ، بما يذكرنا بقصة كشف الصليبيين الاول للحربة المقدسة^٥ في انطاكية^٦ . وقد اقيم عنده مسجد ، فعدا رجل المدينة ولیاً لدى ثلاثة امم : العرب والروم والترك .

الحصار الثاني لمدينة القسطنطينية

لقد امتدت يد معاوية القوية عبر بلاد الروم مرتبة الى داخل العاصمة

١) الاغاني ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .

٢) راجع الجزء الاول من ٤٥٠ .

٣) البلاذري ، ص ٥ .

٤) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

٥) انظر . ما سياق في الفصل ٤ في الفقرة عن انطاكية – الاية الثانية .

بالذات . و جاءت المرة الثانية بعد الاولى بخمس سنوات . و عرفت بحرب السنوات السبع (٦٧٤ - ٦٨٠) . اما المعارك البحرية بين الاسطولين فقد جرى معظمها في مضيق البوسفور و بحر مرمرة . وكان مما اطال في امد هذه الاعمال الحربية احتلال العرب لشبه جزيرة بارزة من الشاطئ الاسيوى ، داخلا في بحر مرمرة ، دعاها الروم سيزيكس^١ ، و سماها العرب «جزيرة ارواد» وقد جعلها العرب مقراً لجيشهم الغازى ، يأوون إليها في الشتاء ، وينطلقون منها على الروم في الربيع والصيف . على ان اخبار هذه المعارك في المدونات العربية والبيزنطية متضاربة . وهي بذاتها شديدة التشويش والاضطراب . ولقد عزي الفضل في نجاة المدينة من يد العرب الى استخدام النار اليونانية . وهي اختراع جديد لمزيد سع شديد الاشتعال يقتدح فوق الماء وتحته على السواء . قيل اكتشفه لاجىء دمشقي اسمه كالينيكوس ؟ وكانت هذه اول معركة استخدم فيها هذا «السلاح السري» . وقد كتم الروم قاعدة تركيب هذه المادة عدة قرون . ثم تسنى العرب ان يعرفوها لكنها ضاعت من بعدهم الى اليوم . ولقد اسهبت الاخبار اليونانية في وصف الاضرار التي ازلتها هذه النار في سفن العرب ؟ وفيها ان السفن التي سلت من النار تحطم في عودتها الى الشام^٢ عام ٦٧٩

والى هذه الحقبة ترجع حملات الاسطول العربي على عدد من جزر بحر ايجي ، و المياه المتوسط الشرقي . فجزيرة قبرس كانت قد وقعت في يدهم قبلًا ، وكانت قد غزوا شواطئ رودس اولاً سنة ٦٥٤^٣ . ثم احتلوها حتى سنة ٦٧٢^٤ . وبعد عامين جرى احتلال اقريطيش على ذلك النحو . اما صقلية التي قدر لها ، في ما بعد ، ان تغدو ولاية زاهرة تابعة للدولة الاغلية التي اجتاحتها من الشاطئ الافريقي ، فقد

١) Theophanes, pp. 353-4 ؛ الطبرى، ج ٢، ص ١٦٣ ؛ ابن الأثير، ج ٣، ص ٤١٣
البلاذري، ص ٢٣٦ .

(٢) Theophanes, pp. 353 seq.

٣) انظر ماسبق ، ص ٥٢ من هذا الجزء .

٤) البلاذري، ص ٢٣٦ ؛ قابل : الطبرى، ج ٢، ص ١٥٧ .

بلغها اسطول معاوية سنة ٦٦٤، ووالي عليها هجمات كثيرة^١. وفي عهد سليمان بن عبد الملك نزل العرب في رودس ثانية، واحتلواها حتى (٧١٧ - ٧١٨).

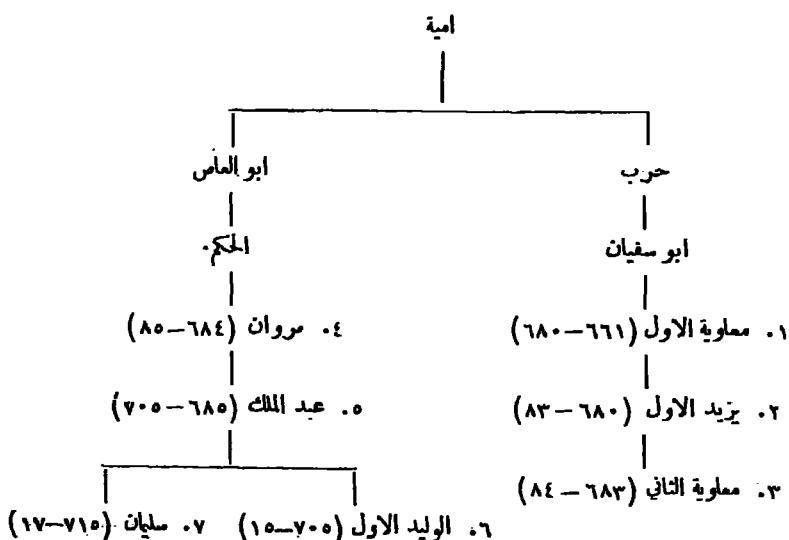
المجوم الاموي الاخير على القسطنطينية

وفي السنوات الخمس والثلاثين التي عقبت وفاة معاوية، ساد العلاقات العدائية بين العرب والروم شيء من السكون. فأن العهد القصير الذي تولى فيه ابنه يزيد (٦٨٠ - ٦٨٣) حفل بالقزن الاهليه^٢ ولم يتتجاوز عهد حفيده معاوية الثاني ثلاثة أشهر. وكان معاوية الثاني هذا فتى ضعيفاً سقيم الصحة. وكان والده يزيد غير خليق بتوسيع اعباء الحكم من بعد والده معاوية. على ان الحالات ضد الروم لم تستأنف حتى كان عهد سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧)، وهو أحد افراد السلالة المروانية من بيت امية^٣. وفي حديث شائع ان الخليفة الذي يقدر له ان يفتح القسطنطينية ينبغي ان يحمل

١) البلاذري ، ص ٢٣٥ .

٢) انظر الفصل ٣٥ من اول مأساة الحسين حتى ولادة الحجاج .

٣) تجلی في الشكل التالي الصلة بين الفرع السفياني والفرع المرواني من الاسرة الاموية .



اسم النبي . ولما كان اسم هذا الخليفة سليمان ، وكان العرب يعتبرون سليمان الحكيم نبياً ، فقد اعتقد سليمان بن عبد الملك انه هو المقصود بالحديث . فحالما ولـي الخلافة ، واصل ارسال المعدات والامدادات التي كان اخوه الـاـكـبـرـ الـوـلـيدـ قد بدأها . وكان اخـ آخرـ لهـ ، هو مسلمـةـ ، قد قـادـ حـمـلةـ فيـ اـوـاـخـرـ عـامـ ٧١٥ـ عـبـرـ بـهـ آـسـيـةـ الصـغـرـىـ ، ظـاهـرـتـهاـ فيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ حـمـلةـ بـحـرـيةـ ، وـلـمـ يـتـهـيـاـ لـاـحـدـاهـماـ انـ تـحـرـزـ شـيـئـاـ منـ النـصـرـ . فـيـنـاـ كـانـ الاسـطـولـ عـنـدـ كـيـلـيـكـياـ ، فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ القـسـطـنـطـنـيـةـ ، نـزـلـ مـلاـحـونـ بـيـزـنـطـيـونـ عـلـىـ السـاحـلـ السـوـرـيـ ، وـاـحـرـقـواـ مـدـيـنـةـ الـلـادـقـيـةـ . وـفـيـ فـرـيـجـيـاـ تـخـطـتـ الـحـمـلةـ الـعـرـبـيـةـ مـدـيـنـةـ عـمـورـيـةـ (ـأـمـورـيـونـ) ، اـسـارـ قـلـعـةـ حـالـيـاـ) بـعـدـ حـسـارـ غـيرـ بـحـدـ ، لـكـنـهـمـ ظـفـرـوـاـ فـيـ مـسـيرـهـ غـربـاـ بـاـحـتـلـالـ پـرـغـامـوـمـ وـسـارـدـسـ . وـعـكـسـتـوـاـ اـخـيـراـ منـ اـجـتـيـازـ الدـرـدـنـيـلـ عـنـدـ اـبـيـدـوـسـ . وـفـيـ آـبـ ٧١٦ـ حـاـصـرـوـاـ القـسـطـنـطـنـيـةـ مـنـ نـاحـيـةـ الـبـرـ ، وـتـيـسـرـ لـهـمـ بـعـدـ اـسـبـوعـيـنـ اـنـ يـلـقـواـ عـلـيـهـاـ الـحـصـارـ مـنـ جـهـةـ الـبـيـعـ . فـرـسـاـ الاسـطـولـ الـعـرـبـيـ بـعـدـ اـسـوارـ الـمـدـيـنـةـ عـلـىـ طـوـلـ شـاطـئـ مـرـمـةـ وـبـوـسـفـورـ . وـاقـلـ المـدـخلـ الـمـؤـديـ اـلـىـ «ـالـقـرـنـ الـذـهـبـيـ»ـ بـسـلـسـلـةـ كـانـ الـحـاجـزـ الـاـوـلـ مـنـ نـوـعـهـ فـيـ التـارـيـخـ .

كان هذا المجموع على عاصمة الروم اشد هجوم قام به العرب عليها ، واوفر الحملات حظا من عنابة المؤرخين في تدوين اخبارها فقد وصل الى المحاصرين امدادات من الاسطول المصري . واستخدموها ضد الروم النفط وكثيراً من ادوات الحصار الثقيلة^١ . لكن المدينة صمدت بفضل دفاع الامبراطور ليو^٢ ال ايصوري (٧١٧ - ٤٤) . وقد كان هذا في اول امره جندياً من اصل سوري وضيع ، ولد في مرعش ؛ وكان ، في ما قبل ، مولى الخليفة ، يحيى العربة واليونانية^٣ . وقد اشتد الحصار فعدا اهل المدينة في ضيق شديد ، وطال الامر بالمحاصرين ، واشتد ما قاسوه من النار اليونانية ، وقلة المؤمن ، وغارات البلغاريين^٤ ؛ وزاد في شقائهم انتشار وباء الطاعون ،

١) العيون والحدائق ، نشر دي غويه (لـيـنـ ، ١٨٧١) القـسـمـ الثـالـثـ منـ ٢٤ـ .

٢) في الاصول العربية : اليون ؛ الطبرى ، ج ٢ من ١٣١٥ـ .

٣) العيون ، القـسـمـ الثـالـثـ ، منـ ٢٥ـ .

٤) راجع 386-99 Theophanes، pp. ١٧ - ١٩ ؛ ابن الأثير ، ج ٥ ، من ١٧ - ١٩ـ .

وتفاهم قساوة الشتاء . لكن مسلمة محمد بعناد ، ولم يفت في عزمه شيء من هذه المنشآت ، حتى ولا موت أخيه الخليفة سليمان . لكنه اضطر إلى القفول عملاً بالأمر الذي صدر إليه من الخليفة البخليدي عمر بن عبد العزيز (٢٠ - ٧١٧) ، فانسحب الجيش على الأثر في حالة يرثى لها . أما الأسطول – أو ما بقي منه – فقد حطمه ، في عودته ، عاصفة عاتية ، ولم يصل منه إلى الشاطئ السوري – إذا صحت أرقام نيفانس – إلا خمس سفن من أصل ألف وثمانين ؟ وكان هذا آخر العهد بالأساطول العربي . وقد ارتفعت أصوات التهليل في أوربا ، واعتبر المؤسس السوزي لlasرة الإيمورية الخلص الذي انقذ أوروبا المسيحية من حكم العرب المسلمين .

ولم يبلغ مدينة القدسية بعد ذلك فاتح عربي إلا مرة واحدة . غير أن ذلك لم يكن على يد الأمويين . كان قائداً هذه الحملة هارون الرشيد العباسي ، وذلك سنة ١٧٨٢ ، عندما كان لا يزال ولياً للعهد . فقد رابطت جيوشه في سكوناري (كريسيوبوليس) ، وفرضت الجزية على الامبراطورة أرين^٢ . ولم تشهد «مدينة قسطنطين» أحداً من غزوة المسلمين عند أبوابها إلا بعد ذلك ب نحو من سبعة قرون عندما ظهر عنصر جديد ، من عرق تركي مغولي ، خرج من أواسط آسيا ، وأعتقد دين العرب ، وغدا رافع لوانه في العالم .

ومع أن الحملة الكبيرة التي تولاها مسلمة كانت حملة فاشلة ، فقد أثبتت خيال الخبراء المسلمين ، وخلفت وراءها الكثير من الحكایات الأسطورية . فسلمة وبنا بنى مسجداً في أبidos^٣ ، حيث رابط جيشه ؟ ولعله أحدث عين ما هنالك عرف

١) البلاذري ، ص ١٦٨ .

٢) الطبری ، ج ٣ ، ص ٥٠٣ - ٥ ؛ ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٤٤ - ٥ .

٣) في النص العربي «ابدوس» ورد معرفاً إلى «الندوس» في ياتوت ، ج ١ ، ص ٣٧٤ ، وفي البلدان لابن القبيه نشر دي غويه (لبنان ، ١٨٨٥) ص ١٠٤ ، س ١ ؛ والى «اندلس» في المسودي ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، قابل المسالك والمالك لابن خرداذبة ، نشر دي غويه (لبنان ، ١٨٨٩) ، ص ١٠٤ .

في ما بعد باسه ؟ اما ان يكون قد بني مسجداً في القسطنطينية^١ ، وفرض على الروم بناء بيت للاسرى العرب في جوار القصر الملكي ، ودخل كنيسة القدس صوفيا على ظهر فرسه ، فمحض اختلاق . فلقد اورد المقدسي ، العالم الجغرافي السوري^٢ في مؤلفه الذي وضعه سنة ٩٨٥ م عتزاً « ان مسلمة بن عبد الملك ، لما غزا بلد الروم ، ودخل هذا المэр ، شرط على كلب الروم بناء دار^٣ بازاء قصره في الميدان ، ينزلها وجوه الاشراف اذا اسروا ». وقد ورد ذكر عبد الله البطل ، قائد حرس مسلمة ، بعد ذكر سيده في المجد الاسطوري . وفاز بلقب بطل الاسلام . وبعد ان سقط في معركاً ، وقعت سنة ٧٤٠ م^٤ ، غداً لدى الاتراك بطلاً قومياً عرف بالسيد الفازى ، واقيمت تكية على قبره في جوار اسكنى شهر . بدل ان ابناء الاقليم من نصارى الروم قد اجلوه كذلك وقدّسوه ، فاذًا هو مثال آخر « لسلم لام عم النصارى الى اقامة قتال له في احدى كنائسهم »^٥ .

المرودة في لبنان

ولقد جرى على يد مسلمة ، قبل ذلك ، معارك حفيرة وجهها ضد قوم ذوي تاريخ غامض ، كانوا يقيمون في المنطقة الجبلية الوعرة في شمال سوريا ، ويتمتعون

١) ابن الاتير ، ج ١٠ ، ص ٦٨ ؛ ثقة الدهر في عجائب البر والبحر ، للعشقي ، نشر هرون (سانت بيترزبورغ ، ١٨٦٥) ، من ٢٢٧؛ التحوم الزاهر لابن تقرى بردى ، نشر بوير ، ج ٢ ، القسم ٢ ، (بروكلي ، ١٩٠٩ - ١٩١٢) ، ص ٤٠ ، ص ١٢ - ١٣ ، حيث يدعى المؤلف ان احد الفاطميين التي خطبة الجماعة في هذا المسجد . راجع ذيل تاريخ دمشق لابن القلansi . نشر امدوуз (بيروت ١٩٠٨) ص ٦٨ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

٢) احسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

٣) عرفت هذه الدار بالباط ، وذكرت في ياقوت ، ج ١ ، ص ٧٠٩ ، كأنها كانت تستخدم لهذه النية في عهد سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ - ٦٧) ، انظر مasicin في الفصل ٤٣ في القراءة عن الحمدانيين . و « بساط » من السريانية مأخوذة من اصل لاتيني او يوناني : Platea, Palatium .

٤) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٧١٦ .

٥) سعودي ، ج ٨ ، ص ٧٤ .

يقطن وافر من الحكم الذاتي . وكان هؤلاء المردة^١ — كما كانوا يدعون — يهدون الروم من معاقفهم في جبال الالكم وطروس بالرجال ، والجنود غير النظاميين ، فكثروا شوكة في جانب العرب . وقد عرفوا ايضاً بالجراجة ، بالنسبة الى مدinetهم الكبرى « جرجومة » في امانوس (جبال الالكم) ^٢ وكانوا بحكم موظفهم على المحدود العربية البيزنطية يتثبتة « جدار نخاسي » ^٣ يصون آسيبة الصغرى من الفاتحين . وكانتوا مسيحيين ، لكن لم يتضح بعد هل كانوا من القائلين بالطبيعة الواحدة ، ام بالطبيعتين . اما من حيث هم تأثرون ومتأثرون ومحاربون ، فقد ادوا خدمتهم لأقوى مساوم^٤ . وعندما استولى المسلمون العرب على انطاكية ، تعهد هؤلاء الجراجة للروم باموال الاستكشاف ، وحراسة الطرق التي تمر في جوارهم^٥ . وحوالي سنة ٦٦٦ ارسل ملك الروم شراذم منهم مع فرق من فرسانه وجيوشه النظامية ، دخلت صيم لبنان واحتلت فيه الواقع الحساسة ، حتى حدود فلسطين . والقالب ان جبل لبنان في ذلك العهد كان قليل السكان^٦ ، كثيف الاحراج ، ولم يزد حجم منه الا المنطقة الساحلية . وقد التف حول هؤلاء المردة جماعات من الفارين والنافقين ، واختلطوا في لبنان الشمالي بالموارنة^٧ . وكان معاوية في ذلك العهد كثير المشاغل بشؤون العلوين وبمشاكل داخلية اخرى ، فوافق على ان يؤدي الى امبراطور الروم فريضة سنوية كبيرة ، في مقابل امتناعه عن امداد هذا العدو الداخلي ، وعلى ان يؤدي هو بدوره اليهم ضريبة سنوية ايضاً . وينبغي ان لا يغيب عن الذاكرة ان العرب لم يستسيغوا يوماً حرب العصابات ، وقول ابن خلدون^٨ ان الفتوحات التي سهلت على العرب اتفا هي التي جرت في الاراضي التبسطية لا يعزوه المبرر التاريخي .

١) الفضة من اصل سامي رد يعني : الانتقام ، والمقاومة . قابل الديتوزي ؛ من ١٣٠ س ٣ حيث اعيدت الفضة خطأ الى اصل فارسي يعني « انسان » .

٢) ياقوت ، ج ٢ ، من ٥٥ ؛ البلاذري ، من ١٥٩ .

٣) Theophanes p. 364.

٤) البلاذري ؛ من ١٥٩ .

٥) قابل الجزء الاول من ٨٩ — ٩٠ .

٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٩ حول الموارنة .

٧) القدمة ، من ١٢٥ .

وقد عمد معاوية ، آخر الامر ، الى نقل جماعة من اهل العراق الى الساحل البحري وانطاكية^١ ، وكان ذلك سنة ٦٦٩ . وانما فعل ذلك حتى يصدع جبهة الجراجمة . وكان سبق له ان نقل اليها جماعات من فارس ، ليحلوا محل الروم الذين تزحروا عنها على اثر الفتح الاسلامي . واما كان ذلك تدبيراً وقائياً غرضه صد غزوات الروم البحريه . لذلك عمد الى حشد هؤلاء الوافدين في صيدا وبيروت وجبيبل وطرابلس وعرقة وبعلبك ومدن اخرى^٢ .

ولقد سبب الجراجمة للرومانين من المتابع نظير ما سببوه لسفانيين . فقبل عبد الملك بن مروان ، حوالي سنة ٦٨٩ ، بالشروط التي فرضها يوستينيانوس الثاني ، ووافق على ان يدفع للجراجمة اسبوعياً مبلغ الف دينار . وكان امبراطور الروم قد بث عصبات جديدة من هؤلاء الريفين في سوريا ، مما جعل عبد الملك على اتباع الطريقة التي جرى عليها معاوية قبله^٣ .

واخيراً تقرر في عهد الوليد بن عبد الملك (١٥ - ٧٠٥) ان يقضي نهائياً على خطر المردة . فهاجم مسلمة هؤلاء العابشين بالامن في عقر دارهم ودمى عاصتهم الجرجومة ؟ فهلك بعضهم ، وهاجر البعض الآخر الى اناطوليَا ، وانضمت جماعة من بقي منهم الى الجيش السوري ، وقاتلوا تحت لواء الاسلام . وفي عهد يزيد الثاني ، ساهموا في اخضاع الفتنة التي نشب في العراق^٤ .

١) البلاذري ، ص ١٦٢ .

٢) اليقوني ، ص ٣٢٧ ؛ قابل البلاذري ، ص ١٤٨ .

٣) البلاذري ، ص ١٦٠ ، س ٨ ؛ المؤلف نفسه ، انساب الاشراف ، نشر Goitein ، ج ٥ ، القدس ، ١٩٣٦) ص ٢٥٥ - ٣٠٠ (

٤) للاستزادة عن المردة راجع : Lammens in *Mélanges*, vol. i, pp. 14-22 ؛ المؤلف نفسه ، تربيع الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار ، ج ٢ (بيروت ، ١٩١٤) ص ٤١ - ٤٨ .

الفصل السادس والثلاثون

الفتن الأهلية: الشيعة، أهل المدينة، الفرس

مؤسسة الحسين

لم يجرؤ العلويون ، طيبة حكم معاوية الحازم ، على ان ينمازعوه السلطان بعمل عدائي صريح: لكن، ما ان تولى يزيد ، الشاب المستهتر من بعده (٦٨٠) ، حتى اتسع المجال امام الاحزاب المعارضه للعصيان والانتفاض . فقد عمد الحسين ، وهو الابن الاصغر لعلي وفاطمة ؟ مدفوعاً بنداءات العراقيين الملحة المتكررة ، الى المجاهرة بأنه الخليفة الشرعي بعد أخيه الاكبر الحسن ، ووالده علي^١. وكان الحسين ، الى ذلك الحين ، قد خالف رغبات مشائعيه العراقيين ، وأثر حياة العزلة في المدينة ؟ لكنه خرج ، في هذه الاثناء ، من عزلته ، وفارق مكة متوجهاً الى الكوفة ، وقد رافقته جماعة قليلة من اخلص اتباعه وادنى اقربائه بينهم نساؤه واهل بيته .

وكان عبيد الله بن زياد قد خلف والده في ولاية العراق . وزياد هو الداهية الذي اخذه معاوية اخاً له^٢ بالحاقه بنسب ابيه ، ابي سفيان . وكان عبيد الله قد عرف بانهواه الحسين فاقام الحفراه في مراكز على جميع الطرق بين الحجاز والعراق . وفي كربلاء ، على ٢٥ ميلاً الى الشمال الغربي من الكوفة ، اطبقت دورية من فرسان عبيد الله على الحسين ؟ واذ أبى ان يستسلم ، هاجه عمر بن سعد بن ابي وقاص - وسعد هو فاتح العراق الشهير ، ومؤسس مدينة الكوفة - باربعة آلاف مقاتل .

١) الفغري ، من ٥٩ ؛ الدينوري ، من ٢٤٣ - ٤٤ .

٢) انظر ما سبق في من ٣٧ من هذا الجزء .

فدارت الدائرة على الحسين واتباعه، اذ قتل الحسين وتزقت جماعته البالغة مئيَّرجل شر بمزق^١. وارسل رأس حفيد النبي الى يزيد في دمشق، فاعاده الى اخت الحسين وابنه، وكانا رافقاه الى العاصمة، فاخذاه ووفناه في كربلاء^٢.

وقد غدا اليوم الذي قتل فيه الحسين، وهو العاشر من محرم سنة ٦١ هـ، (١٠ شرين الاول ٦٨٠) منذ ذلك الحين، يوم حداد ونواح عند مسلمي الشيعة. ففي مثل هذا اليوم العاشر (عاشوراء) من كل عام، تتمثل مأساة النضال الباسل والحدث الم悲ع الذي وقع للامام الشهيد. وربما عمد فيه غلاة المتبعين من الفرس، حتى الوقت الحاضر، الى السير في الطرق شبه عراة، والدم يتصدق من جراح احدثوها في اجسامهم تدليلًا على صدق الولاء وشدة الاسف وانكار الذات. وقد غدت اسماء يزيد، وعيده الله، وعمر، منذ ذلك الحين. عند الشيعة اسماء ملعونة. في حين غدت كربلاء اقدس مكان في العالم، ولا يزال الحج اليها عندهم اولى منه الى مكة. وفي كربلاء ولد المذهب الشيعي؛ وكان دم الحسين، على ما تبين في ما بعد، افعلاً في اذكائه هذا المذهب حتى من دم على نفسه. وصار الاعتقاد بامامة علي، وخلافة ذريته من بعده، في المذهب الشيعي، نظير الاعتقاد بنبوة محمد عند اهل السنة^٣. وغدا «يوم كربلاء» و«تأر الحسين» صيحة الاستفار عند الشيعة. وهذا الاستفار لم يفتر حتى ولا بعد المساهمة الفعالة التي حققتها الشيعة في تقويض العرش الاموي.

طامع آخر بالخلافة

على ان القضاء على الحسين لم يُنهِ التزاوج على الخلافة، لانه كان تزاعمًا مثلث الاركان. ذلك ان عبد الله بن الزبير يرز الآن الى الميدان، وجاهر بعده انه ليزيد

١) قابل البيهقي، ج ٢، من ٢٨٩؛ المسوudi، ج ٥، من ١٤٣.

٢) ابن حجر، ج ٢، من ١٧؛ ابن عساكر، ج ٤، من ٣٥-٣٣٢؛ ابن الأثير، ج ٤، من ٦٧-٧٥؛ الدينوري، من ٢٦٤، ٢٦٧.

٣) انظر ما سياق في الفقرة ٣٨ في الفقرة عن الشيعة.

وكان ابوه من قبل قد زاحم علياً عليها بلا جدوى^١. وكان عبد الله هذا من زينوا للحسين القيام بمعارضته الخطيرة^٢. فالتقت الحجاز حول عبد الله ، ونادت به امير المؤمنين . وعندما خف يزيد الى ارسال حملة تأديبية لاخضاع الثائرين في المدينة ، كان فيها عدد كبير من نصارى الشام . وكان قائد هذه الحملة مسلم بن عقبة ، وكان اعور ، وقد حل على معلم لانه كان شيئاً طاعناً في السن^٣. نشب القتال يوم ٢٦ آب سنة ٦٨٣ ، وكان النصر لحليف الحلة السورية . وهناك مجال كبير للشك في ان يكون جنود الشام قد استباحوا مدينة الرسول ، وانتهكوا حرمتها^٤، اما ابن الزبير فقد بلأ الى مكة على اعتبار أنها ذات حرمة . وان ارضاها مقدسة . لكن مسلمة لحق به^٥ ، إلا انه مات في الطريق وتولى القيادة من بعده الحسين بن غيور السكوني ، وهو الذي اصاب باحد نباله الحسين في كربلاء اذ كان يستقي^٦ . ولم يتعرج الحسين من توجيهه المنجنيق نحو الحرم^٧ . وقد اتصلت النار بالکعبه فاحتقرت يومتها . وكذلك الحجر الاسود وهو من معبدات الاطاهلين ، واقدس الآثار الاسلامية – فقد تصدع ثلاثة^٨ . وبذا بيت الله للانظار محداً من كسوته^٩ كأنه التكلى قد شقت الجيب . وفي هذه الاثناء توفي يزيد ، وتوقف في ٢٧ تشرين الثاني ، القتال الذي كان قد نشب في ٢٤ ايلول ٦٨٣ .

١) انظر ما سبق في ص ٣١ من هذا الجزء .

٢) المسعودي ، ج ٥ ، ص ١٣١ ؛ الدينوري ، ص ٢٥٦ - ٥٧ .

٣) هو غير عقبة الذي سبق ذكره في ص ٣٨ من هذا الجزء .

٤) الدينوري ، ص ٢٧٤ - ٧٥ .

٥) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٤٠ .

٦) الطبرى ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ البيقى ، ج ٤ ص ٢٩٩ ، الدينوري ، ص ٢٦٩ .

٧) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٤٧ - ٤٩ .

٨) البيقى ، ج ٤ ، ص ٣٠٩ - ١١ ؛ الانساب ، ج ٤ B ، ص ٥٢ ، ٥٥ ؛ راجع بشأن الحجر الاسود النبطي والکعبه الجزء الاول من ٤٢٨ .

٩) الطبرى ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

كان موت يزيد، وانسحاب الجيش السوري بصورة مقاومة من الحجاز، مما عزز وضع ابن الزبير في الحجاز. اذ نودي به، على الاثر، خليفة، ليس في الحجاز وحدها وهي موطنها، بل وفي العراق وجنوبي الجزيرة، وحتى في بعض اخاء الشام. وكان قد عين اخاه مصعباً^١ نائباً عنه ووالياً له على العراق؛ وجعل على سوريا الضحاك ابن قيس الفهري، زعيم القيسية (عرب الشمال)، وكأنوا طالما قاوموا الامويين^٢. على ان اليمينة (عرب الجنوب) تحركوا على الاثر ومنهم الكلبيون، وتدعاعوا الى نصرة الخليفة المسن الشرعي مروان بن الحكم^٣ وازلوا بالضحاك وجماعته هزيمة منكرة. كان ذلك في شهر توز سنة ٦٨٤ في مرج راهط، وهو سهل الى الشمال الشرقي من دمشق^٤. وكانت معركة مرج راهط «صَفِينَا» اخرى في مصلحة الامويين، وهي آخر معركة وقعت في الفتنة الاهلية الثالثة في الاسلام. وكانت نظير سابقتها، التي حدثت بين علي ومعاوية، اما وقعت بداعي النزاع على الخلافة بين سلالتين^٥. اما النزاع القبلي بينبني قيس – الذين يمثلون النازحين المتأخرین من شمالي الجزيرة، وبينبني كلب – المؤيدین المساندين للخلافة الاموية، فقد طال امده، – وتعجل في النهاية – بانهيار السلالة الاموية. وهذا النزاع لا يزال يتمثل، في السياسة المعاصرة، بين لبنان وسوريا^٦.

ان سحق الحزب المعارض للامويين في الشام قد بتر احد اطرافه، اما الرأس فقد يبقى حياً في الحجاز. وقد كانت خلافة ابن الزبير لازال ناشطة هنالك، حتى ارسل اليها عبد الملك – اذ تولى الخلافة بعد ابيه مروان بن الحكم – واليه

(١) اليقوني ١ ج ٢، ص ٣١٤.

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٢ من هذا الجزء.

(٣) وورد ذكره في ص ٢٨ من هذا الجزء.

(٤) العقد، ج ٢، ص ٣٢٠ - ٣٢١؛ المسعودي، ج ٥، ص ٢٠١؛ الانساب، ج ٥، ص ١٣٦ وما يتبع.

(٥) انظر ما سبق في ص ٣١ و٣٢ من هذا الجزء.

(٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٩ في الفقرة عن الشهابيين.

ذا اليد الحديدية ، الحجاج بن يوسف . وكان الحجاج في اول امره معلم صيان في الطائف ، وكان نسبه في بني ثيف ، وفيهم كان نسب المغيرة بن شعبة^١ . وكان الحجاج آنذاك في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان جيشه مؤلفاً - كما في الاخبار - من ٢٠ الف مقاتل^٢ . وقد ضرب حصاراً حول مكة استمر ستة اشهر ، ونصف الشهر ، اوها ٢٥ اذار ٦٩٢ . ولم يكن الحجاج اكثر تحرجاً في رمي المدينة المقدسة بالحجارة من زميله السابق الحسين . لكن ابن الزبير واصل النضال مدفوعاً بتعريض امه اسماء ، ابنة ابي بكر واخت عائشة^٣ ؛ لكنه كان قتلاً يائساً^٤ انتهى بذبحه ، وارسال رأسه الى الشام . اما جثته فقد صلب مقلوباً ، ثم دفع الى امه^٤ . وهذه اولى حرواث الصلب في المدونات الاسلامية .

وبوفاة ابن الزبير زال العلم الاخير من اعلام الاسلام الاولين ، وتم الاخذ بثار عثمان ، وتحطمـت قوـة الانصار الى الابد . وبـه سـلم للاسلام وضعـه الجـديد ، وتهـيـأ لـلاعتـبار السـيـاسي ان يـسود الـاعـتـبار الـديـنـي فـي سـلـطـان الدـوـلـة سـيـادـة تـامـة . وـمـنـذ ذـلـك الحـين غـدا مـقـام مـكـة وـالـمـدـيـنـة فـي التـارـيـخ مـقـاماً ثـانـوـياً ، وـاصـبـح تـارـيـخ الـجـزـيرـة اـحـفـل بـتأـثـيرـ العـالـم الـخـارـجي فـيهـا مـنـهـ بـتأـثـيرـها فـي الـعـالـم الـخـارـجي . ذلك ان «الـجـزـيرـة الـاـمـ» كانت قد استـفـدت نـفـسـها .

حزم الحجاج في عهد ولاته

عين عبد الملك الحجاج بن يوسف والياً على الحجاز ، فبني حكمه فيه نحو سنتين ، تكون خالماها من تهـدة الـحـالـة ، ليس في الحـجاز وحـده بلـفيـ الـيـمـن ، وـفيـ الـيـامـة شـرقـاً .

١) راجع ما سبق في ص ٣٦ من هذا الجزء ..

٢) الباقوفي ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

٣) الطبرى ، ج ٢ ، ص ٨٤٥ - ٤٨ .

٤) الباقوفي ، ج ٢ ، ص ٢٠ - ٣١٩ ، الـبـيـنـورـي ، ص ٣٢١ ؛ الـاغـانـي ، ج ٨ ، ص ٤٣ ، الانـسـاب ، ج ٥ ، ص ٦٩ - ٣٦٨ .

وفي سنة ٦٩٤ انبأطت به مهمة، نظير مهمته هذه خطورة، ان لم تكن اشد وانظر، هي ولاية العراق.

وكان العراق لا يزال في حالة اهتياج وغليان. وكان اهله «على قول الحجاج اهل شقاق ونفاق»^١. وقد كان فيه، فضلاً عن الزبيرين والشيعة، جماعة الحوارج^٢، ثم اولئك العلويون الذين نادوا، بعد مقتل الحسين، باخيه من ابيه - محمد بن الحنفية - اماماً عليهم، ولقبوه بالمهدي^٣. ولقد كان محمد هذا ابناً لعلي من غير فاطمة، وكني بابن الحنفية نسبة الى امه. وكان الحوارج اشد هؤلاء انتفاضاً. فجعلوا الشرق في غليان دائم. وقد انتشرت من العراق الى فارس، وانقسموا الى عدة فرق دينية متطرفة، واجتاحتوا الاهواز وكرمان، واحتلوا الري، وحاصروا اصفهان، واعملوا النهب والسلب انى توجها.

والتقت حركتهم في فارس بحركة الموالي الناشئة، المعارضة للعرب الاسياد. وهم الفرس الذين اعتنقوا الاسلام على اعتبار انه قد ساوي بين جميع الذين انضموا اليه، لكنهم سرعان ما اصيروا بحنفية، وشعروا انهم كانوا مخدوعين.

وما كاد الحجاج يتلقى تعينه الجديد، حتى غادر المدينة في كوكبة من الفرسان اجتاز بها الباادية في مسالك وعرة، وبلغ الكوفة متحفياً، دون سابق اشعار. وكان ذلك من النهار عند الفجر الباكر، وقد حل وقت الصلاة. فدخل المسجد وفي صحبته اثنا عشر من راكبي المجن، وقد جعل قوسه في كتفه وسيقه الى

١) المسعودي، ج ٥، ص ٢٩٥؛ البيقوني، ج ٢، ص ٣٢٦.

٢) راجع ماسبق في ص ٣٣ من هذا الجزء. وراجع بشأن منتهم وآرائهم البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق، نشر فيليب حتى (القاهرة ١٩٤٤)، ص ٦٥ - ٩٤.

٣) المهدي في اوساط الشيعة زعم عبد يزيد برد الاسلام الى حقيقته الاولى. ويكتسح العالم، وينشر السلام والرخاء في العالم قبل زواله؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 441.

٤) الموالي جمع مول، وهو من اعتنق الاسلام من غير العرب وألحق نفسه ببعض قبائل العرب، ومنزلته هذه المفترضة قد جعلته دون المسلمين العرب. الظاهر ما يتأتى في الفصل ٣٦ في الفقرة عن الاصلاحات المالية، والفصل ٣٧ في الفقرة عن الموالي.

جانبه؛ ووقف بالمصلين، ثم نزع عمامته التي كانت تستر سخته العابسة، والقى خطبة نارية غدت احب الخطب الى القراء، واسد ما في الادب العربي وفعلاً قال:

«انا ابن جلا وطلاع الثناء متى اضع العمامه تعرفوني»

يا اهل الكوفة! اني لارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها، واني لاصاحبها، وكأني انظر الى الدماء ترفف بين العائم واللحى ... الا ان امير المؤمنين امرني باعطائكم واسخاكم الى محاربة علوكم مع المهلب بن أبي صفرة^١. وقد امرتكم بذلك، واجلت لكم ثلاثاً، واعطيت الله عهداً ان لا اجد احداً من بعث المهلب بعده الا ضربت عنقه^٢. ثم امر غلامه ان يقرأ على الجموع كتاب امير المؤمنين فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله، عبد الملك، امير المؤمنين، الى من بالكوفة من المسلمين... سلام عليكم». ولكن احداً لم يرد السلام. فصاح الحاج بالفارسية «غاضباً» «اسكت يا غلام» ثم قال: «سلام عليكم امير المؤمنين فلا تردوا السلام! اما والله لأؤدب نسبي ادبآ سوى هذا الادب، اقرأ يا غلام الكتاب». ولما بلغ الى السلام، لم يبق احد في المسجد الا قال: «وعلی امير المؤمنين السلام^٣».

ان الوالي الجديد ، الذي القى عصا المعلم ليأخذ بسيف المقاتل ، كان عند قوله. لم يكن هنالك من عنق هو في مأمن من ان يطال. ولا رأس في عصبة من ان يُسحق. وقد كانت مهمته ان يعيد هيكل الدولة بين الرعية منها كان الثمن، وقد حق ذلك . فبلغ ما زهره من ارواح الناس - على ما قيل - ١٢٠ الفاً . وقد وجد منهم في السجون على اثر وفاته حسون الفاً من الرجال ، وثلاثون الفاً من النساء^٤.

١) هو القائد الذي قام في اوائل عهد معاوية (٦٦٤ - ٦٥) بجملة بلغ بها حدود الهند واتهب كابل وملتان؛ قابل ما سيفاً في الفصل ٣٦ والنصل ٣٧ . وقد كان الحجاج صهره.

٢) البرد، ص ٢١٥ - ١٦؛ قابل اليمقوني، ج ٢، ص ٣٢٦؛ المسعودي، ج ٥، ص ٤٩٤ . اما الیت في مستهل الخطبة فشاعر قديم.

٣) البرد، ص ٢١٦ .

٤) ابن البري . ص ١٩٥؛ قابل المسعودي، ج ٥، ص ٣٨٢؛ وللمؤلف للله التنبئ والاشراف، نشر دي غويه (ليدن، ١٨٩٣)، ص ٣١٨؛ الطبری، ج ٢، ص ١١٢٣ .

وهذه الارقام المبالغ فيها ، الى جانب الاخبار الجسمة عن استبداده وضراره ، وشرادته وقلة تقواه ، تشير الى ان ما تركه المؤرخون عنه – وجلهم من الشيعة ، او من السنة الموالين للعباسيين – انا يمثل صورة مشوّهة عنه ، لا رسماً صادقاً له .

على ان القاريء المتأمل ، لا يلبث ان يستشف من خلال السطور ، الكثير من المآثر الادارية البناءة التي يعود الفضل فيها الى الحجاج . فقد اعاد فتح الاقنية القديمة المردومة ، وشق اقنية جديدة ، وبنى قاعدة جديدة هي مدينة واسط – دعى كذلك لتوسيتها بين مدینتي العراق الكبيرتين : البصرة والكوفة^١ . وقد وضع تشريعياً لاصلاح النقد والضرائب والنكاليل^٢ . اما الاصلاح الذي تولاه في ما يتعلق بالقرآن ، فلا يعدو – على ما يظهر – ادخال اصلاحات فرعية على الخط ، تساعد على تفادي الخطأ في قراءة النص الكريم^٣ . واما التدابير القمعية الشديدة ، فيبياء اكان على حق في اتخاذها لم يكن ، فقد اعادت الاستقرار الى الكوفة والبصرة ، وطلما كانتا مهد العصيان والانتفاض . وكذلك هيبة الدولة فقد توّلت على طول الساحل الشرقي لجزيرة العرب ومنه عمان – وكانت حتى اندماج ذات كيان مستقل . وكانت فارس داخلة في ولايته ، فاستطاع قائد المطلب ان يقضي فعلاً على الاذارقة ، وكانوا اشد الموارج خطرآ على الوحدة الاسلامية . والاذارقة سموا كذلك تبعاً لزعيمهم الاول نافع بن الازرق ، وكان من التطرف في تعليمه بحيث اعتبر كل من لم يكن خارجيًّا – حتى ولو كان مسلماً – من المحدثين ، فاحل دمه ودم زوجته واولاده^٤ . وكان الاذارقة في هذه الاتهام قد بسطوا

١) ابن خلكان ، وفیات الاعیان (القاهرة ، ١٢٩٩) ، ج ١ ، ص ٢٢١ ؛ النھی ، دول الاسلام (حیدر اباد ، ١٣٣٧) ، ج ١ ، ص ٤٢ ؛ الطبری ، ج ٤ ، ص ١١٢٥ .

٢) انظر ما سیأتي في الفصل ٣٦ الاصلاحات المالية وغيرها .

٣) انظر ما سیأتي في آخر الفصل ٣٦ .

٤) الشیرستانی ، الملل والنحل ، نشر کورن (لندن ، ١٨٤٦) ، ص ٨٩ – ٩٠ ؛ البندادی ، ص ٧٦ – ٧٧ ؛ الطبری ، ج ٢ ، ص ١٠٠٣ وما يتبع .

سلطانهم ، بقيادة قطري بن التجاءة . على كرمان^١ وفارس ، وسواها من الأقاليم الشرقية . على ان قواد الحجاج ، في ماوراء فارس ، تمكنوا من الوصول إلى إادي الاندلس ، كما سُنْرِي في الفصل التالي . وقد كان اعتناد الحجاج في عاصمه واسط على حامية من الجيش السوري قد وثق بها ثقة – هي نظير ولائه للامويين – لا تعرف الحدود .

١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٦٣ ؛ ابن خلkan ، ج ٢ ، ص ١٨٤ - ٨٥ .

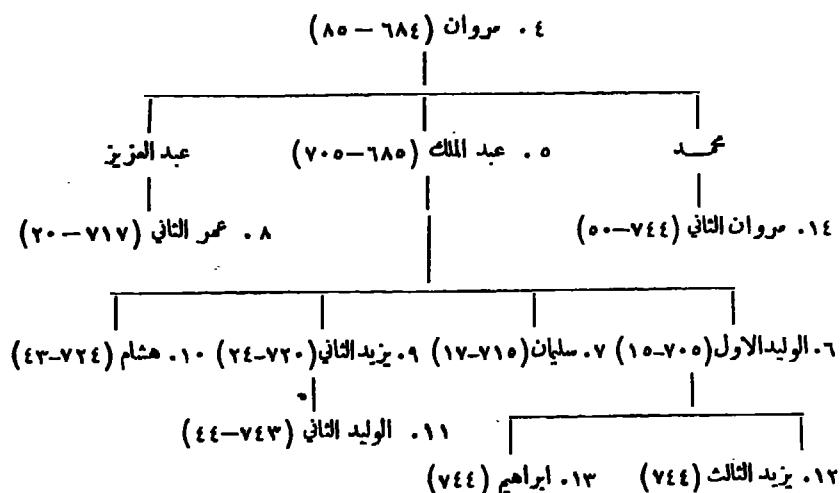
الفصل السادس والثلاثون

دمشق في أوج عزّها

دمشق في أوج عزّها

ان السلالة الاموية في دمشق بلغت اوج عزها وسلطانها في عهد عبد الملك بن مروان وبنيه الاربعة^١. ففي خلافة الوليد (٦٥-٧٠٥) و أخيه هشام (٤٣-٧٢٤) بلغت الامبراطورية الاسلامية اوسع حدودها ، فامتدت من شواطئ المحيط الاطلسي وقمة البريني ، حتى الاندلس وحدود الصين ، فكانت تفوق باتساعها مساحة الامبراطورية الرومانية في اوسع حدودها. ولم يسبق للامبراطورية العربية قبل ذلك العهد ، ولا تأتي لها بعده ، ان تبلغ الى هذا المدى. في هذا المهد الزاهر

١) يمثل الشكل الشجري المتباين صلة النسب التي تجمع بين افراد الفرع الرواقي من السلالة الاموية :



ثم للعرب نهائياً اخضاع ما وراء النهر ، واعادة فتح شالي افريقيا وتهيئة الاحوال فيها والاستيلاء من ثم على شبه جزيرة ايبيريا . وفي هذا العصر تحقق تعریب ادارة الدولة . فنقلت الدواوين الى العربية ، وخربت القواد بالعربية وحدها ، ونظمت مصلحة البريد ، وأنشئت المبانى الضخمة نظير مسجد الصخرة في القدس ، وهو أقدس حرم في الاسلام بعد حرمي مكة والمدينة .

ان فتح سوريا وال العراق و مصر ، في عهد عمر وعثمان ، ختم الدور الاول من تاريخ الفتوحات الاسلامية ؛ وامتداد حدود السلطة الاسلامية في عهد معاوية الى خراسان وآسيا الوسطى شرقاً ، والى افريقيا غرباً، توج الدور الثاني^١؛ واخضاع ما وراء النهر اخضاعاً تاماً، واجتياح وادي الاندلس في عهد عبد الملك ومن تلاه مباشرة ، كان ختام الدور الثالث .

اخضاع ما وراء النهر

ان اخضاع الاقاليم التي اصبحت الآن تدعى تركستان وافغانستان وبلوختستان وبنجاب اخضاعاً نهائياً امام^٢ على يد قرّاد الحجاج بن يوسف . وكان احد هؤلاء القراد عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ، وكان حاكماً على سجستان ، وهو سليل ملوك كندة الذين حكمو في اوسط الجزيرة العربية . وكانت شقيقته قد تزوجت احد ابناء الحجاج . في سنة ٦٩٩ - ٧٠٠ زحف عبد الرحمن على الزنبل^٣، وهو الملك التركي (او الايراني^٤) في كابل (افغانستان) وكان قد امتنع عن اداء الجزية المعتادة . وكانت الاسرة الحاكمة والجيوش في هذه الملك وسواها من ممالك آسيا الوسطى من عرق تركي ، لكن الرعايا كانوا في الغالب ايرانيين . وكان جيش عبد الرحمن وافر العدد بحيث دعي «جيش الطواويس». لكن حركة العصيان التي قام بها عبد الرحمن في وجه الحجاج ، وضفت حداً لعاركه المظفرة ، وعزل من

١) انظر من ٣٨ من هذا المزء.

٢) Wellhausen, *Reich*, p. 144, n. 3 ; وفي الطبرى معرفاً : وتنليل، ج ٢، ص ١٠٤٢

وما بعد : التبيه ، من ٣١٤

القيادة . وفي سنة ٧٠٤ هـ التي بنفسه من أعلى برج هناك ، فسقط جنة هامدة^١ . وهي من اندر ما دوّن من حوادث الانتحار في الاسلام .

على ان حروب عبد الرحمن لاتعد شيئاً بالقياس الى ما تم على يد قتيبة بن مسلم الباهلي . وكان الحجاج قد اشار بتعيينه حاكماً على خراسان سنة ٧٠٤ هـ ، على ان تكون نابعة لولايته^٢ . فاتخذ قتيبة مدينة مرو قاعدة له ، قاد منها ، في مدى نحو عشر سنوات ، عدداً من الحملات الطربيّة البارعة الموفقة ، اجتاح بها ما وراء النهر . هذا النهر هو نهر جيحون^٣ الذي كان حتى ذلك الزمان الحد التقليدي ، لا التاريخي ، بين ايران وطوران ، اي بين الشعوب الناطقة بالفارسية وتلك الناطقة بالتركية . وفي هذا العهد ، وهو عهد الوليد ، وضع المسلمين في هذه الاصقاع تدماً ثابتة . وكان في جيش قتيبة اربعون ألف مقاتل عربي من البصرة ، وسبعينة آلاف من الكوفة ، وسبعينة آلاف من الموالي^٤ . في الملة الاولى استرد قتيبة القسم الادنى من طخارستان وعاصمتها بلخ^٥ . وبين سنة ٧٠٦ و ٧٠٩ اكتسح بخارى من بلاد الصند و المنطقة المجاورة لها . واستولى بين ٧١٠ و ٧١٢ على سمرقند (من بلاد الصند كذلك) وخوارزم (خيوا حديثاً) الى الغرب . وفي غضون العاشرين التاليين قاد حملة الى مناطق تبر سيخون لاسيا الوسطى ، واقام فيها حكماً اسلامياً اسبياً ، في ما هو معروف اليوم بخانات آسيا الوسطى . ولقد كان الكثيرون من سكان تلك الاصقاع على البداوة ، فكان الوضع العام هنا ، مثله في شمالي افريقيا والمناطق الاخرى : غزوات تتبعها غزوات ، وجزية تفرض ، فامتناع عن اداء الجزية ، فهجوم ، فتسليم ومصالحة .

^١) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١١٣٥ .

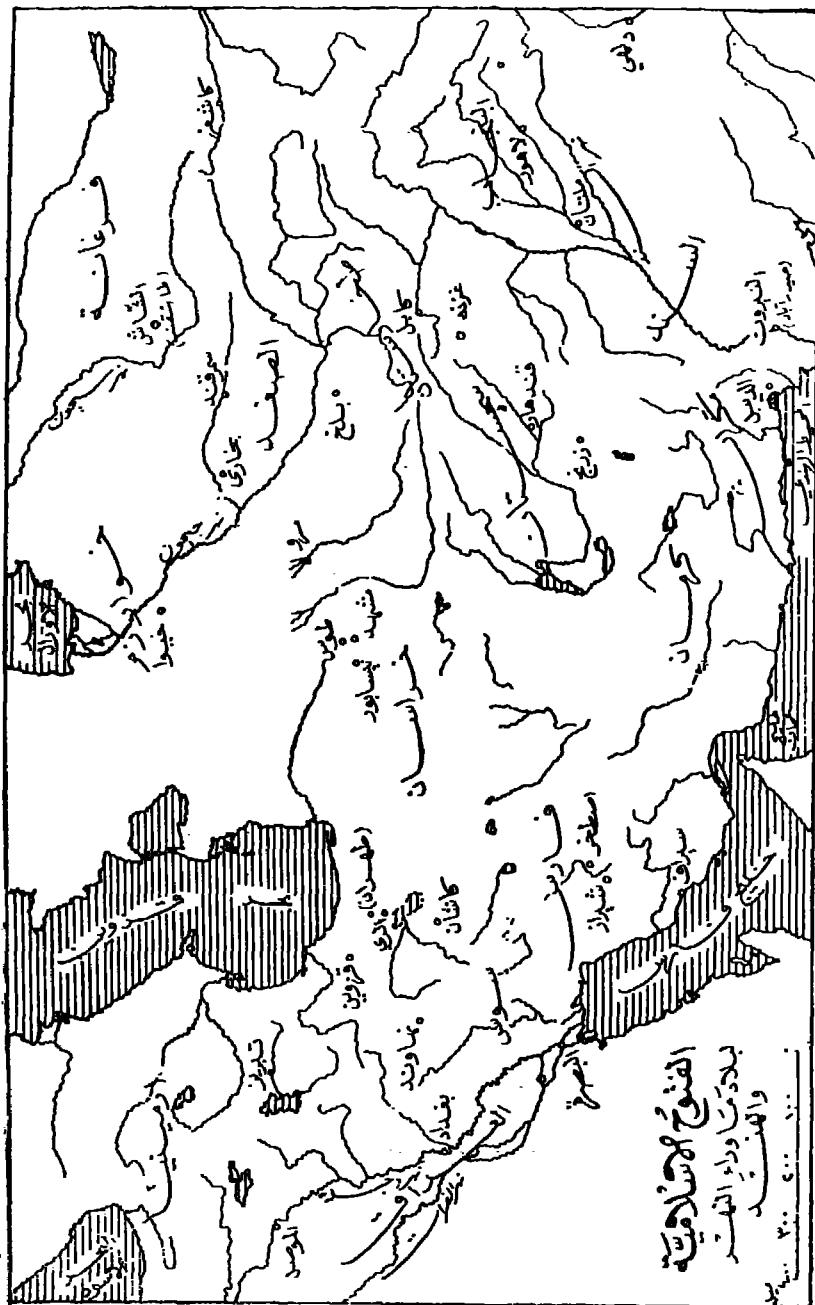
^٢) ابن خلkan ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ؛ المحدثون الدينيون في العصور الإسلامية ، ٣٤٤ .

^٣) آمو داريا حديثاً ، وجیحون هو الاكسوس ، اما سیحون فهو جاكارتس ويعرف بسرداريا اليوم . وقد ورد اسم كل من النهرين في سفر التكوان ٢ : ١١ و ٢ : ١٣ .

^٤) البلاذري ، ص ٤٢٣ ؛ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٢٩٠ - ٩١ .

^٥) البلاذري ، ص ٤١٩ .

دمشق في أوج عزّها



لقد كان عبور نهر سينجون حدثاً تاريخياً مهماً، لأن هذا النهر، لا نهر جيجون، هو الحد الطبيعي والسياسي والجنساني الفاصل بين الإيرانيين والترك. وكان عبوره أول تحدٍ مباشر من العرب للشعوب المنغولية، ومن الإسلام للديانة البوذية. وكان للبوذيين صوابع في بخارى وبلغ وسرقند^١. وقد وقع قتيبة في سرقند على عدد من الأصنام فعمد إلى أحرافها بيده. ونتج عن ذلك اقبال الكثرين من عبدتها على اعتناق الإسلام، من كانوا يظنون أن من أغضبها هلك الحال. وكذلك في بخارى، فإن معابد النار قد هدمت، وسرعان ما غدت بخارى وسرقند وخوارزم مراكز لتعليم الإسلام في آسيا الوسطى، ولم تثبت أن تحولت إلى مراكز للعلوم العربية، على نحو ما كانت مرو ونيسابور في خراسان، والبصرة والكوفة في العراق.

استلحاق ما وراء النهر

ولقد استأنف الأعمال الحربية التي بدأها قتيبة قائله نصر بن سيار^٢ ومن خلفه من القواد. وكان هشام بن عبد الملك (٧٤٣ - ٧٢٤) قد عينه حاكماً على بلاد ما وراء النهر؛ فجعل قاعدته في بلخ ثم في مرو؛ ومن مرو اضطر إلى إعادة فتح (٤٠ - ٧٣٨) معظم المنطقة التي اجتاحتها قتيبة قبله، والمظنون أن قتيبة كان قد أكتفى باقامة حامية من العرب تتولى جباية الضرائب، وتعمل، بالتعاون مع الحكام الأهلين. أما كاشغر في تركستان الصينية، التي زعموا أن قتيبة كان قد اكتسحها (٧١٥)^٣، فلم يبلغها العرب إلا في هذا العهد. وعندما رقي الوليد الثاني

١) كان حاكم الصنديق في سرقند، ويحمل لقباً فارسياً هو «الأخشيد». وكان هذا لقباً ملك فرغانة أيضاً. وكان حاكم هذين البلدين، وحاكم خوارزم والشаш يلقبون كذلك باللقب فارسية (نظير: خدام، وشاه، ودعقان). وكانت في ما يظن يتصلون عن طريق الرواج بالخان والخانان من أمراء الترك التربين. على أن العرب اطلقوا لفظة «ترك» على كل من لم يكن فارسياً من رعايا المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من نهر جيجون. انظر ابن خرداذبه، ص ٣٩ - ٤٠؛ اليقون؛ ج ٢، ص ٤٧٩.

٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ٤١٦؛ W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, 2nd. ed. (Oxford, 1928), p. 192.

٣) ابن الأثير، ج ٥، ص ٢.

سنة الخلقة (٧٤٣) استدعى نصر بن سيار الى دمشق ، وامره ان يحضر معه جميع انواع طيور الصيد ، وكافة اصناف ادوات الغزف . لكنَّ الوليد اغتيلَ ونصر لا يزال في طريقه اليه . وقد تكون القواد الذين خلفوا نصراً حتى سنة ٧٥١ من انت يحتلوا الشاش (تاشكند) ، الى الشمال الشرقي من سمرقند ، فتم للمسلمين بذلك توسيع سيادتهم في آسيا الوسطى ، ولم يعد لهم من بين السلطات المحلية اي منازع . وهكذا ضم ما وراء النهر بكلمه وبهائلاً الى ممتلكات الخليفة المترامية الاطراف . الا ان المحاولات التي قاموا بها على بلاد الخزر ، ما بين بحر قزوين والبحر الاسود ، في سنة ٧٣٧ وما بعد ، ما آلت الى شيءٍ^١ . وقد كان الخزر من اصل جرماني (هوني) لكنهم هُمودوا في ما بعد .

فتح العرب في الهند

وفيها كان قتيبة ونصر يواصلان حملاتها الناجحة في الميدان الشرقي ، كان قائداً آخر يقود حملته في اتجاه جنوي داخل بلاد الهند . هذا القائد هو محمد بن القاسم التقى ، صهر الحجاج . وكان جيشه يتضمن على ستة الاف جندي من السوريين^٢ . وقد تيسر له في سنة ٧١٠ ان يخضع مكران ، ويواصل الزحف على ما يعرف اليوم ببلوختستان . واستطاع ان يجتاح بين سنة ٧١١ و٧١٢ السند ووادي الاندوس الادني ودلاته . واحتل هنالك مرفاً الدبيل حيث وجد صنماً (بداء) لبودا « طوله في السماء اربعون ذراعاً»^٣ . وسار من ثم على التيرون (حيدر اباد حديثاً) واحتلها كذلك . وفي السنة التالية امتدت الفتوحات شمالاً حتى ملستان في جنوي البنجاب وعند سفح جبال حملايا . وكانت ملستان مركزاً لمعبود بوذى قومي وقع بيد الفرازة ، وكان فيه جمع غفير من الحجاج ورجال الدين يسقوا على اعتبار انهم اسرى حرب . وكانت النافذات التي ظفر بها العرب من هذا المعبد كثيرة الى حد

١) ابن الاتير ، ج ٥ ، ص ١٦٠ ؛ المسعودي ، ج ٢ ، ص ١٩٨ وما بعد .

٢) البلاذري ، ص ٤٣٦ .

٣) البيهقي ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

عرف معه هذا المعبد «بيت الذهب»^١. وغدت ملتان لسنين كثيرة قاعدة المند العربية، وحصن الاسلام الامامي في تلك الاصقاع.

الحملات الحربية على البيزنطيين

كان عبد الملك في اوائل خلافته قد شغل بأخذ ثورة ابن الزبير ، فاضطره ذلك الى ان يوافق على دفع الجزية (٦٨٩/٧٠ - ٩٠) «لطاقيه الروم»، ولاحقاه المسيحيين من الجراجة الذين كان امرهم آنذا قد توثق في لبنان^٢. لكنه استطاع ، بعد ذلك بقليل ، ان يثير الحرب على اعداء العرب الدائرين . وتمكن جيوشه في سنة ٦٩٢ من ان تهزم جيوش يوستينيان الثاني عند سباستوبوليس في كيليسكيا . ثم استأنف الوليد هذه الحملة بعد عبد الملك وظفر جيشه سنة ٧٠٧ بدخول الطروانة ، وهي اعظم حصن كبرى . وبعد ان استولى على ساروس ويرغامس . خلا امامه الطريق الى القسطنطينية ، وتمكن من ثم مسلمة بن عبد الملك ، قائد سليمان ، من ان يلقي حولها حصاره المشهور بين آب ٧١٦ وايلول ٧١٧ - ذلك الحصار الذي لم يجد شيئاً^٣. اما ارمينيا التي كان العرب قد اجتاحوها (٤٥-٦٤٤) في عهد ولاية معاوية على سوريا ، فكانت قد انتفضت اثناء فتنة ابن الزبير ، فعمد عبد الملك الى اخضاعها ثانية^٤.

حملة شمال افريقيا

وكذلك افريقيا ، فقد دعت الحاجة الى اعادة فتحها في هذه الآونة . ان سيطرة عقبة^٥ قائد معاوية على هذه المنطقة كانت من الضعف بحيث اضطر القائد

١) البلاذري ، من ٤٤٠ .

٢) راجع من ٣٤ من هذا الجزء .

٣) راجع من ٥٠ من هذا الجزء .

٤) البلاذري ، من ١٦٠ .

٥) راجع من ٣٨ - ٣٩ من هذا الجزء .

الذي خلفه إلى الجلاء عنها. لكن الحسن بن النعيم الفساني (٦٩٣ - ٧٠٠) استطاع، في غضون خلافة عبد الملك، أن يصنف مقاومة البربر ويطيح بسيادة البيزنطيين. وتمكن بعد الاستعانته بسطول إسلامي من أن يطرد الروم من قرطاجنة وسواها من التغور. ثم استأنف زحفه على حلفائهم البربر، وعلى رأسهم آئذ كاهنة^١، لها عليهم سلطان عظيم. فهزماها وتركها قتيلة في جبل اوراس (الجزائر) قرب بئر ما زالت تسمى باسمها، هي بئر الكاهنة.

تولى الحكم بعد حسان، موسى بن نصير الشهير. وفي عهده انسلاخت هذه الأقطار عن ولاية مصر، وصارت ذات حكومة خاصة فاعدمتها القیروان، وغدتتابعة للخلافة في دمشق رأساً. ولد موسى بن نصير قرب بيروت. وكان أبوه اسيراً من نصارى سوريا، وقع في يد خالد بن الوليد مع جماعة من الصييان، كانوا يدرسوـن الأنجليلـ في بـيـعـةـ في عـيـنـ التـمرـ فيـ العـرـاقـ^٢. وإلى موسى هذا يرجع الفضل في توسيع حدود هذا الأقليم غرباً حتى طنجة.

إن الفتوحات التي تمت على يد حسان وموسى بن نصير ادخلت البربر^٣ نهائياً في حوزة الإسلام. ولقد كان معظم هؤلاء البربر، المقيمين آنذاك في المنطقة الساحلية الخصبة، على النصرانية. وكان قد ازدهر فيهم ترتيلان وقبرياتوس وأوغسطينوس، وسواهم من القديسين والآباء في عهد الكنيسة الأول. ولما كان السكان البيزنطيون والرومان قبلهم قد تجمعوا في المدن الساحلية، فقد بقيت حضارتهم غريبة بالنسبة إلى هؤلاء البدو، أو شبه البدو، من أهالي أفريقيا الشهابية. وكان البربر أكثر تزوعاً نحو العرب المسلمين. فهم حاميون وإذاً فهم الصق نسباً بالعرب

١) البلاذري، ص ٢٢٩؛ ابن خلدون، ج ٧، ص ٨ - ٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، نشر دوزي (ليدن)، ١٨٤٨، ج ١، ص ٢٠ - ٢٤.

٢) يعتقد غير هؤلاء أن موسى كان لحياناً، يروي سوام أنه يحيى. قابل البلاذري، ص ٢٣٠؛ ابن عذاري، ج ١، ص ٢٤.

٣) لفظة بربر تتحدر في الراجح من اللفظة اللاتينية : *barbari* (من أصل جرماني)، اطلقها أهل المدن الأفريقية التي حكمها الرومان وبنوا فيها الحضارة اللاتينية على جميع الرعايا الأهلين الذين لم يتغذوا اللاتينية لساناً لهم.

الساميين. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا والعرب في مستوى واحد من التقدم الحضاري. هذا فضلاً عن أن اجتياح الفينيقيين القدماء لهذا القطر ، واستعمارهم له ، عمل على تهديد الطريق لتعريبيه. وقد جاء في أخبار العرب أن معظم البربر من أصل كنעני^١. وقد بقيت اللغة القرطاجنية ، وهي كالعربية لغة سامية ، متداولة في المواطن المتنزلة حتى قبيل الفتح الإسلامي . ومن هنا يسهل علينا تعليل السرعة العجيبة التي تم بها نهائياً تعرية البربر وحملهم على الإسلام . فما ان قهروا حتى جندوا ، وتألفت منهم حملات جديدة ، انضمت تحت راية الإسلام في سيره المطرد .

فتح الاندلس

ان اجتياح افريقيا الشمالية حتى شاطئ المحيط الاطلسي^٢ مهد السبيل للاستيلاء على اوروبا الجنوبيّة الغربية . وقد تحققت هذه الخطوة الخطيرة الأولى في سنة ٧١٠، عندما اقْتُلَ اقتلاعاً جيش من جيوش العرب ، لأول مرة ، على اجتياز المضيق البالغ ثلاثة عشر ميلاً . ولأنّ كان الفرض المباشر مجرد الفزو ، فإن الفزوة لم تثبت ان تحولت الى فتح اكتسب شبه جزيرة ايبيريا برمتها^٣ ، وتلاه احتلال كلي او جزئي استمر نحوه من ثانية قرون . كانت حملة العرب هذه على القسم الجنوبي الشرقي من القارة الأوروبيّة آخر حملاتهم ، واروع ما قاموا به من الفتوحات ؛ وهي تمثل غاية ما بلغته حركة التوسيع في الجبهة الأفريقية الأوروبيّة ، كما يمثل فتح تركستان او ج التوسيع في الجبهة الآسيوية .

طارق يعبر المضيق

ان الحملة التي قام بها طارق فريدة في بابها ، باعتبار ما اتصف به من سرعة العمل وكمال الظرف ، ليس في تاريخ العرب فحسب ، بل وفي تاريخ اوروبا في العصر

١) الطبراني ، ج ١ ، ص ٥٦٦ ؛ المسعودي ، ج ٣ ، ص ٤٠ - ٢٣٩ .
رابع الجزء الأول من ١١٠ - ١١١ .

٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ - ٥ .

٣) دعاماً للعرب الاندلس ، والاسم من لفظة قنдал وهو اسم القبائل البربرية التي سبق ان اجتاحت اسبانيا .

الوسيط . ففي توز سنة ٧١٠ نزلت فرقة مؤلفة من اربع مئة جندي من المثابة وبعثة من الفرسان ، بقيادة مولى موسى بن نصير اسمه طريف ، في شبه جزيرة صقيرة تكاد تكون أقصى مناطق القارة الاوروبية الى الجنوب . ولم يتضح بعد هل كان طريف هذا من العرب ام من البربر^١ . لكن شبه الجزيرة قد حملت اسمه عهده^٢ ، ولا زال الى الان تعرف بجزيرة طريف (Terrifa بالاسبانية)^٣ . ان نجاح طريف من جهة ، واضطراب الوضع في المملكة القوطية الغربية في اسبانيا من جهة اخرى ، كانا ما اغري موسى بن نصير سنة ٧١١ ، بان يرسل اليها مولى له آخر ، اسمه طارق ابن زياد ، على رأس سبعة آلاف مقاتل ، كان اكثراهم نظيريه من البربر ، فنزل بهم قرب الصخر العالي الذي خلّد اسمه منذ ذلك العهد ، فعرف بجبل طارق^٤ . امس السفن التي استخدماها ، فالاخبار التاريخية تؤكد ان الذي قدسها له شخص يكاد يكون اسطوريآ هو جوليán^٥ ، امير سبتة البيزنطي . واما الدافع لهذه المغونة فغير واضح ، والرواية التي ترجع السبب الى اعتداء رودريخ ، مقتبض العرش القوطي ، على ابنة جوليán الفاتنة ، ليست حرية بالثقة . والحق ان حكاية الفتح يرمتها ، قد زينها الاخباريون العرب والاسبان على السواء ، وتزيدوا فيها ما شاء لهم التزييد .

نصر حاسم

وفد طارق بجيشه ، وقد عزّه بالامداد حتى بلغ ١٢ الف مقاتل ، وقابل جيش

(١) قابل : المقري ، نفح الطيب من خصن الاندلس الرطيب ، نشر دوزي ورويت (لين، ١٨٥٩، ج ١، ص ١٥٩) ؛ ابن خلدون ، ج ٤، ص ١١٧ ؛ ابن عذاري ، ج ٢، ص ٦ ؛ اخبار مجموعة في فتح الاندلس ، نشر لافونت الكترا La fuente y Alcautara (مدريد، ١٨٦٧)، ص ٦٠ . اورد ذلك الادريسي في « ذكر الاندلس » (وهي مقتببات من ترفة الشناق) نشر دون جوزيف كونديي Don Josef A. Conde (مدريد، ١٧٩٩)، ص ٤١، ٣٥، ٤٤ .

(٢) الادريسي ، ص ٣٦ .

(٤) ورد هذا الاسم أبيان في البلذوي ، ص ٢٣٠ ، وبليان في أخبار مجموعة ، ج ١، ص ٤ ؛ وابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦ ؛ والمقري ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، وابن عبد الحكم ، ص ٢٠٦ ؛ وبيوليان في ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ . ولم اسمه الحقيقي أربان ، او آلان .

(٥) الاسم من اللاتينية اصلاً : *septem* اي سبعة ؛ الادريسي ، ص ١٢ .

رودريك عند مصب نهر وادي بكة^١، على ضفة ضحاص البحيرة.. على ان خيانة وقعت في معسكر القوط ، كان قد دبرها بعض انسباء الملك المخلوع ، هو ابن غيطة او غيطة ، ساعدت على هزيمة الجيش الاسباني الذي بلغ ٢٥ الفاً . وفي هذه المعركة فقد روذريك^٢ نفسه ولم يسمع شيء عنه بعد ذلك.

ولقد آلت هذه المعركة الى نصر حاسم ، اذ استمر بعدها زحف المسلمين فيسائر نواحي شبه الجزيرة ، بدون توقف . اما طارق فقد سار بالقسم الاكبر من جيشه نحو العاصمة طليطلة ، وفي طريقه ارسل بعض الفصائل لاحتضان المدن المجاورة التي صر بها . ولقد من جيشه بدينة اشبيلية ، وكانت منيعة الحصون ، وبلغ قربة — عاصمة المسلمين الزاهرة في ما بعد — فسقطت على اثر خيانة نسبت الى راعي ، قيل انه دل^٣ العرب على صدح في سورها^٤ . اما مالقة فلم تقاوم ، واما طليطلة فقد سلماها بعض اليهود من سكانها . وكان ذلك في اواخر صيف ٧١١ . وفي اقل من نصف سنة غدا القائد البربرى سيداً على نصف اسبانيا ، وقد استأصل مملكته باسرها .

موسى في اثر طارق

وفي شهر حزيران من العام التالي جهز موسى ابن نصر جيشاً من العرب والسوريين^٥ بلغ عشرة آلاف جندي ، وسار بهم على جناح السرعة الى ساحة الحرب . ذلك لانه لم يرق له ان يكون كل المجد ، وجميع الفنائم من نصيب قواده . على انه استهدف في سيره المدن التي حاد عنها طارق ، وفي طليطلة او في

(١) حرف بالاسانية الى Guadilbeca فالتبس بـ Cf. Stanley Lane-Poole . Guadelete and Arthur Gilman, *The Moors in Spain*, (New York, 1911), pp. 14, 23.

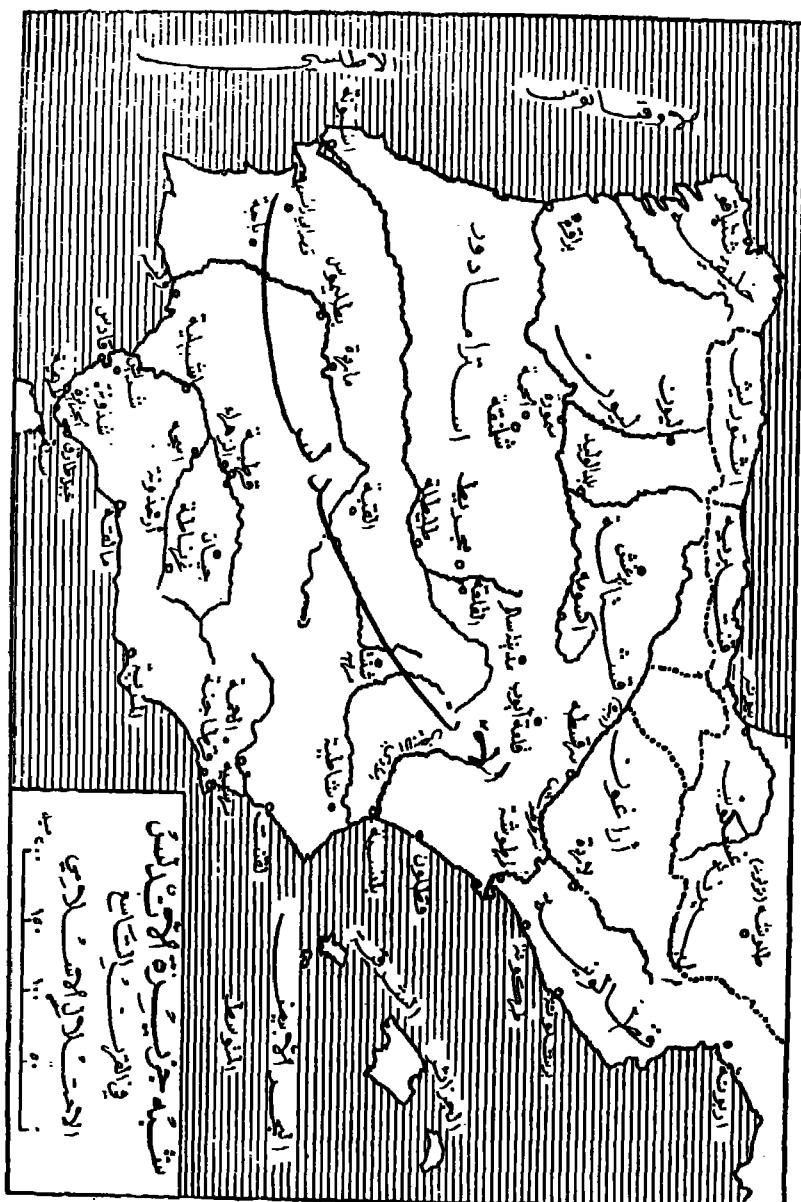
(٢) حرف العرب الى الترقيق ، لوريق ، روذرقي . المقربي ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٦ ؛ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٧ ؛ اخبار مجموعة ، ص ٨ ؛ المسعودي ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٠ ؛ اخبار مجموعة ، ص ١٠ قابل المقربي ، ج ١ ، ص ١٦٤ - ٦٥ .

(٤) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٢٥٣ .

دمشق في أوج عزّها

٧٥



جوارها ، حتى بعدها السابق ، وجده وقيته بالاغلال ، لانه ابي الامثال لامر كان اصدره اليه ، في المراحل الاولى من حملته هذه ، بان يتوقف^١ . ثم استأنف زحفه المظفر ، وسرعان ما بلغ سرقة في الشمال واحتلها . وكانت مرتقعت ارغونة ، وببلاد ليونة وغاليسيا ، خليقة بالسقوط لولا ان ورد عليه امر سامي من الوليد في دمشق . فقد اخذ الخليفة على واليه الاساءة نفسها التي عاقب الوالي عليها قائدته التابع ، وهي التصرف على هواه وعدم مراعاة وئشه .

موكب النصر

خلف موسى بن نصير ابنته عبد العزيز في قيادة الجيش ، وسار متوجهاً نحو سوريا . وقد اشتغل موكيه ، باستثناء حاشيته الخاصة على اربع مئة من افراد السلالة القوطية المالكة ، وافراد الأمر الارستقراطية ، ترين رؤوسم التيجان ، وتطوق اوساطهم الاخرمة الذهبية ، وفي اثرهم جموع من العبيد والاسرى^٢ يحملون نفائس الفناء . وكان مرور موكب النصر في شمالي افريقيا وجنوبي سوريا موضوعاً مستحبأ لدى الاخباريين العرب^٣ . وعندما بلغ موسى بموكبته منطقة طبرية انتهى اليه أمر من سليمان اخي الوليد وولي عهده – وكان الوليد مريضاً – بان يؤخر وصوله الى العاصمة حتى يتلقى مع ارتقائه الى سدة الخلافة^٤ .

والظاهر ان موسى تغاضى عن الامر : وفي شهر شباط سنة ٧١٥ دخل دمشق ، فترك دخوله اليها وقعاً شديداً في النقوس . وقد استقبله الوليد ، وفي رأي البعض

١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٧ - ١٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .

٢) كان عدم ٣٠ الفاً (!) برواية القرى ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ قابل ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ - ١١ ؛ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٢ ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس (بلزيد ، ١٨٦٨) ، ص ١٠ ؛ ومن هنا القبيل : ابن قتيبة ، قصته فتح الاندلس (مستخرج من «الامامة والسياسة» وملحق بابن قوطية) ، ص ١٣٨ و ١٤٠ وما بعد .

٤) قابل : الراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المقرب ، نشر دوزي ، الطبعة الثانية (لدين ، ١٨٨١) ، ص ٨ .

ان الذي استقبله هو الخليفة الجديد سليمان . واقيم لهذه المناسبة مهرجان ملكي كبير ازدان بظاهر الجد والابهة ، وذلك في باحة المسجد الاموي الذي كان الوليد قد فرغ حديثاً من اقام بنائه ، بمثار قصر الخليفة . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً من ايام النصر في الاسلام ، اذ لم يسبق ان شوهد مثل هذا العدد من امراء الغرب والاسرى الاوروبيين ذوي الشعور الصعباء ، وقد جاءوا يقدمون خصوصهم لامير المؤمنين . ولئن كان هنالك حدث يمثل الجد الاموي في اوجه ، فلا مراء انه هذا الحدث . وكان من ايز ما قدمه موسى الى الخليفة من الاسلاب التذكارية الثمينة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير ، كان طارق قد غشها من كاتدرائية طليطلة . وكانت القوط قد تنافسوا في تزيينها بالاحجار الكريمة ، حتى نسبت الاساطير حولها ، فنسبت اتقان صنعها الى جن سليمان ، وروت ان الرومان حملوها من هيكل سليمان الى عاصمتهم ، ونقلها القوط من هناك الى اسبانيا . وكان طارق ، على ما في الرواية ، قد انتزع احدى قوانحها عندما اغتصبها منه موسى في طليطلة ، فايزها الان بصورة مثيرة ، مدللاً على انه هو ، لا موسى ، صاحب المأثره^١ .

على ان الخليفة الذي تلا الوليد عاقب موسى واذهله . وبعد ان اوقفه في الشمس حتى التلف ، عزله وحجز بمتلكاته . وقد لاقى موسى الحالة التي لا يلقاها عدد من القواد المظفرین والاداريين الحازمين في الاسلام . وآخر ما عرف عنه ، وهو قاهر افريقيا وأسبانيا ، انه كان يستعطي القوت الضروري في بعض قرى الحجاز الثانية^٢ .

ولقد ألحقت اسبانيا في هذه الاتناء بالامبراطورية السورية ، واستأنف القائد الذي تلا موسى العمل على اخضاع المناطق المفتوحة في الشرق والشمال . وبعد

١) المغربي ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ١٧٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢١١ ؛ ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ - ٤٩ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ بذلة من اخبار قتح الاندلس (قطعة مستخرجة من الرسالة التربيدية الى الانصار الاندلسية ، ملحوظة بابن قوطية ، مدريد ، ١٨٦٨) ص ١٩٣ ، ٢١٣ ؛ انظر الف ليلة ٢٧٢ *Arabian Nights* , No. 272 .

٢) المغربي ، ج ١ ، ص ١٨٠ ؛ قابل ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

ان وطئت حملة العرب الاولى ارض اسبانيا للمرة الاولى بست سنوات ، وقف رجال الملات التي استأنفت الزحف من بعدها امام قم البرنيه الشاحنة .

تعليق سهولة الفتح

ان هذا الفتح الذي يبدو لاول وهلة منقطع النظير . كان من المحتمل ان لا يتم ، لولا ما كانت تعانيه الاوضاع الداخلية من ضعف وتفسخ . فلقد كان سكان البلاد مزيجاً من الاسبان والرومان ، وكان الحكام من القوط الغربيين الذين سبق ان احتلوا البلاد في اوائل القرن الخامس ، فحكموها حكماً مطلقاً ، واجهاناً استبدادياً . وقد بقوا سنوات كثيرة على مسيحيتهم الاردية ، ولم يعتنقوا الكاثلكة التي كانت مذهب رعایاهم حتى النصف الثاني من القرن الثاني . ولقد كانت الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع تعانى الرق والعبودية ، فكان مؤلام ، ولليهود المضطهدین يد في تسهيل عمل الفتح على العرب الفاتحين .

عبد جبار البرني

وفي عام ٧١٧ او ٧١٨ تکنن الحرّ بن عبد الرحمن التقى^{١)} . وهو الخلف الثالث لموسى بن نصير ، من عبور الجبال التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا . كانت هذه الملات سلسلة من القرارات استأنفها ، من بعد الحرّ ، خلفه السمح بن مالك الخوارجي ، وكان الفرض منها الاستيلاء على التفاصیں التي اشتهرت بها الادیار والکنائس في تلك المنطقة . وفي خلافة عمر الثاني سنة ٧٢٠ احتل السمح اربونة التي تحولت في ما بعد الى حصن ضخم اشتمل على دار صناعة . وفي العام التالي جرت محاولة فاشلة لاحتلال تولوز ، قاعدة الدوق يوديس الاکوتيني ، قتل فيها السمح ، وسجل بذلك النصر الاول الذي احرزه امير جرماني على العرب .

١) ابن عذاري، ج ٢، ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن الاثير، ج ٥، ص ٣٧٣ .

معركة تور

وبعد انتهاء اثنى عشرة سنة ، قاد عبد الرحمن بن عبد الله الفاتقي ، أمير الاندلس بعد السمح ، اكبر الملاحم وأخرها عبر البرانية . وبعد ان تم له النصر على الدوق يوديس ، وذلك على ضفاف نهر خارون ، اجتاز مدينة بوردو ، وسار شمالاً نحو بواتيه ، فبلغها واحرق بناء كنسياً كان يقوم خارج اسوارها . ثم توجه نحو تور . وكان في تور مزار للقديس مارتون ، وهو ولی كبير من اولياء القائين . وكان من اهم ما اجتذب الغزاة الى تور ما في مزارها هذا من نفائس التذكرة .

وفيها كان عبد الرحمن متوجهاً من بواته الى تور ، انبرى له شارل ، قييم القصر في البلاط الميروفنجي . ومع ان شارل هذا لم يكن ملكاً بالاسم ، فقد كان كذلك بالفعل . وكان قد تمكن بشدة بأسه من ان يخضع الكثرين من اعدائه ، وان يكره يوديس على الاقرار بسيادة اهل الشمال من الفرنجة .

وبعد مناورات استمرت سبعة ايام حسي وطيس القتال . وكان ذلك اليوم يوم سبت في سنة ٧٣٣ ، وقد درى محاربو الفرنجة ، وجلهم من الشاه ، كيف يتوقف البرد بجلود الذئاب . وفي غرة القتال وقفوا صوفاً متراصّة في مربع محوّف ثابت كالصخر ، وصامد كقطعة من جليد – كما في تفسير المؤرخين الغربيين^١ . واذ ثبتوا في مواقفهم راحوا يحصدون فرسان الاعداء كلما اقبلوا عليهم . ولقد قتل عبد الرحمن في هذه المعركة . وكان الظلام يفصل بين المتقاتلين ، فانسحب الغزاة تحت جنح الظلام ، وتواروا عن الانظار . ولم يدر شارل اي نصر تم على يده حتى الصباح التالي . فقد اكتسبه هذا النصر لقب «المطرقة» ، فقدما معروفاً به «مارتل» .

كانت ماحة القتال هذه في نظر المسلمين «بلاط الشهداء»^٢ ليس الا؛ والشهيد كل من قتل في حرب على غير المسلمين. اما في نظر النصارى فقد كانت نقطة تحول في المسلك الحريي الذي نجده عدوهم الدائم. فالذى يتراءى لل المؤرخين الاوروبيين، انه كان من المحتمل ان يروا المساجد حيث تقوم الكائنات اليوم في باريس ولندن، والطرابيش حيث تلبس القبعات، لو ان نتيجة هذه المعركة جاءت معاكسة^٣. وواقع الامر انه لم يحدث ما هو حاسم في ساحة الحرب في تور. لكن الفزوة الاسلامية كانت قد استنقذت نفسها، وبلغت مداها الطبيعي. اذ غدت على نحو من الف ميل من نقطة انطلاقها في جبل طارق، فضلاً عن قاعدتها في القيروات. وكانت معنيات الجيش قد هبطت بتأثير الخلافات الداخلية. فقد اشتدت الغيرة بين العرب والبربر، وتظلم البربر من ان العرب قد قسموا لهم المرتفعات الوسطى الفاحلة، في حين احتفظوا لأنفسهم باخصب اقاليم الاندلس؟ هذا مع ان الحروب قامت في اشد احتمالها وانقل اعبائها على اكتافهم. كذلك العرب فقد كانوا بعد شيء عن ان توحدهم جامعة العصبية ووحدة المهدف، وكانت عداوة العصبية التقليدية بين اهل الشمال (المصريين)^٤ واهل الجنوب (اليمنيين) قد اخذت في الانتعاش تباعاً في ما بينهم. ثم ان المصريين كانوا على مذهب اهل السنة في حين تحول بعض اليمنيين الى الشيعة، او مالوا الى العطف على القضية الشيعية، فما كان من البربر الا ان اظهروا مفارقهم لهم باعتناق مبدأ الموارج^٥.

دمشق العاصمة

ان الجملة على مدينة تور توقفت ، في حين ان الحملات التي استهدفت نواحي اخرى استأنفت نشاطها . ففي سنة ٧٣٤ احتل العرب افينيون ، وبعد تسع سنوات

^١) انظر من ٥٢ حاشية ٣ ، من هذا الجزء .

^{٢)} اخبار مجموعة، من ٢٥؛ المفري، ج ١، ص ١٤٦. فقد جرت المعركة على طريق روماني مرصوف . قابل انجيل يوحنا، ١٩: ١٣.

Gibbon, *Decline and Fall*, vol. vi, pp. 15 seq. see also Lane-Poole, pp. (v)
29-30.

٤) كان بنو مفر وبنو ربيمة وهم من عرب الشهال يشار إليهم في الفاتح باسم مشترك هو مَعْدَةً . قابل من ٥٨ - ٥٧ من هذا الجزء .

٥) راجع ص ٣٢ - ٣٣ من هذا الجزء.

اغروا على ليونه ونهبوا . وبالرغم من ذلك لا تزال معركة تور تعتبر المدى الاقصى الذي بلغه المسلمون في زحفهم المظفر . ولما كان تاريخها وهو العام ٧٣٢ هو كذلك العام المئوي الاول لوفاة النبي ، كان جديراً بنا ان نتوقف عنده لنتعرض الوضع الاجالي . فاذا خنفينا نظرة على ملك العرب ، بعد وفاة مؤسس الاسلام بعشرة عام ، وجدنا اتباعه يحكمون امبراطورية تفوق باتساعها امبراطورية روما في اوج اتساعها ؛ فهي تتد من خليج بسيكي الى الاندنس وحدود الصين ، ومن بحر آرال الى شلالات النيل . ولقد كانت عاصمة هذه الامصار الزجاجية مدينة دمشق – اقدم مدن العالم الباقي . وهي التي يقال ان محمدأً تردد في دخولها ، لانه شاء ان يدخل الفردوس مرة واحدة لا غير^١ لقد قامت هذه المدينة في وسط الفوطة وكانتها لؤلؤة في حزام من الزمرد . وكان اعتقاد البساتين المحيط بها ، في وجودها عبر العصور ، على الارتواء من سواع تستمد منها من ثلوج لبنان الشرقي . فقد انحدر اليها من الشمال نهر بودي (ابانا) ، ثم تفرع في سواع كثيرة انسابت في اخاء السهل المensus . وجاءها من الجنوب نهر الاعوج (فارپر) وقد مدته الروافد الكثيرة المتحدرة من جبل الشيخ . ولقد ذكر ياقوت^٢ العالم الجغرافي الشهير في القرن الثالث عشر ، انه قد الى الموضع الاربعة التي تعتبر فراديس العالم ، فوجد دمشق في طليعتها ؛ قال : « وجملة الأمر انه لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثله » .

والمدينة تشرف على سهل يمتد جنوباً في غرب نحورة مهيبة من قم لبناء يسميها العرب جبل الشيخ^٣ لأنها بخلاف ابداً بالثلاوج . وفي قلب العاصمة قام المسجد الاموي ، وهو مثال من روائع الفن المندسي الذي لا يزال يستهوي رواد الآثار الفنية حتى اليوم . والى جانب المسجد ارتفع قصر الخليفة المعروف بالحضراء تبعاً لقبته الحضراء^٤ . وقد كان من عادة الخليفة ان يعقد مجالسه الرسمية في قصره ،

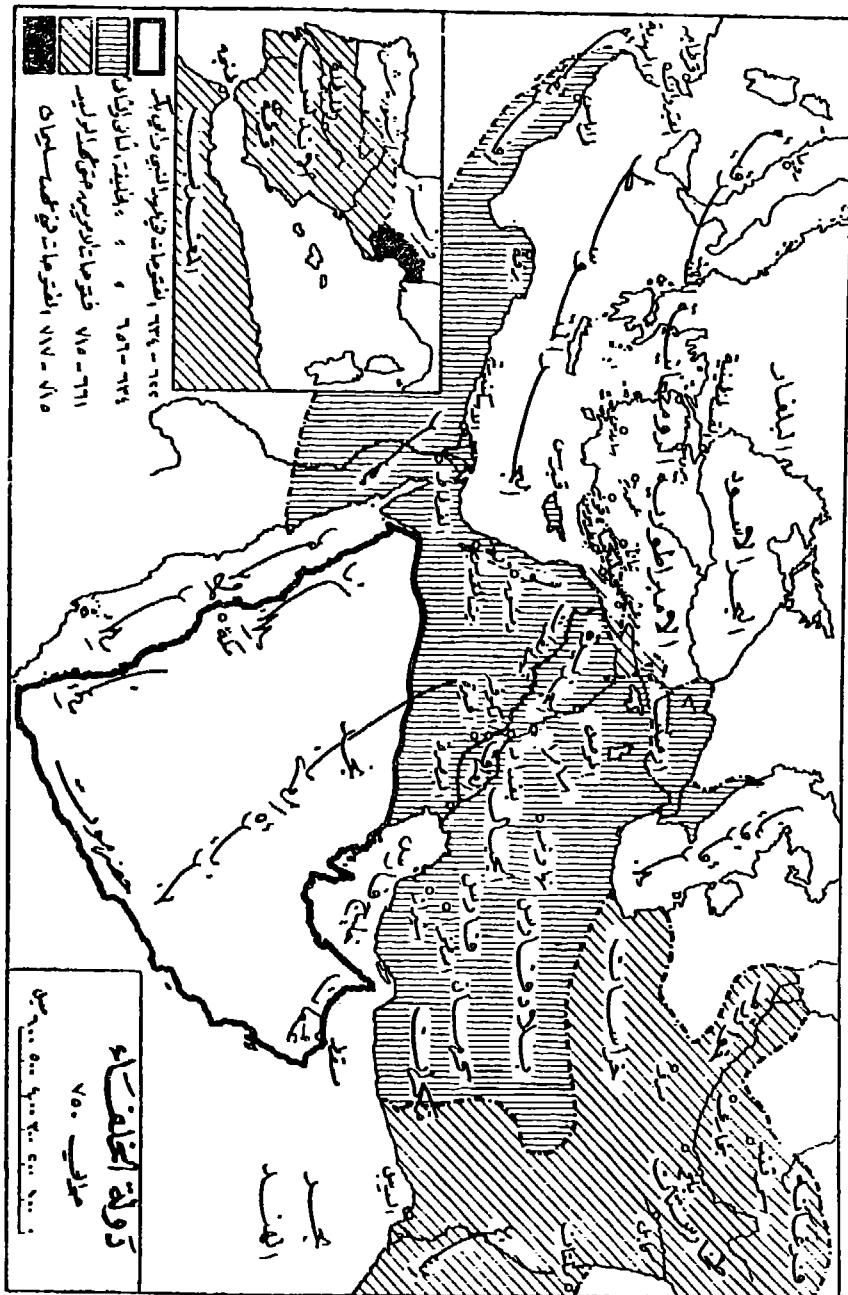
١) من المصادر الاخرى التي تتحدث مدينة دمشق ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٤٦ وما بعد .

٢) البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٨٩ .

٣) البلدان ، ج ٢ ، ص ٥١٠ .

٤) راجع الجزء الاول ، ص ٤٤ ، ذيل ١ .

٥) ابن حبير ، رحلة ابن حبير ، نشر وللمؤت (اليدن ، ١٩٠٧) ص ٢٦٩ ، س ٣؛ الاغاثي ، ج ٦ ، ص ١٥٩ .



في مجلس متربعاً على عرش مربع الجوانب، تستره الوسائل المزركشة، وقد ارتدى الحلال الزاهية الفضفاضة، ووقف عن يمينه انسياوه من جهة ايمه حسب سنه، وعن يساره انسياوه من جهة امه. أما الحاشية والشعراء وأصحاب الشجاعيات فيقرون خلفه.

تعريف الدولة

كان من الطبيعي، بعد ان بلقت الدولة من الاستقرار هذا المبلغ، ان تلتفت الى تعريب الادارة وسائر مصالح الدولة. فقد كانت لغة الدواوين العامة، حتى ذلك الوقت، الرومية في سوريا، والبهلوية وبعض اللهجات المحليّة، في العراق والمناطق الشرقية؛ ولم يكن هنالك مجال لل اختيار. ذلك ان الفلاحين المسلمين، القادمين من البادية، لما كانوا يجهلون التدوين والمعاملات المالية، اضطروا الى ان يحتفظوا في الدوائر المالية بالموظفين اليونان والفرس وسواهم من لا يحسنون استخدام العربية. لكن كان قد تيسر، في غضون هذه الفترة، لبعض الموظفين ان يتعلموا العربية، ولبعض المساعدين العرب ان يلموا بشؤون التدوين العقدة. فاصبح العرب بذلك على استعداد لاحلال العربية في دواوين الدولة، محل سائر اللغات، وبوصفتها اللغة الرسمية. وكان هذا الانتقال بحكم الضرورة بطبيعة، اذ بدأ في عهد عبد الملك واستمر في عهد ابنه. يستدل على ذلك من ان بعض المصادر تنسب هذا العمل الى الوالد، في حين يضيف بعضها الآخر الى الابن^١. وهكذا في غضون الف من السنين توالت على سورية ثلاثة لغات كتابية: الآرامية، واليونانية الرومية، والعربية. أما في العراق وملحقاته فقد تولى الحجاج، والى الامرين، احلال العربية، في الدوائر المالية، محل اللهجات الاقليمية. واما مدى النجاح الذي تحقق في تعريب الرعایا فست تعالجه في الفصل التالي^٢.

١) المقد، ج ٢، من ٣٦٢؛ الماوردي، من ٣٤٩-٥٠؛ البلاذري، من ١٩٣، ٣٠٠ - ٣٠١
ويمزو البلاذري ذلك بسذاجة باللة الى امر ثانه هو ان احد الكتاب الروم يال في المبرة.

٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٧ في الفقرة عن طبقات المجتمع.

وقد حدث مع تغيير لغة الدواوين ، تغيير في السكة . فان النقود البيزنطية كانت ، حتى ذلك الحين ، قد تركت في التداول في سوريا^١ . الا انه ربا نقشت بعض الآيات القرآنية فوق التقوش الأصلية ، وضربت بعض قطع النقود الذهبية والفضية على الفرار البيزنطي والفارسي . فان معاوية قد ضربت بعض النقود النحاسية جاعلاً رسم الخليفة ، وقد شهر سيفه ، مكان رسم الملك وبيده الصليب . ولم يسبق للدينار والدرهم^٢ ان سكتا بالشكل العربي الحالص^٣ الا على يد عبد الملك (٦٩٥) . وفي السنة التالية قام الحاج بضرب نقود فضية في الكوفة^٤ .

مصلحة البريد

وقد أنشأ عبد الملك فضلاً عما تقدم ، مصلحة بريدية منظمة^٥ ، خدمةً لموظفي الدولة وتسهيلًا لراسلامتهم . اقامها على الإساس الذي وضعه له سلفه الأول معاوية^٦ . فقد جعل منها عبد الملك شبكةً حكمة ، تربط اجزاء الامبراطورية المترامية الاطراف ، وتجمع شتاها . فمدد ، تحقيقاً لهذه الغاية الى اجراء التحويل بصورة منتظمة ، في مراحل متتابعة بين دمشق من جهة وقواعد الولايات من جهة أخرى؛ واقام على البريد موظفين مسؤولين ، كان من جملة ما ترتب على كل منهم انتهاء الى الخليفة كل ما يحدث في منطقته من الاحداث الهامة . وقد استخدم الوليد هذا الجهاز في تنظيم اعمال البناء ، وتحقيق مشاريع العمران .

اصلاحات في المالية وفي سواها

ولقد ثُقَّت في هذه الفترة تعديلات تناولت الضرائب والثروات المالية . فقد

١) البلاذري ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

٢) راجع من ٣٦ من هذا الجزء ، ذيل ١ .

٣) الطبرى ، ج ٢ ، من ٩٣٩ ؛ البلاذري ، من ٤٦٦ ، ٢٤٠ - ٧٥ .

٤) قابل : ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٨٦ .

٥) العمري ، التعريف في المصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢) ، ص ١٨٥ . والبزيد لفظة سامية قد يمعن برد ارسل ، قابل سفر استير ٨ : ١٠ ؛ الاصفهاني التاريخ ، ص ٣٩ .

٦) الغزوي ، ص ١٤٨ .

كانت الضريبة الوحيدة التي وضعت مبدئياً على المسلم منها كانت قوميته، اداء فريضة الزكاة. على ان المسلمين الذين نعموا بهذا الامتياز عملياً كانوا اولئك الذين تحدروا من اصل عربي لا غير. لقد حاول بعض المستجدين في الاسلام، وجلهم من العراق، ان يستغلوا هذا المبدأ. فأخذوا يغادرون قراهم ومزارعهم، ويتحولون الى المدن، أملاً بالالتحاق بالجيش العربي، على اعتبار انهم من الموالي. ولأن كان قد أطلق هذا اللقب في ما بعد على العبيد المحررين. فإنه لم يكن، في هذه الفترة، يقتربن بشيء من معنى المذلة او الخطاط المترفة. على ان هذا التدبير اوقع بيت المال في خسارة مزدوجة؛ ذلك لأن قبول الاسلام استتبع حكمـاً، نقصاً في عائدات الضرائب، والالتحاق بالجيش اقتضى اضافة معينة الى مقدار الاعطيات. فعمد الحاج لذلك الى وضع التدابير لمعالجة هذا النقص، فأمر بوجوع هؤلاء الموالي الى مزارعهم^١، ورتب عليهم الضريبة الباهظة التي اعتادوا ان يؤدونها، بما يعادل الحراج والجزية معاً.

لكن تدبير الحاج هذا اثار النقمـة في اوساط المسلمين المستجدين، فاستنسب الخليفة التي عمر الثاني (٢٠-٧١٧) ان يعيـد التدبير القديم الذي رسـمه سـمهـه السابق^٢، وهو ان المسلم، عربيـاً كان او مولـيـاً، لا يترتب عليه دفع جزـية ما^٣. وعندما ورد عليه تذرـسـ من عاملـ لهـ في خراسـانـ يـشيرـ الىـ انـ شـدةـ الـاقـبالـ عـلـىـ اعتـاقـ الـاسـلامـ قدـ استـبـعـتـ نـقـصـاًـ خـطـيرـاًـ فـيـ وـارـدـاتـ الـجـبـاـةـ،ـ وـاقـتـرـحـ انـ تـخـنـنـ صـحةـ اـسـلامـ هـؤـلـاءـ الـمـسـتـجـدـينـ فـيـ اـسـلامـ بـاـنـ يـمـرـيـ كـشـفـ عـلـيـهـمـ يـعـرـفـ مـاـ اـذـاـ كـانـوـ قـدـ اـخـتـنـواـ اـمـ لـاـ،ـ اـجـابـ عـرـ:ـ «ـاـنـ اللهـ قـدـ بـعـثـ نـبـيـهـ رـسـوـلـ لـاـ خـاتـمـ»ـ،ـ الاـ اـنـهـ اـصـرـ عـلـىـ انـ تـعـتـبـ الـارـضـ الـتـيـ كـانـ يـؤـدـيـ عـنـهاـ الحـرـاجـ،ـ بـعـدـ تـحـولـ اـصـحـابـهاـ الـاسـلامـ،ـ مـلـكـاًـ لـلـامـةـ الـاسـلامـيـةـ جـمـاعـ،ـ وـأـنـاحـ الـمـالـكـ السـابـقـ اـنـ يـحـفـظـ بـالـارـضـ،ـ عـلـىـ اـنـ مـسـتـأـجـرـ لـهــ،ـ وـبـاـنـ مـقـدـارـ الـجـزـيةـ كـانـ ضـئـيلـاًـ،ـ فـقـدـ اـحـفـظـ بـيـتـ الـمـالـ بـوـارـدـهـ الرـئـيـسـيـةـ مـنـ الحـرـاجــ.

١) المبرد، من ٢٨٦.

٢) راجع من ١٩ - ٢٠ من هذا الجزء.

٣) البلاذري، من ٤٢٦.

٤) الطبرى، ج ٢، من ١٣٥٤؛ ابن الأثير، ج ٥، من ٣٧.

٥) ابن عساكر، ج ٤، من ٨٠؛ المقوى، ج ٢، من ٣٦٢؛ ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز (القاهرة، ١٣٣١)، من ٨٨ - ٨٩.

على ان تدبير عمر لم يكن موفقاً، لانه انقص موارد الدولة بالنسبة التي زاد بها عدد ابناء المدن من الموالي^١. فقد اقبل البربر والقرس وسواهم ، جماعات غفيرة



وزن يزنطي عليه تصديق الوليد (ت ٧١٥)

وقد رسم على وجهه الاول صليب؛ وهذا الشكل ٣ اشارة الى انه وزنان؛ وعلى وجهه الآخر كتابة بالخط الكوفي تشير الى ان الخليفة قد اقره مساواً اوقيتين . ولمله اقيم وزن عليه نقش عربي معروف الى اليوم

على الاسلام ، رغبة في الاستفادة من الامتيازات المالية الحكثيرة التي نجمت عن ذلك التدبير ؟ بما جمل بعض الولاة على ان يعودوا مبدئياً ، فيما بعد ، الى سياسة الحجاج بعد ان اجرروا فيها تعديلات فرعية طفيفة .

ولقد ثبتت على يد الحجاج اصلاحات اخرى ، منها اصلاح الكتابة الذي استهدف سهولة التمييز بين الحروف التي ترسم بصورة واحدة ، نظير الباء والباء والباء ، والدال والذال ؛ وذلك بان ادخل عليها علامات فارقة . ثم عمل على ازالة الاهام في التحرير باقتباس اشارات من السريانية ، ترمز الى الضمة والفتحة والكسرة ، على ان تجعل فوق الحروف او تحتها .

اما المباني الاثرية الرائعة التي هي من ابرز مآثر هذا العصر فست تعالجها في فصل تالٍ (الفصل ٣٨) .

١) ابن الجوزي ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

الفصل التاسع والثلاثين

الأحوال السياسية والاجتماعية في عهد الأمويين

كانت الأقسام الإدارية في الخلافة الاموية تعتمد النظام البيزنطي في المناطق الغربية ، والنظام الفارسي في المناطق الشرقية . وكانت اهم هذه المناطق تسع هي :

- ١ - سوريا وفلسطين ؟ ٢ - الكوفة وسائر العراق ؟ ٣ - البصرة ، مضموماً إليها فارس وسبستان وخراسان والبحرين وعمان ، وربما نجد ذاته ايضاً ؟
- ٤ - أرمينيا ؟ ٥ - الحجاز ؟ ٦ - كرمان ، ملحقة بمنطقة الحدود الهندية ؟ ٧ - مصر ؟
- ٨ - إفريقيا ؟ ٩ - اليمن وسائر القسم الجنوبي من الجزيرة . وقد وزعت هذه المناطق التسع على خمس ولايات هي : ولاية العراق ، وقد استعملت على الجانب الأعظم من فارس وشرق الجزيرة العربية ، وقاعدتها مدينة الكوفة ؛ وولاية الحجاز وقد ضمت اليمن والأقليم الأوسط من الجزيرة العربية ؛ وولاية الجزيرة (القسم الشمالي من ارض ما بين النهرين) ، وقد احتفت بها أرمينيا وأذربيجان واقسام من شرق آسيا الصغرى ؛ وولاية مصر ، مع منطقي الصعيد والدلتا ؛ وأخيراً إفريقيا ، مشتملة على شمالي إفريقيا ، وغربي مصر ، ثم الاندلس وجزر المتوسط ، وقاعدتها مدينة القروان .

الحكومة الاقليمية

كانت الحكومة الاقليمية توالي ثلاثة مهام هي : الادارة السياسية ، وجبائية الشرائب ، والارشاد الديني . وكان يقوم بهذه المهام الثلاث ثلاثة انواع من الموظفين : فالوالى (الامير ، الصاحب) كان يتولى تعيين العمال على المناطق ، ويتتحمل مسؤولية اعمالهم . وكان ، بوصفه والياً ، يضطلع باعباء الشؤون السياسية ، والادارة العسكرية في ولايته . على ان المشرف على جباية الموارد كان احياناً موظفاً خاصاً يدعى صاحب الخراج ، وكانت صلته بال الخليفة وأساساً . اما مورد الدولة الرئيسي فكان

يجمع من الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة . وكانت النفقات الاقليمية تسد من الموارد المحلية ، ولا يرسل الى خزانة الخليفة الا الوفر الباقي على صورة رصيد .

ان الموظفين القضائيين الاولين الذين لم يتمتعوا الا القضاة كانوا يتلقون تعينهم في الاقاليم من الولاية . وكان الكثيرون من هؤلاء القضاة في المهد الاموي يختارون ، مبدئياً ، من بين العلماء الذين سبق ان تفقهوا بالقرآن والحديث . وكانوا يتولون القضاة في امور الرعايا المسلمين ليس الا ،اما غير المسلمين فقد اتيح لهم استقلال داخلي ، كانوا يخضعون بموجبه لرؤسائهم لا سيما الروحيين في ما يتصل بالاحوال الشخصية ، نظير مسائل الزواج والطلاق والارث . وكان هؤلاء الموظفون القضائيون يديرون اوقاف الابيات والمعتوهين ، الى جانب النظر في قضايا الناس .

ديوان الخاتم

وكان في ما انشأ معاوية ديوان الخاتم ؛ مكتب حكومي مهمه ان يستخرج نسخة من كل وثيقة رسمية ، قبل ان تختتم وترسل في سبيلها^١ ، ويجمع هذه النسخ في ملفات خاصة . والذي يبدو من تسمية هذا المكتب « بالديوان » انه من اصل فارسي^٢ . وما جاء عهد الملك حتى اصبح لدى الحكومة في دمشق دار حافلة بتنوع الوثائق^٣ .

تنظيم الجيش

كان الجيش الاموي منظماً على غرار الجيش البيزنطي ، فكان يتالف من خمس فرق هي : القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة . على ان مروان الثاني ، آخر خلفاء بني امية (٧٤٤ - ٥٠) ، ابطل هذا النظام ، وآخر عليه نظام وحدة

١) الطبرى : ج ٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٥ ؛ الفخرى : ص ١٤٩ .

٢) قابل البلاذري ، ص ٤٦٤ .

٣) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

صغيرة متراصة ، عرفت بالكردوس^١ . لذلك كان من الصعب ان يميز باعتبار اللباس والسلاح بين الجندي العربي ونظيره اليوناني . اما الفرسان فلكلوا يستخدمون السروج المستديرة المنساء ، نظير تلك التي لا تزال الى الان تستخدم في الشرق الادنى . وكان السلاح الثقيل يتألف من العرادة والمنجنيق والكبش او الدبابة . وكان السلاح الثقيل ، وسائر الذخائر والاممـة ، تنقل على الجمال وراء الجيش .

وكانت قوى الجيش الرئيسية المقيمة في دمشق تتـألف من السوريين ، ومن العرب الذين تزحـوا الى سوريا واستوطـنـوها . وقد احتفـظـ الحـلـفاءـ السـفيـانـيـوـنـ بـجيـشـ عـدـدـ سـوـنـ الـفـاـ ، بلـفـتـ نـفـقـاتـهـ السـنـوـيـةـ سـتـيـنـ مـلـيـونـ درـمـ^٢ . لكنـ بـيزـيدـ الثـالـثـ (٧٤٤) خـفـضـ جـيـعـ الـاعـطـيـاتـ السـنـوـيـةـ بـنـسـبـةـ عـشـرـ بـالـثـلـثـةـ فـلـقـبـ بـالـنـاقـصـ . وفيـ عـهـدـ خـلـفـهـ ، وهوـ آخـرـ اـفـرـادـ السـلـالـةـ الـأـمـوـيـةـ ، كانـ عـدـدـ الـجـيـشـ قدـ هـبـطـ اـلـىـ ماـ لـاـ يـزـيدـ عـنـ الـأـنـيـ عشرـ الـفـاـ^٣ .

كـذـلـكـ الـاسـطـوـلـ الـعـرـبـيـ ، فـانـ نـظـامـهـ نـقـلـ عـنـ الـاسـطـوـلـ الـبـيـزنـطـيـ ، وـكـانـ اـكـثـرـ مـلاـحـيـهـ مـنـ السـوـرـيـنـ^٤ . انـ السـفـيـنـةـ كـانـتـ هيـ الـوـحـدـةـ الـحـرـبـيـةـ فـيـ الـقـتـالـ ، وـكـانـ فـيـ كـلـ مـنـ سـطـحـهاـ اـسـفـلـينـ مـاـ يـقـلـ عـنـ خـمـسـ وـعـشـرـ مـقـعـدـاًـ لـالـتـجـذـيفـ ، يـجلسـ عـلـىـ كـلـ مـنـهـاـ رـجـلـانـ . وـهـوـلـاـ مـلـتـهـ مـنـ الـمـلاـحـيـنـ فـيـ كـلـ سـفـيـنـةـ كـانـواـ ايـضاـ مـسـلـحـيـنـ . اـمـاـ الـذـيـنـ كـانـتـ مـهـمـتـهـمـ الـقـتـالـ فـكـانـواـ يـرـابـطـونـ عـلـىـ ظـهـورـ السـفـيـنـةـ .

الحياة في البلاط

كـانـتـ حـيـاةـ الـحـلـفاءـ فـيـ دـمـشـقـ حـيـاةـ بـذـخـ وـرـفـ ، بـالـقـيـاسـ إـلـىـ حـيـاةـ الـحـلـفاءـ السـابـقـيـنـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ ؟ فـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ بـوـجـهـ الـاجـمـالـ بـسـيـطـةـ موـسـوـمـةـ بـالـوـقـارـ^٥ . ذلكـ

١) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٩٤٤ ؛ ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ ، س ٧ - ٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ١٦٥ ، س ١٦ (قابل من ١٩٥ ، س ٢٥ - ٢٧) .

٢) المعاودي ، ج ٥ ، ص ١٩٥ .

٣) ورد هذا الرقم ١٢٠،٠٠٠ في الفخرى ، ص ١٩٧ ، وهو خطأ ؛ ابو الفداء : ج ١ ، ص ٢٢٢ ؛ انظر ما سبجي ، ص ٥٣١ .

٤) انظر من ٢٤ - ٢٥ من هذا الجزء .

٥) انظر من ٢٨ من هذا الجزء .

ان صلات الناس بالخلفاء الامويين اخذت في ان تخضع لضرب من العرف السياسي . فارتداء الاتواب الرسمية التي طرأت على حواشيه اسم الخليفة مع بعض العبارات الدينية ، بدأ يشيع ، على ما هو متحتمل ، في عهد عبد الملك . وكان الاقباط في مصر يحبكون النسيج ، ويصنعون القراطيس^١ من ورق البردي للكتابة . وقد امر عبد الملك ان توضع بعض العبارات الاسلامية في رأس الادراج مكان الصليب ورموز التثلث . ويستدل من اطلاق لفظة « طراز » الفارسية على الزركشة في الاتواب ، ومن التشجير في النسيج والملابس الرسمية والمقننات الاجرى ، التي صنعت خصيصاً للباطل ، على ان الخلفاء قد تبعوا في هذه المظاهر الزي الفارسي لا البيزنطي^٢ .

اما ليالي الخلفاء فكانت وفقاً على السمر وبجالس الانس . فكانت متعة معاوية الاصفاء الى القصص ، ومن اجل ذلك استقدم قصاصاً من اقصاصي اليمن ، وهو عبيد (عُبَيْد) بن شريه ، ليحدثه بأخبار الغابرين من الابطال^٣ . وكان ماء الورد شراباً المستطاب ، وكذلك هو في دمشق ، وسوها من مدن الشرق ، الى اليوم .

على ان بعضهم رغب في شراب اقوى مفعولاً . وكان يزيد بن معاوية اول من زاول الشرب من الخلفاء ، فلقب لادمانه بيزيد الحمور^٤ . وكان في جملة ندمائه قرد اليف يكتفى بأبي قيس ، كان قد عوّده الشرب . وقد قيل ان يزيد كان يشرب كل يوم ، في حسين كان الوليد الاول يشرب يوماً ويدع يوماً . على ان هشاماً اكتفى بالشرب مرة واحدة كل يوم جمعة ، وقع عبد الملك بالشرب مرة واحدة في الشهر ، لكنه كان يكثر حتى ليضطر الى تناول المقننات^٥ . على ان الاخبار المتعلقة بالجانب المرح من حياة الخلفاء قد ورد اكثراً في العقد والاغاني^٦ ، وما

١) مفردهما فرطاس لفظة يونانية الاصل ؛ البلذري ، ص ٢٤٠ .

٢) R. B. Sarjeant in *Arts Islamica*, vol. ix (1942), pp. 60-62.

٣) انظر ٤٩٢ - ٩٣ ؛ والفصل ٣٨ في الفقرة عن التاريخ .

٤) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٣٠ ؛ العقد ج ٣ ، ص ٤٠٣ ؛ التورري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٩١ .

٥) قابل : العقد ، ج ٣ ، ص ٤٠٢ .

٦) ذكر صاحب الاغاني في الجزء الاول من ٣ انه قد تؤخى في اختياره للأخبار الى ما فيه « رونق يروق الناظر ويلهي السامع ».

جرى بعراها من الجامع الادبية التي لا يجوز ان تعتقد بدلاتها الحرفية . وكان يزيد الثاني شغوفاً بالقيان فضلاً عن المحر ، وكان يقضي معظم وقته مع قينتين اثيرتين عنده هما سلامة وحبيبة . وكان يوماً يداعب حبابة فالقى في فيها بحبة عنبر فشرقت بها وماتت . فجزع عليها جزعاً ذهب بمحاته^١ . على ان صاحب السبق في الشرب كان ابنه الوليد الثاني^٢ (٤٤ - ٧٤٣) ، الخليع الذي لا يوعي ، والذي كان لهو الاثير ، كا في الاخبار ، ان يسبح في بركة من المحر ، ويشرب منها حتى يهبط مستوى سطها^٣ . ويقال انه قتل القرآن يوماً ، فوقعت عليه آية واستفتحوا « وَخَابَ كُلُّ جَيْرَ عَنِيدٍ »^٤ . فقضى غصباً شديداً ، ورمي الكتاب الكريم بنبله حتى مزقه^٥ . وقد حفظ لنا صاحب الاغاني^٦ رواية شاهد عيان ، وصف بها بعض مجالس الوليد الخليعة ، وكان يقم بعضها في قصره بالبادية قرب القرىتين ، في منتصف الطريق بين دمشق وتدرس . اما الخلفاء الذين كانوا على جانب من الرصانة ، فكانوا يتجنبون عن مطربיהם بتأثير يضربونها دونهم . ولم يكن الوليد من هؤلاء^٧ .

اللهو البريء

وقد اخذ بعض الخلفاء ورجال بطانتهم بضرورب من اللهو البريء نذكر منها الصيد والسباق ولعب الترد . اما لعب الكرة والصوبان فالغالب انها تسربت اليهم من الفرس في او اخر العصر الاموي ، ولم تثبت ان غدت من امتع ضرورب الرياضة وارقاها لدى العباسيين . ولم تكن مشاهدة قتال الديكة من الامور النادرة . وكان الصيد من ضرورب اللهو التقديمة في الجزيرة ، وكان العرب يستخدمون اولاً الكلاب السلوقية (منسوبة الى سلوق في اليمن) وحدها ، لكنهم استعانا في ما

١) الميون والحدائق (١٨٦٥)، من ٤٠ - ٤١؛ قابل الاغاني، ج ١٣، من ١٦٥ .

٢) التواجي ، حلبة الكيميت (القاهرة، ١٢٩٩)، من ٩٨ .

٣) القرآن الكريم ، سورة ابراهيم ، آية ١٨ .

٤) الاغاني ، ج ٦ ، من ١٢٥ .

٥) الاغاني ، ج ٢ ، من ٧٢ .

٦) المحافظ ، الناج في اخلاق الملوك ، نشر احمد ذكي (القاهرة، ١٩١٤)، من ٣٢ .

بعد بال فهو . وكان الفرس والمنود قد عنوا بترويض الكلاب لهذه الغاية قبل العرب بزمن طويل . وكان يزيد بن معاوية أول ضياد اشتهر في الاسلام ، فعلم الفهود ان تركب على أكفال الجياد لدبي الخروج الى الصيد . وكان يلبس كلاب الصيد خلاخل من ذهب ، ويعين لكل منها عبداً يقوم على خدمته^١ . وكان الوليد من اسبق الخلفاء الى تنظيم المهرجانات العامة لسباق الحيل او رعايتها^٢ . وكانت اخوه سليمان قد اعد العدة لاقامة سباق عام يتبارى فيه الفرسان ، لكنه مات قبل ان يتحقق ذلك^٣ . وقد اشتراك في سباق اجراء اخوه هشام اربعة الاف فرس من خيول الامراء وسواها ، « ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس »^٤ . وكان هشام ابنة تقتني الحيوان وتعنى بامرها^٥ .

نساء ائلقاء

والذى يبدو ان سيدات البلاط كن يتمتعن نسبياً بقسط وافر من الحرية . فقد كن ولا شك يظاهرن محجبات في المجتمعات العامة ، اذ الحجاب تقليد سامي قديم اقره القرآن^٦ . وهذه عاتكة ابنة معاوية الجليلة يقول فيها الشعر شاعر مكى يسنج له استراق النظر اليها وهي في طريقها الى الحج ، فيما كانت الحجب والستائر مرفوعة . ولم يتردد الشاعر في ان يلحق بها حتى عاصمة ابها . وهنا وجد الخليفة انه لا بد له من ان « يقطع لسان الشاعر » بالطريقة التقليدية ، وهي انه وصله بصلة مالية ، ثم اختار له ، الى ذلك ، زوجة موافقة^٧ . ويقال عن حفيدة معاوية تدعى عاتكة ايضاً ، انها غضبت على زوجها ، وهو الخليفة العاشر عبد الملك بن مروان

(١) الفخرى ، ص ٧٦

(٢) المسعودي ، ج ٦ ، ص ١٣ - ١٧

(٣) ابنت الجوزي ، السيرة ، ص ٥٦

(٤) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٤٦٦

(٥) الميون والحدائق (١٨٦٥) ص ٦٩ ، م ١٢ سورة الاحزاب : ٥٣ ، ٥٥

(٦) انظر الجزء الاول من ٤٣٢ ، ١٨٨

(٧) الاغاني ، ج ٦ ، ص ١٥٨ - ٦١

ودخلت غرفتها واوصدت الباب على نفسها، وابت ان تفتحه لاحد. حتى جاءها احد افراد الحاشية الانبرى عندها وهو يبكي، ووقف على بابها طالباً شفاعتها لدى عبد الملك ، مدعياً باطلأ ، ان احد ابنيه قد قتل الآخر ، وان عبد الملك قد امر بقتل القاتل^١. وان شاعر^٢ آخر ، هو وضاح البين ، بلغ من جرأته ان نظم شعراً تنزل فيه باحدى زوجات الوليد في دمشق ، ولم يأبه لتهديد الخليفة . لكنه لم يلبث ان قُتل بجرأته^٣. ولقد كان من عادة هذا الشاعر ، وسواء من الرجال ذوى الصورة الجليلة ، ان يجعبوا وجوههم في الاحتفالات العامة حتى لا يصابوا بالعين^٤. لكن نظام الحريم ، وما رافقه من استخدام الحصيان ، لم ينعد عرفاً سالكاً حتى عهد الوليد الثاني^٥. وقد جرى العرب في اتخاذ الحصيان على السياق البيزنطي ، وكان معظم الحصيان الاولين من الروم^٦.

العاشرة

لا يمكن ان تكون مدينة دمشق قد تغيرت كثيراً ، في مظاهرها الخارجية ، ومناهج الحياة فيها ، منذ عهد الامويين . فقد كانت آئند^٧ ، مثلها اليوم ، ذات دروب ضيقة مسقوفة ، فيها الشامي بسراريله الفضفاضة ، وعمامته الكبيرة ، وحذائه الاحمر المستدق الرأس ، يسير جنباً الى جنب بدوي قد لوحّته الشمس ، والتلف^٨ بعباءة متهلة ، وستر رأسه بكوفية وعقال . وقد يمر من وقت الى آخر رجل يرتدي ملابس افرينجية^٩. او تعبر الطريق بعض نساء محجبات ، ويسترق غيرهن النظر من نوافذ مشبكة في بيوتهن التي تشرف على الاسواق والساحات

١) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ - ٧٥ .

٢) الاغاني ، ج ٦ ، ص ٣٦ وما يليه؛ وج ١١ ، ص ٤٩ .

٣) الاغاني ، ج ٦ ، ص ٣٣ .

٤) الاغاني ، ج ٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

J. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century* (London, 1911), pp. 120 seq.; Charles Diehl, *Byzance: Grandeur et décadence* (Paris, 1919), p. 154.

٦) تعریب Frank ، اطلق على جميع الاوروبيين وشاعت على الاخرين في عهد الصليبيين .

ال العامة . ولم تكن هنالك قوانين للسير الى اليمين والى اليسار ؛ ولا كان الدرب مقسوماً بين الراكب والراجل . وقد يرى الناظر في وسط المجموع المزدحمة رجالاً من الاشراف على صهوة جواده ، وقد ارتدى عباءة من حرير ، وتقلد في وسطه سيفاً ؛ ويسمع احوات باعة الشراب والحلوى ، تعلو وسط هذا الضجيج الناجم عن وقع اقدام المارة ، وحوافر المثير ، واغفاف المجال ، التي تحمل المنتجات المختلفة من البادية والمزارع ؛ ويتنسم جو المدينة الذي يعيق باصناف الروائح المختلفة : بما يشغل العين والاذن والانف .

وفي دمشق ، كما في حمص وحلب ، وسواهما من المدن ، اقام العرب في احياء مختلفة تبعاً لرابطهم القبلية . ولا يزال هذا التقسيم الى حارات واحياء واضحأ حتى اليوم . وكان لكل بيت باب على الشارع يؤدي الى بهو داخلي يتوسطه حوض ماء كبير ، فيه نافورة ينطلق منها الماء في الفضاء ، مكوناً حجاباً ثابتآ من الرشاش . وقد نبتت الى جانبه شجرة يرتقى او اترج . والاموريون هم اصحاب الفضل في تجهيز دمشق بنظام لتوزيع المياه منقطع النظير في ذلك العهد ، لا يزال مألوفاً الى اليوم . ولا يزال اسم احدهم – هو يزيد الاول – يطلق على قناء متصلة بنهر بودي ، كان هو الذي سقها او وسع جوانبها^١ . اما الجنان النساء التي تحيط بالمدينة – التوطة – فمدينة بوجودها لنهر بودي الذي تجري منه المياه في قنوات اخرى الى احياء المدينة لتبعث فيها النضارة والحيث . ولا يزال في دمشق الى اليوم نحو من ستين حماماً عاماً ، بعضها مزدان بالفسيفساء وال بلاط المزخرف ، وكلها تشهد لغزارة المياه في المدينة ، ولا حكام تو زيعها^٢ .

طبقات المجتمع

كان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات ، اعلاها طبقة الحاكمين وجاعة الاشراف من العرب الفاتحين . وكان العرب ، حتى العهد العباسي ، يؤلفون

١) الاصطخري ، من ٥٩ ؛ قابل 'Oyoun et-Tawârikh , par Mohammed ebn Châker '، *Journal asiatique*, ser. 9, vol. vii (1896), p. 400.

٢) للاستزادة من هذا الموضوع راجع : M. Ecochard, *Les Bains de Damas* (Beirut, 1942).

طبقة اجتماعية وراثية لا يعرف عدد افرادها بالضبط ، انا ينبغي ان لا يغيب عن الذهن ان الذين رغبوا في الزراعة من العرب والبدو كانوا قليلاً ، ولذلك غالب عليهم التجمع في المدن . وكان من الطبيعي ان يتحاشى العرب جبال لبنان ، وعلى ذلك لم ينزع اليه العرب الا في القرن التاسع فما بعد . وفي بعض الاخبار المتأخرة ان التنجيدين ، الذين كان لهم في امور لبنان السياسية شأن بارز ، لم يدخلوه حتى اوائل القرن التاسع^١ . ولم يكن هؤلاء التنجيدين كثيري العدد ، ولا تحدثت منهم ذرية ما^٢ ، شأنهم في ذلك شأن سواعم من الاسر الاقطاعية . اما بنو عاملة ، فقد انساحوا الى المنطقة الجنوبية منه ، بعد القرن الحادى عشر^٣ . وكذلك في سوريا ، فان بني حمدان الذين أسروا دولتهم في حلب^٤ لم يبلغوا اليها حتى اواسط القرن العاشر . ثم بلغها بعدهم بنو مرداس^٥ في اوائل الحادى عشر ، وتولوا الحكم فيها من بعدهم . وبما هو جدير بالذكر ، ان هذه القبائل لم تأت ، ولا واحدة منها ، تؤا من البداية ؟ بل كانوا من سبق لهم ان اقاموا في الحيرة ، او في سواها من مناطق الملال الخصيب . اما في ما يتعلق بالقبائل البدوية التي تسسيطر اليوم على بادية الشام ، فان هجرتها اليها حديثة نسبياً . فعرب عزة لم يستقروا فيها حتى مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر ، اذ حلوا بقبائل شمر الذين سبقوهم اليها من نجد^٦ ، وما عرب الرولى الافرع من عزة ، وهم آخر من هاجر من البدو الى سوريا^٧ .

ولا شك ان بعض العرب ، وربما البدو ، قد تسلاوا الى الارياف ، وانشروا فيها القرى . وقد تم نشوء هذه القرى على مراحل انتقالية واضحة : من استيطان

١) الشدياق ، تاريخ الاعيان في جبل لبنان (بيروت ، ١٨٥٩) ، ص ٢٤ ، قابل : صالح ابن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو (بيروت ، ١٩٠٢) ، ص ٦٥ ، وفيه تنصب تونخ ، التي تقدر منها بنو بحتر ، الى احد ملوك التنجيدين المنذر بن ماء السماء ، لا الى قبيلة تونخ .

٢) قابل : فؤاد حزرة ، قلب جزيرة العرب (القاهرة ١٩٣٤) ، ص ٢٢٣ .

٣) راجع مasic ، ص ٦ ح ١

٤) انظر ما سألي في الفصل ٤٣ حول الحمدانيين .

٥) انظر ما سألي في الفصل ٤٤ حول المرداسيين .

٦) راجع وصفي ذكريا ، عثار الشام ، ج ١ (دمشق ، ١٩٤٥) ، ص ١١٧ - ١١٨ .

مؤقت ، الى حياة بدوية زراعية ذات حظ من الاستقرار ، فالى حياة ريفية مستقرة . ونشأت معظم هذه القرى حول منابع المياه ، واعتبر في اختيار مواقعها سهولة الدفاع وخصب التربة . أما مناقب الحياة البدوية ، وخصائص نظامها ، نظير التاسك العائلي ، والافتخار بالشجاعة والضيافة وطغيان الاحاسيس الشخصية في جميع العلاقات الإنسانية ، فلا تزال بارزة ، وموضوعاً لثناء العظيم ، في المجتمع السوري والبناني .

بلغ الجيش العربي الذي فتح سوريا نحوأ من ٢٥ الف جندي^١ . فقد كان عدد الجنود من المسلمين العرب في عهد مروان الاول ، عشرين ألفاً ، كما في سجلات ديوان الجندي في حمص وتوابعها . وكان عدمه في عهد الوليد الاول خمسة وأربعين ألفاً في دمشق وملحقاتها ، التي استملاك على الساحل الفينيقي . وعلى هذا الاساس ، فإن عدد المسلمين في سوريا ، في القرن الاول بعد الفتح ، لا يحتمل ان يكون قد زاد على مئتي الف نفس ، من اصل مجموع السكان الذين كانوا يقدرون بثلاثة ملايين ونصف^٢ . اما لبنان ، فقد بقي معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من اصل فينيقي . وكان في جميع الامصار اقلية ضئيلة من البدو ، لكن هؤلاء استطاعوا ان يلعبوا دورهم الهام في العمل على توحيد الاكثريه المنتشرة في الاصقاع المتباudee .

لقد كان من استقرار العرب في المدن ان غدت العربية في غضون ذلك الزمن لغة المدن . ثم ان تردد ابناء الريف الى المدن ليبع منتجاتهم او مزاولة اعمالهم ، دعاهم الى تعلم اللغة الجديدة ، دون ان يضطربوا الى التخلص عن لسانهم القديم . وكذلك اهل الفكر من السكان الاصليين ، فقد استتبوا ان يتلعلموا العربية من اجل ان يؤهلوها انفسهم للعمل في وظائف الدولة .

ان عدد الذين سارعوا الى اعتناق الاسلام من ابناء الارياف كان اقل ، بطبيعة الحال ، من اولئك الذين اقبلوا على اللغة الجديدة . ذلك ، في الدرجة الاولى ، لأن

١) راجع ما سبق من ٤١٥ - ١٦ .

٢) قابل الجزء الاول من ٣٠٦ ، ٣٢٣ : ٢٠- ١١٩ ، *Lammens, La Syrie*, vol. i, pp.

الخلفاء الامويين، باستثناء الخليفة الورع عمر الثاني^١، لم يجدوا هذا التحول، لا سيما في الاوساط الزراعية. وعلى ذلك، فان تساهل الامويين لم يكن مخصوصاً في الامور السياسية، بل كان عاماً في المنهج الديني والفكري ايضاً. ولئن كانت العاصمة والمدن الكبرى قد اتسمت، لدى انصرام العهد الاموي، بسمات المدت الاسلامية، فان الاماكن الاخرى، وعلى الاخص المناطق الجبلية، قد حافظت على مظاهرها الاقليمية، وابتعدت على طابعها الحضاري الحلي. ولقد اخرجت سوريه الاموية لاهوتياً من اعظم لاهوتى الحكيمية الشرقية، واسهر واضعى التسابيح في شعائرها، هو يوحنا الدمشقي^٢؛ واعدت للمسجية من ابنائها خمسة من البابوات، ارتفع منهم اثنان الى مصاف القديسين^٣. اما لبنان، فقد بقي مسيحيّاً في ایانه، وسرعانما في لسانه، لفرون عديدة بعد الفتح. والواقع ان الذي انتهى امره بالفتح هو التزاع الحربي، اما الحصاد الديني والعرقي والاجتماعي، وفوق ذلك كله اللغوري، فكان ما يزال في اوله.

طبقة الموالي

ويلي طبقة العرب المسلمين طبقة الموالي، اي المسلمين من الاعاجم، وهم السكان الاصليون، الذين «حملوا» عن طريق القوة او الضغط او الاضطهاد على اعتناق الاسلام، فتم لهم بذلك التميّز؛ ولو اسرياً، بم حقوق الرعوية الاسلامية جميعها. وكان دأب هؤلاء ان يتلتحقوا ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء، فيعتبروا من افرادها ويحسبوها من مواليها.

لكن التحاهم بالعرب على هذه الصورة ادى الى اعتبارهم الطبقة الاجتماعية الدنيا في البيئة الاسلامية، فامتنعوا لذلك اشد الامتناع، واظهروا هذه المرارة التي ملأت نفوسهم بانحيازهم الى الشيعة في العراق، والى الخوارج في فارس. على ان البعض منهم قد اعتنق الدين الجديد عن ايان وحرارة، غدوا بها اقوى دعاته

(١) راجع ص ٩ - ١١ من هذا الجزء.

(٢) م يوحنا الخامس (٦٨٥ - ٦٨٦)، القديس سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١)، سينيروس (٧٠٤)، قسطنطين (٧٠٨ - ٧١٥)، القديس غريغوريوس الثالث (٤١ - ٧٣١)؛ انظر ما يلي من ١١٥، Horace K. Mann, vol. i, pt. 2 (St. Louis, 1914), pp. 64-7, 77-104, 124-6, 127-40, 203-24.

وأشدّم اضطهاداً لابناء دينهم السابق . ولقد كان الموالي ، بطبعية الحال ، السابقين في المجتمع الاسلامي الى تركيز جهودهم على العناية بالابحاث العلمية والفنون الجميلة . فقد نقلوا ادبهم وعلومهم الى ابناء دينهم الجديد ؟ وما ان اظهروا تفوقهم على العرب في ميدان العلم والفكر ، حتى اخذوا ينافسونهم في توسيع الزعامة السياسية . ثم نتج عن اختلاطهم بهم بالزواجه تهجين الدم العربي ، حتى آل الامر اخيراً الى اطلاق لفظة « عرب » على جميع المسلمين الذين تكلموا العربية ، دون اعتبار للعرق الذي تحدروا منه .

أهل الذمة

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من اهل الذمة ، وهم الذين قبل منهم دينهم على انه دين منزل ، والمراد بهم النصارى واليهود والصابئة ؟ ذلك ان الاسلام شتمهم بالامان ، وصانهم بالعهود والمواثيق . وقد اتاح النبي نفسه^١ للنصارى واليهود هذا الوضع السمح على اعتبار انهم اهل الكتاب ، ومرد ذلك انما هو اجلال النبي للكتاب المقدس ، من جهة ، وعلمه من جهة اخرى ، باتت عدداً من القبائل العربية النازلة على تhom سوريا والعراق ، كبني غسان ، وبكر وتغلب وتنوخ ، كانت قد تنصرت .اما الصابئة فقد منحوا هذا الامتياز^٢ على اعتبار انهم موحدون . وهؤلاء هم المنديون المعروفون بنصارى القديس يوحنا ؟ ولا يزال منهم قوم يسكنون الى الآن الاغوار الخاذلة لمصب نهر الفرات . اما في الجزيرة العربية بالذات ، فلم يسمح بوجود غير المسلمين ، وذلك عملاً بمحدث منسوب الى النبي . وقد استثنى من ذلك جماعة قليلة من يهود اليمن . على ان هذا الوضع السمح ، الذي تتعيشه اهل الذمة ، غدا مبرراً لتجريدهم من السلاح ، وفرض الجزية عليهم ، في مقابل حماية المسلمين لهم ؟ وكان هذا التدبير هو الحل الذي اعتمدته الاسلام لمشكلة الاقليات .

لقد اتاح هذا الوضع لاهل الذمة ان يستعنوا بقطف وافر من الحرية ، وذلك في مقابل اداء ضريبة الاجراج والجزية . على انهم ، اذ لم يكونوا من صنيع المجتمع الديني ذي السيادة في البلاد ، كانوا في منزلة اجتماعية وسياسية ثانية . وظل مرجعهم في

١) سورة التوبة : ٢٩ ، البقرة : ١٠٣ ، ٩٩ ، آل عمران : ٦٢ - ٦٥ ، الخ .

٢) سورة البقرة : ٥٩ ، المائدة : ٧٣ ، سورة الحج : ١٧ .

الامور المدنية والقضائية الى رؤسائهم الروحيين الا في القضايا التي مسست المسلمين^١، ذلك لأن ذوي الامر استنكافوا من تطبيق الشريعة الحمدية عليهم، اذ هي لم توضع لهم. وقد بقيت بعض المبادئ العامة في هذا النظام تسرى على اهل الذمة ابان العصر العثماني، وفي عهد الانتداب. اما مبدأ الجمع بين الدين والسياسة، فهو تقليد سامي قديم، وليس هو من محدثات الاسلام.

على انت هذا الوضع السبع الذي خصّ به اهل الذمة في عهد النبي قد شئ ، بعد ذلك ، عبدة النار (المجوس) من اتباع زرادشت ، وعبدة الكواكب من اهل حرقان (الصابئة) ، والوثنيين من البرايرية وسوادهم . ومع ان هؤلاء لم يكروا ناساً اصحاب دين سماوي ، وكثروا قاتلوا خارج نطاق الاسلام ، فقد اتاح لهم الفاتحون المسلمين الاختيار بين ثلاثة امور هي : الاسلام والسيف ، والجزية ؟ بدلاً من امرین لا غير : هما الاسلام والسيف . فقد صرّح ابو يوسف^٢ القاضي المعروف في عهد هارون الرشيد ، ان المشرّكين وعبدة النار وعبدة الاصنام ، فضلاً عن اهل الكتاب ، يجوز ان ينحووا الامات ، ويعتبروا مواطنين داخلين في ذمة الدولة الاسلامية .

ولقد كان اهل الذمة في سوريا ، حتى عهد عمر الثاني ، يعاملون بالحسنى ، لا يستثنى من ذلك الا حادثة واحدة وقعت لامير تغلب المسيحية ، اذ قتله الوليد الاول لامتناعه عن اعتناق الاسلام^٣. والظاهر ان المسلمين كانوا اقل تساهلاً بشأن النصارى المتحدررين من اصل عربي ، كما يبدو ذلك من هذا الحادث ، ومن موقفهم من بني توخ بوجه الاجمال . فقد دعي النازلون في جوار قنسرين من التنجوين الى الاسلام ، وعلى اثر فتح سوريا ، فلي بعضهم الدعوة^٤ . واجبر المهدى العباسي (٧٧٥ - ٨٥) المقيمين منهم في جوار حلب على اعتناق الاسلام ، وعمد الى هدم كنائسهم . أما القبط في مصر ، فبعد ان جاؤوا في اثبات كيانهم الى الانتقام على أسيادهم المسلمين ، عادوا فأثروا الخضوع في خلافة المأمون العباسي (٨١٣ - ٣٣)^٥.

١) راجع سورة المائدة : ٤٧ - ٥٢

٢) الخراج ، ص ٧٩ ، س ١٥ - ١٧

٣) الاغاثي ، ج ١٠ ، ص ٩٩

٤) البلاذري ، ص ١٤٤ - ٤٥

٥) الكلبي ، تاريخ مصر وولاتها نشر روفون غست Rhuvon Guest (لندن ، ١٩١٢) ، من ٧٣ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨؛ المقريزي ، الواقع والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (بولاق ، ١٢٧٠) ، ج ٢ ، ص ٤٩٧ .

ولقد استأنف النصارى واليهود مزاولة الاعمال التي طالما كسبوا بها عيشهم، مع ان البعض من هذه الاعمال ، نظير صنع المخمر والمتجارة بها ، ومارسة بعض الالعاب التي هي من قبيل الميسر ، كانت جميعها محمرة في الاسلام . وقد استمرت حانات المخمر ودور المقامرة ، حيث كان لعب الترد من احب خروب اللهو ، في ازدهارها ؟ بل قد تعمت احياناً برعاية بعض المتنفذين حتى من المسلمين . وكان الرهبان ارباب خبرة واسعة في صناعة المخمر ، وجنى العسل ، وتعهد الاثمار والازهار . اما في ما يتعلق بالاديارات ، فغالب الظن انها كانت تشتمل على دار ضيافة للهو والسمر . وقد اورد العمري (ت ٣٤٩) ، وهو من ابناء دمشق ، اخباراً كثيرة عمل فيها اخلاقه وسواهم من المسلمين على رعاية الاديارات والمناسك ، من اجل الشرب واللهو ؛ ولم يكن ذلك اللهو دائماً من النوع البريء . وهذا الامر يصدق بصورة خاصة على الوليد بن يزيد^١ . ففي رواية ان الوليد استطاب خمرة شربها في احد الاديارات الى حد انه ملاً الجرن الذي شرب تحتواه هو وآخوه ، بالتفوّد الفضيحة . وقد كانت المخمر تصدر من لبنان حتى المدينة جنوباً ؟ وروي عن شاعر حجازي كاتب يقضي ليالي كثيرة حتى الصبح في مجلس لهو مع اصحابه ، انه اثار ريبة زوجته ، فقال لها :

لا تعديني نديماً ماجداً انفاً لا قائداً فاذفاً خلقاً ببهتان
سيئة من قرئ بيروت صافية^٢ عذراء او سبئت من ارض بيسان
انا لشربها حتى تغيل بنسا كما غايل وستان بوسنان^٣.

قيود عمر

ان شهرة عمر بن عبد العزيز لم تقم ، في الدرجة الاولى ، على تقاه او على الغاء الضرائب عن المستجدين في الاسلام فحسب ، بل على انه اسبق الحلفاء في الاسلام الى وضع القيود الشديدة على الرعايا المسيحيين – تلك القيود التي نسبت خطأ الى سمه سابق عمر ابن الخطاب^٤ . فقد سن قوانين حظر بوجها على النصارى تقلد

١) ابن فضل الله المعري ، مسالك الابصار في مالك الامصار ، نشر أحمد ذكي ، ج ١ ، (القاهرة ، ١٩٢٤) ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٥٢ - ٥٦ - ٥٧ .

٢) قابل الجزء الاول ١٠٤ ، ٣٢٨ - ٣٣٠ .

٣) الاغاني ، ج ٢ ، ص ٨٦ ، ٨٨ .

٤) راجع ص ٣١ من هذا الجزء . ابن عبد الحكم ، ص ١٥١ - ٥٢ .

الوظائف في مناصب الدولة ، وحرم عليهم لبس العائم ، والزهم، بجزءٍ نواصيهم ، وبأن يرتدوا ملابس خاصة ، ويشدو اوساطهم باحزمة من جلد ، ويركبوا مطياهم دون أن تسرج ؟ ثم معهم من بناء الكنائس ، ومن رفع أصواتهم في الصلاة . وقصر عقوبة المسلم ، ان هو قتل نصارى ، على الديه ، وقضى بوفض شهادة النصراوي على المسلم . ومن المحتمل ان تكون هذه التدابير قد وضعت استجابة لطلب الجهور . أما في الوظائف الادارية والمهام التجارية والاعمال الصناعية ، فلم يتمكن العرب المسلمين ، وجلهم ما زالوا أميين ، ان ينافسوا أبناء البلاد من المسيحيين . كذلك اليهود — وهم اقل عدداً من النصارى ، وقد مارسوا من الاعمال ما هو احقر — فان بعض هذه القيود ، على ما يبذلو ، قد سرت عليهم ، وأنهم حرموا كذلك من تقلد المناصب في الدولة . ومن الجدير بالذكر ان التمييز بين جماعات انسان ، عن طريق الزمام بارتداء ملابس خاصة ، تدبّر عرف قبل الاسلام في الشرق الادنى ، وان بعض هذه القيود لم تطبق بعد عهد عمر .

طبقة الرقيق

وكان الرقيق الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع . والرقيق نظام سامي قديم ، اقرته التوراة فغدا نظاماً شرعاً . ثم قبله الاسلام ، بعد ان نص على اصلاح حالة العبيد^١؛ اذ حرم الشرع على المسلم ان يستبعد اخاه في الدين ، لكنه لم يمنع العبد من الاعاجم الحق بان يعتق لدى اعتناق الاسلام .

وكان اقتنا العبيد في فجر الاسلام عن طريق الشراء او الاختطاف او الغزو او الاسر في الحروب ان لم تؤد عن الاسير الفدية ، وفيهم النساء والأولاد . ولم تثبت تجارة الرقيق ان نشطت في العالم الاسلامي ، وجني منها اصحابها ارباحاً وافرة . وكانت اسواق الرقيق تستورد الزوج من افريقيا الشهالية والوسطى ، والرقيق الاصفر من فرغانة وتركتستان الصينية ، والرقيق الابيض من الشرق الادنى واوروبا الجنوبية الشرقية . وكانت طبقة الرقيق تسمى حيوتها واستمرارها من نظام الرقيق نفسه . فالشرع الاسلامي يعتبر اولاد الامة من العبد ، او من اي رجل غير سيدها ، او من سيدها ان هو لم يلحقها بنسبه ، عبيداً ايضاً .اما اولاد العبد من زوجة حرة فلكلها يعدون من الاحرار .

ثم ان القرآن قد نصّ على وضع متوسط بين السيد من جهة والامة من جهة اخرى تختلف عن نظام التسری، فاعتبر اولاد السيد من جاريته احراراً، وارتقت منزلة الجارية الى «ام ولد». وعندما يحظر على الزوج بيعها او اهداؤها لاحد ؟ فاذا مات عنها اعتقت. وقد طالما اعتبر اطلاق العبد قرباناً يتقرب به السيد من ربه . وكان العبد المحرر يتمتع بما يحق للمولى من سيده ، حتى انه ليirth ممتلكات سيده اذا توفي بلا وارث. لقد كانت دور العبيد ، في هذا الاختلاط الذي عمل على مزج العرب بالاعاجم ، دوراً هاماً ولا شك . وقد جرى هذا في طبقة الاشراف كافي طبقة العام . فيزيد الثالث اهان فخر الخلفاء التقليدي بصفاء الدم العربي الذي يجري في عروفهم ، اذ كانت امه اميرة فارسية ، سباها الحجاج في خراسان ، وارسلها هدية الى الوليد ؛ في حين كان ابراهيم ، اخو زيد وولي عهده ، اباً جارية لعلها يونانية^١ . وكانت ام مروان الثاني ، الذي ولـي الخلقة بعد ابراهيم ، امة كردية^٢ ؟ وفي رواية اتها كانت حبل بروان عندما اقتناها ابوه^٣ ، مما يتنعـ معه ان يكون آخر سلفاء بنـ امية امويـاً . واخذـ من ثمـ يـزدادـ مقـامـ الـامـةـ عـلـيـ مقـامـ الزـوـجـةـ بصـورـةـ مـطـرـدـةـ فـيـ العـصـرـ العـبـاسـيـ^٤ .

الوضع الاقتصادي العام

ان انفصال سوريا عن الامبراطورية البيزنطية اضعف تجاراتها البحرية الى حد بعيد . لكنها استعاضت عن ذلك نوعاً باسوق جديدة اتيحت لها بسيطرتها على فارس وآسيا الوسطى . ولقد عمد العرب الى اثبات سطوح السفن التي كانت تخوض المتوسط بسامير من حديد ، وعملوا على طليها بالقطران ، منعاً لتسرب الماء الى داخـلـهـاـ . اما تلك التي خـرـتـ فـيـ خـلـيجـ فـارـسـ وـالـمـيـاهـ الشـرـقـيـةـ ، فـكـانـ سـطـوـحـهاـ

١) العقد؛ ج ٢، ص ٣٣٣، ٣٥٢؛ البيقوبي، ج ٢، ص ٤٠١، ٤٠٣؛ الطبرى، ج ٢، ص ١٨٧٤، المسعودى ج ٤، ص ٣١ - ٣٢.

٢) البيقوبي، ج ٢، ص ٤٠٤؛ الطبرى، ج ٣، ص ٥١.

٣) الاناب، ج ٥، ص ١٨٦.

٤) انظر ما سألي في الفصل ٤١ في الفقرة عن عصر جديد .

قد ثبتت ، قبل ولاية الحجاج ، بالحال ، فامر ان تعالج بالتدبير الذي عوجلت به سفن المتوسط^١. وقد بلغت سفن الحجاج حتى جزيرة سيلان البعيدة ، و تعرضت احياناً لغارات القرصان المنود^٢. وقد انشأ عبد الملك داراً لصناعة السفن في تونس^٣ غير تلك التي انشأها معاوية في عكا^٤، ثم نقل ابنه مصنوع عكا الى صور^٥، حيث بقي حتى زمن المتوكل العباسي^٦. وكان في البصرة وضواحيها ، في عهد بعض المتأخرین من حكامها في العصر الاموي ، نحو من ١٢٠ الف قناة تخرّها القوارب الصغيرة . غير ان الاصطخری^٧ قد شك بصحة هذا الرقم ، وهو جغرافي من ابناء القرن العاشر زار المكان نفسه .

وهذه القنوات كانت قد شقت اولاً ، كما في دمشق ، خدمة للري . على انت الزراعة في سوريا بوجه الاجمال لم تتضرر كثيراً ، رغم ما كان من طمع القىمين على بيت المال . ولم يكن تخزيم الخمر في الاسلام ليقضي على زراعة الكرمة ، الا الى مدى محدود . وهي ما زالت في ازدهارها منذ اقدم الازمنة .

١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، نشر دی غوبه (لبنان ، ١٨٩١) ص ١٩٥ - ١٩٦ .

٢) البلاذري ، ص ٤٣٥ .

٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١١ .

٤) راجع من ٢٤ من هذا الجزء .

٥) البلاذري ، ص ١١٨ .

٦) ص ٨٠ .

الفصل الثامن والثلاثون

مناجي إحياء الفكرية في العهد الأموي

عندما بادر السوريون وال العراقيون والفرس والتقطيط والبربر الى الدخول في حظيرة الاسلام ، وامتهنوا بالعرب عن طريق الزواج ، زال الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين ، وغدا المسلم ، كائناً ما كانت جنسية الاصلية ، يقبل على تعلم العربية ، فيعتبر في جملة العرب . على ان العرب انفسهم لم يصطحبوا من الجزيرة شيئاً من العلم او الفن او التقليد الفكري او التراث الثقافي ، وإنما جاءوا بعنصرين جديدين من عناصر الثقافة هما اللغة العربية والدين الاسلامي ؟ اما في ما سوى ذلك ، فقد وجدوا انفسهم مضطربين الى الاعتداد على الشعوب التي غلبوها على امرها ، فكأنوا يمثلون بين ايدي مواليهم مثول التلميذ امام استاذه . وبذلك غدوا مثالاً آخر على التنصر يغدو اثيراً للمقهور ، وعليه فقد كانت مكانة السوريين من العرب . نظير مكانة اليونان من الرومان . فاذا نحن تحدثنا عن الطب والفلسفة او الرياضيات عند العرب ، فلسنا نعني ضرورة انها من نتاج العقل العربي ، او انها نبت وازدهرت برعاية سكان الجزيرة العربية ؟ بل نقصد انها اودعت كتاباً عربية لفها علماء من السوريين والفرس وال العراقيين والمصريين والعرب ، من نصارى ويهود ومسلمين ، بعد ان استمروا اصولها من منابع يونانية وآرامية وهندية وفارسية ، وغير ذلك من المصادر .

على ان الحياة الفكرية زمن الامويين لم تبلغ مستوى رفيعاً ، اذ كان هذا العصر بوجه الاجمال عصر تخلف واختمار . ذلك ان قربه من الجاهلية ، وتواتي الفتن وكثرة الحروب ، واضطراب الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، عملت جميعها على عرقلة ما من شأنه ان ينهض بالحركة الفكرية . ومع ذلك فقد كان هذا العهد هو العهد الذي بذررت فيه البذور التي قدر لها ان تنمو وترثى وتبليغ غاية نضجها في خلافة بنى البابا .

النحو والمعاجم

كان دروس قواعد اللغة من المهام الفكرية الاولى التي اضطلم بها العرب في هذا العصر . وكان مما دعا الى ذلك حاجة المستجدين في الاسلام الى تعلمها ، ورغبتهم في قراءة القرآن ، وحرصهم على تقلد الوظائف الحكومية ، واملاهم في الالتحاق بطبقة الفاتحين . والجدير بالذكر ان المحاولة الاولى لدرس اللغة العربية . درساً علمياً بدأت في مدينة البصرة ، الواقعة في جوار الحدود الفارسية . ولأن كانت هذه الخطوة قد تحققت في الاصل من اجل المسلمين الاعاجم . فقد كان هؤلاء في جملة القيمين عليها . ففي هذه المدينة اشتهر ابو الاسود الدؤلي (٦٨٨) الذي جعلته اخبار الرواية منشئ النحو العربي . وقد اورد ابن خلkan^١ ، احد مشاهير مؤلفي التراجم ، خبراً ساذجاً عن نشأة هذا العلم ، حيث ذكر ان علياً هو الذي وضع لابي الاسود المبدأ الاساسي ، وهو ان «الكلام كله ثلاثة اضرب اسم و فعل وحرف » ثم دفعه اليه وقال له : تَسْمِ عَلَيْهِ هَذَا الْاسَاسُ ». فائت موقعاً . وواقع الامر ان النحو العربي انشأ وتطور على نحو بطيء وفي امد طويل . وقد اتسم بسمات بارزة من المنطق اليوناني والخصائص اللغوية السنسكريتية .

ثم ان عالماً آخر من علماء البصرة ، هو الخليل بن احمد (ت حوالي ٧٨٦) ، تولى جمع اول معجم في اللغة العربية ، هو المعجم المعروف بكتاب العين . والذي يبدو ان الخليل قد اعتمد في تنسيق معجمه النظام الاجمدي السنسكريتي الذي يبدأ بالحرف الحليقي «ع». وينسب اصحاب التراجم الى الخليل ايضاً استبطاط بحور الشعر العربي ووضع اصول العروض^٢ ، بما لا يزال متبعاً الى يومنا هذا .

الحديث والشرع

ان توفر المسلمين على درس القرآن ، وحرصهم على التدقق في شرحته ، افضى بهم الى وضع علمين توأمين هما علم المفردات وفقه اللغة ؛ وكان من ذلك ايضاً ان نشأ علم آخر تستثيل به اخص ظاهرة من ظواهر الفكر الاسلامي ، هو علم الحديث .

(١) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٤٢٩ - ٣٠ .

(٢) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

والحديث، بدلolle الاحطلاحي، هو الكلام المنسوب الى النبي، او الى احد صحابته. لذلك كان القرآن والحديث بثابة الاساس الذي قام عليه علم الفقه واصول الدين، واصبحا الوجهين الملازمين للشريعة الطاهرة. على اتنا نكاد لا نعرف من اعلام هذه الحقبة ، التي لم يبلغنا من آثارها شيء يذكر ، الا نفراً قليلاً من المحدثين والفقهاء ، اشهرهم الحسن البصري (ت ٧٢٨)، وابن شهاب الزهري (ت ٧٤٢). والمعتقد ان الحسن البصري قد عرف شخصياً اكثر من سبعين من الصحابة . وقد كان اهل السنة لا يملون من تناقل اقواله الرشيدة . وارباب التصوف لا ينكرون تأثير زهده وتقاه^١. وكان الزهري شديد الاستغراق في درس الحديث حتى ان زوجته قالت له يوماً : « والله هذه الكتب اشد علىي من ثلاث ضرائر^٢ ». اما مدينة الكوفة ، التي كانت تنافس البصرة في ميدان النشاط الفكري، فقد اخرجت عمرو بن شراحيل الشعبي (ت حوالي ٧٢٨) ، الذي يقال انه اخذ الحديث عن نحو من مئة وخمسين من الصحابة^٣ ، وانه كان يرويه من الذاكرة دون ان يدون منه شيئاً. ولقد ارسله عبد الملك بن مروان بهمة ذات بال الى امبراطور الروم في القسطنطينية.

ان القانون الروماني قد اثر ولا شك ، اما بصورة مباشرة واما عن طريق التلمود وسواء ، في بعض وجوه التشريع الاسلامي ، في سورية ومصر ، ابان الخلافة الاموية ؛ وذلك في المعاملات^٤، ودعاوين الدولة : نظير السكة والخاتم . والقراطيس المستخدمة لكتابه الوثائق ، وغير هذه من المنافع العامة . وقد جرى العرب على غرار الروم في اعتبار هذه الشئون والمنافع من المهام الخاصة بالدولة ، وفي اعتبار الدولة مسؤولة عن حماية الرعية من التزوير والتزييف والتهريب ، وكل ما يتصل بها من المخالفات . واعتبروا من واجبها كذلك ازال العقوبات الشديدة بمرتكبيها . اما التنفيذ فقد جرى عن طريق الوظائف الادارية التي ورثها العرب والمستجدون

(١) للراغب في الزيادة ان يراجع ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٢٧ - ٢٩ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ؛ ابو الفداء ، ج ١ ، ص ٢١٥ - ١٦ .

(٣) السعافي ، الانساب ، نشر مرغوليوث (لبن ، ١٩١٢) ورقة رقم ٣٣٤ ؛ قابل ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٦ .

(٤) انظر : M. Hamidullah, «Influence of Roman on Moslem Law», *Hyderabad Academy Studies*, No. 6 (1943), pp. 43 seq.

(٥) البلاذري ، ص ٢٦٢ - ٧٠ .

في الاسلام من الشعوب التي كانت خاضعة ، في ماضي ، للدولة البيزنطية . ومع ذلك كله فان القاريء لا يصادف في تعبير التشرع العربي الفاظاً مقتبسة من اليونانية ولا اللاتينية ، مع ان بعض التعبيرات العربية تؤدي المعنى نفسه الذي تؤديه التعبيرات اللاتينية المقابلة لها^١ . ولسنا كذلك على علم باي كتاب في القانون الروماني ترجم الى العربية . وينبغي ان لا يغرب عن البال ان جميع المذاهب الفقهية الكبرى اثنا نشأت وازدهرت في مناطق غير بيزنطية ، منها العراق والخجاز^٢ . اما المذهب الضعيف الذي انشأه في سوريا الامام الاوزاعي^٣ (ت ٧٧٤) فلم يعش طويلاً .

تدوين التاريخ

بدأ تدوين التاريخ على نحو رواية الحديث ، وكان اول المهام الفكرية التي عني بها المسلمون العرب . وقد كان الدافع الى الاهتمام بالتاريخ رغبة المؤمنين في جمع اخبار النبي والصحابة ، وال الحاجة الى التثبت من نسب كل عربي مسلم ، لتعيين العطاء المفروض له من بيت المال ، ثم حرص الخلفاء الاولين على تفصي اخبار الملوك والحكام الذين سبقوهم . وهذا معاوية يستدعي عبيداً^٤ الى دمشق ليحدثه عن ملوك العرب القدماء على اختلاف مالكمهم^٥ فيقول له «كتاب الملوك واخبار الماضين» . وكان هذا الكتاب لا يزال يتمتع بانتشار واسع في عهد المسعودي المؤرخ^٦ (ت ٩٥٦) . ومن اشهر في علم الاوائل وهب بن منبه (ت حوالي ٧٢٨) ، وهو يهودي من اهل اليمن يغلب انه اعتنق الاسلام . وقد نشر له منذ عهد قصير كتاب اسمه «التبستان» يبحث في ملوك حمير .

الخطابة

ان الخطابة على انواعها قد ازدهرت في العصر الاموي ازدهاراً لم تبلغ نظيره

١) انظر مايل ، آخر الفصل ٤٢

٢) انظر مايل ، آخر الفصل ٤٢

٣) انظر مايل ، فصل ٤٢ في الفقرة عن الاوزاعي .

٤) راجع الفصل ٤٧ حول حياة الاسرة الحاكمة .

٥) الفهرست ، ص ٨٩ ، س ٢٦؛ وهب بن منبه ، التبيان في ملوك حمير (جیدراباد ، ١٣٤٧) ،

ص ٣١٢ - ٣١٣؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٦٥

٦) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٨٩

في ما بعد . فقد كان خطيب المسجد يلتجأ إليها في عظة الجمعة ليؤدي عن طريقها رسالته الدينية . وكان القائد يستعين بها على أثره الحماسة في صدور الجنود ، والحاكم يعول عليها في بث الروح القومية في نفوس رعاياه . ولا تزال عظة الحسن البصري التي القاها في حضور عمر بن عبد العزيز ، وحفظ منها شيء في سيرة عمر^١ ، وخطب زياد بن أبيه^٢ الحماسية ، وخطب الحجاج^٣ النارية ، تعداد إلى الآن ، من انفس الذخائر الأدبية التي بقيت لنا من ذلك الزمن القديم^٤ .

كتابة الرسائل

وكان رسائل الخلفاء الأولين باللغة الإيجاز واضحة الفرض . ولم يعمد إلى اطالتها وتنبيتها والانتهاء فيها إلا في أواخر العهد الاموي . وقد ذكر ابن خلكان^٥ أن أول من اطلما عبد الحميد الكاتب (ت ٧٥٠) ، كاتب الخليفة الخاص . أما ما عنيت به هذه الرسائل من رقة واتفاق ، فينمّ عن مؤثرات فارسية . وهذه المؤثرات الفارسية كثيرةً ما تلحظ في الحكم والامتثال القديمة .

الشعر

لم يكن عهد الفتوحات العنيف مؤاتياً لظهور الشعراء في أمّة ذات تقليد راسخ في الشعر . ولا كان الإسلام مؤاتياً للنشاط ربة القرىض^٦ . ولكن ما كاد الامويون يتولون الخلافة ، ويدفعون السياسة في اتجاه دنيوي ، حتى عادت الصلات بألهة المهر والفناء والشعر إلى سابق عهدهما . وفي هذه الفترة بلغ الانتاج الشعري أوج ازدهاره . وكان من أقدم الشعراء الامويين كعب بن جعيل التغلبي (ت حوالي ٧٠٥) .

(١) ابن الجوزي ، السيرة ، ص ١٢١ - ٢٦ .

(٢) انظر الفصل ٣٣ حول المراق في استقرار مؤقت .

(٣) انظر الفصل ٣٥ حول الحجاج الوالي الشفط .

(٤) من رغب في شواهد أخرى فليراجع ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ٢ (القاهرة ، ١٩٢٨) ص ٢٣٦ - ٥٢ ، الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ (القاهرة ، ١٩٢٦) ص ١٧٧ وما يتبّع ، ج ٢ (١٩٢٧) ، ص ٤٧ وما يتبّع ؛ العقد ، ج ٢ ، ١٧٢ ، ٢ وما يتبّع .

(٥) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، قابل السعودي ، ج ٦ ، ص ٨١ .

(٦) القرآن ، سورة الشمراء : ٢٤ - ٢٧ ، سورة يس : ٦٩ ؛ سورة الحاقة : ٤١ .

وكانت بعض بطون تغلب قد دخلت الاسلام . ومع ان كعباً كان قد اعتنق الاسلام ، فإنه كان يقسم بإله النصارى وال المسلمين ، ويحيل قراءة الانجيل والقرآن على السواء^١ . وان الاثر المسيحي ليتجلى في شعره اكثر مما يتجلى في شعر نسيبه المسيحي الاخطل .

وكان الاخطل^٢ (حوالي ٦٣٤ - حوالي ٧٢٨) شاعر البلاط الاموي ، وكان يناصر قضية الامويين في وجه الحزب الديني . ولم يكن يتزد في هجاء المناقشين اذا كان ذلك بطلب من يزيد . وذلك بخلاف موقف كعب^٣ . وكان الاخطل ، بوصفه شاعر البلاط ، يدخل على معاوية والصليب يتذرى من عنقه . على ان التعليم المسيحي لا يبدو انه كان قد من قلب هذا الشاعر المدمن الفاجر الا مسارفياً . فقد قال لزوجته الحامل يوماً ، اذ جرت وراءه استفف راكب على حاره ، لتبرك باسم توبيه فلم تصب الا ذيل الحمار : « هو وذنب حماره سيان »^٤ .

وكان الاخطل واحداً من ثلاثة شعراء ملأ ذكرهم الفخر . وكان الآخرين جريراً المجاء اللاذع (ت حوالي ٧٢٩) وهو شاعر الحجاج^٥ ، والفرزدق الفاسق (٩٤٠ - ٧٣٢) شاعر عبد الملك وأولاده: الوليد وسلبان^٦ ويزيد . وكانوا في مدينتهم - وهو مورده رزقهم - يقومون نحو أسيادهم بما تقوم به الصحافة الحزبية اليوم . وكثيراً ما كان المجاء ينشب بينهم فيحمل واحدهم على الآخر . أما من حيث جودة الشعر فقد كانوا في طليعة شعراء العرب ، حتى ان نقدة العرب لم يقعوا على من يجوز ان يوازيهم منذ ذلك العهد .

١) خليل مردم « كعب بن جعيل التقلي ». مجلة المجمع العلمي العربي ، ج ١٩ (١٩٤٤) ، ص ١٥ - ١٠٤ ، ٢٤ - ١٢ .

٢) لقد نشرت بموععتان من شعره تحت عنوان « شعر الاخطل » نشرهما الاب صالحاني (بيروت، ١٨٩١، ١٩٠٥) .

٣) ابن قتيبة ، كتاب الشعر والشعراء ، نشر ديوغون (البنان، ١٩٠٢ - ٤)، ص ٣٠١ - ٤ .

٤) الاغاني . ج ٧ ، ص ١٨٣ .

٥) ابن قتيبة ، الشعر ، ص ٢٨٧ . ومن وثيق في شواهد اخرى فليراجع ديوانه (القاهرة ، ١٣١٣) ج ١ .

٦) ابن قتيبة ، الشعر ، ص ٢٠٧ - ٩٧ . وللاظلاع على مذاقه راجع ديوانه . اعده د. بوشير (باريس ، ١٨٧٥) ونشر بعد وفاته . راجع ايضاً الاغاني ، ج ٨ ، ص ١٨٦ - ٩٧ ، ج ١٩ ، ص ٢ - ٥٢ ؛ ابن خلkan ، ج ٣ ، ص ١٣٦ - ٤٦ .

وفي العهد الاموي تجلّى الشعر الغزلي، لأول مرة، باجل مظاهره. وكان الوعي الاكبر لشعراء الجزيرة عمر بن ابي ربيعة (ت حوالي ٧١٩)، امير شعراء النزل في الادب العربي. كان عمر قريشياً^١، فوقف شعره الحبي على النساء الجميلات الوفدات الى الاماكن المقدسة لتأدية فريضة الحج، واستطاع ان يخلد شعوره نحو الجنس الطيف بشعر يجيش عاطفة، والفاظ تذوب رقة.

وكما كان عمر يمثل في شعره الحب الاباحي، كان معاصره جميل العذري (ت ٧٠١) يمثل بشعره الحب العذري البريء ذا الطابع الافلاطوني. وكان جميل من بني عدرة، وهي قبيلة نصرانية كانت تقيم في الحجاز. وكان الشعر الذي قاله في بشينة – وهي فتاة من قومه^٢ – ينم عن روح رقيقة، لانظير لها في ذلك الهد. ولقد كان جميل في هذا النوع من الشعر الثنائي الرقيق منافس، هو شاعر نسبت حوله حالة اسطورية، دعي بقيس بن الملوح، وعرف بمجنون ليلي^٣، (ت حوالي ٦٩٩^٤). فقد افتتن قيس هذا بفتاة من بني قومه بادلته الحب، لكن اباهما اكرهها على الزواج من سواه. وعندما اضاع قيس صوابه يأساً، وهام على وجهه شبه عاري، يحول بين هضاب نجد واوديته بقية حياته، يتغنى بغنائم حبيبته، ويحيّن الى نظرة من حبيباها؛ ولا يعود الى رشدته الا متذكر له اسمها. ولقد غدا مجانون ليلي بطلأ لروايات لا تُحصى في الادب العربي والتركي والفارسي، كلها تشيد بقوة الحب الحالد.

والى جانب الشعر الحبي بدأ الشعر السياسي بالظهور في هذا العصر. وكانت اولى مناسباته المبايعة ليزيد بالخلافة^٥، اذ طلب الى مسكن الدارمي انت ينظم شعراً يناسب المقام، وينبئه علناً في هذه المناسبة^٦. وقد بلغ هذا الشعر السياسي

١) الاغاني، ج ١، ص ٣٢٦: للاطلاع على حياته وشعره راجع: جبرائيل جبور، عمر ابن أبي ربيعة، مجلدان (بيروت، ١٩٣٥ / ١٩٣٩).

٢) ابن قتيبة، الشعر، ص ٢٦٠ - ٦٨: الاغاني، ج ٧، ص ٧٧ - ١٠٠.

٣) الاغاني، ج ١، ص ١٦٩، كما في ابن خلكان، ج ١، ص ١٤٨.

٤) الكتبى، نوات الوفيات، (بولاق، ١٢٨٣)، ج ٢، ص ١٧٢.

٥) راجع مابقى، ص ٤٢ من هذا الجزء.

٦) الاغاني، ج ١٨، ص ٧١ - ٧٢: قابل ابن قتيبة، الشعر، ص ٣٤٧.

أوجه في القصيدة التي نظمها عبيد الله بن قيس الرقيات^١ (ت ٧٠٤) في عبد الملك ابن مروان . وفي هذا العصر تحققت كذلك أولى المحاولات لجمع الشعر الجاهلي القديم ، وذلك على يد حماد الرواية (حوالي ٧١٣ - ٧٧٢) . وكان حماد فارسي الأصل ، وكان في لسانه عجيبة ؟ وقد عُدَّ بين الذين اشتهروا في تاريخ العرب بالذاكرة العجيبة . وفي بعض الروايات انه قدم مرة الى الوليد بن يزيد - وهو شاعر كذلك^٢ - لي逞شه من الشعر الجاهلي وحده مئة قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء ؛ وأن الوليد سمع منه بالذات أولاً، ثم اتاب عنه من يواصل الاستباع اليه ، فبلغ ما انشده ٣٩٠٠ قصيدة . وعندما سر منه الخليفة ، وأمر له بعنة الف درهم^٣ .

ثم ان قرب العهد بين الشعر الاموي من جهة ، والاسلام وشعر الجاهلية من جهة اخرى قد اضفى عليه من صفاء الاسلوب وقوه التعبير وجلال الطبع ، ما جعله مثلاً لمحظته الاجيال اللاحقة ؟ وغدت اوضاعه وخصائصه الفنية ،منذ ذلك العهد ، النموذج الذي احتذاه الشعراء العرب في التعبير عن خواجمهم الخاصة ، والنظم في اغراضهم العامة . وكان من ذلك عجز الشاعر ،منذ ذلك الحين ،عن ان يسلخ نفسه عن تراثه الادبي ، وابن بيدع شرعاً انسانياً يبقى على مرور الزمن . ولذلك كان جل اعتقاد النحاة في مؤلفاتهم على شواهد استمدوها من الشعر الجاهلي والاموي .

التربية والتعليم

لم تكن التربية ذات نظام مقرر في ذلك العهد وإنما ارسل الامويون احذائهم الى البادية شرقاً^٤ لكي يقبسو المهجة العربية الصافية ، ويمارسوا ركوب الخيل ، ويتعلموا الرماية والقتال . وكان معاوية صاحب السابقة في ارسال ابنيه وولي عهده

١) راجع ديوانه نشر رودو كلاكس (قينا، ١٩٠٢) من ٦٧ وما يلي .

٢) راجع ديوانه نشر غربيلي (دمشق، ١٩٣٧) حيث تبرز خرياته .

٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ ، الاغاني ، ج ٥ ، ص ٦٤ - ٦٥ . انظر كذلك المقد ،

ج ٣ ، ص ١٣٧ - ٣٨ .

٤) راجع من ٤١ - ٤٢ من هذا الجزء .

العائد الى البداية لهذا التعرض . وقد كان الجھور يعتبر الفى مؤذبًا ان هو تعلم القراءة والكتابة ، واحسن الرماية والسباحة . اما من يرع في هذه الامور ، فقد كان فوق المتأدب ، انه الرجل الكامل^١ . وغالب الظن ان اشتراط السباحة في العلم امر نشأ مع ظروف العيش على ساحل المتوسط . اما المثل الخلقي العلیا في التربية ، كما يشف عنها أدب العصر ، فقد حاولت ان تبقي على القيم الخلقيّة التي طالما اعزّ بها أهل البداية نظريّو : الشجاعة ، والصبر ، والمرءة ، والجود ، والضيافة ، وحفظ الجوار ، والوفاء بالعهود .

وقد غدا المؤدب في عهد عبد الملك بن مروان في جملة حاشية البلاط . وكان بما اوصى به عبد الملك مؤدب اولاده « علمهم الصوم ، وخذهم بقلة النوم^٢ ». لكن عمر بن عبد العزيز كان امیل الى العنف بحق اولاده ، فكان يوعز بعاقبتهم بالضرب ان هم لخروا^٣ . ويتجلى تقاه في ما اوصى به مؤدب اولاده حيث قال « ... ولیکن اول ما يعتقدون من ادبك بعض الملادي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن^٤ .

اما من رغب في العلم من الجھور فلم يكن متاحاً له من المدارس ، منذ بدء الاسلام ، الا الحلقات المسجدية . وكان محور التعليم في هذه الحلقات القرآن والحديث ، وكان القراء هم المعلمين الاولين . فالقراء ، والحلقة هذه ، اقدم المعلمين في الاسلام ؛ ولا يزالون القديرين على التعليم في الارياف والقرى الثانية . وكانت عمر بن الخطاب ، منذ سنة ٦٣٨ ، قد ارسل نفرًا من هؤلاء المعلمين الى جميع الانحاء ، وامر الناس ان يجتمعوا اليهم في المساجد ايام الجمعة . وكانت اول معلم يروز شهرته في مصر قاضياً ارسله اليها عمر بن عبد العزيز سنة ٧٤٦^٥ . وكان الضحاك

(١) ابن سعد ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩١ ، ١٠ - ١١ ، قابل ج ٥ ، ص ٣٠٩ ، س ٧
وما بعد : الاغاثي ج ٦ ، ص ١٦٥ ، س ٩ .

(٢) المبرد ، ص ٧٧ ، س ٦ - ٧ .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، نشر مرغوليوث ، ج ١ ، (لیدن ، ١٩٠٧) ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) ابن الجوزي ، السيرة ، ص ٢٥٧ - ٥٨ . رابع المحافظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .

(٥) الكتبي ، الولاة ، ص ٨٩ ؛ السيوطي ، حسن المعاشرة في اخبار مصر والقاهرة ، (القاهرة ، ١٣٢١) ج ١ ، ص ١٥٤ .

ابن مزاحم (ت ٧٢٣)، وهو أحد مؤدي اولاد عبد الملك^١، كتاب في الكوفة يعلم فيه الصبيان دون ان يستوفي منهم رسوماً^٢.

العلوم - علم الطب

وكان اعتقاد العرب في العلوم الطبيعية على اليونان، وكان اسبقها الى الظهور عندهم علم الطب. وتبجل وجه نظر المسلمين الى العلوم الطبية في الحديث المنسوب الى النبي، وهو : « العلم علما ، علم الاديان وعلم الابدان ».

وعندما اكتسح العرب آسيا الغربية كانت علوم اليونان قد فقدت حيويتها وفاعليتها، وغدت تراثاً تقليدياً تداولته ايدي الشارحين والمخترفين من اجادوا اليونانية او السريانية . وقد كان اطباء البلاط الاموي نقرأ من هؤلاء، اشتهر منهم الطبيب النصراوي ابن أثيل ، طبيب معاوية^٣ ، والطبيب اليوناني ثيادوق ، طبيب الحجاج^٤ . وكان من هؤلاء طبيب يهودي ، فارسي الاصل ، بصرى الوطن ، اسمه ماسر جويه^٥ عمل سنة ٦٨٣ في خلافة سروان بن الحكم ، على ترجمة كتاب في الطب عن السريانية ، كان قد أله باليونانية راهب نصراوي في الاسكندرية اسمه اهرون^٦ فكانت اول كتاب على بلغة الاسلام . ويدرك عن الوليد ، حفيد عبد الملك ، انه عزل المصاين بالجذام والعمى ، وسواحتها من الامراض المزمنة ، ورتب لهم ما ينبغي العناية بامرهم^٧ ؟ فتحققت بذلك اول مؤسسة صحية في الاسلام . وقد ذكر عن عمر ابن عبد الزبير انه امر بنقل معاهد الطب من الاسكندرية ، حيث ازدهر الطب اليوناني ، الى انتاكية وحران^٨.

١) بالحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، من ١٧٥ .

٢) ابن سعد ، ج ٦ ، من ٢١٠ .

٣) ابن أبي اصيحة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ، ١٨٨٢) ، ج ١ ، من ١١٦ ،

٤) ابن أبي اصيحة ، ج ١ ، من ١٢١ .

٥) ابن البري ، من ١٩٢ .

٦) ابن البري ، من ١٩٥ ؛ الطبرى ، ج ٢ ، من ١١٩٦ ، السعودى ، الخطط ، ج ٢ ، من ٤٠٥ .

٧) ابن أبي اصيحة ، ج ١ ، من ١١٦ ، من ٢٥ - ٢٦ .

علم الكيمياء القديم

وكان من العلوم المتصلة بالطب علم الكيمياء القديم ، وهو من العلوم الاولى التي ظهرت بعنابة العرب ، ادى فيه العرب ، كما في علم الطب خدمات بارزة . ولقد ورد في الاخبار عن خالد بن يزيد (ت ٧٠٤ او ٧٠٨) انه كان اول عالم وحاكم في الاسلام ؛ وانه كان ، على ما ذكر صاحب الفهرست^١ ، اول من امر بنقل كتب في الكيمياء والطب والتنجيم عن اليونانية والقبطية الى العربية . والحقيقة التي تستشف من هذه المزاعم ان الحوافز الاولى التي دفعت العرب الى طلب العلم ، والمعارف العلمية الاولى التي كسبوها ، اما صدرت من اصول يونانية . ثم ان الاخبار تقرن اسم هذا الامير الاموي باسم جابر بن حبان ، مع ان جابراً زها بعد هذا العصر بزمن طويل (حوالي ٧٧٦) ؛ وسنأتي على ذكره فيما بعد . وكذلك الرسائل الموضوعة في التنجيم والكيمياء ، والمسوبة الى جعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥^٢) ، وهو احد الایة الاثني عشر عند الشيعة ، فقد اظهر البحث العلمي الحديث انها منحولة^٣ .

المجاري الفكرية

وقد ظهر في العصر الاموي كذلك حركات دينية فلسفية عديدة غالب عليها اسم الفرق . ذلك انت احتكار المسلمين بالنصارى في سوريا اثار ضرباً من التأمل الديني والنقاش الفكري ، انتهى بظهور عدد من تلك الفرق ، من اشهرها فرقه المعتزلة . والمعترلة فرقه دينية فلسفية تعتمد العقل في بناء آرائها ؛ اسسها في البصرة واصل بن عطاء (ت ٧٤٨) ، وكان معتقدها الاول ان المسلم اذا ارتكب كبيرة خرج من جماعة المؤمنين ، لكنه لا يكون في عداد الكفار ، بل يغدو في منزلة بين

١) الفهرست ، ص ٢٤٢ ، ٣٥٤ : ٢٤٢

Ibn Jazid Ibn Ma'awija , (Heidelberg, 1924) , pp. 8 seq.

٢) الفهرست ، ص ٣١٧ ، س ٢٥ ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، حاجي خليفة ، كشف

الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، نشر فلوغل ، ج ٢ ، (لينغ ، ١٨٣٧) ، ص ٥٨١ ، ٦٠٤ ، ١٢٨ ، ٥٣ .

٣) انظر : *J. Ruska, Arabische Alchemisten, II. Ga'far Al sâdiq, der sechste Imâm* (Heidelberg, 1924) pp. 49-59.

المزليتين^١. وكان واحداً تلامذة الحسن البصري، وكان يميل إلى الأخذ بهذا الرأي، فجعله نقطة التحول في تعليم المعتزلة. وكان من آرائها الأساسية أيضاً أن الصفات الالهية، نظير القدرة والحكمة والحياة، ليس لها وجود أزلي بازاء ازلاة الذات الالهية، وذلك على اعتبار أن اثبات الصفات يفسد عقيدة التوحيد، وهي العقيدة الأساسية في التعليم الإسلامي. وعند المعتزلة كذلك إلى الحد من القدرة الالهية من أجل توثيق فكرة العدالة. ومن هنا كان شيخ المعتزلة يؤثرون أن يعرفوا «بأهل العدل والتوحيد». بلغت هذه الحركة الفكرية أوجها إبان خلافة المؤمن العباسي^٢ في مدينة بغداد، وفيها استؤنف النشاط الفكري من حيث انتهى في البصرة والكوفة.

وهناك فرقاً أخرى كانت قد اعتمدت فكره حرية الإرادة في هذا العصر عرفت بالقدرية (من معنى القدرة)، وذلك معارضةً للجبرية (من معنى الازمام^٣). ذلك أن ظهور القدرية كان ردّاً في وجه التعليم الإسلامي الصارم الذي يقول بالجبر المطلق، مستخراجاً مما نص عليه القرآن من أن قدرة الله لا تحد^٤؛ وهذه الردة تم ، في ما يبدو، عن تأثير نصراوي. وعلى ذلك فقد كان القدريون يذهبون إلى أن الإنسان يملك القدرة على أعماله. ولقد كانت هذه الفرقاً أقدم الفرق الفلسفية في الإسلام، وكان لها في تعليم حرية الإرادة اتباع كثيرون كانت منهم اثنان من خلفاء بني أمية هما معاوية الثاني ويزيد الثالث^٥.

القديس يوحنا الدمشقي

وكان من أبرز من تسرّب على يدهم الأثر المسيحي والفكر اليوناني إلى الجو

^١) المسعودي، ج ٦، ص ٢٢؛ ج ٧، ص ٢٢٤؛ قابل الشهري^١، ص ٣٣؛ البغدادي، أصول الدين (استبول، ١٩٢٨)، ج ١، ص ٣٣٥؛ الخضر، ص ٩٨؛ التوبيخ، فرق الشيعة. نشر ريتز (استبل، ١٩٣١)، ص ٥.

^٢) انظر ما سألي في الفصل ٤، في آخر الفقرة عن الفلاقل في سوريا ولبنان وفلسطين.

^٣) قابل الاعيبي، كتاب الواقع، نشر سورنسن (ليدزغ، ١٨٤٨) من ٣٣٤، ٣٦٢.

^٤) سورة آل عمران: ٢٥ - ٢٦؛ الحجر: ٢١؛ الشورى: ٢٦؛ الأخرف: ١٠.

^٥) قابل ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٣ (القاهرة، ١٣٤٧)، ص ٣١.

الاسلامي القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٠ - حوالي ٧٤٩) . ويوحنا الدمشقي هذا وهو الملقب «بدفاق الذهب» نظراً لفصاحة لسانه - كان يؤلف باللغة اليونانية، مع انه كان سورياً . وقد تكلم في حياته اليومية اللغة الارامية ولا شك ، وكان الى ذلك يحسن العربية . وقد كانت المناقشات التي نشببت بينه وبين علماء المسلمين ، حول حرية الارادة وعقيدة القضاء والقدر ، البادرة التي استهلت عهد الحركة القلاعية في الاسلام^١؛ وكان يعلم ان الله خلق العالم وتركه يجري بقوته استمراه^٢. وكان يوحنا في صباح يحضر مجالس الشراب مع الاخطل ويزيد بن معاوية . وقد شغل ، في ما بعد ، منصباً رفيعاً في الدولة كان لوالده من قبله على انه لم يلبث ان اعتزل هذا العمل في اوائل خلافة هشام (حوالي ٧٢٤) وبلغ الى دير القديس سابا في الجنوب الشرقي من مدينة القدس ، يعيش فيه حياة الزاهدين المنقطعين الى العبادة.

ولقد وضع القديس يوحنا عدداً من روايات المؤلفات^٣ ، من اهمها كتاب «ينبوع الحكمة» الذي لخص فيه آراء المتألهين من المؤلفين الكنسيين الذين تقدموه ، ونقشها تنسيقاً حسناً . وكان هذا الكتاب اول «خلاصة لاهوتية» وجلت اياها . وقد اعتمده بطرس الومباردي وتوما الاكتوبي ، وغدا المرجع المعتمد لمشاهير علماء الدين من جاء بعدهما . وقد تُقلل الكثير من مؤلفات يوحنا الى الانسان اللاتيني . وانفتقت الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية على اعتباره قدسياً . ومن اطرف ما كتب بما نحن بصدده حماورتان ساقها بين مسيحي ومسلم ، شدد فيها على الوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية^٤ . وكان الغرض من هذا الكتاب ان يكون تبريراً للنصرانية ، ومستندأً لمدحية التنصاري في مناقشة المسلمين ؛ ولعل مادته مستوحاة من المذاهب التي كانت تجري امام الخليفة ، ويشارك هو فيها بالذات بما يشهد على انه كان يعرف القرآن والحديث معرفة المسلمين لها . اما

١) قد احتفل بمرور ائمـة عشر قرناً على وفاته في دمشق سنة ١٩٥٠ .

٢) راجع الفصل ٤ حول الاضطربات في سوريا ولبنان وفلسطين .

٣) انظر كتابه : «*Exposition of the Orthodox Faith*», in *Nicene and Post-Nicene Fathers*, ser. 2, vol. ix, p. 39.

Migne, *Patrologia Graeca*, vols. xciv-xcvi (٤)

Migne, vol. xciv, cols. 1585-98 ; vol. xvi, cols. 1335-48 (٥)

(٦) راجع ص ٤٠ - ٤١ من هذا الجزء .

في ما يتصل بقصة بولام الزاهد، ويوصافات الامير المندى^١ - ولعلها أشهر حكاية دينية في العصور الوسطى - فان نسبتها الى القديس يوحنا غير صحيحة . ذلك ان اصلها اللاتيني واليوناني يعود الى ترجمة عربية عن اصل فارسي ، متأخر عن عهد القديس يوحنا^٢ . والقصة هي الرواية المسيحية لحياة يوذا ، ومن الغرابة ان تكون الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية قد اجلتاه على السواء باسم يوصافات .



القديس يوحنا الدمعي

وكان من وجوه النشاط البارزة في حياته ، دفاعه عن استخدام الصور كوسيلة للعبادة ، مع التشديد بان المعبود ليس هو مادة الصورة ، بل ما تله^٣ . وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور ليو الايصوري يبذل الجهد البالغ لابطال الايقونات تزلفاً منه ، فيما يظن ، الى المسلمين . وكانت من ذلك ان تعرض يوحنا لغضب الامبراطور . وقبل وفاته بوقت قصير ، قام بحملة واسعة في سوريا داعياً الى مقاومة مبطلي الايقونات ، وبلغ من جرأته ان قصد الى القدسية معرضاً حياته خطر الموت . لقد كانت الشعائر الدينية ، على اختلاف مظاهرها ، ذات

أهمية حيوية في تقديره ؛ وقد نظم هو نفسه اناشيد روحية (حفظت بعضها الكنائس الانجليزية في كتب اناشيدها) بلقت من مجال الشعر الكنسي ارفع مقام . وكان القديس يوحنا آخر آباء كنيسة الروم الشرقيه . وكان من حيث هو عالم لاهوتي ، وخطيب ديني ، ومدافع كنسي ، ومجادل عقائدي ، ومنظم لفن البيزنطي ، وللموسيقى البيزنطية ، من ابرز مفاخر الكنيسة في ظل الخلافة .

(١) Migne, vol. xvi, cols. 857-1260

(٢) راجع Barlaam and Iosaph in *Encyclopedie Catholica*

Nicene Post-Nicene Fathers, Ser. 2, vol. ix, p. 88 (٣)

المراجعة

كانت الحركة الفكرية التي قام بها الخوارج والقدرية والمعازلة الخطوات الأولى في الاتجاه الذي نال من صلابة موقف أهل السنة، وكانت حركة المرجئة الخطوة التالية في هذا الاتجاه. وكان الركن الأول في تعليم المرجئة ارجاء الحكم على اصحاب الكبائر وعدم التسليم بغير ارجائهم من حظيرة الاعيان^١. ذلك لأنهم اعتقلا أن الاعمال ليست شرطاً في صحة الاعيال. وانما نشأ هذا التعليم من اجل تبرير موقف الخلفاء الامويين الذين اتهموا بالتهاون في تطبيق الشريعة المقدسة. فقد ذهب ارباب هذا الرأي الى ان الامويين مسلمون ولو اسماً، ولما كانوا، بحكم الواقع، قادة الاسلام السياسيين، فقد وجبت لهم الطاعة على جميع المسلمين. وقالوا ان علياً ومعاوية كليهما من عبيد الله، فالحكم بشأنهما لله وحده. وفي هذا الجو السمح الذي خيم على هذه الحركة الفكرية نشأ الامام الكبير ابو حنيفة (ت ٧٦٧)، مؤسس المذهب الاول من المذاهب الفقهية الاربعة في الاسلام^٢.

الخوارج

وكان الخوارج، نظير المرجئة، من الفرق السياسية الدينية في الفكر الاسلامي. يعود منشؤهم الى عهد صفين، اذ سخط على علي "جماعة من اتباعه، لانه جعل حقه في الخلافة موضوعاً للتحكيم"^٣. وكان هؤلاء من اخلص اتباعه، فقدوا من اشد خصومه.اما غرضهم فكان المحافظة على المبادئ الدبقراطية الاولية التي اقرها التعليم الاسلامي. ومن اجل ذلك اثاروا حرباً وفتناً متواصلة، بقيت الدماء تجري بسيبهما مدة ثلاثة قرون. فلقد عارضوا المبدأ القائل بمحض حق الخلافة في قريش^٤، وابروا الاخذ بحكرامة الاولى، وبعا يرافق ذلك من مراسيم خاصة وزيارات الى

١) قابل البغدادي ، التبصر ، من ١٢٢ - ٢٣؛ ابن حزم ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

٢) انظر ما سياق في الفصل ٤١ في الفقرة عن الاوزاعي .

٣) راجع ما سبق ، من ٣٢ - ٣٣ من هذا الجزء .

٤) ابن الجوزي ، نقد العلم والعلماء (القاهرة ، ١٣٤٠) . ص ١٠٢ .

مدافن الصالحين . وحرموا الطرق الصوفية على اختلافها . وقد بقي منهم الى الآن الفرق المعروفة بالاباضية ، وهم اتباع ابن اباض^١ . احد زعمائهم في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة . وتتجدهم اليوم متفرقين في الجزائر وليبيا وعمان ونجيبار .

على ان اهم تلك الفرق على الاطلاق كانت فرقة الشيعة ، وهي احد الفريقين المتعارضين الذين تختلفا عن الانشقاق الذي وقع بين المسلمين في عهد الاسلام الاول ، بسبب الاختلاف على صاحب الحق الشرعي في العلاقة ؟ واما الفريق الآخر فهو اهل السنة^٢ . وفي المهد الاموي تهألاً للشيعة توطيد نظامها ؛ وكان الفارق الاساسي بين الشيعة (أنصار علي) والسنة (جامعة الحافظين) مسألة الامامة ، وهي خلافة محمد ورئاسة المسلمين . فالشيعة تنتسب بأن اماماً علي وابنائه هي الامامة الحقة الوحيدة ، وهي في ذلك نظير الكثلكة التي تنتسب بخلافة البابوات القديس بطرس . فالنبي قد اعتبر القرآن — وهو كلام الله المنزل — الواسطة بين الله والبشر ، اما الشيعة فقد جعلت ذلك الوسيط انساناً هو الامام^٣ . وعلى ذلك فالسيني يغير عن عقيدته بأنه يؤمن بالله الواحد الصمد ، يؤمن بنزول القرآن المحفوظ في السماء منذ الازل ، اما الشيعي فيزيد فقرة اخرى لاستكمال التعبير عن الاعمال اذ يقول انه يؤمن بأن الامام الذي اختاره الله ، وبث فيه شيئاً من روحه القدسي ، هو المادي الى الحق والمرشد الى سبيل الخلاص .

فالخليفة في نظر السنة هو الرئيس الزمني لمجاعة المسلمين ، وهو امير المؤمنين وحامي الشريعة ؟ فهي لا تخصه بسلطة روحية^٤ . والشيعة بخلاف ذلك — تحصر الامامة في اسرة علي ، ولا تكتفي باعتبار الامام الرئيس الواحد للمجتمع الاسلامي ،

١) البغدادي ، المختصر ، من ٨٧ - ٨٨ ؛ الاعيبي ، من ٣٥٦ ؛ الشهريستاني ، من ١٠٠ .

٢) السنة بمعنى المادة والتقليد ، وهي اصطلاحاً مبدأ الحافظين من جامعة المسلمين .

٣) وردت هذه المادة في القرآن بتغير المعنى المصطلح بذلك في سورة القراءة : ١١٨ ، والنحل : ٧٩ ، والفرقان : ٧٤ ، ويس : ١١ . والامام بحسب الاصل : من تقدم الناس في الصلاة . وكانت هذه المهمة اولاً لبني ، وعندما من بعده لخلفائه او لمن انتدبوهم لذلك . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٤) الاعيبي ، من ٢٩٦ وما بعده؛ الماوردي ، من ٢٣ - ٢٤ ؛ النسفي ، عمدة عقيدة اهل السنة ، نشر كورت (لندن ، ١٨٤٣) ، ص ٢٨ - ٢٩ .

بل تجعله الى ذلك الرئيس الروحي والزعيم الديني ، وتذهب الى انه يستمد سلطانه من النص المقدس . وهكذا يصبح لسليل محمد ، من ذرية علي وفاطمة ، قوة خارقة تصل اليه عن طريق الوراثة^١ ، بها يغدو فوق البشر ، وعن طريقها يتميز بالعصمة . على ان بعض نصوص السنة المتأخرة قد نسبت العصمة من الاثم والخطا الى الانبياء دون سواهم ، وأخصهم مد^٢ . وقادى غلاة الشيعة في تأليه الامام حتى ائمهم اعتبروه مجسداً للألوهية . ولا شك في ان فكرة المهدى المنتظر ، التي تجلت في ما بعد وقامت على انتظار مخلص يفتح بظهوره عهداً جديداً من الحرية والرغد ، إنما هي صدى للأمل بظهور مسيح جديد .

ولقد كان العراق ، من بين سائر الاقطان الاسلامية ، اخصبها تربة لنمو تعاليم الشيعة . ثم غدت فارس ، بعد اوائل القرن السادس عشر ، المقل الاكبر للشلّم الشيعي . ويبلغ مجموع عدد الشيعة اليوم ٥ مليوناً ، اي نحواً من اثني عشر بالمائة من مجموع المسلمين^٣ . فهم في لبنان وسوريا ، حيث يعرفون بالمتاولة ، يبلغون على سبيل التقدير ٢٣٢ الفاً . ولقد تحدّر من الشيعة عدّد من الفرق الصغيرة يكاد لا يُحصى ، بينهم الخارجيون والمتطهرون الذين لم يعودوا يعتبرون من الشيعة . وكان التشيع كالفنatis ، يجذب اليه جميع النائمين والمخالفين لاعتبارات اقتصادية او اجتماعية او سياسية او دينية . من هؤلاء جماعة كانت قد ظهرت في اوائل الاسلام ، وعملت متسورة ضد التعليم العربي الجديد ، ثم اخذت في الانضواء الى صنف الشيعة ، لتحمل من ثم لواء المعارض في وجه النظام القائم . وما الاسماعيلية والقرامطة والدروز والنصيرية ، ومن جاراهم ، من سُنّ تعرض لهم في ما بعد ، الا فروع ثُنت من الاصل الشيعي .

من المحتمل ان يكون النبي محمد قد تناهى للموسيقى كما تناهى للشعر^٤ ، وذلك لصلتها بالشعائر الدينية الوثنية ليس الا . ففي حديث عنه انه قال ان الآلات

^١) الشهريستاني ، من ١٠٨ - ٩ ؛ المسعودي ، ج ١ ، من ٧٠ .

^٢) ابن حزم ، ج ٤ ، من ٢ - ٢٥ ؛ الاجيبي ، من ٢١٨ وما بعد ؛ I. Goldziher , *Der Islam* , vol. iii (1912) , pp. 238-45.

^٣) اذا اضفنا الى هذا العدد المتشقق عن الشيعة نظير الزيدية والحساشين وجماعة « علي الهي » بلغ المجموع نحواً من ٤٥ مليوناً ، وارتفعت النسبة الى ١٥ بالمائة من مجموع المسلمين .

^٤) صورة الشراء ، ٢٢٤ - ٢٦ .

الموسيقية مؤذن الشيطان يدعو بها الناس الى عبادته^١. وكان السواد الاعظم من علماء الشريعة والفقه يعرضون عن الموسيقى والموسيقيين ، في حين كان جمهور الناس يعبرون عن رأيهم فيها بالقول المأثور : « الخمر كالجسد ، والسماع كالروح ، والسرور ولدها^٢ . »

وما كادت الروعة الاولى ، التي رافقت ظهور الاسلام تنتكشف ، حتى اخذ المغنون المحترفون ، من نساء ورجال ، يظهرون على مسرح الحياة . في العصر الاموي غدت مكة ، وبالأخص المدينة ، مدرسة للفناء ومعهدآ للموسيقى^٣ . فوفد عليهما من بعيد المهووبون من ارباب الفن ، وصدر منها الى بلاط دمشق سيل متزايد ابداً من اهل الحدق الفني . ولما كان يزيد الاول ، الخليفة الاموي الثاني ، هو نفسه موسيقياً ، فقد ادخل الفنان والعزف الى البلاط^٤ ، وكان اول من اقام ، في دار الخلافة ، المهرجانات الكبرى التي حفلت بالفناء وشرب الخمر . ثم ان عبد الملك شمل برعايته سعيد بن مسجع (او مسجح حوالي ٧١٤) خريج المدرسة الحجازية ، ولعله اعظم موسيقي انجبيه العصر الاموي . وكان سعيد هذا مولى زنجيًّا من اهل مكة ، قيل انه طاف في اتجاه سوريا وفارس ، ونقل بعض الالحان البيزنطية والفارسية الى العربية^٥ . وقد اضيف اليه فضل تنسيق الموسيقى العربية نظرياً وعملياً في عهد العرب الاول . وكذلك الوليد الاول ، الخليفة الذي رعى الفنان والعماره في الاسلام ، فقد استدعى الى عاصمه ابن سريح (ت حوالي ٧٢٦) ، احد الفنانين الاربعة الكبار في الاسلام^٦ ، ومعبعد (ت ٧٤٣) ، وهو مولد من اهل المدينة واستقبلها بحفاوة بالغة . وقد بني معبعد اثيراً محباً في البلاط اذ ظفر بالحظوة لدى يزيد الثاني

١) راجع التوري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٣٢ - ٣٥ ؛ الفزالي ، احياء علوم الدين (القاهرة ، ١٣٣٤) ج ٢ ، ص ٢٣٨ وما بعد؛ A. J. Wensinek, *A Handbook of Early Muhammadan Tradition* (Leyden, 1927), p. 173; Henry G. Farmer, *A History of Arabian Music to the Thirteenth Century* (London, 1929) pp. 24-25.

٢) التواجي ، ص ١٧٨ ، راجع التوري ، ج ٤ ، ص ١٣٦ وما بعد.

٣) الفند ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

٤) الاغاني ، ج ١٦ ، ص ٧٠ ؛ قابل السعودي ، ج ٥ ، ص ١٥٦ - ٥٧ .

٥) الاغاني ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

٦) الاغاني ، ج ١ ، ص ٩٨ .

والوليد الثاني^١. ويزيد هذا هو الذي اعاد الشعر والموسيقى الى سابق عهدهما في حياة الاسرة الحاكمة ، بعد فترة من الرصانة والزهد تيز بها عهد الخليفة الورع عمر ابن عبد العزيز . وحكاية يزيد مع المغنتين حبابة وسلمة من الاخبار المعروفة^٢. وكان الوليد الثاني يحسن الغزف على العود ، وينظم الاغاني . وكان يجتمع في بلاطه حشدًا من العازفين والمغنيين . اما هشام فقد خص برعايته مغنياً من اهل الحسيرة اسمه حنين .

ولقد كانت الانعام خاضعة لنظام معروف من الايقاع (النوتات) ، إلا ان هذا النظام لم يدون ، وإنما كان ينقل شفهيًّا من جيل الى جيل . وهذا كتاب الاغاني ، حافل بال أبيات التي كانت تتفنّى في العهد الاموي ، لكنه لم يثبت لنا ايقاعاً واحداً مدوناً . وكان من شیوع العناية بالفناء والموسيقى في ظل الامويين ما اتاح لمنافسיהם العباسيين استغلال ذلك في الدعاية ضد الحكم الامويين «المغتصبين المارقين» .

التصوير

ان تنكر الاسلام للفن التصوري لا يتجلّى بصورة بارزة حتى اوائل العصر العباسى ؟ وهو ، في ما يبدو ، صدى لرأي جماعة من اليهود اعتنقاوا الاسلام ، او من رواسب الفكر البدائى الذي يزعم ان من كان فيه شبه من شخص آخر كان باستطاعته ان يؤثر تأثيراً سحيرياً بهائلاً.

ولقد ذهب معظم الفقهاء ، منذ العصر العباسى ، الى ان رسم الكائنات الحية من خصائص الله وحده . وروي عن النبي انه قال ان اشد الناس عذاباً عند الله يوم القيمة المصوروون^٣ . ومنذ ذلك الحين لم يرسم مخلوق بشري في مسجد ما في دنيا الاسلام ؟ الا ما كان من ذلك على جدران القصور ، وفي الكتب المدونة ، وهو قليل . وعليه فقد استمد الفن الظاهري جل مواضعه من علم الهندسة وملكتة النبات . واقدم ما يمثل فن الرسم في الاسلام الرسوم الطينية المحفوظة في قصیر عمرة . وهو قصر في شرق الاردن ، بناء الوليد الاول ، وكان يأوي اليه في موسم الصيد . وهذه الرسوم تم عن صناعة مصوّرين من التنصاري . فقد وimitated على جدران القصر

^١) الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٩ وما بعد؛ المسعودي ، ج ٦ ، ص ٤ .

^٢) راجع ص ٨٩ - ٩١ من هذا الجزء .

^٣) البخاري ، الجامع الصحيح (بولاق ، ١٢٩٦) ، ج ٧ ، ص ٦١ .

صور لستة من الامراء، جميعهم من اعداء العرب ، بينهم رودريك ملك القوط الغربيين في اسبانيا^١ . وهنالك اشكال اخرى رمزية تمثل النصر ، والفلسفة ، والتاريخ ، والشعر . وبينها مشهد صيد يمثل اسدًا ينقض على حمار وحشى . وهنالك رسوم سواها تمثل راقصات عاريات ، وموسيقيين ومطربين . وليس بين آثار الفن الاسلامي ما هو اسلم حفظاً من هذه الرسوم .

ولقد كشفت الحفريات الحديثة في خربة المفجر^٢ الواقعة على بعد ثلاثة اميال من اريحا شمالاً ، عن قصر شتوي لاموريين متقن الصنع ، زخرفت جدرانه برسوم انسانية وحيوانية . وقد اثبتت النحاتات عليه اسم هشام (٤٣ - ٧٢٤) بما لا يدع شكًا في هوية بانيه . وهنالك تمثال قائم لفتاة تحمل ضمة من الزهور ؟ ولوحة تمثل جماعة من الفتيات السمينات يرقصن ، وقد صبفن شفاههن واظافر انامل اليدين واصابع الرجلين بصباغ قرمزي . هذا ، الى حديقة حيوانات جمعت انواعاً من الطيور والارانب والحيوانات الاخرى . وهذا الفن يتم عن صلة لا تقبل الخطأ بالفن الميلاني النبطي ؟ والظاهر ان زلزالاً وقع سنة ٧٤٦ هدم هذا القصر قبل ان يتم بناؤه .

قصور الادمية

كان الخلفاء الامويين ، كما ذكرنا سابقاً^٣ قصور في الارياض يل giochiون اليها فراراً من الامراض السارية^٤ ، يعيشون فيها حياة قروية فيشقون ما في نفوسهم من حنين الى حياة الادمية . وانما لنجد بقايا القصور ودارات الصيد منتشرة على تخوم الادمية ، لاسيما في القطاع الجنوبي ، وهي مبان انشأت بعضها مهاريوس اموريون على الطراز البيزنطي او الفارسي ، وربما البعض الآخر وكان مبنائهما الرومان قدیماً^٥ .

نذكر من هذه القصور ، على سبيل المثال اثنين هما عمرة والمفجر . والجدير بالذكر ان هذين الاسمين ، نظير اسماء قصور عديدة اخرى ، من الاسماء الحديدة ،

١) راجع من ٧٤ من هذا الجزء .

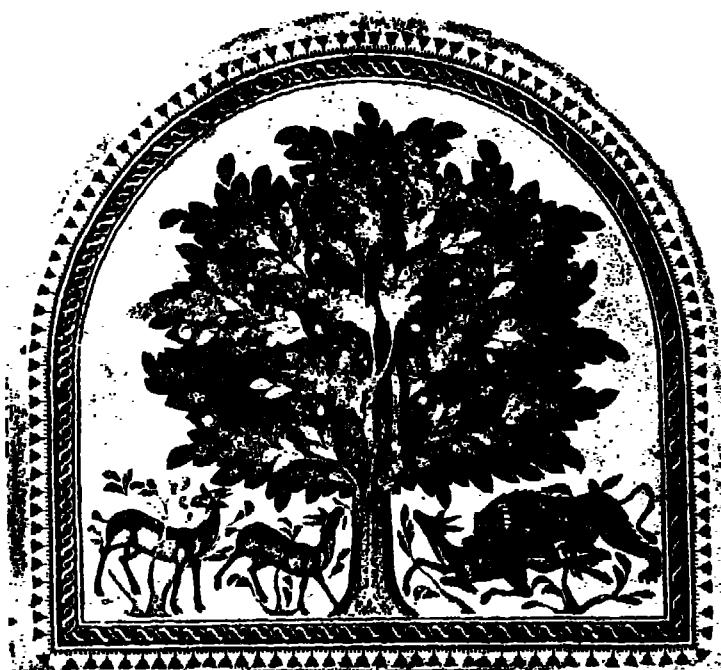
٢) جرت هذه الحفريات على يد دائرة الآثار الفلسطينية وبدأ العمل سنة ١٩٣٥ . راجع : «Excavations at Khirbet el Mefjer»، Quarterly of the department of Antiquities in Palestine, vol. v (1936); pp. 132-8; vol. vi (1937), pp. 157-68.

٣) راجع من ٤١ - ٤٢ من هذا الجزء .

٤) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

٥) راجع الجزء الاول من ٣١٨ - ١٩ .

ولم ترد في المدونات القديمة . وخير هذه القصور على الاطلاق هو قصر عمرة^١ ، وذلك لما يمتاز به من تصاویر جدارية ذات روعة بالغة . ويعود بناء هذا القصر الى عهد الوليد الاول بين سنتي ٧١٥ و ٧١٢ ، لكن خبره لم يشتهر في اوساط العلامة حتى سنة ١٨٩٨^٢ .



بلاط من الفسيفساء في قصر خربة المنجر ، يبدو فيه رسم فني لشجرة اتروج يرعى الى احد جانبيها ظبيان ، وينقض اسد على ظلي ثالث في الجانب الآخر . ويحيط بالصورة حاشية من الفسيفساء مشرقة الالوان تبدو بها الصورة كأنها قطعة من السجاد

وقصر آخر مشهور جداً من قصور هذه المنطقة هو المعروف بالمشتى^٣ . بناء

(١) تصغير قصر ، من لفظة لاتينية *castrum* بطريق السريانية .

(٢) انظر : Alois Musil, *Kusejr 'Amra und andere Schlosser ostlich von Moab* pt. I (Vienna, 1902) pp. 5 seq. ; do., *Kusejr 'Amra, I. Texiband* (Vienna, 1907). وقد ظن موزل هذا ان الوليد الثاني هو الذي بناه .

(٣) قابل : Musil, *Arabia Deserta*, p. 279, ; do., *Palmyrena*, p. 408 ; حيث يعتبر هذا القصر وتصوراً اخرى سواء من قصور الصيف لا الشتاء .

الوليد الثاني الذي كان شديد اللوع بالصيد، وبغير الصيد من خروب اللهو غير البريء. ولا تزال واجهة هذا القصر الجميل، ذات النحت الدقيق، محفوظة إلى اليوم في متحف برلين^١. والوليد هذا هو الذي بنى أيضاً قصر خربة المنية إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية. وقد عثر في الحفريات على دينارين يتفق تاريخهما مع تاريخ نقش هناك ينص على أن الوليد الثاني هو الذي أمر ببنائه^٢. وكان الوليد قد أقام أيضاً في قصر آخر، نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من مدينة عمان، هو قصر القسطل^٣. وقد ذكر مؤرخ سابق^٤ أن الذي بنى القسطل هو الحارث بن جبالة الفساني^٥، فإذا صحت الرواية كان هذا القصر من آثار الجاهليين. وقد شغل الوليد كذلك بناء آخر في ذلك الجوار عرف بالازرق^٦. وكان أبوه يزيد الثاني قد بنى أو رمم قصر الموقر^٧، الذي لم يبقَ من آثاره إلا القليل. أما قصر الطوبية (التوبية؟)، إلى الجنوب الشرقي من الموقر فقد عفت آثاره ولم يبقَ ما يدل عليه.

ثم إن هنالك قصوراً خربة أخرى على تخوم البادية إلى الشمال من هذا المكان بعضها لم يتناوله الدرس إلى الآن، اهتمها قصر أسيس^٨ (سيس حديثاً) الواقع ٨٣ ميلاً من دمشق شرقاً. وهو موقع محصن يشتمل على جهاز لري يستخدم للانفاع بماء الأمطار. وغالب الظن أنه من المباني التي أقامها الوليد، وهو الوحيد بين الآثار الباقية من نوعه.

١) راجع: Brunnnow and Domaszewski, *Provincia Arabia*, vol. ii, pp. 105-70; B. Schulz and J. Strzygowski, « Mschatta », *Jahrbuch der Königlich-preussischen Kunstsammlungen*, vol. xxv (1904), pp. 205-373.

٢) « Khirbat Minya », *Quarterly of the department of Antiquities in Palestine*, vol. vi (1937), pp. 215-16; vol. viii (1938), pp. 49-51.

٣) من اللاتينية *castellum* بطرق السريانية. ياقوت ج ٤، ص ٩٥؛ الطبرى، ج ٢، من ١٧٨٤.

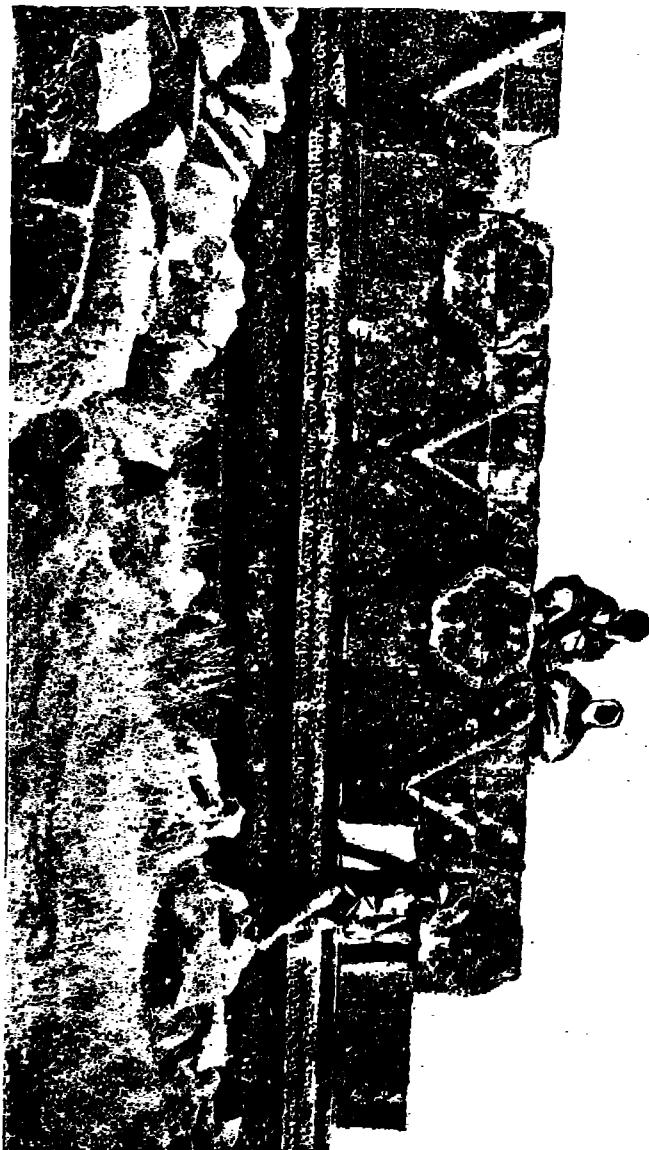
٤) هو حزرة الأصفهانى، من ١١٧ . . .

٥) ورد ذكره في الجزء الأول من ٤٤٧ .

٦) الطبرى، ج ٢، من ١٧٤٣ .

٧) ياقوت، ج ٤، ص ٦٨٧ . إن المطلقة التي قامت فيها قصور البلقاء والموقر والقسطل وسواءها من المباني واقعة إلى الشرق من نهر الأردن ويشتمل كذلك على مواطن.

٨) ياقوت، ج ١، ص ٢٧١؛ Musil, *Palmgrena*, p. 282; G. Sauvaget, « Les Rues omeyyades du Djebel Seis », *Syria*, vol. xx (1939), pp. 239-56.



واجنبوا فخر إثباتي

قصر الحير

وهنالك قصران آخران في هذه المنطقة يعرفان بالحير^١؛ والظاهر انه كانت للخلفاء مساكن ذات حدائق مسورة تحفظ فيها حيوانات برية للصيد. يقع اول هذه القصور على بعد اربعين ميلاً الى الشمال الشرقي من مدينة تدمر، وهو المعروف بقصر الحير الشرقي، تميزاً له عن القصر الغربي الواقع بين تدمر والقريتين. وبلغ اتساع اراضيه خمسة اميال طولاً ونحو ميل واحد عرضاً. اما باني هذا القصر فهو هشام بن عبد الملك، وكان ذلك سنة ٧٢٩. وقد زعم احد المؤرخين ان هذا القصر هو قصر الرصافة^٢ المنسوب الى هشام^٣. وكان هشام شديد التعلق بالرصافة، وفيه مات ودفن^٤. ولقد استخدمت في هذا القصر «السقاطة» التي سبق استخدامها في سوريا قبل الاسلام، والتي عرفت في اوروبا في آخر القرن الثاني عشر.

ويقع على بعد اربعين ميلاً الى الجنوب الغربي من تدمر، قصر الحير الغربي الذي بناه هشام ايضاً سنة ٧٢٧، كما يستدل من بعض نقوشه الباقيه. ويبدو ان هشاماً كان يقيم فيه قبل ان تحول الى الرصافة. وقد يكون هذا القصر هو الذي دعاه مؤرخو العرب بالزيتونة^٥، وكان اولاً حصناً بيزنطياً او رومانياً. وبين اثاره الرائعة تثلاثان لامرأتين عند المدخل، يتم صنعهما عن الفن التدمرى. وبين الرسوم صورة لقيتين تعزف احداهما على عود ذي خمسة اوتار.

١) في مسكويه، بخارب الام، نشر مرغويوث، ج ١ (القاهرة، ١٩١٤) ص ١٥٩ - ١٥١ ورد الاسم «حائز» ولفظة حير من السريانية يعني البقعة المصورة بمحاط، وهي ذات صلة بلفظة حيرة يعني الخيم او المسكر؛ انظر ما سبق الجزء الاول ص ٤٤٩.

٢) راجع الجزء الاول ص ٤٣٥ - ٣٦.

G. Sauvaget in *Bulletin d'études orientales*, vol. v (1935) pp. 136-7; do., (٣) «Remarques sur des monuments omeyyades», *Journal Asiatique*, vol. cxxxi Henry Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 1 (1934) pp. 1-3; ser. 2 (1938), pp. 1-9; K. A. C. Creswell, *Early Muslim Architecture*, pt. 1 (Oxford, 1932), p. 330.

٤) الطبرى، ج ٢، ص ١٧٢٩.

٥) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٦٧.

٦) وهذا يمثل نسبة امتنابط الورث الخامس الى الفنان الشهور زرباب الذي توفي حوالي سنة

Hitti, *History of the Arabs*, p. 598.؛ ٨٥٢

ان زخارف هذا القصر المحفوظة الآن في المتحف الوطني في دمشق تملأ التغرة الفاصلة بين الفن البيزنطي والفن الإسلامي . فهي تؤلف بين العناصر الساسانية والبيزنطية والسورية وتنسقها في نظام منسجم . ولقد تحولت الأشكال الفنية التي نشأت هنا إلى المغرب ، وبلغت غايتها من الدقة والإنقان في قربة وغرناطة . ولقد جرى العباسيون بحرى الامويين في إنشاء الجناح حول التصور على النظام المتبوع في قصر الحير . فقد اشتغلوا عاصتهم المؤقتة سالماً على قصر من هذا النوع ، وصفه العالم الجغرافي الكبير البغدادي^١ بقوله انه قد حوى حيوانات بريّة من غزلان ، وحمر وحشية ، وظباء وارانب ، ونعام ، جعلت في بقعة فسيحة جميلة ، احاط بها سور عالٍ . ولنسنا نصادف عند الرومان رغبة في إنشاء حدائق الحيوانات حتى العهد الامبراطوري ، بما ينم بوضوح عن تأثير شرق^٢ .

وكان الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك (٧١٥-٦٧) يقيم في بلدة بناتها في فلسطين هي الرملة . وهي البلدة الوحيدة التي انشأها العرب في سوريا^٣ وقد بقيت آثار من قصر الخليفة حتى مطلع القرن العشرين ، ولا تزال مأذنة المسجدapis فائمة كما رسمها المهندس . وغدا هذا المسجد ، بعد المسجد الاموي في دمشق ، وقبة الصخرة في القدس ، الثالث بين مباني المسلمين الكبرى المقدسة في سوريا .

المساجد : المسجد الأقصى

ظل المسلمون ، بعد فتح سوريا بمنحو من نصف قرن يقيمون الصلاة في كنائس حولوها إلى مساجد . ولم يعودوا ، في هذه الآثناء إلى بناء مسجد ما . وخلافاً لما ورد في الاخبار ، لم يقسموا الكنائس بالذات بينهم وبين النصارى ، بل اكتفوا بقسمة الباحة المقدسة . فكان المصلون من ابناء دمشق يدخلون من باب واحد في السور ، ثم يتحول النصارى إلى اليسار ، وينعطف المسلمون إلى اليمين^٤ . وعندما

(١) البلدان ، ص ٢٦٣ .

(٢) للاستزادة عن هذا القصر راجح : D. Schlumberger, « Les Fouilles de Qasr el-Heir el Gharbi » Syria, vol. xx (1939) pp. 195-238, 324-73; Ja'far al-Hasani, «Qasr al-Hayr», Majallat al-Majma' al-Ilmi, al-'Arabi, vol. viii (1941), pp. 337-45.

(٣) اليون والحدائق في اخبار المغافق ، نشر جوينبول (ليدن ، ١٨٥٣) ، من ٤٠ .

(٤) Creswell, pt. i, p. 134.

احتل المسلمون مدينة حماه، حولوا الكنيسة التي نعتها أحد المؤرخين الاهليين^١ بالكبيرى، الى الجامع الاكبر. ولا تزال الواجهة الغربية في حالة سليمة^٢. وكذلك المسجد الاكبر في حمص^٣، ومسجد حلب^٤، فقد كانا من معابد النصارى. ولا تزال الآثار المسيحية، والاعمدة الرومانية ظاهرة للعيان في معبد حمص.

وكان اول مسجد بني في سوريا قبة الصخرة^٥ في القدس؛ ببناء عبد الملك سنة ٦٩١ في موقع قام عليه قبلاً هيكل سليمان . وهو يمثل اقدم بناء اثري اسلامي لا يزال قائماً. والى بين الصخرة كان موقف محمد في ليلة عروجه ، ومن هنا ارتقى حسانه العجيب^٦ نحو السماء. ولما كانت مدينة القدس مرفقاً للنبي ، واول قبلة في الاسلام ، فقد اكتسبت في نظر المسلمين صفة التقديس في عصر باكر . وربما كان ذلك ايضاً لاعتبارات سياسية . فقد هدف الخليفة الاموي من ايجاد معبود فتحم الى تحويل قوافل الحجاج السوريين عن مكة ، وهي آنذاك في حوزة منافس له في الخلافة^٧ ، والى ان تتضاءل في جنبه كنيسة القيامة وسائر كاتدرائيات النصارى في سوريا^٨. ومن اجل تحقيق هذا الفرض ، عمد عبد الملك الى استخدام المهندسين الاهليين ، والفنانين المدربين في مدارس يезнطا . واقيم هذا البناء على طراز كاتدرائية بصرى^٩ ؛ اما ابوابه البرونزية المزينة بصفائح فضية مزخرفة ، فهي من اقدم ما بقى لنا من هذا النوع من الزخارف ، وهو الفن الذي اتقنه الفنانون

(١) ابو الفداء ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢) Creswell, p. 14.

(٣) البلاذري ، ص ١٣١ ؛ المقدسي ص ١٥٦ .

(٤) البلاذري ، ص ١٤٦ - ٤٧ .

(٥) ويسميه الاوروبيون خطأً مسجد عمر ، فمن الجائز ان يكون عمر عندما زار القدس سنة ٦٣٨ (اظظر ما سبق في ص ١٤ من هذا الجزء) قد بني معبداً بسيطاً من الخشب او الطوب .

(٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 114.

(٧) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١١ ؛ راجع ما سبق في ص ٥٨ من هذا الجزء .

(٨) المقدسي ، ص ١٥٩ .

Dussaud, *Syrie antique*, p. 10., cf. M. S. Briggs, *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine* (Oxford, 1924), p. 37.

البيزنطيون وقيروا به . ولقد اسرف الفنانون في تزيينه بالفسيفساء والرسوم الكلاشانية ، عند بنائه في الاصل ، او عند ترميمه او تجديده . ويشتمل الطراز الكلاشاني على الرصف بقطع بلاط المربعة او المسدسة الصقلية ، وربما رسمت فيها صور نباتية او اشكال هندسية . وهي تعود الى اصل فارسي بشهادة اسمها^١ . اما صناعة الفسيفساء فمن المستطاع ارجاعها الى العهد البابلي . وقد ترك لنا عبد الملك على دائرة باطن القبة كتابة بالخط الكوفي هي اقدم ما بين ايدينا من الكتابة الاسلامية . وبعد ذلك بنحو قرن وربع القرن ، عمد الخليفة العباسي المؤمن الى ترميم هذا البناء ، ولم يتخرج من ان يزيل عنه اسم عبد الملك ليضع اسمه في مكانه ؛ لكنه ، لحسن الحظ ، غفل عن ان يغيّر التاريخ^٢ .

والى شرق القبة بناء صغير انيق يعرف بقبة السلسلة ؛ وكان يقوم مقام بيت المال لمسجد القبة ويبدو من طرازه وزخارفه انه يعود الى العهد نفسه . ومن اجل



قبة الصخرة وقبة السلسلة

١) كاشان مدينة في ميديا؛ ياقوت؛ البلدان، ج ٤، ص ١٥.

٢) والعبارة هي: بنى هذه القبة عبد الله عبد (الله الامام المؤمن) أمير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين . فليقبلها الله منه ويرضى عنه ! أمين .

صيانة حرمة المكان روى المسلمين حديثاً زعموا به ان الملك سليمان وضع هنالك سلسلة جعلها حاجزاً، يستطيع الصادقون الخلوصون وحدهم ان يروها ويلمسوها، دون ان تتأثر بليسمهم ، اما الكاذبون المراؤون فلا يروها .

المسجد الاقصى

وبالقرب من قبة الصخرة ، اقام عبد الملك مسجداً آخر هو المسجد الاقصى^١ ، عدلت القبة منه بثابة المزار . واسم المسجد الاقصى بالمعنى المتداول يطلق عملياً على الباحة المقدسة برمتها ، البالغة نحواً من ٣٤ فداناً ، بكل ما يقوم عليها من ابنية مقدسة ، نظير التكاليا الصوفية والسبيل العامة التي انشأ بعضها المهاлиك وسلامطين بني عثمان في ما بعد ؛ والحرم الشريف معبد آخر من هذه المباني المقدسة ، وهو يقوم في موقع كان سابقاً لم يسكنه اليهودي ، وكنيسة مسيحية ، ومعبدوثني (روماني) ، بما يجعله من اقدس الاماكن على وجه الارض . ثم ان المسجد الاقصى يقوم على موقع كان سابقاً للكنيسة كوشها يوستينيانوس للقديسة مرريم . وقد استخدمت انقاضها في بنائه . وبعد ان رمم المنصور العباسى هذا المسجد بما لحقه من فعل الزلزال ، اجرى فيه الصليبيون بعض التغييرات ، ثم استردته منهم صلاح الدين سنة ١١٨٧ .

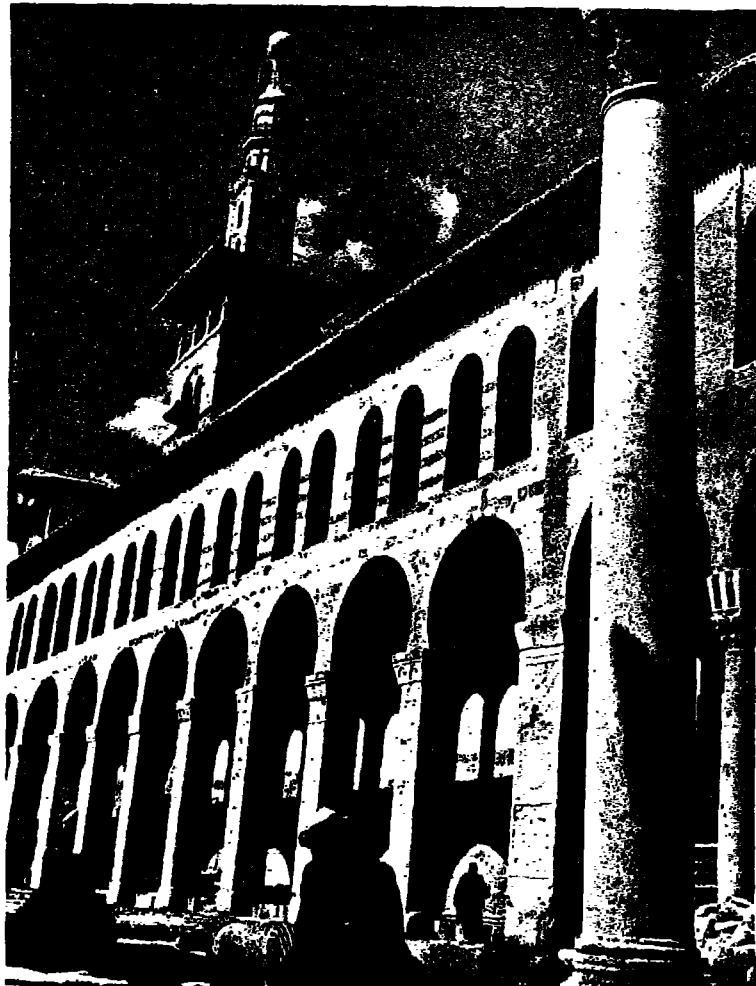
المسجد الاموي

ويمضي ، بعد المسجد الاقصى ، خطورة وتاريخاً ، المسجد الاموي في دمشق . فقد استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ على كاندرائية القديس يوحنا العمداذى . وانتزاعها من ايدي الرعية المسيحية ، وحولها الى هذا المسجد^٢ الذي يُعد من افخم المعابد في العالم . ولا يزال الجامع الاموي الى الان يعتبر ، بعد معابد مكة والمدينة والقدس ، الحرم المقدس الرابع في الاسلام . وكانت كاندرائية القديس يوحنا هذه قد بنيت على انقاض هيكل مكرس لجوبتر الدمشقي – وهو في الاصل الاله

١) الاتهى : الابعد ، من اشارة مزعومة في القرآن (سورة الاسراء ١) ، ومن هذه الآية نثأت حكاية المعراج . اما الفخرى (من ١٧٣) فقد نص على ان بانيه هو الوليد . توقف على وصف اسبق راجع ابن القبيه ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، دون حوالى سنة ٩٠٣ ، والمقنسى ، ص ١٦٩ - ٧١ ، دون حوالى ٩٨٥ .

٢) ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ ابو اللداء ، ج ١ ، ص ٢٠٩ - ١٠ .

السوري حدَّد^١ - بني على طراز هيكل الشمس في ترس . ولقد تذرع المسلمين لتبرير استيلائهم على الكنيسة - وكانوا حتى ذلك الحين قد ساطروا أصحابها النصارى



الجامع الاموي في دمشق

جانبًا من باحتها - برواية تاريخية تزعم انه لدى فتح دمشق ، كان دخول خالد بن الوليد وابي عبيدة^٢ اليها في وقت واحد ، دخلها الواحد من الشرق عنوة ، والآخر

١) رابع الجزء الاول ص ١٨٦ .

٢) رابع ص ٩ من هذا الجزء .

من الغرب سلماً؛ وان الفريقين التقى في وسط الكتبة، دون ان يدري احدهما بالآخر. ولا يزال مدفن رأس يوسف تحت قبة في المسجد متنفسه الصنع غية التذهيب. وهناك اثر نصراوي آخر، هو كتابة يونانية منقوشة على عتبة باب السور الجنوبي مؤداها: «ملكك ايها المسيح ملك كل الدهور، وسلطانك في كل دور فدور»^١.

والمقول ان الوليد واصل العناية بتحقيق هذا المشروع مدة سبع سنوات، ووقف عليه خراج سورية برمته^٢. ولم يقتصر على استخدام اهل الخبرة من ابناء البلاد، بل حشد له صناعاً وفنانين من الفرس والهنود. وارسل الى امبراطور الروم في طلب مئة من الفنانين اليونانيين^٣. ولقد زين سقف المسجد واعالي جدراته بالفسيفساء الملونة والرخام النادر، وبدت فيه رسوم جدارية مذهبة ومرصعة بالحجارة الكريمة، تخل مشاهد من الاشجار والمدن شاهدها العالم الجغرافي السوري المقدس^٤. لكن احد الحكماء المترمذين سترها بطلاء من طين، فبقيت محجوبة، الى ان كشف عنها سنة ١٩٣٨^٥. ولقد تبين، لدى درس هذه الرسوم والزخارف، انها اصدق تمثيلاً للصناعة السورية الاهلية منها للفن اليونياني البيزنطي.

وقيد بني الوليد في الجانب الشمالي من المسجد مئذنة استخدمت ايضاً عبابة منارة^٦، وغدت نموذجاً للمآذن في سورية وشمال افريقيا، ثم نقل طرازها الى الاندلس على يد عبد الرحمن الاول. وهذه المئذنة هي اقدم مئذنة اسلامية خالصة لا تزال قائمة. اما المئذنتان الاخريتان في الطرف الجنوبي، فقد قامتا على برجين قدعين للكتبة^٧. ويدرك لنا الفرزالي (ت ١١١١) انه اعتكف في المئذنة الشمالية،

١) قابل: المزמור ١٤٥ : ١٣ ؛ والرسالة الى العبرانيين الاصحاح ١ : ٨ .

٢) المقسى، ص ١٥٨ ؛ قابل: العيون والحدائق، من ٧ .

٣) ابن عساكر، ج ١، ص ٢٠٢ ؛ وكتاب العيون يحمل عدده مئة ألف ويدرك ان بعضهم استخدموها في مكة والمدينة: قابل الطبرى ج ٢، ص ١١٩٤ ؛ ابو الفداء، ج ١، ص ٢١٠ ؛ ابن جعير، ص ٢٦١ .

٤) ص ١٥٧ ؛ قابل الاصطخري، ص ٥٧ ، ابن رسته، ص ٣٢٦ ؛ العيون، ص ٨ - ٩ .

٥) E. de Lorey and M. van Berchem, *Les Mosaiques de la mosquée des Omayyades à Damas* (paris, 1930); Creswell, pp. 119-20.

٦) دعيت ايضاً «صومعة» (ابن عساكر، ج ١، ص ٢٠٠) ، وقد راج اسم المئذنة في ما بعد .

٧) قابل ياقوت، ج ٢، ص ٥٩٣ .

وأنقطع فيها إلى التأمل والصلوة^١. والطراز المربع المنبسط للماذن متحدّر ولا شك من برج المراقبة أو برج الكنيسة. أما الطراز المستدير المستدق، الذي يذكرنا بالأعمدة الرومانية القديمة، فقد اعتمده الترك^٢، في ما بعد، وحقّقه في بناء المساجد في سوريا، كما يتمثل ذلك في مسجد خالد بن الوليد في حمص.

ويتميز جامع دمشق أيضًا بأنه أول مسجد ظهر فيه المحراب؛ وفيه تظهر كذلك الحنية المشابهة لحنية الفرس. ومع أن البناء قد احترق سنة ١٠٦٩ ثم سنة ١٤٠٠ (على يد تيمورلنك)، وأخيراً سنة ١٨٩٣، فإنه لا يزال، في نظر المسلمين، من عجائب الدنيا السبع وهو العجيبة الرابعة بينها^٣.

والوليد، وهو في طليعة المعنيين بالمباني من الأمويين، هو كذلك صاحب الفضل في ترميم مسجد المدينة، وتوسيع مسجد مكّة وتحييله، وبناء الكثير من المدارس والمستشفيات^٤ والمساجد في سوريا. ويضاف إليه كذلك نقل قبة مخاسية مذهبة من كنيسة في بعلبك إلى مسجد كان والده قد بناه في القدس. ولما كان عهده عهد أمن ويسار، فقد كان حدث الناس في دمشق متى اجتمعوا، يدور بالأكثر على الصروح الفخمة والمباني الأنيقة^٥.

ولقد تحقق، في ما خلفه الأمويون من قصور ومساجد، انسجام الفناصر الفنية العزيزية والفارسية والسورية واليونانية، وتتألف من ذلك جمجمة البادرة الأولى في الفن الإسلامي. فالعنصر العربي قد تتمثل في تكرار وحدات فنية بغير نهاية، بحيث يستطاع الإضافة إليها، أو الحذف منها دون اخلال بالشكل ككل؛ وهذه الأعمدة التي يحفل بها مسجد قرطبة تشهد على ذلك؛ وكذلك الأشكال الهندسية المتلاحقة، فإنها توحي رتابة الصحراء، حيث تبدو صوف جذوع التخييل في واحة ماء أو قوائم الجمال في القوافل الظاعنة، كأنها لا تنتهي عند حد. أما الفن الفارسي، فقد أدى من دقة الرخامة و أناقة الزركشة وروعة الألوان الشيء الكثير. وهكذا فإن الفناصر والأشكال السامية القديمة واليونانية الدخيلة قد اختلفت في سوريا الأموية وتجهّمت نهائياً في خدمة الإسلام.

١) الفزالي، التقدمن الصلال (القاهرة، ١٩٣٦)، ص ٢٧؛ قابل ابن خلگان، ج ٢، ص ٢٤٦.

٢) ابن الفقيه، ص ١٠٦؛ ابن عساكر، ج ١، ص ١٩٨؛ ياقوت، ج ٢، ص ٥٩١.

٣) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء.

٤) الطبرى، ج ٢، ص ١٢٧٢ - ٧٣.

الفصل الخامس والستون الكنيسة المسيحية السريانية

الكنيسة السريانية الشرقية

كانت الكنيسة المسيحية السريانية ، قبل ظهور الاسلام ، قد انقسمت الى طوائف عديدة ، فكانت منها اولاً الكنيسة السريانية الشرقية ، او كنيسة الشرق . فهذه الطائفة التي نشأت في اواخر القرن الثاني تدعى اهنا قد واصلت ، بلا انقطاع ، نشر التعليم الروحي ، ومارسة الطقس الكنسي والنظام الكهنوتي والتقليد الديني ، منذ عهد الملك ابغر (Abgar) الراهوي ؟ وقد ذعموا انه كتب الى السيد المسيح يسألة ان يشفيه من المرض العossal الذي اصابه ، وان المسيح وعده بان يوجه اليه احد تلاميذه بعد صعوده الى السماء^١ . هذه الكنيسة هي التي تسمى خطأ بالكنيسة النسطورية ، منسوبة^٢ الى الراهب الصقلي نسطوريوس^٣ . الذي تأخر عنها تاريخياً نحو من قرنين ونصف القرن . فان الروم الكاثوليك هم الذين سموها ، في عهد متأخر ، بالنسطورية من اجل ان يلصقوا بها وصفة المهرطقة ، ولكي يميزوا بينهما وبين من التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية ، بين قالوا بالطبيعة الواحدة ، واطلق عليهم اسم الكلدانيين . ولقد انتخب اول بطريرك للاطقس الكلداني سنة ١٥٥١ في مدينة الموصل ، وذلك على يد جماعة من الساخطين^٤ .

ان هذه الكنيسة يجمعها بين لاهوت المسيح وناسوته ، واستنكرها لتاليه مريم العذراء ، ونشاطها البالغ في نشر تعاليمها ، وتقانها في نشر رسالتها ، كانت في اوائل الاسلام ، العامل الاقوى في الحضارة السورية التي طبعت الشرق الادنى بطبعها ، من مصر حتى بلاد فارس . فان جماعة من ابناء هذه الطائفة كانوا قد اقبلوا

١) راجع بشأن نسخ هذه المراسلة سعيد بن البطريق ، التاريخ الجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ، ١٩٠٩) ج ٢ (ملحق لسعید بن یحیی الانطاکی) من ٢٦٣ - ٤ .

٢) للارتفاع من اخباره راجع السعماق : Assemani , *Bibliotheca Orientalis*, vol. iii, pt. i (Rome, 1725), pp. 35-7 ; Donald Attwater, *The Christian Churches of the East* (Milwaukee, 1946), vol. i, p. 190.

في القرن الرابع فما بعد، على درس كتب الفلسفة اليونانية، وعملوا على نقلها إلى لسانهم، وبشّها في سوريا والعراق. ثم اخذت هذه الكنيسة في الانتشار شرقاً من الرها حتى تسرّبت إلى فارس. وفي أواخر القرن الخامس عمد أسقف العاصمة الساسانية – مدان كسرى – إلى تنصيب نفسه بطريركًا على الكنيسة الشرقية. لكن المقام البطريركي لم يبلث أن انتقل إلى بغداد عندما أنشئت سنة ٧٦٢. فحظي هناك برعاية الخليفة. وقد كان لهذه الكنيسة سجلًّا من النشاط التبشيري منقطع النظير حتى في ظل الإسلام، والمدافن الأثرية وسواها من الآثار تشهد على وجود كنائس سريانية في مرد وهراء ومرقد، وفي مواضع أخرى في آسيا الوسطى، يعود تاريخها إلى أواسط القرن السادس.

وحوالي هذا الوقت تسللت جنوبًا إلى الهند رسائلات تابعة لهذه «المجموعة البروتستانتية الشرقية»، حيث كانت النصرانية قد توقفت قبل ذلك بقرنين من الزمان. فنشأت على ساحل الهند الغربي كنائس سريانية لاسيا في ملبار وسيلان. ولقد عُرف اتباع الطقس السرياني في الهند بـ«نصاري القديس توما»، تبعًا لأخبار لا يُعول عليها جعلت من توما هذا المعلم الأول للمسيحية في الهند. وقد تعزّزت هذه الطائفة، في القرن التاسع والتاسع، بوفود هاجروا إليها من بغداد وسواها من مدنه الإسلام. وأذ بلغت شهرتها إلى الغرب، سارع الفرد ملك إنكلترا إلى فتح سفارته له في ذلك الصيف الثاني.

على أن العمل التبشيري الباهر هو الذي تحقق في الشرق الأقصى. في ما بين القرن السابع والتاسع، ثم في غضون الثاني عشر والرابع عشر، تسلل جماعة من الرهبان السريانيين إلى داخل الصين، فوصلت الفئة الأولى منهم إلى سيان في سنة ٦٣٥، في الوقت الذي كانت جيوش المسلمين تكتسح بلاد فارس. ولقد نصبت لوحات تذكارية لستة وسبعين من هؤلاء المرسلين، نقشت عليهما اسماؤهم وما تفهم باللغتين الصينية والسريانية، وذلك «في السابع من الشهر الأول من عام ٧٨١

١) ذلك بالمقارنة مع تعلم الأرمن ذكره الذي يعتبر المسيح ذا طبيعتين صيغ منها شخص واحد؛ قابل بما سبق، ص ٤١١ - ٤١٢.

لليلاً» . وهذه اللوحة لا تزال قائمة في تلك المدينة إلى اليوم^١ . وهنالك دير نسطوري في موضع لا يبعد كثيراً عن هذا المكان هو الآن معبد «تاوي» . وبعد أن استمرت هذه الكنيسة السريانية في الصين ما يزيد على السبعة قرون (٦٣٥ - ١٣٦٧) ، انفصلت عن الكنيسة الام التي كان الاسلام قد اضعفها ، حتى لم تعد تقوى على امداد فروعها ؛ وعندئذ عثنتها الاديان المحلية والفرق «التاوية» والطوانف الاسلامية ، لكنها بقيت ، مع ذلك ، في تاريخ الصين بمثابة «الدين المنير» . اما اثرها الثقافي فظاهر في الحروف السريانية التي كانت اللغة المغولية والمشوشة تكتب بها^٢ ؟ وكذلك في صناعة تجلييد الكتب وزخرفتها في تركستان اذ هي منتشرة الى صناعة اقباط مصر بصلة متينة ، والمظنون انها انتقلت اليهم عن طريق هؤلاء المسيحيين السريان^٣ .

وكان يقيم في منطقة ارمية والموصل وكردستان الوسطى ، عند ابتداء الحرب العالمية الاولى ١٩٠٠،٠٠٠ من اتباع الكنيسة السريانية الشرفة^٤ ؟ اما من يتقى منهم فقد تسلل ، منذ ذلك الوقت ، الى العراق وسوريا . على انة الاسم الجديد الذي اطلقه عليهم المرسلون الانكليزكان ، وقبله منهم بعض زعمائهم ، لا يبدو نائباً متى قورنت سمعته الكثرين منهم بالشكل الاشوري كما هو منقوش على الانصاب التاريخية .

اما الفرع الغربي للكنيسة السريانية ، الذي علم بالطبيعة الالمية الواحدة للمسيح^٥ ، ورفع العذراء الى مراتب القديسين ، فلم يكن ذا نشاط تبشيري يذكر . فقد كانت فلسنته اللاهوتية التي تعلم بالطبيعة الواحدة تغلب وحدة المسيح الالمية على الجانب الانساني فيه . ولقد عرف القائلون بالطبيعة الواحدة في سوريا باليعاقبة ، دعام

P. Y. Saeki, *The Nestorian Documents and Relics in China* (Tokyo, 1937), (١) pp. 35, 68.

Saeki, pp. 65, l. 15, 457, l. 7; cf. 449, l. 10. (٢)

(٣) راجع الجزء الاول ، ص ٤١٢ .

Mehmet Aga-Oglu, *Persian Bookbindings of the Fifteenth Century* (Ann Arbor, 1935), p. I. For more on the Nestorians consult Assemani, vol. iii, pt. 2.

A. Yuhanan, *The Death of a Nation* (New York, 1916) pp. 8-9. (٤)

(٥) قابل الجزء الاول ، ص ٤١٢ .

بذلك خصومهم اليونان اذ كانوا اتباع يعقوب البرادعي اسقف الرها في اواسط القرن السادس^١. وكان الفسانيون وسواهم من العرب السوريين قد اعتقدوا بهذا



الكتابية السريانية والصينية النقوشة
في آدف النصب
التاريخ ٧٨١ لليلاد

المذهب قبل ظهور الاسلام^٢، فكانت الكنيسة المعروفة باليعقوبية هي الغالبة في سوريا، بينما كانت المدعوة خطأً بالنسطورية اوسع انتشاراً في فارس . اما لغة الكنيستين فقد كانت ولا تزال السريانية^٣، على ان اللغة اليونانية كانت تدرس في الاديارات ايضاً . وقد ساهم اليعاقبة في الجهد الذي بذله النساطرة في نقل الفن

١) راجع ما ورد سابقاً في ص ٤١١ - ٤١٢ . والمعنى يكرس القسم الاكبر من كتابه *Bibliotheca Orientalis* ، المجلد الثاني ، لدراسة اليعاقبة والقائلين بالطبيعة الواحدة .

٢) راجع الجزء الاول من ٤٤٩ .

٣) بعد ان تصر الاراميون غلوا يفضلون تسمية اللغة بالسريانية على تسميتها بالارامية .

اليوناني الى سوريا ثم الى دنيا الاسلام . وكانت قنسرین في شمالي سوريا مرکزاً هاماً لاذاعة تعليم الطبيعة الواحدة وترجمة علوم اليونان . وكان علماء اليعاقبة اقطاب النشاط العلمي وأعلام حركة التقليل العلمي في ذلك العهد .

ولقد بقي من اتباع هذه الكنيسة الجليلة حتى اوائل القرن الثاني عشر نحو من مئتي الف نفس ، وذلك في جوار ماردين وديار بكر وأرمينيا^١ . ومنذ ذلك الحين عصف بهم الاضطهاد والتشريد فلجأ من بقي منهم الى سوريا ولبنان . أما مقامهم البطريركي فهو اليوم في حمص ، وهو يأبون اسم اليعاقبة ، ويؤثرون ان يدعوا باسم السريان الارثوذكس او السريان القدماء . أما من اعتنق منهم مؤخراً طقس الروم الكاثوليك فقد تألفت منهم كنيسة السريان الكاثوليك التي قام مرکزها البطريركي في لبنان . وهذا الفرع من الكنيسة الغربية يقابله فرع الكلدانين من الكنيسة الشرقية .

وقد تحدى من تعليم الطبيعة الواحدة ، فضلاً عن الكنيسة اليعقوبية السورية ، كنيستان مستقلتان : هما الكنيسة الارمنية والكنيسة القبطية الجبائية . وكانت تفوق كنيسة السوريين على كنائس ارمينيا ومصر والجبلية مأثرة بارزة أخرى من مأثر المجتمع والفكر السوري . وجدير بالذكر ان الكنيستين السريانيتين الشقيقتين : الشرقية والغربية ، مع كل ما كان لها من رغبة في علوم اليونان ، اثما نشأتا وتوسعتا بعامل الردة التي اثارت المجتمع السوري ضد المخالفات التي قامت بها بيزنطة وروما الصيفها بالصيحة اليونانية . ولما كانت هاتان العاصمتان المسيحيتان قد عمدتا الى اعتبار التعليم اليعقوبي والتعليم النسطوري ضرباً من المفرطة ، فقد كان قيامهما في الاصل احتجاجاً على التدخل الخارجي في شؤونهما الاهلية ، وتنكراً لعملية التوفيق التي استهدفت تحويل المسيحية ، وهي دين سوري ، الى منظمة يونانية رومانية . واذ اجتاح الاسلام هذه الاصقاع عصف بها حتى لم يبق منها الى اليوم الا صور متجردة لمجتمع سرياني منقرض^٢ .

Yuhanan, p. 9. (١)

Toynbee, vol. v, p. 127. (٢)

الموارنة

وفرع آخر من فروع الكنيسة السورية القديمة هو فرع الموارنة ، الذي يعود اصله الى عميده القديس مارون (مارو^١) . ومارون هذا ناسك راهب متبع بد متقدس لا يعرف عن حياته شيء كثير ؛ عاش بين انطاكيه وقورس (قورس) وفي قورس توفي سنة ٤١٥ ؛ وهو في ما يظن ، «مارون الراهب الناسك» الذي وجه اليه يوحنا كريستوس وهو في طريقه الى منفاه ، رسالة يرجوه فيها ان يصلى من اجله ويواجهه باخباره^٢ . وفي الاخبار ان القديس مارون هذا ، بعد ان توفي ، عمد تلاميذه الى جثمانه فنقلوه الى مكان قرب اقامته على نهر العاصي ، دفن فيه ثم اقيم فوقه دير على اسمه تخليداً لذكره . وفي سنة ٥١٧ نشبت بين هؤلاء الموارنة واليعاقبة فتنة ذهبت بحياة ثلاثة وخسین راهباً مارونياً من رهبان هذا الدير ، لا تزال الكنيسة المارونية الى اليوم تختلف بذلك جهادهم . واذ كان لسائرهم ان الاقامة في لبنان او فر امناً ، بلأوا اليه وتبتوها اقدامهم في ربوعه الشهابية . وهناك امتدوا بالمردة الذين كانوا قد تسللوا الى هذه المنطقة من الشمال^٣ .

ولئن كان مارون هذا هو قديس هذه الطائفة وعلمهها الاول ، فإن يوحنا مارون (ت حوالي ٧٠٧) هو بطل الامة الجديدة التي نشأت وتزعمت على خلاف قاديشا ومؤسس كيانها القومي . وغالبظن ان يوحنا مارون هو الذي اعطى هذه الطائفة اسمها ؛ فقد ولد في سروم قرب انطاكيه ، ودرس السريانية واليونانية في مدينة انطاكيه قبل ان التحق بالدير الذي اقيم على ضفة العاصي . ثم استأنف تحصيله في القسطنطينية ، ورسم من ثم استقلاً على ال碧رون في لبنان . وكان كرسيه اولاً في سمار جبيل ، ثم تحول الى كفرحي ، وهناك بنى ديراً دُقِن فيه ، وتقوم اليوم في هذا المكان مدرسة تحمل اسم هذا الزعيم الكبير . ولقد نجت الطائفة المارونية برعايته الى ان غدت امة مستقلة ، استطاعت ان تقصي عنها باليد الواحدة خليفة المسلمين^٤ ،

١) لقطة من اصل سرياني معناها السيد الصغير .

٢) راجع الترجمة العربية في كتاب اسطفان الاروجي ، تاريخ الطائفة المارونية ، (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٩ - ٢٠ .

٣) راجع ص ٥٢ و ٥٣ من هذا الجزء .

٤) راجع ص ٥٣ من هذا الجزء .

وبالآخرى امبراطور البيزنطيين . وقد حاول يستنيانوس الثاني سنة ٦٩٤ ان يخضع الموارنة ، فارسل اليهم جيشاً هدم ديرهم القائم على العاصى ، لكن يوحنا مارون تمكن من القضاء عليه في اميون^١ . ومنذ ذلك الوقت تشبت الموارنة بالعزلة ، وانشأوا ضرباً من الفردية التي طلما تغنى بها ابناء الجبال . وكانت قنوبين^٢ ، الفائمة في الجبال الصخرية الوعرة مرکزاً للبطريرك الماروني الى حين ، ثم تحول عنها الى بكرى في جوار مدينة بيروت .

وكان زعماء الموارنة في اواسط القرن السابع على صلة طيبة بالامبراطور هرقل ، فكان ذلك داعياً لأن تنساب الطائفة برمتها الى تبني تعليمه في الطبيعة الواحدة^٣ . وكان سعيد بن البطريرق اول من قطع بذلك^٤ ، وكان الم سعودي^٥ ، معاصره المسلم ، يرى هذا الرأى ايضاً . وجاء بعد سعيد بن البطريرق وليم الصوري^٦ ، مؤرخ الملوك الصليبية ، فأشار الى ان «المروقة التي ارتكتها مارو واتباعه ، لا يزالون عليها ، اثنا هي : ان السيد المسيح ما زال ، كما كان منذ البدء ، ذا مشيئة واحدة وطبيعة واحدة» . وقد قدر هذا المؤرخ عددهم باربعين ألفاً ، ثم استأنف قائلاً انهم في سنة ١١٨٠ نبذوا هرطقتهم ، وعادوا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ؛ على ان المدافعين عن هذه القضية من الموارنة ، ابتداء من الدزيهي^٧ (ت ١٢٠٤) وابن غرون^٨ (ت ١٢١١) ، قد ادعوا لكتسيتهم الاستمرار في الامانة للكنيسة الجامدة

١) للاستزاده من اخباره راجع : Assemani, vol. i, pp. 496-520.

٢) لفظة سريانية من اصل يوناني معناها الدير ؛ وهو من الاسماء الجغرافية اليونانية القليلة الباقيه في لبنان .

٣) راجع ص ١٢ من هذا الجزء .

٤) ابن البطريرق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

٥) التتبیه ، ص ١٥٣ - ٥٤ .

History, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey, vol. ii, p. 459. (٦)

٧) ص ٢٩٢ وما يلي .

Fausto (Murhij) Naironi, *Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitarum* (Rome, 1679). (٨)

عبر العصور^١. أما ما يدعوه بعض المؤلفين من الموارنة في العصر الحاضر^٢ من انه قد كان هنالك كاهن آخر من القائلين بالطبيعة الواحدة في الرها، مات حوالي سنة ٥٨٠، اختلط اتباعه على اوائل المؤرخين بموارنة لبنان، فيبدو انه امر جدير بالاعتبار. وليس من شك في ان الموارنة في العصر الصليبي كانوا موضع اهتمام روما، على ان الاتحاد المذكور لم يتحقق حتى القرن الثامن عشر. فكتاباتهم التي يسوغ اعتبارها ككنيسة لبنان القومية قد حافظت، حتى يومنا هذا، على طقشها السرياني، وعلى ابادة الزواج للكاهن. وقد امتنعت روما عن ان تطوي ايّاً من مؤسساتها التاريخيين الشهيرين وتجعله في عداد القديسين. امام عدد الموارنة في لبنان، فهو بحسب احصاء سنة ١٩٥٢، ٣٧٧،٥٤٤ نفساً، فهم اكبر طائفة دينية في هذه الجمهورية. ولقد حمل المهاجرون المتأخرن من الموارنة طقشم الديني الى ايطاليا وفرنسا واوستراليا واميركا الشمالية والجنوبية، والى اخاء اخرى من العالم المتقدم.

الملكانيون

ان الكنيسة السريانية بفرعيها الشرقي والغربي، وما ينحدر منها من طوائف، لم تكن جامعة لجميع النصارى السوريين. بل ان جماعة صغيرة منهم انساقت بتأثير الاهوت اليوناني المنتسب من انطاكيّة والقدسية، ووافقت على مقررات مجمع خلقدوني الكنسي (٤٥١). وبذلك استطاعت هذه الطائفة ان تخرب وضعاً قانونياً، تقاضت به الحرم الكنسي، وحظيت فوق ذلك بحماية كنيسة الدولة، ورعاية المدينة القيصرية. وكان من خصومها ان تقبوا اتباعها، بعد ذلك بعده قرون، بالملكانيين^٣ على سبيل التأنيب. وكان سواد الكهنة الملكانيين يختارون في الفالب من بين سكان المدن، ومن ابناء اليونانيين الذين استوطنو المستعمرات. ثم اخذت اللغة اليونانية تحل تباعاً محل السريانية في شعائرهم ومراسيم الصلاة، والطقس البيزنطي

(١) نذكر من المدافعين المتأخرین افرام اليراني مؤلف : «المحاماة عن الموارنة وقدسيهم» (بيروت، ١٨٩٩)؛ يوسف الدبس صاحب : «تاريخ سوريا»، ج ٥ (بيروت، ١٩٠٠)، ص ١٥٦ وما بعد؛ وبيير ديب. Pierre Dib, *L'Eglise maronite*, vol. i (Paris, 1930). pp. 62-143.

Bernard G. Al-Ghaziri, *Rome et l'Eglise syrienne-maronite*, (Paris, 1906), (٢) pp. 31-3, 44-5.

(٣) من لفظة سريالية «ملكا»، معناها الملك.

يقوم مقام الطقس السرياني ، وهوذا مئات المخطوطات في المكتبات الاوروبية والشرقية ، تشير الى ان انتشار اليونانية لم يتحقق كاملاً حتى مطلع القرن السابع عشر^١. ومع ان الطائفة الملكانية كانت تتمتع بتأييد السلطة الحاكمة ، فقد بقيت ضعيفة نسبياً فلم تتعذر في انتشارها شمالي سوريا وفلسطين ومصر . ولقد احتفظت الاجيال التي خلفتهم من السوريين بمقام بطريركي في دمشق ، وآخر في القدس ؟ وهم يعرفون اليوم باسم الروم الارثوذكس^٢.

وهما يدعى الى الغرابة ان اسم «الملكانيين» اخذ يطلق في العهد الحاضر - على سبيل الحصر - على الجماعة التي انشقت عن الكنيسة الارثوذكسيّة والتحقت برئاسة روما؛ لكن هؤلاء يدعون ، مع ذلك ، ان صلتهم بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية كانت منذ القديم واستمرت بلا انقطاع . اما عددهم اليوم فيبلغ نحو نصف عدد الطائفة الارثوذكسيّة الذين يبلغون ٢٣٠،٠٠٠ . ولم يقم بطريركي في مصر وآخر في لبنان . اما سادات الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس فيقيسون في سوريا لا في لبنان .

التفاعل مع الاسلام

ويغلب على الظن ان الاسلام ، في اول امره ، لم يجدُ غريباً كل الغربة لدى النصارى السريان ، ولا دخیلاً عليهم ؛ بل لعله ، بالنسبة اليهم - كان اقرب الى طائفة يهودية - مسيحية جديدة منه الى دين جديد . لذلك كانت خصومة الاسلام للمسيحية بوجه العموم من قبيل المنافسة اكثر منها من قبيل التعارض في المبادئ . ولقد كتب احد بطاركة الكنيسة الشرقية^٣ ، على اثر الفتح العربي ، يصف الحكم الفاتحين بهذه العبارات القياضية المشرقة يقول : «ان العرب اولهم الله السلطة على العالم في هذا الهدى هم ، كما تعلمون ، يقيمون فيها بيننا ، ولا يتخدون من النصرانية موقف عداء ، بل هم على عكس ذلك : يتدحرون ديننا ويجلدون الكهنة والقديسين ، ويجدون بالتقديرات الكنائس والمناسك » . ولقد غالى بعض

١) اسحق ارمءه ، الملکيون : بطريركيتهم الانطاكيّة (بيروت ، ١٩٣٦) ، ص ١٠٢ ، ١٠٤ - ١١٥ حبيب زيات في مجلة الشرق ج ٣٧ (١٩٣٩) ، ص ١٧٤ .
٢) راجع جدول اسماء بطاركة في كتاب ارمءه ، ص ٢٦ وما بعد .

٣) Iso'yahb iii. «Liber epistularum» , in *Scriptores Syri* , ser. II , vol. lxiv , ed. Rubens Duval (Paris , 1904-5), text p. 251 , II , 13-19 , cf. p. 252 , II , 8-12 , tr. p. 182.

المستشرقين^١ في هذا الاعتبار، حتى انهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريثاً للنصرانية السريانية. فقد اعتبر يوحنا الدمشقي مهماً هرطقياً، لا مؤسساً لدين جديد، وخلط بين الاسلام والاربوزية التي نبذت الوهية المسيح^٢. وقد كان يقول لخصوصه المسلمين: «عندما تدعونا مشركين ندعوكم مشوّهين»، ثم يتساءل قائلاً: لماذا يلام النصارى على سجودهم امام الصليب؟ في حين يفعل المسلمون مثل ذلك امام الحجر الاسود؟ وكان بما ساعد على التادي في هذا الاعتداد ان الكاتب اغا هو كاهن يدوسن بلغة غريبة. ولقد بدا لعمرو بن عبد العزيز، فيما يظهر، انه يستطيع ان يحمل ليو الايصوري على اعتناق الاسلام بسهولة، وذلك بان يرسل اليه رسالة يدعوه فيها الى الاسلام؛ لكن الامبراطور اجاب عنها بكتاب حاول فيه ان ينقض مشتملاتها^٣.

ولقد كانت عقيدة التوحيد يوم الحساب من اروج المواجه في الادب القرآني، وفي الانجيل المرفوضة والرسائل الصوفية على السواء^٤. وهذا القديس افرام (ت حوالي ٣٧٣) الذي يعتبر اعظم معلم الجبطة الكنيسة السريانية بفرعيها يصف جنة النعيم بما يلي وصفاً محسوساً:

«لقد شاهدت مقامات الابرار، ورأيت الابراو انفسهم، واذا الطيوب تقطر منهم، والروائح العطرية تفوح من اعطافهم، وطاقات الزهور تتكلل رؤوسهم، وانواع الفاكهة تزين قاماتهم... . وعندما يتذكر الابرار الى المائدة تجود عليهم الاشجار باظلالها في الماءطلق؛ وتتفتح الزهور من تحتمهم وتتنفس الفواكه فوقهم... . الرياح تقف بين ايديهم مستعدة لاداء ما يطلبون، تهب احدهما بالطمأنينة، وترفع الاخر بالشراب فيجري رفراقاً؛ يحفل بعضها بالزيت، وبعضها الآخر يحمل الطيوب... . كل من امتنع عن الخمر في الدنيا تتوق اليه الخمر في

E. g. Carl. H. Becker, *Islamstudien*, vol. i (Leipzig, 1924), pp. 16-18, (١)
386 seq.

وانظر الجزء الاول من ٤١١ Migne, *Patrologia Graeca*, vol. xciv, cols. 763-74. (٢)

Theophanes, *Chronographia*; p. 399; Maḥbūb (Agapius of Manbij), «Kitāb al-'Uwān», كتاب العنوان, in *Patrologia Orientalis*, vol. viii (Paris, 1912), p. 503. (٣)

William Wright, *Apocryphal Acts of the Apostles*, 2 vols., (London, 1871). (٤) راجع :

في الفردوس ، وتنتمي إليه كل نبتة من الكرمة بعنقود من العنب . وكل من عاش
عفياً تستقبله الحوريات بصدر عنقية طاهرة^١ .

ثم ان التفرقة بين الفروض والتوصاف واضحة في الديانتين وتقوم بينهما مشابهات
كثيرة في ممارسة الشعائر ومزاولة طقوس العبادة . فقد اقرت الكنيسة السريانية
ثلاث صلوات قانونية في النهار ، واثنتين في الليل ، قبل ان نظم الاسلام الصلوتان
الخمس بوقت طويل . والصلوات الليلية التي ورد وصفها في القرآن (المزمل :
١-٨، ٢٠) تعيد الى الذاكرة رياضة الرهبان الروحية وتوفرم على العبادة . ولقد
كان النساء يتخذون في اثناء الصلاة او ضاغطاً جسدية معينة تشتمل على السجدة
ولبس الارض بالجلبين . وكان المصلي ، اذا ما كرر السجدة متضرعاً ، وصم الارض
بجيئه سقط شعر رأسه على الارض^٢ . وفي شعر جاهلي توصف ننساك ، تمحور
جيئه من لبس الارض ، حتى غدا فيه ما يشبه ركبة العزة^٣ .

ولقد كان من الطبيعي ان ينقل بعض النصارى ، لدى اعتنائهم للإسلام ،
شيئاً من افكارهم وشعائرهم ، وان تقتبس بعض الفرق والبدع شيئاً من ذلك وتحتفظ
به . ثم اخذت شفاعة الخلاف تضيق عندما اقيمت رواة الحديث الاولون احداناً
ووقدت بمؤسسها المسيحية نسبوها الى مؤسس الاسلام . فقد ذكر عن محمد انه امتدح
«من يعطي الصدقة سراً بحيث لا تعلم شمائله ما صنعته عليه»^٤ ، وجهر بن الله قد
قال «قد اعددت لاهل التقوى من عبادي ما لم تره عين» ، ولم تسمع به اذن ، ولا
خطر على قلب^٥ . بل ان ما يقرب من الصلاة الربانية نفسها قد روی ان محمدآ
نلاه^٦ . وفضلاً عن ذلك كله فقد وجد الزهد المسيحي طريقاً آخر الى قلب الاسلام
هو النظام الصوفي المتأخر .

Sancti Ephraem Syri, *Opera omnia* (Rome, 1743), p. 563 ; cf. Tor Andrae, (١)
tr. Theophil Menzil, *Mohammad : the Man and his Faith* (New York, 1936) ;
القرآن : الفاشية ٤ - ١٦ - ٧٨ - ٧٧ .

John of Ephesus in *Patrologia Orientalis*, vol. xvii, p. 40. (٢)

(٣) لويس شيخو ، الصرانة وآدابها (بيروت ، ١٩١٩) ، ص ١٧٨ .

(٤) قابل : انجل مق ٦ : ٣ - ٤ .

(٥) قابل الرسالة الى اهل كورنثيا ٢ : ٩ .

Hitti, *History of the Arabs*, p. 396. (٦)

اللغاظ المستعارة

ان الناطقين بالسريانية من النصارى يستطيعون فوراً ان يتبنوا الكثير من الالفاظ الاساسية السريانية بين المفردات الاسلامية . فالالفاظ العربية نظير : فرقان ، (الانفال : ٢٩) ، آية (البقرة : ٣٧) ؛ آل عمران : ٩) ، كاهن (الطور : ٢٩ ؛ الحاقة : ٤٢) ، سجود (البقرة : ١٩ ؛ القلم : ٤٢ ، ٤٣) ، سفر (الجعة : ٥) ، قيسين^١ (المائدة : ٨٥) صلاح (البقرة : ٢ ، ٤٠ ؛ النور : ٥٧) ، زكاة (البقرة : ٤٠ ، ٧٧ ، ١٠٤) ، وكثير سوهاها ، اغا هي الفاظ مستعارة من السريانية او الارامية^٢ ، وهناك تعبيرات كنسية ومصطلحات اكليريكية عديدة عربت عن السريانية كما يستدل من الالفاظ التالية : اشين ، برشان ، تلميد ، شناس ، عماد ، كنيسة ، كاروز ، ناقوس . اما الالفاظ المستعارة من اليونانية فلم تكن كثيرة ، نذكر منها : طقس ، قندلقت ، انجيل ، اسف ، شدياق ، ابروشية ، زنار^٣ . وهناك الفاظ يونانية اخرى تسررت الى العربية عن طريق السريانية ، منها : خوري بطريرك ، اسکيم ، هرطوفي .

فاطمة الكتبانية

ولقد ادت السريانية مأثرة هامة اخرى الى العربية هي ضبط الكتابة . على ان الحروف العربية نفسها قد اخذت ، كما اسلفنا² ، من النبطية ، وهي شقيقة السريانية .
اما الخلط العربي فقد كان في اول امره غفلامن النقط التي تيّز الآن بين الحروف اذا كانت ترسم بشكل واحد . وقد كان خالياً من الحركات كذلك ، فكانت جميع

١) هذه الكلمة والكلمات السابقة وردت في القرآن بصيغة الجم فحسب .

٢) للاطلاع على الناظر اخرى راجع : Arthur Jeffrey, *The Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Baroda, 1938).

^٣ للاستزادة من ذلك راجع : Georg Graf in *Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete*, vol. vii (1929), pp. 225 seq.; vol. ix (1939), pp. 234 seq.; انظر ما سأق في آخر الفصل .

٤) راجم الجزء الاول ص ١٨٣، ٤٢٧.

حروفه من الصوامت . على انه في خلال القرن الاول للهجرة ، ادخل على الخط نظام من النقط والحركات لعلها من اصل نبطي ، استخدمت على نحو معين . فالنقطة الواحدة فوق الحرف رممت الى الفتحة ، والنقطة تحت الحرف اشارت الى الكسرة^١ ، وهذا عاماً ما كان السريان الشرقيون قد اصطلحوا عليه لوقت طويل . وحوالي او اخر هذا القرن ، وتبعاً للنحو السريانية ايضاً ، جعلت بدلاً من النقط خطوط قصيرة فوق الحرف وتحته ، نشأت منها الفتحة والكسرة كما تستخدمان اليوم . هذه هي الاصلاحات التي نسبتها الاخبار الى الحجاج^٢ . وهذا الجهاز السرياني من النقط الصوتية هو ايضاً اساس النظام العبراني الذي اعتمدته علماء اليهود في ضبط نص التوراة بعد سنة ٧٥٠ للميلاد^٣ .

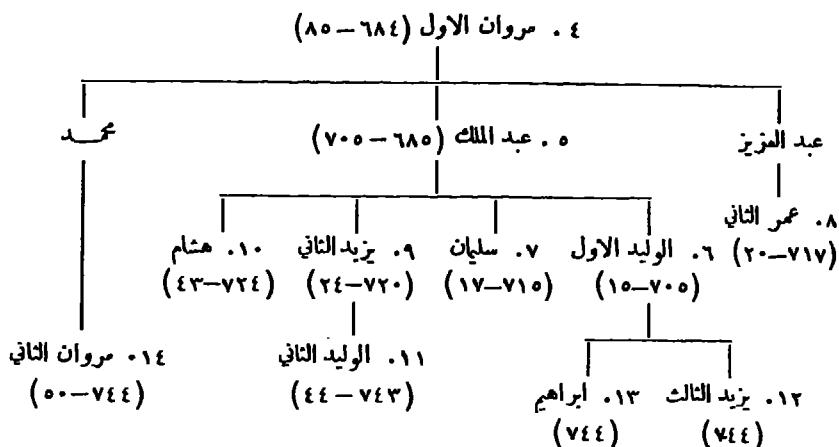
١) اما الفتحة فواضح انها اخذت من الاو .

٢) راجع من ٨٦ من هذا الجزء .

Frank R. Blake in *Journal, American Oriental Society*, vol. ix (1940), (٣) pp. 391-413.

الفصل الرابعون

سقوط الدولة الاموية



شكل شعري يوضح صلة النسب ما بين الخلفاء الروابين في الدولة الاموية

بلغت السلطة الاموية اوج عزها في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ١٥) ،
وهنالك اثنان من الخلفاء لا غير يجدر ذكرهما من بعده : هما عمر بن عبد العزيز
و和尚 بن عبد الملك .

خلية متعدد

كان عمر (٧١٧ - ٢٠) الخليفة المتعدد الوحيد في عهد استهله بطابعه الدنيوي ؛
وكان هدف الاسى ان يتاثر خطى جده لامة ، ثاني الخلفاء الراشدين ، الذي قدر له
ان يحمل اسمه . وقد عني مدون ترجمته عنابة خاصة بوصف تقاه و زهره وبساطته ،
واكتم على انه كان يرتدي الثياب المرقعة ، ويختلط برعاياه اختلاطاً كان يعسر
معه ، على من قصده لرفع ظلامته اليه ، ان يميزه من بينهم^١ . وقد شعر علماء الدين

^١) ابن الجوزي ، من ١٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٥ وما بعده .

في عهده ان الدهر قد غدا مواتياً لهم، وجاءته من ثم شهرة الورع والتقوى الذين عرف بها في التاريخ . فعمر هو الذي ابطل ما كان معاویة قد شرعه من شتم علي من المأمور في صلاة الجمعة^١ . وقد ادخل ، الى ذلك ، اصلاحات مالية لم تثبت طويلاً لكتها ، مع ذلك ، ساعدت على انتهاج سبيل المساواة في معاملة العرب وغير العرب من المسلمين ، وسبحت اخيراً على الاختلاط بين ابناء الفاتحين الحاكمين وابناء المواطنين المحكومين^٢ .

آخر اموي مقتدر

ان المؤرخين العرب يعتبرون هشاماً (٧٢٤ - ٤٣) بحق آخر السياسيين في البيت الاموي^٣ . ذلك لأن الخلفاء الاربعة الذين تولوا الحكم بعده كانوا عاجزين ، ان لم نقل فاسدين ومنحطين . فقد قال هشام عندما ترقى ابنه معاویة — جد الاسرة الاموية في الاندلس — وهو في رحلة صيد « تاله لقد اجمعنا ان ارشحه للخلافة وينتسب نعلباً^٤ » ! وكان واليه على العراق قد احتفظ لنفسه بـ ١٣ مليون درهم ، بعد ان يذر من دخل الدولة نحواً من ثلاثة اضعاف هذا المبلغ ، فاعتقله واضطرب الى ارجاع المال^٥ . وهذا الحدث كان واحداً من احداث كثيرة تشهد ببعدهما على انتشار الفساد في الوضع السياسي . وكان نظام الحصيان الذي ورثه العرب من البيزنطيين والفرس قد اخذ في الانتشار مسهلاً بذلك نشوء نظام الاحرام . وجرى في اثر التزوات الطائلة تضخم في عدد العبيد ، فادى كل الامرين الى الانهيار في البذخ والايغال في الترف . ولم يكن الانحطاط الخلقي قاصراً على الطبقة العليا ، بل ان آفات المدينة ، وفيها المهر والنساء والفناء ، كانت — فيما يظهر — قد استولت على ابناء الباادية ، فاختدت الآن في استنزاف حيوتهم .

١) الفخرى ، ص ١٧٦ .

٢) راجع من ٨٤ - ٨٥ من هذا الجزء .

٣) المسودي ، ج ٥ ، ص ٤٧٩ ؛ قابل : اليقوني ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن قتيبة ، المعرف ص ١٨٥ .

٤) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٧٣٨ - ٣٩ .

٥) الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٦٤٢ ؛ اليقوني ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

اربعة خلفاء عاجزين

وكان الوليد الثاني، الذي تولى بعد هشام، رجلاً قويّاً البنية جيل الطلعة؟ لكنه كان أجدر بالموسيقى والشعر منه بشؤون الحكم^١. ولقد اقطع فترة من حياته اللاهية في الباذية ليتّنصب خليفة في العاصمة، ثم عاد إلى ما كان عليه من هو ودعاية. ولا تزال خرائب قصوره إلى اليوم توثّي حواشى الباذية السورية^٢. إنما كان بين الأخطاء التي ارتكبها ما هو أشد وادهى؟ من ذلك أنه أوصى بالخلافة من بعده لولدين له من أحدى جواريه، وأنه استبعد جماعة اليمنية (عرب الجنوب) وهم سواد العرب المقيمين في سوريا. وكان قد نشب^٣، قبل ذلك، نضال شديد بين مبدأ انتقال الخلافة بالوراثة الذي ابتدأه معاوية^٤، وبين العرف القبلي الراسخ الذي يجعل الولاية للأكبر سنّاً، فقد الأسر أشد تعقيداً عندما أوصى مؤسس الفرع المرواني بالخلافة من بعده إلى اثنين من ابنائه على التوالي: هما عبد الملك وبعد العزيز^٥. ولا شبهة في أن عدم وجود مبدأ مقبول واضح ينظم انتقال الخلافة لم يكن بما يدعو إلى الاستقرار والاستمرار. أما اليمنية فهم من قام العرش السوري على عواتقهم^٦، وكان عداؤهم للقبسيّة (عرب الشمال) مستحکماً راسخ الأصول، واستمر كذلك حتى الفهود الأخيرة^٧. فقد ترعم يزيد، ابن عم الوليد، مؤامرة أوعز فيها بعض الناقمين من اليمنية فتعقبوا الخليفة حتى ادركوه وقتلوه جنوباً من نهر^٨.

تَيَّزَ عَهْدَ يَزِيدَ الثَّالِثِ (٧٤٤) — وَهُوَ اُولُو الْخِلْفَةِ أَمَّهُ أَمَّهُ^٩ — بِكَثْرَةِ الاضطراباتِ فِي الامْسَاكِ. وَقَدْ اضْطَرَّ إِخْرَوْهُ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي وَلِيَ الْخِلْفَةَ مِنْ بَعْدِهِ مَدْهَ شَهْرَيْنَ فَقْطًا، أَنْ يَتَنَازَلْ عَنْهَا لِتَسْبِيبِ بَعِيدٍ، هُوَ مَتَّهِمًا إِبْنَ جَارِيَةَ مَلُوكَةً^{١٠}، وَهُوَ مَرْوَانُ الثَّانِيِّ (٧٤٤ — ٥٠).

(١) الأغاني، ج ٤، ص ١٠١ وما بعده.

(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء.

(٣) راجع ص ٤١ من هذا الجزء.

(٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٥) راجع ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٦) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٠؛ الفتحري ص ١٨٢.

(٧) الطبرى، ج ٢، ص ١٨٧٤، المسعودى، ج ٦، ص ٣١ - ٣٢.

(٨) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٣، المسعودى، ج ٦، ص ٤٧.

وعندما تولى مروان الخلافة كانت الفوضى تسري في سائر أنحاء الدولة . وقد ظهر مطالب بالخلافة من آل امية في سورية ، وظهر آخر من الخارج قام بحركة عصيان في العراق ، وعند جماعة من الزعماء في خراسان الى الانفصال عن الخليفة ، بحيث اضطر مروان الى نقل حكمته الى حران ، حيث يستطيع ان يعتمد على مساندة القيسية ، ويتمكن من ان يسد الضربات بجماعتين من اشد خصومه هما العلويون والعباسيون .

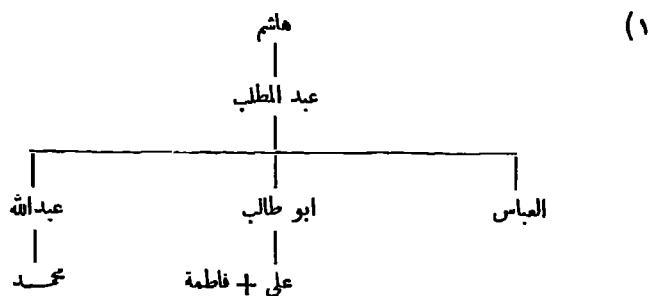
العلويون والعباسيون

لم يكن الامويون في نظر الشيعة الا مفترضين منافقين ، فقد ارتكبوا بحق علي وذراته جرماً لا يغفر ولا ينسى . وكان اخلاصهم التام لاهل بيت النبي قد لفت اليهم انظار الجمورو حوال نحوم كل عطف ، حتى غدت جبهتهم مرتع الناقفين من حيث السياسة والاجتนาع والاقتصاد جيغاً . ومنذ ما اختار علي مدينة الكوفة قاعدة له اصبح العراق حصن الشيعة الحسين ، فكان للمرأتين من ثم على السوريين ضفينة اخرى ، هي انهم انتزعوا منهم قاعدة الخلافة . ولقد انضمَ الى جمهور الناقفين جماعة من اتقياء اهل السنة ، كانوا يتمسون البيت الاموي بالعنابة بالعاليلات والانفاس بشؤون الدنيا ، وبالتقاعس عن اقامة الشرع القرآني .

كذلك العباسيون ، فقد جروا بجري العلويين في استغلال الاوضاع المضطربة للمطالبة بالخلافة لأنفسهم . وكانت دعوام تقوم على انهم ، اذ كانوا من سلالة عم النبي^١ ، كانوا بفضل ذلك احق بالخلافة من بني امية .

التراثانيون

وقد زاد في حرارة الوضع عامل آخر هو نقمة المسلمين غير العرب بوجه عام ،



والمسلمين الفرس بوجه خاص؟ وذلك بسبب ما لاقوه من سوء المعاملة على يد المسلمين العرب. فقد كانت تلك المعاملة أبعد شيء من المساواة التي وعد بها الداخلون عندئذ في الإسلام. فكانت حالمهم أشبه بحالة الموالي^١، حتى إنهم لم يغفروا، في بعض الأحوال، من الجريمة التي كانوا يؤدونها أذ كانوا ذميين. وقد بلغت هذه النسبة أشدتها في فارس – ذلك البلد الذي كان العرب أنفسهم يقررون بأنه أعرق بجداً وارقاً حضارة. وكانت خراسان في الشهال الشرقي أخصب البلاد تربة لنبوذ دور الحركة الشيعية العباسية، إذ لاق فيها تعلم الشيعة تجاوباً مارحاً في قلوب الخراسانيين، فأخذت من ثم التزعة الإيرانية القومية تستعيد حيويتها تحت قناع الحركة الشيعية في الإسلام.

على أن الحاجة بقيت ماسة لشيء واحد لا غير هو القيادة – القيادة التي تجمع تحت لوائها الشيعة والعباسيين والفرس، وغير هؤلاء من خصوم الامويين، وتدفع بهم في وجه العدو المشترك. وقد تحققت هذه القيادة أخيراً في شخص عبدالله أبي العباس، حفيد حفييد العباس. وكان نجاحه في السيطرة على جميع القوى المقاومة للامويين يعود بالأكثرب إلى براعته في تنظيم الدعاية. وقد اختار العباسيون قاعدة لعملهم قرية يبدو لأول وهلة أنها خاملة ومنعزلة هي الحمية، إلى الجنوب من البحر الميت^٢. على أنها كانت، بواقع الأمر، ذات موقع خطير، يسهل منه الاتصال بالقوافل والمسافرين ومراكب الحجاج، الوافدة من جميع أقطار العالم الإسلامي. فكانت مركزاً يدرّب فيه المرشحون لاعمال الدعاية على مبادئ الجماعة وأساليبهم، ثم يوجهون منه في مهام سرية. وفي الحمية تحقق عمل من أقدم أعمال الدعاية السياسية في الإسلام وأشدتها دهاءً وأوفرها نجاحاً، إنه عمل لم يقع له نظير حتى قيام الفاطميين^٣.

اندلاع الثورة

أول ما انفجر يركان الثورة في خراسان، وذلك في شهر حزيران سنة ٧٤٧.

١) راجع من ٨٤ و من ٩٧ – ٩٨ من هذا الجزء.

٢) اليعقوبي، ج ٢، من ٣٥٦ – ٥٧؛ الغنري، من ١٩٢ – ٩٣؛ الطبرى، ج ٣، ص ٣٤؛ ياقوت، ج ٢، من ٣٤٢؛ Musil, Northern Hegāz, pp. 56-61، راجع أيضاً المارطة في حبيب ذلك الكتاب.

٣) انظر ما سأقى في الفصل ٤ حول الفلسطينيين.

وكان على رأس حركة العصيان عامل العباسين ابو مسلم الخراساني ، وهو موالي من اصل منهم^١ . وكان العلم الذي رفعه اسود اللون ، وكان قد اخذ السواد لوناً ليثابه حداداً على رجل من ذريته علي قتل في خراسان ، فلذا العلم الاسود شعار السلالة الناهضة . وسار ابو مسلم على رأس جيش مؤلف من عرب اليمن (من الازاد) والفالحين الفرس ، ودخل مرو عاصمة خراسان دخول المنتصرين . وكان والي الامويين ، نصر بن سيار ، قد ادعى على مروان بطلب التجدة ، مبيناً له الخطط الدمام ، ولكن دون جدوى^٢ ، حتى انه جاء في وصف ذلك الوضع الى الشعر فقال:

ارى خلل الرماد ومضى ثارٍ ويوشك ان يكون لها ضرام^٣
فان النار بالعودين تذكى وانت الحرب اوها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أليقاظ اميء ام نيام^٤

غير ان الخليفة كان عن ذلك كله في شغل شاغل بما كان يجري عنده . فاتت حركة العصيان التي اثارتها اليمينة كانت قد اندلعت من فلسطين وبلغت الى حصن . وكذلك في العراق فان الموارج كانوا قد ثاروا من جديد^٥ . وجدير بالذكر ان مرواناً كان جندياً باسلاً اكسبه صبره وصودره في الجروب لقب «الممار» ، ولم يكن هذا اللقب آئتمِ عاراً او معيناً . والى مروان يرجع الفضل في تعديل خطط القتال ، اذ تخلى عن نظام القتال في صوفوف . هذا النظام الذي جرى عليه النبي اولاً ، فترك عليه مسحة من التقديس . واخذ بدليلاً عنه نظام الكرايس^٦ ، وهي وحدات صغيرة اشد عاسكاً واسرع انتقالاً . الا انه كان الآن عاجزاً ، وفي وضع لا يوحى غير اليأس . ذلك ان شمس الامويين كانت قد آذنت بالافول .

الضربة الحاسمة

سقطت مرو ، فتبعتها نهاؤنده ، ومدن فارسية اخرى ، فانكشفت بذلك الطريق

١) الفغري ، ص ١٨٦ .

٢) الطبرى ، ج ٢ ، من ١٩٥٣ وما بعد ؛ البيهقي ، ص ٣٥٩ وما بعد .

٣) الفغري ، ص ١٩٤ .

٤) الطبرى ، ج ٢ ، من ١٩٤٣ - ٤٩ .

٥) راجع ٨٨ - ٨٩ من هذا الجزء .

إلى العراق. وهنا سقطت الكوفة - وهي إحدى مدن العراق، ومحبّاً إلى العباس - من غير كيّر مقاومة . وفي ٣٠ تشرين الأول سنة ٧٤٩ بويع لابي العباس بالخلافة في مسجدها الكبير^١. وكانت الرأبة البيضاء فيسائر المناطق الشرقية تنهض في وجه الرأبة السوداء . وأخيراً عزم مروان على أن يصمد حتى النهاية ويقاتل قتال المستيم . فسار على رأس اثنين عشر ألف مقاتل^٢ من حران شرقاً حتى بلغ الزاب الأعلى (كانون الثاني ٧٥٠) - وهو أحد فروع دجلة - فالتحق على ضفته اليسرى بقوى المعارضة يقودها عبد الله بن علي ، أحد أعمام الخليفة الجديد . واستمر القتال تسعه أيام ، لكن العزم على كسب المعركة لم يعد من شأن الجانب السوري ، ذلك لأنّ عهد القوة المعنوية العالية والقيادة المهمة كان قد ولّى ، وغدت المزمعة أمراً لا مفر منه .

واخذت المدن السورية ، من ثم ، تفتح أبوابها ، واحدة بعد الأخرى ، لعبد الله وجيوشه الحراشية العراقية . ولم تقدر بشيء من الدفاع إلا مدينة دمشق . على أن أياماً قليلة من الحصار كانت كافية للاخضاع المدينة الشاحنة (٢٦ نيسان ٧٥٠) . ورابط فرسان العباسين في مسجدها الكبير سبعين يوماً ، استأنف بعدها الجيش المظفر سيره جنوباً نحو فلسطين . ومن هنا أرسلت على جناح السرعة فصيلة في اثر الخليفة الفار^٣ ، ادركته في مصر العليا وقتلته خارج كنيسة في بوصير^٤ (٥ آب ٧٥٠) . ثم أرسل رأسه مع شارات الخلافة إلى أبي العباس^٤ .

كانت المهمة الرئيسية التالية التي واجهها ساسة العباسين : ماذا عساهم يصنعون بن بقي من الامورين ؟ وقد اجمع الرأي على وجوب استئصالهم ، وعهد بذلك إلى عبد الله . ولم يتورع القائد الصارم عن استخدام اعتنف الوسائل ليمحو من الوجود

^١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٢٧ - ٣٣ ؛ المسعودي ، ج ٦ ، ص ٨٧ - ٩٨ .

^٢) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٤٧ ، قابل ص ٤٥ ؛ راجع من ٨٩ ح ٣٠ الحاشية الأخيرة .

^٣) وردت أيضاً بوصير ، ولعلها بوصير الملقب في الفيوم . راجع ساويروس ابن المقفع ، سير البطاركة الإسكندرانيين ، تشر سيبول (هبرغ ، ١٩١٢) ، ص ١٨١ وما بعد ؛ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

^٤) المسعودي ، ج ٦ ، ص ٧٧ .

اولئك الاعداء الذين يتوون اليه بصلة النسب . بل لقد انتهكوا حتى حرمة المدافن في دمشق وقنسرين ومواقع اخرى ، فنبشوا القبور وصلبوا الجثث ، وطرحوا الاشلاء خارجاً . وقد اخرج جثمان هشام من قبره في الرصافة ، وجلد ثانين سوطاً ثم احرق حتى استحال رماداً^١؛ ولم يغفروا الا عن قبر معاوية ، وغبر عمر التي . وفي ٢٥ حزيران سنة ٧٥٠ ادب عبدالله مأدبة لثائين من امراء الامويين في ايي فطرس (انتباتس القديمة) على نهر العوجا بالقرب من يافا ؟ وما ان بدأ الاحتفال حتى انقضّ الجنادون على المدعين ، واخذوا يمحضون رؤوسهم واحداً تلو الآخر . حتى اذا بسطت نطم الجلد على الجثث وهي ما زالت دافئة ، وعلى القتلى وهم بعد يعالجون سكرات الموت ، تحول القائد واعوانه الى الموائد ليستأنفوا الاستمتاع بالطعام الشهي ، على ايقاع انين المختضرين وحشرجة المنازعين^٢ . ثم ارسل العملاء والجواسيس يجوسون بلاد الاسلام لاصطياد الفارين من ابناء الاسرة الاموية المنهارة وقد تتبعوهم بالقتل « فطلبوا من بعدها بطن الارض » وذلك بعد ان امتنع الامان لهم على وجوهها .

فراد مدهش

على ان شخصاً واحداً نجا من هذه المجزرة البشرية العظيمة هو عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة هشام . فان هذا الفتى ، الذي كانت له من العمر تسعة عشر عاماً ، كان قد اختبأ في مضرب بجاعة من البدو على ضفة الفرات اليسرى في شمالي سوريا . وذات يوم فوجئ القوم بشهادة اعلام سوداء تقترب منهم . فلقي عبد الرحمن نفسه في النهر ، وتبعه اخوه وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره . لكن المطاردين العباسيين جدوا في اثرهما . وإذا وثق اصغر الاخرين بالأمان الذي قطعه له المطاردون

١) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٤٧١ ؛ قابل العقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ . انتظر ايضاً الفخري ، ص ٢٠٤ .

٢) العقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ - ٢٦ ، المسعودي ، ج ٦ ، ص ٧٦ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ - ٣٠ ؛ المبرد ، من المبرد ، من ٧٠٧ ، الاغاني ، ج ٤ ، ص ١٦١ ، قابل من ٩٢ - ٩٦ ؛ الفخري ، من ٢٠٣ - ٤ ؛ Theophanes ، p. 427 . قابل ذلك بقصة ابادة يهود لبيت آناب (الملوك الثاني ، ١٤: ٩ - ٣٤) وابادة محمد علي لماليك مصر (في ما يلي الفصل ٤٩ حول بشير الثاني؛ جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ٦٢ .

٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

ان هو عاد ، رجع ادراجه من اواسط النهر ، فلاق حتفه ذبحاً . اما الاكابر فاستأنف السباحة حتى ادرك الضفة المقابلة^١ .

وسار عبد الرحمن متسلكاً في اتجاه جنوي . وفي فلسطين التحق به مولاه بدر الذي عرف بدهائه واخلاصه للبيت الاموي . وقد عينت مكافأة مالية كبيرة ثناً لرأس الامير المغارب ، لكنه نجا بمحبوسية من مؤامرة دبرها حاكم شمالي افريقيا لاغتياله . وراح من ثم يطوي ساحل افريقيا الشمالي بطولة ، وحيداً شريداً طریداً لا رفيق يؤمنه ولا مال يسعفه . وبعد خمس سنوات من التجول خط رحاله في الاندلس (٧٥٥) ، وهي البلاد التي كان اسلامه قد قطحوها وحكموها . وفي السنة التالية اقام نفسه سيداً على شبه الجزيرة ، لا ينزعه في ذلك منازع . وقد اختار عاصمة له مدينة قرطبة التي يعود تاريخها ، فيما هو مشهور ، الى العهد القرطاجي ، فقرر لها ان تردهر وتتصبح عاصمة لمملكة جديدة ومهدأ لحضارة راقية . وقد حاول عبد الرحمن ان ينشئ دولته على غرار الدولة الشامية . فافتتح عهد علم وسخاء سار بوجه العموم على خير ما رسّمه الخلفاء السابقون في دمشق . وكان هشام ، قبل وصول عبد الرحمن الى الاندلس باربعة عشر عاماً ، قد وجّه الى الاندلس جيشاً سورياً مؤلماً من ٢٧ الف مقاتل ، بقيادة بلج بن بشر القشيري لمحاربة البربر . فاستقرَّ هذا الجيش في اقطاعات عسكرية منتشرة على الساحل الاسباني الحاذي للمتوسط^٢ . واقامت فرق من دمشق ومحصن وقنسرين والاردن وفلسطين ، في المرية واسبيلية وجيان وما فوقه وشدونه على التوالي ، واعطى هؤلاء الوافدون لمواطنهم الجديدة اسماء جغرافية سورياً ، وكانت المشابهة في الاحوال الجوية والاواعض الطبيعية الجغرافية مما ساعد الوافدين المستجدين على الاستئناس باوطانهم الجديدة . وباكتساب السوريين لهذه المناطق اخذت الايقاعي السورية والشعر والفن السورين جميعاً تستحوذ على قلوب ابناء البلاد . ولقد قدر لکثير من هذه العناصر ان تسترب ، في ما بعد ، من اسبانيا والبرتغال الى العالم الجديد . واجذب جغرافيوا العرب ، من ثم ، يتحدثون عن الاندلس بوصفها اقليماً سورياً ؛ لكن معركة الزاب لم تثبت ان احالت سوريا نفسها الى اقليم عباسي .

١) اخبار مجوعة ، ص ٥٤ - ٥٢ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٧٧ .

٢) اخبار مجوعة ، ص ٣١ ؛ قابل ابن القوطية ، ص ١٤ - ١٥ ؛ المراكبي ، ص ٩ .

الفصل الثاني والأخير
سُورَيْهٌ تَغْزِدُ وَقَلِيمًا عَبَاسِيًّا

زالت بسقوط الامويين سيادة سوريا على دنيا الاسلام ، وانقضى العز الذي كان لها . ذلك ان العباسيين اختاروا العراق مركزاً لهم ، ومدينة الكوفة ، القريبة من حدود فارس ، عاصمة لخلافتهم . وقد تنبأ السوريون ، بعد المزية المنكرة التي منوا بها على الزاب ، الى الواقع المؤلم ، وهو انت مرکز التقل في الاسلام قد تحول عن بلادهم في اتجاه شرق . فقدوا وجاء اخيراً على سليل لعاویة من البيت السفياني^۱، توقعوا انت يعود ، عودة المسيح ، وينجدهم من منافسيهم العراقيين الفائزين . ولا يزال هذا الامل يختلج ضعيفاً في قلوب المسلمين السوريين الى اليوم .

العهد الجديـد

وكان ابو العباس في هذه الاثناء يعمل جاهداً على توثيق امره في المناطق التي اكتسحها من جديد . وكان قد وصف نفسه في الخطبة التي افتتح بها عهده في الكوفة بالسفاح^۲ ، مثيراً الى السياسة الحازمة التي ينوي اتباعها . وهذا معناه ان الاسرة التي تسلمت الحكم كانت تنوى استخدام القوة في تنفيذ تدابيرها اكثر من الاسرة الزائدة . ولأول مرة مدد بساط النطع لضحايا الجنادين بالقرب من عرش الخلافة . وقد جمع الخليفة الجديـد من حوله رجال الدين وعلماء الشريعة ، حيثما الدوحة الفقيـة يجـوـ حـافـلـ بـالـمـؤـثرـاتـ الـدـينـيـةـ ،ـ وـذـلـكـ فـيـ مـقـابـلـ ماـ عـرـفـ بـهـ الدـوـلـةـ الزـاحـلـةـ منـ اـبـهـ

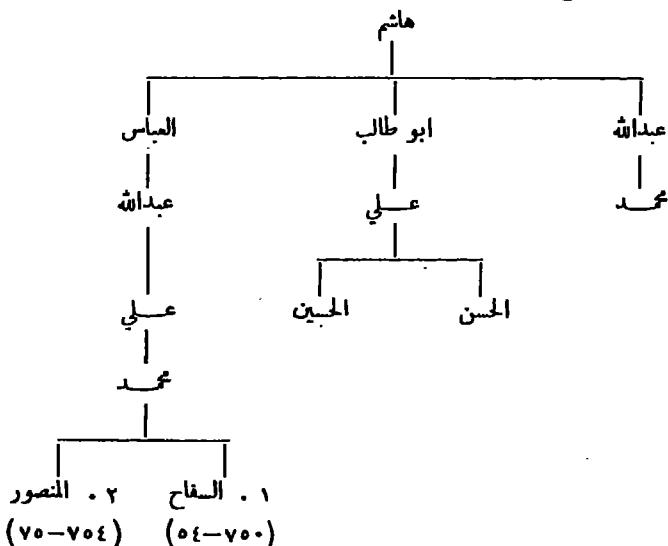
۱) الطبرـيـ ، جـ ۳ـ ، صـ ۱۳۲۰ـ ؛ـ ابنـ مـسـكـوـيـهـ ،ـ بـخـارـبـ الـامـ وـتـعـابـ الـهـمـ ،ـ نـشـرـ دـيـ غـوـيـهـ وـبـونـغـ ،ـ جـ ۲ـ (ـلـيـدـنـ ،ـ ۱۸۷۱ـ)ـ صـ ۵۲۶ـ ؛ـ يـاقـوتـ ،ـ جـ ۴ـ ،ـ صـ ۱۰۰۰ـ ؛ـ الـاغـانـيـ ،ـ جـ ۱۶ـ ،ـ صـ ۸۸ـ ؛ـ H. Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades* (Beirut, 1930), pp. 391-408.

۲) الطـبـرـيـ ،ـ جـ ۳ـ ،ـ صـ ۳۰ـ ،ـ صـ ۲۰ـ ؛ـ ابنـ الـأـئـدـ ،ـ جـ ۵ـ ،ـ صـ ۳۱۶ـ .

الملك . ثم عد ، في الاختفافات الرسمية ، الى الاتساح ببردة النبي ، نسيبه البعيد^١ ، واخذت اساليب الدعاية المحكمة ، التي ساعدت على تقويض ثقة الشعب في نظام الحكم القديم ، تعمل الآن على توثيق النظام الجديد لدى الجمهور . وقد نادى المفالون من دعاة العباسين بان السيادة ينبغي ان تبقى في البيت العباسي الى ان يتسللها منهم آخر الامر عيسى ابن مريم^٢ . ثم اضيف الى ذلك — فيما بعد — انذار شديد هو انه اذا قدر للخلافة العباسية ان تهار فان نظام الكرون لا بد ان يختل باسره^٣ . وقد وضعت لهذه الغاية احاديث بالجملة تنطوي على تأييد العباسين ومعارضة القضية الاموية . وبلغوا من التادي ان حموا ابناء الامويين المنقوشة على المبني^٤ وعدلوا طراز المثير في المساجد كما كان عليه في عهد الامويين .

على ان الفارق الحقيقي الذي ميز هذه الخلافة عن سابقتها اغا كان في ان العباسية اتسمت بالسمة الفارسية ، بحيث طفت المراسيم الفارسية على مظاهر الخلافة ، وسيطرت الافكار الفارسية على شؤون السياسة ، وغابت نسبة النساء الفارسيات في دور

١) شكل شجري يوضح صلة النسب بين العباسين و محمد :



٢) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٣٣؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

٣) انظر ما سياقى في الفصل ٤٣ في الفقرة عن الطولونيين .

٤) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٤٨٦ ، راجع من ١٣٠ من هذا الجزء .

الحرير، حتى تحولت الخلافة الى امبراطورية من المسلمين المستجدين، ما كان العرب فيها الا عنصراً واحداً من العناصر العديدة التي تألفت منها. ولأن كانت الدولة الاموية، على اعتبار ما، وريثة الامبراطورية الرومانية الشرقية، فقد كانت خلافة بنى العباس، باعتبار أعمّ واسعّ، وريثة امبراطورية الاكسروا. وقد سرت الخلافة العباسية نفسها «دولة»، اي عهداً جديداً، وكانت بواقع الامر عهداً جديداً، شعر العراقيون فيه انهم قد تحرروا من وحاشية السورين عليهم، واحس الشيعة انهم قد انتقموا لأنفسهم، ووجد الفرس مناصب الدولة الرفيعة متاحة لهم. فقد انشأوا منصبًا جديداً في الدولة، كانوا اول من شغلوه، هو الوزارة؛ وهو المنصب الاعلى بعد الخلافة. واقبل الحراسانيون من ثم على الانخراط في فرقه الحرس المنوط بالخلافة. وهكذا تضاءل مجده الاستقرارية العربية وانهار صرح العروبة، لكن الاسلام استمر في سيره المظفر بزي جديد هو التزعة الایرانية.

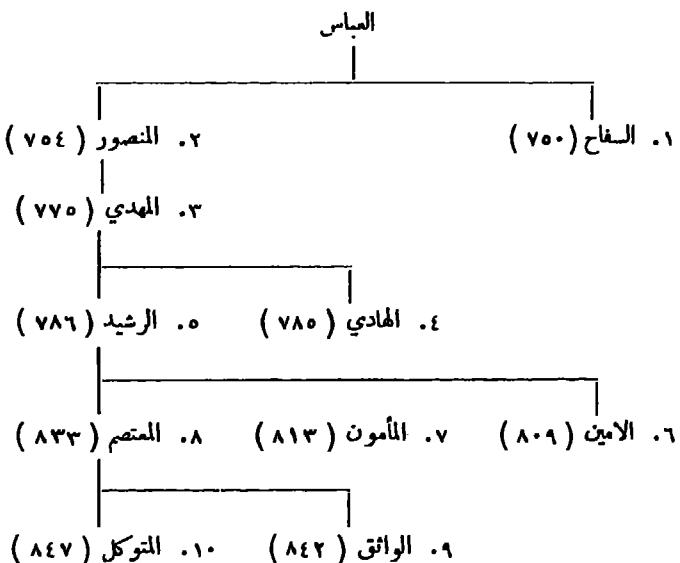
ان الخلافة الثالثة بعد خلافة الراشدين وخلافة الامويين، وهي الخلافة التي أسسها السفاح (٧٥٠ - ٧٥٤) واخوه المنصور (٧٥٤ - ٧٥)، كانت اطول الخلافات الاسلامية عهداً واسعها شهرة. فقد كان الخلفاء،خمسة والثلاثون الذين تعاقبوا على الخلافة من بعد الخليفة الثاني جميعاً من سلالته العصبية. ولقد اختار المنصور لاصحاته موقع قرية مسيحية ذات اسم فارسي هو بغداد (معناه غطية الله^١)، كانت تقوم على الضفة الغربية السفلى من نهر دجلة. بنيت هذه العاصمة التي دعيت رسمياً بدار السلام سنة ٧٦٢، واقيم حولها سور خارجي من طوب مؤلف من جدارين، وسور داخلي بلغ ارتفاعه تسعين قدماً، وجعل بين السورين خندق عميق. وقامت مدينة المنصور في الوادي عينه الذي ضم عدداً من امنع مدن العصر القديم، ولم تلبث ان غدت وريثة اجداد مدائن كسرى وبابل ونينوى، وسواء هي من الموارض القديمة في الشرق الادنى. واذ كانت بغداد مسرحاً للمغارات الاسطورية الرائعة التي خلقتها شهرزاد في قصة الف ليلة وليلة، وقاعدة لمهدين من ازهى العهود هما عهدهما هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) وعهدهما المؤمن (٨١٣ - ٩٣)، فقد برزت في الاسطورة وفي التاريخ رمزاً منقطع النظير لمجد الاسلام. ولقد نسج

^١) اليقوبي، كتاب البلدان، نشر دي غوريه (لبن، ١٨٩٢)، ص ٢٣٥؛ البلذري،

عهد هذين الخليفتين حول السلالة برمتها حالة من الجدل لم يقدر لها الى الآن ان تلاشى، وامتد اوجها ما بين عهد المهدى (٧٧٥ - ٨٥) الخليفة الثالث، وعهد الواثق (٨٤٢ - ٤٧) الخليفة التاسع^١. ثم اخذت، بعد الواثق في طريق الانحدار حتى خلافة المستعصم (١٢٤٢ - ٥٨)، وهو السابع والثلاثون من خلفاء هذه السلالة. وفي عهده اجتاحتها الفوضى ودكوا معلمها. لقد استمرت ذرية السفاح والمنصور في الحكم أكثر من خمسة قرون، الا انهم لم يكونوا دائماً الحاكمين الفعليين.

كان اول والٍ للعباسيين على سوريه عبدالله بطل الزاب نفسه. فما ان توفي السفاح حتى طلب عبدالله هذا الخلافة لنفسه، مزاحماً فيها ابن أخيه الآخر المنصور، معتمداً على جيش كبير جيد التدريب، كان قد حشد في الاصل لمحاده الروم. وبعد ان قضى على ١٧ الف جندي من الحراسانيين الذين لم يكونوا موضع اهتمته، سار بن بقي، وجلهم من السوريين، في اتجاه شرق^٢. فقصدى له ابو مسلم في نصيبين (تشرين الثاني ٧٥٤) وهزمته. وبعد ان قضى في المعتقل سبع سنوات، نقل في موكب رسمي الى بيت رفعت دعائه – فيما يذكر – على قاعدة من الملح، ثم احيط

(١) شكل شجري لنسب الخلفاء الذين بلغت الخلافة العباسية اوجها في عهدهم :



(٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٠١ - ٠٢

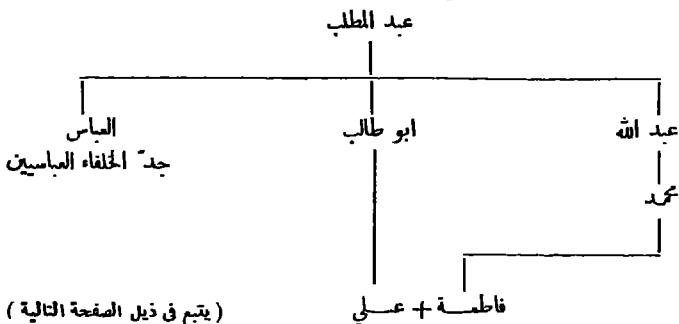
بالباء فلم يليث ان سقط عليه ودفن تحت انقاضه^١. وكان ابو مسلم آئذ حاكم خراسان المستقل ومعبود قومه ، وكان شديد البطش بمحضه وخصوصه الدولة على السواء . حتى ان ظفره بدأ يثير الظنون والمخاوف . وقد استدرج في طريق عودته الى ان يعرج على المدائن ويواجه الخليفة . لكن هذا الفارس الذي كان العباسيون مدینین في بناء عرشهم ليس فيه بعد سيف عبد الله ، قد سقط بين يدي المنصور ضحمة للقدر^٢.

وجاء بعد ذلك دور الشيعة . فقد كان هؤلاء يظنون أولاً أن العباسين إنما يقاتلون من أجلهم ، لكن العشاورة التي كانت على عيونهم زالت الآن ، وبيان لهم أن الذي عنده أبو العباس وجعاته « باهل البيت » هم آل العباس بيتهما الخاص ، وليس بيت على وفاطمة . فاستبرأوا في اعتبار ائتهم وخدم أصحاب الحق الشرعي في تسلم مقدرات الاسلام ، بما حظ مقام الخلفاء العباسين الى مقام المتصيدين . واذ ذاك لجأ العلويون ثانية الى العمل في الخفاء واستغلو كل فرصة سانحة لافراز القلاقل جهاراً . ولقد افتى مالك بن انس المشهور باسم الشيعة فحلهم من محمد الولاء للعباسيين . والامام مالك هو مؤسس احد المذاهب الفقهية الاربعة الكبرى في الاسلام ، ومنهبه لا يزال حتى الوقت الحاضر شائعاً في اقاليم افريقيا الشالية . وكان اثنان من احفاد الحسن هما محمد وابراهيم قد تزعموا حركة ثورية، فبادر العباسيون الى سحقها بلا رحمة^٣ . وعدوا الى محمد الملقب بالنفس الزكية فصلوه في المدينة

١) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ؛ العقوبى ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

٢) الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٧ ؛ الدينورى ، ص ٣٧٦ - ٧٨ .

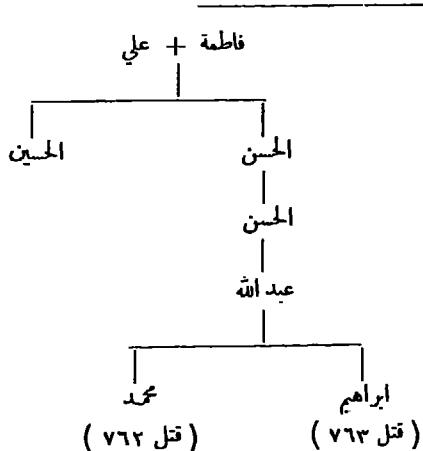
٣) شكل شعري يوضح ملأة على :



(كانون الاول ٧٦٢) واحتزوا رأس أخيه ابراهيم (شباط ٧٦٣) قرب الكوفة، وارسلوا به الى الخليفة^١.

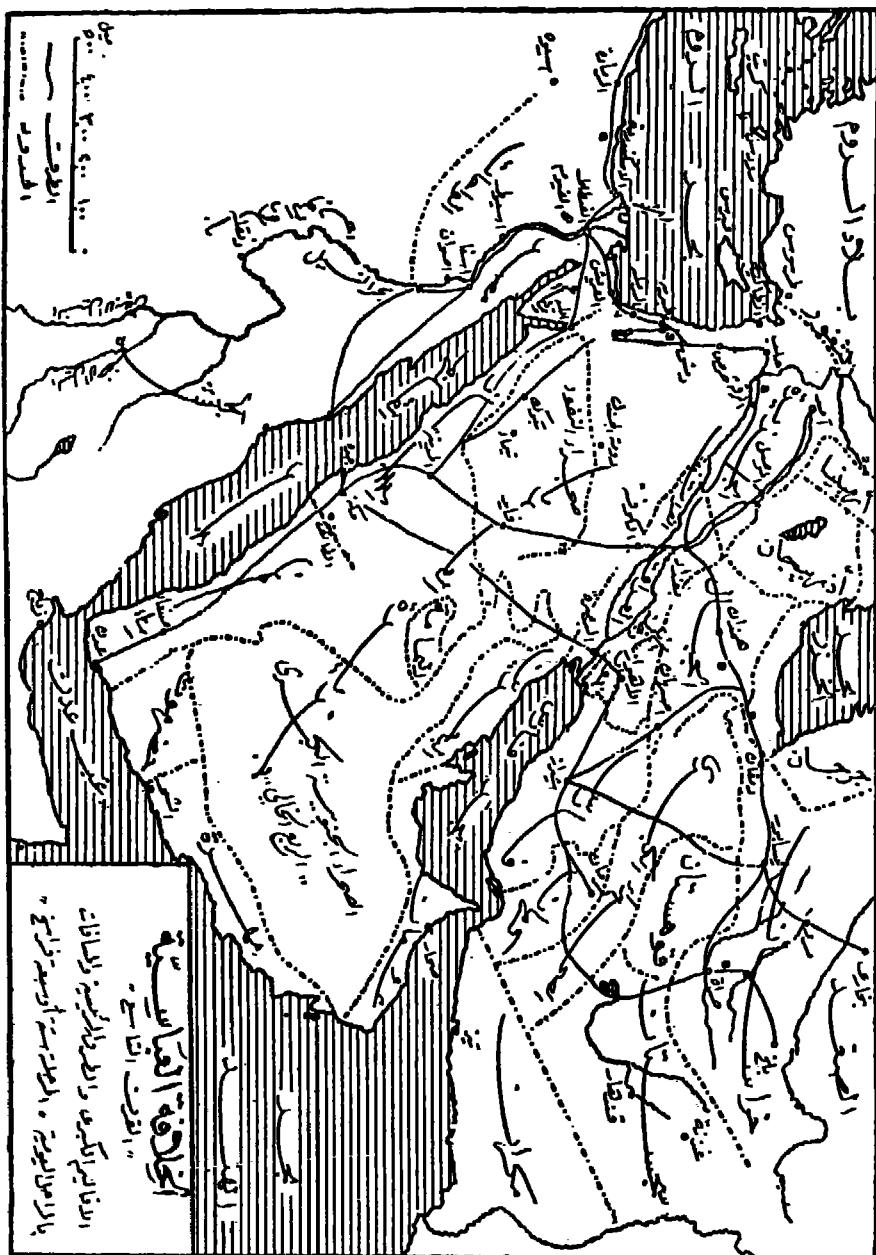
وكان هنالك جماعة اخرى من احلاف الشيعة لم يكن بد من تصفية ابراهيم، هم البرامكة . والبرامكة اسرة فارسية رفعها المنصور الى مقام الوزارة . وهي اسرة عريقة متعددة من كاهن بوذى كبير (بومك) . وقد قام افرادها بجرائم الاعمال، وبنلوا بسخاء نادر حتى غدت لفظة «بومكي» مرادفة للجود . لكن هارون الرشيد، صاحب الارادة الفولاذية ، لم ترق له مهابتهم ووجاهتهم ، فعمل من ثم على القضاء عليهم سنة ٨٠٣ فما بعد، وقاد رثوتهم التي بلغت، فيها قيل ، فيها قيل ، فيهما ٣٠٠،٦٧٦،٠٠٠ دينار نقداً ، غير المقتنيات والمتلكات^٢.

وبانتقال الخلافة بعيداً الى بغداد لم يعد امر الروم ، وهم اعداء العرب التقليديين ، من شواغل العباسين الكبri . اما القلاقل التي رافقت هذا الانتقال ، فقد هيأت لقياصرة الروم ان يسيطروا نفوذهم في اتجاه شرقى حتى حدود آسيا الصغرى وارمينيا ، فاضطر المنصور وخلفاؤه الى ان يبدلوا الجهد في تحصين تغور سورية ومرافقه



١) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ - ٣١٥ ، ٦٥ - ١٦ ؛ المسعودى ، ج ٦ ، ص ١٨٩ - ٢٠٣ ؛ الدينوري ، ص ٣٨١ .

٢) المقد ، ج ٣ ، ص ٢٨ ؛ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٦٨٠ ؛ ٦٧٦ - ٧٧ ؛ المسعودى ، ج ٦ ، ٣٨٧ - ٩٤ ؛ الفخرى ، ص ٢٨٨ . قابل ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ - ٢٤ ؛ كتاب العيون ، القسم ٣ ، ص ٣٠٦ - ٨ .



لبنان^١. ففي سنة ٧٨٢ قاد هارون الرشيد — وهو بعد اميره — جيشه حتى بيزنطة ، وفرض على الاميرة ايون ، الوصية على عرش الروم ، جزية ضخمة . وقام وهو خليفة ، بسلسلة من الغارات اخترق بها « ارض الروم^٣ ». وشن ابنه المعتض سنه ٨٣٨ هجوماً اخيراً على ارض الروم . وعند هذا الحد توقف الزحف الذي استمر بين الخلافة العباسية ودولة الروم ما يربو على القرن ونصف القرن .

الخلاف في سوريا ولبنان وفلسطين

لم يتوانَ السوريون ، بعد ان فقدت بلادهم مكانتها الممتازة ، عن التعبير عن معارضتهم الشديدة بالسيف وبالبيان . لكن موقفهم اخذ يتتطور مع مرور الايام من سيء إلى اسوأ ، حتى ترتكبهم محرومين من مناصب الدولة . وان الجواب الذي اجاب به احدهم ابا جعفر المنصور عندما قال انه قد كان من حظ الناس في عهده ان نجوا من الطاعون ، ليتمثل شعور الناس الغالب في ذلك العصر ، وهو : « ان الله لارحم من ان يصيغنا بالطاعون وبمحكمك في وقت واحد^٤ ». اما النصارى فقد ساءت احوالهم بسبب التادي في ابتزاز اموالهم ، وزيادة الضرائب عليهم . وقد مرّ قرنان قبل ان يتسرّط عليهم اذلة الاموية ان يصلحوا الدولة العباسية ويدخلوا في وضع رعاياها .

ولم يكدر عبدالله، حاكم الشام الاول، يتسلم مهام وظيفته سنة ٧٥٠، حتى قامت في وجهه فتن عديدة في حوران وبنية وقنسرين ، كان يتزعزعها قادة سابقون في جيش مروان. اما التمردون في حمص وتبرس ، فقد كان زعيمهم زياد : سليل معاوية الذي وقع عندهم انه السفياني المنتظر ، وكان في معسكره بالسلمية ٤٠ الف رجل^٥.

١) البلاذري ، ص ١٦٣ ؛ راجع الفصل ٣٤ الصفحة الاولى .

٢) كتاب البيون ، قسم ٣ ، ص ٢٧٨ . يجعل تاريخ الحلة ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) ؛ ويحمله اليقوى (ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٨٦) ، ١٦٤ ، والطبرى (ج ٣ ص ٥٠٣ - ٤) ١٦٥ هـ .

٣) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٧٠٩ - ٦٩٦ ؛ اليقوى ، ج ٢ ، ص ٥١٩ س ١٤ ، ص ٥٢٣ س ٢ ؛ البيورى ، ص ٣٨٦ - ٤٨٧ ؛ المسعودى ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٥٢ . ويتجلّى في خرائب القرى ، وهي المدينة التي اسها سلوقيس الاول ، ذلك التخليط الواسع الذي دمّها الرشيد وحصنها المأمون على اساسه .

٤) ابن عساكر ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ .

٥) ابن الاتير ، ج ٥ ، ص ٣٢١ وما بعد .

واشتد في هذه الآونة التزاع في سوريا المسلحة ، ويرز بين القيسية واليمنية الحزبين الذين ظهرا ب مختلف الأسماء . وكان ضلع العباسين مع القيسية بوجه عام ، فاعتمدوهم في شؤونهم . وبلغ النضال أشدّه في خلافة هارون الرشيد ، حينها كان واليه على دمشق ابراهيم ، أحد أحفاد عبد الله^١ . وقد سفكت دماء كثيرة في دمشق وحوران والباقاع والاردن وحص ، ونشب القتال واستمر ستين بلا هوادة وذلك – فيما روي – لأن قيسياً سرق بطيخة من بستان يمني^٢ . حتى ان الخليفة فكر بتجريد حلة تأديبية عليهم يقودها بنفسه ، ثم عاد فكلف بها قائداً من البرامكة ، فجرد هذا المتقانين من كل سلاح حتى «لم يدع لهم رحماً ولا فرساً» . وكانت للاضطرابات التي رافقت التزاع على الخلافة بين الامين والمأمون ابني الرشيد رد فعل قوي في سوريا . ذلك ان الجنود السوريين ، عندما وجدوا أنفسهم (٨١١-١٢) مع الحراسانين في معسكر واحد في الرقة ، وصاح بهم احد قادتهم المتمردين : «يا معاشر كلب اتها الرایة السوداء... اعززوا الشر قبل ان يعظم... داركم الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري^٣ » اعززوا الحرب وسادوا مع قادهم . وفي عهد الامين المضطرب عمد سفياني آخر ، اسمه علي ، الى رفع العلم الايض . وكان هذا المنافق الجديد من العلماء . وكان له من العمر تسعون عاماً . فاستطاع ان يجمع حوله جماعة من المؤيدين بينهم حاكم صيدا ، وسار على حص فاحتلها ، ثم حاصر دمشق ، ودخلها بعد ان طرد عامل العباسين منها^٤ .

وفي سنة ٨٢٩ قدم المأمون الى سوريا ، ووضع كشفاً جديداً لراضيها على امل زيادة الدخل الوارد منها^٥ . وبعد ذلك باربع سنوات زار دمشق ، لينظر في

١) ان الوضع القلق في سوريا اتفى ان يكون حاكماً من الاسرة العباسية . وكان صالح والد ابراهيم ، واخا عبد الله . وقد جرى تعيين حكام مختلفين على الناطق السوري المختلفة في بعض الاحوال ؛ *اليعقوبي* ، ج ٢ ، ص ٤٦١ .

٢) *ابو الفداء* ، ج ٢ ، ص ١٤ ، ابن الاتير ، ج ٦ ، ص ٨٧ .

٣) *الطبرى* ، ج ٣ ، ص ٦٣٩ .

٤) *الطبرى* ، ج ٣ ، ٨٤٤-٤٥ .

٥) *اليعقوبي* ، ج ٢ ، ص ٥٣٢ ، ابن الاتير ، ج ٦ ، ص ١٧٢ ؛ *الطبرى* ، ج ٣ ، ص ٨٣٠ .

٦) ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ١٠٧-٨ . راجع بثأن زيارة الى القدس ما سبق ، من ١٣٠ من هذا الجزء .

امر القضاة، ويطبق بحقهم القانون الذي سبق ان وضعه في بغداد، وهو ان كل من لا يوافق المعتزلة من القضاة في عقيدة خلق القرآن لا يسوغ له ان يحتفظ بمنصبه^١. وكان عدد من الخلفاء الذين سبقوه قد قاموا كذلك بزيارة سوريا في طريقهم الى الحج، او في حملاتهم على الروم. ولقد كانوا جميعاً على علم بكل ما يجري هناك عن طريق ولاياتهم، وعن يد عامل خاص يدهم بالأخبار هو صاحب البريد، وكان هذا - بواحد الامر - رئيس فرقه التحرري^٢. اما تعلم المعتزلة الذي كان الخليفة قد اعنته فقد كان معارضًا تماماً لتعليم اهل السنة. وهذه الحركة الفكرية العقلانية كانت قد نشأت وترعرعت في ظل الحكم الاموي^٣.

التأثير المقتضى

وكان فلسطين مسرحاً ل الفتنة الكبرى التالية، فقد عمد رجل من عرب اليمن، مجهول النسب، الى اعلان العصيان برفع العلم الابيض (٨٤٠ - ٤١). ومن غريب امره انه كان لا يظهر في الجمهور الا مقنعاً، فعرف «بالبرقع». وكان اتباعه، البالغون - فيماروي - مئة الف رجل، من ابناء المناطق الريفية ومن طبقة المزارعين، مما يشير الى وجود حافز اقتصادي الى جانب العامل السياسي. وكان المعتقد السائد انه سفياني النسب. على ان القائد العباسي تربص بهم حتى فصل الحراثة، وهاجم مركز قيادتهم بالف رجل امده بهم الخليفة المعتصم، واعتقل التأثير المبرقع، وحمله الى سامرا عاصمة العباسين المؤقتة^٤.

دمشق عاصمة مؤقتة

وفي عهد المتوكل بن المعتصم عادت نار الثورة فشبّت ثانية في دمشق (٨٥٤ - ٥٥). ذلك ان الرعايا تاروا بالطاحم العباسي وقتلوه، فارسل الخليفة اليهم قائداً تركياً على رأس سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة، اعملوا فيهم السيف

(١) البيهقي، ج ٣، ص ٥٧١.

(٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 325.

(٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 429.

(٤) الطبرى، ج ٣، ص ٢٢ - ١٣١٩؛ ابن عساكر، ج ٥، ص ٣١١ - ١٢.

لمدة ثلاثة أيام، وانتهوا المدينة بكلاملها^١. وكان ابعد المحمولات عن التصديق ان يقع اختيار الخليفة على دمشق ف يجعلها، بعد فترة وجيزة، مقرأً له. ففي سنة ٨٥٨ نقل الم وكل قاعدته اليها، وكان الحافز لذلك، فيها يطن، تفادي سيطرة حرس الخلافة المتقطعين عليه، او لئك الحرس الذين كان اكثراهم من الترك غير النظاميين وكانتوا من المرتزقة والسيدي في خدمة سلفه السابق. لكن مناخ المدينة الرطب، ورياحها العاصفة، وبراغيتها وهوامها الكثيرة المزعجة رحلت عنها الخليفة المتقلب بعد ثانية وثلاثين يوماً من تزووجه اليها^٢.

الشرع ضد النصارى

هذا النهج الذي سلكه الثوار السوريون في العصر العباسي الاول غالباً نوذجاً يمتد لستين كثيرة. وطرأ في هذا الوقت طاريء جديد هو استناد نعمة النصارى، بسبب التدابير الصارمة التي فرضت عليهم. ولم نسمع ، قبل عهد الم وكل الا بحركة عصيان واحدة قام بها نصارى لبنان. وقع ذلك سنة ٧٥٩ - ٦٠، عندما كان صالح بن علي ، اخو عبدالله ، والياً عليها. فقد جلأت جماعة منهم الى السلاح تقاصداً لمصادرات جديدة تنزل بهم ، وانهزوا ووجود اسطول بيزنطي في مياه طرابلس ، وانقضوا من قاعدهم في المنيطرة^٣ - في اعلى لبنان - وانتهوا عدداً من قرى البقاع. وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية ، بلغ من جرأته وتهوره ان اقام نفسه ملكاً . لكن العصابة اللبنانيّة قيدت بعد حين الى كين قرب بعلبك ، نصبه لها فرقة فرسان عباسية ، وفككت بهم . ثم عمد صالح الى الانتقام ، فشرد أهل القرى الجبلية ، مع ان الكثيرون منهم لم يساهموا في الفتنة ، ونثرهم في المناطق السورية على اختلافها^٤. وعلى اثر ذلك رفع الامام الاوزاعي ، الفقيه المشهور في بعلبك وبيروت^٥ ، احتجاجاً الى الحاكم يجدر بنا اثنائه في ما يلي :

١) ابن عساكر ، ج ٦ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢) الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٤٣٥ - ١٤٣٦؛ البيقول ، ج ٢ ، ص ٦٠١؛ ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

٣) انظر ما سيبقى في الفصل ٤٦ في الفقرة عن شهادة أسامة.

٤) ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .

٥) انظر ما سيبقى في الفصل ٤٢ في الفقرة عن الاوزاعي .

وقد كان من أجلاء أهل الذمة من جبل لبنان . من لم يكن بما تألف من خرج على خروجه ، من قتلت بعضهم ، ورددت باقיהם إلى قراهم ، ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى أن لا تور وازرة وزر أخرى^١ . وهو أحق ما وُقف عنده واقتدي به . وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلعم ، فانه قال : « من ظلم معاها ، وكف عنه فوق طاقته فانا حبيبه^٢ »

ولقد كان هارون الرشيد ، جد الموكل ، قد اعاد مفعول بعض الاجراءات التي وضعها عمر بن عبد العزيز^٣ ضد النصارى واليهود . ففي سنة ٨٠٧ أمر بهدم جميع الكنائس التي كانت قد بنيت منذ الفتح الإسلامي^٤ ، ومن كذلك قانوناً أوجب به على جميع الذميين أن يلبسوالباس المعين^٥ . على أن الكثير من هذه التدابير ، ولا شك ، لم يوضع موضع التنفيذ^٦ . وفي سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ اعاد الموكل ثانية شرعة التمييز العنصري ، واتبعها بتدابير جديدة كانت أشد ما فرض يحقق الأقليات على الاطلاق . فقد أجبر النصارى واليهود على أن يجعلوا على بيوتهم قائليل خشبية للشياطين . وان لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الأرض ، وان يرتدوا معطفاً عسلي اللون ، ويجعلوا على كل من الكهفين رقعتين عسلتين ، تحيط احداهما من امام والثانية من وراء ، وان لا يركبوا الا بغال والمحير ، وذلك على سرج من خشب له على قربوسيه كرتان خشبيتان كأنهما رمائتان^٧ . فصار الذي يسمى بسبب هذه الملابس الخامدة « بالارقط^٨ » . ثم ان القضاة المعاصرین عمدوا الى اعتبار شهادة اليهودي والنصراني على المسلم غير مقبولة ، بناء على الآية القرآنية

(١) سورة الانعام : ١٦٤ .

(٢) البلاذري ، ص ١٦٢ .

(٣) راجع ص ١٠٠ من هذا الجزء .

(٤) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٧١٢ - ١٣ ؛ ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ١٤١ .

(٥) انظر : Laurence E. Browne , *The Eclipse of Christianity in Asia* (Cambridge, 1933), pp. 46 seq.

(٦) الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٣٨٩ - ٩٣ .

(٧) الجاحظ ، البيان ، ج ١ ، ص ٧٩ ، س ٢٨ .

التي تهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدس^١. ولم يقع بعد ذلك اضطهاد خطير حتى زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره (٩٩٦ - ١٠٢١).

واذ أقدم المتوكل على سن هذه الشرائع انطلقت فتنة عنيفة في حصن استرك فيها النصارى والملائكة، لكنها اخضعت بعد مقاومة شديدة (٨٥٥)، وبعد ان ضربت اعناق زعمائها، او جلدو حتى الموت، وصلبوا على ابواب المدينة. ثم هدمت جميع الكنائس الا تلك التي ضمت الى المسجد الكبير، وابعد جميع النصارى من المدينة المائجنة، وقد كان سواد سكانها، على ما يبدو، من النصارى^٢.

كان الحيف الاكبر الذي لحق بالذميين عادة هو ضريبة الجزية. فقد كانت هذه الضريبة، مبدئياً، الشمن الذي يؤدى عن حق الاقامة وحرمة العبادة، وفي مقابل الامان على الحياة وعلى المقتنيات. لذلك كان هذا العقد عرضة للالقاء في حال الامتناع عن دفع الجزية، او القيام بفتنة، او التجوء الى التجسس لحساب دولة غريبة، او ايواء عدو من اعداء الدولة. وقد اضيفت الى ذلك اسباب اخرى مع مرور الزمن، منها الفجور بسلمة حرمة، وصرف المسلم عن دينه، والتتجديف على الله او على رسوله او كتابه.اما المسلم فلم يكن له ان يعتنق النصرانية او اليهودية دون ان يعرض نفسه للموت. وقد اجازوا اقصاء النبي غير المرغوب فيه الى خارج البلاد الاسلامية. وكانت اكثرا المذاهب الفقهية تتبع عن ازال العقوبة القصوى بالمسلم ان هو قتل ذمياً. ولم يمنع غير المسلم من ان يرفع امره الى محكمة اسلامية، ان هو اراد ذلك؟ اما اذا كان احد المتقاضين مسلماً فلا بد من رفع الشكابة الى قاض مسلم. ثم ان القضية اذا كانت بين ذميين من مذهبين مختلفين: احدهما نصراني والآخر يهودي، فان الشرع الاسلامي لا يتعرض لها، الا في حال تعذر الاتفاق بين الفريقين على اختيار المحكمة. ومن ذلك ان الزوج اذا اعتنق الاسلام، وكانت زوجته كتابية، فان عقد الزواج يبقى قانونياً؛ اما اذا اعتنقت هي الاسلام، فينبغي عندها على الزوج ان يتبعها في ذلك، في غضون ثلاثة

١) سورة البقرة: ٧٠؛ سورة المائدة: ١٦ - ١٨.

٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٢٢ - ٢٤؛ ابن الاتир، ج ٧، ص ٥٩ - ٦٠؛ البيقى، ج ٢، ص ٥٩٩. راجع ص ١٢٨ - ١٢٩ من هذا الجزء.

أشهر ، تقطع بينها في إناثها كل صلة زوجية ، والا طلقت منه . أما في ما يتعلق بالارث فقد منعوا على الذمي ان يرث من المسلم شيئاً .

الدخول في الاسلام

حافظت سوريا حتى هذا الوقت – فيما يظهر – على طابعها المسيحي العام ، لكن الوضع أخذ بعد هذا ، يتبدل تبلاً محسوساً . ذلك ان خمسة آلاف من نصارى بني تنوخ في جوار حلب كانوا قد عملاوا باشارة المهدى العباسى واعتنقوا الاسلام^١ . وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان في مطلع القرن التاسع من الاسر العربية الاسلامية الاولى التي استوطنت الجبل . وقد اقطعوا لأنفسهم ، في تلك المنطقة القليلة السكان ، التي لا تزال تعرف بالغرب ، مقاطعة حكموا فيها قروناً عديدة . وقد اقامهم العباسيون حاجزاً دون الموارنة في شمالي لبنان ، وسدأ في وجه الروم المقلبين من البحر . وعندما اقبل الصليبيون اصابوهم في بيروت وجوارها . وكان قد سبق التنوخين الى هذا المكان شيخ الاسرة الارسلانية التي تبعه نسبها الى الخمين ، فاستوطنوا الغرب^٢ . وكان الشیخ الارسلاني من اتباع الامام الاوزاعي ، اما ذريته اليوم فمن اشراف الطبقة الارستقراطية في المجتمع الدرزي . وغالب الظن ان عدداً كبيراً من الاسر المسيحية في سوريا – باستثناء لبنان – قد اوى الى حظيرة الاسلام بعد عهد المتوكل . وربما كان الدافع الى ذلك رغبتهم في تفادي التدابير المذلة والضرائب الفادحة ، وحرصهم على الظفر بالكرامة . الاجتماعية والنفوذ السياسي . وكان الكثيرون من وجهاء النصارى قد هاجروا الى آسيا الصغرى وجزيرة قبرص وهكذا تحقق الوجه الثاني من الفتح الاسلامي ، وهو فتح الاسلام من حيث هو دين وعقيدة ، وكان الفتح الاول فتح القوة المسلحة الذي تم في سوريا قبل ذلك باقل من عشر سنوات .

١) ابن العبرى : *Chronicon Syriacum* ، نشر برتر و كيرتش (ليتنغ ١٧٨٩) ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ؛ رابع من ٩٨ - ٩٩ من هذا الجزء .

٢) عласن المساعي في مناقب الامام ابو عمرو الاوزاعي ، نشر شكيب ارسلان ، (القاهرة) ، ص ١٩ - ٢٠ ، الشيلاق ، ص ٦٤٦ - ٤٧ .

فتح اللغة العربية

اما الوجه الثالث من هذا الفتح فهو الفتح اللغوي^١. كان الانتصار الغوي ابطأ الانتصارات وآخرها. ففي هذا الميدان اخذت الشعوب المغلوبة في سوريا وسواها اشد تدابير المقاومة. والظاهر انهم كانوا أكثر استعداداً للتخلّي عن همودهم السياسية بل والدينية، منهم التنازل عن استقلالهم اللغوي. لذلك استطاعت العربية الفصحى ان تجرب كسبها قبل العامية، فشرع الادباء السوريون في التأليف باللغة العربية تحت رعاية الخليفة، قبل ان ينتحل الفلاحون السوريون اللسان الجديد^٢. واقدم ما وصل اليانا من المخطوطات العربية النثرانية المؤرخة، خطوطه الفها أبو قرة (ت ٨٢٠)، ونسخت سنة ٨٧٧ في دير القديس - سبا قرب القدس^٣. وهي محفوظة اليوم في مكتبة المتحف البريطاني. اما المؤلف، وهو من تلامذة القديس يوحنا الدمشقي، فقد كان اسقف المنصب الملكاني في حـرـان . ولا شك في ان اعتناق الاسلام قد سهل حركة الاستعراب وزاد في سرعة خطاه، وان التحول من لغة سامية الى اخرى لم يواجه مشكلات لغوية مستعصية.

وما ان استهل القرن الثالث عشر، وآذن العصر العباسي بالزوال ، حتى كان النصر قد تم للغربية على اللغة المحلية ، وغدت هي اداة التفاه في الحياة اليومية. اما بقيت هنالك «جزر لغوية» لاقوام غير مسلمين، نظير العاقدة والنمساطرة والموارنة؟ وقد كان في عهد الصليبيين كثير من مثل هذه «الجزر». وعندما زار بنiamين التوردي^٤ جبل سينا حوالي سنة ١١٧٠، وجد على قمته معبداً سريانياً، وعند سفحه قرية كان اهلها يتكلمون «اللغة الكلدانية». وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السريانية المحلية دفاعاً مريضاً وطويلاً، وصمدت في دفاعها حتى القرن السابع عشر^٥. ولا تزال السريانية اللغة المحكمة في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي: معلولا

(١) راجع من ٩٨-٩٥ من هذا الجزء .

(٢) انظر مايساكي في الفصل ٤٢ في الفقرة عن حنين بن اسحاق .

(٣) انظر : Theodorus abu Kurra, *De cultu imaginum*, ed. and tr, I. Arendzen (Bonn, 1897) : قسطنطين الباشا ، ماسن ثاودورس ، (بيروت، ١٩٢٤) ؟ .

(٤) انظر : Itinerary, vol. i, (London, 1840), p. 159.

(٥) راجع حتى ، *التراث السامي المحكم* في سوريا ولبنان (بيروت، ١٩٢٢) من ٣٠ - ٣٤ .

وبنحوه ويجبعاً^١. وهي لا زالت لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة، وفي بعض الكنائس السريانية الأخرى. على أن الموارنة يحرون بعض شعائرهم الكنسية بالكرشوني أيضاً^٢، وهذا الاسم يطلق على العربية المكتوبة بالحرف السرياني. أما السريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم، وليس لدينا إلا نص عربي واحد كتب بالحرف اليوناني. وهو نص من الكتاب المقدس (المزمور ٧٨: ٢٠ - ٣١، ٥٦ - ٦١) يعود، على ما يبدو، إلى القرن الثامن، وقد عثر عليه في الجامع الاموي^٣.

واذ اخذ غير العرب في الاستعراب واعتنق الاسلام عمدوا الى الاتصال ببعض القبائل العربية على صورة موالي^٤ وذابوا فيها تباعاً. ثم اخذ الخط الفاصل بين العرب وغير العرب، وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجددين، في الاختلال؛ وسرعان ما غدا الجميع عرباً بلا تمايز. حتى كان عهد المماليك فعرف فيه سكان الحواضر «باولاد العرب»، وهم يعرفون به الى اليوم تمايزاً لهم من الاعراب سكان البوادي^٥. وقد انقرض السود الاعظم من اولئك الذين تكلموا السريانية في سوريا والعراق، وكانتوا يسمون بالأنباط^٦ او العلوج تمايزاً لهم. ثم زال اسم «آرام»، الذي كان يطلق على سوريا باللغة المحلية، ليحل محله اسم جديد هو الشام، ومعنىه الشمال او اليسار، لانها تقع الى يسار الكعبة، وذلك في مقابل اليمن التي تقع الى اليمن^٧. وهكذا تم تعريب العالم الاسلامي برمتها في غضون العصر العباسي. ولاول مرة اخذ الشعور الوعي بالوحدة، مقررتنا بوحدة اللغة ووحدة الاعتقاد يستحوذ على النفوس .

(١) راجع: G. Bergstrasser, *Newaramäische Märchen und andere Texte von Ma'lula*, (Leipzig, 1915); Anton Spitaler, *Grammatik des neuaramäischen Dialekts von Ma'lula*, (Hamburg, 1938).

(٢) من «غوشون» السريانية بمعنى الترب، وترتدى حرف الكاف «كرشوني».

(٣) انظر: Paul Kahle, *Die arabischen Bibilubersetzung*. (Leipzig, 1904). pp. xiv, 32-33.

(٤) راجع ص ٩٥ - ٩٨ من هذا الجزء.

(٥) انظر ما سأله في الفصل ٤ في آخر البحث عن لبنان.

(٦) المسوudi ، التبيه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٧) المسوudi ، ج ٣ ، ص ١٣٩ - ٤٠ .

على ان اللغة السريانية ما كانت لتزول دون ان تترك طابعها الدائم على اللغة العربية السورية اللبنانيّة . وهذا الطابع هو الفارق الأساسي الذي يميز هذه اللهجة عن لهجات البلدان المجاورة . وهو واضح في التراكيب والمفردات والاصوات اللغوّية . على ان المفردات في اللهجة الدارجة وعند المزارعين غنية بصورة خاصة بالالفاظ المستعاره من السريانية^١ . وهذه اسماء الاشهر قد تحدرت من السريانية مباشرة . وكانت السريانية قد تلقت اكثراها من اصل اكادي^٢ .

- ١) مثلاً على ذلك راجع : Michel T. Féghali, *Etudes sur ces emprunts syriaques* وله أيضاً : *Le Parler de Kfar'abida* (Paris, 1919) *dans les parlars du Liban*, (Paris, 1918), is . ويونس حبيقة في مجلة الشرق، ج ٣٧ (١٩٣٩) ص ٤١٢ - ٢٩٠؛ واغنطيوس افرام في مجلة الجمع العلمي العربي، ج ١٣ (١٩٤٨) ص ٦١ - ٨٢، ٣٢١، ٤٦ - ٤٨١؛ وج ٢٤ (١٩٤٩) ص ٣ - ٢١، ١٦١ - ٨١، ٣٢١، ٤٢ - ٤٨١ وج ٢٥ (١٩٥٠) ص ٣ - ٢٢ الخ . وايضاً : أليس فريجه ، معجم الالفاظ العامية في اللهجة اللبنانيّة (جوبيه ، ١٩٤٧) . أما بشأن الالفاظ الكلبيّة المستعاره فراجع ما سبق ص ١٤٦ - ١٤٧ .
- ٢) هي ابتداءً من كلون الاول والثانى : كانوا معناه المقدّم ؛ شباط : الضارب او المهلّك ؛ اذار : تقييم ؛ نيسان : اللم ، المحرّب ؛ ايار : انتاج الحبوب ؛ حزيران : الحصاد ؛ تموز : وليد الماء المدب (راجع الجزء الاول، ص ١٣، ١٢٦) ؛ آب : العصب ؛ ايلول : التهليل ؛ تشرين : تكرين (أى الله الشمن) .

الترجمة عن اليونانية

الفصل الثاني والأخير فضل السيريان في نهضة العرب الفكرية

كان للشعوب المسيحية الناطقة بالسريانية من الفضل في يقظة العرب العامة ونهضتهم الفكرية، في بغداد زمن العباسيين، ما لم يكن مثله لامة واحدة سواهم – تلك النهضة التي غدت ولا تزال مفخرة العصر الإسلامي القديم. فقد كان العالم العربي، ما بين سنة ٧٥٠ و ٨٥٠، مسرحاً لحركة من ابرز الحركات وأخطرها في تاريخ الفكر. ولقد غيّرت هذه الحركة بالنقل إلى العربية عن الفارسية واليونانية والسريانية، إذ ان العربي لم يحمل معه من الصحراء فناً ولا علمًا ولا فلسفة، ولا شيئاً يذكر من الأدب، إنما رافقته رغبة ملحة في الاطلاع، ونهم شديد للعلم، وشيء كثير من المواعظ الفطرية الكامنة. وقد سعى للعربي في الملال الحصيب أن يصبح الورثي الفكري لعلوم اليونان ومعالم حضارتهم، مما كان من غير شك انفس ما هو ميسور آنذاك من الدخائج الفكرية. فما ان مضى على تأسيس مدينة بغداد (٧٦٢) عقود قليلة، حتى وجد الجمهور الناطق بالعربية في متناوله اهم مؤلفات ارسطو وشرح افلاطون، واعظم مؤلفات ابقراط وجاليوس الطبية، وايز كتب اقليدس الرياضية، واروع آثار بطليموس الجغرافية. ولقد لعب السريان في نقل هذا التراث بمحمله دور الوسيط. ذلك لأن العرب لم يكونوا يحسّنون اليونانية، في حين كان السريان على اتصال باليونان لا كثراً من عشرة قرون. وكان علماؤهم، في القرنين السابقين لظهور الاسلام، يعملون جاهدين في نقل المؤلفات اليونانية إلى السريانية. وقبل ان عمد عمر بن عبد العزيز الى نقل مدرسة الاسكندرية الفلسفية الى انطاكية بوقت طويل، كانت موجة عارمة من الترجمة قد اجتاحت اديار الكنيسة. وهكذا فان الذين اتوا كثوز اليونان العلمية والفلسفية لغيرهم في ما سبق، أصبحوا الآن يؤدون هذه الخدمة عندها الى العرب، واذا بأولئك الذين دُبوا قبل الاسلام على ترقية الناصر الرئيسية في الثقافة اليونانية، وعلى نشرها في اتجاه شرق وبنها في مدارس الها ونصيبين وحران وجنديشابور،

يعملون الآن جاهدين على نقل هذه العناصر إلى قراء العروبة . وكما كانوا في عهد الروم عملاً للحضارة المادية ، ينقلون غلال الشرق إلى الغرب^١ ، هكذا أصبحوا الآن عملاً الثقافة العربية في المجتمع الشرقي .

وكان الكهنة من بينهم ادرام باهيمية منطق اسطو ونظام الافلاطونية الجديدة ، في ما يتصل بالمشادات اللاهوتية ، وهي آنذاك من الحياة الفكرية بنزلة القلب النابض ، حتى ان الانجيل التي فقد اصلها الآرامي^٢ أعيد تدوينها من الترجمة اليونانية ، ونقل الى السريانية الترجمة السبعينية للتوراة بذاتها . وكانت الراها – تلك المدرسة التي انشئت سنة ٣٧٣ – المركز الرئيسي لنشاط الفكر السرياني ، وكان احد اساتذتها صاحب الترجمة الاولى لكتاب الايساغوجيا الذي وضعه فرفوريوس ، وهو كتاب ممتاز في المنطق يقترب عادة بكتاب اسطو في المقولات ويعهد السبيل اليه .اما كتاب اسطو هذا فقد نقله ، بعد ذلك ، سرياني آخر اسمه جورجيس ، وهو الذي سيم سنة ٦٨٦ اسقفاً على القبائل العربية^٣ ، وكانت ابرشيته تضم قبلي تزوخ وتغلب ، ونسوها من قبائل العرب المقيمة في بادية الشام والعراق وقام سرياني آخر ، اشتهر امره قبيل الفتح الاسلامي ، بشرح كتاب اسطو هو كتاب «العبارة». وغدت الشروح السريانية من ثم ثنوذجاً للشروح العربية . وعندما اقفل الامبراطور زينو مدرسة الراها سنة ٤٣٩ ، هاجر اساتذتها المشردون عنبر الحدود الشرقية الى حران ، وهي آنذاك تحت سيطرة الفرس ، وافتتحوا فيها معهداً علمياً جديداً ، او اعادوا فتح معهدتها القديم . وقد وجد غير هؤلاء من ضحايا السياسة البيزنطية ملجأً في المناطق الفارسية – تلك السياسة التي كانت ترمي الى تدمير العقائد الدينية تنفيضاً حارماً في طول البلاد وعرضها .

ومن المواضيع التي كانت موضعًا لعناية السريان الخاصة ، فضلاً عن الفلسفة واللاهوت ، الطب والفلك ؟ وكان الفلك من حيث علاقته بالتنبیح من العلوم المتصلة

١) راجع الجزء الاول من ٣٢٩ - ٣٨٩ ، ٣٣٠ - ٣٩٣ .

٢) راجع الجزء الاول من ١٨٢ - ١٨٣ .

٣) انظر : Assemani , vol. i , pp. 494 ; Rubens Duval , *La Littérature syriaque* , 3rd. ed. (Paris , 1907) , pp. 353 , 377 ; Barhebraeus , *Chronicon ecclésiasticum* , ed. and tr. J. B. Abbéloos and T. J. Lamy (Louvain , 1872) , vol. i , cols. 303-6.

بالطب . ففي سنة ٥٥٥ انشأ كسرى أنوشروان في جنديشابور معهداً للطب والفلسفة ، كان عدد وأفر من كبار أساتذته من علماء النصارى ، وكانوا يلقون دروسهم باللغة السريانية . من هؤلاء جورجيس بن بختيشع عميد المعهد ، وهو الذي استدعاه المنصور سنة ٧٦٥ في استشارة طبية ، وعرض عليه الدخول في الإسلام وقال له أنا أضمن لك الجنة ، فكان جوابه : « قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار »^١ . وجورجيس هذا مؤسس أسرة من الأطباء استأثرت بمارسة الطبابة في دار الخلافة استثنائاً كاد يكون تاماً ، استمر ستة أو سبعة من الأجيال . وكان ابنه بختيشع (ت ٨٠١) رئيس الأطباء في مستشفى بغداد في خلافة الرشيد .

حنين بن إسحاق

ويعزى إلى يوحنا (يجي) بن ماسويه وهو تلميذ نصراني لعالم آخر من آل بختيشع أنه ترجم للرشيد عدداً من الكتب أكثرها في الطب ، كان الخليفة قد غنمها في بعض غاراته على آسية الصغرى^٢ . وكان حنين بن إسحاق (٩٧٣ - ٨٠٩)، وهو تلميذ يوحنا ، من أعظم مترجمي العصر ، ومن أبرز شخصياته وابنائها ، ومن أبناء الكنيسة السريانية الشرقيّة ؛ ولد في الحيرة ، وقامه الأمون قياماً على بيت الحكمة – تلك المؤسسة التي أنشأها الأمون وقام فيها مكتبة ومتحفاً ومعهداً للترجمة . وكان يساعد حنيناً في عمله ابنه إسحاق^٣ ، وابن اخته جيش بن الحسن^٤ . على أن الوالد كان أجود معرفة باليونانية ، فكان لذلك يحقق المرحلة الأولى ، فينقل الكتاب من اليونانية إلى السريانية ، ثم يدفعه إلى معاونيه فينقلونه من الترجمة السريانية إلى اللغة العربية . وعلى ذلك فقد دعثت أكثر مؤلفات ارسسطو وجاليتوس^٥ .

١) القبطي ، تاريخ الحكمة ، نشرج لبرت (ليرترغ ، ١٩٠٣) ص ١٥٨ - ٦٠ ؛ الفهرست ، ص ٢٩٦ ؛ ابن البري ، ص ٢١٣ - ١٥ ؛ ابن أبي اصيحة ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

٢) ابن البري ، ص ٢٢٧ ؛ ابن أبي اصيحة ، ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ القبطي ، ص ٣٨٠ .

٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١١٦ .

٤) الفهرست ، ص ٢٩٧ ، ابن البري ، ص ٢٥٢ ؛ ابن أبي اصيحة ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، ٢٠٣ .

٥) لقد اعتمد حنين في بعض مؤلفات جاليتوس على ترجمات سريانية كان ايوب الراهوي (حوالي ٧٦٠ - ٨٣٥) قد تقلّها عن اليونانية . انظر : Job of Edessa, Book of Treasurss, ed A. Mingana (Cambridge , 1935), pp. xix-xx ; Barhebraeus, vol. iii, Cols. 181-2.

في متناول الطالب العربي. ويعزى كذلك إلى حسين أنه ترجم رسائل ابقراط الطبية، وسياسة أفلاطون. ويتبين لدى مقاولة هذه الترجمات بأصولها أن الترجمة السريانية كانت في جميع الحالات أقرب إلى الأصل اليوناني، وإن الترجمة العربية كانت شرحاً للترجمة السريانية. ولقد كان حسين يعالج أموراً أخرى غير الترجمة؛ فقد جعله المتوكل طبيبه الخاص، وأمر مرة بسبعينه لانه ألى ان يركب سباً لقتل أحد أعدائه.

وكان مجبي بن عدي (٩٧٤) مترجماً آخر من مشاهير المתרגمين. وقد عمل على تهذيب عدد من الكتب المترجمة السابقة، وابنها ترجمات عديدة لكتاب ارسطر «الشعر» وكتابي أفلاطون «التواميس» و«طهاروس». وكان مجبي هذا تابعاً للملة السريانية الغربية التي انجذب علماء آخرين احتذوا مثـالـ زملائهم أبناء الملة الشرقية. وادخلوا على مترجمـهم تحسـينـاتـ شـتـىـ. ومن عـلـواـ فـيـ هـذـاـ الحـقـلـ مـنـ النـصـارـىـ قـسـطاـ ابن لوقا العـلـبـكـيـ (تـ حـوـالـيـ ٩١٢ـ)ـ الـذـيـ اـشـهـرـ عـلـىـ الـاخـصـ بـتـرـجـمـةـ الـمـؤـلـفـاتـ الـرـياـضـيـةـ وـالـفـلـسـفـيـةـ. وـكـانـ قـسـطاـ هـذـاـ يـحـسـنـ الـيـونـانـيـ وـالـسـرـيـانـيـ وـالـعـرـبـيـةـ. وـكـانـ يـرـحلـ إـلـىـ بـلـادـ الرـوـمـ فـيـ طـلـبـ الـكـتـبـ، وـيـعـكـفـ عـلـىـ الـاشـغـالـ هـاـيـاـ فـيـ بـغـدـادـ. وـقـدـ اـدـرـكـتـهـ الـوفـاةـ فـيـ اـرـمـينـيـاـ بـعـدـ أـنـ خـلـفـ ٦٩ـ مـؤـلـفـاـ مـوـضـعـاـ وـ١٧ـ كـتـابـاـ مـتـرـجـماـ. وـاقـيمـ لـهـ فـيـ مـكـانـ وـفـاتـهـ مـدـفـنـ تـذـكـاريـ^١.

على أن السريان لم يلقو بالـاـلـىـ الشـعـرـ الـيـونـانـيـ، وـكـذـالـكـ كانـ موـقـفـ العـرـبـ منهـ. وـمـسـعـ اـنـ مـارـونـيـاـ مـنـ مـنـجـيـيـ المـهـدـيـ اـسـمـهـ تـأـوـفـيلـ الـرـهـاوـيـ عـدـ الـىـ نـقـلـ الـيـادـةـ هوـمـيرـوسـ وـادـسـتـهـ. فـإـنـ الـبقاءـ لـمـ يـكـتبـ لهـ^٢.

الصادمة

ولم يقتصر الفضل على النصارى من السريان وحدهم، بل قد كان للوثنيين منهم كذلك فضل كبير على حياة العرب الفكرية. وهؤلاء السريان الوثنيون هم

(١) الفهرست، ص ٢٩٥، القبطي، ص ٢٦٢ - ٦٣؛ G. Gabrieli in *Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei*, ser. 5, vol. xxii (Rome, 1912) pp. 361-82.

(٢) Assemani, vol. i pp. 521-22؛ الكتبة البتانية؛ قابل التزيري، ص ٤٤؛ راجع من ١٤٢ من هذا الجزء؛ الدبس، تاريخ سوريا، ج ٣، ص ٢٩٧.



ترجمة عربية لكتاب من كتب جالينوس

مثل هذه الصفة المضورة السطور الاولى من احد حصول كتاب الصناعة الصغير جالينوس الذي
ترجمه حنين بن اسحق . ويعود تاريخ هذه النسخة الى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) . وهذا الخطوط
اقدم من اي خطوط موجود لهذا الكتاب في اليونانية واللاتينية ، وفيه اقسام لم تنشر بعد ولم تترجم الى
أية لغة اوروبية حديثة

الصافية او على الاصح هم منتقلو الصابئية^١ . وقد كانوا يقيمون في مدينة حران .
ولما كان هؤلاء من عبادة النجوم وكانت ورثة العلوم البابلية ، فقد توفروا على الاهتمام
بالفلك والعلوم المتصلة به من عهد عريق في الفسلم . اما في ما يتصل بالاقبال على
علوم اليونان فقد كان لهم من الرغبة فيها ما كان لمواطنيهم التصارى . وكان من ابرز
علماء الفلك ثابت بن قرة (حوالي ٨٣٦ - ٩٠١) وإليه والى تلاميذه يعود الفضل
في ترجمة معظم المؤلفات اليونانية في الفلك والرياضيات ، لاسيما مؤلفات بطليموس
وارخيمند^٢ . هذا عدا تهذيب الترجمات السابقة ، نظير ما قام به ثابت بن قرة من

Hitti, *History of the Arabs*, p. 358. (١)

(٢) الفهرست ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ؛ ابن أبي اصبيعة ، ج ١ ، ص ٢١٨ - ٢٠٠

تمذيب ترجمة حنين بن اسحق لآثار اقليدس^١. وقد تعهد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لاحد احفاده، وبنى كل منهم شهرة لنفسه في ذلك. وقد حمل احد الخلفاء سنان بن ثابت على اعتناق الاسلام^٢، وكذلك اسحق بن حنين فقد حمل على قبول الاسلام دينآ له^٣.

وكان محمد بن جابر بن سنان البشتي (حوالي ٨٥٨ - ٩٢٩) مسلماً آخر من لصل صابئي، وعالماً من مشاهير علماء الرقة. قام بابحاث مبتكرة ادت الى اصلاحات كثيرة في نظام افلاوطين، لاسيما في حساب فلك القمر وافلاك بعض الكواكب السارية الأخرى. وقد جاءت ارماده للخسوف والكسوف رائعة من حيث سعة مداها ومقدار دقتها. ثم اثبت امكان وقوع الكسوف سنوياً وفرو بارقام ، ادق مما في الارصاد السابقة، مقدار الانحراف في دائرة الفلك ، ومدى طول السنة الاستوائية وقد عين في احدى نظرياته المبتكرة الاحوال التي يستطيع فيها رؤية الملال الجديد. وأثره النفيس الباقي، وهو «الزيج الصابئ»، ترجم لأول مرة الى اللاتينية في اسبانيا وذلك في القرن الثاني عشر^٤.

على انه من المحتسب ان يكون الاراميون والسريان المقيمون في بلاد بابل قد عملوا على نقل آثار رياضية وفلكلورية اخرى. ذلك ان الجبر مثلًا يظهر لتوه عالماً مستكملاً في كتاب للرياضي الشهير الحوارمي (ت ٨٥٠). وقد كان لهذا العلم عند البابليين اسم خاص هو هذا الاسم عينه أي «غبرو». لكن حلقات الاتصال المفترضة بين السريانية والبابلية في هذا الموضوع مفقودة تماماً^٥.

(١) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ١٧٧ ، ٢٩٨ ، ٠

(٢) الفهرست ، ص ٣٠٤ ؛ ابن أبي اصيحة ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢١ .

(٣) البيهقي ، تاريخ حكماء الاسلام ، نشر محمد كرد علي ، (دمشق ، ١٩٤٦) ص ١٩ .

(٤) نشره نلينو في ثلاثة مجلدات (روما ، ١٨٩٩ - ١٩٠٧) . للاستزادة من اخبار البشتي

راجع الفهرست ، ص ٢٧٩ .

(٥) من التعبيرات العلمية المستعارة من اليونانية واللاتينية مباشرة او بطريق السريانية ، والتي لا تزال متداولة في اللغة لفظة : فلسفة ، وجغرافية ، وموسيقى . وهناك الفاظ يونانية ولاتينية اخرى تمررت في ازمنة مختلفة منها : كورة (منطقة) واسكلة (مرفأ) ونوقي (ملاح - قابل باللقط الانكليزي Nautical) وسيف (سيفوس باليونانية) . اما الالفاظ الواردة من اصل قاريء فتها : بستان (حقل) وديدب (حارس) وسرابيل (بنيطون) وصومجان (قضيب السلطة) .

المأثر السريانية الأصلية

من الواضح ان معظم النتاج السرياني يتتألف من الشروح والترجمات . ولذلك كان يعززه الكثير من صفة الابتكار والخلق . وعلى ذلك لم يتحدد اليانا ما يمثل نتاجهم الاصليل الا الشيء القليل . ذلك ان الكهنة السريان المغرقين في النسك والتقطش لم يكونوا في حقل واحد على الاقل مجرد نقلة ومقليدين . ففي هذا الحقل بالذات جرى تفكيرهم في اتجاه موازي لاتجاه الصوفي ، على نحو يشير الاستغراب . وهذا اسحق التينيري الذي زها في اواخر القرن السادس يحضر في رسائله واحاديثه على التأمل ، وينذهب الى انه بثابة نفس ثانية ، وروح ملهم . ثم يقرر ان هذا الروح لا يمكن ان يتولد في العقل . لذلك يوصي اتباعه بان ينشدوا العزلة ، وينصح لكل منهم ان يتصور في ابان تأمله ان ليس في الدنيا من شيء الا هو نفسه والله الذي هو موضوع تأمله^١ . وكان هنالك ناسك سرياني آخر اسمه سمعان الطبيون (ت حوالي ٦٨٠) يعلم بان ضرباً واحداً من المعارف على الاقل لا يدرك عن طريق الافاظ بل بالحس الباطني ، وان هذا النوع من العلم هو اسمى خروب المعرفة لانه يصل الى كنه الاله^٢ وقد اشتهر ابن العبري (١٢٢٦ - ٨٦) – وكان كائناً يعقوبياً في حلب – بالتأليف في الالهوت والتاريخ باللغتين السريانية وال العربية ، وقد استعنَ بعض مؤلفاته في اعداد هذا الكتاب .

المأثر الإسلامية - ابو تمام

وفي هذا العصر تجلت ارفع مواهب سوريا الإسلامية في ما ظهر فيها من الشعر . فقد بُرِز اثنان من ابنائها هما ابو تمام والبحتري وبلفسا من التفوق درجة اهلتها للالتحاق بالبلاط العباسي فصارا من شعراء الخلفاء . ولد حبيب بن اوس^٣ المعروف بابي تمام (حوالي ٨٠٤ - ٨٥٠) في قرية جاسم في حوران . وكان ابوه نصرانياً يتعاطى صناعة العقاقير . اعتنق الاسلام وهو بعده فقي ، والحق نفسه بيئي طيء .

١) للاستزادة من اخبار اسحق هنا راجع : Assemani, vol. i, p. 444-63

Margaret Smith, *an Early Mystic of Baghdad.* (London, 1935). P. 101, n.2. (٢)

٣) اوس عرف عن تدوين (نيودونيوس ؟) ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢١٤ ؛ السيوطي ، حسن المعاشرة ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

ثم انه قام بجولة في العالم الاسلامي، على جاري عادة الادباء في بلاده، فزار مصر حيث اشتغل بسقاية الماء، وقصد الى الحجاز، ثم تحول الى ارمانيا ففارس فالعراق، واستقر اخيراً في بغداد. وقد تيسر له الاتصال بالحليفة المعتصم في عاصمه الجديدة سامراً^١، ورافقه في حملة المظفرة على عمورية، ووحف هذه الحملة بقصيدة^٢، هي الى الان بما يحفظه احداث الطلاب غبياً. وقد عاش كما عاش شعراً عصره، فشرب المخمر وسمع الغناء وعاشر الفواني، وكان قليل الاحتفال باوامر الدين ونواهيه^٣. على ان مكانته الرفيعة لا تقوم على الشعر الذي نظمها فحسب، بل وعلى كتابه المعروف بـ*ديوان الحماسة*^٤، والمشتمل على روائع الشعر من زمن الجاهلي حتى العصر الذي عاش فيه. ونحن مدینون في وجود هذا الجموع من الشعر العربي الى حدث بسيط في حد ذاته هو ان الشاعر احتبس في بعض اسواره في هذان، بسبب تراكم التلوّج وانقطاع الطرق، فنزل على وجيه من ادبائها عثر في مكتبه على عدد وافر من مجموعات الشعر الجاهلي وعلى شيء من شعر بعض الاقطار العربية، فكانت يقضى بعض اوقاته في تصفحها^٥. وقد امضى ابو قاتم ايامه الاخيرة في الموصل، وفيها دفن.

ابو عبيدة البحري

اما زميله الاصغر ابو عبيدة الوليد، المشهور بالبحري (حوالي ٨٢٠ - ٩٧)، فقد ولد في منبع، وينتهي به النسب الى عشيرة بخت من بني طيء^٦. وفي الاخبار ان ابو قاتم صادفة في حصن، وسمعه ينشد قصيدة عصماء، فشهد به لاهل المعرفة خير شهادة، فتعاقدوا معه على مرتب قدره اربعة الاف درهم. وقد اعجب البحري من جانبه بابي قاتم واحتذى مثاله في نظم الشعر. وقاده طموحه الى بغداد فقدها فيها

١) *ديوان ابو قاتم* ، نشر شاهين عطية (بيروت، ١٨٨٩) ص ١٥ - ١٨؛ قابل الصولى، اخبار ابو قاتم ، نشر خليل عساكر (القاهرة، ١٩٣٧)، ص ١٠٩ - ١١٣.

٢) *السعدي* ، ج ٢ ، ص ١٥١.

٣) البريزي ، شرح *ديوان الحماسة*، ٣ مجلدات (بولاق، ١٢٩٦)؛ G. G. Freytag, *Ha-masae carmina*, 2 vols. (Bonn, 1847-51); Friedrich Rückert, *Hamasa*, 2 vols (Stuttgart, 1846).

٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٦٨.

٥) ياقوت ، معجم الادباء ، ج ٧ ، ص ٢٢٦.

شاعر الموكل ومن تولى بعده من الخلفاء، وحظي بصورة خاصة عند العترة. وكانت البحتري من البخل بحيث يرتدي الملابس القذرة، ويقتصر على غلامه وأخيه حتى ليكاد الجوع يقضي عليهم^١. وكان نظير زملائه، يستخدم شاعريته لاستدرار الأموال من ذوي السلطة وأصحاب التروات، مهدداً - في حال الحرمان - بالتحول إلى المجاهد. وفي ديوانه قصائد قالها في بعض الناس مادحاً وهاجياً^٢. وفي ديوانه يتجلّى أيضاً حبه للخبرة^٣. وبرأته في وصف الفصور والبرك وحيوان الغلة^٤. وهو ما ينذر وجوده في الشعر العربي. وللبحتري غير ديوانه كتاب شعر مجموع هو كتاب الحماسة^٥ لكنه لم يحظ لدى علماء اللغة باللزلة التي كانت لكتاب زميله السابق أبي قاتم. ولقد اعتبر نقاد العرب البحتري في ما تلا من العصور، أجد ثلاثة شعراء هم في طليعة الشعراء العباسين، أما الآثنان الباقيان فهما أبو قاتم والمتنبي^٦. «وربما اغترَ أكثر النقاد الأوروبيين البحتري دون المتنبي مكانة»، لكنهم يجهلونه من حيث مواهبه الشعرية فوق أبي قاتم براحته^٧.

ديك الجن المحمي

ولقد كان دون هذين براحتل بعيدة شاعر آخر هو عبد السلام بن رغبان (٧٧٧ - ٨٤٩) الملقب بديك الجن ل بشاعة سخنته وخضرة عينيه. وهو من أبناء حمص، لزم موطنها طول حياته فلم يرجمه. وكان في الراجح من ذرية نصراني اعتنق الإسلام في موقعة مؤته^٨. على أن شاعرنا هذا يتمتع باهمية خاصة لأنّه عمد في شعره - الذي لم يبق منه إلا القليل - إلى تأييد قضية الشعوب المغلوبة في وجه مفاحر العرب، ودافع عن تفوق السريان - أي السريان المستعربين - ضد العرب.

١) الأغاني، ج ١٨، ص ١٧٠.

٢) المبلد الأول؛ (القسطنطينية، ١٣٠٠)، ص ١١٧، ٨٧، ٧٥ - ١١٩.

٣) المبلد الثاني، ص ١٧٦، ١٨٦.

٤) المبلد الأول، ص ١١١، ٥١، ١٦٤، ١٠٨.

٥) نشره : R. Geyer and D. S. Margoliouth (Leiden, 1909).

٦) انظر ما سأتأتي في الفصل ٤٣ في الفقرة عن المتنبي.

٧) انظر : D. S. Margoliouth, art. «al-Buhturi» *Encyclopedia of Islam*.

٨) الأغاني، ج ١٢، ص ١٤٢؛ ابن خلkan، ج ١، ص ٥٢٥؛ راجع ص ٤ من هذا الجزء.

لذلك كان خليقاً بان يعتبر رائدأ لتلك المدرسة الفكرية المأمة التي عرفت بالشعوبية^١، لاسيما وقد ارتدت طابعاً سياسياً في فارس وفي سواها من البلدان . ولقد كان ديك الجن شيعياً معتدلاً ، ومع اعتداله اقرب الى التهادى ، اذ بذر امواله في الناس الطرب والسعى وراء المذات . وفي ساعة اهتياج من ساعات الغيرة الشديدة عمد الى ابرأته – وكانت قبل امة نصرانية عنده – فسدده اليها طعنة قاتلة . لكنه تثبت بعدئذ من براعتها ، فكان طيفها لا ينفك يعتاده ، فيبرح به الالم ، على ما وصف في شعره الذي يتدفق عاطفة^٢ .

الامام الاوزاعي

اما في غير الشعر ، فقد يربز الفقيه والمتشريع عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي^٣ . ولد في بعلبك سنة ٧٠٧ ، وزها في بيروت ، وفيها ادركته الوفاة سنة ٧٧٤ وهو في الخام . ولا يزال مقامه^٤ يعلو الرمال المنتشرة الى الجنوب من المدينة . اشتهر الامام الاوزاعي بالعلم والزهد وتميز بالجرأة الادبية^٥ ! وقد قال عنه احد مؤلفي التراجم انه «امام اهل الشام ، ولم يكن بالشام اعلم منه»^٦ . ولقد عارض الاوزاعي الامام مالك وابا حنيفة ، واستنكر ما اقرّاه من تدبیر صارمة بحق المشركين ، نظير قطع اشجارهم وهدم كنائسهم وتخريب بيوتهم^٧ . وعندما قدم المنصور الى سوريا سمع الاوزاعي يعظ فاعجب به اعجبآ شديداً . وقد بقى المذهب الفقهي

١) هي النسبة الى الشعوب والمقصود بها الشعوب غير العربية كما في القرآن سورة الحجرات آية ١٣ .

٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٢٦ - ٢٧ ؛ الاغاني ، ج ١٢ ، ص ١٤٣ - ٤٦ .

٣) سمي بذلك امام نسبة الى قبيلة يمنية او الى ضاحية من ضواحي دمشق ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٠٣ - ٤ ، ابن الاثير ، الباب في تهذيب الانساب (القاهرة ، ١٣٥٧) ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٢٥١٤ ؛ أبو الفداء ، ج ٢ ، ص ٧ .

٤) راجع ما سبق ، ص ٣٤ من هذا الجزء .

٥) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء .

٦) ابن خلكان ، ج ١ ص ٤٩٣ . وللاستزادة من اخباره راجع : زين الدين الخطيب ، ملخص المساعي في مناقب الامام اي عمرو الاوزاعي ، نشر شکیب اوسلان (القاهرة) ص ٤ ، ٩٤ - ٩٥ .

٧) الطبرى ، اختلاف الفقهاء ، نشر (Joseph Schacht (Leyden, 1933) ص ١٢١ ، ١٤١ .

الذي وضعه هذا المشرع شائعاً في سوريا نحواً من قرنين ، قبل ان يحرج عنه المذهب الحنفي والفقه الشافعي ؟ وتوثق كذلك في الاندلس والمغرب نحواً من اربعين سنة ، ثم حل محل المذهب المالكي^١ .

ومع اننا لا نعلم اليوم الكثير عن مذهب الاوزاعي ، فان الراجح انه لم يتأثر بالقانون الروماني الذي كان قد شاع آثئذ في سوريا حيث كان الاوزاعي يعلم ، والذي كان يدرس على نطاق واسع في بيروت^٢ حيث كان الاوزاعي يقيم . فالقانون الجزائري في الاسلام ، والقانون المدني الذي ينص على قضايا الزواج والارث والربا ونحوها ، وارد في الكتاب المنزل . وليس هنالك من مشابهات بين النظائر الا في العقود والمعاملات . ولأن كانت بعض التعبيرات القانونية في العربية واللاتينية ذات مدلول واحد ، نظير : فقه و «قضاء» ، وفتوى و «راعي» ، واجتاع و «اتفاق» ، وعادة و «عرف» ، ومصلحة العامة و «صالح الجمهور» . فان ذلك لا ينبع بالضرورة عن التوسيع والاستعارة . وليس هنالك الفاظ مستعارة ، ولا كلمات يونانية ولا لاتينية معربة ؟ ولسنا نعلم – الى ذلك كله – بان كتاباً من كتب القانون الروماني او البيزنطي سبق ان نقل الى العربية .

١) صالح ، ص ٢٣ .

٢) راجع الجزء الاول من ٣٦٠ وما يتبع .

الفصل الثالث والأخير سوريةإقليم تابع لبعض الدوليات

الطولانيون

كان قيام الحرس التزكي، في عهد خلفاء المأمون (ت ٨٣٣)، أول بادرة من بوادر الانحلال في الحكم العباسي. فقد غدت هذه الجماعة – نظير الانكشارية في التاريخ العثماني – أشد نفوذاً من الخليفة نفسه؛ واستطاعت، بين الحين والحين، أن تحمل الخليفة صاعراً على ما تشاء وتهوى^١. وأخذ نفوذ العباسيين، بعد هذا الزمن، ينحى شيئاً فشيئاً، واستمر هذا الانحلال عليهم إلا في فترات قليلة قصيرة. وكان ذلك بثابة انتشار بطيء، دفعت إليه الخلافة تمهيداً لقبل «الفردية القاضية» من يد هولاكو وجاءته من عاثر المغول (١٢٥٨). وفيما كانت الخلافة العباسية ترداد تفسخاً، كانت بعض السلاطات المتقدمة الصغرى، وجلها من أهل عربي، تقطع لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة الغربية، وبعضها الآخر – وجلها من الترك والفرس – تفعل مثل ذلك في المناطق الشرقية.

وكان أولى الدوليات الناشئة المتصلة بسوريا، دولة قصيرة العمر هي الدولة الطولونية (٨٦٨ – ٩٠٥)، أسسها أحمد بن طولون (٨٨٤ – ٨٦٨)، وكان أبوه مولى تركياً أرسل من بمبارى هدية إلى الخليفة المأمون^٢. بدأ أحمد حياته السياسية، عندما وجهه زوج امه إلى مصر، على أثر تعينه أميراً اقطاعياً وحاكمًا عليها؛ وذلك لينوب عنه ريثما يتوجه هو إليها. لكن الشاب الطموح، ما كاد يبلغها حتى بدأ يضع الخطط، مستغلًا تراجعي المسافة الفاصلة بينه وبين الحكومة المركزية، ليتصرف بصرفاً مستقلاً^٣. وقد زاد عدد جنوده بناء على ترجيحه من الخليفة حتى

١) داجع من ١٦٧ من هذا الجزء.

٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٦٧٠؛ ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٩٥؛ ج ٤، ص ٢٩٧.

٣) اليعقوبى، ج ٢، ص ٦١٥ وما بعده؛ الطبرى، ج ٣، ص ١٦٩٧.

بلغ ، في ما روي ، مئة ألف مقاتل ؛ وسار برباله إلى سوريا ليخضع ثائراً كان قد ظهر فيها — وكثيراً ما كانت سوريا بلد التأثير على الحكم العثماني .

وأناحت هذه السانحة لابن طولون فرصة الدخول إلى هذا البلد المجاور . وما ان توفي حاكم سوريا سنة ٨٧٧ ، حتى بدا ان الوقت مواتٍ لاحتلالها احتلاًاماً . فعبر الجيش المصري الرملة في الجنوب إلى دمشق ، وتوجه من ثم إلى حمص فجاء ، حتى بلغ حلب بدون مقاومة . لكن انتاكية وحدها اغلقت ابوابها في وجهه ، ففتحها عنوة بعد حصار قصير^١ . وفي سنة ٩٢٦ (٨٧٩م) اقام ابن طولون نفسه حاكماً على البلدين ؛ وفي سنة ٨٧٥ وقع حادث كان بمثابة امتحان لقيمة الاستقلال العملية ؛ ذلك ان الخليفة المعتمد وجد نفسه في حاجة ماسة إلى النقود ، فارسل إلى ابن طولون في طلب المال ، لكنه عليه على مصر امتنع عن تلبية هذا الطلب .

وكان هذا الحادث نقطة تحول في تاريخ مصر ؛ اذ دخلت من ثم ، ومنذ ذلك الحين ، في طور جديد من حياتها السياسية غدت بمحكمه دولة مستقلة . وقد حافظت على هذا الوضع في غضون القرون التالية الا لفترة واحدة ؛ وكانت سوريا في انتهاء هذا العهد الطويل تابعة لمصر ، كما كان شأنها في زمن الفراعنة . وهكذا عادت الصلات التي كانت قد انقطعت ، قبل ذلك ب نحو من الف عام ، إلى سابق عهدها الوثيق . على ان هذا التحول كان في مصلحة بلاد النيل ، فكان اقل ما انتفت أن موارد البلاد كانت تتفق برمتها في مصر ، في حين لم يحيط الاقليم السوري التابع بشيء من الاصلاح .

كان احمد بن طولون مثال الحاكم العسكري المستبد ؛ قبض على ازمة الامور بيد من حديد ، وبني جهازاً عسكرياً قوياً كان عليه اعتناؤه في صيانة سلطانه . وكانت نواة هذا الجهاز فرقة من الحرس تشتمل على ٢٤ الف تركيّ ، و٤٠ الف زنجيّ ، اخذ على كل منهم بفرده عهد الولاء . ثم انه عمد إلى وضع منهج من المشاريع العمرانية العامة لم يسبق له مثيل منذ عهد الفراعنة . وكأنما اراد بذلك ان يبرر اغتصابه للحكم في عيون رعاياه ؛ فأنشأ في عاصمه الفسطاط ، لاسيما في حيها

١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ الكندي ، نشر غوست Guest ، ص ٢١٩ وما بعد .

الجديد المعروف بالقطائع^١، مباني فخمة، بينها مستشفى ومسجد. أما المستشفى^٢ فقد انفق على بنائه ٦٠ ألف دينار، وكان الوحيد من نوعه في مصر، وعن موارد الممتلكات الخاصة في سوريا لتفصيّة نفقاته الجارحة. وأما المسجد، الذي لا يزال يعرف باسمه، فيعد من أفحى المباني التذكارية في مصر الإسلامية. وقد انفق على بنائه ضعفي ما انفق على المستشفى^٣، وراغي في بعض تفاصيله المناسبة الطراز السامري حيث قضى ابن طولون فترة صباه. وجدير بالذكر أن مئذنة هذا المسجد هي أقدم المآذن التي لا تزال قائمة في مصر. على أن ادخال الطراز العراقي في البناء لم ينبع^٤ عن مصر الطراز السوري اليونياني السابق، ولا قدر له أن ينتشر فيها انتشاراً واسعاً. وعلى ذلك فمسجد ابن طولون هو المثال الوحيد الباقى لما يمثل ذلك الطراز.

اما على الشاطئِ السوري، فقد حصن ابن طولون مدينة عكا، وانشأ فيها قاعدة بحرية. وكان البرج الذي يعلو سورها المزدوج من القوة بحيث صمد، بعد ذلك بثلاثة قرون، في وجه ملوك الصليبيين، مدة سنتين؛ وشهد بناءتها صمودها سنة ١٧٩٩ لدفعية ثابوليون البرية^٥. وقد روى العالم المغرافي السوري (المقدسي^٦) أن جده استدعيَ شخصياً من القدس، ليقوم بالعمل الذي طلما قام به وهو بناء مرفأ في الماء. فتحقق ذلك بان ختم جذوعاً من الخشب الضخم بعضاها إلى بعض، وحملها بالصخور الثقيلة: ثم جعل في الوسط باباً دليلاً منه سلالم طويلة، فكان بامكان السفن الدخالة ليلاً ان تجنبها فتثير بذلك الى وصولها.

خارويه

وتولى الحكم، بعد ابن طولون، ابنه المسرف الفاسد خمارويه (٨٨٤ - ٩٥)، وهو بعد في العشرين من عمره؛ وكان واحداً من ثلاثة وثلاثين ولداً لأبيه، بينهم

١) المقريزى، ج ١، ص ٣١٣ وما يتبع.

٢) الاسم العربي له: بيارستان؛ اظر في الفصل السابع والاربعين الفقرة الخاصة بالمستشفيات، والهامش الاول؛ ابن تمرى بردى، الج้อม الراهنة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوبنبل، ج ٢، (ليدن، ١٨٥٥)، ص ١١؛ الكتبى، ص ٢١٦.

٣) ابن تمرى بردى، ج ٢، ص ٨؛ ابن خل كان، ج ١، ص ٩٧.

٤) انظر في الفصل التاسع والاربعين في فقرة عن أحد بابا المزار.

٥) ص ٦٣ - ١٦٩: كافي ياتوت، ج ٣، ص ٧٠٧ - ٨.

سبعة وعشرون من الذكور^١. وقد بني قصراً جعل فيه قاعدة مذهبة الجدران ، زينها بصور نائمة تثلج نساءه وقيانه^٢. أما حديقة القصر ، فكانت حافلة بالأشجار المستوردة المفروسة حول أحواض الماء المذهبة ، محفوفة بالياحين النابضة في خطوط تشكل الفاظاً عربية . وقد اشتمل القصر – إلى ذلك – على مأوى للطيور ، وحديقة للحيوانات ، وحوض من رتيب . وكان يطفو على سطح هذا الحوض وساند من الجلد ، تدللت منها حبال من الحرير ، ربطت إلى أعمدة من الفضة : فكان الأمير إذ يستلقي عليها ، تهتز به ، حتى يغلبه النعاس فينام^٣ .

وقد امتد سلطان الطولونيين في عهد خارويه من برقه إلى الفرات ، بل إلى أبعد من ذلك – إلى دجلة . واقر المعتمد ، لدى اعتلائه سدة الخلافة سنة ٨٩٢ – وهو أقوىخلفاء فترة الانحلال وأمضاهم عزيزة – الوضع القائم . وثبتت سلطة الحاكم وورثاته على هذه الممتلكات الواسعة لمدة ثلاثين سنة ؛ وذلك في مقابل جعالة سنوية مقدارها ثلاثة مئة ألف دينار . بل إن الخليفة خطب إلى خارويه ابنته الجميلة قطر الندى ؛ وعندما زفت إليه ، أغدق عليها والدها مهرأً بلغ ، في ما روي ، مليون درهم ؛ واهداها ألف هاون من الذهب ، وتحتها أخرى « وجهزها بجهاز لم يجعل مثله^٤ » .

على أن تبذير خارويه ترك الحزينة فارغة . وقد بلغ من الإسراف في معاشرة العلمان – على ما في بعض الأخبار^٥ – مبلغاً أثار عليه عيده ، فانقضوا عليه ذات ليلة وهو في دارة له خارج دمشق وقتلوه . ونقل جثمانه إلى مصر ليُدفن فيها ، وفيها كان يوارى في التراب ، كان سبعة من القراء يقرؤون على قبر والده المجاور . فادا بهم يرثون اتفاقاً : « خذوه فاعتلوه إلى سوا الجحيم^٦ » . أما ابنه وخليفه « جيش » ،

١) ابن تفري بردبي ، ج ٢ ، ص ٢١ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ١١ .

٢) ابن تفري بردبي ، ج ٢ ، ص ٥٧ – ٥٨ ؛ المقريزي ، ج ١ ، ص ٣١٦ – ١٧ .

٣) ابن تفري بردبي ، ج ٢ ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ المقريزي ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

٤) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٣١٠ ؛ قابل ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ – ٨ ؛ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٢١٤٥ – ٤٦ ؛ ابن تفري بردبي ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

٥) ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .

٦) سورة الدخان ، الآية ٤٧ .

فما مضى على ولايته سبعة أشهر ، حتى قتله جماعة من جنده ، كانت سرجمهم بداعي الصائفة المالية^١ .

الفرامطة

كان عهد هارون (٩٠٤ - ٩٦٩) أخي جيش عهداً مضطرباً، وبضمور الفرامطة غداً اشد اضطراباً. والفرامطة من الشيعة المتطرفة ، تصلهم صلة النسب بالاسماعيلية والفاتاطيين . وهذا الاسم تحدّر اليهم من فلاج عراقي اسمه حدان قرمط^٢ . أما نظامهم فهو في أساسه نظام جمعية سرية ذات مبدأ استراكي . ولم يكن الانضمام إلى جماعتهم جائزًا إلا بشرط معينة ، وبعد اجراء مراسيم خاصة . فحوالي سنة ٨٩٠ احتل زعيمهم حدان قاعدته الجديدة قرب الكوفة . وبعد مضي تسع سنوات صار اتباعه أسياد دولة مستقلة ، قائمة على الضفة الغربية من الخليج الفارسي . ومن هذين المركزين نشر الفرامطة اختراب في كل صوب . ولقد كانت سوريا الإسلامية ، طيلة العهد الأموي ، على منذهب أهل السنة ؛ لكن الضغط الذي تميزت به سياسة العباسين افسح المجال أمام تعاليم العلوين ، وهذه بدورها أعدت الشعب ، في هذه الأونة ، لقبول آراء الفرامطة . وكما حاول الناس ، في سوريا البيزنطية ، أن يثبتوا قوميتهم باعتماق تعاليم المسيحية التي اعتبرتها السلطة البيزنطية من قبيل الهرطقة ، هكذا اظهر هؤلاء الآن كل استعداد لقبول المباديء الشيعية المتطرفة المعادية للعباسيين . وكان قائد الفرامطة في زحفهم على سوريا ابن ذكرويه^٣ . وقد هزم الحامية الطولونية ، وحاصر دمشق (٩٠١) ؛ ثم احتل حصن ،

١) شكل شجري للسلالة الطولونية :

١. محمد بن طولون (٨٦٨ - ٩٤)

٢. ذكرويه (٩٥ - ٨٨٤)

٣. جيش (٨٩٥ - ٩٦) ٤. هارون (٩٠٤ - ٩٦) ٥. شيبان (٩٠٤ - ٩٥)

(٢) رابع: Bernard Lewis, *The Origins of Isma'ilism* (Cambridge, 1940), pp. 19-22 والراجح ان لفظة « قرمط » سريانية معناها: الملم السري .

(٣) الطبرى ، ج ٢ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

وقفى على عدد كبير من أهالي حماة، ومعرة النعمان، وكاد يبيد سكان بعلبك. لكن سلبية الفت السلاح، وهي التي غدت، في ما بعد، مركزاً للحشاشين من الأسماعيلية. وقد دعي له في صلاة الجمعة من على عدد من منابر المساجد السودية، كما لو كان المهدى المنتظر.

وفي سنة ٩٠٢ ارسل الخليفة لقتال القرامطة قائداً باسلاً تكن من قهرم. وبعد ان اخذ عهد الولاء على حكامها الاقطاعيين سار نحو مصر فاتحاً. وفي هذه الاثناء قتل هارون اغتيالاً، فولي الحكم بعده عم شيبان (٩٠٤ - ٩٠٥)^١. وفي سنة ٩٠٤ بلغ القائد العباسي عاصمة الطولونيين (القطائع) ودهمها الى الارض، وضرب عنق عشرين من الطولونيين، وحمل سائر رجالهم، مكبلين بالقيود، الى عاصمة الخلافة. وفي العام الثاني، عمد آخر سفياني معروف الى رفع العلم الایض في سوريا، ولكنه اسر بدوره وسيق الى بغداد^٢. وهكذا، فان القوم الذين نوهوا سابقاً بهم لا يقررون بالسلطة الا لبني امية^٣، قد تخاذلوا الان وعنوا السلطة الغربية.

الاخشيديون

كان القائد الذي دفع القرامطة عن دمشق باسم الطولونيين وجلاً تركياً من فرغانة اسمه طفع^٤. وقد حاول ابنه محمد انت يجعل من نفسه وريثاً للطولونيين. فاقام نفسه، بعد عهد قصير من الحكم العباسي المأذل بالمخاذير في مصر وسوريا. حاكماً على مصر^٥، وذلك سنة ٩٣٥. وكانت قاعدته مدينة الفسطاط، وبعد اربع سنوات، استجواب الخليفة الراضي الى رغبته ومنحه اللقب التقليدي لامراء ايران، وهو «الاخشيد». فارتفع به فوق اقرانه. وفي القرن التاسع عشر. منح احد سلاطين بني عثمان، واليه على مصر، لقباً فارسياً مائلاً هو «الخديوي». وجرى الاخشيد على الخطط التي رسماها الطولونيون من قبل. فرمق جارة مصر الشهالية بعين

^١) الكتبي، ص ٢٤٧ - ٤٨.

^٢) الطببي، ج ٣، ص ٢٢٧٧.

^٣) المقسي، ص ٢٩٣ - ٩٤.

^٤) ابن سعيد، المرب في حل المقرب، نشر Tellqvist (ليدن، ١٨٩٩)، ص ٥.

^٥) مسكونية، ج ١، ص ٣٣٢، ٣٦٦؛ ابن تغري بردي، ج ٢، ص ٢٧٠.

طامعة ، وكان معظمها قد وقع في يد معتصب مغامس هو ابن رائق^١؛ لكن الوفاة ادركت ابن رائق سنة ٩٤١، فاقر الخليفة للأمراء البوهيم بالسلطة على بغداد. وللأخشيد على سورية ومصر ومكة والمدينة^٢. ومضت بعد ذلك قرون عديدة، ومقدرات الحجاز رهن بقدرات مصر. وفي سنة ٩٤٤ استحصل الأخشيد من الخليفة لأسرته على حقوق وراثية في البلاد التي استولى عليها.

الحاكم النجبي

ولم يكُن الأخشيد يستقر في كرسى الحكم، حتى أخذ نزد المدانيين في شمالي سورية يتحدى سلطانه، على يد نائبه سيف الدولة، في مدينة حلب. أما المعارك الكبرى فقد جرت في عهد أبني الأخشيد: أنوجور^٣ الذي ولد في دمشق حيث توفي والده، وسيف الذي تولى بعد أخيه سنة ٩٤٦، تحت وصاية عبد خصيّ اسمه أبو الملك كافور^٤. وكان سيف الدولة قد قام بمحاولات عديدة للاستيلاء علىسائر سورية، لكن حاكم مصر الظاهرية أفسد خططه، وهزم جيشه في اشتباikan كبيرة، وأجبره على الخضوع لسيادة مصر العليا. وظل كافور قابضاً على زمام الحكم في غضون ولاية أبي الحسن علي (٩٦٠ - ٦٦)^٥ أخي أنوجور. وقد دفن على

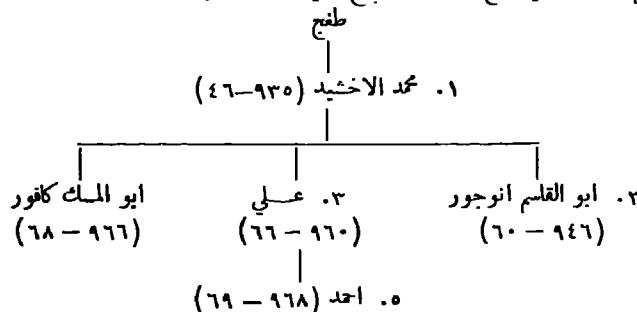
١) راجع بشأن وفاته مع ابن رائق المؤرخ المامر الكندي، ص ٢٨٨ - ٢٩١؛ وكذلك مسكونيه، ج ١، ص ٤١٤؛ ابن سعيد، ص ٣٧ وما يليه؛ وابن الأثير، ج ٨، ص ٢٧٢.

٢) قابل: سيدة كاشف، في عصر الأخشيديين، (القاهرة، ١٩٥٠)، ص ٩٠ - ٩١.

٣) أيضاً أنجور، وأنجور؛ قابل: ابن سعيد، ص ٤٥؛ ابن تقری بردي، ج ٢، ص ٣١٥؛ الكندي، ص ٢٩٤؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١٤؛ ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٤٣؛ مسكونيه، ج ٢، ص ١٠٤؛ انظر أيضاً F. Wüstenfeld, *Die Statthalter von Ägypten zur Zeit der Chalifen*, pt. iv (Gottingen, 1876), p. 37.

٤) ابن خلكان، ج ٤٢، ص ١٨٦.

٥) رسم شجري لبني طنج، والخط المتقطع يشير إلى صلة العبد بالسيد:



هذا في القدس ، حيث دفن ابوه واخوه من قبله . واستمر العبد في الحكم سنتين بعد ذلك ، وهو منفرد بالسلطة على ولاية خمت – فضلاً عن مصر وسوريا – جانباً من كيليكيا ، وفيها كبرى مدنها طرسوس^١ . وكثيرون هذا ، عبد جبشي في الاصل ، اعلم مشتوق الشفقة ؟ اشتراه الاخشيد من بائع زيت بثمانية عشر ديناراً . فكان المثل الاول في تاريخ الاسلام لسلطان ارتفعوا الى اوج الشهرة من اوضع الاصول . وقد اعتق ، على ما في الرواية ، لأن انتباهه كان دائمًا موجهاً نحو سيده ، في حين كان اهتمام سواه من العبيد والخدم منصرفًا الى القليل او الزرافة ، بما اهدي الى اسيادهم .اما العبد هذا ، فلم يدع لحظة تر دون ان ينتهزها فرصة لخدمة سيده ، وقد كوفه على رعايته هذه مكافأة حزيلة^٢ .

ولقد خلد اسم كافور، واسم خصم سيف الدولة، اعظم شعراء ذلك العصر - المتباين - بشعر لا يزال طلاب المدارس في العالم العربي ، الى اليوم ، يحفظونه غيّراً . وكان الشاعر قد بدأ بنظم المدائح في عاشر مصر^٣ . لانه كان يطمع ان ينال ولادة منه ولكن العبد خيب امل الشاعر فانقلب هذا عليه وصارت اشعاره فيه هجاء .

نهاة الاختذالين

تولى الحكم بعد كافور احمد ابو الفوارس (٩٦٨ - ٦٩) ، وهو غلام في الحادية عشرة من عمره ، عاجز عن مواجهة مشاكل العصر . ذلك ان المدانيين كانوا يهددونه من الشمال ، والفرانطة المتحفرون من الشرق ، والفااطميون^٤ – وهم اشد خطراً – من الغرب . وكان الخليفة الفاطمي ، الذي ظهر في تونس سنة ٩٠٩ لسنوات عديدة ، على صلة سرية بالعلويين وسواهم من الموالين في مصر ؛ وكان زمن العمل قد ازف . ففي سنة ٩٦٩ قام القائد جوهر بحملة كاسحة ، مكنته من ابادة

^{١)} ابن خلگان، ج ٢، ص ٢٧؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١٤ - ٣١٥؛ ابن تقری بردي، ج ٢، ص ٣٧٣.

٢) ابن سعيد، ص ٤٦ - ٤٧.

^{٣)} انظر ما يتبين في هذا الفصل في فقرة عن المتنبي.

^{٤٤}) انظر ما يتبين في الفصل التالي في فقرة عن قيام الخلافة الفاطمية .

الجيش الاخشيدى . واحتلال مدينة الفسطاط (٦ توز) ، دون كثير عناء . وعلى الاتر ، دعي الخليفة المعز في الصلاة العامة ، وضربت التقد الجديده باسمه . وقد حاول والي الاخشيد في دمشق ، وهو ابن عم لاري القوارس ، القيام بمحاولة ضئيلة لانقاذ سورية ، لكن جوهرأ بعث اليه بقائد هزم جيوشه في الرملة واقتاده اسيراً . وعلى هذا النحو التحقت فلسطين وسوريا الوسطى بالامبراطورية الفاطمية النائمة^١ .

كانت السلالة الاخشيدية (٩٣٥ - ٩٧٩) ، نظير سابقتها الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥) ، ذات حياة قصيرة . وقد كانت متهدج حیاتها واحداً - ذلك المنهج الذي وسم بسمته عدداً من الولايات الأخرى التي انسلاخت في العهد المتسخي عن السلطة المركزية . فقد عمدت كلتاهم الى تبذير المال الوارد من الولايات لاسترضاء الرعايا ، فكان بذلك خراب الخزينة ؛ وكل منها لم تقم الحكم في الامصار التي استبعتها على اساس قومي ؛ ولا استطاعت ان تعتمد ، في ما بين رعاياها ، على جماعة متعانسة متاسكة من ابناءها الموالين . ولما كان هؤلاء الحكماء دخلاء ، فقد كان عليهم ان يتغذوا بحرفهم الخاص - وهم في الوقت نفسه جنودهم - من مصادر غريبة . ومثل هذا الحكم لا يمكن صيانته الا بان تستمر البد التي امتصقت السيف قويةً ماضية .

المدائين - سيف الدولة

ان المدائين ، الذين حكموا شمالي سورية بعد الاخشيديين ، يعودون بصلة النسب الى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب ، التي كانت قبلأ على التصرانية ؛ ومنها ظهر الشاعر الاموي الشهير : الاخطل^٢ . كان اول ظهور حمدان على مسرح الحرب والسياسة في اواخر القرن التاسع ، عندما استولى على قلعة ماردين^٣ . واستطاع اعقابه بعد كثير من المغازلات والمهادنات مع الخلفاء ، ان يبسطوا سلطانهم على الموصل ، وجانب كبير من العراق وشمالي سوريا . وكان ابرزهم ابو العلي حسن ، الذي استطاع في سنة ٩٤٤ ، ان ينتزع من عامل الاخشيد مدينة حلب وانطاكيه وحصص^٤ ، وان يحصل

١) الكيندي ، ص ٢٩٧ - ٩٨ .

٢) راجع من ٤٠ و ١٠٨ - ١٠٩ من هذا الجزء .

٣) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٢١٤١ .

٤) ابن سعيد ، ص ٤١ .

من الخليفة على اللقب المشرف : سيف الدولة (يعني الدولة العباسية ٩٤٤ - ٦٧). وكان غرض الخليفة من الانعام بمثل هذه الالقاب الطنانة ، ان يوهم الناس بان المعم عليه – وهو بالفعل مستقل – انا هو مؤمن بالمرء . وقد كانت سيف الدولة ، ومن تولى الامارة من بعده ، من الشيعة المتساهلين ، فاستمرروا – من ثم – في الدعاء باسم الخليفة العباسي في صلاة الجمعة . وقد اختار سيف الدولة مدينة حلب^١ عاصمة له ؛ اما سبب اختياره لها فربما كان وجود القلعة القديمة فيها ، وقربها من الحصون القائمة على الحدود ؛ اذ كان ينوي ان يدفع عنها تلك الفارات التي اخذ الروم يشنونها عليها . ولأول مرة ، بعد عهد الاموريين^٢ ، ندت المدينة الشهالية قاعدة لحكومة ذات خطر . وقد انشأ الحكم الجديد في هذه المدينة قسراً فخماً ، جعل فيه ثلاث حمامات فيها مياه جارية ، واطلق حوله جدوالاً من الماء ، واقام الى جانبه حديقة غلاء ، ومضماراً لسباق الخيول^٣ .

شملت سلطة سيف الدولة شمالي سوريا ، وجانبها من كيليكيا ، وجزءاً كبيراً من شمالي العراق . وانتزع مركزاً امامياً في ارميانيا بمساعدة اخوه الاكراد^٤ . وقد اتخد احدى بنات الاخشيد زوجة له ، على امل ان لا يُنماز في ملكه . وحاول فتح دمشق ففشل^٥ ؛ ولما كانت دولته قاية على الحدود فقد استندت حمايتها من حملات البيزنطيين جل وقته ومعظم جهوده . وكان سيف الدولة اول قائد جدد الكفاح ، بعد فترة طويلة من السكون ، في وجه خصوم المسلمين من نصارى الاعاجم . وهذا النزاع الحداني البيزنطي جدير بان يعتبر فصلاً سابقاً لتاريخ الصليبيين .

وكان للامير الحداني من حيث هو بطل محارب نذر مقابل في شخص الامبراطور نقوفر^٦ . سجل لها المؤرخون عشرة است彪اكات لم يكن النصر فيها جميعها حليفاً

١) حلب معروفة ايضاً بالشهباء وربما لبيان حجرها .

٢) راجع من ٧٤ من الجزء الاول .

٣) ابن الشحنة ، الدر المتنب في تاريخ حلب (بيروت ، ١٩٠٩) ، من ٦١ - ٦٣ .

٤) مسكوبية ، ج ٢ ، من ٦٦ .

٥) ابن معيد ، من ٤٢ .

٦) هو : Nicephorus II Phocas (963-9)

لسيف الدولة. ففي سنة ٩٦٢ دارت الدائرة عليه، وخرجت حتى عاصته من يده، ولو إلى حين، وذلك بعد حصار قصير المدى، هدم في اثنائه قصره الفخم الذي كان رمزاً لمجده^١. وكان لهذا الحادث أسوأ الواقع في بغداد، حيث قام الشعب بظاهرة طلب فيها من الخليفة أن يقود بنفسه حملة إنقاذ سريعة. لكن المظاهرات لم تسفر عن أكثر من دموع ذرفتها علينا الخليفة^٢. ثم كانت وفاة سيف الدولة سنة ٩٦٧^٣، وما تلاها من فتن داخلية، فمكّن ذلك نقوشه وخلفاءه من انتقدموها بجيوبهم، ويحتلوا جانباً كبيراً من شمالي سوريا. وإن يفرضوا سلطة بيزنطية مؤقتة على ملك المدانيين. وفي سنة ٩٦٨ استولى نقوشون ثانية على حلب، وضم إليها انطاكية ومحص، والمدن الواقعة بينهما؛ واستطاع خلفه ابن الشمشيق (يوحنا زبيس^٤)، بعد ذلك بست سنوات، أن يخضع المدن الساحلية: بيروت وجبل وعرقة وطرطوس وجبلة واللادقية، وبعض المدن الداخلية نظير: صهيون وبعلبك. وبقيت انطاكية في يد البيزنطيين ما يزيد على مئة عام (١٠٨٤ - ٩٦٨).

ولم يسترجع المدانيون مدينة حلب حتى سنة ٩٧٥، وأبانت عنهم قلعتها عامين آخرين. فقد شغل سعد الدولة بن سيف الدولة بمحاربة منافس له في حصن، هو أحد أنسبياته، قبل أن تسلم له الولاية. وفي الوقت نفسه عمد عامله على حلب إلى خيانته، فوقع اتفاقاً مع البيزنطيين تعهد بموجبه أن يدفع لهم جعلاً، إلا أن سعد الدولة أبي ذلك. وفي سنة ٩٨٥ حاصر سعد الدولة قلعة سمعان^٥، وهي آنذاك في أيدي البيزنطيين، وانتهت برهبها أو باعهم في أسواق العبيد. وفي عهد سعيد

١) ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٠١ - ٢؛ مسکویہ، ج ٢، ص ١٩٢ - ٩٤.

٢) مسکویہ، ج ٢، ص ٢٠١ - ٥.

٣) القارئ أن يراجع مجموعة النصوص العربية المتعلقة بسيف الدولة في *Marius Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, vol. i. (Paris, 1950)*, pp. 595 seq; والعن العربي في «سيف الدولة» (الجزائر، ١٩٣٤).

٤) ابن القلاني، ص ١٢ - ١٤.

٥) راجع من ٤٠٤ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

الدولة (٩٩١ - ١٠٠١)^١. الذي تولى بعد أبيه سعد، بدا في الافق الجنوبي عدو جديد هو الجيش الفاطمي. واد شعر الامير المداني بحراجة الموقف، ارسل الى الامبراطور باسيل يلتسم مخددة، فبعث اليه على جناح السرعة بـ ١٧ الف مقاتل. فارتدى العدو المداني، وترىص زماناً؛ لكن سعيداً اضطر بعد حين الى التسلّم بقيادة الفاطميين. وكان سعيد هذا صغير السن، فعمد وصيه الى ترويجه من ابنته، واستأثر بالامر دونه. ثم دس له وزوجته السم وتخلص منها. واستمر سنتين بعد ذلك وهو يحكم البلاد باسم الخليفة الفاطمي وصياغاً على ابني سعيد: علي وشريف (٣ - ١٠٠١). وفي سنة ١٠٠٣ ارسل بالاميرين الصغيرين، مع سائر نساء المدائين، الى القاهرة؛ وعيّن ابنه الحاصل مساعدآ له في الحكم. وكان هذا المشهد هو الاخير في حياة السلالة المدانية، وهي السلالة العربية الثانية والاخيرة، التي قامت في البلاد السورية.

المملكة الزاهية في بلاط سيف الدولة

ان دوره الحياتي الذي عاشتها السلالة المدانية لم مختلف، في جوهرها، عن دوره حياة السلاطين السابقين: الاخشيدية والطولونية – قائد طموح يستأثر بمقاطعة يحكمها حكماً مباشرآ؛ يخلفه حاكم ضعيف يبذل اموال الدولة؛ ثم خلاف في الداخل، وعدوات من الخارج، يكون بها خاتمة الحكاكية. اما في ما يتعلق بالمدائين، فان رعاية سيف الدولة للعلوم والفنون كانت من اهم الدواعي لاستزاف مال الخزينة.

احاط سيف الدولة نفسه، في قصره الفخم، بمجموعة من ارباب الادب والفن، تكاد لا تباريها الا حلقات خلفاء بغداد في ايام عزّهم: فقد ضمت الفيلسوف الشهير

(١) رسم شجري لسلالة المدائين :

١. سيف الدولة (٩٤٤ - ٦٧)

٢. سعد الدولة (٩٦٧ - ٩١)

٣. سعيد الدولة (٩٩١ - ١٠٠١)

٤. ابو الحسن علي (١٠٠١ - ٣)

٤ ب. ابو المالي شريف (٣ - ١٠٠١)

والموسيقي البارع ابا نصر الفارابي ، ومؤرخ الادب العربي الامام ابا الفرج الاصفهاني . والوااعظ البلغ ابن نباتة (ت ٩٨٤^١) ، والعالم اللغوي ابن خالويه ، والنحوي الشهير ابن جني (ت ١٠٠٢^٢) ، والشاعر الفارس ابا فراس ؟ وفوق هؤلاء، جميعاً الشاعر المداه الاشهر ابا الطيب المتنبي ؟ قال صاحب يقينية الدهر :

وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وبواسطة قلادتهم ، وكان – رضي الله عنه وارضاهم ، وجعل الجنة مأواه – غرّة الزمان ودعاة الاسلام ، وبه مداد التغور وسداد الامور... ويقال انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك ، بعد الخلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونحومن الدهر . واما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق لدها . وكان اديباً شاعراً محباً لجيد الشعر^٣ ... !

ابو الطيب المتنبي

وابو الطيب هذا هو احمد بن الحسين ؟ لقب بالمتنبي (٦٥ - ٩١٥)^٤ ، لانه ادعى النبوة في مطلع شبابه ، وحاول تقليد القرآن ؛ فاتبعه جماعة من سحرهم ببيانه في اللاذقية وفي بادية الشام . لكن عامل الاخشيد في حصن اعتقله وادفعه السجن ، حيث بقي نحواً من عامين . ثم خرج وقد شفي من وم النبوة . ولكن له لم يبرأ من داء الكبرباء والقطرسه والاعجاب بالنفس ، ذلك الداء الذي رافقه مدى حياته . قال يصف ادبه :

اـنـاـ الـذـيـ نـظـرـ الـاعـنـىـ إـلـىـ اـدـبـ وـاسـمـعـ كـلـمـاتـيـ مـنـ بـهـ صـمـ
اـنـاـمـ مـلـءـ جـفـوـنـىـ عـنـ شـوارـدـهـاـ وـيـسـهـرـ الـخـلـقـ جـراـهـاـ وـيـخـصـوـ
الـخـيلـ وـالـلـيـلـ وـالـبـيـدـاءـ تـعـرـفـيـ وـالـسـيفـ وـالـرـمـحـ وـالـقـرـطـاسـ وـالـقـلـمـ!

(١) طبعت خطبه عدة مرات في القاهرة وفي بيروت.

(٢) هو ابن عبد تركي اشتهر بشرحه لشعر المتنبي .

(٣) التالي ، يقينية الدهر في شعراء اهل المعرف ، (دمشق ، ١٣٠٣) ج ١ ، ص ٨ - ٩ .

(٤) اطبع له المهرجان الالافي في سوريا ١٩٣٩ (١٣٥٤) هـ ؛ انظر : Al Mutanabbi ; Recueil ١٣٥٤ (١٩٣٩) هـ .
Publié à l'occasion de son millénaire (Beirut, 1936): Cf. Blachère, Un poète arabe: Abou-t-Taggib al-Mutanabbi (Paris, 1935), pp. 69 seq.

(٥) الواحدي ، شرح ديوان المتنبي ، نشر ديتريش (برلين ، ١٨٦١) ، ص ٤٨٣ - ٨٤ .

ان الرجل الذي امتحن نفسه ، وأشاد بفضائله في هذه الابيات المشرفة ، قد نشأ من اصل وضعٍ . ولد في الكوفة ؛ وكان ابوه سقاءً ، انتقل باسرته الى سوريا وشاعرنا بعدُ قتىً . وبعد ان امضى زمناً ، وهو يتلقى اميرآ يخض نفسه به ويعلم في رعايته ، استقر في حلب ووقف شعره على سيف الدولة ؛ فاقترن اسماهما منذ ذلك الحين اقتراناً وثيقاً . وقد اشترط الشاعر المتغطرس على الامير انت ينشده الشعر وهو جالس ، وان لا ينحني ويقبل الارض بين يديه . وكان في اثناء التحاقه بكلور يائياً ان يخلع حذاءه لدى المثول في حضرته ، او ان ينزع سيفه من وسطه ! وكان يواكبـه في تنقلاته اثنان من عبيده بالسلاح الكامل . اما السبب الذي جعل على مفاردة بلاط سيف الدولة ، وايثار بلاط كافور ، فهو — على ما ورد — اـن جداً نشب بين المتنبي وابن خالويه استاذ سيف الدولة ، عمـد ابن خالويه على اثره الى مفتاح رمى به المتنبي فاصابـه في وجهـه . وعندما يئـس المتنبي من سـيدـه كافـور ، خـرجـ من مصر خـفـيـة ، وتـوجهـ الى بغداد فـفارـس . وفي ما كان عـائـداً الى الشـام ، تـصـدىـ له جـمـاعةـ من الفـزـاةـ الـبـدوـ ، وـقـتـلوـهـ هوـ وـغـلامـهـ ، وـفـرواـ بـنـسـختـهـ الـخـاصـةـ من دـوـانـ شـعرـهـ ؟

ومن اروع القصائد في هذا الديوان تلك التي سجل فيها ابجاد سيف الدولة في حربه مع الروم . وربما كانت هذه القصائد - لا واقع المأني - هي التي جعلت من سيف الدولة ذلك البطل الاسطوري الذي تحدثت عنه اخبار العرب ، وهي تشهد بأن صاحبها ابلغ شاعر امجيئته العربية ؟ وزاد في قيمة هذه القصائد ما زدانت به من روائع الحكم . اما حياة الشاعر الخاصة فقد كانت رزينة ، بخلاف المعروف عن افراط هذه الطبقة في عهده . وقد اتسم اسلوبه احياناً بالغلو ، وحفل بالمحسنات البدوية ، وذكر بالزخارف الفظية وفنون المجاز . على ان ذلك لم يكن غير مستساغ بالنسبة الى القارئ الشرقي . هذا ما كان لشاعرنا من سلطان على خيال ابناء пeضاد ، فكان ذلك داعياً لبقاءه ، حتى الان ، اعظم شعراء الاسلام في نظرهم . وبه ويزميليه السابقين : ابي تمام والبحتري ، بلغ الشعر العربي اتم نضجه ، ان لم نقل اسمى اوجه ؟ واخذ من بعد ذلك في طريق الانحدار ، الا في اتفاقيات قليلة .

۱) ابن خلکان، ج ۱، ص ۴۶.

٢) لِيُوَانَ الْتِي طَبَعَهُ أخْرَى غَيْرَ الَّتِي أَعْدَاهَا دِيَرِيشِي أَخْرَجَهَا نَاصِيفُ الْيَازِجيُّ بِنَوْانَ :
«الْأَرْفَ الْطَّيْبَ فِي شَرْحِ دِيُوَانِ أَبِي الْطَّيْبِ» (بَرْوَت، ١٨٨٢).

أبو فراس المدائني

كان للمنبي في أبي فراس ، الحارث بن أبي العلاء المدائني (٩٣٢ - ٦٨) منافس يباريه ، وهو ابن عم سيف الدولة ورفيقه في الحرب . ويقال ان سيف الدولة اجازه على بيت واحد من الشعر ، اقتطاعاً قرب منبع ، بلغ دخله السنوي الف دينار . وفي سنة ٩٦٢ وقع الشاعر الباسل أسريراً بيد الروم ، ونقل على الآخر إلى القسطنطينية . وبعد ان مكث في الاسر اربع سنوات دفعت عنه الفدية فعاد إلى قومه^١ . وقد نظم ، وهو في الاسر ، جملة من اروع القصائد وارتها^٢ . وله قصيدة عاهرة اطرب بها العلوين وغمز من العباسين ، لا تزال من الفضائل الائمة في اوساط الشيعة^٣ . وهو الذي استأثر بالسلطة على حمص بعد وفاة سيف الدولة . وسقط قتيلاً في معركة نشب بينه وبين الجيش الذي وجهه ابن سيف الدولة لقتاله^٤ .

وكان دون هذه الطبقة من شعراء العصر شعراء آخرون منهم كشاجم الاديب الفنان ، والواواء الشاعر البارع بتزويع الكلام . اما الاول فمن اصل هندي^٥ (ت حوالي ٩٧١) ، يتالف اسمه الغريب من الحروف الاولى للاحفاظ التالية : كاتب ، شاعر ، اديب ، جدلي ، منجم ؛ على اعتبار انه كان جاماً لهذه المناقب . وكشاجم هذا من ابناء الرملة ؟ بدأ حياته طاهياً عند سيف الدولة ، ونظم ابياتاً يصف فيها بعض الوان الطعام والشراب^٦ . وقد اضاف الى مناقبه الكثيرة علم الطب ، والفن كتاباً في علم الحيوان . واما الواواء (ت ٩٩٩) فدمشقى المنشأ من بني غسان ؟ اشتهر بقصيدة وصف فيها فتاة تبكي ؟ وقد عرضت على شفتها بهذه البيت :

(١) ابن خلكان ، ج ١، ص ٢٢٥ - ٢٦ .

(٢) راجع ديوانه نشر متحف قلطا (بيروت ، ١٩٠٠) ؛ وانظر ايضاً الناعلي ، ج ١، ص ٦٢ - ٢٢ .

(٣) راجع نص هذه القصيدة في ديوانه ، نشر سامي الدحان (بيروت ١٩٤٤) ج ٣ ، ص ٣٤٨ - ٥٦ ؛ وايضاً ٣٣ - ٣٥ . Canard, pp. 325-33 .

(٤) راجع ما سبق ص ١٩٣ من هذا الجزء .

(٥) السعودي ، ج ٨ ، ص ٣١٨ .

(٦) السعودي ، ج ٨ ، ص ٣٩٤ - ٩٥ ، ٣٩٩ - ٤٠٠ ؛ وانظر ايضاً ديوانه (بيروت ، ١٣١٣) ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٥١ - ٥٠ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ١٧٩ - ٨٠ .

واستسيطرت لؤلؤاً من نرجس وسقط
ورداً، وعضت على العناب بالبرد^١

من علماء السلطان الأصفهاني

وقد حظى بلاط سيف الدولة، الى جانب هؤلاء الشعراء بجملة من العلماء نثر بالذكر منهم: مؤرخاً للادب والموسيقى هو الاصبهاني، وفيلسوفاً موسيقياً هو الفارابي. اما ابو الفرج الاصبهاني (او الاصفهاني ٨٩٧ - ٩٦٧) فسلطيل البيت الاموي، لكنه كان شيعي التزعة. ولد في اصبهان، وتواردت عليه المهدايا من انسابه الحاكمين في الاندلس، تقديرأ له على ما وضعه من الكتب على شرفهم. وقد اجازه سيف الدولة، بآلف قطعة من الذهب، على النسخة التي قدمها اليه بخط يده من مؤلفه الضخم «كتاب الاغاني»^٢. والحق ان هذا الكتاب اجل جداً مما يتضاد الى الذهن من اسمه المتواضع. وقد نقل عن وزير معاصر من اهل العلم، كان يستصحب في اسفاره حل ثلاثين جلاً من كتب الادب ليطالعها فلما وصل اليه كتاب «الاغاني» استغنى به عنها^٣.

الفيلسوف الموسقى الفارابي

واما محمد ابو نصر الفارابي فترك من فاراب ، وهي بلدة في تركستان^٤ . عاش في سوريا في زي المتصوفين ، قانعاً برتب اكرامي ، اجراء عليه سيف الدولة ، مقداره اربعه دراهم في اليوم . وقد صحب سيده سيف الدولة الى دمشق ، وفيها توفي سنة ٩٥٠ عن ثمانين سنة . كان الفارابي من اسبق مفكري الاسلام الى حماولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعليم الاسلام . وكان نظامه الفكري نظاماً توفيقياً جامعاً ما بين الفلسفة المنشائية ومبادئ الافلاطونية الجديدة وتعاليم الصوفية . وقد اطلق عليه ابناء قومه لقباً تقدّر به هو «المعلم الثاني» ، على اعتبار انه ثالثي معلم

١) المؤلّف ، ديوانه ، نشر سامي الدهان (دمشق ، ١٩٥٠) ، ص ٨٤-٢٦٧؛ الكتبى ، ج ٢، ص ١٨٢.

٢) نشر عشرون مجلداً منه في بولاق ١٢٨٥، ونشر برونو الجلد الخادي والمشرين في ليدن ١٨٨٨، ثم وضع له غويدي فهرساً عاماً نشر في ليدن ١٩٠٠.

۳) ابن خلکان، ج ۲، ص ۱۱۰

^{٤)} ابن أبي اصيوعة ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ القسطل ، ص ٢٧٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٣٩٠ .

للنطق بعد ارسطو . والفارابي رائد الفكر الفلسفي في الاسلام ؛ عنه اخذ ابن سينا وجميع من تلاه من فلاسفة الاسلام . أما مؤلفاته الرئيسية فرسالة فصوص الحكم^١، ورسالة في اراء اهل المدينة الفاضلة^٢، والسياسة (السياسات) المدنية^٣. ويبيط الفارابي في الكتابتين الاخرين رأيه في المدينة المثالية . فاذا هي — كما تخيّلها — ذات رئاسة دينية ، ونظام عضوي ، شبيه بنظام الجسم الانساني ؛ ومن الواضح انها قد نسبت على منوال جمهورية افلاطون .

وكان الفارابي — الى ذلك — طيباً مرموقاً ، ورياضيًّا فلكياً ، وموسيقياً من الطبقة الاولى . فقد اهله كتبه الثلاثة في الموسيقى ، التي توجهها بـ « كتاب الموسيقى الكبير »^٤ ، لأن يكون بين اعظم العلامة النظريين في الموسيقى العربية ، ان لم يكن اعظمهم . وكان ، فضلاً عن ذلك ، يجيد العزف : فقد استطاع — على ما روی — ان يعزف في البلاط الحدافي على عود اخترعه ، فيحمل السامعين على الضحك ، فالبكاء ، ثم النوم ، طبقاً لرغبته^٥ .

العالم الجغرافي — المقدسي

وفي العهد الذي تسلط فيه الحمدانيون على شمالي سوريا ، والفااطميون على جنوبها ، زها في فلسطين عالم مبدع ، من خيرة علماء الجغرافية ، هو المقدسي (المقدسي ٩٤٦ — حوالي ١٠٠٠) ؛ ولد في بيت المقدس في العهد الاختشادي ، وعندما بلغ العشرين من العمر بدأ يقوم باسفار حملته الى جميع اقطار العالم الاسلامي ، باستثناء اسبانيا والمند وسجستان . وفي سنة ٩٨٥ اخذ بدون ما تجتمع لديه في هذه الاسفار في كتاب سماه : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم^٦ . وقد

١) نشره فردرريك ديتريشي في: *Die Philosophie der Araber im IX. und X. Jahrhundert n. Chr.*, vol. XIV (Leyden, 1890), pp. 66-83.

٢) نشر في القاهرة ؛ ١٣٢٣ ؛ ونشره ديتريشي في *Philosophie der Araber*, vol. XVI (Leyden, 1895) . وترجمه بنوان *Der Muster staat von Al-Fârâbi* (Leyden, 1900) :

٣) (جيدر اباد ، ١٣٤٦).

٤) نشر لاند (*J. P. N. Land*) مختارات منه في *Actes du Sixième Congrès international des orientalistes*, pt. 2, sec. I (Leyden, 1885), pp. 100-168.

٥) ابن خلkan، ج ٢، ص ٥٠١ .

٦) نشره دي غوري (اليدن، ١٨٧٧).

ذكر في المقدمة ، انه اعتمد في تأليفه على ملاحظاته الخاصة ، واختباره الشخصي ، أكثر منه على الكتب المدونة . وينجلي في الكتاب ميل المؤلف نحو الشيعة ، وايشاره للفاطميين . وكان الشيعة في عصره يمثلون الجانب الفكري التقديمي في الاسلام .

وبفضل مؤلفات المقدسى وزملائه من علماء المغرافية ، من سلوكوا سبيل الشهرة في هذا العصر ، بلغت معارفنا عن الاحوال الاقتصادية والاجتماعية في سوريا ، في القرن العاشر ، مستوى لم يسبق له نظير ؛ اذ لم يختلف لنا اي علم جغرافي — لاتينياً كان او يونانياً او سامياً — من المادة المغرافية ، ما يعادل المادة العربية ، ان من حيث الكمية ، او من حيث النوع . فالمقدسى يستعرض احوال التجارة والزراعة والصناعة والتربية العامة ؛ ويتحدث عن امور اخرى كثيرة ، منها وجود الحديد الخام في « جبال بيروت »^١ ، وكثرة الاحراج وانتشار النساك في لبنان^٢ ، ومنتجات السكر والزجاج في صور ، ومصنوعات الجبن والقطن في القدس ، ومحاصيل الحبوب والmusل في عمّان^٣ . ويصف سوريا بانها اقليم مبارك ، بلد الرخص والفواده والصالحين^٤ . ويشير ابن الفقيه^٥ ، المعاشر الفارسي للمقدسى ، بصورة خاصة الى النساك والاحراج في لبنان ، ويوجّه التفاتة خاصة الى تفاصيه . ويعنى جغرافي فارسي آخر ، هو ابن خرداذبه (ت حوالي ٩١٢) ، باحصاء اقاليم سوريا ، ووحف الطرق ، وتعيين المسافات بين المدن^٦ ؛ ويدرك ان عرقه وطرايلس وببيروت ، وسواءها من المدن الساحلية والداخلية ، كانت لا تزال منيعة الحصون . وعلى الجملة ، فان الفكرة العامة التي تعلق في الذهن من مطالعة هذه المؤلفات ، وسواءها من المصادر المعاصرة ، عن مستوى المعيشة ، تدعو الى عظيم الارتياب . فقد كان الناس ، في ما بدا لهم ، المؤلفين ، يعيشون حياة سعيدة ونافعة . ولا

^١) ص ١٨٤ ؛ الاذرسي ، ترجمة المشتاق ؛ ذكر الثام ، نشر غللماسير (بون ، ١٨٨٥) ، ص ١٦ . راجع الجزء الاول من ٣٦ ، ٣٠٣ — ٣٠٥ ، والفصل السابع والاربعين ، عن « تيمور » .

^٢) ص ١٨٨ .

^٣) ص ١٨٠ .

^٤) ص ١٧٩ .

^٥) ص ١١٢ ، ١١٧ .

^٦) ص ٧٤ وما بعد ، و ٩٥ وما بعد .

يبدو ان النصارى واليهود كانوا اسوأ حالاً في عهد الدولتين السورية والمصرية، مما كانوا عليه في زمن خضوعهم للعباسيين. فان معظم الكتبة في سوريا - ان لم نقل جميعهم - والعدد الاكبر من الاطباء، كانوا بعد من النصارى^١. وفي سنة ٩٩٢ تعرّضت سوريا لزلزال لم ينزل فيها من المحراب ما ازل الزلزال الذي اجتاحها سنة ٦٥٩^٢ ؟ فان هذا الزلزال كاد يمحو اللادقة وجلة من الوجود؛ وقد هدم في انطاكية وحدها ١٥ الف بيت^٣. وكانت سوريا في القرن السابق قد تعرّضت لزلزالين، على الاقل، وقع احداهما سنة ٧٣٨، والآخر ٧٤٦.

طلاسم العصور الظالمة

وكانت في هذه الاتناء غيوم دكناه تتبلد على الافق، وتندى بمستقبل قریب حافل بالنكارة. ذلك ان جيوشاً فاطمية مؤلفة من مقاتلين مصرین وبرابرية، اخذت، بعد منتصف القرن العاشر، في شن الغارات من الجنوب؛ وكذلك فان منصبي الفرامطة من عشائر العراق وفارس، عازدوا اجتياح البلاد من الشمال الشرقي. ثم لم يلبث السلاجقة، وسوام من قبائل الاتراك المتمردين، ان اخدروا من الشمال. فبدأت بذلك عمور الظلمة في تاريخ سوريا، وغدت البلاد على شفير الفوضى، وجرى النهب والحريق والفتوك في اثر الفرازة الفائزين. واذا بكبريات المدن، نظير حلب ودمشق والقدس، كالكرة تقاذفها الابادي الفريسة. وفي اواخر القرن الحادى عشر، كان اقوام من الفرنج، وفئات اخرى من الصليبيين، ينحدرون من الشمال الغربي الى الجنوب. وعقب امارات الماليك بمحكمهم - بل بسوء حكمهم - الذي يتحدى الوصف، سلطة الاتراك العثمانيين. وعندها ختم على البلاد ظلام لم ينقشع عنها حتى اواسط القرن التاسع عشر.

(١) المقسي، ص ١٨٣، ص ٧٤٤ - ٧٤٥.

(٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٣٩ - ٤٠.

الفصل الرابع والثلاثين

ما بين السلاجقة والقاطميين

لم تكن كبريات الدول، التي نشأت على اثر تجزؤ الخلافة العباسية، هي التي بسطنا شأنها في الفصول السابقة، بل هي التي ظهرت في صدد معالجتها الآن. اي : دولة السلاجقة، وخلافة القاطميين. فقد اقسمت هاتان الدولتان البلاد السورية فيما بينهما، فاستولى السلاجقة على شمالها، وسيطر القاطميون على جنوبها؛ وكان الاولون من الترك، وانتسب الاخرون الى العرب.

طفل بك في بغداد

كان مؤسس السلالة السلاجوقية زعيماً من زعماء التركمان، هو امير قبيلة الفز في تركستان. وكان قد تمكن، بمساعدة عشيرته البدوية الجافية، من اجتياح منطقة بخارى^١، حيث تم، في ما يظهر، اعتناقهم للإسلام. ثم استأنف حفيده طفل هذه الفتوحات غرباً، عبر فارس، حتى وقف سنة ١٠٥٥. في جمع من رجاله، على ابواب بغداد نفسها. ولم يكن امام الخليفة القاسم، لفريط عجزه، الا طريق واحد يسلكه هو انت يبدل سيداً بأخر - ففارق الفرس الشيعيين، ليستقبل سلاجقة الاتراك السنين^٢. وقد ميز الحاكم السلاجوفي الجديد نفسه بلقب «سلطان»، وهو اول حاكم مسلم نقش على نقوشه هذا اللقب؛ ثم جرى من تلاه في الحكم على مثل ذلك، حتى غدا عرفاً جارياً فيهم. وفي غمرة الانتصارات التي احرزها طفل، عمد الى ترحيل جموع من الاتراك والسلامة وسوادم الى غرب آسيا، فانتشروا في أنحاء هذا الاقليم واخذوا في الاستمرار واعتنقوا الاسلام تباعاً.

وفي عهد ابن أخيه وخليفة الـ ارسلان (١٠٦٣ - ٧٢). وعهد ملكتاه ابن الـ ارسلان (١٠٧٢ - ٧٩)، بلغ سلطان السلاجقة اوسع مداه، متقدماً من

١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٢١ - ٢٢.

٢) ابن خلكان، ج ١، ص ١٠٧ - ١٠٨؛ ابن تقری بردي، نثر بور، ج ٢، قسم ٤ ص ٢٢٥.

على ان سلطنة السلاجقة الواسعة لم تثبت ان تجزأت ، وحكم اجزاءها من السلالة
السلجوقية . فاستولى على آسية الصغرى (بلاد الروم) سليمان ابن عم الـ ارسلان ؟
وكان سنة ١٠٧٧ قد ثبت قدميه في نيقا (ازتيق) ، غير بعيد عن القسطنطينية .
وفي سنة ١٠٨٤ نقلت العاصمة الى قونيا في الجهة الجنوبية الشرقية ؟ وفي
العام نفسه استرجع السلاجقة مدينة انطاكية من الروم ، وردها الى الاسلام ؟
اذ لم يسكن في احتلال آسية الصغرى امن ولا استقرار مادام الروم مرابطين من
وراء ظهورهم . وكان قلچ ارسلان ، احد ابناء سليمان ، اول من اصطدم بطلائع
الملات الصليبية (١٠٩٦) ، وذلك لدى مرورهم في آسية الصغرى ، في طريقهم الى

^١) ابن الأثير؛ ج ١٠، ص ٤٣-٤٤؛ انظر الفقرة عن المرادسين في ما يلي من هذا الفصل؛ كذلك Claude Cahen in *Byzantium*, vol. XVIII (1948), pp. 25-90.

^{٤٦}) ابن عساكر؛ ج ٢، ص ٣٣٥؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٤٥ - ٠٤٦

۳) ابن خلکان، ج ۱، ص ۱۶۸.

٤) راجم الفصل السابق من ١٩٣ - ١٩٥

سورية^١. وكان من بين الدول التركية العديدة التي عقبت سلاجقة الروم حوالي سنة ١٣٠٠، دولة العثمانيين، وهو تاريخياً فرع آخر من الفز^٢.

سلاجقة سورية

أسس دولة سلاجقة سورية تتش بن الـ ارسلان. في سنة ١٠٩٤ استولى على مدينة حلب^٣، وكانت لا تزال أم مدن سوريا الشمالية، فكانت جديرة بأن تُعدّ قاعدة لـ هذه الولاية. لكن تتش سقط في أحدى المعارك في السنة التالية، فحكم مكانه في حلب ابنه رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣)، وتولى الحكم في دمشق ابنه الآخر دقاق^٤. على أن الخلاف لم يلْبِث أن نشب في الأسرة بين الأميرين الآخرين^٥، بحيث اضطر دقاق، بعد سنتين من الزمان، إلى الاقرار لأخيه بالسيادة العليا. وكانت شهر لتتش يتولى اقطاع القدس، فأجبره سنة ١٠٩٨ على التخلّي عنه للفاطميين. وعندما بلغ الصليبيون الأراضي المقدسة، كانت خاصّة لسلطنة الفاطميين. وكان رضوان مواليًّا للحسائين من الأسماعيلية، وكانت أكثر الحسينيين، على ما يبدو، شيعيين وأسماعيلية^٦، فكان أهل السنة والخالة هذه يقتلونهم. وقد بقي رضوان نحوًا من شهر يدعو لل الخليفة الفاطمي وللملة الأسماعيلية في صلاة الجمعة، لكنه عاد بعده إلى الدعاء لل الخليفة العباسي؛ وكان من جملة القراد الذين استبکوا بالصليبيين في معارك عديدة في شمالي سوريا. وقد تكون من صدّ حملات الفرنجة عن حلب، ومن الاحتفاظ بها في قبضة يده. لكن محاولاته لفك الحصار الذي ضرره على انطاكية سنة ١٠٩٨ باءت بالفشل^٧.

١) انظر الفصل التالي – الحملة الصليبية الأولى.

٢) انظر الفصل الثامن والأربعين – الدولة العثمانية.

٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٥٧ - ٥٨.

٤) ابن خلكان، ج ١، ص ١٦٨.

٥) ابن القلاني، ص ١٣٠ - ٣٢؛ ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٦٨؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٤٨ - ٥٠.

٦) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٩؛ ابن القلاني، ص ١٤٢؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٥٣ - ٥٤.

٧) انظر الفصل التالي الفقرة عن انطاكية.

وخلف رضوان على حلب سنة ١١١٣ ابنه الـ ارسلان ، وكان فـي السادسة عشرة من عمره ، فـاجراً ضعيف المدارك ؟ فاغتـاله الوصـي عليه في حـلب بـعد فـترة قـصيرة من بدـء ولـايته^١ . وـحكم أخـله اسـمه سـلطـان شـاه ، وـهو ثـحتـ الواصـية ، ثـلات سـنـوات . وـفي سـنة ١١١٧ استـولـى على حـلب قـائد تـركـانـي من قـادةـ الجيش السـلـجوـقـي ، هو اـيل غـازـي بن اـرـطـق^٢ ، وـاخـذـ مـديـنـة مـارـدـينـ قـاعدةـ هـذا الفـرعـ النـاشـيـ من السـلاـلةـ الـأـرـطـقـيـةـ . وـكانـ اـيلـ غـازـيـ هـذاـ منـ اـشـدـ خـصـومـ الصـلـيـبيـيـنـ .

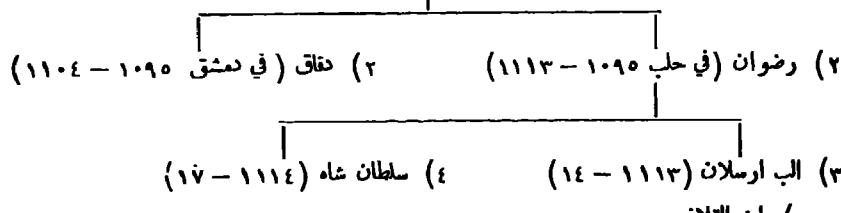
الاتابكة

وفي سـنة ١١٢٨ استـولـى على حـلبـ محـارـبـ تـركـيـ آخرـ هو عـمـادـ الدـينـ زـنـكيـ منـ المـوـصلـ . وـكانـ اـبـوهـ فيـ اوـلـ اـمـرـهـ عـبدـآـ . فيـ خـدـمـةـ مـلـكـشاـهـ ، ثمـ صـارـ ضـابـطاـ صـغـيرـآـ فيـ جـيشـ تـنشـ^٣ . وـفيـ السـنـةـ التـالـيـةـ أـلـحـقـتـ حـاهـ وـجـصـ وـيـعـلـبـكـ بـسـلـطـةـ زـنـكيـ وـكانـ زـنـكيـ ، الـبـطـلـ المـقاـومـ لـالـصـلـيـبيـيـنـ ؟ تـمـكـنـ سـنةـ ١١٤٤ـ منـ اـنـتـزـاعـ الـرـهـاـ منـ يـدـهـ^٤ : وـاستـهـلـ سـلـسـلـةـ

١) ابن القلاني ، من ١٨٩ ، ١٩٨ ؛ كمال الدين ، منتخبات من تاريخ حلب في *Recueil des historiens des Croisades : historiens orientaux* , vol. iii (Paris, 1884), pp. 602-3, 605-6.

وهـذاـ شـكـلـ شـجـرـيـ لـسـلاـجـقـةـ سـورـيـةـ (١١١٧ـ ـ ١٠٩٤ـ) :

١) تـشـ بنـ الـ اـرـسـلـانـ (١٠٩٤ـ ـ ١٠٩٥ـ)



٢) ابن القلاني ، من ١٩٩ .

٣) هو مؤسس سـلاـلةـ الـاتـابـكـةـ فيـ الـوـصـلـ وـسـوـرـيـةـ . وـالـاتـابـكـةـ (ـاتـابـكـ لـفـظـ تـركـيـةـ : «ـاتـاـ»ـ مـتـنـاـهـاـ وـالـدـ ، وـ «ـبـكـ»ـ مـعـنـاـهـ اـمـيرـ ؟ـ قـابـلـ اـنـ تـركـ)ـ كـانـواـ اـولـ اـوصـيـاءـ اوـ مـؤـدـيـنـ لـسـفارـ اـمـرـاهـ السـلاـجـقـةـ ، ثـمـ خـلـفـوـمـ فيـ السـلـطـةـ الـلـيـاـ .ـ اـلـظـرـ :ـ اـبـوـ شـامـةـ ،ـ الرـوـضـتـيـنـ فيـ اـخـبـارـ الـدـولـيـنـ ،ـ جـ ١ـ ،ـ (ـالـقـاهـرـةـ ،ـ ١٢٨٧ـ)ـ ،ـ منـ ٢٤ـ .ـ

٤) كـمالـ الدـينـ فيـ :ـ *Recueil* , vol. iii, pp. 703 seq .ـ وـابـنـ الـائـيرـ ،ـ (ـتـارـيـخـ الـوـلـةـ الـاتـابـكـيـةـ)ـ فيـ :ـ *Recueil* , vol. ii pt. 2 pp. 10 seq .ـ كـمالـ الدـينـ فيـ :ـ *Recueil* , vol. iii, pp. 685-6 .ـ اـبـنـ الـائـيرـ فيـ :ـ *Recueil* , vol. ii, Pt. 2, pp. 118-9 .ـ اـبـنـ خـلـكـانـ ،ـ جـ ١ـ ،ـ منـ ٣٤٤ـ ؟ـ التـهـيـجـ ٢ـ صـ ٣٨ـ ،ـ ٤٠ـ ؛ـ اـبـوـ شـامـةـ ،ـ جـ ١ـ ،ـ منـ ٣٣ـ ،ـ ٣٤ـ ،ـ ٣٦ـ ،ـ ٣٧ـ .ـ

من الانتصارات عليهم ، استأنفها من بعده ابنه نور الدين ، وبعده خلفه صلاح الدين^١ . وهو الذي بنى مدينة الموصل المعروفة في العصر الوسيط . وكان من أتابكوهات الاتراك طفتكنين^٢ ، وكانت مولى لتنش مكلغا بتأديب ابنه دفاق . وقد جرى على سيرة سواء من الأوصياء ، فعمد إلى انتصارات السلطة ، ثم أقرّت سلطنته على دمشق بعيد وفاة سيده القاصر ، وكان قد تزوج من أمها^٣ . وفي سنة ١١١٦ عين كبير سلاطين السلاجقة في بغداد طفتكنين حاكماً على سوريا ، وأولاً حق فرض الضرائب وتجنيد الرجال . وقد حالف طفتكنين أيل غازي فاشتركتا في القتال ضد الفرنجية^٤ . وكان كلاهما من المسرفين في شرب الخرفة ! وربما بقي أيل غازي أحياناً «عشرين يوماً» تحت تأثير الكحول في سكررة واحدة . وذات يوم أرسل أيل غازي إلى زميله باسir من الفرنجية ، هو سيد صهيون ، على أمل أن يفزعه فبحمله على تأدبة فدية كبيرة . لكن ، لم يكن من طفتكنين ، الذي كان قد أكثرا من الشرب في خيمته ، إلا أن استل سيفه وأطاح به رأس السيد المشووم . وقد دعى تصرفه هذا ، في ما بعد ، بأنه اعتقاد أنه أشد ما يمكن للأسير^٥ . وفي سنة ١١١٢ است مجذت صور ، وهي بيد الفاطميين ، من الصليبيين بطبعتين ، لكن التجدة التي أرسل اليهم بها كانت مددًا مؤقتًا . فاستطاع الصليبيون احتلال هذا الثغر سنة ١١٢٤^٦ .

١) انظر الفصل التالي : بحث «صلاح الدين».

٢) لفظ تركي معناه «الصقر المغير» . وكان لقبه التكريمي ظهير الدين . وقد اخند معظم هؤلاء القادة القاباً عربية فخمة : فاختار أيل غازي (أي بطل قومه) لقب نجم الدين ، وتتن ، تاج الدولة ، وروضان ، فخر الملك .

٣) ابن القلاني ، ص ١٩٠ : ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٦٩ ، ابن خلون ، ج ٥ ، من ١٥٥؛ ابن تقری بردی ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٨٨ .

٤) كمال الدين في *Recueil, vol. iii, pp. 620 seq.*

٥) اسلامة ، ص ١١٩ - ٢٠ .

٦) ابن تقری بردی ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

ان السلالة التي بدأها طفتكن عرفت بعدها باسم ابنه وخلفه بوري^١. ثم قام بعدها اتابكة زنكي سنة ١١٥٤، وسيأتي الكلام عن مآثرهم في ما بعد^٢.

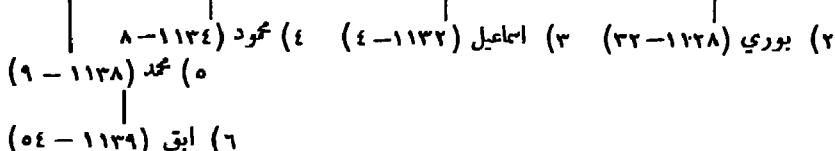
قام الفاطميين

كان قيام الخلافة الفاطمية، نظير العباسية^٣، وثيق الصلة بسورية. ذلك لأن بلدة سلَّمَة^٤، الخاملة المتنزلة، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من حماة، كانت قد غدت في أواخر القرن التاسع، مقرًا لزعيم الخشائين من الإماماعيلية، ومركزًا للنشاطهم. وكان هذا الزعيم يدعى محمدًا الحبيب. وكان في ظن اتباعه أنه ابن حفيض الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق، وهذا بدوره سليل علي وفاطمة عن طريق الحسين^٥. وكان الحبيب اميناً لأساليب الإماماعيلية، فعمد من ثم إلى بيت العلاء شريراً في أنحاء العالم الإسلامي، ليعملوا على تقويض سلطة أهل السنة، وإعادة إسلام الشيعة الصحيح إلى نصابه. وكانت هذه الدعاية، بعد الدعاية العباسية^٦، أعظم وأفعل جهاز للدعاية في تاريخ الإسلام السياسي.

ذلك أن داعياً مقتدرًا من دعاته أبو عبد الله الحسين الشيعي، من أهل اليمن، التقى في مكة بعدد من الحجاج البربر المنتمين إلى قبيلة قطامة في شمال إفريقية، وحملهم على اعتناق ملته. وفي سنة ٨٩٣ رافقهم إلى تونس، حيث بذلك

١) شكل شجري لatabka دمشق (١١٥٤ - ٥٤)

٢) طفتكن (١١٥٤ - ٢٨)



٢) الفصل التالي، الفقرة عن نور الدين.

٣) راجع من ١٥١ - ١٥٢ من هذا الجزء.

٤) سلَّمَة بالمعنى أحسن من التشديد سلَّمَة؛ تعریف عن الاصل اليوناني (سلیمان)؛ قابل: Canard, p. 235; Dussaud, *Topographie*, pp. 201, 244, 252.

٥) راجع شجرة النسب الفاطمي في هامش من ١٥١ من هذا الجزء.

٦) راجع من ١٥١ - ١٥٢ من هذا الجزء.

كل ما أُوفي من دهاء، حتى جعل من نفسه ذعراً مرموقاً. ثم اخذ في كفاح شديد متواصل من أجل أن يزيل حكم الأغالبة الذي كان قد توثق في مدى قرن من الزمان. وعندما وثق من الظفر، دعا إليه زعيم ملته من سلية، وهو آنذاك عبيد الله بن محمد الحبيب. لكن أمير عبيد الله هذا افضح في سجلاتة فأعتقله حاكم الأغالبة (٩٠٥) وأودعه السجن. على أن داعيه الحسين الشيعي عُذِّن ستة من خلع حاكم الأغالبة؛ وعندما أطلق سراح عبيد الله، واقامه في الرقة سيداً على المنطقة^١. ثم أعلن عبيد الله عن نفسه أنه المهدى المنتظر، وبذلك نشأت سلالة خلافية جديدة هي السلالة الفاطمية، وتعرف أيضاً بالعلوية وبالعبيدية. ولم تكن هذه السلالة بالسلالة الخامدة؛ فقد كان ظهورها بثابة تحدّى مدير لزعماء العباسية الراهنة في الإسلام. واتسعت سلطتها في أوج عزها حتى ضمت شمالاً إفريقية وغربياً الجزيرة العربية، والبلاد السورية. وقد كانت الخلافة الشيعية الكبرى الوحيدة، وأآخر ما ظهر من خلافات الإسلام في العصر الوسيط.

ولقد حجب التاريخ نسب عبيد الله بمجانب من الأهام الشديد. والمظنون أنه ولد في سلية، غير بعيد عن حمص – وهي التي انتخب للعرش الروماني بعض من تولاه^٢ – وكذلك ابنه وخلفه^٣. ويشير المؤحقون إلى أن سلالة نسبه الشريف جاءت في المدونات على صور عديدة، فهي والحقيقة هذه غير حرية بالثقة؟ بل إن البعض يغالي في التخيين حتى ليقول بأن المهدى الحقيقي قُتل في سجن سجلاتة، وأن «عبيد الله» الذي خرج من السجن لم يكن إلا يهودياً تقمص شخصية الزعيم المنشود، ولعب دور المهدى المنتظر. ويؤكّد آخرون أن عبيد الله هذا لم يكن علويّاً، حتى لا عربيّاً؛ بل كان يوافع الأمر سلسل الزعيم الفارسي عبد الله ابن ميمون القداح، المؤسس الثاني بعد اسماعيل لفرقة الاسماعيلية^٤ وكانت مبادئ هذه الفرقة قد غدت في هذا الزمن مزيجاً غريباً من الأفكار الشيعية المتطرفة، والتأملات

١) الفرزلي، ج ٢، ص ١٠-١١؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١ وما بعد.

٢) راجع الجزء الأول، ص ٣٧٧.

٣) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، نشر فدر هيدن، الجزائر (١٩٢٧)، ص ٦، ١٨، ١١؛ ابن خلkan، ج ١، ص ٤٨٨ .

٤) ابن خلkan، ج ١، ص ٤٨٧؛ ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ١١٢ .

الصوفية الفارسية ، والاصول السريانية الفتوسطية والمبادىء العقلية البرهانية . وفيما يبطل المؤرخون المشايرون للعباسيين شرعية الدعوة الفاطمية ، يؤيدها جماعة من العلماء الحدثيين في اوروبا ، ويواقون على صحة النسب السلي .¹

اسع متن کاتم

لقد اسس عبيد الله (٩٠٩ - ٣٤) عاصمة جديدة الى الجنوب الشرقي من مدينة القيروان دعاهما باسم منسوب الى لقبه هو : «المهدية». وانتقل خلفه الثالث المفر (٩٥٢ - ٧٥) الى مصر سنة ٩٧٣ ، حيث كان قائد المظفر جوهر قد اسس عاصمة جديدة هي مدينة القاهرة – تلك المدينة التي قدر لها ان تصير اشهر مدن القارة الافريقية على الاطلاق . ثم بني فيها المسجد الجامعي المعروف بالازهر ، وهو اقدم المؤسسات الباقية للتعليم العالي ، ومن اوسع المؤسسات التعليمية في العالم حتى الوقت الحاضر . كان جوهر هذا في الاصل عبداً نصراانياً ، والراجح انه من اهل صقليه استراه سيد مسلم في مدينة القيروان . فارتفع من هذا الاصل الوضيع الى اوج شاهق غدا فيه منشى امبراطورية عظيمة^٢ . وجوهر هو الذي طرد الاخشيديين سنة ٩٦٩ من مصر وسوريا^٣ .

وكان جلور في سوريا خصوم كثيرون لم يربأ من قتالهم . منهم القرامطة يتزعمهم الحسن ابن احمد الاعصم . وكان يعتمد على مساعدة العباسين وتأييدهم . وقد لاح الفوز اولاً في جانب الاعصم . فاحتل دمشق ، وحمل الفاطميون على الانسحاب من البلاد برمتها ، واقدم على اللحاق بهم حتى عاصتهم القاهرة^٤ . ومنهم الروم ، وهم آئندي يتحينون الفرص لتجديده حملاتهم على الاراضي التي كانت في حوزتهم . ومنهم كذلك الاتراك ، اذ لم يكونوا غافلين عما يجري حولهم . فان احد قوادهم المدعى افتكين استولى على دمشق ، وبدأ يشن الغارات منها على جميع

P. H. Mamour, *Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs* : (ا) انظر (London, 1934), pp. 16 seq., 43 seq., 124 seq.; W. Ivanow, *Ismaili Tradition concerning the rise of Fatimids* (Oxford, 1942), pp. XVII-XIX, p. 127 seq. (Eng.); cf. Lewis, p. 22.

^{٢)} ابن خلكان، ج ١، ص ٢٠٩ - ١٣؛ المقرئي، ج ١، ص ٣٥٢، ٣٧٧ وما بعد.

٣) راجع ص ١٩٢ من هذا الجزء.

٤) ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٠ - ٥١

انحاء البلاد. وكان من الطبيعي ان يتعاون الاتراك والقراطمة ضد العدو المشترك في سنة ٩٧٧ تولى الخليفة الفاطمي الثاني العزيز قيادة الجيش بنفسه، ونزل بجيشه المتحالفين هزيمة نكراء خارج الرملة^١. وقد وسع العزيز ملكه في سوريا، لاسيما في المنطقة الساحلية ، لكنه اخفق في احتلال حلب لاسباب اهمها تدخل الروم^٢. وقد بلغت الخلافة الفاطمية في عهده اوسع مداها، وخضعت لسلطته البلاد من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، وعنت له كذلك الحجاز والميمن وسوريا، بل والموصل^٣. وقد استخدم حمام الرجل لاقامة مواصلات سريعة مع الاقليم السوري ، وعمد مررة الى استخدام ١٢٠ حاماً لنقل الحوائج من دمشق الى قصره في القاهرة ، فتم ذلك في غضون ثلاثة ايام او اربعة. وقد كانت جاريته الاثيرية امراً نصرانية عين احد اخوتها رئيس اساقفة في القاهرة ، والآخر في القدس . وكان وزير نصرانياً ايضاً هو عيسى بن نسطوروس ، وقد اذاب عنه في سوريا رجالاً يهودياً اسمه منشاً (منسه) ابن ابراهيم . فاتهم كل منهم انه كان يرعى مصالح ابناء ملته . وفيما كانت الخليفة يوماً يجري على بغل سريع ، اقت امراً في طريقه لوحدة كتب عليها : «بالذى اعز اليهود بنشا ، والنصارى بابن نسطور ، واذل المسلمين بك ، الا نظرت في امري »^٤.

وضع سوريا الفلك

كان حكم الفاطميين في سوريا قلقاً مضطرباً . وذلك لانه لم يكن القراطمة والسلاجقة والترك والروم وحدهم قد تنازعوا عليها ، بل لأن المواطنين احياناً

١) ابن القلاني، ص ١٨-١٩؛ ابن خلدون ، ج ٤، ص ٥٢ .

٢) ابن القلاني، ص ٢٩ .

٣) ابن تفري بودي، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ١٠ ؛ ابن خلkan ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

٤) قابل : ابن القلاني، ص ٣٣ ؛ ابن تفري بودي ، ج ٢ ، قسم ٤ ، ص ٤ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ١٤ ؛ ابو الفداء ، ج ٢ ، ص ١٣٨ .

وأهل الbadية قد اشتركوا في ذلك. في العام الثاني لخلافة الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١)^١ بلغت الجرأة من ملاح من أهل صور، اسمه علاقة، ان يضرب التقدّم باسمه، ويعلن استقلال مدینته . وقد صد في وجه الجيش الفاطمي الى حين، واستعنان بعمارة قن اسطول الروم للوقوف في وجه الاسطول الفاطمي ؛ لكنه اضطر اخيراً الى تسليم المدينة المحاصرة، وتحمل بلاء التشكيل والصلب^٢. ثم حشى جلده بالقش وعرض في القاهرة .

١) شكل شعري للخلفاء الفاطميين .

- ١) المهدى (٩٠٩ - ٣٤)
- ٢) القائم (٩٣٤ - ٤٦)
- ٣) المنصور (٩٤٦ - ٥٢)
- ٤) العز (٩٥٢ - ٧٥)
- ٥) العزيز (٩٧٥ - ٩٦)
- ٦) الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١)
- ٧) الظاهر (١٠٢١ - ٣٥)
- ٨) المستنصر (١٠٣٥ - ٩٤)
- ٩) المستعمر (١٠٩٤ - ١١٠١)
- ١٠) الامر (١١٠١ - ٣٠)
- (محمد)
- ١١) المحافظ (١١٣٠ - ٤٩)
- (يوسف)
- ١٢) الظاهر (١١٤٩ - ٥٤)
- ١٣) الفائز (١١٥٤ - ٧١)
- ١٤) العاضد (١١٦٠ - ٦٠)

١) ابن القلانسي ، من ٥٦ - ٥١ ؛ ابن خلدون ج ٤ ، من ٥٧ - ٥٨ .

الامراء المرادسيون

ان الفوضى التي شاعت في خلافة الحاكم بامره قد اغرت اعراب بادية الشام بشن الغارات على سوريا في سنة ١٠٢٣ تمكن صالح بن مرداش، زعيم بنى كلاب من انتزاع عاصمة سوريا الشمالية من يد الفاطميين. واستطاعت السلالة المرادسية ان تحفظ بعدينة حلب، بين شدة ورخاء، اكثر من خمسين سنة (٧٩ - ١٠٢٣)، عدوا في غضونها الى حالفتها بنى كلاب وبني طيء؛ فحاصر الكلبيون دمشق (١٠٢٥) واضرموا الطائيون النار في الرملة (١٠٢٤). اما اللصوصية وقطع الطرق وحرکات التمرد، التي بدأت بقيام القرامطة، فقد استبررت واسعة الازل في طول البلاد وعرضها. لكن مدينة حلب نفسها، على ما يبدو، حافظت على ظاهرة الازدهار. فناصري خسرو^١ الرحالة الاسماعيلي الفارسي الذي قصد حلب سنة ١٠٤٧، يذكر ان تجارة من العراق ومصر وآسيا الصغرى كانوا فيها، ويتحدث عن المكوس التي كان المرادسيون يتتقاضونها عن البضائع. وهناك رسالة ارسل بها طبيب نصراوي من اهل بغداد – اسمه ابن بطلان – الى صديق له على ابو زيارته للمدينة المذكورة في تلك الاتهاء، تعطي فكرة عامة عن المدينة في عهد السلطة المرادسية : فالمدينة كانت محاطة بسور مبني بالحجر الايopian، فيه ستة ابواب. وقد قامت قلعتها القديعة الى جانب السور، وازادت قبة الرابية بكنيستين ومسجد. وكان في المدينة ست كنائس اخرى ومسجد جامع (ما يشير الى ان جانباً كبيراً من سكانها كانوا من النصارى). وكان هنالك ايضاً مستشفى صغير. وكان اهل المدينة يستقون من احوالهم تجمع فيها مياه المطر. وكان في بناء واحد من مباني السوق عشرون تاجراً من تجار الالبسة، كانوا لعشرين سنة يجرون اعمالاً تجارية تقدر بعشرين الف دينار في اليوم الواحد^٢.

المعري – الشاعر الفيلسوف الضري

ان روح العصر، بكل ما عرّاه من فوضى سياسية وفسخ اجتماعي وتشاؤم

١) سفر نامه، نشر شارل شفر (باريس، ١٨٨١)، ص ١٠.

٢) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٦ - ٨.

فكري وتشكك ديني ، قد انعكس بجلاء في شعر شاعر من ابناء سوريا الشمالية هو ابو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧). اما مسقط رأسه فظاهر من اسمه ، وهو معروفة التعبان ؛ واما نسب قومه فيعود الى قبيلة تنوخ من عرب اليمن . وعندما بلغ الرابعة من عمره اصابه جدرى ذهب باحدى عينيه ، ثم ذهب بعد حين بالعين الأخرى . فزادت هذه النكبة المشؤومة في نعمته على الحياة . ولقد حصل الناشيء الكيفي ما استطاع تحصيله من العلوم في حلب ؛ ثم قصد الى بغداد مررتين^١. واذ كان فيها في رحلته الثانية ، جرت له احاديث . مع جماعة من المفكرين ، وسمع شيوخ المعتزلة وبعض الفلاسفة المتأثرين بالملذاهيب اليونانية . والتحق بحلقة ادبية انشأها احد المفكرين الاحرار . لكنه اضطر الى ان يبعد بالعودة الى موطنه سنة ١٠١٠ ، بعد ان امضى في بغداد تسعه عشر شهراً ، وذلك بداعي مرض المباوه ؛ لكنها ماتت قبل وصوله اليها . والراجح انه اتصل وهو في بغداد بفلكرين من المنود غتكنوا من حمله على مذهبهم في الاقتصار على الاطعمة النباتية .

وقد امضى الباقي من عمره عازباً في مسقط رأسه ، ويقال انه اوصى ان يكتب^٢ على قبره البيت الذي يقول فيه :

هذا جناه اي عليٌّ م وما جنت على احدٍ^٣

وكان المعري يعيش على دخل ضئيل يكسبه من تعليمه . وعندما احتل المرة الخليفة الفاطمي المستنصر ، خفيف الحاكم باسمه ، قدم لشاعرها كل ما كان في الخزانة من مال ، فرفضه^٤ . وكان شاعرنا يقضي اكثر اوقاته منفردآ ، فلقب نفسه برهين الحسينين (البيت والمعنى) . وقد خرج مرة الى احدى ضواحي المرة ليتوسط لدى صالح بن سرادس بشأن ستين من وجهاء بلادته كان صالح قد اعتقلهم ، فنزل صالح على طلبه واطلق سراحهم في الحال .

والمعري ، يختلف شعراء عصره ، لم يقف شاعريته على مدح الامراء وارباب التفوذ وغبة في الكسب ؛ وعليه فالقصيدة التي مدح بها سيف الدولة في عهده الباكر

١) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٥٩ ، ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

٢) ياقوت ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

٣) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٥٩ .

٤) ياقوت ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

لم ينشدها على مسمعه^١. أما شعره المتأخر فينبع عن فلسفة التشاؤم والشك في الحياة، وعن موقفه العقلاني من مشاكلها. وكان من الذين بادهم الرسائل داعي دعاة اليسوعية. وقد حشد في رسالة الغفران^٢ مشاهير المراطقة وأحرار المفكرين بجوار الجنة. يرثون عن أنفسهم، ويخوضون في مناقشات نقدية تتناول الشعر. وهذه الرسالة، في ظن البعض، هي التي حفظت داتي على وضع رائعته المعروفة بالكوميديا الالمبة^٣. وتشتمل لزوميات المري على قصائد هي من أشهر شعره. وقد اشتتملت بعضها على معانٍ أحرز بها شاعر المرة السبق على زميله عمر الخيام. وحاول أبو العلاء في كتاب الفصول والغایات^٤ أن يقلد القرآن، بما عده المسلمين خرقاً فاضحاً لحرمة الدين. أما الطابع الفلسفى الغالب على هذا الديوان فطابع أبيقوري في الأساس. وفي الآيات التالية ما يشهد على انحرافه هذا؟ قال :

ضحكنا، وكان الضحك منا سفاهة
وحق لابناء البسيطة ان يبكوا
يمحطمna ريب الزمان كأننا زجاج، ولكن لا يعاد له سبك^٥

 جاءت احاديث، ان صحت فان لها شأنأً، ولكن فيها ضعف اسناد
 فشاور العقل واترك غيره هدرأً، فالعقل خير مثير خمه النادي^٦

 هفت الخيبة والتصارى ما اهتدت وبهود حارت والجوس مضله
 اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين، وآخر دين لا عقل له^٧
 وكان المري واحداً من شعراء العرب القليلين الذين تخطوا حدود الزمات

١) المري، الديوان؛ سقط الزند نشر شوك شتير (بيروت، ١٨٨٤)، ص ٤ وما بعده.

٢) نشرها كامل كيلاني في مجلدين (القاهرة، ١٩٢٣).

٣) انظر Miguel Asin, *Islam and the Divine Comedy*; tr. H. Sunderland (London, 1926).

٤) او لزوم ما لا يلزم ، نشرها عزيز زند في مجلدين (القاهرة، ١٨٩١-١٩٥)؛ وتقل اقساماً منها ومن سقط الزند امين ف. ويحيى الى الله الانكليزية بنوأن : 'The Quatrains of abu'l-Ala' (London, 1904).

٥) نشرها محمود ه. زناتي، ج ١ (القاهرة، ١٩٣٨).

٦) ابو العلاء المري ، رسائل ابي العلاء ، نشر مرغوليوث (اسفورد، ١٨٩٨) ص ١٣١.

٧) لزوميات، ج ١، ص ٣٩٤.

٨) لزوميات ، ج ٢، ص ١٩١.

والمكان، ليترفعوا إلى رحاب الإنسانية العالمية . وقد احتفل بمرور الف عام على مولده سنة ١٩٤٤ في بيروت تحت رعاية رئيس الجمهورية اللبنانية وفي دمشق واللاذقية ومعرة النعمان ، تحت رعاية المجتمع العلمي العربي في الشام . وساهمت في هذه المهرجانات وفود من سوريا ولبنان وشمال الأردن والعراق ومصر ، وأسهم بعض المستشرقين من أوروبا وأميركا في كتابة الابحاث المناسبة . وقد وصف المهرجان في دمشق بأنه اعظم احتفال شهدته المدينة في تاريخها الادبي^١ . وبهذه المناسبة عمد ألو الامر إلى ترميم مدفنه وتحوله إلى مزار عام .

الدروز

نشأت على يد الحكم باسمه (١٠٢١ - ٩٩٦) ملة جديدة في الإسلام هي الطائفة الدرزية . جاءها هذا الاسم من اسم داعٍ تركي من دعوة الباطنية^٢ هو محمد بن اسماعيل الدرزي (الحيطاط بالفارسية) ، وكان أول من جنح بتقديس الخليفة المذكور^٣ . والجدير بالذكر أن المبدأ القائل بتجسد «مولانا» بصورة انسان ، وان الحكم باسمه هو اهم مراحل هذا التجسد ومنتهى غايته ، انا هو من التعليم الدرزي في الأساس اما الانبياء فهم – نسبياً – اقل خطراً .

واذ لم يلقَ الدرزي في تعليمه اذناً صاغية بين المصريين ، رحل إلى وادي التيم^٤ عند سفح جبل الشيخ في لبنان . فاستجاب له ابناء ذلك الريف الذين عرفوا بالشجاعة وحب الحرية ، اذ كانت بعض الاراء الشيعية المتطرفة قد غشت او ساطتهم^٥ . لكنه قتل هنا سنة ١٠١٩ في بعض المعارك ، فخلفه منافسه حمزه بن علي الملقب

١) المهرجان الالهي لابي العلاء المربي (معشق ، ١٩٤٥ ص ٩) .

٢) اطلق أهل السنة هذا الاسم على من ذهبوا إلى ان القرآن ينبغي ان يفسر تفسيراً مجازياً ، وان الحق انا يوقف عليه باكتشاف المفهوم الباطل للعن ، وان الظاهر انا هو حجاب الباطل يراد به اخفاء الحق عن اعين من ليسوا بهامل ؛ وقد كان الاسعاعية والفرامطة من الفرق الباطنية .

٣) ابن تفري بردي ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٩ .

٤) الاسم مأخوذ من تم الله (تم اللات اصلأ) وهو اسم لقبية عربية كانت في منطقة الفرات حيث تضررت ، ثم تحولت إلى جنوبي لبنان ؛ الطبرى ، ج ١ ، ص ٢٤٨٩ - ٢٩٠ - ٢٠٣١ .

٥) ابن تفري بردي ، ج ٢ ، ق ٤ ، ص ٧٠ .

بالمادي»، وهو الآخر أحد الدعاة الفرس^١. وعندما اغتيل الحاكم بأمره، انكر المادي وفاته، وأشاع أنه تحول إلى «غيبة» مؤقتة، وأنه من الواجب، وبالتالي، ترقب «رجعته» المظفرة. وقد كتب بهذه الدين المقني (ت يعود ١٠٤٢)، المساعد الأول لخوزة في نشر الملة الجديدة، رسائل دعاوة بلغت حتى الهند والقدسية، لكنه بعد بعده إلى تدبر جديد هو عدم السماح بافتاء أي جانب من جوانب هذا المذهب في غضون «غيبة» الحاكم بأمره، وهو تدبر ربما امتهن رغبة النّة القليلة في سلامه البقاء. ومنذ ذلك الحين «اقفل الباب». وحضر على أي كان الدخول إلى الملة أو الخروج منها. أما فكرة الإمام القائم، فكان قد قال بها قبل الدروز، جماعات من غلاة الشيعة في مقدمتهم الإمام علي.

وقد جمع بهذه الدين في «الرسالة المسيحية» بين شخصيتي حزرة والمسيح، وخطب المسيحيين في رسائل أخرى وجهها إليهم «بالقديسين»، و«بجماع القديسين» راجياً أن يجعلهم بذلك على اعتناق تعليمه. وكان يصرّب من الأمثال ما هو من قبيل الوارد في المهد الجديد من الكتاب المقدس. وفي ذلك ما قد يشير إلى سابق صلة له بالتعليم المسيحي^٢.

وقد أقدم حزرة، باليابنة عن الحاكم بأمره، على حل اتباعه من فرائض الإسلام الكبير، ومنها الصوم والحج، وسن مكلتها شرائع اوجب بها الصدق في القول، والعون المتبدل بين أبناء الملة، ونبذ العقائد الباطلة في جميع استكالمها، والحضور التام للارادة الالهية. وقد أصبحت هذه القاعدة الأخيرة، المشتملة على عقيدة القضاء والقدر، عاملًا فعالًا في التعليم الدرزي، كما كانت في مذهب أهل السنة في الإسلام. ومبدأ آخر مما تميزت به هذه الملة هو تناصح الأرواح. وكان هذا المبدأ قد ورد على الإسلام من مصدر هندي، فاضيفت إليه عناصر أخرى من الفلسفة الإلحادية. ثم إن المعرفة وكذلك الباطنية كانت قبل الحاكم بأمره بزمن طويل، قد اقرت بضرر من تناصح الأرواح لا يزال عليه بعض متصرف الفرس المعاصرین

١) ان كتاب ابن حجر السقلافي، «دفع الاصغر عن قضية مصر» في «الكتبي» نشر غوست، من ٦١٢ يسميه الروزنبي (من زوزن في شرق فارس).

٢) انظر Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes*, (Paris, 1838), vol. i, p. 83, n. 1.

واعلام البهائية في الوقت الحاضر. اما العمل بالمبادأ الثاني الذي وضعه حجزة، والذي يوجب العون المتبادل ، فقد جعل من الدروز جماعة شديدة التاذلك مفرطة الانكash، حتى تكاد تبدو اقرب الى المنظمة الاخوية الدينية منها الى الملة المذهبية الدينية . واجماعة ، مع ذلك ، مقسمة الى طبقتين متباينتين : العقال والجهال ، وكتبهم المقدسة متاحة لفئة العقال القليلة العدد لا غير ، وجميعها مخطوطه غير مطبوعة . وهم يعقدون اجتماعاتهم مساء كل خميس في خلوات قافلة على التلال خارج القرى .

وعندما حاول الدروز ان يوتفقا امرهم ، ويثبتوا اقدامهم في جنوب لبنان ، نشب نزاع بينهم وبين جماعة اخرى هناك ، كانت قد انحرفت عن الاسلام ، هم التصيرية . وكان من نتيجة هذا النزاع ، ان دفع هؤلاء الى شمال سوريا ، حيث لا يزال موطنهم حتى اليوم . ولقد كان على الدروز ان يتخلوا غير هؤلاء من المجاوريـن . بعضهم من الشيعة وبالبعض من اهل السنة . ثم اخذوا في الانتشار ، من موطنهم في جنوب لبنان ، الى منطقة الشوف ، الى الشرق من مدينة بيروت ، حيث اصحابهم الصليبيـون ، وحيث ما زالوا مزدهرين الى اليوم . على انهم لم يتسلـن لهم الفلاح في مدينة ما . واول ذكر للدروز في المدونات الاوروبية ورد في رحلات بنiamin التودلي^١ (حوالي ١١٦٩)، وهم بعد في وادي التيم . على ان جماعات منهم هاجرت ، على اثر المنازعات القبلية الدامية ما بين التنسـية واليـنية ، في مطلع القرن الثامن عشر ، من السوق الى حوران في سوريا^٢ . وقد ارتفع معدل هذه المجرة في القرن التاسع عشر ، في اعقاب المضايقات الكثيرة في لبنان . ويبلغ عددهم الآن في حوران نحوـا من تسعـة وثمانين الفاً ، في مقابل تسعة وسبعين الفاً في لبنان . ولقد اظهروا في جميع مراحل تاريخهم عزيمة حرية بالاعجاب ، وكان لهم في الشؤون القومية العامة في لبنان وسوريا من التفؤـد ما يفوق نسبتهم العددية .

النصيرية

والنصيرية فرع آخر من الفروع الاسماعيلية الباقية . والراجح ان اسمهم متحدـر

Vol. i, p. 61)١

(٢) راجع ص ٤٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب.

من محمد بن نصير الكوفي (زها في اواخر القرن التاسع) وهو احد مشايعي الحسن العسكري (ت ٨٧٤^١)، الامام الحادي عشر من ائمة العلوين . وقد وردت اقدم اشارة هامة الى ابن نصير واتباعه في بعض اثار حجزة ، وغير حجزة من فقهاء الدروز السابقين . على ان آخر مؤسسي هذه الشيعة ، على ما في مدوناتهم ، هو حسين ابن حдан الحصبي (ت حوالي ٩٥٧)، وقد كان قبلًا مولى اسماعيلياً من موالي المهدانيين في حلب^٢ .

اما المعروف عن مذهبهم فليس بالشيء الكثير : انه مذهب سري الطابع كهنوتي النظام باطني التعليم . ومدوناتهم المقدسة لم يعرف عنها بقدر ما اعرف عن مدونات الدروز . فان الكثير من هذه قد كشف في اعقاب الفتن الاهلية التي نشبت في غضون القرن التاسع عشر . واذ وجدت هذه الملة نفسها جماعة صغيرة خارجة ، بين اكثريتين معادية ، آثرت اللجوء الى العمل في الخفاء ؛ وهي الى الان اللقب الذي لم يحمل حلاً كاملاً في الشرق الادنى .

وبعد ، فالمعروف من اورهم هو هذا : ان النصيرية ، شأن غلاة الشيعة ، يؤلمون علياً ؛ وهو ، في ما يرون ، آخر مرحلة التجسد الاهي واهماها^٣ . اما المتأخرون من اتباع هذه الملة فمنهم «التختجية» (الخطابون) في غرب الاناضول ، و«القرزلياشية» (ذوو الرؤوس الهراء) في شرق الاناضول ، و«العليمية» في فارس وتركستان ؛ ولذلك يسمى النصيرية احياناً بالعلويين . وقد اشتهروا بهذا الاسم عندما حول الفرنسيون المنطقة التي تكتنف اللادقية الى دولة منفصلة سموها «العلويين» . لكنهم سموا في تاريخ الصليبيين «النزيري» (Nazarei) . ويتمثل مذهب هذه الملة في اراء شيعية متطرفة نابتة في اصل وثنى ؛ او هو ، بتعبير آخر رواسب من ملل سوريا وتنية مغلقة بعشاء من التعليم الشيعي المنحرف . وينبغي ان يكون اعلامها قد تحولوا من الوثنية الى المذهب الاسماعيلي بصورة

^١) راجع ص ٥٥ وص ١١٩ من هذا الجزء . قابل ابو الفداء ، التقويم ، من ٢٣٢ ، هامش ٣ حيث يذكر ان المؤسس هو نصير احد موالي علي .

^٢) انظر L. Massignon in *Actes du XVIII. Congrès international des Orientalistes Leyden, 1931*), p. 212.

^٣) الشهريستاني ، ص ١٤٣ - ٤٥ .

مباعدة^١، ثم تبنوا بعض الظواهر المسيحية السطحية . فهم مثلاً يحتفلون جماعياً لاداء بعض شعائرهم بما يشبه «القداس»، ويشاركون النصارى في عيد الميلاد^٢ وعيد القيامة، ويستخدمون اسماء افراد بها النصارى نظير: متى ، وجبرائيل ، وبونا ، وهيلانة . أما طبقة الشيوخ التي تقابل «العقل» في نظام الدروز فمنظمة في ثلاث مراتب كهنوتية ، وأما سائر الملة فتؤلف طبقة العاملين . والتصرية يخالفون الدروز في انهم لا يتبعون للنساء الدخول في طبقة المكرسين . وهم يقيسون اجتماعهم ليلاً في اماكن خفية . ولقد اتهموا باتباع بعض المنكرات في مجتمعهم الليلية هذه ، ونسبوا الى عبادة اشياء غريبة ، وقد طالما اتهم بذلك سائر اصحاب المذاهب السرية^٣ .

ويبلغ عدد النصريّة اليوم نحواً من اربع مئة الف ، اكثراً من المزارعين . وهم يستوطنون المناطق الريفية في سوريا الوسطى والشمالية ، وينتشرون متفرقين حتى كيليكيا التركية .

اضطهاد النصارى

كان النصارى واليهود على خير حال في ظل الحكم القاطمي ، الا في عهد الحاكم بامره . ذلك لانه عاد فاجرى عليهم التدابير المذلة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكل قد فرضها عليهم^٤ ، ثم اضاف اليها فتوناً اخرى من الاذلال ، مع ان والدته وزوجها كانوا من النصارى . فقد زاد سنة ١٠٠٩ على القيود السابقة المتعلقة بالملابس تيزيزاً للذمي من المسلم ، فاوجب على النصارى ، متى دخلوا المهامات العامة ، ان يجعلوا في اعناقهم صلياناً زنة الواحد منها خمسة ارطال نحو كيلوغرامين على ان يرسوها متداة على صدورهم . ورتب على اليهود ، في مثل هذا الحال ، ان يجعلوا في اعناقهم اطاراً من الخشب بالوزن نفسه ، شدت اليه الاجراس الجلجلة^٥ .

١) كتاب الاعتبار ، نشر حتى ص ١٥٩ - ٦٠؛ سيد عربى سوري ، ص ١٩٠ .

٢) انظر R. Strothman in *Der Islam* , vol. xxvii, No. 3 (1946), p. 175-8.

٣) انظر : Conder, *Syrian Stone-Lore*, p. 423. n.

٤) راجع ص ١٠٠ - ١٠١ ، وص ١٦٧ من هذا الجزء .

٥) ابن خلكان ، ج ٣، ص ٥؛ ١٩٥؛ سعيد بن البطريق ، ص ١٩٥؛ المقرئي ، ج ٢ ، ص ٢٨٨؛ ابن حاد ، ص ٥٤ .

وفي العام نفسه امر بهدم كنائس كثيرة كان من اهمها كنيسة السيدة في دمشق ، وكنيسة القيامة في القدس . وعده ، تطبيقاً للنصوص القرآنية التي حرمت المجزرة ، الى الامر باقلاع الكرمة ، وهي في مصر من مزروعات النصارى . اما من ابي الحضور لهذا التدبير من اهل الذمة فقد خيره بين اعتناق الاسلام والرحيل الى بلاد الروم . والظاهر ان عدد النصارى في مصر وسوريا في عهد الحاكم — بعد الذي محمد بن حمواربع مئة سنة — كان مساوياً لعدد المواطنين من المسلمين ان لم يفقه . وبعد مضي عشرين سنة ، عمد ابن الحاكم وخليفة الملقب بالظاهر ، بوجوب معاهدة عقدها مع امبراطور الروم ، الى اعادة بناء الكنائس التي هدمت ، ومنها كنيسة القيامة . ومع ذلك فان تهديم هذا الاتر من اثار المسيحية قد اسهم في اقدام الفرنجة ، على تجريد الملات الصليبية على الارض المقدسة .

ان الحاكم باهره ، الازرق العينين ، تولى الخلافة وهو في الحادية عشرة ، وتوفي في السادسة والثلاثين ، ولم تخُل سيرته من الغرائب . فقد انشأ معهداً للعلوم العالمية في القاهرة ، ولم يغض عليه ثلاث سنوات حتى هدمه وبطش باساتذته . ووضع تشریعاً ضد الدعاارة ، وحظر حتى ظهور النساء في شوارع القاهرة . ثم انه سن قوانين منع بوجبها للآدب وحفلات الطرب ، وحرم بعض الوان الطعام ، ولعب الشطرنج . وكان تصرفه الشخصي بحيث اتهمه مدونو الاخبار من خصوم الفاطميين بغرابة الاطوار^١ . على ان تفرد قديسي النصارى او دراويش المسلمين ، وفقراء المنود في تصرفاتهم امر معروف في اخبار الشرق الادنى .

ولما كان خلفاء الحاكم باهره اشد رغبة في خفض العيش منهم في ادارة شؤون الدولة . فقد عجزوا عن توثيق الامن في مصر ، وصون سيادتهم على الامصار . ففي سنة ١٠٢٣ تمكن اعراب بني مرداس من احتلال حلب ، عاصمة سوريا الشمالية . وسنة ١٠٧١ سقطت مدينة القدس ، وهي كبرى مدن سوريا الجوبية ، في ايدي السلاجقة ، وتبعتها بعد اربع سنوات مدينة دمشق^٢ . وما ان استرجعوا القدس سنة ١٠٩٨^٣ من الارتقين ، عمال السلاجقة ، حتى خرجت في السنة التالية من يدهم ، لتقع في يد اعداء غرباء ، لم يكونوا في الحسبان ، هم الصليبيون .

(١) ابن خلكان : ج ٣ ، ص ٤ - ٧ ; ابن خلون ، ج ٤ ، ص ٥٩ - ٦١ ; ابن تفري بردي ، ج ٢ ، ق ٢ ، من ٦٢ وما بعد ; السيوطى حسن الماضى ، ج ٢ ، ص ١٤ - ١٥ ; ابن القلائى ، ص ٦٦ - ٦٧ ، ٧٩ - ٨٠ ; المقريزى ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ - ٨٩ ; ابن حاد ، من ٤٥ - ٥٥ .

(٢) راجع من ٢٠٤ وص ٢١٤ من هذا الجزء .

(٣) بعض المصادر تحمل ذلك سنة ١٠٩٦ ، راجع بهذا الشأن : W. D. Stevenson, *The Crusaders in the East*, (Cambridge, 1905), p. 20.

الفصل السادس والعشرون لِلْأَقْرَبِيَّةِ وَالْأَقْرَبِيَّةِ

في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ القى البابا أوبيانوس الثاني، «الفرنسي مولداً» خطبة نارية في مدينة كلرمونت في جنوب فرنسا، حيث فيها المؤمنين على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة، لانتزاعها من أيدي الفاحسين، والاحتفاظ بها لأنفسهم. ولعل هذه الخطبة، باعتبار النتائج التي تختلف عنها، أشد الخطب في التاريخ وقعاً وابعدها اثراً. إذ تنادى الناس، على الأثر، بصيحة هي: «هكذا يريد الله»، غدت بعثة نفير تردد صداؤه في أوروبا من ادناها إلى أقصاها، وسرى في الناس على اختلاف طبقاتهم كلما بعدهى نفسانية عجيبة.

تعدد البواعث وتشابكها

على أن هذه الاستجابة لم تكن بمحملها وليدة الدافع الديني الذي غذته الكنيسة، بل كان هناك، فضلاً عن المتعبدين، القواد العسكريون الطامعون بالاستيلاء على مناطق جديدة، والتجار — لاسيما تجار جنوى والبنديقية وبيزا — الذين كانوا أشد اهتماماً بالشؤون التجارية منهم بالأمور الروحية؛ ثم أرباب الخيال البعيد، والتغور المضطربة، وعشاق المغامرات، فهوؤلاء كانوا على قدم الاستعداد أبداً للانضمام إلى كل حركة بارزة؛ وكذلك المجرمون والخطاة الذين نشدوا الفرار بالحج إلى الأرض المقدسة التي وطئتها قدما المسيح؛ ومثلهم من منوا بالشقاء الاقتصادي والاجتماعي، فكان «حمل الصليب» راحة وتفرجاً لهم وهم أكثر منه تصحيحة^١.

وكان هناك عوامل أخرى ذات طابع عام؛ فاختيار البابا جنوي فرنسا مكاناً لبدء دعوته لم يكن من قبيل الصادقة الحض. إذ كانت تلك البقعة من

١) للاستزادة من الملم عن أحوال أوروبا داجع August C. Krey, *The First crusade* (Princeton, 1921), pp. 24-43.

القارة الاوروبية قد اكتسحتها قبائل المسلمين قادمة من اسبانيا^١، وكان المسلمون خلال اربعة قرون ونصف القرن يوalon المجموع على مواطن المسيحية : اولاً عن طريق الامبراطورية البيزنطية ، وثانياً عن طريق اسبانيا وصقلية وابطاليا^٢؛ وكان قد آن لل المسيحية ان تبدي ردة ما . وفوق ذلك كله ، فان امبراطور الروم ، الكسيوس كومينيوس ، كان قبل ان القى البابا اوربان خطبته المثيرة ، قد التمس العون منه على السلاجقة الذين اجتازوا بمتلكاته الآسيوية حتى جوار القدسية^٣. دفعاً للغزو الاسلامي . ورأى البابا في هذا الالهاس فرصة ساخنة لتوحيد الكنيسة اليونانية وكنيسة روما ، بعد الانشقاق الذي وقع بين ١٠٥٤ و ١٠٥٩ ، لاقامة نفسه رئيساً واحداً للمسيحية .

الملة الصليبية الاولى

وحتى ربيع عام ١٠٩٧ ، كان قد استجاب لنداء البابا نحو من ١٥٠ الف من الافرنج والتورمندين ؛ وكان ملتقاه المتفق عليه مدينة القدسية ، فتقاطروا إليها وقد حملوا الصليب شارة^٤ ، فعرفوا من ثم بالصلبيين . على هذا النحو دفعت إلى الميدان الملة الصليبية الاولى ؛ وكان طريقها إلى الأرض المقدسة يخترق آسية الصغرى ، وينتهي منها إلى بلاد قيليق ارسلان . وفي شهر حزيران من تلك السنة احتلوا نيقية قاعدة السلاجقة ، وفي التالي سقطت في يدهم مدينة دوريلا يوم (اسكي شهر حديثاً)^٥ . فاعاد هذا الفتح المظفر على امبراطور الروم القسم الأكبر من آسية الصغرى ، اذ كان قد حصل من جميع قواد الصليبيين تقريباً ، على تعهد بالولاء لرابطة العرق التي تجمع بينهم .

(١) راجع من ٧٢ من هذا الجزء .

(٢) راجع بشأن فتح الاغاثة لصقلية ، pp. 602, 605, 617, 622.

(٣) راجع من ٢١٤ من هذا الجزء .

(٤) انظر *Gesta Francorum et aliorum Hiero soli mita norum* , ed. Heinrich Hagemeyer (Heidelberg, 1890), pp. 197, 208 seq ; *Fulcher Historia Hierosolymitana* , ed. Hagemeyer (Heidelberg, 1913), p. 192 seq .
للأستزادة من المراجع عن الصليبيين راجع Claude Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), pp. 3-104.

الولاية اللاتينية الأولى : الراها

ل لكن ، ما ان عبر قواد الحملات الصليبية جبال طورس ، حتى وقع الخلاف بينهم ، واخذ كل منهم يضع خططه الخاصة للتوسيع المحلي . فتحول بدروين شرقاً – وهو احد قادة اللوثرنجيين القادمين من بلاد الرين – ودخل منطقة اهلها من النصارى ثم احتل الراها ، وهي آنذاك تحت حكم الارمن ، في اوائل سنة ١٠٩٨^١ . وهكذا نشأت الولاية اللاتينية الاولى – ولاية الراها – وجلس بدروين اميرأ على عرشه . وقد عهد هذا الامير – الذي غدا في ما بعد ملكاً على القدس – الى الزواج من اميرة ارمنية ، واستقر في الشلال الى حين . اما تانكرد^٢ ، وهو احد قواد التورمنديين القادمين من جنوبي ايطاليا وصقلية ، فتحول غرباً ، ودخل كيليكيا ، وسكنها كذلك من الارمن ، بينما جماعة من اليونان^٣ واحتل مدينة طرسوس وسائر نواحيها

على ان معظم الجيش الصليبي كان ، في هذه الانتفاضة ، يتدفق على سوريا ، إذ كانت هدفة الاول . وكان يحكم سوريا الشمالية ، كما ألمعنا سابقاً ، امرأ من السلاغقة مستقلاً على^٤ ؛ فيما كان جنوبها تابعاً للخلافة الفاطمية^٥ . وقد كانت البلاد بحملتها لسنوات كثيرة ، موضوع تزاع بين الاتراك السنن والمربيين المتشيعين . وكانت اقسام اخرى منها في عهدة زعماء محليين من العرب . فطرابلس وجوارها مثلاً ، كانت منذ سنة ١٠٦٩ تحت سلطة بنى عمار ، وهم من الشيعة^٦ ، وشيراز في منطقة العاصي كانت منذ ١٠٨١ تحت حكم بنى منقد^٧ . ثم ان المنازعات المحلية ، والتحاسد الاخوي ، ومشكلات الولاية السلالية ، كانت قد ولدت حالة مزمنة من الوضع الفلك . اما اهل البلاد فقد كانوا بعيدين من تكوين جهة موحدة ؛ وذلك لأن الفرق العديدة التي تفرعت من الاسلام اخذت في اقسام البلاد ؛ فاعتصم الدروز في جنوبي لبنان ، واستوطن التصيرية في جبال سوريا الشمالية ، واستقر الاسماعيلية ثم الحشاشون الى

١) انظر Matthew of Edessa, *Chronique*, ed. E. Dulaquier (Paris, 1858) p. 218

٢) راجع من ٢١١ و ٢١٢ من هذا الجزء .

٣) راجع : G. Wiet in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928) vol. ii, pp. 279-84

ابن تفري بودي ، ج ٢، ق ٢، ص ٢٦٧ .

٤) انظر الفصل التالي تحت شهادة اسامي .

الشرق من مواطن التصيرية^١. وكان موارةً لِبَنَان الشَّمالي، من بين نصارى لبنان، لا يُزِّ الون يتكلمون السريانية^٢.

الولاية اللاتينية الثانية : انطاكية

كانت انطاكية المدينة السورية الأولى في طريق الجيش الصليبي. وكان حاكمها أميراً سلجوقياً اسمه ياغي سيان^٣ ؛ عينه عليها ملوكشاه في بغداد، وهو الثالث من كبار ملوك السلجوقة (بعد طغرل وألب ارسلان) واذاً كانت هذه المدينة مهدأً للكنيسة المسيحية المنظمة الأولى^٤، فقد كانت بالنسبة إلى الصليبيين ذات خطر خاص. وكان حصارها طويلاً الأمد، شديد الوطأة، (من ٢ تشرين الأول ١٠٩٧ إلى ٣ حزيران ١٠٩٨). وقام رضوان صاحب حلب، ودقاق صاحب دمشق، بمحاولات يائسة لفك الحصار عنها، لكن الإمداد التي أرسلت ردت على اعتباها^٥. وكان القائد الصليبي الذي تولى هذه العمليات الحربية بohen نسيب ثانكرد، وقائد الحملة النورماندية. وكان الأسطول الإيطالي يسانده من البحر، في هذه المعركة، وفي ما تلاها من المعارك، وذلك بتوفير المؤن وألات الحصار، لاستخدامها ضد المدن الخصنة القائمة على الساحل أو قريباً منه. لكن خيانة صدرت من قائد أرمني نام، كان يتولى الدفاع عن أحد أبراجها، أدت إلى سقوط المدينة^٦.

وما كاد الحاصرون يدخلون المدينة، حتى وجدوا أنفسهم محاصرين بدورهم. ذلك أن كريروقا، المفاسير السلجوقي، كان قد انتزع الموصل من اعراب بنى عقيل^٧، فسار من عاصته إلى المكان بأعداد وافرة. فكان ما قاساه الفرنج^٨ على أثر ذلك من

(١) راجع من ٢١٧ و ٢٢٠ من هذا الجزء.

(٢) راجع من ١٤٠ من هذا الجزء.

(٣) ورد هذا الاسم عرفاً في ابن الأثير، ج ١٠، من ١٨٧؛ أبو الفداء، ج ٢، من ٢٢٠ ابن خلدون، ج ٥، من ٢٠.

(٤) أعمال الرسل، ج ١١، من ٢٦.

(٥) راجع من ٢٠٦ - ٢٠٨ من هذا الجزء.

(٦) قال الدين *Recueil, vol. iii, pp. 580 seq.* ابن القلاني، من ١٣٥.

(٧) كان بنو عقيل تابعين للحمدانيين (راجع من ١٩٣ وما بعدها من هذا الجزء) ثم حكموها بعدم في الموصل.

(٨) أو الأفريج، وقد اطلقت متذمدة الصليبيين على الأوربيين بلا تمييز.

الوباء والجاعة مدة خمسة وعشرين يوماً من اشد ما سبق لهم ان عانوه^١. ولم يعهد بالامكان رفع حالتهم المعنوية وكسب الوقت الا باعجوبة . وقد تحققت هذه الاعجوبة باكتشاف «الحرية المقدسة» التي طعن بها جنب السيد الخلص وهو معلق على الصليب ، اذ عثر عليها دفينة في احدى كنائس انطاكية . فاندفع الصليبيون على الارض بجرأة بالغة ، استطاعوا بها ان يردوا المهاجرين عن المدينة . وظل بوهمند ، وهو ادهى قواد النصارى وامضاه عزبة ، حاكماً على هذه الولاية الجديدة مضموماً اليها انطاكية وجوارها . وقد كان امبراطور الروم يأمل اعادة انطاكية اليه ، لكنه مي بخيبة الامل . وكانت اشد منه خيبة رينه صاحب تولوز ، زعيم اغنياء جنوبي فرنسا ، وهو الذي تحقق الاكتشاف المدهش على يدي رجاله ، اذ كان يتطلع باه تركون امارة انطاكية له . ويتصل هذا التصال من اجل انطاكية باسطورة اخرى تدور حول القديس جاورجيوس ؟ وهو على ما في الاخبار المحلية ، من اللد^٢، قتل في عهد ديوكليتيان (٣٠٣) ، فخفّ الان لمساعدة الصليبيين المضطهدين^٣.

الزحف على الساحل

دفع الكونت رينه جوش في الجهة الجنوبي ، مضرماً النار في معمرة النهران ، بلدة ابي العلاء ، ومنزلًا الدمار بسكنها^٤ . ثم استأنف سيره في وادي العاصي ، محتملاً في طريقه حصن الاكراد^٥ ، ذي الموضع الحصن ، المسيطر على المرّ الخطير الذي يصل بين السهول الساحلية وسهول العاصي . لكن مدينة عرقة ،

١) حتى انهم نبشوا جثث الحيوانات الميتة واكلوها ؛ William of Tyre, vol. i p. 271 . ابن القلانسي ، ص ١٣٦ .

٢) صالح ص ١٦ ؛ William of Tyre, vol. i, p. 332.

٣) لقد نقل الورمنديون هذه الاسطورة الى اوروبا وغدا القديس جاورجيوس من ثم قديس انكلترا الحافظ .اما في الكنايس السورية ، حيث اتصل اسمه بقتل تين وانتاذ اميرة من الاسرة المالكة ، فإنه يناسن القديس سرجيوس في الشهرة (راجع الجزء الاول من ٤٣٦) ولا يزال خليج بيروت ، حيث قيل انه قاتل بالوحش ، يحمل اسمه فيعرف بخليج مار جرجس .

٤) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٩٠ ، واليه استند ابو الفداء ، ج ٢ ، ص ٢٢١ . قابل : Gesta Francorum, p. 387 ; Kamâl-al-Din in Recueil, vol. iii, pp. 586-7.

٥) يعرف اليوم بقلعة الحصن ؛ وقد قامت على انقاض قلعة قديمة بناها احد امراء حصن سنة ١٠٣١ وجعل فيها جاعة من الاكراد .

مسقط رأس أحد إمبراطرة الرومان المتادر من سلاة سوريّة^١ وهي آنثذ تابعة لامارة طرابلس – صمدت للعصار بفضل حصونها المنيعة ، وذلك من شهر شباط الى اواسط ايار . وكان غودفري دي بويون (عاصمة الورين الادنى) ، اخو بولوين ، قد انحدر بقواته جنوباً بمحاذاة الساحل وحاصر جبلة ، فالتقى الآن بن يميند . لكنه نزولاً عند إلحاچ رجاله بالاسراع نحو القدس – إذ كان صبرهم عنها قد نفد – ومراعاة ابن عمار امير طرابلس ، في مقابل ما كان ارسل اليه من المدّايم ، عمد الى رفع الحصار عنها . ولم تبد انططوس^٢ ، حيث بلغ الشاطئ^٣ ، اية مقاومة ، وغدا الاتصال بالاسطول الأيطالي بعد الآن مستطاعاً ؛ فسارت الحملة من هنا على الطريق الساحلي ، وهو الطريق الذي سلكها قبله الاسكندر^٤ وسواء من الفاتحين . وقد عرج من اللاذقية لأنها كانت بيد القوى البحريّة البيزنطيّة التي كانت تعمل مستقلة عن الحملات اللاتينيّة^٥ . وعندما بلغ الصليبيون البترون اتصلوا بالوارنة ، وهم قوم أشداء ومقاتلون بواسل فأسدى هؤلاء اليهم خدمات جليلة ، لمعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الأداء لهم^٦ . وجرى امير بيروت على الخطبة التي انتهجها امير طرابلس ، فقدم لهم مالاً ومقداراً سخياً من المؤن^٧ . وبعد ان ضربوا خيامهم بضعة ايام في بساتين صيدا ، قرب المياه الجاربة ، استأنفوا السير ، فبلغوا عكا في فترة لم تتجاوز ٢٤ ايار . والظاهر ان بعض المدن الكبرى فقط كانت مجهزة بالحاميات المدّافعة ، ولذلك لم يتعرض الفرجنة للمواطنين ولا تعرض لهم المواطنين . فكان الزحف في ما يبدو اشبه شيء بنزهة . وبعد ان مرروا بقيسارية وارسوف ، تحولوا نحو الداخل واجتازوا الرملة ، وفي السابع من حزيران وقفوا امام المهد الذي كانت الحملة يرمي لها^٨ .

احتلال القدس

كانت حملة الصليبيين آنثذ تبلغ نحوأ من اربعين الف مقاتل نصفهم تقريباً من

١) راجع الجزء الاول ص ٣٨١.

٢) هي طرطوس في التاريخ اللاتيني ؟ انظر الفقرة عن بيسار و الصليبيين في هذا الفصل .

٣) راجع ص ٢٥٤ من الجزء الاول .

Cahen, p. 222.

٤) انظر William of Tyre, vol. ii, p. 459; vol. i, p. 330; Ludolph von Suchem, p. 135.

٥) William of Tyre, vol. i, p. 331 (٦)

الجنود النظاميين^١. أما الحامية المصرية فتقدر بنحو ألف وجل . وبعد حصار تناه على المدينة غودفري ورينولد وتذكر استمر شهراً من الزمان ، اطبقوا عليها (١٥ نوز) وفكوا بأهلها على اختلاف السن والجنس ، بلا تمييز ولا مراعاة . وفي أحد المصادر العربية^٢ أن عدد الضحايا بلغ نحواً من ٧٠ الفاً، وقدره مصدر أرمني^٣ بـ ٦٥ الفاً؛ ويدرك مصدر لاتيني أن النظر كان يقع على أكواخ من الرؤوس والأيدي والاقدام في الطرق وفي الساحات العامة^٤. وهكذا بزرت إلى الوجود دولة لاتينية ثالثة في سوريا هي إمها على الاطلاق ؟ تولى الحكم فيها غودفري الزعيم المتدفع والمقاتل الباسل . وقد قيل انه امتنع عن ان يضع على رأسه تاجاً من ذهب ، حيث حمل السيد المخلص تاجاً من شوك ، واختار ان يلقب بـ « حامي القبر المقدس » .

على ان حكم غودفري كان قصير الامد ، فهو لم يتجاوز العام الواحد؛ لكنه احرز في خلاله انتصاراً على الجيش المصري قرب عسقلان ، جعل مركز اللاتين في مدينة القدس أكثر حصانة وأوفر أمناً . لكن هذا المرفأ ظل مركزاً للحامية الفاطمية ، وقاعدة لاسطولها^٥ أما مدينة يافا ، التي جاوزها الصليبيون بعد ان تركوها خراباً ، فقد احتلوها الآن ، واعطي فيها الابناء ييزداً امتيازات خاصة . وتمَّ احتلال مدينة بحيفا بعدها بمساعدة اسطول البندقية^٦ . وكان تذكر ، في الوقت نفسه ، يوغل في داخل البلاد نحو منطقة الاردن . ذلك لأن مركز القدس اللاتينية يظل معرضاً للخطر مالم يستولَ على الاراضي الداخلية المجاورة ، وعلى المناطق الساحلية . وكانت بيسان الواقعة على الطريق بين المتوسط ومدينة دمشق ، من المدن الأولى التي كسبها . واما نابلس فقد خضعت بلا مقاومة . ولقد استقر تذكر في طبرية

^١ نابل (Annales de Terre Sainte) ، Archives de l'Orient Latin , vol. ii (Paris 1884), pt. 2, p. 429 ; Raimundus de Agiles , « Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem » , in Migne , Patrologia Latina , vol. clv, p. 657 ; William of Tyre , vol. i, p. 349.

^٢ ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ١٩٤ .

^٣ Mathew of Edessa , p. 226

^٤ Agiles , p. 659 ; cf. William of Tyre , vol. i pp. 370-72

^٥ Agiles , p. 654

^٦ ابن ميسير ، اخبار مصر ، نشر هنري ملي (القاهرة ، ١٩١٩) ، ص ٣٩ وما بعد .

^٧ ابن القلاني ، ص ١٣٩ : ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

يعمل بامرة غود فري ، لكنه تخلى عن هذا الإقليم في آذار سنة ١١٠١ ليخلف عمه بوهند حاكم انطاكية ، اذ كان هذا قد وقع اسيراً بيد قائد تركي في بعض المعارك التي جرت في شمالي البلاد .

بلدوين اول ملوك الصليبيين

ثم استدعي بلدوين اخو غود فري وأمير الراها ، وتوج ملكاً على هذه المنطقة يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ . اذ كان المؤسس الحقيقي للملكة اللاتينية . وكان منه الاول ان يخضع مدن الساحل ، فيؤمن المواثيلات العبرية بالوطن الاول ، ويقطع الطريق على الاسطول الفاطمي واعماله العدائية . وقد وجد في ملاحي الجهوريات الايطالية حلفاء مندفعين ، لكنه القاهم شيدي الطعم ، اذ اشترطوا الحصول على نصيب من الغنائم ، والاستيلاء على مناطق خاصة من المدن الخاتمة ، تجعلها تابعة لتشريع جهورياتهم ثم إغفاء البضائع التي يسردونها وبيعونها من كافة الرسوم^١ ، فيتمتعون بالامتيازات التي تفتح على اثر الخضوع والتسليم . وعلى ذلك فقد سقطت ارسوف وفيصارية سنة ١١٠١ بساعدة اسطول جنوبي ، ووافقتا على دفع الجزية بعد فترة المدنة^٢ . وسقطت عكاذات الاسوار الحصينة بعد ثلاث سنوات ، وذلك على اثر هجوم كاسح من بوارج بيزا وجنوبي . وفي سنة ١١١٠ ضرب على بيروت حصار من البر والبحر استمر احد عشر اسبوعاً ، انتهى في ١٣ ايار بهجوم عليها قتل فيه كثيرون من سكانها . وقد أمدتهم غابات الصنوبر التي لا تزال في جوار المدينة بالخشب اللازم لبناء الابراج وقذف القذائف وتفويض الاسوار^٣ . وفي السنة نفسها سقطت صيدا بساعدة اسطول نوريجي مؤلف من ستين بارجة^٤ .

وقد عمل بلدوين على توسيع ممتلكاته جنوبياً ايضاً ، على امل الاستيلاء – ولو جزئياً – على تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندي . وبني (١١١٥) جنوبياً من البحر

١) انظر William of Tyre, vol. i pp. 434, 455 .

٢) انظر Albert of Aix, « Historia Hierosolymitanae expeditionis » Migne, vol. cixvi, p. 575.

٣) ١ نظر W. B. Stevenson, Crusaders, pp. 58-9; William of Tyre, vol. i, pp. 484-5 : ابن القلانيسي ، ص ٦٧-٦٨؛ صالح ، ص ٢٨ - ٢٩ .

٤) ابن الائير ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ - ٣٧؛ ابن القلانيسي ، ص ١٧١ .

الميت، قلعة الشوبك^١، وذلك لحراسة طريق القوافل من دمشق الى مصر والهجاز. وسار خلفاؤه على خطته، فشددوا قبضتهم على مقايد الامور بانشاء الحصون في كل بلد استولوا عليه. وكانت قلعة الشوبك وحصن الكوك، بحكم موقعها، امنع الحصون السبعة التي اقاموها في تلك المنطقة^٢. وعندما مات بلدوبين سنة ١١١٨، كانت مملكته قد بلغت اوج مجدها، فكانت تتد من العقبة الى بيروت. الا ان صور بقيت بيد المسلمين حتى سنة ١١٢٤^٣، وذلك بفضل قيامها على شبه جزيرة حصينة؛ وكذلك عسقلان فقد بقيت بيدهم حتى سنة ١١٥٣. اما من حيث الاتساع شرقاً فان المملكة لم تتجاوز وادي الاردن بعيداً.

التوسيع في الشمال

وكان ذلك الاقاليم اللاتينية في الشمال، فانها اخذت في التوسيع. ذلك اتى عين ريند^٤، كانت على مدينة طرابلس منذ ان تخطتها في حملة الساحلية، فعاد اليها بعد فتح القدس، ووالقى عليها الحصار. وقد عمد سنة ١١٠٣^٥، رغبةً منه في ان يعزها تماماً بما حولها، الى بناء قلعة^٦ - هي قلعة طرابلس - على تسلٍ مجاور يعرف بـ «تل الحجاج»، ثم غدا هذا الموقع نواة لطي لاتيني. وطال امر الحصار على الرغم من الامدادات التي كانت تصل من الجبال المجاورة^٧، وكان عدد سكان المدينة ٢٠ الفاً، وكانت أهم صناعاتها صناعة الزجاج وصناعة الورق. وقد عمد ريند بين القينة والقينة الى مهاجمة بعض المدن المجاورة، وقد تم له إخضاعها، وكان ذلك في الغالب بمساعدة اسطول جنوبي. وكانت «المرقب» الحد الشمالي لمنطقة طرابلس،

١) سماها الالاتين Mons Regalis (الجبل الملكي) لكن تصوّراً قدّيماً تشير الى ان هذا الاسم اطلق على قلعة شبيهة الى الشمال الشرقي هي قلعة الكوك بنيت حوالي ١١٤٠ . ولنقطة كرك البرية عرفة عن الارامية كرخا ومعناها «بلدة».

٢) للاستراحة عن هذه الحصون راجع Camille Enlart, *Les Monuments Croisées* 2 vols. (Paris, 1925-8).

٣) راجع من ٢٠٧ و ٢٠٨ من هذا الجزء.

٤) لما كان يلقب بـ Saint-Gilles فقد دعا العرب صنبيل او ابن صنبيل.

٥) ولقد رسمها الاتراك واتخذوها سجنًا، ثم استخدما الانكليز في الحرب العالمية الثانية مركزاً لقذف الطائرات المهاجمة.

٦) ابن خلدون، ج ٥، من ١٨٦ .

و «جبل» حدث الجنوبي، أما طرابلس نفسها فلم تسقط حتى سنة ١١٠٤، أي بعد مضي أربع سنوات على وفاة ريموند. والظاهر أن المدينة كانت قد غدت، تحت حكم بني عمار، مركزاً للتعليم الشيعي، فكثرت فيها المدارس والمكاتب. لكن هذه العالم زالت في أعقاب تلك الكوارث^١. وكان المعري بين كبار الأدباء الذين أفادوا من مكتبة طرابلس.

ثم ان اللادقية الى الشمال ، سقطت بيد تانكيرد سنة ١١٥٣ وكذلك سقطت افامية ، بعد ذلك بثلاث سنوات . ثم المحتلة كلتا المدينتين بولاية انطاكية ، وقد كانت تضم بعض الاحياء اقساماً من كيليسكيا .

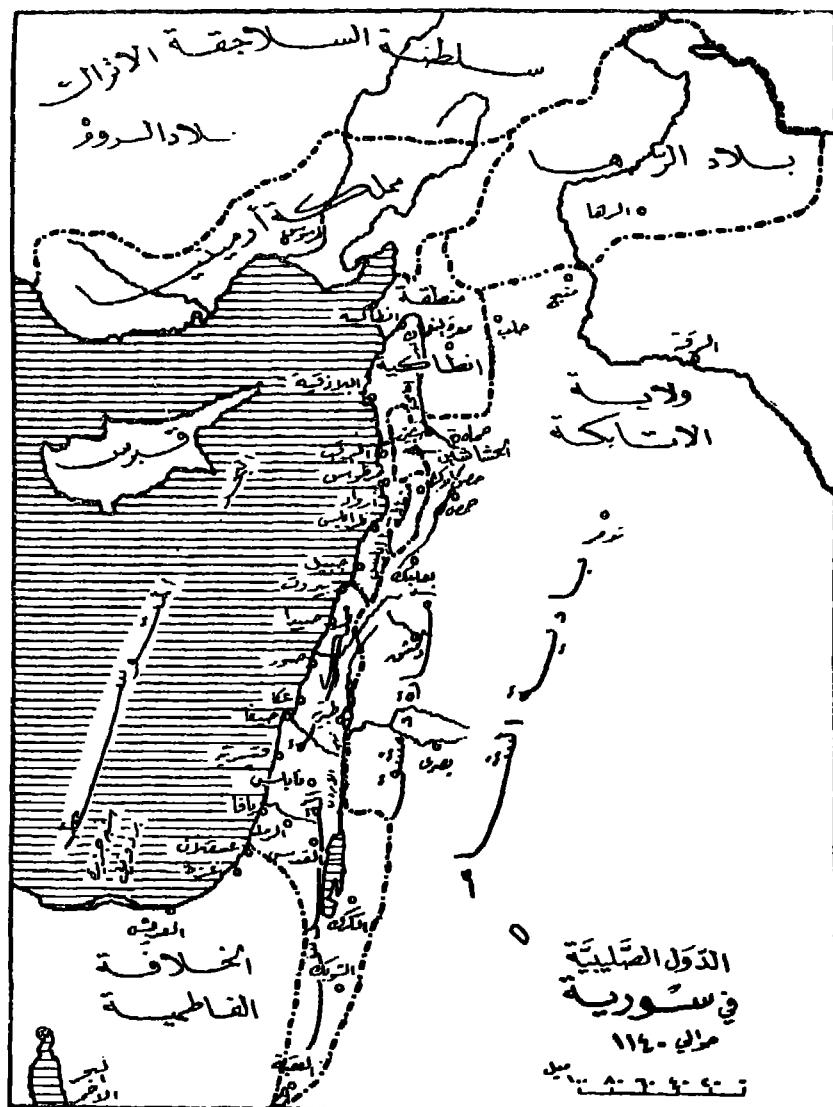
ولدى وفاة بلد़ين الثاني (١١٨ - ٣١) ، كانت الملكة اللاتينية مع اقطاعاتها قد اكتملت . فإن الدول اللاتينية الثلاث في الشمال - طرابلس ، وانطاكية ، والرها - كانت تدين بالولاية الاسمي لملك القدس . لقد كان الانتصار باهراً ، ولا ريب في انه ألم الفرنج بالثقة في النفس ، وعمر صدورهم بالأمل في المستقبل . على ان الشيء الذي ارتقبوه لم يكن ، باوْقِ الامر ، برأْفَا الى هذا الحد . فباستثناء الشمال الاقصى والجنوب الاقصى ، فان باقي المنطقة الوسطى لم يكن سوى ساحل ضيق ، وهو منطقة مسيحية صغيرة في متسع من البلاد الاسلامية متوازي الاطراف . ولم يكن بين مدنها ما يبعد عن العدو اكثراً من مسيرة يوم واحد . اما المدن الداخلية نظير حلب^٢ وحماة وحمص وبعلبك^٣ ودمشق ، فلم تقع بيد الفرنج ، مع أنها كانت هدفاً لغارات سُنتَت عليها بين الجين والجين . وقد اجبرت احياناً على دفع الجزية ، شأن دمشق ، إذ أدتها الى بلد़ين الثاني سنة ١١٢٦^٤ . وكان سهل البقاع الحصين تابعاً لهذه المدينة ، وكان الافرنج قليلاً العدد في ولاياتهم الخاصة . ولم يكونوا يوماً حتى في القدس وسواها من المدن المحتلة ، اكثراً من اقلة ضئلة . ذلك ان كثيرون

^{١)} ابن القلاني، ص ١٦٣ : ابن الأثير، ج ١٠، من ٣٣٣ - ٣٤؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان، نشر جيمس جويت (شيكاغو، ١٩٠٧)، من ١٧؛ William of Tyre, vol. i, pp. 477-8.

. *William of Tyre*, vol. ii, p. 22 (۲) انظر

^٢ انظر *William of Tyre*, vol. ii, p. 413.

٤) في السنة التي بدأت في أيلول ١١٥٦ دفع حاكمها نور الدين ٨٠٠٠ دينار؛ ابن القلاني، س ٣٣٦.



منهم، بعد أن تحقق الاستيلاء على القدس، اعتبروا أن تعهدهم قد انجز، وعادوا
ادراجهم إلى أوطانهم. ولا يخفي أن بقاء مثل هذه الدول الغريبة كان رهناً بوصول
امدادات جديدة من الجنود بصورة متواصلة من الوطن الأول، وببقاء الأعداء
مفككين لا تجتمعهم قيادة قوية موحدة.

الردة الإسلامية على يد زنكي

بقيام اتابك زنكي (١١٢٧ - ١١٤٦) - الترك الأزرق العينين - أمير حلب والموصل^١، أخذت بوادر التوحيد والزعامة في الظهور. وكان زنكي هو الأول بين عدد من الابطال ، تعاقبوا على مناجزة الصليبيين . وكانت ضرباته المديدة هي اولى الضربات التي زعزعت الدول اللاتينية ، فزاحت تحتها في ما بعد . كانت حملته الاولى على الراها ، وهي الحصن الشمالي لهذه الدول . فقد ألقى حولها حصاراً سنة ١١٤٤ استمر اربعة أيام ، وانتهت بانتزاعها من يد جوسلين الثاني^٢. فكانت اسقى الولايات الصليبية إلى الظهور اسبقاً إلى السقوط؛ وكان سقوطها نذيراً بتحول مجرى الحوادث في مصلحة المسلمين . أما وقع الخبر في أوروبا فكان باعثاً على تجهيز ما يعرف بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ٤٩).

على ان التقسيم التقليدي للحركة الصليبية الى عدد معين من المخلافات ، لا يخلو من تكلف وافتعال ، لأن سيل الامدادات كاد يكون متواصلاً ، فالخط الفاصل بينها لا يبدو بجلاه . ولعل الاولى بنا ان نجعل هذه الحركة في ثلاثة فترات ، الاولى تشمل عصر الفتح اللاتيني ، وتمتد الى سنة ١١٤٤ ؛ والثانية تضم عهد الردة الإسلامية ، التي استهلها زنكي واختتها صلاح الدين بانتصاره الباهرة ؛ والثالثة تجمع عهد الحروب الصغيرة ، التي رافقت بوجه عام ، القرن الثالث عشر ، ويرزت فيها بطولة الايوبيين والمالكيك ، وانتهت بانخواج باقي الصليبيين من البلاد .

نور الدين زنكي

لقد انتقلت بطولة القضية الإسلامية من زنكي الى ابنه نور الدين محمود . وقد كان نور الدين يفوق اباه مقدرة ، فتمكن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من احد خلفاء طفتكن^٣ ، مزيلاً بذلك العقبة الاخيرة القائمة بين المنطقة الخاضعة لزنكي

١) راجع من ٢٠٧ - ٢٠٨ من هذا الجزء .

٢) ابو شامة ، ج ١ ، من ٣٦ - ٣٧ ؛ ابن الاثير في *Recueil* ج ٢ ، ق ٢ ، من ١١٨ وما بعد .

٣) راجع من ٢٠٧ - ٢٠٨ من هذا الجزء ؛ ابن الاثير ، ج ١١ من ١٣٥ - ٣١ .

ومدينة القدس . وقد كانت دمشق ، لسنين كثيرة ، حلقة فعلية للقدس^١ ؟ أما صرخد (صلخد) ، وبصرى ، وبانياس – التي كانت خاصة للاسماعيلية – وغيرها من المدن في منطقة دمشق . فربما عدت أحياناً إلى التباس العون من اللاتين لمواصلة كفاحها ضد المسلمين الآخرين^٢ . وكذلك بنو فضل المتعدرين من طي – ولعلهم أوسع القبائل سلطاناً في بادية الشام – فإنهم دعا حالفوا الأفونج آناً ، والقاطنين آناً آخر^٣ . وقد كان لدى اللاتين في القدس فرقاً خفيفة من الفرسان عرفت بأبناء الاتراك^٤ ، كان جلها من المسلمين المدربين^٥ ؛ ثم فرقاً من الارمن المشاة ، وأخرى من النبالة الموارنة^٦ . وباستيلاء نور الدين على دمشق ، امتد سلطانه من الموصل إلى حوران ، وأخذ قرن «الملال» يتدفقاً^٧ .

وكان نور الدين عالماً باحروال القاطنيين الواهنة ، فرغبةً منه في تحقيق الفائدة المرجوة من وضع القدس بين حجري رحى – من الشمال ومن الجنوب – بعث بقائد باسل من قواده ، هو أسد الدين شيركوه إلى مصر . ففاز هذا سنة ١١٦٩ ، بعد انتصارات حققها في ميدان السياسة والقتال ، بتولي الوزارة الخليفة العاضد (١١٦٠ – ٧٠) ؟ لكنه قضى نحبه بعد شهرين من تقلد الوزارة ، فانتقلت سائرتها من بعده إلى ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب^٨ .

ظهور صلاح الدين

ولد الملك الناصر صلاح الدين يوسف في تكريت على نهر دجلة سنة ١١٣٨ من أبوين كرددين . وبعد سنة من مولده انتقل به أبوه إلى بعلبك ؛ وكان زنكي قد

١) ابن القلاني (الذي كان يشغل في هذا الوقت مركزاً هاماً في حكومة دمشق) ، من ٣٠٨ – ٩ ؛ أبو شامة ، ج ١ ، ص ٧٧ ؛ William of Tyre , vol. ii , pp. 76-7, 105-6, 147-8, 224

٢) ابن القلاني ، من ٢٨٩ – ٩٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ؛ أبو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢ – ٣ .

٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٦ وما بعد ؛ A. S. Tritton in *Bulletin, School of Oriental and African Studies*, vol. xii (1948), p. 567.

٤) عماد الدين الأصفهاني ، *الفتح القسي في الفتح القدس* ، نشر دي لاند برغ (ليدن ، ١٨٨٢) ، ص ٤٢٥ ؛ اسماء ، ص ٥١ .

٥) قابل Jacques de Vitry. *The History of Jerusalem*, tr. Aubrey Stewart (London, 1896), p. 79 ; Dib, p. 94.

٦) أبو شامة ، ج ١ ، من ٦١ – ٦٠ ؛ سبط بن الجوزي ، من ١٧٥ .

عين اباه ايوب فائداً حاميتها . وكان صلاح الدين ، فيما يبدو ، اكثراً نزوعاً الى العلوم الدينية منه الى الشؤون العسكرية . ولذلك لم يرافق عمه في حملته على مصر سنة ١١٦٤ ، إلا بعد تردد وتفنّع^١ . على أن هذه الرحلة كانت طليعة اتجاه جديد في حياته – اتجاه يرمي الى السعي وراء ثلاثة اهداف هي : احلال التعليم الديني مكان التعليم الشيعي في مصر ، وتوحيد مصر وسوريا تحت سلطة واحدة ، ثم موافقة الجهاد ضد الافرنج . وقد كان المدف الاول اسهمها تحقيقاً^٢ بذلك ان صلاح الدين عمد ، وال الخليفة العاضد مسجى^٣ على فراش الموت سنة ١١٧١ – وهو آنذاً وزيره – الى جعل اسم الخليفة العباسي المعاصر «المستفي» في صلاة الجمعة مكان «العاضد» ، وعلى هذه الصورة كان خاتماً الخلافة الفاطمية . ومهما كان من غرابة هذا الامر وصعوبة تصديقه ، فواقع الامر ان التغيير الفوري هذا قد تم «ولم ينتفع فيه عنزان»^٤ ، وبه غداً صلاح الدين الحاكم الفرد في مصر . واما هدفه الثاني ، فقد حققه سنة ١١٧٤ ، عندما توفي سيده نور الدين حاكم سوريا^٥ ، إذ تكفل^٦ بعده بجموعة استباكات طفيفة ، من ابتزاع سوريا من ابن نور الدين ، ابراهيم اسماويل وهو بعد في الجادية عشرة من عمره . وكان تحقيق المدفين الاولين بما جعل الثالث في حكم المتوقع .

واذ كانت القิروان والمحجاز متاخمتين لمصر ، فقد انضمتا^٧ فوراً اليها . واصبحتا جزءاً من الدولة السورية المصرية الناشئة . ثم الحق طوران شاه آخر صلاح الدين الاكبر بهذه الدولة التوبية واليمن . وفي سنة ١١٧٥ اسند الخليفة العباسي الى صلاح الدين ، بناءً على طلبه الخاص ، السلطة على جميع هذه المناطق ، مانحاً بذلك ما لم يكن يملک فعلاً ، ولكن ما اتاح له ان يعتزَّ بعدم رفضه . وكان الحاكم العراق الاعلى ، باستثناء الموصل نفسه ، بما استكملا الوضع الجغرافي لهذه السلطة^٨ . وهكذا فإن ما حلم به نور الدين من محاصرة الافرنج وسحقهم وقطع دابرهم، بدأ يتحقق باتّم من جليل الاعمال على يد خلقه الذي فاقه سهارة .

١) ابن الاتير، ج ١١، ص ٢٢٣؛ ابو شامة، ج ١، ص ١٥٥؛ ابو الفداء، ج ٣، ص ٤٧.

٢) ابن الاتير، ج ١١، ص ٢٤٢، ابو الفداء، ج ٣، ص ٥٣؛ قابل: ابو شامة ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

٣) ابن الاتير، ج ١١، ص ٢٧٤ - ٧٥.

٤) ابن الاتير، ج ١١، ص ٣١٩ - ٢١.

معركة خطون الفاصلة

واخيراً تفرغ صلاح الدين لتركيز قواه ضد الافرنج ^١ ودقت ساعة الخطير المؤذنة بزوال المملكة اللاتينية، عندما سقطت طبرية ^٢ بعد حصار دام ستة ايام. وتحول من ثم جيش المسلمين نحو حطين ^٣ في جوار طبرية، وهناك نشبت المعركة في الثالث والرابع من تووز سنة ١١٨٧. وكان الحر شديداً لفسيأة ^٤ وكان السير الطويل قد انهك جيوش الافرنج المدججين بالسلاح القليل، والعطش قد خلتهم. فأحاط بهم المسلمون بسلامهم الخيفي ^٥، وامطروهم بوابل من النبال لم يسبق لهم ان تعرضوا للنظيره. ولم يسلم من العشرين الفاً، بين فارس ^٦ وراجل، إلا من ارتد او لاذ بالقرار ^٧،اما الباقيون فقد سقطوا في المعركة ^٨ او وقعوا في الاسر. وكان على رأس موكب الاسرى ملك القدس بذاته، غني ده لوسينبان ^٩. وقد استقبله السلطان الكبير الباسل با يليق برتبته الرفيعة. لكن رفيقه رجينالد الشاتيوني، حاكم الكرك ^{١٠}، عولم معاملة اخرى استحقها، ذلك لأنه عمد مراراً عديدة الى خرق الاتفاقات المعقودة، وهاجم الحجاج وقوافل التجار لدى مرورهم بمحضنه ^{١١}، على الطريق الرئيسي ^{١٢}، الى الجنوب من مدينة القدس ^{١٣}، وقد كانت اخت السلطان مررة في احدى هذه القوافل ^{١٤}. وكان رجنالد هذا مغامراً بقدار ما كان اهوج ^{١٥}، فكان يوالي التعذيبات على الساحلين التوبي والعربي ^{١٦} حتى انه انزل قواه على ارض الحجاز المقدسة ^{١٧}، واتجه صوب المدينة ^{١٨}. واذ غدا على مسيورة يوم او بعض يوم من المدينة المقدسة نفسها ^{١٩}، صدته فرقة مصرية كانت قد نقلت الى هناك على جناح السرعة ^{٢٠}، في اسطول جهز بعجلة ^{٢١}. وقد شاع انه كان ينوي نقل جثثان محمد الى الكرك ^{٢٢}، وفرض رسوم فادحة على حجاج المسلمين في مقابل مشاهدته ^{٢٣}. وكان صلاح الدين قد اقسم على ان يتصرّه

١) ترتفع قرون حطين ١٧٠٠ قم فوق سطح بحر الجليل وهي فوهة بركان خامد . وفي الاخبار ان عظمة السيد المسيح على الجليل ا GANGAKAT في هذا المكان .

٢) من الميكليين والسيتاريين؛ فالميكليون دعوا كذلك لأن مقامهم الاول كان قرب موقع ميكل سليمان ، وقد نظموا حوالي ١١١٩ لتأمين الحاجاج في طريقهم الى الارض المقدسة . أما الاسيتاريون او فرسان القديس يوحنا القدس فقد تحدروا من مؤسسة سابقة كان هدفها اعداد المأوى للحجاج لكنهم غولوا في ما بعد الى اغراض عسكرية . وقد تقييد الفريقان بالمهود الرهانية .

^٣) راجع مص ٢٣٠ . في ما سبق من هذا الفصل .

٤) شاهد ابن جيير (من ٥٨ - ٦٠) في الاسكتدرية بقاباً جيشه مشتريون الى الجمال يواجهون اذلياً وهم يقادون الى الاعدام على صوت الطبلول . ابو الدلاء : ج ٣ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

بيده ، وقد حان الوقت للبر بالقسم . ولم ينجيه ، وهو اسير مكبل بالاصفاد ، ان شرب الماء في خيمة آسره ، بحكم التقليد العربي في امان الضيف ، لأن الماء طلب ولم يقدم . وارتعد غي اذ هو صلاح الدين بالسيف على عنق اسيره ، لكن صلاح الدين ردّ الاقنان الى نفسه بقوله « ان الملك لا يقتل الملك »^١ .

كان القضاء ، في يوم حطين ، على جيش الافرنج ، وفيه مقارن من الولايات الانخرى ، متذرأً بغير الملكة اللاتينية المحتوم . وبعد حصار دام اسبوعاً واحداً استسلمت القدس في الثاني من تشرين الاول . وكان الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الافرنج ، ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثاني وثمانين سنة . فمن استطاع ان يؤدي الفدية عن نفسه فقد فعل ؛ وسمح للقراء منهم بفرصة عشرين يوماً يجمعون خلالها مبلغاً يقتدون به نفوسهم ؛ وبيع الباقون عيناً . أما الاراضي التي اخلاقها الافرنج ، فقد ابتعاها الجنود والنصارى من المواطنين^٢ . واتجهت موجة الفتح بعد القدس نحو الحصون الباقيه ، فجرفت في طريقها الشوبك والكرك الى الجنوب ، وقلعة كوكب^٣ والشريف^٤ وصهيون الى الشمال . ثم سقطت عسقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبلة واللاذقية جميعها قبل نهاية سنة ١١٨٩^٥ ؛ ولم يبق في يد الافرنج إلا صور وطرابلس وانطاكية وبعض المدن والمحصون الصغيرة^٦ .

عكا مركز النشاط العربي

إن خروج المدينة المقدسة من يد الصليبيين أثار اوربا ، ودفعها إلى إعداد «حملة

١) ابو شامة ، ج ٢ ، من ٧٥ وما بعد ، وهو ينقل عن شاهد عيان ؛ ابن الاثير ، ج ١١ ، من ٣٥٢ - ٣٥٥ ؛ بهاء الدين ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (القاهرة ، ١٣١٧) ، من ٢٧ - ٦٠ ، محمد الدين الاصلاني ، من ٢٢ - ٢٨ ؛ Ernoul and Bernard le Tresorier, *Chronique*, ed. M.-L. de Mas Latrie (Paris, 1871), pp. 172-4.

٢) ابن خلدون ، ج ٥ ، من ٣١١ .

٣) حصن جديد بناه الصليبيون على الاردن الى الشمال من بيسان وكان اسمه التام « كوكب الهوا » .

٤) قلعة على صخر شاهق يعلو قدم عن تبر اليطان وكأنها عشن نسر . وهي تسقط على المر الجليل من دمشق الى صيدا واسها التام شريف ارلون (شريف من لفظة سريانية معناها الصغر العظيم ؛ ارتون كذلك معنى السيل المنبع) .

٥) الفرزيلي ، كتاب السلوك لمعرفة الملوك ، نشر مصطفى زيادة ، ج ١ ، ق ١ (القاهرة ١٩٣٤) ، من ٩٩ - ١٠١ .

٦) ابن شداد ، من ٦٥ وما بعد ؛ محمد الدين ، من ١٣٦ وما بعد ؛ Ernoul and Bernard, pp. 179 seq. 251.

صلبية ثالثة»، ساهم فيها أقوى الملوك في أوروبا الغربية آنذاك وهم ثلاثة: فردرريك بارباروسا ملكmania، وفيليپ أوغسطس ملك فرنسا، وريكاردس الأول ملك إنكلترا الملقب بقلب الأسد. وقد التقت الأسطورة بالتاريخ لتجعل من هذه المعركة التي تقابل فيها البطلان: ريكاردس صلاح الدين، حقبة من أروع الحقب وأشدّها اثارة في تاريخ الغرب والشرق.

ملك ملكmania طريق البر، لكنه غرق وهو يعبر نهرًا في كيليكيا، فادرك الحور والتاذل الحكثرين من أتباعه وعادوا أدراجهم. أما اللاتين المقيمون في سوريا، فقد ابقوه أن مدينة عكا هي المفتاح لاستعادة الملك المفقود. وعليه فقد وجهوا نحوها جميع القوى المقاتلة، سواء منها ما كان في حوزتهم، وما تقاطر من أوربا على صورة إمدادات. وقد تولى قيادة هذه الجملة الملك غني، مع أنه كان قد أقسم بشرفه لصلاح الدين، بعد معركة حطين، إنه لا يعود إلى شهر السلاح في وجهه. لكنه سار نحو القدس والقى عليها الحصار. وعندما خفت صلاح الدين لانقادها وضرب بنيامه في مقابل خيم العدو.

وكان للافرينج على العرب افضلية اسكندة هي مجازرة الاسطول ومعدات الحصار الحديثة. وقد استمرت العمليات المثلثية سنتين (من ١١٨٩ آب إلى ١٢ تموز ١١٩١)، وتعتبر من اعظم المواقع التي دارت في تاريخ القرون الوسطى. عد فيها صلاح الدين إلى جماعة من الملائين في بيروت، فأليسهم ملابس الافرينج، وارسل معهم الخنازير، وكففهم بنقل المؤن بحراً إلى المدينة المحاصرة.^١ وسجل فيها التاريخ اعمالاً من البطولة النادرة جرت في كل المعسكرتين، منها ان خاسساً دمشقياً آخر نيل الاجر من الله على كسب مكافأة من السلطان لاحراقه ثلاثة من ابواج المهاجرين بتفجيرات زكيها هو لهذه النهاية.^٢ وكان ريكاردس قد استقدم من صقلية حجراً كبيراً من الصوان ليرميه بالتبغيق ففعل وقتل به، في ما يروي، ثلاثة عشر من اهل عكا؟ فحمل إلى صلاح الدين كتحفة نادرة. وقد استعين بالسباحين والحمام الزاجل لتأمين الصلات بين صلاح الدين والمدينة المهاصرة. وحدث مرة ان احد السباحين غرق، وكان يحمل مالاً ووسائل الى المهاجرين، فقصدت الامواج

(١) أبو شامة، ج ٢، ص ٦٠ - ٦١

(٢) ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٢١.

بجثمانه إلى الشاطئ، حيث تلقاء ابناء عكا، واخذوا ما كان يحمله من مال ورسائل. وقد أوحى هذه الحادثة لمدون سيرة صلاح الدين^١ أن يسجل : «فما رؤي من اخذ الأمانة في حال حياته وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل». . واذ أخفق صلاح الدين في الحصول على نجدة من الخليفة ، اضطرت حامية المدينة إلى الاستسلام .

وكان من شروط الاستسلام اعادة «الصلب الحقيقي» الذي انتهب في حطين ، واخلاء سبيل الخاتمة ، في مقابل اداء ٢٠٠ الف قطعة من الذهب^٢ . . وازم لم يدفع المال بعد مضي شهر أمر قلب الاسد بالألفين والسبعين منه اسير فقتلوا عن آخرهم^٣.

وكان ريكاردس وجذاني الخيال ، فاقتصر على صلاح الدين ، حسناً للنزاع ، ان ترتفع اخت ريكاردس الى اخ صلاح الدين الاصغر ، الملك العادل ، وان تقدم عكا والقدس للعروسين هدية زفاف ؟ فيكون بذلك ختام النضال المسيحي الاسلامي^٤. وفي ايار سنة ١١٩٢ قام ريكاردس بمنع الملك الكامل ابن الملك العادل وتبة الفروسية في اختفال رسمي مهيب ، وكان عمه صلاح الدين قد منع ، قبل ذلك بستين عديدة ، هذه الرتبة السامية من رتب الفروسية المسيحية . وقد تبادل ريكاردس وصلاح الدين المدايا لكن لم يقدر لها ان يتلقيا . وفي ٢ ايلول من سنة ١١٩٢ تم الصلح بينهما على ان يكون الساحل من مدينة صور الى الجنوبتابعًا لللاتين ، وان يبقى الداخل بيد المسلمين ، وان لا يعرض احد سبيل الحجاج الوافدين على القدس . وهكذا قسمت فلسطين ، وودع ريكاردس سوريا ، وعاد ادرابجه الى وطنه . وفي مستهل شهر آذار من العام التالي توفي صلاح الدين على اثر حمى اصابته ، وله من العمر خمس وخمسون سنة . ولا يزال قبره القائم الى جانب المسجد الاموي من اجل المزارات في العاصمة السورية .

لم يكن صلاح الدين بطلاً من ابطال الحروب ، وعلما من اعلام اهل السنة فحسب ، بل كان — الى ذلك — من بناء النهضة العالمية وحماية اربابها . فقد انشأ

١) ابن شداد ، ص ١٢٠ .

٢) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ عماد الدين ، ص ٣٥٧ ؛ ابن البري ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٣ — ٨٤ .

٣) ابن شداد ، ص ٦٤ — ٦٥ ؛ Benedict of Peterborough , ed. W. Stubbs (London, 1867), vol. ii. p. 189.

٤) قابل : ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

المدارس ومعاهد البحث ، وبنى المساجد في مصر وفي سوريا . وكانت بطانته الخاصة تشتمل على الوزير الاديب ، القاضي الفاضل^١ ، والمؤرخ الاتيق الاسلوب عاد الدين الاصفهاني^٢ ، ثم كاتبه الخاص ومدوّن اخباره ، بهاء الدين بن شداد^٣ . وقد وزع على اتباعه الكنوز التي وفعت في يده عند اكتساح الخلافة الفاطمية^٤ ، ولم يترك لنفسه شيئاً منها . وكان من هذه النفائس حجر من الياقوت وزنه ابن الائبي بنفسه^٥ فإذا زنته ١٧ درهماً . وقد عرف هذا الحجر الشين بالجبل وكان يُشرق في الليل كأنه المصباح^٦ وقد كان في ما روي للسابقة ، وقبلهم في حوزة العباسين ، فسقط يوماً من الرشيد في نهر دجلة ؛ وقد سبق ان كان قبل ذلك عند الاكاسرة^٧ .

اما املاك نور الدين فقد عفت عنها صلاح الدين وتركها لابن القيد . واما الارث الذي خلفه هو فقد بلغ سبعة واربعين درهماً . وقطعة واحدة من الذهب^٨ . لكن الذكرى التي خلفها لا تزال كثيرة يفوق كل تقدير في تراث الشرق العربي . ويتمتع صلاح الدين في اوروبا بما يقرب مما يتمتع به في الشرق من ذكرى المروءة والبسالة . وقد الممت ذكره اخيال الشعراء الانكليز ، وغدت خواطر الروائيين الحديثين^٩ .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، من ٥٠٩ وما بعد؛ البيكبي ، طبقات الشافية الكبرى (القاهرة ، ١٣٢٤) ج ٤ ، من ٢٥٣ - ٥٤ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٢ ، من ٤٩٥ وما بعد؛ السيوطي ، حسن الماضة ، ج ٦ ، من ٢٧٠ . وقد اعتمد في مادة هذا الفصل على كتابه : «الفتح» .

(٣) ابن خلكان ، ج ٣ ، من ٤٢٨ وما بعد . وقد اعتمد في هذا الفصل على كتابه : «السيرة» الى مدى بعيد .

(٤) القريري ، ج ١ ، من ٤١٤ - ١٦؛ ابن قتري يردي ، نشر پوپر ، ج ٣ ، ق ١ ، من ٨٥ - ٨٦ .

(٥) الجملة ١١ ، من ٢٤٢ .

(٦) ابن الائبي ، ج ٦ ، من ٢٦٦؛ ج ٧ ، من ٢٦٦؛ المسودي ، ج ٧ ، من ٣٧٦؛ الطبرى ، ج ٣ ، من ٦٠٢ - ٦٤٧ .

(٧) ابو الفداء ، ج ٨ ، من ٩ .

(٨) هنالك شاعر دعشي عرف صلاح الدين معرفة شخصية هجاء بعرجه . وذكره كذلك ابن عنين في ديوانه ، نشر خليل مردم (دمشق ، ١٩٤٦) ، ص ٢١١ - ٢١٠، ٦؛ اما ابن الصاعق وهو شاعر معاصر آخر فقد امتدحه بقصائد عديدة وحيا بطولته ، نشر الديوان انيس الملقب ، (بيروت ، ١٩٣٨) ج ١ ، من ١٩ - ٢١ .

بعد وفاة صلاح الدين

تبدأ بموت صلاح الدين، بطل الاسلام العظيم، الحقبة الثالثة في تاريخ الصليبيين، وهي فترة من التفسخ والفتنة استمرت قرناً من الزمان. ولم يكن الظهور في اوربا، طيلة القرن الثالث عشر، ليقلي بالاً الى هذه الحروب، ولم يجهز منها ما هو شبيه بالحملة الصليبية الاولى، من حيث انها تختلف عن دوافع دينية، الا هجمات القديس لويس ملك فرنسا، وذلك في اواسط ذلك القرن. على ان عدداً من الحملات الصليبية التي جهزت في هذا العصر قد وجهت الى مصر على امل ان تبلغ البحر الاحمر، وتسامح في النشاط التجاري العamer في المحيط الهندي، على افتراض ان احتلال دمياط او الاسكندرية - مثلاً - قد يمكن من استبدال القدس بادهاها. وكان المسلمون، الى ذلك، قد فقدوا روح الجهاد، ولم تكن اضاعة الزعامة الموحدة والمتلكات الموحدة باقل خطورة . فقد انقسمت سوريا بين ابني صلاح الدين، على انت الملك العادل اخو صلاح الدين احرز بعد ذلك بامد قصير ، السيادة على مصر وعلى جزء كبير من سوريا^١. وقد حاول الملك العادل، طيلة عهد ولايته (١١٩٩ - ١٢١٨)، ان يحافظ على الصلات الودية مع الافرنج . وكان هدف هذه السياسة تحقيق السلام وتنمية العلاقات التجارية مع الايطاليين.

وقد نشأت بعد العادل اسر ايوبيه عديدة تولت الحكم في مصر ودمشق والعراق، وظهرت منها فروع اخرى في حمص وحماة واليمن^٢. وفي خلال الاخطارات التي نشبت ما بين فروع هذه السلالة، اخذت المدن التي احتلتها صلاح الدين، نظير بيروت وصفد وطبرية، بل والقدس (١٢٢٩)، تعود تباعاً الى ايدي الافرنج. فقد تخلى الملك الكامل ابن العادل عن القدس لفردرريك الثاني ملك صقلية، بوجوب معاهدة عقدت لعشر سنوات، تمهيد بها فردرريك ان يقدم العون للتكامل على اعدائه، وجلهم من الايوبيين^٣. لكن الملك صالح، نعم الدين ابن اخي الكامل، عمد سنة ١٢٤٤ الى استخدام مفرزة من اترال خوارزم، الذين اخرجتهم

١) انظر الفصل السابع والاربعين الصفحة الاولى .

٢) انظر جداول انساب الايوبيين في الفصل السابع والاربعين .

٣) ابو الفداء، ج ٣، ص ١٤٨؛ ابن الائير، ج ١٢ ص ٣١٥ .

جنكيز خان من موطنهم في آسيا الوسطى، ليعيد المدينة إلى حوزة الإسلام. على أن الأفرنج لم يكن يسعهم أن يستغوا بهذا التفسخ، لأن الشقاق كان قد دب أيضاً في صفوفهم، فاشتدت المنافسة بين أهل جنوبي منهم وأهل البنديقية، واستحكم التحالف بين الفرسان الميكليين والفرسان الاستوائيين، فتشبت النزاع بين زعامتهم؛ ولم يكن م berhasil أحد الجانبين، في هذه الخصومات، على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر، باغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض النصارى، ضد مسلمين آخرين^١.

القديس لويس

كان الحدث البارز في أواسط القرن الثالث عشر قدوم لويس ملك فرنسا، قائداً «لحملة الصليبية السادسة» (وهي الأولى الموجهة ضد مصر). وقد قضى أربع سنوات في سوريا (١٢٥٠ - ١٢٥٤) حصن في أثناها يافا وقيسارية وعكا وصيدا^٢. وخرائب الحصن الذي اتخذه مركزاً في صيدا، وقام الفرسان الميكليون على حياته، لا تزال قائمة إلى اليوم. وكان لويس، بالنسبة إلى سائر قواد الصليبيين، أطهرهم قلباً واسماهم خلقاً - بل لقد كان له شخصية القديس الحقيقي^٣.

بيرس قائد المقاومة ضد الصليبيين

على انت خطرآً جديداً مدائماً أخذ ينذر بسواء العاقبة من الشرق: هو غزو التتر. فقد كانت قبائل المغول تجتاح شمالي سوريا وتتقدم جنوباً. وكان الإيوبيون في الوقت نفسه، يتراجعون أمام المماليك^٤. وكان رابع هؤلاء الملك الظاهر بييرس (١٢٦٠ - ٧٧)، وقد جاء على رأس سلسلة من السلاطين الذين سددوا إلى سوريا اللاتينية الضربات القاضية الأخيرة، وقضوا تماماً على مملكة كيليكيا الأرمنية. ولقد فاز بييرس باتفاق زحف المغول الأول في فلسطين^٥، واسترجع

١) راجع القطعة عن ردة المسلمين على يد زنكي في هذا الفصل.

٢) Joinville, ss 406-595.

٣) انظر الفصل السابق والأربعين حول المماليك بعد الإيوبيين.

٤) انظر الفصل السابق والأربعين حول الفتح التولى.

ما اخضوه من سورية، وأعاد توحيد مصر وسورية؟ وغداً من ثم قادرًا على مواصلة الحرب المقدسة . وعليه فقد شنَّ بين سنتي ١٢٦٣ و ١٢٧١ غارات سنوية على معاقل الأفونج حتى عنت له تباعاً . ومع أن الفرسان الميكليين والسبتاريين كانوا معتصمين في حصوب مبنية، كانت للدول اللاتينية بناية المتراس، فقد عجزوا عن الصمود لضرباته المتالية . ففي سنة ١٢٦٣ احتل بيبرس الكرك، وهدم كنيسة الناصرة الجليلة . وبعد ذلك بستين ظفر بقيسارية على أثر هجوم مفاجئٍ . وبعد حصار دام أربعين يوماً تسلم أرصفة من يد الفرسان السبتاريين^١ . وفي سنة ١٢٦٦ القت صفد السلاح وأبيدت غدرًا حاميتها التي بلفت الآلتين عددًا بعد ان منحوا الأمان^٢ . ولا تزال أسوار المدينة تحمل العبارة المتفوقة : «اسكندر زمانه وعماد دينه» . وعلى الجسر الذي بناه عبر الأردن كتابة نقش على كل من جانبيها رسم أسد . وفي سنة ١٢٦٨ سقطت يافا واستسللت شقيف ارنون . وأهم من ذلك كله ان انطاكية نفسها القت سلاحها . وقد سقط من حامية انطاكية وسكنها ١٦ ألف تحت حد السيف، ووقع ١٠٠ ألف منهم — على ما في الرواية — في الاسر؛ فبيع الصي منهن باثني عشر درهماً، والبنت بخمسة دراهم . أما المدينة نفسها بقلعتها القديمة وكنائسها الشهيرة، فقد جعلت طعاماً للنار . وهي ضربة لم تصح منها انطاكية حتى الآن^٣.

سقطت انطاكية، وهي الدولة اللاتينية الثانية التي بروزت إلى الوجود، فكان سقوطها هادماً لمعنويات الالatin . وعليه فقد سارعوا إلى إخلاء عدد من الحصوب الصغرى . وفي سنة ١٢٧١ استسلم حصن الأكراد المنبع، بعد حصار قصير (من ٤٤ إذار إلى ٨ نيسان)، وهو الحصن الخلفي الرئيسي لفرسان السبتاريين، وأدروع ما خلفته لنا العصور الوسطى من الحصون . وقد كان هذا الحصن تابعاً لحاكم طرابلس . وكان يتسع لأنفين من الجنود في آن واحد . وقد حمى لستين عديدة الممر الذي يصل ساحل لبنان الشمالي بسوريا، كما حرست قلعة الشقيف الممر الجنوبي . وكانت

١) ابن الفرات، التاريخ، نشر قططليين زريق، ج ٧، (بيروت، ١٩٤٢)، ص ٨٢.

٢) المقريزي، كتاب السلوك في معرفة دول الملك ترجمة كاتمير (باريس، ١٨٥٤) ج ١، ق ٢، ص ٢٩ - ٣٠؛ أبو الفداء، ج ٤، ص ٣.

٣) ابن العبري، من ٥٠٠، المقريزي، ترجمة كاتمير، ج ١ (ق ٢)، ص ٥٢ - ٥٤؛ أبو الفداء، ج ٤، ص ٤ - ٥.

حصن الأكراد في طلبة الحصون الجبلية التي بنيت لتسسيطر على المرات التي امتدت بين الأقاليم الإسلامية الداخلية والمناطق الأفروجبلية الساحلية . وكان من هذا النوع من الحصون : مصياف^١ والقدموس، والكهف، والخوابي^٢؛ وكانت جميعها بيد المغولين أهل الستانين . وهذه الحصون - وأسمها قلعة مصياف - تقع في منطقة التصيرية وقد ظهرت في هذه الأونة ، فسارت طرطوس^٣ وهي حصن المغولين الرئيسي^٤، وقلعة المرقب ، وهي بيد الستانين ، إلى عهد الصلح . وهذا الحصنان الآخرين يمثلان طراز الحصون الساحلية التي أقيمت لتسسيطر على الطريق البحري ، ولتحمي المرافق من الأسطول المرابط في مصر . أما قلعة طرطوس فلم يبق منها شيء كثير ، لكن المرقب لا يزال جائحة وكأنها مدربعة على راية . وقد أحصى الأدريسي^٥ العالم الجغرافي الشهير ، الذي زار سوريا قبل هذا الوقت بقليل ، ما لا يقل عن ستين حصنًا ما بين بيروت واللاذقية . وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن المبني العربي الصليبي^٦ ، في ظواهرها المسيحية والإسلامية ، إنما تقوم على أساس من فن التحصين البيزنطي^٧ .

الشاشون

هم فرقة أميماعيلية متعددة ، أسسها الحسن بن الصباح ، وجعل مقره الرئيسي^٨ ، سنة ١٠٩٠ ، قلعة الموت^٩ في جبل البرز . أما اسمهم فمشتق من لفظة « حيثش^{١٠} »

١) ورد الاسم كذلك : مصياف ، ومصياد ، ومصييات ، ومصياث ، راجع الموسوعة الإسلامية مادة مصياد ، أسامي ، ص ١٤٨ ، pl. 128، Dussaud, et al., *Syrie antique* . حيث لا يزال الإسماعيلية يقيعون :

٢) هي طرطوس الحديثة (واقعة في مقابل جزيرة أرados)، وهي في ياقوت طرطوس ، ج ٣ ص ٥٢٩ .

٣) أما حصنهم الداخلي الرئيسي فهو المعروف اليوم ببرج صافيتا وكان كنيسة الروم الارثوذكس .

٤) نشر كتابه غولد ميستر ، انظر ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

٥) Paul Deschamps, *le Crac des Chevaliers* (Paris, 1934), vol. I, pp. 43 seq. cf. T. E. Lawrence, *Crusader Castles* (London, 1936), vol. i, pp. 13-15.

٦) ترتفع الثلثة كلها عن النهر ولعل هذا معنى الاسم ، وذلك على الطريق الوعرة بين عواصي قزوين ومرتفعات ايران .

٧) عشبة تعرف بالهنديّة بـ « بهانغ » معربها بنج ، وقد ورد في المدونات البabilية ذكر عقار من قبل الطريق « سالب المقل » ينزل المعموم .

العربية، وهو عشب مخدر كانوا – في ما يظن – يعمدون إلى تحدير أنفسهم به، عند الأقدام على أعمالهم. وهذه الجماعة عبارة عن منظمة سرية يرأسها سيد كبير هو «داعي الدعاء» يليه جماعة من الرعماء هم «حكبار الدعاء»، ويليه هؤلاء «الداعاء العاملون» وأخيراً جماعة «الفدائيين»، المستعدون أبداً لتنفيذ أوامر داعي الدعاء، فهم لا يتورجرون عن اغتيال خصومهم بالخناجر، نصارى كانوا أو مسلمين، حتى إنهم اخذوا الاغتيال فتاً.

وحولى الوقت الذي كان فيه الصليبيون يدخلون سوريا من الشمال الغربي، كان المثاشون يدخلونها من الشمال الشرقي. وكان أول رجل بارز انتقاد اليهود واعتنق مذهبهم الامير السلاجوقي رضوان^١ (ت ١١١٣)؛ وأول معقل المحنوّه مدينة بانياس^٢. وفي غضون سنة ١١٤٠ استولوا على عدد من العاقل في المنطقة الجبلية في شمالي سوريا. وهو يدبر ساروا فيه على خطى أنسابهم الفرس. وكانت أول ما وقع منها في أيديهم قدموس. وقد قدر وليم الصوري^٣ عددهم بـ ٦٠ ألفاً. أما الأوربيون فقد عرّفوا داعي الدعاء بـ «شيخ الجبل»، وكان مقروه في مصياف^٤. شغل هذا المنصب الرفيع راشد الدين سنان، مدة ثلاثة سنين، ابتداءً من سنة ١١٦٢، ورجالاته الذين قاموا بمحاولاتين فاشلتين لاغتيال صلاح الدين^٥. فإذا وزيراً دمشقياً كان قد أغري راشد الدين بمال من الجبل القيام بذلك، وفاء منه للذكرى نور الدين الزنكي. وقد هاجم صلاح الدين قلعة مصياف، لكنه لم يتمكن من قهرها. واتجه إليه الظن بأنه استخدم المثاشين ضد كوزراد مونتفرات ملك

١) قابل ابن بطوطة، ج ١، ص ١٦٦ - ٦٧.

٢) راجع من ٢٠٦ من هذا الجزء.

٣) راجع من ٢٣٤ من هذا الجزء.

٤) المجلد الثاني، ص ٦٩١؛ قابل Aubrey Stewart, tr. Burchard of Mount Zion, London, 1896), p. 105 حيث ورد أن عدده كان ٤٠ ألفاً.

٥) يذكر، 59، Benjamin of Tudela (ca. 1169), vol. I, p. 105، ان قاعدته كانت القديموس.

٦) راشد وليس رشيد، ابو الفداء، ج ٣، ص ٨٩؛ ابن خلkan، ج ٢، ص ٥٢١.

٧) ابو الفداء، ج ٣، ص ٦٠، ٦١.

القدس الاسمي . فقد اغتالته سنة ١١٩٢ عصابة تختفت بـ^{بزي} النصارى^١ . وهناك
علم آخر من اعلام الافرنج يعزى قتلـه الى الحشاشين هو الكونـت رينـد الثاني حـاكم
طرابلـس (حوالي ١١٥٢) . وقد قـام احد اشراف الافرنج بـ^{بزيـارة} خـلف سـنان في
حـصنـه الجـبـلي ذـي الـابـرـاجـ الشـاحـنةـ ، وـكانـ يـتوـلـيـ حـرـاسـتهاـ جـمـاعـةـ منـ الحـشـاشـينـ بـالـثـيـابـ
الـبيـضـاءـ . ولـدىـ اـسـارـةـ مـنـ «ـالـشـيـخـ»ـ عـمـدـ اـثـانـ منـ الـحـرسـ اـلـىـ الـالـقاءـ بـنـفـسـهـاـ مـنـ
اعـلـىـ الـبـرـجـ الـصـخـورـ فـتـمـ قـاـشـرـ مـزـقـ^٢ـ . وـمـنـ هـذـاـ يـتـبـيـنـ اـنـ الـبـاعـثـ الـحـشـاشـينـ
عـلـىـ الطـاعـهـ الـعـيـاءـ ، وـتـقـانـيـمـهـ فـيـ الـاخـلاـصـ لـسـيـدهـ ، يـنـاـكـ اـلـحـيـةـ الـدـيـنـيـةـ ، لـاـ
الـعـقـاقـيرـ الـخـدـرـةـ .

وفي سنة ١٧٢ ارسل «شيخ الجبل» وفداً الى ملك القدس للمفاوضة بثأْتِ احتفال اعتناق اتباعه للنصرانية . وهو تدبیر منسجم مع مبدأ التقبیل الذي يأخذ به غالاة الشیعہ . على ان الفرسان المیکلین، حرصاً منهم على الجزریة التي كان الحشائش يؤودونها ، عدوا الى قتل اعضاء الوفد^٣. هذا في حين كان القديس لويس في عكا يستقبل وفداً من الحشائش جاءه بهدايا منها أدوات للزينة ومنها حيوانات مصنوعة من الزجاج وهي من العنبر ، وخاتم وقیص . وكان القیص يرمي الى ان لويس كان من راشد بنزلة فیص راشد من جسده فربما . فقابلته لويس على هذه المداعب بالمثل^٤، وتولی الترجمة بينهما اثنان من الفرسان كانوا يحسنان العربية . والقول ان الحشائش حاولوا اغتیال لويس قبل قیامه بن فرنسا لم یثبت غير انه ليس من شک في ان نطاق نشاطهم كان قد بلغ شرقاً حتى منغوليا ، حيث حاولوا اغتیال احد كبار الحشائش . وبقضاء بیرس على المركز السوري الذي ظل زماناً يدرس الدسائس وبالاغتیالات ، تم له سحق الحشائش في سوريا الى الاید .

آخر المستعمرات الصالحة

إن النضال الذي بدأه بيبرس ضد الأفرنج ، استأنفه من بعده بطل لا يقل عنه اندفاعاً وحمة هو قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) ، الملقب عن جدارة بالملك المنصور . ففي

^{١)} ابن الأثير، ج ١٢، ص ٥١٥؛ Jacques de Vitry, pp. 116-17; Ambroise, pp. 334-5.

Marinus Sanuto, « Liber Secretorum », in Bongars, *Gesta Dei per Fran-* (v.
cos (Hanau, 1611), vol. ii, p. 201.

William of Tyre, vol. ii, pp. 392-4; Burchard, pp. 105-6. (v)

. Joinville, pp. 250 seq (t

١٥ نيسان سنة ١٢٨٢ جدد المدنة التي كان بيبرس قد عقدتها مع الفرسان الميكليين في طرطوس، لعشر سنوات أخرى وعشرة أشهر. وبعد ثلاث سنوات عقد معايدة مائة مع أميرة صور، وكانت بيروت في حوزتها^١. وقد حاصر قلعة المرقب غانية وتلاتهن يوماً استسلمت بعدها، وكان استسلامها في ٢٥ إيلار سنة ١٢٨٥^٢. ولا يزال عدد كبير من رؤوس النبال مغروساً ما بين الأحجار في أسوارها الخارجية. وكان المؤرخ الابوبي الأمير أبو الفداء^٣ آذنَّ ناشئاً في الثانية عشرة من عمره، وكانت هذه المناسبة هي المرة الأولى التي عرف بها الحرب. وقد سبقت حامتها من فرسان الاستياريين محفورة إلى طرابلس^٤. وكانت طرابلس أكبر مدينة لا تزال في يد الأفونج، فسقطت بعد ذلك باربع سنوات، ودكت معالمها إلى الأرض. وقد كانت الروائح النتنية المتبعثة من الجثث المتراكمة على الجزيرة القائمة خارج المرفأ، من القوة بحيث لم يستطع أبو الفداء^٥ احتتمالها. وأعيد بناء طرابلس بعد ذلك بعده سنوات ولكن ليس على موقعها الأول، بل على مسافة عدة أميال من البحر، حيث تقوم الآن. ثم ان عقلية «الأمان وراء الحصون المنيعة» التي اعتمدها الميكليون، قد خانتهم، وكانت عكا الموقعة الحرجي الخطير البالى بيد الأفونج. وفيما كان قلاؤون بعد هجوماً عليها أدركته الوفاة، فتسلم الأمر من بعده ابنه الأشرف (١٢٩٠-٩٣)، فسار نحوها؛ وبعد قتال دام أكثر من شهر، استخدم فيه ٩٢ منجنيناً، انقض عليها في ١٨ إيلار ١٢٩١ واستحلها. ولم يراع عهد الأمان الذي قطعه على نفسه الميكليون، بل فتك بهم أشد الفتك. وقد كان أبو الفداء^٦ في عداد المحاصرين، أما المدينة فقدت بحكم الزائفة من الوجود^٧.

١) لقد حفظ المفرزى نص الماهدين ونشرها كترجمة ج ٢ (ق ٣) ص ١٧٢ - ١٧٧، ٧٦ - ٧٧، ٧٨ ؛ قابل الصن كافي ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٤ - ٦ - ٢٦٢، ٦ - ٧٢.

٢) المجلد الرابع، ص ٢٢.

٣) ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧ - ١٨.

٤) المجلد الرابع، ص ٢٤؛ قابل ابن الفرات، ج ٨، ص ٨٠ - ٨١. ويشير الادريسي من ١٨ إلى وجود أربع جزر في مرفأ طرابلس، وما يرى منها اليوم لا يكاد يسمى بالجزر.

٥) المجلد الرابع، ص ٢٥ - ٢٦؛ المفرزى ترجمة كاتمير، ج ٢ (ق ٣) ص ١٢٥ - ٠٢٩.

٦) أعيد بناؤها في القرن الثامن عشر. أما القلعة فقد جعلها الانكلترا مسجناً لكن الإرهابيين الصهيونيين نسفوه في إيلار ١٩٤٧.

ثم ان سقوط عكا قردا مصير المدن الساحلية القليلة الباقيه . فاخليت صور في اليوم نفسه ، وصيدا في ١٤ تموز ، واستسلمت بيروت في ٢١ تموز ، وانظر طوس في ٣ آب . وكان الميكليون قد هجروا عثليث ، فهدمت في اواسط آب^١ . لكنهم صدوا في جزيرة ارواد احدى عشرة سنة . ولا يزال ظاهراً فوق باب القلعة الحربية في هذه الجزيرة ، الشعار الوسيني الحربي وهو اسد ونخلة . وبسقوط ارواد أُسدل الستار على المشهد الاخير من فصل هو من اروع الفصول في تاريخ النضال بين الشرق والغرب .

١) صالح ، ص ٤٢ ؛ ابو القداء ، ج ٤ ، ص ٢٦ ؛ 231 seq.

التفاعل الحضاري

لقد ابدع الصليبيون حقاً في رواج الاحداث وغرائب الواقع ، الا انهم كانوا مدعاة لخدمة الامثل في مآئي الفكر وما ثر الحضارة ؟ فكانتوا ، من حيث فاعليتهم الحضارية ، ابعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق . ذلك لأنهم فتحوا امام بصائر الاوربيين آفاقاً جديدة – صناعية وتجارية واستعمارية ؟ فكانت الدول التي اقاموها في سورية من قبيل المالك الاستعمارية الحديثة ، وكان التاجر او الحاج آئذٍ في مقام الجندي المسرح اليوم – اداة فعالة في نقل الحضارة . على انهم تركوا في الشرق من التفوار بين المسلمين والنصارى ، ما هو باقي الاثر حتى اليوم .

تأثيرهم في الغرب : العلم والادب

كانت الحضارة الاسلامية في العصر الصليبي آخذة في الانحدار في الشرق ، فقوه الابتكار كانت قد غدت اثراً بعد عين^١ ، قبل ذلك بزمن يسير ، وانوار العلم والادب والفلسفة قد خبت ؛ هذا مع العلم بان الافرنج كانوا اصلاً دون الشرقيين حضارة . فقد حال العداء القويمي والتغصب الديني ، دون التفاعل الحضاري الطليق ، بينهم وبين المسلمين ؟ وخلقا جوًّا تعذر في الاستجابة للمؤثرات . فلا غرابة إذن في انتنا لا نعلم الا بكتاب عالمي واحد ذي خطر ، نقل من العربية الى اللاتينية ، في هذا العصر بطولة ، هو كتاب الجوسي^٢ «كامل الصناعة الطبية» المعروف بـ «الكتاب الملكي» ؛ ترجمه سنة ١١٢٧ في انطاكية عالم من علماء بيزا اسمه اسطفان . ونقل بعده في انطاكية ايضاً (١٢٤٧) كتاب آخر اقل منه خطراً هو كتاب «سر الاسرار» ، وهو رسالة منسوبة الى ارسسطو في علم السحر احرزت شهرة واسعة

١) راجع من ٢٠٣ من هذا الجزء .

٢) اسم الاول علي بن العباس توفي سنة ٩٩٤ .

في اواخر العصر الوسيط . وغالب الظن ان تدابير الاستشفاء إنما انتظمت في الغرب بجواز تسربت من الشرق الادنى ، فإذا عدد من المستشفيات ودور الصحة ، لاسيما محاجر الامراض السارية^١ ، يظهر في اوربا في القرن الثاني عشر ، بحيث يسوع اعتبر المستشفيات الاولبية وليدة محاجر الجذام السورية .

وكان التأثير الادي اضعف وأخفى ؟ فقد نقلت قصص يعود بعضها الى اصل فارسي او هندي ؟ فاذا هي ، كما وردت في « جستا رومانوروم » وجموعات اخرى ، قد اجري فيها تبديل غريب . فقصة تشورس : « سكويرز » (Squieres) لما سابقة في الف ليلة وليلة ، وكذلك قصة بو كاتشيو : « ديكامرون » (Decameron) ، فإنها تشتمل على عدد من الحكایات ، نقلت شفاهًا من اصول تعود الى الشرق الادنى . اما اسطورة « الكأس المقدس » (Holy Grail) فقد احتفظت بعناصر لا شك في انها ذات اصل سوري .

الفنون الحربية

لقد تعلم الافرنج في سوريا استخدام القوس المصليه^٢ ، وارتداء الدروع الثقيلة ، يلبسها فرسانهم ويلبسونها خيولهم ؛ ومارسوا القمر على الطنبور والقارة في جوقة الجيش ، واستعانا بالحاتم الزاجل لنقل المعلومات العسكرية ، وعمدوا الى إرسال الاشارات ليلاً بايقاد النار^٣ ؛ واقتربوا كذلك عادة ايقاد المشاعل ابتهاجاً بالانتصارات . وقد عرفوا في الشرق مباريات البطولة بين الفرسان ؛ إذ ان نظام الفروسية بجملته نشأ على الارض السورية . وكان احتكارهم بفرسان المسلمين مما اغرىهم باخاذ الاوسمة وشارات البطولة ؛ مثال ذلك ان النسر ذا الرأسين ، الذي تحدى من اصل سومري قديم ، فنقشه ذنكي على النقود التي ضربها ، ثم اخذنه الارتقيون شارة بهيزة لهم قد انتقل الى فرسان المائدة المستديرة وإلى المملكة البيزنطية ،

١) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء .

٢) انظر Ludolph von Suchem, p. 135.

٣) راجع : صالح ، ص ٦٠ - ٦١ ؛ الظاهري ، زينة كشف الماليك ، نشر رافيس (باريس ، ١٨٩٢) ، ص ١١٦ - ١١٧ ؛ الفقشندي ، ج ٨ ، ص ٣٩٢ - ٩٤ ؛ الميري ، ص ٩٦ - ٩٧ ؛ قابل : البيوطى ، حسن المعاشرة ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

واختدها اباطرة المانيا سنة ١٣٤٥ شارة لهم . وأخيراً وصل هذا الرمز من رموز البطولة الى الولايات المتحدة فاختخذت النسر شعاراً لها . أما زهرة الزنبق ، التي اشتهر امرها عند العيلامين والاشوريين ، فأول من أثبتتها من المسلمين شعاراً على الدروع نور الدين ابن زنكي ؟ وكثيراً ما تجدتها على التقويد التي ضربها الابوبيون والماليك . ثم اقتبسها الافرنج ؟ ومنهم تسربت الى الفرنسيين ، وانتهت بعد ذلك الى كندا . وكان للوردة مكانتها لدى الابوبيين والماليك ايضاً . وكان كثيرون من الماليك يتسمون باسم بعض الحيوانات ، ويجعلون صورها على دروعهم شعاراً . فاختذ بيرس رسم الاسد شارة^١ ، وهذه لفظة ازور Azure (من لازورد العربية) وسوها من اسماء الشارات ، تشهد للتأثير الراسخ الذي تركته الفروسية الاسلامية في النظام الافرنجي .

ان منظمة الفرسان الميكليين ، نظير زميلتها الاسبانية ، كانت اقرب المنظمات الى مبدأ الجمع بين دوافع الحرب واهداف الدين — وهو المبدأ الذي سبق ان تحقق في الاسلام قديعاً — وقد سارت في تصرفها على منهج شبيه بنهج الحشاشين ، دون ان يقتضي ذلك افتراض صلة بين الفريقين . ففي ادنى مراتب المنظمة المسيحية كان : الاخوة العلانيون ، والاسياد ، والفرسان ؟ في مقابل : اللصقاء ، والقدائين ، والرفقاء في نظام الحشاشين . وكان الفارس يلبس معطفاً ابيض موسمياً بصلب احمر ؛ ويرتدى الرفيق معطفاً ابيض وقبعة حمراء ؛ وكانت الرتب العليا ثلاثة ايضاً ، هي : المدبر ، والمدبر الاعظم ، والسيد الاعظم ، في مقابل : الداعي ، والداعي الكبير ، وشيخ الجبل^٢ . وكان هنالك منظمة سرية اخرى تعرف بالفتوة ، وهي المنظمة التي تجلت فيها روح الفروسية العربية . وقد عمل الناصر العباسي (١١٨٠ - ١٢٢٥) على اصلاح هذه المنظمة ورعايتها ، متأثراً — في الراجع — بالمنظومات الصليبية . وكان المبتدئ فيها يدعى ايضاً بالرفيق ، ويرتدى طرزاً خاصاً من السراويل ، وقد لبسه العادل اخوه صلاح الدين وابن العادل ايضاً . وكان لهذه المنظمة في سوريا فرع عامل عرف بالنوبوية^٣ .

١) انظر : L. A. Mayer, *Saracenic Heraldry* (Oxford, 1933), pp. 7, 26, 107

٢) راجع ص ٢٤٥ - ٢٤٦ من هذا الجزء .

٣) ابن الاثير، ج ١٢، ص ٢٦٨؛ الفخرى، ص ٤٣٤؛ ابن جبير، ص ٢٨٠ .

هندسة البناء

ان ابرز ما خلفه الصليبيون من الآثار في سوريا تلك الحصون العديدة التي لا تزال تتوج روايتها؛ وتجيء من بعد الحصون الكنائس. ولقد اعتمد الافرنج في بناء الكنائس الطراز الروماني والطراز القوطي، لكنهم اخذوا لتزيينها الزخارف البيزنطية والسورية. وقد قلدوا كنيسة القيامة وقبة الصخرة في كثير من مبانيهم الكنيسية لاسيما في ما اقيم منها على طراز «الميكل المستدير» في انكلترة وفرنسا وأسبانيا والمانيا. ثم تحول كثير من كنائس الصليبيين، بعد ذلك العهد، الى مساجد، منها الكاتدرائية العثمانية المبنية باسم السيدة في صور^١ حيث كان المؤرخ وليم الصوري^٢ رئيساً للasaqفة (١١٧٥ - ٨٥)؛ وكنيسة صيدا التي بناها الاسبارتاريون، فتحولت الى ما هو معروف بالجامع الكبير، وكاتدرائية القدس يوحنا التي بناها الملك بلهون^٣ سنة ١١١٠ في بيروت، فقدت بعدها الجامع العمري؛ وكاتدرائية السيدة في انططروس وهي اجملهن واسلمهن من عadies الزمن - وكانت منسكاً من منطق الحجج. شرع في بنائها سنة ١١٣٠ . يوكانت تشتمل على صورة رسماً - في ما يظن - القديس لوقا، وعلى مذبح اجري عليه بطرس، فيما قبل، القدس الاحتقالي الاول^٤. ثم اضيفت الى هذا البناء، مئذنة حديثة تقوم ولا شك على انقاض كنيسة سابقة . وآخر كنيسة البلند على مقربة من طرابلس، بناها رهبان الافرنج سنة ١١٥٧^٥ وهي الان دير للروم الاورثوذكس.

الزراعة والصناعة

كان الحجاج يتذرون على الاراضي المقدسة، والتجار يرتادون شواطئ المتوسط الشرقية . قبل مجيء الصليبيين بجيال متواتلة . لكن الحركة الصليبية زادت في نشاط القوى العالمية، وعممت في اوروبا منتجات الشرق الادنى، التي كان

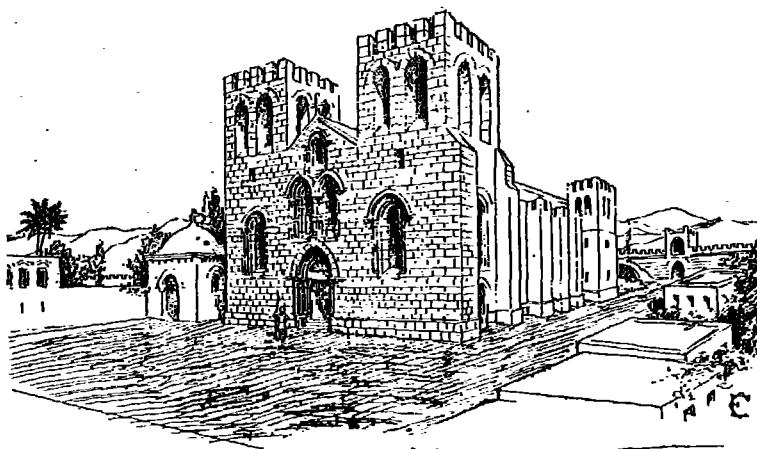
(١) المجلد الثاني ، من ٤١١ : ٣٥٣ seq.

(٢) صالح، من ٥٨ : ٦٩ seq.

Joinville, § 597 ; Jacques de Vitry, pp. 20-21 ; Dussaud et al., *Syrie Antique* (٣) pls. 117, 118 ; Enlart, vol. ii, pp. 403 seq.

(٤) Enlart, vol. ii, pp. 45 seq.

بعضها ولا بد معروفاً قبل ذلك. على أن الذي يزيد في صعوبة تعين اصول الاشياء ومصادرها، ان سورية لم تكن الجسر الوحيد الجامع بين الشرق والغرب ، بل



رسم تخييلي لكنيسة السيدة التي بناها الصليبيون في انطاكية (المعروف اليوم بطرطوس)

كان هنالك جسران آخران يؤمنان هذه الصلة ، هما صقلية واسبانيا . لذلك كان من الصعب ان نعين بالضبط الطريق الذي سلكته السلع التجارية .

في أثناء اقامة الافرنج في سورية ألغت اذوافهم بعض المنتجات المحلية ، وبعض حاصلات الاقليم الحار ، التي كانت تغدو اسواق سورية في ذلك العهد ؛ نذكر منها : السمسم والخروب^١ والذرة والارز والليمون والبطيخ والمشمش^٢ وبصل عسقلان^٣ ؟ وكان المشمش يدعى احياناً بخوخ دمشق . وقد اختصت عاصمة سورية بالروائح العطرية وماه الورد ؛ وغدت العطور ، والزيوت الزكية الحقيقة الواردة من فارس ، وبخور البربرية العربية ، وصبوغها الطيبة الشذا ، وسوى ذلك

١) من اصل اشورى : راجع الجزء الاول من ١٤٩ ج ٢

٢) الاسم القديم برقوق ، وهو من اصل لاتيني منهان التضييج الماكر .

٣) امه باللاتينية مشتق من عسقلان فهو معروف بـ shallots , scallions

من التوابيل والعطور والحلويات ، اثيره عندهم ؟ وكذلك كيش القرنفل وما شابهه من العطور ، والقليل ونظيره من التوابيل ، والثبة وعود الند ، وكثير من العقاقير ؟ فانها تسربت الى مطابخ الاوربيين ومستودعاتهم في الشرق او لام في الغرب . وقد تقبلوا بلا تردد غرائب المزاعم عن التوابيل الفوالي ، التي تنشأ في الفردوس ، وتتحدر طافية على صفة النيل ، فتنتشل عند مصبه^١ . وفي مصر اضاف الصليبيون الى الوان طعامهم الزنجيل . واهم من هذه الاصناف جميعها السكر ؟ وكأنوا قد عرفوا قصب السكر في سهول لبنان الساحلية . اذ كان تجارة العرب قد استحضروه من الهند ، او من جنوب شرق آسيا ، حيث يظن انه كان ينمو برياً . وكان الاوربيون ، الى ذلك الحين ، يستخدمون العسل لتحليلة الطعام وتركيب الادوية . وكانت صور وجوارها - وهي موطن ولهم^٢ (ت حوالي ١١٩٠) اعظم مؤرخي الصليبيين - حافة بزارع قصب السكر . وقد اقترنت بالسكر انواع عديدة من الشراب والحلويات والسكاكير . واول ما ظهرت نواعير الماء في اوربا سنة ١١٨٠ ، وذلك في نورمنديا ، حيث دعيت «بالتركية» . ونواعير الماء في اوربا اقدم من نواعير الماء ، لكن الذي ينتشر منها في جوار باريس ، في المانيا ، قد بني على الطراز السوري . وكان هذا الاستبساط قد استخدم في سوريا منذ العهد الروماني .

اما في ما يتصل بالازيه والملابس والرياش المترالية ، فقد ارهقت كذلك رغائب جديدة ، ان لم نقل تولدت اذواق جديدة . فقد اقتنع الافرنج اخيراً بان الملابس الاهلية ، فضلاً عن الوان الطعام المحلي ، هي خير من ملابسهم ، فاخذ الرجال منهم في ارخاء حمام ، وارتداء الجبب الفضفاضة ، وستر رؤوسهم بالكوفية ؟ وعمدت النساء الى لبس الشفوف المطرزة بالسكة (سعق) ، والجلوس على الدواوين مصفيات الى الحان العود وانقام الرباب ؟ بل لقد عدن الى اتخاذ الحجاب في المجتمعات العامة^٣ . وكان المحاربون والمجاج والملاحون والتجار ، يعودون الى اوطائهم حاملين السجاد والبسط والمركمشات ، وهي من ضروب الزخارف البيتية

(١) انظر Joinville, § 104.

(٢) المجلد الثاني ، من ٦ : § 310

(٣) ابن جبير ، من ٣٣٣ .

التي كانت المنازل في الشرق الادنى تحف بها منذ عهد عريق في القدم . وقد غدا اقبالهم على المنسوجات ، نظير الاقمشة الدمشقية والموصلية والبغدادية^١ والشرقية ، وعلى الاطلس والتقطا^٢ والتحمل والحرير والساتان^٣ ، اشد منه في اي وقت مضى . وشاع استعمال الحلة وتنوع الفراء ؛ وازداد الطلب على المجوهرات التي اشتهر امرها في دمشق والقاهرة ، حتى ليقال عن العادل اخي صلاح الدين انه كان يرثى بها زوجات الافرنج من اجل ان يحملن ازواجيمن على الامتناع عن الحرب . وهكذا غدت الكماليات الشرقية ضروريات غربية . ثم ان المرايا الزجاجية حلّت محل المعدنية ؛ وكان النصارى السوريون وبعدم المتصوفة المسلمين ، قد اقتبسو استخدام المسبيحة في الصلاة وهي من اصل هندي ، قبل ان تقع في يد الرومان الكاثوليك . وكان المجاج يرسلون الى اوطانهم بالصناديق المزخرفة المصنوعة محلياً ، كنهاذح لارباب الصناعات من الاوربيين ، يصنعون على غرارها . ثم اخذت اراس ، وسوها من مراكز الصناعة الاوروبية ، تقلّد ما في الشرق الادنى من صناعات الحزف والسبّاج والانسجة . وقد رافق الاقمشة والمصنوعات المعدنية ما اتصل بها من الاصباغ لاسيا الالوان الجديدة نظير اليلككي والاحمر القرمزي . وقدروا كذلك صناعات الحزف والذهب والفضة والميناء والزجاج الملون^٤ .

التجارة العالمية

بلغت حركة الملاحة والتجارة العالمية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من النشاط درجة لم تعرف منذ العهد الروماني . وكانت البوصلة ، التي يظن ان المسلمين اول من انتفع عملياً باستخدامها ، مما ساعد كثيراً في تسهيل شؤون الملاحة . وكان الصينيون قد اهتموا قبل المسلمين الى سر الابرة المغناطيسية في اتخاذ اتجاه معين ؟ اما في اوربا فان الملاحين الاطفالين كانوا اسبق الامم الى استخدام البوصلة . وكان

١) هذه الاسماء الثلاثة قد خلدت اسماء المدن التي نسبت اليها : دمشق والموصل وبغداد .

٢) اللقطة الغربية من اصل فارسي هو « تافته » .

٣) عرف بالزيرتوبي ، وهو تحريف لاسم المدينة الصينية التي اتى منها هذا الحرير في الاصل .

٤) انظر الفصل التالي : التجارة والصناعة .

٥) راجع جورج سارطن , *Introduction to the History of Science*, vol. iii (Baltimore, 1947), pp. 714-15.

من تضخم سبل التجارة نشوء خرورات جديدة، منها حاجة الحاج والصلبيين الى النقد. وهذه الحاجة ساعدت على إنشاء ادارة مالية، وأدت الى زيادة كمية النقد، وارتفاع نسبه تداوله. وقد أنشئت مؤسسات في جمهوريات المدن الإيطالية فتحت مكاتب فرعية لها في الشرق الأدنى. ومست الحاجة كذلك الى تدبير ما لي آخر هو فتح الاعتمادات المالية^١. ولعل «الدينار البيزنطي العربي» (Byzantinius Sarā) الموسوم بكتابه عربية، أقدم ما سكه اللاتين من القواد الذهبية. أما أقدم من أنّي التاريخ على ذكرهم من الفناصل، فأولئك الذين عينتهم جمهورية جنوى لها في مدينة عكا، وذلك سنة ١١٨٠. وقد كان هؤلاء الفناصل يرثون الحكم الجنوية الخليقة، ويصادقون على توقيعات العقود والوحايا والوثائق الصكوك، ويتثبتون من هوية الوافدين الجدد من مواطنיהם، ويحسمون الحالات التي تتشبّه بينهم، ويعالجون — على العموم — سؤوانا هي من قبيل ما يعالج فناصل الدول الغربية اليوم في الشرق الأدنى.

الصلات الاجتماعية

يلبغي ان لا يغرب عن البال ان فترات السلم، في غضون العهد الصليبي، كانت اطول مدى من فترات الحرب؟ فكان هنالك مجال واسع لنشوء روابط المودة وصلات الجواربة بين الشرقيين والغربيين. فالافرنجي، لدى زوال الحاجز الغوي بينه وبين المواطن، قد باه له ولا شك ان المسلمين، بعد كل حساب، ليس ذلك الملاحد الذي كان يتصوره، بل انه ذو صلة بالارث اليهودي المسيحي واليوناني الروماني الذي عرف به الاوربيون. ان التاريخ ليحدثنا عن كثيرين من الصليبيين، نظير رجستاند الشاتيوني ولويم الصوري، من كانوا يتقنون العربية^٢، لكنه لا يشير الى عربي واحد تكلم الفرنسي او اللاتينية. فالتسامح وسعة الصدر وتقدير العامل المدني على كل اعتبار — مما ينجم عادة عن اختلاط ارباب العقائد المختلفة والمخارات المتباعدة — قد كان في هذه الحالة وليد المجتمع الغربي لا الشرقي، وفضلاً عن ذلك

١) عبر عنها «بالصلك» ومنها لفظة تشک cheque الانكليزية، وقد استعيرت اللفظة العربية في القرن الثامن عشر في الهند.

٢) راجع من ٢٤٧ من هذا الجزء.

فقد كان في البلاد المقدسة مزارات يكرهها النصارى والملعون واليهود على السواء، أما على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، فقد كان النصارى والملعون يختلطون بلا حرج^١، فكانوا يتاجرون بالحيل و الكلاب الصيد و طيور الفنس، و يتباذلون تأمينصالح، بل ربما عمدوا إلى التزاوج. وقد تحدى من بعض الاتهامات المواطنات ذرية جديدة عرفت بـ «البولياني»^٢. ويكثر بين اللبنانيين والفلسطينيين اليوم، لاسيما في أهون (لبنان) وبيت لحم، أصحاب العيون الزرقاء والشعر الأسود. وقد بيّن من تقاليد بعض الأسر ومن اسمائها ما يدل على اصلها الأوروبي، نذكر منها: فرنجية (Frankish) وصليبي (Crusading) ودوبيي (douai) وبردوبل (Baldwin)^٣ وصوايا (Savoie). ويصدق ذلك أيضاً على قريتي سنجيل (Saint Gilles) والرينه (Reynaud) في فلسطين.

شهادة اسامه

أثبت اسامه بن منقذ (١٠٩٥ - ١١١٨) في مذكرة له اوضحت صورة لشاهد عيان عن اختلاط الشعوب المختلفة. وكان اسامه حديقاً لصلاح الدين، وقد دافع عن قصر شيزر - وهو قصر لأسرته قائم على ضفة العاصي - ضد المشائين والأفرنج، فلم يقع يوماً في يد الصليبيين. ولقد كانت اسامه وثيق الصلة بالأفرنج في فترات السلم، لكن حرية الاختلاط الجنسي التي عاينها في اوساطهم قد بدت له في غاية الفطاعة، وغدوا في حكمه «خالين من الجمبة والغيره»^٤، وقد وجد اساليبهم في معاقبة الجرميين بالمساء او المبارزة^٥ في غاية الانحطاط، بالنسبة الى ما جرى عليه المسلمين آنذاك من اللجوء الى احكام القضاء المدني. وكذلك اساليبهم في معالجة المرض فقد كانت، إذا قورنت بتطبيب العرب، سقمة للغاية. مثال ذلك ان احد الاطباء من النصارى المواطنين كان يتعهد مريضين، في عائلة افرنجية بالمنيطرة؛ الى

(١) ابن جبير: ص ٢٨٧ - ٢٩٨، ٢٠٢، ٨٨ : اسامه ، الاعتبار ، ص ١٣١، ١٣٤ .

(٢) من لفظة : Poulains ومنها الاحداث المصفار .

(٣) انظر Marino Sanuto, *Secrets, for True Crusaders to Help Them to Recover the Holy Land*, tr, Aubrey Stewart (London, 1896).

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٥ .

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٨ - ٣٩ .

ان استدعي طبيب اوربي ، فأمر بأن توضع الساق العليلة لاحد المريضين على خشبة ضخمة ، ثم اشار الى فارس ان يهوي عليها بفأسه . ففعل وقطعها بضربة واحدة . ثم تحول الى المريض الآخر – وهو امرأة – فأمر بأن يخلق رأسها ، ثم عمد اليه فجرحه جرحًا صليبيًّا عميقاً، وذلك الجرح باللح رجاء ان يطرد من رأسها الشيطان ، ففارق كلاهما الحياة في الحال . وقد ختم الطبيب المواطن الذي روى عنه اسامه هذه الحادثة بقوله : « فقلت لهم : أبتي لكم إلى حاجة ؟ فقالوا : لا ! . فبحثت وقد تعلمت من طبّهم مالم اكن أعرفه »^١ .

عواقب المحتل الصليبي على سورية

وعلى العموم ، فإن عواقب المحتل الصليبي على سورية كانت مفجعة . فقد خشي المالك من رجوع الافرنج ، اذ كان بعضهم قد تحول الى جزيرة قبرص . فعمدوا الى تخريب المرافق^٢ ؛ بعد ان كان الايوبيون قد هدموا عسقلان^٣ . وكانت عكا ، بعد صور ، أشد المدن ازدهاراً في سورية الافرنجية ، وقد ألقاها ابن جبير^٤ مدينة منقطعة النظير بمحضها ، فإذا ابو الفداء^٥ يجدها ، بعد ذلك يقرن ، خراباً يباباً . ثم ان العناصر الاسلامية المنشطة ، من شيعة واسعاعيلية ونصيرية – وكانت على ما ذكر ابن جبير^٦ اوفر عدداً من السنة – عمدوا في مناسبات عديدة الى نقض ولائهم بتقديم العون الى الافرنج فتعرّضوا الان لفتک ذريع وبلغ من بيـنـهم الى لبنان الاوسط والبقاع . وكان الملوك الاشرف قبل ذلك قد فرض على الدروز التقييد بفرض انص الاسلام اهل السنة ، لكن هذه المراوغة لم تدم طويلاً . وكان بيبرس قد اجبر النصيرية على بناء المساجد في قرام ، لكنه لم يتمكـنـ من حملـهمـ على تأدـيةـ الصلاة

١) الاعبار ، ص ١٣٢ - ٣٣ .

٢) راجع : ابو الفداء ، القويم ، ص ٢٣٩ ؛ ابن بطوطـة ، نـفـةـ النـظـارـ فيـ غـرـائـبـ الـاسـمـارـ ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ٣٠ : قـابـلـ : الـادـرـيـسيـ ، ص ١١ .

٣) راجع ابن بطوطـة ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

٤) راجع وحلته ص ٣٠٤ .

٥) القويم ، ص ٢٤٣ .

٦) راجع وحلته ص ٢٨٠ .

فيها ؟ فبدلًا من ان تكون معابد الصلاة جعلوها زرائب للمواشي والدواجن^١. وقد عمد سلاطين الماليك، استئنافاً لسياسة التغريب ، الى تدمير لبنان تدميراً منظماً. وكانت حملة الناصر سنة ١٣٠٦ أشد الحملات فجيعة ، اذ اسفرت عن ابادة اهل كسروان إبادة تامة^٢. فأحلَّ الاكرااد والتراكان في محل الشيعة من سكناها ثم اخدر الموارنة من الشمال ليملأوا باقي الفراغ. اما الدفاع عن بيروت ضد الغارات البحرية المتتابعة فقد اقاموا عليه اسرة من آل بخت كانت قد ولدت امارة الغرب ؛ والمى هذه الاسرة ينتسب المؤرخ صالح بن يحيى^٣. وأخذ لبنان ، من ثم ، يتحول عن الغرب الأوروبي . وبقي على ذلك حتى مستهل العصر الحاضر . والواقع ان سوريا بحملتها قد وعت ، منذ ذلك الوقت ، جميع العناصر الحضارية التي احرزتها حتى مستهل القرن التاسع عشر . وعندها اخذت موجة جديدة من الافكار الاوروبية والعناصر الحضارية تتكسر على سطاناها .

ولم يكن ما قاساه النصارى المواطنين ، اقل مما تحمله المسلمين المشقون . فقد أحدثت تدابير اذكت العداء بين النصارى السوريين وجيروانهم المسلمين ، حتى بلغ من الشدة حدًّا لم يبلغه من قبل ، بل هو الى الآن لم يُحْمَدْ تاماً . فقد تخوف حكام القدس المسلمين من التأييد الذي أبداه نصارى الرها وانطاكيه للصليبيين ، فعمدوا الى ابتزاز «جميع الاموال والسلع التي كانت في حوزة النصارى»^٤ من اهل هذه المدينة ، وعملوا على تشريدهم باستثناء العاجزين والمرضى والنساء والاطفال . وعندما دخل الصليبيون المدينة لم يجدوا الا القليلين منهم في قيد الحياة . وقد منح اللاتين^٥ موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لابناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية^٦ ، لكن الوفاً منهم هاجروا ، بعد استيلاء صلاح الدين على بيروت سنة ١١٩١ ، الى قبرص حيث لا يزال من ذريتهم نحو الفين من المواطنين .

١) ابن بطوطة ، ج ١ ، من ١٧٧ .

٢) صالح ، ص ١٣٦ . الروايات المحلية تعيد هذا الاسم الى اسم قائد من المردة ؛ شدياق ، ص ٢١٠ .

٣) من ٦٣ من مؤلفه .

٤) وليم الصوري . *William of Tyre* , vol. i , p. 334 .

٥) راجع من ١٤٠ من هذا الجزء : وانظر ديب : ج ١ ، ص ١٨٦ - ٩٠ .

ثم ان روح الجماد الذى اثاره الملائكة على الصليبيين اخذوا الان يسدونه ضد القبط ونصارى سوريا. فقد أصدر قلاوون (٩٠ - ١٢٧٩) في اوآخر عهده مراسم تحرّم على النصارى من رعاياه تولي الوظائف الحكومية . وأعاد السلطان الناصر في سنة ١٣٠١ تطبيق التدابير القديمة بحقّ أهل الذمة - تلك التدابير التي اوجبت على النصارى واليهود ان يرتدوا ملابس خاصة يُعرفون بها، وان يتمتعوا من ركوب الحيل والبغال.^١ وجرى السلطان الصالح على مثل ذلك سنة ١٣٥٤.^٢ بل ان الناصر قد فعل اكثر من ذلك ، فأمر بإلغاء عيد قومي من اعياد القبط^٣ ، وأغلق الكثير من كنائس النصارى في مصر. وهذه الموجة العاطفية العارمة، الموجهة ضد النصارى، تتعكس بجلاء في ادب العصر ، فإذا الاحاديث والفتاوی والخطب المثيرة تلهب الجاهير، ومؤلفات الفقيه السوري ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) ترخر بروح العصر الراجعة^٤. وابن تيمية هذا ولد في حرمٍ، وكان من اخلاص اتباع ابن حنبل وأشدّهم اندفاعاً وراءه. زها في دمشق ، وفيها رفع صوته مسقاً عبادة القديسين ، وتقديم النذور ، والتعدد على المزارات . وقد انتصر لمبادئه هذه ، في ما بعد ، الزهابيون الذين يسيطرون اليوم سلطانهم على الحياة السياسية والدينية في تحدٍ والمجاز. ويستطيع الرأرون اليوم ان يروا مدفنه، وكذلك مدفن ابن عساكر ، في باحة الجامعة السورية.

وازدهر نوع آخر من الادب يسوغ اعتباره «دعـاـيـة مـضـادـة» ادب يطري فضائل القدس ، ويوصي الحجاج بزيارةها ، ويرى كذلك ان النبي قد ذكر ان تأدبة الصلاة في مسجدها خير ألف مرة من تأديتها في اي مسجد آخر ، إلا مسجدي مكة والمدينة . بل ان خطيباً من خطباء المسجد الاموي في دمشق ، هو ابن الفركاح (ت ١٣٢٩)،^٥

١) انظر بشأنه الفصل التالي : الفتح المفولي .

٢) راجع من ١٦٧ من هذا الجزء .

٣) الفلقشندي ، ج ١٣ ، ص ٣٧٧ - ٨١ ؛ ابن تغري بردي ، نشر پور ، ج ٥ ، ص ١٣٣ .

٤) المقريزى ، ج ١ ، ص ٦٩ .

٥) راجع الكتبى ، ج ١ ، ص ٤٨ - ٤٩ : *Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-d-Din Ahmad b. Taimiya* (Cairo , 1939) pp. 634-9.

٦) « باعث الغرس لزيارة القدس المحرر ». وقد كتب ابن الجوزي (ت ١٢٠٠) البندادى رسالة « فضائل القدس وصفتها فيليب حتى ونبيه فارس وبطرس عبد الملك في فهرس الخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنسون (برنسون ، ١٩٣٨) نحت رقم ٥٨٦ .

أيد هذا الاتجاه كل التأييد. وظهر إلى جانب هذا الأدب نوع آخر هو أدب السيرة؛ وهو ضرب من الحكمة التاريخية يتدخّل في إبطال العرب، حقيقة كانت أم خيالية. وكان من إبطال هذه السير صالح الدين والملك الظاهر وعنترة بن شداد. وعنترة هذا شاعر جاهلي من الشعراء الفرسان، لكنه روايته (سيرة عنتر)، كما يبدو لنا اليوم من قرائتها التاريخية، كان أول ظهورها في سوريا، وذلك في أوائل القرن الثاني عشر. والناس آن يوم اشدهاً قبلًا في مقاهي القاهرة وببروت وبغداد، على قراء القصص، وهم يتلون حكاية عنتر وسيرة الظاهر (بيبرس)، منهم على القصاصين وهم يروون حكايات من ألف ليلة وليلة.

النظام الاقطاعي

إن الدول الأفرنجية في سوريا قامت على المبادئ الاقطاعية التي كانت شائعة في أوروبا، مع أن بعض متعهدى الاقطاعات كانوا من المواطنين. ولما كانت سوريا بلداً إسلامياً فقد نشأ فيها، منذ الفتح العربي، نظام اقطاعي من نوع خاص. فقد كان الفاقحون، منخلفاء وسلطان وأمراء، يهبون قوادهم وكبار موظفيهم الاقطاعات، فيعمد هؤلاء بدورهم إلى تقسيمها إلى مناطق يوزعنها على الاتباع والمعهدين. وكان الارقاء والعبيد – وهم الطبقة الاجتماعية السفلية – يتولون حراثتها. أما جباية الخراج^١ من غير المسلمين، فكان يعهد بها إلى بعض المتنفذين على سهل «الضمان». لكن الحلفاء العباسيين ابطلوا اختصار المزارع بالزيادة، واستبدلوا به نظاماً من الزراعة الوراثية، يؤدي المزارعون بوجبه التجاراً معيناً ثابتاً؛ في حين استمر الفاطميون والهادلوك على الغرف الإسلامي^٢. أما في أوروبا، فإن طبقة من الأرستقراطيين، أصحاب الأرضي، ظهرت في العصر الوسيط، اقام افرادها لأنفسهم المساكن الحصينة في الأرياف، وانشأوا حلقات متبادلة مع افراد الأسرة المالكة او سيطروا عليها وبصور مباشرة على من هم دونهم. ولم يظهر مثل هذا النظام الأرستقراطي في المجتمع العربي الإسلامي. اذ كانت متعهدو الاقطاعات يقيمون على العموم في المدن، ويكتفون باستدار الدخل الضروري من اقطاعاتهم

١) راجع ص ١٩ - ٢٠ من هذا الجزء.

٢) القلقشندي، ج ١٣، ص ١٢٣، وما بعد. وما بعد؛ راجع A. N. Poliak, *Feast and Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon* (London, 1939), pp. 18 seq.

الريفية . ولم يترك النظام الاقطاعي الذي ادخله الافرنج الى سوريا اي تأثير في النظام المحلي لضمان الاراضي ، الا ما كان من جعل الاقطاع العسكري ، الى حين وفي ظل الايوبين ، النظام الرئيسي المتبع في تحديد العلاقات الزراعية . وكذلك النظام الملكي الافرنجي ، فانه لم يختلف اثراً راسخاً في منظمات سوريا السياسية ، يستثنى من ذلك ان الكنيسة التي ظهرت الملكية لا تزال ممثلة بشخص البطريرك اللاتيني في مدينة القدس .

نشاط الارساليات

ومن النتائج الفرعية الهامة التي تخللت عن الحملات الصليبية انشاء الارساليات المسيحية للتبشير بين المسلمين . فقد اقنع رجال الفكر بفشل هذه الحروب ، وانفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين ؟ فاخذوا يدعون الى تركيز الاهتمام على الوسائل السلمية . وكان الكامن القطلاني ريند لال (ت ١٣١٥) اول اوربي شدد على اهمية الدراسات الشرقية كأدلة فعالة لتخالٍ سلي يعتمد الاقناع وسيلة بدلاً من الاكراه . وكان قد تعلم العربية على يد عبدٌ ، ثم استغل في تعليمها . وبتأثير ريند هذا جرى الروح الصليبي في بيروت جديداً هو اقناع المسلمين باعتماد المسيحية بدلاً من محاولة ابادتهم .

اما الاخوية الكرملية التي لا تزال عاملة في سوريا ، فقد اسستها في هذا البلد احد الصليبيين سنة ١١٥٧ ، وسماها باسم احد جياله . وفي اوائل القرن الثالث عشر نشأت انتنان من الاخويات الرهبانية هما الفرنسيسكان والدومنيكان ؟ وانشأت كل منها لنفسها فروعاً في كثير من المدن السورية . وفي السنوات الاخيرة من ذلك القرن كان للفرنسيسكان في بيروت كنيسة كبيرة^١ . وفي سنة ١٢١٩ زار مؤسس الاخوية الفرنسيسكانية ، القديس فرنسيس الاسيسى ، بلاد الايوبين في مصر ، واجرى مناقشة دينية عقيمة مع الكامل . وكتب اسقف دومينيكياني – هو وليم الطرابلسي – رسالة من اوف رسائل الصور الوسطى بشؤون المسلمين ، موضحاً المواطن التي يتفق فيها الاسلام مع المسيحية ، وموصياً باستخدام المرسلين بدلاً من الجنود ، لاستعادة البلاد المقدسة . وكان نظير زميله وليم الصوري مولوداً في هذه البلاد لكن من ابوبين اوربيين .

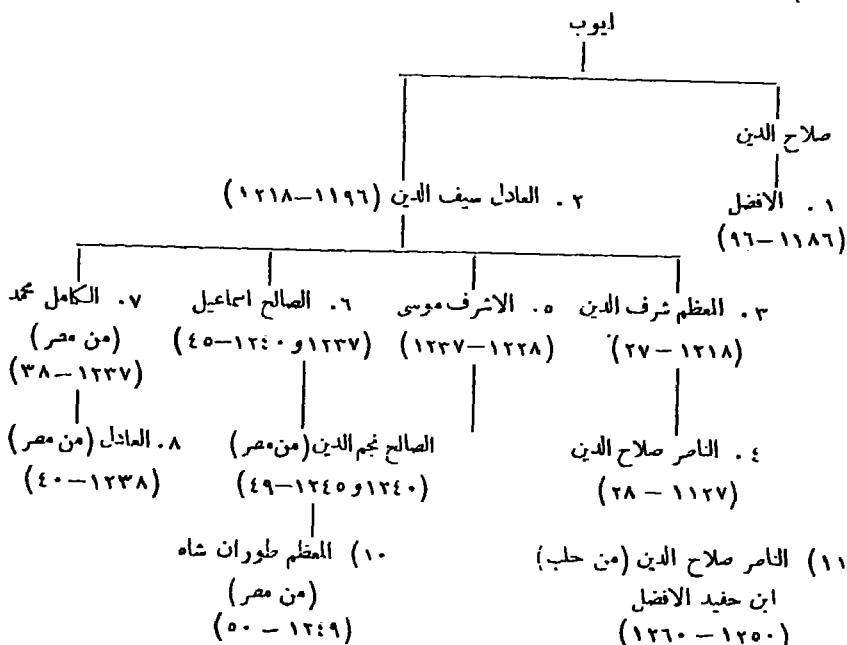
١) صالح ، ص ١٤٩، Enlart, vol. ii, p. 79.

الفصل السابع والأخير

الإيوبيون والمالكيون

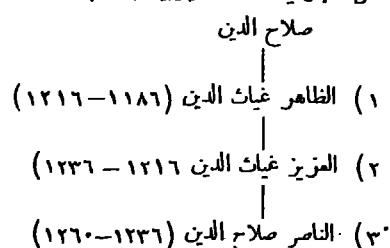
ان السلطة التي انشأها صلاح الدين وسعها حتى بلغت من التمدد الى نهر الدجلة، تجزأت من بعده بين ابنائه ؛ ولم يكن لأيٍ منهم ما كان له من التبع . فقد خلفه في دمشق ابنه الملك الأفضل ، لكن ملكه آل سنة ١١٩٦ الى عمه العادل حاكم مصر . وعاد الفرع الدمشقي سنة ١٢٥٠ فانضم الى فرع حلب ، لكن حملة هولاكو الجارفة لم تثبت ان اكتسحته بعد عقد من الزمان^١ . وجلس على عرش مصر بعد صلاح الدين ابنه الثاني العزيز ، لكن العادل نفسه لم يثبت ان أزال ابن العزيز سنة ١١٩٨ . ففي كلتا الحالتين استغل العادل فرحة الخلاف الذي شجر بين ابناء أخيه واغتصب الامر لنفسه . وهذه المنازعات السلالية بين افراد الاسرة الحاكمة ، هي التي أثاحت للافرنج الفرصة لاسترداد بعض ما كانوا قد فقدوا من ممتلكاتهم .

١) شكل شجري للسلالة الايوبيية في دمشق :



وفي سنة ١٢٠٠ عين العادل أحد ابنائه حاكماً على بلاد ما بين النهرين؛ وكان الظاهر، وهو الابن الثالث لصلاح الدين، قد خلف اباه على حلب^١، وكان الفرع الايوبي الصغير الذي أسسه في حماة واحد من ابناء اخي صلاح الدين قد نجا سنة ١٢٦٠ من الفتح المغولي الذي اكتسح الخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بعامين، واستمر في ظل المهاليك حتى سنة ١٣٤١؛ فهو اطول فروع هذه الاسرة حياة^٢، وكان من افراده الملك المؤرخ ابو الفداء (ت ١٣٣٢)^٣. وكانت هنالك فروع اخرى من السلالة الايوبيّة أقلّ شأنًا من هذا الفرع، بينها فرع حصن المتحدر من احد اعماق

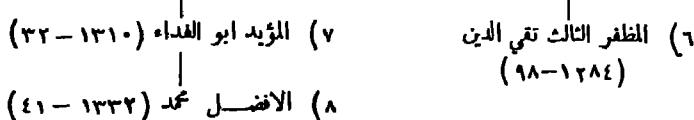
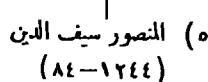
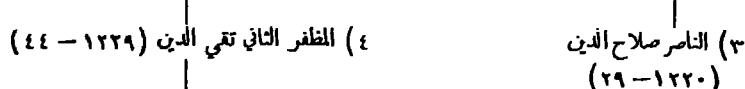
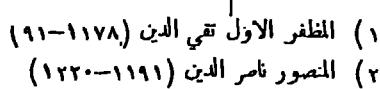
١) شكل شجري للسلالة الايوبيّة في حلب :



٢) كانت هنالك فترة قصيرة (١٢٩٨-١٣١٠) تولى الحكم للمهاليك فيها حكام آخرون.

٣) شكل شجري للسلالة الايوبيّة في حماة .

نور الدين شاهنشاه (اخو صلاح الدين)



صلاح الدين ، وقد اباده الملوكي بيبرس سنة ١٢٦٢^١ ، وفرع بعلبك المتذر من طوران شاه أخي صلاح الدين^٢ .

الملك يخلفون الابوين

كان الفرع المصري من السلالة الايوبية هو الرئيسي بين فروعها الكثيرة . وقد تسلط عدد من افراده على القاهرة ودمشق . وكانت من هؤلاء الصالح نجم الدين ايوب^٣ ، الذي توفي في تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ ، تاركاً وراءه ارملة هي (شجر الدر) . وكانت شجر الدر ، في اول امرها ، جارية تركية او ارمنية في حريم الخليفة العباسي المستعمق في بغداد . ثم اعتقها الصالح بعد ان رزق منها صبياً . على أنها كتبت موت زوجها مدة ثلاثة اشهر ، ريثما عاد ابنه طوران شاه من رحلة قام بها الى المدینة النهرين . وإذا لم يحسن طوران شاه إلى ماليك ابيه ، تأمرا عليه بالاشراك مع زوجة ابيه واغتالوه . وعندما عمدت هذه المرأة الجريئة النشيطة الى تنصيب نفسها ملائكة على المسلمين^٤ . وقد منح شرف مشاركتها في الملك طفل له من العمر ست سنوات ، هو الأشرف موسى سليل الفرع الايوبي في دمشق . وكانت شجر الدر هذه ، المرأة المسنة الوحيدة التي سادت بلدآ في شمالي افريقيا وغربي آسيا . وقد استمرت في الحكم ثمانين يوماً تولى منفردة السلطة المطلقة في البلاد التي انجابت

١) شكل شجري للسلالة الايوبية في حصن :

شيركوه (عم صلاح الدين)

١) القاهر ناصر الدين (٨٥-١١٧٨)

٢) المجاهد صلاح الدين (١٢٣٩-١٢٨٥)

٣) المنصور ناصر الدين (٤٥-١٢٣٩)

٤) الاشرف مظفر الدين (٦٢-١٢٤٥)

٢) راجع بشأن اسماء افراد هذا الفرع وفرع الكركـ Zambaur, *Manuel de généalogie et de chronologie* (Paris, 1927), p. 98.

٣) راجع شجرة الانساب في ص ٢٦٤ من هذا الجزء .

٤) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ القرىزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

قبلها زنوبياً وكليوپترا وقد ضربت النقود باسمها^١، وأمرت أن ينوه باسمها في صلاة الجمعة . وعندما وليت الحكم وجه الخليفة العباسي ، سيدها السابق ، رسالة جارحة إلى أمراء مصر يقول فيها : « إن كان ما بي عنديكم رجل تولونه فقولوا لنسان رسول اليكم رجالاً »^٢ . فوق اختيارهم على قائد جيوشها عن الدين ايبيك^٣ فنصبوه سلطاناً ؛ أما هي ففكت بافضل شيء بعد الملك ، ورضيت به زوجاً . وقد قضى ايبيك السنين الأولى من حكمه في سحق الحزب الايوبي المطالب بالسيادة في سوريا ، وكان افراده يعتبرون انفسهم ورثة انبائهم المصريين . ثم انه نخلع الاشرف الطفل المشارك في الملك ، وتخلص من قائد الخاص الذي كان قد بورز في حربه ضد لويس التاسع ، وإذ بلغ الملكة انه ينوي الزواج من امرأة أخرى ارسلت إليه من قته ، وهو يستحش ، بعد الفراغ من لعب الكرة . ثم جاء دورها هي فعمدت جارية لقرينة زوجها الأولى إلى قباقاب انتهالت به عليها ضرباً حتى اوردتها حتفها . وطرح جسدها من أحد ابراج قلعة القاهرة^٤ .

المالكون البحريون

كان ايبيك (١٢٥٠ - ٥٧) أول سلاطين الماليكون^٥ ، وسلالة الماليكون^٦ ؛ هذه ذات وضع غريب في تاريخ السلالات ، لأنها – إذا صح اعتبارها سلالة – كانت كما يستدل من اسمها^٧ سلالة عبيد – عبيد من اجناس مختلفة وقوميات متباينة ، اقامت دولة عسكرية في بلاد غريبة . فإذا مات أحدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده ، في الفالب ، ليس ابنه بل أحد عبيده أو بعض المرتقة من اتباعه ، من تيزروا بعمل عظيم ، او احرزوا شهرة بعيدة . وهكذا فإن العبد بالأمس ، كثيراً ، اكان يصبح قائداً جيش في الحال ، ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم . وبقي السلاطين العبيد نحواً من قرنين وتلاته ارباع القرن ، يحكمون بالسيف بقعة من أشد بقاع الأرض اضطراباً . ومع انهم كانوا ، بوجه العموم ، سفاكين وغير منتففين ، فإنهم اتحدوا

^١) هذا هو النقد الوحيد الذي يحمل اسم امرأة مسلمة باستثناء بعض النقود التي ضربت في الهند وفارس .

^٢) السيوطي ، حسن المعاشرة ، ج ٢ ، من ٣٩ .

^٣) يستفاد من اسمه انه كان تركياً : « اي » معناها قرق ، و « بات » معناها : امير .

^٤) قلعة الجبل . ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٦٤ ؛ ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٦٠ ، ٦٠ .

^٥) الملوك عبد ، ويطلق بصورة خاصة على من لم يكن اسود البشرة .

القاهرة ببيان هندسية لا تزال تفخر بها حتى . وقد أتوا الى الاسلام خدمتين اخريتين : الاولى انهم حرروا سوريا ومصر من بقايا الصليبيين ؛ والثانية انهم اوقفوا الزحف الحليف الذي قام به قبائل المغول والتر، بقيادة هولاكو وتيمورلنك^١. ولو لا ذلك لماز ان يكون سبيل الحضارة والتاريخ ، في غرب آسيا ومصر ، يومئذ ، غيره اليوم .

كان اول المماليك عبداً اشتري من سوق العبيد في روسيا الاسلامية وبلاد القوقاس ، ليكون المرافق الخاص للصالح الايوبي^٢ . فخلف سلسلة من الحكماء جرى العرف الى تقسيمهم الى سلالتين هما : المماليك البحريية (١٢٥٠ - ١٣٩٠) ، والمماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) . فالبحريية سموا بذلك نسبة الى النيل^٣ ، إذ كانت ثكناتهم تقوم على جزيرة صغيرة في نهر النيل ؛ وكأنوا في أكثرهم ، من الترك والمغول . أما البرجية فكلنوا في الغالب من الجراكسة^٤ . وقد جاءت حملة المغول بعد ظهورهم بقرن من الزمان . وهكذا عادت سوريا ، مرة اخرى ، ميدانياً تطاحت فيه ثرتان متنافستان .

الفزو المغولي

ما كادت قبائل المغول تتفى على الخلافة العباسية في بغداد ، وتحرب وكر المثاشين في قلعة المؤت بقيادة هولاكو حفيد جنكيزخان ، حتى كان ظهورهم المشؤوم في شمالي سوريا . وكانت مدينة حلب ضحيتهم الاولى ، حيث سقط خسون الفاً من اهلها بحد السيف ، وكان ذلك صورة مصفرة للاسيجي^٥ . وستطلت بعد حلب ، حارم وحماة ؛ ووجه هولاكو احد قواده لحارس دمشق بينما عاد هو الى فارس بداعي وفاة أخيه ابا زان الكبير . ولم تلتب انتفاضة اللاتينية ان التحقت بالمنقول . وقد خطر للويس التاسع وللبابا ان عقد ميثاق مع الفراوة قد يساعد في

١) انظر ما يلي من هذا الفصل في موضوع «التاريخ والجغرافية»

٢) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ .

٣) يدعى نهر النيل عندم بالبحر .

٤) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٦٩ ، والسيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٠ يعتبر انهم سلاة تركية .

النضال ضد المسلمين، إذ كانت ديانة الفاتحين الرسمية هي الشامانية، وهي ديانة اتباعهم الاتراك كذلك. وكان بينهم بعض النصارى الذين تحدروا من أسلاف لهم اعتنقوا المسيحية على يد جماعة من قدماء المرسلين السوريين^١. وكان القائد الذي اجتاح معظم سوريا ودكّ معلماها قائداً مسيحياً هو كتبغا^٢، وكان الملوك الحاكم آنذاك قطر (١٢٥٩ - ٦١)، وهو الذي أهلك رسل هولاكو^٣. وكانت نهاية هذا النزاع في وقعة عين جالوت قرب الناصرة. في هذه المعركة تولى بيبرس قيادة الطليعة تحت امرة قطر، وألحق بالفازيين هزيمة منكرة. وسقط كتبغا في هذه المعركة قتيلاً^٤، وهزم جيشه، وفرّ من بيته إلى خارج سوريا. وقد توقع بيبرس، مكافأة له على خدماته الحربية، أن يقطعه قطر مدينة حلب، لكن السلطان خير أمده. وفيها كان عائداً من سوريا إلى مقره في مصر تأمر بيبرس وزميل له على حياة السلطان، وإذا أخذ هذا في مخاطبته، وأكب على يده يقبلها، أهوى بيبرس على عنقه بالسيف فأورده حتفه، واستولى على الحكم في مكانه.

وكان بيبرس^٥ الرابع من سلسلة الملاليك، والاول من عظاماء السلاطين، المؤسس الحقيقي لسلطة الملاليك. ولئن كان قد كسب مفاخره الأولى في ود القول، فإنه قد نال تاج الجد بفضل انتصاراته على الصليبيين^٦. ولم يكن بيبرس رجل حرب فحسب، بل كان إلى ذلك من كبار رجال الادارة. فقد شق الاقبة وأصلح المرافق، ووصل ما بين عاصته في مصر وبين سوريا بيريد سريعاً، نظمه على الطراز الفارسي العباسي. فكان باستطاعته أن يلعب بالكرة والصواريخ في كلتا المدينتين في غضون أسبوع واحد^٧. وقد انشأ مشاريع عامة، وجدد المساجد – ومنها قبة

١) راجع من ١٣٧ - ١٣٨ من هذا الجزء.

٢) ان نفس الرسالة التي كانوا يحملونها محفوظة في المقريزى نشر كاتميرج (ق ١) من ١٠١ - ١٠٢.

٣) ابو الفداء، ج ٣، ص ٢٠٩ - ١٩؛ المقريزى نشر كاتميرج، ج ١، (ق ١)، ص ٩٨، وما بعد؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٤٤.

٤) راجع بشأن الملاليك البحريدة شجرة الانساب في ما يجيء من هذا البحث.

٥) راجع من ٢٤٣ من هذا الجزء.

٦) ابن الفرات، ج ٧، ص ٨٢.

الصخرة، ورمي الحصون – ومنها قلعة حلب ؛ وأنشأ الاوقاف الدينية والوقفيات الخيرية^١. ومدفنه في دمشق اليوم بثانية مكتبة تحمل لقبه وتعرف بالظاهرية وفيها مخطوطة من اقدم المخطوطات المكتوبة على الورق، هي كتاب «مسائل الامام احمد بن حنبل» يعود تاريخها الى سنة ٢٦٦ هجرية (٨٧٩ م)^٢.

على ان تفادي الخطير المغولي آنذاك كان امراً مؤقتاً . فقد اندفعوا من موطنهم في آسيا الوسطى في اتجاه غير معين تماماً ؛ وبعد ان جالوا جولات اوصلتهم الى حدود الامبراطورية الصينية ، اخذنوا يتذوفون في موجات تشبهه ، من بعض الوجهة ، الموجات السامية ، وموجات الفزو والجرماني في الهنود السابقة . فان اباقا ابن هولا كوك خليفة ، اتخذ مدينة تبريز قاعدة له ، وجدد منها المجموع على سوريا . وكان المغول آنذاك يتوددون الى النصارى . فدخل اباقا في مفاوضات مع البابا وادورد الاول ملك انكلترا ، وسواهما من اصحاب السلطة في اوروبا ، وحثهم على إرسال حملة صليبية جديدة لطرد الماليك من سوريا . ومع ان جيش المغول كان اوفر عدداً ، وقد عزز بفرق من الارمن والجورجيين والفرس ، فانه هزم في حصن سنة ١٢٨٠ شر هزيمة^٣ . على ان المغول لم يلبسو ان ذللو الحواجز ، وتحولوا نهائياً الى الجانب الاسلامي . وقع هذا الفتح في عهد قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) ، وهو اعظم الماليك بعد بيروس . وكان في الاصل ، نظير سلفه ، عبداً تركياً يلقب بـ «الانبي» ، كنابة عن الثمن الباهظ الذي شري به ، وهو ألف دينار^٤.

ولقد عد الالیخان السابع ، غازان محمود ، الذي نشأ على دين بودا ، الى اتخاذ الاسلام ديناً للدولة ؟ لكن ذلك لم يرد عن سوريا غارات اخرى ، بل قد تعرّضت على الامر لغاراتين كانتا الاخيرتين في هذا الزحف ؟ حدثت الاولى في اواخر سنة ١٢٩٩ ، وكان عدد الجيش الفاتح ، على ما قبل ، مئة الف مقاتل فيهم الارمن والجورجيون والافرنج والقبرصيون ، فتمكنوا من إبادة الجيش المصري الذي

١) في الكتبى ، ج ١، ص ١١٣ - ١٥ جدول يعطي جلائل اعماله ذات المنفعة العامة .

٢) قابل : Hitti, *History of the Arabs*, p. 347.

٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٦ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٥ - ٤٦ .

٤) السيوطي ، حسن المعاشرة ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

جذع حملة

جذع حملة

(٦٠٠٢٨٤٦) سبلان ٦٠ (٦٠٠٢٨٤٧) سبلان ٨٠ (٦٠٠٢٨٤٨) سبلان ٩٠ (٦٠٠٢٨٤٩) سبلان ١٠ (٦٠٠٢٨٥٠) سبلان ١١ (٦٠٠٢٨٥١) سبلان ١٢ (٦٠٠٢٨٥٢) سبلان ١٣ *

الصالح ٦١

الصالح ٦٢

الصالح ٦٣

الصالح ٦٤

الصالح ٦٥

الصالح ٦٦

الصالح ٦٧

الصالح ٦٨

الصالح ٦٩

الصالح ٧٠

الصالح ٧١

الصالح ٧٢

الصالح ٧٣

الصالح ٧٤

الصالح ٧٥

الصالح ٧٦

الصالح ٧٧

الصالح ٧٨

جذع حملة ٦٥ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦٧ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٦٩ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٧١ (٦٠٠٢٨٤٥)

جذع حملة ٧٣ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٧٥ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٧٧ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٧٩ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٨١ (٦٠٠٢٨٤٥)

جذع حملة ٨٣ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٨٥ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٨٧ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٨٩ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة

جذع حملة

جذع حملة ٦٠ (٦٠٠٢٨٤٦)

جذع حملة ٦١ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٦٢ (٦٠٠٢٨٤٨)

جذع حملة ٦٣ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦٤ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٦٥ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٦٦ (٦٠٠٢٨٤٥)

جذع حملة ٦٧ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٦٨ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦٩ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٦١٠ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٦١١ (٦٠٠٢٨٤٦)

جذع حملة ٦١٢ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٦١٣ (٦٠٠٢٨٤٨)

جذع حملة ٦١٤ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦١٥ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٦١٦ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٦١٧ (٦٠٠٢٨٤٦)

جذع حملة ٦١٨ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٦١٩ (٦٠٠٢٨٤٨)

جذع حملة ٦٢٠ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦٢١ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٦٢٢ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٦٢٣ (٦٠٠٢٨٤٦)

جذع حملة ٦٢٤ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٦٢٥ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦٢٦ (٦٠٠٢٨٤١)

جذع حملة ٦٢٧ (٦٠٠٢٨٤٣)

جذع حملة ٦٢٨ (٦٠٠٢٨٤٧)

جذع حملة ٦٢٩ (٦٠٠٢٨٤٩)

جذع حملة ٦٣٠ (٦٠٠٢٨٤١)

قد بنحو ثلث الجيش المهاجم ، وذلك شرقاً من حصن^١ . وكان الملوك الحاكم ابن قلاوون ، وخليفته الثاني الناصر وهو الذي غيّر بانه تولى السلطة ثلاث مرات (١٢٩٣ - ١٢٩٨ ، ٩٤ - ١٣١٦ ، ١٣٠٨ - ٤٠) ، فكان عهده ولايته اطول العهود في تاريخ المماليك . واستمر المغول في زحفهم المظفر ، واجتاحتوا شمال سوريا ناشرين الوبيل والحراب التي توجهوا . وفي اوائل سنة ١٣٠٠ احتلوا دمشق . وقد صمدت قلعتها لكن اقساماً كبيرة من المدينة ، بينما حي الصالحة ، أُحْيِلَ الى خراب تام . وهنا اضطرّ غازان للعودة الى فارس بداعي ثورة نشبت فيها ، لكن جيشه استمرّ في زحفه جنوباً حتى بلغ غزة . وهنا انزعج الجيش المصري المبادرة ، وردة التازين على انعقاهم ، واتزلّ بهم سنة ١٣٠٣ شرهزيمة وذلك في ميدان الحرب التاريخي : مرج الصفر^٢ ، جنوباً من دمشق . وكان ابو الفداء^٣ في مدينة حماة عن الجيش المصري على المغول ، يرقب حركاتهم ويرسل التقارير عن تحركاتهم . فأعاد الله صديقه الناصر ، في ما بعد ، امارة اسرته التقليدية على حماة . وهكذا فشلت ثالث تحالفات المغول لاضماع سوريا ، وعكلن المماليك من قهر اخطر وأشد عدوًّا واجهته مصر منذ ظهور الاسلام .

ولقد اورث الفتح المغولي الاقليات من الكوارث نظير ما اورثتها حملات الصليبيين^٤. فدروز لبنان الذين ارسلوا ١٢ الف مقاتل لطاردة الجيش المصري، بينما كان يتراجع امام المغول سنة ١٣٠٠، قد حوسبوا على ذلك حسابة صارماً. والارمن عاينوا الناصر يعمل في بلادهم الحراب، براراً وتكراراً، في سنة ١٣٠٢ وما بعد. وكذلك النصارى واليهود من رعایاه، فقد قاسوا الامر^٥.

المالك الورقة

تولى الحكم بعد الناصر في مدة اثنتين واربعين سنة (١٣٤٠ - ١٣٨٢) اثنا عشر سلطاناً من سلالته ، لم يتميز احد منهم بأي لون من الوان النشاط . وكان

١٧٤ ص ، صالح)

٢) راجم ص ٩ من هذا الجزء.

^{٣٣}) الحمد الرايم، ص ٥٠؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٤٨ - ٤٩.

٥) راجم ص ٢٥٩ من هذا الجزء.

آخرهم الصالح حاجي (١٣٨١ - ٩٠، ١٣٨٩ - ٨٢)، وكان طفلاً ضعيفاً، فقد تولى السلطة زمناً، ثم انتزعها منه كردي هو يرقوق. وبر فوق هذا انشأ سلسلة جديدة من الملاليك عرفت بالبرجية (١٤١٧ - ١٣٨٢)، نسبة إلى نزوح القلعة في القاهرة، حيث أقاموا أولاً بوصفهم عباداً. وقد كان جميع الملاليك البرجية أكراداً إلا اثنين منهم كانوا يونانيين. وقد رفضوا باشد مما رفضوا أسلافهم الملاليك البحريه مبدأ الوراثة في الولاية. فقد كانوا يجمعونهم ثلاثة وعشرين ملوكاً، لكن أربعة عشر منهم لم يكونوا ذوي خطر. وقد تولى ثلاثة منهم على الحكم في سنة واحدة هي السنة الـ ١٤٢١، وقلّ منهم من مات ميتة وبه. وكان اطوطهم عهداً فائتياً (١٤٦٨ - ٩٥)، وكان عهدهم، من بعض الوجوه، أذهب عهودهم.

(١) المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٤١

(٢) جدول الملاليك البرجية :

١) الظاهر سيف الدين يرقوق.	١٣٨٢
(استأثر بالحكم دونه حاجي البحري ٩٠-١٣٨٩)	
٢) الناصر ناصر الدين فرج	١٣٩٨
٣) المنصور عز الدين عبد العزيز	١٤٠٥
٤) ثم الناصر فرج ثانية	١٤٠٦
٥) الخليفة العادل المستعين	١٤١٢
٦) المؤيد شيخ	١٤١٢
٧) المظفر احمد	١٤٢١
٨) الظاهر سيف الدين ططر	١٤٢١
٩) الصالح ناصر الدين محمد	١٤٢١
١٠) الاشرف سيف الدين برسبي	١٤٢٢
١١) العزيز جمال الدين يوسف	١٤٣٨
١٢) الظاهر سيف الدين جعفر	١٤٣٨
١٣) المنصور فخر الدين عثمان	١٤٥٣
١٤) الاشرف سيف الدين ايصال	١٤٥٣
١٥) المؤيد شهاب الدين احمد	١٤٦٠
١٦) الظاهر سيف الدين خشقدم	١٤٦١
١٧) الظاهر قانصوه	١٤٦٧
١٨) الاشرف سيف الدين فاتيسي	١٤٦٨
١٩) الناصر محمد	١٤٩٥
٢٠) الظاهر قانصوه	١٤٩٨
٢١) الاشرف جان بلاط	١٤٩٩
٢٢) الاشرف قانصوه التوري	١٥٠٠
٢٣) الاشرف طومان باي	١٥١٦-١٧

على ان الوضع الجديد لم يكن خيراً من القديم . فقد استمر الفساد والدنس والاغتيال والشغب في نشاط ؛ فكان عدد من السلاطين عاجزين وخونة ؛ وكانت بعضهم فاسدين بل ساقطين ؛ وكان اكثراهم غير مثقفين . وقد ادعى واحد منهم فقط ، هو برقوق ، بأنه تحدى من والد مسلم^١ . اما برباوي (١٤٢٢ - ٣٨) ، وكان اولاً عبداً من عبيد برقوق ، فلم يكن يحسن العربية^٢ ؛ ولم يتخرج من ان يصدر امراً بان يقطع رأس كلٍّ من طبيئته لأنها اخفاقي في شفائه من علة قاتلة . وكان عبد آخر لبرقوق اسمه اينال (١٤٥٣ - ٦٠) لا يحسن توقيع اسمه على الوثائق الرسمية ، الا اذا رسخه فوق كتابة امين سره ، على ما ذكر معاصره ابن تغري بردي^٣ . وقد عاد نظام تسری العلمان الى مثل ما كان عليه من الشیوع في ایام العباسین ، واتهم عدداً من المایلک ، او لهم بیرس^٤ ، باللواثط . ولم يكن السلاطین وحدهم فاسدين ، بل ان الامراء ايضاً ، وسائر من في الحكم ، كانوا على جانب من الفساد . ولم يستطع اقدر الموظفين ان يستمروا في وظائفهم اكثراً من ثلاث سنوات ، الا في ما قل وندر . وقد عيّن احد القضاة وعزل عشر مرات .

الادارة في سوريا

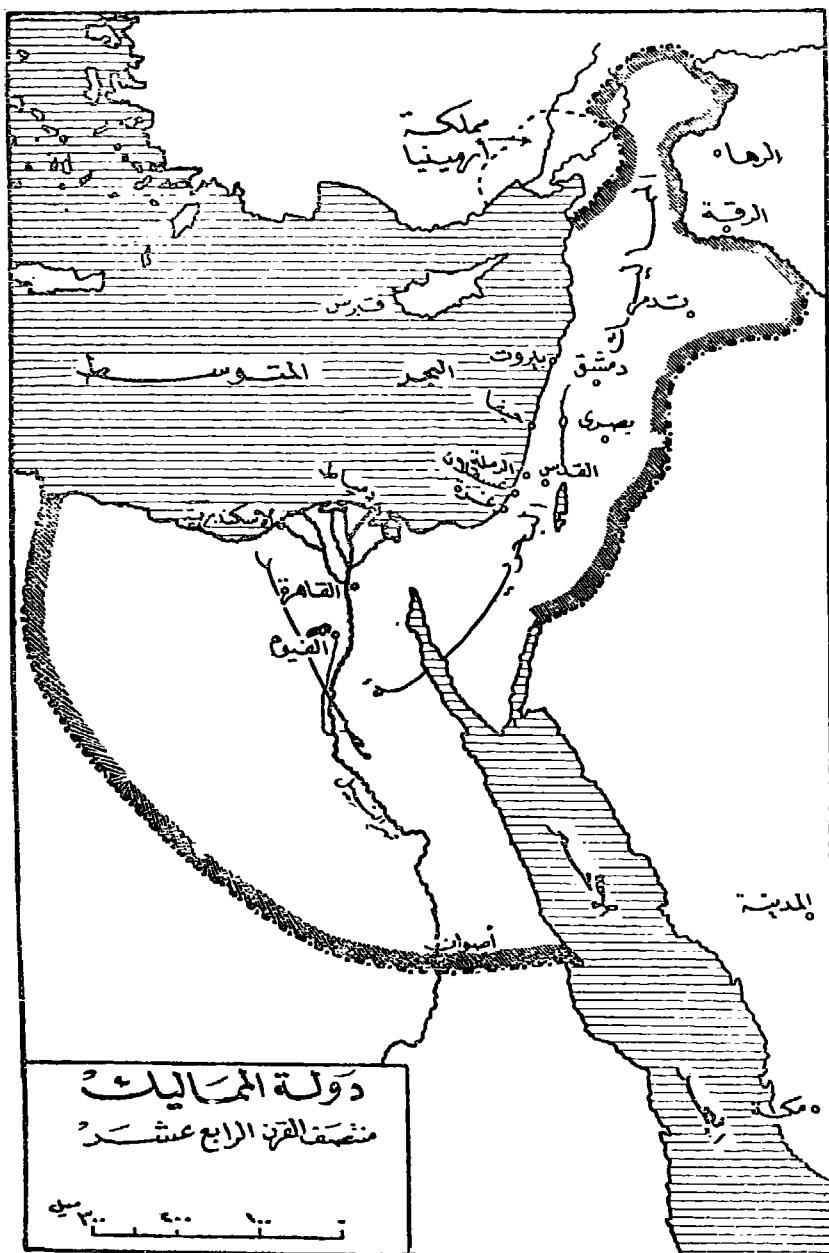
ومع ان حکومة المایلک كانت غریبة الوضع ، فان ادارتهم لم تكن الا امتداداً للنظام الفاطمی العباسی . فقد كانت سوريا مقسمة الى بضعة اقالیم عرفت «بالنیابات» ، وذلك تبعاً للتقسیم العام الذي اعتمد في عهد الایوبین ، وهي نیابة حلب ، وحماء ، ودمشق ، وطرابلس ، وصعد ، والکڑاء . وحكام هذه النیابات — وهم من مالیک السلاطین — كانوا يختارون عادة من ارباب السيف^٥ ، تیيزاً لهم عن اهل القلم المتصفین بالعلم . وكانوا بوجه العموم مستقلین الواحد عن الآخر ، وكان لكل حاکم قصر هو صورة مصغرۃ عن بلاط القاهرة . وكانت الخصومات والفتن في العاصمة الاقطاعیة كثیراً ما تمثل في قواعد النیابات . وكان انتقال الحکم من

١) السيوطی ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

٢) لم يكن هذا الوضع فریداً في تاريخ المایلک ؛ راجع الاسحاقی ، اخبار الاول في من تصرف في مصر من الدول (القاهرة ، ١٢٩٦) ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

٣) المجلد السابع ، ص ٥٥٩ .

٤) الفلكشندی ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .



أخذ سلاطين المماليك إلى آخر ، في دمشق وسواها من الأقاليم^١ ، يدعون إلى اثارة الفتنة . أما غربي لبنان ، فكان قد اقطع إلى زعماء من أهل البحترىين من بنى تتوخ^٢ .

ولما كانت دمشق ذات ابجاد قديمة ، وقد اختارها بيبرس – منظم سلطة المماليك – مقرًا لها ، فقد حار لها بذلك الفضل على سائر الأقاليم الأخرى . وقد عينت تنعيز (١٣١٢ - ٣٩) ، أحد حكامها ، نائبًا للسلطان على سوريا ، وذلك في غضون العهد الثالث من ولاية الناصر . وكان أقليمه هذا ، أي « مملكة دمشق »^٣ ، يشتمل على فلسطين – باستثناء منطقتين صغيرتين هما صفد والكرك – ويعتد شمالاً إلى بيروت ومحص وتدمير . وتنعيز هذا جوّ المياه إلى مدينة القدس ، ورغم برج بيروت ، وبني فيها الحانات والحمامات العامة^٤ . وبعد ولاية تنعيز بطول الأمد ، وكثرة أعمال الاحسان ، ارتكب أمرأ شائناً قتيل في سجن من سجون الاسكندرية^٥ .

المجوع والطاعون

تخلل عهد المماليك بجمله فترات من الجدب والمجاعة والوباء ؛ ووقدت فيه زلزال زادت في أسباب الحراب ؛ وقد حفلت صفحات تاريخه بأخبار الوباءات والكتوارث^٦ . فالقريري^٧ ، وهو زعيم مؤرخي هذا العصر ، يخصص كتاباً بكتابه لوصف الجماعات التي وقعت في مصر سنة ١٤٠٥ ، وهي السنة التي وضع مؤلفه فيها . ويتحدث ابن تغري بردي^٨ عن أربعة أوئل ، شديدة الرطوبة ، اجتاحت مصر في

١) للاستزادة عن حكومة سورية راجع : Gaudefroy-Demembynes, pp. xix seq., 29, seq.; Walther Bjorkman, *Beitrage zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten* (Hamburg, 1928), pp. 101 seq., 157 seq. في تاريخ المماليك البحري (القاهرة، ١٩٤٤) ص ٢٤٨ - ٥٣ .
٢) صالح، ٨١ وما بعد .

٣) العربي ، ص ١٧٦ ؛ قابل: الظاهري ، ص ١٣١ .

٤) ابن بطوطة ، ج ١، ص ١٢١ ؛ صالح ، ص ١٥٥ - ٥٦ .

٥) ابن إيس ، بدائع الزهور في تاريخ الدهور ، ج ١ ، (القاهرة ١٨٩٣) ، ص ١٧٢ ؛ القريري ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

٦) صالح ، ص ١٤٤ ، ص ٢٤٢ ؛ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٤٢ ، ١٧٦ ، ٤٢ ، ابن تغري بردي ، ج ٧ ، ص ٥٢٨ - ٤٢ ؛ حواتن الدهور في مدى الأيام والشهور ، نشر وللم يوبر (بركل ، ١٩٤٢)، ص ١١ ، ١٢ ، ٢١٢ ، ٣١٩ . أما في ما يتصل بالإيوبيين فتبني مراجعة القريري : السلاوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٣ - ١٣٠ ، ١٥٦ - ٥٨ ، ٢٤٨ .

٧) إغاثة الأمة بكشف الغمة نشر محمد زيادة وجال الدين شلال (القاهرة ، ١٩٤٠) .

٨) الجبل الخامس ، ص ٧٦ - ٧٠ ، ٤٠٨ ، ١٨٥ ، ١٥٤ ، ٥٠٧ .

غضون القرن الرابع عشر (١٣٤٨ - ١٣٥٩، ٦١ - ١٣٦٢، ٦٣). وفي مختلف المدونات التاريخية ذكر لما لا يقل عن اربع عشرة فتنة خطيرة وقعت في خلال القرن الخامس عشر، اي بمعدل واحدة كل سبع سنوات. اما «الموت الاسود» او «الفداء الكبير» الذي اجتاح اوروبا بين سنة ١٣٤٨ و ١٣٤٩، وفتك باهلها فتكاً ذريعاً، فقد استطال في مصر سبع سنوات، وبلغ عدد ضحاياه في العاصمه، على ما قدر ابن ايس^١، رقماً يصعب تصديقه هو ٩٠٠ الف. وفي الاخبار ان غزوة فقدت ٢٢ الفاً في شهر واحد، وكان معدل خسارة حلب خمس مئة ضحية في اليوم الواحد. وكان عدد كبير من هؤلاء الضحايا من الاغرباء، ومن الاولاد الذين لم يكن عندهم مقدار كافٍ من المناعة. وكان من هذه الكوارث ومن سوء ادارة الملك، ان هبط عدد السكان في مصر وسوريا الى نحو الثلث مما كان عليه سابقاً.

التجارة والصناعة

و بما زاد الوضع الاقتصادي سوءاً الضرائب الفادحة والسياسات التي قامت على اسس فاسدة، ان لم نقل استغلالية تفعية. فالجروب ضد الافرنج والمغول دعت الى فرض الضرائب الفادحة في مصر وسوريا، منها فرض $\frac{1}{3}$ / ٣٣ بالمائة على قيمة اليمار، فكان ذلك باعثاً على سيل من الاحتتجاجات لانهائه. ولم تكن هذه الرسوم الثقيلة على الخيل والقوارب فحسب، بل على ضروريات الحياة ايضاً نظير الملح والسكر. وقد احتكر بعض السلاطين سلعاً معينة، وتلاعبوا بأسعارها تبعاً لمصلحتهم الخاصة. وعند سوام الى تخفيض قيمة النقد بحيث ادى الى احداث تضخم لولي^٢. وكانت كلما ازدادت حالة الشعب فاقه، نمت ثروات الحكم وانتفتحت جيوبهم. ولو لا تجمع الاموال الكثيرة لما تمكن السلاطين من اقامة تلك المبنية المتديسة النخمة التي لا زوال مصر تفخر بها بمحق^٣.

على ان ازدياد النشاط التجاري، الذي عقب المشاريع الصليبية عوّض، لحسن الطالع، عن بعض التأثر الاقتصادي. فان الامتيازات التي اولاهـا العادل^٤

١) المجلد الاول، ص ١٩١ ؛ قاليل : ابن تقری بردي ، ج ٥ ، من ٧١ .

٢) القریزی ، الاغاثة ، ص ٧٠ - ٧٢ ؛ ابن تقری بردي ، المواثث ، ص ٢١٠ - ١٢ .

٣) انظر من ٢٨٦ من هذا الجزء .

٤) راجع من ٢٤٢ من هذا الجزء .

وبيرس ، لتجار البندقية وسواهم من تجار اوربا ، نشطت تبادل السلع ، وجعلت من القاهرة مستودعاً تجاريًّا هاماً ما بين الشرق والغرب . فالحرير السوري شارك العطور والتواابل في احتلال المراكز الاولى في حركة التصدير . وجاء بعده في جدول الصادرات الزجاج ، والادوات المصنوعة^١ . وكانت دمشق وطرابلس وانطاكيه وصور في طليعة المراكز الصناعية الكبرى . وكان بعض الحرير في اسواق سوريا مستورداً من الصين . وكانت التوابيل ترد من الجزيرة العربية وسواها من البلاد الاستوائية . وكانت الالائء تجلب من خليج العجم الى مرفاي يافا وطرابلس^٢ . وعندما ارسل احد حكام دمشق دمشق علاءه الى ناحية الشوف في لبنان ليدرس امكانية صنع النبال من اغصان شجر التوت ، اضطرب اللبنانيون اضطراباً شديداً^٣ . وكان باستطاعة الشاري ان يتبع من اسواق حلب ودمشق وبيروت مصنوعات العاج والحديد ، والنسيج المصبوغ ، والسجاد والخزف المطلبي بالمتناه . وكانت ضواحي بيروت تنتج الزيت والزيتون والصابون^٤ ، شأنها اليوم . ولا تزال احواض صناعة الملحق ترى في عثيث ، وفي مواضع اخرى على طول الشاطئ^٥ .

على ان السوريين لم يعتمدوا على الاجرام اعتماداً كليًّا في حركة التصدير فان تجارهم كانوا من عهد صلاح الدين قد انشروا الانفسهم قواعد في القسطنطينية ، حيث كان الامبراطور – نزولاً على رغبة صلاح الدين – قد بنى مسجداً لهم ولزمائهم المصريين^٦ ؛ وذلك في مقابل الامتيازات التي نعم بها تجار الروم في سوريا ومصر . ولم يكن يسمح لسواهم من التجار الاجرام بالاقامة الدائمة في عاصمة الروم . وقد قام قسيس الماني اسمه لودوف فون سوخم بزيارة الى الاراضي المقدسة^٧ ، ما بين سنة ١٣٣٦ و ١٣٤١ ، فرافقه ما شاهد من دلائل الرخاء في دمشق^٨ ، وفي «مدينة عكا الجيدة» ، وسواها من مدن سوريا فقال واصفاً عكا:

E. Rey, *Les Colonies franques de Syrie* (Paris, 1883), pp. 204, 214-34. (١) راجع.

Hilmar C. Krueger, «The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century», *Speculum*, vol. xii (1937), pp. 64, 71. (٢)

(٣) صالح، ص ٢٢٥ .

(٤) صالح، ص ٢٢٩ .

(٥) Conder, p. 451 .

(٦) ص ٣٢-١٢٩ .

كانت الشوارع داخل المدينة [عا] نظيفة للغاية ، فجدران البيوت جميعها ذات ارتفاع واحد ، وهي مبنية بالحجر المنحوت . وقد ازدانت بالتوافذ الزجاجية والرسوم الملونة . وكذلك سائر قصور المدينة وبيوتها ، فأنها لم تبن لتكون مجرد مأوى لاصحاحها ، بل لتتوفر لهم اسباب الراحة والتنفس . وكانت طرق المدينة مظللة بالمرير النسوج ، ويسواه من خروب السقائف المظللة الجميلة ، دفناً لأشعة الشمس . وكان يقوم عند كل منعطف برج حصين للنارية ، مسيح بباب حديدي وسلام من حديد . وكان جمع الاشراف يقيمون في قلاع حصينة وقصور متعددة تفتدى على طول حدود المدينة الخارجية . أما العمال والتجار فقد اقام كل منهم في السوق الخاص بنوع عمله .^١

وزار ابن جبير^٢ دمشق في عهد صلاح الدين ، ومحكم فيها فترة من الزمان ، ولقبها «بعروس المدن» . ووصف مطولاً ساعة كانت تقوم في باحة مسجدها يشير فيها الى مرور الوقت نهاراً نسراً من النحاس ، وليلًا جهاز خاص من الانوار . وقد ذكر هذه الساعة بالذات بنديامن التوردي^٣ .

في لبنان

ولقد عمد زعماء لبنان الاقطاعيون الى مزاولة الفن السياسي المكيافيلى ببراعة فائقة ، قبل ظهور ساستة البندقية بزمن طويل . فلعلعوا عبتهم هذه في غضون الفلاقل التي ادت الى قيام الفاطميين والابوبيين والافرنج والماليك والتر اسياداً عليهم . وعندما احتل الصليبيون بيروت وصدا ، استولى امراء الغرب من بني محتر على بعض الاراضي المجاورة واتبعوها في قطاعاتهم ، وقدموا خدمات عسكرية للافرنج^٤ . ولم يتزدروا مع ذلك في انشاء علاقات مماثلة مع الماليك^٥ . وكان بين اقطاعات البحترين قرى صغيرة نظير شلان وعيناب وبصور ، لم يسبق لها ذكر في التاريخ ، وهي معروفة الى اليوم^٦ . وفي غضون النزاع الذي نشب بين التتر والماليك ، كان

١) Ludolph von Suchem, p. 51

٢) ص ٢٦٠ ، ٢٧٠ - ٧١ .

٣) المجلد الاول، ص ٨٤ - ٨٥ .

٤) صالح، ص ٧٤ - ٧٥ ، ٨٣ - ٨٤ ، ١١١ - ١١٢؛ راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

٥) صالح، ص ٨١ .

٦) صالح، ص ٨١ ، ١٢٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ - ٢٣٤ ، ٣٥ - ٢٧٥ - ٢٧٦ من هذا الجزء .

هؤلاء الامراء احياناً يمثلون في الجبهتين - وهو موقف يضمن لهم ان يكونوا في الجانب الفائز ، ايّاً كان هذا الجانب^١ . وهكذا فان سياسة الانتظار والحسن والمداهنة ، التي زاوياها ابناء هذه السواحل في القرن الرابع عشر قبل الميلاد^٢ ، استمرروا عليها حتى عهد فخر الدين والامير بشير^٣ .

وكان عدد من القبائل العربية قد اوغل في هذا الجبل لا سيما من الجنوب^٤ . ومع ذلك فقد بقيت منه غابات كثيرة . وكان المسافر ، حتى اواخر القرن الرابع عشر ، يصادف فيها الدببة والاسود والخفافيز البرية والمر الوحشية^٥ . وكان في سوريا ايضاً مثل هذه الوحوش كما يشهد بذلك اسامه^٦ . وقد ذكر منها المر والقرزان والاسود والخفافيز والضباع والتمور . ونظراً لكثرتها الفواكه البرية والقول الصالحة للطعام وغذارة المياه العذبة ، غدا ملحاً مستجباً لرهبان النصارى ومتصوفة المسلمين . وقد خصص احد المؤرخين في اواخر القرن الثاني عشر^٧ فصولاً طوالاً ل الكلام عن مثل هؤلاء الرجال والنساء في جبال لبنان وسوريا . وهذا ابن جبير^٨ ، يشير اشاره مفعمة بالسرور والاستغراب ، الى العطيف الذي يبديه السكان

١) صالح ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ قابل ٢٤٧ - ٤٨ .

٢) راجع من ٧٦ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

٣) انظر الفصل التالي « وضع لبنان الحاص » .

٤) راجع من ٩٤ - ٩٥ من هذا الجزء ؛ ١٤-٨ pp . Lammens ، *Syrie* ، vol. ii. دعي العرب الذين حلووا في سوريا ومصر في ادب العصر بـ «أولاد العرب» (ابن تفري بردي ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ ، س ١٠ ؛ راجع من ١٧٢ من هذا الجزء) : اما لفظة «العرب» فقد استخدم بصورة خاصة للإشارة الى البدو (ابن تفري بردي ، المواريث ص ١٣ ، س ٣ ، من ٤٧ ، س ١٥ ، من ١٩٣ ، س ٢١) ، هذا مع ان اللفظة القرآنية «عربان» لم تكن قد هجرت قاماً (ابن تفري بردي ، المواريث ، من ١٢ س ٢٠ ، س ١٩٠ ، من ٦٩٢ ، س ١٥ ؛ وكذلك ، ج ٦ ، من ٧٤٩ ، س ٩ ، من ١٧ ، س ٣٠ ؛ ابن الفرات ، ج ٧ ، من ١٧٨ ، س ١١ ؛ الفلكشندی ج ١٣ ، من ٥ ، ج ٩ ، من ٢٥٤ ؛ الظاهري ، من ١٣٦ .

٥) صالح ، ص ١١٣ ، ١٩٣ ؛ ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

٦) الاعتبار ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٠ ، ٢١٨ ، ٢١٨ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ، ٤٥ - ٤٤ ، ١٢٦ ، ١٢٦ ، ١٠٣ - ١٠٣ ، ١٢ - ١٢ .

٧) ابن الجوزي . صفة الصفة ، ج ٦ (حيدر اباد ، ١٣٥٦) ص ٣١٤ - ٣١٤ ، ٢١ - ٢٢٣ ، ٢٢٣ .

٨) صالح ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ من هذا الجزء .

٩) من ٢٨٧ .

النصارى الى هؤلاء النساء . وقد حفظ لنا الادب الصوفى عدداً من القصص الاسطورية عن أمثال هؤلاء الرجال ؟ منها ان متصوفاً مسلماً لبنيانياً اضاع زاد يومه ، وهو رغيف حصل عليه من مصدر بجهول . فقد الى اقرب بيت في المزرعة المجاورة والتيس صدقة . فاعطاه الفلاح الصراحي رغيفين من الشعير . لكن الكلب جرى في اثره ، وما زال ينبع حتى انتزع منه الرغيفين وسلبه ثوبه . وعندما عجب الصوفى من فرط طمع الكلب ، اطلق الله الكلب بما مؤداه : انا أحبى بيت سيدى وماشيته وكثيراً ما أبىت على الطوى إذا لم يكن هناك من طعام له او لي ولكنك انت وقد أضعت زاد يومك اتيتنا تطلب غوثنا . أتينا أشدّ طمعاً اذا انت^١

النشاط الثقافي : العناية الطبية

ان سوريا مع كل ما قاسته من الاضطرابات السياسية والازمات الاقتصادية ، لاقت في عهد الزنكيين والصلاحين - لا سيما في زمن نور الدين وصلاح الدين - ازهى العصور من حيث النشاط الفنى والتربوي . ولا تزال المباني الهندسية في عاصمتها دمشق تشهد للنهضة العمرانية التي تحققت على يد هذين الحاكمين . فقد رمم صلاح الدين اسوار المدينة ، بما فيها من ابراج وابواب . ثم اقام مباني عامة بقى بعضها الى عهد قريب ، من اهمها المستشفى الذي يسمى باسمه^٢ . وقد تحول الآن دار مدرسة تجارية . اما نفقات بنائه فقد اخذت من فدية اداتها احد اسرى الفرنج^٣ . وقد زار ابن جبير^٤ هذا المستشفى سنة ١١٨٤ ، فوجده ذا دخلٍ يدرّ عليه يومياً خمسة عشر ديناً ، وألفى القيمين عليه يعنون بتسجيل الاصابات المرضية المنقولة اليه والاموال التي تنفق فيه ؟ ولاحظ ان الاطباء يهتمون جدياً بالمرضى ، فيعينون لهم الطعام المناسب ؟ ويعطونهم الدواء من غير مقابل . وقد عولج في هذا المستشفى المؤرخ المعروف ابن الاثير ، وعندما احتاج على مجانية المعالجة بانه ميسور ، وقد قادر على دفع ثمن الدواء ، قيل له ان احداً لم يرفض بعد نعمة نور الدين . وقد ذكر هذا

١) المكي ، ترجمة الجليل ومنية الاديب الانجليز (القاهرة ، ١٢٩٣) ، ٥٨-٥٩ .

٢) المارستان التورى ؛ ابن جبير ، ص ٢٨٣ . والمارستان «المربية» عرفة عن الاصل الفارسي بفارستان منهانه دار المرضى . فابن جبير يشير على ما يبدو الى مستشفى اقليم رجا بناه دقاقي ابن طلش السلاجقى (راجع ص ٢٠٦ من هذا الجزء) لا الوليد (راجع ص ١١٣ من هذا الجزء) .

٣) المغيري ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

٤) ص ٢٨٣ .

المؤرخ^١ ان نور الدين بنى مستشفيات اخرى وحانات عديدة في ارجاء البلاد . وقد جرى اختيار الموقع المستشفى حلب^٢ بان ذيوع شأن ، وقسم اربعة اقسام على كل منها في ناحية من نواحي المدينة الاربع . واختير الموقع الذي وجدت فيه قطعة اللحم ، في الصباح التالي ، «اجود رائحة». وقد نسب مثل هذا التدبير الى الرازى ، عند اختيار الموقع الملائم المستشفى بغداد ، قبل ذلك بنحو قرنين ونصف القرن^٣ . وفي الاخبار ان الموظف المصري والمؤلف المعروف الظاهري^٤ زار مستشفى دمشق حوالي سنة ١٤٢٨ ، وكان برفقته حاج فارسي طريف ، ادهشه ما اتيح للمرضى من اسباب الراحة ، فظهوره بالمرض ، وقبل حالاً في عداد المرضى . لكن رئيس الاطباء ، لدى جس نبضه ، وبعد فحصه فحصاً مدققاً ، وجد انه سليم معافى^٥ ! ومع ذلك فقد وصف له الدجاج المسمن ، والاشربة الزكية ، والفواكه النهية ، واقراص الحلوى ، وغير ذلك من الاطبیب . وعندما حل الوقت كتب له وصفة اخرى هي : «ان حد الصفاقة ثلاثة ايام» .

الطبابة

كان هذا المستشفى بجهزاً فوق ذلك بكتبة ، فكان في الوقت نفسه معهداً لدرس الطب . وقد حفظ لنا ابن ابي اصيبيعة^٦ اسم استاذ الطب الاول في هذه المؤسسة ، وهو ابو الحجج بن ابي الحكم ، وترجمة طويلة لحياة عميدها الممتاز ، في عهد العادل الايوبي ، وهو مهذب الدين بن الدخوار (١١٧٠/١١٦٩ - ١٢٣٠) . وهنالك بينيات تشهد على ان الطبيب والصيدلي والكحالى ، كانوا يخضعون لنظام امتحان ، لينالوا اجازة عمل قبل ان يسمح لهم بممارسة حرفةهم . وفي الدليل الذي يترشد به المحتسب – وهو الموظف الموكل بتطبيق القوانين – نص واضح يعين واجبات المحتسب نحو الفضادين والمخجفين والاطباء والجراريين والمجبرين والصادلة . وهو يشير الى مدى صلاحية السلطة في مراقبة هذه الاعمال^٧ . وكان بين تلامذة ابن

(١) المجلد الحادى عشر ، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن الشعنة ، ص ٢٣٠ - ٣١ ؛ للاستزادة عن هذا المستشفى راجع : احمد عيسى *Histoire des bimaristans à l'époque islamique* (Cairo, 1928) , pp. 203-5.

(٣) ابن ابي اصيبيعة ، ج ١ ، ص ٣٠٩ - ١٠ .

(٤) ص ٤٤ - ٤٥ .

(٥) المجلد الثاني ، ص ١٥٥ ، ٢٣٩ - ٤٣ .

(٦) ابن الاخوه ، معلم القرى في احكام الحسبة ، نشر روبن لتشي (كامبردج، ١٩٣٨) ، ص ١٥٩ - ١٧٠ .

الدخول الرجاء ابن النفيس^١ الطبيب الذي تولى ادارة مستشفى قلاوون^٢ في القاهرة، ثم تحول الى دمشق وفيها توفي سنة ١٢٨٨/٨٩ وقد عرف عنه انه كان لا يصف دواء متى كان الغذاء وافياً بالغرض. وقد اورد ابن النفيس، في كتابه «شرح تشريح القانون» الذي شرح فيه قانون ابن سينا، رأياً له في دوران الدم في الرئة، وذلك قبل سرفتوس الاسباني الذي يقرن هذا الاكتشاف باسمه، بثلاثة قرون. وكان اهم ما ظهر من المؤلفات في طب العيون في القرن الثالث عشر كتابان لکحالين سوريين اولهما «الكاف في الكحل» خليفة بن ابي الحسان، الذي زها في حلب حوالي سنة ١٢٥٦، والثاني «نور العيون وجامع الفنون» لصلاح الدين بن يوسف، الذي مارس التطبيب في حماة حوالي سنة ١٢٩٦. وقد كان خليفة بن ابي الحسان هذا من الثقة بمحضه الجراحي بحيث لم يتزدد في ازالة الماء الازرق لمريض كان ذا عين واحدة^٣. على ان هؤلاء جميعاً قد عاشوا في الفسق المتأخر من محمد العلوم الاسلامية.

وفي هذا العصر ظهر ابرز من انجي THEM دنيا العرب من مؤرخي الطب، وهو موفق الدين احمد بن ابي اصيحة (١٢٠٣ - ٧٠). وقد كان هو نفسه طبيباً، وابن كحال شامي. حصل الطب على ابن ابي دخوار في القاهرة. ولاذم ابن البيطار، العالم الاسباني المسلم الشهير، في ابحاثه البارزة. وهذا كتابه الرائع «عيون الانباء في طبقات الاطباء»^٤ منقطع النظير في اثار العرب، وهو موسوعة مقتنة تضم نحوه من اربع مئة من سير الاطباء العرب واليونان، قل منهم من لم يكن الى طبه، فلسفوفاً او فلكياً او طبيعياً او رياضياً. وكان اقرب المؤلفات اليه كتاب لعاصر له مصري هو القسطي (١١٧٢ - ١٢٤٨)^٥. والقططي هذا قضى الشطر الثاني من حياته في حلب، حيث تقلد الوزارة حكامها الابيبيون. وكان من اعتمدهم

١) السبكي، ج ٥ ص ١٢٩.

٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

٣) راجع سارطن ٢-١١٠١، pp. ١١٠١-٢ Sarton, vol. ii,

٤) نشره اولاً «امرو النيس ابن الطحان» [اوغست مول August Müller] في مجلدين (القاهرة، ١٨٨٢)، ثم طبع ثانية مع صفحات اضافية وتصحيحات وفهرس بعنوان اوغست مول في مجلدين (كونيسبرغ، ١٨٨٤).

٥) اخبار العلامة باخبار الحكمة (تاريخ الحكمة) نشر جوليوس ليدت (ليتنغ، ١٩٠٣).

ابن أبي اصيبيعة^١ في تحصيل فلسفة اليونان عالم مصرى من اصل شامي هو ابو الوفاء مبشر بن فاتك^٢. وكان في سنة ١٠٣٥ قد ألف كتاباً سماه «ختار الحكم ومحاسن الكلم»، ترجم الى الاسپانية في النصف الاول من القرن الثالث عشر ثم الى اللاتينية فالفرنسية فالانكليزية. وقد كانت طبعته الانكليزية، التي اخرجها وليم كاستون سنة ١٤٧٧، اول كتاب طبع بتلك اللغة بهو رأياً بتاريخ الطبع وموضعه. وقد ظلت المؤلفات التي عذتها هذا الكتاب العربي ذات اثر في عالم الفكر والتأليف في اوربا الغربية ، اكثر من اربعة قرون.

المدارس

وأجرت المدارس والمساجد مجرى المستشفيات . فقد عمل النوريون في سوريا على انهاض نوع من المعاهد عرف بالمدرسة «هو مسجد جامعي» والمدرسة هذه لم تكن وليدة بيت الحكمة الذي انشأ المؤمن في بغداد سنة ٨٣٠ ليكون ندوة عامة للعلوم والفنون ، بل لعلها اقرب لان تكون وليدة النظامية التي تأسست في بغداد سنة ١٠٦٧ واتخذت اسمها من الوزير الفارسي . نظام الملك الذي استوزره سلاطين السلجقة الاولون . كانت هذه المدارس معاهد مسجدية ، وحلقات فقهية ، وجماع شرعية . انشأتها الدولة من اجل ان تثبت مذهب اصل السنة وتعمل على نشره . وكانت تعنى بالتعليم التي اقرتها السنة وايدها الفقه الاسلامي درساً وتدریساً . وكان الاساتذة والطلاب يتناولون مرتباتهم من وقفيات^٣ لهذه المؤسسات ، ويقيمون في اماكن مهيئة لهم فيها . وكان المدرسون من جماعة الفقهاء والعلماء والمخذفين . ولم تكن الوظائف المدنية متاحة بحسب العرف الجاري ، لغير من طلبوا العلم في احدى هذه المدارس . واذا لم ينس النوريون وبعدم الايوبيون الفائدة التي تعود على الدولة من مثل هذه المدارس ، عمدوا الى الانتفاع بها قدر المستطاع ؛ فبني نور الدين مثل هذه المدارس ، ليس في دمشق وحدها ، بل وفي حلب وحمص وحماة وسواها من المدن السورية^٤ . وفي دمشق اليوم ثلاث من مدارسه هي اقدم ما بقي

١) الجلد الاول ، من ٩١٦، ٩٢١، ٩٢٨، ٩٣٠، ٩٣٨، ٩٤١، ٩٤٣، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٥٠ .

٢) ياتوت ، ارشاد الارب ، ج ٦ ، من ٢٤١ ؛ القلطني ، من ٢٦٩ .

٣) راجع من ٨٨ من هذا الميزه .

٤) ابن خلكان ، ج ٢ ، من ٥٢١ ؛ ابن الائير ، ج ١١ ، من ٢٦٧ . للاستزادة عن المدارس في حلب راجع : J. Sauvaget, *Alep* (Paris, 1941), pp. 122-4, 148 .

من هذا النوع من المباني؟ وهي ذات شكل هندي مصلب منقول عن اهل فارسي . وقد دفن نور الدين في احدها . وهي المدرسة التورية التي قال ابن جبير^١ في وصفها انها من اجمل المباني المدرسية في العالم . وقد نقشت على الحجر كتابة بسيطة لا تزال تقرأ بسهولة هي «هذا قبر الشهيد نور الدين بن ذنكي وحده الله» وما زال الدمشقيون يكررون هذا الغرير الى اليوم . اما قبة فمن الطراز المعروف بالقرنفص^٢ . وقد اعتبره الكثيرون من الرواشع ، بينما هو على الاصح من الرفاف . وعن طريق هذا البناء توثقت الصلة بين المدرسة والتربة والمسجد في سوريا .

وكان نور الدين سخياً في بناء المساجد ، شأنه في بناء المدارس . وهوذا مسجد حماة لا يزال يحمل اسمه فيعرف بالنوري . مجهز بالماء الجاري ، كما كانت سائر المساجد الكبرى والمستشفيات والمدارس التي انشأها . وقد عمل كذلك على ترميم المساجد القديمة في عدد من المدن اخصها حلب حيث جدد بناء القلعة الشهيرة . ولا تزال نقوشه ظاهرة على الجانب الغربي من برج القلعة وهذه النقوش التورية تدل نقطة تحول في علم الخطوط العربية ، اذ بها يتعين العهد الذي حل فيه الخط النسخي العادي المستدير محل الخط الكوفي الحاد الزوايا .

وقد سلك الابيبيون في النهج الذي اخترعه التوريون قبلهم ، فاستأنف العادل اخو صلاح الدين بناء مدرسة كان نور الدين قد شرع ببنائها قبله ، فدفن فيها ، وهي المعروفة اليوم بالعادلية . والتي يشغلها في الوقت الحاضر الجامع العلمي العربي في دمشق^٣ .

وكان صلاح الدين منافساً لنور الدين في رعاية المشاريع الانشائية والتعليمية . فقد عرف معاصره ابن جبير^٤ في دمشق عشرين مدرسة ، ومئتان حمام عمومي ، واربعين داراً للوضوء ، وعدداً كبيراً من تكالياً الدراويش^٥ ، جلها مجهز بالماء الجاري . وصلاح

١) ص ٢٨٤ . راجع التعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسني (دمشق ، ١٩٤٨) ، ص ٦٠٦ - ٧ .

٢) الكلمة تحرير للفظة يونانية الاصل؛ انظر Herzfeld in *Ars Islamica* , vol. ix (1942) , p. 11.

٣) التعيمي ، ص ٣٥٩ .

٤) ص ٢٨٣ ، ٢٨٨ .

٥) يعرف واحدها بالخانقاه ، واللفظة فارسية .

الدين هو الذي ادخل تكية الدراوיש ونظام المدرسة الى مصر ؟ وكان غرضه من انشاء نظام المدرسة فيها محاربة التعليم الشيعي^١. ثم بني في مدينة القدس مستشفي ومدرسة وتكية نسب كل منها اليه وعرف باسمه^٢.

المندسة المعاشرة وفن الزخرفة في عهد المماليك

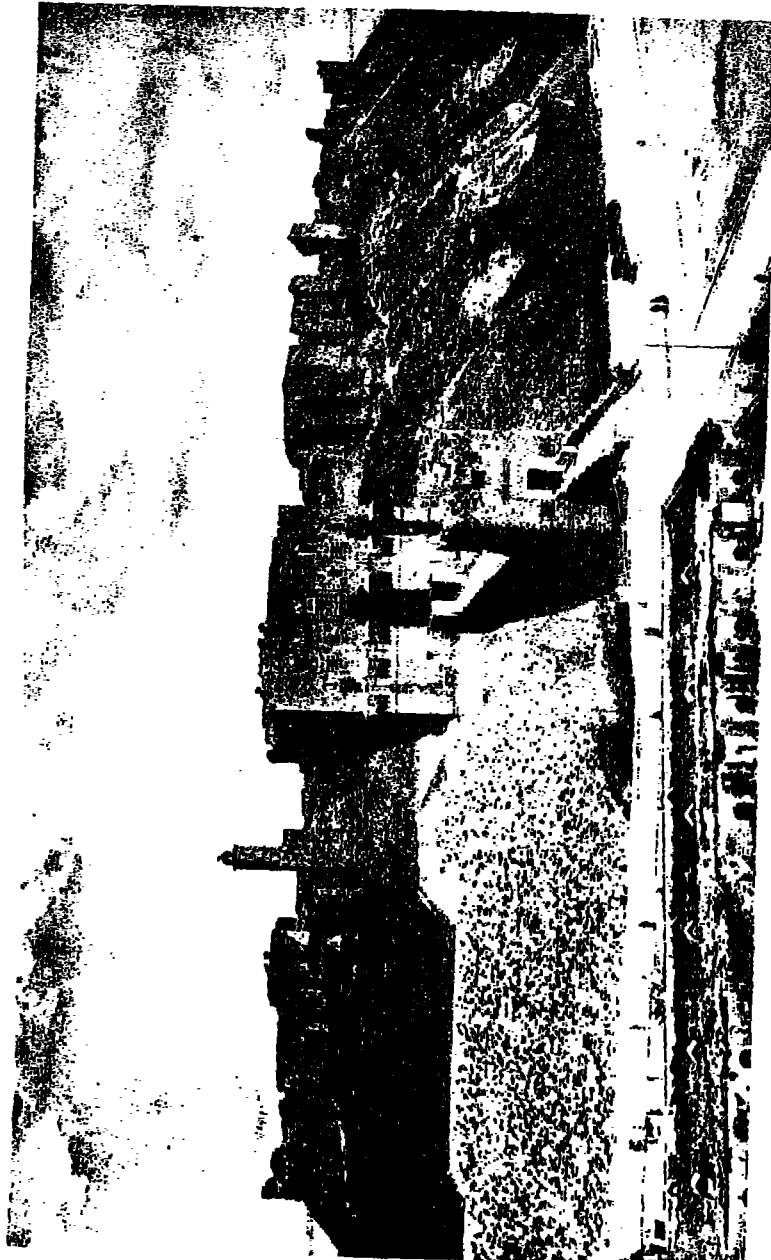
ولقد اتىع المماليك في مصر الطراز الايوبي السوري في المندسة المعاشرة . ويتمثل هذا الطراز في مصر اليوم في عدد من اروع المباني التي اخرجها الفن العربي على الاطلاق . وتميز هذه المدرسة المعاشرة بقوّة البناء ومتانته ، ووفرة الزخارف فيه . وتبدو الرسوم الزخرفية التي يزدان بها بالغة الاناقة ، راسخة في الحجر الصد الناعم الذي نقشت فيه . وفي القرن الثالث عشر استقبلت مصر مؤثرات جديدة سوريّة عراقية ، وذلك على يد الفنانين من ارباب الصناعة الذين جلأوا اليها من دمشق وبغداد والموصل ، فارين من وجه الغارات المغولية . وهي ظاهرة في مباني المدارس والمساجد والمستشفيات والقصور وتلكايا الدراوיש . فقصر « الابلق » المشهور الذي بناه الملوك الناصر سنة ١٣١٤ اختار له طراز احد قصور دمشق ، والزخارف التي ازدانت بها مباني الايوبيين والمماليك قد زادت في رووعتها المندسية زيادة عظيمة . وكان ما ابتدعه الايوبيون الحرص على إتقان التفاصيل ، والمزيد من الدقة في مراعاة النسبة القياسية ، والاكتفاء من الرواشح السقفية . وحصل ، إلى ذلك ، تحول عن الشكل المربع المستوي الجوانب ، الذي كان متبعاً في بناء البروج . وكذلك المآذن المتقدة ، فقد نشأت في عهد المماليك البحرية من اصول ايوبيّة . على ان اروع المآذن إنما تعود إلى العهد البرجي ، الذي بلغ فيه فن المندسة المعاشرة العربية ، كما يتجلى في المباني المسجدية ، اقصى روعته ومتنه رقيه^٣ .

وقد تحدّر البنا من العهد الايوبي المماليكي غاذج رائعة من المصنوعات الفنية

(١) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٥٢١ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨ ؛ قابل : القرزي ، ج ٢ ص ٣٦٣ .

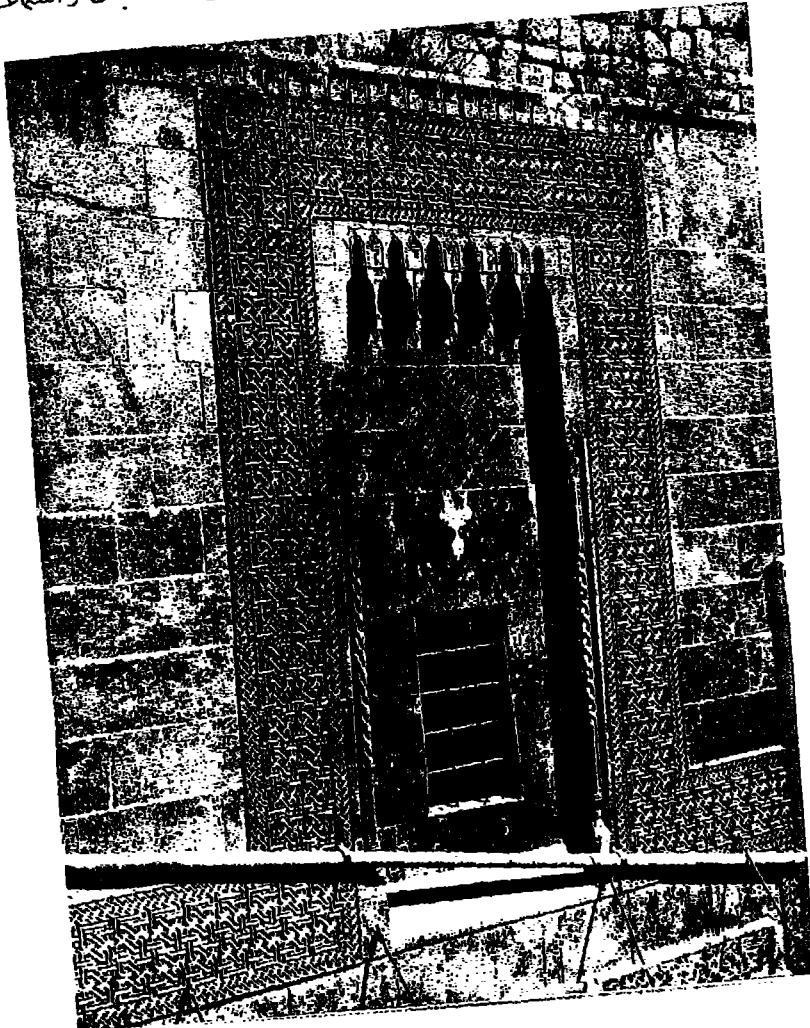
(٢) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٥١٦ ؛ القرزي ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

(٣) انظر : Réné Grousset, *the Civilizations of the East*, vol. i, *The Near and Middle East*, tr. Catherine A. Phillips (New York, 1931), p. 235; M. van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*, pt. 2, vol. i (Cairo, 1922) p. 87 seq.



قلعة حلب القديمة وقد دُمرت الدين والى يسار المدخل برج يزيد نصفي اصله المسمون وجدلوه مذلة

الميدية والأدوات النحاسية والأواني الزجاجية والمحفودات الخشبية . وما يستحق إشارة خاصة من الأدوات النحاسية ، المزهريات والباريق والأطباق والشماعات



خان الصابون في حلب - بناء أنيق من عهد الملك

والماياخ وغلافات القرآن ؟ وجميعها ذاخرة بضروب الزركشة والتزويق . قال أحد المعاصرين في وصفها :

ومع هذا الاسراف الباهر في الرسوم ، فان الزخرفة ، مع ما ينتلها من كتابة كوفية بارزة ، واوراق نباتية متلاحقة ، وأشكال قتيبة متشابكة ، وفانوج زهرية الصورة ، وزخارف عربية الطراز ، وشعائر

ترمز الى البطولة ؛ فقد احتفظت بما يوحى المزم والثقة بالنفس ، فإذا هي تدعو الى اعتباط الذهن فضلاً عن ارتياح البصر . وذلك في رأينا هو السر الكامن في فن الرخفة العربية ^١ .

اما دمشق فقد احرزت شهرة خاصة بصناعة المراكن والاطباق الذهبية ، المزينة بالزخارف الفضية ذات الاشكال الهندسية والرسوم النباتية ، وغير ذلك من الزخارف الدقيقة . وقد ذكر رحالة ايطالي ^٢ زار دمشق سنة ٨٥/١٣٨٤ « ان الوالد إذا كان جوهرياً تعدد على ابن ان يمارس حرفة أخرى ». وهكذا قفت الظروف على ابناء الحرفة ان يتقنواها إتقاناً تاماً . ثم ان الزخارف التي ترددان بها ابواب المساجد البربرية تشهد لنزول العصر الرفيع ، وكذلك الحفورات الخشبية الخالدة بالرسوم النباتية والاشكال الهندسية ، فإنها تنبئ بالتحرر من قواعد الفن الفاطمي . وفي المتحف العربي في القاهرة زجاجة عليها اسم الناصر صلاح الدين سلطان دمشق وحلب (١٢٥٠-٦٠) هي من اقدم عينات الزجاج المطلي بالمينا . وتشهد مصايف المساجد المحفوظة في هذا المتحف وفي سواه من المتاحف بات سورية ظلت الى ذلك الحين متقدمة على جميع البلدان الاوربية في فن صناعة الزجاج ^٣ .

المجهود الفكري

أما على الصعيد الفكري فإن العصر الابيوي المملوكي كان عصر تمجيع وتقليد أكثر منه عصر توليد وإبداع . ومع هذا فقد بقيت دمشق والقاهرة ، لا سيما بعد خراب بغداد وانهيار الحكم الاسلامي في اسبانيا ، المركزين المقدمين في شؤون التعليم والتفكير في العالم العربي . فقد كان من شأن المدارس التي أُسست في هاتين المدينتين ، ورصدت لها الاموال الطائلة ، ان تعمل على حفظ العلوم العربية ، والاجتهاد في بثها ونشرها .

التصوف الانساري

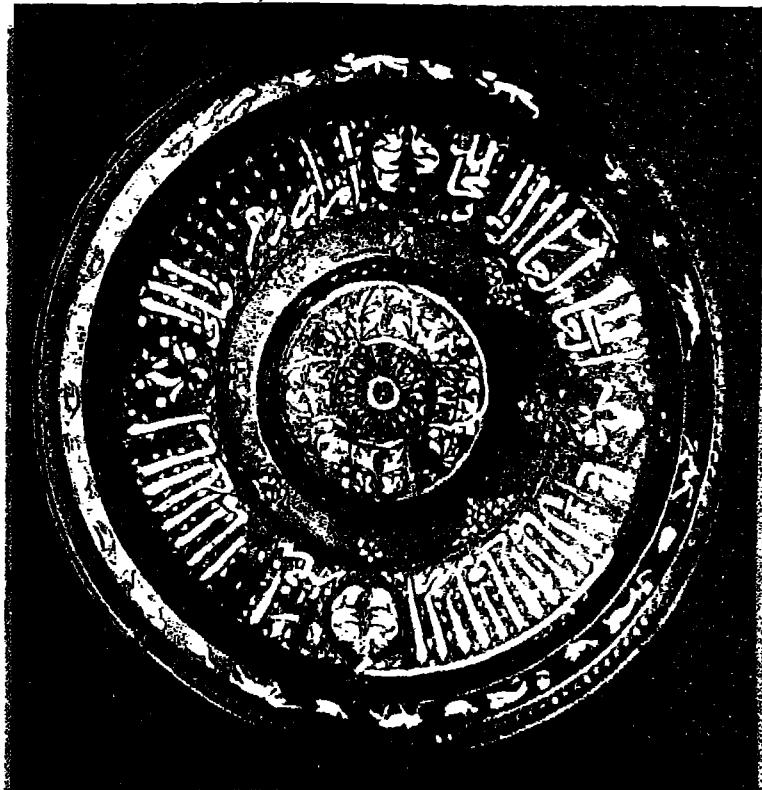
وقد ظهرت في التصوف اتجاهات جديدة هامة ؛ وكانت حلب قد غدت في عهد

(١) Grousset, p. 234

Simone Sigoli in Cesare Angelini, *Viaggi in Terrasanta* (Florence, 1941), (٢) p. 227.

(٣) انظر Sarton, vol. iii, p. 173

الملك الظاهر ابن صلاح الدين مسرحاً لنشاط أحد المتصوفين البارزين ، هو شهاب الدين السهروردي (١١٥٥ - ٩١) ، مؤسس مذهب التصوف الاشتراقي^١ ، ومنشئ إحدى



طبق من خراسان متوج بنوع آخر من المعادن وهو يمثل الفن في عهد المماليك في دمشق
في القرن الرابع عشر

طرق الدراوיש ، ويقوم هذا المذهب على ان التور جوهر الله وحقيقة الاشياء الاساسية ، وانه يمثل المعرفة الصحيحة والطهارة التامة والمحبة الحالية والخير الخالق . وبين ان هذه النظرية تضم آراء من الزرادشتية – لاسما المانوية – والافلاطونية الجديدة والتعليم الاسلامي . ويعلمون كذلك ان الاشراق إنما هو وليد التعليمين الافلوطيني والماني^٢ ، وان السهروردي نفسه ولد في فارس . وجدير بالذكر ان

١) راجع الحاجي خليفة ، ج ٣ ، ص ٨٧ وما بعد .

٢) Arthur. J. Arberry. *An Introduction to the History of Sufism*, (London, 1942), p. 32.

مبادئ الافتلاطونية الجديدة قد تسرّبت ، ولو جزئياً ، من مصادر مسيحية غلب فيها الأصل السرياني ، وان القرآن نفسه يشتمل على آيات تصف الله بأنه نور (سورة النور ، الآية ٣٥) . وقد خصص الفرزالي ، قبل السهوروبي بزمن طوبل ، رسالة كاملة هي «مشكلة الانوار» لمعالجة هذه الفحكرة^١ . وهو أيضاً يرى ان الله إنما هو النور الحقيقي الواحد ، وان سائر الانوار لا تعدو كونها اشعاعات منه او انعكاسات عنه . وكان نساك النصارى قد سبقوه الى الالاماع بأن هنالك نوراً روحانياً يتخلل الكون ، وان هذا النور إنما هو إشعاع من الذات الاليمية ، وجواهر الكائنات بحملتها فالغزالى ، في ما يظهر ، قد اتصل اثناء مروره في سوريا بتعاليم بعض نساك النصارى التابعين للكنيسة اليونانية ؛ بحيث غدا غرضه الاول ، التوفيق بين السنة الاسلامية والتعليم الصوفي . وقد خلف السهوروبي عددة مؤلفات^٢ اهمها كتاب «حكمة الاشراف»^٣ وكان لهذا الناشي الصوفي من الحمية الصوفية المتقدمة ما هاج الفقهاء المحافظين عليه ، ودعاه الى الالتحاق على الظاهر ابن صلاح الدين ، بان يأس باعدامه جوعاً او خنقاً . وجاء من ثم لقبه «بالشيخ المقتول» . ومدفنه قائم الى اليوم قرب دار البريد في حلب .

ابن عربي

وهنالك علم آخر من اعلام التصوف الاشرافي هو محبي الدين ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) . ولد في الاندلس ، وقضى أيامه الاخيرة في سوريا . وابن عربي هذا لم يكن فيلسوفاً شموليًا فحسب ، بل يعتبر صاحب اعظم عبقرية تأملية في التصوف الاسلامي . ولعله غادر موطنه في الاندلس فراراً من القيود التي كانت آنذاك مفروضة على التفكير الحر ، في ذلك الصقع الذي احرقت فيه مؤلفات

١) (القاهرة ، ١٣٢٢) .

٢) راجع جدول مؤلفاته في ابن خلkan ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ - ٥٨ ؛ ابن اي اصيحة ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - ٧١ . واحدى القصائد التي اتبها له ابن خلkan لا تزال تتدل لاسيما في الحلقات الصوفية .

٣) (طهران ، ١٣١٦) .

٤) ابن شداد ، من ٣٠٢ - ٣٠٣ ؛ السهوروبي ، ثلاثة رسائل ، نشر وترجمة Otto Spies and S. K. Khatak (Stuttgart , 1935) , p. 98 .

A. E. Affifi , *The Mystical Philosophy of Muhyid Din-Ibnul 'Arabi* (Cambridge , 1930) , pp. 3, 5, 47, 108, 183-4.

الغزالى ؟ وتوجه سنة ١٢٠٢ إلى مكة حاجاً، ثم اختار دمشق موطنًا . وفيها مدفنه الذي بني حوله السلطان العثماني سليم الأول مسجداً، والذي لا يزال مقصد الزائرين إلى اليوم . وينذهب ابن عربي إلى أن الصوفى الحقيقي يسترشد بأمر واحد هو النور الباطنى ، ويجد الله في جميع الأديان^١ . وفي تعاليم ربنا لال^٢ ، وسواء من منصوقة النصارى ، بقايا من تأثير ابن عربي . ويتبسط ابن عربي في كتابه « الفتوحات المكية »^٣ وفي كتاب « الأسراء إلى مقام الاسمي »^٤ في موضوعه الائير الذي يعالج فيه صعود محمد إلى السماء السابعة^٥ . وجدير بالذكر أن الكثير من الدقائق المتعلقة بالمشاهد والآيات والمواقع والمباني ، المعروفة في كوميدية دانتي الهمة ، لها سابقات في كتاب ابن عربي هذين ، وفي سواهما من المدونات الإسلامية^٦ .

كتاب السير

كان من أوائل الأساتذة في دار الحديث التورية في دمشق ابن عساكر^٧ (١١٠٥ - ١١٧٦) ، مؤلف « التاريخ الكبير » ، الذي اوجز فيه سير جميع الوجهاء الذين سبقت لهم صلة ما بهذه المدينة ؛ لكن لم يبقَ لنا من أجزاءه الثانية إلا عدد قليل^٨ . على أن شهرة ابن عساكر في كتابة السيرة لم تثبت أن كشفها شهرة علم آخر من أعلام مدارس دمشق^٩ هو شمس الدين احمد ابن خلakan ، ابرز مؤلفي السير على الاطلاق في الإسلام . ولد في اربيل ، وعين قاضي قضاة في سوريا^{١٠} سنة ١٢٦١ ، وشغل هذا المنصب في دمشق حتى قبيل وفاته سنة ١٣٨٢ ، لم ينقطع عنه إلا فترة

١) ابن عربي ترجمان الأشواق ، نشر وترجمة تيكلانون (لندن، ١٩١١) ، ص ١٩ ، ٦٧ .

٢) راجع من ٣٦٣ من هذا الجزء .

٣) الطلبة الثانية لربعة أجزاء (القاهرة، ١٢٩٣) .

٤) (القاهرة، ١٢٥٢) .

٥) القرآن ١٧ : ١ .

٦) راجع من ٢١٦ من هذا الجزء .

٧) الكتبى ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ؛ ياقوت ، ارشاد الارب ، ج ٥ ، ص ٤٦ - ١٣٩ ؛ السبكي ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٧ ، النسبي ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

٨) نشر منه عبد القادر ابن بدران سبعة أجزاء (دمشق، ١٣٢٩ / ٥١) .

٩) راجع من ٢٨٤ من هذا الجزء .

١٠) السبكي ، ج ٥ ، ص ١٤ - ١٥ ، البيوطى ، ج ١ ، ص ٢٦٥ - ٦٦ .

دامت سبع سنوات . وضع ابن خلkan اول معجم لاعلام المواطن باللغة العربية، وهو مجموعة كبيرة من السير سماها «وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان»^١ وكلف نفسه عناه ايراد الاسماء بالشكل الصحيح ، وتعيين التواريف وسرد الانساب والتحقق من الحوادث المأمة ؟ كل ذلك رغبة منه في ان تجيء ترجمته من الدقة واناقة الارجاع على خير ما يستطيع . واستأنف من بعده هذا العمل الجبار الكتبى الحلى (ت ١٣٦٣) في مؤلف سماه «فوات الوفيات»^٢ .

وهنالك اديب آخر من مؤلفي السير كان اضخم إنتاجاً من ابن خلkan ، لكن اقل منه تدقیقاً ، هو صلاح الدين خليل بن ابيك المعروف بالصفدي ، نسبة الى صفد مسقط رأسه (١٢٩٦ - ١٣٦٣)^٣ . وكان الصفدي ابن عبد تركي ، درس في دمشق على التحوي المشهور ابي حيان التوحيدى ، ثم رافق المؤرخ الحمدى الحافظ النهى (١٢٧٤ - ١٣٤٨)^٤ ، والفقىء المترشى تاج الدين السبكي (حوالى ١٣٢٧ - ٧٠)^٥ . وضع النهى مؤلفاً في تاريخ الاسلام كانت من الضخامة بحيث تهيب منه النساء ، فظهر في اعداد دورية يفصل بين الواحد منها وما يليه عشر سنوات ؟ الامر الذي اعيا جامعي الكتب . وكان الصفدي يشغل منصب خازن في مدينة دمشق ؟ واكثر ما اشتهر به لغة الضخم «الوافى بالوفيات»^٦ ، الذي ارتفق عدد اجزائه الى الثلاثين ، وفي الاجزاء التي وصلت اليانا منه نحو من اربعة عشر الف سيرة من سير الحكماء والقضاة والادباء . وهو اضخم موسوعة لاعلام في الاسلام . ففي «وفيات» ابن خلkan ٨٦٥ ترجمة ، وفي «فوات» الكتبى ٥٠٦ ترجمات ، وفي «عيون» ابن ابي اصيبيحة حوالى ٤٠٠ . وقد قدّم الصفدي لمجتمعه ببحث في النهج التاريخي هو الاول

١) نشر مرات عديدة ، والمعتمدة هنا تقع في ثلاثة اجزاء (القاهرة ، ١٢٩٩) .

٢) في مجلدين (القاهرة ، ١٢٨٣) . ولم يتوافر فون غرونباوم نقد لطريقة ابن خلkan لدى مقارتها بأسلوب بلتونارش وذلك في كتابه 279-80 Medieval Islam (Chicago, 1946), pp.

٣) السبكي ، ج ٦ ، ص ٩٤ - ١٠٣ .

٤) لقد وجينا من مؤلفاته الجديدة الى كتابه «دول الاسلام» فقط وهو يقع في مجلدين طبع في حيدر اباد سنة ١٣٣٧ .

٥) اعتدنا كتابه «طبقات الصوفية الكبرى في كتابة هذه البتنة وهو يقع في ستة اجزاء وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٢٤ .

٦) نشره دتر Ritter II. المجلد الاول في اسطنبول ، ١٩٣١ .

من نوعه في العالم بأسره^١. وقد جاء كتابه تكملة لمؤلفات زملائه السابقين، لا سيما «وفيات» ابن خلkan و«معجم» ياقوت. وكانت ياقوت لهذا في أول أمره عبداً رومياً، وضع مؤلفاً هاماً في سير الأدباء هو «معجم الأدباء» (أو إرشاد الاربيب)، لكنه نال شهرة أوسع بمعجمه الجغرافي «معجم البلدان»^٢ الذي فرغ من وضعه سنة ١٢٢٨ في مدينة حلب وقدمه لوزيرها القبطي^٣، وفي حلب قضى ياقوت نحبه.

التاريخ والجغرافيا

وهما يتصل بالسيرة والجغرافية اتصالاً وثيقاً موضوع التاريخ؛ وبين المؤرخين السوريين الذين عرضوا لنا في الصفحات السابقة أبو سامة (١٢٠٣ - ٦٨)^٤ صاحب كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين»^٥، وجده في تاريخ نور الدين وصلاح الدين، ثم أبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣٢)^٦، أحد المؤلفين من حكام حماة^٧ الابوبيين؛ ويعتبر تاريخه^٨ خلاصة وتكملة لتاريخ ابن الأثير (ت ١٢٣٤)، إلا أن هذا الأخير يفوقه ضخامة. ولد أبو الفداء في دمشق حيث استقر أهله بعد فرارهم من وجه المغول. وقد حظي تاريخه من الاعجاب بما حمل الكثيرين من المؤلفين المؤخرين على إكماله وتلخيصه واختصاره. ولم يكن مؤلفه الجغرافي «تقسيم البلدان»^٩ أقل خطراً، فقد صدره بقدمة دافع فيها عن فكرة كروية الأرض، واستشهد على صحتها بزيادة نهار أو نقص آخر لدى السفر حولها في اتجاه معين. وربما صع اعتبار هذا المؤلف السوري «أعظم مؤرخ جغرافي في ذلك العصر على اختلاف الأوطان والأديان»^{١٠}. وكان لأبي الفداء مواطن معاصر هو شمس الدين الدمشقي (ت ١٣٢٦)،

(١) راجع : Sarton, vol. iii, p. 309.

(٢) نشره وستغليط في ستة أجزاء (لি�تنغ، ١٨٦٦ / ٧٢)؛ وقد ظهر في بيروت سنة ١٩٥٧ بطبعة جديدة في خمسة أجزاء.

(٣) راجع من ٢٨٢ من هذا الجزء.

(٤) الكتب، ج ١، ص ٣٢٢ - ٢٥.

(٥) في مجلدين (القاهرة ١٢٨٧ - ٨٨).

(٦) راجع من ٢٦٥ من هذا الجزء.

(٧) في أربعة مجلدات (القدسية، ١٢٨٦).

(٨) نشره M. Reinaud and MacGuckin de Slane (Paris, 1840).

(٩) راجع : Sarton, vol. iii, p. 308.

وضع رسالة في الجغرافيا الفلكية هي «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»^١. ومع ان هذه الرسالة اقل شأناً من «التقويم» من الناحية الرياضية ، فانها اجل منه شأناً من حيث المعلومات المتعلقة بالظواهر الطبيعية والثروة المعدنية والشؤون السلالية . وقد اشتهر في هذا الموضوع عالم آخر هو ابن فضل الله العمري . شغل منصب صاحب الخاتم في بلاط المالك في القاهرة ، ثم عاد الى دمشق رأسه دمشق ، وفيها مات بالطاعون سنة ١٣٤٩ . وضع العمري مؤلفين هامين : الاول «مسالك الابصار في ممالك الامصار»^٢ ، والثاني «التعريف بالمصطلح الشريف»^٣ والثاني دليل ينبعق به رجال الادارة والسياسة .

ولقد بُرِزَ بين المؤرخين في عصر المالك اثنان : مصرى هو المقريزى ، وتونسى هو ابن خلدون . وكان لكل منها صلة وثيقة تربطه بسوريا . اما المقريزى (١٣٦٤ - ١٤٤٢) ، صاحب الكتاب القىيم المعروف بالخطط^٤ — وقد ذكرناه تكراراً في ما سبق — فتحدر من اصل بعلبكي ، وشغل كرسى استاذ فى دمشق بعد ان تلمذ على ابن خلدون . وكان ابن خلدون قاضى قضاة فى مصر ؛ وقد رافق الملوك السلاطان الناصر فرج الى دمشق فى حملته لوقف زحف تيمور ، وحل ضيفاً مكرماً على قائد المغول الخيف^٥ . «ومقدمة ابن خلدون»^٦ هي الجزء الاول من تاريخه الشامل^٧ ، وقد اهلته لان يعتبر اعظم من انجيهم الاسلام من فلاسفه التاريخ . فشرحه للحداث والتاريخية والخصائص القومية ، على اسس اقتصادية وجغرافية وعضوية ، واعتبارات مدنية اخرى ، محاولة لم يسبقه الى مثلها احد من علماء الاسلام ، ولم يخلفه فيها زميل جدير باستئناف جهده .

(١) نشره . A. F. Mehren (St. Petersburg, 1865)

(٢) نشر احمد ذكي المجلد الاول (القاهرة، ١٩٢٤) وقرره عبد الطيف حمزة في كتابه : الحركة الفكرية في مصر في العصر الابيبي والمملوكي الاول (القاهرة، ١٩٤٧)، ص ٣٢٤ - ٢٧ .

(٣) (القاهرة، ١٣١٤) .

(٤) في مجلدين (القاهرة، ١٢٧٠)

(٥) ابن خلدون ، التعريف ، نشر محمد الطنجي (القاهرة، ١٩٥١) ص ٣٦٦ - ٨٣ .

(٦) نشرها كتزمير في ثلاثة مجلدات (باريس، ١٨٥٨) قبل الطبعة المصرية (القاهرة، ١٢٨٤) .

(٧) في المجلد السادس (القاهرة، ١٢٨٤) ، ص ٣٧٩ وما بعد ترجمة وافية كتبها هو عن نفسه هي خير مصدر لبيانه .

هذه السلسلة من اصحاب التراجم والجغرافيين والمؤرخين، والعلماء الافذاذ الموسوعين، التي بدأت بابن عساكر وختمت بابن خلدون، جعلت لسورية ومصر، في عصر الايوبيين والمالويك، مكانة منقطعة النظير بين البلدان الاسلامية.

تيمورلنك

كانت حملة تيمورلنك على سوريا آخر الحملات المغولية. وتيمور هذا يدعى انه سليل جنكيز خان^١ ؟ انطلق بجموع قبائله كالعاشرة الموجـاء من اواسط آسيا، واكتسح غرب آسيا تاركاً في اثره الدمار والحراب. وللمرة الرابعة او الخامسة وجدت سوريا نفسها طريحة عند اقدام المغول^٢. ففي تشرين الاول سنة ١٤٠٠ ابيحت مدينة حلب مدة ثلاثة ايام للنهب والسلب ؟ ولعلها المرة الاولى التي اخذت فيها قلعتها عنوة، ولكن بعد ان ضحى الغزاوة من رجالهم باكان كافياً لأن يغادر الحندق المحيط بها يبحث القتل^٣ ، ويبلغ عدد القتلى من الاهلين نحواً من عشرين الفاً. وقد نضدت رؤوس القتلى في كومة بلغ ارتفاعها عشر اذرع ومدارها عشرين ذراعاً^٤. اما المدارس والمساجد التي انشأها النوريون والايوبيون، والتي فاقت كل تقدير، فقد دعا اثراها الى الابد. وبعد ان اباد الغزاوة طلائع جيش السلطان فرج، خلت امامهم السبيل المؤدية الى دمشق، لكن قلعتها صمدت في وجههم مدة شهر استسلمت المدينة بعد انقضائه ؟ غير ان الفاتحين اخلوا بشرط التسلیم، ف تعرضت المدينة للنهب واضرمت فيها النيران. فقد حصر ثلاثةون الفاً من سكانها، رجالاً ونساء واطفالاً، في جامعها الكبير ؟ ثم اضرمت فيه النار، فلم يبق قائماً من بنائه الا الجدران. وعلى الامر نقل خيرة من كان فيها من علماء ومحترفين وفنانين وحدادين^٥ وصانعي الاسلحة والادوات الزجاجية الى سمرقند، عاصمة تيمور، من اجل ان ينشئوا فيها هذه الصناعات، وسواها من الفنون الفرعية. وبذلك فقدت

١) قابل: ابن عربته عجائب المقتور في اخبار تيمور (القاهرة، ١٢٨٥) ص ٦.

٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

٣) ابن تقری بردي، ج ٦، ق ٢، ٥٢؛ قابل ابن ايس، ج ١، ص ٣٢٧.

٤) لعل الحديد الخام كان يستورد من جبال لبنان. راجع ص ٣٦ وص ٣٠٥ من الجزء الاول، وص ٢٠٢ من هذا الجزء من الكتاب.

دمشق القيادة في قتون الزخرفة الدمشقية. وقد خلف لها ابن تفري بودي^١ – وكان ابوه المرافق الاول للسلطان فرج – وصفاً مفصلاً لحملة السورية بكلامها . وربما كانت هذه الحملة اشد صدمة عانتها المدينة ان لم نقل البلاد باسرها .

وكان الفاتح الجامح قد سحق الجيش العثماني عند انقرة ، واجتاح بروسيا وازمير ، واسر بابا زيد الاول^٢ . على انه كان من حسن حظ الماليك ان لاقى تيمور حتفه سنة ١٤٠٤ ؛ ونشب على اثر ذلك تزاع بين خلفائه انتهى الى فتنة داخلية ، استنفدت قواهم جيئاً . فاتاح ذلك للسلطة العثمانية انت تستعيد سيادتها على آسيا الصغرى ، وسهلت السلاسلة الصوفية بعد ذلك ، ان تفرض سلطتها على فارس

العثمانيون يناضلون للماليك والصوفية

هذه المنافسة بين الماليك والسلطنة العثمانية على السيادة في آسيا الغربية بلغت حدتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، ثم لم تثبت الدولة الصوفية ان تورطت في هذه المشادة في اوائل القرن السادس عشر . واسد ما تأزمت العلاقات بين العثمانيين والماليك في عهد خشقدم (١٤٦١ – ٦٧) الذي كان ، خلافاً لسابقيه الاتراك والجراسكة ، ملوكاً رومياً^٣ ، وفي عهد محمد الثاني فاتح القدسية . لكن القتال لم ينشب ، حتى سنة ١٤٨٦ ، عندما عمد قاتبى الى منازعة بابا زيد الثاني السلطة على ادنا وطرطوس وسواها من التغور . فقد ارسل هذا الملوك ، في اواخر عهد سلطته ، رسالة الى البابا انتهز فيها بالتخاذل تدابير انتقامية بحق نصارى سوريا ، اذا استمر فرديناند في ابادة ما باقي للمسلمين من سلطة في اسبانيا . وبعد ذلك بقليل نشب ما بين العثمانيين والفرس ، تزاع انتهى بالقضاء السريع على الجيش الصوفي ، وباكتساح سليم الاول (١٥١٢ – ٢٠) للعراق . والصوفيون من غالبية الشيعة ، وكانتوا قد جعلوا من هبهم الدين الرسمي للدولة . وقد اتهم سليم الاول الملوك قانصوه الغوري (١٥٠٠ – ١٦) بعقد معاهدة مع شاه الصوفية ضد ، وبيانه آوى بعض الالجئين السياسيين .

١) المجلد السادس ، القسم الثاني من ٥ ، س ١٤ ، من ٥٠ وما بعد . قابل : ميرخوند ، تاريخ روضة الصفا (طهران ، ١٢٧٠) الكتاب السادس ، المقربي ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

٢) ابن عربشاه ، من ٦ ، ابن ايس ، ج ١ ، من ٣٣٤ ؛ ج ٣ ، من ٤٨ .

٣) ابن تفري بودي ، ج ٧ ، من ٦٨٥ .

النصر الخامس في مرج دابق

وكان قانصوه في هذه الانباء قد اتجه شماليًا بحجة عزمه على التوسط بين المتخاصلين^١. وكان في موكيه قاضي قضاة مملكته والخليفة بالذات، وهو آنذاك المتوكل سليل المستنصر (عم آخر الحلفاء في بغداد)، وخليفته. وكان بيبرس قد اقام المستنصر في مصر سنة ١٢٦١ من اجل ان يجعل سلطنته طابعًا شرعياً، ويضفي على بلاطه سمة السيادة العليا في نظر المسلمين^٢. فارسل قانصوه الى سليم الاول رسولًا خاصًا، لكن سليمًا لم يجد وسيلة لاذله خيراً من ان يأمر بحلق لحيته، وبعادته على حمار اعرج، يحمل الى سيده علمًا باعلان الحرب. والتهم الجيشان يوم ٢٤ آب سنة ١٥١٦ في مرج دابق الملطخ بالدم، شماليًّا من مدينة حلب. وكان قانصوه في اول امره عبداً لفاطمياتي؛ وقاتل الآن، وهو في اواسط العقد الثامن، قتال الابطال لكن بغير جدوى. ولم يكن باستطاعته ان يعتمد على اخلاص ولاته السوريين، ولا انت يقف بجيوشه في وجه جيش الانكشارية^٣ المخيف، المتتفوق بعدهه الحربية. فان خائر بك حاكم حلب الخائن، الذي عهد اليه بقيادة الجناح الاسر، انهزم هو ورجاله عند المجموع الاول^٤. وقد استخدم الجيش التركي المدافع والبنادق وسوها من الاسلحه ذات المرمى البعيد. وكانت الجيش المصري يضم جماعات من البدو والسورين لا عهد لهم بمثل هذا السلاح، متسبعين بالنظرية القديمة التي تعتبر البطولة الشخصية العامل الفاصل في القتال. واستخدم الاتراك كذلك البارود^٥، «والدافع الكبار على عجل تجرها خيول^٦. وفي غمرة القتال اصيب

(١) القرماني، اخبار النول وآثار الاول (بغداد، ١٢٨٢) ص ٢١٩ - ٢٠ .

(٢) المغربي، ترجمة ١٤٦-٦٨ pp. 146-68 (p. t. ١) i Quatremère؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٨٢ - ٤٣، أبو الفداء، ج ٣، ص ٢٢٢؛ السيوطي، حسن الحاضرة، ج ٢، ص ٤٩ - ٥٢؛ ابن ايس، ج ١، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) من التركية يعنى الجيوش الجديدة، ويطلق على فرق الشاة النظامية المؤلفة بالأكثر من متيان النصارى المأسورين وعلى يدم ت اكث الفتوحات.

(٤) ابن ايس، ج ٣، ص ٤٦ ، ٥١ .

(٥) يبدو ان البارود اختراع صيني. ادخله المغول الى اوروبا سنة ١٢٤٠ وتم به بعدئذ اختراع الاسلحه التاريه. قابل: 722-23. Sarton, vol. iii, pp. 722-23. ولمل اول من عرض ذكر المدفعيه يجي، ص ٢٢٩ ، حيث ذكر ان ملاхи جنو قنعوا بيروت بالدافع سنة ١٣٨٢ .

(٦) القرماني، ص ٢٢٠ .

قانصوه بسكتة قلبية، سقط على اثراها عن صهوة حصانه، فتم بذلك النصر للسلطان سليم، واعتقل الخليفة، ثم أخذه إلى القسطنطينية. أما الادعاء بأن الخليفة أوصى بمنصبه الرفيع إلى السلطان العثماني، فحكاية من مولدات القرن التاسع عشر. وقد عثر السلطان سليم في قلعة حلب على كنز للمالك قدرت بـ ١٦٠٠٠٠٠ ليرة. وفي اواسط تشرين الاول اتجه نحو دمشق، فانتقلت سوريا بيسراً إلى ايدي الاتراك، وقدر لها ان تبقى بيدم اربعة قرون كاملة. وقد رحب اهلها بيسادهم الجدد على اعتبار انهم منقذون من الاسياد السابقين، شأنهم في كثير من المناسبات السابقة المماثلة.

خاتمة حكم المالك

زحف الجيش العثماني من سوريا جنوباً نحو مصر، وكان قد نودي ببطومان باي سلطاناً عليها، وكان في اول امره عبداً لقانصوه. والتقي الجيشان في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٥١٧ خارج القاهرة. فانهزم الجيش المصري، بعد افات «انفتحته الفدائل»^١. وهرب طومان باي إلى مضرب من مضارب البدو. لكنه سلم غرداً ثم شنق في ١٧ نيسان على باب من ابواب القاهرة الرئيسية^٢، ولم تعد مصر بعد ذلك دولة ذات سيادة.

اما الحجاز بدينته المقدسين، فقد غدا بحكم الواقع جزءاً من الامبراطورية العثمانية الناشئة. وفي صلاة الجمعة. الأولى بعد الحدث ابتهل الوعاظون الى الله ان يضفي بركته على السلطان الفاتح بهذه الالفاظ:

انصر اللهم السلطان ابن السلطان ، مالك البرين والبحرين، وكسر الجيشين ، وسلطان المرافقين ،
وخانم الحرمين الشريدين ، الملك المظفر سليم شاه ؛ اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ،
يا ملك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين . (٣)

وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ العرب ، هو عهد سلطة الاتراك العثمانيين.

(١) ابن ابياس ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٢) ابن ابياس ، ج ٣ ، ص ١١٥ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ٩٠ ؛ القرماني ، ص ٢٢٠ ؛ قابل سعد الدين ، تاج التوارييخ ، ج ٢ ، (القسطنطينية ، ١٢٨٠) ص ٣٦١ .

(٣) ابن ابياس ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

القسم الخامس
تحت احكام العثماني

الفصل الثاني و لأذن يحيى

سورية قييلم تركي

الدولة العثمانية

ان الدولة التركية في غرب آسيا الصغرى قد نهض، من نشأة وضعية في اوائل القرن الرابع عشر، الى مركز شامخ في آسيا الغربية وجنوبي شرق اوروبا وشمالي شرق افريقيا، وذلك في خلال القرنين التاليين؛ وكان قيامها على هذا النحو من ابرز الاحداث في التاريخ الحديث. عُرفت لفظة «ترك» لأول مرة اسمًا لقوم من بدأة آسيا الوسطى^١ سنة ٥٠٠ م. وفي خلال القرن السادس تكنت الشعوب التركية من انشاء دوليات بدوية انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشمالية حتى البحر الاسود. وكما عاش الاعراب على اجمال كذلك عاش الاتراك على الحيل، فشربوا البانها وأكلوا لحومها وامتطروا في طلب النصر. وقد استخدمو الركاب والقوس والنبل، وكانت الميزة التي تفوقوا بها على خصومهم سرعة الانتقال. كان اول اتصالهم بالشعوب الهندية الاوربية في تركستان، وفي هذا البلد واجههم العرب الفاتحون للمرة الاولى، وذلك في اواخر القرن السابع و اوائل الثامن^٢. فعندما بلغ آسيا الصغرى بذلك، من عرف منهم بالعثمانيين وجدوا البلاد قد تركت جزئياً على يد انسبيتهم السلاجقة^٣. وبعود السلاجقة والعثمانيون بالنسبة الى قبيلة الفرز، او الاتحاد القبلي المعروف بهذا الاسم.

اما المؤسس الذي تسمى باسمه الدولة والسلالة التي عرفت بالعثمانية فزعيم شبه تاريجي اسمه عثمان^٤ (١٢٩٩ - ١٣٢٦) ويستدل من اسمه هذا - اذا صحت - ان

١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء .

٢) راجع من ٦٥ - ٦٦ من هذا الجزء .

٣) راجع من ٢٠٤ - ٢٠٥ من هذا الجزء .

٤) راجع بشأنه : Mehmed Fuad Koprülü, *Les Origines de l'empire ottoman*, (Paris, 1935) pp. 87 seq.; Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938) pp. 7 seq.; Joseph von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches*, vol. i (Pest, 1827), pp. 40 seq.

عشيرته كانت آخذة في اعتناق الاسلام او قد اعتنقته نهائياً^١. وعلى اثر اتباعهم للدين الجديد تسربت الى لغتهم التركية الوف التعبير الدينية والعلمية والادبية العربية ، وبعض الالفاظ الفارسية . ولما لم يكن لغة التركية الا القليل من الادب المدوى^٢ ، عدوا الى اقتباس الحرف العربي ، واستمروا عليه في مدوناتهم حتى كان الاصلاح الذي قام به مصطفى كمال سنة ١٩٢٨ . وقد بقيت الدولة العثمانية ، بعد ان تأسست حوالي سنة ١٣٠٠ ، نحوًا من ست وستين سنة مجرد امارة قائمة على الحدود ، واتخذت بعد سنة ١٣٢٦^٣ مدينة بروسا قاعدة لها . ثم غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة ادرنة . وكان استيلاء محمد الثاني الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فاتحة عهدها الامبراطوري . وبذلك غدت هذه الدولة الاسلامية التركية وريثة لامبراطورية البيزنطية ، وظفرت في ما بعد بضم عدد من الدول العربية ، تخلت من سلطتها عن العلاقة العباسية . وقد

١) راجع من ٢٦٨ - ٢٧٠ من هذا الجزء .

٢) استخدم الاتراك في آسيا الوسطى الحرف السرياني ، راجع من ١٣٨ وقابل من ١٨٣ من هذا الجزء .

٣) شكل شجري لسلالة الحكام الاتراك الاولين .

١. عثمان الاول (حوالى ١٢٩٩)

٢. اورخان (١٣٢٦)

٣. مراد الاول (١٣٥٩)

٤. مراد الاول (١٣٥٩)

٤. بايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠١)

موسى (مطلوب)
(١٤٠٣ - ١٤٠٣)

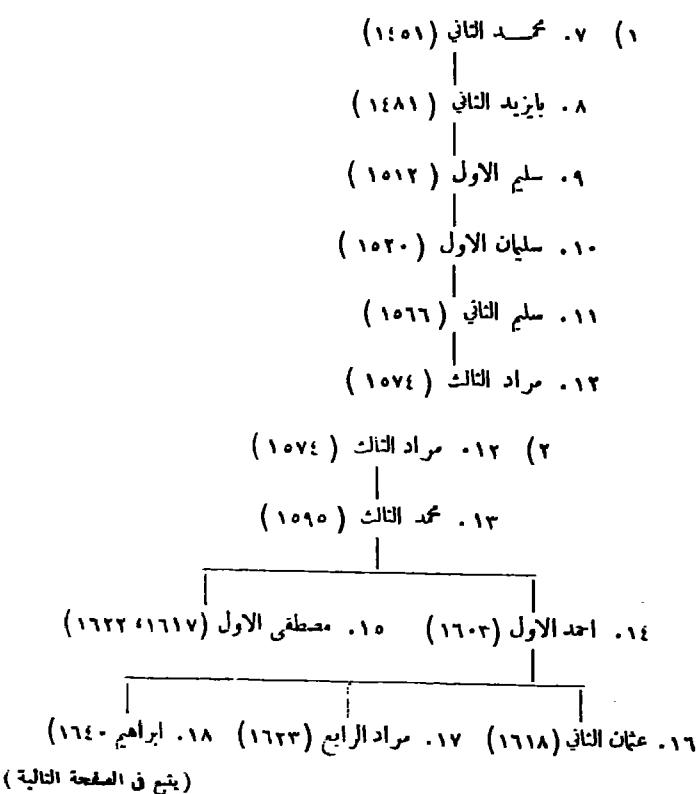
٥. محمد الاول (١٤٠٣) حاكم فرد (١٤١٣)

سليمان (مطلوب)
(١٤٠٣ - ١٤٠٣)

٦. مراد الثاني (١٤٢١)

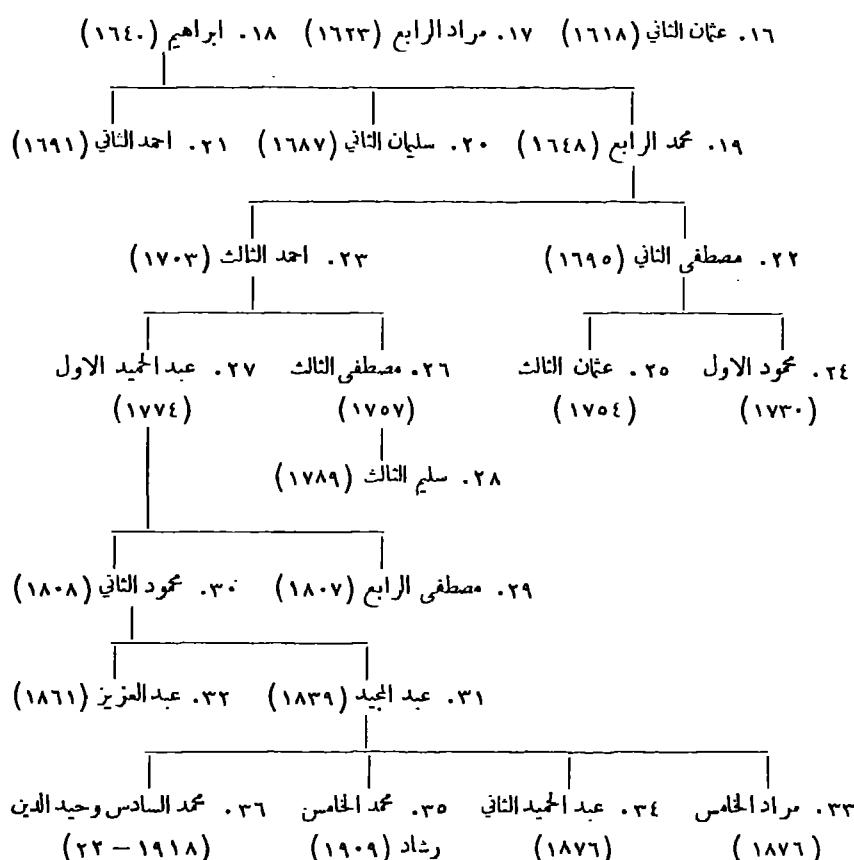
٧. محمد الثاني (١٤٥١)

بلغت الامبراطورية التركية اوج عزها في عهد سليمان الاول الملقب بالقانوني (١٥٢٠ - ٦٦)، وهو ابن سليم الاول فاتح سوريا ومصر. وتم في عهده الاستيلاء على الجانب الاكبر من هنغاريا، والقاء الحصار على مدينة قينا، واحتلال جزيرة رودس؛ واقررت شمالي افريقيا – باستثناء مراكش – بالسيادة السياسية عليها للباب العالي في القسطنطينية^١. على ان إخفاقةهم في حماولتهم الثانية لفتح قينا سنة ١٦٨٣ كان مؤذناً ببداية النهاية. وقد امتدت الامبراطورية في عهد سليمان الاول من بودابست على نهر الدانوب الى بغداد على نهر الدجلة، ومن بلاد القرم الى شلال النيل الاول. ولم ينشئ المسلطون في العصر الحديث دولة هذا مداها؛ وكانت الى ذلك من اطول الدول الاسلامية عمراً؛ فقد توالى على عرشها، من سنة ١٣٠٠ حتى ١٩٢٢، عندما انحلت الامبراطورية، ستة وثلاثون سلطاناً كلهم متعدرون عصياً من عهان ، المؤسس الاول^٢.



الدواوين الإدارية في سوريا

ان السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ٢٠) هو الذي ضم العالم العربي الى الامبراطورية العثمانية^١. فعلى اثر انتصاره في مرج دابق ، استسلمت حماة وحمص ، فدخلها دون قتال . ولم تثبت طرابلس وصفد ونابلس والقدس وغزة ان أقت سلاحها ، ولم تعمد الى اية مقاومة^٢. ولدى عودته من مصر ، توقيف طويلاً في سوريا من اجل ان يثبت فيها مركزه ، وي العمل على تنظيم شؤونها . ورغبة منه في تنظيم الضرائب ، عين مجلساً و Anatط به مهمة مسح جميع الاراضي ، على ان يحتفظ



(١) راجع ص ٢٩٨ من هذا الجزء.

(٢) ابن ايس ، نشر بول كهلي ومحمد مصطفى ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

الناتج بقسم كبير من سهل البقاع الخصب، ووادي العاصي المثمر^١. لكنه استمر على التدبير الذي اعتمدته المماليك في تأثير الفرائب على سبيل المزايدة. ثم انه جعل المذهب الحنفي – وهو الذي اختاره العثمانيون – المذهب الفقهي الرسمي في سوريا^٢. وقد وضع احد فقهاء حلب المعروف بابراهيم الحلبي (ت ١٥٩٤) ، كتاباً في الفقه الحنفي هو «ملتقى الاجماع» ، غدا مرجعاً للتشريع الحنفي في الامبراطورية جملة . وقد طبع للمرة الاولى في القدس سنة ١٨٩٢/١٣٠٩.

أبقى الترك الدوائر الادارية^٣ في سوريا على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك ؛ لكنهم بدلوا بعض الشيء في نظام التسمية : فدعى «النيابة» «ولاية» ، وعرف «النائب» بـ «الوالى»^٤. وصار لقب التعميم الذي يلي اسم الوالى «باشا» ، فصار «الباشوية» و «الولاية» مدلول واحد . وكانت ولاية حلب في وقت ما تشمل على سبعة سناجق^٥.اما ولاية دمشق ، التي اتسعت باضافة القدس وصفد وغزة اليها ، فقد انيطت بجان بودي الفزالي . وهو نائب دمشق الحائز الذي تواطأ مع زميله نائب حلب على الغدر بالغوري^٦. بحيث غدا الفزالي هذا النائب الفعلي للسلطان في سوريا .اما سائر الدوائر الادارية فقد اسندت الى حكم من الترك . وعلى اثر حركة التمرد التي قام بها الفزالي قسمت سوريا الى ثلاث ولايات هي : دمشق ، مشتملة على عشرة سناجق اهتها : القدس ونابلس وغزة وتفس وصيدا وبيروت ؛ ثم حلب وفيها تسعة سناجق بينها شمالي سوريا ؛ ثم طرابلس ، وفيها خمسة سناجق منها :

(١) للزيهد عن الفرائب راجع . Omer Lütfi Barakat, *Kanunlar* (Istanbul, 1945). pp. 206 seq.

(٢) ابن ايس ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ ، النزي : الكواكب السائرة باعيان السنة العاشرة ، نشر جبرائيل جبور (بيروت، ١٩٤٥) ج ١ ص ٢١٠ .

(٣) راجع ص ٣٧٤ من هذا الجزء .

(٤) لم يصطلاح على «المترفة» و «المترف» الا في ما بعد .

(٥) انظر : Von Hammer, vol. ii, p. 477, n. d. ان الفظة التركية «سنjac» العربية «سنبق» هي ترجمة الفظة العربية «لواء» يعني المَلَمْ . وهذه التعبير جيئها كانت في ما يليها استخدمه السلاجقة قبلًا .

(٦) فريدون بك ، مجموعة منشآت السلاطين ، الطبعة الثانية (اسطنبول ١٢٧٤) ، ص ٤٥٥ ؛ ابن ايس ، ج ٥ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ سعد الدين ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ - ٦٥ .



حص وحمة وجبلة وسلمية . وقد جعلت صيدا سنة ١٦٦٠ ولاية من أجل أن تكون مركزاً للرقابة على لبنان^١ .

وفي سنة ١٧٢٤ استندت ولاية دمشق إلى اسماعيل باشا العظم ، كبير هذه الأسرة البارزة في دمشق ؟ وكان ابنه اسعد ، الذي بدأ حياته السياسية حاكماً على صيدا ثم على حماة ، خير وال عرفته دمشق ابن الحكم العثماني . وقد تولى كذلك شؤون الحجج المقدس ، ولا ريب في أنه جنى منه ثروة طائلة . ولا يزال قصره في مدينة حماة ، الذي تشغلة الآن مدرسة أهلية ، من روائع الآثار المقصودة على نهر العاصي . وافتخر منه القصر الذي بناه في دمشق سنة ١٧٤٩ ، والذي يعتبر أروع أثر عربي ظهر في هذا القرن . فطرازه المندسي ، وما استدل عليه من فنون الفسيفساء والخفر في الحشب ، تثل أروع ما بلغه الفن الإسلامي في عهد اخلاقه . وقد جلب من إيطاليا كل ما فيه من رخام . وكانت التبران قد ألحقت به بعض الأضرار في إبان الثورة على الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٥ ، لكنه رغم بعد ذلك ، وتخاذل مقرها للمعهد الفرنسي في دمشق . وقد عين أفراد آخرون من هذه الأسرة حاكماً على دمشق وصيدا وطرابلس فكانتوا اطلاقاً — بخلاف حكم لبنان — أوفياء لسلطان بنى عثمان ، مع أن منهم من عزلوا وصودرت أموالهم . فإن اسماعيل نفسه قضى بعض أيامه الأخيرة في السجن ، وبابنه اسعد اغتيل بأمر من القسطنطينية وهو في الحمام^٢ .

وضع لبنان الخالص

على أن لبنان ، يعن فيه من الدروز الأشداء والموارنة المعتصمين بالجبال ، كان حريراً بمعاملة خاصة . فقد قضت الضرورة على السلطة بوجوب اعترافها بكلّة الأمراء الاقطاعيين من أهله^٣ ، لاسيما والخطر الحقيقي إنما كان يمثّل مصر وفارس . وكانت السلطان سليم قد استقبل ، وهو في دمشق ، وقدماً من أمراء لبنان على رأسه فخر الدين

(١) راجع Lammens, *Syrie*, vol. ii, p. 60. G. Berchet *Relazioni dei consoli veneti nella Siria* (Turin, 1866), pp. 89, 126.

(٢) محمد كرد علي ، خطط الثامن ، ج ٢ ، (دمشق ، ١٩٢٥) من ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٩١؛ حيدر الشهابي ، تاريخ ، نشر نوم منتبب (القاهرة ، ١٩٠٠) ، من ٧٦٩؛ Les Guides bleus : Syrie — Palestine — Iraq — Transjordanie (Paris, 1932), pp. 124, 303-4.

(٣) راجع من ٢٧٤ و ٢٧٩ من هذا الجزء .

الاول المعنٰ^١ من اهل الشوف ، وجمال الدين التنوخي^٢ من الفرب ، وعساف التركاني من كسروان^٣ . وكانت فخر الدين ، على ما ذكر مؤرخ لبنياني^٤ ، قد نصّح لأصحابه في معركة مرج دابق ان يتزكيوا ، ريثما يتبين الجانب المنصر فينضموا اليه . وعندهما مثل الآن في حضرة السلطان العثماني قبل الارض بين يديه وألقى خطبة بليةقة قال فيها :

اللهم ادم دوام من اخترته للملائكة ، وجعلته خليفة عهدهك ، وسلطته على عبادك وارضك ، وقدرته سنتك وفرضك . ناصر الشريعة النيرة الفراء ، وقاد الامة الظاهرية ، سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين ، الامام العادل ، والذكي الفاضل ، الذي يده ازمة الامر بادشاه ، ادام الله بقاءه ، وفي العز الدائم ابقاء ، وخلد في الدنيا مجده ونعاه . ورفع الى القيامة طالع سعده ، وبعلمه مأموله وقصده . من ملك الملائكة بالعقل والتدقيق ، ومدد الله بالانتصار والتوفيق . أعننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسد والتخليل ، بأنتم العز والتهديد ، آمين .

فتأثير السلطان سليم بلسانه البليغ وصدقه الظاهر ، وثباته وباقى الامراء اللبنانيين في اقطاعاتهم ، وترك لهم الامتيازات الاستقلالية التي طلما نعموا بها في عهد المماليك ، ورتب عليهم جزية خفيفة نسبياً^٥ . واعتبر فخر الدين ، من ثم ، الزعيم الاكبر في الجبل ، حتى عرف بد «سلطان البر» . ودرج سلاطين بني عثمان بعد ذلك على حكم الجبل ، اما مباشرة بالاعتداء على اتباعهم من حكام الاهليين ، او بواسطة احد الولاية السوريين المجاورين . وكان هؤلاء الحكام ، بوجه العموم ، مستقلين استقلالاً داخلياً ، يختلفون اقطاعاتهم ارثاً لبنيهم ، ويمارسون السلطة المطلقة على رعاياهم . ويجبون الرسوم والضرائب على هواهم ، ولا يلزمون مع ذلك بتادية أيه خدمة عسكرية الى السلطان ؛ بل قد عمدوا احياناً إلى عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية .

١) بشأن منشأ هذه الاسرة راجع شدياق ، ص ٢٤٧ - ٤٨ .

٢) حيدر ، ص ٥٦١ ؛ راجع بشأن اسرة ارسلان من ١٧٠ من هذا الجزء وحال من اليمنية التنوخين الذين كانوا بالأكثر من القيسية .

٣) راجع الفصل ٤٦ من ٢٦٠ من هذا الجزء .

٤) هو حيدر ، ص ٥٦٠ .

٥) حيدر ، ص ٥٦١ ؛ قابل : التويسي ، ١٥٢ ؛ شدياق ٢٥١ .

٦) كان نصيب كسروان منه ٤٢٠٠ غرش ذهباً لا غير ؛ التويسي ، ص ١٥٢ ؛ عيسى اسكندر الملعوف ، تاريخ الامير فخر الدين المعنٰ الثاني (جوني، ١٩٣٤) ، ص ٩ ، ج ١ .

وقد دلل الغزالى على وفاته للعهد الجديد بالتنكر لزعماء العرب التنجذب من بني بخت^١، الذين بقوا على ولائهم للملك، وسجنهم في قلعة دمشق . وإذا امتنع ابن الحنش ، وهو الزعيم العربي في صيدا والبقاع ، عن تقديم خصوته^٢، احتر رأسه ورأس ابن الحرفوش ، وهو زعيم أسرة شيعية في البقاع ، وأرسل الرأسين مع رؤوس زعماء آخرين من البدو المعتصمين في جبال نابلس ، إلى القسطنطينية . على أن الذي خان أسياده الاولين ، لم يستطع أن يبقى طويلاً على الولاء لأسياده الجدد . وعليه فقد انهز الغزالى فرحة وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠ ، واعلن نفسه في المسجد الاموى حاكماً مستقلاً بلقب الملك الاشرف^٣ ، وضرب النقود باسمه . ثم انه زين لزميله السابق ، خائز بيك ، الذي كان السلطان سليم قد كفأه بأن إقامته نائباً عنه على مصر ، ان يقتدي به . لكن مدينة حلب لم تجاهر بتأييد الغزالى . فأرسل السلطان سليمان لمحاربته جيشاً أباد العصاة السوريين في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٥٢١ ، وقتل الغزالى في قابون قرب دمشق . وكان العقاب الذي نزل بالعاصمة السورية وضواحيها أشدَّ وأدھى مما قاسه سابقاً من تيمور^٤ . فقد أبى ثلث المدينة وقرابها ابادة تامة^٥ ، ومنذ ذلك الحين غداً اسم الاذكشارية مقرضاً في ذاكرة السوريين بالدمار والارهاب .

المهاجر الاداري

ان فلسفة العثمانيين السياسية ، كما فهمها الوالي العادى على الاقل ، كانت تقوم على ان الشعوب المغلوبة ، من غير المسلمين ، كانوا « رعية »^٦ « يتعهدون الراعي »

١) راجع من ١٧٠ و من ٢٧٤ و من ٢٧٩ من هذا الجزء . وقد زار احد هؤلاء الامراء السلطان سليم في دمشق واهدى اليه جياداً عربية ؛ ابن سباط ، المحقق بتاريخ حيدر ، من ٥٩٧ و بتاريخ صالح ، من ٢٦٩ ؛ قابل : شدیاق من ٢٤٦ .

٢) حيدر من ٥٩٦ .

٣) صلاح الدين المتعدد ، ولاة دمشق (دمشق ، ١٩٤٩) من ٣ .

٤) راجع من ٢٩٧ من هذا الجزء .

٥) ابن ابياس ، ج ٥ ، من ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ - ٤١٨ ، ٧٨ - ١٩ ؛ القرمانى ، من ٣١٦ - ١٧ .

٦) استبدل بهذه اللفظة سنة ١٨٥٦ لفظة الطف هي النسبة .

لنفعه الفاتح . وهذا التعبير المستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية ، كان يعبر كذلك عن المدارك التقليدية التي جالت في اذهان الاجيال التي تحدرت من القبائل البدوية في آسيا الوسطى . فالشعوب المغلوبة في رأيهم عنابة المواثي الإنسانية ، ولذلك اقتضى ان « يجلبوا » و « يحيزنوا » ، واما تيسير لهم ان يعيشوا كما يبغون ، ما داموا لا يسيرون المتاعب . ولما كان اكثراهم من الفلاحين والصناعيين والتجار ، لم يطمحوا الى الانخراط في سلك الجنديه ، ولا نزعوا الى تولي المناصب المدنية . لكن « القطبيع » كان بحاجة الى « كلاب حراسة » . وكان هؤلاء الجنود بالاكثر من اسرى الحرب ، والرفق الذي في حوزتهم ، واولاد النصارى الذين يؤخذون في مقابل الضرائب ثم يدربون ويربون كسلحين . وكان هؤلاء الجنود يخضعون لمنهج عنيف من التدريب في العاصمه يستغرق سنين كثيرة ، ويربون في مباريات شاقة وغربية دقيقة . فمن أبان عن فطنة وتوقد ذهن ، أعد من جديد لتوقي المناصب الحكومية ، ومن تميز بالقوة الجسدية وجته الى الخدمة العسكرية . وكان اصلبهم يحولون الى فرقه المشاة المعروفة بالانكشارية . وكانت طبقة الحكم وطبقة الجندي في الامبراطورية ، في اول الامر ، تنتقيان منهم على سبيل الحصر^١ . فرؤساء الوزارة ، والوزراء ، وأمراء البحر ، والقواد ، وحكام الاقاليم ، جميعهم كانوا في ما سبق عيدين ، وكذلك بقوا . فكانت أرواحهم وأملاكهم في كل آن تحت رحمة سيدم السلطان الذي ما تردد يوماً في ممارسة حقه في هذه الملكية . وليس في التاريخ المدون جهاز اداري آخر موازٍ لهذا الجهاز الفريبي ، فقد جعل بيت عنان الاسرة الارستقراطية الوحيدة في الامبراطورية ، ووضع في يدهم سلطة مطلقة لادارة الدولة والذود عن حياضها .

وقد اعتمد العثمانيون اساساً آخر للتقسيم الاداري هو التابعية الدينية . ذلك ان المجتمع في الشرق الادنى كان ، منذ عصور عريقة في القدم ، يقسم على اساس الملة بدلاً من العرق او العنصر . وكانت نواة الملة في التنظيم الاداري الامارة ، لا الاعتبار الجغرافي . ومن هنا كانت العقيدة والقومية في اذهان الناس اعتبارين متتشابهين

Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent.* (Cambridge, Mass., 1913) pp. 45 seq. ; Barrette Miller, *The Palace School of Muhammad the Conqueror.* (Cambridge, Mass., 1941), pp. 6 seq., 81-82, 94-96.

يتعذر الفصل بينها . وكانت كل من الفئات الدينية في الامبراطورية العثمانية تسمى ملة . وكانت اكبر الملل اثنان هما ملة الاسلام وملة الروم (الارثوذكس)^١ وكان الارمن واليهود يعدون في جملة الملل . وكانت جميع الملل غير المسماة ، تبعاً لهذا النظام ، مقسسة الى طوائف دينية يرأس كل منها رئيس من ابناء الطائفة ، يمارس بعض المهام المدنية الخطيرة ، بحيث أدى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاص بمحكومات الاقليات الخاصة . وكان الاوربيون المقيمون في البلاد : من بندقين وألمان وفرنسيين وانكليز ، يعاملون كسائر الملل . ففي سنة ١٥٢١ عقد السلطان سليمان معاهدة مع البندقين في ثلاثة فصلاً ، ثبت فيها امتيازات التي كانت لهم في ابان الحكم البيزنطي . وحصل الفرنسيون على امتيازاتهم الاولى بعد ذلك بأربع عشرة سنة^٢ ؛ والانكليز سنة ١٥٨٠ . ومع ان المقصود اصلاً من هذه المعاهدات انها امتيازات منحها حاكم ذو سلطان ، لا أنها حقوق انتزعت من سيد ضعيف ، فقد منع الاجانب بوجبه امتيازات إقليمية كانت شيئاً مذلاً للترك حتى الخلال الامبراطورية .

سوء الادارة ومحاولات الاصلاح

ولم يكن الوالي في النظام العثماني اصلاح من النائب في حكم الملك ، اذ كان نظير سلفه — بجنداً من طبقة العبيد ؛ يضاف الى ذلك انه كان ابعد عن السلطة المركزية ، وبالتالي ، اكثر تحرراً من سلطانها . على ان هذا الامر لم يدخل تبديلاً هاماً على الوضاع ، اذ كان الفساد متفشياً في العاصمة كما كان في الامصار . فكثيراً ما كان الولاة يشترون تعينهم في الامصار بالمال ، ويتوّلون مهام وظائفهم ، وهدفهم الاول تحقيق اطماعهم الخاصة . وربما عاد بعضهم الى القسطنطينية ليلاقو احتفافهم ، او يعاقبوا بصادرة املاكهـم . وكان الاستغلال يسير في ركب الفوضى ؟ فقد تقلب

١) اطلق الترك لفظة «روم» التي اقطلها العرب من «رومان» على جميع رعاياهم من ابناء الله الارثوذكية ، من غير اعتبار المرق او القمة . وقد حفظت هذه التسمية الى اليوم ، مع ان الروم الارثوذكس لا ينضسون لسلطة روما الدينية . وقد سمى السلاجقة سلطنتهم في اناشوليا «سلاجقة الروم» (راجع من ٤٢٠ من هذا الميز) لانهم انتزعواها من الامبراطورية الرومانية الشرقية .

٢) راجع بشأن مواد المعاهدة l. de Testa, *Recueil des traités de la porte ottomane*, vol. i (Paris, 1864), pp. 15, seq.

على دمشق في السنين المئة والاربع والثانية ، من بدء خضوعها للعثمانيين ، ما لا يقل عن مئة وثلاثة وثلاثين وليماً ، لم يثبت في وظيفته منهم مدة سنتين^١ الا ثلاثة وثلاثون لا غير . وفي أحد سجلات الدولة جدول بأسماء ٦١ وليماً عينوا في غضون ثمانين عاماً اولها عام ١٨١٥^٢ . ولم تكن حلب ، في ما يظهر ، ارقـ حـالـ ، فـان قـنـصـلـاـ من قـنـاصـلـ الـبـنـدـقـيـةـ ، ذـكـرـ فيـ تـقـرـيرـ لهـ ، اـنـ تـسـعـةـ منـ الـبـاـشـوـاتـ توـالـواـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ فيـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ^٣ . وـرـبـاـ نـشـتـ بـيـنـهـمـ خـصـومـاتـ دـامـيـةـ توـرـطـواـ فـيـهاـ مـتـجـاهـلـيـنـ تـامـاـ وـجـودـ الـحـكـوـمـ الـمـرـكـزـيـةـ . وـزـادـ فـيـ شـقـاءـ النـاسـ تـرـددـ الـجـنـوـدـ الـانـكـشـارـيـةـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ مـنـ وـقـتـ إـلـىـ آـخـرـ لـيـقـوـدـواـ الـكـثـيـرـيـنـ جـهـارـاـ إـلـىـ حـتـوفـهـمـ . وـكـانـ الشـعـبـ اـذـاكـ يـعـتـصـمـ بـالـاسـكـانـةـ وـالـخـيـبةـ وـالـنـتـكـرـ لـلـسـلـطـةـ وـالـتـشـاؤـمـ مـنـ نـتـائـجـ الـجـهـوـدـ . وـالـظـاهـرـ اـنـ رـوـحـ الـاـنـقـاضـ الـقـدـيـمـةـ ، الـتـيـ طـلـلـتـ اـنـ تـارـتـ عـلـىـ مـساـوـيـ الـحـكـمـ الـعـبـاسـيـ وـالـفـاطـمـيـ ، كـانـ قـدـ تـلاـشتـ . وـمـنـ هـنـاـ يـتـضـعـ اـنـ الـعـصـورـ الـتـيـ بـدـأـتـ «ـمـظـلـمةـ»ـ فـيـ عـهـدـ الـأـتـرـاكـ السـلاـجـقـةـ^٤ ، زـادـتـ ظـلـمـتـهاـ «ـحـلـوةـ»ـ فـيـ ظـلـ الـأـتـرـاكـ الـعـثـانـيـيـنـ ؛ وـفـيـ مـاـ كـانـ اوـرـبـاـ تـلـجـ عـصـرـ الـاـسـتـنـارـةـ ، كـانـ سـوـرـيـةـ تـلـمـسـ طـرـيقـهـاـ فـيـ الـظـلـامـ الـعـثـانـيـ الدـامـسـ .

كـانـ مـنـ اـوـلـ مـنـ تـحـسـسـواـ الـحـاجـةـ إـلـىـ إـدـخـالـ اـصـلـاحـاتـ جـارـفةـ ، وـالـحـدـدـ مـنـ اـسـغـالـ الـمـوـظـفـينـ ، مـصـطـقـيـ كـبـرـولـوـ ، الـوـزـيـرـ الـاعـظـمـ بـيـنـ سـنـيـ ١٦٩١ وـ ١٦٨٩ـ . فـقـدـ وـضـعـ مـنـ التـدـابـيرـ الـجـدـيـدـةـ ، تـحـسـيـنـ عـاـمـلـةـ غـيـرـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ الرـعـاـيـاـ ، مـاـخـطـيـ الـخـاـلـاتـ الـاـصـلـاحـيـةـ السـابـقـةـ ، الـتـيـ قـامـ بـهـاـ تـلـاثـةـ مـنـ بـوـاسـلـ الـسـلـاطـينـ هـمـ : سـلـيمـ الثـالـثـ (١٧٨٩ـ - ١٨٠٧ـ) وـمـحـمـودـ الثـالـثـيـ (١٨٠٨ـ - ٣٩ـ) وـعـبـدـ الجـيدـ الـاـولـ (١٨٣٩ـ - ٦١ـ) . ذـلـكـ اـنـ جـمـيعـ هـذـهـ التـدـابـيرـ الـاـصـلـاحـيـةـ بـقـيـتـ حـبـراـ عـلـىـ وـرـقـ ؟ فـمـاـ اـصـدـرـهـ مـنـهـ الـسـلـطـانـ سـلـيمـ تـحـتـ عـنـوانـ «ـنـظـاـمـيـ جـديـدـ»ـ (ـالـنـظـامـ الـجـدـيـدـ)ـ قـاوـمـ الـانـكـشـارـيـوـنـ وـالـمـوـظـفـوـنـ الـفـاسـدـوـنـ ؟ وـتـلـكـ الـتـيـ وـضـعـهـاـ الـسـلـطـانـ عـبـدـ الجـيدـ تـحـتـ عـنـوانـ «ـخـطـيـ شـرـيفـ»ـ (١٨٣٩ـ) وـ«ـخـطـيـ هـلـيـونـ»ـ (١٨٥٦ـ)ـ كـانـ الـقـرـضـ مـنـهـ إـزـالـةـ الـظـرـوـفـ الـمـعـجزـةـ الـتـيـ عـمـلـتـ الـرـعـيـةـ تـحـتـ وـطـأـهـاـ ، وـتـأـمـيـنـ جـمـيعـ الـرـعـاـيـاـ عـلـىـ حـيـاتـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ

(١) Lammens, Syrie, vol. ii, p. 62.

(٢) المـجـدـ ، صـ ٩١ - ٩٤ـ .

(٣) Relazione, p. 121.

(٤) رـاجـعـ مـنـ ٢٠٣ـ مـنـ هـذـاـ الـجـزـءـ .

وكرامتهم ، على اختلاف ملتهم وعناصرهم ؛ وإلغاء تلزم الفرائب ، واعتبار جميع الناس — على اختلاف لغاتهم وأديانهم — متساوين أمام القانون. إنما لم تتخذ التدابير المناسبة لوضع هذه «التنظيمات» موضع التنفيذ؛ وقد كانت على كل حال سابقة لأوانها^١ ، وعارضها فوق ذلك كله جماعة من الفقيهـ والمحافظـين المتنفذـين ، ولم يرضـ عنهاـ الـاجـانبـ الذين كانواـ يـمـتـعـونـ بـاـمـيـازـاتـ اـقـليـمـيـةـ اـضـافـيـةـ ؟ حتىـ انـ حـيـارـفـةـ اليـهـودـ وـالـنـصـارـىـ عـارـضـواـ إـبـطـالـ تـازـيمـ الفـرـائـبـ . ولـأـنـ كانـ السـلـطـانـ سـلـيمـ لمـ يـدـفـنـ حـيـاـ، شـأـنـ سـلـفـهـ عـبـدـ الـجـيـدـ الـأـولـ^٢ ، فـقـدـ كـانـ عـرـشـ الـخـاصـ ثـمـاـ لـحاـولـتـ الـاـصـالـحـيـةـ هـذـهـ . وـقـدـ أـدـىـ السـلـطـانـ مـحـمـودـ خـلـفـهـ الثـانـيـ ، وـأـعـظـمـ سـلاـطـينـ بـنـيـ عـثـانـ فيـ الـصـرـ الحـدـيثـ ، خـدـمـةـ قـوـمـيـةـ جـلـيـ عـنـدـمـاـ أـمـرـ ، فـيـ يـوـمـ مـشـهـودـ مـنـ يـاـمـ حـزـيرـانـ سـنـةـ ١٨٢٦ـ ، بـأـنـ تـنـطـقـ الـمـادـعـ الـمـصـوـبـةـ نـحـوـ الـكـنـتـاتـ الـيـ اـحـتـشـدـ فـيـ الـاـنـكـشـارـيـةـ ، فـكـانـ بـذـلـكـ نـهـاـيـتـهـ . وـمـحـمـودـ هـذـاـ هـوـ الـذـيـ اـخـذـ الـطـرـبوـشـ لـبـاسـاـ لـلـأـرـأـسـ ، فـدـعـاهـ رـعـيـاهـ — وـيـاـ لـفـرـابـةـ — بـالـسـلـطـانـ الـكـافـرـ .^٣

تدابير دستورية عقيدة

كـانـ الـبـطـلـ التـالـيـ الـذـيـ نـاضـلـ مـنـ اـجـلـ قـضـيـةـ التـحرـيرـ وـالـاحـلـاحـ مـدـحـتـ باـشاـ كـبـيرـ وزـرـاءـ الـدـوـلـةـ . بـدـأـ مـدـحـتـ حـيـاتـ الـمـسـلـكـيـةـ مـوـظـفـاـ حـكـومـيـاـ فيـ دـمـشـقـ^٤ ، وـلـهـ مـنـ الـعـمرـ ٢٢ـ سـنـةـ ، وـقـضـىـ مـنـ ثـمـ سـنـوـاتـ كـثـيـرـ يـعـمـلـ جـاهـداـ ، وـلـكـنـ طـيـ الـخـفـاءـ ، بـالـاشـتـراكـ مـعـ بـعـضـ الـذـينـ تـجـاـوبـتـ رـوـحـهـ مـعـهـمـ ، لـيـهـ لـبـلـادـهـ وـخـعاـ دـسـتوـرـيـاـ .

١) راجـعـ بـشـأنـ النـصـ التـرـكيـ : لـطـفـيـ ، تـارـيخـ (ـالـقـطـنـطـيـنـيـةـ ، ١٣٠٣ـ) ، جـ ٦ـ ، صـ ٦١ـ - ٦٤ـ ; Enver Z. Karal, *Osmanlı Tarihi*, V, *Nizam-i Cedit ve Tanzimat Devirleri* (Ankara, 1947), pp. 266-72. وـرـاجـعـ اـيـضاـ : انـ سـلـفـهـ عـبـدـ الـجـيـدـ الـأـولـ (١٧٧٤ـ - ٨٩ـ) اـبـدـ يـرـاعـيـ الـرـفـ الـذـيـ كـانـ يـوجـهـ بـمـجـزـ اـطـلاقـ الـأـتـراكـ لـنـفـذـةـ «ـغـيـورـ» (ـكـافـرـ) عـلـىـ غـيرـ الـسـلـمـيـنـ ، لـأـسـيـاـ الصـارـىـ اـحـتـارـاـ ، وـهـيـ مـنـ اـصـلـ فـارـسـيـ «ـغـاـورـ» يـعـنـيـ جـاهـدـ اوـ كـافـرـ . Edward Hertslet, *The Map of Europe*, (London, 1875), pp. 1002-5. وـرـاجـعـ اـيـضاـ : ١٢٤٥ـ - 49.

٢) انـ سـلـفـهـ عـبـدـ الـجـيـدـ الـأـولـ (١٧٧٤ـ - ٨٩ـ) اـبـدـ يـرـاعـيـ الـرـفـ الـذـيـ كـانـ يـوجـهـ بـمـجـزـ اـطـلاقـ الـأـتـراكـ لـنـفـذـةـ «ـغـيـورـ» (ـكـافـرـ) عـلـىـ غـيرـ الـسـلـمـيـنـ ، لـأـسـيـاـ الصـارـىـ اـحـتـارـاـ ، وـهـيـ مـنـ اـصـلـ فـارـسـيـ «ـغـاـورـ» يـعـنـيـ جـاهـدـ اوـ كـافـرـ .

٣) اـطـلاقـ الـأـتـراكـ لـنـفـذـةـ «ـغـيـورـ» (ـكـافـرـ) عـلـىـ غـيرـ الـسـلـمـيـنـ ، لـأـسـيـاـ الصـارـىـ اـحـتـارـاـ ، وـهـيـ مـنـ اـصـلـ فـارـسـيـ «ـغـاـورـ» يـعـنـيـ جـاهـدـ اوـ كـافـرـ .

٤) انـ الـرـاقـاقـ الـذـيـ كـانـ يـعـرـفـ بـ«ـالـسـقـمـ» (ـاعـمـالـ ٩ـ : ١١ـ) يـحـلـ اـسـ الـآنـ «ـشارـعـ مـدـحـتـ باـشاـ» .

وتجلت النتائج الأولى لجهاده فيبلاغ اذاعه السلطات مراد الخامس في ١٥ نوزن سنة ١٨٧٦، وردت فيه لفظة قانون اساسي^١ لأول مرة في الوثائق السياسية . وبعد حكم دام ثلاثة أشهر أصيب السلطان مراد بخلل عقلي ، فتولى السلطة مكانه اخوه عبد الحميد الثاني ، وهو الذي اعلن رسبياً ، في ٢٣ كانون الاول ، صدور دستور وإنشاء مجلس نيابي . وكان مدحت ، بوصفه كبير الوزراء ، هو الذي اقترح نص الدستور ، وجرى في وضعيه على سياق الدستور الفرنسي والدستور البلجيكي . وقد نصّ على ان جميع الرعایا ينبغي ان يدعوا اثنانين ، وان يتمتعوا بالحرية الشخصية ، واعتبر الاسلام دین الدولة الرسمي . وقد استعمل كذلك على التدابير اللازمة للمحافظة على جميع الاديان المعترف بها ، وضمن حرية الصحافة في نطاق القانون ، وأقرّ مبدأ التمثيل الشعبي عن طريق هيئة ذات مجلسين : الاول مجلس نيابي ، والثاني مجلس شيوخ . على ان تكون ولاية الاول اربع سنوات ، وان يكون الممثل الواحد عن كل ٥٠ الف ناخب . لكن عبد الحميد ، كعادت الحوادث في ما بعد ، كان يومي من ادخال هذا التدبير السمح الى تقاديم التسلل من سلطنته ، والى كسب عطف الساسة في دول اوروبا الغربية ، اكثر مما كان يومي الى تحسين اوضاع رعایاه . في شباط التالي نفى مدحت باشا ، وفي السنة التي تلت حل الهيئة التمثيلية . على ان ضغط الانكليز حل السلطان على استدعاء مدحت ثانية ، وتعيينه حاكماً على سوريا . لكنه عاد فنفاه الى الطائف في الججاز ، حيث يظن ان عملاً الباب العالي اغتالوه سنة ١٨٨٣^٢ .

الظواهر الاجتماعية والاقتصادية

لم يتأثر وضع سوريا السياسي ، ولا تركيبها العنصري ، تأثيراً بالغاً بالفتح العثماني . فالتغير العنصري الوحيد الذي حدث في العهد العثماني كان طارئاً عابراً ، وقد تناول سكان البداية لا غير^٣ . فقد كان الترك يحيطون ويذهبون بحكم وظائفهم ، دون ان يستعمروا الارض ؟ فكانوا من ثم ، ورعاهم السوريون ، غرباء روحياً بعضهم عن بعض . ثم تسرب الى شمالي سوريا وشرق الاردن بضعة آلاف من الجراكسة

١) وقد استخدما من بعده خلفه عبد الحميد ؛ انظر : *'İlmiga Sâlnâmehsi*, (Constanti-nople, 1334), pp. 20-50.

٢) نشر ترجمة حياته ابنه علي حيدر مدحت بك في لندن ١٩٠٣ .

٣) راجع ص ٩٤ وما بعدها من هذا الجزء .

ال المسلمين ، وذلك على اثر الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، وقد دلّ لبنان بضعة الوف اخرى من اللاجئين الا من بعد الحرب العالمية الاولى ؟ فالقوله جنة من جنات الله . وقد بقيت العربية لغة الشعب ، ولم تستمد من التركية الا القليلاً قليلاً جلها يتصل بالسياسة او الجيش او الطعام^١

وكان حياة سورية الاقتصادية عرضة لتدحرج متواصل لم تكن الادارة العثمانية الفاسدة سببها الوحيد ، اذ عاصر اكتساح العثماني للشرق العربي تحول في خطوط التجارة العالمية ذهب باهمية البلد الاقتصادية . لقد كان ازدهار هذه المنطقة قائماً ، كما اشرنا تكراراً في ما سبق^٢ ، على التجارة لا سيما الحط الوacial بين الهند واوربا . على ان اكتشاف الملاحة البرتغالي فاسكوا داغاماً للطريق البحري بين اوربا والهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، ثم سفر فرديناند ميلان البرتغالي الى الشرق ببروره حول رأس اميركا الجنوبية سنة ١٥٢٠ ، مكتشفاً في طريقه جزر الفلبين ، بعد المغامرة البحرية الشهيرة التي قام بها خristoforos كولومبوس الجنوبي ، في رحلته^٣ ربيبة التي انتهت به سنة ١٤٩٢ الى اكتشاف اميركا ، جميع هذه ، وما شاهدتها من الاحداث ، ادخلت تعديلاً عظيماً على المسالك التي سلكتها طرق التجارة الكبرى . بحيث ازاح مركز النشاط العالمي والحضارة الانسانية نحو الغرب . فعصر الريادة والاستكشاف الذي يزغ في هذه الاناء لم يسمم العرب في قيامه . وعلى ذلك فقد دعى القائد البرتغالي افونسو البوكركي الى سحب السفن من البحار الشرقية ، وتيسير له بين سنتي ١٥٠٣ و ١٥١٥ ان يسط سيادة بلاده على تجارة خليج الفارسي وجزر اندونيسيا . واستطاع البرتغاليون بذلك ان يتقدروا على قرهان المتوسط ، ويتجاوزوا عن البلدان العربية التي دان اهلها بغير دينهم ، وتقاضى تجارة روسماً باهظة على السلع العابرة . وهكذا ، فالمتوسط الذي كان بالمعنى الصحيح ، حتى آتئذ بحراً متوسطاً ، لم يعد الآن يلأ هذا الموقع المقام ، وكان لا بد من ان يمر عليه ثلاثة قرون ونصف القرن حتى تشق قنطرة السويس ، ويعود كما كان طريقاً للتجارة وميداناً للحرب .

١) منها : باشا ، وبيرق ، وبطة ، وجلوش ، وبرغل ، وقاورمه . وبعض الالفاظ التركية المتتبعة ترجع الى اصل يوناني او فارسي .

٢) راجع الصفحتين ٣٨٩ وما بعدها من الجزء الاول ومن ٢٥٦ و ٢٧٧-٢٧٨ من هذا الجزء .

وعلى ذلك فقد اضطر التجار السوريون بعد الآن ان يجعلوا جلّ اعتمادهم على التجارة البرية. وأخذت من ثم مدينة حلب في طريق الازدهار، اذ كانت رأس الخط التجاري الذي ينتهي الى بغداد فالبصرة. وصارت مركز التجارة الخليلية في الامبراطورية، ومنتهي خط التجارة العالمية المتداة بين اوروبا وآسيا. وهكذا عكست حلب من التفوق على دمشق الى حين، بينما استطاعت الاسكندرية وطرابلس ان تترنزا من بيروت مكانة مرفها التجاري^١؟ بل ان حلب بقيت حتى منتصف القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الادنى جملة^٢. وقد نشأ في مدينة حلب مستعمرة من اهل البندقية ذات شأن، تحدثت تقاريرهم القنصلية عن وصول قرافل محملة بالتوابل الى حلب ودمشق من الهند لمساهم الحاص. وكانت الحاجة ماسة الى التوابل في تلك العهود التي سبقت عصر التبريد الصناعي.

وسرعان ما ظهر للتجار البندقين، في المدن والمرافق السورية، مزاحمون من الفرنسيين الذين كانوا قد سبقوها الى انشاء قنصلية لهم في حلب. وقد ذُعم احمد قاتلهم سنة ١٦٨٣ ان هذه المدينة «اكبر المدن في الامبراطورية التركية جملة»، وأنجلها وأغناها بعد القسطنطينية والقاهرة^٣. وعلى اساس معاهدة الصلح، التي عقدها السلطان سليمان مع فرنسيس الاول سنة ١٥٣٥^٤، نشطت التجارة الفرنسية وأدت الى اتساع النفوذ الفرنسي في الشرق الادنى. وفي سنة ١٧٤٠ وقع محمود الاول معاهدة مع لويس الخامس عشر فتح بوجهها البلدان المقدسة، ليس للحجاج الفرنسيين وحدهم، بل بجميع المسيحيين الذين وفدوها على الامبراطورية العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي. ثم اخذ الفرنسيون هذه الامتيازات اساساً لحق حماية جميع المسيحيين الكاثوليك في سوريا^٥. وكان الفرنسيون في غير حلب جاليات، في الاسكندرية واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا والرمليه. ولم يعم التجار الانكليز ان جروا في اثر

(١) راجع بشأن هذه المرافق F. Charles-Roux, *Les Échelles de Syrie et de Palestine au XVII^e siècle* (Paris, 1928), pp. 5 seq.

(٢) انظر : Sauvaget, *Alep*, p. 201..

(٣) انظر : D'Arvieux, *Mémoires* (Paris, 1735), vol. vi, p. 411..

(٤) راجع من ٣١٣ هذا الجزء.

(٥) انظر : De Testa, vol. i, pp. 186 seq.; F. Charles-Roux, *France et chrétiens d'orient*, (Paris, 1939), pp. 68-77.

الفرنسيين، وأخذوا يحملون تباعاً محل تجارة البندقية وجنوبي، في المدن والمرافق، السورية. وما ان تأسست شركة الشرق الادنى سنة ١٥٨١، في عهد الملكة الصابات، حتى اخذ رجال الاعمال الانكليز يتذدقون على سوريا، في حين ظلت حلب مركز الحركة الرئيسي^١. ويستدل من القارier الفنصلية انه كان في حلب سنة ١٦٦٢ نحو من ستين تاجرآ انكليزياً. ويدرك شكسيرو^٢، عن قرينة احد الملاحين، «ان زوجها ارتحل الى حلب». وكانت الجوابي الاوروبية بجملتها تعد نحواً من ٢٠٠ نفس^٣. وكان هؤلاء التجار يحاولون ان يشعروا الذوق الفوري للكماليات الشرقية الذي توثق ابان المصر الصليبي. وتخلف عن نشاطهم هذا عردة الحمورة الى الطريق البرية القديمة. أما جدول المنتجات المحلية فقد كان في رأسه الحرير من لبنان؟ والقطن من فلسطين، ثم الصوف والزيت. وكانت المنافسة بينهم وبين تجار البحر شديدة، لكن حرص التجار البرتغاليين على ابقاء الاسعار عالية مجبرتهم كاد الامر يكون احتكاراً تركاً لتجار السوريين مجالاً رحباً للاستفادة.

وكان لكل من الجوابي التجارية خان خاص تعينه لهم الحكومة. وكان الحان النموذجي بناءً مربعاً ذات دورين، في وسطه ساحة واسعة مكشوفة. يستخدم الدور الاسفل منه مستودعات للبضائع، ويشمل الاعلى على غرف يأوي اليها التجار. وكان هؤلاء التجار، بوجه العموم، عازبين؛ كانوا يرتدون الملابس الاقليمية. ولم يكن يسمح لهم — حفاظاً عليهم — بالبقاء خارج المدينة بعد غروب الشمس، الا ان احكام القضاء المحلي، عملاً ببنود الاتفاق، لم تكن تطبق بحقهم ولا يزال بعض هذه الحالات قائماً الى الان، فالحان الذي بني في عهد فخر الدين الثاني (ت ١٦٣٥) في صيدا الفرنسيين — مثلاً — تشغله اليوم راهبات القدس يوسف.

والذى يبدو، ان سوريا لم تجن، من هذا التوسيع التجاري الجديد منافع دائمة، اذ كان معظمها في يد التجار الاوربيين. واما ابناء البلاد فقد استمروا في طريق الانحدار ثروة وعددًا. وهذا فولني^٤، الذي زار حل سنة ١٧٨٤ او ١٧٨٥، يقدر

١) انظر : Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company* (Oxford, 1935) pp. 11, 75 seq.

٢) في مسرحية مكبث ، الفصل الاول ، المشهد الثالث .

٣) انظر : Grant, *Syrian Desert*, p. 93

٤) كتابه . Voyage en Syrie et en Egypte 2nd ed. (Paris, 1787), vol. ii, p. 135.

انه لم يبقَ هناك من القرى الثلاثة الاف والمتين ، التي كانت تدفع الضرائب في ولاية حلب ، في مستهل العهد العثماني سوى نحو اربع مئة وهو امر يكاد لا يصدق . ويعجب ان عدد سكان المدينة لم يزد عن مئة الف^١ . في حين ان التقارير القنصلية العائدية الى اواخر القرن السادس عشر تجعله بين ضعفي هذا العدد واربعة اضعافه^٢ . بل ان مؤرخاً تركياً مشهوراً^٣ قد ذكر ان مصلحة الجباية في حلب كانت ، حتى سنة ١٧٤٠ ، من المناصب المرغوب فيها جداً ، اذ كان بامكان صاحبها ان يجمع من المال ما يكفيه لشراء وزارة ، لدى عودته الى العاصمة .

وفي اثر التجار الاوربيين ، جاء المرسلون والمعلمون والساخون والمستكشفون ، وهكذا فتحت ابواب في وجه المؤثرات الحديثة ، وهي ظاهرة من اخص الظواهر في تاريخ سوريا العثمانية . وكان هؤلاء المرسلون جماعات من الجزوئيت والكتبوشين والمعازاريين ، وافراداً من بعض الرهبانت الكاثوليكية الاخرى . وكان مركز نشاطهم في الاوساط المسيحية الاهلية ، وانتهى بهم الى تأسيس الكنائس المعروفة « بالاتحادية » التابعة للكرسي الرسولي من سريان كاثوليك وروم كاثوليك وذلك في غضون القرن السابع عشر والثامن عشر^٤ . وقد تقبل لبنان ، في عهد فخر الدين الثاني وخلفائه المؤثرات الثقافية الغربية ، بصورة خاصة^٥ . فاقدم الجزوئيت ، الذين يعود نشاطهم في المنطقة الى سنة ١٦٢٥^٦ ، بالاشتراك مع الموارنة ، على انشاء اول مدرسة يجوز اعتبارها حديثة ، وذلك سنة ١٧٣٤ في قرية عين طورا من قرى لبنان . وعندما حملوا على ايقاف عملهم ، الى حين ، بعد ذلك باربعين سنة ، حلّ المازاريون في مراكم^٧ .

الظواهر الثقافية

كان هذا العصر ، من الوجهة الثقافية ، عصر جمود وعقم . ولا بدع فالحكم

(١) Volney, vol. ii, p. 139.

(٢) راجع : Berchet, pp. 59, 102.

(٣) جودت ، تاريخ ، ج ٣ ، (القسطنطينية ، ١٣٠٩) ، ص ٢٦٩ .

(٤) راجع ص ١٣٩ و ١٤٢ من هذا الجزء ; راجع ايضاً « لبنان ». (بيروت ، ١٣٣٤) ، ص ٤٦٥ وما بعد .

(٥) انظر الفصل التالي : « فخر الدين الثاني » .

(٦) راجع بعض تقارير الاول في مؤلف انطوان رباط Rabbath, *Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en orient*, vol. i (Paris, 1905) , pp. 38 seq.

الاعتباطي ، والضرائب الفادحة ، والتدھور الاقتصادي ، والانهيار الاجتماعي ، لا تغري بالابتکار الشخصي او الانتاج الخلاق في الفن والعلم والادب . فعصر المجمع والتعليق والاختصار والتقليد ، الذي بدأ قبل ذلك بقرون عديدة ، استمر في هذه الثناء ؛ لكن النتائج التي اعطتها كانت أقل واضعف . فالنصر العثماني بحملته لم ينجب شاعرًا شوريًا واحدًا ولا فيلوفاً ، ولا فنانًا ، ولا عالماً ، ولا منشأ ، من الطبقة الأولى . وكانت الأمية واسعة الانتشار ، بل كادت تكون جارفة . وقد عين من الفخاء من لم يكن يجيد الكتابة الصحيحة .

ولم تستطع عاصمة الامبراطورية الا جذب قليل من المفكرين ، كل المؤرخ نعيم الخليبي (حوالي ١٦٦٥ - ١٧١٦) ليصبحوا عثاني الصبغة .

فمن المؤرخين واصحاب السير ، الذين اعتمدناهم في اعداد هذا الفصل ، احمد بن سنان القرمي (١٥٣٢ - ١٦١٠)^١ ، وكان موظفًا في حكومة دمشق ؛ ونجيم الدين الفزري (١٥٧٠ - ١٦٥١)^٢ الحدث والاستاذ في دمشق ؛ ومحمد المحبي (١٦٩٩ - ١٦٥١) الذي كان كذلك استاذًا مرموقًا في دمشق . والظاهر ان دمشق كانت ، حتى اوائل القرن الثامن عشر ، مركزاً فكريًا ، في حين كانت حلب مركزاً مالياً . حصل المحبي علومه في الاستانة ، وعمل الى حين مساعدًا قضائياً في مكة . وكان مؤلفه الرئيسي كتاب سير جمع فيه الفتاوى ومئتين وسبعين سيرة من سير اعلام الرجال الذين توفوا في القرن الحادي عشر الهجري (١٥٩١ - ١٦٨٨) . وفي دمشق وضع المقرى التلمساني (ت ١٦٣٢) ، ما بين ١٦٢٨ - ١٦٣٠ ، مؤلفه الضخم الذي يعتبر المصدر الرئيسي لتأريخ الاندلس الادبي^٣ ، من مواد كان قد احضرها معه من مراكش . ومن اعلام دمشق الجديرين بالذكر عبد الغني النابلسي (١٦٤١ - ١٧٣١) ، العالم الصوفي والسائح الجروال ، الذي لا تزال معظم مؤلفاته غير منشورة^٤ .

١) راجع ترجمته في كتاب محمد المحبي ؛ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ، ١٢٨٤) ج ١ ، ص ٢٠٩ - ١٠ .

٢) المحبي ، ج ٤ ، ص ١٨٩ - ٢٠٠ .

٣) هو كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، نشره دوزي في ٣ اجزاء (لدين ، ١٨٠٠ - ٦٠) .

٤) ذخائر الواريث في الدلالة على مواضيع الحديث ٤ اجزاء (القاهرة ، ١٩٣٤) .

ومن الاخباريين الذين استندنا اليهم في هذا الفصل ثلاثة من موارنة لبنان : البطريرك اسطفان الدوبي (١٦٣٠ - ١٧٠٤) وقد التحق ، وهو في السادسة عشرة من عمره ، بدائرة اللاهوت المارونية في روما التي كان البابا غريغوريوس الثالث عشر قد انشأها سنة ١٥٨٤ لاعداد الطلاب الموارنة للحياة الاكليروسية ؛ والامير حيدر الشهابي (حوالي ١٧٦١ - ١٨٣٥)^١ ، وقد كان يقيم في دارته في قرية شلان الصغيرة التي تشرف على مدينة بيروت ؟ ثم طنوس الشدياق (ت ١٨٦١) من ابناء الحدث المجاورة بيروت . وكان قاضياً تابعاً للامراء الشهابيين ، فدوّن اخبار الاسر الاقطاعية في لبنان .

وكانت دائرة اللاهوت المارونية في روما تتبع لنصارى لبنان هؤلاء فرصة نادرة لتحصيل العلم . فقد كان المتفوقون منهم على اقرانهم يختارون ليدرّبوا في تلك الدائرة ؟ وبعد ان ينهوا دروسهم يعود بعضهم الى وطنهم ليشغلوا سراً اكليروسية رفيعة ، ويبقى آخرون في روما يكثرون على الدرس والتأليف . وكان من اوائل المتخريجين المتباين جبراينيل الصهيوني (عرفه الالاتين بـ سيونيتا ، ١٥٧٧ - ١٦٤٨) . علم السريانية وال العربية في روما ، ثم عين استاذًا للغات السامية في مدرسة السريون في باريس . وهناك ساهم في اعداد نسخة التوراة ذات اللغات العديدة . ثم خلفه في عمله هذا مواطنه البناني ابراهيم الحاقلاني (او الحاقلي ١٦٠٠ - ٦٤) الذي كان قد تعلم في روما كذلك ، وكان استاذًا للغة العربية والسريانية في كلية الارسالية التبشيرية هناك . وفي سنة ١٦٤٦ عين الحاقلاني في منصب رفيع في « طيبة فرنسا » . وكانت توراة باريس ذات اللغات العديدة اول توراة من نوعها اشتملت على النص السرياني والنص العربي . وهناك عالم آخر من خريجي الدائرة المارونية ، لعله اشهرهم وابنائهم على الاطلاق ، هو يوسف سعفان السمعاني (١٦٨٢ - ١٧٦٨) ، الذي اتّحَفَ مكتبة الفاتيكان بعدد من خمسة عشر خطوطات الموجودة في مجموعتها الشرقية . فالمباحث التي انشأها السمعاني على هذه الخطوطات السريانية وال العربية والفارسية والتركية والجبلية والارمنية ،

^١ راجع حيدر ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، نشر اسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٣٣) قسم ١ ، من ٥ - ٨ من المقدمة ؛ راجع ص ٩٥ من هذا الجزء الحاشية رقم ١ .

والتي اقتضته القيام برحلتين الى الشرق، قد جمعت في موسوعته الكبيرة «الموسوعة الشرقية» *Bibliotheca Orientalis* (اربعة مجلدات، روما ١٧١٩ - ٢٨) التي لا تزال مصدرأً رئيسياً لمعرفتنا عن كنائس الشرق . وفي سنة ١٧٣٦ او فد البابا السمعاني الى السينودس الماروني الذي عقد في الوليزه في لبنان ، ليعمل على توثيق الصلة بينهم وبين الكرسي البابوي^١ . وكان من اللبنانيين الذين تعلموا ايضاً في روما، ودرّسوا العربية فيها ، ميخائيل الغزيري (١٧١٠ - ٩١) . فقد ترأس ادارة مكتبة الاسكوريال في اسبانيا ، وفهرس فيها الخطوطات العربية البالغة الفأ وثمان مئة عدداً . وقد كانت مآثر هؤلاء العلماء الموارنة من خريجي روما ، هي التي اوقفت اوربا الحديثة للمرة الاولى ، على اهمية اللغات والاداب الشرقية ، ولا سيما من وجهاتها المسيحية .

الآلية الطابعة

تبيّن دير قرخيما في لبنان بأنه افتتح اول مطبعة في الشرق العربي . واصل هذه المطبعة غير معروف على وجه التحقيق ، لكن الراجح ان احد اعلام اللبنانيين الذين درسوا في روما احضرها معه الى هذا الدير . وقد اخرجت هذه المطبعة سنة ١٦١٠ سفر المزامير مطبوعاً باللغة السريانية ، وباللغة العربية مكتوبة بالحرف السرياني^٢ . وكانت اللغة السريانية لاتزال رائجة في اوساط الموارنة ، كما شهد بذلك السائحون من الاوربيين ، والمتقونون منهم . فقد ورد في ما كتبه دارثيو^٣ على اثر زيارته الى لبنان سنة ١٦٦٠ ، ان اسقف اهون كان يتكلم السريانية والعربية بطلاقة تامة . على انه ، ما كاد القرن ينصرف ، حتى كانت اللغة السريانية قد ماتت كلفة محكمة . وقد تبيّن لتوالني^٤ ، من الاستعصاء الذي قام به ، ان

١) راجع بشأن تأثير السمعاني في التقارب بين الموارنة وروما تاريخ الدير ج ٨ ص ٥٦٤ - ٦٨ . Rabbath, vol. i, pp. 181-82

٢) تعرف هذه الكتابة بـ الكرشوني ، راجع ص ١٧٢ من هذا الجزء ، راجع ايضاً Joseph Nasrallah, *L'Imprimerie au Liban*, (Harissa, 1949), pp. 2-6 . لويس شيكو ، تاريخ فن الطباعة في الشرق ، مجلة الشرق ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٥١ - ٥٧ - ٦٢ - ٣٥٥

٣) البلد ، من ٤٠٧ .

٤) البلد الاول ، ص ٣٣١ - ٣٢ .

السريانية كانت لا تزال الى عهده لغة محكية في قريتين من قرى لبنان الشرقي، وهي في الواقع لا تزال حتى الآن تحكم في ثلث منها^١.

وأول آلة طابعة استخدمت الحروف العربية ظهرت في حلب سنة ١٧٠٢، وذلك بفضل البطريرك انثاسيوس دباس الذي تنقل ما بين المذهبين الارثوذكسي والكلاثوليكي. اما الآلة الطابعة نفسها فالراجح أنها استقدمت من ولاخيا، لكن الفضل في اعداد امات الحروف، انا يعود الى عبدالله زاخر، الذي ارتحل الى الشوير من قرى لبنان. وانشأ سنة ١٧٣٣ مطبعة جديدة. وكانت الانجيل من الكتب الاولى التي طبعت بالعربية، وذلك سنة ١٧٠٨ في مطبعة حلب^٢. واصلت مطبعة ولاخيا كذلك شدید التموض. فقد جاءت بعد المطبعة العربية الاولى في العالم، التي كانت قد ظهرت في فانو بيطاليا، قبل ذلك بنحو من مئة وثمان وثمانين سنة^٣. والراجح ان الفضل في اختراع هذه المطبعة عائد الى الرغبة البابوية. وربما كانت ام المطبعة الخليجية. ثم تبع هذه المطبعة مؤسسات طابعية اخرى في لبنان، كان جل انتاجها كتبًا دينية ومدرسية، استخدمت لاستكمال المهام المدرسية. وعلى هذا النحو جرى ببطء، ولكن بعزم اكيد، اعداد الوسائل الازمة، واستخدامها في انشاء حياة ثقافية جديدة.

١) راجع من ١٧١ - ١٧٢ من هذا الجزء.

٢) نصر الله، ص ١٧-٣٢.

٣) راجع حتى The First Book Printing in Arabic » The Princeton University Library Chronicle, vol. iv (1942), pp. 5-9.

الفصل التاسع والربعون

أمراء لبنان المعنّيون والشّهابيون

ان ما عالجناه في الفصل السابق من اكتشاف البلد السوري باجمعه لمؤثرات الحضارة الغربية، وما نحن في صدده هنا من تحول لبنان الى وحدة سياسية قائمة بنفسها، هنا حدثان من ابرز الاحداث التي استجدة في العصر العثماني . وحول هذين الحدفين ، وما رافقهما من مساوى الحكم العثماني ، يسوغ تركيز اكثر الحوادث التي وقعت في هذا العصر .

فقد بدأ المعنّيون ، على اثر الفتح العثماني ، يملون محل التنوخيين^١ في السيطرة على لبنان الاوسط والجنوبي . والى الشمال بسط بنو عساف نفوذهم ، وكان السلطان سليم قد ثبت زعيمهم على كسروان بعد ان أطلقها جبيل^٢ . وبلغ بنو عساف اوج عزهم في ابان امارة منصور (١٥٢٢ - ٨٠) الطويلة ؟ وكانت مقاطعته تتد من جوار بيروت جنوباً حتى عرقه ، الى الشهال من مدينة طرابلس . وانخذ بنو عساف بلدة غزير قاعدة لامارتهم ، ولا تزال بقايا مبانيهم بازرة للعيان حتى اليوم . وفي سنة ١٥٩٠ انتقل تراث هذه الاسرة السياسي الى اسرة منافسة لها هم بنو سيفا في طرابلس ، وكانوا من اصل كردي . وهم الذين عدوا على آخر حاكم من بنى عساف^٣ فقتلاه . وكان العرف الذي جرت عليه جميع هذه الاسر الاقطاعية يقضي ، في الغالب ، بان يقسم اميرها الاكبر ممتلكات الامارة الى اقطاعات يوزعها على من دونه من « المقدمين » او « الماشيخ » . وعلى هذا التحو كان الشهابيون – وم

١) لا تزال بعض مبانيهم قائمة في عبيه بينما ملفن السيد عبد الله التوخي (ت ١٤٨٠) الذي لا يزال حجاج الدروز يتذدون اليه حتى الآن .

٢) راجع من ٣٠٨ من هذا الجزء .

٣) التوسيي ص ١٨١ ، حيدر ، تاريخ ص ٦٠٢ ؛ شلياق من ٣٥٠ .

خلفاء المعينين — قد اقاموا في اوائل القرن الثامن عشر، آل جنبلاط على الشوف وأآل اي الملح على المتن، وأآل تلحوظ على الغرب الاعلى، وأآل ارسلان على الغرب الادنى، وأآل الحازن على كسروان^١. وكان للوارنة مقدمون، وكان على هؤلاء المقدمين ان يجبروا الجزية المستحقة عليهم ويتزودوا الى الحكومة العثمانية. وكان من ابرزهم مقدمو بشري والبتوون وجبيل^٢. ولا كان اسكتور اللبنانيين من الموارنة والدروز، فقد كانوا يخضعون، بوجه العموم، لشرائع طوائفهم، فيتولى الرؤساء الدينيون تطبيق هذه الشرائع، كل في ملته الخاصة تبعاً لنظام الملي.

والذى يشهد على ان لبنان كان في حكم الامراء الاقطاعيين الاهليين اشد ازدهاراً من سوريا وهي تحت الحكم التركى؛ ازدياد عدد سكانه ازدياداً طبيعياً، عن طريق تدفق المجرة اليه. فات استقرار الوضع، وانتشار الامن — ولو نسبياً — في ربوعه، اجتذب السنين من البقاع الى ساحل علما والقرى المجاورة، والشيعين من بعلبك الى جبيل ومواطن اخرى في كسروان. وانتشر الموارنة من منطقة طرابلس في اتجاه جنوبى حتى سفوح التلال القائمة الى الشمال من جونية، وانساح الدروز في اتجاه شمالي نحو بربانا وسواها من قرى المتن^٣.

وقد شغل النزاع على السلطة في النطاق المحلي، وعلى الصعيد الوطنى بالوسائل السلمية او الاساليب العنيفة مقداراً غير قليل من الوقت والجهد الذي بذله الامراء والمقدمون والشياخ. وكان هؤلاء الزعماء الاقطاعيون احياناً يشتغلون في نزاع مسلح مع اسيادهم في القسطنطينية. ففي سنة ١٥٨٤، هوجمت قافلة من الانكشاريين

(١) هي اسرة كردية جاءت من منطقة حلب واسها في الاصل جانبولاد؛ شدياق من ١٣٠ . وأآل جنبلاط اليوم على المذهب الدرزي وهم من الاصناف الملقونة سلالياً بالشياخة. اما الشاهيون فينقبون بالامراء ولا يزال بعضهم على الاسلامية لكن اكرم على المذهب الماروني.

(٢) رفع المعيون من «مثابق» الى «امراء» على يد احمد الحكم الشهابيين سنة ١٧١١ (شدياق ، ص ٦٧)؛ وقد كانوا على الدرزية لكمهم اليوم مارونيون جيماً. اما آل تلحوظ فقد جاءوا الى لبنان من شالي افريقيا في موكب الفاطميين (قابل : شدياق من ١٥٥ ، وهذا الرقم قد وضع على صفحتين من النص الاصلي الذى اعتدناه؛ وقد ورد هذا الترقيم المكرر في مواضع اخرى ايضاً). وهم الآن من مثابق الدروز . اما آل الحازن فمن مثابق الموارنة ، شدياق ، ص ٧١ وما بعد .

(٣) للإضافة عن المقدمين راجع شدياق ، ص ٢١٧ - ٢٢٣ .

(٤) الوجيهي ، ص ١٥٣ ، شدياق ، ص ٢١٥ .

كانت مارة في لبنان ، وسلبت مبالغ كبيرة من المال هي الفرائب التي جبيت من فلسطين ومصر . وكانت القافلة المذكورة عائدة بها إلى خزينة الدولة في العاصمة . فقضب السلطات ، ووجه إلى يوسف سيفا — أذ وقع الاعتداء في منطقته — حملة تأديبية أضرمت النار في كثير من قراها . ثم وجه حملة ثانية إلى الدروز في الجنوب ، على اعتبار أنهم مدبرو العدوان ؟ واقتصر منهم قائد الحملة التركي — وهو آنذاك إبراهيم باشا وإلي مصر — بقتل خمس مئة إلى ست مئات من وفود الدروز الذين جاءوا لمقابلته في عين صوفرا^١ ، و ٦٠ الفاً من الأهالي ، وذلك بعد أن جردهم من السلاح . وكان أمير جبل الدروز (وهو الاسم الذي عرفت به هذه المنطقة من لبنان) حينذاك قرقماز (أو قرقاس) ، وكان قد خلف أبيه فخر الدين الأول سنة ١٥٤٤ . فلبعا إلى قلعة نيقا (سقيف تيرون) قرب جزين . وهناك ادركته الوفاة . ويظن أن بعض علماء الباب العالي قتله بالسم . وكان أبوه قبله قد قتل غدرًا كذلك ، بابيعاز من وإلى دمشق . وخلف قرقماز ورائه ابنًا كان له من العمر اثنتا عشرة سنة سمى باسم جده: فخر الدين، وارملته اخفت ابنها هذا عند آل الخازن في كسروان^٢ .

تولى الفتى فخر الدين الحكم مكان أبيه سنة ١٥٩٠ . وفي عهده بلغت سلطة المعنيين أوجها . وكانت بلا ريب أقدر الشخصيات واجبها إلى الناس ، في تاريخ لبنان المئاني أن لم يكن في تاريخ سوريا يجملتها . فقد تولى الحكم وقلبه يتقد بثلاثة مطامح : اقامة لبنان على نطاق أوسع ، وقطع آخر صلة له بالباب العالي ، ثم السير ببنان في طريق التقدم والازدهار . ولا شك أن هذه الأهداف الثلاثة كانت تتل ميلولا راهنة عند اتباعه ورعاياه وقد دعى إلى تحقيق هذه الأغراض بوسائل شتى منها: التزاوج ، والرشوة ، والدس ، والاحلاف ، والقتال ؛ وجمعها من الوسائل المسلم بها في ذلك العصر .

تسلم فخر الدين من السلطان سنجق بيروت وسنجق صيدا . فحمل على جاره ، وهو الدروزوجته ، يوسف سيفا . وبعد معارك عديدة انتزع من يده السيطرة على لبنان الشمالي . ولم يلبث بنو حروفوش من شيعة بعلبك ، وزعماء البدو في البقاع

١) الديوري ، ص ١٧٨ ؛ حيدر ، تاريخ ص ٦١٨ - ١٩ .

٢) شهابي ، ص ٨١ ؛ الملوف ، تاريخ الأمير فخر الدين الثاني ، ص ٤٨ .

وفي المنطقة الجنوبيّة حتّى الجليل ، انت خضعوا لامير لبنان الناهض . وقد كان السلطان احمد اندراك متورطاً في قتال المغفاريين والقرص ، فلم يلتقط إلى هذا التابع اللبناني . وكان إلى ذلك كله تأثير من زعماء الأكراد اسمه على جانبولاد^١ قد استأثر بالحكم في ولاية حلب سنة ١٦٠٦ . فانتهز فخر الدين هذه الفرصة وعقد محالفه مع حاكم حلب المطلق . وقد ذكر جورج سانديز^٢ ، الرحالة الانكليزي الذي زار لبنان سنة ١٦١٠ ، أن ساحل البحر من نهر الكلب إلى جبل الكرمل ، ومدن صفد وبنias وطبرية والتاصرة ، كانت داخلة في سلطة فخر الدين . وهذا التوسيع إلى الجنوب وضع في يده حصوناً كانت منذ عهد الصليبيين تسيطر على الطرق والمواقع ذات الخطورة الحربية ؟ كما انت الحال سهل البقاع الحصيبي بمنطقة نفوذه زاد في دخله ، بحيث مكنته هذه الزيادة من ان يعد جيشاً مدرباً منظماً ، انشاء حول نواة من الجنود المحترفين ، يدعم به الجنود القدامى غير النظاميين الذين كانوا عاجزين تماماً عن الوقوف في وجه الانكشارية^٣ . وكانت ما بقي من الواردات يكفي لتنطيط نفقات الجلواسيس الذين استخدمهم في قصور منافيه وخصوصه . ويني برسوة الموظفين الاتراك^٤ . وكانت التجارة التي تسلطها مورداً آخر من موارد الثروة ، لاسيما التعامل مع تجارة فلورنسا ؟ اذ كانت سفن هؤلاء التجار تؤمن الاسواق الخارجية والصفقات الراجمة لمنتجات لبنان ، من الحرير والصابون . وزيت الزيتون والقمح وسواء من الحبوب . وفي سنة ١٦٠٨ عقد امير لبنان معاہدة مع فرديناند الاول ، دوق تスکانيايا الأكبر من موتشي — وهو صاحب فلورنسا — اشتغلت على بنود عسكرية سرية موجهة ضد الباب العالي^٥ . وعلى الأثر قرر السلطان ، باتفاق من حافظ باشا وإلى دمشق ، ان يتخذ تدابير فعلية بحق مولاه الواقع ، ويضع حدأً لحركته الانفصالية

(١) هو احد اسلاف آل جنبلاط اللبنانيين ، راجع من ٣٢٦ من هذا الجزء ، ح ١ .

(٢) انظر 211-12 A Relation of a Journey, 2nd ed. (London, 1621), pp.

(٣) المي، ج ٣ ، ص ٤٦٧ : قابل : d'Arvieux, vol. i, p. 438.

(٤) قابل : d'Arvieux, vol. i, p. 457.

(٥) راجع بشأن هذه المعاہدة وسواها ما عقد مع حكام المقاطعات الإيطالية : Paolo Carali [Qara 'li] Fakhr ad-Din II e la corte di Toscana (Rome, 1936-8), vol. i, pp. 146 seq., vol. ii, p. 59 ; G. Mariti, Istoria di Faccardino grand-emir dei Drusi (Livorno, 1787), pp. 74 seq.

وسياسته التوسعية . فوجه اليه ، سنة ١٦١٣ من دمشق ، جيشاً لم يتمكن من ان يقوم بعظام امر في ثنایا الجبال . لكن عندما اقبلت عماره من الاسطول مؤلفة من ستين بارجة لحصار الشاطئ ، اضطر فخر الدين الى ان يأنثر بوحى العقل ، وعدد الى التراجع . ووافق آنذاك وجود ثلاث سفن في مرفأ صيدا حملته مع احدى زوجاته وموكب من اصدقائه ومربيده الى ايطاليا^١ ، وترك الامارة امانة في يد ابنه علي يساعد له اخوه يونس .

مكث فخر الدين في اوربا خمس سنوات (١٦١٣ - ١٨) زار في خلالها ليغورن ، وفلورنسا ونابولي وبالرمي ومسينا ومالطا ، وسواءا من الاماكن المأمة ، وشرب فيها من الافكار ما قوى اعتقاده بصحة المبادئ التي عمل سابقاً بوجها ، بدلاً من ان يضعفه بشانها ويجعله عنها . الا انه اصيب بجذبة واحدة هي ان مسامعه ليعود مصحوباً بحملة من الدول الاوربية والبابا ذهب سدى . وفي اثناء وجوده هنالك اخترعت الاسطورة التي تروي ان الدروز نشأوا اصلاً من مستمرة الكونت دي دريه الصليبية^٢ .

واخذ فخر الدين ، فور رجوعه ، جميع التدابير لاسترداد المناطق التي سلخت من امارته في اثناء غيابه ، لاسيما تلك التي استولى عليها بنو سيفا . على اثر وفاة زعيمهم الاكبر يوسف ازاحت من طريق فخر الدين حبيبه والد ادائه ، وحار الطريق شهلاً وجنوبياً مفتوحاً امامه . وبذلك نهضت الدولة اللبنانيّة القديمة ثانية ودرجت في سبيل التوسيع . وفي سنة ١٦٢٢ اكرمه الباب العالي بالحاق سنجق عجلتون وسنجرق نابلس بولايته . وبعد ذلك بستين وجد الباب العالي نفسه مضطراً لأن يعترف بالامر الواقع ويثبت فخر الدين سيداً على « عربستان » من حلب الى حدود مصر . وهذا الفزم الذي قال خصمه في وصفه انه كان من قصر القامة بحيث لو سقطت بيضة من جيده الى الارض ما انكسرت^٣ ، كان الرجل الوحيد الذي

١) احد خaldi الصقلي ، تاريخ الامير فخر الدين ، نشر اسد دسم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٣٦) ، ص ١٧ - ١٩ .

٢) انظر Volney , vol. ii. pp. 40-41.

٣) المأثور ، ص ٢١١ . قال Sandys من ٢١٠ في وصفه « امه فخر الدين ؛ قصير القامة لكنه عظيم الشجاعة كغير المأثر ينافس الاربعين عمرأ وتبه التغلب فطانته . ولا يتعرج كثيراً عن الاستبداد والتحكم . لم يباشر في قتال ولا اقدم على تدبير دون ان يستثير والدته »

استطاع ان يحافظ على الامن . ويحكم بالعدل ، ويزمن تحصيل الفرائب القانونية^١ له والسلطان .

وفي السنة التي تلت تنصيبه حاكماً على سوريا ، نشبت بين رجاله وجيشه مصطبة باشا والي دمشق ، معركة عنجد عنجر في البقاع وقع فيها الوالي اسيراً ، لكن فخر الدين اطلق سراحه فوراً^٢ . وتفرغ الامير ، في غضون السنين الاحدي عشرة التالية ، للعمل على تحقيق مطمحه الثالث ، وهو رفع المستوى الحضاري في لبنان . فاستقدم من ايطاليا مهندسين مدنيين ومهندسين لري وخبراء زراعيين ، استخدمهم في مشاريعه العامة والخاصة . واستدعاي ، على ما في الوثائق ، ارساليات من توسكانيا لتوجيه الفلاح اللبناني في تحسين وسائل الحراثة . وارسل في طلب الماشية لتحسين الاصناف المحلية^٣ . وقد جلّ بيروت وحصتها ، وبنى لنفسه فيها مسكنًا فخماً احاطه بجدرة غنا . وقد زار موندل^٤ هذه الحديقة سنة ١٦٩٦ ، فوجده فيها قواعد للتاويل «ما قد يدل على ان هذا الامير لم يكن ممدياً غيره» . وله في صيدا قصر غير مكتمل^٥ البناء ، يقوم تجاه خان بني ليكون تزالاً للفرنسيين^٦ . وفي هذا المهد وفدت على صيدا ارسالية كبوشية انشأت لها سراكنز في بيروت وطرابلس وحلب ودمشق ، وفي بعض قرى لبنان^٧ . ووفد ايضاً حوالي هذا الوقت على هذه البلاد ، المسؤول البصوعيون والكرمليون^٨ . وقد شجع هجرة النصارى من شالي لبنان الى جنوبية ، رغبة منه في تنشيط الزراعة ؛ ورحب بقدوم اصدقائه الجنبلاطين من

(١) عرف باللغة الفارسية بالميري اي : المال الاميري وهو ما وجب للحكومة .

(٢) الملوف ، من ٢٣٢ - ٢٣ : قابل : التوبيخ ، ص ١٩٨ - ٩٩ .

(٣) انظر Carali , vol. ii, p. 52

(٤) انظر Henri Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem*, 8th ed. London, 1810) . وقد نسب فولني في سياق حديثه رحلته ج ٢ ، من ١٧٢ غرس حرج الصنوبر خارج مدينة بيروت خطأً الى فخر الدين والواقع انه كان قبل الحملات الصليبية . وله أعاد غرس المنطقة بالصنوبر .

(٥) راجع من ٣١٩ من هذا الجزء . كان مقام اسلاف المتنين في بعلبك ، والآثار التي خلفوها لا تزال هناك وفي دير القمر .

(٦) راجع Rabbath, vol. ii, pp. 464, 468, 473, seq.

(٧) راجع من ٣٢٠ من هذا الجزء .

حلب الى لبنان . وقرب منه الارساليات الاوربية ، والتجار والقناصل ، وكانوا يتمتعون بالامتيازات التي سمح بها سابقاً السلطان سليمان . ويبدو من تقارير القناصل انه كان يحمي التجار الاوربيين في صيدا من الفرسان^١ . وكان له طيبة عهده مستشارون من الموارنة ، كان في مقدمتهم ابو نادر الحازن ، وكان في الوقت نفسه قائدآ جليوشة . وقد رفع فخر الدين منزلة هذه الاسرة التي سبق لها ان حمته وربته يتيمآ ، من مستوى العاديين من الناس الى مستوى الماشيخ ، وذلك بأن وجه الى كبيرها رسالة خطابه فيها بـ « الاخ العزيز » وهو مقتضى العرف السياسي (البروتوكول) لمنح المشيخة في ذلك العهد^٢ . وبفضل الحكم الوراثي الذي تولته هذه الاسرة في كسروان ، غدت هذه المنطقة المسيحية ذات حظ وافر من الازدهار^٣ . وقد كان العالم الكبير الحاقلاني^٤ مدة من الزمان عبلاً له في ايطاليا ، وقد اودع عن يده في مصرف فلورنسا اموالآ ، حاول بعض افراد ذريته ، بعد مضي قرن من الزمان ، ان يستردوها على يد عالم آخر هو السمعاني ، ولكن بلا جدوى^٥ .

ثم ات العطف الذي ابداه فخر الدين نحو النصارى جعل البعض ينسبونه الى التصريانية . فقد ذكر عنه سانديز^٦ انه لم يعرف عنه فقط انه كان يصلى . ولا رأه احد في مسجد .اما دارقيو^٧ فقد اعتقد ان الامير كان على دين قومه « الذين لا دين لهم » ؛ ومن المحتمل انه كان هو وسائر المعنيين قد اعتنقوا الاسلام في الظاهر ، امام اصحاب السلطة من العثمانيين وامام جهور الناس ، ولكنهم احتفظوا خصباً بالدرزية ومارسوها مع ابناء قومهم . وفي وثيقة اخرى انه تنصر سنة ١٦٣٣ على يد كاهن كبوشي كان طبيبه الخاص^٨ .

١) انظر Berchet, p. 163.

٢) الملوف ، من ٧١ .

٣) شدياق ، من ٨٥ .

٤) راجع من ٣٢٢ من هذا الجزء . وكذلك Carali, vol. i, pp. 402-3.

٥) Carali, vol. ii, pp. 315-18, 378-88.

٦) Sandys, p. 210.

٧) d'Arvieux, vol. i, p. 367.

٨) انظر Carali, vol. ii, pp. 340 seq. . وقد وجد ، في ما ذكر ، صليب في اثوابه عند

موته ؛ الملوف ، من ٢٧٥ ؛ قابل : F. Wüstenfeld, *Fachr ed-Din der Drusenfürst und seine Zeitgenossen* (Gottingen, 1836), pp. 167-3.

وأشغال الأمير بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية لم تصرفه عن الاهتمام بمحاجات امارته العسكرية . فقد كان الدخل الحاصل من زيادة الحركة التجارية ، لا سيما في مرفأ طرابلس وصبرا ، ينفي بالغرضين معًا . وكانت غرامة شجر التوت آنذاك في عهد ازدهارها . وقد قدر الدخل السنوي في امارته بتسعة مئة الف ذهبية ، كانت حصة الخزينة الامبراطورية منها ثلاثة وأربعين الفاً . فاستقدم من تسكانيا لوازم حديثة جهز بها جيشاً تراوح عدده بين الأربعين الفاً والمائة الف رجل ، جلهم من الموارنة والدروز . وعمل على تجديد بعض الحصون القديمة ؛ ولا يزال احد قصوره يعلو رأيه في تدمر ويحمل اسمه الى اليوم . على ان هذه الزيادة النسبية في السلاح ، واتصال مفاوضاته مع الاوربيين ، وعطفه على النصارى ، اثارت مرة اخرى ظنون السلطان نحوه ، فأسر السلطان مراد الرابع والي في دمشق كوشك احمد باشا سنة ١٦٣٣ ، بالتوجه لقتال فخر الدين على رأس جيش كبير من جنود اناضوليا ومصر . وقام في الوقت نفسه استطول ، بامرة جعفر باشا ، بهاجة المرافق ، والمحصون الساحلية . وعندها اخذ اتباع فخر الدين من آل سيفا وحرفوش ومن اليمينين يتفرقون عنه . وسقط ابنه الباسل علي صاحب صدق شهيداً في معركة جرت قرب وادي التم ، عند سفح جبل الشيخ^{١)} . وارسل الامير في طلب العون من احلافه الايطاليين لكنه لم يظفر منهم بطال . فاختبأ في قلعة نيجا بضعة اشهر ، ثم تحول الى كهف حصين في جبل قرب جزين . لكن مخبأه هذا لم يليث ان اكتشف واقتيد الامير مكبلاً بالسلاسل مع ثلاثة من بنيه الى القسطنطينية (حوالي ١٠ شباط ١٦٣٥)^{٢)} . على انه استطاع بذلة لسانه ان ينجو من الموت — كما بحثت من قبل امارة جده^{٣)} — ولكن الى حين قصير ، فقد دافع امام السلطان عن نفسه قائلًا .

انني مظلوم فاجتى الرجال الابرار الورزا والتواب ، ولم ابني القلائع الا للدفاع عن حوزة البلاد ، وما قلت الا الذين مرقوا من طاعة الدولة . فاستوليت على حصونهم لاسلمها الى الحكومة العثمانية ، وأمنت طريق الملاجع من العرب من التعدي عليهم ، واديت الاموال الاميرية بأوقاتها ، وابعدت الشريعة الشريفة حافظاً على قوانينها وسنها (٤) .

١) المعجم ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

٢) الويهي ، ص ٤ - ٥ ; شدياق ، ص ٣٣٠ - ٣٥ ; المعرف ، ص ٤٨٦ - ٤٧٢ .
Carali , vol. ii, pp. 340-56.

٣) راجع ص ٣٠٨ و ٣٠٩ من هذا الجزء .

٤) المعرف ، ص ٤٧٣ ; قابل : شدياق ، ص ٣٣٦ .

وبقي مصير الامير المنفي معلقاً حتى بلغ الباب العالي ان أقرباه واتباعه قد نزدوا على السلطة الجديدة التي اقامها . وفي ١٣ نيسان سنة ١٦٣٥ احتز رأسه ورؤوس بنيه الثلاثة الذين كانوا قد اعتقلوا معه ، وعرض جسده في احد المساجد ثلاثة ايام^١ . وهذا الحكم الذي راوده بانشاء «لبنان اكبر مستقل» ونجح في وضع انسه ، حاول تحقيقه ثانية احد افراد ذريته . الامير بشير الشهابي^٢ . الا ان هذا الحلم لم يتحقق كاملاً حتى سنة ١٩٤٣ .

عهد من الفوضى

وعلى اثر ازالة فخر الدين من المسرح السياسي . طرأ على لبنان عهد مشؤوم من القلق والفوضى ؟ اذ عمد على علم الدين^٣ وهو الحاكم الذي عينه كوشك احمد باسم السلطان على لبنان الجنوبي - الى اتباع سياسة موالية للسلطة ، فاحتجرت ممتلكات المعنيين وعمل على اضطهادهم . وفي مأدبة اقيمت في عيده على شرفه ، انقض رجاله على مضييقهم من آل ترخ واععنوا فيهم تذيعاً . ثم لاحقوا القائرين منهم وحملوا عليهم حتى ابادوا الاسرة بجملتها^٤ . وترعرع المعارضة على الامر ابن اخ لفخر الدين^٥ هو ملحم بن يونس ، وكان قبل ذلك يحاول الاستيلاء على الحكم في المنطقة .

(١) Carali, vol. ii, pp. 355-6

(٢) انظر ما يلي في هذا الفصل «أحمد باتا الجزار» .

(٣) يتعدى آل علم الدين اصلاً من التوخيين وعليه تعمدوا حزب البنية وكانتوا على ذلك خصوصاً لأنسبائهم القيسية ؛ شدياق ، ص ١١٤ .

(٤) حيدر ، تاريخ ص ٧١٩ ؛ شدياق ، ص ١١٤ - ١٥ (وهذا الرقم مكرر في النسق الذي اعتمدنا عليه) .

(٥) شكل شجري للأسرة المعنية .

١. فخر الدين الاول (ت ١٥٤٤)

٢. قرقاز (قرقاس ، ١٥٤٤ - ٨٥)

٣. فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥)

يونس

٤. ملحم (٥٧ - ١٦٣٥)
٥. احمد (ت ١٦٩٧)

وقد ظفر في استعادة سلطة مزعزعة الاركان تحت رقابة عثمانية شديدة اليقظة والحذر. وانتقل الحكم من بعده إلى ابنه احمد الذي توفي بلاعقب بخلفه، فكان بذلك انفراضاً لاسرة المعنية.

الشهابيون يختلفون المعينين

وفي سنة ١٦٩٧ عقد اعيان لبنان مؤتمراً قومياً في السماقانية قرب بعلبك، وانتخبوا الامير بشير الشهابي من ابناء راشيا حاكماً عليهم؛ وارسلوا بقرارهم هذا إلى والي صيدا، مؤكدين انهم يؤدون عن يده الرسوم القانونية، وكان بعضها، في ما يليه، لا يزال ديناً له عليهم^١. فنزعة اللبنانيين إلى الحكم الذاتي، والحالة هذه، لم تكن قد ماتت فيهم تماماً. ولما كانت تركيبة بالذات مهددة بالزوال من جانب الدول الاوربية، فقد قنعت بهذا التدبير، مادام وصول الرسوم إليها مؤمناً.

سلم الشهابيون تراث المعينين السياسي، وقبضوا على فمam الحكم حتى سنة ١٨٤١، جارين على الاساليب التقليدية المعروفة: من رشوة الموظفين العثانيين، والانتهاض على ضعفاء السلاطين، وتأثير الزعماء والاحزاب كل واحد على الآخر، مؤمنين بذلك استمرار سيطرتهم على الجبل. على انهم لم يعتقدوا المذهب الدرزي الذي كان عليه اتباعهم، وإن كان جهود الدروز قد ظن ذلك في بعضهم. وهذه القرون التي قضتها الساسة اللبنانيون في اصطناع سياسة الحذر والتحفظ أكسبتهم براعة فائقة في ممارسة المداهنة، وضروب الجحالة والتملق.

وببناء على توصيات حسين وهو ابن لغفر الدين ارسل صغيراً إلى القسطنطينية «وعيشن»، ثم عين سفيراً لبلاده في الهند – وقع الاختيار على بشير^٢ ليكون وصيّاً على الامير حيدر الشهابي الحاصباني ابن بنت احمد معن، ربيعاً يبلغ اشده. وقد تميزت امارة حيدر (١٧٠٧ - ١٧٣٢) بقضائها على حزب اليمنية قضاء مبرماً في معركة عين دارة سنة ١٧١١^٣. على ان بعض فاول العصاة هاجروا إلى

١) حيدر، لبناني، ص ٣ - ٤؛ شدياق، ص ٥٩ - ٣٥٨؛ المعرف، ص ٤٠١.

٢) يسمى عادة بشير الاول تميزاً له عن خلفه الشهير بشير الثاني؛ انظر الشكل الشجري التالي في هذا الفصل.

٣) شدياق، ص ٣٦٤ - ٦٥.

حوران ، وانشأوا هنالك جالية درزية جديدة^١ . ثم تعقب الحيدريون مناوئتهم من آل علم الدين وبادوهم . ونظرًا لما ابداه آل أبي المعم من البسالة في القتال وفعوا إلى مصاف الامراء^٢ . وتسمى حيدر ، بعد أن تم له سحق اليمينية ، أن يعيد تنسيق الصلات الاقطاعية مع احلافه – آل جنبلاط وأبي المعم والحازان – في ما يتعلق بالادارة العليا . فترتب على آل ارسلان اليمينيين ان يجعلوا آل تلعوق^٣ سهماً في أقليمهم . وعمد ابنه وخليقه ملجم (١٧٣٢ – ٥٤) إلى اضافة البقاع وبيروت^٤ إلى ممتلكاته ، لكنه ابقى قاعدته في دير القمر . وتأتي عن هذا التوسيع اصطدامه بولي صيدا وولي دمشق ، وكلاهما من آل العظم^٥ . وادي سحق اليمينيين إلى قيام وضع جديد في سياسة الاحزاب اللبنانيّة ، هو انقسامها إلى جيتيين : آل جنبلاط ، وآل يربك ؟ وكان بنو جنبلاط قد اصبعوا من اقوى الاسر الدرزية وأوفرها ثروة .اما آل يربك فقد تحدّر اليهم هذا الاسم من زعيم لهم من آل عمار ، وهم كذلك اسرة درزية جاءت اصلاً من منطقة الموصل^٦ . وقد اتسع هذا الانقسام حتى تخاطي الطبقة الاستقراطية وتسرب إلى الموارنة . وهذا التزاع الذي نشب بين الاسر في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ، استمر ناشطاً حتى العقود الأولى من القرن العشرين . وقد تنازل ملجم عن الحكم سنة ١٧٥٤ ، وتنازع اخواه على الامارة من بعده ، فمال احدهما – وهو منصور – نحو آل جنبلاط ، وأثر الآخر – وهو احد – الانحياز إلى آل يربك . واحد هذا هو والد المؤرخ حيدر ، الذي اعتمدناه غير مرّة في هذا الفصل . واستمرت فترة الاختطارات الداخلية حتى بلغ يوسف بن ملجم اشدّه ، وتولى الامارة بنفسه^٧ . في سنة ١٧٧٠ اعلن منصور ، في

١) راجع ص ٤٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

٢) راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء ، ج ٢ .

٣) راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء ، ج ٢ .

٤) حيدر ، لبنان ، ص ٤٠ ، ٣٧ .

٥) راجع ص ٣٠٨ من هذا الجزء .

٦) شدياق ، ص ١٦٢ وما بعد (وقد تكرر هذا الرقم في صفحات أخرى من النسخ) .

٧) كان الوصي عليه سعد المخوري ، وهو ماروني من رشيا تحدّر من اسرة تولى منها اثنان رئاسة الجمهورية اللبنانيّة ؛ حيدر ، تاريخ من ٧٨٣ ؛ شدياق ، ص ٣٧٧ . وقد رفع يوسف هذه الاسرة الى مرتبة الشيخة ؛ حيدر ، تاريخ من ٨٤٩ .

اجتماع قومي عقد في الباروك، ان العناه قد اقعده عن القيام باباء الحكم. وانه يود ان يتنازل عنه لابن اخيه يوسف. وعلى الاثر نودي بيوسف حاكماً على الجبل^١؛ وارسل بذلك علم الى والي دمشق. وكانت المنطقة الداخلة في حكمه تتد من طرابلس الى صيدا.

الشيخ ظاهر العمر

كان قد يربز على المسرح السياسي في هذه الائمه رجالان آخران شاركا الامير الشهابي في شيء من مجده، هما: ظاهر العمر، وأحمد الجزار. وبظهورهما اخذت فلسطين في منافسة لبنان على المقام الامامي في سياق الاحداث التاريخية، في حين بقيت حلب ودمشق متخلقتين. ويغلب على الظن ان السكان، الحضريين والريفين، في هاتين المدينتين وضواحيها، كانوا قليلاً العدد ضعاف النفوذ.

وحوالي سنة ١٧٣٧ ظهر على المسرح السياسي شاب بدوي اسمه ظاهر العمر (آل عمر)، كان الامير بشير الاول قد عين اباه شيئاً، والحقه بحاكم صفد. ذلك ان ظاهراً هذا ظفر بضم طبرية الى منطقة صفد^٢، وعقد العزم على الاستعانت بالشيعة في الجليل الاعلى وهم الذين تحملوا طويلاً ظلم الموظفين الاتراك، لتحرير المنطقة من حكامها. فكانوا على اتم الاستعداد لتأييده اي زعيم يعمل على تحريرهم. ولم تلبث تابلس والناصرة ان خضعا له: وكانت الفنية الكبيرة التالية، التي وقفت في يده، مدينة عكا (١٧٥٠)^٣؛ وكانت في حالة من الدمار الجزئي منذ عهد الصليبيين، فحصلت هنا المقتصب الجديد وجعلها مقراً، واستخدمها لتصدير الحرير والقطن والقنب، وسواها من منتجات فلسطين، الى الاسواق الخارجية.

كان ظاهر العمر حاكماً مطلقاً، لكنه كان محباً للخير. قطع دابر التمرد، ونشط الزراعة، ووقف من دعایاه التصارى موقفاً سمحاً. وقد ذكر مدوّن سيرته^٤، نقلأ

(١) حيدر، تاريخ من ٨٠٧ ، شدياق، ص ٣٨٦ - ٨٧ .

(٢) انظر Volney, vol. ii, p. 85 .
الصياغ (الكواوي) تاريخ الشيخ ظاهر العمرى الزبدانى نشر قسطنطين الباشا (حربيسا) ص ٣٦٠؛ ميخائيل (لكن التواریخ غير مضبوطة)

(٣) انظر Volney, vol. ii, p. 87 .
الصياغ، ص ٤١ - ٤٤ .

(٤) الصياغ، ص ٤٨ .

عن شاهد عيان ، انه كان يوماً ماراً على حصانه بالقرب من كنيسة مريم العذراء في الناصرة ، فترجل عن جواده وركع وندى ان ينير مصباح زيت في الكنيسة ، ويبقىه متقداً ، اذ هو حالقه النصر ؟ « وكانت البلاد براحة واطمئنان والطريق بامان بحيث اذا سافرت المرأة وعلى كفها الذهب لا يعتريها احد في الطريق ، ولا تختلف على نفسها امراً »^١ وكان يقوم بتادية ما عليه من المال الى الحكومة العثمانية بكل دقة وانتظام ، اذ كان وائقاً من ان الحكومة فلما اهتمت في من يكون عملها — تركياً ام عربياً — مادام المال المستحق يؤدى في حينه .

وكان تركياً في هذه الآونة قد استبيحت بنزاع مريح مع روسيا ابان ولاية كاترين . وكانت هيبيتها في الشرق اطلاقاً آخذة في الزوال . بلغت الجرأة من على بك في مصر ان تحدي السلطان بارسال عامله اي الذهب ^٢ ليستولي على دمشق ، وعلى سواها من مدن سورية ، فتم له ذلك سنة ١٧٧١ . وعقد ظاهر محالفه مع علي بك الذي كان عازماً على احياء عهد الماليك البائد . وتمكن ظاهر بمساعدة الروس من احتلال مدينة صيدا ^٣ ، بعد ان خربها اسطولهم . ثم تحول الروس الى بيروت وخرابها وانتهوا . اما يوسف شهاب فإنه حالف ولـي دمشق لاخداد الفتنة الجديدة ، وجاها من القسطنطينية عمارة من الاسطول التركي على سبيل التجدة ، تذكرت بساندة القوى البرية من احتلال صيدا سنة ١٧٧٥ ، ومحاصرة ظاهر في قاعدته الحصينة . ولتن كانت قذائف الارواك لم تفعل فعلها في اسوار عكا، فإن ذهفهم فعل فعلها في حاميتها ، التي اوردت ظاهرآ حتفه . وقد كان في الجيش السوري الذي دافع عن صيدا في وجه ظاهر واحلافه الروس رجل قام بمقابلات تضاءلت عندها مقابلات ظاهر ، هو احمد الجزار .

احمد باشا الجزار

كان احمد هذا نصراينياً بالولادة من ابناء بوسنيا . افترف وهو صبي جرماً اخلاقياً، فر على اثره الى القسطنطينية، وبايع نفسه الى مخاس يهودي . وانتهى امره

١) الصباغ ، ص ٥٠ .

٢) كان ملوكاً لبني وكان من السلاطين في توزيع المداليا بحيث كسب هذا اللقب ؛ الجبرقى ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

٣) الصباغ ، ص ١١٥ ؛ شلياق ، ص ٣٨٩ ؛ جيدر ، لبنان ص ٩٣ .

بعدئذٍ إلى علي بك في القاهرة فعينه جلاداً . وقد أظهر أحد من التفنن في إنفاذ مهمته ، والرغبة في القيام بها ، ما أكسيه لقب «الجزار» . وكان شديد الاقتدار بهذا اللقب ، بالغ الحرص على أن يكون جديراً به ، وقد كان به جديراً . ثم توجه إلى سوريا ، حيث أدى خدمات عسكرية جل للدولة ضد الظاهر ، كوفي ، عليها بتعيينه حاكماً على صيدا^١ . وقد استولى على بيروت حيناً من الزمان ، لكنه رفض الاقرار بسلطنة يوسف . وكان سكان بيروت آنذاك ، على ما ذكر فولني^٢ ، اذ مس فيها ، نحواً من ستة آلاف .

وامتد سلطان الجزاز جنوباً ، وحل محل الأمير ظاهر في عكا . وقد عمد إلى تدعيم حصن المدينة ، وسفر من أجل ذلك رجال القرى المجاورة ، وبنى اسطولاً صغيراً ، وأنشأ من ابناء بوسنيا والبانيا فرقة من الخيالة عددها ٨٠٠ فارس ، ومن المغاربة جيشاً من المشاة عدده الف جندي . واستطاع ، باحتكار بعض المرافق التجارية في منطقته ، ان يعطي جميع النفقات الضرورية ، وان يعيش بورغد ورفاهية . ولا يزال المسجد الكبير الذي بناء في عكا ماثلاً للعيان . ثم ان طموحه جعله الى ما وراء فلسطين والساحل اللبناني^٣ ؛ ففي سنة ١٧٨٠ تسلم برؤا بتعيينه والياً على دمشق . وظل بعد ذلك نحواً من ربع قرن يمارس النياية الفعلية عن السلطان ، ويتصرف بشؤون لبنان كما يهوى . وقد انتهى عهده الذي لم تكن فيه ذات بال ، بالموت الطبيعي سنة ١٨٠٤ ، وترك لهذه الحقبة سجلاً منقطع النظير في التاريخ . ذلك ان الاتراك كانوا منهكين في مناضلة عدو جديد قوي ، برب لهم في جزيرة العرب ، هو قائد الحركة الوهابية .

بلغ الجزاز اوج مجده سنة ١٧٩٩ ، على اثر فوزه باتفاق زحف نابوليوب . وكان الفاتح الفرنسي قد استولى على مصر ، وسار منها ظافراً على ساحل فلسطين ، حتى بلغ ابواب عاصمة الجزاز ، على أن الجزاز استطاع ، بمساعدة الاسطول الانكليزي ، المعقود اللواء للسر سدني سميث ، ان يصمد في الدفاع عن المدينة من ٢١ آذار حتى ٢٠ ايلار ؟ وعندما اضطر نابوليوبون الى ان ينسحب ، إذ كان الطاعون

(١) حيلو ، تاريخ من ٨٢٧ ، ٨١١ .

(٢) Volney , vol. ii, p. 170

قد أخذ يفتك بجيشه . ولا تزال لوحات المدافن على جبل الكرمل تحمل اسماء الضحايا الفرنسيين الى الان .

وقد عمد امير عكا وحاكمها المتضب الى القضاء على خصومه ومنافيه بلا رحمة ولا شفقة . ثم تحول إلى انصار سلفه ، من الشيعة وقبائل البدو ، وعمل على سحقهم



احد بنا الجزء حاكم عكا يتفقد على احد المجرمين

ونشر الرعب في سوريا ولبنان بوجه الاجمال . ولا يزال اسمه في هذه الاوساط مرادفاً للقسوة البالغة . وقد ذكر مواطن من مؤرخي هذه الخيبة ، هو ميخائيل مشaque^١ ، ان جده الذي كان موظفاً في الحكومة ، شاهد يوماً اكثراً من اربعين رجلاً يصفرون خارج اسوار المدينة ، لينفذن لهم حكم الاعدام باخازوق . وان آخر اربعة منهم نجوا الذي توسط الموظف المذكور . وقد اورد المؤرخ نفسه ان الجزء ، إذ ارتتاب يوماً بتصرف حريمه ، وعددهن ٣٧ امراة ، أمر خصيائنه فجر وهن واحدة

١) ميخائيل مشaque ، مشهد البيان بحوادث سوريا ولبنان ، نشر ملحم عنده واندراوس شخاتيري (القاهرة : ١٩٠٨) . وهو مرجع هام لكنه منتشرأ شيئاً .

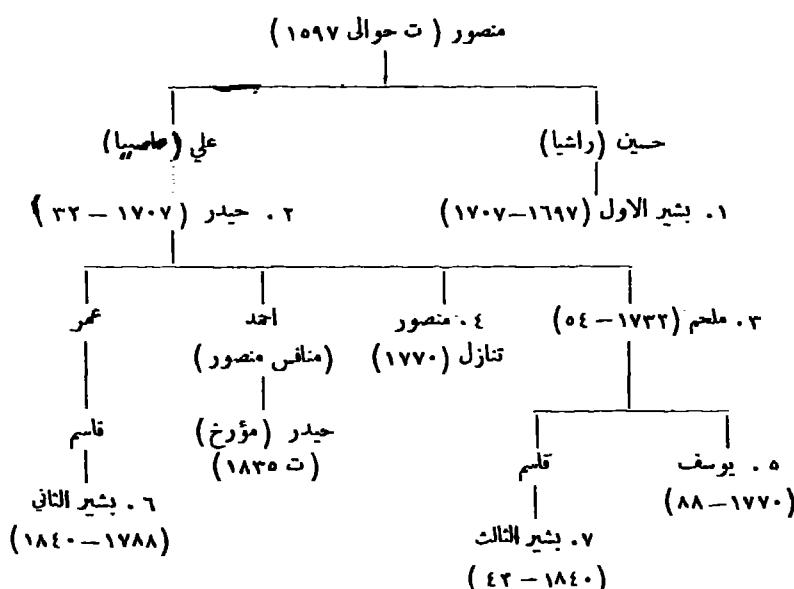
واحدة وألقوا بهن فوق كومة من الحطب، أضرمت فيها النار فاحرقون جميعهن^١. وقد كان شأنه في لبنان أن يثير فتنه على أخرى. فوالى آل جنبلاط على أثر معركة قب الياس التي فهر بها يوسف سنة ١٧٨٨، ودعا الناس إلى انتخاب بشير الشهابي^٢، وأسر يوسف فشقق في سجن عكا^٣. وقد ذكر ثولني^٤ أن الكثير من الأمر المسيحية أخذت في هذه الائتماء بالزواج «يومياً» من سورية إلى لبنان، فراراً من حكم الأتراك.

الامير بشير الثاني

كان حكم الامير بشير على جبل لبنان في أول الامر حكماً مزعزاً. فقد كان ابنه سلفه يوسف ناشطين في نصب المكابيد له، وحوك المؤامرات ضده. وكان بيده الجزار قد أخذ في الانقلاب عليه، لأنه مختلف عن مساعدته في تزاعمه مع نابوليون.

(١) مشaque، من ٥٤

(٢) شكل شعري للشهابيين :



(٣) راجع حيدر، تاريخ من ٨٥٦؛ مشaque، من ٤٦؛ شلياق، من ٤١٩ - ٤٢٧، ٢٠.

Volney, vol. ii, p. 68. (٤)

واذ اضطر إلى التخلي من منصبه ، فر إلى قبرص سنة ١٧٩٩ ، على إحدى بوارج سدني سميث^١ ، وأصبح الانكليزي من ثم أصدقاء له .

وبعد غياب بضعة أشهر عاد ليقهر خصومه المحليين وثبتت حكمه في المنطقة . وعمد إلى ابني يوسف فسمى منها العيون قبل أن عاقبها باللوت . ثم ضم البقاع ثانية إلى لبنان ، غير عالي بمعارضة والي دمشق . وغدت سياسة نحو الأتراك ، بعد الآن سياسة حزم وصداقة . ففي أوائل سنة ١٨١٠ ، عندما انطلق الوهابيون من نجد ، واجتاحتوا الحدود السورية ، وهددوا عجلون وجنوب حوران ، كان الأمير بشير مع ١٥ الف من رجال لبنان على استعداد لردم على اعتقاهم^٢ . وبعد انتصاره بهذه هذه توجه على رأس جنده في زيارة إلى دمشق . ولم يهد بعد ذلك زعيمًا إقليميًّا ، بل ساهم في معالجة التزوف السورية ، وفي التزاع الذي نشب بين والي دمشق وبين منافسه والي طرابلس . لكن هذه المساعي أدت إلى إبعاده (١٨٢١ - ٢٢) هذه المرة إلى مصر^٣ . وهناك أنشأ صدقة متينة مع محمد علي ثائب السلطان في مصر ، ومؤسس السلالة المالكة فيها .

وبعد ذلك ببعض سنوات جرد محمد علي حملة على تركية عبر الأراضي السورية ، فوقف الأمير بشير إلى جانبها . وكان حاكم مصر قد توقيع الحق سوري على الأقل بamarته – وذلك في مقابل الخدمات التي أداها للسلطة التركية في ميدان القتال اليوناني ، حيث ثار الشعب مناضلاً من أجل استقلاله ، وفي ميدان الجزيرة العربية حيث قهر الوهابيين – لكن آماله ذهبت هباءً منثوراً . وقد انتظم الجنود اللبنانيون إلى جانب زملائهم المصريين في حصار عكا سنة ١٨٣١^٤ . وغدت مهمة إبراهيم باشا ابن محمد علي ، قائد الحملة المصرية ، بفضل تعاون الأمير بشير معه ، سهلة تسبيباً . فتمكن إبراهيم باشا من الاستيلاء على دمشق ، وهزم الجيش التركي في حمص ، وعبر جبال طوروس ، وآوغل في قلب بلاد الترك ، وكاد ينزل الفربة القاضية (ووجل

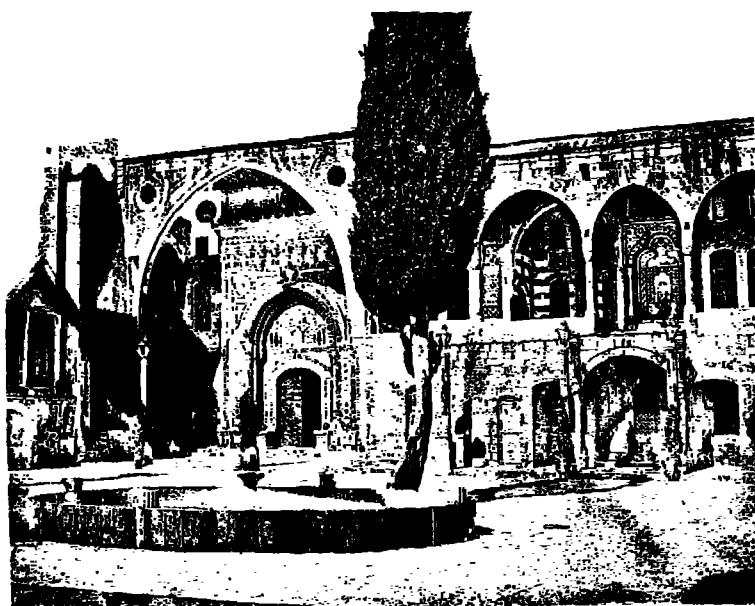
(١) حيدر ، لبنان ، ص ٢٠١ وما بعد .

(٢) حيدر ، لبنان ، ص ٥٥٦ - ٥٧ .

(٣) حيدر ، لبنان ، ص ٧٢٤ - ٢٨ .

(٤) مشaque ، ص ١٠١ ؛ Shibliac ، من ٦٨ - ٥٦٧ ؛ حيدر ، لبنان ، ص ٨٣٢ وما بعد .

اوربا المريض^١ . لكن بريطانيا والمسا وروسيا اضطرته الى الانسحاب . وقد انقضى حكمه في سوريا سنة ١٨٤٠ ، وغدا مطعم محمد علي في إنشاء امبراطورية تجمع البلدان العربية تحت حكمه حلمًا من الاحلام ؛ إذ لم يكن مثل هذا الوضع السياسي صورة في خواطر الناس^٢ . وبعد ذلك بنحو من خمس وعشرين سنة ، راود هذا الامل عاهلا آخر هو الشريف حسين صاحب مكة ، لكن حلمه كان ايضاً سابقاً لأوانه . وبعد ما نجح الاتراك باقصاء ابراهيم باشا ارسلوا في طلب الامير بشير



قصر الامير بشير الثاني في بيت الدين

يناقشوه الحساب . لكن سفينة انكليزية حملته في اوائل خريف سنة ١٨٤٠ الى مالطة^٣ . ثم سمح له بالتوجه الى القسطنطينية ، وهناك توفي سنة ١٨٥٠ . وفي تشرين الاول سنة ١٩٤٧ تم نقل رفاته الى القصر الفخم الذي اقامه في أيام عزه في

(١) لقب اطلقه على قيسار روسيا تولا الاول سنة ١٨٥٣ .

(٢) قابل : أسد رستم ، *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria* (Beirut, 1936), pp. 47, seq., 83 seq.

(٣) مشاة ، ص ٦٢٠ - ٣٤ ؛ شدياق ، ص ٢١ - ١٣٢ .

قرية بيت الدين . وليس في لبنان دارة اخرى تضاهيه روعة وفخامة . فقد جرَّ الامير اليه المياه بقناة طولها تسعة أميال ، من منابع عين زحلتا التي تغذيها الثلوج والامطار من التلال الحافلة باشجار الارز . ولم يكن لبنان في عهد الامير بشير أقل ازدهاراً منه في عهد فخر الدين ؟ فقد اهتم الامير بشير ببناء الطرق وترميم الجسور ، ووجه بيروت في الطريق التي اوصلتها الى ما هي عليه اليوم ، إذ غدت الباب المؤدي الى لبنان وسوريا . فقد كان المعنيون والشهابيون يتعاشرون هذه المدينة لأسباب منها انها كانت معرضاً لغارات القرصان ولحملات سواعم من المناوئين ولم يكن كفاح فخر الدين والامير بشير من اجل لبنان مستقلٍ فحسب ، بل من اجل لبنان الكبير ايضاً ، بضم فضلاً عن الجبل نفسه المدن الساحلية والسهل الشرقي وقد عمل كلها على تنشيط العلاقات التجارية الخارجية ، ورحبا باللائجين السياسيين واهما بالاقليات الدينية . فقد آوى الامير بشير عدداً من الاسر الدرزية المهاجرة من حلب ، واكرم وفادة جماعة من الروم الكاثوليك . وكان الامير الشهابي ، بخلاف سلفه المعنى السمعج الصورة ، ذا ملامح مؤثرة واضحة : فعيناه التسريتان ، وعياه التمري ، ولحيته الموجة ، كانت جميعها توحي الحشيشة وتفرض الهيبة . وكان بلا ريب مسيحياً ، لكنه رأى من حسن الدراسة كيان ايمانه . وكان ابوه اول شهابي تحول عن الاسلام الى المذهب الماروني . ولئن كان فخر الدين اول لبناني حديث ، فان الامير بشير كان الثاني . وقد جرى الامير الشهابي في تراث زميله المعنى ، لكنه جرى فيه الى غاية ابعد ، وفتح فيه مجالاً ارحب للحضارة الاوروبية ، لا سيما المؤثرات التربوية . ويعرف الامير بشير بين قومه بشير الكبير ! وقد غدا اسمه ذا طابع اسطوري في الحكايات المحلية الريفية . ولا تزال التوادر التي تندح عدده وحزمها وحكمتها وقدرته تحكي وتتعاد في حلقات السير حول موائق النار الى اليوم .

وفي سنة ١٨٤٠ عين امير آخر اسمه بشير ا حاكماً على لبنان . وكان بشير هذا قد ساهم في ثورة اللبنانيين على ابراهيم باشا ، عندما حاول ان يجردم من السلاح ويفرض عليهم الضرائب الثقيلة^٢ . ثم تعاون مع العثمانيين والانكليز على اخراج

١) راجع الشكل الشعري لنسب الاسرة الشهابية في ص ٣٤٠ من هذا المجزء .

٢) راجع بشأن منشور المصاة ، فيليب وفريد الحازن ، مجموعة المحررات السياسية ، ج ١ ، (جوانية ، ١٩١٠) ص ٣ - ٥ .

البasha من البلاد . وكان الثنائيون يجرون في ادارتهم على النظام المركزي الذي وضعه السلطان محمود «المصلح» ، وقد اقتنعوا الآن ، أكثر منهم في اي وقت مضى ، بان الطريقة الوحيدة لتوثيق سيطرتهم على الجبل ، ان يبذروا بذور الخلاف بين سكانه النصارى والدروز ، ويشروا التزاع في ما بينهم . وقد كان الانقسام في الجبل حتى هذا الوقت - كما سبق وقلنا^١ - يشطر الملل الى جهتين متقابلتين هما : القيسية واليمنية ، او الزيكية والجنبلاطية . وادى نشأ الخلاف المدمر ما بين النصارى والدروز على هذه الصورة ، بدأ التزاع سنة ١٨٤١ ، وبلغ اقصى العنف في منتصف سنة ١٨٦٠ ، لينتهي بالتدخل الاوربي^٢ . ذلك ان جيشاً فرنسياً احتل لبنان ومكث فيه مدة سنة . وقد قدر عدد النصارى الذين ابيدوا سنة ١٨٦٠ باحد عشر الفاً ، والذين قضوا جوعاً بنحو اربعة الاف^٣ .

استقلال لبنان بضمانة دولية

وبقى حتى النظام الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦١ ، وعدل سنة ١٨٦٤ ، منع الجبل حكماً ذاتياً على ان يتولاه حاكم عام مسيحي يعرف بالمتصرف ، يعينه الباب العالي ويحظى بموافقة الدول الداخلة في الميثاق^٤ . وكان هذا الحاكم المنفرد يعين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، يساعدته مجلس اداري منتخب ، مؤلف من اثنى عشر عضواً ، يمثلون الملل الدينية المختلفة . ويليه الحاكم سبعة مدبرين (قائم مقامين) يتولون ادارة الاقاليم السبعة التي كانت تؤلف متصرفية جبل لبنان ، بعد ان سلخت عنه بيروت وصيدا ووادي الظيم وشريقي البقاع . وقد مارست الحكومة نظامها القضائي الخاص ، وجنحت قوى الامن من ابنائها : ولم تنشئ فيه مراكز للجيش

١) راجع من ٣٣٤ من هذا الجزء .

٢) انظر William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors*, 1801-1927 (Cambridge, 1936), pp. 306-300 ; J. F. Scheltema, *The Lebanon in Turmoil* (New Haven, 1920) هو ترجمة غير مضمونة لأصل عربي وثيق .

٣) انظر Colonel Churchill, *The Druzes and the Maronites under the Turkish Rule from 1840 to 1860* (London, 1862), p. 219.

٤) اضيف إلى موقعي ميناق ١٨٦١ الذين مثلوا انكلترا وروسيا وبروسيا وأوستراليا ، مثل عن ايطاليا سنة ١٨٦٧ . انظر Thomas E. Holland, *The European Concert in the Eastern Question* (Oxford, 1885), pp. 210-18.

التركي، ولا ارسلت شيئاً من الضرائب الى القسطنطينية، ولا كلفت رعاياها بالخدمة العسكرية.

ومع ان جبل لبنان المستقل هذا قد سلب بعض المناطق الحساسة التي تقع داخل حدوده الطبيعية، فإنه افتح عهداً من الاستقرار والازدهار النسبي قبل ان ياراه فيه قطر آخر من اقطار الامبراطورية؛ فشققت فيه الطرق. وتحولت قراه المرتفعة الى مصايف مقصودة، وبني في خط ضيق ربط بيروت بدمشق. وهكذا فان العقبات التي عانىها اهله عبر العصور، وهي صعوبة المراسلات الداخلية، التي تعذر معها تكون دولة متعددة، بدأت الآن في ان تنهار. وكانت هذه المصايف تعتمد في ازدهارها على ما احتجتها به الطبيعة من ضروب المجال الساحر والمشاهد الخلابة. واستعراض لبنان، ولو جزئياً، عن قلة موارده الطبيعية بالتسهيلات التي ستحت له عن طريق نشاط التجارة البحرية. وكانت قلة هذه الموارد حافزاً جعل من ابنائه، كما جعل من اسلامهم من قبل، اشهر التجار والمستعمرین في الشرق الادنى. وشاع على الاشراق مأثر مؤداته: هبئاً لمن كان لم ير قد عازة في جبل لبنان. وتجلّى هذا الازدهار في ازدياد عدد السكان. لا سيما النصارى منهم، حتى انهم التسوا مخرجاً من ازدحامهم بالمعجرة، اذ كانت خصوبة نسائمهم على العكس من عقم اراضيه^١. وما استهل العقد الثامن من القرن الماضي حتى كان المهاجرون اللبنانيون قد اثروا مواطن جديدة لهم ولعيالهم في مصر واميركا وأوستراليا، وأخوا، اخرى من العالم المتmodern . وقد قدر المهاجرون من اصل لبناني في الولايات المتحدة وحدها اليوم بما لا يقل عن ربعمليون^٢.

وقد دشن محمد التصرفي بتصرف قادر من الطبقة الاولى هو داود باشا، فقد حاول ان يعيد الى لبنان جانباً من الاراضي التي سلخت عنه، وساعد على فتح مدرسة للدروز في عبيه، لا زوال الى اليوم تحمل اسمه «الداودية»، وقاد الامراء الاقطاعيين في الجنوب، والكتلة الالكترونية في الشمال. وكان يتراء هذه الكتلة

Miller, p. 300 (١)

(٢) قابل : Cf. Arabic-Speaking Americans (Institute of Arab American Affairs) (New York, 1946), p. 4; Philip K. Hitti, *The Syrians in America* (New York, 1924) ولا يزال اللبنانيون يعرفون في اميركا بالسورين .

يوسف كرم الذي خاض عدة مطربك ، نفي على اثرها الى ايطاليا ، وهناك قضى نحبه . وتولى ، بعد داود باشا ، رسم باشا ، وكان قبل ذلك سفيراً في لبنان ؟ فكان نظير سلفه حاكماً حازماً وادارياً مقتضداً^١ . لكن الاتراك عمدوا ، في غضون الحرب العالمية الاولى ، الى الگاء هذا الوضع الممتاز الذي كان لبنان يتمتع به ، غير ان ميشاچ اخذ نموذجاً للنظام الذي وضع لجزرية كورت ، وكان بوجه العموم « خير نموذج لنظام استقلالي ، وضع لاقليم تركي »^٢ .

١) هذا جدول المترفين : داود (١٨٦١-١٨٦٨) ، نوري فرنكوا (٧٣-١٨٦٨) ، رسم (١٨٧٣-٨٣) ، واما (١٨٨٣-٩٢) ، نعوم (١٨٩٢-١٩٠٢) ، مظفر (١٩٠٢-٧) ، جوزيف فرنكوا (١٩٠٧-١٢) ، اوهانس كيوبيان (١٩١٢-١٥) . وكان من هؤلاء : داود وكيوبيان من أصل ارمني وفرنكوا ورسم من اصل ايطالي ، واما من اصل البافاري ، ومظفر من اصل يوتندي .

Miller, p. 306. (٢)

الفصل السادس

المشهد في العصر الحاضر

يتميز العصر الحاضر في حياة الشرق العربي ، كما يتجلّى في سوريا ولبنان ، بظهور منها : نشأة عوامل فعالة ذات صلة بالتفلّف والتّوسيع الاستعماري الغربي ، وابعاث الوعي القومي المحلي ، ونضال الشعوب من أجل تحقيق استقلالها ، وقيام حركة الجامعة العربية وانتشار امرها . وقد كانت هذه الظواهر عوامل نامية ومتّفّاعلة ، تختلف عنها معظم الاحداث المأمة التي جرت منذ اوائل القرن الماضي .

التفلّف السياسي

استهل القرن التاسع عشر ، وفي الشرق ثلاث دول اوربية كبيرة تتبّارى في بسط نفوذها على الامبراطورية العثمانية المتقلّصة ، والتي كانت طيلة القرن السابق تقف موقف الدفاع عن كيانها . هذه الدول هي فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى . اما النمسا فكانت قد تراجعت نوعاً ، وكانت بروسيا لا تزال من دول المرتبة الثانية ، ولم تكن ايطاليا آنذاك في حكم الموجودة . وكانت سياسة فرنسا تقوم على مصالح اقتصادية واعتبارات معنوية ، وعلى الامتيازات التي رسخت بتقادم الزمن ، والصداقة التقليدية التي كانت تصلها بالاقليات الكاثوليكية والمارونية . وكانت الامتيازات التي ابرمت سنة ١٧٤٠ ذات اهمية خاصة لانها وضعت جميع الحاج الى الارض المقدسة تحت الحماية الفرنسية^١ .

على ان المزعنة المكررة التي منيت بها تركيا في حربها مع روسيا ، كاً شهدت معاهدة كوتشك كابنارجي (١٧٧٤) ، احتل عملياً النفوذ الروسي محل الفرنسي في القسطنطينية . فالمطامع الروسية اثنا تعود الى عهد بطرس الاكبر وكاترين^٢ ، وقد

١) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

٢) راجع ص ٣٣٧ من هذا الجزء .

نشأت من وضع البلاد الجغرافي المغلق دون البحر، وبالتالي من الرغبة الملاحة في التأمين سرفاً على المياه الدافئة، ثم بما أظهرته من عطف على ملة الروم الارثوذكس. فقد اقرت معاهدة كوتتشك كابيناري المذكورة حماية القبض لهذه الملة، وكان ادعاء روسيا بحق حماية الاماكن المقدسة احد الاسباب التي ادت الى حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦)^١ ومع ان انكلترا لم تكن جارة اقليمية لتركيا، فقد نشأ عندها اهتمام خاص بهذه المنطقة يعود تاريخه الى القرن السادس عشر، وذلك بحكم علاقتها التجارية البرية بالمند والشرق الاقصى، فضلاً عن الشرق الادنى^٢. مما ات اخذت الامبراطورية العثمانية في الانحدار، حتى بدأ تصالح انكلترا التجارية تحول الى مأرب توسيعية. اذ ذكرت ان ترى تركيا تتلاشى، وروسيا تثبت اقدامها على البوسفور. وهذه المنافسة بين الدول الكبرى هي التي اطالت حماية تركيا ومدت باجلها. وما القضية المعروفة بالمسألة الشرقية، عند التحقيق، الا قضية التوسيع على حساب الامبراطورية التركية، وملء الفراغ الطارئ، بزوال هذه الدولة تدريجياً، بعد ان كانت يوماً في عداد الدول العظمى^٣.

وقبل ختام القرن التاسع عشر، كانت قد اخذت شمس دولة اوروبية جديدة تبزغ على الافق العثماني، هي المانيا. وكان القبض وام قد درس لها سياسة «التوسيع نحو الشرق»، فأناحت لها هذه السياسة نفوذاً سرياً في الشؤون التركية. وكانت ذلك في عهد عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩)، وهو من اعنة الكلام الذين اعتلوا العرش العثماني في نزعته الرجعية. وقد آنس السلطان من القبض صديقاً جديداً يستحق الترحيب، فقام الامبراطور وزوجته الامبراطورة سنة ١٨٩٨ بزيارة الى القسطنطينية، واستأنفا السير منها الى القدس فدمشق، حيث وضعوا اكليلام من الزهر على قبر صلاح الدين. وفي خطبة مثيرة اكد الامبراطور للسلطان، ومعه «ثلاث مئة مليون مسلم يجلونه بوصفه خليفة عليهم»، ان امبراطور المانيا، كان وسيظل ابداً صديقاً لهم^٤. وعلى الاثر منحت شركة المانية امتياز خط بغداد الحديدي عبر شمالي

١) انظر J. A. R. Marriott, *The Eastern Question*, 2nd ed. (Oxford, 1918), pp. 260-61.

٢) راجع من ٣١٩ هذا الجزء؛ وايضاً M. V. Seton-Williams, *Britain and the Arab States*, (London, 1948), pp. 1-5, 101 seq.

٣) انظر Miller, p. 1

٤) انظر George Antonius, *The Arab Awakening* (Philadelphia, 1939), p. 77

سورية^١. وكان هذا الخط الحديدي أحد الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى. وقد أخذ في الوقت نفسه خطاط المانيون يغدون إلى تركيا ليعدوا تنظيم الجيش التركي.

العهد الحديدي

كانت نقطة الانطلاق في سياسة عبد الحميد رأيه في أن الطابع الآسيوي ينبغي أن يكون الغلب على الدولة من الطابع الأوروبي. وتحقيقاً لهذا المبدأ جلأ إلى نظام قد نجم هو نظام الخلافة، وحاول أن يبعث فيه الحيوان من جديد. فعمد إلى توثيق سلطة الخلافة الأولى – السياسية ومثلها الاعلى – الجامدة الإسلامية، راجياً أن يحيط عن هذه الطريق، بولاء العناصر الإسلامية غير التركية في داخل الإمبراطورية، وإن يكسب إلى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها. وقد ظهر تدريجياً بنسخ وزرائه إلى كتاب مساعدين، وبتركيز إدارة البلاد في قبضة يديه. فوضع الصحافة تحت رقابة شديدة، والتي جعلت التدابير التي تومن حرية الفكر منها كأن نوعها، ونشر شبكة حكمة من الدس والتعس في جميع أنحاء البلاد. ولما كان شديد الحروف على عرشه وحياته، عمد إلى الاعتماد بالزيادة من العزلة وراء أسوار قصر يلدز. ثم أنه أجرى الاعتقالات بالجملة، ونفذ حكم الاعدام على نحو جماعي، وأمعن في الارمن فتكاً وتدميراً، فاكسبه ذلك لقب «السلطان الأحمر».

واستثنافاً لسياسته بإيجاد جامعة إسلامية، أكمل الخليفة السلطان سنة ١٩٠٨ خط الحديد الحجازي الذي وصل القسطنطينية بالمدينة المنورة، مخترقاً سورياً من الشمال إلى الجنوب؛ فكان ما انفقه على هذا المشروع ثلاثة ملايين ليرة، جمع ثلثه من تبرعات المسلمين في العالم باشره. إن هذا الخط هو الذي عمل لورنس على نسف جسورة إيان الحرب العالمية الأولى^٢. بني هذا الخط الحديدي مهندسون المانيون، وتولى أمره موظف سوري هو أحد عزت باشا، كان كاتب السلطان الخاص. وكان لسوري آخر تأثير غريب على الخليفة هو أمامة الخاص أبو المدى الصيدادي.

١) انظر : Edward Mead Earle, *Turkey, The Great Powers and the Bagdad Railway*, (New York, 1923). pp. 67-71.

٢) انظر : T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (New York, 1938), pp. 198-203, 207-11.

وبعد حكم استبدادي استمر ثلاثين سنة، نهض عبد الحميد يوماً من أيام عزف سنة ١٩٠٨، ليجد نفسه قليل الحياة، امام ثورة اخرها بعض القواد في جيشه. وكانت هذه الثورة من صنع «جمعية الاتحاد والترقي»، وهي الجنة العاملة لمنظمة سرية عرفت «بتركيا الفتاة»، تختلف بدورها عن منظمة اسبق هي منظمة «الأتراك العثمانيين» كان مدحث باشا احد اعضائها. كان منشأ «تركيا الفتاة» في جنيف سنة ١٨٩١، وكانت ثمرة لحركة نشيطة قامت بها جماعة من الطلاب والشبان رغبة في تحقيق الاصلاح؛ ثم نقلت هذه الجماعة مركزها الى باريس. وكان هدفها ان تضع للبلاد دستوراً ذا طابع غربي ينص على انشاء مجلس تشيلي، وان تتم حواجز النظام الملي وتبني دولة ديمقراطية متجانسة. وفي اليوم الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٠٨ اعلن عبد الحميد، مرغماً، العودة الى دستور ١٨٧٦^١، وامر في اليوم التالي بابطال شبكة التجسس والقاء نظام الرقابة، واخلاه سبيل المعتقلين السياسيين جميعهم. وفي اليوم العاشر من كانون الاول، افتتح جلسة المجلس الثانيي بخطاب من على العرش، اعلن فيه مباهياً ان المجلس السابق كان قد علق مؤقتاً، ريثما حقق المواطنون الاستعداد المناسب عن طريق التربية والتهذيب. وكانت موجة من التفاؤل والمحاسة قد غمرت الامة بكلاملها في الوقت نفسه. فاستقبل اعلان الدستور في بيروت ودمشق وحلب والقدس، وسواهن من مدن الامبراطورية، بايقاد المشاعل والقاء الخطب واطلاق الالعاب النارية فرحاً وابتهاجاً، وذلك اعتقاداً منهم بان الكابوس قد زال، وان يوماً جديداً في حياتهم قد بزغ «حتى لكان تركية قد انقلبت، بين ليلة وضحاها»^٢. لكن عبد الحميد لم يكن احرص على دستور سنة ١٩٠٨ منه على دستور سنة ١٨٧٦. فقد قبض عليه بالجرم المشهود، وهو يتآمر مع العناصر الرجعية، ويهد العدة للقيام بثورة معاكسة في نيسان سنة ١٩٠٩. فخلع للحال، واقيم مكانه اخوه الأبله محمد رشاد، لكن السلطة الفعلية بقيت في يد الجماعة.

١) راجع ص ٣١٥ وما بعدها من هذا الجزء.

٢) راجع ص ٣١٦ من هذا الجزء.

٣) انظر : Harry Luke, *The Making of Modern Turkey* (London, 1936), p. 144.

جمعية الاخاء والترقي

على ان رجال العهد الجديد كانوا اوفر حظاً في نطاق الحمبة الوطنية منهم في مجال الاختبار والدهاء السياسي . فسياستهم العثمانية التي استهدف تحويل النزعات العنصرية والتعرارات الدينية في الدولة الى صعيد عثماني مشترك آلت الى الفشل التام . اذ فسر العرب هذه «الحرية» الجديدة على انها حرية تحقيق امانهم القومية الخاصة ، وتعزيز ذاتيهم الثقافية ولغتهم الفصحى . فنشأت على الاثر حركات انفصالية تشتت كل منها بطالها الخاصة . واذ اخافت سياسة الرابطة العثمانية على هذا النحو ، ارتد رجال تركيا الفتاة الى السياسة الجميدة الفاشلة الداعية الى الجامعية الاسلامية ، وازداد الوضع الداخلي سوءاً بالارتكابات الدولية التي ادت الى نشوب حرب بين تركيا وايطاليا (١٩١١ - ١٢) ، فقدت فيها تركيا طرابلس الغرب والقيروات – وها آخر ما كانت تملكه في شمالي افريقيا – والى حروب بينها وبين دول البلقان (١٩١٢ - ١٣) ، جرتها من جميع ما كانت تملك ، تقريباً ، في تلك الناحية ورمح المثلث المؤلف من انور وطليعت وجمال تحت هذه الاعباء جميعها . ثم انضمت تركيا في الحرب العالمية التي نشبت على الاثر الى جانب المانيا والدول الوسطى ، وكان دورها في المراكز شاهداً على اخفاق الرابطة العثمانية ، وافلاس الجامعة الاسلامية . وتخالف عن ذلك نشوء دولة تركية جديدة تقوم على وطنية تركية ، لا يعوقها الكثير من العرائيل المذهبية والسلالية . أما منظم هذه الدولة فهو مصطفى كمال . واصلاحاته كانت الاصلاحات الشاملة الوحيدة التي نفذت الى حياة الجمهورية .

لتسلل الثقافي

كان لبنان اقل المناطق الشرقية في الامبراطورية العثمانية تأثيراً من العرائيل التي رضها العهد الجمدي . فقد ضمن له الحكم الذاتي الذي ظفر به بعد سنة ١٨٦١ استمرار تدفق الافكار وسائل المؤثرات الثقافية من المصادر الغربية – ذلك التدفق الذي كان قد بدأ منذ اقدم الازمنة ، وعززه في ما بعد فخر الدين المعنى والامير بشير الشهابي^١ . ثم احتفل ابراهيم باشا (١٨٣١ - ٤٠)^٢ سوريه ، وكانت ابوه

١) راجع ص ٣٣٠ - ٣٣٣ وص ٣٤٠ - ٣٤٣ من هذا الجزء .

٢) راجع ص ٣٤١ من هذا الجزء .

استقر الحكم إلى إنشاء صلات حيوية بين مصر والغرب، فاتسع بهذا الاحتلال المجال المفتوح في سوريا للمؤثرات الغربية. وقد عمد إبراهيم باشا إلى إزالة بعض القيود المتعلقة بالملابس والمطابا، التي كان النصارى في سوريا يعانون منها لاجيال كثيرة خلت^١. وفي هذه الآثناء بالذات (١٨٣٢) تأسى لراسالية الجزوiet، بعد فترة من خطر^٢، ان تعود إلى دموع لبنان؛ وسنح لشاريع الارسالية الاميركية ان تجد مستقراً ثابتاً. وقد اختلفت الكنيسة الانجليزية في سوريا بعيداً عنها التذكاري المثوي سنة ١٩٤٨؛ وتأسست المطبعة الاميركانية في مدينة بيروت سنة ١٨٣٤، فجاءت في أثرها مطبعة الجزوiet الكاثوليك بعد ذلك بتسعة عشرة سنة. ولا تزال كلتا المطبعتين تقومان باللهم المنشورة بها خير قيام؛ وقد أخرجت كل منها ترجمة بالعربية الحديثة للكتاب المقدس. وانتهت بالجزوiet جهدهم التعليمي، الذي كانوا قد بدأوه في أوائل القرن السابع عشر^٣، إلى تأسيس جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٤ في بيروت، حيث كانت الارسالية الاميركية قد سبقتهم سنة ١٨٦٦ إلى تأسيس كلية تعرف الآن بالجامعة الاميركية في بيروت؛ ولا تزال هاتان الجامعتان في طليعة معاهد التعليم في هذا الجانب من العالم. وأخذت، من ثم، المدارس الأهلية والمطابع والصحف والمجلات والجمعيات الأدبية تنشأ وتزدهر، ودراحت الكتب المترجمة عن الفرنسية والإنكليزية بتكتل وتشيع بين أيدي القراء^٤. وكان أقوى ما تسرب من الأفكار الجديدة وأعظمها حيوية دون نزع اليقظة القومية والديمقراطية السياسية.

القومية والنضال من أجل الاستقلال

بدأت هذه اليقظة القومية العربية حرفة فكرية خاصة، مركزة على درس لغة العرب وتاريخهم وادبهم. وكان روادها في الغالب من المفكرين السوريين،

^١) راجع ص ١٦٧ وص ٢٢١ - ٢٢٢ من هذا الجزء.

^٢) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

^٣) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

^٤) انظر : A. H. Hourani, *Syria and Lebanon* (Oxford, 1946), pp. 35-7.

وبنوع اخص ، من نصارى لبنان الذين تشقوا في الجامعة الاميركية في بيروت^١. فهؤلاء هم الذين شرعوا في تطوير العربية الفصحى لتفدو اداة جديدة صالحة للتعبير عن النكر الحديث . على ان التفكير القومي ، وما استتبعه من تشديد على الشذوذ المدنية والقيم المادية ، جرت في اتجاه معاكس لارفع المثل ، واعز التقاليد الاسلامية ، التي لا تقر ولو مبدئياً بآية رابطة غير رابطة الدين . ثم ان اختيار الشعوب الناطقة بالعربية لهذا الطراز الجديد من القومية ، ونوره الحسين شريف مكة سنة ١٩١٦ على الاتراك العثمانيين ، صدعاً البقية الباقية من الامل بقيام وحدة اسلامية شاملة ، واقاماً في مكلها وحدة عربية جامعة . اساسها اللغة والتقاليف العلانية ، لا العقيدة الدينية الخاصة . وقد تزوج الالاف من ابنائه الى العالم الجديد^٢ ؟ ذلك لأنهم استطاعوا ، عن طريق المراسلة وتكرار الزيارات ، ان يحافظوا بمشعل الحرية والاستقلال والديمقراطية موقداً مشعاً . وهذا المؤثر العربي في باريس ، انا النام سنة ١٩١٣ بدعوة من شكري غانم ، وهو شقيق ثائب سوري كان عضواً في مجلس ١٨٧٦ السياسي في القدس-فلسطين ، وكانت الكثرة الساحقة من اعضاء المؤثر المذكور من السوريين ؟ وكانت مطالبه معتمدة نذكر منها تطبيق الامركزية ، وتحقيق الاستقلال الاداري والثقافي .

ولقد وجد المفكرون السوريون ، واركان القومية العربية ، في مصر المجاورة جوًّا انسُب لنشاطهم السياسي . واذ كانت هذه الحركة تستمد حواجزها الاساسية من منهج التفكير الاميركي ، فقد استلهمت وحيها من الاجياد الماضية التي خلفتها الشعوب الناطقة بالعربية ومن مآثرها الثقافية ، واتجهت بانتظارها نحو عالم عربي وثيق الاركان . ثم شرعت في عملها على نطاق واسع هو الغربة المطلقة ، دون الالتفات الى اي اعتبار اقليمي . لكن الحركة لم تثبت ان تصدع . لأن الناحية السياسية اخذت ، مع نورها واتساعها ، تتشعب وتتأثر بالسياسة الاقليمية . وعلى ذلك اخذت اغراض القوميين المصريين في الانحراف عن الجامعة العربية ، في اوائل

١) انظر : Antonius, pp. 43, 51-5 ; Hans Kohn, *A History of Nationalism in the East* (London, 1929), pp. 268 seq. ; Martin Hartmann, *The Arabic Press of Egypt*, (London, 1899), pp. 3-13.

٢) راجع ص ٣٤٥ من هذا الجزء .

العقد التاسع؛ وذلك عندما غدت مقاومتهم للاحتلال البريطاني اهم اغراضهم المباشرة. وهكذا اتسمت القومية العربية في مصر باسمة اقلامية، رجاء ان تكون اشد اثارة للرأي العام المحلي في اندفاعه ضد الانكليز؛ في حين حشدت القومية العربية قواها في سوريا ضد السيطرة العثمانية وسياسة التتربيك، وكذلك - بعد اقامة الانتداب الفرنسي سنة ١٩١٩ - ضد الحكم الفرنسي. وقد تجددت عزمتها باستشهاد الزعماء الوطنيين الذين اعدتهم جمال باشا في غضون الحرب العالمية الاولى.^{١)}اما فلسطين - وهي القسم الجنوبي من سوريا، الذي اقطع ووضع تحت الانتداب البريطاني - فقد غذى القومية العربية فيها العداوة للانكليز، والحركة الصهيونية التي يرثت الى الوجود الواقعي بوليد اسرائيل، باعتبار أنها حركة قومية دخيلة بعثها رجال من يهود اوروبا الوسطى والفردية.

وفي سنة ١٩٢١ اقطعت من فلسطين الانتدابية المنطقة التي عرفت في التوراة شرق الاردن، والتي لم تكن حتى آنذاك واقعاً تاريخياً، وولي عبدالله بن الحسين اميرآ عليها، ثم نصب ملكاً سنة ١٩٤٦؛ وكان في ذلك الحين يهدد بالانتقام لأخيه فيصل، اذا أزيل عن عرش سوريا بعد ولاده قصيرة قبل ان يتسم عرش العراق.^{٢)} وقد كانت هذه الامارة بعثابة دولة حاجزة، ما بين منطقة الانتداب البريطاني وربوع القبائل البدوية الثائرة. وفي سنة ١٩٤٩ تحولت هذه الامارة الى المملكة الاردنية الماشية.

وهكذا فقد تجزأت القومية العربية التاسعة تبعاً للتجزئة الاقليمية، وكانت البلاد العربية، حتى الحرب العالمية الاولى، تؤلف وحدة جغرافية تخضع للحكم العثماني. وفي غضون النترة الفاصلة بين الحربين العالميتين تأثرت البلدات العديدة الناطقة بالعربية من كيان الامبراطورية العثمانية، وتتحولت الى دول متعددة، وكأنها شعوب مختلفة. لكن الاشتراك في اعتبارات اللغة والدين والمصالحة الاقتصادية بقيت تعمل على الجمع بين استئنافهم. ثم عاد الاتجاه نحو الجامدة العربية فنشط ثانية سنة ١٩٤٠؛ وما زال يقوى حتى انتهى الى قيام جامعة الدول العربية

١) راجع بشأن عدم واسباب إعدامهم : *La Vérité sur la question syrienne (Com-mandement de la 1Vème armée)* (Constantinople, 1916), pp. 158-68.

٢) Hans Kohn, *Nationalism and Imperialism in the Hither East* (London, 1932), pp. 162-4, 177-8; Antonius, pp. 304-5.

وكان مما حفز إلى تحقيق فكرة الجامعة الرادة في وجه الصهيونية السياسية باعتبار أنها قوة توسيعية مفرقة . وقد انظم كل من لبنان وسوريا في عضوية الجامعة العربية منذ نشأتها في سنة ١٩٤٥ .

الديقراطية

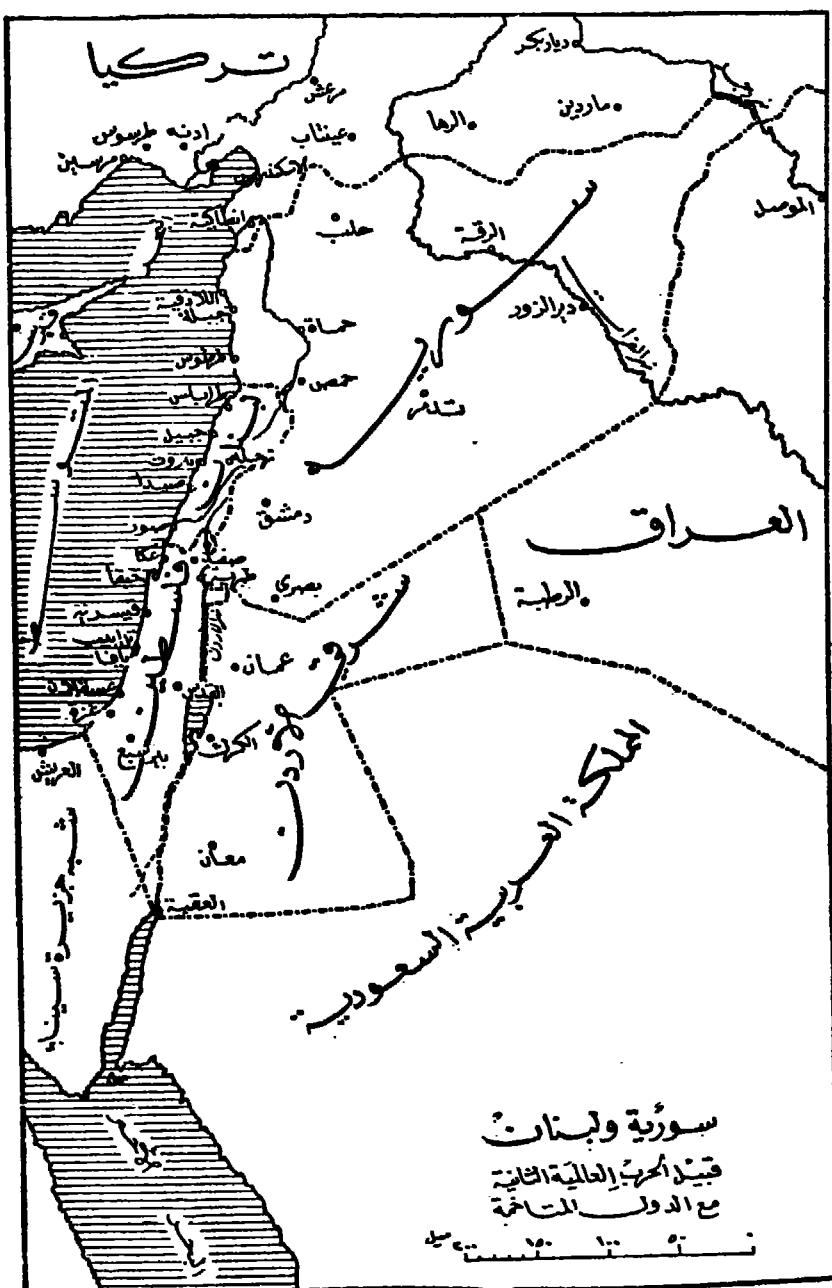
رافق توثيق الماطفة القومية ، وانتشار أسباب التعليم ، رغبة متزايدة في مزاولة المزيد من النهاج الديقراطية في الحياة الاجتماعية والسياسية . وكانت التردد في طبقة المزارعين قد هيا جواً صالحًا لاستقبال الأفكار الديقراطية ولتبنيتها . حتى إذا توسط القرن التاسع عشر ، اخذت طلائع الفسخ تتجلى في حياة الفتنين الأقطاعيين الرئيسيين في المجتمع اللبناني ؟ لكن الانقطاع الدرزي بدا أشد غاسكاً من الماروني ؟ وقد استمر على نحو يتخذه الوهن حتى الوقت الحاضر . وكذلك في سوريا ، فإن المنظرات الأقطاعية لم تصلح تماماً . وقد ظهرت بين المزارعين في لبنان الشمالي أيضًا حركة عصيان موجهة ضد آل الحازن^١ ، وسواهم من الأبراء الأقطاعيين ، بلغت أوج عنفها في أيام الفتنة التي نشب بين الموارنة والدروز^٢ . وكان قائدتها يبطأها من ريفون اسمه طانيوس شاهين ، استطاع في سنة ١٨٥٩ أن ينشيء مجتمعاً زراعياً استراكيًا تولى هو رئاسته^٣ . ولما كان جل الرهبان الموارنة مستنفرين من جهور الناس ، فقد ساندوا هذه القضية الشعبية مساندة تامة^٤ . وعندما تولى داود باشا الحكم في الجبل ، عم الجانب الديقراطي من المجتمع الماروني إلى الامتناع عن إداء الضرائب إلى حاكم أجنبي يؤيده الجانب الاسترالي من المواطنين . وكان الموارنة قد طالبوا بمحاكم من المواطنين ، وكان بطل فنتهم هذه يوسف كرم^٥ . وأذربع السوريون واللبنانيون معركة الاستقلال من الفرنسيين أقبلوا ، أكثر منهم في أي وقت مضى ، على الأفكار والنظم الديقراطية الغربية ، وكيفوها بحسب حاجاتهم الخاصة . وكان لبناء ، بين

١) راجع من ٣٣٠ - ٣٣٣ من هذا الجزء .

٢) راجع من ٣٤٤ - ٣٤٥ من هذا الجزء .

٣) انطون العقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ، ١٩٣٨) من ٣٨ - ٩٠ .

٤) راجع من ٣٤٦ من هذا الجزء .



الشعوب الناطقة بالعربية السابق الى اقامة نظام حكومي جمهوري؛ ثم تلته سوريا، وما ان تصرمت سنة ١٩٤٣ حتى حققت كلتا الجمهوريتين الاستقلال التام الناجز ،

وتحمّلنا جميع مسؤولياتها في أول كانون الثاني سنة ١٩٤٤؛ وسحبت البقية الباقية من الجيش الفرنسي بعد ذلك.

ان افتتاح سوريا ولبنان وفلسطين ، في خلال القرن التاسع عشر ، للجديد من الاتكارات الاقتصادية والعلمية والسياسية ، كان ارسيخ ازواً واكثر استمراً منه في القرن السابع عشر¹ ؟ فكان اشبه بافتتاح العالم العربي برمهة ، قبل ذلك بقرون عديدة على المؤشرات الثقافية الاوروبية اليونانية² . وكذلك الامتداد الغنائي في الزمن المعاصر فقد كان ظاهرة عامة شملت الشرق الادنى بكامله ، بل آسيا وافريقيا بوجه الاجمال . وهكذا توجهت شعوب المتوسط الشرقي مرة اخرى نحو الغرب شأنها في مهد الفينيقيين والرومان والبيزنطيين . على ان هذا النضال الناجم عن الفارق ، بين النظرة التقليدية الجامدة الدينية والنظرة الحديثة العلمية المدنية ، كانت اظهر اثراً في الاوساط الاسلامية ، ولم يكن هذا التزاع محصوراً في الطبقات العليا ، بل ان المنطقة برمتها – نظير الكثير من مناطق العالم الاخرى في القرن التاسع عشر – كانت اندرجت في الشبكة الاقتصادية التي انتشرت بتأثير حركة التصنيع في اوروبا الغربية وعيتاً حاولت المصنوعات البدوية المحلية أن تنافس السلم المستوردة المصنوعة آلياً بالجملة ، وقد ادى هذا الى انهيار الاقتصاد المحلي .

ان هذا الاتر الذي كان لاوربا الغربية على الشرق العربي في القرن التاسع عشر، هو الذي هزّ الشرق تلك المرة التي ايقظته من رقدة العصور الوسطى . وبهذه الانقاضة دلت اوضاع المصور الوسطى في سوريا ولبنان من نهايتها ، واخذ فجر العصر الجديد في الانطلاق . وقد كانت هذه الفترة برمتها فترة نظر وانتقال ؛ فنشوء الحركة القومية واستيلائها على حياة الشعب ، وأقياس مبادى الدينقراطية السياسية ، والسير في الاتجاه العلماني التجددى جميع هذه ، تزلف فصلاً جديداً في تاريخ لبنان وسوريا ، لكنه فعل لم يدون بعد .

١) راجم من ٣٣٠ - ٣٣٣ من هذا الجزء.

٢٤) تقدم شرح ذلك في ص ١٧٤ وما بعدها من هذا الجزء.

فَرَسْ عَام

صفحة

، ١٨٢ ، ١٧٧ ، ١٧٤ ، ٦٧
 ، ٢٤٥ ، ٢٤٠ ، ٢٣٦ ، ١٨٤
 ، ٣١٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠
 ، ٢٧١ ، ٢٦٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٣
 ، ٤٣٨ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٣٧٧
 ، ٤٤٣
 الكتابة ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
 الأدب ، ٢٨٢ ، الحضارة ، ١٧٧
 الآلهة ، ١٨٨ ، العصر ، ٢٧٥
 الآرامية - اللغة (٢) ، ١٤٦ ، ١١٦ ، ٨٢ ، ٤٤٤
 الآرامية الشرقية - اللغة (١)
 الآرامية الغربية - اللغة (١)
 الآراميون (١) ، ٤ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ١٠١
 ، ١١٨ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، الفرات ، ١٥١
 ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، انتشارهم ودولهم
 ، ١٧٧ ، التجار ، ١٨١ ، ١٨٢
 ، ٢٠٣ ، ١٩٠ ، ١٨٧ ، ١٨٣
 ، ٢١٧ ، ٢٧١ ، ٢٢٨ ، ٢١١
 ، ٤٤٣
 ، ١٧٩ ، ٩٦ ، ٤٢ ، ٤٢ (٢)
 آرل (١) ، ٢٨٤
 آرنون - نهر (١) ، ١٨٠ ، وانتظر الوجب
 آريوس (١) ، ٣٩٧ ، ٢٩٥ ، ٣٨٧
 الآريوسية (١) ، ٤١١ ، ٢٨٧
 آسيا (١) ، ٤ ، ٥٢ ، ٢٤ ، ٢٢ ، ٥٤ ، ٤
 ، ٥٥ ، ١٤٦ ، ١٣٦ ، ٨٣ ، ٥٦ ، ٥٥
 ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٣ ، ٢١٩ ، ١٦٧
 ، ٣٠٢ ، ٢٠٠ ، ٢٩٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥
 ، ٣٧٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٢ ، ٢١٥ ، ٢٠٨
 ، ٤٢٨ ، ٢٩٨ ، ٢٨٦
 ، ٥١ ، ٤٥٦ ، ٣٩ ، ٣١
 ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٥٥ ، ٢٠٤
 ، ٣٥٦ ، ٣١٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦
 آسية الرومانية (١) ، ٣٥٢
 آسية الصفرى (١) ، ٢٩ ، ٦٥ ، ٦٥ ، ٨٨

ملاحظات

- ١ - لقد اهملنا عند وضع هذا الفهرس كلمة « ابن » و « ابو » و « بنو » و « اخو » فمثلاً ابن خلكان يقع تحت خلكان
- ٢ - وضعنا حرف « ح » رمزاً للحاشية .
- ٣ - ذكرنا اسماء الكتب في الحواشي كاملة مع تاريخ طبعها ومحله وذلك عند ورودها أول مرة ثم اكتفينا فيما بعد بمختصر لاسم الكتاب .

- الالف -

صفحة

الآباء الرسوليون (١) ، ٣٧١
 آباء الكنيسة (١) ، ٣٧١
 آباما (١) ، ٢٦١
 آبو فيس (١) ، ١٦١ ، ١٦٠
 آتونس - جبل (١) ، ٢٤٦
 آتيس - آلهة (١) ، ١٨٧ ، ١٧٢
 آثار اليهود - كتاب (١) ، ٣٥٣ ، ٣٥٢
 آجئور - ملك فينيقية (١) ، ١١٤ ، ١١٠
 آحاز - ملك يهودا (١) ، ١٨١ ، ١٨١
 اورشليم
 آخاب (١) ، ٤٠ ، ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٤٠ ، ١٧٩ ، ٩٦ ، ٤٢ ، ٤٢ (٢) ، ٢٢٢ ، ٢٠٩
 آدد نيراري (١) ، ١٧٥
 آدوم (١) ، ٤١٦
 آراء أهل المدينة القاضلة - كتاب (٢) ، ٢٠١
 آرال يجر (٢) ، ٨١
 آرام (١) ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ١٧٩ ، ٦٣
 آرام (٢) ، ١٧٢
 آرام دمشق (١) ، ١٧٧
 آرام النهرين (١) ، ١٧٦
 الآرامي ، الآرامية - اللغة (١) ، ٦٦

صفحة	صفحة
١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٨٣	١٠٢ ، ١١٦ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٦
ابراهيم بن احمد الاول (٢) ح ٣٠٥	٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩
٣٠٦	٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣
ابراهيم باشا (٢) ٣٤١ ، ٣٤٢	٢٧٤ ، ٣٥٠ ، ٣٨٧ ، ٤٠١
٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٢	٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٦
ابراهيم الحاقداني (٢)	(٢) ، ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٣
ابراهيم الطببي (٢) ٣٠٧	٥٣ ، ٦٦٢ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦
ابراهيم بن صالح العباسى (٢) ١٦٥	٢١٤ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢
ابراهيم العلوى (اخو النفس الزكية) (٢)	٢٥٥ ، ٥٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥
ابراهيم بن الوليد (٢) ٦٤ ح ١٦١ ، ١٦٢	٢٩٥ ، ٢٩١ ، ١٥١ ، ٩٥
١٥٠ ، ١٤٨ ، ١٤٨	٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٥
١٠٢	٣٠٣ ، ١١٣ (٢)
ابشالوم (١) ١٧٣	٦٥ ، ٤٩ ، ٢٩٨ ، ٦٩
اشة (١) ٨٢	٦٩ - ٦٩ ، ٦٩ ، ٦٩
ابق بن محمد بن طفتين (٢) ٢٠٩ ح ١٧٧ ، ١٧٤	٢٤٣ ، ٣٠٣ ، ٣٢٢
ابقراط (٢) ٢٠٦	٢٧٦ ح ٦٦
ابلة (١)	٢١٣ ح ٧.
ابلستين (٢) ٤٥	آمور - بلاد (١)
الابلق - قصر (٢) ٢٨٦	آمو داريا (٢)
ابلو ايللي (١) ١٥٣	آمون - الاله (١)
ابو صير (١) ١٣٧	٢٥٥ ، ١٤٥
ابو الفداء - المؤرخ (١) ٤٤ ، ٦٣	آمون - راع (١)
ابو كريفا (١) ٢٨٢	١٤٢
ابو كمال (١) ٦٧٢	٢٤٦
ابوله - تمثاله (٢) ٢٥	٣٤٨
ابولو ذورس (١) ٣٩٢	٤٤
ابولون (١) ١١٥ ، ٢٧٩ ، ٢٣٢	١١٩
٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٦	الاباضية (٢)
ابو لينارس (١) ٤١٢ ، ٤١١	١١٩
ابو الهول (١) ٢٢٣ ، ١٣٨	٢٧٠
ابهل (١) ٥٤	٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
ابيان (١) ٢٩٤	١٢٠ ، خطية
ابيدوس (١) ١٤٧ ، ٢٩	الابجدية العربية (١)
(٢) ٥١ ، ٥	٤٢٧
ابروس (١) ١٩٦	الابجدية الكنعانية (١)
ایفانس (١) ٢٧.	١٢٠
ایفانية (١) ٣٨٩ ، ٢٧٧	الابجدية مسمارية (١)
الابيقرورية - الفلسفة (١) ٢٨٠	١٢٣ ، ١٢٣
ابي ملكي (١) ٠٨٠	اجر (١) ، ٢٧. ، ٣١٠ ، ٣٤١
	اجر الراهنوي (٢) ١٣٥
	ابراهيم (١) ٦٥ ، ١٦٩ ، ١٣٤

صفحة

٢٠٥ ح
٢٠٦ ح
٢٠٧ ح
٢٠٨ ح
٢٣٩ - ٢٢٦ ح
٢٤٠ ، ٢٣٥ ح
٢٢٨
٢٢١
١٨٧ - ١٨٥
٢٤٩
١٩٢
٢٣٤
٢٣٤ ، ٢٢٢ ح
٢٧١
١٦١ ، ١٣٩
٢٢٤ : ١٢١
٢٤٨ ، ١٨٢
١١٦ ، ١٠٩ : ٤١ : ٤٠
١٩٢
١٩٧ ، ١٩٤ - ١٩٠
٢٠١
١٩٦
٢١١ ، ١٩٢ : ١٩٠
١٧٥ ، ١٧٤
٢٥٦
١٤٣ ، ٨٠ ، ٧٨
١٧٥ ، ١٧٢ ، ١٦٧
٢٨٢ : ٢٤٩
٢٠١
٢٠٤
٣٥٥ : ٣٥٤
٢٤٥
١٧٧
١٢٠
٢٩٧
ادوم (١) ، ١٩٤ ، ١٩٢ ، ٢٤
مصدر الحديد الخام (٤)

صفحة

٢٢٤
٢٠٩ - ٢٠٧
أثار غاتس (المة سوريه) (١)
الاتراك (١) ج ١٣١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩
معبدتها (٤) ٢٨١ ؛ ٣٧٠ - ٤٢٨
٦٤ ، ٦٢ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٤
؛ ٢١١ ، ٢٠٥ - ٢٠٣ (٢)
، ٢٣٥ ، ٢٢٥ ، ٢١٢ ، ٢١٢
، ٢١٤ ، ٣٠١ - ٢٩٧ ، ٢٦٩
؛ ٣٤١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨
٢٤٦ ، ٢٤٢
الاتراك العثمانيون (٢) ٣٥٣ ، ٣٥٠
٢٥٠ اتسيز (٢)
١٣٠ انوسكيون (١)
٢٢٢ ، ٧٨ اتون - الله (١)
٣٠٤ اتيكا (١)
الاتيكي - النحت ، الدراما (١) ٤٤٩
٢٤٧ اثار (١)
١١٣ ، ٤٠ اثال - ابن (٢)
٢٠٩ ابيعل (١)
٢٢٠ ابيعل الثاني (١)
٣٢٤ اثناسيوس دباس (٢)
٢٩٤ ، ٢٨١ - ٢٤١ (٢) اثير - ابن (٢)
اثينا (١) معابدتها ٢٥٦ ؛ زينون
يعلم في روايتها ٢٧٩ ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٢
فيها ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ؛ ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٠
٤٤٤ - ٤٠٩ ، ٣٩٢ ، ٣٦٠
اثيناؤس (١) ٣٢٤ ، ٣٢٤
اثينودوروس (١) ٤٢٨
٢٢٨ الاتيكي - الدرام (١)
١٤ احتاديون (٢) ١٠ ، ١١ ح. معركة
٣٦١ الاوجوبية - كتاب (١)
احدث التقسيم في معرفة الاقاليم
- كتاب المقدس (١) ٤٤ ح
احسن التقسيم في معرفة الاقاليم
- كتاب المقدس (٢) ٢٠١
احش - ويرش (١) ٢٥٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٤٦
٢٥٨ ، ٢٥٦

صفحة	صفحة
٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٦	٤٤٦ ، ٤٤٤
٢٠٧ ، ٢٠٢ ، ١٩٢	٤٣٧ ، ٤١٣
٤١٧ ، ٢٦٩	ادميون (١)
ادونيس (١)	٤١٧ ، ٢٦٩
٤٢٨ ، ٤٢٦ ، ٢٠	ادنيس (١)
١٨٥ ، ١٨٤	١٠٧ ، ١٠٨
٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦	٢٧٧ ، ٢٩٨
٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦	٣١٠ ، ٣٢٨
٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦	٣٢٨ ، ٣٢٧
٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦	٣٤١ ، ٣٤٠
٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦	٤٣٧ ، ٤١٣
٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦	٤٣٦ ، ٤٤٤
٣٤٣ (٢)	اديسون (١)
٣٤٣ (٢)	اذرح (٢)
٣٤٣ (٢)	اذريجان (٢)
٣٤٣ (٢)	اذينة (اوديناتوس) (١)
٣٤٣ (٢)	٤٣٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٧
٣٤٣ (٢)	٤٣٦ ، ٤٣٦
٣٤٣ (٢)	ارادس (١)
٣٤٣ (٢)	اراس (٢)
٣٤٣ (٢)	ارباد (١)
٣٤٣ (٢)	اربخا (١)
٣٤٣ (٢)	انظر كركوك
٣٤٣ (٢)	١٦٢
٣٤٣ (٢)	٢٩٢
٣٤٣ (٢)	٢٥٦
٣٤٣ (٢)	١٥١
٣٤٣ (٢)	٢٥٦
٣٤٣ (٢)	٧٨
٣٤٣ (٢)	٣٨٢
٣٤٣ (٢)	٢٤٤
٣٤٣ (٢)	٢٤٨ ، ٢٤٧
٣٤٣ (٢)	٢٥١ ، ٢٢٢
٣٤٣ (٢)	٣٩٤
٣٤٣ (٢)	١٤٣
٣٤٣ (٢)	١٠٣-١٠١
٣٤٣ (٢)	١٧٨
٣٤٣ (٢)	٢٢٣
٣٤٣ (٢)	٣٥٤
٣٤٣ (٢)	٣١٣ ، ٣١٢
٣٤٣ (٢)	٧٩
٣٤٣ (٢)	٤٤٢ ، ٤١
٣٤٣ (٢)	٣٥٠ ، ٤٥٠
٣٤٣ (٢)	٤١٦ ، ٣٥١
٣٤٣ (٢)	٢٧٧ ، ٢٦٥
٣٤٣ (٢)	٤٢٣ ، ٤١٨

صفحة	صفحة
٢١٤ ٧٨ الاسبان (٢) ، ٩٦ ، ٦٩ ، ٤ اسپانيا (١) ، ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٨ ، ١٠٥ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢٨٣ ، ١١٦ مورد السمك المجفف ٤١٤ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٧٣ ، ٣٩ ، ٧٣ ، ٣٩ يغزوها العرب (٢) ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٢٢٤ ، ٢٠١ ، ١٧٩ ، ١٥٦ ٢٥٣ ، ٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧ ٢٢٣ ، ٢٩٧ ، ٢٨٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ الاسبانية — الملغة (٢) الاسبانية — المدن (١) الاسبانية — الاسبارتاريون (٢) ٤٢٧ ح ٢٤٣ ، ٢٤٥ — ٢٤٨ ، ٢٤٨ ٢٥٢ ، ٢٥٣ ٢٢١ الاستانة (٢) ٢٤٥ استراليا (٢) ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٧٧ ، ١٣٤ اسحق (١) اسحق بن حنين (٢) ١٧٩ ، ١٧٦ اسحق التينوي (٢) ١٨٠ ٢٢٥ اسد الدين شير كوه (٢) ٢٠٧ اسد يهودا (١) ٥ ١٤٦ اسلود (١) الأسراء الى مقام الاسرى — كتاب ٢٩٢ (٢) اسرائيل (١) ٩٥ ، ٨١ ، ٦٦ ، ٥٤ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٦٠ ، بنو ١٦٩ ، ١٧٩ — ١٨١ — ١٩٣ ، ١٩١ ، بلد تاريخ بنيتها ، ٢٠٤ ، ١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ٤٢٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢١ ، ٢١٨ ، ٢١٦ — ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٢٣ ٢٤٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٣ ٢٥٤ (٢) الاسرائيلي — الفزو (١) ٤٤٣ ٢٢٣ المجتمع الاسرائيليون (١) ٤٧ ، ٤٧ ، ٦٢ ، ٨١ ، ١٥٦ ، ١٠٤ ، ٩٠ ، ٨٢ ١٣٧ ٤١٣ ، ٣١٠ ، ٨٧ ، ٧٠ ، ٢٨ ، ١٢٩ ، ١٧٧ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ١٩٤ ٤٤٣ ، ٢٢٦ ارمية (٢) أرمينيا (١) ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٤٧ تسك تقودا ٣٨٩ ، ٢٩٨ ارواد — جزيرة (٢) ارواد على الخليج الفارسي (١) ١٠٧ (١) ٩٠ ، ٧٧ الارواديون (١) ٢٨٦ اريتوزة (الرستن) (١) اريتوسا (١) ٢٧٦ وانظر الرستن واريتوزة اريحا (١) اقدم مساكن الانسان ، ٤٣ ، ٢٧ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٨ تأسيسها ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٥ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٥٩ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، كثانها ٢٢٦ ٣١٢ ، ٣٠٤ ، النحاس يستخرج من جوارها ٣٢٧ ، ١٢٣ (٢) اريسطرخس (١) ٣٠٩ ، ٢٦٩ اريسسطو بولس (١) ٥١ ارين (الامبراطورة) (٢) ٣٩٤ الاريوسية (١) ٦٢ الازارقة (٢) ١٥٣ الازد (٢) ١٢٥ الازرق (٢) ٢٩٧ ٢١١ الازهر (٢) ١٦٧ ، ٨٠ — ٧٦ ازيد (٢) الازهر (٢) ١٦٧ ، ٨٠ — ٧٦ اسامة بن منقذ (١) ٥٧ ٢٨٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٨٠ الاسباط العشرة المقودة (١) ٤١٣	

صفحة

ظهوره (٢) ١٧٤، ٤٤٣
 ١٦٩، ٩٦، ٨٦، ٨٥، ١٩
 ٤، ٢٠٠، ١٨٠، ١٧٢
 ٣، ٢٤٣، ٢٢٢، ٢٠٥، ٢٠٤
 ٣، ٢١٦، ٣٠٤، ٢٧٠، ٢٦٣
 اسماء ابنته ابى بكر (٢) ٥٩
 اسماعيل بن ابراهيم (١) ١٩٢
 اسماعيل باشا العظم (٢) ٣٠٩
 اسماعيل مؤسس الاسماعيلية (٢) ٢١٠
 اسماعيل بن جعفر الصادق (٢) ٢٠٩
 اسماعيل بن طفتكن (٢) ٢٠٩ ح
 اسماعيل الناصر (٢) ٢٧١
 اسماعيل بن نور الدين (٢) ٢٣٦
 الاسماعيلية (٢) ١٢٠، ١٨٩، ١٢٠، ١٩٠
 ٢١٧، ٢١٠، ٢٠٩
 ٢٢٥، ٢٢٠، المذهب ٢١٩
 ٢٥٩، ٢٣٥
 اسوان (١) ٤٤٢، ١٨٤
 ابو الاسود الدؤلي (٢) ١٠٥
 اسيس (٢) ١٢٥
 اسيوي، اسيويون (١) ٥٧
 ٢٥٨، ١٣٧، ٨٢
 الشبلية (٢) ١٥٦، ٧٤
 الشدود (١) ٢١٦، ٢٠١، ١٩٨، ١٩٧
 الاشدوبيون (١) ٢٠١
 الاشرف (٢) ٢٦٧، ٢٤٨
 الاشرف جان بلاط (٢) ٢٧٣ ح
 الاشرف خليل (٢) ٢٧١
 الاشرف سيف الدين انيال (٢) ٢٧٣ ح
 الاشرف سيف الدين برسبياني (٢) ٢٧٣
 الاشرف سيف الدين قائباني (٢) ٢٧٣ ح
 الاشرف شعبان (٢) ٢٧١
 الاشرف طومان باي (٢) ٢٧٣ ح
 الاشرف فاتصوه الفوري (٢) ٢٧٣ ح
 الاشرف مظفر الدين (٢) ٢٦٦ ح

صفحة

٢١٤، ٢٠٠
 اسرحدون (١) ١٤٤، ١٥٤، ١٥٤
 اسفينية - حروف (١) ١٢١
 اسطفان (٢) ٢٥٠
 اسطفان الديوبهي (٢) ٢٢٢
 اسعد العظم (٢) ٣٠٩
 الاسكتدر (١) ٦٥، ٦١، ٥
 ١٥٦، ١٣٥، ٩١
 ٢٤٩، ٢٤٦، ٢٤٢، ١٨٢
 فتوحاته ٢٥٣ - ٢٦٠
 ٢٧٥، المدن التي اسستها ٢٦٤
 ٢٩٠، ٢٨٨، ٢٧٩، ٢٧٧
 ٣٠٥، ٣٠٤، ٣١، ٢٩٣
 ٤١٧، ٤٠٨، ٣٧٤
 ٢٢٨، ١٨، ١٤
 اسكندر الاول بالاس (١) ٢٨١، ٢٦٤
 اسكندر الثاني زابيناس (١) ٢٧٤
 ٢٨١
 اسكندر جانيوس (١) ٤١٩
 اسكندر جناديوس (١) ٣٦٩
 اسكندر سفيروس (١) ٣٤١
 ٤٣٦، ٣٨٢ - ٣٦١
 اسكندرون (١) ٣٣، ٣١
 ٣١، ٣٢، ٣٢، ٣١
 ٣١، ٣٢، ٣٢، ٣١
 الاسكندرية (١) تأسيسها ٤٥٥
 حصارها ٢٦٦؛ ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٧٦
 مكتبتها ومحفظتها ٢٨٢
 ٣٠٥؛ ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٣٥، ٣٧
 ٣٥٢، ٣٥٢، ٣٧٢، ٣٦٠، ٣٥٨
 ٣٩٨، ٣٧٢، ٣٦٠، ٣٥٨
 ٤٤٤، ٤٣٩؛ ٤٢٥، ٤١٤
 ٤، ١٧٤، ١١٣، ٢٤
 ٢٧٦؛ ٢٤٢
 الاسكوربالي (٢) ٢٢٣
 اسكي شهر (٢) ٥٢
 الاسلام - الاسلامية (١) صلتها
 بسورية ٣؛ ٤، ٢٣٦، ٢٢٤
 ٢٣٨، ٤١٣، ٤١٦، ٤١٦، ٤٥٠
 ٤٥٢

صفحة	صفحة
٢٨٦	الاكتيل - ديوان شعر (١)
٣٨٤	اكياتينا (١)
٣٧٧	الاكبابا (١)
٢٠٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤١	الاكابالس (١)
٤٤٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٠ ، ٣٦١	٢٦٤ ح
١١٦	الايب - جبال (١)
٢٠٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤	الب ارسلان (٢)
٢٢٦	٢٦٥ ح
٩٥	الباستر (١)
٢٢٤	الباونتا (١)
١١٤	الباتيا (١)
٣٣٨	(٢)
٢٨	الالي - العنصر (١)
٢٤٥	البرز - جبل (٢)
١٦٣	الالخ (١)
٣٣٤	الألعاب الاولبية (١)
١٣٦	الفرد (ملك انجلترا) (٢)
٢٦٢ ، ٢٥١ ، ١٥٩	الف ليلة وليلة (٢)
٤٣٥	الكتندروس (١)
٢٢٤	الكتسيوس كومينتوس (٢)
٤٤٠	اللامان (١)
٣٤٩ ، ٣١٣	(٢)
٣٢٢ ، ٤	المانيا (١)
٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٣٩	(٢)
٣٥١ ، ٣٤٨	٢٤٥ ح
٢٤٦ ، ١٤٤ ، ٦٥	النبي (١)
٢٦٨ ، ٢٤٥	الموت - قلعة (٢)
٤	الوس موزل (٢)
١١٤ ، ١٠٢ ، ٩٦	اليادة هوميروس (١)
٢٥٩	١٦٤ ؟ نصر
١٧٧	(٢)
٢١٨	الياقيم بن يوشيا (١)
٢١	الاليخان السابع غازان محمود (٢)
٢٧.	٢٧
٢١١	اليشع (١)
٣١٩	الصلبات - الملكة (٢)
٢٥٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٥	٢٥٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٥
٢٦	افريقيا الشرقية (١)
٢٩١	الأفريقية - الفيلة (١)
٤١١	افسن - مجمع (١)
٢٠٥ ، ٦٥	الافضل بن صلاح الدين (٢)
٢١٦	الافضل محمد (٢)
٣٥٨	افغانستان (٢)
١٧٧	افقا (١)
٣٧٢	افلاطون (١)
٤١٠ ، ٣٩٣ ، ٢٥٩	الافلاطونية (١)
٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٠٠	الافلاطونية الجديدة (١)
٢٨٠	٢٧٥ (٢)
٣٩٨	الافلاطونيون الحدثيون (١)
١٧٩ ، ١٧٤	افلوطين (٢)
٣١٧	افونسو البوكركي (٢)
٣٢٢	ايديروس كاشيوس (١)
٨٠	انيبيون (٢)
٤١٣	الاقباط (١)
١٣٧ : ٩٠	(٢)
٤٨	اقبطانا (١)
١٧٩ ، ١٧٤	افريطيش (٢)
٦٦	افليدس (٢)
٤	الاكاديمية اللغة (١)
١٨٤ ، ١٦٢ ، ١٢٢ ، ٧٦	٧٢
١٥٨	السلامة ؟ كلمات
١٧٣	١٧٣ ؟ كلمات
١٦٤	١٦٤ ؟ نصر
١٧٣	(٢)
١٨٦	الاكاديون (١)
٢٨٠	الاكاديمية الاثينية (١)
٢٤١	اكاسرة (٢)
٢٥٧	اكباتا (١)
٣١١	اكتيوم - معركة (١)
٢٩١	اكرا Kad (١)
٣٢٨ ، ٢٧٣ ، ٢٦٠	٢٦٠ ، ١٩٤ (٢)
١٤٧	اكستنت (١)

صفحة	صفحة	
١٨٣ ، ٥٥ : ٢٥ ٢٤٥ ، ٢١٧ ٢١٧ ، ١٤٢ ١٤٢ ٢٥٨ ٤٤٤ ١٤١ ١٦٥ ، ١٦٠ ح. ٠ ، ٣٩ ، ٢٧ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٤ ٤٩ ح. ، ١٥١ ٢٦٤ ، ٢٦٢ ٢٢٠ ٢٢٢ ٢٦١ ٢٠٥ ، ٥٤ ، ٤٦ ٢٠٨ ، ٢٧٠ ، ١٨٣ : ٦٩ الاباط (١) ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٣٠٩ وملوكهم ، ٤١٦ — ٤٤٤ ، ٤٤٧ ٤٥٢ ١٧٢ ٣٥٤ ٣٥٤ ، ٣٠٩ ٢٨٠ ٣٥٧ ٢٨٥ ، ٢٨٤ ٢١١ ٢٥٩ ٣٥٥ ٣٤٩ ٠ ، ٢٧٩ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ٤٢٧ : ٤١٧ ١٠٩ ، ٧١ ٢٥٢ : ١١٧ ١٦٢ ٨١ ، ٦٩ الأندلس — وادي (٢) الأندلس (١) ، ١٦ ٢٢ ٣٢١ ، ٢٩١ ، ٢٠٠ ، ١٨٤	٢٧٨ ٧٤ ٤٣٠ ٠ ، ١٣٤ ، ١٣١ ٤٢٨ ، ٤٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٠٧ ٣٣ ، ٣٢ ، ١٤٩ ، ٨٨ ، ٧٦ ٦٥ ٥٣ ٧٧ ٣٩١ ٢٣٠ ، ١٢٣ ٧٦ ٤١٧ ٩ ٢٨٦ ، ٢٨٥ ٨٣ ، ٧٨ — ٧٦ ١٦٢ ١٦٢ ، ١٤٦ ١٦٢ ، ١٤٤ ، ١٤٣ (١) ١٤٢ ، ١٤١ ١٣٨ ١٥٠ ، ١٣٨ ، ٨٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ١٦٨ ٧٧ ، ٦٧ ٨٢ ١٦٤ ، ١٧٤ ١٢٥ ٧٥ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٦١ ١٦١ ، ١٣٢ ، ٨٥ ٢٣٣ ، ١٩٠ ، ١٧٦ ١٧٥ ١٩٤ ٦١ ٣٢٤ ، ٤٤ ، ٤ ٦٣ ، ٥٨ ، ٥١ ، ٢٤ ٩٧ ، ٩٤ — ٩٠ ١٤٨ ، ١٣٤ ، ١٢٨ ١١٨ ١٥٤ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ١٥٩ ٣٩٥	اليو ثير بوليس (١) امارة امورية (١) اماicia (ملك يهودا) (١) الاماكن المرتفعة (١) ، ١٣١ ٤٢٨ ، ٤٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٠٧ امانوس — جبل اللقام (١) ٦٥ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ٨٨ ، ٧٦ ٢) (٢) اميبي (١) امتان (١) الامثال — سفر (١) أمكي (١) ام الباردة (١) ام قطفة (١) ام قيس (١) ام منحوتب (١) ام منحوتب الثالث (١) ام منحوتب الثاني (١) ام منحوتب الرابع (١) ، ١٤٣ (١) ام منحب (١) ام نمحوت الثالث (١) امورو (١) الاموري ، الامورية (١) اللغة الحضارة ، الديانة الهجرة ، الخرف الاموريون (١) هيرا ابو اوس (١) انتيدن (١) انتيغونس (١) ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٩ ٤٢٧ : ٤١٧ الأنجيل (٢) الإنجليمة — الكنيسة (٢) ، ١١٧ اندرا (الله) (١) الأندلس — وادي (٢) الأندلس (١) ، ١٦ ٢٢ ٣٢١ ، ٢٩١ ، ٢٠٠ ، ١٨٤ ١٥٦ ، ١٤٩ ١٥٦ ، ١٤٩ ٣٢١ ، ٢٩١ ، ٢٠٠ ، ١٨٤ امياس مرسلينوس (١)

صفحة	صفحة
انطيوخس التاسع سيزيكلينوس (١) ٢٧٤ ح. ٢٦٤	٢١٧ ١٢ ٥٩
انطيوخس الثالث (الكبير) (١) ٢٩٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٦٥ ١١٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٠ ، ٢٩٦	اندونيسيا (٢) الإنسان البدائي (١) الانتصار (٢) انطاكيه (١) ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٢ ، الزلزال فيها ١٦٣ ، ١١٥ ، ٦١ ، ٤٢ ١٨٥ ، ٢٦٢ - ٢٦٠ ، ٢٦٦
انطيوخس الثالث عشر (١) ٢٧٤ ، ٢٧٣	٢٧٣ ٢٧٤ ، ٢٧٦ واسها ٢٧٧ ؛ ٢٧٩ ٢٨٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٠ ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٠ ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣١٧ ذات مقالع حجرية ٣٢٧ ٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤١ ؛ ٣٣٩ - ٣٣٣
انطيوخس الثامن غريبوس (١) ٢٧٤	٣٢٨ ، ٣٢٧ ٣٦٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٢ ، ٣٤٥ ٣٧٢ - ٣٧٠ ، مركز سورية الأولى ٣٨٩ ؛ ٣٩٣ ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠١ ، ٣٩٩ ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤١٤ - ٤٠٩ ٤٤٧ ، ٢٢٤ ، ١٢٤ ، ١١ (٢)
انطيوخس الثاني - تيوس (١) ٢٦٤	١٤٤ ، ١٤٠ ، ١١٣ ، ٥٤ ، ٥٣ ١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٨٦ ، ١٧٤ ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣ في طريق الصلبيين ٢٢٦ ؛ اكتشاف الحرية المقدسة فيها ٢٢٧ ٢٤٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٠ ٢٧٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٠ ، ٢٥٠
انطيوخس الخامس يوسيبيوس (١) ٢٧٣	الانطاكيون (١) انططروس (٢) ٢٤٩ ، ٢٢٨ ٢٥٤
انطيوخس السادس تيوس (١) ٢٧٣ ح.	انطلياس (١) انطونيو (١) انطيوخس (١) ١١٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ٢٨٠ ، ٢٦٨
انطيوخس الرابع - ايفانس (١) ٢٦٤ ، ٢٦٦	انطيوخس ابيفانس (١) ٢١٥ ٣٠٥ : ٣١٢ ، ٣٠٦
انطونيوس يوسيبيوس (١) ٢٧٤	انطيوخس الاول - سوتر (١) ٢٦٤ ٢٩٠
انطيوخس العاشر يوسيبيوس (١) ٢٨٩ ، ٢٧٣	
انطيوخس العاقلاني (١) ٢٨٠	
انطويوكية كلير وهي (١) ٢٧٧	
انطون - القدس (١) ٤٠٤	
انطونيوس يوسيبيوس (١) ٣٣٤ ، ٣٢٠ ، ٣٧٩ ، ٣٧٢ ، ٣٤٤	
الانطوني - العصر (١) ٣٥٧ ، ٣٥٥	
الانطونية - الاسرة (١) ٣٧٨	
الانطونيون (١) ٢٢٠	
أنفة (١) ٧٧ ح. ٤٤٠ ، ١٦٦	
القرة (١) ٢٩٧ (٢)	
الاكتشارية (٢) ١٨٥ : ٢٩٨ ، ٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٢ ٣٢٨	
انكلترا (١) ٤ : ١١١ : ١٠٣ : ٢١٤ ٣٢٢	
٣٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٣٩ (٢)	

صفحة	صفحة
٢٢٢ ، ٢٢٣	انكليز (٢) ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩
اورخان (٢)	٣٥٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٣١٩
اورشليم (١)	الإنكليزية - اللغة (٢)
١٧٣ ، ١٦٩ ، ٨٩ ، ٤٠	٣٥٢ ، ٢٨٤
، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٨٠ ، ١٧٩	الإنكليزان (٢)
، ٢٠٩ - ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣	١٣٧
٢٤٣ ، ٢٣٨ - ٢٣٤ ، ٢٢٠ - ٢١٥	١٩١
، ٢٦٩ : ٢٦٧ ، ٢٥٦ ، ٢٤٥ -	انجور بن أخيميد (٢)
، ٢٢٦ : ٢١٢ ، ٢٩٦ ، ٢٧٨	٢٥١
، ٢٧١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨	٢٢٩
، ٢٨٩ ، ٢٨٨ : ٣٧٧ - ٣٧٥	٢٢٣ ، ٢٥٨
، ٤٢٣ ، ٤١٩ ، ٤٦ ، ٣٩٨	١١٣
، ٤٣.	اهدن (٢)
اورغناستية (١)	اهرون (٢)
١٢	اهريمان (١)
اورفا (١)	أهل البيت (٢)
٤٤١ ، ٤٣٩ : ٣٩٢	١٦١
اوريليان (١)	أهل الكتاب (٢)
اورمية - بحيرة (١)	١٧
اورتنس (١) ، ٢٢ ، وانظر نهر العاصي	الاهواز (٢)
اورهاري (١)	٦.
٢٧٧	أوبى (في منطقة دمشق) (١)
اوريانوس (١)	٧٦
اوريانوس (١) ، ٤٢٩ - ٤٣٢	اوتيكا (١)
اورميا - بحيرة (١)	١١٠ ، ١٠٢
اورننس (١) ، ٢٢ ، وانظر نهر العاصي	اوديناتوس (١)
اورهاري (١)	٤٣٧
٢٧٧	اور (١)
اوريانوس (١)	١٩١ ، ١٤٩
اوريجين (١)	اوراس جبل (٢)
٢٨٢ ، ٢٨٢ ، ٢٧٢ ، ٢٥٨	١٢ ، ٨٠ ، ٥٦ ، ٣
الازواعي (٢) - ١٧	، ٥٧ ، ٥٢ ، ٤٨ ، ٣٥ ، ٢٩
، ١٦٧ ح - ١١٨	، ٢٥٨ ، ٢٤٠ ، ١٥٦ ، ١١٤
١٨٤ ، ١٨٣	، ٢٨٨ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣١٥
٢٠	٤٣٨
١٤٦ ، ١٢٦	١٢٧ ، ١٠١ ، ٧٣ (٢)
اوزيريس (١)	، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢١٧ ، ٢١١
١٤٢	، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤ ح - ٢٢٧
١٤٤	، ٢٦٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٢
٢٨٤	، ٣٠٣ ، ٢٨٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧
اوجاريت (١) ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٤ ، ٩	، ٣٥٤ ، ٣٢٣ ، ٣١٨ - ٣٦
، ١٢٥ ، ٩٢ ، ٨٣ ، ٦٢	٣٥٦
١٢٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ - ١٢٢	اوريا (ابنة الملك الفينيقي) (١)
، ١٢٨ ، ١٢٢ ، ١٢٩	١١٤
، ١٧٣ : ١٩٦ ، ٢٢٢ ، كتابات	اوريان (البابا) (٢)
، ٢٢٥	٢٢٢
٤٣٩ ، ٣٧٨	اوريانوس الثاني (٢)
أوغسطا (١)	٢٣٥
أوغسطس قيصر (١) ، ٢٠٩ ، ٢٠٧	الاوربية - الام (١)
، ٢٢٠ ، ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٢	اوريبة (٢) لغة ١٧٨ ، البلاد ٢٨٩
، ٢٣٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤ : ٢٢٢	٣٥٦
، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ : ٢٤٢	الدول ٣٣٤ ، الثقافة
، ٤٣٩ ، ٤٢٠	١٩٧
	الاوربيون (١)
	، ٢٥٧ - ٢٥٥ ، ٢٥٠
	، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٤ ، ٣١٣

صفحة	صفحة	
١٧٥ ابسوب - قصصه يسوس - معركة (١) (٢) - ٤٥٥ - ٢٥٣ ٢٢٤ إيطاليا (١) (٤ : ٤١٦ ، ١٠٣ ، ٥٣ : ١١٦ ، ١٠٣ ، ٥٣ ، ٣٠٣ ، ٢٨٣ ، ٢٦٦ ، ١٨٨ ، ٣٢٩ ، ٣٢٥ ، ٢٢٤ ، ٣٥٥ ، ٣٤١ ؛ ٣٣٠ ، الخزف ٣٩٨ ، ٣٩٢ ، ٣٨٤ - ٣٧٤ ٤٣٩ ، ٢٢٦ - ٢٢٤ ، ١٤٢ (٢) ، ٣٤٦ ، ٣٣١ - ٣٢٩ ٢٥١ الإيطالية (١) اللغة ؛ الجيوش ؛ البلاد الإيطالي - الأسطول (٢) (٢) ٢٢٨ ، ٢٢٦ الإيطاليون (١) (١) ٣٥٠ ، ٣١٨ ، ٣٠١ ٣٧٣ الإيطليون (٢) (٢) ٣٣٤ ، ٢٥٦ ، ٢٤٢ ايطوريما (١) (١) ١٧٨ ايل (الله) (١) (١) ١٢٧ ، ١٤٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٨ ايلات (١) (١) ٢٠٦ ايل غاري بن ارطق (٢) (٢) ٢٠٨ ، ٢٠٧ ايل وير (١) (١) ١٨٩ آلة (١) (١) ٤٢٦ ٦٤٥ ٣٥ ٤٢٠ ٣٧٧ ٢٢٢ ، ٢١١ ، ٤٠ ٣٧٧ ٢٧٤ ١٠٨ ٢٤٠ ايب (اصل الاسرة الايبوبية) (٢) ٢٦٤ ايب الانتصاري - ايوب (٢) ٤٧ ايب - سفر (١) (١) ٢٣٠ ، ١٢٤ ايب (والد صلاح الدين) (٢) (٢) ٢٣٦	٢٨٣ ١١٠ ٧١ ٣١١ ٧٩ ٤٥ اوليان (دوميتیوس اولبیانس) (١) (١) ٣٦٠ - ٣٦٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ اوہانس کیومجیان (٢) (٢) ٣٤٦ ح ٣٥٦ ٢٠٩ ١٣٧ ١٣٧ ٢٧٧ ١١١ ١١٣ ٢٧١ ١١٣ ٧٢ : ٦٥ ٢٩٢ ١٥٣ ١٢١ ٣١٧ ، ٢٧٠ - ٢٦٩ ٤٨ ٤٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٠٢ : ٢٩٤ ٤٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٠٢ ٣٠٢ ٤٣٠ : ٣١٧ ٤٣٧ : ٢١٤ ، ٦٣ ١٩٠ ، ٦٦ ٢٩٨ ٦٨ ١١٢ ١٦٤ ٢٢٢ ، ٢٠٩ ٢٢٢ ٣٦٩	الأوگسطی - العصر (١) أوغسطین (القدس) (١) أوغسطینوس (٢) أوكتافیان (اغسطس) (١) أولاذا (١) أولاس (٢) أوليان (دوميتیوس اولبیانس) (١) ٣٦٠ - ٣٦٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ أوهانس کیومجیان (٢) (٢) ٣٤٦ ح الاولب - جبل (١) أولوس غالینیوس (١) أوني (قائد ببي الاول) (١) أونیس (١) أیاس - ابن (٢) أیبریا (١) أیبریة (١) أیبک (٢) أیبری (١) أیبریا (٢) أیپوس (١) (١) ٢٦٠ ، معركة ٢٩١ أیپوبل - ملك صيدا (١) أیپوبل (١) الایتوريون (١) (١) ٢٦٩ - ٢٦٧ ، ٢٧٠ آنجه - بحر (٢) الایجي (١) العالم ؛ بلاد ١٩٦ ؛ البحر ٢٧٠ ؛ الجزيرة ٣٠١ الایدومية (١) (١) ٢٩٤ ، ٣٠٢ الایدومية - المدن (١) الایدومیون (١) (١) ٤٣٠ ، ٣١٧ ایران (١) (١) ٤٣٧ ، ٢١٤ ، ٦٣ ٢١٠ ، ٦٦ الامراتية - الهمبة (١) الایرانیون (٢) ایرانلندی (١) ایرین (٢) ایزابل ابنة ایپوبل (١) (١) ٢٢٢ ، ٢٠٩ ایزابل (١) (١) ٢٢٢ ایزیس (١)

<u>صفحة</u>	<u>صفحة</u>
٦٢ : ٦٩ - ٦٨ - ٦٦ - ٦٤ : ١٠	الابوبية - السلاة (٢) ٢٦٤ ح ٢٦٥ ، ٢٦٦
١٨١	٢٦٦
٢١٢ ، ٢١٣	الابوبيون (٢) ٢٢٤ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ - ٢٦٦
٤٦	٢٥٩ : ٢٥٢ - ٢٧٤
بادية الجزيرة (١)	مبانיהם ٢٨٣ - ٢٩٦
بادية الشام (البادية السورية) (١)	٢٩٤ : ٢٩٦
٤٦ ، نباتاتها ٦٥٤ ، ٥٢	٨٣ : ٦٥٤
(٢) الوليد الثاني يسكنها	١٥٠
٤٦	٢١٤ : ١٧٥ ، ١٧٧
٢٢٨	١٩٤
بادية شرقى الأردن (١)	بادية العراق (١)
٤٦	١٩٥
باراقي (١)	باراقي (١)
١٨٧	بار حد (١)
٧٩	البارد - نهر (١)
بارديسانس (ابن ديسان) (١)	بارديسانس (١)
٤٠٩	٤٠٦
١٨٦	بار ركاب (١)
٢٥٥ ، ٢٥٤	بارمينيو (١)
٥٤	الباروك (١)
٢٢٦	(٢)
٥	باريس (١)
٣٥٠ ، ٣٢٢ ، ٨٠	(٢)
٣٧٩	باسياتس (١)
١٩٦	باسيل (الامبراطور) (٢)
٤٠٠	باسيليوس (١)
٢٥١	باسيليوس الأصغر (١)
٣٩٤	باسيليوس الكبير (١)
٣٠٢ - ١٧٧ - ٨١ - ٤٥	باشان (١)
٢١٨ : ٢١٧	الباطنية (٢)
٢٨١	بالاس (١)
١١٦	الباليار (١)
١١٢	باليرمو (١)
٢٢٩	(٢)
٢٨١	بامبيس - هيرابوليس (١)
٢٦٥	بان - الله اليونان (١)
١١٤ . ١.	يائس (٢)
٢٨٦	باتوس (١)
٢٨٤	باتونيا (١)
	باخوس (١)
	البادية (١) ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤

صفحة	صفحة
١١١ بحر الفلمات (١) ٤٢٢، ٣١، ٢٧، ٤٥ (١) ٦٥، ٦٢، ٥٣، ٥٢، ٤٨، ٢٥ ١١١، ١١٠، ١٠٥—١٠٢، ٧٠ ١٣٧، ١٣٦، ١١٤، ١١٢ ٢٠٠، ١٩٠، ١٦٢، ١٥٧ ٢٦٠، ٢٥٥، ٢٣٨، ٢٢٦ ٣١٩، ٢١٢، ٣٠٩، ٣٠٨ ٤٢٨٢، ٣٢٦، ٣٢٣، ٢٢٢ ٢٨٢، ٣٨٩، ٤٣٤، ٤٢٩ البحر الميت (١) ٤١، ٢٥، ٩— ٢٠٦، ١٨٠، ١٩٤— ٤٣١، ٤٢٨، ٤٢٥، ٣٢٧ ٢٣١، ١٥٢، ٦، ٤ (٢)	٢٦٥ ٢٢٨، ٢٤٦، ٢٣٥ ٢٥٥ ٢٠٤، ٢٩٧ (٢) ٢٣٥، ٢٩٧ (٢) ٢٧٠، ٦٩، ٤٦، ٣٨ (١) ٣١٩، ٣١٤، ٣٠٠، ٢٩٨ ٢٥١، ٢٢٩، ٢٢٨ مركز ٣٩١، ٣٨٩ (٣) ٤٢٣—٤٣٠، ٤٢٦—٤١٧ ٤٤٨ ٥ (٢) ٧٩، ٧٧، ١٢ (١) ٣٢٦، ٢٢٨، ١٤ (٢)
٨٧ البحرين (٢) ١٤١ بحيرة حفص (١) ١٥٩ بحيرة طبرية (١) ٢٨١ بخاري (٢) ٢٠٤، ١٨٥ بختيشوع بن جورجيس (٢) ١٧٦ يخعة (٢) ٣٤ بدر — معركة (٢) ١٥٦ بدر (مولى عبد الرحمن) (٢) ٦٦، ٦٥، ٥١، ٤٧ (١) ١٧٤، ١٣٨، ٨٨ ٤٢٣، ٢٠٣، ١٩٨ ٩٥، ٧١، ٤ (٢) ٢٩٨، ١٩٨، ١٥٥، ٩٦ ٣٣٩، ٣٢٧، ٢٩٦	٤٣٨ ٣٥٨ ٣٨٩، ٢٧٧ (١) ٣٩٨ (١) ٣٨٤، ٣٤٢، ٤٢٥ ٤٢٦، ٤٢٥ (٢) ١٦٤، ١١٠ (٢) بحتر — بتو، آل؛ البحريون (٢) ١٨١، ٢٦٠، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٧١ ٣١١ ١٨٢—١٨٠ (٢) البحر الأحمر (١) ١٠٨، ٤١، ٣٢، ٣٢٣، ٢٠٦، ٢٠٠ ٤٣٥، ٤٢٦، ٤٢٠ ٢٤٢، ٢٣٠، ٢١٢، ٥ (٢)
٢٥٨ البراءة (١) (٢) ٢٠١، ٢٠٢ وانظر البرير البرامكة (٢) ٢٤٩ بربارة (القديسة) (١) البرير (٢) بلاد ٣٨، ٢٨، ٧١، ٣٩، ٢٨ ١٥٦، ١٠٤، ٨٦، ٨٠، ٧٣ ١٥٦ البرتقال (٢) ١٠٨ البرتاليون (١) ٣١٩، ٣١٧ (٢)	٧١ البحر الأدنى (١) ٢٠٠ البحر الأسود (١) ٣٠٣، ٦٩ (٢) ٧١ البحر الأعلى (١) ٧٠ بحر أمورو العظيم (١) ١٦٨ بحر ايجه (١) ٤١٩، ٣٠٤، ٢٧٦ بحر الجليل (١) وانظر الجليل (٢) ٢٣٧، ٢٣٧ (٢) ٢٥ بحر الخزر (١)

صفحة

بشير الاول (٢) ٣٤٠ - ٣٣٦ ح
 بشر بن قاسم الشهابي (٢) ٣٤٠ ح
 ٣٤٢
 بشير : الثالث (٢) ٣٤٣
 بشير الثاني (٢) ٣٤١ ، ٢٤٠ ح
 ٣٥١ - ٣٤٢
 بصرى (١) ٣٥٠ ، ٣٢٩ - ٣٢٣
 ٣٩٥ : ٤٠٧ ، ٤١٨ : ٤٢٦ - بناء
 كاتدرائيتها ٤٤٨
 ٣٥٥ : ٧ - سقوطها باليدي
 العرب ٢٢٥ ؛ ١٠
 البصرة (٢) ٢٩ ، احتدام «يوم النجم»
 بظاهرها ٢١ - ٣٦ ؛ ٢٨ - ٦٢
 ٦٨ - ٦٦ : ٨٧
 ١١٥ : ١٦ : ١٠
 ٣١٨
 بخل عقلان (١) ٣٢٥
 البطلة - اسرة، دولة ٢٧٣ - ٢٧٦
 ٢٧٦ - ٢٩٢ : ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٣١٣ : ٣٠ - ٣٠ . ٢٩٨
 ٤٢٠ - ٤١٩
 بطرس (١) ٣٧١ - ٣٦٧
 ٢٥٢
 ٣٤٧
 بطرس الاكبر (٢) ١١٦
 بطرس اللومباردي (٢) ٢١٤
 بطلان - ابن (٢) ٢٦٥ - ٢٦٠ . ٢٥٩
 بطليموس (١) ٢٥٤ : ٣٥٠ - ٣١١
 ١٧٨ - ١٧٦
 بطليموس اورجيس (١) ٢٦٢
 ٢٨٢
 بطليموس الاول (١) ٢٧٧ - ٢٧٦
 بطليموس الثاني فيلادلفوس (١)
 ٢٢٤
 بطون السر (٢) ٧
 بعثة العهد التورائى البابوي (١) ٢٤
 ٣٢٤
 بعقلين (٢) ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٥
 بعل (الله) (١) ١٢٠ ، ١٢٤
 ١٢٨ - ١٨٨ - ٢١١ - ٢١٨
 ٢٢١ - ٢٢٢

صفحة

بردى (وادي) (١) ٤٤
 نهر (٢) ٩٤ ، ٨١
 بردة النبي (٢) ١٥٨
 بردوبل (٢) ٢٥٨
 البردي - شجر (١) ١٤٧
 برسباي (٢) ٢٧٤
 برسوبليس (١) ٤٣٧ ؛ ٢٥٧
 نرسلونة (١) ١١٣
 برصوما (١) ٤١٢
 برغامس (٢) ٧.
 برغامم (برغاموم) (١) ٣٠٥ : ٢٦٢
 برقة (١) ٥.
 برقة (٢) ١١٣
 بررقوق (٢) ١٨٨
 برركه بن بيرس (٢) ٢٧٤ ، ٢٧٣
 برلام الزاهد (٢) ١١٧
 برمك (٢) ١٦٢
 برمانا (٢) ٣٢٦
 البرنيه - جبال (٢) ٧٩ - ٧٨ ، ٦٤
 بروبيوس (١) ٣٥٢
 بروسيا (٢) ٣٠٤
 بروسيما (٢) ٢٩٧
 بروكوبيوس (١) ٤١٣ ، ٣٩٨ - ٣٩٧
 بريتان (١) ١٧٩ ح
 بريندوود - اوبرت (١) ٢٢ ح
 بريسا (وادي) (١) ٢١٩
 بريطانيا (١) ٤٤٤ ، ٣٧٨
 بريش (٢) ٣٤٧ - ٣٤٢
 بسر بن ارطاة (٢) ٤٦ ، ٤٥ ح
 بسکره (٢) ٣٩
 ب斯基 - خليج (٢) ٨١
 بسيانوس (١) ٣٤١
 بشري (١) ٥٤
 بشيتا (١) ٣٢٦
 بشيتا - الامير (٢) ٤٠٩
 بشير - الامير (٢) ٣٤٣ ، ٣٣٤

صفحة	صفحة
٢٤٤ - ٢٤١ : ٢٢٥ - ٣٢٠	٤٤٥ ، ٤٤١ ، ٤٢٤ ، ٣٤٣
٢ البقاع المقدسة (١)	٦٠ بعل آنه الهكسوس (١)
٢٧٠ ، ٢٥٨ بكتيريا (بلغ)	٣٤٠ بعل الافقعي (١)
٢٩١ بكتيرية (١)	٢٢٢ بعل ايش (١)
٩٨ بكر (٢)	١٨٧ بعلبك (١)
١٦ : ١٤ : ٧٠٥ بكر - ابو (٢)	٢٧٢ ، ١٨٧ ، جاليات الرومان فيها
٢٧ : ٢٨ : ٢٧	٣٧٠ ، ٣٤٢ ، تقودها
٢٧١ بكر - ابو الناصر (٢)	٣٨٢ ، القديمة
٢٠ ابي بكر - ابن (٢)	١٦٧ ، ١٣٤ ، ٥٤ ، ١١ ، (٢)
١٦ ح بكر (٢)	١٨٣ ، ١٩٥ ، ١٩٠ ، استيلاء
١٤١ بكركي (٢)	٢٣٢ ، ٢٠٧ ، زنكي عليها
٢٦ : ١٦ ابلاذري (٢)	٢٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢٦٦ ، الشيعة
٨٠ بلاط الشهداء (٢)	٢٢٧ ، فيها
١٥٩ البلاطة (١)	٣٨٤ بعل بيروت (١)
١٥٦ بلج بن بشير التشيري (٢)	٣٨١ بعل الحمصي (١)
٣٦ البلجيكي - الدستور (٢)	٤٥٥ ، ٤٠٩ ، ١٨٩ ، وانظر حدد
٢٢٤ الباح التيقلاوي (١)	٤٤٥ بعلشميه (١)
٢٥٨ بلخ (١)	٢١١ ، ١٥٥ بعل صور (١)
٦٨ : ٦٦ : ٣٨ (٢)	٣٨٤ بعل غزّة (١)
٤٢٤ بدلوين الاول (١)	١١٠ بعل لبنان (١)
٤٢٤ - ٢٣٠ : ٢٢٨ ، ٢٢٥ بدلوين (٢)	٣٨٤ بعل مرقد (١)
٢٢٩ بلساحر (١)	٢٢٢ بعل يداع (١)
٥. البغاريون (٢)	١٥١ بعلي رأسي (١)
٤١ ح بلفورت - قلعة (١)	٢٨١ البعلم - الديانة (١)
٤٤٨ البلقاء (١)	١٢٩ البغنة (١)
١٤٥ ح (٢)	٢٩٨ ، ٦٥ ، ٤
٣٥١ ابلقان (٢)	١٥٩ : ١٣٦ : ١١٥
٢٠٧ باقيس (١)	١٦٢ : ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧
٦٩ : ٦٥ باوخستان (٢)	، استقرار أبي تمام فيها
٣٥٩ : ٣٥٨ بلوتينوس (١)	١٩١ : ١٩٥ - ١٩٦ : ١٩٦ ، ١٨١
٣١٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٠ باوطرخس (١)	، ٢١٤ : ٢٠٤ : ٢١٥ ، ٢٦٢ : ٢٦٥ ، ٢٦٦
٤٤٧ : ٤١٣ - ٣٩٨ بليستاريوس (١)	، ٢٢٦ - ٢٢٦ : ٢٨٤ : ٢٨٢ ، ٢٦٨
٢٤٥ : ١٠٣ - ٩٩ بليتي (١)	، ٢٨٦ ، ٢٨٤ : ٢٨٢ ، ٢٦٨
- ٣٢٤ : ٣٧ ، ٣٠٣ - ٣٠٠ بليتي (١)	، ٢٠٥ ، ٢٩٨ : ٢٨٩
٣٥٧ : ٣٥٠ ، ٢٢٦ بليتي (١)	مرور الخط التجاري بها
٣٩٩ بمغيلوس (١)	٣٤٨ ، ٣١٨ ، ٣١٨
٢٥٧ : ٢٤٠ البنجاب (١)	البقاع (١)
٧٩ : ٦٥ (٢)	١٧٨ : ١٣٨ ، ٤٢ ، ٤١

صفحة	صفحة
٣٤٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥ ٣٥٢ ، ٣٥٠ ، ٢٤٥ ، ٣٤٤	٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٢٧٧ ، ٢٠٣ وانتظر بيسان
٣٥ البروني (١) بورويا (١) ٢٧٨ ، ٣٨٩ بيرة (١) ٢٦١ ح بىتونس (١) بiza (٢) بىزنتة (١) ٤١٠ ، ٣٨٦ ، ٣١٣ ، ٤٤٩ ، ٤٤٠ ، ٤١٦ ، ٤١٣ ، ٤٥. ، ٤٥ ، ١٨ ، ٤٤٣ ، ١٩٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١٢٩ ، ٤٧ ٥. البيزنطي (١) الجيش ؛ ٨٩ ، ٢٥ الجيش ؛ الحكم ٣١٣ البيزنطية - الامبراطورية (١) ٣٢ ١٠٣ الحصون ٤٥ ، الحضارة ٣٨٦ ، الدولة ٣٩١ ، العصر البيزنطي ٤٠٣ ؛ الاحسان ١٢١ الامبراطورية ١٣ ، ٣ ١٠٢ ، ٣٨ ، ١٣ ٣٠٤ ؛ الحملة ٢٢٨ ؛ الملكة ٢٥١ ؛ التقوّد ٨٤ البيزنطيون (١) ٤٤٧ ، ٤١٠ ، ٢٤٠ ١٤٩ ، ٧١ ، ٧. ٣٥٦ ، ٢٠٥ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ٣٠٩ ، ٢٧٧ ، ٨٧ بيسان (١) ٣٠٧ ، ٢٨٩ ؛ ٣١. شان ٢٢٩ ، ١٠٠ ، ٢٧٩ بيصور (٢) البيطار - ابن (٢) بلاطس البنطي (١) ٣١٦ : ٣١٣ ٢٧٦ بيلا (١) بلا ديون (١) بيلان - مضيق (١) بيلوزيون - قلعة (١)	١٢١ ، ١٢٠ ١٥٩ ٢٢٦ : ٢٢٦ ٢٠٩ ١٢٨ ١٢٩ ١٢٩ ح ٢٠٥ ٢٩٨ ٢٥٨ ٢٧٩ ح ٢٠١ ٢١٣ ح ٢٨٧ ، ٣٥٥ ١٩٧ ، ١٩٣ ، ١٦١ ، ٤٠ البرة (١) بر الكاهنة (٢) بروت (١) مدرستها للحقوق الرومانية ؛ ٢١٤ الأمطار فيها ٤٤٩ ، ٨٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧١ ، ١٤٤ ، ١٢٥ ٤٣١ ، ٣٠٥ ، ٣٠١ ، ٢٧٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢ ، ٣٢٣ ، ٢٢٧ ، ٣٨٤ ، ٣٧٣ ، ٣٦٢ - ٣٦. ، ٤٠٢ - ٣٩٩ ، ٣٩١ ، ٣٨٩ ، ٤٢٧ ؛ ١٠٠ ، ٧١ ، ٥٤ ، ١٢ (٢) ، ١٨٣ ، ١٧٠ ، ١٦٧ اقامة الاوزاعي بها ١٨٤ ، ١٩٥ ؛ ٢٢٧ ، ٢١٧ ، ٢١٧ : ٢٠٢ ؛ ٢٤٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ دفاع ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥ البحتر عنها ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣٠٧ ، ٢٧٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ تجمیل فخر الدين لها ٢٢٠ ، ٢٢٠

صفحة	صفحة
- التاء -	تابوت العهد (١)
٤٣٧	تاج الدين السبكي (٢)
٤٣٨	تاریخ ابن الاثیر (٢)
٤٤٤	تاریخ بابل - كتاب (١)
٤٤٦	تاریخ بولبیوس (١)
٤٤٨	اتاریخ الكبير - كتاب (٢)
٤٤٩	التاریخ الکنسی (١)
٤٥٠	الناسویات - كتاب (١)
٤٥١	تاسیتوس (١)
٤٥٢	شاشکند (٢)
٤٥٣	تمار (١)
٤٥٤	تانکرد (٢)
٤٥٥	تاپیس (انیس) (١)
٤٥٦	تاوفیل الرهاوی (٢)
٤٥٧	تاوی - سعید (٢)
٤٥٨	تبریز (٢)
٤٥٩	تبنی (١)
٤٥٩	تبوك (٢)
٤٦٠	التر (٢)
٤٦١	تنش بن الپ ارسلان (٢)
٤٦٢	تجکر (١)
٤٦٣	تحویلس (١)
٤٦٤	تحویلس الاول (١)
٤٦٥	١٤٢ : ١٣٩ : ١٤٢ : ١٤٧
٤٦٦	تحویلس الثالث (١)
٤٦٧	١٣١ ، استیلائه على قسم من
٤٦٨	لبنان ١٤٣ : ١٤١ : ١٤٠
٤٦٩	١٥١ ، تقلبه على المکوس في
٤٧٠	سوریة ١٦١
٤٧١	تحویلس الرابع (١)
٤٧٢	١٤٧ : ١٠٠
٤٧٣	٢٢٠ ، الطريقة (٢)
٤٧٤	٦٥ : ٤٦٠ : ٤٤٢ : ٢٨
٤٧٥	القوش في معابدها ١٨٨ : ١٨١
٤٧٦	٣٢٨ : ٣١٨ : ٣١٩ : ٣١٨
٤٧٧	٣٢٩ : تطورها الى دولة کبرى
٤٧٨	٣٨٥ : ٣٥١ : ٣٤١ : ٣٤٠
٤٧٩	٤٤٤ : ٤٤٢ : ٤٤١ : ٣١٦
٤٨٠	٣١٢ : ٣١١ : ٣١٠
٤٨١	٣١٠ : ٣٠٩ : ٣٠٨
٤٨٢	٣٠٨ : ٣٠٧
٤٨٣	٣٠٧ : ٣٠٦
٤٨٤	٣٠٦ : ٣٠٥
٤٨٥	٣٠٥ : ٣٠٤
٤٨٦	٣٠٤ : ٣٠٣
٤٨٧	٣٠٣ : ٣٠٢
٤٨٨	٣٠٢ : ٣٠١
٤٨٩	٣٠١ : ٣٠٠
٤٩٠	٣٠٠ : ٢٩٩
٤٩١	٢٩٩ : ٢٩٨
٤٩٢	٢٩٨ : ٢٩٧
٤٩٣	٢٩٧ : ٢٩٦
٤٩٤	٢٩٦ : ٢٩٥
٤٩٥	٢٩٥ : ٢٩٤
٤٩٦	٢٩٤ : ٢٩٣
٤٩٧	٢٩٣ : ٢٩٢
٤٩٨	٢٩٢ : ٢٩١
٤٩٩	٢٩١ : ٢٩٠
٤١٠	٢٩٠ : ٢٨٩
٤١١	٢٨٩ : ٢٨٨
٤١٢	٢٨٨ : ٢٨٧
٤١٣	٢٨٧ : ٢٨٦
٤١٤	٢٨٦ : ٢٨٥
٤١٥	٢٨٥ : ٢٨٤
٤١٦	٢٨٤ : ٢٨٣
٤١٧	٢٨٣ : ٢٨٢
٤١٨	٢٨٢ : ٢٨١
٤١٩	٢٨١ : ٢٨٠
٤٢٠	٢٨٠ : ٢٧٩
٤٢١	٢٧٩ : ٢٧٨
٤٢٢	٢٧٨ : ٢٧٧
٤٢٣	٢٧٧ : ٢٧٦
٤٢٤	٢٧٦ : ٢٧٥
٤٢٥	٢٧٥ : ٢٧٤
٤٢٦	٢٧٤ : ٢٧٣
٤٢٧	٢٧٣ : ٢٧٢
٤٢٨	٢٧٢ : ٢٧١
٤٢٩	٢٧١ : ٢٧٠
٤٢١	٢٧٠ : ٢٦٩
٤٢٢	٢٦٩ : ٢٦٨
٤٢٣	٢٦٨ : ٢٦٧
٤٢٤	٢٦٧ : ٢٦٦
٤٢٥	٢٦٦ : ٢٦٥
٤٢٦	٢٦٥ : ٢٦٤
٤٢٧	٢٦٤ : ٢٦٣
٤٢٨	٢٦٣ : ٢٦٢
٤٢٩	٢٦٢ : ٢٦١
٤٢١	٢٦١ : ٢٦٠
٤٢٢	٢٦٠ : ٢٥٩
٤٢٣	٢٥٩ : ٢٥٨
٤٢٤	٢٥٨ : ٢٥٧
٤٢٥	٢٥٧ : ٢٥٦
٤٢٦	٢٥٦ : ٢٥٥
٤٢٧	٢٥٥ : ٢٥٤
٤٢٨	٢٥٤ : ٢٥٣
٤٢٩	٢٥٣ : ٢٥٢
٤٢١	٢٥٢ : ٢٥١
٤٢٢	٢٥١ : ٢٥٠
٤٢٣	٢٥٠ : ٢٤٩
٤٢٤	٢٤٩ : ٢٤٨
٤٢٥	٢٤٨ : ٢٤٧
٤٢٦	٢٤٧ : ٢٤٦
٤٢٧	٢٤٦ : ٢٤٥
٤٢٨	٢٤٥ : ٢٤٤
٤٢٩	٢٤٤ : ٢٤٣
٤٢١	٢٤٣ : ٢٤٢
٤٢٢	٢٤٢ : ٢٤١
٤٢٣	٢٤١ : ٢٤٠
٤٢٤	٢٤٠ : ٢٣٩
٤٢٥	٢٣٩ : ٢٣٨
٤٢٦	٢٣٨ : ٢٣٧
٤٢٧	٢٣٧ : ٢٣٦
٤٢٨	٢٣٦ : ٢٣٥
٤٢٩	٢٣٥ : ٢٣٤
٤٢١	٢٣٤ : ٢٣٣
٤٢٢	٢٣٣ : ٢٣٢
٤٢٣	٢٣٢ : ٢٣١
٤٢٤	٢٣١ : ٢٣٠
٤٢٥	٢٣٠ : ٢٢٩
٤٢٦	٢٢٩ : ٢٢٨
٤٢٧	٢٢٨ : ٢٢٧
٤٢٨	٢٢٧ : ٢٢٦
٤٢٩	٢٢٦ : ٢٢٥
٤٢١	٢٢٥ : ٢٢٤
٤٢٢	٢٢٤ : ٢٢٣
٤٢٣	٢٢٣ : ٢٢٢
٤٢٤	٢٢٢ : ٢٢١
٤٢٥	٢٢١ : ٢٢٠
٤٢٦	٢٢٠ : ٢١٩
٤٢٧	٢١٩ : ٢١٨
٤٢٨	٢١٨ : ٢١٧
٤٢٩	٢١٧ : ٢١٦
٤٢١	٢١٦ : ٢١٥
٤٢٢	٢١٥ : ٢١٤
٤٢٣	٢١٤ : ٢١٣
٤٢٤	٢١٣ : ٢١٢
٤٢٥	٢١٢ : ٢١١
٤٢٦	٢١١ : ٢١٠
٤٢٧	٢١٠ : ٢٠٩
٤٢٨	٢٠٩ : ٢٠٨
٤٢٩	٢٠٨ : ٢٠٧
٤٢١	٢٠٧ : ٢٠٦
٤٢٢	٢٠٦ : ٢٠٥
٤٢٣	٢٠٥ : ٢٠٤
٤٢٤	٢٠٤ : ٢٠٣
٤٢٥	٢٠٣ : ٢٠٢
٤٢٦	٢٠٢ : ٢٠١
٤٢٧	٢٠١ : ٢٠٠
٤٢٨	٢٠٠ : ١٩٩
٤٢٩	١٩٩ : ١٩٨
٤٢١	١٩٨ : ١٩٧
٤٢٢	١٩٧ : ١٩٦
٤٢٣	١٩٦ : ١٩٥
٤٢٤	١٩٥ : ١٩٤
٤٢٥	١٩٤ : ١٩٣
٤٢٦	١٩٣ : ١٩٢
٤٢٧	١٩٢ : ١٩١
٤٢٨	١٩١ : ١٩٠
٤٢٩	١٩٠ : ١٨٩
٤٢١	١٨٩ : ١٨٨
٤٢٢	١٨٨ : ١٨٧
٤٢٣	١٨٧ : ١٨٦
٤٢٤	١٨٦ : ١٨٥
٤٢٥	١٨٥ : ١٨٤
٤٢٦	١٨٤ : ١٨٣
٤٢٧	١٨٣ : ١٨٢
٤٢٨	١٨٢ : ١٨١
٤٢٩	١٨١ : ١٨٠
٤٢١	١٨٠ : ١٧٩
٤٢٢	١٧٩ : ١٧٨
٤٢٣	١٧٨ : ١٧٧
٤٢٤	١٧٧ : ١٧٦
٤٢٥	١٧٦ : ١٧٥
٤٢٦	١٧٥ : ١٧٤
٤٢٧	١٧٤ : ١٧٣
٤٢٨	١٧٣ : ١٧٢
٤٢٩	١٧٢ : ١٧١
٤٢١	١٧١ : ١٧٠
٤٢٢	١٧٠ : ١٦٩
٤٢٣	١٦٩ : ١٦٨
٤٢٤	١٦٨ : ١٦٧
٤٢٥	١٦٧ : ١٦٦
٤٢٦	١٦٦ : ١٦٥
٤٢٧	١٦٥ : ١٦٤
٤٢٨	١٦٤ : ١٦٣
٤٢٩	١٦٣ : ١٦٢
٤٢١	١٦٢ : ١٦١
٤٢٢	١٦١ : ١٦٠
٤٢٣	١٦٠ : ١٥٩
٤٢٤	١٥٩ : ١٥٨
٤٢٥	١٥٨ : ١٥٧
٤٢٦	١٥٧ : ١٥٦
٤٢٧	١٥٦ : ١٥٥
٤٢٨	١٥٥ : ١٥٤
٤٢٩	١٥٤ : ١٥٣
٤٢١	١٥٣ : ١٥٢
٤٢٢	١٥٢ : ١٥١
٤٢٣	١٥١ : ١٥٠
٤٢٤	١٥٠ : ١٤٩
٤٢٥	١٤٩ : ١٤٨
٤٢٦	١٤٨ : ١٤٧
٤٢٧	١٤٧ : ١٤٦
٤٢٨	١٤٦ : ١٤٥
٤٢٩	١٤٥ : ١٤٤
٤٢١	١٤٤ : ١٤٣
٤٢٢	١٤٣ : ١٤٢
٤٢٣	١٤٢ : ١٤١
٤٢٤	١٤١ : ١٤٠
٤٢٥	١٤٠ : ١٣٩
٤٢٦	١٣٩ : ١٣٨
٤٢٧	١٣٨ : ١٣٧
٤٢٨	١٣٧ : ١٣٦
٤٢٩	١٣٦ : ١٣٥
٤٢١	١٣٥ : ١٣٤
٤٢٢	١٣٤ : ١٣٣
٤٢٣	١٣٣ : ١٣٢
٤٢٤	١٣٢ : ١٣١
٤٢٥	١٣١ : ١٣٠
٤٢٦	١٣٠ : ١٢٩
٤٢٧	١٢٩ : ١٢٨
٤٢٨	١٢٨ : ١٢٧
٤٢٩	١٢٧ : ١٢٦
٤٢١	١٢٦ : ١٢٥
٤٢٢	١٢٥ : ١٢٤
٤٢٣	١٢٤ : ١٢٣
٤٢٤	١٢٣ : ١٢٢
٤٢٥	١٢٢ : ١٢١
٤٢٦	١٢١ : ١٢٠
٤٢٧	١٢٠ : ١١٩
٤٢٨	١١٩ : ١١٨
٤٢٩	١١٨ : ١١٧
٤٢١	١١٧ : ١١٦
٤٢٢	١١٦ : ١١٥
٤٢٣	١١٥ : ١١٤
٤٢٤	١١٤ : ١١٣
٤٢٥	١١٣ : ١١٢
٤٢٦	١١٢ : ١١١
٤٢٧	١١١ : ١١٠
٤٢٨	١١٠ : ١٠٩
٤٢٩	١٠٩ : ١٠٨
٤٢١	١٠٨ : ١٠٧
٤٢٢	١٠٧ : ١٠٦
٤٢٣	١٠٦ : ١٠٥
٤٢٤	١٠٥ : ١٠٤
٤٢٥	١٠٤ : ١٠٣
٤٢٦	١٠٣ : ١٠٢
٤٢٧	١٠٢ : ١٠١
٤٢٨	١٠١ : ١٠٠
٤٢٩	١٠٠ : ٩٩
٤٢١	٩٩ : ٩٨
٤٢٢	٩٨ : ٩٧
٤٢٣	٩٧ : ٩٦
٤٢٤	٩٦ : ٩٥
٤٢٥	٩٥ : ٩٤
٤٢٦	٩٤ : ٩٣
٤٢٧	٩٣ : ٩٢
٤٢٨	٩٢ : ٩١
٤٢٩	٩١ : ٩٠
٤٢١	٩٠ : ٨٩
٤٢٢	٨٩ : ٨٨
٤٢٣	٨٨ : ٨٧
٤٢٤	٨٧ : ٨٦
٤٢٥	٨٦ : ٨٥
٤٢٦	٨٥ : ٨٤
٤٢٧	٨٤ : ٨٣

صفحة	صفحة
تل حلف (١) ٢٢ ، ٥٦ ، ٢٧ ، ٧٥ : ١٦٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٦ ح	٢٥١ ، ٢٥٠ ٢٦٦ ترموميللي (١)
تل الخليفة (١) ١٩٧	٢١٧ ترهافه (طهور قا) (١)
تل الخوبيلة (١) ١٩٤ ، ١٣٠ ، ٨٧	٢٠١ ، ٢٧٣ تريفون (١)
١٩٤ ، ١٣٠ ، ٨٧ وانظر لاكيش	٢٧٩ ، ٢٧٧ تساليا (١)
تل الرميلة (بيت شمش) (١) ١٢٠ ، ١٥٩	٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨ تسكانيا (٢)
١٩٧ تل الشريعة (١)	٢٥١ تشور (٢)
١٥٨ تل العجول (١)	٢٩٠ التصوف الاشرافي (٢) ٢٨٩ -
١٩٧ تل عرق المنشية (١) ١٨٨	٢٩٥ التعريف بالصطلاح الشريف - كتاب (٢)
١٦٣ ، ١٢٢ تل عشرتا (١)	٢٧٦ ، ٢٧٤ تفري بردبي - ابن (٢)
١٦٣ ، ١٢٢ تل العطشانة (١)	٢٩٧ تفلاط فلاسر (١) ١٥١ ، ١٥٠
١٦٣ ، ١٢٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٢٠٣ ، ١٢٨ ، ٨٠ تفلاط فلاسر الاول (١) ١٧٤	١٧٥ ، ١٥١ ، ١٥٠ تفلاط فلاسر الثالث (١) ١٥١ ، ١٨٢
١٦١ تل القرعة (١)	٢١٢
٩٣ تل الفول (١)	١٠٩ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٤٠ ، ٤٣ : ١٩٢ ، ١٧٥
٢٠٣ تل الفول (١)	٢٣٣ تفوق (اقواعه) (١)
١٩٤ ، ١٥٩ تل القدح (١)	٤٢ ح تقويم البلدان - كتاب (١)
١٤١ تل المسلمين - انظر مجدو	٢٩٥ ، ٢٩٤ تغلب (٢)
٢٢٧ تل النسبة (١)	٢١٧ التقية (١)
١٩٤ تل وقاص (١)	٢٢٥ تكريت (٢)
٢٩ ، ٢٥ : ٢٤ تنبيلات القسول (١)	٢٢٢ التكوين - سفر (١)
١٩٨ ، ١٨٢ ، ١٨٠ تمام - ابو (٢)	٢٣١ تل الحجاج (٢)
١٧٧ تموز (الله) (١) ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٨ ، ١٧٢	٣٣٥ ، ٣٣٦ تلحوظ - آل (٢)
٢٧٦ تنفيز (٢)	٢٣٦ التلمود الاورشليمي (١) (٢)
٢٧٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٢٢٣ ، ٢٧٦ ، ٢١٥ ، ١٧٥ تنوخ - آل ، بنو (٢)	١٠٦ التلمود البابلي (١)
٢٣١ ، ٣١١ ، ٢٢٥ التنوخيون (٢) ٩٥ ، ١٧٠ ، ١٧٠ ، ٢٢٥	٢٣٧ تل «ابو هوام» (١)
٨١ - ٧٩ تور - معركة (٢)	٩٦ تل الاحمر (١)
١١٢ ، ٦٦ ، ٥٧ ، ٤٣ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٢٨ ، ١٢٥ التل ارفاد (١)	١٧١ تل الاشوري (١)
٢١١ ، ١٨٣ ، ١٦٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦	١٥١ تل الاكربوب (١)
٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦	١٨٨ تل الجديدة (١)
	٩٢ ، ٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
	٢٦ تل الجزء (١)
	٧٢ تل الحريري (١)

صفحة	صفحة
٢٢٥	ثوم هليوبولس (١)
١١٣	ثي ذوق (٢)
٢٨٤	ثيم بن سعد (بولييان) (١)
١١٠	ثيودوروس - أخو هرقل (١)
١٢	١١: ٧
٥١	ثيوفانس (٢)
- العجم -	
١١٤	جابر بن حيان (٢)
٤٤٩	الجابة (١)
٤٤٩	(٢) ١٦٤ ١٥٤ ١٣ ١٦٤ ١٥٤ ١٣ ١٩ يوم
١٥	٢٢٤ ٢١ مؤتمر ٢٢ ٢١
١٨٠	جارد (١)
٢٧٦	جاسم - قرية (٢)
٢٥٤	جالينوس (١)
١٧٨	١٧٦ - ١٧٤ (٢)
١٢٩	الجامع ال الكبير (٢)
١٧٢	الجامع الاموي (٢)
١٢٤	جامع دمشق (٢)
٢٥٢	الجامع العمري (٢)
٢٥٣	الجامع الكبير (٢)
٢٥١	الجامعة الاسلامية (٢)
٠	الجامعة الاميركية في بيروت (١)
٤٩	٤٩
٢٥٣	٢٥٣ ٢٥٢ (٢)
٢٢٠	انجامعة - سفر (١)
٢٦١	الجامعة السورية (٢)
٣٤٧	الجامعة العربية - حركة (٢)
٣٥٥	٣٥٣ - ٣٥٢
٣٥٥	جامعة الدول العربية (٢)
٣٥٢	جامعة القديس يوسف (٢)
٣:٧	جان بردي الفزالي (٢)
٤٥	الجهالية (١)
٢٥	جبال الجورا (١)
٣٣	جبال الناصرية (١)
١١٠	جيبرائيل جبور (٢)
٣٢٢	جيبرائيل الصهيوني (٢)
- الثناء -	
١٧٩	ذابت بن فرة (٢)
٤٥٦ ٤٤	الشغور (٢)
٥٩	تفيف (٢)
٣٩٨	زمن ومكان ترجمتها السريانية
٣٩٨	٢٧٦ ؛ ٢٧٦ ؛ ٣٩٨ : ٤٩
٣٢٢	١٧٥ ١٠١ ٣٢٢ وانظر
٢٣٦	الكتاب المقدس
١٦٣	توراة شاه (٢)
١٦٣	تسكانيا - انظر تسكانيا
١٦٣	توشراتا (١)
١٦٣	ترطن الدروز في حوران - مقال (١)
٤٥	٤٥ ح.
٢٢٧	تلوز (٢)
١١٦	توما الاكتوبي (٢)
٢٦	تومات نيجا (١)
١١٠	تونس (١)
٢٠٩	٢٠٩ ١٩٢ ١٠٣ ٣٨ (٢)
٢٨٦	٢٨٦ ٢٢٣ التبیر - نهر (١)
٤٤١	٤٤١ تيپور (١)
٢٥	٢٥ تینس (١)
١٠٧	١٠٧ التیجان - كتاب (٢)
٣٧٠	٣٧٠ ١٧٢ ١٧٢ تیشوب - (عشتاروت) الهة (١)
٣٧٥	٣٧٥ ٣٥٣ ٣٤٣ ٢٧٨ تیطس (١)
٤٢٣	٤٢٣ ٢٧٦
٢٧٣	٢٧٣ ٢٧١ تغرانس الارمني (١)
٢٧٣	٢٧٣ تغرانوسرا (١)
٣٠٠	٣٠٠ ٢٣٩ ١٨٩ تیماء (١) حجرها
٢٦٨	٢٦٨ ١٣٤ ٢٩٧ تیمور (تیمورلنك) (٢)
٢١١	٢١١ ٢٩٧ - ٢٩٥
٢٦١	٢٦١ تیمية - ابن (٢)
٣٢٤	٣٢٤ التین - شجر (١)
٢٤٨	٢٤٨ ٢٤٧ تینس (الملك) (١)
٢٧١	٢٧١ تیپور و سوبون (١)
٣٥٩	٣٥٩ ٣٤٨ ٣٣٦ ٣٤٨ ٣٩٨ ٣٨٨ تیودوسیوس (١)
٤١١	٤١١ ٣٩٨ ٣٨٨

صفحة	صفحة
حكم بنى عسان لها :	الجبرية (٢)
٢٢٥ ٢٢٦	جعادرین (٢)
١٩٧ جب (١)	جيعة (١)
٤٠ جنة - جبل (١)	جبل افرايم (١)
٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٨٧ - ٣٨٥ (١)	جبل الاقرع (١)
٢٥٩ - ٢٥٩	جبل جلعاد (١)
٢٠١ جدروزيا (١)	جبل الدروز (١)
١٩٥ جدعون (١)	جبل سربون (١)
٧ جدام (٢)	جبل الشیخ (١)
٧٠ ، ٥٤ - ٥٣ الجراجمة (٢)	٢٢٢ ، ٢١٧ ، ٨١ (٢)
٢١٦ ، ٢٩٧ ، ٢٦٨ الجراكسة (٢)	جبل صنین (١)
٥ الجرباء (٢)	جبل طابور (١)
٥٤ ، ٥٣ جرجومة (٢)	جبل طارق (١)
٢٠٢ جرزيم - جبل (١)	(٢)
٣ جرش (جرازة) (١)	جبل عامل (٢)
٣٣٢ ، ٣٢٩ ، ٣٢٩ مركز تجاري مزدهر	جبل عطلون (١)
٢٥ ، ٣٥١ ، ٣٩٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٠ كنائسها	جبل القووعة (١)
الجرماني - الجرمانية (١)	جبل القفرة (١)
القبائل (١)	جبل كاشيوس (١)
٢٨٢	جبل الكرمل (١)
٢٧٠	(٢)
القبائل ٢	جبلة (جبلة) (١)
جرماتيكوس (١)	٢٨٩ ، ١٣٧ ، ١٣٦ (١)
٣١٦	٢٢٨ ، ٢٠٣ ، ١٩٥ (٢)
جرماتيکس مکسیموس (١)	٣٠٩ ، ٢٢٨
٢٨٣	جبلة بن الايم (١)
جرها (العقير) (١)	(٢)
٤٢٥ ، ٢٩٩	٤٥١ ، ٤٥٠
جرمق - جبل (١)	٤٧
٢٩	٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٢٥٩
جرزييم - جبل (١)	٢٨٥
٢١٥ ، ٢١٤ ، ٣٩ (١)	جبيل (١)
١٠٩	١٥ : ٣٥ : تمثال مصرى
الجزائر (٢)	قدیم بها ٥٦ ؛ ٧٧ ، ٧٤ ، ٦٤ ؛
١١٩ ، ٧١ ، ٣٩	٨٨ ، ٨٠ ، ٨٩
جزر (١)	١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٢٨ ، ٩٢
٩٩ ، ٨٩ ، ٨٤ ، ٢٨ ، ٢٦	١٤٧ - ١٤٥ ، ١٦٧
٢٠٧ ، ١٩٤ ، ١٢٩	، ١٤٢
٢٢٦ ، ٢١٧	١٨١
جزرك (١)	؛ معارضتها الحكم الذاتي
١٨٤	زمن الفنیقین ٢٤٦ ؛ ٢٥٤
الجزویت (٢)	٢٧١ ، ٢٨١
٣٥٢ ، ٣٢٠	؛ انتاجها للخمور
٧٣	٣٨٩ ؛ ٣٢٧
جزیرة طریف (٢)	
جزیرة العرب (الجزیرة العربية) (١)	
٥٦	
١٦٥ ، ١٤٨ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٦٧	
خروج الاراميين منها ؛ ١٧٤	
١٨٠	
اسطول سليمان عليها ؛ ٢٠٦	
٤	
٢٣٢ ، ١٩٥ ، ٥٤ ، ١٢	

صفحة	صفحة
- ٢٢٦	الجليل الاعلى (٢)
٢٢٦	الجمارة (١)
٢٥٤ ، ٢٥١	جمال باشا (٢)
٢١٠	جمال الدين التنوي (٢)
٢٥١ ، ٢٥٠	جمعية الاتحاد والترقي (٢)
٢٠١	جمهورية افلاطون (٢)
٢٥٧	جمهورية جنوبي (٢)
٢٥٨	جمهورية زينون (١)
٥٤ ، ٤٤	الجمهورية اللبنانيّة (١)
٢١٧	(٢)
٤ ، ٢٣٠	جمهوريّات المدن الإيطالية (٢)
٢٥٧	٢٥٧
٢١٩ ، ٢٦٨	جمهورية يهودية (١)
١١.	جميل بن معمر العذري (٢)
جنا	جنا بين (٢)
جنبلاط - آل	جنبلاط - آل (٢)
٢٤٠ ، ٢٢٥	٢٣٨ ، ٢٢٦
٢٤٤	الجنبلاطية (٢)
٢٢٠	الجنبلاطيون (٢)
٢٢ ، ٢١	جند الاردن (٢)
٢١	جند حمص (٢)
٢١	جند دمشق (٢)
٢٢	جند فلسطين (٢)
١٧٦ ، ١٧٤	جند يشاپور (٢)
٢٩٦ ، ٢٦٨ ، ٢٤٣	جنكيز خان (٢)
١٩٧	جني - ابن (٢)
٢٤٣ ، ٢٣١ ، ١٢٠	جنوبي (٢)
٢١٩	١٢٠ . ٢٢٣
٢٥٠	حنيف (٢)
١٤٢	جهوتي (١)
- ٣٠٢ - ٢٥٥	جوبيتر (١)
٣٧.	١٠٢
١٢١	(٢)
جوبيتر (الله هليو بولس) (١)	١٨٧
٣٨٥	٣٨٥
جوبيتر الدمشقي (١)	١٨٧
٣٤٢	٣٤١
٣٧٠	جوبيتر دوليكينوس (١)
٣٧٧	جوبيتر كابيتولينس (١)
	٢٥٥ ؛ ٢٤٥
	٢٦٤
	٢٩٩ ، ٢٨٤
	٣٠٠
	٣٢٩ ؛ ٣١٩
	مسورد
	٤٢٢ ، ٣٩١
	المر والبخور
	٤٢٥
	٤٢٨ ، ٤٣٠
	؛
	٤٤٦
	، الوطن الاصلي للخمين
	٤٥٢ ؛ ٤٤٧
	(٢)
	١٤ : ٥
	٥٨ : ٢٨
	. نقطة تحول
	٦٥ : ٦٢
	٥٩
	٢٥٤ ، ٢١٠ ، ١٠٤
	٩٧
	٨٧
	تصديرها للتواجد
	٣١٢ ؛ ٢٧٨
	٣٤١ ، ٣٣٨
٢٩٨	جزيرة ابن عمرو (١)
٢٢	الجزيرة الفراتية (٢)
٢٢	الجزيرة الذاتية (٢)
٣٦	جزين (١)
٢٢٢ : ٢٢٧	(٢)
٢٥١	جيستارومانورم (٢)
١٩٤ ، ٩	جسر بنات يعقوب (١)
٢٨٠	جيسيوس مركيانس (١)
٤٣٠ ، ٢٤٤	جسمو (١)
٣٢٢	جعفر باشا (٢)
١١٤	جعفر الصادق (٢)
٤٥٠	جفنة (١)
٤٤٦	جفنة ابن عمرو مزيقياء (١)
٢٠٣	جلبوع - معركة (١)
جلبون (١)	٢٠٣ ح انظر جلبوع
جلعاد (١)	٣١٩ ، ٢١٣ ، ١٨٨ ، ١٣٨
٤١٦	٤١٦
٤٤٩	جلق (١)
١٩٨ ، ٢٩	جليات (١)
الجليل (١)	الجليل (١)
٢١٣ ، ٣٩	عمل
٢٦٩	أرسطوبولس لها (٢)
٢٧٠	٢٧٠
٢٧٦	٢٧٦
٢٨٥ ، ٢٩٤	٢٨٥ ، ٢٩٤
٣١٣	٣١٣
ذكر خمرها في المعهد الجديد	ذكر خمرها في المعهد الجديد
٣٦٣ ؛ ٣٢٧	٣٦٣ ؛ ٣٢٧
٣٢٨ ، ٢٢	(٢)

صفحة	صفحة
الحارث الرابع (١) ٤٢٢ ، ٤٢٠ ، ٤١٣ ، ٤٢٥	جوبير هيلو بوليتانس (١) ٣٤٥
الحارث الثالث (١) ٤١٩	جودي (١) ٨٥
الحارث الثاني (ايروتيموس) (١) ٤١٩	جورانو (١) ٤٥
حارم (٢) ٢٦٨	جورج سانديز (٢) ٣٣١ ، ٣٢٨
حسيديم (١) ٢٦٨	جورجس بن بختишوع (٢) ١٧٥ ، ١٧٦
حاصبيا (١) ٤٢	الجورجيون (٢) ٢٧٠
حاصور (١) ١٩٤	جوزيف فرنوكو (٢) ٣٤٦
حافظ باشا (٢) ٣٢٨	جونسلين الثاني (٢) ٢٢٤
الحافظ الذهبي (٢) ٢٩٣	انجوف (٢) ٧
الحافظ بن محمد (الفاطمي) (٢) ٣٥	جوففال (١) ٣٥٤ ، ٣٣٣
حاقل (١) ٣٣١	الجولان (١) ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٤
الحاقلاني (٢) ٣٣١	جوليا دومنة (١) ٣٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٠ ، ٣٧٧
الحاكم بأمره (٢) ٢١٥ ، ٢١٣ ، ١٦٩	جوليا سوميس (١) ٣٨٠
نشوة ملة جديدة على يده ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٧	جوليا ماما (١) ٣٨٠
اضطهاده للنصارى ٢٢٢ ؛ ٢٢١	جوليا ميزا (١) ٤٣٥ ، ٣٨٠
حاميون (١) ٢١٣ ، ٢٨ ، ١٥	جولييان (٢) ٧٣
جبابة (٢) ١٢٢ ، ٩١	جونيه (١) ٣٥ ، ٣١
حبرون (١) ١٩١ ، ١٦٩ ، ٣٩	جوهر (٢) ٣٢٦
الحبشة (١) ١٨٣	جوهر قائد المعز (٢) ١٩٢
(٢) ١٣٩	جيحرن - نهر (١) ٢٧١ ، ٢٦٠
الحبشية - الفقة (١) ٢٨٢ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٧	جيحرن - نهر (٢) ٦٨ ، ٦٦ ، ٣٨
حيش بن الحسن (٢) ١٧٦	جيرازا (١) ٢٧٦
حتو شلش (١) ٢٠٠ ، ١٧٥ ، ١٦٨	جيروم (١) ٣٩٨ ، ٣٨٩
العشي . الحشية (١) ١٦٧	جييش بن خمارويه (٢) ١٨٩ ، ١٨٨
الدولة (المملكة) ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٦٧	جييش الطواويس (٢) ٦٥
الاثار : القوانين، الديانة، الاداب ١٦٩	جييان (٢) ١٥٦
الوثائق ١٧٠ ؛ اميرات ١٤٧	- العاء -
سلاح ٩٦	
الحيثيون (١) ٢٨ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٥	جاجي البحري (٢) ٢٧٣
- ٧٧ ، ٨٣ ، ٨١	الحارث (١) ٤٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٤
بладهم ٩٢ ، ١٤٥ ، ١٣٦	٤٤٨
اصلهم وشكلهم ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٢	الحارث بن جبلة (١) ٤٤٩ ، ٤٤٧
١٧٥ ، ١٧٤	امه ٤٥١
١٧٥ ، ٢٠٠	
٣٧٠ ، ٢٠٠	
(٢)	
٤٦	

صفحة	صفحة
الحر بن عبد الرحمن الثقيفي (٢) ٧٨ حرات (الحجاز) (١) ٤٦ حران (١) ١٦٢ : ٧٥ ، ٧٤ : ٢٥٠ الaramien لها ١٧٦ : ١٧٧ - ٢١٠ ، ٢٣٨ : ١٩١ ، ١٨٩ - ٤٤٨ (٢) ٩٦ ، ١١٣ ، ٩٩ نقل مروان حكومته اليها ١٥١ : ١٥٤ ١٧١ : ١٧٤ ، هجرة اسنانه مدرسة الراها اليها ١٧٨ : ١٧٩ ٢٦١ خرفوش - ابن ، بنو (٢) ٣٢٧ : ٣٢٧ ٣٣٢ حرمون - جبل (١) ٢٦ : اعلى قمم سورية ٤٤ : ١٠٦ الحرم الشريف (٢) ١٢١ الحروب اليهودية - كتاب (١) ٣٥٢ ٣٥٣ حزائيل - ملك آرام (١) ١٥١ : ١٨٠ حزقيا - سفر (١) ٩٩ : ٢١٦ ، ٢١٧ : ٢١٧ ٢٢٦ ، ٢١٩ ، ١٦٩ ، ١٦٧ : ٤٥١ حسان بن ثابت (١) ٤٥١ الحسن بن احمد الاعصم (٢) ٢١١ الحسن البصري (٢) ١٦٠ ، ١٠٨ : ١١٥ الحسن بن الحسن (٢) ١٦٢ ح الحسن بن الصباح (٢) ٢٤٥ الحسن العسكري (٢) ٢٢٠ الحسن بن علي (٢) ٢٩ ، ٣٦ ، ٤١ ح ١٥٨ ، ١٦٢ ح : ١٦١ ، ١٦٢ ح الحسن علي - ابو (٢) ١٩١ الحسن الناصر (٢) ٢٧١ الحسن بن النعمان الفساني (٢) ٧١ حسين بن حمدان الخصبي (٢) ٢٢٠ الحسين - شريف مكة (٢) ٣٤٢ ، ٣٥٣ حسين الشهابي (٢) ٢٤٠ ح الحسين الشيعي (٢) ٢١٠ الحسين بن علي (٢) ٤٩ ، ٣٦ ، ٢٩ ح مقتله ٥٥ - ٥٧ ، ٦٠ ، ١٥٨ ح ٢٠٩ ح ١٦٢	الحجاج (١) ٤٦ ، ٦٣ ، ٢٣٩ : ٤١٧ ، ٤٢٢ - ٤٥٢ ٤١٨ : ٤٢٢ - ٤٥٢ ٢٥ ، ٢١ : ١٧ ، ٧ ، ٤ (٢) ٣٧ - تحسين زراعتها زمان معاوية ٣٩ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٥ : ٧٧ ٨٧ ، نشوء المذاهب الفقهية بها ١٠٧ : ١١٠ ، ١٨١ ، ١٩١ ٦٣٧ ، ٢٣١ : ٢٦١ ، ٢٣٧ ٣١٦ الحجاج بن يوسف (٢) ٦٠ ، ٥٩ ٦٥ ، ٦٣ : ٦٢ ٦٦ - تعينه قتبية على خراسان ٨٢ : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٨٦ ١١٣ : ١٠٦ الحجر (١) ٤٢٨ ، ٤٢٢ الحجر الاسود (١) ٢٨١ ٤٤٤ : ٥٧ (٢) ٢١٢ ٢٢٢ الحدث (٢) ٤٥ - درب (٢) ٦٣٦ : ٨٣ ، ١٢٧ ١٧٠ : ١٦٦ ؛ الاله السوري ٢٤٤ : ١٨٥ - الراعد ١٣٢ ٦٣٦ رمان (١) ٣٧٠ - رمانو (الله) (١) ١٧٩ - ١٧٨ ٢٠٧ - حدد الملك - الاودمي (١) ١٠٥ ، ١٠٦ : ١١٧ الحديث (٢) ١١٦ ، ١١٢ ٤٩٠ ، ٤٩٢ ٣١٧ - الحرب الروسية التركية (٢) ٤٨ - حرب السنوات السبع (٢) ٦٢ ، ٦١ : ٦٢ ١٥٨ ٣٥٤ ، ٣١٧ (٢) ٢٢٥ - الحرب العالمية الثانية (١) ٤٧ - العربة المقدسة (٢)

صفحة	صفحة		
١٦٢ : ٩٦ ، ٢٢	حيفا (١)	١٠٧	حمر (٢)
٢٢٩	(٢)	١٥٢	الحميمة (٢)
٢٩٣	حيان التوحيد - أبو (٢)	٢٦١	حنبل - ابن (٢)
٢٢١	الحياة - عبادة (١)	٢١١	الحنش - ابن (٢)
- الخام -		١٨٣ : ١١٨	حنيفة - أبو (٢)
٢٩٨	خائز بك (٢)	١٧٩	حنين بن إسحاق (٢) - ١٧٦
٩٣	خابسي - طقة (١)	١٢٢	حنين المغنى (٢)
٤ ١٦٢ : ٧٠ ، ٢٢	الخابور - نهر (١)	٤٥٢ ، ٤٤ ، ٤٦ - ٤٤	حوران (١) ٤١ ، ٤١
٤ ١٧٦	٢٤٢ - ٢٦	٤٢٣ : ٢١٩ ، ٣١٨ ، ١٢٨ ، ٥٣	٤٢٣ : ٢١٩ ، ٣١٨ ، ١٢٨ ، ٥٣
٠ ١٥٧	الخابرو (١)	٤ ٢٥٠	انتاجها للخمور ٢٢٧
٠ ١٥٧ : ١٣٦ ، ٨١ ، ٨٠	٢٠٢ - ١٧٢	٤ ٤١٩ ، ٤٠٧ ، ٢٨٢	٤ ٤١٩ ، ٤٠٧ ، ٢٨٢
١٢٠	الخارجيون (٢)	٤ ٤٤٩ ، ٤٤٦	اكتشاف نص النمارة بها ٤٢٧
٠ ٢٣٥	خازن - آل (٢)	٤ ٤٥١	٤ ٤٤٩ ، ٤٤٦ ، بقایا الانوار فيها
	٢٥٥		
١٧٤	خطاطي (١) ١٧٢ : ٢٢١	٢ ١٨٠ ، ١٦٥	٢ ١٦٤ ، ١٦٥
١٦٦	: بلاد الحثيين	٢ ٢١٩	، استيلاء نور الدين عليها
١٦٣	الخطاطية (١)	٢ ٣٥	٢ ٣٥
١٦٨	الخطاطيون الانطاوليون (١)	٤ ١٦٢	الحوري ، الحورية (١) اللفة :
١٦٨	الخطاطيون الهنود الاوربيون (١)	٤ ١٦٣	العناصر ٨٥ ؛ السيف
٥	خالد بن الوليد (١)	٤ ١٦٤	١٢٥
٠	عن القيادة ١٤ : ١٦ ، ٧١	٤ ١٦٥	الحوريون (١) ١٦٤
	١١٤ - دخوله دمشق عنوة ١٣٢	٤ ١٦٦	١٣٨ : ٢٨ ، ٢٨
٤ ١٥	خالكيس (١) ٢٧٨	٤ ١٦٧	١٥٧
٢٨٩	خالكيس اديبلوم (١)	٤ ١٦٨	١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥
١٩٨	خاليه - ابن (٢)	٤ ١٦٩	، ملامحهم
٢٨٨	خان الصابيون (٢)	٤ ١٧٠	٤ ١٧ ، ١٩٠ ، ١٧٥ ، ١٦٧
٦٦	خانات آسيا الوسطى (٢)	٤ ١٧٦	٤ ١٦٦
١٤٧	الختمي (١)	٤ ١٧٧	حور محب (١)
١٩٠	الخدبو (٢)	٤ ١٧٨	حورون (١)
-	خراسان (٢) ٢٨ : ٦٦ - ٦٨	٤ ١٧٩	الحوليات السورية (١)
	٨٥ : ٨٧ ، ١٠٢ ، الدعوة	٤ ١٨٠	حوالين (١)
	العباسية وثورتها بها - ١٥١	٤ ١٨١	الحوبيون - انظر الحوريين
	١٦١ : ١٥٣	٦٢	حوقل - ابن (١)
٤ ١٥٩	الخراسانيون (٢) ١٥١ : ١٥٢	٤ ٢٢	الحوبيات (١)
	١٦٥	٦٩	حيدر آباد (٢)
١٩٧	خرابة الشاش (١)	٤ ٢٣٤	حيدر الشهابي (٢) ٣٢٢ ، ٣٢٢
		٣٤٠	٣٤٠ ، ٣٤٥
		٤ ٢٣٥	الجيذريون (٢)
		٤ ١٣٤	جيرام (١) ١٧ ، ٩١
		٤ ٢٠٦	٢٠٦ : ٢٠٤
		٤ ٤٣٧	حيران (١)
		٤ ٤٥١	الحيرة (١)
		١٧٦	١٧٦ ، ١٢٢ : ٩٥ ، ٧

صفحة	صفحة
البربر اليهم ١١٨ ، ٩٧ ، ٨٠ ، ، ١١٨ ، ٩٧ ، ٨٠ ، ١٥٣ ؛ ١٥١	خرية المجر (٢) ١٢٤ ، ١٢٣ خرية المنية (٢) ١٢٥
قيامهم بعصيان في العراق ٢٤٢ ، ٢٠٥ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٢٤٢ ، ٢٠٥ ، ٦٨ ، ٦٦	خردادزبه - ابن (٢) ٢٠٢ الخريزورواس (١) ٢٧٦
الخوارزمي (٢) ١٧٩	خريسيفوروس كولبوس (٢) ٣١٧
الخوخ الدمشقي - شجر (١) ٣٤٤	الخزر - بحر (١) ٢٦٢ ، ٥٥
خورو - كنعان (١) ١٦٤	(٢) ٦٩
خوفو (١) ١٣٧	الخزنة (١) ٤٢١ ، ٤٢٠
خيطا (١) ١٦٧	بخرس (٢) ٣
خيوا (٢) ٦٦	خشقدم (٢) ٢٩٧
خيان (١) ١٦٠	خلدون - ابن (٢) ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٥٣
- الدال -	
دائن (٢) ٦	خط الاستواء (١) ٤٨
داجون - الله الحبوب (١) ٢٠١	الخطط - كتاب (٢) ٢٩٥
دار البريد (٢) ٢٩١	خطوشش (١) ١٦٦ وانظر خاطي
دار الحديث التورية (٢) ٢٩٢	ويوغاز كوي
دار السلام (٢) ١٥٩	الخلفاء الراشدون (٢) ٢٨ ، ٢٧
دارفيو (٢) ٣٣١ ، ٣٢٣	شقدونية - مجمع (١) ٤٤٠ ، ٤١٢
داريسوس (١) ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٢ ، ٤٠١ ، ٢٥٧ - ٢٥٣	(٢) ٤٦
داريوس الاول (١) ٢٤٠	خلakan - ابن (٢) ٢٩٢ ، ١٠٨ ، ١٠٥
داريوس الثالث (١) ٢٥٦ ، ٢٥٣	٢٩٣
داريوس الكبير (١) ١٨٣	خليج اسكندرон (١) ٧٤ ، ٣٢ ، ٢٥
الدايسية الثانية - الحملة (١) ٣٩٢	خليج انجم (٢) ٢٧٨
داعي الدعاة (٢) ٢٥٢ ، ٢٤٦	خليج العقة (١) ١٠٧ ، ٤١
داعي الدعاة الاسماعيلي (٢) ٢١٦	الخليج الفارسي (١) ٧٥ ، ٦٥
دانتي (٢) ٢١٦	١٠٧ ، ١٨٢ ، ١٥٣ ، ١٠٧
الدانوب (الدانوب) (١) ٣٨٤ ، ٣٢٠ ، ٣٩٢	قسم من الاسطول السلوقي يرابط فيه ، ٣٢٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٢٩٣
(٢) ٣٠٥	٤٢٥
الدانوب الاسفل (١) ٣٨٣	٣١٧ ، ١٨٩
Daniyal (١) ١٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٤٩ ، سفره ٤٥٨ ، ٢٦٧	خليج مار جرجس (١) ٣٤
(٢) ١٥	(٢) ٢٢٧
داود (١) ٤٠ ، ١٧٨ ، ١٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ - ٢٠٣ ، ٢٠٠	خلفة بن أبي الحasan (٢) ٢٨٣
٢٠٩ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩	الخليل - مدينة (١) ١٢٩ ، ١٥٩ ، ١٦٩
	٢٢٥ وانظر حبرون
	الخليل بن احمد (٢) ١٠٥
	خمارویه (٢) ١٨٩ - ١٨٧
	الخمسين - ريح (١) ٥٠
	الخوابي ٢٤٥
	الخوارج (٢) ٣٣ ، ٣٧ ، ٦٠ ، ٦٠ ، انضمam

صفحة	صفحة
٢٤٦ : ٢٧١ : ٢٥٤ : ٢٩٤	٢٢٢؛ ابتداءه بالموسيقى العبرانية
٢٩٨ : ٢٩٦ : ٢٩٢ : ٢٢٤	٢٢٣ : ٢٢٣
٢٩٨ : ٢٩٦ : ٢٢١ : ٢٢٨	٢٢٣ : ٤٦
٢٣٦ : ٢٢١ : ٢٢٨ : ٢٤٠	٢٤٥ : ٣٤٦
الرومان : ٢٤١ : ٢٤١	٣٥٠ : ٣٤٥
٢٧٤ : ٢٧٠ : ٢٥٠ : ٢٨٩	٣٤٥ : مدرسة (٢)
٢٩١ : ٤١٨ : ٤١٩ : ٤٤٢	١٩٥ : دبورة (١)
٤٢٢ : اتساجها للمنسوجات	٧٥ : ٧١ : ٦٦ : ٦٥
٤٢٥ : ٤٢٥	٢٥٦ : ١٨١ : ١٧٦ : ١٤٨
الحريرية	٢٨٣ : ٢٧٣ : ٢٧٨
٤٢٦ : ٣٢	٢١٩ : ٣٠٧ : ٢٩٨ : ٢٩٧
٢٩٧ : ٢٧٤ : ٢٧١ : ٢٥٤	٤٣٥
٣١ : ٣٢ : ٣٥ : ٥٧ : ٥٨	٢٣٥ : ١٨٨ : ١٥٩ : ١٥٤
٢٩ : ٢٩٦ : ٦٤ : ٦٩ : ٧١	٣٥٦ : ٢٦٤ : ٢٤١
في اوج عزما	٨٣ : دجن — الاله (١)
٧٩ : ٨٠ : ٨١ : ٨٤ : ٨٨	٥٠ : الدرنيل (٢)
٧٩ : ٧٩ : ١٠٧ : ١٢٢ : ١٢١	٢٢٥ : ٣٣٤ : ٣٣١
١٠٧ : ١٢٢ : ١٤٢ : ١٤٣	١٨٨ : درعا (١)
١٢٢ : ١٥٤ : ١٥٦ : ١٥٧	١٧٦ : دمشق، (دمشقا) (١)
١٦٥ : ١٦٧ : ١٨٦ : ١٨٨	١٣٠ : ٦٤ : ٤٥ : ٣٨
١٩٢ : ١٩٣ : فشل سيف	١٦٤
٢٠٠ : ٢٠٠	١٢٠ : منشاهم وحركتهم
احتلال	٢١٤ : ٢١٢ : ٢١١ : جوهر لها
٢٠٣ : ٢٠٢ : ٢٠١	٢٢٩ : ٢٢٧ : ٢٢٦ : ٢٢٢
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٢١ : ٢١٧
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٢٥ : ٢٢٤ : ٢٢٣ : اتساجها
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٢٥ : ٢٥٤ : الروائح العطرية
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٦٨ : ٢٦٦ : ٢٦٤ : ٢٦١
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٧٦ : ٢٧٤ : ٢٧٣ : ٢٧٢
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٧٠ : ٢٧٧ : ٢٧٦ : ٢٧٥
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٧٦ : ٢٧٥ : ٢٧٤ : ٢٧٣
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٧٢ : ٢٧١ : ٢٧٠
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٧٠ : ٢٧٩ : ٢٧٩ : ٢٨٩
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٣٧ : ٢٣٤ : ٢٣٦
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٢٦ : دقاق بن تشن (٢)
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٢٦ : ٢٠٨ : ٢٠٦
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٠٦ : دلتا النيل (١)
٢٠٣ : ٢٠٣	١٦٠ : ١٦٠ : ١٦٠
٢٠٣ : ٢٠٣	٤٢٥ : ٤٢٦
٢٠٣ : ٢٠٣	٨٧ : دمشق (١)
٢٠٣ : ٢٠٣	٤٤٤ : ٤٤٤ : ٤٤٤
٢٠٣ : ٢٠٣	٤٥٥ : ٤٥٥ : ٤٥٥
٢٠٣ : ٢٠٣	٧٦ : ٧٥ : ٧٥ : ٧٦
٢٠٣ : ٢٠٣	٦٤ : ٦٤ : ٦٤ : ٦٤
٢٠٣ : ٢٠٣	٦١ : ٦١ : ٦١ : ٦١
٢٠٣ : ٢٠٣	١٣٨ : ١٣٨ : ١٣٨ : ١٣٨
٢٠٣ : ٢٠٣	١٦٦ : ١٦٦ : ١٦٦ : ١٦٦
٢٠٣ : ٢٠٣	١٧٧ : ١٧٧ : ١٧٧ : ١٧٧
٢٠٣ : ٢٠٣	١٧٦ : ١٧٦ : ١٧٦ : ١٧٦
٢٠٣ : ٢٠٣	١٨٣ : ١٨٣ : ١٨٣ : ١٨٣
٢٠٣ : ٢٠٣	٢٩٣ : ٢٩٣ : ٢٩٣ : ٢٩٣

صفحة	صفحة
ديوجينس لأنطيوس (١) ٣٧٩ ديودورس (١) ٤٢٦ ، ٤٢٩ ديودورس — المشاء الصورى (١) ٢٨٠ ديودورس الصقلى (١) ١١٢ ، ١١٤ ديو كاشيوس (١) ٣٧٩ ، ٣٨٢ ديو كليتىان (١) ٣٣٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٣ ديولكليتىان (١) ٤٤١ ، ٤٣٦ ، ٣٦٨ ، ٣٤١ ٢٢٧ (٢) ديونيسيوس (١) ١١٨ ، ٣٠٦ ، ٣٦٩ ٤٢٦	٤٤٢ وانظر الصالحة دوروثي جارود (١) ١٠٦٩ دوريلابوم (اسكي شهر) (١) ٢٢٤ دوسارس (ذوالشرى) (١) ٣٨٥ دول المدن الفينيقية (١) ٣١٦ دولة المدينة اليونانية (١) ٣١٦ دولن — اضرة (١) ٢٩ ، ٢٨ دوليكه (١) ٣٧٠ دومة الجنل (٢) ٧ دوميتىان (١) ٣٤ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ ٢٦٧
— الذال —	الدومينيكان (٢) دونان (١) ١٢١ ، ١٢٠ ، ١٨ دوبيه (٢) ٢٥٨ ، ١٤١ دياتسرون (١) ٤٠٩ ديار بكر (٢) ١٣٩ الدياسبورا (اليهود المقيمون) (١) ٢٤٤ الديبل (٢) ٦٩ دييون (١) ٢١١ دي دريه الصليبى (٢) ٣٢٩ دير ديوان (١) ١٩٤ ح دير قرخيما (٢) ٣٢٣ دير القلعة (١) ٣٨٤ دير القمر (٢) ٣٣٥ ديسان — ابن (١) ٤١٠ دي فونتوينيل (١) ٣٥٦ ديقيوس (١) ٣٦٨ الديكابولس (المدن العشر) (١) ٢٧٦ ، ٤٢٢ ، ٣٥٠ ، ٣٠٩ ديكا ميرون (٢) ٢٥١ ديك الجن (٢) ١٨٣ ، ١٨٢ ديلوس (١) ٣٨٤ ، ٣٠١ ديمو (١) ٢٨٦ . ديمتريوس الأول — سوتر (١) ٢٦٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ديمتريوس الثالث (١) ٢٧٤ ح ديمتريوس الثاني (نيكتور) (١) ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ديو — المؤرخ (١) ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
— الراء —	رائق — ابن (٢) ١٩١ رابيل الثاني (١) ٤٢٤ راحيل (أمراه يعقوب) (١) ٤٠١٧٧ ١٩٣ ، ١٩٢ الرازي (٢) ٢٨٢ رأس الرجاء الصالح (١) ١٠٨ ٣١٧ (٢) رأس الشقة (١) ٢٧١ رأس الشمرة (١) ٩٥ ، ٩٢ ، ١٨ ، ٩ ٩٧ ، اقدم ذكر للارجوان في نص فيه ١٠١ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، اكتشاف اختام حثية فيه ١٧٠ ؟ رأس الكرمل (١) ١٥١ ح راشد الدين سنان (٢) ٢٤٧ ، ٢٤٦ الراشدون — الخلفاء (٢) ١٤٨ ، ١٥٩ راشيا (٢) ٣٣٤ الراعي الصالح (١) ٤٠٨ ، ٤٠٧

صفحة	صفحة
الروماني ، الرومانية (١) العصر ٤٢ ١٨٧ ، الحضون ٤٥ ، الحضارة ، ٢٧٣ ، ٢١٨ ، ٢١٣ العهد ، الفنحش ، ٢٧٤ ، البعثة ، ٢٩٣ ، الامبراطورية ٣١٩ ، العالم القانون ٣٢٢ ، المستعمرات ٣٣٩	٤٢٥ ، ٣٠٤ ٢٠٥ ، ٤٩ ، ٢٥ ٣٢٧ ٣٢٩ ٣٤٧ ، ٣٤٢ ، ٢٦٨ ٣٤٨
(٢) الامبراطورية ٣ : ١٥٩ ، ٦٤ الرومانية الكاثوليكية - الكنيسة (٢) ٢٦٠	٢٩٤ (٢) ٢٥٨ ٩٥
رومة (١) ١١٦ ، ١١٣ ، ١٠٣ ، ٦٤ ٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦ - ٢٥٦ ، ١٨٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ - ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢١٥ ، ٣١٣ - ٣٠٩ ، ٢٨٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٣١٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ الفكري السوري فيها ٣٥٢ - ٣٦٠ ، ٣٥٩ - ٣٥٧ حرقتها في عهد نيرون ٣٦٦ ، ٣٢٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٢ ، ٣٩٢ ، ٣٨٩ - ٣٨٠ ، ٣٧٧ ، ٤١٩ ، ٤١٦ ، احتكاك الحارث معها ٤٣٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٠ - ٤٤١ ، ٤٣٩ - ٤٣٨ ، ٤٣٥	٤٥ ، ٤٤ ، ٢٤ ، ١٨ ، ١٧ ٤٧ ، ٥٢ ، ٤٩ ، ٤٧ يطردونهم من قرطاجنة ٧١ ، ١٠٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ - ١٩٨ ، ١٩٤ يتستولون على بلادهم ٢٠٥ ، ٢١١ - ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، تجارهم ينعمون بامتيازات في سوريا ومصر ٢٧٨ ؟ كنيسة ١١٧
رومية (١) ٢٣٧ الرومية - اللفة (٢) ٨٣ ريكاردوس قلب الاسد (٢) ٢٣٩ ٢٤٠	٢٥٣ ، ١٤٣ (٢) ٣٤٨ ، ٢١٣ الروم الكاثوليكي (٢) ١٣٥ ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ - ١٤٣ ١٤٢ ، ١٣٩ ، ٨١ ، ١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٢٢٤ ، ١٤٣
ريمند (٢) ٢٢٧ - ٢٢٧ ريمند الثاني (٢) ٢٤٧ ريمند لال - الكاهن (٢) ٢٩٢ الرين (١) ٣٢٠ ، ١٠. (٢) ٢٢٥ الرينه (٢) ٢٥٨ الري (٢) ٦٠	الرومان (١) ١١٦ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٣ ، ٢٤٠ ، ١٤٠ ، ١٨٧ ، ١٤٠ ، ٢٤٢ ، انطيوخس يهزم امامهم ، ٢٩٢ ، ٢٨٣ ، ٢٧٣ ، ٢٦٦ - ٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٣٧٠ - ٣٦٤ استيلائهم على دمشق ٤٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٠ ٣٥٦ ، ٢٢٨ ، ١٠٤ ، ٧٨ (٢)

صفحة	صفحة
١١٩ ٢٣٥ ، ٢٠٧ (٢)	زنجبيل (٢) زنكي (عماد الدين) (٢) (٢)
٢٥١	٢٥١
٢٨١	الزنكيون (٢)
٣٠٦ - ٤٢٨ ، ٢٥٨ (١)	زنويها (ملكة تدمر) (١)
٤٤٤ ، ٤٤١	٤٤٤ ، ٤٤١
٢٦٧ (٢)	الزهرة (١)
١٧٢	زياد بن أبيه (٢) (٢)
٥٥ ، ٢٨ ، ٢٧	٥٥ ، ٢٨ ، ٢٧
١٦٤ ، ١٠٨	١٦٤ ، ١٠٨
١٢٧	الزيتونة (٢)
١٧٩	ائزج الصابئي (٢)
٤	زيد بن حارثة (٢)
١٧٥	زيتو (٢)
٤٠٩ ، ٢٥٩	زيتون (١)
٢٨٠ ، ٢٧٩	زيتون الصيداوي (١)
٢٧٩	زيتون القبرصي (١)
- السين -	
١٢٨ : ٨٢	ساحوراع - الفرعون (١)
٢٩٧	ساردس (١)
٧٠ ، ٥٠	٧٠ ، ٥٠ (٢)
٤١٣ : ٣٨٢	السامانية - السلالة (١)
٤٣٧	٤٣٧
٢٩١	الساسانيون (١)
٨٠	الساغاز (١)
٢٨ ، ٢٢	ساكجي غوزي (١)
٦٦	سام بن نوح (١)
٤٣٥ ، ٣٤٠	سامسيجيرامس (١)
السامرة (١) ١٥٢ ، ٢٩	يربعم الثاني
؛ ٢٠٨ ؛ ١٨٠	يصبح ملكاً فيها
، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١١ ، ٢٠٩	، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١١ ، ٢٠٩
، ٣٣٤ ، ٢٤٤	، ٣٣٤ ، ٢٤٤
بناءها ٤٢٠ ، ٣١٢ ؛ ٣١٠	بناءها ٤٢٠ ، ٣١٢ ؛ ٣١٠
سامرا (٢) ١٨١ ، ١٦٦ ، ١٢٨	سامرا (٢) ١٨١ ، ١٦٦ ، ١٢٨
٤٣٤ ، ٦٤	السامري ، السامرية (١) المعد ٤٣٤ ، ٦٤
- الزاي -	
١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٥٦	الزاب (٢)
١٥٤	الزاب الاعلى (٢)
٢٨١	زايناس (١)
١٦١	زاغروس - جبال (١)
١٨٦ - ١٨٤	ذاكر - ملك حماة (١)
١١٦	زاما - معركة (١)
١٤٣ : ١٤١ ، ١٣٨	Zahyi - بلاد (١)
٤٣٨	الزباء (١)
٤٣٩	زبای (١)
٦٥ ، ٤٤	الزیداني (١)
٤٤٠ ، ٤٣٩ ، ٤٣٨	زبدة (١)
٤٤٣	زيدنيبول بن مقيمو (١)
٣١ : ٢٩ ح	الزبير بن العوام (٢)
٦٠	الزبزيرون (٢)
١٨٧ ، ١٦٥	زحلة (١)
٣٨٢ ، ٢٤٦ (١)	زوردشت (زرادشت) (١)
٤٠١	
٩٩	(٢)
٤١١ : ٤١٠ ، ٢٣٦	الزورديشية (١)
٢٩٠	(٢)
٢٤٥ ، ٢٤٤	زرو بابل (١)
٠١٢٧ ح	زرباب (٢)
٩	الزطية (١)
٧٩ ، ٧٧	زعرتا (١)
٧٩س (١) ١١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٥ ، ٢١٥ ، ٢١٥	زفس (١)
، ٣٥٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٦	يشجع اعتبار يهوه مساوايا افسوس
، ٣٧٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٠	، ٢٧٩ ؛ ٢٨١ ، ٢٧٩ ؛ ٢٨١ ، ٢٧٩
لـ ٤٤٥	، ٣٧٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٠
٢٦٧	زفس او لمبيوس (١)
١٥٠ ، ١٤٥	ذكر بعل (١)
١٨٩	ذکر ویه - ابن (٢)
٤٠٠	ذکر بنا الغزی (١)
٧٤ - ٧٢	زمري ليم (١)
٦٥	الزنبل (٢)
- ١٨٤ ، ١٨١ ، ١٥٥ (١)	زنجرلي (١)
١٨٦	وانظر شمال

صفحة	الصادرات (١) ، ٢٤٤ ، ٣٩ ، ٢١٥ ، ٢٦٩ ، ٢٥٦
٢١٢	ستراتون - برج (١)
١٤٤	ستي الاول (١)
٢٠١ ، ٨٧ ، ٦٥	سجستان (٢)
٢١٠	سجلماسة (٢)
٤٤٦	سد مارب (١)
٥	سلبني (١)
٣٤١ ، ٣٢٨	سلبني سمث (٢)
٤٣	سدون (١)
١١٨	سرابيط الخادم (١)
٢٥٠	سر الاسرار - كتاب (٢)
٣٢٢	السريون (٢)
٤	سرجون (١) ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٢١٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦
٣٩	سرجون (٢)
١٥٠	سرجون الاول (١)
٢١٣ ، ١٦٨ ، ١٥٣	سرجون الثاني (١)
٤٣٦	سرجييو بولس (١)
٤٣٦	سرجيوس (١)
١٣ ، ٧ ، ٦	سرداريا - نهر (١)
٢٥٧	سرداريا - نهر (٢)
٦٦	سردينيا (١) ، ١١٣ ، ١١٠ ، ١١٦
٢٨٣	سرفتوس الاسباني (٢)
٧٦	سرقسطة (٢)
١٤٠	سرور (٢)
٤	السريان (٢) ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٧
١٣٩	السريان الارثوذكين (٢)
٢٢٠	السريان الكاثوليک (٢)
٤	السريانية (١) اللغة ، ٦٣ ، ٤ ، ١٨٤
٤	الكريسة
٦٣	الادب ، ٢٧١
٤	الكتيسة ، ٤٤٤ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨
٤	الكتيسة ، ١٣٧ ، ١٣٥
٤	الكتيسة ، ١٤٤ ، ١٤٢ ، ١٣٧
٤	الكتيسة ، ١٣٦ ، ١١٣ ، ٨٦ (٢)
٤	الكتيسة ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٣٨
٤	الكتيسة ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧١
٤	الكتيسة ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ١٨٠
٤	الكتيسة ، ٣٠٤ ، ١٤٥
٦	سبعينية - الترجمة (١)
٦٣	سترابو (١) ، ١١١ - ١١٣ ، ٢٨٠
٤	سنة وفاته ، ٣٠٢ ، ٢٨٢
٤	٣٢٤ ، ٣٤٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٧
٤	٤٢٩ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢
٦	سبعينية (١) ، ٣١٢ ، ٣٠٩
٤	سبتموس سفيروس (١) ، ٣٢٤ ، ٣٢٧
٤	٣٤٤ ، ٣٤٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٠
٤	٣٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠
٤	٤٣٦ ، ٤٣٥ ، ٤٣٥ ، ٢٨٠
٤	٤٣٧ ، ٤٣٧
٦	سبعينية (١) ، ٣١٢ ، ٣٠٩
٦	سبعينية - الترجمة (١)
٦٣	سترابو (١) ، ١١١ - ١١٣ ، ٢٨٠
٤	سنة وفاته ، ٣٠٢ ، ٢٨٢
٤	٣٢٤ ، ٣٤٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٧
٤	٤٢٩ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢

صفحة	صفحة
١٥٩ ، ١٤٨	١٢١ ابن سريج (٢)
السلالة الثانية والعشرون (١) ٢١٥	١٩٦ - ١٩٥ سعد الدولة (٢)
السلالة الخامسة (١) ١٢٧	٥٥ سعد بن أبي وقاص (٢)
السلالة الخامسة عشرة (١) ١٦٠	١٤١ سعيد بن البطريق (٢) ١٣٥ ح
السلالة السادسة (١) ١٣٧	١٩٦ سعيد الدولة (٢)
السلالة السادسة عشرة (١) ١٦٠	١٢١ سعيد بن مسجع (٢)
السلالة السادسة والعشرون (١) ١٠٨	٤١٧ - ٤٤ سعير (جبل) (١)
السلالة الصفوية (٢) ٢٩٧	٧٥ السفح (١)
السلالة العشرون (١) ١٤٥ : ١٠٧	٢٢٥ ، ٩٢ سفر (قرية) (١)
السلالات السوميرية (١) ٧٠	٢٨٢ سفر الجامعة (١)
سلامش بن بيرس (٢) ٢٧١	٢٨٢ سفر دانيال (١)
سلاميس - معركة (١) ٢٤٦	٨٩ سفر يشوع (١)
سلبيوس - جبل (١) ٣٩٦	١٥٨ ح ١٥٩ - ١٦٠ ح انسفاح (٢)
السلسلة الشرقية (١) ٤٦ : ٤٣	٤٠١ - ٤٠٠ : ٣٥٥ وانظر العباس السفاح - ابو
سلطان شاه (٢) ٢٠٧	٤١٢ سفيان بن حرب - ابو (٢)
السلفيوم - شجرة (١) ٢٢٩	٥٥ ، ٣٧ ، ٣٠ ٤٩ ح
سلامة (٢) ١٢٢ ، ٩١	٨٩ ، ٥٤ السنانيون (٢)
سلم (الله) (١) ١٨٩	٤٠١ ، ٤٠٠ : ٣٥٥ سفيروس (١)
سلمية (٢) ٤٠ : ١٦٤	٤١٢ سفيروس بطريزك انطاكية (١)
	٤٤٤ سقراط (١)
سلوام (١) ٢١٦	٢٢٤ السكستين (١)
سلوق (٢) ٩١	٥١ سكوتاري (٢)
سلوقس (١) ٢٦٠ - ٢٥٩	٢٥١ سكويرز (٢)
	٢٦٢ سكيتي - اصل (١)
سلوقس الاول (نيكتون) (١) ٢٥٦	٢٧٧ السكيتيون (١)
	٣٠٩ : ٢٧٧ سكيثوبوليس (١)
٢٦٢ : ٢٦٤ - ٢٩٠	٣٤٩ ، ٢٨٩ ، ٤٠٧ وانظر بيسان
	٢٠٦ - ٢٠٣ السلاجقة (٢)
٢٨٣ : ٢٨٥ ، ٢٨٥	٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ٢١٤ الاضطرابات تبدأ بقيامهم
٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٤ : ٢٩٩	٣٠٣ ، ٢٨٤ ، ٢٤١ ٣٠٣ ، ٢٨٤ ، ٢٤١
٢٦٤ ، ٢٨٥	١٤٧ السلالة الاولى (١)
سلوقس الرابع - فيلو باتر (١) ٢٦٤	١٦٦ السلالة بابل الاولى (١)
	١٤٤ السلالة التاسعة عشرة (١)
سلوقس الخامس (١) ٢٧٤	١٦٧ ، ١٤٦
سلوقس السادس - ايفانوس (١)	١٠١ السلالة الثامنة عشرة (١)
	١٦٧ ، ١٦١ ، ١٤٨ ، ١٣٩
٢٧٤ ح	٤٤٠ ، ٣٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٠ ، ٣٩
سلوقس الكلداني (١) ٢٨٥	١٣٨ ، ١٣٨
سلوقية (١) ٢٧٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦١	السلالة الثانية عشرة (١)
٢٨٣ ، ٢٧٣ ، ٣٦ ، ٢٩٤	
٤٤٠ ، ٣٨٩ ، ٢١٧ ، ٢١٠ ، ٣٩	

صفحة

السلوقي - السلوقي (١) الاسرة

٦٦ ح ٧٠ ، حادته مع موسى
بن نصر ٧٧ ؛ ٩٢ ، ٩٣ ، ١٩ ، ٤٠
اقامته في الرملة ١٢٨ ؛ ١٤٨
سليمان (العثماني) (٢) ٣٠٤

سليمان ابو عز الدين (١) ٤٥ ح
سليمان الاول القاتوني (٢) ٢٠٥
السمح بن مالك الخولاني (٢) ٧٨ ، ٧٩

سمرقند (٢) ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٣٦
سمعان الطبيوطة (٢) ١٨٠

سمعان العمودي (١) ٤١٢ ، ٤٠٤
سمعان ماتايس (١) ٢٦٩ ، ٢٦٨
السعاني - يوسف سمعان (٢) ٣٢٢ ، ٣٢١

السمقانية (٢) ٣٣٤
سمار جبيل (٢) ١٤٠
السماق (١) ٣٢٤
السموم (ريح) (١) ٥٠
سميرا (١) ١٤١ ، ٨٩ ، ٨٨
سميراميس (١) ٣٨.
سميساط (١) ٣٥٥ ، ١٨٧ ، ٤٠
(٢)

سنان بن ثابت (٢) ١٧٩
ستينوس ساتورينوس (١) ٣١٦
سنجل (٢) ٢٥٨

سنحاريب (١) ٦٥ ، اشارته الى
الاوزان التي صنعوا ٩٥ ؛
تقبله على حرقها ٢١٧ ؛ ٢٣٤
٤٣٦

السند (١) ٣٢٢ ، ٢٧١ ، ٢٦٠
سنداير (جورج) (٢) ٣٢١
سندهنه (١) ٣٠٢
الستنسكريوية - اللغة ، الابجدية (١) ١٨٣

٢٦٧ : السلطة ، المملكة ،
٢٧٠ ، الدولة ، النظم ،
٢٨٨ ، الملك ، الجيش ،
٢٩٢ ، الاسط رسول ،
٢٩٣ ، الامبراطورية ،
٢٩٧ ، السياسة ،
٢٩٨ ، العرش ،
٣١٧ ، المستعمرات ،
السلوقيون (١) ٢٦٠ ، ٢٥٣

٢٧١ ، اخر ملوكهم ٢٧٣ ؛ ٢٧٤
٢٨٠ ، ٢٩٠ ، استعمالهم
٢٩٥ ، القليلة في الحرب .
٢٩٧ ، ٣٠٢ - ٣٠٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧
، ٣٤٣ ، ٣٣٩ - ٣٣٤ ، ٣٠٤
تحالف المكيين والفالنسنة
٤٢٥ ؛ ٤١٩

٤٢٧ ، بنو (٢)
٤٤٦ سليم (١)
٢٩٢ سليم الاول (٢)
٢٩٧ - ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٦ ح
٣١٤ ، ٣٠٦ ح سليم الثالث (٢)
٣٣٥ ح سليم الثاني (٢)
٤٣١ - ٣٠٩ سليم (السلطان) (٢)
٣٢٥ ، ٣١٥ ، ٣١٤

٣٢٩ سليم شاه (الاول) (٢)
٤٢٩ سليمان (ابن عم البا ارسلان) (٢)
٢٠٥ سليمان الاول (٢)
٣٠٥ سليمان الثاني (٢)
٢٣٦ سليمان بن داود (١)
٢٠٥ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٧٦
- ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٢١٥ ، ٢٠٩
٤٣٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦

٤٣٢ ، ٤٣١ ، ٤٣٠ (٢)
٣١٣ ، ٣١١ سليمان السلطان (٢)
٣١٨ ، ٣٢١ سليمان بن عبد الملك (٢)
٤٩١ - ٥١

صفحة

احسن ، ٤٠ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٣
اراضيها ، ٤٢ ، الزلزال فيها ، ٤٢
، ٤٦ ، ٤٣ ، اكبر سهل فيها ، ٤٥
، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، اقليمها ، ٤٧
، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١
٦٣ ، ٦٢ ، اصل اسمها ، ٦١ ، ٥٧
سورية (ولاية) ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥
، ٦٦ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، اصل تسميتها
، ٨٤ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩
، ٩٥ ، ٩٤ ، صناعتتها ، ٩٣ ، ٨٥
، ١١٤ ، تنتج البسم والمر
، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٠ ، ١٣٠
، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٣٦
، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤٢
مصدر الرصاص ، الادب
اليهودي المسيحي فيها ، ١٤٩
، ١٥٧ ، ١٥٥ ، ١٥١
الحصان يدخل اليها ، ١٥٨
، ١٥٩ ، توحيدها مع مصر ، ١٦٠
، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧.
فيها ، ١٠٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢
، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥
، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩١ ، ١٨٩
، ٢١٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٠ ، ١٩٧
، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢١٨
، ٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦
، ٢٥٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢
، ٢٦٢ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٦
، ٢٧٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧
، ٢٩٤ ، ٢٩٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨١
ـ ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٩٧
، ٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١
هدف الرومان فيها ، ٣١٨
، ٣١٨ ، ٣١٣ ، ٣١٢
(٢) هرقل يسترجمها ، ٦٤٣
، ٢٢ ، ٢٠ ، ١٦ ، ١٢ ، ٧
يحكمها معاوية ، ٢٣ ، ٢٥٦
٧٠ ، ٦٥٦ ، ٥٨ ، ٥٤ ، ٤٠ ، ٣٢

صفحة

سنفرو (فرعون) (١)
السنة (٢) ، ١١٦ ، ١١٩ ، ٦٩
، ٢٤٠ ، ٢١٩ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦
، ٢٨٤ ، ٢٥٩
سنهررين (١)
سنوخي (١)
سنوسرت (١)
سنير (جبل) (١)
شهر (١)
سوى (٢)
سوبارون - سوباريون (١)
سوري - بلاد (١)
السوري - السورية (١) الساحل
٩٥ ؛ البحر ١٤٥ ؛ التأثير ١٤٦
التجارة ٣٠١ ؛ الحضارة ٦٥
٣٧٣ ؛ الخمور ٣٢٧ ؛ الدول
١٣٦ ؛ الساحل ١١٤ ؛ الممر
٤٧٥
٢٥ (٢) الاسطول
سورية (١) ، ٣٢٢ ، الكبرى ٣٢٣
، ٣٢٤ ، مصدر البضائع
الكتانية ٣٢٦ ؛ ٣٢٧ - ٣٢٨
، ٣٤٦ ، ٣٤١ ، ٣٣٧
، ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٣
، ٣٧٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٠
، ٣٨٦ ، تصبح مسيحية ٣٨٨
الثانية ٤٠٣ ، ٣٩١ ؛ ٣٨٩
، ٤١٩ ، ٤١٧ ، ٤١٣ ، ٤٠٧
، ٤٣٥ ، ٤٣٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٠
ـ ٤٤٣ ، ٤٤٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٧
ـ ٤٥٢ ، ٤٥٠ - ٤٤٨ ، ٤٤٥
مكانها في التاريخ ٣
ـ ٤ ، موقعها الاستراتيجي ٥
مكان تدجين القمح ١٢ ، ٧ ، ٦
موطن الحيوانات النبيلة ١٧
، ٢١ ، ٢١ ، ١٩
ـ ٢٧ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢
، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨

صفحة	صفحة
سورية الرومانية (١) ٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٥١ ، ٣٥٢	٧٦ ، ٧١ ، ٧٧ : امبراطورية
سورية - السلوقية (١) ٣٠٣ ، ٢٢٣	٩٨ ، ٨٧ ، ٨٤ ، ٨٣ - ١١٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢
سورية الشمالية (١) ١٦٨ ، ١٧٥	١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٧
٤١٢ ، ٤٠٨ ، ٣٩٥	١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٤
٢٧١ ، ٧٥ ، ٦٩ ، ٦٥ (١)	١٢٨ ، ١٢٣ ، ١٣٩
٢٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٠٣ ، ١٥٦	١٣٩ - ١٤٣ ، ١٤٣
٢٠٢٦ ، ٢٩٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٠	١٥٧ ، ١٥١ ، ١٥٠
٢٤٣ ، ٣٣٧ ، ٣١٧ ، ٣١١	١٦٦ ؛ ١٦٤ - ١٦٤
٤١٩ ، ٤٠٣	١٨٧ - ١٨٢ ، ١٧٢
سورية الوسطى (١) ٨٠ ، ٧٥ ، ٧٠	١٩٨ ، ١٩٥ - ١٩١ ، ١٨٩
١٧٥ ، ١٦٨ ، ١٠٤ ، ٩٦	٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠
(٢) ٢٢١ ، ١٩٣	٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦
السوريون (١) أخلاقهم ٥ ، ٤ ، ٣	٢٢٢ ، ٢١٩ ، ٢١٧ ، ٢١٤
١٠١ ، ١٠٠ ، ٨٧ ، ٦٢ ، ٧	٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٨
سباقون اليونان في التمثيل	٢٢٩ ؛ توحيدها مع مصر
المسرحي ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٤	٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٤١
، الفلاحون ١٤٩ ، ١٤٣ ، ١٤٣	٢٤٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
١٣١ ، ١٣١ ، ١٣١	٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٤٧
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٧ ، ١٥٦	٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٤
٢٢٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣	الحملات الصليبية
١٨٤ ، ١٨١ ، ١٨١ ، ١٧٢	٢٦٧ - ٢٦٧ ، ٢٥٩
٢٨٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢	٢٦٧ - ٢٦٢ ، ٢٦٢
٢١٧ ، ٢٠٤ ، ٢٨٤ ، ٢١٧	٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢
٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٦	٢٧٤ - ٢٧٤ ، ٢٧٨
٣١٨ ، ٣١٨ ، ٣١٨	٢٧٦ ، ٢٧٦ - ٢٧٦
٣٨٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣	٢٨٠ ؛ في أزهى عصورها
٤١٠ - ٤٠٨ ، ٣٩٣ - ٣٩١	٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨١
٤٣٧ ، ٤٣٢ ، ٤٢٠ ، ٤١٢	٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥
٤٥١	٢٠٥ ؛ دوائرها الادارية
(٢) ٧٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ١٤	٢٣٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٦
٤١٥٩ ، ٤١٥٧ ، ٤١٥٦ - ٤١٥٤	٢١٧ ، ٢١٧ - ٢١٨
٤١٦٧ ، ٤١٦٥ ، ٤١٦٤	٢٢٧ ، ٢٢٧ - ٢٢٧
٤٢١ ، ٤٢١ ، ٤٢٨	٤٣٢ ، ٤٣٢ - ٤٣٢
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	٤٣٦ - ٤٣٦
٤٣٥ ، ٤٣٥	٣٨٩ : سوريا الأولى (١)
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	٣٩٩ : سوريا البيزنطية (١)
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	٤٠٤ ، ٤٩٩ ، ٤٨٩ : سوريا الجنوبية (١)
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	٤٣٠ - ٤٣٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٤
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	٤٢٢ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٢٩
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	٥ : سوريا الداخلية (١)
٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦	١٧٧

صفحة	صفحة
- الشين -	السومري — السومريه (١) الحضارة ٦٤، ٧١، ٨٥، ٩٧
٤٣٧، ٣٣٩	اللغة (١٢٩)
٧٩	كلمات (١٤٩)
١٨	السومريون (١٤٩، ٦٧، ٢٥)
٤٠٨	السويس (برنخ) (١)
٦٩	سويسرا (١)
٦٣	اسبابية المدنية — كتاب (٢)
١٧٢، ٥٩ — ٥٧، ٤٨، ٧	سيان فو (٢)
١٧٢، ٥٩	سيبيل — الهمة (١)
٢٦٩	سيت — الاله المصري (١)
٢٩٤	سيجر (٢)
٢٩٧	سيحون (١)
شاملة (٢)	سيحون (٢)
شامة — أبو (٢)	سيحون ملك الاموريين (١)
شاول (١) ١٤٦، ٩٣، ١٧٨، ١، وفاته	سيديس (١)
٢٢٢، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٩٨	سيدي عتبة (٢)
شبيه جزيرة العرب — انظر جزيرة	سيروس (١)
العرب	سيزيفينس — (ارواح) (٢)
شجر اللر (٢)	سيسس (٢)
٢٧١، ٢٦٦	سيع — بلدة (١)
١٥٦	سيف بن اخشيد (٢)
شذونة (٢)	سيف الدولة (٢) ١٩١ — ٢١٥، ٢٠٠
شرح تشرع القانون — كتاب (٢)	سيفا — بنو — آل (٢) ٣٢٩، ٣٢٥ (٢)
٢٨٣	٣٢٢
١٢، ٦	سيلان (٢)
١٣١	سيلايس (١)
الشرق — بلاد (١)	سيلي (جزر) (١)
١٧، ١٦، ١٠، ٤٥ (١)	سيمون بار كوخبا (١)
٤، ٣٥، ٣٠، ٢٧، ٢٤	سيمون الساحر (١)
٤، ٣٤، ١٦١، ١٥٦، ٦٥٤، ٥٢	سيميرا (١)
٤، ٣٢٨، ٣٢٧، ٣١٩	سين (الله) (١) انظر شتفلا
٤٤٣، ٤١٩، ٤١٧، ٣٦٥	سيناء (١) ٦٤، ٦٢، ٣٦، ٣٢، ٣١
٤، ١٥٩، ١٠١، ١٨ (٢)	١٩٣، ١٢٠، ٦٩
٤، ٢٥٧، ٢٥١، ٢٢٢، ٢٢٠	٧٩، ٧٧
٤، ٣١٢، اتساع النفوذ الفرنسي	١٨٩
فيه في القرن السادس عشر	سينا — ابن (٢)
٤٥٦، ٣٤٨، ٣١٩، ٣١٨	السينائية — الحرروف (١)
٤٩٩	السينائية — الكتابة (١)
٣٤٨، ١٣٦	السينودس الماروني (٢)
٤٠٤، ٣٦، ٢٩، ٢٧	سيدة حيل (١)
٤، ٥٦، ٥٢، ٤٩، ٤٦، ٤٤	
الاموريون فيه	
٤، ١٨٠، ٨١	

صفحة

٢٢٢ ، ٢٧٩	شملان (٢)	٣٠٩ ، ٢٩٤ ، ٢١١ ، ٢٠٤
٩٥	شمر (٢)	إقامة مستعمرات رومانية فيه
١٨٩	شتفالا (١)	٣١٨ ، ٤٢٢ ، ٤١٦ ، ٣٢٣
١٠٦	شهاب الزهري - ابن (٢)	٤٣٥
٢٩٠	شهاب الدين السهروردي (٢)	١٢٢ ، ١١ ، ٩ ، ٤ (٢)
٢٩١	الشاهبيون (٢)	٢١٧ ، تسرب الجرائمة اليه
٢٣٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢	٣٤٠ ح.	٣٥٤ ، ٣١٦
١٥٩	شهرزاد (٢)	الشرقية - الكنيسة (٢)
٢٣٨	الشوبك (٢)	٤٢ ح. الشريعة - نهر (١)
١٦٣	شوبيلو يوم الحثي (١)	١٩٦ ، شريف بن سعيد الدولة (٢)
١٦٧	١٧٢ ، ١٦٧	١٧٧ ، «الشعر» كتاب لارسطو (٢)
٣١٠	الشوف (٢)	١٨٣ ، الشعوبية (٢)
٣٢٦	٢١٩ ، ٢٧٨ ، ٢١٩	١٢٦ ، شقائق النعمان (١)
١٤٧	شوكة اليهود (١)	٤١ ، الشيف - قلعة (١)
٤٩	الشوير (١)	٢٤٤ ، ٢٣٨ ، شقيق ارنون (٢)
٣٢٤	(٢)	٢٢٧ ، شقيق تيرون (٢)
١٩٠	شيبان بن احمد بن طولون (٢)	٣٥٣ ، شكري غانم (٢)
١٨٦	شيبان بن محمد بن طولون (٢)	٢١٩ ، شكسبير (٢)
٢٥٢	شيخ الجبل (٢)	٧٧ ، شكا (١)
٢٤٠	٢٤٠	٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٧٣ ، ٨٩ ، شكيم (١)
٢٦٦	شير كوه (٢)	٣٠٢ ، ٢٧٨ ، ٢١٥ ، شلال النيل الاول (٢)
٣٨٩ ، ٢٧٧	شيزر (١)	٢٥٤ ، ١٥١ ، شلمانصر (١)
٢٥٨ ، ٢٢٥ ، ١١	(٢)	١٦٣ ، شلمانصر الاول (١)
١٢٦ ، ٣٨	الشيعة (١)	١٨٠ ، ١٧٩ ، شلمانصر الثالث (١)
٥٥ ، ٤٢ ، ٣٧ ، ٣٤	٣٤ (٢)	٢١١ ، شلمانصر الخامس (١)
٦ ، ١١٤ ، ٩٧ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٦	٦ ، ١١٩ ، الفرق بينهم وبين السنة	١٥٣ ، ١٥١ ، ٢١٣
٤ ، ١٥٩ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٢٠		، ١٨١ ، ١٥٥ ، شمنل (زنجري) (١)
٤ ، ١٩٤ ، ١٨٩ ، ١٦٢ ، ١٦١		، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٤٠٨ ، واظظر
-		زنجري
٢١٨ ، ٢٠٩ ، ٢٠٢ ، ١٩٩		١٨٤ (٢)
٢ ، ٢٥٩ ، ٢٤٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٠		٣١٣ ، شمال افريقية (١)
٣٣٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٦	ظاهر العمر	٢٩٤ ، شمس الدين المشتقي (٢)
٤٤٦	شيع القوم (١)	٢٢٩ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، شمس (الله) (١)
٧٦	شيعاتا (١)	٤٤٥
٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠	شيشرون (١)	١٩٥ ، الشمشيق - ابن (٢)
٢١٥	شيشنق (١)	١٩٥ ، شمشون (١)
٣٠	شيكاغو - جامعة (١)	

صفحة	صفحة
الصلعدي - حليل بن ابيك (٢) ٢٩٣ صفر ونيوس - البطريق (٢) ١٥ الصفويون (٢) ٢٩٧ صفين (٢) ١١٨ : ٣٢ صقلية (١) ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٥ ، ٤٤٩ ، ٣٨٤ ، ٢٨٤ : ١٢٧ صقلة (٢) ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢١١ ، ٤٨ ٢٥٤ : ٢٣٩ صقلع (١) ١٩٧ الصلة الربانية (١) ١٨٢ (٢) ١٤٠ صلاح الدين الايوبي (١) ٥ : ٢٤٦ ، ٤٢٥ ٢٤٢ - ٢٢٤ الخشاشون يحاولون اغتياله ٢٦٢ ، ٢٦٠ ، ٢٥٨ : ٢٤٦ ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٦٦ - ٢٦٤ ٢٩٤ ، ٢٩١ ، ٢٨٥ : ٢٨١ ٣٤٨ صلاح الدين زنكي (٢) ٢٠٨ الصلاحيون (٢) ٢٨١ صلخد (صرخد) (١) ٤٢٦ (٢) ٢٢٥ الصلب (٢) ١٤٤ ، ٣ الصلبي - الجيش (٢) ٢٢٦ ، ١٤٢ الصلبية - الحروب (١) ٦٢٤ ، ٥ ٩١ ؛ القلاع ٤٣ ، ٣٣ الصلبية - الحروب ، الحملات (٢) ٤ ، ٢٤٢ ، ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٣٥٦ الاولى ٢٤٢ ، ٢٢٤ ؛ الثانية ٢٣٤ ؛ السادسة ٢٤٣ الصلبيون (١) ٤ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٤٢٥ ١٧٠ ، ١٣١ ، ٤٧ (٢) ، ٢٠٣ ، ١٩٤ ، ١٨٧ ، ١٧! ، ٢٢٤ - ٢١٩ ، ٢٠٨ - ٢٠٦ ٢٣٠ - ٢٢٦ ؛ زنكي يزعزع	٢٣١ الشيوخ (١) - الصاد - الصائفة (٢) ١٧٧ ، ٩٩ ، ٩٨ صارونة (١) سهل ؛ ٣٩ صالح اسماعيل (٢) ٢٦٤ ح صالح حاجي (٢) ٢٧٣ ، ٢٧١ صالح - السلطان (٢) ٢٦١ صالح بن علي (٢) ١٦٧ صالح بن مرداس (٢) ٢١٥ ، ٢١٤ صالح ناصر الدين محمد (٢) ٢٧١ ٢٧٣ ح صالح نجم الدين (٢) ٢٦٤ ح ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ صالح ابن يحيى (٢) ٢٦٠ الصالحية (١) ٢٩٩ ، ٢٩٨ (٢) ٢٧٢ سان الحجر (١) ١٦٠ ح صحراء الحماد (١) ٤٦ الصحراء السورية (١) ٣٩١ : ٣٨٣ ٣٩٨ الصحراء الشرقية (١) ٨٢ الصحراء الغربية (١) ٣٥ ، ٣٢ الصحراء الكبرى (١) ٣٢٠ ، ٤٨ الصحراء النبطية (١) ٤٣٠ صدقى (١) ٢٢٠ ، ٢١٩ الصدوقيون (١) ٣٧٥ الصعبيد (٢) ٨٧ الصفد (٢) ٦٦ الصفا (١) ٤٤٨ ، ٣٣١ ، ٤٥ صفة العمور - كتاب (١) ٣٥ ح صفة الغرب للادرسي (١) ١١١ ح صفد (١) ٤٣ ، ٣٩ (٢) ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٢ ، ٣٢٨ ، ٣٠٧ يدخلها ويبيد حاميتها ٤ ، ٢٤٤ ، ٣٠٦ ، ٢٩٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٤ ٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٣٢٨ ، ٣٠٧

صفحة	صفحة
١٦٠ ح صوعن (١) ٢٠٠ الصوفية (٢) ٦٤ ، ٤٣ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٩ (١) صيدا (١) ١٠٤ ، ١٠١ ، ٩٢ — ٨٨ ، ٨٠ ، ١٣٥ ، ١٣٣ ، ١١٦ ، ١٦ ، ٢٠٢ ، ١٠٥ ، ١٥٣ ، ١٥١ — ٢٤٦ ، ٢١٦ ، ٢٠٩ : ٢٧ ، ٢٧١ : ٢٥٧ ، ٢٥٤ ، ٢٤٩ ، ٣٠٤ : ٣٠٢ : ٢٩٤ : ٢٧٩ ، ٣٤٢ : ٣٤١ : ٣٢٩ — ٢٢٦ اثنان من ابناها يذكرهم سترابو ٣٥٧ ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٢ ٤٢٥ ، ٢٢٥ ، ١٦٥ ، ٥٤ : ١٢ (٢) ٢٤٣ ، ٢٣٠ سقوطها بيد الاشرف ٢٧٩ ، ٢٥٣ ؛ ٢٤٩ ، ٣١٨ ، ٣١١ ، ٣٩ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢ — ٣٢٩ ، ٣٢٧ ، ٣١٩ ٢٤٤ ، ٣٣٨ — ٣٣٤ صيدا (١) على الخليج الفارسي ١٠٧ الصيداويون (١) ٣٠١ ٧٠ صيدون (١) ٩٦ الصيدونيون (١) الصين (١) ٦ ، ٤ ، ٦ ، ٢٧ : ٢٧ ؛ ٢٥ ٤١٨٣ ، مورد الحرير ٣٣ : ٣٣٠ ، ٤٢٥ ، ٤١٢ ، ٣٩١ : ٣٧٠ ٤٣٤ ، ١٣٧ (٢) ٦٤ : ٨١ : ١٣٦ : ٨١ ٣٠٣ ، ٢٧٨ الصينية (٢) اللغة ١٣٦ ؛ الامبراطورية ٢٧ ٢٥٦ الصينيون (٢) — الضاد — ٤٤٦ الضجاعم (١) ٥٨ الفحلاك بن قيس (٢) ١١٢ الفحلاك بن مزاحم (٢)	٢٤٢ ؛ ٢٢٨ ، ٢٤٢ : ٢٤٣ ، تأثير هم في القرب ٢٥٠ ؛ ٢٥٣ — ٢٥٥ ؛ ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٨ : ٢٥٧ ؛ ٢٦٢ : ٢٦٨ ؛ انتصار بيرس عليهم ٢٦٩ ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٧٩ ؛ ٢٦٩ ٢٢٨ ٢٠٢ ، ٥٤ صموئيل (١) ٢٤٤ سنبلات (١) ٢٤٣ ، ٢١٤ صهيون (١) ٢٢٨ ، ٢٠٨ ، ١٩٥ (٢) ٣٥٥ ، ٣٥٤ الصهيونية — الحركة (٢) ٢٥٨ صوابا (٢) ١٧٨ ، ١٧٧ صوبة (١) ، ٦٤٤ ، ٥٣ ، ٤٣ ، ٣٣ : ٩ صور (١) (١) ، ١٠٢ ، ٩٩ ، ٩٢ — ٨٨ ، ٨٠ ، ١١٠ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٤ ، ١٥١ ، ١٢٨ ، ١١٦ ، ١١٢ ، ١٨١ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤ : ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠ ، ٢١٧ ممارستها الحكم الذاتي في فينيقية ٢٤٧ ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨٦ ، ٢٧٩ : ٢٥٥ ، ٢١١ ، ٢٩٨ ، ٢٩٤ : ٢٨٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٣٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ في الفلسفة زمن الرومان ، ٣٦١ ، ٣٦١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٣ مركز فينيقية الاولى ٣٨٩ ؛ ٤٢٥ ، ٣٩١ (٢) ، ٢٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٤ ، ١٢ (٢) ، ٢٠٨ ، أحد ابناها يشور زمن الفاطميين ٢٣١ ؛ ٢١٣ ، ٥٢٥٣ ، ٤٢٩ ، ٤٢٨ : ٤٢٠ مزارع قصب السكر فيها ٢٥٥ ؛ ٢٧٨ ، ٢٥٩ صور (١) على الخليج الفارسي ١٠٧

صفحة	صفحة
١٠٢ طروادة (٢)	الطايف (٢) ١٧ ، ٣٧ ، ٢٦ ، ٥٩
٧٣ طريف (٢)	٢٦
٣١٩ طريق ماريس (١)	٦٣
٤٢٣ ، ٣١٩ طريق الملك (١)	٧٧ ، ٧٤ ، ٧٢
٤١٤ ، ٣١٠ طسيفون (المدان) (١)	- ٢٠ ، ٣٠ ، ١٥١
٢٣٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ طفتكن (٢)	١٥٨ ح
١٩٠ طفج (٢)	١٦١ ح
٢٢٦ ، ٢٠٤ طفرل بك (٢)	١٢٣
٣١ طلحة بن عبد الله (٢)	٣٥٥ طانيوس شاهين (٢)
٣٥١ طلعت باشا (٢)	٢٦ الطبرى - محمد بن جرير (٢)
٧٧ ، ٧٤ طليطة (٢)	٤٢ ، ٤١ ، ١٢ ، ٩ ، ١٠ ، ٩ طبرية (١)
٧١ طنجة (٢)	٢٤٩ ، ٢١٢ ، ٢٨٥ ، ٢٧٦
٣٢٢ طنوس الشدياق (٢)	٣٥١ مدينة رئيسية فسي
٦٦ طوران (٢)	٣٨٩ فلسطين الثانية
٢٦٦ ، ٢٦٤ ، ٢٣٦ طوران شاه (٢)	١٢٥ ، ٧٦ ، ٢٢ (٢)
٧٥ ، ٦٢ ، ٣٢ طورس - جبال (١)	٢٣٧ ، ٢٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٢٨ ، ٢٤٢
٢٢٥ (٢) ٣٢٢ ، ٣٠٥ ، ٢٦٦ الطوبة (٢)	٣٧١ طبيعة المسيح (١)
١٢٥ طورس (طوروس) (٢)	٤١٣ ، ٤١٢ الطبيعة الواحدة (١)
٤٤ ، ٤٤ ، ٤٦ طولونية - الدولة (٢)	٤١٩ ، ٤٣٧ ، ٥٣ (٢)
١٨٥ الطولونية - السلالة (٢)	١٤٢ ، ١٤١
١٩٦ ، ١٩٣ طولونيون (٢)	الطبيق - جبل (١)
١٩٠ طومان باي (٢)	٦٦ طخارستان (٢)
٢٩٩ طوانة (٢)	٧٧ طرابلس (١)
٧٠ طيبة (١)	٧٦ ، ٣٩ ، ٣٢ ، ٧٦ ، ٢٤٦ ، ١٦٢ ، ٩٢ ، ٨٦ ، ٧٩
١٤٢ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ٧٨ طيء (٢)	٢٧٨ ، ٢٧٨ ، ٢٤٧
٤٠١ ، ١٩٣ طي (٢)	٣٨٩ ، ٣٧٧ ، ٣٧٤ ، ٣٢٧
٢٣٥ ، ٢١٤ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ٩ طيبريوس (١)	٢٢٥ ، ٢٠٢ ، ٥٤ ، ١٢ (٢)
٣٢٤ ، ٣١٦ ، ٢٦٥ طيبريوس (٢)	٤٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٢٢
٤٣٥ ، ٣٦٣ ، ٣٤١ طيبريوس الثاني (١)	٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨
٤٤٩ طيبريوس قيصر (١)	٢٢٥ ، ٣١٨ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦
٣١٣ طيماوس «كتاب» (٢)	٣٣٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٢٦
١٧٧	٣٤١ طرابلس الغرب (٢)
- الناء -	
الظافر بن الحافظ (الفاطمي) (٢)	
٢١٣ ح	

صفحة	صفحة
٢١٣ ح ٢٣٦	الظاهر (ببرس) (٢)
٩٥ ، ٦ ح بتو (٢)	ظاهر العمر (٢)
عاموس (١) ٨١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ -	الظاهر تعرضا (٢)
١٦٤ عاي (١)	الظاهر (الفاطمي) (٢)
١٧٥ العبارة (كتاب) (٢)	الظاهر بن الحاكم (٢)
العباس السفاح - ابو (٢) ١٥٢ ، مبaituh بالخلافة ١٥٤ ؛ ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، العباس بن عبد المطلب - بنو (٢) ٢٠ ، ١٠٤ ، ١٥١ ح ١٥٢ ، ١٥٨ - ١٦١	الظاهر غيث الدين (ابن صلاح الدين) ٢٦٥ (٢) ٢٩٠ ، ٢٦٥
العباسية - الخلافة (١) ٤ (٢) ٢٠٤ ٣٠٤ ، ٢٦٨ ، ٢٠٩	الظاهر سيف الدين خشقدم (٢) ٢٧٣ ح
العباسيون (٢) ٣٩ ، اثنائهم الجنائز حول التصور ١٢٨ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٦٢ - ١٦٠ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، الترجمة عن اليونانية فني عهدهم ١٧٤ ؛ ١٨٥ ، ٢١١ ، ٢٠٣ ، ١٩٩ ، ٢٧٤ ، ٢٤١	الظاهر سيف الدين جقمق (٢) ٢٧٣ ح الظاهر سيف الدين ططر (٢) ٢٧٣ ح الظاهر سيف الدين يلباي (٢) ٢٧٣ ح الظاهر قانصوه (٢) ٢٧٣ ح الاظاهري (٢) الظاهريّة (٢)
- العين -	
٥٩ ، ٣١	عائشة (٢)
٦٥	العائلة المقدسة (١)
٩٢	عاتكة ابنة معاوية (٢)
٩٢	عاتكة بنت يزيد (٢)
٢٦٥ ، ٢٦٤ ح ٢٦٥	العادل سيف الدين (٢)
٢٥٢	العادل - اخو صلاح الدين (٢)
٢٥٦	العادل سيف الدين (٢)
٢٨٥ ، ٢٨٢	العادل المستعين (٢)
٢٧٣ ح	العادل سيف الدين (٢) ٢٦٤ ح ٢٦٥
٢٧٧	العازاريون (٢)
٣٢٠	عاشوراء (٢)
٥٦	ابو العاص بن امية (٢) ٤٩ ، ٣٠ ح
١٥٤	العاصي - نهر (١) ٣٢ ، مصبه ٣٣ ؛ ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٧٦ ، ٦٥ ، ٤٢ ، ١٧٥ ، ١٦٧ ، ١٥١ ، ١٤٠ ، ١٨٤ ، ٢٦٢ - ٢٦٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٤٨ - ٣٥٠
عبد الله بن عبد الحميد الكاتب (٢) ١٠٨	العاضد بن يوسف (الفاطمي) (٢) ٢٧٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٢٩٨ ، ٢٧٣ عبد خبا (١)

صفحة	صفحة
٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٤٨	عبد الرحمن (الداخل) (٢) ١٣٣ ، ١٥٦ ، ١٠٥
الحضارة ٢٢١	عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (٢) ٦٦ ، ٦٥
الديانة ٢٢٢ ، ٢٣١	عبد الرحمن بن عبد الله الفاتقي (٢) ٧٩
التعاليم النبوية ٢٢٢	عبد السلام بن رغبان (ديك الجن) (٢) ١٨٢
الكنائس ٢٢٤	عبد العزيز - السلطان (٢) ٣٠٦ ح
البران (البرانيون) (١) انبباوهم	عبد العزيز بن مروان (٢) ٦٤ ح ، ١٤٨
٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤	عبد العزيز بن موسى بن نصیر (٢) ٦٦
١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤	عبد عشرتا (١) ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٧	١٦٧
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤	عبد الغني النابلسي (٢)
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨	عبد الطيف حمزة (٢) ٢٩٥ ح
سيطرتهم على فلسطين ١٩٥	عبد المجيد (٢) ٣٠٦ ح
القصاصون ١٩٥	عبد المطلب (٢) ١٥١ ، ٣٠٠
الملوك ٢٠٥	عبد الملك بن مروان (٢) ٣٠٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥
٢١١ - ٢٢٣	١٥٣
٢٢٧	عبد المناف (٢)
٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣٠	١٨٠ ، ١٤٨ ، ١٢١
الاموات عندهم وابناؤهم ٢٢١	١٠٥
٢٢٢ - ٢٢٥	١٠٦
٢٢٥ ، ٤١٦	١٠٧
٤١٦ ، ٥٦ ، ٥٥	١٠٨
عبد الله بن زياد (٢)	١٠٩
عبد الله بن محمد الحبيب (٢)	١١٠
٢١١	١١١
عبد الله بن قيس الرقيات (٢)	١١٢
١٧٤ ، ٩٠	١١٣
عبد بن شريه (٢)	١١٤
٤١٩	١١٥
عبيدة (أو بوداس)	١١٦
٤٢٣ ، ٤٢٠	١١٧
عبيدة الثالث (١)	١١٨
١٢٦ ، ١١٦ ، ٦	١١٩
عبيدة العراج - أبو (٢)	١٢٠
١٢٢ ، ٢٣٤ ، ١٥٠ ، ١٤	١٢١
العيبدية - السلالة (٢)	١٢٢
٣٤٥ ، ٣٢٢	١٢٣
عبيه (٢)	١٢٤
٣١٧	١٢٥
عطار (١)	١٢٦
٣١٧ ح	١٢٧
عند (الاية) (١)	١٢٨
٤٤٦	١٢٩
عشر عشه (١)	١٣٠
شتيث (٢)	١٣١
٢٧٨ ، ٢٤٩	١٣٢
عثمان الاول (٢)	١٣٣
٣٠٥ ح	١٣٤
٣٠٤ ، ٣٠٣	١٣٥
عثمان - بنو (٢)	١٣٦
١٣١ ، ١٣٢	١٣٧
٢١٠	١٣٨
٢١٥ ، ٣١٢ ، ٢١٠	١٣٩
عثمان الثالث (٢)	١٣١
٣٠٦ ح	١٣٢
عثمان الثاني (٢)	١٣٣
٣٠٥ ح	١٣٤
عثمان بن عفان (٢)	١٣٥
٢٧٣ ، ٢٥٥ ، ٢٤	١٣٦
٦٥ ، ٥٩ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٢٨	١٣٧

صفحة	صفحة
بلاد ، ٦٥ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ٢٧ ، ٢٠	العثماني — الدور (١) ، ٦١ ، ٦٢ ؛ الاسطول ٩١
٣٢٤ ، ٣٥ ، ٢٢٨ ، ٢١٤	(٢) الجيش ٢٩٧
٣٩٥ ؛ الأراميون ٣١٨ ؛ الملوك	العثمانية — الامبراطورية ، الدولة (٢) ٢٠٦ ، ٣٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٩٩
٣٠٩ ؛ الحنفوذ ٦٣ ؛ الجنوب	٣٥١ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣١٣ ٣٥٤
١١٨ ، ٨٢ ؛ الشمال ١١٨	العثمانيون (١) ٣٨٨
١٧ ، ١٢ ، ١١ ؛ (٢)	العثمانيون — الاتراك (٢) ٢٠٦ ، ٤٧ مناضلتهم الماليك والصفوية ٣١٢ ، ٣٠٧ ، ٣٢ ؛ ٢٩٧
٤٩ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ١٩	— ٣٣١ ؛ ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣١٤ ٣٤٤ ، ٣٤٣
٧٤ — ٧١ ، ٦٨ ، ٦٥ ، ٥٢	العجل النحبي (١) ٢٢١
٤١٠ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ٩٨ ، ٨٠	عجلتون (٢) ٣٢٩
١٢٨ ، ١٢٣ ، ١١٤ ، ١١٣	عجلون (١) ٤٥
١٨٢ ، ١٧٤ ، ١٧٢ ، ١٥٠	عجلي بول (١) ٤٤٥
٢٣٩ ، ٢٢٥ ، ٢٠٤ ، ١٩٨	عدلون (١) ٩
٣١٧ ، ٣٠٣ ، ٢٨٣ ، ٢٦٢	عدن (١) ٣٢٦
٣٥١	العناء (١) ٣٧٠ ، ٣٩
العربان (١) ٢١٦	عندراء (٢) ٩
العربة (١) ٢٠٦	ان العراق (١) ١٤٨ ، ٦٣ ، ٤٦
عربستان (٢) ٣٢٩	٣١ ، ٢٢ ، ١٦ ، ١٤ ، ٧ (٢)
العربي — العربية (١) ٢٠٩ ، الدور	٥٤ ، ٤٣ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٢
٦١ ؛ العصر ٢٧٥ ؛ الحروف	٥٥ : مصب يتواه لابن الزبير ٤٥٨
١١٩ ؛ اللفظة ٦٦ ، ١٩ ، ٤	٦٠ ، ٨٣ ، ٧١ ، ٦٥ ، ٦٢ ؛ ٦٠
٤٢٧ ، ١٤٨ ، ٨٥ ، ٦٧	١٢٠ ، ١٠٧ ، ٩٨ ، ٩٧ ؛ ٨٧
العربي — الاسطول (٢) ٨٩ ، ٥١ ، ٥٠	١٤٩ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، عصيان
العربة (١) ٣٤١ ؛ بلدان ٣٤٢ ؛	الخارج فيه ١٥١ ؛ ١٥٣ ، ١٥٤
٤٢٠ ، ٤٢٠	١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢
(٢) الامبراطورية ٦٤ ؛ القبائل	١٥٧ ، ٢١٤ ، ٢٠٣ ، ١٩٤ ، ١٩٣
٣ ؛ اللغة ٨٣ ، ٩٦ ، ١٠٥	٢١٧ ، خضوعه لصلاح الدين ٣٥٤ ؛ ٢٩٧ ؛ ٢٤٢ ، ٢٣٦
١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧١ ، ١٦	المرافقيون (٢) ٢٨٦ ، ١٠٤
٣١٧ ، ٢٥٠ ، ١٨٠ ، ١٧٦	العرب (١) ٥٢ — ٥٠ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤
٣٢٤ — ٣٢٢	٦٤ ، ٢٩٠ ، ٢٥٥ ، ١١٨
عرقة (١) ٣٨٩ ، ٨٩ ، ٧٦	٤٤٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٠ ، ٤١٣ ، ٤٣١
٢٠٢ ، ١٩٥ ، ٥٤ (٢)	٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥
٣٢٤ — ٣٢٢	
العرعر — شجر (١) ٣٢٠	
عزرا (١) ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢١٤	
العزى (١) ٤٤٨ ، ٤٤٩	
عز الدين آبيك (٢) ٣٦٧	
العزيز (الفاطمي) (٢) ٢١٣ ، ٢١٢	
العزيز جمال الدين يوسف (٢) ٢٧٣	
العزيز غيات الدين (٢) ٢٦٥ ، ٢٦٤	
٢٦٥	

صفحة	صفحة		
٩٩	العصر الهلنستي (١)	٤٤٦ ، ٤٤٥	عزيزو (١)
١١٤	العصر الهوميري (١)	٢١٥	عزيا (عزريا) — الملك (١)
٦١	العصر اليوناني (١)	٢٩٢ : ٢٦١ ، ٤٢ ح	عساكر — ابن (٢)
١٠٢	الصور الهلنستية (١)	٢٩٦	
١٠٢	الصور الهوميرية (١)	٢٢٥	عساف — بنو (٢)
٦٤	الصور الوسطى (١)	٢١٠	عساف التركماني (٢)
٦٢	الصور اليونانية (١)	١٠٥ ، ٨٩ ، ٧٠ ، ٣١	عسقلان (١)
٢٠٦ ، ١٠٧	عصيون جابر (١)	٤٠٦	مركز تعبادة اتارغاتس
١٩٨ ح	المطفة (١)	١٨٨	٤
٢٣٥	العظم — آل (٢)	٢٧١ ، ٢١٦ ، ٢٠١	٢٩٧
٢٠	عفان بن أبي العاص (٢)	٣٢٥ ، ٣٢٧	٢٨٠
٢٧	الغوفة (١)	٣٤٩ ، ٢٨٩	٢٨٩ ، تصديرها الخمور زمن
٤٣١ ، ٢٠٦ ، ٤٦	انقوبة — خليج (١)	٤٢٥	الرومان (١)
٢٣١ ، ٥٠	(٢)	٢٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٠٥	٣٩١ ؛ ٤٢٥
٧٠ ، ٢٨	عقبة بن نافع (٢)	٢٢٨	سقوطها ييد صلاح الدين
٩٠	العقد — كتاب (٢)	٢٥٩ ، ٢٥٤	٢٢٨
٢١٧ ، ١٩٧	عقرون (١)	١٢٥ ، ٨٣ ، ٧٤	عشثار (١)
٤٣٠ — ٢٩٨ ، ٢١٧	العقلير (جرها) (١)	٢٠	١٢٥
٤٢٥	(٢)	٢٢١ ، ٢٢٩	عشثارت (١)
٢٢٦	عقيل — بنو (٢)	١٤٦	عشثاروت (١)
عكا (١) ، ٣٢	عكا (١) ، ٣٢ : ٨٨ ، اكتشاف الزجاج	١٦٠ ، ١٧٢	١٦٠ ، ١٧٢
عند شاطئها	عند شاطئها (١) ، ٩٩ ؛ ١٢٩	١٧٢	عشثاروت (١)
٢١٦	، مرکز	٢٠٣	عشثاروت (١)
٢٤٩ ؛ ٢٣٠	تجارة السمك	١٨٨	العصر الاشولي (١)
٤	(٢)	١٢٨	العصر الباليوليتى (١)
١٨٧ ، ١٠٣ ، ٢٤ ، ١٢	عكوس (١)	١٧٢	العصر البرونزى (١)
، ٢٤٠ — ٢٣٨	علاء الدين علي (٢)	١٤٦	٩٥
٤	علاقة (تللاج) (٢)	١٦٠	العصر الجليدي (١)
٢٣٧	علم الدين — آل (٢)	١٦٧	العصر الجوراسي (١)
٢٥	علماء (١) ساحل	١٦	العصر الحجري (١)
٢٢٦	قرية (٢)	٥٦ ، ٢٧ ، ٢٥ ، ٢١	— ١٨
العلويون (٢) ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٢٩	العلويون (٢)	١٥٨	
٢٦	، قبامهم	١٨٨	العصر السلوقي (١)
٢٢	ضد يزيد ٥٥ ؛ ١٥١ ، ٦٠	٣٦ ، ٣٥	العصر الكريتاسي (الطبشورى) (١)
٦١	٢٢٠ ، ١٩٩ ، ١٩٢	٢٠	العصر الميزوليتى (١)
		٩٧	العصر الميكاني (١)
		٣٩	العصر المينوسى (١)
		٢٠ — ٢٤	العصر النحاسى (١)
		٢٠	العصر النطوفى (١)
		٢٦ ، ٢١	العصر النيلوليتى (١)
		١٤٥	عصر الهاكسوس (١)

صفحة	صفحة
٧٦	٣٢٨ ، ٣٢٧
١٣ ، ٥٦ ، ٢٥ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٣٥ ، ٣٥ ، ٣٩	علي بك (٢) عني جانبولاد (٢)
١٠٠	الغلي حسن - أبو (٢)
٢١١	علي بن سعيد الدولة (٢)
٤٣٠	علي الشهابي (٢)
٩٠ ، ٧٠	علي بن أبي طالب (٢) ، ٢٧ ، خلافته وصراعته مع معاوية (٢) - ٢٧
٧٦ ، ٤٠	١٩٢
٢٢٨	١٩٦
٢٢٢ ، ٢٢٥	٢٤٠
٢٩٥٦ ، ٢٧٧٦ ، ٢٥	٣٢٨
٢٠٢٤ ، ١٢٥	١٩٣
٢٥٠ ، ٣٤٩	١٩٧
٢٣ ، ٢٢	١٦٦
٨٤	علي بن عبد الله بن القباس (٢) ، ١٥٨
٤٢	٢٢٢
١٨١ ، ٥٠	علي علم الدين (٢)
٤٠٧ ، ٢٠٣٤ ، ١٩٤٤ ، ١٥٦	٢٢٢ ، ٣٢٩
٤١٦ ، ٢١٦ ، ٢١٣	١٦٥
٢١٦ ، ٢٠٢	٢٢٠
٢٨	١٢٧ ، ١٢٤
١٦٠	١٢٢
١٢٨	٣٢٥
١٢٩	٤٤١
١٦٠	٢٠٧
١٢٩	٣١٧ ، ١٩٠ ، ١٧٢
١٢٩	٢٨
١٢٩	١١٩ ، ٨٧ ، ٦٢
٢٦٢	٢٨
٢٢٧ ، ١٧٨	٢١٧ ، ١٩٠ ، ١٧٢
٤١٩ ، ٣١٧ ، ٢٧٨	١١٠
٣٣٠	٢١٦
٩٥	١١٠
٣٢٤	٢٠٥
٢٤٨ ، ٢٣٥ ، ٤٣	٦٤٤
٣٧٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦	٧٨
٢١٨	٢٢١
١٤٧	٢٠٦
٢١ ، ٢٠ ، ١٩	٥٥
عنه عمر (٢)	عمر بن سعد بن أبي وقاص (٢)
عهد السلالات (١)	عمر بن شراحيل الشعبي (٢)
عهد عمر (٢)	عمر وبن العاص (١)

صفحة	صفحة
الفال — بلاد (١) ١١٢، ١١٦، ٢٨٣ : ٣٧٨، ٣٥٥، ٣١٨، ٢١٥ ٣٩٥، ٣٩٢، ٣٨٢ : ٣٧٩	العهد القديم (١) ١٤٩، ١٣١، ٨٧ ١٦٩، ١٧٧، ١٩١، ١٩١، العابد المذكورة فيه ٢٠١؛ ٢٠٥، ٢٢٨، ٢٢٥، ٢١٤، ٢٠٩ ٢٣٥، اعتماد كتاب «آثار اليهود» عليه ٣٥٣؛ ٣٥٨
غاليريوس (١) غالينيما (٢) غالينوس (١) غاليليون (٢) غاليوس (١) الغرب الادنى (٢) الغرب الاعلى (٢) غرناطة (١) غرناطة (٢) غريغوريوس (١) غريغوريوس توماتيرجس (١) غريغوريوس الثالث عشر (٢) غريغوريوس النازيني (١) الفز (٢) ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٤ غزرة (١) ١١٢، ٨٣، ٨٩، ١١٢؛ فرعون في جنوبى سورية يقيم بها ١٤٦؛ ١٦٤، ١٥٨؛ ١٩٦، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١٥، ٢٠١، ١٩٧ ٢١٠، ٣٠٩، ٢٧٨؛ ٢٦٠، ٢٨٩، ٣٤٩، ٣٣٣؛ ٣٢٧، ٣٩٨؛ ٣٩١، ٤١٩، ٤١٨، ٤٠٤ تصدرها الخمور ٤٢٥، ٤١٩، ٤١٨، ٤٠٤ (٢) ٦، ١٠، ح، ٢٧٢، ٢٧٢، الوباء يحتاجها في المصور الوسطى ٣٧، ٢٠٦، ٢٧٧	عوج ملك باشان (١) ١٩٤، ٨١ العوجا (٢) عياض بن غنم (٢) عبيال (جبال) (١) عيد القيامة (٢) عيد الميلاد (٢) عيسى بن مريم (٢) عيسى بن نسطوريوس (٢) عيسو (١) ١٦٩، ١٩١، ١٩٢ عيلام (١) العيلاميون (٢) العين — كتاب (٢) عين التمر (٢) عين جالوت (٢) عين دارة — معركة (٢) عين زحلتا (٢) عين شمس (١) عين صوفر (٢) عين طورا (٢) عين قدس (١) عينتاب (٢) عيون الابياء في طبقات الاطباء — كتاب (٢) ٢٩٣، ٢٨٣
الفزالى (٢) الفزالى (جان بردى) (٢) غزير (٢) الفاسنة (١) ٤١٣، ٤١٦، ٤١٦؛ ٤٤٧، ٤٤٦ ٤٥٢ — ٤٥٠، ٤٤٧ ٤٣٤، ٤٣٤ (٢) ١٩٩، ٩٨ غسان (٢) ٤٤٦ غسان — بنو (١) ١٢٨ القسائيون (٢) ٢٣٧ غلاطية (١)	الغابة المقدسة (١) غابريوس (١) غارستانغ (١) غارون — نهر (٢) غازان محمود (٢) الغازى (٢)

— الفين —

صفحة	صفحة
الفارسي ، الفارسية (١) اللغة ٤٤٠	غنوسيطية – طائفة (١) ١٨٤
الامبراطورية ٢٤٥ ، ١٨٣	الفنوسطيون (١) ٣٧٢
٢٥٣ ؛ البحرية ٢٤٦	غودفري دي بوين (٢) ٢٢٨
٢٥٥ ؛ الاشجار ٣٠٣	غودفري دي بوين (٢) ٢٢٨
٢٢٨	غودفري دي بوين (٢) ٢٢٨
(٢) الاحسان ١٢١	غورا الاردن (١) ١٤٩
الامبراطورية ٣ ؛ اللغة ١٧٤	غورو (١) ٤٤
٣٨٠ فاروس افيتوس (١)	الفوري (٢) ٣٠٧
١٦٢ الله (١)	غوزان (١) ١٨٣
٣١٧ فاسكو داغاما (٢)	غوزانه (١) ١٩٣
فاطمة (٢) ٢٩ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٠	غوشن (١) ٤٤
٢٠٩	الفوطة (١) ٩٤ ، ٨١
الفاطمي، الفاطمية – الامبراطورية (٢)	فوتنر آند (١) ٣٩٢
١٩٣ ؛ الاسطول ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٤	غيتا (١) ٣٥٥
الخلافة ٢٠٩ ؛ ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢١٢	غي ده لوسينيان (٢) ٢٣٧
٢١٠ ، ٢٤١ ، ٢٣٦	غيشنة (٢) ٧٤
الفاطميون (٢) ١٥٢ ، ١٨٩ ، ١٩٢	— الناء —
٤ ، ٢٠٦ – ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١	الفائز بن الطافر (الفاطمي) (٢) ٢١٣
٤ ، ٢٠٨ ؛ قيام خلافتهم ٢٠٩	افتاتيكان (١) ٢٢٤
٤ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٣	٣٢٢
٤ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٢٦٢	٢٠٠
فالريان (١) ٤٣٧ ، ٣٦٨ ، ٣٤٠	فارابي (٢) ٢٠٠ ، ١٩٧
٤ ، ٣٣٣	فارابي (١) ٢٤٠ ، ١٦١ ، ٩٢ ، ٦٩
٤ ، ٣٣٣	فارس (١) ٣٨٣ ، ٣٢٦ ، ٢٦٠ ، ٢٥٣
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٤٣٠ ، ٤١٦ ، ٤١٢ ، ٤١١
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣١
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٤٤٩
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٢٨ ، ٣
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٥٤ ، ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٠
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٦٣ ، الازارقة
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٧٧ ، ٨٧
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١٠٢
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ١٣٨ ، ١٣٨
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ١٥٧ ، ١٥٢
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ١٨٣ ، ١٨٣
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٢٠٣ ، ١٩٨
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٢٢٠ ، ٢٥٤
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٢٦٨ ، ٢٥٤
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٢٩٠ ، ٢٧٧
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧
٤ ، ٣٣٣	٤ ، ٣٩٠ ، ٢٧٧

صفحة	صفحة
٤٤٠ ، ٤٣٧ ، ٤١٤ ، ٢٨٢ ٤٥٠	٢٥٩ ، ٢٤٨ (٢) ، ٢٦٥ ٢٩٤ ، ٢٧٢ ، ٢٦٥
٥٦ ، ٥٥ ، ١٣ ، ٣ (٢) ٦٠ ، ٨٢ ، ٦٠ بكلاب الصيد ، ٩٢ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٤ ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٣ ١٤٩ ، ١٤٩ ، ١٤٩ ١٥٢ ، ١٥٢ ، ١٥٢ ١٨٥ ، ١٧٥ ، ١٥٩ ، ١٥٣ ٢٧٠ ، ٢٤٦ ، ٢١٨ ، ٢٠٤ ٢٢٨ ، ٢٩٧	١٩١ ، ١٧٦ ، ٦١ ، ٤١ ، ٢٥ (١) ٦٢ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٤ ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٣٩ ، ٧٥ ١٧١ ، ١٦٢ ، ١٥١ ، ١٤٨ ٢١٨ ، ١٨٤ ، ١٧٧ ، ١٧٤ ٢١٩ ، ٢٩٨ ، ٢٧١ ، ٢٥٦ ٤٢٥ ، ٤١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ٤٤٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٥ ، ٤٣٣ ١٨٨ ، ١٥٥ ، ٩٨ ، ٤٥ (٢)
فرعون (١) ، ٩٢ ، ٨٣ ، ٧٩ ، ٧٧ ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٢٨ ، ١٠٠ ١٩٢ ، ١٦٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ٢٠٥ ، ٢١٧	١٩٩ ، ١٩٧ (٢) ٢٩٠ ، ٢٩٠ ، ١٧٣ ، ٩٦ ، ٢٩٠ ٣٢٩ ، ٣٢٩ ، ٢٠٣ (٢)
الفرعونية (١) ، ١٣٦ فرغانة (٢) ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٨ ، ٦٨ ١٩٠ ، ١٠١ ، ١٠١ ١٧٥	١٨٦ (٢) ٤٢٢ ، ٣١٠ ، ٢٧٠ ، ٢٦٢ ٣٨٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٢ ٤٣٧ ، ٤٣٧ ، ٤٣٧ ، ٤٣٧ ٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٦ الحملات ، ٣٣٩ ، ٣٣٩ الفرتيلون (١) ، ٢٧٣ ، ٢٧١ ، ٢٦٢ ٣٨١ ، ٣١٠ ، ٣٠٨ ، ٢٩٩ ٤٤٢ ، ٤٣٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٤
٢٥٨ ٢٦١ الفركاح - ابن (٢) ٢٠٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٢ ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ٢٢٢ ، ٢٢٨ ٢٥٨ ٢١٢ ، ١٠ ، ٨ ، ٤ ، ٤ ٢٩٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥ ٢٢٧ ، ٢٢٢ ، ١٤٢ ، ٧٨ (٢) ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٤٧ ، ٢٢٩	٢٥٢ (١) ٢٢٨ (٢) ٢٩٧ (٢) ٣١٧ (٢) ٣٢٩ (٢) ٢٤٢ (٢) ١٠٩ (٢) ١٦٥ (١) ١٥٧ (١) ٦٧٥ (١)
فرنسيس الاول (٢) فرنسيس الاسيسي (٢) الفرنيستakan (٢) الفرنسي - الدستور (٢) الفرنسية - اللغة (٢) ، ٢٥٧ ، ٢٨٤ ٢٥٢	فرديناند الاول (٢) فرديناند (٢) فرديناند مغلان (٢) فردريك باريباروسا (٢) فردريك ملك صقلية (٢) الفرزدق (٢) الفرزل (١) الفرزيون (١) الفرس (١) ، ٤ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٤ ، ٦٤ ٢٢٩ ، ١٨٣ ، ١٣٦ ، ١٣٥ ، ١٠٢ ٢٥٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٥ ٢٥٦ ، ٢٨٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٧ دولتهم ، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ٣٦٩ ، ٣٦٩ ، ٣٦٩ ، ٣٦٩
٤٤١ ، ١٤٤ ٣١٢ ، ٢٥٢ ، ٢٢٠ ٢٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٣٩ ٢٥٦ ، ٢٥٥ ٢٦٠ ٥٠ ١٨٧	الفرنجية (١) الالهة الفرنجية (١) الالهة

صفحة	صفحة
٢٨١ : ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٦٠	١٧٢ ، ١٦٨
٣١١ : ٣٠٧ ، ٢٥٠ ، ٢٠٢	٣٧٥
٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢١٧ ، ٢١٢	٣٤٩ ، ٣٤٣ ، ٣٢٢
٣٩٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٥ ، ٣٨٩	٣٧٥ - ٣٧٤ ، ٣٥٣
٤٤٤ ، ٤٤٢ ، ٤٠٥ : ٤٠٣	٣٢٤
١١٥ : ٨٧ ، ٧١٢	٢٤٠
١٥٣ ، ١٤٣ ، ١٢٨	١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٨٦
٢٠١ ، ١٩٣ ، ١٦٤ ، ١٥٦	٢١٦
٢٥٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠ ، ٢٠٥	٢٠١
٣٣٦ ، ٢٢٧ ، ٣١٩ ، ٢٧٦	٢٩٥
٣٥٤ ، ٣٢٨	٢٣٥
فلاطين الاولى (١)	فضالة بن عبيد الانصاري (٢)
فلاطين الثالثة (١)	فطر اورشليم (١)
فلاطين الثانية (١)	فطروس - ابو (٢)
فلاطين الوسطى (١)	الفطير - عيد (١)
الفلسطينية - المدن (١) ٢١٦ : ٢١٦	فقع (ملك اسرائيل) (١) ١٨١
الفلسطينيون (١) دجنوا الخنزير ٤٦	فلافيوس افسياسيان - انظر
٢٠٤	فسياسيان
٢٨٩	فلافيانيا بولس (نابلس) (١)
٢٨٩	فلانسيا (٢)
٢٨٩	فلسطيا (١) سهل
٩٣	٦٢ ، ٣٩ : ٢٢
٢٥٥	٢١٣ : ٢٠٧
الفلسطينية - المدن (١) ٢١٦ : ٢١٦	فلسطين (١) جزء من سوريا ٤٤ : ٣
٢٦	، ٩ ، ١٢ ، ١٥ ، ٧
١٠٤	، ٢٤ - ٢١ ، ١٩ ، ١٧
٣٩	، ٢٢ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٧
٣٩	، ٤٣ ، ٤٢ ، ٣٩
٣٩	؛ حوران تموتها
٣٩	٤٥ ؛ ساحلها
٣٩	٥٣ : ٥٠ ، نباتاتها ٥٥ ؛ ٥٤
٣٩	- ٨٠ ، ٧٠ ، ٦٤ ، ٦٢
٣٩	، ٩٠ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٢
٣٩	، ١٢٠ ، ٩٩ ، ٩٦ ، ٩٤
٣٩	، ١٤٤ ، ١٤٠ - ١٢٧
٣٩	، ١٥١ - ١٥٧
٣٩	تحت
٣٩	الحكم المصري ١٦٨ ؛ ١٦٩
٣٩	، ١٧٧
٣٩	، ١٩٠ : ١٨٨ ، ١٨٠
٣٩	، ٢٢١ : ٢٣ : ١٩٤ - ١٩٢
٣٩	- ٢٣٨ : ٢٢٨ ، ٢٢٦
٣٩	، ٢٤٥ ، ٢٤٤ : ٢٤٢ ، ٢٤٠
٣٩	، ٢٤٣ : ٢٤٢ ، ٢٤١
٣٩	، ٢٤١ : ٢٤٠
٣٩	، ٢٣٩ ، ٢٣٨
٣٩	الفلبين (٢)
٣٩	الفناء الكبير (٢)
٣٩	الفنين (١)
٣٩	النهرس - كتاب (٢)
٣٩	فوقات الوفيات - كتاب (٢)
٣٩	القوارس - ابو (٢)
٣٩	فورتونا (١)
٣٩	فولتي (٢)
٣٩	فونكس (٢)
٣٩	فيتيليوس (١)
٣٩	الفيثاغوريون (١)
٣٩	فيريوس (١)
٣٩	فيزون (١)
٣٩	فيصل بن الحسين (٢)
٣٩	فلادلقا (١)

صفحة	صفحة
الكتابة ؛ ٢٢٩ ، ٢١٨ ، ٣٠٨ الحروف ؛ ٢٧٩ ، ١١٧ ، ١١٢ ؛ ٢١١ ، ١٨٥ ، ١١٩ مستعمرات ؛ ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٤٧ ؛ الله ؛ ١٤٧ ، ٢٠١ ؛ الصور ؛ ١٤٨ ، ١٤٨ الحالات ؛ ٢٤٢ ، ١٠٦ ؛ الارض ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٧ الدول ؛ ٢٤٧ ، ٢٤٦ البيانة ؛ ٢٥٣ ، ٢٥٢ ؛ ١٤٧ الساحل ؛ ٩٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٤ التجار الدوليين ؛ اول السلوك ؛ ٨٥ ، ٥٢ ، ٤٥ ، ٥ - ١٠٤ ، ١٠٢ ، ٩٩ ، ٩٢ ؛ ١١٨ ، ١١٠ ، ١٠٨ ، ١٠٦ ؛ ١٢٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ؛ ٢٠٠ ، ١٩٧ ، ١٤٨ ، ١٣٧ ؛ ٢٢٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ؛ ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٠ ؛ ٢١٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ٢٥٦ ، ٧٢ ، ٢	فيليبو بولس (١) ؛ ٢٥٠ فيلوتيرا - اخت بطليموس (١) ؛ ٢٧٦ فيلوديمس (١) ؛ ٢٧٦ فيلوديمي (١) ؛ ٢٨٥ فيلوستراتس (١) ؛ ٢٨٦ فيلو متر (١) ؛ ٢٦٦ فيلون الاسكندري (١) ؛ ٢٧٧ فيلون الجبيلي (١) ؛ ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢٥ فيليب (١) ؛ ٢٦٥ فيليب اوغسطس (٢) ؛ ٢٢٩ فيليب (الاول) فيلادلفوس (١) ؛ ٢٢١ ، ٢٧٤ فيليب الثاني (١) ؛ ٢٧٤ ، ٢٧٣ فيليب العربي (١) ؛ ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٢٨٢ فيليب المقدوني (١) ؛ ٢٥٣ فيينا (٢) ؛ ٢٥٥ فينوس (١) ؛ ١٧٢ ، ٣٤٨ ، وانظر الزهرة فينيقية (١) ؛ ٨٠ ، ٦٩ ، اشتقاد اسمها ؛ ٨٧ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٣٥ ؛ ١٥٦ ، ١٤٠ ، ٢١٦ ، بعض مدنها ؛ ١٦٧ تمارس الحكم الذاتي ؛ ٢٤٦ ؛ ٢٨٠ ، ٢٧١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧ ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ؛ ٣٢٨ ، ٣٥٤ ، ٣٣٤ ، ٣١١ ؛ ٤٤٢ ، ٤٠٣ ، ٣٩٥ فينيقية الاولى (١) ؛ ٢٨٩ فينيقية الثانية (١) ؛ ٢٨٩ فينيقية السورية (١) ؛ ٢٣٧ فينيقية اللبنانيّة (١) ؛ ٤١٤ ، ٣٤١ فينيقى ، الفينيقى ، الفينيقية (١) ؛ ٤٤٢ البساطل ؛ ٦٦ ، ٦٢ ، ٨٢ الاثار ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ؛ ٢٨٦ ، ١٩١ ، ١٢٣ ؛ ١٣٧ ، ١١٥ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٨٤ ؛ ٢٤٠ ، ٢٧٩ ، ٢٤٨
- القاف -	
قائبى (٢) ؛ ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٧٢ القام - القاطمى (٢) ؛ ٢١٣ قبابون (٢) ؛ ٢١١ قادس (١) ؛ ١١٢ - ١١٠ قادش (١) ؛ ١٤١ ، ١٤٠ ، ٦٥ ، ١٥٩ قادش بربانيا (١) ؛ ١٩٢ قاديشا (٢) ؛ ١٤٠ قاديشا - نهر (١) ؛ ٢٩ قارون (١) ؛ ٢٢٩ قاسم بن عمر الشهابي (٢) ؛ ٢٤٠ ح قاسم بن ملجم الشهابي (٢) ؛ ٢٤٠ ح القاسمية - نهر (١) ؛ ٤١٠ ، ٣٩٠ ، ٣٢ فانصوه الغوري (٢) ؛ ٢٩٨ - ٢٩٧ قانون ابن سينا - كتاب (٢) ؛ ٢٨٣	

صفحة

٢٢٥ ، الصليبيون يحتلونها
، ٢٣٣ - ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٢٨
، ٢٤٧ ، ٢٤٢ - ٢٣٧ ، ٢٣٥
، ٢٧٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٠
، ٣٤٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٨٦
٣٥.
قدس الاقdas (١) ١٣٠
قدموس (١) ٢٨٠ ، ١١٧ ، ١١٤
٢٤٦ ، ٢٤٥ (٢)
القديس افرايم (٢) ١٤٤
القديس بطرس (٢) ١١٩
القديس توما (٢) ١٣٦
القديس جاورجيوس (٢) ٢٢٧
القديس سباستيانا (٢) ١٧١ ، ١١٦
القديس سرجيوس (٢) ٩٧ ح ٢٢٧
القديس سينيتوس (٢) ٩٧ ح
القديس قسطنطين (٢) ٩٧ ح ٠
القديس لوقيا (٢) ٢٥٣
القديس لويس (٢) ٢٤٣
القديس لويس ملك فرنسا (٢) ٢٤٢
القديس لويس (في عكا) (٢) ٢٤٧
القديس مارتن (٢) ٧٩
القديس مارون (٢) ١٤٠
القديس يوحنا الخامس (٢) ٩٧ ح ٩٨
القديس يوحنا اندرمسي (٢) ٣٩
١٧١ ، ١١٧ - ١١٥ ، ٤١
القديس يوسف (٢) ٣١٩
القديسة صوفيا (٢) ٥٢
القديسة مرريم (٢) ١٣١
القرآن (١) ٤٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٦ ، ١٨٣
٤٦٢ ، ٢٨ ، ٢١ ، ١٧ (٢)
، ١٠٢ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٨٨
، ١١٥ ، ١١٢ ، ١٠٩ ، ١٠٥
، ١٦٦ ، ١٤٥ ، ١١٩ ، ١١٦
٢٩١ ، ٢٨٨ ، ٢١٦ ، ١٩٧
٧
قرافق (٢) ٧
الترامطة (٢) ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٢٠ ،

صفحة

٢٦٦ ح ٤٢٧ ، ٢١٥ ، ٥
، ٢١٣ - ٢١١ ، ١٩٦ (٢)
معهد للعلوم العالية بنشأه
الحاكم فيها ٢٥٦ ، ٢٢٢
، ٢٧٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦
، ٢٨٩ ، ٢٨٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٤
٣١٨ ، ٢٩٩ ، ٢٩٥
قب الياس (٢) ٣٤٠
قبة السلسلة (٢) ١٣٠
قبة الصخرة (١) ٢٠٥
، ١٣١ ، ١٢٩ ، ١٢٨ (٢)
٢٧٠ ، ٢٦٩
قبر شمون (١) ١٣٥ ح
قبرس (قبرص) (١) ١٠٤ ، ١١٠
، ١٥٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧
٢٢٩ ، ٢٧٩ ، ٢٤٢ ، ١٩٦
، ١٧٠ ، ٤٨ ، ٢٤ (٢)
٣٤١ ، ٣٦٠ ، ٢٥٩
قبرصي (١) خزف ١٢٥ ؛ سلاح
القبرصية - الاواني (١) ٩٥
القبرصيون (٢) ٢٧٠
قبريانوس (٢) ٧١
القبط (٢) ٢٦١ ، ١٠٤ ، ٩٩
القبطية - اللغة (١) ١٤٨
١١٤ (٢)
القبطية الجشية - الكنيسة (٢) ١٣٩
قتيبة بن مسلم (٢) ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٦
القدرة (٢) ١١٨ ، ١١٥
القدس (١) ١٢٩ ، ١٢٠ ، ٤٩ : ١٥ (١)
، ٤٠٦ ، ٢٢٧ ، ٢١٣ ، ١٥٩
٤٣١
١٣ - ١٤ ، ٧ ، ٣ (٢)
١٥ ، ٣٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٣٥ ،
١٢٨ ، بناء قبة الصخرة فيها
، ١٧١ ، ١٤٣ ، ١٣٤ ، ١٢٩
، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٩٢ ، ١٨٧
، ٢٢٢ ، ٢١٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥

صفحة	صفحة
٤٥٦ ، ٤٢٦ ، ١٣٦ ، ٣ (٢)	٢١٤٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٣ ، ١٩٢
٦ ، الهجوم الامسي الآخر عليها ٤٩ — ٥٢ ، ١٠٦ ، ٧٠ ، ٥٢	٢١٧ قرة — أبو (٢)
٦ ، ١٩٩ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١١٧	١٧١ قرطاجنة (١)
٦ ، ٢٧٨ ، ٢٢٤ ، ٢١٨ ، ٢٠٥	٦ ، ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٢
٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٢٩٩ ، ٢٩٧	٦ ، ٢٥٤ ، ١٢٧ ، ١١٦ ، ١١٥
٦ ، ٣١٨ ، ٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٧	٢٨٩
٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦	(٢)
٦ ، ٣٤٩ — ٣٤٧ ، ٣٤٥ ، ٣٤٢	قرطاجنة (٢)
٣٥٣	القرطاجية — اللفة (٢)
١٢٨ ، ١٢٧	القرطاجيون (١) — الاسطول (١)
١٢٧	١١٥ ، تجارتهم
٨١	١١٢ ، قرطاجنة (١)
١٢٧	١١٣ ، قرطبة (١)
١٢٥	٦ ، ١٢٨ ، ٧٤ ، مسجدها
١٢٦ ، ١٢٥	١٥٦ ، ١٣٤
٣٥٦	قرقر (معركه) (١)
٣٥٦	قرقماز (قرقماز) (٢)
٣٥٦	٢٠٩ ، ١٨٠ ، ١٧٩
٣٥٦	٣٣٣ ، ٣٢٧
٣٥٦	٣٥
١٢٤ — ١٢٢	٣٤٨ ، القرم — حرب (٢)
٢٠٢ ، ١٩٤ ، ٨٩	١٠٣ ، القرمز (١)
٦	٥. القرن الذهبي (٢)
١٩٠ ، ١٨٧	٣٤ ، القرنة السوداء (قمة) (١)
٢٠٩	١٢٠ ، قره تبه (١)
١٨٨	١٢٧ ، ٩١ ، القرتيين (٢)
٦٣	١١٨ ، ٣٠ — ٢٨ ، ٢٤ ، قوش (٢)
٢٧١ ، ٢٦٩	٢٢٠ ، القرلباشية (٢)
٦٦	٦٩ ، قزوين (٢)
٤ ، ١٣٨ ، ٨٣ ، ٧٦ ، ٧٤	١٧٧ ، قسطنطين لوقا (٢)
١٨٤ ، ١٥٩	١٢٥ ، القسطل (٢)
٢٩٤ ، ٢٨٣	٤ ، ٣٨٣ ، ٣٦٨ ، ٣٤٨ ، قسطنطين (١)
٣٩٦	٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٣ ، ٣٨٨ — ٣٨٦
٤ ، ٢٦١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧	٤٠٥
٢٨٣ ، ٢٧١ ، ٢٧.	٢٦ ، ٢٥ ، ٣
٢٢٤ ، ٢٠٥	٤٧ ، قسطنطين الرابع (٢)
٣٤٦	٣١٣ ، قسطنطين الكبير (١)
٢٩٩ ، ٢٧٠	٦ ، ٣٦٢ ، ٢٧٦ ، القسطنطينية (١)
٣١١	٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩١ ، ٣٨٨ ، ٣٨٦
٤٠٤	٤ ، ٤١١ ، ٣٩٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٦
١٩٥	٤٥٠ — ٤٤٧ ، ٤٤٤

صفحة	صفحة
- الكاف -	
٢٦٤ ، ٢٥٧ ٦٥ كاثرين — ملكة روسيا (٢) ١٢٩ كاتدرائية بصرى (٢) ٢٥٣ كاتدرائية السيدة (٢) كاثدرائية القديس يوحنا المعمدانى (٢) ٢٥٣ ، ١٢١ كاثو (١) الكاثوليكية — الكنيسة (١) ٣٩٨ ١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٥ (٢) كار أسرحدون — حصن (١) ١٠٥ كار إكلالا (١) كارجين (١) الكاس المقدس (٢) كاسترييدس (جزر القصدير) (١) ١١١ كاشان (٢) كاشفر (٢) كاشيوس — جبل (١) ٢٨١ ، ٨٨ ٣٣٩ ، ٣١٠ الكاشيون (١) ١٥٧ ، ٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ الكافى فى الكحل — كتاب (٢) كافور (ابو المسك) (٢) ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٨ كاليسن (١) كاليغولا (١) كاليفورنيا (١) كالينيكوس (٢) الكامل (الملاك) (٢) الكامل شعبان (٢) .الكامل بن العادل (٢) الكامل محمد (٢) كامل الصناعة الطبية — كتاب (٢) كانوبس (١) كاورد داغ (جبل) — انظر اللكام	٢٢١ ٢٢١ ٢٦٧ ٢٢٨ ٢٤٨ ، ٢٤٥ ٢٦٢ ٣٢٢ ، ٢٢٧ ٢٤٥ ٣١٧ ٤٤٨ ' ١٥٥ ، ١٣٩ ، ٩٩ ، ١٢ ، ٣٩ ١٦٤ ، ١٥٦ القوتات (١) ١٤١ قوانين تيودوسيوس — كتاب (١) قوانين يستينيان (١) وجود (٢) كورس (فورش) (٢) القطط (١) ١٢٣ ، ٧٨ ٢٦٨ ٣٥٤ ٢٠٥ ' ٨٠ ، ٧١ ، ٣٩ ، ٣٨ (٢) ٣٥١ ، ٢٣٦ ، ٢١١ ، ٨٧ ٩٠ ١١٠ ' ٢٢٨ ، ١٣ — ١١ ، ٦ (٢) ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٠ القيسيطة (٢) ١٦٥ ، ١٥٠ ، ٥٨ ٣٤٤ ، ٢١٩ قيشون — حوض (١) ٢٠٣ ٣٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٠ فيصر (١) فيصرية (١) ٣١٢ ، ٣٣٣ ' ٣٤٩ ، ٣٣٣ ٣٧٢ ' ٣٩٤ ، ٣٩١ ، ٣٨٩ ٤١٣ ، ٣٩٩ — ٣٩٧ فيصرية فيلبي (١) ٣٤٩ ، ٢٦٥ القنيون (١) ٢٠٧ ، ١٩٣

صفحة	صفحة
٢٩٩ ، ٣٩٤	كبدوكية (١)
٧.	(٢)
٣٢٠	كبوشية (٢)
٢٢٠	الكبوشيون (٢)
٢٢١	كتاب الاموات (١)
١٧٨	كتاب الصناعة الصغيرة (٢)
١١١	كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (١)
٢١٤ ، ٢٧ ، ١٣٢	الكتاب المقدس (١)
٦٢٨ ، ١٧٢ ، ١٦٩ (٢)	٢١٨ ، ١٧٢ ، ١٦٩ (٢)
٣٥٢	
٢٥٠	الكتاب الملكي (٢)
١٠٧	كتاب الملوك واخبار الملائين (٢)
٢٠١	كتاب الموسيقى الكبير (٢)
٢٧١ ، ٢٦٩	كتيفا (٢)
٢٩٣	الكتبي (٢)
١٠٨ ، ٩٩	الكتان (١)
١١٩	الكتلة (٢)
٣١٠	كراسوس (١)
٤٣٦ ، ٤٣٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤١ (١)	كراكلا (١)
٤٣٥ ، ٣٨٠ - ٣٧٣	كراديس ، الكراديس (٢)
٥٧ - ٥٥	كريلاع (٢)
٢٢٦	كريوفا السلوقي (٢)
١٣٧	كردستان الوسطى (٢)
١٥٣ ، ٨٩	الكردوس ، الكراديس (٢)
١٧٢	الكرشونى (٢)
٢٧٦ ، ٤٦	الكرك (١)
٢٢٣ ، ٢٣٧	كرلا (٢)
٢٧٤ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٤٤ ، ٢٣٨	كركميتش (١)
٢٧٦	٤١٤ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ١٤٢ ، ٢٨ ، ٢٦
١٤٤	٤١٦٨ ، مرکز مملكة صغيرة ؟
١٦٢	١٥٩ ، ٢١٩ ، ١٧٥ ، ١٧١ ، ١٧٠
٢٣٨	٢٢٨
٢٣٦	كركوك (١)
٨٧ ، ٦٣ ، ٦.	كرمان (٢)
٣٢٤	الكرمة - شجر (١)
٣١ ، ٢٠ ، ١٦ ، ١٣	الكرمل (١)
٣٥٨	كليمنت (الاسكتلندي) (١)

صفحة	صفحة
٢٣٤	كليوبطرا - كليوباتره (١) ١٠٢ ، ٤٣٨ ، ٣١١ ، ١١٥ (٢)
١٦٦	كلية فرنسا (٢)
٢٣٤	الكنائس الاتحادية (٢)
الكتاعي ، الكتاعية (١) اللغة ١٧	كندا (٢)
٢٢٥ ، ٢٢١	كندة (٢)
٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٨٧ ، ٨٣ ، ٦٧ ، ٦٦	الكنيسة اليهودي (١)
٢٢٢ ، ١٢٢ ، ٨٧ ، ٨٣ ، ٦٧ ، ٦٦	الكنيسة الارثوذكشية (٢)
١٢٣	الكنيسة الأرمنية (٢)
١٩١ ، ١٧٧ ، ١٧٧ ، ٩٩	الكنيسة الانجلية (٢)
٩٩ ، ٩٩ ، ٩٠ ؛ المجتمع	كنيسة البلمند (٢)
٩٤ ، ٩٩ ، ٩٠ ، ٩٠ ، ٩٠ ، ٩٠	كنيسة الروم (٢)
المدن ١ ، ١٣٦ ، ١٣٦ ، ٨١ ، ١٧٦	الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (٢)
١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٣٦ ، ٨١ ، ١٧٦	٢٦٧
١٢٤ ؛ البيانات ١٢٥	٢٢٢
١٢٤ ؛ البيانات ١٢٥	٣٢٠
١٢٩ ؛ الحصن ١٥٨	٢٥٢
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٦٥
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٤٠٥
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	١٤٣
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	١٣٩
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٣٥٢ ، ١١٧
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٢٥٣
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	١١٧
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٢٦٠
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	الكنيسة السريانية (٢) ١٣٥
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٥
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٣٠٤ ح
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٢٢٢
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	١٣٦
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٤٠٦
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	١٣٩
١٢٩ ؛ المهاكل ١٢٩	٤٠٠ ، ٣٨٨
١٢٩ ، ٢٢٥	٤٠٥
٦٥	٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ١٢٩ ، ٣
٢٤٥	الكنيسة الكاثوليكية (١)
١٥	٣٩٨
كهف الشقية (١)	١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٥
كوتشك احمد باشا (٢) ٣٣٢ ، ٣٣٣	الكنيسة اللاتينية (٢)
كوتشك كانيارجي - معاهدة (٢)	١١٧ ، ١١٦
٣٤٧	كنيسة مريم العذراء (٢)
٣٤٨ ، ٣٤٧	الكنيسة المسيحية (١)
٣٤٨ ، ٢٧٦	٤٠٨
كورس (١)	كنيسة الهد (١)
١٠٥	٤٠٥
كورسيرا (١)	كنيسة الناصرة (٢)
١١٣	١٣٨ ، ١٣٥
١١٣	الكنيسة النسطورية (٢)
٣٠١ ، ١١٣	٤١٢
٢٤٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩	الكنيسة اليعقوبية (١)
٢٤٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩	١٣٨
٢٤٥	الكنيسة اليونانية (٢)
٢٥٦ ، ٢٤٥	١١٧ ، ١١٦
٢٥٦ ، ٢٤٥	٣٥٠
كورنوا (١)	كئانا (١)
١١١	كعنان (ارض) (١) الاسرى
٤٢٤	٨٥ ، ٧٦ ، ٢٩
كورنيليوس (١)	
١٨٣	
كوريا (١)	
٢٨٧ ، ٢٨٦	
كوس (١)	
كوسيرا (قوصره) بتلاريا الحديثة	
١٠٥	
كوشار (١)	
٢٣٤	
الكوشيون (١) الاسرى	

صفحة	صفحة
اللام -	٤٢٧
اللات (١) ٤٤٦	٣٢٣ - ٣١، ٢٩ (٢)
اللاتين (١) ٣٩٣	٣٧ - ٣٥، خروج الحسين
اللاتين (٢) ٢٣٥، ٢٢٩	٦٦، ٦٢ - ٦٠، ٤٥٥ ٨٨، ٨٧، ٨٤، ١١٣، ١٠٦، ١٥٤، ١٥١، ١١٥ يجلونها عاصمتهم ١٦٢، ١٥٧، ١٨٩
اللاتين (١) الكتاب ٢٦٥، ٢٢٤	كولونيا (١) ٣٢٩
اللاتيني (١) الادب ٢٥٢، ٣١٨	كولونيا جوليا اوغستا فليكس (١) ٣٤٢
اللاتينية (١) العروف ١١٦؛ اللغة ٢٦٠، ٢٥٧، ٢٤٤، ٢٣٩	كولونيا جوليا اغسطا هليوبوليس (١) ٣٤٣
اللاتينية (٢) الثقافة ٣١٨، ٣١٣	كوماجين (١) ٣٥٥
الدول (٢) ٢٣٠، ٢٢٩	كومودس (١) ٣٥٧، ٣٥٥
الدول؛ الدول ٢٣٢، ٢٢٧	كوميدية ذاتي الاهية - كتاب ٢٩٢، ٢١٦ (٢)
الحملات ٢٢٨؛ ٢٤٤، ٢٢٤	كونراد مونترات (٢)
اللغة ١٧٨، ١٧٩، ١٧٩؛ ٢٥٧، ٢٥٠	الكويت - خليج (١)
الولايات ٢٢٥؛ الكنيسة ٢٨٤	كونتيليوس فاروس (١) ٣١٦
اللاجين (٢) ٢٧١	كي اخسنار (الميدي) (١) ٢٣٨
لاخيسن (١) ٢٤٩؛ ٢٢٦، ٢٢٥؛ ٢١٧	كيتاني (٢) ١٦
اللاذقية (١) ٤٥٢؛ ٣٣، تبعها ٢٩٨، ٢٩٤، ٢٩٢، ٢٦٢	كيتيليوس (١) ٢٧٩
الزلال ينزل بها اضرارا ٤٢٠، ٣٣٢؛ ٢٢٨، ٢٢٠، ٢١٧	كرينيوس (١) ٣٢٣، ٣١٦
لارسا (١) ٣١٨، ٢٤٥، ٢٣٨	كرينيوس (٢) ١٢٢
لاريسا (١) ٧٢	كيليكيا (كيليكية) (١) ٢٣٤، ٢٢
لاريسا (١) ٢٧٧	٤٢٦، ١٤٩، ١١٢، ١١٠
لاريسة (شيزر) (٤) ٣٨٩	٤٢٩، ٢٧١، ٢٥٣؛ ٢٤٧
لاغاش (١) ١٤٦	٤١١، ٣٤٤، ٣٠٩، ٣٠٨
لاكتش (١) ٩	٤١٩٢، ٧٠، ٤٥، ٤٥ (٢)
لاكيش (١) ١٥٩، ١٢٠، ٢٧	٤٢٢، ٢٢٥، ٢٢١، ١٩٤
لامنس (٢) ١٦	٤٤٣؛ ٢٣٩
لاؤديسا (١) ٢٧٦، ٢٦٢، ٢٦١	كيليكى - الكيليكية (١) الابواب ٦٥، ٣٠٦
لاؤديسا (١) ٣١٧، ٢٧٧	كمود (١) ٣٤٨

صفحة	صفحة
٣٥٥ ، ٣٤٠ ، ٣٣٤ ، ٣٢٦ ، ٣١٠	٤١١ ، ٣٨٩ ، ٣٢٩
٢٤١ ، ٤٥ (١)	لاؤديسة ببريتوس (١)
اللجا - منطقة (١)	لاوي (١)
١٤٠ ح	لبدة (البيس) (١)
٤١٧	لبنان (١) جزء من سوريا ٢٧٤
اللخميون (١)	٩ ، ٣٠ - ٣٣ ، أعلى قيمة فيه
٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٧	٢٧٩
لخيش (١)	١٩٥
١٩٤	٣٧٧
اللد (١)	لبنان (١) جزء من سوريا ٢٧٤
١٩٧	٩
(٢)	٣٤
٢٢٧ ، ٢٢	٤١ - ٤١ ، حوران
لزوميات المعربي (٢)	تمونه بالقمح ٤٥ ؛ جباله ٤٨
٢١٦	٤٩ ، ٦٢ ، ٥٥ - ٥٣ ، ٤٩
لعش (١)	٧٠ ، ١٠٤ ، ٩٤ ، ٨٩ ، ٨٥ ، ٧٥
١٨٩ ، ١٨٤	١٢٦
اللكلام (جبل) (١)	١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٥
٢٣ ، ٢٢	١٧٧ ، ١٧٥ ، ١٦٥ ، ١٦٣
(٢)	١٨٦ ، ١٨٤ ، الحديد فيه ٤٠
أبو اللمع - آل (٢)	٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢٢٦ ، ٢٠٦
٣٣٥ ، ٣٢٦	٢٣٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٢٩٦
لندن (٢)	٢٤٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤
٨٠	٣٤٥ ، ٣٤٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤
اللوتس (عرائس النيل) (١)	٤٤٥ ، ٣٨٩ ، ٣٨٤ ، ٣٤٧
١٤٧	٤٥٨ ، ٥٣ ، ٤٢
الوثر نجباون (٢)	١١٥ ، ١٠٠ ، ٩٧ - ٩٥ ، ٨١
٢٢٥	١١٦ ح
لودوف فون سوخم (٢)	١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦
٢٧٨	١٤٢ ، ١٦٧ ، ١٦٤ ، ١٤٣
لورنس (٢)	١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢٠٢
٢٤٩	٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢١٩
اللورين (٢)	٢٤٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢١٩
اللوسيوني - الشعار (٢)	٢٧٦ ، ٢٦٠ - ٢٥٨ ، ٢٥٥
٢٤٩	٢٨٠ ، ٢٧٩ - ٢٧٨
لوشيوس فيروس (١)	٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٧ ، ٣٠٩
اللوفر - متحف (١)	٣٥٣ - ٣٥١ ، ٣٤٧ - ٣٢٢
٢١٢ ، ٢١١	٣٥٦ : ٣٥٥
٢٦٥	لبنان الشرقي (١)
لوكال (فاتح سومري) (١)	٤٤٣ ، ٣٦ ، ٣٥
٧٠	٦٢ ، ٥٢ ، ٥٠
لوكيانس (١)	٣١٨ ، ١٣٨ ، ٧٥ ، ٦٥
٣٥٥ ، ٣٥٧	(٢)
لوكيانوس السميسطي (١)	لبنان الغربي (١)
١٢٥	٥٢ ، ٤٣
لونجينوس - ديونيسيوس كاثيسيوس	اللبناني - الريف (١)
(١)	اللبنيون (١) اختراعهم للابجدية ٣
٤٤٤ ، ٤٤١ ، ٤٣٨ ، ٤٣٨ ، ٣٥٨	٥ ، القدماء ١٠٣ ، احفاد الفينيقيين
لوباتان (١)	١٠٨ ، ١٨١
١٢٤	(٢)
التوبرزة (٢)	٢٧٨ ، ٢٥٨ ، الامراء
٣٢٣	
لويس التاسع (٢)	
٢٦٨ ، ٢٦٧	
لويس الخامس عشر (٢)	
٣١٨	
لوباتوس (١)	
١٢٦ ح	
لويكي كومة (١)	
٤٣٦	
ليثة - امراة يعقوب (١)	
١٧٧	
ليباتوس (١)	
٣٩٤	
لبيانيوس (١)	
٣٩٥ - ٣٩٣ ، ٣٣٥	

صفحة	صفحة
٣٥٢ وانظر بروبوس	ليبيا (١) ١١٦ ، ١١٠ ، ١٠٨ (٢)
ماركيون (١)	١١٩
ماري (عاصمة آمون) (١) - ٧٠	٣٥٦ ليلتون (١)
٧٥ ، ٧٣ ، الواحها ٨٣ ، ١٦٣	٢٢٩ ليديا - مملكة قارون (١)
١٧٣	٥٥ الليديون (١)
ماريتوس (١)	١١٤ الليريا (البيان) (١)
مارسجويه (٢)	١١٤ الليرس (١)
١١٣ ماكس فون اوينهايم (١)	٢٢٦ الليريه (١)
٢٢ ح ماكستيوس (١)	٢٦٠ ليسماخوس (١)
٢٨٧ مالطة (١)	٤١ الليطاني - نهر (١)
١٢٢ ، ١١٦ ، ١١٤	٣٢٩ ليغهورن (٢)
٢٤٢ ، ٣٢٩	٢٨٣ ليفي المؤرخ (١)
١٨٢ ، ١٦١	١٠٤ ليكيا (١) -
٤٢٤	٢٥ (٢)
مالكو (مالكوس) الاول (١)	١٤٤ ، ١١٧ ، ٥٠ ليو اليسوري (٢)
مالكو الثاني (١)	٣٧٨ ليون (١)
٤٢٣ ، ٤١٣	٨١ ، ٧٦ ليونة (٢)
١٥٦ ، ٧٤	٤٠١ ، ٤٠٠ ليونيتوس (١)
المأمون (٢)	- اليم -
١١٥ ، ٩٩ ، ترميمه	ما - الة (١)
لقبة الصخرة ١٢٠ ، ١٥٩	ما بين النهرين (١)
١٦٠ ح. ، ١٦٤ ح. ، ١٦٥	١٤٨ ، ٧١ ، ٢٢ ، ٣٩٥ ، ٣٨٢ ، ١٧٦ ، ١٤٩
٢٨٤ ، ١٨٥	٤٤٧ ، ٤٣١ ، ٤٢٧ ، ٤١٣
٢٠٥	٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٨٧ ، ١٥ (٢)
٤١٠	١٧٥ مات آريمي (١)
٢٩٠	١٥٩ ما تيتو (١)
٠٦٦ ، ٦٥	١٧٢ ، ١٦٣ ماتيوانا (١)
٦٩ ، ٦٨	١١٣ ماجو (١)
٤١٠	٢٩٨ ، ٢٥٤ ماراثوس (١)
١٥٧	٨٣ ، ٧١ ، ٧٠ مارتو (بلاد الغرب) (١)
١١٣	٢٠٧ ، ١٩٣ ، ١٣٩ ماردين (٢)
١٦٦	٣١١ مارك انطونيو (١)
٣٨	١٤٤ ماركوس اوريليوس (١)
١٢٠	٣٥١ ، ٣٣٧ ، ٣٢٢ ماركوس اوريليوس (٢)
١٧٠	٣٧٨ ، ٣٧٢ ، ٣٥٧ ماركوس فاليريوس بروبوس (١)
١٤٤ ح	٣٥٥
١٢٥	
١٧٠	
١٧١	
١٧١	
١٣٣	
١٤٤ ح	

صفحة	صفحة
محمد الاول (العثماني) (٢) ٣٠٤ ح محمد الثالث (٢) ٣٠٥ ح ، ٢٩٧ محمد الثاني (٢) ٣٠٤ ح ٣٠٥ ، ٣٠٦ ح. محمد بن جابر بن سنان البشري (٢) ١٧٩	مترادس (ملك البوسنة) (١) ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ٣٤٤ منصرية جبل لبنان (٢) ٣٢٦ (١) ١٩٢ ، ١٨٢ (٢) ١٩٩ ، ١٩٧ ٤٥ ، ١٨ التوسيط - البحر (٢) ٤٨ ، ٨٧ ، ١٠٣ ، ١٥٦ ٣٥٦ ، ٣١٧ ، ٢٥٣ وانظر البحر ٢٧٦ المتوسط ١٦٠ ، ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ١٨٢ التوكيل سليل المستنصر (٢) ٢٩٨ مترادس (١) ٣١١ الجدع بن أبي الحكم - أبو (٢) ٢٨٢ مجدو (١) ٨٧ ، ٦٤ ، ٢٩ ، ٢٧ ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٢ ، ٨٩ ، ١٤٠ ، ١٢٩ ١٤٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٣ ، ٢٩٨ ١٤٢ مجمع خلقدهون (٢) ٢٨٥ ، ٢١٧ المجمع العلمي العربي في الشام (٢) ٣٧٢ مجمع نقية (١) ١١٠ مجنون ليلي (٢) ٩٩ الجوس (٢) ٢٥٠ الجوسى (٢) ٣٢٩ المجداريس - شجرة (١) ٣٥٦ المحاورات - كتاب (١) ٣٢١ الحبي - محمد (٢) ١٩٨ الحمل (١) ٤٤٨ ، ٤٣٠ محمد النبي (١) ٤٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ (٢) قيادته الحملة على تبوك ٢٩٥ ، ١٢٩ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ٢٩ ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ح ١٥١ ، ١٥١ ح ٢٣٧ ، ٢٣٧ وانظر «النبي» و «الرسول» ٢١٧ محمد بن اسماعيل الترمذى (٢)
٢٠٩ محمد الحبيب (٢) ٦٠ محمد بن الحنفية (٢) ٣٠٦ محمد الرابع (٢) ٣٥٠ محمد رشاد الخامس ٣٠٦ ح ، ٣٠٦ ح ٢٠٩ محمد بن طفتين (٢) ١٩٠ محمد بن طفج (٢) ١٨٩ محمد بن طولون (٢). ١٥٥ محمد علي (٢) ٣٤١ محمد علي بن علي بن عبد الله بن العباس (٢) ١٥٨ محمد الطلوي (النفس الزكية) (٢) ١٦١ ، ١٦٢ ح محمد بن القاسم الثقي (٢) ٦٩ محمد بن مروان (٢) ٦٤ ح ٦٤ ح ٢١٣ محمد بن المستنصر (الفاطمي) (٢) ٢٧١ محمد بن المظفر الحاجي (٢) ٢٢٠ محمد بن نصير الكوفي (٢) ٣٠٦ محمد وحيد الدين (٢) ٢١٨ ، ٣٠٦ ح محمود الاول (٢) ٣٠٦ ح ٣٠٦ ح ٣١٤ ، ٣٠٦ ح محمود الثاني (٢) ٣٤٤ ، ٣١٥ ح محمود - السلطان (٢) ٢٠٩ محمد بن طفتين (٢) ١١١ ، ٤٨ ح المحيط الاطلسي (١) ١١٧ ، ٢٠٠ ح (٢) ٢١٢ (٢) وانظر الاطلسي ١٠٨ المحيط الجنوبي (١) ٢٧١ المحيط الهندي (١) ٢٤٢ ، ٢٣٠ (٢) ٢٩١ محبي الدين بن عربي (٢) مختار الحكم ومحاسن الكلم - كتاب	٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ٣٤٤ منصرية جبل لبنان (٢) ٣٢٦ (١) ١٩٢ ، ١٨٢ (٢) ١٩٩ ، ١٩٧ ٤٥ ، ١٨ التوسيط - البحر (٢) ٤٨ ، ٨٧ ، ١٠٣ ، ١٥٦ ٣٥٦ ، ٣١٧ ، ٢٥٣ وانظر البحر ٢٧٦ المتوسط ١٦٠ ، ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ١٨٢ التوكيل سليل المستنصر (٢) ٢٩٨ مترادس (١) ٣١١ الجدع بن أبي الحكم - أبو (٢) ٢٨٢ مجدو (١) ٨٧ ، ٦٤ ، ٢٩ ، ٢٧ ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٢ ، ٨٩ ، ١٤٠ ، ١٢٩ ١٤٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٣ ، ٢٩٨ ١٤٢ مجمع خلقدهون (٢) ٢٨٥ ، ٢١٧ المجمع العلمي العربي في الشام (٢) ٣٧٢ مجمع نقية (١) ١١٠ مجنون ليلي (٢) ٩٩ الجوس (٢) ٢٥٠ الجوسى (٢) ٣٢٩ المجداريس - شجرة (١) ٣٥٦ المحاورات - كتاب (١) ٣٢١ الحبي - محمد (٢) ١٩٨ الحمل (١) ٤٤٨ ، ٤٣٠ محمد النبي (١) ٤٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ (٢) قيادته الحملة على تبوك ٢٩٥ ، ١٢٩ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ٢٩ ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ح ١٥١ ، ١٥١ ح ٢٣٧ ، ٢٣٧ وانظر «النبي» و «الرسول» ٢١٧ محمد بن اسماعيل الترمذى (٢)

فهرس

- ٤٢١ -

صفحة	صفحة
٣٥٠ ، ٣٩ ، ٣٢ ٢٢ ١١٨ ٩٥ ٢٢٢ ، ٢١٤ المرادسية (٢) الدولة ٢٠٥ ؛ السلالة ٢١٤ ١٤٠ ، ٥٤ — ٥٢ المردة (٢) ٤٤٥ ، ٢٢٢ مردودخ (١) ٢٨٩ ، ١١٢ مرسيليا (١) ٢٢ مرسين (١) ١٧٣ ، ١٦٦ مرشلشن الاول (١) ٠١٨٥ مرعش (١) ٥٠ ، ٤٥ المرفا المصري (١) ٢٢١ المرقب (٢) مرمرة — بحر (٢) مرفتاح بن رعميسين (١) ١٦٦ ، ١٩٣ مرو (٢) ١٥٣ ، ١٣٦ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٣٨ مروان بن الحكم (٢) ٢٩ ح ، ٣٠ ح ، ٤٩ ح ، ٥٨ ، ٥٤ ح ، ٩٦ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١٤٨ ٢ ، ٨٨ ح ، ٦٤ ح ، ١٠٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، توليه الخلافة ١٥١ ؛ ١٥٤ ١٤٨ ، ٥٤ الروانيون (٢) ٢٢٢ مربي بعل (١) ١٥٦ الرببة (٢) ٢٠٢ مربيسة (١) ميريم العذراء (١) (٢) ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٢٧ وانظر العذراء المزامير — سفر (١) ١٢٣ ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٠٥ ، ١٢٤ ٣٩٣ مسائل الامام احمد بن حنبل — كتاب ٢٧ <p>٢٨٤ ٤١٤ ، ٢١٠ ، ٦٥ ٤٢٨ ، ٤٢٢ مدائن صالح (١) وانظر الحجر مدائن كسرى (٢) ١٥٩ ، ١٣٦ ١٦١ مدحت باشا (٢) ٣٥٠ ، ٣١٦ ، ٣١٥ ٢٨٥ مدرسة العادلية (٢) مدرسة الحقوق الرومانية (١) ٣٦٠ ٣٩٩ المدرسة التورية (٢) مديا (٢) مدين (١) المديانيون (١) المدينة (١) المدينة (٢) ٣٠ ، ٢٤ ، ٤ ، ١٨ ، ٤ ٣٣ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٣٥ ، اعتزال الحسين فيها ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٤ ١٢١ ، ١٣١ ، ٦٥ ، السنفون الزكية يصلب فيها ، ١٦١ ، ٤ ٣٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٦١ ، ١٩١ المدينيون (١) مراثوس (١) مراثون — معركة (١) مراد الاول (٢) ٣٠٤ ح مراد الثالث (٢) ٣٠٥ ح مراد الثاني (٢) ٣٠٤ ح مراد الخامس (٢) ٣٠٦ ح ، ٣٠٦ مراد الرابع (٢) ٣٠٥ ح ، ٣٠٦ ح ٣٢٢ مراسلات تل العمارنة (١) ١٤٤ مراكش (١) ٤٤٤ ٣٢١ ، ٣٠٥ (٢) المرتفعات (١) ٢١٨ ، وانظر الاماكن المالية مراج دابق (٢) ٣١٠ ، ٣٠٦ ، ٢٩٨ مراج رامط (٢) ٥٨ ، ٩ مراج الصفر (٢) ٢٧٢ ، ١.</p>	

صفحة	صفحة
٢٥٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤ ، ٢٢٢ ، ٣٥١ ، ٢١٦ ، ٢١٢ ، ٢٧٠ ، ٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ مولدہ ، ٣٨٨ ، ٣٨٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٠ ، ٣٨٨ ، ٣٨٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٠ ، ٤١٢ ، ٤١٠ ، ٤٠٧ ، ٣٩٤ ، ٤٤٤ (٢) ، ١٣٣ ، ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ١٤١ ، ١٣٧ ، ١٣٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٢١٨ السيحية (١) سوريۃ مهدھا ٣ ؟ الامم ، ٣٦٣ ، ٣٠٠ ، ٢٨٣ ؟ ٢٣٦ ، ٣٧٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٩٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٣ ، ٣٧٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٤ ، ٣٩٩ ، ٣٩٥ ، ٤٤٤ ، ٤١١ ؟ ٤٠٨ ، ٤٤٨ (٢) ، ٢٦٩ ، ٢٦٣ ، ٢٢٤ ، ٣ السيحیون (١) ، ١٣٠ ، ١٢٦ ، ٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٥٩ ، ١٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٧٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٦ ٤١٠ ، ٤٠٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٣ ، ٢١٨ ، ٢٠٥ ، ١٠٥٣ (٢) ٣١٨ مسينا (٢) ١٢٤ المشتى — قصر (٢) ٧٤ المشرفة (١) ٤ المشرفة — السیوف (٢) ٢٩١ مشکاة الانوار — کتاب (٢) ٩٣ الشکینو — طبقة (١) ٢٣٦ المشنة (١) ٣٤ مشهد علی (٢) ١٢ الشیة الواحدة (٢) ٠ ٣٢ — ٢٩ ، ٢٥ ، ١٧ ، ٧ ، ٢ ، ٦٣ ، ٦١ ، ٥٥ ، ٥٠ ، ٣٦ ، ٧٥ ؟ ٧٤ ؟ ٧٤ ، ٩٢ ، ٨٥ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٦ ، ١٠٢ ؟ ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٧ ، ١١١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٧ ، ٢١٤ ، ١٨٤	مسالك الایصار في معالك الامصار كتاب (٢) المسالك والمالک — کتاب (١) ح ٦٣ المستضيء (العباسي) (٢) المستعصم (٢) المستعلي (الفاطمي) (٢) ح ٢١٣ المستنصر (الفاطمي) ٢١٣ ح ٢١٥ المسجد الایض (٢) المسجد الاقصى (٢) المسجد الاعظم (٢) المسجد الاموي (٢) ١٣١ ، ١٢٨ ، ٧٧ ٢٦١ ، ٢٤٠ مسجد خالدبن الولید (٢) ١٦٩ ، ١٣٤ مسجد حلب (٢) مسجد الصخرة (٢) مسجد بن طولون (٢) مسجد الكبير بعكا (٢) مسجد المدينة (٢) مسجد مكة (٢) مسجد التوری (٢) السعودي (٢) مسکین الدارمي (٢) مسلم الخراساني — ابو (٢) ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٠ مسلم بن عقبة (٢) مسلمة بن عبد الملك (٢) ٥٠ — ٥٢ ٧. السلمیون (١) ١٤٤ ، ١٣٠ ، ٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٨٠ ، ٨٠) عدم بنائهم المساجد في اول عهدهم ١٢٨ ؟ ١٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٢٤ ، ١٦٩ ح ١٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٣٥ ، ٢٩٧ ، ٢٨٠ ، ٢٦٣ — ٢٥٨ ٣٤٩ ، ٣١٧ ، ٣١٢ ، ٣٠٥ السماریة — الكتابة (١) ١٤٩ ، ١٢١ ، ١٩٢ ، ١٧٦ ، ١٧٠ السيح (١) ١٨٢ ، ٤٣ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٢٣٠ ، ٢٢٧ ، ٢١٤ ، ١٨٤

صفحة

١٤٦ ، ١٦٣ ، ١٦٣ ؛ الجيوش ١٤٢ ،
٢١٨ ؛ مفتبة ١٤٥ ؛ الحضارة ١٤٦
؛ اللغة ١٤٨ ، ١٤٨ ، ١٦١ ،
الوثائق ١٦٣ ؛ المدونات ١٧٢ ،
الدولة ١٩٢ ؛ الأدب ٢٢١ ،
الجيش ٢٧٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
المصريون (١) ٦٤ ، ٧٧ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
١٣٧ ، ١٣٥ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
١٤٩ ، ١٤٧ ، ١٤٢ ، ١٣٩ ،
١٧٢ ، ١٦٧ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ،
٢٤٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ،
٢٦٧ ، ٢١٧ ، ٢٠٣ (٢)،
٢٤١ ، ٢٧٨
٢٠٥ ح مصطفى الاول (٢)
٢٢٠ مصطفى باشا (٢)
٢٠٦ مصطفى الثالث (٢)
٢٠٦ مصطفى الثاني (٢)
٢٠٦ مصطفى الرابع (٢)
٢٥١ ، ٣٠٤ مصطفى كمال (٢)
٢١٤ مصطفى كiroلو (٢)
٥٨ مصعب بن الزبیر (٢)
٢٢٧ المصافة (١)
٢٤٦ ، ٢٤٥ مصياف (٢)
٨. المصريون (٢)
٢٥٢ المطبعة الاميركانية (٢)
٣٥٢ مطبعة الجزرويت (٢)
٢٧٣ المظفر احمد (٢)
٢٦٥ المظفر الاول تقى الدين (٢)
٢٦٥ المظفر الثاني تقى الدين (٢)
٢٦٥ المظفر الثالث تقى الدين (٢)
٢٧١ المظفر حاجي (٢)
٣٤٦ مظفر - حاكم لبنان (٢)
٢٦٥ المظفر علي (٢)
٦٦٥ معان (٢)
٢٤٦ معاوية (١)
معاوية بن ابي سفيان (٢) ٦ ، ٦ ،
١٢ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٠ ،
بشار عثمان ٣١ ؛ ٣٣ ، ٣٥ ،
٤٠ ، حزمه وعلاقاته مع الروم
٤٢ - ٤٦ ؛ ٤٩ ، ٤٨ ؛ ٥٣ ،

صفحة

- ١٤٣ ، ١٣٩ ، ١٣٦ ، ١٢٥
١٤٩ ، تفوقها الحضاري ١٤٥
١٥٧ ، ١٥٥ ، ١٥٣ الحسان
يدخل اليها ١٥٩ ؛ ١٥٨ ،
الهكسوس يدخلون اليها ١٦٠ ؛
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ،
١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٢ ،
منها ١٩٣ ، ١٩٥ ؛ ١٩٣
- ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٣ ، ٢٠٦
، ٢٤٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ : ٢٢٠.
٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥
؛ ٢٧٣ ، ٢٧١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦
؛ ٢٩٧ ، ٢٩١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥
؛ ٣٠٣ ، موطن البابيلون ٣٠٥
؛ ٣١١ ، ٣٠٧ مصدر الكلن
٣٢٩ ، ٣٢٩ ، مورد البردي
٣٥٢ ، ٣٤٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٠
، ٤٢٠ ، ٤١٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦
٤٣٩ ، ٤٣٨
٢٨ ، ٢٢ ، ٢٠ ، ٦ (٢)
٧١ ، ٦٥ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٠
، ١٣٥ ، ١٦٩٩ ، ٩٠ ، ٨٧
، ١٤٣ ، ١٣٩ ، ١٣٧
، ١٩٠ ، ١٨٧ - ١٨٥ ، ١٨١
، ٢١٤ ، ٢١١ ، ١٩٨ ، ١٩٢
، ٢٣٥ ، ٢٣١ ، ٢٢٢ ، ٢١٧
، ٢٤٥ - ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٣٦
، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٥٥
؛ ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٦٩ - ٢٦٧
، ٣٠٥ ، ٢٩٩ - ٢٩٥ ، ٢٨٦
، ٣٢٧ ، ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦
، ٣٢٨ - ٣٢٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩
، ٣٥٤ - ٣٥٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤١
مصر (العليا) (١) ٤٢٥ ، ١٨٤
١٥٤ (٢)
مصر القديمة (١) ١٤٠ ، ١٣١
١٦٠ مصر الوسيطى (١)
المصري - المصرية (١) الخزف ٩٤
الامبراطورية ١٣٨ - ١٤٠ :

صفحة	صفحة
١٢	مغاربة الاميرة (١)
١٠	مغاربة الزطية (١)
١٠	مغاربة السخول (١)
١٣ : ١٠	مغاربة الطابون (١)
١٦ ، ١٣ ح	مغاربة الوادي (١)
١٨٤	الغرب (٢) ٢٨ ح ، ١٢٨
٢٦٦ : ١٠٢	معنزيما (١)
٣٦٤ ، ٦٤	الغول (١)
٢٦٨ ، ٢٤٣ ، ١٨٥ ، ١٦٠ ، ٢	٢٩٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٢ ، ٢٦٩
١٣٧	المغولية - اللغة (٢)
٥٩٠	المغيرة بن شعبة (٢) ٣٧ : ٣٦
٠	مقامات العريري (١) ٢٨٦ ح
٢١٧	المقدسي - الجغرافي (١)
١٧٥	٦٢
٢٦	٢٠٢ ، ٢٠١
٣٧٥	مقدمة بن خلدون - كتاب (٢)
٢٩٥ ، ٢٧٦	٢٩٥ ، ٢٧٦
٣٢١	المقري (٢)
٥	مقنا (٢)
٢١٧	المقنع (١)
١٧٥	المقولات - كتاب (٢)
٢٦	ماكاليستر (١)
٣٧٥	الماكيبي - الماكية (١) ٢٦٨ ؛ ٢٦٨
٢٨٢	؛ الثورة ٣٠٢ ، ٢٦٧
٤١٩	الماكييون (١) ٢٦٨ ، ٢٦٩
٢٦١	٤١٩ ، ٣٥٣ ، ٣١٠ ، ٢٩٢
٣٥٥	مكدونيا (١) ٢٥٩ ، ٢٥٣ ، ٩٢
٢٥٩	٢٦١ - ٣٥٥ ، ٢٩٩ ، ٢٨٨ ، ٢٧٩
٢٧٨	المكدوني - المكدونية (١) الامبراطورية
٢٤٠	٢٦٤ ؛ الجيش ٢٦٤
٣٨١	٢٧٨ ؛ المستعمرات ٢٩٤
٣٥٧	٣١٦ ؛ المنصر ٣١٧
٦٩	المكدونيون (١) ٢٤٠ ، ٧٥ ، ٦٤
٣٨١ ، ٣٨٠	- ٢٨٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٥٣
٣٥٧	٣١٨ ، ٢٩١
	مکران (٢)
	مکرینوس (١)
	مکسیموس (١)
	٢٨٤ ، ٧٠ ، ٦٥ ، ٥٨ ، ٥٥
	١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٣ ، ٩٠ ، ٨٨
	١٠٥ ، ١١٨
	١١١
	١٦٤ ، ١٥٧
٤٩	معاوية الثاني (٢)
١٤٩	معاوية بن هشام (٢)
١٢٣	المعبد (١)
١٢١	(٢)
٣٣٦	معبد ابولون وديانا (١)
٣٤٨	معبد آثار غالش (١)
٣٤٧	معبد جويتر - حدد (١)
١٨٢	المعتز (٢)
	المعززة (٢) ١١٤ ، ١١٥
	، ١١٨ ، ١١٥ ، ١١٤
	٢١٨ ، ٢١٥
	المعتصم (٢) ١٦٠ ، ١٦٤ ح ، ١٦٦
	، ١٦٦ ، ١٦٤ ح ، ١٦٤
	١٨١
	المعتمد (٢)
٢٩٤	معجم الادباء - كتاب (٢)
٤٤	معجم البلدان - كتاب (١)
٢٩٤	(٢)
٢١٧ - ٢١٥ ، ١٩٠	معرة النعمان (٢) ٢١٧ - ٢١٥ ، ١٩٠
	٢٢٧
	العربي - ابو العلاء (٢) ٢١٤ ، ٢١٤
	، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢٢٧
	٢٣٢ ، ٢٢٧
٤٤٨	معركة حليمة (١)
١٦٧	معركة قادش (١)
١٥١	معركة قرقر (١)
١٤٣ ، ١٤٠	معركة مجدو (١)
٢٩١ ، ٢٩٠	معركة معنزيما (١)
	٣٠٨
٤٥٠	معركة اليرموك (١)
٢١١ ، ١٩٣	العنز - القاطمي (٢) ٢١١ ، ١٩٣
	٢١٣ ح
٢٦٤	المعلم شرف الدين (٢) ٢٦٤
٣٦٤	المعلم طوران شاه (٢) ٣٦٤
١٧١	مطولا (٢)
٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥	المعنيون (٢) ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥
	٣٣٤ ، ٣٣٣
٣٢٨	المغاربة (٢)

صفحة	صفحة
٢١١ ، ٣١٠ ، ٢٠٧ ، ٢٩٩ ٣٢٧ ، ٣١٣ الملك البحري (٢) ٢٦٨ ، ٢٦٧ ٢٨٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧١ الملك البرجية (٢) ٢٦٨ ٢٧٢ ، ٢٧٢ صر كيليكية (١) ٢٢٠ معفيس (١) ١٠٥ ، ١٣٧ ، ١٠٧ المملكة القديمة (١) ٥٦ الملوك الاشرف (٢) ٢٥١ مناة (١) ٤٢٩ منبع (١) ٢٧٠ ، ٢٨١ ، ١٨٦ ، ١٠٢ ١١٦ ، ١٨١ ، ٢٢ (٢) الندعية - اللغة (١) ١٨٤ النذر (١) ٤٤٩ النذر الثالث (١) ٤٤٧ منسى بن حرقينال (١) ٢١٨ منشا (بنتة) بن ابراهيم (٢) ٢١٢ النشوكية - اللغة (٢) ١٣٧ النصرور - الخلقة المباسي (٢) ١٢١ ١٥٨ ح ، ١٥٩ - ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٧٦ ، ١٦٤ النصرور (القاطمي) (٢) ٢١٣ ح. نصرور - الامير اللبناني (٢) ٣٢٥ نصرور بن حيدر الشهابي (٢) ٣٢٥ . ٣٤٠ ح. منصور بن سرجون (٢) ٢٣٤ ، ١٠. النصرور سيف الدين (٢) ٢٦٥ ح. النصرور عز الدين عبد العزيز (٢) ٢٧٣ ح. النصرور فخر الدين عثمان (٢) ٢٧٣ ح. النصرور ناصر الدين (٢) ٢٢٦ ، ٣٦٥ منغوليا (١) ٣٠٤ ، ٢٩٨ ٢٣٣ ، ٢٤٧ (٢) منهاتن (١) ٩٠ منقد - بنو (٢) ٢٢٥ منيوس انكلارو (١) ٣٥٦ النبيطة (٢) ٢٥٨ ، ١٦٧	٤٥١ ٥٧ ، ٣٥٦ ، ٢٨ ، ١٨ ، ١٧ (٢) ١٣١ ، ١٢٩ ، ١٢١ ، ٦٥ ، ٥٩ ٢٩٢ ، ٢٦١ ، ٢٠٩ ، ١٩١ ٣٤٢ ، ٣٢١ ملاطية (١) ١٨٦ ملاك بعل (١) ٤٤٥ ملاس (١) ٤١٤ مليار (٢) ١٣٦ ملتان (٢) ٧٠ ، ٦٩ ملتقى الابحر - كتاب (٢) ٣٠٧ ملحم بن حيدر الشهابي (٢) ٣٣٥ ٣٤٠ ح. ملحم بن يونسن (٢) ٣٣٣ ملخ (١) ١٣١ ، ١٢٧ ملرمونت (٢). ٢٢٢ ملقارات (الله) (١) ١٤٢ ، ١٢٨ ، ١٨٣ ، ١٤٣ ٢٥٤ ، وانظر مليكتس ملقة (١) ١١٣ الملك الافضل (٢) ٢٦٤ الملکانيون (٢) ١٤٣ ، ١٤٢ الملکانية (٢) ١٧١ ملکشاه بن ابی ارسلان (٢) ٢٠٤ ٢٢٦ ، ٢٠٧ الملوك الرعاة (١) ١٥٧ وانظر المكسوس الملوك الكهنة (١) ٣٤٠ مليتوس (١) ٤٢٥ مليفر بن يوكرابتس (١) ٢٨٧ ، ٢٨٦ مليكتس (ملقارات) (١) ١١٣ ممالک المدن (١) ٢٠٢ ، ٨٨ المالیک (١) ٦١ ، ٥ ١٢٨ ، ١٥٥ ، ١٢٨ (٢) ٢٤٣ ، ٢٣٤ ، ٢٠٣ ، ١٧٢ ٢٦٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥٢ - ٢٦٨ ، فضلهم وآثارهم ٢٦٦ ٢٧٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٢٦٩ ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، الهندسة العمارة ٢٧٧ وفن الزخرفة عندهم ٢٨٦ ٢٩٥ ، ٢٩٠ - ٢٩٧ ، ٢٨٨

صفحة	صفحة
١٣ المونوتيلية (٢)	١٥٦ ، ١٣٤ ، ٤٤ ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢٠٣
٤١٣ ، ٤١٢ المونوفيزية (١)	٤١٦ ، ٣١٩ ، ٢١٦
٤٤٩ ؛ ٤٤٨ الكنيسة	٢٠٢ موابين (١)
٢٧٣ ح تأييد شهاب الدين احمد (٢)	٣٢٧ الواد العذني (١)
٢٧٣ ح المؤيد ابو الفداء (٢)	١٦٥ ، ٦٤ ، ٣٨ الموارنة (١)
٢٦٥ المهدى (٢)	٤٠ (٢) ، ١٤٢ - ١٤٠ ، ٥٣
١٦٠ ، ١٢٠ ، ٩٩ المهدى (٢)	١٧. - ١٧٢ ، تكلمه
٢١٠ ، ١٩٠ ، ١٧٧ المهدى (القاطمي) (٢)	٢٣٥ ، ٢٢٨ ؛ ٢٢٦
٢١٣ المهدى (٢)	٢٣٥ ، ٢٢٠ ، ٣٠٩
٢١١ المهدية (٢)	٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٢
٢٨٣ مهذب الدين ابن الدخوار (٢)	٣٣٢ ؛ ٣٢١ ، فخر الدين يتخذ
٦٢ ، ٦١ المهلب بن أبي صفره (٢)	٣٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٣٥
٢٧٣ ميافارقين (١)	١٥٢ ، ٩٨ ، ٨٥ (٢)
١٣٩ المياه المقلوبة (١)	٢٧٧ الولت الاسود (٢)
٤٣٦ ، ١٦٢ ميتاني (١) بلاد ١٤٢ ؛ مملكة ١٦٢	١٨٢ ، ٤ مؤة (٢)
١٦٣ ؛ ١٦٩ ، ١٦٧ ، ١٦٥ ملك ١٦٣	٣٢٨ موتشي (٢)
١٧٤ ؛ ١٧٢ عرش	١٦٧ موتش (١)
١٤٧ ميتانيات (١)	١٨٠ ونهر (١) وانظر آرنون
١٧٠ ، ١٦٧ الميتانيون (١)	٣٦١ موجز يوستينيان - كتاب (١)
١٧٠ ، ١٥٧ الميثانيون (١)	٦٥ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٥٢
٣٦٩ ، ١٦٢ ميشرا - آلة (١)	٢٧٧ موسى (١) قيادته
٢٣٥ ميخا (١)	١٩٠ ، ٢٢٩ ، ٢٠٧ ، ١٩٣ ، ١٩٢
٣٢٣ ميخائيل الغزيري (٢)	٤٠٧ ، ٣٥٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٠
٣٢٩ ميخائيل مشاقفة (٢)	٤١٨
٢٥٧ ؛ ٢١٣ ، ١٦٢ ميديا (١)	٣٣ ، ٣٢ موسى الاشعري - أبو (٢)
٢٣٩ ، ٢١٩ الميديون (١)	٣٠٤ موسى العثماني (٢)
٢٩١ ميدي - فارس (١)	٧٤ ، ٧٣ ، ٧١ موسى بن نصیر (٢)
١٤٦ ميري استروت (١)	٧٨ - ٧٦
٢٨٧ الميروبس (١)	١٩ موسىرة - حضارة (١)
٧٩ ميروفنجي - بلاط (٢)	٣٢٣ الموسوعة الشرقية (٢)
٣٩٢ الميروفنجيون (١)	٢٢٩ موسوية - شريعة (١)
١٤٨ ميزوبوتانيا (١)	١٢١ الموسيقى العربية (٢)
٢١ اليزوليتي - حضارة (١)	١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٧ ، قبر ابى
٤٠ ، ٢٣ ميسون ابنة بحدل (٢)	٢٠٧ ، ١٩٣ ؛ ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٠٨
٢١١ ، ١٣٤ ميشا (ملك نواب) (١)	- ٢٣٤ ، ٣٣٥ ، ٢٨٦ ، ٢٣٦
٢١٢	
٣٢٩ الميعنة - شجرة (١)	١٢٥ الوقر (٢)
١٣١ ميكال سيد بيت شان (١)	٣٣٠ موندول (٢)

صفحة	صفحة
٣٩٦ ، ١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٦٩	الناصرة (١) (٢)
٢١٤	ناعصي خرسو (٢)
٣٩	نافع - ابن (٢)
٦٢	نافع بن الازرق (٢)
٢٨٦	ناكسوس (١)
١٩٧	نباته - ابن (٢)
٢٣٥	النبي - النبطية (١) ، اللغة
١٤٦	٤١٧ بـ الكتابة (٢) اللغة
٠ ١٤٤ ، ٦٥٤٥ ، ٢١٩	نيوخذ نصر (١) فتواحاته في سوريا (١٥٥)
٤٥١	تمميره مملكة يهوذا (٢) ٢٤٢ ، ٢٣٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ٢٥٨ ، ٢٥٤ ، ٢٤٤ النبي (محمد) (١)
١١ ، ١٠ ، ٧ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٨١ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ١٥١ ، ١٢٢ ، ١١٣ ، ١٠٧ ، ٢٦١ ، ٢٢٢ ، ١٦٨ ، ١٥٣ وانتظر محمد	(٢) ٢٧ ٤٦ ١٠٧ ٢٦١ ، ١١٠ النجف (٢) نجم الدين الغزى (٢) نجم الدين (الملك الصالح) (٢) النجمة القطبية (١) نجميما (١) ، ٢٢٨ ، ٢١٤ ، ٢٠٠ ٢٤٣ - ٢٤٥ نخاو - الفرعون (١) ١٠٨ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - كتاب (٢) ٢٩٥
٣٢٤	الخييل - شجر (١)
٣٢٠	نوفا - الاميراطور (١)
٣٢٠	نرويجي - اسطول (٢)
٣٩١	النساطرة (١)
١٧١	(٢)
	ميكاني - خرف (١) ١٢٥ ، ٩٤ سلاح ٩٦
	ميلتوس (١)
	مموريما (١)
	المينا البيضا (١)
	مينا ندر (اللاذقي) (١)
	ميسبوس (١)
	ميننة البيضا (١)
	مينورقة (١)
	مينوس (١)
	المينوسيون (١)
	- النون -
	نائلة بنت الفرافصة (٢)
	التابغة النبلياني (١)
	نابلس (١) ٢٧٨ ، ٢١٥ ، ١٥٩ ، ٣٨٩ ، ٣٧٢
	٣٠٧ ، ٣٦ : ٢٢٩ (٢) ٣٣٦ ، ٣٢٩ ، ٣١١
	نابلبي (٢)
	نابويولادر (١)
	نابولي (١) ٤٢٥ ، ٢٨٩ ، ٣٨٤ ٢٤٦ ، ٢١٧ ، ٦٥٥٥ نابوليون (١) ٣٤٠ ، ٣٣٨ ، ١٨٧ (٢)
	نابونيدس (١)
	نادر الخازن - أبو (٢)
	نارام (١) .
	نارام سين (١)
	الناردين - شجرة (١)
	الناصر (٢) ٢٧١ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ٢٨٦ ، ٢٧٦
	الناصر صلاح الدين (٢) ٢٦٤ ح ٤٠ ٢٦٥ ح ٠٠
	الناصر (العباسي) (٢)
	الناصر بن قلاوون (٢)
	الناصر - محمد (٢)
	الناصر - ناصر الدين فرج (٢) ٢٧٣ ح ٠ ٢٩٧ - ٢٩٥ ح

صفحة	صفحة
٣٢١	نعميم الحلبي (٢)
١٤٤	نفرتiti (١)
٢٨٣	التفيس - ابن (٢)
١٠٧ ، ٤٠	النقب (١)
١٩٥ ، ١٩٤	نقفور (٢)
١٢٣	نقماد (١)
٤٢٧	النمارة (١)
١٤١	نمرون - ابن (٢)
٣٤٧ ، ٣٤٢	التمسا (٢)
٢٠٦ ، ١٣٩	نهارين (١) : ١٤١ - ١٤٣
١٧٦ ، ١٦٢	١٧٦ ، ١٦٣
١٥٣	نهانوند (٢)
١٣٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩	نهر ابراهيم (١)
١٢	نهر الجوز (١)
٦٥ ، ٣٣ ، ٣٢	نهر العاصي - انظر العاصي
٦٤٤ ، ٣١ ، ١٢٩	النهر الكبير (١)
٢١٩ ، ١٥٦	نهر الكلب (١) : ١٥٣ - ١٥٦
٣٢٨	(٢)
	نهر النيل - انظر النيل
١٦٦	نهر الهايس (١)
١٤٩ ، ٢٣	النهرین - بلاد (١)
١٧٧	النوايس (كتاب) (٢)
٢٤٥	التوبة (١)
٢٣٦	(٢)
٢٥٢	النوبية (٢)
٦٦ ، ٥٤	نوح (١)
٢٨١ ، ٢٤١	نور الدين (٢)
٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤	٢٨٢
	٢٩٤
٢٧١	نور الدين ايشك (٢)
٢٠٨	نور الدين زنكي (٢)
٢٥٢	٢٤٦ ، ٢٣٦ - ٢٤
٢٦٥	نور الدين شاهنشاه (٢)
٢٥٥	نورمنديا (٢)
٢٢٦	النورمندية - الحملة (٢)
٢٢٥ ، ٢٢٤	النورمنديون (٢)
٢٢٧	٢٢٧ ح.
٢٩٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤	النوريون (٢)
٤١٢ ، ٣٩٥	نسطوريوس (١)
١٣٥	(٢)
٤١٢ ، ٤١١	السطورية (١)
١٣٨ ، ١٣٥	(٢) الكنيسة
١٢٣	تشيد الانشاد - سفر (١)
٩٨ ، ٨٠ ، ٥	النصارى (٢) ٣ ح ، ١٧٦ ، ١٧٠ - ١٦٤
،	١٧٦ ، ١٧٠ - ١٦٤
٢٢١ ، ٢١٤ ، ٢٠٣	ممارساتهم اعمالهم العادية في
١٢٢ ، ١١٦	ظل الاسلام ١٠٠
،	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٦
،	- ١٧٦ ، ١٧٠ - ١٦٤
١٧٨	١٧٨
٤	اضطهادهم زمن الحاكم
،	٢٢٢ - ٢٢٥
،	٢٤٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧
،	٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٠ ، ٢٤٧
،	٢٧٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٠
،	٢١٢ ، ٢٩١ ، ٢٨١ ، ٢٨٠
،	٢٣٦ ، ٢٣٢ - ٢٣٠ ، ٢٣٥
٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٤٥	٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٤٥
٢١٦	نصب مؤاب (١)
١٥٣ ، ٦٩ ، ٦٨	نصر بن سيار (٢)
٤٥٢	النصرانية (١)
١٩٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤	١١٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤
٠٣٦	نصرى فرنوك (٢)
٢٧٧	نصيبس (١)
٢٩٨ ، ٢٧٧ ، ١٠٧	نصيبين (١)
٤١٢ ، ٤٠٩ ، ٢٩٩	٤١٢ ، ٤٠٩ ، ٢٩٩
١٧٤ ، ١٦٠	(٢)
٢٢١ ، ٢١٩ ، ١٢٠	النصرية (١) ؛ يلجنون الى جبال
٦٤	النصرية ٣٣ ؛ جبالها ٣٥ ؛ جبالها ٦٤
٢٢١ ، ٢١٩ ، ١٢٠	(٢)
٢٥٩ ، ٢٤٥ ، ٢٢٦	٢٥٩ ، ٢٤٥ ، ٢٢٦
١٥	النطوفى ، النطوفية (١) الدور ١٥ ،
١٦ ، ١٥	١٦ ، ١٥ ؛ الحضارة ٥٥
١٧	النطوفيون (١)
٢٨٤	نظام الملك (٢)
٢٨٤	النظامية (٢)
١٨٦	نعمان السورى (١)
٤٤٩	نعمان بن المثثر (١)
٤٣٦	نعم - حاكم لبنان (٢)
٤٣٦ ح.	٤٣٦ ح.

صفحة	صفحة
١٩٢ هاجر - الجارية (١)	١٧٣ ؛ ١٧٢ ؛ ١٦٢ ، وثائق
٢٣٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٠ ، هادريان (١)	٣٢٣ نوفا تراجانا بصرى (١)
٣٣٧ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤١ ، هادريانا باليرى (١)	١٤٦ نوكرايس (١)
٤٣٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٢٢٠ هارون (١)	٣٧٤ نوميديا (١)
٤٣٥ ، ١٦٠ ، ٢٢٠ هارون بن خمارويه (٢)	٣٥٨ ، ٣٥٧ نومينيوس (١)
٩٩ ، ٥١ ، ٣٤ ، هارون الرشيد (٢)	٣٧٨ (١) ؛ ٢٧٨ (٢) شكيم (١)
١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٥٩ ، ١٦٨ هازور (١)	٣٤٩ نيابولس (نابليون) (١)
١٥٩ ، ٨٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ هاشم (٢)	١٠ نياندرتالى - الانسان (١)
الاسرة الهاسمونية (١)	٣٨٠ نيتوكريس (١)
الهايسيدىم (١)	٣٤٢ نيجر (١)
٢٧٥ هاشم (٢)	٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ نيخو (فرعون مصر) (١)
٣٩ هاشميون (٢)	٢٣٨ نيون (١)
٢٦٦ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ٢٧٩ هانيبال (١)	٣٥٧ ، ٣٥٣ ، ٣١٦ ، ٤٢٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦ التيرون (٢)
٤٢٩ هبل (١)	٦٩ نيسابور (٢)
٤٢٩ الهدى الصيادى - أبو (٢)	٦٨ نيسابور - جبال (١)
١٣٦ ، ٣٨ هرة (٢)	٢١٤ نيقوريوم (١)
٤٥. هرقل (١)	٢٥٦ نقولاوس الدمشقى (١)
٢٥ ، ١٣ - ١١٦ ، ٧ ، ٦ ، ٣ هرميس (١)	٣١٢
١٤١ هرمس (١)	٣٢٤
٤٤٥ الهرمل (١)	٤٠٣ ، ٣٩٧ مجمع (١)
٢٧٢ هرمياس (١)	٤١١ العقيدة
٣٦ هرمياسونى (١)	٢٢٤ ، ٢٠٥ نيقينا (ازنيق) (٢)
٢٧٠ البيت (١)	٢٧٨ ، ٢٥٩ نيكاتور (١)
٣٥٦ هسيود (١)	٣٩٣ نيكوميديا (١)
٤٧ هشام بن عبد الملك (٢)	١٠٨ ، ١٠٧ ، ٦١ ، ٣٢ التيل (١)
٦٨ ، ٦٤ اعتناؤه بسباق الخيول ؛ ٩٢	٣٢٩
١٢٢ ، ١٢٦ ، قصره شمال	٤٠٣ ، ٢٥٠ ، ١٨٦ ، ٨١ (٢)
١١٦ ، ١٥٠ - ١٤٨ ، ١٢٧ ، ١٢٣ ، أريحا	٢٦٤ ، ٢٥٥ ، ١٨٦ ، ٨١ (٢)
١٥٦ ، ١٠٥ هكسوس (١)	٢٦٨
١٠١ ، ٩٠ ، ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٢٥ ، ١٦١ - ١٦١ ، فن العمارة	١٠٥ ، ٧٥ ، ٧٢ ، ٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢١٧ ، ١٨١
١٦٧ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٧ ، ١٦٩	٤٠٨ ، ٢٥٦
٢٠٣ ، ١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٦٩	١٥٩ (٢)
	٩٠ ، ٣٥٦٥ نويرك (١)
	١٣٧ هاتور (الأمة مصرية) (١)
	- الاهاء -

صفحة	صفحة
الجواهر ٢٣٠ ، ٤١٢ ، ٤٣٤ ، ٢٠١ ، ١٣٦ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٢٠١ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٢٥٥ ، ٢١٨ ، ٣٤٨ ، ٣٢٤	الهلل الخصيب (١) ٦٤ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ١٨١ ، ٦٧ ، ١٧٤ ، ٩٥ ، ١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٥٣ ، ٢٤٠ ، ٤٤١
هندكوش - جبال (١) ٢٦٤	٢٠٥
الهندي الايراني - الفرع (١) ٢٤٠	٢٣٧
الهندية الاوربية - الشعوب (٢) ٣٠٣	هلل (١)
الهندية - الفيلة (١) ٢٩١ ، سائق ٢٩٢	الهنستي - العصر (١) ٩٠ ، ٢٧٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢
هنغاريا (١) ٤٤٤	الهنستي ، الهنستية (١) الثقافة ٢٥٦ ، الحضارة ، المدن
٣٠٥	٢٧٧ ؛ الملكة والثقافة والبقاء
٢٢٨	٢٧٨ ؛ المجتمع ؛ العالم
الهنغاريون (٢) ١٨٣ ، ١١٨ ، ٤	٣٠٠ ؛ الدول ؛ الشرق
الهند (١) ٢١٥ ، ١٣٣ ، ١٠٣ ، ٩٢	٣٠٦ ؛ مملكة ؛ ٣١٢
الهند الاوريون (١) ٦٦٢ ، ٥٥ ، ٢٨ ، ١٥٧	الهنستيون (١) ٢٩٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣١٥
٣٢٣ ، ٣١٣	الهيلينية (١) الحضارة ٢٧١ ، ٢٨٤ ، ٢٧١ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٧٤ ؛ ٣٧٥ ، ٢٧٥ ؛ ٢٧٦ ، ٢٧٩ ؛ انتشارها ٢٧٨ ؛ ٣٩٤ ، ٣١٧ ، ٣٠٢ ، ٢٩٤
الهنود - الايرانيون (١) ١٥٧ ، ١٦١	٤٢٠
هنوكة (١) ٢٦٨	١٨ ، ١٤ الحضارة
عيد	٣١٣
٣٥٢	الهيلينية الرومانية (١)
٣٥٢	الهيليني النبطي - الفن (٢)
هوشون ملك اسرائيل (١) ٢٣٥ ، ٢١٣	الهيلينية الوثنية (١)
٢٢٠	الهيلينيون (١)
هوفرع (١)	هليوبولس (١) ٢٢٧ ، اشتهر بها
٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٤ ، ١٨٥ (٢)	بازار في الناي ٣٢٣ ؛ ٣٤٣ ، ٣٧٠ ، ٣٤٥ - ٣٥١ ، ٣٧٩ ، ٣٧٣
٣٥٦ ، ١١١ ، ٩٦ ، ٩٦	؛ ٤٠١ ، ٣٨٩ ، ٣٧٩ ، ٤٢٩
٣٥٨	همدان (١)
هونوريوس (١) ٣٩٢ ، ٣٨٨	(٢)
هيبيو (١) ١١٠	١٨١
هيبيوس (١) ٣٥٠	هميلقار (١)
هيرابولس (١) ٣٥٥ ، ١٨٨ - ١٨٦	الهند (١) ٤٩١ ، ٩٩ ، ٥٥ ، ٣٥ ، ٤
، ٤٤٦ ، ٤٢٩ ، ٤١٣ ، ٣٧.	؛ ٢٥٨ ، ٢٤٠ ، ٢٠٦ ، ١٨٣
وانظر متنبج	، ٢٩٧ ، ٢٧ ، ٢٦٦
هيراكليس (١) ١٤٧	؛ ٣٠٣ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩
هيركانوس (١) ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٢٧٠	، منها
هيركانوس الثاني (١) ٣١١	
هيركولييس اي عضيق جبل طارق (١) ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٦	
٢٥٤ ، ١٢٤ ، ١١٣	
هيرودتس (هيرودوتس) (١) ٦٢ ، ٦٢	

صفحة	صفحة		
٧ (٢) وادي العاصي (١) ١٥٥ ، ٢٥٤ ٠ ٢٥٦ ، وانظر نهر العاصي وادي العربة (١) ٤١ ، ١٩٣ ، ٤٢٢ ٠ ٤٢٢	٣٥٦ ، ٢٤٥ ، ١١٥ ، ١٠٨ هيرودس انتيباس (١) ٢١٣ ، ٢١٢ ٠ ٣٢٤ ، ٢٠٩ هيرودس الكبير (١) ٣٤٢ ، ٣٣٩ ٠ ٣٤٢ ، ٣١١ هيرودس الملك (١) ٣١٢ ، ٣١١ ٠ ٤٢٢ ، ٣٧٦ ، ٣١٨ ، ٣١٤ هيروديه (١) ٣٩٦ الهيرودية - الاسرة (١) ٢٧٨ ٠ ٣٤٩ هيروغليفية (١) رموز ومصادر ١١٨ ٠ الكتابة ١٢١ ، ١٧٠ ؛ اللغة ١٦٨		
٦ (٢) وادي غزة (١) ١٦١ ٠ ١٤٩ وادي الفرات (١) حضارته وانظر الفرات ٤١٨ ٠ ٤١٨ وادي موسى (١) ١٥ ٠ ١٥ وادي النطوف (١) ١٢٨ ٠ ١٢٨ وادي نهر الكبير (١) ١٢٨ الكبير ٠ ١٣٧ ، ٨٨ ، ٥٤ وادي النيل (١) ٦٢ ٠ ٦٢ واسط (٢) ٠ ١٦٢ واشوكانى (١) ٠ ٢٤٦ ح وادا - حاكم لبنان (٢) ١١٥ ، ١١٤ ٠ ٢٩٣ واصل بن عطاء (٢) ١١٥ ، ١١٤ الوافي بالوفيات - كتاب (٢) ١١ ٠ ١١ الواقعة (٢) ٠ ١٩٩ الواواء (٢) ٠ ٩٩ وثائق نوزي (١) ٤٢٦ ٠ ٩٣ الوجه (١) ٠ ٩٣ وضاح اليمن (٢) ٠ ٢٨٤ الوفاء - ابو - مبشر بن فانك (٢) ٠ ٢٩٤ وفيات الاعيان - كتاب (٢) ٢٩٣ ، ٢٩٤ ٠ ٢٢٤ ولاخيا (٢) ٠ ٢١٤ الولايات المتحدة (١) ٠ ٢٤٥ ، ٢٥٢ الولاية العربية (١) ٤٠٣ ، ٣١٩ ٠ ١٣٣ ، ٦٤ الوليد (٢) ٠ ٥٠ ، ٥٤ الوليد بن عبد الملك (٢) ٤٩ ح ٠ ، ٦٦ ٠ ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٠ ؛ حملاته على البيزنطيين ٠ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩٠ ، ٨٤ ٠ ٨٣ عدد الجيش في زمانه ٠ ، ٩٦ ٠ ١٢١ ، ١٠٩ ، ١٠٢ ، ٩٩	٢٨٥ (١) ٠ ١١١ ٠ ٢١٤ ٠ ٢٠٦ ، ٢٠٥ ٠ ٢٢٢ ٠ ١٢٩ (٢) ٠ ١٣٢ ٠ ٢٤٣ ، ٢٣٧ ح ٠ ، ٢٤٢ ٠ ٢٥٢ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ٠ ٤٠٤ ٠ ٣ ح ٠ ٢٨٨ ٠ ١٠٢	الهيروماكس مضيق (١) ٠ ٢٨٥ هيسبيود (١) ٠ ٢١٤ هيكل اورشليم (١) ٠ ٢٠٦ ، ٢٠٥ هيكل سليمان (١) ٢٢٢ ٠ ١٢٩ (٢) ٠ ١٣٢ ٠ ٢٤٣ ، ٢٣٧ (٢) ٢٣٧ ح ٠ ، ٢٤٢ ٠ ٢٥٢ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ٠ ٤٠٤ ٠ ٣ ح ٠ ٢٨٨ ٠ ١٠٢	الوايق (٢) ٠ ١٦٠ واحة سيوه (١) ٠ ٢٥٥ وادي الاردن (١) ٢٠٤ ، ٢٠٣ ٠ ٣٢٢ ، ٢١٩ ، ٢١٧ وادي الاردن وشرقي الاردن ٠ ٣٤٤ وادي انطلياس (١) ٠ ٧٤ وادي بكة (٢) ٠ ٣٣٢ ، ٢١٩ ، ٢١٧ وادي التيم (٢) ٣٤٤ ٠ ٣٣٢ ، ٢١٩ ، ٢١٧ وادي الدجلة (١) ٨٨ ٠ ٤٢٢ وادي السرحان (١)

- الواو -

صفحة	صفحة
٢١٥ ، ٢٠٨ يريعام (١) يريعام الثاني (١) ، ١٨٠ ، ٢١١ ، ٢٣٣ ، ٢١١ يرخي بول (١) ٤٤٥ ١١ ح يرموت (٢) ٢٨٥ ، ١٧٧٦٥٠ البرموك (١) ٢٦ ، ١٤ ، ١١ (٢) يريم لم (١) يزبك - آل ، يزيكية (٢) ، ٣٤٤ ، ٣٣٥ يزيد بن أبي سفيان (٢) ، ١٢ ، ٧٦٦ ، ٢٣ يزيد بن عبد الملك (٢) ، ٥٤ ، ٦٤ ح . ٩١ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٢٥ يزيد بن معاوية (٢) ، ٤١ ، ٢٣ ، تعيينه وليا للழم (٤٠٤٢) ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٧ عهده يحصل بالفنون الاهلية (٤) ٥٥ - ٩٤ ، ٩٢ ، ٩٠ ، ٥٨ ١٢١ ، ١١٦ ، ١١٠ ، ١٠٩ يزيد بن الوليد (٢) ، ٨٩ ، ٦٤ ح ، ١٤٨ ١٥٠	١٢٢ ، بناوه قصر عمرة ١٢٤ ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٢٤ ، ٦٤ ح . الوليد بن يزيد (٢) ، ٦٨ ، ٩٣ ، ٩١ ؛ اغياله ، ١٠٠ ، ١١١ ، انشاؤه اول مؤسسة صحبة في الاسلام (٤) ، ١١٣ ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٢٥ وليم الصوري (١) ٦٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢٤٦ ، ١٤١ (٢) ٢٦٣ ، ٢٥٧ وليم الطربالسي (٢) ٢٤٨ وليم القيصر (٢) ٢٨٤ وليم كاستون (٢) ١٩٦ ، ١٤٥ ٤٣٩ ، ٤٣٨ ١٠٧ وهدب اللات (١) وهدب بن منه (٢) الوهابية (٢) الوهابيون (٢) وولي (١)
١٤١ يسنتيانوس الثاني (٢) يسوع - انظر المسيح اليسوعيون (٢) ٢٣٠ ١٩٤ ، ١٩٠ ، ٨٩ يشوع (١) ٤١٣ اليعاقبة (١) ١٧١ ، ١٤٠ - ١٣٧ ، ٤٠ (٢) يعقوب (١) ، ١٧٧ ، ٨١ ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٧٧ ٤٤٨ ، ٤١٣ يعقوب البرادعي (١) (٢) ١٣٨ ١٦٠ يعقوب هار (١) ١٢٨ اليعقوبي (٢) ٤١٢ اليعقوبية - الكنيسة (١) ١٣٨ . (٢) ٢٤٩ يلدرز - قصر (٢) ٢٥٩ ، ٣٥٨ : ٣٥٣ يبليلخوس (١) ، ٧٤ ١٦٦ ، ٧٤ ، مملكة اليمن (١) ، ٣٠٠ ، ٢٩٨ : ٢٩٧ ٤٤٦	- الياء - ياغي سيان (٢) يافا (١) ، ١٤٢ ، ٣٩ ، ٢٠٦ ، ١٥٩ ، ٣٧٥ ، ٣٤٩ ، ٣٢٦ ، ٢١٦ ٢٨٩ ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٢٩ ، ١٥٥ (٢) ٢٧٨ ياقوت (١) الياقوصة (٢) ياكين ايل (١) ياهو بن عمري (١) ، ١٥١ ، ١٨٠ ٢١١ بسنة (١) اليبوسيون (١) ٢٠٤ ، ١٥٧ يتيمة الدهر - كتاب (٢) ١٩٧ يعيى بن عدي (٢) ١٧٧ يعيى بن مامويه (٢) ٤٤٦

صفحة	صفحة
٢١٣ ، مملكة ٢١٥ - ٢١٦	٩١ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٥٩ ، ١٧ (٢)
٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٢٢	، ١٧٢ ، ١٦٦ ، ١٥٣ ، ٩٨
٢٦٨ يهودا بن ماتطيس (١)	، ٢٣٦ ، ٢١٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٩
يهوه (١) ١٩٤ ، ١٩٣ ، ٤٣	٢٤٢
، ٢١٤ ، ٢١١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٤	اليمينية (٢) ٢١٩ ، ١٦٥ ، ١٥٠ ، ٥٨ (٢)
، ٢٢٩ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢١٧	٣٤٤ ، ٣٣٥ ، ٣٢٤
- ٤٣٠ ، ٢٦٧ ، ٢٣٥	٣٢٢ ، ٨٠
٢١٩ ، ٢١٨ يهويا قيم (١)	يتبع الحكمة - كتاب (٢) ١١٦
٢٤٤ ، ٢١٩ يهوياقين (١)	يتن عم (١) ٧٤
١٣٣ يوحنا (٢)	يهودوليم (١) ٧٢
١٤٤ ، ١٧ ، ١٠ ، ١٧٣ يوحنا الشمشقي (٢)	يهواجاز (١) ١٨٠
يوحنا زميس (ابن الشمشيق) (٢)	اليهود (١) ١٣٠ ، ٢٨ ، ٣
١٩٥	، ملامحهم ١٦٥
- ٣٩٤ ، ٣٧١ يوحنا فم الذهب (١) ٤١١ - ٤١٧	من النبي ٢٤٢ ؛ ٢٤٣ - ٢٤٥
٤١٤	، ٢٦٨ ؛ ٢٦٧ ؛ ٢٤٩
١٤٠ يوحنا كريستم (٢)	؛ ٣٠٨ ، ٣٠٢ ، ٢٩٦ ، ٢٧٠
١٤١ ، ١٤٠ يوحنا مارون (٢)	، ٢٦٤ ، ٢١٧ ، ٢٤٣
٤٢٢ يوحنا المعدان (١)	، ٣٧٧ - ٣٧٥ ، ٣٦٧
٢٠٢ ، ٢٦٩ يوحنا هيركانيوس (١)	، ٤٠٥ ، ٤٠٤
٢٩٦ يودوكسيا (١)	، ١٠١ - ١٠٠ ، ٩٨ ، ٥ (٢)
٧٨ يوديس الاكتيني (٢)	، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٤٧ ، ١٢٢
٧٩ يوديس - الدوف (٢)	، ٢٦١ ، ٢٥٨ ، ٢٢١ ، ٢٠٣
٠٦٢ ح. بورغان تبه (١)	٣١٥ ، ٢١٣ ، ٢٧٢
٢٢٢ بورك (١)	اليهودي (١) ٢٩٢ ، الجيش ٣٥٣
١٢٣ يوسبوس (١)	الكافن ١٠٢
٢٩١ ، ٣٨١ ، ٤ يوستينيان (١) ٤ - ٤١٣ ، ٤٠٥ ، ٣٩٨ ، ٢١٧	اليهودية (١) سورية مهدها ٣٥٤
٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤١ ، ٤١٥	، ٢٩٧ ، ٤٠ ، ٣٩
١٣١ ، ٧. (٢)	، ٤٥٢ ، ٤٤٤ ، ٤٠٥ ، ٣١٤
٥٤ يوستينيان الثاني (٢)	، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤
٢٧٢ ، ٢٤٩ يوستين الشهيد (١) ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٣	الديانة ٢١٨
٩٩ يوسف - ابو (٢)	٢٨١ ؛ عبادة ٣٠٠ ؛ الدولة ٢١٨
يوسف بن الحافظ (الفاطمي) (٢)	، ٣٠٩ ، ٢٩٤
٢١٣ ح.	٣١٣ ، ٣١٢ ، ١٥٦ ؛ بلاد ٣٤٩
٢٢٩ ، ٣٢٧ يوسف سيفا (٢)	، ٣١٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥
٣٥٥ ، ٣٤٦ يوسف كوم (٢)	؛ مقاطعة ٢٧٣ ؛ الملكة ٢٩٥
	؛ الطائفة ٢٤٢
	٢١٤
	يهودا - اخو المسيح (١) ٣٦٧
	يهودا (١) ١٧١ ، ١٨١ ، ١٩٥ ، ١٩٧
	؛ مملكة قبيلة ٢١١ ، ٢٠٨

صفحة	صفحة
، ١٢٢ ، ١١٣ ، ١٠٤ ، ٨٣ (٢) ، ٢٢٥ ، ١٧٤ ، ١٣٩ ، ١٢٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٧٣	يوسف بن ملحم (٢) ٢٢٥ - ٢٢٧ ٢٤١ ، ٣٤٠. يوسف بن يعقوب (١) ١٦٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ يوسيبيوس (١) ٣٩٢ ، ٣٦٨ ، ٣٥٣ ٣٩٩ ، ٣٩٧
اليوناني ، اليونانية (١) اللغة والفلسفة والأفكار ، الفن ٩٦ ؛ اللغة ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١٠٢ ، ١٨٣ ، ١٤٨ ، ١٢٥ ، ١٢٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨١ ، ٢٦٧ ، ٢٥٩ ، ٣١٣ ؛ ٢٨٩ ، ٣٥٣ ، ٣٢٢ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣٩٩ ، ٣٧١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٢ ، ٤٣٨ ، ٤٢٧ ، ٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٤٣٩ ؛ ٤٤٣ ، ٤٤٣ ، الحروف ١١٩ ؛ ٢٨١ ؛ المستعمرات ١٥٦ الخزف ٢٤٩ ، المدن ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ ، ٢٧٥ ، ٣١٨ ، ٢٨١ ، ٢٧٨ اللباس ، الجنائز يوم ٢٦٧ المؤثرات الالهة ٢٧٨ ؛ الكتابات ، ٢٧٩ ؛ الحضارة ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٣ ؛ الثقافة ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣١٨ ؛ الدول ٢٥٣ ؛ المعابد ٢٥٦ الصيادة ٣٠٠	يوسيفوس (١) ٢٦٩ ، ٢٤٥ ، ١٥٣ ، ٣٣٤ ، ٣٢٢ ، ٣١٢ ، ٣٠٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ يوشيا (١) ٢١٩ ، ٢١٨ يوصافات الهندي (٢) ١١٧ يوكراتس (١) ٢٨٦ ح. يوليان (١) ٣٩٤ ، ٣٨٨ يوليانس (١) ٢٣٧ يوليوب افيتوس (١) ٣٨٠ يوليوب باسياتس (١) ٣٨٠ يوليوب قيصر (١) ٣١١ ، ٣١٠ (٥) ٤٢٠ ، ٣٣٤ يوم الجمل (٢) ٣١ يوناثان (١) ٢٢٢ يوناثان - الكاهن الاعظم (١) ٢٩٦ اليونستان (١) ٦٩ ، ٦٤ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٢ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ١١٧ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٠. ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٤ ، ١١٨ ، ١٨٧ ، ١٨٥ ، ١٥٦ ، ١٣٠ ، ٢٣١ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٨٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٣ ، ٢٤٦ ، ٢٢٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٠ ، ٢٧٥ ، ٢٦٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٠. ، ٣١٨ ؛ مورد الخزف ٣١٠ ، ٣٦٤ - ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٤٥٥ ، ٣٩٨ - ٣٩٣ ؛ ٣٨٩ ، ٣٨٧ ٤٢٥
اليونانية - اللغة (٢) ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٧٧ ؛ الفلسفة ٢٠٠ ؛ الكنيسة ، ١١٧ ، ١١٦	اليونانية الرومانية (١) المستعمرات ٣٣٢ اليونانية اللاتينية (الحضارة) ٢٨٦
يونس بن فخر الدين (٢) ٣٢٩ يونس بن فرقماز (٢) ٣٣٣ ح	

